

مَعَالِجُ التَّفَكُّرِ

وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

تَفْسِيرُ تَدْبِيرِيٍّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ
وَفُقِ مَنْهَجِ كِتَابِ «قَوَاعِدِ التَّدَبُّرِ الْأَمْثَلِ» لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

المجلد التاسع

تفسير السور التالية :

النمل / ٤٨ والقصاص / ٤٩ والإسراء / ٥٠

عبد الرحمن حسن جنيحة الميراني

دار الفاء
دمشق



مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ
وَرَقَائِقُ التَّيَدُّرِ

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

حقوق الطبع محفوظة للؤلف

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عبر طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَةُ النَّمْلِ

٢٧ مَصْحَف ٤٨ نُزُول
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا

(١)

نصّ السّورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ
فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ
حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَابِئُكُمْ
مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَايَةٍكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَاءَهَا نُورٌ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْسُوحٌ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى عَصَاهُ
فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْسُوحٌ لَا نَخَفُ

١ - سكت أبو جعفر على «طا» و«سين» سكتة لطيفة من غير تنفس.

وقراها باقي القراءة العشرة بالوصل.

• وقرأ ابن كثير: [الْقُرْآنِ] دون همزة، وكذلك حمزة في الوقف فقط.

وقراها باقي القراءة العشرة: «الْقُرْآنِ» بالهمزة وألف بعدها.

٧ - قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّي آنَسْتُ] بفتح ياء

المتكلم.

وقراها باقي القراءة العشرة بالإسكان.

• وقرأ هؤلاء ومعهم ابنُ عامر: [بِشِهَابٍ قَبَسٍ] على الإضافة.

وقراها باقي القراءة العشرة بِتَوْنِ اللَّفْظَيْنِ.

إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا
 بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرِجْ
 بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا
 قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ
 مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَّدُوا بِهَا وَأَسْتَقْنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا
 وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
 وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا
 مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ
 جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا
 عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَاءَتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا
 يَخْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَلَبَسَ ضَاحِكًا
 مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ

١٠ - وقف يعقوب بهاء السكت على لفظ ﴿لَدَيَّ﴾ فتكون «لَدَيْه».

١٨ - وقف الكسائي، ويعقوب: بإثبات الباء في: [عَلَىٰ وَادِي]، ولم يشبها باقي القراء العشرة، فقالوا: «عَلَىٰ وَادٍ».

• وقرأ رؤيس: [لَا يَخْطَمَنَّكُمْ] بثون التوكيد الخفيفة.

وقرأها باقي القراء العشرة بنون التوكيد الثقيلة.

وهما وجهان عربيان متكافئان. ولعل الغرض من الخفيفة تسهيل النطق على بعض العرب.

١٩ - قرأ ورش، والبرقي: «أَوْزِعْنِي أَنْ» بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان. ووقف يعقوب بها السكت في [عَلَيَّ] فتكون «عَلَيْه».

وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنَا أَعْمَلُ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
 عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَقَدَّ الْأَطْيَرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى
 الْهَيْدُءَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِسِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا
 شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ
 غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ
 مِّنْ لَّدُنِّي يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَلِيكُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ
 شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشُ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ
 لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
 السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ

٢٠ - • قرأ ابن كثير، وهشام، وعاصم، والكسائي: ﴿مَا لِيَ لَا﴾ بفتح ياء المتكلم.
 وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٢١ - • قرأ ابن كثير: [أُولَئَاتِيْنِي] بإثبات نون الوقاية بعد نون التوكيد الثقيلة.
 وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أُولَئَاتِيْنِي﴾ بحذف إحدى النونات الثلاث، وهما
 وجهان عريان جائزان.

٢٢ - • قرأ عاصم، ورزح: ﴿فَمَكَثَ﴾ بفتح الكاف.
 وقرأها باقي القراء العشرة: [فَمَكَثَ] بضم الكاف.
 وهما وجهان عريان في نطق الكلمة.
 • قرأ أبو عمرو، والبيزي: [مِنْ سَبِيلًا] بالهمزة مع الفتح دون تنوين للمنع من
 الصرف.

وقرأها قبل بإسكان الهمزة [مِنْ سَبِيلًا].
 وقرأها هشام وحمزة في الوقف: [مِنْ سَبِيلًا] بآلف مدية، ولهما التسهيل
 بالرَّوْم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [مِنْ سَبِيلًا] بالهمزة والجر بالكسرة والتنوين. وهي
 وجوه عربية جائزة.

٢٥ - • قرأ الكسائي، وأبو جعفر، ورؤيس: [أَلَا يَسْجُدُوا] دون تشديد اللام. =

الْخَبَاءِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ
 سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي
 هَذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ
 يَتَأَيَّمُوا الْمَلَأُوا إِيَّيَ الْفِي إِلَى كِتَابِ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُونِي مُسْلِمِينَ
 ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَتَأَيَّمُوا الْمَلَأُوا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا
 حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ
 إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً

- =
- وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بتشديد اللام.
 • ووقف هشام، وحمزة، على الباء الساكنة في [الْخَبَاءِ] بحذف الهمزة.
 • وقرأ حفص، والكسائي بقاء المضارعة في ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.
 وقرأها باقي القراء العشرة بقاء المضارعة: [مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ].
 وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.
 ٢٨ - • في هاء الضمير من: [قَالِقَهُ] وجوه من القراءات.
 فقرأ بكسر الهاء دون صلة: قالون، ويعقوب، وهشام في أحد الوجهين له.
 وقرأها بالإسكان: أبو عمرو، وعاصم وحمزة، وأبو جعفر ﴿قَالِقَهُ﴾.
 وقرأها باقي القراء العشرة بكسر الهاء مع الصلة، وهو الوجه الآخر لهشام.
 ٢٨ - • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهِمْ] بضم الهاء. وقرأها باقي القراء العشرة بكسر
 الهاء، وهما وجهان عربيان في النطق.
 ٢٩ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِنِّي أَلْفِي] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء
 العشرة بالإسكان.
 ٣٢ - • قرأ يعقوب: [تَشْهَدُونِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
 وقرأها باقي القراء العشرة ﴿تَشْهَدُونَ﴾ بحذف ياء المتكلم.

أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي
 مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ
 سُلَيْمَنَ قَالَ أَتِمِدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَيْتُكُمْ بَلْ
 أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَنْزِعْ إِلَيْهِم فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ
 لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَتَأَتَّىهَا الْمَلَأُوا
 أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيْتُ مَنِ
 الْجِنِّ أَنَا ءَايَتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ
 ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايَتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ
 يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي

- ٣٥ - • وقف يعقوب بهاء السكت على ﴿بِمَ﴾ فتكون «بِئمة» .
 وللبرزي وجهان . وباقي القراء العشرة لا يقفون بهاء السكت ، وهي وجوه
 جائزة في اللسان العربي .
- ٣٦ - • قرأ ابن كثير : [أَتِمِدُونَنِي] وقرأها كذلك في الوصل فقط نافع ، وأبو عمرو ،
 وأبو جعفر .
 وقرأها حمزة ، ويعقوب [أَتِمِدُونَنِي] .
 وقرأها باقي القراء العشرة : ﴿أَتِمِدُونَنِي﴾ ، وهي وجوه عربية جائزة .
- أثبت ياء المتكلم في [آتاني الله] مفتوحة عند الوصل ، نافع ، وأبو عمرو ،
 وحفص وأبو جعفر ، ورويس .
 أما عند الوقف ، فلقالون ، وأبي عمرو ، وحفص وجهان : إثباتها ساكنة ،
 وحذفها .
 ولورش ، وأبي جعفر : حذفها . ولرويس : إثباتها .
 وقرأ رزح بحذفها وصلأ ، وإثباتها وقفأ .
- ٣٩ - • قرأ نافع ، وأبو جعفر : [أَنَا ءَاتِيكَ] بإثبات ألف «أنا» في الوصل فقط .
 وقرأها باقي القراء العشرة بحذف هذه الألف في الحالين .

لَيْبَلُونِي ۖ أَشْكُرُ ۚ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ
 كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤١﴾ قَالَ نَكُرُوا هَآءَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ
 أَنْتَدِي أَمْرَ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ
 أَهَٰذَا عَرْشُكَ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۖ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
 ﴿٤٣﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ
 كَافِرِينَ ﴿٤٤﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً
 وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ۖ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ
 رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ۖ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
 فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
 بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
 ﴿٤٧﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَيَمَن مَّعَكَ ۖ قَالَ طَٰئِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ۖ بَلْ
 أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَجَاعَةٌ رَّهْطٌ يُفْسِدُونَ

٤٠ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [لَيْبَلُونِي ۖ أَشْكُرُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٤٤ - • قرأ قُتَيْبٌ: [سَاقِهَا] بهمزة ساكنة بعد السين.

وقرأها باقي القراء العشرة ﴿سَاقِهَا﴾ بالفاء مدية. وهما لغتان عربيّتان.

٤٥ - • قرأ أبو عمرو، وعاصم وحمزة، ويعقوب: ﴿أَنِ اعْبُدُوا﴾ بكسر النون في الوصل.

وقرأها باقي القراء العشرة بضم النون في الوصل، مراعاة لضمّ الباء في «اعْبُدُوا».

فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ
وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا
دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبِتِلْكَ يُؤْتِيهِمْ خَاوِيَةً بِمَا
ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنبِئْنَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا فِي شُكٍّ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلَحِشَّةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُم
لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِتَهْلُوكَ

٤٩ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [لَتُبَيِّتَنَّهُ - لَتَقُولَنَّ] بقاء المضارعة في الفعلين وضمير المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: بنون المضارعة في الفعلين: ﴿لَتُبَيِّتَنَّهُ - لَتَقُولَنَّ﴾ وضمير المتكلمين.

وبين القراءتين تكاملاً في بيان الواقع الذي جرى.

• قرأ شعبة: [مَهْلِكًا].

وقرأ حفص: ﴿مَهْلِكًا﴾.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مَهْلِكًا] وهي وجوه عربية جائزة.

٥١ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر [إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ] بكسر همزة «إِنَّ». وقرأها باقي القراء العشرة بالفتح.

وهما وجهان عربيان جائزان هنا باعتبارين.

٥٢ - • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿يُؤْتِيَهُمْ﴾ بضم الباء.

وقرأها باقي القراء العشرة [يُؤْتِيَهُمْ] بكسر الباء. وهما لغتان عربيتان.

﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
 أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٥٦﴾
 فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٥٧﴾
 وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
 وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؕ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ
 ﴿٥٩﴾ أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ
 تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَنْ
 جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ
 وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

٥٧ - • قرأ شعبة: [قَدَرْنَاهَا] دون تشديد الدال.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿قَدَرْنَاهَا﴾ بتشديد الدال.

وهما لغتان عربيتان متكافئتان، يقال لغة: قَدَرَ الأمرُ وَقَدَّرَهُ، أي: حدّد مقاديره ودبره قبل إيجاده.

٥٨ - • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهِمْ] بضم الهاء. وقرأها باقي القراء العشرة بكسر الهاء، وهما لغتان عربيتان.

٥٩ - • للقراء العشرة في [أَلَلَهُ] وجهان: إبدالُ همزة الوصل ألفاً مع المدّ المشيع. وتسهيّلها.

٥٩ - • قرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء.

وقراها باقي القراء العشرة: [تُشْرِكُونَ] بالياء.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءَ لِمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا

- ٦٢ - • قرأ أبو عمرو، وهشام، ورؤح: [يَذَكَّرُونَ].
 وقرأها حفص، وحزمة، والكسائي، وخلف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾.
 وقرأها الباقون: [تَذَكَّرُونَ].
- ٦٣ - • قرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي، وخلف: [الرِّيْحَ] بالإنفراد.
 وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿الرِّيْحَ﴾ بالجمع.
- ٦٣ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [نُشْرًا].
 وقرأ ابن عامر: [نُشْرًا]. وقرأ عاصم: ﴿بُشْرًا﴾. وقرأ الباقون: [نُشْرًا].
 وقد سبق توجيه هذه القراءات في نظيراتها في الآية (٤٨) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).
- ٦٦ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [بَلْ أَدْرَكَ].
 وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿بَلِ أَدْرَكَ﴾.
- ٦٧ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِذَا كُنَّا تُرَابًا] - [أَبْنَاءَ] بحذف همزة الاستفهام قبل «إذا».
 وقرأها ابن عامر، الكسائي: [أَيْنَذَا كُنَّا تُرَابًا] - [أَيْنَذَا].
 وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَيْنَذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ - [أَيْنَذَا].
 والمعنى على الاستفهام في كل هذه القراءات.

هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾
 وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ
 يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ
 عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا
 تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى
 بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَهْدَى
 وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ
 ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ

٧٠ - • قرأ ابن كثير: [ضَيْقًا].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿ضَيْقٍ﴾.

الضَيْقُ، كَالضَيْقِ: بمعنى الكرب أو الألم النفسي الضاغط على النفس،
 وبمعنى الفقر والشدة.

٧٦ - • قرأ ابن كثير [الْقُرْآنَ]. وكذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القراء
 العشرة: ﴿الْقُرْآنَ﴾.

٨٠ - • قرأ ابن كثير: [وَلَا يُسْمِعُ الصُّمَّ].

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾.

ومؤدى القراءتين واحد، وبينهما تَفَنُّنٌ في التعبير عن المراد.

﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ
يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ
عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَخَشُّرُ مِنْ كُلِّ شَأْنٍ فَوَجَا
مَنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ
أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا ۖ عَلِمَّا أَمْ آذًا ۚ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا
أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ
فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ
صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

٨١ - • قرأ حمزة: [تَهْدِي الْعُمَى].

وقراها باقي القراء العشرة: «بِهَادِي الْعُمَى».

ومؤدّي القراءتين واحد، وبينهما تَفَنُّنٌ في التعبير عن المراد.

٨٢ - • قرأ نافع، وأبن كثير، وأبو عمرو، وأبن عامر، وأبو جعفر: [إِنَّ النَّاسَ] بكسر همزة «إِنَّ» على معنى: قائله إِنَّ النَّاسَ.

وقراها باقي القراء العشرة بفتح همزة «أَنَّ» على معنى: تعلّمهم مينةً أَنَّ النَّاسَ.

٨٧ - • قرأ حفص، وحمزة، وخلف: [أَتَوْهُ] على أنه فعل ماض.

وقراها باقي القراء العشرة: [أَتَوْهُ] على أنه جمع: «آتٍ».

٨٨ - • قرأ أبن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: [تَحْسَبُهَا] بفتح السين.

وقراها باقي القراء العشرة: [تَحْسَبُهَا] بكسر السين.

والقراءتان لغتان عربيّتان.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ
 (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ
 تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ
 رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ
 أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمِنْ أَهْتَدَى
 فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ
 (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ
 عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

= • قرأ ابن كثير، وهشام، وأبو عمرو، ويعقوب: [يَفْعَلُونَ] بالياء.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

٨٩ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ] بفتح ميم يوم على البناء.

وقراها ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب: [مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ] بجرٍ
 ميم يوم بالكسرة.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بتنوين «فزع» وينصب «يوم على
 الظرفية».

وهذه القراءات وجوه عربية جائزة، ومؤداها واحد.

٩٣ - • قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

وقراها باقي القراء العشرة: [يَعْمَلُونَ].

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

(٢)

موضوع سورة (النمل)

موضوع هذه السورة يسير على ثلاثة خطوط كُبرى، تتفرّع عنها فروع مُشتقة من عناصرها:

الخط الأول: متابعة معالجة كُبراء مُشركي مكّة وما حولها، ويُلحقُ بهم أتباعهم، وفق الطّور الذي كانوا فيه إبان نُزول سورة (النمل) كُفراً وتصرفات جدليّة وكيدية.

مع إضافات بيانات دينيّة ترهيبيّة، وإقناعات جدليّة بشأن توحيد الرّبوبيّة والإلهيّة لله عزّ وجلّ، وإقناعات تتعلّق بالإيمان بالآخرة، أعظم أركان الإيمان بعد الإيمان بالله وبصفاته.

ومن عناصر المتابعة تأكيد أنّ القرآن تنزيلٌ من حكيم عليم، أي: فما في القرآن من حكمة وعلم حقّ شاهدٌ على أنّه تنزيلٌ من عند الله جلّ جلاله وسمّت حكمته، وأحاطَ علمه بكلّ شيء.

الخط الثاني: متابعة تربيّة الرسول محمّد ﷺ بحسب الحال التي كان عليها إبان نُزول السورة.

ومنها أن يصرف عن نفسه بقايا حُزنه من أجل الذين يَحْرُصُ على إيمانهم من قومه، ولا سيّما عشيرته الأقربون لإنقاذهم من عذاب الله، وهم الذين قال الله له بشأنهم في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) النازلة قبل نزول سورة (النمل):

﴿لَمَّا كَ بَحَجَّ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

واقترنت بهذه المتابعات التربويّة تكليفات له تتعلّق بمسيرته الدّعويّة.

الخط الثالث: تثبيت المؤمنين على إيمانهم والانتفاع بالقرآن الذي

هو هُدًى وبُشْرَى وَرَحْمَةٌ لَهُمْ، وعلى الالتزام بإقامة الصَّلَاة وإيتاء الزكاة، ضَمْنُ حُدُودِ التكاليف المرحليَّة، الَّتِي أَبَانَهَا الرَّسُولُ لَهُمْ، حَتَّى نُزُولِ السُّورَةِ.

واقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ التَّربُويَّةُ لِلرَّسُولِ، وَالْحِكْمَةُ الْعِلَاجِيَّةُ لِلْكَافِرِينَ، عَرَضَ لِقَطَاطٍ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَلِقَطَاطٍ مِنْ قِصَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ«بَلْقِيسَ» مَلِكَةَ «سَبَأَ» فِي عَهْدِهِ، وَلِقَطَاطٍ مِنْ قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ ثَمُودَ، وَلِقَطَاطٍ مِنْ قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ، رُوِيَ فِيهَا حَالُ الرَّسُولِ ﷺ، إِبَّانَ نُزُولِ السُّورَةِ، وَحَالُ الْكَافِرِينَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ، وَبَيْنَ هَذِهِ اللَّقَطَاطِ وَبَيْنَ مَا جَاءَ فِي سَائِرِ الْقُرْآنِ بِشَأْنِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ تَكَامُلٌ يُدْرِكُهُ الْمَتَدَبِّرُ لَدَى جَمْعِهَا، وَتَدَبُّرُهَا تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا.

وَاقْتَضَتْ مُعَالَجَةُ كِبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ، تَعْلِيمَ الرَّسُولِ ﷺ مُنَاطَرَةَ جَدَلِيَّةٍ حَوْلَ قَضِيَّتَيْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَتَعْلِيمَهُ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَى أَسْئَلَتِهِمْ، الَّتِي يَطْلُبُونَ فِيهَا تَحْدِيدَ الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ تَحْقِيقُ مَا أُنْذَرَهُمْ بِهِ مِنْ نُزُولِ عَذَابِ رَبِّهِمْ بِهِمْ.

وَاقْتَضَتْ تَرْبِيَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، إِعْلَامَهُ بِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ مُجَاهَدَتِهِ لِإِسْمَاعِ الْمَوْتَى، أَوْ إِسْمَاعِ الصُّمِّ إِذَا وَلَّوْا مُذْبِرِينَ، أَوْ هِدَايَةَ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَلَا يَهْتَدُونَ، وَتَضْيَعُ جُهُودُهُ فِيهِمْ سُدىً، وَالْمُرَادُ: لَا فَائِدَةَ مِنْ مُجَاهَدَتِكَ لِتَحْوِيلِ الْكَفَرَةِ الَّذِينَ تَحْزَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ، عَنْ كُفْرِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ، بَعْدَ أَنْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ إِصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ.

وَاقْتَضَتْ مُعَالَجَةُ الْمُشْرِكِينَ عَرَضَ بَيِّنَاتٍ تَتَعَلَّقُ بِأَحْدَاثٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ، تَحْدُثُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَحْدَاثٍ أُخْرَى تَحْدُثُ عِنْدَ الْقِيَامَةِ وَبَعْدَهَا، مُمْتَزِجَةً بِالتَّنْبِيهِ عَلَى ظَوَاهِرَ كَوْنِيَّةٍ دَالَّةٍ عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ،

الَّذِي أَنْقَرَ كُلَّ شَيْءٍ صَنعاً، وَيَلْزَمُ عَقْلاً عَنْ أَحَدِيَّتِهِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ أَحَدِيَّتُهُ فِي
الْإِلَهِيَّةِ.

ومن المستقبلات الآتيات ما يلي:

١ - إخراج الدَّابَّةِ الَّتِي تَكَلِّمُ النَّاسَ، وهذا من أَشْرَاطِ السَّاعَةِ،
كَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَشْرِقِهَا.

٢ - النفخ في الصُّورِ نَفْخاً مُفْزِعاً لِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

٣ - أَنْ مَنْ جَاءَ يَوْمَ الدِّينِ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا. وَأَنْ مَنْ جَاءَ
بِالسَّيِّئَةِ الْكُبْرَى مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي النَّارِ.

وَأُنْهِيتِ السُّورَةُ بِتَوْصِيَةٍ مُوجَّهَةٍ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، وهذه
الوصية تتضمن ما يَقُولُهُ لِمَنْ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِمُ الْمَعَالِجَاتُ السَّابِقَاتُ، عَنْ
نَفْسِهِ، وَعَنْ وَظِيفَتِهِ الدَّعْوِيَّةِ، وَعَنْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُريهِمْ آيَاتِهِ
فَيَعْرِفُونَهَا، وَخُتِمَتْ هذه الوصية بِإِنذَارِ رَبَّانِيٍّ لِلْمَعَالِجِينَ الْمَعَانِدِينَ، عَنْ
طَرِيقِ الْكِتَابَةِ، بِذِكْرِ أَنَّ اللَّهَ الرَّبَّ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، أَيْ: وَلَكِنْ
يُْمَهِّلُهُمْ حَتَّى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ قَطَرَاتِ مَعَالِجَاتِهِمْ، وَحِينَمَا تَقْتَضِي حُكْمُهُ اللَّهُ
تَغْذِيَهُمْ وَإِهْلَاكَهُمْ، يُنْزِلُ بِهِمْ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِالْعَدْلِ.



(٣)

درس سورة (النمل)

ظهر لي بَعْدَ تَأْمُلٍ وَعِدَّةٍ مُرَاجَعَاتٍ أَنَّ هذه السُّورَةَ يَحْسُنُ تَفْصِيلُهَا
إِلَى سَبْعَةِ دُرُوسٍ.

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ: (الآيات من ١ - ٦).

ويتضمن هذا الدرس بَيَاناً عَنِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ،

الَّذِينَ مِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِمَوَاطِبَةٍ، وَيُؤْتُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ بِمُتَابَعَةٍ لِمَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُمْ، وَيُجَدِّدُونَ يَقِينَهُمْ بِالْآخِرَةِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ أَوْ ذِكْرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ رَغْبَةً فِي ثَوَابِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ مَعَ كُلِّ أَمْرٍ أَوْ عَمَلٍ يَتْرَكُونَهُ خَوْفًا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ.

أَمَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، فَهُمْ يَمَارِسُونَ أَعْمَالَهُمْ الْمَزِينَةَ لَهُمْ عَلَى عَمَلِهِمْ فِي بَصَائِرِهِمْ، وَلَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ.

وختتم الله عز وجل هذا الدرس بخطابٍ موجّهٍ لرسوله بأنّه يُلقَى القرآن من لدن حكيمٍ عليم، أي: فهو مشتملٌ على كمالِ الحكمة، في توجيهاته للسلوك الأمثل، وهو مشتمل على الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنّه مُنزّل من لدن عليم حكيم.

فاستبصروا أيّها الممتحنون.

الدرس الثاني: (الآيات من ٧ - ١٤).

وهو يتضمّن لقطاتٍ من قصة موسى عليه السلام وفرعون وقومه، لم تأت في جُمْلَتِهَا فِي سَائِرِ النُّصُوصِ، وَهَذِهِ اللَّقَطَاتُ ثَلَاثُ الْأَغْرَاضِ التَّربَوِيَّةِ، وَالْأَغْرَاضِ الْعِلَاجِيَّةِ، الَّتِي تَتَّصِلُ بِمَوْضُوعِ السُّورَةِ.

الدرس الثالث: (الآيات من ١٥ - ٤٤).

وهو يتضمّن لقطاتٍ من قصّة سليمان عليه السلام، وَبَلْقَيْسَ مَلِكَةَ سَبَأَ، وَقَصَّتِهِ مَعَ وَادِي النَّمْلِ وَالْهُذْهَدِ.

وهذه اللَّفْظَاتُ لَمْ تَأْتِ فِي سَائِرِ النُّصُوصِ، وَهِيَ ثَلَاثُ الْأَغْرَاضِ التَّربَوِيَّةِ، وَالْأَغْرَاضِ الْعِلَاجِيَّةِ، الَّتِي تَتَّصِلُ بِمَوْضُوعِ السُّورَةِ.

الدرس الرابع: (الآيات من ٤٥ - ٥٣).

وهو يتضمّن لقطاتٍ من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، مَكْمَلَاتٍ لِمَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَةِ الْآخَرَى.

وهذه اللَّقَطَاتُ ثلاثُ الأغراضِ التربويَّةِ، والأغراضِ العلاجيَّةِ التي تتَّصِلُ بمَوْضُوعِ السُّورَةِ.

الدرس الخامس: (الآيات من ٥٤ - ٥٨).

وهو يتضمَّن لقطات من قصة لوط عليه السَّلام وقومه، مُكَمَّلَاتٍ لِمَا جاء في النصوص القرآنيَّة الأخرى.

وهذه اللَّقَطَاتُ ثلاثُ الأغراضِ التربويَّةِ والأغراضِ العلاجيَّةِ، التي تتَّصِلُ بمَوْضُوعِ السُّورَةِ.

وقد سبق في الملحق الخامس من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) دراسة تكاملية للنصوص القرآنيَّة بشأن لوط عليه السَّلام وقومه.

وكان من الممكن أن أجعل الدروس من (٢ - ٥) درساً واحداً، وأقسمها إلى فصول كما فعلت في (الشعراء) وفي غيرها.

الدرس السادس: (الآيات من ٥٩ - ٧٥).

درس يعلم الله عزَّ وجلَّ فيه رسوله وكل داع إلى الله من أمته، مناظرةً جدليَّةً للمشركين حول شركهم بربوبية الله وإلهيَّته، وشكِّهم في قدرة الخالق على إعادة الخلق وهو الذي بدأه، وإقناعهم بأن الآخرة حق، وأن الجزاء حق.

ويوجه الله عزَّ وجلَّ فيه رسوله لأن لا يحزنَ عليهم، ولأن لا يضيق صدره ممَّا يَمْكُرُونَ، وأن يجيب على أسئلتهم العناديَّة بإنذارٍ مُعَلِّفٍ برصانةِ الواثقِ باقترابٍ ما كان يُبلِّغُهُم عن ربِّه، من إبعادٍ بعذابٍ وإهلاك.

الدرس السابع: (الآيات من ٧٦ - ٩٣ آخر السورة).

وفي هذا الدرس متابعة بشأن القرآن، ومتابعة تربويَّة للرسول ﷺ في مجالات مسيرته الدعوية، مقترنة ببيان كليَّات كبرى من المفهومات الدينيَّة، ومُتمتِجَةٌ بإقناع الكافرين بأساليب غير مباشرة لهم في الخطاب.

وفيه إعلام عامٌّ وإنذارٌ للمعنيين بالمعالجة بأحداثٍ قادمةٍ، هي من
أشراط الساعة وعلاماتها التي هي مقدمات لها، وبأحداثٍ تكون مع قيام
الساعة وبعدها، مصحوبةً بعرضٍ بعض آيات الله في كونه الدالات على
أنه قد اتقن كل شيءٍ صنْعاً.

وفيه تكليف من الله عز وجل لرسوله ما يقولُه لقومه، الَّذِينَ وَصَلُوا
إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةِ.



(٤)

التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (النمل) الآيات من (١ - ٦)

قال الله عز وجل:

﴿طَسَّٰ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ۚ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۚ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
هُمْ الْأَخْسَرُونَ ۚ وَلَٰئِكَ لَنَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۚ﴾

القراءات:

(١) • سكت أبو جعفر على «طا» و«سين» سكتة لطيفة من غير تنفّس.

أما باقي القراء العشرة فقرأوا «طس» بالوصل.

• وقرأ ابن كثير: [الْقُرْآنِ] دون همزة، وكذلك حمزة في الوقف فقط.

وقرأها باقي القراء العشرة: [الْقُرْآنِ].

والقراءتان وجهان من الأداء.

تمهيد:

سبق في سورة (الشعراء) النازلة قبل سورة (النمل) عنايةً خاصّةً بالحديث عن القرآن لبيان التباين بينه وبين أقوال الكهّان الذين يتلقّون عن شياطين الجنّ، وشعر الشعراء الذين يهيمون في كلّ وادٍ، وأقوال الإنس أو الجنّ، التي لا ترقى إلى مستوى القرآن في مبانيه وفي معانيه، إذ هو معجز لهم فيهما. وهذا التباين يؤكّد بصورة قطعّة أنّه تنزيلٌ من ربّ العالمين، وأنّه من غير الممكن أن يكون مفترى على الله عزّ وجلّ.

وبهذا التباين تسقط مزاعم الذين كفروا، إذ أشاعوا بين جماهيرهم أنّه إيهاء من شياطين الجنّ، أو هو نوع من الشعر تدفقت به شاعريّة محمد، أو هو كلام اختلقه من عند نفسه وتقوّل على ربّ العالمين.

وقد جاء في هذا الدرس الأوّل من دروس سورة (النمل) متّابعة الحديث عن القرآن لبيان أنّه هدىّ وبشرى للمؤمنين، ثم جاء في الآية (٧٧) من السورة بيان أنّه هدىّ ورحمة للمؤمنين.

ويُدرّك المتدبّر أن كون القرآن هدىّ ورحمة وبشرى للمؤمنين، يضيف أدلّة عقلية على إبعاد كلّ صفات الكهانة، والشعر، والوضع البشريّ له.

وهذه متّابعة علاجية واضحة للذين كفّروا، دون أن يملكوا ولو دليلاً ضعيفاً على ما زعموا.

مع تثبيت المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ضمن الحدود التي كانت مطلوبة إيان نزول سورة (النمل) ويجدّدون يقينهم بالآخرة كلّما غفلوا، ولم تكن قد نزلت حينئذ فريضة الصّوم والحج، ولا كثير من أحكام الحلال والحرام والواجبات.

ويتضمّن هذا التثبيت الحثّ على متّابعة تدبّر ما ينزل من القرآن، والإيمان بحقائقه، والعمل بما يهديهم إليه.

وَيَتَضَمَّنْ أَيْضاً طَمَآنَةً قُلُوبِهِمْ، واستشارة نفوسهم حتَّى تَشْرَبَّ إِلَى مَا يُبَشِّرُهُمْ بِهِ مِنْ نَجَاةٍ وَفَوْزٍ عَظِيمَيْنِ، عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينِ.

وجاء في هذا الدَّرْسِ تلويحٌ بعصا الإنذارِ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وإِعْلَامٌ لَهُمْ بِأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ بِأَنَّ مُحَمَّدًا يَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، إِذْ جَاءَ الْخُطَابُ الْقُرْآنِيُّ مُوجَّهًا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَمَعْرُضًا عَنِ مَخَاطَبَةِ الْكَافِرِينَ الْمَكْذِبِينَ.

فَمَنْ كَانَ مِنْ أُولَى الْأَلْبَابِ اسْتِفَادَ مِنْ هَذَا الْبَيَانِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْخُطَابُ مُوجَّهًا لَهُ، وَلَا لِلْفَتَى الَّتِي هُوَ مِنْهَا.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَةُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿طَسَّ﴾ حرفان من الحروف المقطعة الواردة في أوائل بعض سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَقَدْ ذَكَرْتُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا لَدَى تَدَبُّرِ أَوَّلِ سُورَةِ (الْقَلَمِ/ ٤ نَزُولِ).

• ﴿تِلْكَ ءَايَةُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾: جَاءَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْمَشَارِ إِلَى الْبَعِيدِ ﴿تِلْكَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَةِ الْقُرْآنِ عُلُوًّا لَا يُدَانِيهِ كَلَامٌ مَا صَادَرَ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا تَسْتَطِيعُ الْخِلَاقُ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا.

﴿ءَايَةُ﴾ جَمْعُ «آيَةٍ» وَهِيَ فِي اللُّغَةِ الْعَلَامَةُ، وَالْأَمَارَةُ الدَّالَّةُ عَلَى شَيْءٍ مَا.

وَأُطْلِقَتْ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ، وَالْآيَاتِ الْإِعْجَازِيَّةِ، وَالْآيَاتِ الْجَزَائِيَّةِ، وَالْآيَاتِ الْبَيَانِيَّةِ.

﴿الْقُرْآنَ﴾ هو الكتاب المبين، ولكن قُصِدَ الإلماح إلى المعنى الوصفي من كونه بياناً ربّانياً مطلوباً من المؤمنين أن يقرؤوه من صحف يكتبونها تلقياً من الرّسول ﷺ، وأن يُدَوّنوه في كتابٍ خاصٍّ به، فجاء لفظ ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بالعطف على ﴿الْقُرْآنَ﴾ للتّعابير الوصفية.

وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

• ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾.

بعطف: ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ على ﴿الْكِتَابِ﴾ للإلماح إلى المعنى الوصفي أيضاً، مع عكس الترتيب، للدلالة على تكافؤ العبارتين في الدلالة على أنّ المطلوب من المؤمنين أن يُدَوّنوه في كتابٍ خاصٍّ به، وأن يقرؤوه منه، وأن يكون حفظهم الذهني له مستنداً إلى المدوّن في الكتاب المقروء منه، حتى يكون مرجعاً للمحفوظ في الذاكرة، ولهذا جاء العطف في النّصّين بالواو، التي هي لمطلق الجمع، فلا تقتضي بوضعها اللّغوي ترتيباً ولا تعقيباً.

وقد طبق الرّسول ﷺ بوحى من ربّه هذا التوجيه، فكان يأمرُ بكتابة ما ينزل عليه من نُجُوم القرآن، وكان له كُتَابٌ وحيّ يكتبون له ما ينزل عليه منها.

وكان الكاتبون من أصحاب رسول الله ﷺ يكتبون في صُحفٍ خاصّةٍ ما كان ينزل بحسب أحوال كلّ منهم، فيحفظون ما في هذه الصحف، ويرجعون إليها لتثبيت محفوظاتهم والاطمئنان على صحتها.

ثمّ جُمِعَ القرآنُ كُلُّهُ في كتابٍ واحدٍ في عهد خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثمّ نُسِختَ مِنْهُ نُسْخٌ ورّعت على أمصار العالم الإسلامي، في عهد خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه.

﴿الْقُرْآنَ﴾: هو في الأصل مضدّر فعل «قرأ». يقال لغة: «قرأ

الْكِتَابَ يَقْرَأُهُ، قِرَاءَةً، وَقُرْآنًا أي: تَتَّبَعَ كلماته المكتوبة نظراً، ونَطَقَ بها.
ثم صار في الاصطلاح الديني علماً على البيان الربّاني المنزل لفظاً ومعنى على رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ.

ولفظ ﴿الْكِتَابِ﴾ بالتعريف ولفظ [كِتَاب مَبِين] صاراً علماً بالغلبة على ما يُطْلَقُ عليه لفظ [القرآن]. وهما في الأصل وصفان، فلفظ «كِتَاب» هو بمعنى «مَكْتُوب» ولفظ «مُبِين» هو بمعنى «واضح ظاهر» وبمعنى «مُوضِح مُظْهِر» وهما باعتبار المعنى الوصفي متغايران، وإلماحاً للمعنى الوصفي يُعْظَفُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ.

﴿هُدًى﴾: الْهُدًى: مُضَدُّ «هَدَاهُ، يَهْدِيهِ، هُدًى، وَهْدًى، وَهْدَايَةً، وَهْدِيَّة» أي: يَبَيِّنُ لَهُ، وَأَرْشَدَهُ.

ويطلق لفظ «الْهُدًى» على الصُّرَاطِ، وهو الطريق الواضح، وهو طَرِيقُ الْحَقِّ.

وَيُطْلَقُ لَفْظُ «الْهُدًى» عَلَى إِخْرَاجِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، وَمِنْ عَمُومِ هَذَا الْإِخْرَاجِ نَفْهَمُ الْإِخْرَاجَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَمِنْ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَمَنِ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ، وَمَنِ الشَّرِّ إِلَى الْخَيْرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

﴿وَبُشْرَى﴾: الْبُشْرَى: اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى الشَّيْءِ السَّارِّ الْمَفْرَحِ، الَّذِي يَأْتِي بِهِ الْخَبَرُ أَوْ الْعِلْمُ.

فَالنَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ وَمِنْ دُخُولِ النَّارِ يُطْلَقُ عَلَيْهَا «بُشْرَى» وَالْفَوْزُ بِالْجَنَّةِ وَالسَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ فِيهَا، يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ «بُشْرَى».

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: لِلْمُتَحَقِّقِينَ بِالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ بِعُنَاوَرِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ.

ويفهم من كون القرآن هُدًى وَبُشْرَى ورحمة للمؤمنين، أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ

الجَذْرُ الْمَتَغَلِّغُلُ فِي عُمُقِ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ الَّذِي تَتَفَرَّغُ عَنْهُ فُرُوعُ السُّلُوكِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، ذِي الْمَظْهَرِ الْجَسَدِيِّ، وَغَيْرِ ذِي الْمَظْهَرِ الْجَسَدِيِّ كَالنِّيَّاتِ.

فَمَنْ آمَنَ بِعُنَاوَرِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ كَانَ الْقُرْآنُ لَهُ هُدًى يَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الْحَيَاةِ، وَكَانَ التَّزَامُهُ بِسُلُوكِهِ رَحْمَةً لَهُ إِذْ يَجْلُبُ لَهُ الْخَيْرَاتِ وَالسَّعَادَاتِ الْحَقِيقِيَّةُ، وَكَانَتْ آيَاتِهِ الْمَتَضَمِّنَاتِ بَشَارَاتٍ مُعْجَلَاتٍ فِي الدُّنْيَا، وَمُؤْجَلَاتٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، ذَالَّاتٍ عَلَى الْبُشْرَى الَّتِي يَنَالُهَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، مِنْ كُلِّ مَا يَسْرُهُ وَيُفْرَحُهُ.

الْمُؤْمِنُ: هُوَ الْمَصْدَقُ تَصْدِيقاً إِرَادِيّاً بِعُنَاوَرِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، الَّتِي جَاءَ بِهَا الدِّينَ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، مَعَ طُمَأْنِينَةٍ وَأَمْنٍ تَامٍ بِأَنَّ الْوَاقِعَ لَا يَكُونُ عَلَى خِلَافِ مَا آمَنَ بِهِ، وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ إِلَيْهِ.

وَمَعْنَى الْإِيمَانِ فِي الْإِسْلَامِ قِمَّةٌ لَا يَصِلُ إِلَى سَفْحِ جَبَلِهَا اعْتِقَادٌ مَا، لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى التَّصْدِيقِ الْآمِنِ الْمَطْمَئِنِّ بِالْحَقِّ، وَالْعَقَائِدِ الْأُخْرَى أَوْهَامٌ أَوْ مَقْرُونَةٌ بِرِيَّةٌ.

قول الله عز وجل:

• ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٢) :

سورة (النمل) نزلت قبل سورة (الإسراء) بسورة هي سورة (القصص) وإذا كانت سورة (الإسراء) قد نزلت عقب حادثتي الإسراء والمعراج، ومن المعلوم أنَّ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ قَدْ فُرِضَتْ فِي لَيْلَةِ الْمَعْرَاجِ، فَإِنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ (النمل) يُقْصَدُ بِهَا صَلَاةُ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَقُومُ بِهَا، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، فِيهَا قِيَامٌ وَرُكُوعٌ وَسُجُودٌ عَلَى الْمَوْرُوثِ مِنْ دِينِ إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَلَكِنْ لَا تَمْلِكُ يَقِيناً فِي تَحْدِيدِ أَوْقَاتِهَا، وَعَدَدِ رَكَعَاتِ كُلِّ مِنْهَا. وَكَذَلِكَ فَرَضِيَّةُ الزَّكَاةِ ذَاتِ الْمَقَادِيرِ الْمَحْدَدَةِ.

لكن من صفات المؤمنين أنهم كانوا يقيمون الصلاة ويؤتُونَ الزكاة، على وفقِ التعليم الذي كانوا يتلقَّونه من الرسول ﷺ، والصلاة هذه غيرُ صَلَاةِ قِيَامِ اللَّيْلِ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الْمَزْمَلِ/٧٣ مصحف/٣ نزول).

فقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ هو وصفٌ للمؤمنين الذين يكون القرآنُ هُدىً وبُشْرَى لهم.

فالمعنى: إِنَّ القرآنَ الكتابَ المبين هو هُدىً وبُشْرَى للمؤمنين الذين يكونُ من ثمرات إيمانهم الصادق في قلوبهم، أَنَّهُمْ يُطَبِّقُونَ التكاليفَ الإسلامية، ومن كُتُبِهَا إقامَةُ الصلاةِ لربِّهم، بأجسادِهِمْ ونفوسِهِمْ، وإيتاءَ زَكَوَاتِ أموالِهِمْ.

إِقامَةُ الصلاة: أي: جعلُها مُسْتَقِيمَةً، ويُراد بإقامة الصَّلَاةِ المداومةُ والمواظبةُ على أدائها يَوْمِيًّا حسب التعليم الذي كان إِبَّانَ نزول سورة (النمل) وأداؤها على الوجه الشرعي المطلوب فيها.

استفيدت المواظبة من دلالة الفعل المضارع في ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الدَّالَّ على التجدد. وكذلك الزكاة من: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

يُقَالُ لغة: «أَقَامَ الرَّجُلُ الْعَمَلَ» أي: أدامَهُ وواظَبَ عليه، وأداهُ مُؤَفِّياً حَقَّهُ.

إيتاءُ الزكاة: أي إعطاؤها وتأديتها على الوجه المطلوب شرعاً. الزَّكَاةُ في اللُّغَةِ: الطَّهَارَةُ والنَّمَاءُ. وهي شرعاً: مَا يَجِبُ بِذَلِكَ مِنَ الْمَالِ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَساكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ.

وسُمِّيَ هذا الواجبُ زكاةً لَأَنَّهُ مُطَهِّرٌ لِلْمَالِ، ولأَنَّهُ سَبَبٌ فِي تَنْمِيَّتِهِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَتَسِيرَاتِهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظَمَ سُلْطانه.

• ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

إن الإيمان بالحياة الآخرة التي تكونُ بَعْدَ البُعْثِ للحساب، وقُضِيَ القضاء، وتحقيق الجزاء، هو من عناصر القاعدة الإيمانية.

وجاء التصريحُ هُنَا بهذا العنْصُر، مع دخوله تحت معنى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الشامل لكلِّ عَنَاصِرِ القاعدة الإيمانية لحكَمَتَيْنِ:

• **الحكمة الأولى:** التأكيد على أنَّ الإيمان بالآخرة، حَيَاةً وداراً، وما يكونُ فيها من جزاء بالنعيم العظيم الخالد في جناتِ النعيم، أو بالعذاب في الجحيم، من أقوى العناصر الدافعة إلى الالتزام بالسلوك الإسلامي، والاستقامة على صراط الله الَّذِي رَسَمَهُ لعباده وَحَدَّدَ حُدُودَهُ، وَنَصَّبَ معالمه.

لأنَّ السُّلُوكَ الإنسانيَّ في حياة الغالبية العظمى من الناس، يدفعُهُ دافِعَانِ قويانِ خَطِيرَانِ:

الدافع الأول: الخوف من المؤلِّمات الموجهات.

الدافع الثاني: الطمع في المُسْعِدَاتِ السَّارَاتِ المفرحات.

والحق الذي لا يَقْتَرِنُ به خوف أو طمع، تَكُونُ دوافع النفس إلى الالتزام بِمَطْلُوبَاتِهِ دوافعٌ ضعيفةٌ عند معظم الناس، ولا عِبْرَةٌ بِالْقَلَّةِ النادرة جداً الَّتِي تُؤَدِّي مطلوبَ الحقِّ لمجرد أَنَّهُ حقٌّ.

• **الحكمة الثانية:** التوطئة للحديث عن الذين لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، الذين جاء الحديث عنهم في الآية التالية (٤).

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعْلمُونَ علماً لا يخالطه ولا يعتريه شك.

اليقين: هو في اللُّغَةِ العلم الذي لا شَكَّ فيه، وأدنى مراتبه ما اعْتَمَدَ على أدِلَّةٍ فِكْرِيَّةٍ، أو خبرية صادقة، لا يَعْتَرِيهَا شَكٌّ.

وجاء التأكيد بضمير الفصل: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ للدلالة على اليقين الإرادي، لا اليقين الجبري الذي قد تجحده الإرادة، وللدلالة على أن مَنْ يَضَعُ يَقِينُهُ بِالْآخِرَةِ، تَضَعُ دَوَافِعُهُ لِلسُّلُوكِ الْأَمثل، بمقدار ضعف يقينه، أي: هم يوقنون يقيناً دافعاً للسُّلُوكِ طمعاً بثواب الله وخوفاً من عقابه.

قول الله عز وجل:

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لِّمَنْ أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْعَابَ لَهُمْ ۖ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ۖ﴾
﴿زِينَتًا﴾: أي: جَمَلْنَا وَحَسَّنَا.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يَتَحَيَّرُونَ وَيَتَرَدَّدُونَ، وَهُمْ مُنْظَمُسُو البصائر. الْعَمَة: هو في البصيرة كَالْعَمَى في الأبصار.

أي: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ بَعْدَ الْبَعْثِ، وَلَا بِمَا فِيهَا مِنْ جَزَاءٍ بِالثَّوَابِ وَبِالْعِقَابِ، تَتَعَلَّقُ مَطَالِبُ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَسَائِرِ رَغَبَاتِ نَفْسِهِمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، تَعَلَّقُ الْمَحَبِّ الَّذِي يُوَثِّرُ مَحْبُوبَهُ وَيُفْضِلُهُ عَلَى مَا سِوَاهُ.

وقد جعل الله عز وجل في الحياة الدُّنْيَا أنواعاً مِنَ الْمَتَاعِ مُزَيَّنَةً لِلنَّاسِ، لِأَنَّهَا تَحَقِّقُ لَهُمْ لَذَاتِ شَهَوَاتٍ وَرَغَبَاتٍ وَمَحَابِّ يُحِبُّونَهَا وَيَتَعَلَّقُونَ بِهَا.

ومنها الشهوات مِنَ النِّسَاءِ، وَمِنْهَا الْبُنُونُ، وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالْخَيْلُ الْمَسَوَّمَةُ، وَالْأَنْعَامُ وَالْحَرْثُ، وَمِنْهَا التَّفَاخُرُ وَالتَّكَاثُرُ وَالْعِظَمَةُ وَالسُّلْطَانُ، وَامْتِلَاكُ الْأَشْيَاءِ الْمَفِيدَةِ.

فَهُمْ يَبْذُلُونَ طَاقَاتِهِمْ وَقُدْرَاتِهِمُ الْجَسَدِيَّةَ وَالْفِكْرِيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ، بِغِيَةِ الْوَصُولِ إِلَيْهَا وَالْحَصُولِ عَلَيْهَا.

ومن أحبَّ شيئاً أحبَّ العملَ الموصلَ إليه، ولو كان شاقاً ومُضنياً،
ويَكُونُ هذا العملُ في نفسه مُزَيَّناً وجميلاً. وهذا من الْفِطْرِ التي فَطَرَ اللهُ
النفوسَ وَجَبَلَهَا عليها، وَجَعَلَهَا من طباعها.

وإشارةً إلى هذه الحقيقة قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿زَيْنًا لِّمَن أَعْمَلَهُمْ﴾ إِنَّ
هذا التزيينَ لَيْسَ إغواءً ولا إغراءً، وإنَّما هو نتيجةٌ قَدَرِيَّةٌ تَجْلِبُهَا إِرَادَةُ
الإنسانِ الاختيارية، فَمَن أَدْخَلَ يَدَهُ في النار، أحرَقَهَا اللهُ لَهُ ضِمْنَ سُنَنِهِ
التكوينيةِ الْقَدَرِيَّةِ العامة، وكذلك من اتبع أهواءه وشهواته زَيْنَهَا اللهُ له
ضمن سننه التكوينية القدرية العامة.

التزيين: التجميلُ والتحسينُ بِالزَيْنَاتِ المحبِّباتِ الَّتِي تَجْذِبُ إلى
المزَيْنِ النَّفُوسَ، وقد يَصِلُ جَذْبُهَا إلى عُمُقِ الْقُلُوبِ، وهو أَحَدُ موادِّ
الامْتِحَانِ في ظروف الحياة الدنيا.

فإذا كان المزِينُ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ صَرَفَتْ عنه البصيرة
الإيمانيةُ الهاديةُ إِلَى الرُّشْدِ.

أما مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بَصِيرَةٌ إيمانية، فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِزُخْرَفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
الموزَّعِ في أَشْتَاتِهَا، فَيَكِيدُ وَيَكْذِبُ لِلْحَصُولِ عليها، عابراً كُلَّ مَسَلِكٍ
صَغْبٍ، ونَفَقٍ، وَغُورٍ سَجِيقٍ، وفاقداً رُشْدَهُ، يَتَخَبَّطُ في ظُلُمَاتِهَا على
عَمَةٍ.

يقال لغة: «عَمِه، يَعْمُهُ، عَمَهَا، وَعَمَّهَانَا، وَعُمُوهَا» أي: تَحَيَّرَ وَتَرَدَّدَ
على غَيْرِ هُدًى، وَيَسْتَمِرُّ في شِقَايِهِ وتَعَاسِيهِ لَا يَنَالُ السَّعَادَةَ الَّتِي يَنْشُدُهَا
بِسَبَبِ انْطِمَاسِ بَصِيرَتِهِ.

هذا هو حال الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، مَهْمَا جَمَعُوا من أموال،
ومهما أَصَابُوا مِنْ لَذَّاتٍ، لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ في أعماقِ قُلُوبِهِمْ ونفوسهم غيرَ
سُعْدَاءَ.

أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ، وَيَكُونُونَ هُمُ الْأَخْسَرِينَ.

• ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾: أي: أولئك البُعْدَاءُ إِلَى جَهَنَّمَ الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ، لَهُمْ بِالْإِسْتِحْقَاقِ الَّذِي تَفَرَّضُهُ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْعَذَلِ الرَّبَّانِيَّةِ، سُوءُ الْعَذَابِ.

سُوءُ الْعَذَابِ: أي: شَدِيدُهُ، وَشَاقُّهُ، وَمُؤْلِمُهُ، وَأَضْلُ الْكَلَامِ الْعَذَابُ السُّوءُ، وَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ.

لفظ «سوء» اسمٌ جامعٌ لِمَخْتَلِفِ الْآفَاتِ، وَلِكُلِّ مَا يَقْبُحُ، وَلِكُلِّ مَا يَغُمُّ الْإِنْسَانَ مِنْ مَكَارِهِ.

• ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾: أي: وَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ بَعْدَ الْبُتْهِ هُمُ الْأَكْثَرُونَ خَسَارَةً مِنْ كُلِّ خَاسِرٍ، إِذْ يَكُونُونَ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ، فَيُخْسَرُونَ ذَوَاتَهُمْ كُلَّهَا، وَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنْهَا إِلَّا مُعَذَّبًا عَذَابًا أَبَدِيًّا.

وجاءت صيغة «أفعل» الَّتِي لِلتَّفْضِيلِ، فِي عِبَارَةِ ﴿هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ عُصَاةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ خَسَارَاتٍ مَا، لَكُنْتَهُمْ لَا يَكُونُونَ الْأَخْسَرِينَ يَوْمَ الدِّينِ، لِأَنَّ لَهُمْ نَجَاةً مِنَ الْعَذَابِ بَعْدَ أَنْ يَنَالُوا مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْهُ، بِخِلَافِ الْكَافِرِينَ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ هُمُ الْأَخْسَرِينَ مِنْ كُلِّ الْخَاسِرِينَ.

وَدَلَّ تَغْرِيفُ طَرَفِي الْإِسْنَادِ فِي عِبَارَةِ: ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ عَلَى قَضَرِ صِفَةِ الْأَخْسَرِيَّةِ عَلَيْهِمْ، وَيَنْطَبِقُ عَلَى جَمِيعِ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، لِأَنَّ مَنْ آمَنَ بِالْآخِرَةِ إِيمَانًا صَحِيحًا، لَا يَقَعُ فِي أَمْرِ مَا يَكُونُ بِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ الْجَحِيمِ.

قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله:

• ﴿وَلَنَّا لَنُلْقِيَ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾:

﴿لَنُلْقِيَ الْقُرْآنَ﴾: أي: لَنَتَلَقَّى الْقُرْآنَ إِذْ يُلْقَى إِلَيْكَ بِالْوَحْيِ مِنْ

رَبِّكَ. والمعنى أَنَّهُ لَا كَسْبَ لَكَ فِيهِ إِلَّا التَّلَقِّي مِنَ الْوَحْيِ الَّذِي يُلْقِيهِ إِلَيْكَ بِعِنَايَةٍ تَامَّةٍ، حَرْفًا فَحَرْفًا، وَكَلِمَةً فَكَلِمَةً، وَآيَةً فَآيَةً.

وجاء الفعل المضعف للدلالة على العناية البالغة في الإلقاء والتلقي.

يقال لغة: «تَلَقَّى الْعِلْمَ عَنْ فُلَانٍ» أي: أَخَذَهُ مِنْهُ. و«تَلَقَّى الشَّيْءَ» أي: لَقِيَهُ.

﴿مِنْ لَدُنْ﴾: لَدُنْ: ظَرَفُ زَمَانِيٍّ وَمَكَانِيٍّ بِمَنْزِلَةِ «عِنْدَ» إِلَّا أَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ «عِنْدَ» وَأَخْصُّ مِنْهُ. وكلمة «لَدُنْ» ملازمة للإضافة فهي تَجُرُّ مَا بَعْدَهَا بِالْإِضَافَةِ.

﴿حَكِيمٍ﴾: أي: عَظِيمُ الْحُكْمَةِ فِي كُلِّ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ. والحكيم في اللُّغَةِ هُوَ الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا، وَيَخْتَارُ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ وَأَتْقَنَهَا وَأَحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ الْمُخْتَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّاتِجِ.

والحكيم: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى.

﴿عَلِيمٍ﴾: أي: وَاسِعَ الْعِلْمِ الَّذِي يُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، إِذْ هُوَ هُنَا صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

والعليم: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى.

والمراد: أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي تَتَلَقَّاهُ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّكَ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ، كُلُّ مَا فِيهِ حَقٌّ وَهُدًى وَخَيْرٌ، وَأَحْكَامُهُ هِيَ أَفْضَلُ الْأَحْكَامِ وَأَحْسَنُهَا، وَصِيَائِغُهُ هِيَ أَتْقَنُ الصِّيَاغَاتِ وَأَحْكَمُهَا وَأَسْمَاهَا.

وهذه الصفات فيه شهادات على أَنَّهُ تَنْزِيلُ رَبَّانِيٍّ، وَلَيْسَ وَضْعًا مِنْ كَائِنٍ مَا غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمُتَدَبِّرُ الْقُرْآنِ بِأَنَاءٍ وَعُمُقٍ يَجِدُ هَذَا جَلِيًّا وَاضِحًا.

والغرض من خِطَابِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِهَذَا الْبَيَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِهِ،

إِعْلَامُ الْكَافِرِينَ الْمَكْذِبِينَ، بِإِسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، لِأَنَّهُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ بِإِقْبَالٍ وَمُوَاجَهَةٍ، فَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ الْإِعْرَاضَ عَنْهُمْ بِالْخِطَابِ، مَعَ إِسْمَاعِهِمْ هَذَا الْبَيَانِ عَنِ الْقُرْآنِ وَهُمْ مُعْرِضُونَ.



(٥)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (النمل)

وهو الآيات من (٧ - ١٤)

وفيه لقطات من قصة موسى عليه السلام وفرعون وقومه

قال الله عز وجل:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْسُكُ إِلَهُهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرًّا وَلَمْ يَعْصَبْ يَمْسُكُ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسًّا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تَمَيعٍ مَّا يَنْبَغِي إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ مَائِنَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

تمهيد:

لَمَّا كَانَ الْمَعْنِيُّونَ بِالْمَعَالَجَةِ مِنْ كِبَرَاءِ كَفَّارِ قَرِيشٍ إِبَّانَ نَزُولِ سُورَةِ «النمل» قَدْ وَصَلَتْ حَالُهُمْ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ حَالِ فِرْعَوْنَ وَمَلِئِهِ، إِذْ كَانُوا مُسْتَيْقِنِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِصِحَّةِ وَصْدُقِ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَكِنَّهُمْ جَحَدُوا بِهَا ظُلْمًا وَعُلُوًّا فِي الْأَرْضِ، كَانَ اخْتِيَارُ هَذِهِ اللَّقَطَاتِ مِنْ قِصَّتِهِ، وَتَقْدِيمُهَا فِي سُورَةِ «النمل» أَمْرًا حَكِيمًا يَدُلُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ كِبَرَاءَ

كفار قريش المعاندين الجاحدين، على أنهم قد اقتربوا من الوقت الذي تقتضي حكمه الربّ جلّ جلاله، أن يُنزلَ فيه عقابُه بهم، كما أنزله بفرعون وملئه وجنّده، حينما وصلوا إلى حالة الاستيقانِ النَّفْسِيِّ مع الجحود.

وهذه اللَّقَطَات لقطاتٌ موجزاتٌ جدًّا من قصة موسى وقومه، إلا أنّ العلاج التحذيريّ الحكيم اقتضى إيرادها، لتحذير المعنّيين بالعلاج من كبراء كفّار مكة وما حولها، وهذا الغرض التحذيريّ قد جاء في الآيتين (١٣ و ١٤) من هذا الدرس.

التدبر التحليلي:

سبق تدبر هذا النصّ تدبراً تكاملياً، مع النصوص الأخرى التي جاءت في القرآن حول ما جاء فيه، وأقتصرُ هنا على التدبر التحليلي له.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِغًا مِنهَا يُخْبِرُ أَوْ عَائِيكُمْ بِشَاهِبٍ قَبِيرٍ لَّمَّا كُرْتُمْ تَصْطَلُوكَ﴾ (٧):

بدأت هذه اللَّقَطَات عن موسى عليه السّلام، من مَرَحَلَةٍ من مراحل رَجَعَتِهِ من مَدِينٍ إلى مِصْرَ، وَمَعَهُ أَهْلُهُ، وَقَطِيعُ أَغْنَامِهِ، على ما سَبَقَ بيّأنهُ مُفَصَّلًا لَدَى تدبر النُّصوص السابقة نزولاً لهذا النصّ.

• ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾: أي: ضَعُ في ذَاكِرَتِكَ أيُّهَا المَتَلَقِّي لهذا البيان هذا الحَدَث الذي نَقَصُهُ عَلَيْكَ، بَدَأُ من الوَقْتِ الذي قال فيه موسى عليه السّلام لأَهْلِهِ ما جاء بيّأنهُ في الآية.

﴿إِذْ﴾: ظَرَفٌ لِلزَّمَانِ المَاضِي، وهو هُنَا زَمَنٌ بعضُ الأحداث المَاضِيَةِ التي جرت لموسى عليه السّلام، بعد أن رأى ناراً، وهو عَائِدٌ إلى مِصْرَ من أَرْضِ مَدِينٍ بِأَهْلِهِ.

﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾:

قرأ نافع، وأَبْنُ كثير، وأبو عَمْرٍو، وأبو جَعْفَر: بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

آنَسْتُ: أي: أَبْصَرْتُ، يقال لغة: آنَسَ الشيء: أي: أَحَسَّ بِهِ -
أَبْصَرَهُ - عَلِمَهُ.

﴿سَتَائِكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾: أي: امْكُثُوا مَكَانَكُمْ، إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الْمَكَانِ
الَّذِي آنَسْتُ فِيهِ النَّارَ، رَاجِئاً أَنْ أَجِدَ عِنْدَ أَصْحَابِ النَّارِ خَبَرًا عَنِ الطَّرِيقِ
الَّذِي يُوصِلُنَا إِلَى مِصْرَ، فَآتِيكُمْ بِهِ، عَائِداً إِلَيْكُمْ.

﴿أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾:

قرأ نافع، وأَبْنُ كثير، وأبو عَمْرٍو، وأَبْنُ عَامِر، وأبو جَعْفَر: [بِشِهَابٍ
قَبَسٍ] على إضافة «شِهَابٍ» إلى «قَبَسٍ».

الشهاب: يأتي في اللغة بمعنى: الشعلة الساطعة من النار، وهذا
المعنى هو الملائم هنا.

القَبَسُ: النار، أو شَعْلَةٌ من النار، وفي اللَّفْظ معنى الاقتباس، وهو
الاستفادة بالظَّلْب.

فإضافة «شِهَابٍ» إلى «قَبَسٍ» تَدُلُّ على معنى: شعلة نار ساطعة
أُسْتَفِيدُهَا اقتباساً من أصحاب النار.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ على تنوين لفظ: «شِهَابٍ»
فيكون لفظ «قَبَسٍ» بدلاً من لفظ «شِهَابٍ» أو صفة له، إذ يَحْمِلُ معنى
الإستفادة بالظَّلْب وهو معنى «الاقتباس».

وعلى كلا القراءتين لا تكون كلمة «قَبَسٍ» إطناباً، بل فيها الدلالة
على معنى الاقتباس، وكلمة «قَبَسٍ» لا تغني عن كلمة «شِهَابٍ» لأنَّ لفظ

شهاب يذُلُّ على أَنَّ الشعلة ذات نار ساطعة، فاجتمع اللفظان للدلالة على كامل المعنى المراد ببيانه.

﴿أَمَلَكُمُ نَصْطَلُوكَ﴾: أي: راجياً أن تُوقِدُوا حَطْباً بالشهاب الذي آتاكم به، تَسْتَدْفِنُونَ بها.

نَصْطَلُونُ: أي: تَسْتَدْفِنُونَ.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَلَمَّا جَاءَ نُودِي أَن بُرِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسِي إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾:

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾: أي: فَلَمَّا جَاءَ الْمَكَانَ الَّذِي رَأَى النَّارَ تَشْتَعِلُ فِيهِ. يقال لغة: جاء المكان، وجاء إلى المكان.

﴿نُودِي﴾: أي: نُودِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، وهو بجانب الطور، بخطابٍ مُرْتَفِعِ الصَّوْتِ، يقال لغة: نادى فلانٌ فلاناً، أي: دَعَاهُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ عَلَى قَدَرٍ وَسُعِهِ.

وَكَانَ نِدَاؤُهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ مِنْ قَبْلِ الرَّبِّ جَلٍّ وَعَلَا.

وقد اشتمل الخطاب الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هَاتَانِ الْآيَتَانِ عَلَى ثَلَاثِ

قضايا:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنَّ بُرِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

﴿أَنَّ﴾ تَفْسِيرِيَّةٌ، أَيُّ: تَضَمَّنَ النِّدَاءُ بَيَانَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا مُبَارَكِينَ.

الْبَرَكَه: هِيَ الْكَثْرَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَهِيَ تَكُونُ فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ، وَفِي الْمَادِّيَّاتِ.

﴿مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى وَجُودِ أَهْلِ عِلْمٍ يُطْلَقُ عَلَيْهِمْ لَفْظُ «مَنْ» وَيَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ أَنَّهُمْ جَمِيعاً مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَلَائِكَةُ مُقَرَّبُونَ، وَفِي مَقْدَمَةِ الْمَلَائِكَةِ رَسُولُ الْوَحْيِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ أَجِدْ فِي النُّصُوصِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مَا يَدُلُّ عَلَى تَغْيِينِ الْمَلَائِكَةِ، لَكِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَا الْبَيَانِ مُبَارَكاً، وَكَذَلِكَ مِنْ اصْطِفَائِهِمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِحُضُورِ هَذَا اللَّقَاءِ الْكَرِيمِ، سَوَاءٌ قُلْنَا: إِنَّ مُوسَى قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ النَّارُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ نُوراً بَارِداً، أَمْ كَانَ مِنْ مِمَّنْ كَانَ حَوْلَهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

دَلَّ هَذَا الْبَيَانُ عَلَى تَنْزِيهِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَعَلَى وَضْفِهِ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

• أَمَّا التَّنْزِيهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ عَنْ أَسْمَى دَرَجَاتِ الْكَمَالِ، فَقَدْ جَاءَ بِعِبَارَةِ «سُبْحَانَ».

قال النحاة: كلمة «سُبْحَانَ» اسْمٌ عَلَّمٌ لِمَعْنَى الْبَرَاءَةِ وَالتَّنْزِيهِ، وَلَيْسَ لَهَا فِعْلٌ مِنْ لَفْظِهَا، وَهِيَ مَمْنُوعَةٌ مِنَ الصَّرْفِ إِلَّا إِذَا أُضِيفَتْ، وَتَأْتِي مَنْصُوبَةً فِي مَوْضِعِ الْمَضْدَرِّ الْمَنْصُوبِ بِفِعْلِ مُحذُوفٍ.

• وَأَمَّا ذِكْرُ الْمَوْجُودِ الْأَزَلِيِّ الْأَبَدِيِّ فَقَدْ جَاءَ بِاسْمِهِ الْعِلْمُ «اللَّهُ».

• وَأَمَّا وَضْفُهُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ الْوَضْفُ الْجَامِعُ لِكُلِّ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِيِّ وَصِفَاتِهِ الْجَلِيلَاتِ ذَوَاتِ الْعِلَاقَةِ مِنْ اللَّهِ بِكُلِّ الْعَالَمِينَ. وَلَفْظُ «الْعَالَمِينَ» هُنَا شَامِلٌ لِكُلِّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

القضية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتُومَنِّ إِلَهُهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾:

ناداه الله عز وجل بأداة النداء «يا» للإشارة إلى بُعد منزلة الرب عن منازل عباده.

وأبان له بُعد النداء أن الشأن العظيم الجليل الذي أطالك بأن تذكره وتؤمن به، بُعد تنزيه الله وتقديسه والعلم بأنه رب العالمين والإيمان بكل ذلك، أن تؤمن بأنّي أنا هو الله، وأنا العزيز الحكيم.

أي: أنا المتصرف بالكون بصفات ربوبيتي، ضمن صفتي عزتي وحكمتي، فأنا العزيز الحكيم:

العزيز: أي: القوي الغالب القدير على خلق ما يشاء ويختار.

الحكيم: أي: ذو الإرادة الحكيمة النافذة، فلا تفارق مشيئتي المطلقة حكمتي في تصاريفي بالعالمين، فأقدر مقاديري، وأقضي أفضيتي وأنفذها بحكمة بالغة.

قول الله عز وجل مبيناً بعض ما كلم به موسى عليه السلام بعد القضايا الثلاث السابقة:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعَقِّبُ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦﴾﴾:

• ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾: أي: اذفع عصاك إلى الأرض دفعة واحدة.

الإلقاء: هو في اللغة بمعنى دفع الشيء مرة واحدة على طريقة القذف أو الرمي، لا بأسلوب الوضع برفق.

• ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعَقِّبُ﴾: أي: فقلّبها الله عز وجل حيّة تسعى بأمر التكوين، فلما رآها موسى عليه السلام حيّة تهتز كأنها جانّ ولّى مدبراً ولم يعقب.

تَهْتَزُّ: أي: تتحرك بنشاط وشدة.

كَأَنَّهَا جَانٌّ: الْجَانُّ: نوع من الحيات أكحل العينين يضربُ إلى الصفرة، سريع الحركة شديد الاهتزاز، وجمعه «جَنَان» و«جَوَان».

وهذا النوع من الحيات خفيف صغير الجسم.

وجاء تشبيه الحية التي تحوَّلت إلَيْهَا عصا موسى عليه السلام بالجانِّ هُنا، لبيان اهتزازها وسُرْعَةَ حَرَكتها.

وجاء بيانُ عِظَمِ جِسْمِهَا في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ هَذِهِ تِبْيَانٌ لِّآيَاتِنَا ۖ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ ظَلَمُوا فِي سَبْعٍ مِّنَ الْأَمْثَلِ ۚ وَكَانُوا فِيهَا كَافِرِينَ ۚ﴾ (١٧)

وفي سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ هَذِهِ تِبْيَانٌ لِّآيَاتِنَا ۖ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ ظَلَمُوا فِي سَبْعٍ مِّنَ الْأَمْثَلِ ۚ وَكَانُوا فِيهَا كَافِرِينَ ۚ﴾ (٢٦)

الشعبان: ذَكَرُ الحيات.

فتكاملت النصوص في الدلالة على عظم جسمها وشدة حَرَكتها المخيفة:

﴿وَلَقَدْ نَذَرْنَا: أي: ابْتَعَدَ فَأَرَأَا، مُعْطِيًا دُبْرَهُ. جاء الجمع بين التولي والإذبار في هذه العبارة، لأنَّ التولي قد يكون ابتعاداً دون إذبار، ولأنَّ الإذبار قد يكون بإعطاء الظهر للشيء دُونَ ابتعاد، لكن واقع حال موسى عليه السلام أَنَّهُ ابْتَعَدَ وَأَذْبَرَ.

﴿وَلَقَدْ يُعَقِّبُ: أي: ولم يَرْجِعْ. يقال لغة: عَقَّبَ الْفَارَّ، أي: كَرَّ وَرَجَعَ.

• ﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾:

هذه العبارة مُقْتَطَعَةٌ من الحديث الَّذِي جَرَى، إِذْ نَادَى اللَّهُ عزَّ وجلَّ

مُوسَى، بَعْدَ أَنْ وَلَّى مُذْبِرًا وَلَمْ يَعْقِبْ، خَوْفًا مِنَ الْحَيَّةِ الْعَظِيمَةِ ذَاتِ الْحَرَكَةِ السَّرِيعَةِ وَالْاهْتِزَازِ الْمَخِيفِ، فَقَالَ لَهُ:

﴿لَا تَخَفْ﴾ أَي: كُنْ آمِنًا فَلَنْ يُصِيبَكَ مَكْرُوهٌ مِنْ هَذَا الثُّعْبَانِ الَّذِي يَسْعَى وَيَهْتَرُ بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ وَسُرْعَةٍ حَرَكَةٍ ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾: فَدَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ رَبَّهُ قَدْ اضْطَفَاهُ بِالنَّبَوَّةِ، وَاضْطَفَاهُ لِيَحْمِلَ رِسَالَةَ مِنْهُ، وَقَدْ جَاءَ هَذَانِ بِأَسْلُوبٍ ذِي دَلَالَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ.

لَدَيَّ: بِمَنْزِلَةِ عِنْدِي، ظَرَفَ زَمَانِي وَمَكَانِي، إِلَّا أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْقَرَبِ أَكْثَرَ مِنْ عِنْدِي فَهُوَ أَخْصَ مِنْهُ.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾: أَي: بِاسْتِثْنَاءِ مَنْ ظَلَمَ بِمُخَالَفَةِ لِأَمْرِي أَوْ نَهْيِي، فَإِنَّهُ يَخَافُ عِقَابِي. لَكِنَّ مَنْ يَخْتَارُهُ اللَّهُ لِيَكُونَ رَسُولًا، لَا بُدَّ أَنْ يَتُوبَ وَيُبَدِّلَ عَمَلَهُ السَّيِّئَ، فَيَجْعَلَ عَمَلًا حَسَنًا مَكَانَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ وَيَرْحَمُهُ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿... ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وَمُعْصِيَةُ الَّذِي يُضْطَفَى لِلرَّسَالَةِ، قَدْ تَكُونُ مُخَالَفَةً مِنْ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ، أَوْ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، وَلَا تَكُونُ مُخَالَفَةً مِنْ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ يُوجِبُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ تَكَالِيفَ زَائِدَةً عَلَى مَا أَوْجَبَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَهَذِهِ التَكَالِيفُ تَقَعُ فِي دَرَجَاتٍ مِنْ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ أَوْ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ، كَمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُومَ مِنَ اللَّيْلِ يَعْبُدُ رَبَّهُ، بَيْنَمَا جَعَلَ هَذَا مَثْنً إِلَى اللَّهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَعَاصِي الرُّسُلِ هِيَ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ أَوْ الْبِرِّ، وَلِهَذَا أَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ تَرَكَ قَوْمَهُ مُغَاضِبًا، ظَانًّا أَنَّ اللَّهَ لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ، لَكِنَّ رَسُولًا بَارًّا مُحْسِنًا مِثْلَهُ، مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى اجْتِهَادِ ظَنِّي، بَلْ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ مَا يَتَلَقَاهُ عَنْ رَبِّهِ وَخَيًّا.

ومثل هذا الظن كافٍ بالنسبة إلى مَنْ هم من أهل مرتبة التقوى، لَا مِنْ اصطفاهم الله لرسالته من أهل مَرْتَبَةِ الأبرار، أو أهل مرتبة المحسنين.

حُسْنًا: مَصْدَرُ «حَسَن» أي: جَمَلَ فلا قبح فيه، والمرادُ المجيء بعملٍ فيه حُسْنٌ، وتتفاضل دَرَجَاتُ الحُسْنِ.

من بَعْدِ سُوءٍ: أي: من بَعْدِ عَمَلٍ فيه سُوءٌ، السُّوءُ: كُلُّ مَا هو قبيح. وتتفاوت دركات القبح.

• ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: في هذه القضية دَلَالَةٌ بِأَسْلُوبِ الكِنَايَةِ عَلَى أَنَّ اللهَ جَلَّ جلالُهُ يَغْفِرُ له، إِذَا بَدَّلَ حُسْنًا من بَعْدِ سُوءٍ.

غَفُورٌ: أي: كثير الغفران وهو السَّتْرُ، ولفظ «الغفور» من أسماء الله الحسنى.

رَحِيمٌ: أي: كثير الرحمة لعباده، فهو يَشْمَلُهُم بِعِطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ، دَوَامًا، ولفظ «الرحيم» من أسماء الله الحسنى.

قول الله عزَّ وجلَّ في بيان خطابه لموسى عليه السلام:

• ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثِيَابٍ مَأْتِيَةٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٢):

أي: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِ ثَوْبِكَ، وهو الشَّقُّ الذي يَدْخُلُ مِنْهُ الرَّأْسُ عِنْدَ لُبْسِهِ، وَأَوْصِلْهَا إِلَىٰ إِبْطِكَ، أَخْذًا من دَلَالَةِ نَصِّ آخِرٍ، وَأَخْرِجْهَا أَخْذًا من دَلَالَةِ اللُّزُومِ الْفِكْرِيِّ، تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مُتَلَأُّتَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَغْتَرِبَها سُوءٌ، وقد جاء هذا القيدُ اخْتِرَاسًا من أن يكونَ بَيَاضُها من الْبَرَصِ.

• أعطاه الله عزَّ وجلَّ آيَةَ العصا التي تَنْقَلِبُ ثُعْبَانًا مخيفًا، وفيها إشارة وعيد.

• وأعطاه آيَةَ الْيَدِ الَّتِي يُدْخِلُهَا فِي جَيْبِهِ إِلَىٰ جَنَاحِهِ فَتَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ تَتَلَأَّلُ نُورًا، وفيها إشارة هداية بنورها.

وقال له: ﴿فِي تِسْعٍ آيَاتٍ﴾: أي: هاتان الآيات داخِلَتان في عِدَادِ تِسْعِ آيات، قَدَرْتُ مَنَحَكَ إِيَّاهَا، دليلاً على أَنَّكَ رُسُولِي، وَأَنَّكَ صَادِقٌ فِيمَا تُبْلِغُ عَنِّي.

والآيات التسع قد سَبَقَ بيانها وهي:

«العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدَّم، وسنوات الجذب والقحط، ونقص الثمرات (أو الطمس على أموالهم)».

• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٧):

أي: خُذْ هَاتينِ الْآيتينِ ضِمْنَ تِسْعِ آيَاتٍ قَدَرْتُ مَنَحَكَ إِيَّاهَا، مُرْسَلًا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ.

وجاءت جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحِكْمَةِ مِنْ إِرْسَالِهِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فهي بمنزلة التعليل للإرْسال.

﴿فَاسِقِينَ﴾: جمع «فاسِق» وهو الخارج عن الحق والواجب والطاعة إلى أضدادها.

الْفِسْقُ: هو العصيان، والخروج عن الحق والواجب وطاعة أوامر الله ونواهيه، وهو مصطلح إسلامي، مأخوذ من قول العرب: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ، إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قَشَرَتِهَا، ومعلوم أَنَّ الرُّطْبَةَ متى خرجت من قَشَرَتِهَا تَعَرَّضَتْ لِلْفَسَادِ.

قول الله عزَّ وجلَّ عن فرعون وقومه:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتٍ بِهَا ۚ وَحَمَدُوا بِهَا ۚ وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٨):

أبانت هاتان الْآيتان أحداثَ المَرَحَلَةِ الأخيرة من مراحل فرعون وملئه، تُجَاهَ دَعْوَةِ مُوسَى وهارون عليهما السلام، وتُجَاهَ الْآياتِ التَّسْعِ

الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، تَصْدِيقًا لِرَسُولِيهِ، وَجُحُودِهِمْ بِهَا مَعَ
عِلْمِهِمْ بِأَنَّهَا حَقٌّ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَاسْتِيقَانِ أَنْفُسِهِمْ لَهَا، فَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ
أَنْ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ وَأَهْلَكَ جُنُودَهُمْ بِالْإِغْرَاقِ، وَكَانَ هَذَا عَاقِبَتَهُمْ، بِسَبَبِ
كُفْرِهِمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا مُفْسِدِينَ فِي أَرْضِ مِصْرَ.

﴿إِنَّمَا﴾: أي: آيَاتُنَا الْخَوَارِقُ التَّسْعُ كُلُّهَا، وَالْفَاءُ فِي: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾
تَعْطَفُ عَظْفَ تَرْتِيبٍ مَعَ تَعْقِيبِ عَلَى آخِرِ الْآيَاتِ، لَا عَلَى آتِي الْعَصَا
وَالْيَدِ فَقَطْ.

﴿مُبْصِرَةٌ﴾: أي: وَاضِحَةٌ مُضِيئَةٌ بَيِّنَةٌ، يَقَالُ لُغَةً: «أَبْصَرَ الطَّرِيقَ فَهُوَ
مُبْصِرٌ» أي: اسْتَبَانَ وَوَضَحَ.

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: مَعْنَى «مُبْصِرَةٌ» تَبَصَّرَهُمْ، أي: تُبَيِّنُ لَهُمْ، وَقَالَ
الْأَخْفَشُ: إِنَّهَا تَبَصَّرَهُمْ، أي: تَجْعَلُهُمْ بُصْرَاءَ^(١).

فَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةٌ لَهُمْ بِأَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ
رَسُولَانِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ صَادِقَانِ، وَأَنَّ مَا جَاءَا بِهِ مِنْ قَضَايَا الدِّينِ حَقٌّ
وَصِدْقٌ، يَبْلَغَانِهِ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ.

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾: أي: قَالُوا: مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونُ نَزْعٌ
مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ الْكُبْرَى، الَّتِي لَمْ يَتَوَصَّلْ إِلَى مَعْرِفَتِهَا وَمَعْرِفَةِ أَسْبَابِهَا
سَحَرَةٌ مُضَرٌّ كُلُّهُمْ.

• ﴿مُتَيْنٌ﴾: أي: وَاضِحٌ جَلِيٌّ، مِنْ فَعَلَ: «أَبَانَ الشَّيْءُ إِبَانَةً فَهُوَ
مُتَيْنٌ» أي: ظَهَرَ وَوَضَحَ وَكَانَ جَلِيًّا.

• ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا﴾: أي: أَنْكُرُوهَا مَعَ عِلْمِهِمْ عُلْمًا يَقِينًا بِأَنَّهَا حَقٌّ وَلَيْسَتْ
مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَنْكُرُوا كَوْنَهَا آيَاتٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) انظر لسان العرب، مادة «بصر».

الْجُحُود: هو إنكار كون الشيء حقاً، مع العلم بأنه حقٌّ. يقال لُغَةً: جَحَدَ، يَجْحَدُ، جَحْداً، وَجُحُوداً أي: أنكر الحقَّ مع العلم بأنه حقٌّ. ويقال: «جَحَدَهُ حَقَّهُ، وَجَحَدَهُ بِحَقِّهِ» فالباء في ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ استعمالٌ عَرَبِيٌّ، ولا حاجةً إلى البحث عن الغرض من ذكرِ الباء في العبارة.

• ﴿وَأَسْتَفْتَنَهَا أَنْفُسُهُمْ﴾: أي: وَعَلِمَتْ أَنْفُسُهُمْ عِلْماً يَقِينِيّاً لا شكَّ فيه أَنَّهَا آيَاتٌ من آيَاتِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقّاً.

اليقين: هو العلم الذي لا شكَّ فيه، وأذْنِي دَرَجَاتِهِ ما اعْتَمَدَ على أدِلَّةٍ نظريَّةٍ فِكْريَّةٍ، أو خَبَرِيَّةٍ صادقةٍ لا يَعْتَرِيها شكٌّ.

وجاء استعمال لفظ «أنفسهم» وهو من جُمُوع القَلَّةِ، إشارةً إلى أَنَّ أَصْحَابَ هذا الاستيقان هم فِرْعَوْنُ وآلُهُ وَمَلَأُوهُ وَأَعْوَانُهُ الْمُخْلِصُونَ لَهُ، مثل: هَامَانَ وَقَارُونَ، وهؤلاء قليلون يناسبُهُمْ جَمْعُ القَلَّةِ، وَهُمْ الَّذِينَ جَحَدُوا آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ الْخَوَارِقَ ظُلْماً وَعُلُوّاً.

• ﴿ظُلْمًا﴾: أي: تجاوزاً للحدود القصوى، الَّتِي لا يُحْتَمَلُ من العُصَاةِ تجاوزُها. أي: حالة كونهم ظالمين، اسْتُعْمِلَ المضمر على معنى اسم الفاعل.

أو هو مفعولٌ لأجله، أي: وَجَحَدُوا بِهَا بِسَبَبِ إصرارهم في أنْفُسِهِمْ على الظُّلْمِ الَّذِي لَهُمْ فيه سلطانٌ عظيمٌ ومنافعٌ ومصالحٌ.

• ﴿وَعُلُوًّا﴾: أي: وحالة كونهم مُسْتَكْبِرِينَ مُسْتَغْلِبِينَ. أو بسبب إصرارهم في أنْفُسِهِمْ على العُلُوِّ في الأرض، وَعَدَمَ قبولهم اتباعِ رُسُولِي رَبِّهِمْ، وَعَدَمَ قبولهم الدين الذي جاء به.

فقد كانوا يَرَوْنَ أَنَّ إيمانَهُمْ يَجْعَلُهُمْ يَخْسَرُونَ شيئاً من سُلْطَانِهِمْ في الأرض على شَعْبِهِمْ، وَعَبِيدِهِمْ بني إسرائيل.

• ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: أي: فانظر أيها الناظر المتفكر نظراً تفكيراً هادٍ إلى الحق، كيف كان جزاء المفسدين في الأرض، إذ أغرقناهم وجنودهم أجمعين.

عاقبة عمل العامل: الجزاء الذي يكون بعده مباشرة، أو بعد فاصل زمني، والأصل فيه ما يأتي عقبه مباشرة، أخذاً من العقب، إلا أنه جرى فيه توسع في الاستعمال.

المفسدون: هم الذين ينشرون الفساد في الأرض، يقال لغة: «أفسد فلان الشيء» أي: حوله عن صلاحه، أو أثلفه، وتحويل الشيء عن صلاحه يجعله غير صالح ولا نافع، وربما يجعله ضاراً كريهاً مفسداً لغيره.



(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (النمل)

الآيات من (١٥ - ٤٤)

وفيه لقطات من قصة سليمان

مع مقدمة عنه وعن أبيه عليهما السلام

قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِي النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الظُّلُمِ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالظُّلُمِ فَهُمْ يُورَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَاءَتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَهُ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ
فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَٰذِهِدْ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا
أَوْ لَأَأَذِيعَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا
لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتُ
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا
يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ
﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾ أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَٰذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ
مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَتْ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ
وَلَقَدْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣١﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُورٍ مُّسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَتْ يَأْتِيَهَا
الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٣﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ
وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا
قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ
بِهَدْيَةٍ فَانْظُرِي يَوْمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا
أَتَانِي اللَّهُ خَبِيرٌ مِمَّا ءَاتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ فِرْعَوْنُ ﴿٣٧﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ
بِجُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَتْ يَأْتِيَهَا
بِأَتِينِي بِعَرِيشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَتْ عَفِيفَةٌ مِنَ الْيَتَامَىٰ أَنَا ءَاتِيكِ بِهِ قَبْلَ أَنْ
تَقُومِي مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٤٠﴾ قَالَتْ الَّذِي عِنْدُكَ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكِ
بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدُكَ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي
ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَلَمَّا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَفُورٌ كَرِيمٌ ﴿٤١﴾
قَالَ تَكَرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا جَلَسَتْ قِيلَ
أَهَٰذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ
تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٤﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ

حَبِيبَتُهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالِ إِنَّهُ صَرِّحَ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ :

القراءات:

(١٨) • وقف الكسائي، ويعقوب بالياء في [عَلَى وَادِي].

ووقف باقي القراء العشرة على الدال دون ياء ﴿عَلَى وَادٍ﴾.

(١٨) • قرأ رويس [لَا يَخْطِمَنَّكُمْ] بنون التوكيد الخفيفة.

وقراها باقي القراء العشرة بنون التوكيد الثقيلة: ﴿لَا يَخْطِمَنَّكُمْ﴾.

ويظهر أَنَّ النملة القائدة حَذَرَتْ أَوَّلًا جماعات النمل تحذيراً مؤكداً دُونَ تَشْدِيدٍ، فَلَمَّا رَأَتْ تَوَافَدَ جيش سُلَيْمَانَ عليه السلام عَلَى الوادي بِقُوَّةٍ وَجَّهَتْ تحذيراً مؤكداً بِشِدَّةٍ.

(١٩) • فتح ورش، والبزّي ياء المتكلم من [أَوْزِعْنِي أَنْ].

وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ﴾. وهما وجهان عربيّان.

(١٩) • وقف يعقوب فقط بهاء السَّكْتِ فِي: ﴿عَلَى﴾.

(٢٠) • فتح أَبْنُ كثير، وهشام، وعاصم، والكسائي ياء المتكلم فِي: ﴿مَالِكٌ لَّا﴾.

وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان.

(٢١) • قرأ أَبْن كثير: [أَوَّلِيَّائِيْنِي] بإثبات نون الوقاية.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿أَوَّلِيَّائِيْنِي﴾ بحذف نون الوقاية تخفيفاً لتوالي الأمثال.

وهما وجهان عربيّان جائزان.

(٢٢) • قرأ عَاصِمٌ، وَرَوْحٌ: ﴿فَمَكَتْ﴾ بفتح الكاف.

وقراها باقي القراء العشرة: [فَمَكَتْ] بضم الكاف.

وهما لُغَتَانِ لهذا الفعل في العربية.

(٢٢) • همزة «سَبَأٌ» فتحها أبو عَمْرٍو، والبزّي على أن الكلمة

ممنوعة من الصّرف، وأسكنها قُنبُل، حكاية لما يَقُولُهُ أَهْلُ هذه البلدة.
وقراها هشام، وحمزة بِالْفِ مدّة في الوقف.

وقراها باقي القراء العشرة: [مِنْ سَبَأٍ] مجرورة مصروفة.

وكُلُّهَا وجوهٌ جائزة في اللّسان العربيّ.

(٢٥) • قرأ الكسائي، وأبو جعفر، ورؤيس: [أَلَا يَسْجُدُوا] وسيأتي

توجيه هذه القراءة في التدبر إن شاء الله.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾.

(٢٥) • قرأ حَفْصٌ وَالْكَسَائِيُّ: ﴿مَا يُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بتاء

المخاطبين.

وقراها باقي القراء العشرة: [مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

(٢٨) • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهِمْ] بضم الهاء.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بكسر الهاء.

وهما وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ فِي النُّطْقِ.

(٢٩) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِنِّي أُلْقِي] بفتح ياء المتكلم.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿إِنِّي أُلْقِي﴾ بإسكان ياء المتكلم.

- (٣٢) • أثبت يعقوب ياء المتكلم في: [تَشْهَدُونِي] وقفاً ووصلاً.
وحذفها باقي القراء العشرة، وهو جائز في اللغة العربية.
- (٣٦) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [أَتَمِدُونَنِي] بإثبات الياء وصلاً.

- وقراها ابن كثير بالإثبات وضلاً ووقفاً.
- وقراها حمزة، ويعقوب: [أَتَمِدُونِي] بالنون المشددة مع إثبات الياء.
- وقراها باقي القراء العشرة: ﴿أَتَمِدُونَنِي﴾ بحذف ياء المتكلم ونونين منفكتين. وكلُّها وجوهٌ عربيَّةٌ جائزة.
- (٣٦) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ورؤيس [آتَانِي اللّهُ] بإثبات ياء المتكلم وفتحها وصلاً.

- ولقالون، وأبي عمرو، وحفص، إثباتها ساكنةً، وحذفها وقفاً.
- ولورش وأبي جعفر حذفها في الوقف.
- وقرأ رَوَحٌ بحذفها وضلاً، وإثباتها وقفاً.
- وهي وجوهٌ جائزةٌ في العربية.
- (٣٩) و(٤٠) • قرأ نافع، وأبو جعفر وصلاً: [أَنَا ءَاتِيكَ] بإثبات ألف «أنا» ومدّها.

- وقرأ باقي القراء العشرة بحذف ألف «أنا» وصلاً ووقفاً.
- (٤٠) • فتح ياء المتكلم في: [لَيَبْلُونِي ءَأَشْكُرُ] نافع وأبو جعفر.
- وأسكنها باقي القراء العشرة: [لَيَبْلُونِي ءَأَشْكُرُ].
- (٤٤) • قرأ قُتَيْبٌ: [سَاقِيهَا] بهمزة ساكنةٍ بَعْدَ السَّيْنِ.
- وقراها باقي القراء العشرة: ﴿سَاقِيهَا﴾ بألفٍ مَدِّيَّةٍ.
- وقراءة قبل هي على لغة مَنْ يَقلبُ الألفَ همزةً ساكنةً.

تمهيد:

يشتمل هذا الدرس على حديث يتعلّق بداؤد وولده سليمان عليهما السلام، وما آتاهما الله عزّ وجلّ من فضله ممّا امتنّ به عليهما، توطئة لبيان بعض ما اختصّ الله به سليمان عليه السلام، وبيان أحداث ذات شأن من تاريخه، لم تأت في النصوص الأخرى التي عرضت جوانب من قصة حياته.

وفي عرض هذه الأحداث تربية للرّسول محمد ﷺ، وتربية لأصحابه الذين آمنوا به واتّبِعوه، وبيان لوجود قوَى كونيّة خفيّة قد يُسخرها الله عزّ وجلّ بحكمته لمن يشاء من عباده.

وفي عرض بعضها تهديدٌ ضمنيّ لكبراء مُشركي مكّة وما حولها، بأنّ الله جلّ جلاله قد تقتضي حكمته أن يُسخرَ لِرّسوله محمّد ﷺ قوَى خفيّة يكونُ بها إهلاكُهم، وفيها ضَرْبٌ على نزعة الاستكبار في نفوسهم، رغبة في إقناعهم بأنّ ملكة سبأ ورجال ملكها الأشداء لم يمنّهم استكبارهم بملكهم وقوّتهم من أن يغتربوا بالحق، ويؤمنوا به، ويخضعوا بلادهم من قوّة سليمان القادرة على إذلّالهم واستعبادهم وامتلاك كلّ ما لهم من ملك وسلطان، فجاءوا إلى سليمان خاضعين مُستسلمين.

وكبراء مشركي مكّة يَعْلَمُونَ أنّه لم يكن لهم من المجد والسلطان في مكّة، مثل ما كان لملك سبأ ورجال مملكتها من قوّة ومجد ومال كثير وسلطان، فلا داعي للاستكبار الفارغ الصّاد لهم عن الحق، وعن الإيمان به، واتّباع النّبِيّ الرّسول محمّد ﷺ، فيما جاءهم به عن ربّه، فأوْهأهم الاستكباريّة قد لا يحققون بها شيئاً لأنفسهم، بل ستُسبّب لهم الدّلّ والخزي في الدّنيا، والعذاب الأليم الخالد مع الدّلّ والخزي يوم الدّين.

إلى غير ذلك من فوائد يشتمل عليها هذا الدرس.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْإِنسَانُ عَلِمْنَا مَطَاقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦):

سبقت دراسة ما جاء في القرآن كله بشأن داود عليه السلام، دراسة تكاملية في سورة (ص) وفي الملحق الثالث من ملاحق تدبرها.

وأسأل الله المعين الفتاح الوهاب أن يقضي لي بكتابة ملحق أدرس فيه ما يتعلق بسليمان عليه السلام، مما جاء في القرآن كله، دراسة تكاملية وفق المنهج الذي فتح به عليّ في دراسة النصوص القرآنية حول موضوع واحد.

قول الله تعالى:

• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾:

جاء البيان هنا مُصَدِّراً بالتوكيد بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ فاللام مؤكدة، ويرى كثير من النحويين أنها واقعة في جواب قَسَمٍ مَنَوِيٍّ، و﴿قَدْ﴾ للتحقيق وفيه قَصْدُ التوكيد أيضاً.

وهذا التوكيد ينسحب على كل ما جاء في هذا الدرس، وقد جيء به مراعاة لحال المنكرين أو الشاكين من الذين جاء الدرس لمعالجتهم وإقناعهم أو تربيتهم، كما سبق في التمهيد، أما الرسول والمؤمنون الصادقون، فليسوا بحاجة إلى توكيد، لكنهم داخلون ضمن الذين يُوجَّه لهم ما جاء في هذا الدرس، فروعهم حال الذين يُناسبهم التوكيد.

﴿آتَيْنَا﴾: أي: أعطينا. استعمل الإيتاء ومشتقاته في القرآن بمعنى «الإعطاء» دون فَرْقٍ، فلا داعي لاعتباره أخص.

نسب داود وسليمان عند المؤرخين:

سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نخشون بن عمينا أدا ب بن إرم بن حضرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

﴿عَلَّمَ﴾: جاء التنكير في هذا اللفظ لإفادَةِ تعظيمِ الْعِلْمِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

• .. وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ :

أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَا ثَنَاءَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَى اللهِ الْجَوَادِ الرَّهَابِ، الَّذِي فَضَّلَهُمَا بِهَبَاتِهِ وَمِنْجِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا التَّفْضِيلُ يَشْتَمِلُ الْمَادِّيَّاتِ وَالْمَعْنَوِيَّاتِ.

إِنَّهُمَا حَمِدَا اللَّهَ رَبَّهُمَا مُلَاحِظِينَ فِي هَذَا الْحَمْدِ مَا فَضَّلَهُمَا بِهِ مِنْ هَبَاتِهِ وَعَطَايَاهُ.

والتعبير بعبارة [قَالَا] يَضِدُّ بِأَن يَقُولَا مُجْتَمِعِينَ، كَمَا فَعَلَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، إِذْ دَعَا اللهُ رَبَّهُمَا وَهُمَا يَرْفَعَانِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِي مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ. وَيَضِدُّ بِأَن يَقُولَا مُتَّفَرِّقِينَ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالَّذِي كَانَ مِنْهُمَا فَعَلًا.

التفضيل: هو الإعطاء الزائد على النظراء أو أشباههم، مما يُحْمَدُ من مَادِّيَّاتٍ وَمَعْنَوِيَّاتٍ.

وقالَا: ﴿مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةً إِلَى أَنَّهُمَا لَا يَنْظُرَانِ إِلَى غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، مَهْمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ عَطَايَا دُنْيَوِيَّةٍ، كَالْفِرَاعِنَةِ وَالْأَكَاسِرَةِ، وَنَحْوِهِمْ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا، فَمَا هُمَا فِيهِ مِنْ إِيمَانٍ وَنُبُوءَةٍ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَا لَدَى مُلُوكِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَمْوَالٍ وَسُلْطَانٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَلِيْقُ

بالمؤمن أن يفاضل بين إيمانه وما آتاه الله من خير يجعله سعيداً في آخرته، وبين كل ما في الدنيا مما جعله الله زينة لها ولو اجتمعت لشخص واحد.

• ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتُمْ أَنْطَارَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦):

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾: الميراث: ما يملكه خلف عن سلف دون عوض، وهو يشمل الماديات والمعنويات، فيقال لغة: «ورث المال والمجد عن أبيه. وورثه منه. ويقال ورث فلان أباه».

والذي ورثه سليمان عن أبيه داود عليهما السلام دون سائر إخوته، هو الملك، والعلم، والحكمة الإدارية والسياسية، ومن علوم النبوة ما كان لداود منها ولم يوح إلى سليمان نظيره.

أما المال الخاص بداود، فالرأي الراجح عند المفسرين وأهل الحديث أنه لم يكن له منه ميراث، أخذاً مما صح عن الرسول ﷺ من أن أموال الأنبياء لا تورث من قبل الوارثين بالتسبب أو بالزواج، وأن ما تركوه يكون صدقة.

فقد روى البخاري في صحيحه أن أبا بكر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«لَا تُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ فِي هَذَا الْمَالِ».

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«لَا تُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً».

ونظيرهما في سنن أبي داود، وسنن الترمذي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيح ابن حبان، والسنن الكبرى للبيهقي، ومسند أبي يعلى.

وروى النسائي في السُّنَنِ الكُبْرَى في أوائل الفرائض، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«إِنَّا مَعَشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورُثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»^(١).

• ﴿وَقَالَ يَتَىٰهَا النَّاسُ﴾: أي: وقال سُلَيْمَان: يا أيها الناس، والظاهر أَنَّ هذا القول جاء في خُطْبَةٍ ملكِيَّةٍ خَطَبَهَا، جاء فيها بيان ثلاث قضايا:

القضية الأولى: دَلَّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ حكاية عنه: ﴿عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾.

مَنْطِقُ: مَصْدَرُ «نَطَقَ» يقال لغة: «نَطَقَ يَنْطِقُ نُطْقًا، وَنَطَقًا، وَمَنْطِقًا» أي: تكلَّم، بإحداثِ أَصْوَاتٍ لِيَدُلَّ بها على ما في نَفْسِهِ من أَحَاسِيْسٍ أو معَانٍ. وَالْمَنْطِقُ: الْكَلَامُ الَّذِي يَكُونُ بِالنُّطْقِ، وَيُعَبَّرُ عَمَّا فِي النَّفْسِ ضَمَنَ أَصْوَاتٍ فطرية، أو كلمات لُغَوِيَّة متعارف على دلالاتها.

الطَّيْرِ: جَمْعُ «طَائِرٍ» وَيُجْمَعُ أَيْضًا عَلَى «أَطْيَارٍ» و«طُيُورٍ» والطائر من الحيوان كلُّ ما يطير في الهواء بجناحين فأكثر.

وقد دَلَّ هذا الْبَيَانُ على أَنَّ لِلطُّيُورِ مَنْطِقًا تُعَبَّرُ بِهِ عَمَّا فِي أَنْفُسِهَا من أَحَاسِيْسٍ ومَشَاعِرَ وَرَغَبَاتٍ في حُدُودِ إِذْرَاكَاتِهَا لِلْمَعَانِي.

وَقَدْ أَعْطَى اللهُ عزَّ وجلَّ سُلَيْمَانَ عِلْمَ مَنْطِقِ الطَّيْرِ، فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَفْهَمُ من تقاطيع أصواتها ما تُعَبَّرُ بِهِ عَمَّا فِي نَفْسِهَا، وَكَانَ يُخَاطِبُهَا بِمِثْلِ أَصْوَاتِهَا فَتَفْهَمُ عَنْهُ حَدِيثَهُ لَهَا.

وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عَلِمْنَا﴾ بنون الجمع يَحْتَمِلُ اِحْتِمَالَيْنِ فيما أَرَى:

(١) عن تلخيص الحبير ج ٣ ص ١٠٠ وفيه: «وإسناده على شرط مسلم».

الاحتمال الأول: أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ أَبِيهِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، إِلَّا أَنَّ أَبَاهُ لَمْ يُغْلِنِ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَعْدِمُ هَذَا الْعِلْمَ، لَدَغِمِ مُلْكِهِ، وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِ فِي سُورَةِ (ص/٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشَى وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ تَحْسُرُهُ كُلُّ لَهٍ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

فربما كان يَسْتَعْدِمُهَا بِصَوْتِهِ بِحَسَبِ مَنْطِقِهَا، فَتَجْتَمِعُ لَهُ رَاجِعَةً إِلَيْهِ بَعْدَ انْصِرَافِهَا عَنْهُ لِأَرْزَاقِهَا.

الاحتمال الثاني: أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ بَنُو الْجَمْعِ، لِيَدُلَّ عَلَى عَظَمَةِ الْمُلْكِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، إِذْ كَانَ فِيهِ بِمِثَابَةِ مُلُوكِ، مَلِكٍ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْإِنْسِ، وَمَلِكٍ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، وَمَلِكٍ عَلَى الطَّيْرِ، وَهُوَ لَا يَقْصِدُ التَّعَاضُفَ وَالِاسْتِكْبَارَ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُ التَّحَدُّثَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ، فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرِيصاً عَلَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِرَبِّهِ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ (١٩) مِنْ هَذَا الدَّرْسِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً عَنْهُ: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: وَآتَيْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَضْلِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تُؤْتَاهُ مُلُوكُ الْأَرْضِ، مِنْ مَالٍ وَسُلْطَانٍ وَجُنْدٍ وَسَائِرِ قُوَى تُثَبِّتُ الْمُلْكَ، مَعَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَيَدْخُلُ أَبُوهُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْمَنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ بِشَأْنِهِ فِي سُورَةِ (ص/٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَمَّا بَيْنَهُ الْحِكْمَةُ فَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

فعبارة ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لا يُرادُ بها الْعُمُومُ الشَّامِلُ لِكُلِّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ شَيْءٌ، بل يُرادُ به من كُلِّ شَيْءٍ يُوْتَاهُ النَّاسُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا سِيَمَا الْمُلُوكِ، مِنْ نِعَمٍ هِيَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ. إِنَّهُ عُمُومٌ تَقْيِيدُهُ قِرَائِنُ الْأَحْوَالِ، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَبَالِغَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى مَزِيدِ شُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ.

وقد يكون المراد: من كُلِّ شَيْءٍ طَلَبْنَاهُ وَرَغَبْنَا فِيهِ لِأَنْفُسِنَا وَلِمُلْكِنَا وَسُلْطَانِنَا مِنْ أَشْيَاءِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا.

القضية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حكاية عنه: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

الفضل: الإحْسَانُ بِالْعَطَاءِ دُونَ سَبَبٍ سَابِقٍ يَقْتَضِيهِ إِلَّا إِرَادَةَ صَاحِبِ الْعَطَاءِ الْمَتَّفِضِلِ، وَدُونَ تَرْقُبٍ مَكَافَاةٍ أَوْ شُكْرٍ.

المُبِينُ: أي: الواضح الجليّ، من فِعْلٍ: «أَبَانَ يُبِينُ» بِمَعْنَى وَضَحَ وَانْجَلَى.

وَقَدْ كَانَ مَا فَضَّلَ بِهِ سُلَيْمَانُ وَأَبَوُهُ مِنْ قَبْلِهِ وَاضِحاً وَجَلِيّاً ظَاهِراً لِلنَّاسِ الَّذِينَ شَهِدُوهُ، أَوْ عَلِمُوا بِهِ.

فَأَعْلَنَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذَا الْبَيَانِ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَبِيهِ، وَأَشْعَرَ ضِمْنًا بِأَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ تَجَاهُ رَبِّهِ أَنْ يَشْكُرَ هَذَا الْفَضْلَ الْمُبِينِ، وَمِنْ شُكْرِهِ لِرَبِّهِ أَنْ يُقِيمَ الْعَدْلَ، وَيُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَيُكْثِرَ مِنْ عِبَادَتِهِ لَهُ بِمَا يُرْضِيهِ.

ولهذا قال في الآية (١٩) التالية:

﴿... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذِلِّحْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

قول الله عز وجل:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ بِتَأْيُهَا أُنْتَلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحِطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٨﴾ فَبَسَّرَ نَاصِحًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

تمهيد:

تَحَدَّثَ هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ عَنْ قِصَّةِ مُؤَكِّبٍ عَسْكَرِيٍّ، دَعَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِ جُنْدَهُ، لِيَسِيرَ بِهِ فِي رِحْلَةٍ تَذْرِيبِيَّةٍ، أَوْ اسْتَطْلَاعِيَّةٍ، أَوْ إِزْهَابِيَّةٍ، أَوْ قِتَالِيَّةٍ جِهَادِيَّةٍ.

فَمَرَّ فِي رِحْلَتِهِ سَالِكًا مُنْبَسِطًا مِنَ الْأَرْضِ، وَصَاعِدًا وَهَابِطًا، وَمَارًّا فِي وَدْيَانٍ، بِجُنْدِهِ مِنَ الْجِنِّ، وَالْإِنسِ، وَالطَّيْرِ، وَاسْتَمَرَّ يَجْتَازُ مَرَاحِلَ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ وَادٍ كَثِيرِ النَّمْلِ، يَخْضَعُ لِنِظَامِ مَمْلَكَةِ نَمْلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَلِهَذَا الْمَمْلَكَةِ نَمْلَةٌ مَلِكَةٌ عَلَيْهِمْ وَظِيفَتِهَا وَضَعُ الْبَيْضِ الْمَلْقَحِ مِنَ الذَّكَورِ، نَظِيرَ مَمَالِكِ النَّحْلِ، وَالْعَامَلَاتِ يَجْلُبْنَ لَهَا طَعَامَهَا.

وَعَلِمَتْ نَمْلَةٌ قَائِدَةٌ مِنْ جُنْدِ الْمَمْلَكَةِ أَنَّ جَيْشًا عَرْمَرَمًا بَدَأَتْ طَلَائِعُهُ تَدْخُلُ وَادِيَّ أُمَّتِهَا مِنَ النَّمْلِ، فَخَافَتْ عَلَىٰ أَفْرَادِهَا أَنْ يَتَحَطَّمُوا بِأَرْجُلِ الْجَيْشِ الْمَارِّ فِي وَادِيهِمْ، وَفِيهِمُ الرَّاجِلُونَ وَالرَّاكِبُونَ، وَقَدْ تَكُونُ مَعَهُمْ عَرَبَاتٌ تَجْرُهَا الدَّوَابُّ.

فَقَالَتِ النَّمْلَةُ لِأُمِّهِ مَمْلَكَتِهَا بِلُغَتِهَا النَّمْلِيَّةِ مَا مَعْنَاهُ، يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ لِتَحْمُوا أَنْفُسَكُمْ، مِنْ أَنْ يَحِطُمَكُمْ هَذَا الْجَيْشُ الْعَظِيمُ الْمَارُّ فِي وَادِيكُمْ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِكُمْ، وَلَا بِمَا يَجْرِي لَكُمْ.

وَرَبِّمَا يَكُونُ قَدْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهَا بَأْنَ قَائِدَ هَذَا الْجَيْشِ هُوَ الرَّسُولُ
سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَسَمِعَ سُلَيْمَانُ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ خُصُوصِيَّةٍ قَوْلَهَا، أَوْ أَبْلَغَهُ الرُّوحِيُّ
بِذَلِكَ، فَتَبَسَّمَ مِنْ قَوْلِهَا، وَهُوَ رَدُّ فِعْلٍ مَطْبُوعٍ فِي فِطْرِ النَّفُوسِ، عِنْدَ
شُعُورِهَا بِمُعْجِبٍ لَهَا مِنْ مَجْدٍ، أَوْ فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ.

وَنَظَرَ إِلَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَعِلْمٍ وَمُلْكٍ عَلَى
جَنِّ وَإِنْسٍ وَطَيْرٍ مِمَّا اخْتَصَّهُ اللَّهُ بِهِ، فَدَعَا رَبَّهُ بِالْدُّعَاءِ الَّذِي جَاءَ فِي الْآيَةِ
(١٩) مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ.

التدبير التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧):

الخَشْرُ: هُوَ الْجَمْعُ وَالسَّوْقُ، يُقَالُ لُغَةً: «حَشَرَ الْأَمِيرُ جُنْدَهُ يَحْشُرُهُمْ
وَيَحْشِرُهُمْ حَشْرًا» أَي: جَمَعَهُمْ وَسَاقَهُمْ.

جُنُودُهُ: الْجُنُودُ، وَالْأَجْنَادُ، جَمْعُ «الْجُنْدِ» وَهُمْ الْعُسُكِرُ. وَلَمَّا كَانَ
جُنُودُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ جِنٌّ، وَإِنْسٌ، وَطَيْرٌ، نَاسَبَ أَنْ
يَكُونَ لَفْظُ «الْجُنْدِ» مُجْمُوعاً عَلَى «جُنُودٍ».

﴿مِنَ الْجِنِّ﴾: أَي: مِنْ نَوْعِ الْجِنِّ، وَهُمْ خَلَقُوا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ،
مَخْلُوقُونَ مِنْ نَارٍ، مَكَلَّفُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَالْإِنْسِ، وَسَبَقَ التَّعْرِيفُ بِهِمْ
فِي سُورَةِ الْجِنِّ بِتَفْصِيلٍ.

وَقَدْ آتَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُدْرَةً عَلَى تَسْخِيرِ مَنْ يَشَاءُ
مِنَ الْجِنِّ، وَعَلَى تَجْنِيدِ جَيْشٍ مِنْهُمْ، بِطَاقَاتٍ خَاصَّةٍ وَهَبَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا،
خَارِجَةً عَنْ حُدُودِ طَاقَاتِ الْبَشَرِ الْمَعْرُوفَةِ لِسَائِرِ النَّاسِ، فَاتَّخَذَ مِنْهُمْ جُنُوداً

مُقَاتِلِينَ، وَبَنَائِينَ، وَغَوَاصِينَ، وَصَانِعِي أَدَوَاتٍ مَعْدَنِيَّةٍ، وَنَحَّاتِينَ.

ولعلَّ تقديمهم في الآية على الإنسانِ للدلالة على أَنَّ أعدادَ جُنْدِهِ مِنْهُمْ أكثر من أعداد جُنْدِهِ من الإنسانِ، أو للدلالة على أَنَّ قدراتهم القتالية كانت أعظم من قُدْرَاتِ جُنْدِهِ من الإنسانِ.

الطير: جمع طائر، وهو من الحيوان ما يطير بجناحين فأكثر، والمراد هنا أصناف الطيور التي تَطِير بجناحين كالنسور والصقور، والغربان، والهداهد، والعصافير.

وقد أتى الله عزَّ وجل سليمان عليه السلام قُدْرَة خاصّة على تسخير الطيور ومحادثتها بحسب منطِق كلِّ نوع منها.

ولجنوده من الطير وظائف مُتَعَدِّدَة، منها تظليل الجيش من حرِّ الشمس، ومنها الصيد، وقد يكون مِنْهَا القتال.

﴿فَهُمْ يُرْغَوْنَ﴾: أي: فَهُمْ يُجْمَعُونَ في مكانٍ جامع، وَيُرْتَبُونَ صُفُوفًا، وَيُسَوَّوْنَ للقيام منتظمين بما يكلّفونه من أعمال.

أضلُّ الوُزْع الكُفُّ والحبس، والمراد كُفُّهم بترتيبهم وِصْفُهُمْ، وَمَنْعُهُمْ من التفرُّق والانتشار.

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ قَادَتَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ، أَنْ يَخْشُرُوا لَهُ جُنْدَهُ مِنْهُمْ وَيُسَوِّفُوهُمْ وَيُرْتَبُوهُمْ فِي صُفُوفٍ مُسْتَوِيَةٍ مُنْتَظِمَةٍ، وَيَكْثُفُوهُمْ فِيهَا عَنِ التَّفَرُّقِ، التَّزَامًا بِمَا يُوجِبُهُ النِّظَامُ الْعَسْكَرِيُّ، لِيَسِيرَ بِهِمْ فِي مُهِمَّةٍ مِنَ الْمِهْمَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَقَدْ تَمَّ لَهُ ذَلِكَ وَتَحَقَّقَ مَا أَمَرَ بِهِ.

الوازعون في الحرب هم الموكّلون بالصفوف يَزْعُونَهَا كُفًّا وَجَمْعًا وتنظيمًا وحثًا على ما يقتضيه العمل.

قول الله تعالى:

• ﴿حَقَّ إِذَا أَتَا عَلَىٰ الْنَّمْلِ﴾: أي: فسار سليمانُ عَلَيْهِ السَّلام بجُنْدِهِ يجتاز أَرْضاً فَأَرْضاً، سالكين أو صَاعِدِينَ أو هَابِطِينَ بِحَسَبِ طَبِيعَةِ الْأَرْضِ الَّتِي يَغْبِرُونَهَا، حَتَّى أَتَوْا مُشْرِفِينَ عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ، وَمُتَوَجِّهِينَ لِلْهُبُوطِ إِلَيْهِ وَعَبُورِهِ.

ووصفه الله عزَّ وجلَّ بأنه وادي النمل لِكَثْرَةِ أَغْدَادِ النَّمْلِ الْمُنْتَشِرَةِ فِيهِ، وَهُمْ بِمِثَابَةِ مَمْلَكَةٍ، لَهَا مَلِكَةٌ نَمَلَةٌ مِنْهُمْ، كَمَا هُوَ الشَّانُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى خَلَائِجِ النَّحْلِ، وَهَذِهِ النَّمْلَةُ الْمَلِكَةُ تَسُوسُهُمْ وَتَقُودُهُمْ فِي حُدُودِ فِطْرَتِهِم الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَمَدَارِكِهِم الَّتِي آتَاهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا.

قول الله تعالى:

• ﴿قَالَتْ نَمَلٌ يَتَّبِعُهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿نَمَلٌ﴾: التاء هي تاء الوحدة، لا تاء التأنيث، فَلَفِظَ «نَمْلٌ» اسم جنسٍ جَمْعِيٍّ، يُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاحِدَةٍ بِالتَّاءِ، مِثْلُ: تَمْرٌ وَتَمْرَةٌ، وَشَجَرٌ وَشَجَرَةٌ، وَنَحْلٌ وَنَحْلَةٌ.

تعيش أُمَّةُ النَّمْلِ فِي جَمَاعَاتٍ ذَاتِ نِظَامٍ فَطَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، فَهِيَ مِنَ الْحَشَرَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ كَمَمَالِكِ النَّحْلِ.

وَقَدْ تَحْتَوِي مُسْتَعْمَرَةُ النَّمْلِ الْمَلَائِينَ مِنْ أَفْرَادِهَا، وَتَخْضَعُ لِنِظَامٍ مَلَكِيٍّ، فِي كُلِّ مُسْتَعْمَرَةٍ مَلِكَةٌ أَوْ عِدَّةُ مَلِكَاتٍ، وَأَجَلُ أَعْمَالِ الْمَلِكَةِ وَضْعُ الْبَيْضِ، وَمَعْظَمُ أَفْرَادِ مُسْتَعْمَرَةِ النَّمْلِ عَامِلَاتٌ إِنَاثٌ كَالْمَلِكَةِ، وَهِيَ تَبْنِي الْمَسَاكِنَ، وَتَجْلُبُ الْغِذَاءَ، وَتَرْعَى الصَّغَارَ، وَتَحَارِبُ الْأَعْدَاءَ.

وعمل الذكور تلقيح الملكات، وتموت بعد ذلك مباشرة، فوجودها في مساكن النمل يكون في أوقات معينة وقصيرة تُؤدِّي فيها مهمتها.

ويوجد من النمل أكثر من عشرة آلاف نوع، وأكبر النمل حَجْماً لا يزيد طُولُهُ على (٢,٥سم) وأُمَّة النمل تبني مساكنها في باطن الأرض أو في تلالٍ بناءً محكماً تصلُّ فيه التهوية إلى أعماق حجراتها وأصغرها.

وَأَبَانَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ لِلنَّمْلِ لُغَةً تَتَخاطَبُ بِهَا، عَلَى مِقْدَارِ مَا وَهَبَهَا مِنْ قُدْرَاتٍ إِذْرَاكِ وَتَغْيِيرٍ فِيمَا بَيْنَهَا.

ومن العائلات في مملكة النمل جُنْدِيَّاتٌ دِفَاعٍ وَقِتَالٍ وَإِنذَارٍ وَتَحْذِيرٍ، على ما ذكر علماء الحيوان.

ويظهر أَنَّ جُنْدِيَّةً قَائِدةً مِنَ النَّمْلِ، هِيَ الَّتِي وَجَّهَتِ التَّحْذِيرَ لِلنَّمْلِ الْمُنْتَشِرِ فِي الْوَادِي خَارِجَ الْمَسَاكِنِ لَجَلْبِ الْأَرْزَاقِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى مَعْنَاهُ:

﴿يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمْكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

لقد شاهدت هذه الجندية القائدة طلائع جيشٍ قادمٍ يُريدُ أَنْ يَغْبِرَ الوادي، فَأَذْرَكْتُ أَنَّ غُبُورَهُ فِيهِ سَيَجْعَلُ أَرْجُلَ بَشَرِهِ، وَبِهَائِمِهِ، وَعَجَلَاتِ عَرَبَاتِهِ، تَدُوسُ أَفْرَادَ أُمَّةٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِقَتْلِهِمْ، فَيَحْطِطُنَ قَتِيلَاتٍ، إِذْ هُنَّ مَنْتَشِرَاتٌ كَأَذَاتٍ لَجَلْبِ الْأَرْزَاقِ، فَأَبْلَغْتُهُمْ بُلْغَتَهَا قَائِلَةً: ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ حِمَايَةً لَكُمْ مِنْ تَخْطِيمِ أَفْرَادِ الْجَيْشِ لَكُمْ دُونَ قَصْدٍ مِنْهُمْ لِقَتْلِكُمْ.

معاني الخوف من القتل ممَّا تُذَكِّرُهُ الْحَيَوَانَاتُ كُلُّهَا كِبَارُهَا وَصَغَارُهَا، لِذَلِكَ فَهِيَ تَحْمِي نَفْسَهَا مِنْهُ، وَأُمَمُ الْحَيَوَانَاتِ ذَاتِ النِّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ قَدْ آتَاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا تُذَكِّرُ بِهِ مِنَ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ مَا يَتَصَلُّ بِرِزْقِهَا، وَأَمْنِهَا، وَتَزَاوُجِهَا، وَالْعَنَايَةِ بِصِغَارِهَا، وَنِظَامِ جَمَاعَتِهَا، وَضُرُورِيَّاتِ حَيَاتِهَا، وَمَا تَتَفَاهَمُ بِهِ فِيمَا بَيْنَهَا.

• ﴿يَأْتِيهَا النَّمْلُ﴾: أَي: نَادَتْ جَمَاعَاتِ النَّمْلِ بِأَقْصَى مَا اسْتَطَاعَتْ

من نداء.

• ﴿أَدْخُلُوا﴾: معنى الدُّخُول والخروج والانتقال من مكان إلى مكان ممَّا تُذَكِّرُهُ الحيوانات، فهي تُعَبِّرُ عنه بِحَسَبِ لُغَتِهَا مع أفراد أُمَّتِهَا.

• ﴿مَسْكِنَكُمْ﴾: ومعنى المساكن والبيوت ممَّا تُذَكِّرُهُ بِفِطْرَتِهَا، لذلك فهي تتخذُ لِنَفْسِهَا مَسَاكِينَ تَأْوِي إِلَيْهَا، وتتفاهم فيما بَيْنَهَا عَلَيْهَا.

• ﴿لَا يَخْطَمَنَّكُمْ﴾: أضلُّ الحِطْمِ الكَسْرُ على أيِّ وَجْهِ، دون عناية بالمكسور ولا اكتراث له، ولا التفاتٍ إلى أيِّ شَأْنٍ من شُؤُونِهِ.

معنى تكسير الشيء، وقتل الحي، وتمزيق أوصاله، ممَّا تُذَكِّرُهُ الحيوانات، وتتفاهم فيما بَيْنَهَا عَلَيْهِ، ويدُلُّ على هذا سُلُوكُهَا مع أعدائها من الحيوانات، إذ هي تتَخَلَّصُ مِنْهُمْ بِإِمَاتَتِهِمْ وتمزيق أوصالهم، وجاءت العبارة مؤكدةً للدلالة على معنى التأكيد في قولها بمنطق النمل.

• ﴿سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ﴾: إِنْ كَانَتِ النَّمْلَةُ قَدْ سَمَتْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فهذا قَدْ يَكُونُ بَوْحِي مِنَ اللَّهِ إِلَيْهَا. وَيَخْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ العبارة شَرْحاً رَبَّانِيّاً لِمَنْ دَلَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُهَا، إِذْ يَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهَا: لَا يَخْطَمَنَّكُمْ جَيْشُ قَادِمِ سَيْغَبُرٍّ وَادِيَكُمْ وَأَبَانَ اللَّهِ أَنَّ الْجَيْشَ يَتَكَوَّنُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَجُنُودِهِ، إِذْ هُوَ وَاقِعُ الْحَالِ.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ قَوْلِ النَّمْلَةِ عَلَى مَا هُوَ ظَاهِرُ الْبَيَانِ، فَهُوَ تَابِعٌ لِمَا أَوْحَى اللَّهُ بِهِ إِلَيْهَا عَلَى احْتِمَالِ كَوْنِ ذِكْرِ سُلَيْمَانَ وَجُنْدِهِ مِنْ قَوْلِهَا.

وَيَخْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَيَاناً تَابِعاً لِلشَّرْحِ الرَّبَّانِيِّ السَّابِقِ، وَفِيهِ بَيَانُ عُذْرِ سُلَيْمَانَ وَجُنْدِهِ إِذَا مَرُّوا وَحَطَّمُوا النَّمْلَ الْمُنْتَشِرَ فِي الْوَادِي.

الشُّعُورُ بِالشَّيْءِ: الْعِلْمُ بِهِ، وَلَوْ مِنْ أَدْنَى دَرَجَاتِ الْإِحْسَاسِ بِهِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَرَاكِلِ إِدْرَاكِهِ. وَقَدْ يَكُونُ فِي اللُّغَةِ مَاخُذاً مِنَ الشَّيْءِ يَلَامِسُ الشَّعْرَ، فَيُحَسُّ بِهِ الْإِنْسَانُ إِحْسَاناً خَفِيفاً، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْإِدْرَاكَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْأُولَى الْخَفِيفَةِ.

قول الله تعالى:

• ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٦﴾ :

لم يَقُلْ سُلَيْمَانُ عليه السلام في خطبته الَّتِي سَبَقَ شَرَحَ قضاياها: أَوْتَيْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ، بل اقتصر على «مَنَظِقِ الطَّيْرِ».

واتجهت آراء المفسرين إلى أَنَّهُ سَمِعَ قولَ النَّمْلَةِ وَفَهِمَ مَنَظِقَهَا، ولكنَّ النَّصَّ ليس بصريح في هذا، بل يُمكن حَمْلُهُ على أَنَّ الْوَحْيَ أَبْلَغَهُ قَوْلَهَا، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْهُ، فالعبرة على تقدير: فعلم عن طريق الوحي قولها فَتَبَسَّمَ.

الضَّحِكُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ انْفِرَاجُ الشَّفَتَيْنِ عَمَّا فِي دَاخِلِ الْقَمِّ، وَلَهُ دَرَجَاتٌ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ، وَقَدْ يَكُونُ مَصْحُوبًا بِصَوْتِ خَفِيفٍ أَوْ شَدِيدٍ، وَيُشِيرُ الضَّحِكُ سُرُورًا أَوْ إِعْجَابًا، أَوْ اسْتِهْزَاءً وَسَخَرِيَّةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

التَّبَسُّمُ: مِنْ دَرَجَاتِ الضَّحِكِ الْخَفِيفَةِ، الَّذِي لَا يَكُونُ مَصْحُوبًا بِصَوْتٍ، وَهُوَ مِنْ آدَابِ الْكِبَرَاءِ الْعُقَلَاءِ الرَّازِينَ، الَّذِينَ لَا تَسْتَخْفُهُمُ السَّارَاتُ وَالْمَعْجَبَاتُ، بَلْ يَعْبُرُونَ عَنْ سُورِهِمْ وَإِعْجَابِهِمْ بِالتَّبَسُّمِ.

ولهذا ثبت في شمائل الرسول محمد ﷺ أَنَّ ضَحِكَهُ قَدْ كَانَ تَبَسُّمًا، فَهُوَ لَا يَكُونُ مَصْحُوبًا بِصَوْتٍ فَهَقَهَةٍ وَلَوْ كَانَ خَفِيفًا.

وأبان هذا النص أَنَّ سُلَيْمَانَ عليه السلام ضَحِكَ مِنْ دَرَجَةِ التَّبَسُّمِ، فَلَمْ يَكُنْ ضَحِكُهُ مَصْحُوبًا بِصَوْتٍ فَهَقَهَةٍ.

ولمَّا كَانَ انْفِرَاجُ الشَّفَتَيْنِ عَمَّا فِي دَاخِلِ الْقَمِّ قَدْ لَا يَكُونُ تَبَسُّمًا مِنْ ضَحِكٍ مَسْرَّةً أَوْ إِعْجَابًا، جَاءَتْ كَلِمَةُ «ضَاحِكًا» قِيدًا لَازِمًا، فَهِيَ «حَالٌ» كَاشِفَةٌ لِلْمُرَادِ بِالتَّبَسُّمِ، أَي: هُوَ تَبَسُّمٌ مِنَ الضَّحِكِ.

﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ أَي: مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهَا، فَقَدْ دَلَّ عَلَى إِدْرَاكِهَا لِمَا

يمكن أن يفعلَه جيشه، وَعَلَى جِرْصِهَا عَلَى أُمَّتِهَا، وَتَحْذِيرِهَا أَفْرَادَهَا، وَدَلٌّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ إِذْ مَنَحَ حَشْرَةَ النَّمْلِ إِدْرَاكَاً وَبَيَاناً ومشاعر جماعية، واهتماماً بأداء الواجب الاجتماعي لأُمَّتِهَا.

وذكرَهُ هذا الحدثُ بما أنعم الله به عليه وعلى والدَيْهِ، فدَعَا رَبَّهُ، بَعْدَ أَنْ أَثْنَى عليه حامداً بما هو له أَهْلٌ من المحامد، دَلٌّ عَلَى الْحَمْدِ المطويِّ في النصِّ، أَنَّ من أدب الدُّعاء البدء بالثناء على الله وحمده، فالواو تعطف على محذوف في:

﴿وَقَالَ﴾: أَي فَحَمِدَ اللَّهُ عَلَى نِعَمِهِ، وَقَالَ دَاعِياً:

﴿.. رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذِخْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٦):

اشتمل هذا الدُّعاء عَلَى ثلاثة مطالب، بَعْدَ أَنْ نَادَى رَبَّهُ من دون أداة نداءٍ مذكورة، إشعاراً بأنَّ رَبَّهُ أَقْرَبُ إِلَى قَلْبِهِ من حَبْلِ الْوَرِيدِ، قائلاً ﴿رَبِّ﴾: أَي: يَا مَنْ تَتَصَرَّفُ بِي بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِكَ، وفي العبارة حَذْفُ ياء المتكلم أيضاً للإيجاز، ولعلم المؤمن بقرب رَبِّهِ منه.

فالمطلب الأول: دَلٌّ عَلَيْهِ قول الله عَزَّ وَجَلَّ حكاية عنه: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَلَدَيَّ﴾:

أَي: أَلْهِمْنِي، وَأَغْرِنِي، وَحَرِّكْ دَوَافِعِي واجمع نَفْسِي وَقَلْبِي وإراداتي لأنَّ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ بِهَا عَلَيَّ وَعَلَى وَلَدَيَّ.

دَلٌّ هَذَا عَلَى أَنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى والدَيْهِ، لِأَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ تَجْرِي آثارُهَا إِلَى الْوَلَدِ، فَمِنْ التَّقْوَى أَوْ مِنَ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ أَنْ يَشْكُرَ الْوَلَدُ لِرَبِّهِ عَلَيْهَا. وَدَلٌّ أَيْضاً عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الْوَلَدُ عَنْ والدَيْهِ يَنْفَعُهُمَا عِنْدَ اللَّهِ إِذَا كَانَا مُؤْمِنِينَ، وَيُسَجَّلُ لَهُمَا فِي صَحَافِهِمَا، لِأَنَّهُ مِنْ كَسْبِهِمَا.

وقد جاء في النصوص الإسلامية الصحيحة ما يدلُّ على هذا، فهو من فضل الله على عباده في الدين الذي اصطفاه لهم.

الشكر مقابلةً لإنعام المنعم بما يُرضيه من فعلٍ أو ترك، أو أي شيء ماديٍّ يسره، وقد يشمل القول الذي فيه ما يُرضي المنعم، إلا أن بغض القول يختص بعنوان الحمد والثناء.

﴿أَوْزَعِي﴾ يقال: أوزعه إياه، أي: ألهمه إياه، وأغراه به، وأولعه به، أما «وَزَعُهُ» فمعناه كَفُّه ومنعُه وحَبْسُه، ومنه «الْوَزَعَةُ» جمع «وازع» الذي يكف ويمنع الجند عن الخروج عن الصف و«الْوَزَعَةُ» الولاة المانعون من محارم الله تعالى.

﴿نِعْمَتَكَ﴾: أي: عطاياك النافعة والسارة التي أنعمت بها متفضلاً عليّ وعلى والديّ.

﴿وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾: أي: وعلى أبي «داود»، وعلى أمي، وهي «بثشبع» بنت «إلياقام» التي كانت زوجة «أوريا» الحثي، أحد قواد داود عليه السلام.

ونعم الله عز وجل على داود كثيرةً جاء بيان بعضها في قصته، التي سبق ذكرها لدى تدبر سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول).

والمطلب الثاني: دلَّ عليه قول الله عز وجل حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾.

أي: وألهمني أن أعمل عملاً صالحاً ترضاه مني، وترضى به عني. وأغرني به، واجعلني مولعاً بالقيام به، وبأدائه.

العمل الصالح: هو كلُّ عملٍ نافع مُفيد خالٍ من الفساد، يجلبُ خيراً عاجلاً أو آجلاً، دنيوياً أو آخروياً، وأفضل العمل الصالح طاعة الله عز وجل فيما أمر به أو نهى عنه.

وَقَيَّدَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ بِقَيْدِ ﴿تَرْضَاهُ﴾ فِي دُعَائِهِ رَبَّهُ، اخْتِرَاساً مِنَ الْوُقُوعِ فِي تَصَوُّرَاتٍ خَاطِئَاتٍ يَرَى بِهَا أَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، لَكِنَّهُ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ عَمَلٌ لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ، لَمَّا فِيهِ مِنْ فَسَادٍ يَخْفَى عَلَى الْعِبَادِ وَلَوْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ.

يقال لغة: «رَضِيَ الشَّيْءُ»، وَرَضِيَ بِهِ، وَرَضِيَ عَنْهُ، وَرَضِيَ عَلَيْهِ، يَرْضَى، رِضاً، وَرِضَاءً، وَرِضْوَاناً، وَمَرْضَاضَةً أَي: قَبْلَهُ، وَوَافَقَ مُرَادَهُ، أَوْ جَعَلَ لَهُ عِنْدَهُ مَكَانَةً وَحُطُورَةً حَتَّى رَضِيَ عَنْهُ..

واسمُ الفاعِلِ «رَاضٍ» واسمُ المفعولِ «مَرْضِيٌّ».

لفظ ﴿صَلِحًا﴾ وَضِفَ لِمَوْصُوفٍ مُحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: «عَمَلًا» وَهُوَ حَذَفَ مَأْلُوفٌ وَحَسَّنَ لِلإِيجَازِ.

والمَطْلَبُ الثالثُ: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامَ: ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾:

أَي: وَاجْعَلْنِي بِقَدْرِكَ وَقَضَائِكَ النَّاتِجِينَ عَنْ رَحْمَتِكَ دَاخِلًا فِي سِجْلِ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ دَخَلَ اسْمُهُ فِي سِجْلِ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، دَخَلَ ذَاتُهُ يَوْمَ الدِّينِ فِي زُمْرَةِ عِبَادَةِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، فِي الْحَشْرِ وَفِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَاتِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ.

جاء لفظ «الصَّالِحِينَ» فِي الْقُرْآنِ وَضُفًّا لِلْمُرْسَلِينَ وَلِلْأَنْبِيَاءِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِي يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ. وَأَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الصَّالِحِينَ الْأَوَابِينَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا بَعْضَ الْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفَاتِ رَجَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ، وَلَوْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُمْ.

قول الله عز وجل في متابعة الحديث عن سليمان عليه السلام:

• ﴿وَتَقَعَّدَ الظَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢١﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٣﴾ إِنِّي وَجَدْتُ
أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشُ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا
يَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٧﴾﴾ :

تمهيد:

في هذه الآيات السبع بيان لقطاتٍ من فضل ذي شأنٍ من فصول
تاريخ سليمان عليه السلام، في إدارته لمملكته الشاملِ للجن والإنس
والطير، وهو فضلٌ يدلُّ على عناية سليمان الشديدة بنشر دين الله الحق في
الناس، ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

هذه اللقطات تتعلق بتفقدِه لجُنْدِه من الطير، فلم يجد بين جُنْدِه منها
«الهُدْهَد» ويظهر أن المراد قائد الطيور من نوع الطائر الذي يُسمَّى
«هُدْهَدًا» وربما كان معه جماعة من الهداهد التي قد ترافقه في حِلِّهِ
وترحاله.

وهذا الطائر كان يجب عليه أن يكون حاضراً حين تفقد سليمان عليه
السلام جُنْدِه، ومنهم جنوده من الطير.

فلما رأى الهُدْهَدَ غائِباً عن الحضور الواجب عليه، قال مخاطباً قَادَةَ
جُنْدِه: مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ، هَلْ هُوَ حَاضِرٌ إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَرَهُ، أَمْ كَانَ
غَائِباً مِنَ الْغَائِبِينَ عَنِ الْحُضُورِ الْوَاجِبِ، فَإِنْ كَانَ غَائِباً فَلَأَعَابِقْبُهُ عَلَى
مَعْصِيَتِهِ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ، أَوْ بِذَنْبِهِ، إِلَّا أَنْ يُقَدِّمَ حُجَّةً وَاضِحَةً عَلَى عُذْرِهِ فِي
الغِيَابِ عَنِ الْحُضُورِ الْوَاجِبِ.

وَلَمَّا عَلِمَ الْهُدُودُ غَضَبَ سُلَيْمَانَ مِنْهُ، إِذْ غَابَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْطِيهِ
إِذْنًا، أَسْرَعَ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ عَنِ الْمَلِكِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ نَظَرَ الْغَاضِبِ،
فَقَالَ: أَحَظْتُ عِلْمًا بِأَمْرِ عَظِيمٍ لَمْ تُحِظْ بِهِ أَنْتَ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّةَ «بَلْقِيسَ»
مَلِكَةِ سَبَأَ، وَعِبَادَتِهَا مَعَ قَوْمِهَا لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

الهُدُودُ: ذكر علماء الحيوان أن الهُدُودَ طائرٌ أصفر وردي اللون، له
تاجٌ رائعٌ من الريش على رأسه، وله خطوط سوداء وبيضاء على جناحيه
وذيله، وهو يعيش في الأقاليم الأكثر دفئاً في أوروبا وآسيا وأفريقية.

وطيورُ الهُدُودِ تبني أعشاشها في جحور الأشجار والجدران
والصخور، وتضع الأنثى ما بين (٥ - ٧) بيضات، ويُطعم الذكر الأنثى
عندما تحضن بيضها، وهي تأكل الحشرات، وتقضي أوقاتاً كثيرة على
الأرض باحثة عن غذائها.

وذكر المفسرون أن الله عز وجل فطر طيور الهُدُودِ على معرفةٍ مواقع
وجود الماء في باطن الأرض، فإذا رُفِرَ على موضعٍ عُلِمَ أن به ماءً،
ولعلَّ هذا من أسبابِ اتِّخَاذِ سُلَيْمَانَ لطيور الهُدُودِ ضمن جنوده من الطير.

التدبر التحليلي:

• ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾: أي: وطاف سليمان في إحدى مهمَّاته في جُنْدِهِ
يَتَفَقَّدُ فَصَائِلَ الطيور التي جندَها لجيشه.

تَفَقَّدَ: أي: مشى يَنْظُرُ لِيَعْلَمَ المفقودَ الغائبَ عن الحضور الواجب
ضمن جُنْدِهِ من الطير.

• ﴿فَقَالَ مَالِكٌ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٧١): أي:
فَلَمْ يَرَ قَائِدَ طيور الهُدُودِ، فقال: ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهُدُودَ﴾ قرأ ابن كثير،
وهشام، وعاصم، والكسائي بفتح ياء المتكلم، وقرأ باقي القراء العشرة

بإسكانها، والمعنى: ما الأمر الذي حصل لي حالة كوني لا أرى الهدد، هل هو حاضرٌ إلا أنني لم أره بين الطيور ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الذين غابوا عن الحضور الواجب، ففي العبارة مطوي يسهل استخراجها مما يقتضيه التزديد بحرف العطف «أم» بين احتمالين، وقد ذكرت ما يدل عليه.

• ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾: وقرأ ابن كثير ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي﴾ بإثبات نون الوقاية، إثباتها وحذفها وجهان جائزان في العربية.

دلّت هذه الآية على أن سليمان عليه السلام تَوَعَّدَ الْهُدْهَدَ بِإِخْدِىْ عُقُوبَتَيْنِ، عُقُوبَةُ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْمُؤْلَمِ، أَوْ الذَّبْحِ، وَيُعْفِيهِ مِنْهُمَا أَنْ يُقَدَّمَ حُجَّةً وَاضِحَةً تُبَيِّنُ عُذْرَهُ فِي غِيَابِهِ.

أي: فلما عَلِمَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْهُدْهَدَ غَائِبٌ أَغْلَنَ تَوَعُّدَهُ الَّذِي لَا يُعْفِيهِ مِنْهُ إِلَّا عُذْرٌ مَقْبُولٌ.

العَذَابُ: الْعِقَابُ الْمُؤْلَمُ.

السُّلْطَانُ الْمُبِينُ: الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ، وَهَذَا أَخَذَ مَعَانِي السُّلْطَانِ.

اللام في الأفعال الثلاثة وإفعة في جواب قَسَمِ مَنْوِيٍّ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ غَضِبَ مِنْ غِيَابِ الْهُدْهَدِ فَأَقْسَمَ مُتَوَعِّدًا. وهذه اللام الواقعة في جواب قَسَمِ مَنْوِيٍّ يَجِبُ فِي الْعَرَبِيَّةِ تَأْكِيدُ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ بَعْدَهَا بِنُونِ التَّوَكِيدِ.

وقد جعل العقوبة على الغياب الذي لا عُذْرَ لِلْهُدْهَدِ فِيهِ عَلَى فَرَضٍ تَحْقِيقِهِ، مُتَرَدِّدًا بَيْنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ وَالذَّبْحِ، ثُمَّ هُوَ يَخْتَارُ عِنْدَ التَّنْفِيزِ مَا يَرَاهُ الْأَفْضَلَ وَالْأَحْكَمَ لِيَكُونَ مَوْعِظَةً لِسَائِرِ الْجُنْدِ، وَتَأْدِيبًا وَتَرْبِيَةً لَهُمْ.

• ﴿فَكَثَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٧٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَاءَ تَمْلِكُكُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشُ عَظِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ... ﴿٧٤﴾ مَكَثَ: فيها قراءتان بفتح الكاف وضمها من باب نصر، وباب كرم.

أي: فَبَلَغَ الْهُدُودَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَأَعْلَنَ تَوَعُّدَهُ لَهُ بِالتَّغْذِيبِ أَوْ الذَّبْحِ، مَا لَمْ يَأْتِ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ يُقَدِّمُ فِيهِ عُذْرَهُ الْوَاضِحَ الْمَقْبُولَ، فَأَسْرَعَ قَادِمًا فَحَظَّ فَمَكَثَ مَكَانًا غَيْرَ بَعِيدٍ عَنْ مَكَانِ سُلَيْمَانَ.

مَكَثَ: أي: لَزِمَ مَكَانَهُ مُتَمَهِّلًا مُنْتَظِرًا. غَيْرَ بَعِيدٍ: أي: وَغَيْرَ قَرِيبٍ فَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا.

وبعد أَنْ عَلِمَ سُلَيْمَانُ بِحُضُورِهِ سَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ تَغْيِيهِ بِحَسَبِ مَنْطِقِهِ الْهُدُودِيِّ، فَقَالَ الْهُدُودِيُّ كَلَامًا دَلَّ عَلَى مَعْنَاهُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾:

أي: عَلِمْتُ بِأَمْرِ عَلَى وَجْهِ الْإِحَاطَةِ بِهِ لَمْ تُحِطْ أَنْتَ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ أَرْضِ سَبَأٍ فِي الْيَمَنِ بِنَبَأٍ يَقِينٍ.

أَصْلُ الْإِحَاطَةِ بِالشَّيْءِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْقَبْضِ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ، يُقَالُ: أَحَاطَ الْجَيْشُ بِالْبَلَدِ، أي: صَارَ مِثْلَ السَّوَارِ حَوْلَ كُلِّ بُيَانِهَا، وَاسْتُعْمِلَتِ الْإِحَاطَةُ بِمَعْنَى الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ عِلْمًا شَامِلًا كُلَّ نَوَاحِيهِ وَجَوَانِبِهِ. يُقَالُ: أَحَاطَ بِالشَّيْءِ أَوْ بِالْأَمْرِ عِلْمًا، أي: أَدْرَكَهُ عَلَى وَجْهِ الْإِحَاطَةِ.

سَبَأٌ: أَرْضٌ بِالْيَمَنِ، حَاضِرَتُهَا مَدِينَةُ «مَأْرِبَ» وَكَانَتْ تَمْلِكُ السَّبْئِيِّينَ فِي عَهْدِ «سُلَيْمَانَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ «بَلْقِيسَ» بَيْتَ شَرْحِبِيلَ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

﴿يَبْنَؤُ﴾: أي: بِحَبَرٍ بَارِزٍ يُشِيرُ الاهتمام. النَّبَأُ: الخبر ذو الشأن الخطير.

﴿يَقِينِ﴾: أي: حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، يَسْتَنِدُ إِلَى إِدْرَاكِ حِسِّي.

ولا يَخْفَى ما في عبارة: ﴿مِنْ سَيِّئٍ يَبْنَؤُ﴾ مِنْ جِنَاسٍ نَاقِصٍ مع تطابُقِ الحركات بين «سَبَأٌ» و«نَبَأٌ» ووقع التَّنْقِطُ على السَّمْعِ وَقَعاً مُسْتَحْبَباً.

وَبَدَتْ عَلَى وَجْهِ سُلَيْمَانَ فِيمَا يَظْهَرُ عِلَامَةُ الاسْتِفْهَامِ عَنِ النَّبَأِ، فَقَالَ الْهُذْهَدُ:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَرَّشَ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾:

لَمْ يَصِلْ عِلْمُ الْبَشَرِ حَتَّى عَصَرْنَا إِلَى أَنَّ الطَّيُورَ أَوْ نَوْعًا مِنْهَا لَدَيْهَا الْقُدْرَةُ عَلَى إِدْرَاكِ مِثْلِ هَذِهِ الْقَضَايَا الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا الْهُذْهَدُ بِمَنْطِقِهِ الْهُذْهَدِيِّ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ فِطْرَةِ طَيْرِ الْهُذْهَدِ إِدْرَاكِ مِثْلِ هَذِهِ الْقَضَايَا، فَإِنَّ هُذْهَدَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَدَيْهِ هَذِهِ الْقُدْرَةَ، وَخَلَقَهَا فِيهِ، إِكْرَامًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ سُلَيْمَانَ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَقَدْ وَهَبَ اللَّهُ سُلَيْمَانَ الْقُدْرَةَ الْخَاصَّةَ عَلَى إِخْضَاعِ الْجِنِّ وَالطَّيْرِ لِسُلْطَانِهِ بِقُوَى خَفِيَّةٍ غَيْرِ مُدْرَكَةٍ لِلنَّاسِ، إِنَّمَا تُعْرَفُ بِآثَارِهَا.

وَقَدْ اشْتَمَلَ بَيَانُ الْهُذْهَدِ هَذَا عَلَى ذِكْرِ أَرْبَعِ قَضَايَا:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً عَنِ الْهُذْهَدِ:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ﴾: أي: إِنِّي وَجَدْتُ أَهْلَ سَبَأٍ يَخْضَعُونَ لِسُلْطَانِ امْرَأَةٍ مَلِكَةٍ عَلَيْهِمْ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً عَنْهُ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: وَأَتَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هِبَاتٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تُؤْتَاهُ الْمُلُوكُ

عَادَةً، مِنْ مَالٍ وَقُصُورٍ وَخَدَمٍ وَعَبِيدٍ وَجُنُودٍ وَأَنْثَاثٍ وَقُوَىٰ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

القضية الثالثة: دلّ عليها قول الله عز وجل حكاية عنه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾: أي: وَلَهَا سَرِيرٌ مُلْكٍ أَوْ كُرْسِيٌّ مُلْكٍ عَظِيمٍ، وَصَفَهُ بِالْعِظْمَةِ لِنَفَاسَتِهِ، وَضَحَامَةِ هَيْكَلِهِ، وَتَرْصِيعِهِ بِنَفَائِسِ الْجَوَاهِرِ الْكَرِيمَةِ.

عرش المَلِك: سَرِيرُهُ، أَوْ كُرْسِيَّهٗ.

القضية الرابعة: دلّ عليها قول الله عز وجل حكاية عنه: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: أي: مُشْرِكِينَ يَعْْبُدُونَ الشَّمْسَ، فَيَسْجُدُونَ لَهَا، مُتَّخِذِينَ إِيَّاهَا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

قول الله عز وجل:

﴿.. وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٧٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾:

وقرأ الكسائي، وأبو جعفر، ورؤيس: [أَلَا يَسْجُدُوا] بفتح اللام دون تشديد.

وقرأ غير الكسائي، وحفص: [ما يخفون وما يعلنون] بياء الغائبين.

تمهيد:

هذه الآيات بيانٌ من الله عز وجل، جاء مَوْضُولاً بِحِكَايَةِ قَوْلِ الْهَذْدُ، لِلإِشْعَارِ بِصِدْقِ مَا قَالَ الْهَذْدُ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا الأسلوبُ قَدْ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَفِيهِ الْاسْتِغْنَاءُ بِعَظْفِ نَصِّ الْبَيَانِ الصَّادِرِ عَنِ اللَّهِ، عَلَى الْقَوْلِ الْمُحْكِي عَنْ غَيْرِهِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَصْدِيقِهِ، حَتَّى كَأَنَّ الْقَوْلَ الْمُحْكِيَّ هُوَ بَيَانٌ صَادِرٌ عَنِ اللَّهِ عز وجل أَيْضاً.

وهذه الآيات قَدْ تَضَمَّنَتْ بَيَانَ سَبَبِ ضَلَالِ عِبَادِ الشَّمْسِ مِنْ أَهْلِ سَبَأٍ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهَذَا يَنْسَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ يَعْبُدُونَ شَيْئاً مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَبَيَاناً لِمَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ وَضَعَهُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَذَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِشَارَةً بِالْتَّحْذِيرِ مِنْ عِقَابِهِ إِذْ هُوَ يَعْلَمُ عَزَّ سُلْطَانُهُ وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ - مَا يُخْفِي عِبَادُهُ وَمَا يُعْلِنُونَ.

التدبر التحليلي:

• ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾: أي: وَزَيْنَ الشَّيْطَانُ لِأَهْلِ سَبَأٍ أَيَّامَ «بَلْقِيس» أَعْمَالَهُمْ بَدْأً مِنَ الشُّرْكِ بِعِبَادَةِ الشَّمْسِ، وَانْطِلَاقاً إِلَى كُلِّ لَوَازِمِ الشُّرْكِ مِنْ أَعْمَالٍ كُفْرِيَّةٍ، وَأَعْمَالٍ سَيِّئَةٍ فِيهَا فُسْقٌ وَفُجُورٌ، وَظُلْمٌ وَعُدْوَانٌ، وَبَغْيٌ وَطُغْيَانٌ.

التزيين: التَّحْسِينُ والتَّجْمِيلُ، وَيَكُونُ بِجَعْلِ الشَّيْءِ مَلَأْماً لِمَا تَسْتَحْسِنُهُ النَفُوسُ، أَوْ تَسْتَهْيه أَوْ تُحِبُّهُ. وَيَكُونُ بِالْإِغْرَاءِ بِحُسْنِ الشَّيْءِ، وَالتَّحْبِيبِ بِهِ، وَإِثَارَةِ النَفْسِ لِلتَّعَلُّقِ بِهِ، بِالْوَسَاوِسِ وَالتَّسْوِيلَاتِ الْقَائِمَاتِ عَلَى الْإِطْمَاعِ بِالْبَاطِلِ، وَهَذَا مِنْ فَعْلِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

• ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾: أي: فَصَرَفَهُمْ وَمَنْعَهُمُ الشَّيْطَانُ بِمَا زَيْنَ لَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ، وَبَانْصِرَافِهِمْ عَنْ تَاهُوا فِي السَّبِيلِ.

الصَّدُّ: يَأْتِي لَازِماً وَمُتَعَدِّياً، فَالْإِزْمُ يَأْتِي بِمَعْنَى الْإِعْرَاضِ عَنِ الشَّيْءِ وَالْإِنْصِرَافِ عَنْهُ. وَالْمُتَعَدِّي يَأْتِي بِمَعْنَى الصَّرْفِ وَالْمَنْعِ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمَلَأَمُ هُنَا.

لفظ «السَّبِيلِ» مُفْرَداً مَعْرِفاً يُرَادُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ^(١).

• ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾: أي: وَبِمَا أَنَّهُمْ صُرِفُوا وَأُبْعِدُوا عَنِ السَّبِيلِ،

وتأهوا في متفرقاتِ السُّبُلِ الَّتِي تُفْضِي بِهِمْ إِلَى الْمَهَالِكِ، فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ
بأنفسهم إلى السَّبِيلِ الْحَقِّ الَّذِي يُؤَدِّي بِسَالِكِيهِ إِلَى خَيْرِ دُنْيَاهُمْ، وسعادة
آخِرَتِهِمْ.

• ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾: أي: فَصَدَّهُمُ الشَّيْطَانُ عَنِ السَّبِيلِ لئَلَّا
يَسْجُدُوا لِلَّهِ طَاعَةً لَهُ وَإِفْرَاداً لَهُ بِالْعِبَادَةِ، وليكونوا مثلَ إبليسَ الَّذِي أَبَى أَنْ
يَسْجُدَ لِأَدَمَ طَاعَةً لِأَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِالسُّجُودِ.

والمعنى على قراءة: [أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ] بتخفيف اللام هو على أَنَّ
«أَلَا» أداة تَنْبِيهِ واستِفْتَاَح، والْيَاءُ أداة نداء حُذِفَتْ مِنْهَا الألف وَوَصِلَتْ فِي
الْكِتَابَةِ بِسِينِ «اسْجُدُوا» والمِنَادَى مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ كَلِمَةُ «هُؤُلَاءِ» أَوْ نَحْوَهَا،
وله نظائر في كلام العرب، ومنه قول ذي الرِّمَّة:

أَلَا يَا اسْلِمِي يَا دَارِمِي عَلَى الْبِلَى وَلَا زَالَ مُنْهَلًا بِجَرْعَاتِكَ الْقَطْرُ
أي: أَلَا يَا هَذِهِ اسْلِمِي، كَمَا ذَكَرَ النُّحَاة.

وعلى هذا تكونُ العبارةُ خطاباً للناس، وتكليفاً لهم بأنَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ،
وَيَكُونُ بَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَيْنِ الْمُرَادَيْنِ.

• ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

الْخَبَاءُ: السُّتْرُ، مَصْدَرُ «خَبَأَ الشَّيْءَ يَخْبِئُهُ خَبْأً» أي: سَتَرَهُ.

وَالْخَبَاءُ: مَا خُبِّيٌّ، أي: سَتِرَ، سُمِّيَ بِالْمُضْدَرِّ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ
الْمَلَائِكُ هُنَا.

ومن إخراج ما خُبِّيٌّ فِي السَّمَاوَاتِ إِنْزَالُ الْمَطَرِ، وَتَمْكِينُ النَّاسِ مِنْ
اكتشاف ما فِي الْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ.

وَمِنْ إِخْرَاجِ مَا خُبِّيٌّ فِي الْأَرْضِ إنبَاتُ النَّبَاتِ، وَإِخْرَاجُ النَّفْطِ
وَالْمَعَادِنِ وَالْحِجَارَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ بَاطِنِهَا، وَإِخْرَاجُ مَا فِي أَعْمَاقِهَا بِالْبَرَاكِينِ،

وَتَمَكِّنُ النَّاسَ مِنْ حَفْرِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ، لَاسْتِخْرَاجِ مَا فِي بَاطِنِهَا مِمَّا لَهُمْ بِهِ مَنَافِعُ وَمَصَالِحُ وَزِينَاتٌ.

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى الْمَخْبَيَّاتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّتِي هِيَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ.

• ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ خَطَاباً لِلنَّاسِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ.

وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى: [وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ] حَدِيثاً عَنِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ.

وَبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَانِيِّ، لِيَشْمَلَ الْبَيَانُ مَنْ يَتَلَقَّاهُ وَمَنْ يُعْرِضُ عَنْهُ.

• ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٢٦﴾: أَي: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاهُ.

وَبِمُنَاسِبَةٍ ذُكِرَ عَرْشُ بَلْقِيسَ، وَوَصِفَ الْهُدُودُ لَهُ بِأَنَّهُ عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَّهَ النَّصُّ هُنَا لِأَنَّ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِي يُلَاقِي تَكْوِينَهُ عَظَمَةُ الرَّبِّ الْعَظِيمِ، الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ كَبِيرٍ.

عَرْشُ الرَّحْمَنِ: هُوَ أَفْكَلُ الْأَعْظَمِ الْمُحِيطِ بِالْعَوَالِمِ الْعُلْيَا.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ يَكْتَلِي هَذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُؤُا إِتَى أَلْفَى إِلَى كَيْدُ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَقْلُوا عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى

تَشْهَدُونَ ﴿٣٣﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَثَرُ إِلَيْكَ فَاَنْظِرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ :

تمهيد:

في هذه الآيات بيان فضل من فضول قصّة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ، إذ حمل الهدوء كتاب سليمان إليها. فطار به وألقاه في مجلس الملكة وملؤها حولها، فأخذته وقرأته عليهم، وطلبت منهم أن يُشيروا عليها، فأبأنوا لها قدرتهم على الحرب، وفوضوا الأمر إليها.

وكانت بلقيس امرأة ذات عقل وحكمة، فلم تختَر أن تُعالج بالحرب طلب «سليمان» الخضوع له والمجيء إليه هي وأركان مملكتها مستسلمين، لقد خافت من ويلات الحرب على بلادها، وكانت أخبار عظمة سلطان سليمان قد بلغتها، واختارت أن تُصانع سليمان بهديّة نفيسة جداً، تتفادى بها مفارعة جيشه بما لا مكافئ له عندها، ولو قال لها ملؤها وقادتها: نحن أولوا قوّة وأولوا بأس شديد.

التدبر التحليلي:

• ﴿٣٣﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَثَرُ إِلَيْكَ فَاَنْظِرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ :

قال سليمان عليه السلام للهدوء: سننظر باختيار الواقع فيما ذكرت عن أهل سبأ وملكتهم، مستخدماً ما لدي من جند، فيهم جن يستفصون الأخبار بسرعة عظيمة، لنعلم أنا وملني بما يقطع الشك في قولك، أصدقت فيما ذكرت أم كنت فيه من الكاذبين، تخلق عذراً لا يطابق الواقع.

﴿أم﴾ هنا هي المتصلة، والمعنى: لا يخلو أمرك من أحد احتمالين،

إِمَّا أَنْ تَكُونَ صَادِقًا، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ كَاذِبًا، وَيَخْشَنَّا يَكْشِفُ وَاقِعَ حَالِكَ فِي خَبْرِكَ.

ورَأَى سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ يَبْعَثَ مَعَ الْهُذُودِ بَكْتَابٍ إِلَى بَلْقِيسَ، وَرِجَالٍ مَمْلُكَتِهَا وَقَادَةَ جَيْشِهَا، مُطَالِبًا إِيَّاهُمْ بِالْخُضُوعِ لَهُ وَلِمُلْكِهِ، وَبِالْحَضُورِ إِلَيْهِ طَائِعِينَ مُسْتَسْلِمِينَ، فَكَتَبَ الْكِتَابَ وَخَتَمَهُ وَقَالَ لِلْهُذُودِ:

﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَالْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٨﴾:

أي: اخْمِلْ كِتَابِي هَذَا، وَأَذْهَبْ بِهِ إِلَى سَبَأٍ حَيْثُ وَجَدْتَ الْقَوْمَ، وَتَرَقَّبِ اجْتِمَاعَ مَلِكَتِهِمْ بِمَلِكُهَا وَقَادَتِهَا، فَالْقِهْ إِلَيْهِمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ، وَأَرْقُبْ اسْتِلامَ الْمَلِكَةِ لَهُ، وَقِرَاءَتَهُ عَلَى رِجَالِ مَجْلِسِهَا، وَاسْتَوْثِقْ مِنَ الْأَمْرِ، ثُمَّ ابْتَغِدْ عَنْهُمْ، وَرَاقِبْ عَنْ بُعْدِ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ مِنْ أَمْرٍ يَرْجِعُونَهُ عَلَى كِتَابِي إِلَيْهِمْ، بِحَيْثُ تَكُونُ فِي مَكَانٍ لَا يُحْشُونَ بِوُجُودِكَ فِيهِ، فَإِذَا عَلِمْتَ مَا هُوَ رَدُّ جَوَابِهِمْ فَارْجِعْ إِلَيَّ وَأُنَبِّئِي بِهِ.

وكان الحمام الزاجلُ وَسِيلَةً نَقْلَ الرِّسَالِ إِلَى الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ، وَلَا سِيَّمَا بَيْنَ الْمُلُوكِ، وَفِي الْحُرُوبِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا أَنَّ الْهُذُودَ يُسْتَخْدَمُ لِهَذَا الْغَرَضِ، غَيْرَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خُصُوصِيَّاتٍ لَمْ تَكُنْ لغيره عليه السلام.

﴿فَالْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾: فَارْمِهِ مِنْ عُلُوِّ إِلَى مَكَانٍ جُلُوسِ الْمَلِكَةِ مَعَ أَغْيَانِ مَمْلَكَتِهَا، مُشْعِرًا أَنَّ الْكِتَابَ مُرْسَلٌ إِلَى الْمَلِكَةِ، وَأَصْحَابِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي مَمْلَكَتِهَا، وَيَكُونُ هَذَا بِالْقَائِهِ عَلَى عَرْشِهَا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ. دَلَّتْ عَلَى هَذَا عِبَارَةُ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ خُصُوصَ الْمَلِكَةِ لَكَانَتِ الْعِبَارَةُ: فَالْقِهْ إِلَيْهَا. فِي [إِلَيْهِمْ] قِرَاءَتَانِ كَسَرَ الْهَاءِ وَضَمُّهَا.

وَدَلَّ حَرْفُ الْعَظْفِ فِي: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ عَلَى تَكْلِيفِهِ أَنْ يَنْتَظِرَ مُتَرَقِّبًا حَتَّى يَرَى أَنَّ الْمَلِكَةَ قَدْ اسْتَلَمَتِ الْكِتَابَ وَقَرَأَتْهُ عَلَى أَهْلِ مَجْلِسِهَا، مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْقَادَةِ. ﴿تَوَلَّ﴾: أَي: ابْتَغِدْ.

فالمعنى: وَبَعْدَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْمَلِكَةَ تَسَلَّمَتِ الْكِتَابَ وَقَرَأَتْهُ، تَوَلَّى مُبْتَعِدًا عَنِ الْمَجْلِسِ ابْتِعَادًا يُخْفِيكَ عَنْ جُلَسَائِهِ، عَلَى أَنْ تَبْقَى مُرَاقِبًا مُنْتَظِرًا، حَتَّى تَعْلَمَ مَاذَا يَرْجِعُونَ، بِدَلِيلٍ:

﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾: أي: فاعْلَمْ مَا الَّذِي يَرْجِعُونَهُ مِنْ رَأْيٍ أَوْ تَذْيِيرٍ عَلَى مَا جَاءَ فِي كِتَابِي إِلَيْهِمْ؟.

يُقَالُ لُغَةً: «رَجَعَ فُلَانٌ فُلَانًا، وَرَجَعَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: رَدَّهُ، وَأَعَادَهُ، والمرادُ هنا إضْدارُ الْقَرَارِ الَّذِي يَرُدُّونَ بِهِ كِتَابَهُ إِلَيْهِمْ، إِذْ هُوَ بِمِثَابَةِ رَجْعِ الْكِتَابِ مَقْرُونًا بِالْجَوَابِ، كَالصَّدَى الَّذِي هُوَ رَجْعُ الصَّوْتِ. فَلِكُلِّ فِعْلٍ رَدٌّ فِعْلٍ هُوَ رَجْعٌ لَهُ.

والمرادُ بالنَّظَرِ اسْتِعْمَالُ مَا يُؤَدِّي إِلَى الْعِلْمِ مِنْ أَدَوَاتٍ حِسٍّ وَفَهْمٍ.

• ﴿قَالَتْ يَأْأَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيَّتُكُمْ بِكِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمِينَ وَإِنَّكُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٠﴾ أَلَّا تَقْلُوبُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَتَأْتُونِ مُسْلِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالَتْ يَأْأَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَتَأْتُونِي فِي أَمْرٍ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٢٢﴾﴾.

- ياء المتكلم من: [إني] فيها قراءتان الإسكان والفتح.

- قرأ يعقوب: [تشهدوني] بإثبات ياء المتكلم.

• ﴿قَالَتْ﴾: أي: الْمَلِكَةُ «بَلْقِيس».

• ﴿يَأْأَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيَّتُكُمْ بِكِتَابٍ كَرِيمٍ﴾:

دلَّت عبارة: ﴿يَأْأَيُّهَا﴾ على أَنَّهَا رَفَعَتْ صَوْتَهَا مَنَادِيَّةً بَاهْتِمَامٍ بِالْغِ، كَأَنَّهَا تَخْطُبُ.

﴿الْمَلَأُوْا﴾: أَشْرَافُ الْقَوْمِ وَسَرَائِهِمُ الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ الْعَامَةِ، وَلِعَلَّهُمْ أَرْكَانُ مَمْلَكَتِهَا وَمَجْلِسُ الشُّورَى الَّذِينَ تَسْتَشِيرُهُمْ فِي الْمَهْمَاتِ.

• ﴿إِنِّي أَتِيَّتُكُمْ بِكِتَابٍ كَرِيمٍ﴾: دَلَّتْهُمْ بِهَذَا عَلَى أَنَّ طَائِرًا مِنَ الطُّيُورِ

الناقِلَةَ لِلرَّسَائِلِ أَلْقَى إِلَيْهَا كِتَابًا مِنْ مَلِكٍ عَظِيمٍ، إِذْ وَصَفَتْ الْكِتَابَ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ، أَي: رَفِيعٌ بَيْنَ الْكُتُبِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ مُرْسَلَهُ عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُلُوكِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ رُقْعَتُهُ وَخْتُمُهُ وَخَطُّهُ مِنْ نَفِيسٍ مَا يُرْسِلُهُ الْمُلُوكُ عَادَةً.

وَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ، بَعْدَ أَنْ أَكْثَدْتُ لَهُمْ قَائِلَةً: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُمْ مُلْكُ سُلَيْمَانَ الْعَظِيمِ فِي بِلَادِ الشَّامِ، وَاكْثَدْتُ لَهُمْ قَائِلَةً: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَي: وَإِنْ نَصَّ مَا جَاءَ فِيهِ:

﴿.. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاقُوهِ مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

هَذَا الْكِتَابُ الْعَظِيمُ مِنْ سُلَيْمَانَ إِلَىٰ مَلِكَةٍ «سَبَأ» وَإِلَىٰ أَرْكَانِ مَمْلَكَتِهَا مِنْ مَلَأِ الْقَوْمِ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مُقَدِّمَةٍ وَقَضِيَّتَيْنِ:

المقدمة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هَذِهِ الْبَدَايَةُ تُبَيِّنُ أَنَّ دَوْلَةَ سُلَيْمَانَ دَوْلَةٌ دِينِيَّةٌ، وَأَنَّ مُلْكَهُ اسْتِخْلَافَ رَبَّانِيٍّ مُعَانَ بِقُوَىٰ رَبَّانِيَّةٍ غَيْبِيَّةٍ، فَهُوَ يَسْتَعِينُ فِي سُلْطَانِهِ بِصِفَاتٍ وَأَسْمَاءِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

وَقَدْ سَبَقَ فِي أَوَائِلِ الْمَجْلَدِ الْأَوَّلِ شَرْحُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ الَّتِي يُسْتَفْتَحُ بِهَا فِي الْإِسْلَامِ كُلِّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ.

وَدَلَّ كِتَابُ سُلَيْمَانَ عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ كَانَتْ كَذَلِكَ عِنْدَهُ، وَلَعَلَّهَا كَانَتْ مَتَّبَعَةً عِنْدَ غَيْرِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ.

وَالْقَضِيَّةُ الْأُولَى: ذَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةُ ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ﴾: «أَلَّا» أَضْلَاهَا «أَنَّ لَا» أَذْغَمَتْ التَّوْنُ بِاللَّامِ فَصَارَتْ لَامًا مَشْدَدَةً، وَكُتِبَتْ فِي الْمَصْحَفِ كَمَا تُنْطَقُ ﴿أَلَّا﴾.

وَالْمَعْنَى: اعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْءَ الْعَظِيمَ الَّذِي أُوجِّهُهُ لَكُمْ يَا أَصْحَابَ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ فِي «سَبَأ» هُوَ «لَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ» أَي: لَا تَسْتَكْبِرُوا عَنِ الْخُضُوعِ لِسُلْطَانِي.

طَوَيْتُ فِي الْكَلَامِ عِبَارَةً «اعْلَمُوا» وعلى هذا تَكُونُ «أَنْ» هِيَ الْمُخَفَّفَةُ من الثَّقِيلَةِ، واسْمُهَا ضَمِيرُ الشَّانِ مَحْذُوفٌ.

هذا ما تَرَجَّحَ لَدَيَّ بَعْدَ النَّظَرِ فيما ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ والنَّحَاةُ من

وجوه.

وَالْقَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾: أي: وَأَتُونِي مُسْتَسْلِمِينَ خَاضِعِينَ، وَلَا تَسْتَكْبِرُوا عَنِ الْخُضُوعِ لِمُلْكِي وَسُلْطَانِي.

وَعَرَضُ سَلِيمَانَ مِنْ إِخْضَاعِهِمْ أَنْ يَكُونَ وَسِيلَةً إِلَى نَشْرِ دِينِ اللَّهِ فِي مَمْلَكَةِ سَبَأَ. وَهَذَا هُوَ غَرَضُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ بَسْطِ سُلْطَانِ دَوْلَتِهِمْ، وَلَيْسَ غَرَضُهُمُ الْعُلُوفُ فِي الْأَرْضِ، وَلَيْسَ دَافِعُهُمْ حُبُّ الْعُلُوفِ فِي الْأَرْضِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ مَجْدَ الْآخِرَةِ.

• ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (٣٣):

قالت: جاء تكرير فعل [قالت] إشارة إلى أَنَّهَا تَرَيَّتْ وَقْتًا مَا، لَتَتْرَكَ لَهُمْ فَرَصَةَ التَّفْكِيرِ، وَبَعْدَهُ.

• ﴿أَفْتُونِي﴾: أي: أَيْبِنُوا لِي مَا تَرَوْنَ مِنْ رَأْيٍ سَدِيدٍ بِشَأْنِ هَذَا الْأَمْرِ الْخَطِيرِ، الَّذِي فَرَضَهُ عَلَيْنَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ سَلِيمَانُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أُلْقِيَ عَلَيَّ وَقَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مَضْمُونَهُ مَا جَاءَ فِيهِ.

يقال لغة: «أفتى المفتي أو المُسْتَشَارُ فِي الْمَسْأَلَةِ الْمَشْكَلَةِ» أي: أَبَانَ حُكْمَهُ أَوْ رَأْيَهُ فِيهَا. وَالْفَتْوَى: الْجَوَابُ عَمَّا يُشْكِلُ مِنَ الْمَسَائِلِ.

• ﴿فِي أَمْرِي﴾: أي: فِي أَمْرِي الَّذِي عَرَضْتُهُ عَلَيْكُمْ بِشَأْنِ مُشْكِلَتِنَا مَعَ الْمَلِكِ سَلِيمَانَ.

• ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ وفي القراءة الأخرى: [تَشْهَدُونِي] بِإثبات ياء المتكلم، الَّتِي حُذِفَتْ فِي قِرَاءَةِ جَمْهُورِ الْقُرَّاءِ

العشرة تخفيفاً، وهو من أساليب العرب. تَشْهَدُونِي: على تقدير مضاف محذوف، أي: حَتَّى تَشْهَدُوا مَجْلِسِي.

﴿حَتَّى تَشْهَدُونَ﴾: أي: حَتَّى تَكُونُوا حَاضِرِي مَجْلِسِي، وَتُقَدِّمُوا مَا لَدَيْكُمْ مِنْ آراءٍ، بِشَأْنِ الْأَمْرِ الَّذِي أَمْضِي فِيهِ قَرَاراً يَتَعَلَّقُ بِشُؤْنِ الدَّوْلَةِ.

فَمِنْ عَادَتِي أَنِّي مَا كُنْتُ فِيهَا مَضَى وَلَسْتُ فِيهَا يَأْتِي قَاطِعَةً أَمراً مُهِمًّا مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ، حَتَّى تَكُونُوا حَاضِرِينَ مَجْلِسِي، وَحَتَّى تُقَدِّمُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنْ مَشُورَةٍ حَوْلَ الرَّأْيِ الصَّوَابِ الَّذِي تَرَوْنَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أُضِدُّ مَا أَرَاهُ مِنْ قَرَارٍ فِيهِ خَيْرُ الدَّوْلَةِ وَمَصْلَحَةُ الشَّعْبِ.

يقال لغة: شَهِدَ الْمَجْلِسَ، أي: حَضَرَهُ، وَشَهِدَ الْحَادِثَ أَوْ الشَّيْءَ، أي: عَآيَنَهُ.

فعبارتُها هي على مَعْنَى أَشِيرُوا عَلَيَّ، كما هو شَأْنِي مَعَكُمْ فِي كُلِّ الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ.

﴿قَاطِعَةً أَمراً﴾: أي: مُضْدِرَّةً أَمراً وَاجِبَ التَّنْفِيزِ.

• ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (٣٣):

تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ خُلَاصَةً مَا أَجَابَ بِهِ أَهْلُ مَشُورَةِ مَلِكَةِ سَبَأٍ بِلُقَيْسٍ حَوْلَ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ الْمَلِكِ «سُلَيْمَانَ» الْعَظِيمِ.

وهذا البيان الذي دَلَّ عَلَى خُلَاصَةِ مَا أَجَابُوهَا بِهِ، يَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعِ قَضَايَا.

القَضِيَّةُ الْأُولَى: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةُ: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ﴾: أي: نَحْنُ أَصْحَابُ قُوَّةٍ قَادِرَةٌ عَلَى الدَّفْعِ، رِجَالاً وَسِلَاحاً وَعَتَاداً.

القَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةُ: [وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ]: أي: وَنَحْنُ أَلُو قِتَالٍ شَدِيدٍ.

البأس: الشدة في الحزب.

القضية الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ﴾: أي: وأمرُ قرارِ الحزبِ أو قرارِ آخرِ مُفَوَّضٍ ومَثْرُوكٍ إِلَيْكَ.

فإن قَرَزَتْ الحَرْبَ فقد ذَكَرْنَا لَكَ استِعْدَادَ مَمْلَكَتِنَا لَهَا قُوَّةً وبُأْسًا.

القضية الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾: أي: فانظري بِفِكْرِكَ الشَّاقِبِ، وَتَدَبَّرِي بِحُكْمَتِكَ، وَقَرَّرِي الشَّيْءَ الَّذِي تَأْمُرِينَ بِهِ، وَأُضِدِّرِي قَرَارَكَ لِلتَّنْفِيزِ، وَنَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لِبَطَاعَةِ أَمْرِكَ الَّذِي تَأْمُرِينَ بِهِ.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٢٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٢٥):

دلّ كلامُ «بَلْقِيسَ» هذا على أَنَّهَا رَأَتْ إِثَارَ السَّلْمِ والمَصْنَاعَةِ على الحربِ، بَعْدَ أَنْ فَوَّضَ مَلَأُ قَوْمِهَا إِلَيْهَا أَنْ تُقَرِّرَ مَا تَرَاهُ، وتَأْمُرَ بِهِ.

وأَبَانَتِ الأَمْرَ الَّذِي دَعَاها أَنْ تُقَرِّرَ هذا القرارَ، فقالت: إِنَّ من عَادَةِ المُلُوكِ أَنَّهُمْ إِذَا دَخَلُوا فَاتِحِينَ مُحَارِبِينَ قَرْيَةً من القُرَى، أَفْسَدُوهَا، بتَخْرِيبِ مَبَانِيهَا وَمُنْشَأَتِهَا، وَتَحْطِيمِ أَشْجَارِهَا وَمَزَارِعِهَا، والاسْتِيلَاءِ على خَيْرَاتِهَا وَنَفَائِسِهَا، وَتَغْيِيرِ أَنْظِمَتِهَا لِمَصَالِحِهِمْ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً.

الأَعِزَّةُ: الأَقْوِيَاءُ ذَوُو الْعُلْبَةِ فِيهَا، جَمْعُ «الْعَزِيزِ».

الأَذِلَّةُ: الضَّعَفَاءُ المَهَانُونَ المَغْلُوبُونَ على أَمْرِهِمْ، جَمْعُ «الذَّلِيلِ».

والمرادُ بالقَرْيَةِ في القرآنِ كُلُّ مُجَمَّعٍ سَكَنِي صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، وَلَوْ كَانَ مَدِينَةً عَظِيمَةً، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي اللُّغَةِ.

• ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾: أي: وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ دَوَامًا بَعْدَ أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا بِالْقُوَّةِ.

وجاءَ كَلامُهَا مُؤَكِّدًا بِحَرْفِ التَّوَكِيدِ «إِنَّ». وَدَلَّ اسْتِعْمَالُ ﴿إِذَا﴾ على

أَنَّهَا أَشْعَرَتْ مَلَأَ قَوْمُهَا بَأْنَ مَا لَدَيْهَا مِنْ قُوَّةٍ وَرِجَالٍ ذَوِي بَأْسٍ فِي الْحَرْبِ، أَضْعَفُ مِمَّا شَاعَ فِي الْأَقْطَارِ عَنْ سُلَيْمَانَ وَسُلْطَانِهِ، وَمَا لَدَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ قِتَالِيَّةٍ وَجُنْدٍ، فَمِنْ الْخَيْرِ لِدَوْلَتِهَا وَلِشَعْبِهَا وَلَهَا وَلِلْمَلَأِ أَنْ تُصَانِعَ وَتَتَقَرَّبَ بِالْهَدَايَا النَّفِيسَةِ إِلَى سُلَيْمَانَ.

• ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٢٥):

أي: وإني مُرسلةٌ إلى «سُلَيْمَانَ» ويلحقُ به رجالُ دولتهِ بِهَدِيَّةٍ نَفِيسَةٍ على سَبِيلِ الْمَصَانِعَةِ وَالْمَدَارَةِ وَالتَّوَدُّدِ.

الْهَدِيَّةُ: مَا يُقَدَّمُ عَطِيَّةً عَلَى سَبِيلِ التَّقَرُّبِ وَالتَّوَدُّدِ وَالْمَصَانِعَةِ، وَتُجْمَعُ عَلَى «هَدَايَا».

﴿فَنَاظِرَةٌ﴾: أي: فمُتَرَقِّبَةٌ وَمُتَنْظِرَةٌ.

﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾؟. أي: بأيِّ شَيْءٍ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَى سُلَيْمَانَ بِالْهَدِيَّةِ، بِقَبُولِ الْهَدِيَّةِ أَمْ بِرَفْضِهَا.

﴿بِمَ﴾؟ معمول لِفِعْلٍ: ﴿يَرْجِعُ﴾ قُدَّمَ لِأَنَّ الْاسْتِفْهَامَ لَهُ الصَّدَارَةُ فِي الْعَرَبِيَّةِ.

وقف يعقوب بهاء السكت على «بِمَ» وهو وجهٌ للبرزي.

قول الله عز وجل:

• ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيهِ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (٢٦) أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٧):

- أثبت ياء المتكلم في: [أَتَمِدُونَنِي] ابن كثير في الوصل والوقف،

وأثبتها كذلك في الوصل فقط نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

وقراها حمزة ويعقوب: [أَتَمِدْنِي].

وقرأها باقي القراء العشرة: [أَتَمِدُّنِ] بِحذف ياء المتكلم.

- وفي ياء المتكلم من [آتَانِي اللّهُ] قراءات، الإثبات والحذف، والفتح والإسكان.

التدبر التحليلي:

دلّ هذا البيان على مَطْوِيٍّ في اللفظ، وهو أَنَّ «بَلْقَيْسَ» مَلَكَةً سَبَأٌ قَدْ أَرْسَلَتْ وَفْدًا مِنْ عِليَّةِ قَوْمِهَا إِلَى سُلَيْمَانَ، يَحْمِلُونَ هَدِيَّتَهَا إِلَيْهِ، مُصَانَعَةً وَتَقَرُّبًا وَتَوَدُّدًا.

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ أي: وَفْدُ بَلْقَيْسَ ﴿سُلَيْمَانَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَالَ﴾ سُلَيْمَانُ لِلْوَفْدِ ﴿قَالَ أَمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِي﴾ مِنْ مَالٍ وَسُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَبَأْسٍ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا آتَيْتُكُمْ﴾ فِي مَمْلَكَتِكُمْ، فَلَا طَمَعَ لِي بِمَالٍ عِنْدَكُمْ.

الإمداد: الزيادة من الخير. أَمِدُّونَنِي: أي: أتريدون إعطائي زيادة على ما عندي.

وَأَضْرَبَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِضْرَابًا انْتِقَالِيًّا فَقَالَ لِلْوَفْدِ: ﴿بَلِّ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ﴾ أي: الَّتِي تَرَوْنَهَا نَفِيسَةً جِدًّا ﴿تَفْرَحُونَ﴾ فَرَحَ سُرُورٍ، ظَانِينَ أَنَّهَا تُرْضِينِي، فَتَكْفُنِي عَنِ الْقُدُومِ بِجُنْدِي إِلَى بِلَادِكُمْ، وَفَتْحِهَا بِالْحَرْبِ، وَالسَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا، وَضَمِّهَا إِلَى مُلْكِي، وَإِخْرَاجِ مَالِكِيهَا مِنْهَا أَذَلَّةَ صَاغِرِينَ، جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِنَشْرِ دِينِهِ.

وهو يَقْصِدُ بهذا الخطاب الذي خَاطَبَ به الْوَفْدَ بَلْقَيْسَ وَرِجَالَ دَوْلَتِهَا.

وَتَوَجَّهَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَأْسِ وَفْدِ بَلْقَيْسَ، وَقَالَ لَهُ: ﴿أَتَجْعَلُ إِيَّاهُمْ﴾ أي: أَرْجِعُ إِلَى بَلْقَيْسَ وَرِجَالَ دَوْلَتِهَا بِهَدِيَّتِهِمْ إِلَيَّ. وَرَفَضَ أَنْ يَقْبَلَ رِشْوَةً تَكْفِيهِ عَنْ نَشْرِ دِينِ اللَّهِ جِهَادًا فِي سَبِيلِهِ. وَقَالَ: ﴿فَلَنَأْيِسْنَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذَلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

أَفَسَمَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِدَلِيلِ لَامِ الْقِسْمِ الْوَاقِعَةِ فِي جَوَابِ قَسَمِ مَنْوِيٍّ وَتُونِ التَّوَكِيدِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي فِعْلِي: ﴿فَلَنَأَيِّنَهُمْ - وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ﴾ عَلَى غَزْوِ «سَبَأَ» بِجَيْشٍ لَا قِبَلَ لِلْمُدَافِعِينَ عَنْ مَمْلَكَتِهَا بِهِ.

﴿لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾: أَي: لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِدَفْعِ جُنُودِنَا وَلَا مَقَاوِمَتِهَا، وَلَا الصُّمُودِ فِي وَجْهِهَا، الْقِبَلُ: الطَّاقَةُ لُغَةً.

جاء عودُ الضميرِ فِي ﴿بِهَا﴾ عَلَى الْجُنُودِ مَرَاعَاةً لِمَعْنَى الْجَمَاعَةِ.

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا﴾: أَي: وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ مَدِينَتِهِمْ «مَأْرَبَ».

﴿أَذِلَّةٌ﴾: جَمْعُ ذَلِيلٍ، وَهُوَ الضَّعِيفُ الْمُهَانَ.

﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾: أَي: وَهُمْ وَضِيعُونَ حَقِيرُونَ لَا قِيَمَةَ لَهُمْ.

الصَّاغِرُ: هُوَ الْوَضِيعُ الْحَقِيرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ قِيَمَةٌ تُحْتَرَمُ.

وَهَكَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ أَخْرَجَ مِنْ مَكَانِ سُلْطَانِهِ أَسِيرًا مَغْلُولًا مُهَانًا.

وَرَجَعَ وَفُذَ بِلَقِيْسَ إِلَيْهَا بِالْهَدِيَّةِ الَّتِي حَمَلُوهَا إِلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَوَصَفُوا لَهَا مَا شَهِدُوهُ.

وَقَرَّرَتْ «بِلَقِيْسَ» أَنْ تُطِيعَ أَمْرَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَتَأْتِيَ إِلَى عَاصِمَةِ مُلْكِهِ فِي الْقُدْسِ، هِيَ وَمَنْ اخْتَارَتْهُمْ مِنْ رِجَالِ مَمْلَكَتِهَا، لِيُقَدِّمُوا إِلَى سُلَيْمَانَ الْخَضُوعَ وَالطَّاعَةَ.

وَعَلِمَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامَ بِمَا عَزَمَتْ أَنْ تَفْعَلَهُ «بِلَقِيْسَ» مِنْ طَاعَتِهِ، وَالْقُدُومِ إِلَيْهِ هِيَ وَمَنْ تَخْتَارُهُمْ مِنْ رِجَالِ مَمْلَكَتِهَا طَائِعِينَ مُسْتَسْلِمِينَ.

وَبَيْنَمَا كَانَ رَكْبُ «بِلَقِيْسَ» وَمَنْ مَعَهَا فِي طَرِيقِهِمْ إِلَيْهِ، أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ بِعَرْشِهَا إِلَى قَصْرِه، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ الرَّكْبُ خَاضِعًا لِسُلْطَانِهِ.

قال الله عز وجل:

﴿قَالَ يَتْلِيَهَا أَلْمَلُؤُا إِلَيْكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَائِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٢٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَائِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ :

• قرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿أَنَا ءَائِكَ﴾ بإثبات ألف «أنا» بعد النون وصلأ في الموضعين. وقرأها باقي القراء العشرة بحذف هذه الألف.

• قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم من: ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

تمهيد:

في هذه الآيات بيان أمر من أمور سليمان عليه السلام يَدُلُّ على ما وَهَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، عن طريق بعض الخاصة من رجال دَوْلَتِهِ من أنسٍ وَجِنٍّ، من قوى لم يُؤْتِهَا غَيْرُهُ من المَلُوكِ، وَكَانَ هُوَ أَهْلًا لَهَا وَكَانَ شَاكِرًا لِرَبِّهِ.

وهذا الأمر يتعلّق بالملكة بلقيس وعَرْشِهَا وإِحْضَارِهِ من سَبَأ قبل وَضُولِهَا إِلَيْهِ.

التدبر التحليلي:

قوله الله تعالى:

﴿قَالَ يَتْلِيَهَا أَلْمَلُؤُا إِلَيْكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢٨) :

وجّه سليمان عليه السلام بأسلوب النداء رافعاً صَوْتَهُ، لِيَسْمَعَ قَوْلَهُ مَن هُمْ فِي طَرْفِ الْمَجْلِسِ بعيدين عن كرسيه من أهل مَجْلِسِهِ؛ وَزَرَائِهِ،

وَحَاشِيَّتِهِ، وَمُسْتَشَارِيهِ، وَهُمْ مَلَأُ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَمْلُؤُونَ عُيُونَ الْعَامَّةِ، قَائِلًا:
﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ﴾ وفيهم إنس وجن.

• ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَشًا﴾: أي: أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَشٍ بَلْقَيْسٍ مِنْ سَبَأَ، إِلَى قَضْرِي فِي أُورُشَلِيمَ (القدس).

• ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِ مُسْلِمِينَ﴾: أي: قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيَّ مُغْلِبِينَ اسْتِسْلَامَهُمْ وَخُضُوعَهُمْ لَطَاعَتِي.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (٢٩):

الْعِفْرِيتُ: الْقَوِيُّ الْمَاكِرُ. وَكَانَ هَذَا الْعِفْرِيتُ مِنَ الْجِنِّ أَحَدَ خَاصَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَجْلِسِ وَزَرَائِهِ وَمُسْتَشَارِيهِ.

﴿أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾: أي: أَنَا أُحْضِرُهُ لَكَ مَا بَيْنَ قَوْلِي هَذَا وَقِيَامِكَ مِنْ هَذَا الْمَجْلِسِ، عَلَى وَفْقِ عَادَتِكَ، وَقَدْ يَكُونُ وَقْتُ انْتِهَاءِ مَجْلِسِهِ الْمَعْتَادِ مَعَ الزَّوَالِ أَوْ عَقِبَهُ قَلِيلًا.

المقام: يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الْمَجْلِسِ.

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾: أي: وَإِنِّي عَلَى حَمْلِهِ وَنَقْلِهِ مِنْ قَضْرِيهَا فِي سَبَأَ لَقَوِيٌّ، وَإِنِّي عَلَى جَوَاهِرِهِ وَنَفَائِيسِهِ لِأَمِينٌ.

وَشَدَّدَ الْعِفْرِيتُ التَّأَكِيدَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ بِدَلَالَةِ «إِنَّ» - وَالْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ - وَاللَّامِ الْمَزْحَلِقَةِ.

• ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾:

أي: قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ خَاصٌّ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ مِمَّا سَخَّرَ فِيهِ لِبَعْضِ عِبَادِهِ مِنْ كَلِمَاتٍ، إِذَا قَالَهَا حَقَّقَ اللَّهُ لَهُ مُرَادَهُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، بِشَرَطِ أَنْ يَكُونَ نُظْمُهُ بِهَا لِتَحْقِيقِ مُرَادِهِ مَأْذُونًا لَهُ بِهِ مِنْ رَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ

وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا بِوَحْيٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ.

قال المفسّرون: واسمُ هذا الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب، وهو من أهلِ مَجْلِسِ سليمان عليه السلام ومستشاريه؛ «أَصَفَ بْنَ بَرِّخِيَا» والله أعلم.

وَيَغْلِبُ عَلَى ظَنِّي أَنَّهُ نَبِيٌّ، جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَاصَّةِ سُلَيْمَانَ النَّبِيِّ الرَّسُولِ، وَيَكُونُ هَذَا الْعِلْمُ مِمَّا اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ هَذَا النَّبِيَّ وَلَمْ يَمْنَحْهُ لِسُلَيْمَانَ، وَلَكِنَّ وُجُودَ هَذَا النَّبِيِّ تَابِعاً مِنْ أَتْبَاعِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، هُوَ مِنْ إِكْرَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ سُلَيْمَانَ.

قال الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب لسليمان أَنَا آتِيكَ بِعَرْشِ بَلْقَيْسَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرَفُكَ.

الطَّرْفُ: تَحْرِيكُ الْجَفْنِ، يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ يُتَنَّى وَيُجْمَعُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَحْرِيكَ الطَّرْفِ إِبْعَاداً يَكُونُ بَانْفِرَاجِ الْجَفْنَيْنِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ عَنِ الْعَيْنِ، وَهَذَا بِمِثَابَةِ إِبْعَادِهِمَا عَنْ صَاحِبِهِمَا، فَيَكُونُ رَدُّ الطَّرْفِ إِلَيْهِ بِضَمِّ الْجَفْنَيْنِ عَلَى الْعَيْنِ، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِكَ لِبَاسِطِ يَدِهِ: رُدِّ إِلَيْكَ يَدُكَ.

فالمعنى: أَنَا أُحْضِرُهُ لَكَ خِلَالَ زَمَنِ يُعَادِلُ رَدَّ جَفْنَيْكَ إِلَى الْإِطْبَاقِ بَعْدَ انْفِرَاجِهِمَا.

﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ :

أي: فَلَمَّا رَأَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرْشَ «بَلْقَيْسَ» حَاضِراً عِنْدَهُ، وَمُسْتَقَرّاً عَلَى قَوَائِمِهِ، وَمُهَيَّأً لِلْجُلُوسِ عَلَيْهِ، قَالَ مُبَيِّناً فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ، غَيْرَ

مُسْتَكْبِرٍ كَعَادَةِ الْمُلُوكِ غَيْرِ الرَّبَّانِيِّينَ، الَّذِينَ يَتَفَاخِرُونَ مُسْتَكْبِرِينَ، بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ نَضْرٍ أَوْ غَيْرِهِ، مِمَّا تَمَيَّزُوا بِهِ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، وَمُبَيَّنًا أَنَّهُ مُمْتَحَنٌ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلٍ عَظِيمٍ، أَيْشْكُرُ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ يَكْفُرُ، وَمُبَيَّنًا قَاعِدَةً مِنْ قَوَاعِدِ الْامْتِحَانِ الرَّبَّانِيِّ لِلْعِبَادَةِ، وَهِيَ أَنَّ مَنْ يَشْكُرُ رَبَّهُ فَهُوَ الْمُسْتَفِيدُ مِنْ شُكْرِهِ لَهُ أَجْرًا عِنْدَهُ، وَأَنَّ مَنْ يَكْفُرُ نِعْمَةَ رَبِّهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا لِأَنَّهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ يُعِدُّ اللَّهُ الْكَرِيمُ أَجَلَ امْتِحَانِهِ وَلَا يُعَجِّلُ عِقَابَهُ بَلْ يَتْرُكُ لَهُ أَمَدًا لِيُرَاجَعَ بِهِ نَفْسَهُ فَيَتُوبَ وَيَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

المستقَر: المتمكِّن في موضِعِهِ الثَّابِت عليه.

﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾: أي: إِحْضَارُ عَرْشِ بَلْقَيْسَ لِي، واستقرارُهُ عِنْدِي كَلَمَحٍ بِالْبَصَرِ، هُوَ فَضْلٌ مِنْ مَنِحِ رَبِّي عَلَيَّ.

﴿لِبَلْوَى أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ؟﴾: أي: لِيُخْتَبَرَنِي، أَأَكُونُ شَاكِرًا لِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيَّ أَمْ أَكُونُ كَافِرًا.

الشكر: هو مقابلة إنعام المنعم بما يُرضيه من فعلٍ أو ترك. ويدخل فيه الاعتراف والثناء، وضدُّه الكفر، وأخسُّه الجحود ونكران الجميل.

﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْ عَنِّي كَرِيمٌ﴾:

هذه قاعدة من قواعد امتحان الله لعباده بالنعم في الحياة الدنيا، وهي ذاتُ أَرْبَعِ مَوَادٍّ، دَلَّ اللفظ على بعضها صراحة، ودَلَّ على بعضها لزوماً ومن دلالات نصوص أخرى.

المادة الأولى: مَنْ يَشْكُرُ رَبَّهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، بَدْءاً مِنْ إِيجَادِهِ، وَإِمْدَاداً لَهُ بِالْحَيَاةِ وَالرِّزْقِ وَالسَّلَامَةِ وَسَائِرِ النُّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ بِشُكْرِهِ رَبَّهُ إِلَّا نَفْسُهُ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْفِيهِ عَلَى شُكْرِهِ بِمَزِيدٍ مِنْ نِعَمِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبِأَجْرِ عَظِيمٍ خَالِدٍ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ عَلَى مَقْدَارِ شُكْرِهِ.

وَأَوَّلُ شُكْرِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ عَلَى نِعَمِهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وبصفاته الجليلة وأسمائه الحُسنى، وبكلِّ أركان الإيمان التي أوجب على عباده أَنْ يُؤْمِنُوا بها، ثم أَنْ يُغْلِنَ إِسْلَامَهُ لَهُ وَخُضُوعَهُ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَأَحْكَامِ الدِّينِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ، ثُمَّ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ وَيُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَأَنْ يُطِيعَهُ فَيَفْعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ، وَيَجْتَنِبَ مَا نَهَى عَنْهُ عِبَادَهُ، عَلَى مِقْدَارِ اسْتَطَاعَتِهِ.

المادة الثانية: مَنْ كَفَرَ جَاحِداً نِعَمَ رَبِّهِ عَلَيْهِ، أَوْ أَبَى أَنْ يُسَلِّمَ لَهُ، أَوْ جَعَلَ لَهُ شَرِيكاً فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ إِلَهِيَّتِهِ، أَوْ عَصَى أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ كُلَّهَا أَوْ بَعْضَهَا، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئاً، بَلْ يَضُرُّ نَفْسَهُ عَلَى مِقْدَارِ كُفْرِهِ بِهِ.

فعاصي الأوامر والنواهي العملية يَحْرِمُ نَفْسَهُ مِنْ أَجُورِهَا، وَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْجَزَاءِ بِالْعِقَابِ عَلَى مِقْدَارِ مَعَاصِيهِ.

ومن كَفَرَ مِنْ دَرَكَةِ الشُّرْكِ بِاللَّهِ جَلَبَ لِنَفْسِهِ الْخُلُودَ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، عَلَى مِقْدَارِ دَرَكَةِ شُرْكِهِ.

ومن كَفَرَ مِنْ دَرَكَةِ جُحُودِ اللَّهِ جَلَبَ لِنَفْسِهِ الْخُلُودَ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ انْحِطَاطاً فِي دَرَكَاتِ الْعَذَابِ فِيهَا عَلَى مِقْدَارِ جُحُودِهِ وَظُلْمِهِ وَدَرَكَاتِ الْجَرَائِمِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا فِي حَيَاتِهِ.

المادة الثالثة: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَنِيٌّ عَنْ عِبَادِهِ، لَا يَنْفَعُهُ إِيمَانُهُمْ بِهِ وَلَا طَاعَتُهُمْ لَهُ، وَلَا يَضُرُّهُ شَيْئاً كُفْرُهُمْ بِهِ، وَمَعْصِيَتُهُمْ لَهُ.

المادة الرابعة: إِنَّ اللَّهَ جَوَادٌ كَرِيمٌ، يُمَهِّلُ عِبَادَهُ الْكَافِرِينَ وَالْعَاصِينَ مِنْ دُونِ الْكُفْرِ إِمْهَالاً كَثِيراً رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبُوا وَيُضِلِّحُوا، فَلَا يَعْجَلُ لَهُمْ عِقَابَاتِهِ.

• ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١١﴾ :

﴿قَالَ﴾ : أَي: سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَام.

﴿نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾: أي: غَيَّرُوا فِيهِ تَغْيِيرًا يَجْعَلُهَا تُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ هُوَ عَرْشَهَا، مع المحافظة عَلَى سَائِرِ صِفَاتِهِ.

وغرضه عليه السَّلام أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهَا أَمْرُهُ، هَلْ هُوَ عَرْشُهَا فِعْلًا، أَمْ هُوَ نَظِيرُهُ دُونَ تَطَابُقِ تَامٍّ.

والمأمُورُونَ بالتَّنْكِيرِ هُمُ الصَّنَاعُ المَاهِرُونَ القَادِرُونَ عَلَى التَّغْيِيرِ التَّنْكِيرِيِّ دُونَ إفساد، وَقَدْ كَانَ أَمْرُهُ مُوجَّهًا لِبَعْضِ زُرَّائِهِ أَوْ وَكَلَائِهِ الَّذِينَ يَكْلَفُونَ عَادَةً أَنْ يَتَوَلَّوْا مِثْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ، لِإِخْضَارِ الصَّنَاعِ المَاهِرِينَ بِصِنَاعَةِ عُرُوشِ الْمُلُوكِ وَكَرَاسِيهِمْ.

﴿نَنْظُرُ﴾ مجزومٌ عَلَى أَنَّهُ جَوَابُ الطَّلَبِ فِي ﴿نَكِرُوا﴾ أي: إِنْ نَكَرْتُمْ عَرْشَهَا نَنْظُرُ إِذَا حَضَرَتْ وَأَرَيْنَاهَا إِيَّاهُ وَسَأَلْنَاهَا عَنْهُ.

﴿أَنْهَدَيْ أَمْرَ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؟

أَرَادَ سُلَيْمَانُ اخْتِيارَ ذَكَائِهَا وَمَا تُجِيبُ بِهِ إِذَا سُئِلَتْ: أَهَكَذَا عَرْشُكَ؟.

﴿أَنْهَدَيْ﴾؟: أي: أَتَهْتَدِي أَنَّهُ عَرْشُهَا مَعَ تَغْيِيرٍ فِيهِ، أَوْ هُوَ نَظِيرُ عَرْشِهَا.

﴿أَمْرَ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾؟ أي: أَمْ تَكُونُ غَيْرَ حَادَّةِ الذِّكَاءِ، فَتَقُولُ كَلَامًا يَدُلُّ عَلَى مُسْتَوَى ذَكَائِهَا الَّذِي لَا يَتَلَأَمُ مَعَ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ مُلْكٍ ذِي شَأْنٍ.

قول الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنَ دُونِ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالِ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

- قرأ قُتُبِلَ: [سَأَقِيهَا] بهمزة ساكنة بعد السّين، عَوْضاً عن الألف، على لغة من يهمز حرف المدّ إذا وَقَعَ وَسَطَ الكلمة.

تمهيد:

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَصَّصَ لِتَكْرِيمِ مَلِكَةٍ سَبَأَ الْقَادِمَةِ إِلَيْهِ طَائِعَةً مُسْتَسْلِمَةً، مَنْ يَسْتَقْبِلُهَا وَيَسِيرُ مَعَهَا، وَيُدْلُّهَا عَلَى الطَّرِيقِ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا مَا يُذْهِشُهَا بِهِ مِنْ عَظَمَةِ مُنْشَأَتِ سُلَيْمَانَ، وَرُبَّمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ حَرَسُهُ الْخَاصَّ.

وَتُوحِي بِأَنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، أَمَرَ بِأَنْ يُوَضَعَ عَرْشُهَا فِي مَكَانٍ مَا خَارِجَ الْقَصْرِ الَّذِي تُدْعَى إِلَى دُخُولِهِ، كَأَنَّهُ مَجْلِسُ اسْتِرَاحَةٍ لِلْمَلِكِ فِي الْحَدِيقَةِ الْمُحِيطَةِ بِهِ، وَلَيْسَ هُوَ عَرْشُهُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ لِلْحُكْمِ.

وَدَعَاها مُرَافِقُو التَّكْرِيمِ لِلْمَسِيرِ، فَمَرُّوا بِهَا إِلَى جَانِبِ عَرْشِهَا الْمُنْكَرِ، فَقَالَ لَهَا رَئِيسُ مُرَافِقِي تَكْرِيمِهَا مِنْ خَاصَّةِ سُلَيْمَانَ إِذْ كَانَ أَوْصَاهُ بِذَلِكَ: ﴿أَمْكَدَا عَرْشَكُمْ؟﴾ اختباراً لذكائها، بِشَأْنِ عَرْشِهَا الْمُنْكَرِ تَنْكِيراً يُشْعِرُ بِالشَّابِهِ الْكَبِيرِ بَيْنَهُمَا دُونَ تَطَابُقِ، وَلِمَقْدَارِ حَكْمَتِهَا فِيمَا تَجِيبُ بِهِ، وَإِشْعَاراً لَهَا بِأَنَّ عَرْشَهَا الَّذِي تَفْتَخِرُ بِهِ لَا يَسْتَحِقُّ فِي مُلْكِ سُلَيْمَانَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَجْلِسَ اسْتِرَاحَةٍ فِي حَدِيقَةٍ قَصْرِهِ.

وَأَذْرَكَتْ «بِلَقِيْسُ» الْغَرَضَ مِنَ السُّؤَالِ، وَمِنْ وَضْعِ الْعَرْشِ فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، فَأَجَابَتْ عَلَى السُّؤَالِ إِجَابَةً ذَكِيَّةً حَكِيمَةً. فَقَالَتْ: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أَي: بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَرْشِي تَشَابُهُ كَبِيرٌ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لَهُ، فَدَلَّ هَذَا الْجَوَابُ عَلَى دِقَّةِ مُلَاحَظَتِهَا لِلْفَرْقِ الَّذِي أَخَذَتْهُ التَّنْكِيرُ. وَأَجَابَتْ عَلَى الْغَرَضِ مِنْ وَضْعِ هَذَا الْعَرْشِ فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ كَأَنَّهُ مَجْلِسُ اسْتِرَاحَةٍ لِلْمَلِكِ سَلِيمَانَ فَقَالَتْ: ﴿وَأَوْتَيْنَا أَلْعَلَّ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أَي: وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ بِعَظَمَةِ مُلْكِ مَلِكِكُمْ وَقُوَّةِ غَلَبَتِهِ، وَسُلْطَانِهِ، وَجُنْدِهِ، مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْمَشَاهِدَةِ الَّتِي رَأَيْنَاهَا

بِأَعْيُنِنَا، وَكُنَّا طَائِعِينَ مُسْتَسْلِمِينَ قَبْلَهَا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلْنَا نَأْتِي إِلَيْكُمْ.

واجتازوا الحديقة وَوَصَلُوا إِلَى مَذْخَلِ الْقَصْرِ الْعَظِيمِ، وَاسْتَقْبَلَهَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ بَابِ قَصْرِهِ، وَكَانَ قَدْ جَعَلَ بِلَاطُ أَرْضِ السَّاحَةِ الدَّاخِلِيَّةِ مِنْ زُجَاجٍ، وَجَعَلَهُ مُتَمَوِّجًا، وَرَبَّمَا كَانَ قَدْ أَجْرَى تَحْتَهُ مَاءٌ، زِيَادَةً فِي الْإِنْيَهَامِ بِأَنَّهُ مَاءٌ يَتَمَوِّجُ.

وَدَعَاها سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الدُّخُولِ، فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَى أَرْضِ السَّاحَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَكَانَتْ قَدْ أَصَابَهَا الدَّهْشُ قَبْلَ الدُّخُولِ، حَسِبَتْ السَّاحَةَ بَرَكَةً يَتَمَوِّجُ فِيهَا الْمَاءُ، فَكَشَفَتْ ثَوْبَهَا عَنْ سَاقَيْهَا لِئَلَّا يُصِيبَهُ بَلَلُ الْمَاءِ الَّذِي تَمْشِي فِيهِ، وَأَذْرَكَتْ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ عَمِيقًا، وَيَدْعُوها الْمَلِكُ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ.

فَقَالَ سُلَيْمَانُ لَهَا: هَذَا لَيْسَ بِمَاءٍ، إِنَّهُ مَفْرُوشٌ بِزُجَاجٍ أَمْلَسَ عَلَى شَكْلِ تَمَوِّجِ الْمَاءِ، أَي: فَلَا تَخَافِي عَلَى ثَوْبِكَ مِنَ الْبَلَلِ.

عِنْدئذٍ بَلَغَ مِنْهَا الدَّهْشُ مَبْلَغًا دَعَاها إِلَى إِعْلَانِ إِيمَانِهَا بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِسْلَامِهَا لَهُ مَعَ سُلَيْمَانَ، وَقَدْ كَانَ لَهَا عِلْمٌ بِهَذِهِ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ، مُنْذُ كَانَتْ فِي بَلَدِهَا وَعَلَى عَرْشِ مُلْكِهَا، وَرَبَّمَا دَعَاها رَئِيسُ مُرَافِقِي تَكْرِيمِهَا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِسْلَامِ لَهُ، وَهُوَ يَسِيرُ مَعَهَا، وَلَكِنْ صَدَّهَا عَنِ الْاسْتِجَابَةِ لَهُ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَبْلَ ذَلِكَ، إِذْ كَانَتْ تَسْجُدُ لِلشَّمْسِ عَلَى عَادَتِهَا تَقْلِيدًا لِقَوْمِهَا.

فَقَالَتْ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

التدبر التحليلي:

• ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ؟﴾ أَي: فَلَمَّا جَاءَتْ بَلْقِيسُ مَعَ وَفْدِهَا

إلى أورشليم « = القُدس »، واستقبلها مَنْ خَصَّصَهُمْ «سليمان» عليه السَّلام لاستقبالِهَا واستقبالِ وفِدها مُكرِّمين، وأنزلوهم منازلَهُم التَّكْرِيمِيَّةَ، وَجَاءَ مَوْعِدُ دُخُولِهِمْ إِلَى سُلَيْمَانَ فِي قَصْرِه، وأدخلوهم من باب سُور حَديقَةِ الْقَصْرِ، ومَرُّوا بِهِمْ إلى جَانِبِ عَرْشِهَا الَّذِي وُضِعَ فِي حَديقَةِ الْقَصْرِ للإِيهام بِأَنَّهُ مَجْلِسُ اسْتِرَاحَةِ الْمَلِكِ فِي حَديقَةِ قَصْرِه.

وجاءت عبارة ﴿قِيلَ لَهَا﴾ بالبناء للمجهول للدلالة على أَنَّ الْقَائِلَ لَيْسَ سليمان عليه السَّلام، والفكرُ يَسْتَنْبِطُ أَنَّ الْقَائِلَ رَئِيسُ لَجَنَةِ المرافقين التَّكْرِيمِيَّةِ.

فَلَمَّا وَصَلَتْ إلى قَرِيبٍ جَدًّا مِنْ عَرْشِهَا، قَالَ لَهَا رَئِيسُ مُكْرَمِيهَا: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾: الهمزة للاستفهام، ولفظ «ها» للتنبيه، يَدْخُلُ على اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب. والكاف للتشبيه وهو حرف جرٌّ دَخَلَ على اسم الإشارة «ذَا». ﴿عَرْشُكَ﴾ أي: سَرِيرٌ أَوْ كُرْسِيُّ مُلْكِكَ.

• ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾: أي: يُشَبِّهُهُ شَبْهًا كَثِيرًا، حَتَّى كَأَنَّهُ هُوَ فِي نَظَرِ مَنْ لَا يُدْرِكُ الْفُرُوقَ.

• ﴿... وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾: من الظاهرِ أَنَّهَا أَدْرَكَتْ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ جَعْلِهَا تَمَرُّ بِجَانِبِ هَذَا الْعَرْشِ الْمَوْضُوعِ فِي حَديقَةِ الْقَصْرِ، الدَّلَالَةُ عَلَى عَظَمَةِ مُلْكِ سليمان، وَأَنَّ شَبِيهَ عَرْشِهَا مَوْضُوعٌ فِي الْحَديقَةِ لاسْتِرَاحَتِهِ، فَقَالَتْ كَلَامًا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ.

أي: وَسَبَقَ أَنْ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ الْمَشَاهِدَةِ الْبَصَرِيَّةِ، بِعَظَمَةِ مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَمَا لَهُ مِنْ مَجْدٍ وَسُلْطَانٍ وَجُنْدٍ وَمَالٍ وَقُوَّةٍ، وَكُنَّا مِنْ قَبْلِ حُضُورِنَا إِلَى مَمْلَكَتِهِ، وَمُشَاهَدَاتِنَا، مُسْلِمِينَ، أي: مُسْتَسْلِمِينَ مُتَقَادِينَ خَاضِعِينَ.

ومع أَنَّهَا دَهَشَتْ هِيَ وَوَفْدُهَا مِنَ الْوَاقِعِ الَّذِي شَهِدُوهُ، إِلَّا أَنَّهَا مَا

زَالَتْ حَتَّى الْوَقْتِ مُحَافَظَةً عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ شِرْكٍ، مَشْدُودَةً نَفْسِيًّا إِلَى تَقَالِيدِهَا الْمُورُوثَةِ.

• ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣).

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ رَئِيسَ لَجَنَةِ اسْتِقْبَالِهَا وَتَكْرِيمِهَا مَعَ وَفْدِهَا، دَعَاها إِلَى الْإِسْلَامِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالدُّخُولِ فِي دِينِ سُلَيْمَانَ، فَلَمْ تَسْتَجِبْ سَاعَتَيْذٍ، وَرُبَّمَا قَالَ لَهَا: إِنَّ سُلَيْمَانَ النَّبِيَّ الرَّسُولَ الْمَلِكَ يَدْعُوكِ وَيَدْعُو قَوْمَكَ إِلَى هَذَا.

﴿وَصَدَّهَا﴾: أَي: وَمَنَعَهَا وَصَرَفَهَا عَنِ الْاسْتِجَابَةِ سَاعَتَيْذٍ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالْإِسْلَامِ لَهُ، وَاتِّبَاعِ سُلَيْمَانَ اتِّبَاعاً دِينِيًّا.

﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: إِذْ كَانَتْ عَلَى مَذْهَبِ الصَّابِئَةِ، فَقَدْ كَانَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ.

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾: فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا امْرَأَةٌ حَكِيمَةٌ عَاقِلَةٌ، لَدَيْهَا رُشْدٌ يَدْفَعُهَا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِيْمَانًا صَحِيحًا كَامِلًا، وَالْإِسْلَامَ لَهُ، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ مَشْدُودَةً إِلَى قَوْمِهَا بِالْعَصَبِيَّةِ، وَنَاشِئَةً عَلَى الْاِعْتِزَازِ بِهِمْ وَالانْتِصَارِ لَهُمْ وَلَوْ كَانُوا عَلَى بَاطِلٍ أَوْ خَطِإٍ ظَاهِرٍ.

فَقَدْ سَبَقَ فِي قِصَّتِهَا بَيَانُ أَنَّهَا وَقَوْمُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ حِكَايَةً عَنِ الْهُذْهْدِ، مَعَ الْإِشْعَارِ بِأَنَّ مَا ذَكَرَهُ حَقٌّ، وَالسُّجُودُ لِلشَّمْسِ كُفْرٌ ظَاهِرٌ، لَا حَاجَةَ لِإِبْثَاتِهِ بِعِبَارَةٍ خَاصَّةٍ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الْعِبَارَةِ، الْإِشَارَةُ إِلَى مَا فِي الْعَصَبِيَّاتِ الْقَوْمِيَّةِ وَمُؤَثِّرَاتِهَا مِنْ تَأْثِيرٍ عَلَى نَفُوسِ أَهْلِ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ وَالرُّشْدِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ جَاءَ دَالًّا بِالْفُحْوَى عَلَى أَنَّهَا دُعِيَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ الدِّينِيِّ، فَلَمْ تَسْتَجِبْ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَفِيهَا بَيَانٌ سَبَبِ عَدَمِ اسْتِجَابَتِهَا.

• ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٤﴾.

دَلَّ لفظ ﴿قِيلَ﴾ في أول هذه الآية، ولفظ [قَالَ] في أثنائها، عَلَى أَنَّ الَّذِي قَالَ لَهَا: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ رَئِيسَ لَجْنَةِ التَّكْرِيمِ المرافقَة لها ولمَنْ معها، وَعَلَى أَنَّ الَّذِي قَالَ لَهَا: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ هُوَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَهَذَا التَّرْتِيبُ فِي الْبَيَانِ يُشْعِرُ بَأَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَقْبَلَهَا وَمَنْ مَعَهَا بِحِفَاوَةٍ عِنْدَ مَدْخَلِ الصَّرْحِ، أَمَّا قَبْلَهُ فَقَدْ كَانَ مُرَافِقُو تَكْرِيمِهَا هُمُ الَّذِينَ يَمْشُونَ مَعَهَا مُكْرَمِينَ وَمُحَادِثِينَ، عَلَى مَقَادِيرِهِمْ.

• ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾: الصَّرْحُ الْقَصْرُ الْعَظِيمُ الْعَالِي الذَّاهِبُ ارْتِفَاعاً فِي السَّمَاءِ.

• ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾: أَي: فَلَمَّا رَأَتْ أَرْضَ سَاحَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ.

• ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾: أَي: تَوَهَّمَتْ أَنَّهُ مَاءٌ كَثِيرٌ ذُو مَوْجٍ، كَأَنَّهَا شَاهَدَتْ مَكَانَ عُمُقٍ فِي الْبَحْرِ، لَقَدْ صَنَعَ هَذَا فِي نَفْسِهَا الْاِنْدِهَاشَ الْمَتَابِعَ.

اللُّجَّةُ فِي اللُّغَةِ: مَعْظَمُ الْبَحْرِ وَتَرَدُّدُ أَمْوَاجِهِ، وَلَعَلَّهَا تَرَيَّثَتْ، ثُمَّ أَدْرَكَتْ أَنَّ الْمَلِكَ سُلَيْمَانَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدْعَوْهَا إِلَى السَّبَاحَةِ فِي مَاءٍ عَمِيقٍ، وَأَنَّ هَذَا الَّذِي شَهِدَتْهُ مَاءٌ لَيْسَ بِالْعَمِيقِ، وَيَكْفِي فِيهِ التَّشْمِيرُ عَنِ السَّاقِينَ.

• ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾: أَي: وَكَشَفَتْ ثَوْبَهَا السَّاتِرَ إِلَى قَدَمَيْهَا عَنْ سَاقَيْهَا، لِثَلَا يَتَلَّ بِالماءِ أَسْفَلَ ثَوْبِهَا.

• ﴿قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾: أَي: إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدُ الْأَرْضِ مِنْ قَوَارِيرَ.

مُمَرَّدٌ: مَضْغُولٌ مُمْلَسٌ، وَالْمَرَادُ بِبَلَاطِ أَرْضِهِ.

• ﴿يَنْ قَوَارِيرٌ﴾ قَوَارِير: جَمْعُ قَارُورَةٍ، وهي وعاءٌ مِنْ زُجَاجٍ تَحْفَظُ فيه السَّوائل.

وَرُبَّمَا كَانَ بَلَاطُ أَرْضِ الصَّرْحِ قَوَارِيرَ عَلَى شَكْلِ قِطْعِ اللَّبَنِ، وَسَطْحُهَا الظَّاهِرُ مُتَمَوِّجٌ، وَثُمَّلاً كُلُّ قَارُورَةٍ مِنْهَا مِنْ فُتْحَةٍ فِيهَا بَمَاءٌ، وَتُسَدُّ الْفُتْحَةُ سَدًّا مُحْكَمًا، وَصُفَّتْ هَذِهِ الْقَوَارِيرُ صَفًّا مُحْكَمًا عَلَى الْأَرْضِ بِلَاصِقٍ شَفَّافٍ بَيْنَهَا، فَصَارَتْ تُرَى عَلَى شَكْلِ مَاءٍ مَالِيٍّ لِلْسَّاحَةِ الدَّاخِلِيَّةِ مِنَ الْقَصْرِ.

وكان الدَّهْشُ قد بَلَغَ مِنْ «بَلْقِيسَ» مَبْلَغُهُ الْأَقْصَى، وَسَيْطَرَّتْ عَلَى مَشَاعِرِهَا شَخْصِيَّةُ سُلَيْمَانَ الْعَظِيمَةِ، وَتَفَجَّرَ مِنْ أَعْمَاقِهَا الرُّشْدُ وَكَمَالُ الْعَقْلِ، وَحَرَّكَتْهَا دَوَافِعُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، سَاعَتِيذٍ.

• ﴿قَالَتْ﴾ مُعْلِنَةً تَوْبَتَهَا مِنْ كُفْرِهَا الَّذِي كَانَتْ فِيهِ وَهِيَ مُتَوَجِّهَةٌ لِلَّهِ بِالْذُّعَاءِ، وَمُعْلِنَةً إِسْلَامَهَا لَهُ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

• ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾: أَي: كُنْتُ ظَالِمَةً لِنَفْسِي فِيمَا سَبَقَ مِنْ عُمْرِي، بِالشَّرِكِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، اتِّبَاعاً لِقَوْمِي وَتَقْلِيداً أَعْمَى لَأَبَائِي وَأَجْدَادِي.

• ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾: أَي: وَأَسْلَمْتُ مُنْذُ الْآنَ إِسْلَاماً مَبْنِياً عَلَى إِيْمَانٍ صَادِقٍ.

• ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ﴾: أَي: مُصَاحِبَةً لَهُ فِي إِسْلَامِهِ التَّطْبِيقِي الْعَمَلِي، عَلَى وَفْقِ دِينِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ.

• ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً. والمراد بِالْعَالَمِينَ هُنَا كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وبهذا تم تدبُّر الدرس الثالث من دروس السورة والحمد لله على توفيقه وفتحته ومَدَدِهِ.



(٧)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (النمل) الآيات من (٤٥ - ٥٣)

وفيه لقطات من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود.

قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ سَتَعْجِلُونَ بِالْسِتَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَاعُواكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَيْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١﴾ فَبِتِلْكَ يُؤْتِيهِمْ خَاوِيَةً يَمَّا ظَلَمُوا إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا آلَإِسْحَاقَ وَكَانُوا يَنْقُوبُ ٥٣﴾

القراءات:

(٤٥) • قرأ أبو عمرو وعاصم، وحَمْزَة، ويعقوب: [أَنْ أَعْبُدُوا] بكسر النون في الوصل، وقرأها باقي القراء العشرة بالضم مراعاةً لضم الباء. أما الكسر فهو على القاعدة في التخلص من الساكنين.

(٤٩) • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [لَتُبَيِّتُنَّهُ - لَتَقُولَنَّ] بقاء المخاطبين، وقرأها باقي القراء العشرة ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ - لَنَقُولَنَّ﴾ بنون المتكلمين. والقراءتان وجهان يَدُلُّان على ما نطق به الرهط المفسدون، إذ تَوَاصَوْا أَوَّلًا فاقسموا ثانيًا.

(٤٩) • قرأ شعبة: [مَهْلِكَ] بفتح الميم واللام. وقرأها حفص عن

عاصم: ﴿مَهْلِكٌ﴾ بفتح الميم وكسر اللّام. وقرأها باقي القراء العشرة: [مُهْلِكٌ] بضَمّ الميم وفَتْح اللام.

«مُهْلِكٌ» مصدر ميمي من «أَهْلَكَهُ إِهْلَاكًا وَمُهْلَكًا» فهو يَدُلُّ على الإهلال، وعلى مكانه وزمانه.

«مَهْلِكٌ» مصدر ميمي من «هَلَكَ يَهْلِكُ» والقياس منه «مَهْلِكٌ» بفتح اللّام، وسُمِعَ «مَهْلِكٌ» واسما الزّمان والمكان من «يَهْلِكُ» مَهْلِكٌ. وجاء: «هَلِكٌ يَهْلِكُ».

فالقراءات الثلاث وجوهٌ عَرَبِيَّةٌ متكَافِئَةٌ، والمعنى: ما شَهِدْنَا هَلَاكَ أَهْلِهِ، وَلَا زَمَانَ هَلَاكِهِمْ، ولا مكانه.

(٥١) • قرأ نافع، وأَبْنُ كثير، وأبو عَمْرٍو، وأَبْنُ عامر، وأبو جعفر، [إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ] بِكُسْرِ همزه «إِنَّ» على الابتداء استئنافاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ﴾ بفتح همزة «أَنَّ» على أَنَّ المصدر المؤوّل من «أَنَّ» وما بعدها بدلٌ من ﴿عَقِبَهُ مَكْرِهِمْ﴾.

والقراءتان من التفنُّنِ في البيان والمؤدَّى واحد.

(٥١) • قرأ ورش، وأبو عَمْرٍو، وحفصٌ عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [يُبَيِّتُهُمْ] بضَمّ الباء، وقرأها باقي القراء العشرة بِكُسْرِ الباء. وهما لغتان عَرَبِيَّتَانِ.

تمهيد:

سبق تدبر عشرة نصوص تتعلّق بقبيلة ثمود إحدى قبائل العرب البائدة التي أهلكها الله عزّ وجلّ بسبب كفرها وطغيانها، ومعلومٌ أَنَّ رُسُولَهُمْ صالحٌ عَلَيْهِ السّلام، وهي النصوص التي أذكرُ سورَها وأرقامَها فيما يلي:

- ١ - من سورة (الفجر/ ١٠ نزول) - الآية (٩).
- ٢ - من سورة (النجم/ ٢٣ نزول) - الآية (٥١).
- ٣ - من سورة (الشمس/ ٢٦ نزول) - الآيات من (١١ - ١٥).
- ٤ - من سورة (البروج/ ٢٧ نزول) - الآيتان (١٧) و(١٨).
- ٥ - من سورة (ق/ ٣٤ نزول) - الآية (١٢).
- ٦ - من سورة (القمر/ ٣٧ نزول) - الآيات من (٢٣ - ٣١).
- ٧ - من سورة (ص/ ٣٨ نزول) - الآية (١٣).
- ٨ - من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) - الآيات من (٧٣ - ٧٩).
- ٩ - من سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) - الآية (٣٨).
- ١٠ - من سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) - الآيات من (١٤١ - ١٥٩).

ومجموع النصوص الواردة حول هذا الموضوع (٢١) نصًا، والنص الموضوع للتدبر من سورة (النمل/ ٤٨ نزول) هو النص (١١).

والتدبر التكاملي للنصوص كلها حول هذا الموضوع، لا بُدَّ أَنْ يُفَرَّزَ له ملحقٌ خاصٌّ به، وأسأل الله أَنْ يُعِينَنِي عليه، إِنَّهُ الْمِمْدُ الْمُعِينُ الْوَهَّابُ^(١).

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ

يَخْتَصِمُونَ﴾^(٢):

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر هذه السورة: «دراسة تكاملية للنصوص بشأن صالح عليه السلام وقومه ثمود في القرآن المجيد».

﴿وَلَقَدْ﴾ الواو عطفت هذا البيان عن ثمود ورَسُولِهِمْ صالح عليه السَّلام، على البيان الكلِّي الذي سَبَقَ بالنسبة إلى أهل سبأ أيام سليمان عليه السلام، إِذْ كَانَ أَهْلُ سَبَأٍ صَابِئِينَ مُشْرِكِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ، كما سَبَقَ في التحليل والتفصيل.

وجاء هذا البيان مؤكِّداً بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ إِذِ اللَّام واقعة في جواب قسم منويٍّ كما يقول النحويّون، ولفظ «قد» للتحقيق، وهذا التوكيد مُوجَّهٌ لكبراء مُشْرِكِي مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَمَنْ هُمْ أمثالهم عبر التاريخ.

﴿أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾: أي: وَجَّهْنَا «صَالِحًا» لأداء مُهِمَّةِ تَبْلِيغِ رِسَالَةٍ عَنَّا إِلَى قَوْمِهِ ثَمُود. وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ نَسَباً وَلُغَةً وَإِقَامَةً.

ثَمُود: قَوْمٌ من العرب، تَكَاثَرُوا بَعْدَ إِهْلَاكِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ «عَادًا» قوم النبي الرَّسُول «هُود» عليه السلام.

ولفظ «ثمود» جاء في القرآن مَضْرُوفاً مُتَوَنِّناً مُرَاعَاةً لاسم الجدِّ، وجاء ممنوعاً من الصَّرْفِ مُرَاعَاةً لكونه اسماً للقبيلة الموثنة.

كانت مساكن «ثمود» في أرض «الحِجْر» ولهذا سَمَّاهم الله في القرآن أصحابَ الحِجْر.

الحِجْر: أَرْضٌ بَيْنَ الشَّامِ وَالْحِجَازِ، إِلَى وَادِي الْقَرْيَ، وَتَقَعُ فِي الطَّرِيقِ الْبَرِّيِّ لِلْمَسَافِرِ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْحِجَازِ، وَأَثَارُ مَدَائِنِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ظَاهِرَةٌ حَتَّى الْآنَ، وَتُسَمَّى «مَدَائِنُ صَالِح» وَتُعْرَفُ دِيَارُهُمْ أَيْضاً بِاسْمِ «فَجِّ النَّاقَةِ».

وِثْمُودُ قَبِيلَةٌ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُعْظَمَهَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَعْدَ إِهْلَاكِهِمْ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾: «أَنْ» تَفْسِيرِيَّةٌ. وَ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تَفْسِيرٌ لِمُضْمُونِ الرُّسَالَةِ الَّتِي أَرْسَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا رَسُولَهُ صَالِحاً إِلَيْهِمْ.

والمراد: اعبُدوا اللَّهَ وَخَدَّهٗ وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئًا، أَخَذًا مِنْ دَلَالَاتِ النَّصُوصِ السَّابِقَةِ بِشَأْنِ قِصَّةِ صَالِحٍ وَقَوْمِهِ ثُمُودَ.

﴿.. فَإِذَا هُم مِّنْ فَرِيقَيْنِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: فَتَرْتَّبَ عَلَىٰ إِزْسَالِنَا صَالِحًا إِلَيْهِمْ، أَنْ آمَنَ بِهِ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَكَذَّبَهُ وَكَفَرَ بِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ فَرِيقٌ آخَرُ، وَنَتِجَةً لِلتَّنَاقُضِ الْفِكْرِيِّ وَالْاِغْتِقَادِيِّ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، صَارَ الْفَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ، فَالْمُؤْمِنُونَ مَعَ رَسُولِهِمْ وَلَوْ كَانُوا قَلَّةً مُّسْتَضْعَفِينَ كَانُوا يُقَدِّمُونَ الْحَجَجَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَىٰ وَجُوبِ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ، وَطَاعَتِهِ فِيمَا بَلَّغَهُمْ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَبِّهِ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ وَكَفَرُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْهُ، كَانُوا يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ، وَيُعَانِدُونَ، وَيُصِرُّونَ عَلَىٰ تَقَالِيدِهِمُ الْعَمِيَاءَ، وَقَدْ يَتَّخِذُونَ ضِدَّ الْمُؤْمِنِينَ وَسَائِلَ اضْطِهَادِيَّةٍ، اِنْتِصَارًا لِّشَرِكِيَّاتِهِمْ، وَعَادَاتِهِمُ السُّلُوكِيَّةَ، الَّتِي فِيهَا ظُلُمٌ وَعُدْوَانٌ، وَفَجُورٌ وَطُغْيَانٌ.

الفاء الدالة على الترتيب مع التعقيب في ﴿فَإِذَا﴾ هِيَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ فَادَّىٰ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَبَلَّغَ الْأَمَانَةَ عَلَىٰ وَفْقِ مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُ، وَنَصَحَ قَوْمَهُ، وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ الرَّبَّانِيَّ بَيَانًا حَسَنًا، فَكَانَتِ الْمَفْجَأَةُ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا «إِذَا» الْفُجَائِيَّةُ أَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وَكَذَّبَهُ وَكَفَرَ بِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ فَرِيقٌ، وَشَرَعَ الْفَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ، فَيُخَاصِمُ أَفْرَادُ هَذَا الْفَرِيقِ الْمُؤْمِنِ، أَفْرَادَ ذَلِكَ الْفَرِيقِ الْمَكْذُوبِ الْكَافِرِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَذَا التَّخَاصُّمِ الْإِفْرَادِيِّ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَאוּ الْجَمَاعَةِ فِي ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، إِذْ لَوْ كَانَ التَّخَاصُّمُ جَمَاعِيًّا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، عَلَىٰ طَرِيقَةِ مُثَلِّ لِهَؤُلَاءِ يُخَاصِمُ مُثَلَّلًا لِأُولَئِكَ، فِي مُجَالِسِ مُنَازَعَةٍ، لَكَانَ الْمَلَائِمُ أَنْ يُقَالَ: فَإِذَا هُم فَرِيقَانِ يَخْتَصِمَانِ، لِكِنَّ التَّخَاصُّمَ كَانَ مُوزَّعًا بَيْنَ أَفْرَادِ الْفَرِيقَيْنِ.

يقال لغة: «اِخْتَصَمَ الْقَوْمُ، وَتَخَاصَمَ الْقَوْمُ» أي: خَاصَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. يقال: «خَاصَمَهُ، يُخَاصِمُهُ، مُخَاصِمَةً، وَخِصَامًا» أي: جَادَلَهُ، وَنَازَعَهُ، فَهُوَ مُخَاصِمٌ، وَخِصِيمٌ، وَيُجَمَعُ «خِصِيمٌ» عَلَى «خِصَمَاءَ» وَعَلَى «خِصَمَانٍ».

والخِصْمُ: المَخَاصِمُ، يُقَالُ لِلوَاحِدِ وَالْوَاحِدَةِ وَالْمِثْنِ وَالْجَمْعِ مِنْهُمَا، وَيُسَمَّى فَيُقَالُ: «خِصَمَانٍ» وَيُجَمَعُ عَلَى خِصُومٍ، وَخِصَمَاءَ، وَيَطْرَدُ فِيهِ «خِصَامٌ» مِثْلُ: «صَغِبٌ وَصِغَابٌ، وَكَلْبٌ وَكِلَابٌ».

قال الله عز وجل:

• ﴿قَالَ يَنْفِرُ لِمَ سَتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٦):

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَوَاخِرِ مَوَاقِفٍ مُكْذِبِي ثُمُودَ لِرُسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهِيَ مُعَبَّرَةٌ عَنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ، بَعْدَ مَسِيرَةِ دَعْوِيَّةٍ طَوِيلَةٍ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا سِيرَتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَهُمْ، فَهِيَ مَنَزَعَةٌ مِنْهَا اخْتِرَالًا.

وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِعِقَابٍ مِنَ اللَّهِ مُهْلِكٍ لَهُمْ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا فِيهِ إِبَادَةٌ لِكُفَّارِهِمْ، وَأَنْ إِنْذَارَاتِهِ كَانَتْ تَتَوَالَى عَلَيْهِمْ.

وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ يُمְهِلُهُمْ، رَغْبَةً فِي تَوْبَتِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، إِلَّا أَنَّ الْإِمْهَالَ الطَّوِيلَ أَغْرَاهُمْ بِتَضْدِيقِ تَوَهُمِهِمْ بِأَنْ صَالِحًا لَا يَمْلِكُ مِنْ رَبِّهِ تَحْقِيقَ مَا يُنْذِرُهُمْ بِهِ، مَعَ أَنَّ إِنْذَارَهُ لَهُمْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مُبَلِّغًا إِيَّاهُ عَنْ رَبِّهِ، وَمِنْ سُنَّةِ اللَّهِ أَنْ يُمְهِلَ عِبَادَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِمْهَالًا طَوِيلًا، حَتَّى يَقْطَعَ كُلَّ أَعْذَارِهِمْ.

وَتَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ بِفَحْوَها أَخْذًا مِنْ تَرَائِمِ أَنْوَاعِ عِلَاجِ كِبَرَاءِ مَكَّةَ، الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا السُّورَةُ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (النمل) عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكِبَرَاءِ قَدْ بَدَّوْا وَيَسْتَعِجِلُونَ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ بِإِنْزَالِ مَا كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ

من مُهْلِكَاتٍ، تَوَهَّمَا مِنْهُمُ أَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ فِي إِنذَارَاتِهِ لَهُمْ، فَضَرَبَ اللَّهُ لَهُمْ مَثَلَ ثُمُودَ الَّذِينَ اسْتَعْجَلُوا بِتَحْقِيقِ مَا أُنْذِرُهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ، فَحَقَّقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ، مَا كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، فَأَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكًا شَامِلًا مَقْرُونًا بِتَعْذِيبِ ذِي الْأَمِّ شَدِيدَةٍ.

الاستِعْجَالُ: طَلَبُ تَعْجِيلِ الْأَمْرِ الْمَوْعُودِ بِهِ قَبْلَ أَوَانِهِ، أَوْ طَلَبُ تَحْقِيقِ الشَّيْءِ قَبْلَ الْوَقْتِ الَّذِي قَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ الْحَكِيمَةِ بِتَحْقِيقِهِ فِيهِ. جَاءَ فِعْلُ «اسْتَعْجَلَ» بِمَعْنَى «عَجَلَ» أَي: أَسْرَعَ، فَهُوَ لَازِمٌ يَتَعَدَّى بِالْحُرُوفِ.

أَي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكُفَّارِ قَوْمِهِ: يَا قَوْمَ لِمَ تَعْجَلُونَ بِطَلَبِ مَا أُنْذَرْتُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ وَإِهْلَاكِكُمْ إِهْلَاكًا مُدْمِرًا؟!

وَمَوْقِعُ هَذِهِ الْآيَةِ يَأْتِي بَعْدَ قَوْلِهِمْ لَصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله تعالى:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّيهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

السَّيِّئَةُ: تُطْلَقُ عَلَى كُلِّ نَازِلَةٍ مَكْرُوهَةٍ. وَعَلَى كُلِّ فَعْلَةٍ قَبِيحَةٍ. وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْمَلَائِمُ هُنَا.

الْحَسَنَةُ: تُطْلَقُ عَلَى الْحُظُوظِ الْحَسَنَةِ السَّارَةِ، وَعَلَى النُّعَمِ الَّتِي يَسْتَمْتِعُ بِهَا الَّذِينَ نَالُوهَا مَتَاعًا مَحْبُوبًا إِلَى نَفْسِهِمْ.

وَتُطْلَقُ عَلَى كُلِّ فَعْلَةٍ جَمِيلَةٍ يُمدَّحُ فاعِلُهَا. وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْمَلَائِمُ هُنَا.

فَالْمَعْنَى الَّذِي أَفْهَمُهُ مِنْ عِبَارَةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكُفَّارِ قَوْمِهِ كَمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَلِي:

يَا قَوْمَ، لِمَ تَعْجَلُونَ بِطَلَبِ إِنْزَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تَكْرَهُونَ إِنْزَالَهَا بِكُمْ إِذَا

نَزَلْتُ، قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْفُوا حُطُوظَكُمْ الْحَسَنَةَ الَّتِي قَضَى اللَّهُ أَنْ تَسْتَمْتَعُوا بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. إِنَّ رَبَّكُمْ يُمَهِّلُكُمْ رَغْبَةً فِي تَوْبَتِكُمْ وَاسْتِغْفَارِكُمْ مَا دَامَتْ حُكْمَتُهُ تَقْضِي بِإِطَالَةِ مُدَّةٍ امْتِحَانِكُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

وَهَلَّا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ رَاجِينَ أَنْ يَسْمَلَكُمْ بِرَحْمَتِهِ، وَتُؤْمِنُونَ وَتَعْمَلُونَ صَالِحًا، لِيَغْفِرَ لَكُمْ كُفْرَكُمْ وَجَرَائِمَكُمْ الَّتِي ارْتَكَبْتُمُوهَا.

﴿يَقْوَرُ﴾: أَضْلُهَا: «يَا قَوْمِي» حُذِفَتْ ياء المتكلم واكتفي بالكسرة دليلاً عليها. وهذا الحذف أجود اللغات الست في هذه العبارة وأشابهها.

﴿لِمَ تَسْتَعِجِلُونَ؟﴾ استفهام مُتَعَجِّبٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَنَاصِحٍ لَهُمْ.

﴿لَوْلَا﴾: تَحْضِيضِيَّةٌ بِمَعْنَى «هَلَّا».

﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾: أَي: هَلَّا تَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ فَيَتَجَاوَزَ عَنْ كُفْرِكُمْ وَجَرَائِمِكُمْ فَلَا يَعَاقِبَكُمْ عَلَيْهَا رَحْمَةً مِنْهُ بِكُمْ.

الاستغفار: طَلَبُ الْغَفْرِ، وَهُوَ سَرُّ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَهَذَا يَقْتَضِي بِفَضْلِ اللَّهِ التَّجَاوُزَ عَنِ الْمُعَاقَبَةِ عَلَيْهَا، وَيُنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِغْفَارُ مُسْتَتَبِعاً بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَكَيْفَ يُقْبَلُ طَلَبُ سَرِّ الذُّنْبِ الْمَاضِي مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى فِعْلٍ مِثْلِهِ فِي الْحَالِ أَوْ الْإِسْتِغْفَالِ؟!.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: لَعَلَّ: لِلتَّرَجِّي، وَالتَّرَجِّي يُلَاحِظُ حَالَ الْعِبَادِ، وَلَا يُلَاحِظُ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ. فَالْمَعْنَى: هَلَّا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَاجِينَ أَنْ يَرْحَمَكُم فَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَيَرْفَعَ عَنْكُم مَّا أَنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ مِنْ عِقَابٍ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْكُمْ مِنْ كُفْرٍ وَجَرَائِمٍ سَلُوكِيَّةٍ.

قول الله عز وجل:

﴿قَالُوا أَطِغْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَغْيَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٧):

﴿أَطْيَرْنَا﴾ أَضْلُهَا «تَطَيَّرْنَا» قُلِبَتِ التَاء طَاءً لِقُرْبِ مَخْرَجِهِمَا، وَسُكِّنَتْ، وَأُذْغِمَتْ بِالطَّاءِ، وَجِيءَ بِهِمْزَةُ الْوُضَلِ إِذْ صَارَتِ الْكَلِمَةُ مُبْتَدَأَةً بِسَاكِنٍ، وَالْغَرَضُ تَخْفِيفُ النَّطْقِ.

التَّطَيُّرُ: التَّشَاوُؤُ بِالْأَشْيَاءِ، أَوْ بِالْأَشْخَاصِ، أَوْ بِمَسْمُوعٍ أَوْ مَرْنِيٍّ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَضْلُ التَّطَيُّرِ مِنْ زَجْرِ الْعَرَبِ لِلطَّيْرِ، فَإِذَا طَارَ إِلَى جِهَةِ الْيَمِينِ تَفَاءً لَوْأَ، وَإِذَا طَارَ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ تَشَاءً مُوَأَ.

وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ بِثُمُودٍ عَلَى عَادَتِهِ مَقَادِيرَ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ رَغْبَةً فِي أَنْ يُتُوبُوا وَيَتَضَرَّعُوا سَائِلِينَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ، بَعْدَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرُسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ.

هَذِهِ السُّنَّةُ قَدْ أَبَانَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ (الْأَعْرَافِ ٧/ مصحف ٣٩/ نزول).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤):

الْبَأْسَاءُ: الْجُوعُ، وَالْمَشَقَّةُ، وَالْفَقْرُ، وَضَنْكُ الْعَيْشِ، وَالْحَرْبُ.

الضَّرَاءُ: الشَّدَّةُ، وَكُلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ، وَالْغَرَضُ تَذْكِيرُهُمْ بِرَبِّهِمْ، لِيَتُوبُوا إِلَيْهِ، وَيَسْتَغْفِرُوهُ، وَيَدْعُوهُ سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُونَ، لَكِنَّ الْكَافِرِينَ يَنْسُبُونَ ظَاهِرَاتِ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ إِلَى شُؤْمِ رُسُلِهِمْ وَشُؤْمِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّطَيُّرِ الْوَهْمِيِّ، الَّذِي لَا يَكُونُ الْمُتَطَيِّرُ بِهِ سَبَبًا لِحُدُوثِ مَصَائِبِ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَعَقَّلُونَ بِالْأَوْهَامِ الْبَاطِلَةِ، وَيَكْذِبُونَ الرُّسُلَ الصَّادِقِينَ، وَيَكْذِبُونَ بِالْحَقِّ الَّذِي يُبْلَغُونَهُ عَنْ رَبِّهِمْ.

كذلك فعلت ثمود، قوم الرسول صالح عليه السلام، لما أخذهم الله عز وجل بالبأساء والضراء ليتوبوا، ويستغفروا، ويتضرعوا إلى بارئهم، لم يكن منهم إلا أن يتشاءموا برسولهم صالح عليه السلام وبمن معه من المؤمنين.

فقال لهم صالح عليه السلام ما أبانه الله عز وجل بقوله: ﴿... قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٧).

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ﴾: أي: عمَلُكُمْ انطلق طائراً فصار ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ علماً وتسجيلاً وحساباً، وهو السبب الذي من أجله أنزل الله عز وجل بكم من البأساء والضراء ما تكرهون، رغبة في أن تتوبوا إليه، وتستغفروه، وتتضرعوا سائلين أن يكشف عنكم ما أنزل بكم من مصائب.

لكنكم صرقتهم هذه الحقيقة عن أذهانكم وتمسكنم بأوهام التطير الذي لا حقيقة له، وإنما هو ذريعة تتهربون بها من الحق.

واختير لفظ الطائر كناية عن العمل ليتلاءم في اللفظ مع الطيرة المشتقة من الطائر، وهي كناية قرآنية.

والمعنى: لا شؤم مني ولا من الذين آمنوا بي واتبعوني، بل أنتم قوم تفتنون، فتستجيئون لوساوس الشيطان وإغراءاته وتسويلاته بالباطل، منخدعين بها، إذ يزين لكم شهواتكم من الحياة الدنيا، ويزين لكم ما أنتم فيه من شرك، وتتأثرون بها ضالين متبعدين عن صراط الحق، صراط الله المستقيم.

الفئة: تأتي للدلالة على معاني عديدة، منها الابتلاء، ومنها الإغراء والخداع بالباطل للإضلال والصرف عن الحق، وهذا المعنى هو الملازم هنا.

﴿تُفْتَنُونَ﴾: أي: يُتَابَعُ شياطين الإنس والجنَّ عَلَيْكُمْ وَسَائِلُ الْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ لِإِضْلَالِكُمْ، فَتَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ فَتُضِلُّونَ عَنْ إِذْرَاكِ الْحَقِّ وَالِاسْتِمْسَاكِ بِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يَقْتَضِيهِ مِنْكُمْ مِنْ سُلُوكٍ. دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْمَتَابَعَةِ الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ.

وَقُدِّمَ الْمَسْنَدُ إِلَيْهِ فِي عِبَارَةٍ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ لَتَعْيِينِ افْتِتَانِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، فِي مَقَابِلِ انْتِفَاءِ الشُّؤْمِ الَّذِي أَدْعَوْهُ بِقَوْلِهِمْ لِرَسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: [إِنَّا تَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ] دَلٌّ عَلَى هَذَا «بَلْ» إِذِ الْعِبَارَةُ بِقُوَّةٍ: إِنَّمَا أَنْتُمْ تُفْتَنُونَ، لَا شُؤْمٌ يَأْتِي مِنْ قَبْلِنَا حَتَّى تَطَّيَّرُوا بِنَا. قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَكَاكَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨).

الرَّهْطُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ الرِّجَالِ دُونَ الْعَشْرَةِ.

تِسْعَةُ رَهْطٍ: لَمَّا كَانَتْ كَلِمَةُ «رَهْطٍ» بِمَعْنَى «رِجَالٍ» صَحَّ تَمْيِيزُ لَفْظِ «تِسْعَةٍ» بِمُضَافٍ إِلَيْهِ مَجْرُورٍ، كَقَوْلِنَا: «تِسْعَةُ رِجَالٍ».

﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي: يُفْسِدُونَ فِي أَرْضِ مَدِينَةِ ثَمُودَ وَرُبَّمَا فِي غَيْرِهَا أَيْضاً.

الْإِفْسَادُ: تَحْوِيلُ الشَّيْءِ مِنْ كَوْنِهِ صَالِحاً نَافِعاً، إِلَى كَوْنِهِ غَيْرِ صَالِحٍ وَلَا نَافِعٍ، بَلْ رُبَّمَا يَصِيرُ ضَاراً كَرِيهاً مُفْسِداً لِلأَشْيَاءِ الصَّالِحَةِ.

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾: إِبْطَاتُ أَنَّهَمْ يُفْسِدُونَ، لَا يَنْفِي أَنَّهَمْ قَدْ يُصْلِحُونَ أَحْيَاناً، فَجَاءَتْ عِبَارَةٌ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّهَمْ لَا يَكُونُ مِنْهُمْ صِلَاحٌ وَلَا إِصْلَاحٌ مَا فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ^(١).

(١) انظر قصة ثمود وهؤلاء الرهط التسعة منهم، في المجلد الرابع الصفحات من (٣٥٦ -

٣٦٨) أَخْذاً مِمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، ثُمَّ مِنْ حِكَايَاتِ تَارِيخِيَّةٍ ذَكَرَهَا الْمُؤَرِّخُونَ.

فعل «أَصْلَحَ» يأتي بِمَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: يقال فيه: «أَصْلَحَ الرَّجُلُ» أي: أتى بما هو صالح نافع، فهو لازم هذا المعنى.

المعنى الثاني: يُقَالُ فِيهِ: «أَصْلَحَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أي: أزال فسادَه، فهو متَعَدٌّ على هذا المعنى.

وكلا المعنيين ينطبقان على هؤلاء الرّهط التسعة.

فدَلَّ قول الله عزّ وجلّ في وَصْفِهِمْ: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ على أنّهم لَا يكون منهم إِلَّا الْفَسَادُ وَالْإِفْسَاد، ولا يكون منهم صَلَاحٌ وَلَا إِصْلَاح.

قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٤٩).

﴿تَقَاسَمُوا بِاللّهِ﴾: فَعَلُ أَمْرٍ، أي: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لِيُقْسِمَ كُلُّ مِنَّا بِاللّهِ. وَيُلَاقِئُ هَذَا قِرَاءَةُ [لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ] بالتاء.

وأما قراءة [لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ] بالنون، فالفعل في عبارة: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللّهِ﴾ هو فعل أمر أيضاً فيما أرى، وتكون عبارة: [لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ] مَقُولٌ قَوْلٍ مَحذُوفٍ هو حالٌ، وتقديرُ الكلام كُلُّهُ عَلَى الوجه التالي: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللّهِ﴾ فَأَقْسَمُوا قَائِلِينَ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ وَلَا مَهْلِكَهٗ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾. ومِثْلُ هَذَا الحذف كثير في القرآن المجيد، ويُمكنُ اسْتِخْرَاجُهُ بشيءٍ من التأمّل، ولا حاجة إلى تَخْرِيجَاتٍ مُتَكَلِّفَاتٍ، التِّزَامُ بقواعدِ النُّحَاةِ ذاتِ النُّظَامِ الصَّنَاعِيِّ الشُّكْلِيِّ.

التَّبَيُّتُ: عَمَلُ الشَّيْءِ، أَوْ تَذْبِيرُهُ، أَوْ الْإِتِّفَاقُ عَلَيْهِ، أَوْ نِيَّةُ فِعْلِهِ لَيْلًا، وَمِنْ نِيَّةِ الْعَمَلِ لَيْلًا تَبَيَّتُ الصَّيَامُ، بِالْعَزْمِ عَلَى آدَائِهِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَمِنْ عَمَلِ الشَّيْءِ لَيْلًا مُبَاغَتَةُ الْعَدُوِّ لَيْلًا لِقَتْلِهِ أَوْ سَلْبِهِ أَوْ إِنْزَالِ مَا يَكْرَهُ بِهِ.

وَالَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ الْأَشْقِيَاءُ التُّسْعَةَ مِنْ قَوْمِ ثَمُودَ، أَنْ يَقْتُلُوا صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَامَ لَيْلاً عَلَى سَبِيلِ الْمُبَاغَةِ، وَيَقْتُلُوا مَعَهُ أَهْلَهُ فِي دَارِهِ، فِي وَقْتٍ لَا يَرَاهُمْ فِيهِ أَحَدٌ، لِيَتَسَنَّى لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَقْرَبَائِهِ: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَهُ وَلَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ.

﴿لَوْلِيَهٗ﴾: أي: لأقربائه الَّذِينَ يُطَالِبُونَ بِالنَّارِ.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكُهُ وَلَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ، فَلَمْ نَكُنْ حَاضِرِينَ عِنْدَ هَلَاكِهِمْ، حَدَثًا وَلَا زَمَانًا وَلَا مَكَانًا.

نَفْيُ الشُّهُودِ أُبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الْفِعْلِ، لِأَنَّ نَفْيَ الْفِعْلِ قَدْ يَكُونُ مَعَ الْحُضُورِ وَالشُّهُودِ، لَكِنَّ نَفْيَ الشُّهُودِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ بِهَلَاكِهِمْ قَدْ كَانَ تَلَقِّيًّا مِنْ أَخْبَارِ النَّاسِ.

﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾: أي: ونؤكد لوليّه صدقنا في أننا ما شهدنا مهلكهم، ففي هذه العبارة التوكيد بـ«إِنَّ» - الجملة الاسمية - اللام المزحلقة لِلْحَبَرِ.

قول الله عز وجل:

﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ
كَانَ عَذَابُهُ مُكْرِمًا أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ .

الْمَكْرُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ تَذْيِيرُ أَمْرٍ مَا فِي خَفَاءٍ. وَمَعْلُومٌ بَدَاهَةٌ أَنْ مَا يُدَبَّرُ فِي خَفَاءٍ لَا يَلْزَمُ عَقْلاً وَوَاقِعاً أَنْ يَكُونَ شَرّاً ، بَلْ قَدْ يَكُونُ خَيْراً. وَمَا يَكُونُ مِنْهُ خَيْراً لَا يُتَافَى الْكَمَالَ، بَلْ هُوَ مِنْ صُورِهِ وَأَمْثَلَتِهِ.

إِنَّ الْحَاكِمَ الْعَادِلَ يَمْكُرُ، وَمَكْرُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا خَيْرًا، إِنَّهُ قَدْ يَمْكُرُ
بِالْمُجْرِمِينَ حَتَّى يَفْبِضَ عَلَيْهِمْ لِإِقَامَةِ الْعَدْلِ. وَالْمُسْلِمُ الْمُلتَزِمُ بِأَحْكَامِ
وَشَرَائِعِ الدِّينِ يَمْكُرُ، وَمَكْرُهُ يَكُونُ خَيْرًا يَبْتَغِي بِهِ رِضْوَانِ اللَّهِ وَالْجَنَّةِ.
وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ يَمْكُرُ، وَمَكْرُهُ هُوَ خَيْرٌ دَوَامًا، وَهُوَ
خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: وهم لَا يَعْلَمُونَ أَقْلَ عِلْمٍ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ.

دَلَّ هَذَا الْبَيَانُ عَلَى أَنَّ أَشْقِيَاءَ ثُمُودَ دَبَرُوا فِي الْخِفَاءِ قَتْلَ صَالِحٍ عَلَيْهِ
السَّلَامِ وَأَهْلِيهِ مَعَهُ لَيْلًا، وَاتَّفَقُوا عَلَى هَذَا مَعَ كُفْرَاءِ كُفَّارِ قَوْمِهِمْ، وَكَتَمُوا
الْأَمْرَ، وَعَيَّنُوا لَيْلَةً لِتَنْفِيزِ مَا مَكْرُوهُ.

إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَكَّرَ مَكْرًا آخَرَ بِهِمْ فِي الْخِفَاءِ، دُونَ أَيِّ شُعُورٍ
مِنْهُمْ، إِذْ قَضَى بِإِهْلَالِ الْأَشْقِيَاءِ وَإِهْلَالِ جَمِيعِ كُفَّارِ ثُمُودَ قَبْلَ الْمَوْعِدِ
الَّذِي قَرَّرَ الْأَشْقِيَاءُ قَتْلَ صَالِحٍ وَأَهْلِيهِ فِيهِ، غِيْلَةً وَبَيَاتًا.

وَأَنْفَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَدْبِيرَهُ، وَأَنْزَلَ بِالْأَشْقِيَاءِ وَبَسَائِرِ كُفَّارِ قَوْمِهِمْ،
وَسَائِلَ تَغْذِيهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، وَتَذْمِيرِ مَسَاكِينِهِمْ عَلَيْهِمْ.

وَوَجَّهَ الْعِظَةَ لِكُلِّ مَنْ يَتَلَقَّى هَذَا الْبَيَانَ بِخَطَابٍ إِفْرَادِيٍّ، قَائِلًا لَهُ:

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾: أي: فَانْظُرْ أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي
الْمُسْتَعِدُّ لِلْإِعْظَامِ مُتَفَكِّرًا، الْحَالَةَ الَّتِي وَجَدْتَ عَلَيْهَا عَاقِبَةُ كُفَّارِ ثُمُودَ عِقَابًا
لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ مَكْرٍ.

﴿أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: الْمَضْدَرُّ الْمُؤَوَّلُ مِنْ «أَنَّ»، وَمَا بَعْدَهَا
بَدَلٌ مِنْ «عَاقِبَةُ»: أي: فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ تَذْمِيرُنَا الْأَشْقِيَاءَ التَّسْعَةَ وَكُفَّارَ
قَوْمِهِمْ أَجْمَعِينَ.

العاقبة: الْجَزَاءُ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ عَمَلِ الْعَامِلِ.

التدمير: هو الإهلاك مع إبادة المهلك، وهذا يكون مصحوباً غالباً بتعذيب شديد. يقال لغة: «دَمَّرَ اللهُ الْقَوْمَ تَدْمِيرًا، وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ» أي: أَهْلَكَهُمْ. ويقال: «دَمَّرَ اللهُ الْقَرْيَةَ وَدَمَّرَ عَلَيْهَا» أي: أَبَادَهَا وَجَعَلَهَا دَارِسَةً. وعلى قراءة [إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ] بِكَسْرِ هَمْزَةٍ «إِنَّ» تكون الجملة مُسْتَأْنَفَةً، جواباً لِسؤالٍ مَطْوِيٍّ تَقْدِيرُهُ: كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ؟ فجاء الجواب: إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ.

والقراءتان مِنَ التَّقْنِ فِي التَّغْيِيرِ، وَالْمُؤَدَّى وَاحِدٌ.
قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
وَإِنَّمَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾ (٥٢)

أي: فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ الْبَاقِيَةُ مِنْ آثَارِهِمْ فِي مَدَائِنٍ صَالِحٍ حَالَةٌ كَوْنِهَا خَالِيَةٌ مِنْهُمْ وَمِنْ أَيِّ سَاكِنٍ مِنَ النَّاسِ. بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ.

﴿خَاوِيَةٌ﴾: أي: خَالِيَةٌ مِنَ السَّاكِنِينَ، يُقَالُ لُغَةً: «خَوَى الْمَكَانَ وَخَوَّهُ يَخْوِي، خِيًّا، وَخَوَاءً، وَخَوَى، وَخَوِيًّا» أي: خَلَا، وَالْكَلِمَةُ مَنْصُوبَةٌ عَلَى أَنَّهَا حَالٌ، وَالْعَامِلُ فِيهِ مَا فِي اسْمِ الْإِشَارَةِ مِنْ مَعْنَى «أَشِيرُ».

وَإِنَّ آثَارَهُمْ تَذُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا، دَمَّرَهُمْ فِيهِ تَدْمِيرًا.

وَأَكَّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ فِي هَذَا الْإِهْلَاكِ التَّدْمِيرِيَّ ذِي الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ فِي أَرْضِهِمْ، لَعَلَّامَةٌ جَلِيَّةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ يُعَاقِبُ فِي الدُّنْيَا الْكَافِرِينَ الطَّاغِينَ الْمَجْرِمِينَ، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ، لِتَطْهِيرِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ، وَلِيَكُونُوا عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: أي: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعَلَامَةً وَّاضِحَةً عَلَى عَدَلِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ، مُوجَّهَةً لِقَوْمٍ هُمْ مُسْتَعِدُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا مَجَارِي سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَحُكْمَتِهِ فِي تَصَارِيفِهِ، فَإِذَا عَلِمُوا مِنْهَا شَيْئاً كَانَ عِلْمُهُمْ دَافِعاً لَهُمْ إِلَى الْإِلْتِزَامِ بِطَاعَتِهِ، فِي آدَاءِ مَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ.

﴿وَأَنبِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٣): أي: وَخَلَّصْنَا مِنَ الْإِهْلَاكِ التَّدْمِيرِي صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَام، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ لِإِيمَانِهِمْ تَأْثِيرٌ فِي سُلُوكِهِمْ، إِذْ كَانُوا يَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ عَلَى الْمَعَاصِي، بِفِعْلِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ أَمْرٍ إِبْجَابٍ وَالْإِزَامِ، وَبِتَرْكِ مَا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ وَحَظَرٍ.

النجاة: الخلاص من المكروه، يقال لغة: «نَجَا، يَنْجُو، نَجَاءً، وَنَجَاةً مِنَ الشَّيْءِ» أي: خَلَّصَ مِنْ مَكْرُوهِهِ مُرْتَقِبِ الْحُدُوثِ مِنْ قَبْلِهِ. وَيُقَالُ: «أَنْجَى اللَّهُ فُلَاناً وَنَجَّاهُ» أي: خَلَّصَهُ مِنْ مَكْرُوهِهِ مُتَوَقِّعِ الْحُدُوثِ.

﴿يَتَّقُونَ﴾: أي: يَجْعَلُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَضُرُّهُمْ وَيَسُوؤُهُمْ وَقَايَةً، وَالْوَقَايَةَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، تَكُونُ بِصِدْقِ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِمَا أَوْجَبَ الْإِيمَانُ بِهِ، وَبِطَاعَتِهِ مَعَ الْإِخْلَاصِ لَهُ جَلًّا جَلَالُهُ وَعَظْمُ سُلْطَانِهِ.

ما طوي بيانه في هذا النص مما أراد الله بيانه من قصّة ثمود ورَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ، قَدْ جَاءَ بَيَانُهُ فِي النُّصُوصِ الْآخَرَى الْمَوْزَعَةِ فِي سُورِ الْقُرْآنِ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الرَّابِعِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (النمل) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَدَدِهِ وَمَعُونَتِهِ وَفَتْحِهِ، إِنَّهُ الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ الْوَهَّابُ.



(٨)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُرُوسِ سورة (النمل)

الآيات من (٥٤ - ٥٨)

وفيه لقطات من قصة لوط وقومه

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْغِرُونَ ﴿٥٤﴾
 أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴿فَمَا
 كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ
 أَنْاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنْ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾
 وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

القراءات:

(٥٧) • قرأ شعبة: [قَدَرْنَاهَا] بفتح الدال دون تشديد من فعل «قَدَرَ»
 وقرأها باقي القراء العشرة ﴿قَدَرْنَاهَا﴾ بفتح الدال مع تشديد من فعل «قَدَرَ».
 قَدَرَ وَقَدَّرَ: لغتان لمعنى واحد، يقال لغة: «قَدَرَ الأمرُ وَقَدَرَهُ» أي:
 دَبَّرَهُ قبل إيجاده مُحَدِّدًا مَقَادِيرَهُ.

فالقراءتان متكافئتان، وفي «قَدَرَ» معنى التشديد على تنفيذ الأمر.

(٥٨) • وقرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهِمْ] بضم الهاء.

وقرأ باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.

والقراءتان لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ لِنُطْقِ هَاءِ الضمير.

تمهيد:

سَبَقَ تَدَبُّرُ هَذَا النَّصِّ تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا مَعَ سَائِرِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ

بلوط عليه السلام وقومه أهل سدوم، في الملحق الخامس من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

ولِذَا أَقْتَصَرُ هُنَا عَلَى تَحْلِيلِ هَذَا النَّصِّ، دُونَ أَنْ أَذْرُسَهُ دِرَاسَةً تَكَامُلِيَّةً مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِفِقْرَاتِهِ^(١).

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِتَهْلُوكِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾: أي: واذكُرْ أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي رَسُولَنَا لَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَهْلِ سَدُومَ، وَقَدْ كَانُوا سُكَّانَ خَمْسِ قُرَى فِي مَكَانِ الْبَحْرِ الْمَيِّتِ قَبْلَ إِهْلَاكِهِمْ، وَقَلْبِ بِلَادِهِمْ عَلَيْهَا سَافِلِهَا.

﴿... أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ استفهام إنكاري تَنذِيديُّ بِفَاحِشَتِهِمُ الَّتِي يَسْتَعْلِنُونَ بِهَا، وَيُبْصِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَدَى مُمَارَسَتِهَا، اسْتِمَاعًا بِمَا يُشَاهِدُونَ.

﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ﴾؟ استفهام إنكاري تَنذِيديُّ آخَرُ وَجَّهَهُ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ.

وفي كلا الاستفهامَيْنِ مَعْنَى تَوْبِيخِهِمْ، وَأَنَّ الْمُسْتَفْهَمَ عَنْهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَغْرَبَةِ، الَّتِي لَا يَتَصَوَّرُ الْعُقَلَاءُ الْأُسُويَاءُ أَنَّ تَكُونَ ظَاهِرَةً مِنْ ظَوَاهِرِ سُلُوكِ مُجْتَمَعٍ بَشَرِيٍّ.

الْفَاحِشَةُ: كُلُّ قَبِيحٍ تَجَاوَزَ حَدَّ مَا يُحْتَمَلُ مِنْ مُمَارَسَاتٍ شَنِيعَةٍ فِي

مَعَاصِي النَّاسِ، وَتَجْمَعُ عَلَى فَوَاحِشٍ، وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ تَخْصِيصُ هَذِهِ الْمَادَّةِ
اللُّغَوِيَّةِ بِكِبَائِرِ الذُّنُوبِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِشَهَوَاتِ الْفُرُوجِ، فِي مُعْظَمِ النُّصُوصِ صِرَاحَةً.
وَالْمُرَادُ هُنَا بِالْفَاحِشَةِ فِي هَذَا النَّصِّ إِيْثَانُ الذُّكُورِ شَهْوَةً مِنْ دُونِ
النِّسَاءِ فِي أَذْبَارِهِمْ.

﴿... بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُوْتٍ﴾ دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى مَطْوِيٍّ يَكْشِفُهُ
حُسْنُ التَّدَبُّرِ.

إِنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا شَدَّدَ التَّكْيِيرَ عَلَى قَوْمِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْكَارَهُ
قَبِيحَةَ حُضُورِهِمْ وَمُشَاهَدَتِهِمْ بِأَبْصَارِهِمْ مُمَارَسَاتِ بَعْضِهِمْ إِيْثَانَ الرِّجَالِ
مِنْهُمْ، رَدُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ مِثْلًا: لَسْنَا شَاذِينَ فِي أَعْمَالِنَا هَذِهِ عَنْ سَائِرِ
الْأَقْوَامِ، فَكُلُّ الْأَقْوَامِ يَفْعَلُونَ مِثْلَمَا نَفْعَلُ فَقَالَ لَهُمْ لَوْظَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:
﴿... بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُوْتٍ﴾.

أَضَلَّ الْجَهْلُ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: جَهِلْتُ الْقِدْرُ تَجْهَلُ جَهْلًا،
أَي: اشْتَدَّ غَلِيَانُهَا، وَهُوَ ضِدُّ تَحَلَّمْتُ.

وَيَقَالُ لُغَةً: جَهِلَ فُلَانٌ عَلَى غَيْرِهِ، أَيْ: جَفَا وَتَسَافَقَ.

وَيُطْلَقُ الْجَهْلُ بِمَعْنَى عَدَمِ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ.

فَدَلَّ الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ فِي: ﴿بِجَهْلُوْتٍ﴾ الَّذِي يُفِيدُ مَعْنَى التَّكْرَارِ
وَالْتَّجَدُّدِ، عَلَى أَنَّهُمْ يُضَيِّفُونَ إِلَى مُمَارَسَاتِهِمْ قَبِيحَتَهُمُ الشَّاذَّةَ، غَلِيَانًا غَضِيًّا
ضِدًّا مَنْ يُتَكَرَّرُ عَلَيْهِمْ، وَيُضَيِّفُونَ أَيْضًا جَفَاءً وَتَسَافَقًا وَشَتَائِمَ يُوجِّهُونَهَا لَهُ،
أَوْ يُوجِّهُونَهَا لِمَنْ يُحِبُّونَ أَنْ يُمَارِسُوا بِهِ فَاحِشَتَهُمْ، وَهُوَ يَأْبَى لِأَنَّهُ لَمْ
يَعْتَذَرَهَا وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، فَيَغْتَصِبُونَهُ اغْتِصَابًا جَمَاعِيًّا، فَهُمْ بِهَذَا يَجْهَلُونَ
بِتَكَرُّارِ أَنَا فَنَانَا، وَتَتَفَاقُمُ الْجَهَالَاتُ الصَّادِرَاتُ عَنْهُمْ شِدَّةً وَعُنْفًا.

وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى قَالَ الشَّاعِرُ الْعَرَبِيُّ:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

قول الله عز وجل:

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ﴾ (٥٦).

هذه الآية تتعلّق بِبَيَانِ أَوَاخِرِ مَسِيرَةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّعَوِيَّةِ فِي قَوْمِهِ، فَهِيَ مُفْتَطَعَةٌ مِنْهَا اقْطَاعًا اخْتِرَالِيًّا.

وَدَلَّتْ «الفاء»، فِي «فَمَا» الدَّالَّةُ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ، عَلَى أَنَّ مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، كَانَ أَوَّلَ مَرَاكِحِ التَّفَكِيرِ بِتَقْدِيمِ اقْتِرَاحٍ مِنْ قِبَلِ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ، بِإِخْرَاجِ لُوطٍ وَآلِهِ مِنْ أَرْضِهِمْ.

أَي: قَالَ بَعْضُ كُبَرَاءِهِمْ فِي نَادِيهِمْ هَذَا الْقَوْلَ عَلَى سَبِيلِ إِبْدَاءِ الرَّأْيِ، وَسَكَتَ الْبَاقُونَ، وَفِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ لَمْ يَتَّخِذُوا قَرَارًا بِإِخْرَاجِهِمْ.

﴿مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾: أَي: مِنْ مُّجْمَعِكُمُ السَّكْنِيِّ، وَهُوَ يَشْمَلُ الْمَرْكَزَ الرَّئِيسَ وَتَوَابِعَهُ.

القرية: تُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ فِيهَا بُيُوتٌ وَمَسَاكِينُ مُجْتَمِعَةٌ قَلَّتْ أَمْ كَثُرَتْ، وَلَوْ بَلَغَتْ مَدِينَةً عَظِيمَةً جَدًّا.

وقال أهل اللغة: القرية المضر الجامع.

﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ﴾: أَي: إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَنَزَّهُونَ دَوَامًا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَيَتَنَقِّدُونَهَا، وَيُسَدِّدُونَ فِي التَّلْوِيمِ عَلَيْهَا، فَطَرِيقَتُهُمْ مُخَالَفَةُ لَطَرِيقَتِكُمْ، وَوُجُودُهُمْ بَيْنَكُمْ يُنْغِصُ عَلَيْكُمْ أَمْرَكُمْ فِي مِمَارَسَةِ مَا تَرْغَبُونَ فِيهِ، وَمَا تَشْتَهُونَهُ مِمَّا هُوَ مِنْ عَادَاتِكُمْ.

وَمَقْصِدُهُمْ مِنْ «آل لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ وَابْنَتَاهُ، أَوْ بَنَاتُهُ الثَّلَاثِ، وَزَوْجَتُهُ إِذَا كَانَتْ حَرِيصَةً عَلَى مُلَازِمَةِ زَوْجِهَا وَبَنَاتِهَا، فَقَدْ كَانَتْ كَافِرَةً

وَعَلَىٰ هَوًى قَوْمِهَا، وَخَائِنَةٌ لِّزَوْجِهَا، يَتَّبِعِ قَوْمِهَا الْأَخْبَارَ الَّتِي تُهْمُّهُمْ مِمَّا يَجْرِي مَعَ لُوطٍ زَوْجِهَا.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

هَاتَانِ الْآيَتَانِ تُعَبِّرَانِ بِاخْتِزَالِ شَدِيدٍ عَنِ الْفَضْلِ الْآخِرِ مِنْ فُصُولِ قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ قَوْمِهِ أَهْلِ سَدُومَ.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، مُبَيِّنًا أَنَّهُ فِي أَوَاخِرِ اللَّحَظَاتِ الشَّدِيدَاتِ مِنْ حَيَاةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ، أُنْجَاهُ مِنْهُمْ وَمَنْ كَيْدِهِمْ، وَأُنْجَاهُ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْهَلَاكِ الَّذِينَ قَضَىٰ بِإِنْزَالِهِمَا عَلَيْهِمْ، وَأُنْجَىٰ أَهْلُهُ مَعَهُ، بِاسْتِثْنَاءِ امْرَأَتِهِ الَّتِي كَانَتْ كَافِرَةً، فَقَدْ نَزَلَ بِهَا الْعَذَابُ وَالْإِهْلَاكُ مَعَ قَوْمِهَا، دَلَّ عَلَىٰ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَمْرَأَتَهُ﴾.

﴿قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِبِينَ﴾: أَي: جَعَلْنَاهَا لَدَى تَحْدِيدِ الْمَقَادِيرِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِلُوطٍ وَأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ مِنَ الْمَاضِيْنَ مِنْ قَوْمِهِ بِالتَّعْذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَكْرِيرٌ لِمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) فِي الْآيَةِ (١٧٣) وَمُقْتَضَى التَّكْرِيرِ كَوْنُهَا بِمِثَابَةِ الْعِلَاجِ الدَّوَائِيِّ، الَّذِي تَحْتَاجُ طِبَاعُ النَّفُوسِ إِلَى تَكْرِيرِهِ.

وَهَذَا الْمَطَرُ الَّذِي أَمْطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ كَانَ أَشَدَّ الْأَمْطَارِ سُوءًا، وَلِهَذَا ذَمَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾.

فعل «سَاءَ» مثلُ فِعْلٍ «بِئْسَ» في أحكامه، فهو لإنشاء الذم على سبيل المبالغة، وفاعله ﴿مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾. دَلَّتْ كَلِمَةُ ﴿الْمُنْذِرِينَ﴾ عَلَى أَنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ سَبَقَ أَنْ أُنْذِرَهُمْ بِعَذَابٍ وَإِهْلَاكِ يُنْزِلُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ، إِذَا لَمْ يُقْلِعُوا عَنْ كُفْرِهِمْ وَقَبَائِحِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ.

أَمَّا الْمَطَرُ السَّيِّئُ الَّذِي أُنْزِلُهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ كَانَ حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ، كَمَا أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَتَيْنِ (٨٢) و(٨٣) مِنْ سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول)، وَهِيَ حِجَارَةٌ أَضْلَاهَا طِينٌ تَحْجَرُ، وَرُبَّمَا كَانَ لِلنَّارِ تَأْثِيرٌ فِي جَعْلِهِ مُتَحَجَّرًا.

وَمُجِي مِنْ سَجِلٍ الْمُجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الْبَاقِيَةِ أَهْلُ سَدُومَ، قَوْمُ النَّبِيِّ الرَّسُولِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الْخَامِسِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (النمل) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَوْفِيقِهِ وَمَدَدِهِ وَفَتْحِهِ.



(٩)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دُرُوسِ سُورَةِ (النمل) الآيات من (٥٩ - ٧٥)

وفيه تعليمُ مُنَاطَرَةٍ جَدَلِيَّةٍ حَوْلَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَعْلِيمٌ بِشَأْنِ بَعْضِ طَرَائِقِ إِقْنَاعِيَّةِ لِدَلَالَةِ الْآخِرَةِ ثُلَاثِ الطُّورِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ كُفَرَاءُ كُفَّارٍ مَكَّةَ إِبَّانَ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ.

وفيه تَرْبِيَّةٌ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، تُوصِيهِ بِأَنْ لَا يَحْزَنَ عَلَى كُفَّارِ قَوْمِهِ وَلَوْ كَانُوا مِنْ الْأَقْرَبِينَ، وَأَنْ لَا يَضِيقَ صَدْرُهُ مِمَّا يَمْكُرُونَ ضِدَّهُ وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِي اصْطَفَى ۚ اللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٩﴾
 أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ
 حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ
 قَوْمٌ يَعِدُونَ ٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ
 وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٦١﴾ أَمَّنْ
 يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ
 فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ
 بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَيَّانَ يُّعْثَوْنَ ٦٥﴾ بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا
 عَمُونَ ٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءُ لِمُخْرَجُونَ ٦٧﴾ لَقَدْ
 وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي
 ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٧١﴾ قُلْ
 عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي سْتَعْمِلُونَ ٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
 وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ
 ٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٧٥﴾ .

القراءات:

(٥٩) • قرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بياء

الغائبين .

وقراها باقي القراء العشرة: [تُشْرِكُونَ] بياء المخاطبين .

وَيِنَّ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلُ فِي التَّوْجِيهِ الْبَيَانِي.

(٦٢) • قرأ أَبُو عَمْرٍو، وهشام، ورَّوح: [يَذْكُرُونَ] أَضْلُهَا
«يَتَذَكَّرُونَ» أَذْغَمَتِ التَّاءُ بِالذَّالِ، وجاء الفعل بياء الغائبين.

وقرأها حفصٌ عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: [تَذَكَّرُونَ]
بحذف تاء الفعل، وجاء الفعلُ بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: [تَذَكَّرُونَ] بتاء المخاطبين، مع إِذْغَامُ تاء
الفعل بِالذَّالِ.

الإِذْغَامُ وَعَدَمُ الإِذْغَامِ والحذفُ وجوه عَرَبِيَّةٌ جائزة.

والخطاب والغيبة من التَّكَامُلِ فِي التَّوْجِيهِ الْبَيَانِي.

(٦٣) • قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخَلَفَ: [الرَّيْحَ]
بالإفراد.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿الرَّيْحَ﴾ بالجمع.

لفظ الريح بالإفراد رُوعِي فِيهِ أَنَّهُ اسْمُ جَنْسٍ فَهُوَ يَعُمُّ كُلَّ الْأَنْوَاعِ،
ولفظ الرِّيح بالجمع رُوعِي فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّهَا أَنْوَاعٌ.

(٦٣) • قرأ نافع، وَأَبْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَيَعْقُوبُ:

[نُشِرَا] وقرأها ابْنُ عَامِرٍ: [نُشِرَا] وَقَرَأَهَا عَاسِمٌ: [بُشِرَا] وقرأها باقي
القراء العشرة: [نُشِرَا].

وقد سَبَقَ بَيَانُ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ وَتَوْجِيهِهَا، عِنْدَ الْآيَةِ (٤٨) مِنْ سُورَةِ
(الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٦٦) • قرأ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَيَعْقُوبُ: [بَلْ
أَدْرَكَ] وقرأها باقي القراء العشرة: [بَلْ أَدَارَكَ].

وَبَيَّنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلَ سَيِّئَاتِي فِي التَّدَبُّرِ بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(٦٧) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا] بحذف همزة الاستفهام قبل «إذا» وإثباتها قبل: «إِنَّا» .

وقراها ابنُ عامرٍ، والكِسَائِيُّ: [أَئِنَّا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا إِنَّا] بإثبات همزة الاستفهام قبل إذا وَحَذْفُهَا قَبْلَ [إِنَّا] .

وقراها باقي القراء العشرة: [أَئِنَّا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا] .

وفي [أَئِنَّا] بإثبات هَمْزَةِ الاستفهام جاء حذف إحدى النونات الثلاث لتوالي الأمثال .

والمؤدَّى في هذه القراءات واحدٌ، فكلُّها على الاستفهام التعجُّبي الإنكاريّ من الكافرين، واختلافها من التَّفَنُّنِ في البيان .

(٧١) • قرأ ابن كثير: [ضَيْقٍ] . وقرأها باقي القراء العشرة: [ضَيْقٍ] .

الضَّيْقُ: كالضَّيْقِ كلاهما بمعنى الكرب، والألم الضاغط على النَّفْسِ، فَهَمَّا لَغَنَانِ مُتَكَافِئَتَانِ .

تمهيد:

هذا الدرس موصول بالآيتين الرابعة والخامسة من الدرس الأوّل من دُروس السورة، إذ تَحَدَّثَتَا عَنِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وبأنّ لَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وبأنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ .

إِلَّا أَنَّ الْإِقْنَاعَ بِالْآخِرَةِ يَأْتِي بَعْدَ الْإِيْمَانِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّ النَّاسَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُطَالِبُونَ مِنْ رَبِّهِمْ بِأَنْ يَغْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أَحَدًا، لِيُظْفَرُوا بِالنَّجَاةِ وَبِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . أَمَّا مَنْ كَفَرُوا وَعَصَوْا فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ خَالِدِينَ يَوْمَ الدِّينِ فِي عَذَابِ النَّارِ أَبَدًا .

ففي الآيات من (٥٩ - ٦٤) من هذا الدرس تعليمُ مُنَاطَرَةِ جَدَلِيَّةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، كَيْفَ يُنَاطِرُ الْمُشْرِكِينَ حَوْلَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَيْفَ يُفَعِّهُمُ أَوْ يُفَحِّمُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاحِدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَوَاحِدٌ فِي إِلَهِيَّتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وهذه المناظرة التعليمية قد اشتملت على مُقَدِّمَةٍ وَخَمْسٍ مَرَاكِجٍ، كُلُّ مَرَحَلَةٍ مِنْهَا تَعْتَمِدُ عَلَى عَرْضِ بَعْضِ الظَّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ، وَبِإثْبَاتِ وَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ تَثْبُتُ بِاللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ وَحْدَانِيَّتُهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ تَلْقَائِيًّا، لِأَنَّ مَنْ كَانَ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبُّ فِي الْكُونِ كُلِّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى أَنَّهُ الْإِلَهَ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ الَّذِي لَا إِلَهَ يُعْبَدُ بِحَقِّ سِوَاهُ.

وفي الآيات من (٦٥ - ٧٥) من هذا الدرس تعليمُ أَسْلُوبِ إِقْنَاعِيٍّ مُضَافٍ إِلَى الْأَسَالِيبِ الْإِقْنَاعِيَّةِ الْمَوْزَعَةِ فِي سُورِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، لِمُنْكَرِي الْآخِرَةِ.

وجاء في أثناء هذه الآيات تَرْبِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِأَنَّ لَا يَحْزَنَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، إِذْ عَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ لِلْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا قَدْ يُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا، فَهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِأَنَّ يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ نَسَبًا. وَتَرْبِيَّةٌ لَهُ بِأَنَّ لَا يَكُونُ فِي كُرْبٍ وَأَلَمٍ ضَاطِعٍ عَلَى نَفْسِهِ، مِمَّا يَقُومُ بِهِ كِبَرَاءُ مُشْرِكِي قَوْمِهِ مِنْ مَكْرِ بِتَدْبِيرَاتِ خَفِيَّاتٍ، لِإِقْفَافِ مَسِيرَتِهِ الدَّعْوِيَّةِ، وَاضْطِهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَمِنْ تَدْبِيرَاتِ خَفِيَّاتٍ لِمَقَاوِمَتِهِ بِالْقُوَّةِ الْقِتَالِيَّةِ، وَالْوُقُوفِ فِي شِقِّ الْعَدُوِّ الْمُحَارِبِ الْمُقَاتِلِ. وَقَدْ دَلَّ هَذَا التَّوْجِيهِ التَّرْبُويُّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ قَدْ كَانَ إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (النمل) مُنْشَغِلَ الْقَلْبِ

حَزِينًا عَلَى كُفَّارِ عَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ، وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَضِيقٍ نَفْسِيٍّ مِمَّا يَنْلُهُ
مِنْ مَكْرِ كُفْرَاءٍ كُفَّارٍ قَوْمِهِ لِمَقَاوِمَةِ دَعْوَتِهِ وَمَحَارَبَتِهَا، وَاصْطِفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ
الْمُسْتَضْعَفِينَ.

قراءة: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ ثَلَاثُ التَّعْلِيمِ الرَّبَّانِيِّ. وقراءة: [تُشْرِكُونَ]
ثَلَاثُ حَالٍ مِنْ يُجْرِي مَعَهُمُ الْمُنَازَرَةُ لَدَى مُخَاطَبَتِهِ مِنْ يَنْظُرُهُمْ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ.

التدبر التحليلي للآيات من (٥٩ - ٦٤)

وفيها تعليم مناظرة جدلية للمشركون

مقدمة تعليم المناظرة الجدلية للمشركون

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩)

اشتملت هذه الآية على بيان كيفية افتتاح المناظرة، وأن من آداب
الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَفْتَحَهَا بِخُطْبَةٍ فِيهَا ثَلَاثُ فِقَرَاتٍ:

الفقرة الأولى: الْبَدْءُ بِحَمْدِ اللَّهِ، دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أَي: ابْدَأْ مُنَازَرَتَكَ بِأَنْ تَحْمَدَ اللَّهَ.

الفقرة الثانية: أَنْ يُسَلِّمَ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، دَلَّ عَلَيْهِ
قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّعْلِيمِ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ أَي:
وَقُلْ: سَلَامٌ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ، وَمَعْلُومٌ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ أَنَّ
الَّذِينَ اصْطَفَاهُمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ وَأَوْصَىٰ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِمْ هُمْ رُسُلُهُ، وَيَدْخُلُ
فِي عُمُومِ الْإِصْطِفَاءِ الْأَنْبِيَاءُ وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا رُسُلًا، وَقَدْ يُلْحَقُ بِهِمْ حَمَلَةٌ
رِسَالَاتِ الْمُرْسَلِينَ مِنْ أُمَّمِهِمْ.

سَلَامٌ: أَي: أَمْنٌ وَسَلَامَةٌ وَتَحِيَّةٌ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ ﴿عَلَى عِبَادِهِ

الَّذِينَ... ﴿ وجاز الابتداء به مع أنه نكرة، لأنه دُعاءٌ وتحيّة، ومثل هذا يجوز الابتداء فيه بالنكرة.

الفقرة الثالثة: أن يُبيّن الموضوع الذي تدور حوله فيما بعد المناظرة الدينيّة، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في التعليم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ الْكَبِيرِ يُنْزِلْ بِهِنَّ الْعَذَابَ الْعَظِيمَ﴾ أي: ستدور المناظرة التالية حول أيّ الاحتمالين المتضادين التاليين هو الحقّ والخير؟

الأول: احتمال توحيد الله في ربوبيّته وإلهيّته.

الثاني: احتمال اتّخاذ شركاء لله في ربوبيّته أو إلهيّته.

أيّهما خيرٌ مطابقٌ للحقّ، وذو نتائجٌ تحقّق السعادة، وأيّهما باطلٌ وذو نتائجٌ تجلبُ الشقاء والتعاسة؟ هل التّوحيد، أم الشّرك؟

عبارة: ﴿أَمَّا﴾ أضلّها «أم» و«مَا» أدغمت الميم بالميم فكُتِبَتْ «أَمَّا». و«أم» هذه هي المتصلة.

وجاء عرض الموضوع بأسلوب الاستفهام لأنّ المناظرات تعتمد على طرح القضايا بهذا الأسلوب الذي ينبغي فيه عدم التحيز، كما أبان الله عزّ وجلّ بقوله في سورة (سبا/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) مُعلِّماً الداعي إلى الله أن يُعلنَ تجرّده من الانحيازِ التّعصبيِّ لمعتقدٍ لدى المناظرة فيقول لمن ينظرهم: ﴿... وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُرْهَانِ وَالْأَهْلِيَّةِ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ لَكَانَ أُولَئِكَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾.

أي: بما أنّنا بحسب معتقدينا على طرفين متناقضين، فلا بدّ أن يكون أحد هذين المعتقدين حقاً، وأن يكون الآخر باطلاً، ولا بدّ أن يكون كلّ من فريقنا عرضةً لأن يكون على هدى، مُتمكناً منه بالبرهان، أو مُتوغلاً في ضلالٍ عن الحقّ والهدى مُبين، لا حجة له تُعذّره في ضلاله.

وَهَذَا غَايَةٌ فِي التَّجَرُّدِ بَحْثًا عَنِ الْحَقِّ بِأَسْلُوبِ الْمَنَاطَرَةِ.
قراءة ﴿يُشْرِكُونَ﴾ تلائم التعليم الربّاني. وقراءة [تُشْرِكُونَ] تلائم
حَال من يجري المناظرة لدى مخاطبته مِنْ يُنَاطِرُهُمْ من المشركين.

المرحلة الأولى من مراحل المناظرة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ
حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ
قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (١٦).

في هذه الآية تقديم بُرْهَانٍ رَبَّانِيٍّ، يُعَلِّمُ اللَّهُ بِهِ الدَّاعِيَ إِلَيْهِ، أَنْ
يَأْخُذَ مِنْهُ مَا يُقِيمُ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَى الْمُنَاطِرِينَ المشركين.

﴿أَمَّنْ﴾: أضلُّها «أم» و«مَنْ» أذْغَمَتِ الميم بالميم في النطق، وَكُتِبَتْ
ميمًا مُشَدَّدَةً. «أم» هي المنقطعة، وهي بمعنى «بل» للإضراب الانتقالي،
و«مَنْ» اسْمُ استفهام، وهو مبتدأ، وخبره جُمْلَةٌ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾
وما عُطِفَ عليها.

والمعنى: يا أيُّها المناظر الداعي إلى الله، وَجَّهْ لِمَنْ تُنَاطِرُهُ من
المشركين سُؤَالَكَ الاستفهاميَّ التالي:

مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لِلنَّاسِ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَ
بِعَظْمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، وَهَذِهِ الْحَدَائِقُ مَا كَانَ بِإِسْتِطَاعَةِ
النَّاسِ جَمِيعًا أَنْ يُنْبِتُوا شَجَرَهَا؟؟

ذَاتَ بَهْجَةٍ: أي: ذَاتَ حُسْنٍ وَنَضَارَةٍ وَجَمَالٍ. يقال لغة: «بَهْجَ
الشَّيْءِ يَبْهَجُ، بَهْجَةً، وَبَهَاجَةً وَبَهْجَانًا، فَهُوَ بَهِيْجٌ» أي: صَارَ ذَا حُسْنٍ
وَنَضَارَةٍ وَجَمَالٍ.

هَذَا السُّؤَالُ يَجْرُ بُحُوثًا عِلْمِيَّةً مُسْتَفِيضَةً عَنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ، بَدَأَ، وَاسْتَمَرَّارًا، وَإِتْقَانًا، وَنِظَامًا بَدِيعًا حَكِيمًا.

وَيَجْرُ بُحُوثًا عِلْمِيَّةً مُسْتَفِيضَةً عَنِ الْمَاءِ وَتَبَخُّرِهِ، وَتَجْمُعِهِ سُحُبًا،
وَنُزُولِهِ مَطَرًا، بِنِظَامٍ بَدِيعٍ، وَإِتْقَانٍ صُنِعَ تَعْجِزُ عَنْهُ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا.

وَيَجْرُ بُحُوثًا عِلْمِيَّةً مُسْتَفِيضَةً، عَنِ النَّبَاتَاتِ وَانْشِقَاقِ بُزُورِهَا وَجُذُورِهَا
فِي تُرَابِ الْأَرْضِ الْمُبَلَّلِ بِالْمَاءِ، وَتَنَامِيهَا دَاخِلَ تُرَابِ الْأَرْضِ وَخَارِجَهَا،
صَاعِدًا فِي الْغُلَافِ الْغَازِيِّ حَوْلَ الْأَرْضِ، وَعَنِ اسْتِمْدَادِ أَقْوَاتِهَا مِنَ الْمَاءِ
وَمِنْ عَنَاصِرِ الْأَرْضِ، وَمِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، وَمِنْ الْهَوَاءِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا
تَوَصَّلَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ عُلَمَاءُ النَّبَاتِ.

وَيَجْرُ بُحُوثًا مُسْتَفِيضَةً، عَنِ الْجَمَالِ الَّذِي تَتَّصِفُ بِهِ الْأَشْجَارُ
وَأَزْهَارُهَا، وَوُزُودُهَا، وَأَوْرَاقُهَا، وَثَمَرَاتُهَا، وَأَلْوَانُهَا، وَأَشْكَالُهَا الْمُخْتَلِفَةِ،
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَسَنٍ بِهَيْجٍ.

وَالْمَنَاطِرُ الْمُنْصِفُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ بِأَنَّ الْخَالِقَ الْمُتَقِنَ
لِكُلِّ ذَلِكَ رَبٌّ وَاحِدٌ أَحَدٌ، لَهُ كُلُّ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ
صِفَاتِ النُّقْصَانِ.

فَإِذَا اعْتَرَفَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَأَعْلَنَ أَنَّ الْخَالِقَ الرَّبَّ لِكُلِّ ذَلِكَ وَاحِدٌ
لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ يُقَالُ لَهُ:

﴿أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ؟﴾ أَي: بِمَا أَنَّ الرَّبَّ الْخَالِقَ وَاحِدٌ، وَهُوَ مَا ثَبَتَ
لَدَيْنَا بِالْبَرَاهِينِ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحَقُّ لِأَنْ يَكُونَ إِلَهًا، أَيْ مَعْبُودًا، وَلَا
يَصِحُّ عَقْلًا أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ فِي إِلَهِيَّتِهِ، أَي: فِي كَوْنِهِ مَعْبُودًا مِنْ خَلْقِهِ،
لَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي الْوُجُودِ مَنْ يُشَارِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَهَذَا الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ جَلَّ
جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

عندئذٍ يَتَسَوَّى لِلْمُتَآظِرِ الْمُؤْمِنِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يَقُولَ بِأَسْلُوبِ
الْمُسْتَفْهِمِ اسْتِفْهَامًا تَعْجِييًّا إنْكَارِيًّا: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟!!﴾

وفي نهاية هذا التعليم أبان الله عز وجل للداعي المؤمنين أن
المشركين يَعْدِلُونَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مِمَّا خَلَقَ مُعَادِلًا
مكافئاً، في الربوبية أو في العبادة، فقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

يقال لغة: «عَدَلَ يَعْدِلُ عَنِ الصِّرَاطِ» أي: حَادَ عَنْهُ وَخَرَجَ عَنْ
حُدُودِهِ. ويقال لغة: «عَدَلَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ» أي: سَوَّاهُ بِهِ، وَجَعَلَهُ مِثْلَهُ،
وَهَذَا قَدْ يَكُونُ ادِّعَاءٌ كَاذِبًا، أَوْ اعْتِقَادًا بَاطِلًا.

فالمعنى: لَيْسَ الْمَشْرِكُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ، بَلْ هُمْ يَعْدِلُونَ عَنِ
الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَيَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ فَيَتَّخِذُونَ لَهُ شَرِيكًا مُعَادِلًا لَهُ فِي
صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ بَعْضِهَا، فَمُعَادِلًا لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ.

المرحلة الثانية من مراحل المناظرة

قال الله عز وجل:

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ
بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾،

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ طَرَحُ السُّؤَالِ فِي هَذَا التَّعْلِيمِ نَظِيرُ طَرَحِ
السُّؤَالِ فِي التَّعْلِيمِ السَّابِقِ. أي: «أَمْ» المنقطعة وهي بمعنى «بَلْ»
للإضراب. و«مَنْ» اسم استفهام وهو مبتدأ، وما بعده خبر وهو جُمْلَةٌ:
جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾: أي: بَلْ مَنْ هَذَا الْعَظِيمُ الْمُتَقَرُّ
الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ، الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ بَعْدَ أَنْ فَصَلَهَا مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ رَتْقًا
مَعَ غَيْرِهَا مِنْ أَجْرَامِ السَّمَاءِ، كَوَكْبًا قَرَارًا مُظْمِنًا لَا اضْطِرَابَ فِيهِ وَلَا

اهتزاز ولا تَمَوْجُ، إِلَّا مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ عِنْدَ الزَّلَازِلِ التَّعْدِيلِيَّةِ التَّكْوِينِيَّةِ لأَوْضَاعِ الْأَرْضِ، أَوِ الزَّلَازِلِ الْعِقَابِيَّةِ أَوِ الْإِنذَارِيَّةِ لِلْمَجْرِمِينَ مِنَ الْبَشَرِ عَلَيْهَا؟؟

قراراً: مَصْدَرُ «قَرَّ يَقَرُّ قَرَارًا» يُقَالُ: «قَرَّ فِي الْمَكَانِ» أَي: أَقَامَ إِقَامَةً طَوِيلَةً سَاكِناً وَمُطْمَئِناً مُسْتَقَرّاً فِيهِ.

أَي: مَنْ هَذَا الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ ذَاتَ قَرَارٍ عَلَيْهَا، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ مَائِجَةً رَجْرَاجَةً غَيْرَ صَالِحَةٍ لِلِاسْتِقْرَارِ عَلَيْهَا بِسُكُونٍ وَطُمَأْنِينَةٍ.

أَلَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى إِتْقَانٍ مُتَقِنٍ عَظِيمٍ، ذِي حِكْمَةٍ جَلِيلَةٍ، وَعِنَايَةٍ بِمَنْ خَلَقَ، وَبِمَا خَلَقَ مِنْ أَحْيَاءٍ عَلَيْهَا؟؟

وهذا السؤالُ يَجُرُّ إِلَى بُحُوثٍ مُسْتَفِيزَةٍ جِدَّ حَوْلَ تَكْوِينِ الْأَرْضِ، تُكْتَبُ فِي مُجَلَّدَاتٍ.

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾: أَي: وَمَنْ هَذَا الْعَظِيمُ الْمُتَقِنُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ الْمُعْتَنِي بِالنَّاسِ وَسَائِرِ الْأَحْيَاءِ عَلَى الْأَرْضِ، الَّذِي جَعَلَ بِتَدْبِيرِهِ التَّكْوِينِيَّ خِلَالَ الْأَرْضِ أَنْهَاراً يَجْرِي فِيهَا الْمَاءُ الْحُلُوُّ الطَّهُورُ السَّائِغُ لِلشَّارِبِينَ، وَالصَّالِحِ لِسُقْيَا النَّبَاتَاتِ الَّتِي لَا تَنْبُتُ وَلَا تَنْمُو إِلَّا بِالْمَاءِ؟؟

الْخِلَالُ: هُوَ الْمَنْفَرَجُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، وَظَاهِرٌ أَنَّ الْأَنْهَارَ تَجْرِي فِي مُنْفَرَجَاتٍ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ، وَأَنَّ الْمِيَاهَ حِينَ تَجْرِي مُتَدَفِّقَةً تَشُقُّ فِي الْأَرْضِ أَخَادِيدَ عَلَى مَقَادِيرِهَا فَتُحَدِّدُ سَبِيلَهَا بَيْنَ حَوَافِهَا.

﴿خِلَالَهَا﴾: مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، أَي: بَلْ مَنْ جَعَلَ أَنْهَاراً فِي خِلَالِ الْأَرْضِ؟ قَدَّمَ لَفْظَ ﴿خِلَالَهَا﴾ لِأَنَّهُ فِيهِ ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي هِيَ مَوْضُوعُ طَرَحِ السُّؤَالِ.

وَالسُّؤَالُ عَنِ الْأَنْهَارِ الَّتِي تَجْرِي خِلَالَ الْأَرْضِ يَجْرُ إِلَى بُحُوثٍ عِلْمِيَّةٍ مُسْتَفِيزَةٍ، حَوْلَ تَكْوِينِ الْمِيَاهِ الْحُلُوءَةِ السَّائِغَةِ لِلشَّارِبِينَ، وَحَوْلَ تَجْمِيعِهَا وَإِجْرَائِهَا فِي أَنْهَارٍ كُبْرَى أَوْ صُغْرَى، وَحَوْلَ إِتْقَانِ صُنْعِ الْخَالِقِ لَهَا، وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ فِي إِيجَادِهَا.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾: أي: وَمَنْ هَذَا الْعَظِيمِ، الْمَتَقِنُ الْحَكِيمِ، الْمُدَبِّرُ الْقَدِيرُ، الَّذِي جَعَلَ لِلْأَرْضِ جِبَالاً رَوَاسِيَ ثُبُتَتْ قَشَرَتَهَا حَتَّى لَا تَتَمَوَّجَ وَتَتَرْتَجَّ، أَوْ يَحْصُلَ فِي بَعْضِ طَبَقَاتِهَا انْقِلَابٌ، أَوْ مَيْدَانٌ؟

وجاءت عبارة ﴿لَهَا﴾ للدلالة على أَنَّ الْجِبَالَ جُزْءٌ مِنَ الْأَرْضِ.

﴿رَوَاسِيَ﴾ جمع «رَاسِيَةٍ». الرَّاسِي: هو الثابت الراسخ، والمراد بِالرَّوَاسِي الْجِبَالُ فِي الْأَرْضِ، فَمِنْ صِفَاتِهَا أَنَّهَا ثَابِتَةٌ رَاسِخَةٌ ذَاتُ عُمُقٍ فِي الْأَرْضِ يَجْعَلُهَا رَاسِيَةً، وَفِي إِيرَادِ الْجَمْعِ إِشَارَةٌ إِلَى تَنَوُّعِ الْجِبَالِ فِي تَكْوِينِهَا، وَفِي صِفَاتِهَا.

ويذكر علماء الأرض «الجيولوجيون» ما للجبال مِنْ آثَارٍ نَافِعَةٍ لِلْأَرْضِ وَسُكَّانِهَا، وَمِنْهَا مَا يَلِي:

(١) كَوْنُهَا الْمُتَحَكِّمَةُ فِي مُنَاقِحٍ وَتَدْفُقُ مِيَاهِ الْأَمَاكِنِ الْمَجَاوِرَةِ لَهَا.

(٢) مَا يَعِيشُ عَلَيْهَا مِنْ نَبَاتَاتٍ وَحَيَوَانَاتٍ، إِذْ تُسَاعِدُهَا فِي أَرْزَاقِهَا وَإِقَامَتِهَا.

(٣) كَوْنُهَا مَصْدَرًا لِلْمَعَادِنِ، فَمُعْظَمُ الْمَصَادِرِ الْمَعْدِنِيَّةِ فِي الْعَالَمِ هِيَ مِنْ أَقَالِيمِ جَبَلِيَّةٍ.

(٤) تَأْثِيرُهَا عَلَى نَشَاطَاتِ الْإِنْسَانِ وَأُسْلُوبِ مَعِيشَتِهِ، فَهِيَ تُحَدِّدُ أَنْمَاطَ تَقْلِيلِهِ وَمَوَاصِلَاتِهِ وَأَمَاكِنَ إِقَامَتِهِ وَالتَّرْوِيحِ عَنْ نَفْسِهِ.

(٥) وَهِيَ تَحْمِي الْيَابِسَةَ مِنَ الْانْقِلَابِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَخْذُلَ بِسَبَبِ

هياج الأمواج في المياه التي تَتَجَاوَزَ مَسَاحَتُهَا فِي الْبَحَارِ (٧٠٪) مِنْ مَسَاحَةِ الْيَابِسَةِ، أَوْ بِسَبَبِ تَقَلُّبَاتِ كَوْيَّةٍ أُخْرَى.

(٦) لِلْجِبَالِ تَأْثِيرٌ فِي تَجْمِيعِ وَتَدْفُقِ الْمِيَاهِ لِيَصِلَ إِلَى أَمَاكِنَ شَاسِعَةٍ جَدًّا مِنَ الْأَرْضِ.

(٧) وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْجِبَالِ خَزَائِنٌ مَائِيَّةٌ تُغْذِي الْجَدَاوِلَ وَالْأَنْهَارَ بِالْمِيَاهِ، وَيُظْهِرُ نَفْعَهَا الْإِمْدَادِي فِي أَوْقَاتِ الْقَحْطِ وَالْجَفَافِ.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾: أَي: وَمِنْ هَذَا الْعَظِيمِ، الْمُثَقِّنُ الْحَكِيمِ، وَالْمَدَبِّرَ الْقَدِيرَ، الَّذِي جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرِ الْحُلُوِّ وَالْبَحْرِ الْمَالِحِ حَاجِزًا، يَمْنَعُ مِنْ امْتِزَاجِ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ؟

سَمَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ مِيَاهٍ حُلُوءٍ بَحْرًا، فَهِيَ بِاعْتِبَارِ كَثَرَتِهَا كَالْبَحْرِ الْمِلْحِ، وَلَوْ كَانَتْ مَتَفَرِّقَةً فِي الْأَرْضِ.

فَالْمَاءُ الْعَذْبُ الْحُلُوُّ وَالْمَاءُ الْمِلْحُ الْأَجَاوُجُ بَحْرَانِ عَظِيمَانِ خَلَقَهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنَافِعِ الْحَيَاةِ وَالنَّاسِ، وَكُلُّهُمَا يَنْبَغِي لِتَحْقِيقِ الْمَنَفْعَةِ مِنْهُ بِحَسَبِ النِّظَامِ الْعَامِّ لِلْكُؤْنِ، أَنْ يَظْلَّ عَلَى وَصْفِهِ فِي النِّسْبَةِ الْمَزِيجِيَّةِ الَّتِي جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا.

وَمِنَ الْعَنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي حَقَّتْ لَهُذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ، أَنْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا حَاجِزًا، إِذْ جَعَلَ تَكْوِينَ الْأَرْضِ فِي أَوْضَاعِهَا صَالِحَةً لَاجْتِنَاءِ الْمَاءِ الْعَذْبِ الْفُرَاتِ فِي تَجَاوُفِهَا وَمَسَارِبِهَا، وَلِاجْرَائِهِ فِي السُّهُولِ وَالْوُدْيَانِ، وَإِخْرَاجِهِ مِنَ الْعُيُونِ، وَبِذَلِكَ أَقَامَ الْحَوَاجِزَ وَالْفَوَاصِلَ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ، حَتَّى لَا يَنْتَهِي أَمْرُهُمَا إِلَى الْاِمْتِزَاجِ وَالِاخْتِلَاطِ بَبَعْضِهِمَا، وَتَذَهَبَ الْخِصَائِصُ الْمَطْلُوبَةُ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا.

وَالْحَاجِزُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ هُوَ مِنَ الصَّخُورِ وَالْأَتْرِبَةِ وَالرُّمَالِ، وَهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الدُّوبَانِ وَالِاخْتِلَاطِ بِالْمَاءِ، وَمَانِعٌ مِنْ وُصُولِ أَحَدِهِمَا إِلَى الْآخَرِ.

وسبق في تدبر سورة الفرقان تدبر ما جاء في القرآن حَوْلَ آياتِ الله في الْبَحْرَيْنِ^(١).

إنَّ المناظر المنصف من المشركين إذ طُرِحَتْ عَلَيْهِ أُسْئِلَةُ هذه المرحلة الثانية من مراحل المناظرة، وعُرِضَتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ الْعَمَلِيَّةُ الْمُثَبِّتَةُ لِلْحَقِّ، لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ أَنَّ الْخَالِقَ الْمُتَقِنَ لِهَذِهِ الظواهر الكونية، الَّتِي هي آياتٌ من آياتِ الله الكونية، دَالَّاتٌ عَلَى طَائِفَةٍ من الصفات الَّتِي لَا تَكُونُ لِأَحَدٍ سِوَاهُ، هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَحِينَ يَعْتَرِفُ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَيُعْلِنُ أَنَّ الْخَالِقَ الرَّبَّ لِكُلِّ ذَلِكَ هُوَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ يُقَالُ لَهُ:

﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾ أي: بما أَنَّ الرَّبَّ الْخَالِقَ وَاحِدٌ، وَهُوَ مَا ثَبَتَ لَنَا بالبراهين، فهو وَحْدَهُ الْمُسْتَحَقُّ لِأَنْ يَكُونَ إِلَهًا، أي: مَعْبُودًا، وَلَا يَصِحُّ عَقْلًا أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ فِي إِلَهِيَّتِهِ، أي: فِي كَوْنِهِ مَعْبُودًا مِنْ جَلْفِهِ، إِذْ لَا يُوجَدُ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ مَنْ يُشَارِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَهَذَا الرَّبُّ هُوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ.

عندئذٍ يَتَسَنَّى للمناظر المؤمن الداعي إلى الله، أَنْ يَقُولَ بِأَسْلُوبِ الْمُسْتَفْهِمِ اسْتِفْهَامًا تَعْجِيبِيًّا إنْكَارِيًّا: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟!!﴾

وفي نهاية هذا التعليم أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلدَّاعِي الْمُؤْمِنِ أَنَّ أَكْثَرَ المشركين لَا يَعْلَمُونَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: بَلْ أَكْثَرُ الْمُشْرِكِينَ مُقَلِّدُونَ لِأَثْمَتِهِمْ وَقَادَتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا تُوجَدُ لَدَيْهِمُ الدَّوَافِعُ لِأَنْ يَبْحَثُوا بِأَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَفْصِلُوا الْحَقَّ عَنِ الْبَاطِلِ فِي قَضِيَّتِي التَّوْحِيدِ وَالشُّرْكَ، فَيَعْلَمُوا أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ، وَأَنَّ الشُّرْكَ بَاطِلٌ، وَأَنَّ جزاء الشُّرْكَ الْخُلُودُ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

وفي هذا البيان توجيه كِنَائِي للدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، أَنْ يَجْتَهِدُوا فِي تَعْلِيمِ
الْأَتْبَاعِ الْمُقَلِّدِينَ، وَإِقْنَاعِهِمْ بِالْحَقِّ، فَقَدْ تَنَجَّلِي الْغَشَاوَاتِ عَنْ بَصَائِرِهِمْ
وَعُقُولِهِمْ، فَيُؤْمِنُ بِالْحَقِّ أَهْلُ الرُّشْدِ مِنْهُمْ، وَلَا يَكُونُ لِلْمَعَانِدِ الْمُجْرِمِ عَذْرُ
عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّينِ بِجَهْلِهِ.

المرحلة الثالثة من مراحل المناظرة

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ
إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ فَلَيْلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ (٦٦).

فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ التَّعْلِيمِ تَوْجِيهُ الْمُنَظِّرِ الْمُؤْمِنِ الدَّاعِي
إِلَى اللَّهِ، لِأَنَّهُ يَطْرَحُ السُّؤَالَ فِي مُنَظَّرَتِهِ لِلْمَشْرِكِ حَوْلَ آيَتَيْنِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
فِي كَوْنِهِ، تَتَعَلَّقَانِ بِتَصَارِيفِ اللَّهِ فِي النَّاسِ.

الآية الأولى: إِبْجَابَةُ الْمُضْطَرِّ الَّذِي يَدْعُو لِكَشْفِ السُّوءِ عَنْهُ.

الآية الثانية: جَعْلُ النَّاسِ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيهَا.

المضطر: ذُو الْحَاجَةِ الْبَالِغَةِ الشَّدَّةِ، وَالْمُلْجَأُ إِلِجَاءٌ بِإِكْرَاهٍ عَلَى أَمْرٍ
يَكْرَهُهُ، وَالْمَضِيقُ عَلَيْهِ بِشِدَّةٍ.

يُقَالُ لُغَةً: «اضْطَرَّهُ إِلَيْهِ» أَي: أَحْوَجَهُ وَالْجَاءُ، أَضْلُ الْفِعْلِ: «اضْطَرَّ»
قُلِبَتِ التَّاءُ طَاءً وَفَقَّ الْقَاعَةُ الْعَرَبِيَّةُ، فِي «افْتَعَلَ» الْمَزِيدُ بِالتَّاءِ.

• ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾؟ صِيغَةُ السُّؤَالِ مُمَائِلَةٌ

لَمَّا سَبَقَ فِي الْمَرَحَلَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ.

وَالدَّعَاءُ لِكَشْفِ السُّوءِ يَدْعُو بِهِ الدَّاعِي إِلَهُهُ الَّذِي يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ
بِالْعِبَادَةِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ آيَاتِ وَجُودِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ وَخَدَهُ الرَّبُّ
الَّذِي تَجِبُ عِبَادَتُهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَنَّ مَنْ دَعَاهُ مُضْطَرًا اضْطِرَّارًا

حقيقياً، ولو كَانَ كَافِراً بِهِ، أَجَابَ دُعَاءَهُ، وَكَشَفَ مَا بِهِ مِنْ سُوءٍ.

بخلاف آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ مَنْ دَعَاها مَهْمَا كَانَ مُؤْمِناً بِهَا وَعَابِداً لَهَا، فَإِنَّهَا لَا تُجِيبُهُ وَلَوْ كَانَ مُضْطَرّاً، إِذْ هِيَ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ لَا حَقِيقَةَ لِإِلَهِيَّتِهَا، وَإِذَا كَانَ لَهَا وَجُودٌ فِي الْكَوْنِ فَلَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى إِجَابَةِ عَابِدِيهَا، وَلَا تَمْلِكُ كَشْفَ السُّوءِ عَنْهُمْ إِذَا سَأَلُوهَا ذَلِكَ بِالْدُّعَاءِ وَلَوْ كَانُوا مُضْطَرِينَ.

والتجربةُ في هَذَا أَكْبَرُ بُرْهَانٍ، فَلْيُجَرِّبِ الْمُشْرِكُونَ دُعَاءَهُمْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي يَكُونُونَ مُضْطَرِينَ فِيهَا، فَإِنَّهُمْ سَيَجِدُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَكْشِفُ مَا بِهِمْ مِنْ سُوءٍ، لِيُثَبِّتَ لَهُمْ بِالْبُرْهَانِ التَّجْرِبِيِّ أَنَّهُ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَالرَّبُّ السَّمِيعُ الْمُجِيبُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ.

أَمَّا آلِهَتُهُمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهَا لَا تَكْشِفُ السُّوءَ عَنْهُمْ، وَلَا تَنْفَعُهُمْ بِنَافِعَةٍ.

فالمعنى: بل: مَنْ هَذَا الْعَظِيمُ الْغَيْبِيُّ عَنِ الْحَوَاسِ، الَّذِي يُجِيبُ دُعَاءَ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَا؟؟

أَجْرُوا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ هَذِهِ التَّجْرِبَةُ فِي حَيَاتِكُمْ، فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجِيبُ أَدْعِيَتَكُمْ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ عَنْكُمْ.

لَكِنَّكُمْ إِذَا دَعَوْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ فَلَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ، وَلَنْ يَكْشِفُوا السُّوءَ عَنْكُمْ.

إِنَّ هَذِهِ التَّجْرِبَةَ تُفْنِعُ الْمُنْصَفِينَ أَهْلَ الرُّشْدِ مِنْكُمْ بَأَنَّهُ لَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ، فَلَا إِلَهَ حَتْمًا إِلَّا هُوَ.

﴿وَيَجْمَعُكُمْ خُلَفَاءُ الْأَرْضِ﴾: أَي: وَمَنْ هَذَا الْعَظِيمُ الْقَدِيرُ، الْخَلَّاقُ الْمُتَفَرِّقُ الْحَكِيمُ، الَّذِي يَخْلُقُ أَجْيَالَكُمْ، جِيلًا سُلَالَةً مِنْ جِيلٍ، وَيَجْعَلُ الْأَجْيَالَ اللَّاحِقَةَ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ لِلْأَجْيَالِ السَّابِقَةِ، فِي سُكْنَاهَا وَالانْتِفَاعِ بِخَيْرَاتِهَا؟؟

هذا السؤال قد يَجُرُّ إلى بُحوثٍ مُسْتَفِيزَةٍ، حَوْلَ ظَاهِرَاتٍ عَظِيمَاتٍ
من آيَاتِ اللَّهِ فِي خَلْقِ النَّاسِ جِيلًا فَجِيلًا وَفَقِ سُنَّةِ التَّنَاسُلِ.

إِنَّ أَهْلَ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ الْمُنْصِفِينَ لَا بُدَّ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
هُوَ الرَّبُّ الَّذِي جَعَلَ خَلْقَهُ لِلنَّاسِ عَلَى وَفْقِ سُنَّةِ الْأَجْيَالِ الْمُتَلَحِّقَةِ الَّتِي
يَخْلُفُ اللَّاحِقُ مِنْهَا السَّابِقَ.

وَحِينَ يَعْتَرِفُ الْمُشْرِكُ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ حَوْلَ السُّؤَالَيْنِ، وَيُعْلِنُ أَنَّ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يَجِيبُ الْمَضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ الشُّوْءَ، وَهُوَ الَّذِي
يَخْلُقُ النَّاسَ وَفَقِ سُنَّةِ الْأَجْيَالِ الَّتِي يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي سَكْنَى الْأَرْضِ
وَالِانْتِفَاعِ بِخَيْرَاتِهَا، يَتَسَنَّى لِلْمُؤْمِنِ الْمُنَاطِرِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، أَنْ يَقُولَ
بِأَسْلُوبِ الْمُسْتَفْهِمِ اسْتِفْهَامًا تَعْجَبِيًّا إِنْكَارِيًّا؛ ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟!!﴾

وفي نهاية التعليم وَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَابَهُ لِلْمُشْرِكِينَ قَائِلًا لَهُمْ:
﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أَصْلُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: «تَذَكَّرُوا» حُذِفَتِ التَّاءُ الثَّانِيَةُ تَخْفِيفًا، وَقُرِئَ
[يَذْكُرُونَ] و[تَذْكُرُونَ] بَيَاءُ الْغَائِبِينَ، وَبَتَاءُ الْمُخَاطَبِينَ.

وفي هذه القراءات وجوه عربية جائزة، وتكامل في الأداء البياني.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: أي: تَذَكَّرُوا قَلِيلًا جَدًّا تَذَكَّرُونَ، فلفظ ﴿قَلِيلًا﴾
صِفَةٌ لِمَفْعُولٍ مُطْلَقٍ مُحذوفٍ مُقَدَّمٍ عَلَى فَعْلِهِ، وَلَفْظُ «مَا» إِبْهَامِيَّةٌ لِتَأْكِيدِ
الْقَلَّةِ.

والمَرَادُ بِالتَّذَكُّرِ الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ وَالسُّلُوكِي الَّذِي يُثِيرُهُ أَوْ يُحْدِثُهُ التَّذَكُّرُ
لِقَضِيَّةٍ مَا مِنْ قَضَايَا الْمَعْرِفَةِ الدِّينِيَّةِ، الَّتِي تَقْضِي مَنَعَ الْإِنْسَانِ مِنْ مُمَارَسَةِ
شَهَوَاتِهِ الْمَحْرَمَةِ فِي الدِّينِ، وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِ الَّتِي فِيهَا مَعْصِيَّةٌ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ.

التَّذَكُّرُ: هو استحضار المعلومة في الذاكرة، أو في جهاز التصوُّر الحاضر في الدماغ، باستخراجها من مخازن المعرفة، وإحضارها إلى ساحة التصوُّر الحاضر.

ومخازن المعرفة هي مراكز متخصصة في الدماغ للاحتفاظ بالمعارف، وتُسَدَّعَى المعارف مِنْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَتَتَعَرَّضُ لِلنَّسْيَانِ بَعْدَهُ سَبَاب، وَمِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْإِهْمَالُ، وَعَدَمُ اهْتِمَامِ النَّفْسِ بِالْمَعْلُومَةِ، وَعَدَمُ الْمُبَالَغَةِ بِهَا، وَالْإِكْتِرَافُ لَهَا.

وَجَاءَتْ قِرَاءَةُ [يَذْكُرُونَ] تَعْلِيمًا لِلْمُؤْمِنِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، لَتَهْوِينَ عَدَمَ اسْتِجَابَةِ الْكَافِرِينَ لِمَجَاهِدَتِهِ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ، إِذْ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مِنْ سُلُوكِ مُعْظَمِ النَّاسِ إِذْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

المرحلة الرابعة من مراحل المناظرة

قال الله عز وجل:

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٣٩).

وفي هذه المرحلة الرابعة من التعليم توجيه المناظر المؤمنين الداعي إلى الله، لطرح السؤال في مناظرته للمشرك، حول آيتين من آيات الله في كونه متعلقان بعنايته بالناس، وإنعامه عليهم بالهداية في أسفارهم، وتذبير وسائل رزقهم.

الآية الأولى: هِدَايَةُ اللَّهِ النَّاسَ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فِي أَسْفَارِهِمْ.

الآية الثانية: إِرْسَالُ الرِّيَّاحِ الَّتِي تَسُوقُ السُّحُبَ، وَفِيهَا نَفْعٌ كَثِيرٌ، وَبُشْرٌ بِالْأَمْطَارِ الَّتِي تَحْيَا بِهَا الزَّرْعُ وَالشَّجَرُ، وَتَبْتَهِجُ بِهَا الدِّيَارُ.

• ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؟ صِغَةُ السُّؤَالِ مُمَازِلَةٌ

تماماً لما جاء في المراحل السابقة، والتَّحْلِيلُ الَّذِي سَبَقَ يُنْطَبِقُ هُنَا.

إِنَّ الهداية للمسافرِ في ظُلُمَاتِ الْبَرِّ، وفي ظُلُمَاتِ الْبَحْرِ، يَتَحَقَّقُ قِسْمٌ كَبِيرٌ مِنْهَا عَنْ طَرِيقِ النجوم في السَّمَاءِ، مَعَ مَعَالِمَ بَارِزَةٍ فِي الْأَرْضِ كَالجبال، وَالوُدْيَانِ، وَكَهُبُوبِ الرِّيحِ وأنواعها، إلى غير ذَلِكَ مِمَّا يَكْتَسِفُهُ النَّاسُ مِنْ وَسَائِلَ لِلْهِدَايَةِ مِثْلَ «البوصلة» الَّتِي صَارَتْ وَسِيلَةً هَادِيَةً فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْجَوِّ، بِمَا جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَرْضِ وفي الْأَشْيَاءِ مِنْ قُوَى مَغْنَاطِيَسِيَّةٍ تُحَدِّدُ اتِّجَاهَ إِبْرَةِ «البوصلة» فَيَهْتَدِي بِهَا السَّالِكُ.

فَمَنْ هَذَا الْعَظِيمُ الْمُتَقِنُ الْحَكِيمُ، الَّذِي جَعَلَ بِتَذْيِيرِهِ فِي كَوْنِهِ مَا يَهْتَدِي بِهِ الْمَسَافِرُونَ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْجَوِّ!!

إِنَّ الْعَاقِلَ الْمُنْصَفَ الرَّشِيدَ يَقُولُ: هُوَ اللَّهُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؟ وجاء في القراءة الأخرى «الرَّيحَ» مفرداً، والمؤدَّى واحد.

فعل «يُرْسِلُ» بِصِغَةِ الْمُضَارِعِ يَدُلُّ عَلَى مَا يَخْدُثُ بِتَجَدُّدٍ فِي تَصَارِيفِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ.

وَالْإِرْسَالُ فِيهِ مَعْنَى الْبُعْثِ لِتَأْدِيَةِ مُهِمَّةٍ، فَهُوَ هُنَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْثَ الرِّيحِ مَقْصُودٌ بِهِ تَبْلِيغُ رِسَالَةٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَقْدَمِ غَيْثٍ هُوَ مِنْ عَطَاءِ رَحْمَتِهِ، مَعَ قِيَامِهَا بِوُظَائِفِهَا الْمَادِّيَّةِ.

﴿الرِّيحَ﴾: إِخْدَى آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَوْنِهِ، وَهِيَ آيَةٌ عَجِيبَةٌ ذَاتُ أَحْدَاثٍ كُبْرَى فِي الْكُونِ، فَمِنْهَا مَا يَأْتِي بِالنَّفْعِ الْعَظِيمِ، وَمِنْهَا مَا يَأْتِي بِالتَّدمِيرِ وَبِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

وقد ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ آيَةَ الرِّيحِ فِي نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ

سَبَقَ أَنْ أَفْرَدَتْ لِتَدَبَّرَهَا مَلْحَقًا خَاصًّا مِنْ مَلْحَقِ تَدَبُّرِ سُورَةِ (المرسلات) ^(١).
﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ﴾: أي: إعلاماً ساراً بِمَقْدَمِ غَيْثِ تَسْوِفِهِ
 أوامر الله عز وجل التي هي من آثارِ رَحْمَتِهِ.

وتحليل هذه العبارة يُشْعِرُ بَأَنَّ التَّبَشِيرَ يَأْتِي سَابِقاً وَوَاقِعاً بَيْنَ
 الْمُبَشِّرِينَ وَبَيْنَ يَدَي رَحْمَةِ اللَّهِ.

أُطْلِقَ عَلَى الْغَيْثِ لَفْظُ «الرَّحْمَةِ» لِأَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِهَا، فَهُوَ مُجَازٌ
 مُرْسَلٌ مِنْ إِطْلَاقِ السَّبَبِ وَإِرَادَةِ الْمُسَبَّبِ، وَجُعِلَ لِهُذِهِ الرَّحْمَةِ يَدَانِ تَجُودُ
 بِهِمَا، إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ، أَوْ هُمَا مِنْ صِفَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِهِ
 جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ.

وعلى قراءات: [نُشْرًا، وَنُشْرًا، وَنُشْرًا] فالمعنى: يُرْسِلُ الرِّيحَ نَاشِرَةً
 مَا يَدُلُّ ذَوِي الْحَسِّ وَالْفِكْرِ عَلَى أَنَّ الْغَيْثَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ قَادِمٌ بَعْدَ هُبُوبِهَا،
 وَهَذَا مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ.

مَا بَيْنَ يَدَيِ الْمَخْلُوقِ إِذَا كَانَ زَمَانِيًّا فَالمرادُ بِهِ مَا مَضَى، وَإِذَا كَانَ
 مَكَانِيًّا فَالمرادُ بِهِ مَا يَقَعُ إِلَى جِهَةِ وَجْهِهِ وَصَدْرِهِ ^(٢).

إِنَّ طَرَحَ هَذَيْنِ السُّؤَالَيْنِ، وَبَيَانَ مَا يَسْتَشْبَعَانِ مِنْ بُحُوثٍ عِلْمِيَّةٍ تَوْصَلَ
 إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ الْكَوْنِيُّونَ، مِمَّا يَدْفَعُ الْعَاقِلَ الْمُنْصِفَ الرَّشِيدَ إِلَى أَنْ يُعْلِنَ
 اعْتِرَافَهُ بِأَنَّ الْهَادِيَ الْحَقَّ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْجَوِّ، وَأَنَّ مُرْسِلَ
 الرِّيحِ بُشْرًا بَيْنَ يَدَي رَحْمَتِهِ هُوَ الْخَالِقُ الرَّبُّ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ
 سُلْطَانَهُ.

عِنْدَئِذٍ يَقُولُ لَهُ الْمُنَظِّرُ الْمُؤْمِنُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ؟﴾

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (المرسلات) المجلد الثاني. الصفحات من (٦٢١ - ٦٦٤).

(٢) انظر القاعدة (٣٦) من كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل» للمؤلف.

أي: إذا اعترفت بأنَّ الرَّبَّ في الْكَوْنِ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ، أَفَمِنَ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ وَالْحِكْمَةِ أَنْ تَتَّخِذَ إِلَهًا مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُ لَكَ وَلَا لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا؟؟؟!!

وإنَّ أَصْرَ الْمُشْرِكِ عَلَى شِرْكِهِ تَسْنَى لِلْمَنَاطِرِ الدَّاعِي إِلَى اللهِ، أَنْ يَقُولَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ وَالتَّغْنِيفِ وَالتَّائِيْبِ وَالتَّعَجُّبِ مِنْ عِنَادِهِ: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ؟﴾؟؟؟!!

وفي نِهَآيَةِ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ مَرَاجِلِ الْمَنَاطِرَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُعَقِّبًا: ﴿تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: تَسَامَى وَتَرَفَّعَ اللهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَنْ أَنْ يُكَافِئَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ أَحَدٌ، فَمَنْ يَجْعَلُهُمُ الْمُشْرِكُونَ شُرَكَاءَ لِلَّهِ، يَعْبُدُونَهُمْ كَعِبَادَةِ اللَّهِ هُمْ خَلَقُوا مِنْ خَلْقِهِ، وَعَبِيدُ مِنْ عِبِيدِهِ، وَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ شَيْئًا.

فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ مَا لَا حَيَاةَ لَهُ وَلَا عِلْمَ وَلَا عَقْلَ؟؟؟!!

المرحلة الخامسة من مَراجِلِ المناظرة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَآئِذَا بَرَأْنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وجاء أيضاً في هذه المرحلة الخامسة من التَّعْلِيمِ تَوْجِيهُ الْمَنَاطِرِ الْمُؤْمِنِ الدَّاعِي إِلَى اللهِ، لِيُطْرَحَ السُّؤَالُ فِي مُنَاطَرَتِهِ لِلْمُشْرِكِ، حَوْلَ آيَتَيْنِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ.

الآية الأولى: بَدْءُ الْخَلْقِ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى إِعَادَتِهِ بَعْدَ إِفْنَائِهِ.

الآية الثانية: رِزْقُ النَّاسِ وَيُلْحَقُ بِهِمْ سَائِرُ الْأَحْيَاءِ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

• ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؟ صِغَةُ السُّؤَالِ مُمَائِلَةٌ تَمَامًا لِمَا جَاءَ فِي الْمَرَاجِلِ السَّابِقَةِ، وَالتَّحْلِيلُ الَّذِي سَبَقَ يَنْطَبِقُ هُنَا، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْإِعَادَةِ لِلْقُرْبِ.

لَا أَحَدٌ يَدَّعِي أَوْ يُدَّعَى لَهُ، أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ خَلْقَ الْمَخْلُوقَاتِ، سَوَاءً أَكَانَتْ أَحْيَاءً، أَمْ نَبَاتَاتٍ، أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ، غَيْرُ اللَّهِ الْخَالِقِ الرَّبِّ الْعَلِيِّ عَنِ الْإِدْرَاكَاتِ الْحَسِّيَّةِ، وَالَّذِي هُوَ مَعْلُومُ الْوُجُودِ بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ، وَتُذَرِّكُ الْعُقُولَ طَائِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ اسْتِبْطَاطًا مِنْ أَثَارِهِ فِي كَوْنِهِ.

إِنَّ ظَاهِرَةَ بَدْءِ الْخَلْقِ ظَاهِرَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ فِي الْأَحْيَاءِ ذَوَاتِ الْحَرَكَةِ الْإِرَادِيَّةِ وَالْإِدْرَاكَاتِ عَلَى مَقَادِيرِهَا، وَظَاهِرَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ فِي النَّبَاتَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا وَصِفَاتِهَا، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْبَيَانِ اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ [يَبْدَأُ].

وَالْقَادِرُ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ الْمَشَاهِدِ بِتَكَرُّارٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى إِعَادَةِ مَا كَانَ قَدْ خَلَقَ بَعْدَ إِفْنَائِهِ لَهُ، وَالْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ فِي هَذَا كَافٍ لِإِبْثَاتِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَجَاءَ فِي السُّؤَالِ التَّعْلِيمِيِّ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ تَوْطِئَةً لِمَا سَيَأْتِي مِنْ إِقْنَاعٍ، حَوْلَ نَبَأِ الْآخِرَةِ الَّذِي يَجْحَدُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمُجَرَّدِ الْاسْتِبْعَادِ وَالْاسْتِغْرَابِ.

وَالسُّؤَالُ عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ يَجَرُّ إِلَى اسْتِغْرَاضِ بَحْثٍ عِلْمِيَّةٍ وَاسِعَةٍ وَمُسْتَفِيزَةٍ عَنْ نَشْأَةِ الْأَكْوَانِ، وَنَشْأَةِ الْأَحْيَاءِ، وَنَشْأَةِ الْإِنْسَانِ، وَهِيَ تَهْدِي بِمَا فِيهَا مِنْ إِتْقَانٍ عَجِيبٍ إِلَى أَنَّ لِهَذَا الْكَوْنَ كُلَّهُ خَالِقًا عَظِيمًا وَاحِدًا أَحَدًا لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ كُلُّ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النِّقْصَانِ.

وَعِنْدَيْهِ فَقَدْ يَنْدَفِعُ الْعَاقِلُ الْمُنْصِفُ الرَّشِيدُ مِنَ الْمُقْصُودِينَ بِالْمُنَاطَرَةِ، إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِأَنَّ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ وَهُوَ الْقَدِيرُ إِلَى إِعَادَتِهِ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا رَبَّ غَيْرَهُ، وَعِنْدَيْهِ يَقُولُ لَهُ الْمُنَاطِرُ الْمُؤْمِنُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ: [أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ]!!

أي: بِمَا أَنْكَ اعْتَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَبْدُؤُ الْخَلْقَ وَهُوَ الْقَدِيرُ عَلَى إِعَادَتِهِ، أَفَلَيْقُ بِكَ أَنْ تَعْبُدَ غَيْرَهُ، فَتَتَّخِذَ إِلَهَا مَعَهُ تَجْعَلُهُ شَرِيكاً لَه فِي إِلَهِيَّتِهِ!!

وإنَّ أَصْرَ الْمُشْرِكِ عَلَى شِرْكِهِ تَسْنَى لِلْمَنَاظِرِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، أَنْ يَقُولَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ وَالتَّغْنِيفِ وَالتَّأْنِيبِ وَالتَّعَجُّبِ مِنْ عِنَادِهِ: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ؟!!؟﴾
فَلَا سِتْفَهَامُ يَصْلُحُ تَوْجِيهَهُ فِي الْحَالَتَيْنِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمَوْقِفَيْنِ.

• ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟﴾: أي: وَمَنِ الْعَظِيمُ الْقَدِيرُ الْخَلَّاقُ الْمُتَقِنُّ الْحَكِيمُ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، وَيَرْزُقُ النَّاسَ جَمِيعاً وَسَائِرَ الْأَحْيَاءِ؟؟ أَخْبِرُونِي عَمَّا تَعْتَقِدُونَهُ.

إِنَّ رِزْقَ النَّاسِ وَسَائِرِ الْأَحْيَاءِ مِنَ السَّمَاءِ يَأْتِي مِنْ عِدَّةِ أَسْبَابٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِهَا، وَالتَّصَرُّفِ بِهَا عَلَى مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، إِلَّا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

إِنَّ النَّبَاتَاتِ فِي الْأَرْضِ تَحْتَاجُ إِلَى الْحَرَارَةِ الَّتِي تَقْدِفُ بِهَا الشَّمْسُ، وَهِيَ خَلَقَ مِنَ خَلْقِ اللَّهِ، وَنَظَامُهَا وَكُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهَا مِنْ إِبْدَاعِهِ وَخَلْقِهِ وَتَدْبِيرَاتِهِ وَتَصَاريفِهِ.

وَالنَّبَاتَاتُ فِي الْأَرْضِ هِيَ مَادَّةُ غِذَاءِ الْأَحْيَاءِ فِيهَا.

وهي تحتاج إلى الماء وسقيهاها يَنْزِلُ عَلَيْهَا مِنَ السَّمَاءِ، أي: مِنْ السَّحَابِ الْمُتَرَاكِمِ فِي جَوِّ الْأَرْضِ، صَاعِداً مِنْ بُخَارِ الْمِيَاهِ فِي الْأَرْضِ.

وهي تحتاج إلى عُنَاصِرَ تَمْتَصُّهَا مِنْ عُنَاصِرِ الْأَرْضِ، وَهَذِهِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ.

وهي تحتاج إلى الهواء المنتشر غَلافاً حَوْلَ الْأَرْضِ وَهُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ.

فَرِزْقُ النَّاسِ وَالْأَحْيَاءِ جَمِيعاً مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَأْتِي بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَخَلْقِهِ وَتَصَاريفِهِ.

وهذه الحقيقة لَا يَجْحَدُهَا إِلَّا مُعَانِدٌ مُجْرِمٌ لَيْسَ، كَافِرٌ بِرَبِّهِ، مع عِلْمِهِ
بِأَنَّهُ هُوَ الْخَلَاقُ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ الْحَكِيمُ.

وَعِنْدَيْدُ يُوجِّهُ الْمُؤْمِنُ الْمُنَاطِرُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ لِلْمُعْتَرِفِ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ فِي
بَدْءِ الْخَلْقِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى إِعَادَتِهِ: [أَيُّهُ مَعَ اللَّهِ؟] سُؤَالَ تَوْجِيهِ وَإِقْنَاعٍ بِوُجُوبِ
تَوْحِيدِ اللَّهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ.

ويُوجِّهُ السُّؤَالَ نَفْسَهُ لِلْمَصِيرِ عَلَى شِرْكِهِ، عَلَى مَعْنَى الْإِنْكَارِ وَالتَّغْنِيفِ
وَالْتَأْنِيبِ وَالتَّعَجُّبِ مِنْ عِنَادِهِ، وَإِصْرَارِهِ عَلَى الْكُفْرِ الَّذِي يَجْعَلُهُ مِنَ
الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

وفي نهاية هذه المرحلة الختامية من مراحل المناظرة التَّعْلِيمِيَّةِ،
وَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُنَاطِرِ الْمُؤْمِنِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ تَعْلِيمًا يَقُولُ فِيهِ
لِلْمَصِيرِينَ عَلَى مَوَاقِفِهِمُ الشَّرَكِيَّةِ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي
ادِّعَاءِ أَنَّ لِلَّهِ شَرِيكَاً فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ:
﴿... قُلْ هَكَأُوْا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٤٥﴾.

الْبُرْهَانُ: الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ الْفَاصِلَةُ.

﴿هَكَأُوْا﴾: أَي: أَعْطُوا. قَالَ الْخَلِيلُ: أَصْلُ «هَاتِ» مِنْ أَتَى يُؤَاتِي،
فَقَلَّبَتْ الْأَلْفُ هَاءً.

أَي: أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، طَالِبِ الْمَشْرِكِينَ بِأَنْ يَأْتُوا
بِبُرْهَانِهِمْ عَلَى مَا يَدْعُونَ مِنْ إِثْبَاتِ شَرِيكَ لِلَّهِ أَوْ شُرَكَاءَ، فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي
إِلَهِيَّتِهِ، فَمِنْ شَأْنِ مَنْ يَدَّعِي أَمراً، أَوْ يَغْتَقِدهُ، أَنْ يُقَدِّمَ بُرْهَانَهُ الَّذِي يُثْبِتُ
صِحَّةَ دَعْوَاهُ، أَوْ صِحَّةَ اعْتِقَادِهِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ بُرْهَانٌ، فَلَيَاتِ بِحُجَّتِهِ
لِتَجْرِي مُنَاطَرَتُهُ عَلَيْهَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ بُرْهَانٌ وَلَا حُجَّةٌ قَابِلَةٌ لِلْمُجَادَلَةِ
عَلَيْهَا، بَلْ مَا يَدَّعِيهِ أَوْهَامٌ لَا صِحَّةَ لَهَا، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْبِذَ أَوْهَامَهُ،
وَيَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الْمُؤَيَّدَةِ بِالْبُرْهَانِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ غَيْرُ صَالِحٍ لِأَنْ يَكُونَ

إِنْسَانًا سَوِيًّا عَاقِلًا رَّشِيدًا، وَلِيُعِدَّ نَفْسَهُ لِتَلْقَىٰ وَعِيدَ اللَّهِ بِالْعِقَابِ الْأَبَدِيِّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ كُفْرِهِ بِرَبِّهِ، مِنْ دَرَكَةِ الشَّرْكِ، أَوْ مِمَّا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهَا كَجُحُودِ الرَّبِّ الْخَالِقِ جُحُودًا كَلِيًّا، وَادِّعَائِهِ أَنَّهُ لَا رَبَّ وَلَا إِلَهَ، وَأَنَّ الوجود كُلَّهُ مَادَّةٌ تَتَحَوَّلُ تَحَوُّلاً ذَاتِيًّا دُونَ تَذْيِيرِ رَبِّ خَالِقِ حَكِيمٍ عَلِيمٍ قَدِيرٍ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ.



التدبر التحليلي للآيات من (٦٥ - ٧٥):

وفيها تعليم بعض أساليب الإقناع لمنكري الآخرة، وفي أثنائها تربية من الله عز وجل لِرُسُوله كما سبق بيانه في التمهيد.

قول الله عز وجل:

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥).

تَرْجِعُ ضَلَالَاتِ الْمَشْرِكِينَ الْاِغْتِقَادِيَّةَ الْبَارِزَةَ إِبَّانَ نَزُولِ سُورَةِ (النمل) إلى ثَلَاثَةِ جُذُورٍ.

الجذر الأول: اعتقاد وجود شركاء لله عز وجل في رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِهِ. وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ فَسَادِ اعْتِقَادِهِمْ هَذَا فِي الْمُنَاطَرَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ لِلدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، الَّتِي سَبَقَ تَذَبُّرُهَا وَشَرْحُ عُنَاصِرِهَا فِي الْآيَاتِ مِنْ (٥٩ - ٦٤) مِنْ هَذَا الدَّرْسِ السَّادِسِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ.

الجذر الثاني: اعتقادهم بأنَّ لَدَى الْكُفَّانِ عُلُومًا غَيْبِيَّةً، يُخْبِرُونَهُمْ بِهَا، فَهُمْ يُصَدِّقُونَهُمْ فِيمَا يُخْبِرُونَهُمْ بِهِ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّانِ يَجْرُونَهُمْ إِلَى ضَلَالَاتٍ شَرِكِيَّةٍ كَثِيرَةٍ.

وقد سبق في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في الآيات من (٢٢١ - ٢٢٣) بَيَانُ أَنَّ الْكُفَّانَ أَفَّاكُونَ غُلَاةٌ فِي ارْتِكَابِ الْآثَامِ، فَهُمْ

بِأَكَاذِبِهِمْ يَصْرِفُونَ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَهُمْ فَاسِدُونَ
كَالشَّيَاطِينِ الَّتِي تَنْزَلُ عَلَيْهِمْ.

وَسَبَقَ لَدَى تَدْبِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَانُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْكُهَّانَةِ وَالْكُهَّانِ،
وَتَلْقِيهِمْ عَنِ شَيَاطِينِ الْجَنِّ، وَكَيْفَ أَنَّ الشَّيْطَانَ مِنْهُمْ قَدْ يَلْتَفِظُ خَبْرًا بِكَلِمَةٍ
يَسْمَعُهَا مِنْ بَعْضِ الْمَلَائِكَةِ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ
تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَيَكْذِبُ هَذَا مَعَهَا لِلنَّاسِ
مِثْلَ كَذِبِهِ، أَخَذًا مِمَّا صَحَّ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ.

وَصِلَّةٌ بِهَذَا الْبَيَانِ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (الشُّعَرَاءِ) وَاسْتِكْمَالاً لَهُ، جَاءَ
هُنَا فِي سُورَةِ (النَّمْلِ) تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ
مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَقُولَ لِلَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْكُهَّانَ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ: لَا يَعْلَمُ
الْغَيْبَ جَمِيعٌ مَنْ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِعِلْمِ مَا، فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِلَّا اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ وَخَدَهُ، أَيُّ: وَهُوَ بِحُكْمَتِهِ يُعْلِمُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، مَا يَشَاءُ
إِعْلَامَهُمْ بِهِ مِنْ عُلُومٍ وَمَعَارِفٍ غَيْبِيَّةٍ. لَفْظُ ﴿مَنْ﴾ اسْمٌ مَوْضُولٌ يَشْمَلُ كُلَّ
ذِي عِلْمٍ، وَأُطْلِقَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالْمُرَادُ بِالْغَيْبِ هُنَا مَا لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِعِبَادِهِ وَسَائِلَ لِإِدْرَاكِهِ بِحَوَاسِّهِمْ
الظَّاهِرَةِ أَوِ الْبَاطِنَةِ، أَوْ لِإِدْرَاكِهِ بِالاسْتِنَاجِ الْعَقْلِيِّ مِنَ الْمَدْرَكَاتِ الْحَسِّيَّةِ.

وَمِنْ هَذَا الْغَيْبِ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ
(لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

وَمِنَ الْغَيْبِ الَّذِي لَمْ يُطْلِعِ اللَّهُ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ بِمَنْ فِيهِمُ الْمَلَأُ
الْأَعْلَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ، زَمَنُ الْبُعْثِ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
فِي آخِرِ الْآيَةِ (٦٥) الْمَوْضُوعَةِ لِلتَّدْبِيرِ مِنْ سُورَةِ (النمل):

﴿... وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (١٥).

الشُّعُور: أَخْفُ وَأَضْعَفُ دَرَجَاتِ الإِدْرَاكِ الْعِلْمِيِّ بِالشَّيْءِ، وَنَفْيُ الشُّعُورِ بِالشَّيْءِ، مِنْ أَبْلَغِ صُورِ نَفْيِ الْعِلْمِ بِهِ نَفْيًا كُلِّيًّا.

﴿أَيَّانَ﴾: اسْمُ اسْتِفْهَامٍ يُسْتَفْهَمُ بِهِ عَنِ الزَّمَانِ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيمَا يُرَادُّ اسْتِعْظَامُهُ.

﴿يُبْعَثُونَ﴾: الْبَعْثُ لُغَةً: الإِحْيَاءُ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَيْ: لَا يَشْعُرُونَ بِالْوَقْتِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ بَعْثُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِحَيَاةِ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ بِالثَّوَابِ أَوْ بِالْعِقَابِ.

وجاءت هذه العبارة توطئةً للبيان الآتي حول الآخرة، وما تبعه من تعليم الرسول ﷺ وكلِّ داعٍ إلى الله مِنْ أُمَّتِهِ حُجَّةً مِنْ حُجَجِ الإِقْنَاعِ بِالْآخِرَةِ، وَهِيَ حُجَّةٌ يَثْبُتُ بِهَا قَانُونُ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، مِنْ خِلَالِ الْأَمْثِلَةِ التَّطْبِيقِيَّةِ الَّتِي عَاقَبَ اللَّهُ بِهَا الْمَجْرِمِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَأَثَارُهَا بَاقِيَةٌ.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (١٦).

﴿بَلْ﴾: لِلإِضْرَابِ الْإِنْتِقَالِيِّ مِنْ فِكْرَةٍ إِلَى فِكْرَةٍ.

﴿أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: إِذَا دَرَكَ: أَيْ: تَلَا حَقَّ، وَتَتَابَعَ، حَتَّى لَحِقَ الْآخِرُ الْأَوَّلَ فِي تِلَاقٍ وَاحِدٍ، أَيْ: إِنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ الْمَغْنِيِّينَ بِالْمَعَالِجَةِ فِي السُّورَةِ، لَهُمْ عِلْمٌ قَدْ سَبَقَ فِي مَوْضُوعِ الْبَعْثِ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ عَلَى مَا يَكْسِبُ النَّاسُ فِي رَحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَقَدْ كَانَ لَهُمْ مِيرَاثٌ عِلْمِيٌّ بِهَذَا عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَمَا زَالَ هَذَا الْمِيرَاثُ مُتَنَاقِلًا فِيمَا بَيْنَهُمْ.

وَجَاءَهُمْ عِلْمٌ مِّمَّا نِيلُ عَنِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يَلْتَقُونَهُمْ، وَجَاءَهُمْ عِلْمٌ مِّمَّا نِيلُ أَيْضًا عَنِ النَّصَارَى.

فَلَمْ يَأْتِيَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِعِلْمٍ جَدِيدٍ فِي مَوْضُوعِ الْآخِرَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ سَابِقٌ، بَلْ تَلَا حَقٌّ وَتَتَابَعَ عِلْمُهُمْ بِهِ، فَالْتَقَى مَوْرُوثُهُمْ مَعَ عَقَائِدِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي هَذَا الْأَمْرِ عَلَى نَبَأٍ وَاحِدٍ.

فَلِمَاذَا يَسْتَبْعِدُونَ وَيَسْتَعْرِبُونَ وَيَشْكُونَ؟؟!

يقال لغة: «أَدَارَكَ الْقَوْمُ»، وَتَدَارَكُوا، وَأَدْرَكُوا» أَي: تَلَا حَقُّوا وَتَتَابَعُوا حَتَّى لَحِقَ آخِرُهُمْ أَوَّلُهُمْ، فَتَلَا قُوا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ.

وَكذلك الْأَنْبَاءُ فِي مَوْضُوعِ الْآخِرَةِ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ بَعْضُ التَّفَاصِيلِ، قَدْ تَلَا حَقَّتْ وَتَتَابَعَتْ مُؤَكَّدَةً، قَانُونُ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ عَلَى كَسْبِ الْإِنْسَانِ فِي رَحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَيْسَ أَمْرُ الْآخِرَةِ نَبَأٌ جَدِيداً عَلَيْهِمْ.

وقراءة: [أَدْرَكَ] تَدُلُّ عَلَى أَنَّ عِلْمَهُمْ قَدْ أَدْرَكَ مَعْرِفَةَ مَا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَهذه القراءة تَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ بَلَغَهُ هَذَا الْعِلْمُ دُونَ تَلَا حَقٍّ وَتَتَابَعَ، أَمَا قِرَاءَةُ: [أَدَارَكَ] فَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ فَرِيقاً آخَرَ مِنْهُمْ قَدْ وَصَلَهُمْ هَذَا الْعِلْمُ بِتَلَا حَقٍّ وَتَتَابَعَ: «أَدْرَكَ الشَّيْءَ»، أَي: بَلَغَهُ وَنَالَهُ.

وجاءتِ التَّعْدِيَةُ بِحَرْفِ «فِي» فِي عِبَارَةِ ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ وَكَانَ الظَّاهِرُ اسْتِعْمَالَ حَرْفِ الْبَاءِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ عِلْمَهُمْ بِالْآخِرَةِ لَيْسَ عِلْماً مُسْتَوْفِياً كُلَّ الْعُنَاصِرِ الَّتِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا، وَالْمُطَابَقَةُ لِلْحَقِّ، بَلْ هُوَ عِلْمٌ مَا دَاخِلٌ فِي عُمُومِ نَبَأِ الْآخِرَةِ، وَهَذَا دَالٌّ عَلَى قَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، وَوُجُودِ آخِرَةٍ يَتَحَقَّقُ فِيهَا هَذَا الْجَزَاءُ.

فَالْعِبَارَةُ عَلَى تَقْدِيرٍ: بَلْ تَلَا حَقٌّ وَتَتَابَعَ عِلْمُهُمْ بِحَقِيقَةِ كُتَيْبَةٍ دَاخِلَةٍ فِي عُمُومِ أَمْرِ الْآخِرَةِ، لَا مُطَابَقَةَ لْخُصُوصِ أَجْزَاءِ مَا يَكُونُ فِيهَا، وَأَوَّلُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ قَانُونُ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ فِي آخِرَةِ غَيْرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾: أي: بَلْ هُمْ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ تَتَابُعِ هَذَا الْعِلْمِ، مُنْغَمِسُونَ فِي أَوْحَالِ شَكٍّ مُنْفَرٍ مِنَ الْآخِرَةِ، صَارِفٍ لَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا، يَسْتَمْسِكُونَ بِخُيُوطٍ عَنكَبُوتِيَّةٍ مِنَ الشَّكِّ، وَلَا يَغْبُؤُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ جِبَالٍ مَّتِينَةٍ مِنَ الْعِلْمِ الْوَاصِلِ إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ.

وَالَّذِي يُنْفَرُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ، تَعَلُّقُهُمْ بِزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَهَوَاتٍ وَأَهْوَاءٍ.

﴿بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾: أي: بَلْ هُمْ مِنْ نُفُورِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ، تَعَلَّقًا بِزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ الَّتِي تَحَقِّقُ لَهُمْ فِيهَا، عَمُونَ عَنِ الْحَقِيقَةِ لَا يُذَرِّكُونَهَا بِبَصَائِرِ سَلِيمَةِ الرُّؤْيَةِ.

﴿عَمُونَ﴾: جَمْعُ «عَمَ» بِمَعْنَى «أَغْمَى» أي: هُمْ عَمُونَ عَنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ، وَالْإِهْتِدَاءِ بِآيَاتِهِ وَدَلَائِلِهِ، وَعَمُونَ عَنْ رُؤْيَةِ أَنْوَارِ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَةِ وَالْفَكْرِيَّةِ وَالْوُجْدَانِيَّةِ وَالْكُونِيَّةِ.

وَالْعَمَى أَنْوَاعٌ، فَمِنْهُ مَا هُوَ فِي الْبَصَرِ الظَّاهِرِ، وَمِنْهُ مَا هُوَ فِي الْقُلُوبِ وَالْبَصَائِرِ، وَهَكَذَا كَانَ أَثْمُهُ وَكِبَرَاءُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ.

«مِنْ» فِي عِبَارَةِ: ﴿مِنْهَا﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ مُقَدَّرٍ، وَتَقْدِيرُهُ فِيمَا ظَهَرَ لِي: ﴿بَلْ هُمْ﴾ لِنُفُورِهِمْ ﴿مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي: لِأَجْلِ نَفُورِهِمْ مِنْهَا عَمُونَ، وَآثَرْتُ تَقْدِيرَ كَلِمَةِ «النُّفُورُ» لِاسْتِعْمَالِهَا بِشَأْنِهِمْ فِي سُورَةِ (الْفِرْقَانِ/ ٢٥ مَصْحَف/ ٤٢ نَزُول) فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝٦١﴾.

يَقَالُ لُغَةً: «نَفَرَ مِنَ الشَّيْءِ»، أي: أَعْرَضَ، وَصَدَّ، وَابْتَعَدَ مُذْبِرًا، كَحَالَةِ الْمَذْغُورِ الشَّارِدِ، أَوِ الْمَتَمَنِّعِ الْمَتَرَاكِعِ بِحِرَانٍ.

وجاء استعمال كلمة «نُفُور» بشأنهم في الآية (٤٢) من سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) وفي الآيتين (٤١) و(٤٦) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول). وفي الآية (٢١) من سُورَةِ (الْمُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجٍ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالرَّسُولِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ كُفْرًا عِنَادِيَا، مع اسْتِيقَانِ أَنْفُسِهِمْ بِصِدْقِهِ، وبَأَنَّ الْقُرْآنَ مُنْزَلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، بِأَسْلُوبِ الاسْتِيفَامِ التَّعْجِبِيِّ الِاسْتِيعَادِيِّ الَّذِي يَرَادُ بِهِ الْإِنْكَارُ: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجٍ﴾؟! أي: أَئِذَا مِتْنَا وَفَنِيَتْ أَجْسَادُنَا وَصِرْنَا تُرَابًا مُخْتَلِطًا بِتُرَابِ الْأَرْضِ، وَصَارَ آبَاؤُنَا تُرَابًا كَذَلِكَ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ مِنْ تُرَابِ الْأَرْضِ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى؟! إِنَّ هَٰذَا الْأَمْرَ مُسْتَنْكَرٌ جَدًّا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُصَدَّقَ.

لَمْ يَقْدَمُوا أَيَّ حُجَّةٍ غَيْرِ الاسْتِيفَامِ التَّعْجِبِيِّ الِاسْتِيعَادِيِّ الْإِنْكَارِيِّ.

• ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾: أي: لَقَدْ وَعَدْنَا قَبْلَ مُحَمَّدٍ وَقَبْلَ الْقُرْآنِ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَنَّنَا سَنُبْعَثُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْحَسَابِ وَالْجِزَاءِ، وَوَعَدَ آبَاؤُنَا أَيْضًا هَٰذَا الْوَعْدَ نَفْسَهُ إِنْبَاءً عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَرَّتْ قُرُونٌ وَلَمْ نَجِدْ لِهَٰذَا الْبُعْثِ الَّذِي تَتَابَعَتْ عَلَيْهِ الْوُعُودُ أَثَرًا، فَلَمْ نَجِدْ أَحَدًا مَاتَ فِي الْقُرُونِ الْأُولَى قَدْ بُعِثَ.

• ﴿إِن هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾﴾: ﴿إِنَّ﴾: حَرْفُ نَفْيٍ مِثْلُ «مَا» ﴿هَٰذَا﴾: أي: نَبَأُ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْحَسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الْجِزَاءِ.

﴿أَسْطِيرُ﴾: تَأْتِي هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَيْنِ:

• فتأتي بمعنى: أَبَاطِيل، وأَحَادِيث لا نظام لها، واحِدَتُهَا: «إِسْطَار، وإِسْطَارَة، وأسْطُور، وأسْطُورَة».

• وتأتي بمعنى: مَكْتُوبَات الأولين، ومَسْطُورَاتِهِمْ، قال أبو عبيدة: جُمِعَ «سَطَرَ» على «أسْطَر» ثُمَّ جُمِعَ «أسْطَر» على «أسَاطِير».

والمعنى الأول هو المعنى الملائم هُنَا لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: ما هَذَا الَّذِي يُنَبِّئُنَا بِهِ مُحَمَّدٌ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ دَارٍ لِلنَّعِيمِ وَدَارٍ لِلْعَذَابِ بِالنَّارِ، إِلَّا أَبَاطِيلُ وَخِرَافَاتُ الْأَوَّلِينَ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ أُنْذِرْتَ بِهِ أُمَّتُنَا الْعَرَبِيَّةُ عَلَى لِسَانِ إِسْمَاعِيلَ، وَأُنْذِرَ بِهِ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِ إِسْمَاعِيلَ، عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِمْ، وَقَدْ مَرَّتْ قُرُونٌ كَثِيرَةٌ عَلَى النَّاسِ دُونَ أَنْ نَجِدَ لِهَذِهِ الْآخِرَةِ أَثَرًا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَيَاةَ الْآخِرَى لَا أَضْلَ لَهَا، وَلَا صِحَّةَ لِلنَّبَأِ الْوَارِدِ بِشَأْنِهَا.

وَقَدْ تَكَرَّرَتْ مَوَاقِفُ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي يُعْلِنُونَ بِهَا التَّكْذِيبَ بِيَوْمِ الدِّينِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ حُجَّةٌ يَخْتَجُّونَ بِهَا غَيْرَ التَّعَجُّبِ، وَتَوْجِيهِ أَسْئَلَةِ الْاسْتِغْرَابِ وَالْاسْتِيعَادِ.

وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي الْبَيِّنَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ إِبْطَالُ تَعَجُّبِهِمْ وَاسْتِيعَادِهِمْ وَاسْتِغْرَابِهِمْ، بِقِيَاسِ الْحَيَاةِ الْآخِرَى عَلَى الْحَيَاةِ الْأُولَى، فَمَنْ قَدَّرَ وَقَصَّى الْحَيَاةَ الْأُولَى، وَأَنْشَأَ الْأَحْيَاءَ مِنَ التُّرَابِ وَالْمَاءِ، وَلَمْ تَتَغَيَّرْ صِفَاتُهُ لِأَنَّهُ أَرْزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدِيرًا عَلَى إِعَادَةِ الْحَيَاةِ إِلَى الْمَوْتَى، وَلَوْ فَنِيَتْ ذَرَائُهُمْ فِي تَرَابِ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ ذَرَّائِهِمْ وَبِكُلِّ صِفَاتِهِمْ، وَكَمَا بَدَأَ أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ.

فَالْإِنْكَارُ الْقَائِمُ عَلَى التَّعَجُّبِ إِنْكَارٌ سَاقِطٌ عَقْلِيًّا، لَا وَزْنَ لَهُ، وَلَا قِيمَةً لَهُ فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ.

وقد جاءت في القرآن المجيد نُصُوصٌ ثَمَانِيَةٌ تَكْشِفُ مَوَاقِفَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْعِنَادِيَّةَ، بِشَأْنِ إِنْكَارِهِمْ الْآخِرَةَ اغْتِمَاداً عَلَى التَّعَجُّبِ، وَتَوْجِيهِ الْاسْتِفْهَامِ الْاسْتِغْرَابِيِّ الْإِنْكَارِيِّ، دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعُوا تَوْجِيهَ حُجَّةٍ صَالِحَةٍ لِلْمُنَازَرَةِ فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ.

وَلَمَّا كَانَ التَّكْذِيبُ بِنَبَا الْآخِرَةِ يَسْتَلْزِمُ التَّكْذِيبَ بِقَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعِلَاجِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْمُنَازَرَةِ الْعَقْلِيَّةِ ذَاتِ الْأَدِلَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ، تَوْجِيهُ الْأَنْظَارِ إِلَى آثَارِ الْعُقُوبَاتِ الْجَزَائِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَبْلَ يَوْمِ الدِّينِ، وَالَّتِي أَهْلَكَ بِهَا أَقْوَاماً مُتَعَدِّدِينَ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ الْأُولَى، الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوهُمْ بِمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِهِ مِنْ شَرَائِعٍ وَأَحْكَامٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ.

فَعَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رُسُولَهُ ﷺ وَكُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يَقُولَ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْآخِرَةَ وَالْجَزَاءَ الرَّبَّانِيَّ، مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦٩).

أَي: قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ إِذْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِقَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، الَّذِي يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً الْإِيمَانَ بِالْآخِرَةِ وَيَوْمِ الدِّينِ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا آثَارَ عُقُوبَاتِ اللَّهِ بِإِهْلَاكِ مُجْرِمِي الْقُرُونِ السَّابِقَةِ فِي تَارِيخِ النَّاسِ، فَانظُرُوا آثَارَ كُفَّارِ عَادٍ قَوْمِ الرَّسُولِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَانظُرُوا آثَارَ كُفَّارِ ثَمُودِ قَوْمِ الرَّسُولِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَانظُرُوا آثَارَ مُجْرِمِي قَوْمِ الرَّسُولِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَانظُرُوا آثَارَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَجُنُودِهِ الَّذِينَ أُغْرِقُوا فِي الْبَحْرِ، إِلَى غَيْرِهِمْ مِنْ مُجْرِمِي الْقُرُونِ الْأُولَى.

أَفَلَا يَدُلُّكُمْ كُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ النَّاسَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُنْتَحِنُونَ

بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ الَّذِي وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ لَا بُدَّ أَنْ يَجْزِيَهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَنْلُ جِزَاءَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْالَهُ فِي ظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخْرَى، لِأَنَّ الْبَارِئَ جَلَّ جَلَالُهُ حَكِيمٌ، عَدْلٌ، جَوَادٌ كَرِيمٌ، لَمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَبَثًا.

﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: أي: سِيرُوا بِأَحْشِينَ عَنْ آثَارِ الْأَوَّلِينَ فِي الْأَرْضِ. يقال لغة: «سَارَ، يَسِيرُ، سَيْرًا، وَسِيرَةً، وَتَسَارًا، وَمَسَارًا، وَمَسِيرَةً» أي: مَشَى.

﴿فَانظُرُوا﴾: أي: فَانظُرُوا نَظْرًا بَصَرِيًّا إِلَى الْآثَارِ، وَنَظْرًا فِكْرِيًّا لِمُسْتَبَاطِ الْعِبَرِ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الْآثَارُ، وَإِذْرَاكِ أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاحِدَةٌ، فَمَا كَانَ مِنْ عُقُوبَاتِ اللَّهِ لِلْمُجْرِمِينَ الْأَوَّلِينَ، سَيَجْرِي نَظِيرُهُ لِلْمُجْرِمِينَ الْآخِرِينَ، مَتَى تَطَابَقَتِ الْأَمْثَالُ، وَافْتَضَّتِ الْحِكْمَةُ إِنْزَالَ الْعِقَابِ الْمُعْجَلِ، وَإِذْرَاكِ أَنَّ الْجَزَاءَ بِالْعِقَابِ وَبِالثَّوَابِ مِنْ قَوَانِينِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الثَّابِتَةِ الَّتِي لَا تَبْدِيلَ فِيهَا وَلَا تَغْيِيرَ لَهَا، لِأَنَّهَا مِنْ مُقْتَضِيَاتِ كَمَالِ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ.

﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾؟ «كَيْفَ» اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصبٍ على أنه حالٌ، أي: عَلَى آيَةٍ حَالٍ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ الْأَوَّلِينَ.

عاقبة عمل العاقل: الجزاء الذي يكون بعده.

والمعنى: فَانظُرُوا بِأَبْصَارِكُمْ وَتَفَكَّرُوا بِعُقُولِكُمْ مُسْتَطَقِينَ الْآثَارَ، سَائِلِينَ سُؤَالَ تَدَبُّرٍ: كَيْفَ كَانَ جَزَاءُ الْمُجْرِمِينَ الْأَوَّلِينَ؟

إِنَّ الْآثَارَ الْمَشْهُودَةَ بِالْأَبْصَارِ، وَالْاِسْتِنْتَاجَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَجْزُمُ بِهَا الْأَفْكَارَ، تُقَدِّمُ لِأُولَى الْأَلْبَابِ الْعِظَةَ وَالاعتبارَ، مُؤَكِّدَةً أَنَّ قَانُونَ الْجِزَاءِ

الرَّبَّانِي حَقٌّ، وَأَنَّ مَا لَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ دَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ فِي حَيَاةٍ أُخْرَى تَكُونُ فِي غَيْرِ هَذِهِ الدَّارِ، هُنَالِكَ يَكُونُ الْخُلُودُ، وَهُنَالِكَ يَكُونُ الْقَرَارُ.

جملة ﴿كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الاستفهامية دَلَّتْ عَلَى مَفْعُولٍ: ﴿فَانْظُرُوا﴾: أي: فَانْظُرُوا مِنْ خِلَالِ الْوَاقِعِ الْجَزَاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ الرَّبُّ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ بِالْمُجْرِمِينَ الْأَوَّلِينَ.

لفظ «المُجْرِمِينَ» أُطْلِقَ فِي الْقُرْآنِ عُنْوَانًا مُقَابِلًا لِلْمُسْلِمِينَ، وَوَصَفًا لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ أَبَدًا، فَهُوَ مُصْطَلَحٌ قُرْآنِيٌّ خُصَّ بِهِ الْكَافِرُونَ.

وَعَقِبَ التَّعْلِيمَ الْإِقْنَاعِيُّ لِلرُّسُولِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ بِشَأْنِ إِنْكَارِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْآخِرَةِ وَقَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، وَجَهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ تَوْجِيهًا تَرْبِيويًا يُوصِيهِ فِيهِ أَنْ لَا يَحْزَنَ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَحْرِصُ عَلَى إِيْمَانِهِمْ لِإِنْقَادِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ خَالِدِينَ فِي جَهَنَّمَ دَارِ قَرَارِ الْمُجْرِمِينَ، وَيُوصِيهِ فِيهِ أَنْ لَا يَحْمِلَ هَمَّ مَا يَمْكُرُهُ أَعْدَاؤُهُ مِنْهُمْ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ. وَأَنْ لَا يَكُونَ فِي ضَيْقٍ نَفْسِيٍّ وَقَلْبِيٍّ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا يُشِيرُ ضِمْنًا إِلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتَوَلَّاهُ، وَيَكْفِيهِ أَمْرَهُمْ، وَيُدْفَعُ عَنْهُ وَعَنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، فَجَاءَ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ:

• ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (٧٠): أَوْ ﴿فِي

ضَيْقٍ﴾:

الْحُزْنُ: مُشَاعِرُ أَلَمٍ فِي النَّفْسِ قَدْ يَطُولُ أَمَدُهُ، بِسَبَبِ قَوَاتٍ مَحْبُوبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فِيهِ، أَوْ بِسَبَبِ مَكْرُوهِ نَازِلٍ، أَوْ مُتَوَقَّعٍ النُّزُولِ.

ضَيْقٍ وَضَيْقٍ: هُمَا بِمَعْنَى الْكَرْبِ أَوْ الْأَلَمِ فِي النَّفْسِ الضَّاعِطِ عَلَيْهَا، مِنْ حُدُوثِ مَكْرُوهِه، أَوْ تَخَوُّفِ حُدُوثِ مَكْرُوهِه.

الْمَكْرُ: تَذْيِيرُ أَمْرٍ فِي خَفَاءٍ، خَيْرًا أَوْ شَرًّا، وَأَهْلُ الْخَيْرِ يُدَبِّرُونَ خَيْرًا، وَأَهْلُ الشَّرِّ يُدَبِّرُونَ شَرًّا.

ظَاهِرٌ أَنَّ التَّوْجِيهَ التَّرْبَوِيَّ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ، يَتَضَمَّنُ وَصِيَّتَيْنِ:

الوصية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَنْ تَحْرِصُ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ لِنَجَاتِهِمْ وَإِنْقَادِهِمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِكَ.

وَنَفَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ تَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ، فَاصْرِفْ نَفْسَكَ وَقَلْبَكَ عَنِ الْحِرْصِ الشَّدِيدِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ.

أَي: فَرَبُّكَ الْخَالِقُ لَهُمْ عَلِيمٌ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ، إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ خَيْرًا، يُسَاعِدُهُمْ عَلَى نَفُوسِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، وَلَوْ فِي حُدُودِ دَرَجَةِ النَّجَاةِ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ لَا خَيْرَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ.

تربية الله لِرَسُولِهِ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ أَنَّ لَا يَحْزَنَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مُعَانِدِينَ:

لَقَدْ تَدَرَّجَتْ تربية الله عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ تَوْصِيَّتِهِ أَنْ لَا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا عِنَادًا وَإِصْرَارًا عَلَى الْبَاطِلِ وَقَدْ جَاءَ هَذَا فِي تِسْعَةِ نصوص.

(١) فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣

نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ:

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾:

أي: فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ (الْمُرَادُ بِهَا هُنَا الرُّوحُ) تَذْهَبُ مِنْ جَسَدِكَ بِالْمَوْتِ، بِسَبَبِ تَوَالِيِ الْحَسَرَاتِ وَشِدَّةِ الْأَحْزَانِ فِيهَا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْكُفْرَ بِمَا أَوْجَبَ رَبُّهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ إِيْمَانٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ يُرْضِيهِ، دُونَ أَنْ تَكْفَهَا بِالتَّسْلِيمِ التَّامِّ لِلَّهِ فِي تَذِيبَاتِ كَوْنِهِ، وَالتَّسْلِيمِ التَّامِّ لِحُكْمِهِ فِي قَدَرِهِ وَقَضَائِهِ وَتَصَارِفِهِ فِي عِبَادِهِ.

وَقَدْ سَبَقَ تَدْبِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي مَوْضِعِهَا مِنْ سُورَةِ (فاطر).

وَنُلَاحِظُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْصَى رَسُولَهُ بِأَنْ لَا يَحْزَنَ حُزْنًا شَدِيدًا مُمِيتًا بِحَسَبِ نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْحُزَنِ الْقَاتِلِ لَا يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَنِ الْحُزَنِ غَيْرِ الْقَاتِلِ.

(٢) ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦)

مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿لَكَ بِنِعْمَةِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾﴾

فَأَوْصَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَسْلُوبٍ لَا نَهْيٍ فِيهِ، وَلَكِنْ فِيهِ رَائِحَةُ الْاسْتِفْهَامِ الْعَتَابِيِّ، مَعَ التَّوْجِيهِ الْمَشْدَّدِ أَنَّ لَا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِ خَوْفِهِ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.

وَالْمَعْنَى: أَلَّا تُشْفِقَ عَلَى نَفْسِكَ يَا مُحَمَّدٌ، مِنْ أَنْ تُعَرِّضَهَا دُونَ شُعُورٍ مِنْكَ لِقَتْلِ سَرِيعٍ بِسَبَبِ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحُزْنِ، مِنْ أَجْلِ قَوْمٍ لَمْ يُشْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمُ الَّذِي أَوْعَدَهُمْ بِهِ؟!

وَيُظْهِرُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ خَفَّفَ مِنْ حُزْنِهِ عَلَيْهِمْ، طَاعَةً لِرَبِّهِ فِي الْوَصِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي سُورَةِ (فاطر) إِلَّا أَنَّ حُزْنَهُ مَا زَالَ شَدِيدًا يُعَاوِذُهُ أَنَا فَنَاءً بِشِدَّةِ، إِلَّا أَنَّ آيَةَ (الشعراء) لَمْ تَنْهَ عَنِ كُلِّ الْحُزْنِ أَيْضًا، بَلْ عَنِ شَدِيدِهِ الْقَاتِلِ اِحْتِمَالًا قِتْلًا سَرِيعًا.

وقد سبق تدبر هذه الآية في موضعها من سورة (الشعراء).

(٣) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي سُوْرَةِ (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ...﴾ (٧٠)

فأوصاه بهذا النهي أَنْ لَا يَحْزَنْ عَلَيْهِمْ حُزْنًا مَّا، فَهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِأَنْ يَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.

(٤) وَاسْتَبَعَدَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ فِكْرِهِ وَنَفْسِهِ كُلِّ بَوَاعِثِ الْحُزَنِ، لِكِنْ بَقِيَتْ لَدَيْهِ بَقَايَا مِنَ الْحُزَنِ عَلَى بَعْضِ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَالِ وَالسُّلْطَانِ، إِذْ كَانَ يَرَى أَنْ إِيْمَانَهُمْ وَإِسْلَامَهُمْ يَجْرُ إِلَى الْإِيْمَانِ وَالْإِسْلَامِ أَتْبَاعَهُمُ الْكَثِيرِينَ مِنْ قَوْمِهِ، فَكَانَ هَذَا دَافِعًا يُبْقِي لَدَيْهِ بَقَايَا مِنَ الْحُزَنِ، حِرْصًا عَلَى إِسْلَامِ أَتْبَاعِهِمُ الْكَثِيرِينَ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فِي سُوْرَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١)

فَدَلَّتْ عِبَارَةٌ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ عَلَى أَنَّهُمْ مِنْ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ، ذَوِي الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْأَنْصَارِ وَالْأَتْبَاعِ.

وَكُلُّ دَارِسٍ لِسِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ يُدْرِكُ أَنَّهُ قَدْ كَانَ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَى إِيْمَانِ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَإِسْلَامِهِمْ، إِذْ يُسْلِمُ بِإِسْلَامِهِمْ أَتْبَاعُهُمْ وَأَنْصَارُهُمْ وَكَثِيرٌ آخَرُونَ مِنْ قَوْمِهِ، فَحُزْنُ الرَّسُولِ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ مِنْ أَجْلِ انْتِشَارِ الدِّينِ، لَا مِنْ أَجْلِ أَشْخَاصٍ هَؤُلَاءِ الْكُبَرَاءِ الْمَعَانِدِينَ.

وَمِنْ خِلَالِ هَذَا التَّصَوُّرِ نُدْرِكُ الْغَرَضَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ إِيْنَانُ نَزُولِ سُوْرَةِ (الحجر): ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

إِنَّ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ لَيْسَتْ تَكْرِيراً تَطَابُقِيّاً لِمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (النمل) بَلْ هِيَ مُوجَّهَةٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَمْرٍ غَيْرِ الْأَمْرِ الَّذِي ذُكِّرَ عَلَيْهِ آيَةُ (النمل) أَخْذاً مِنْ سِبَاقِ آيَةِ (الحجر) وَسِبَاقِهَا.

(٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَصّاً مُوجَّهاً لِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ بِخُطَابٍ إِفْرَادِيٍّ فِيمَا أَرَى، يُوصِي فِيهِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا فَرْداً فَرْداً أَنْ لَا يَحْزَنُهُ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ مَعَهُمَا كَانَ شَأْنُهُ، لِأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا حَيَاةُ ابْتِلَاءٍ لِكُلِّ فَرْدٍ وَضَعَهُ اللَّهُ فِيهَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، وَالْمَوْضُوعَ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ هُوَ الْمَسْئُولُ الْوَحِيدُ عَنْ نَفْسِهِ، فَإِذَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ تَرْكُهُ اللَّهَ وَاخْتِيَارَهُ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتْرَكُوهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَلَا يَحْزَنُوهُمْ كُفْرُهُ.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (لُقْمَان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ...﴾ (١٣)

أَي: وَمَنْ كَفَرَ كُفْراً عِنَادِيّاً بِاخْتِيَارِهِ الْحَرَّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ الْحَقَّ، فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ، لِأَنَّهُ كَشَفَ بِالْامْتِحَانِ عَنْ هُويَّةِ نَفْسِهِ الْمُجْرِمَةِ، وَالْمَكَانَ الْمُعَدَّ لَهُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ جَزَاءَ كُفْرِهِ الْإِرَادِيَّ الْعِنَادِي دَارَ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

(٦) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ (الْكَهْفِ/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) خُطَاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ قَوْلُهُ بِشَأْنِ الَّذِينَ قَالُوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمُ النَّصَارَى الَّذِينَ جَعَلُوا عِيسَى ابْنًا لِلَّهِ، وَيُلْحَقُ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوءاً كَبِيراً.

﴿فَلَمَّا كَبِخَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَنَا لِنَبْلُوَهُمْ أَهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

فَأَضَافَ هَذَا النَّصُّ بَيَانَ قَضِيَّتَيْنِ:

القضية الأولى: حُزنُ الرُّسُولِ مِنْ أَجْلِ رَافِضِيِ الْحَقِّ مِنَ النَّصَارَى،
بَدَلِيلٍ مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ السُّورَةِ، فَلَيْسَ أَمْرُ حُزْنِ الرُّسُولِ
مُقْتَصِرًا عَلَى قَوْمِهِ.

القضية الثانية: التَّذْكِيرُ بِحِكْمَةِ ابْتِلَاءِ النَّاسِ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ كَشَفُ مَا فِي النَّفُوسِ مِنْ إِرَادَاتٍ خَيْرٍ أَوْ
شَرٍّ، تَمْهِيدًا لِلْجَزَاءِ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالْفَضْلِ، وَمُقْتَضَى هَذَا أَنْ لَا يَحْزَنَ عَاقِلٌ
عَلَى كُفْرِ كَافِرٍ مُعَانِدٍ يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ الْكُفْرَ بِإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ، مُعَانِدًا رَبَّهُ الَّذِي
خَلَقَهُ، وَجَعَلَهُ إِنْسَانًا مَفْضُلًا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّا خَلَقَ لِيَبْلُوَهُ، فَإِذَا آمَنَ وَأُسْلِمَ
اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ دَارِ النِّعَمِ بِفَضْلِ اللَّهِ، وَإِذَا كَفَرَ وَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ
اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْعَذَابِ بِعَدْلِ اللَّهِ.

(٧) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَاتٍ مَدِينِيَّةَ ضُمَّتْ إِلَى آخِرِ سُورَةِ
(النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزل) المكيَّةَ لِمُرَاعَاةِ اقْتِضَاءَيْنِ:

- (١) اقْتِضَاءُ فِكْرِيٍّ اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ ضَمَّهَا إِلَى آخِرِ سُورَةِ (النحل).
- (٢) واقْتِضَاءُ حَرَكِيٍّ اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ إِنْزَالَهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي أُنْزِلَتْ
فِيهِ، فِي الْعَهْدِ الْمَدْنِيِّ.

وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِلصَّابِرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي
صَبَقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٦٨﴾﴾.

دَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ يَتَعَرَّضُونَ لِصُورٍ مِنْ أَدَى
الْكَافِرِينَ وَاضْطِهَادِهِمْ عِقَابًا لَهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ، إِذْ خَالَفُوا دِينَ
قَوْمِهِمْ وَخَرَجُوا عَنْ جَمَاعَتِهِمْ.

فَأَوْصَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَمَكَّنُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ وَظَفَرُوا بِهِمْ أَنْ يُكُونُوا عَادِلِينَ، فَيُعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبُوا بِهِ دُونَ زِيَادَةٍ، وَرَغَبُهُمْ بِأَنْ يَضْرِبُوا فَلَا يُعَاقِبُوا، لِيُقَدِّمُوا أَحْسَنَ الْأَمْثَلَةِ عَنْ مُعَامَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ لظَالِمِيهِمْ، وَفِي هَذَا دَعْوَةٌ عَمَلِيَّةٌ صَامِتَةٌ لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ مَسَّ نَفْسَهُ شَيْءٌ مِنَ الْحُزَنِ، مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ قُتِلُوا وَهُمْ كَافِرُونَ فِي بَدْرِ، مِنْ عَقْلَاءِ قَوْمِهِ، وَذَوِي الْحِكْمَةِ، وَالرَّأْيِ فِيهِمْ، وَكَانَ ﷺ شَدِيدَ الرِّغْبَةِ فِي أَنْ يُكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ لِيُعِزَّ اللَّهُ بِهِمُ الْإِسْلَامَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: أَي: لَوْ كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ خَيْرٌ كَمَا تَظُنُّ فِيهِمْ، لِأَلْهَمَهُمْ رَبُّكَ الرُّشْدَ، وَلَآمَنُوا وَأَسْلَمُوا وَلَوْ قُبِيلَ أَنْ يُقْتُلُوا.

وَدَلَّتْ عِبَارَةٌ: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ عَلَى أَنَّهُ مَا زَالَ فِي مَكَّةَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ بَدْرِ أَعْدَاءُ يَمْكُرُونَ مَكْرًا شَدِيدًا، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَتَوَلَّيَهُ وَنَاصَرَهُ. وَقَدْ ظَهَرَ مَكْرُهُمْ هَذَا فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، ثُمَّ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ.

(٨) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَائِلِ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

﴿وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا...﴾ ﴿١٧١﴾

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ هَذَا النَّصَّ نَزَلَ فِي الْمَنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَظَاهَرُونَ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ، إِلَّا أَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يُسَارِعُونَ فِي سُبُلِ الْكُفْرِ، لَا أَنَّهُمْ مُجَرَّدُ عُصَاةٍ.

سَارَعَ فِي كَذَابٍ: أَي: أَسْرَعَ بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ.

وَسُلُوكُ هَذَا الصَّنَفِ مِنَ النَّاسِ يُحْزِنُ الرَّسُولَ وَالصَّادِقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّهُ يُحْدِثُ خَلَلًا فِي صُفُوفِهِمْ، وَتَوَجُّسًا مِنْ تَعَاظُمِ نَوَامِي الشَّرِّ وَالْفَسَادِ فِي جَمَاعَتِهِمْ.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ وَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ صَادِقِ الْإِيمَانِ: ﴿وَلَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنِ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أَي: لَنِ يَضُرُّوا الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ، وَلَنِ يُؤْثِرُوا عَلَى مَسِيرَةِ الْإِسْلَامِ الْحَقِّ وَانْتِشَارِهِ، فَمِنْ شَأْنِ كُلِّ جَمَاعَةٍ حَقٌّ أَنْ يُوجَدَ فِيهَا مُتَشَكِّكُونَ وَمُرْتَدُّونَ.

(٩) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ بِشَأْنِ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ:

﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ...﴾ ﴿١١﴾

فَدَلَّتْ صِبْغَةُ هَذِهِ الْآيَةِ الصَّرِيحَةِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِينَ، عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا جَاءَ فِي آيَةِ (آل عمران) السَّابِقَةِ الْمُنَافِقُونَ أَيْضًا.

عَلَى أَنَّ الْمُسَارَعَةَ فِي السُّبُلِ الْمُوصِلَةِ إِلَى الْكُفْرِ الصَّرِيحِ الْمَعْلَنِ، إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى دَرَكَاتِهِمْ، لَا مِنَ الْكَافِرِينَ الْمَجَاهِرِينَ بِكُفْرِهِمْ، وَلَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِي إِيْمَانِهِمْ.

وهكذا ظهر لنا تكامل النصوص حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ.



الوصية الثانية: (في الآية ٧٠ من سورة النمل) دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خُطَاباً لِرَسُولِهِ: ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وَفِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى: [فِي ضَيْقٍ] وَالْمَعْنَى فِيهِمَا وَاحِدٌ، فَالْقِرَاءَتَانِ لِقَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ فِي كَلِمَةِ «ضَيْقٍ».

إِنَّ مِنْ طَبِيعَةِ فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ أَعْدَاءَهُ يَمْكُرُونَ ضِدَّهُ، وَضِدَّ أَصْحَابِهِ وَأَنْصَارِهِ، أَنْ تُحِيطَ بِجَوَانِبِ نَفْسِهِ الْهُمُومُ وَالْعُيُومُ، وَأَنْ تَتَوَارَدَ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى قَلْبِهِ الْأَفْكَارُ التَّدْبِيرِيَّةُ لِاتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ الْمَضَادَّةِ لِمَا

يَمْكُرُهُ أَعدَاؤُهُ، طَلَبًا لِلأَمْنِ والحماية، وَرَدَّ مَكْرَ أَعدَائِهِ إِلَى نُحُورِهِمْ.

وهذه الأمور الدَّاخلِيَّةُ تُشَكِّلُ مَا يُشَبِّهُ الْجَزَامَ الضَّاعِطَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّاخلِ، فَيَشْعُرُ بِضَيْقٍ دَاخلِيٍّ يَضْغُطُ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَدْ يَصِلُ إِلَى قَلْبِهِ، فَإِلَى عُمُقِ قُوَّادِهِ، إِذْ يُحَسُّ بِأَنَّهُ مُحَاصَرٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَا يَنْفَرِجُ عَنْهُ هَذَا الضَّيْقُ إِلَّا إِذَا أَحَسَّ بِالأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ، وَاطْمَأَنَّ إِلَى أَنَّ مَكْرَ عَدُوِّهِ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ.

وَأَعْظَمُ مَا يُفْرِغُ عَلَى النَّفْسِ وَالْقَلْبِ الأَمْنُ وَالطَّمَأْنِينَةُ، أَنْ يَأْتِيَهُ عِلْمٌ مِنَ اللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، بِأَنَّهُ حَامِيهِ وَحَافِظُهُ، وَرَادُّ عَنْهُ مَكْرَ عَدُوِّهِ، وَمُخْبِطُ كَيْدِهِ.

وقولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يَدُلُّ بِأَسْلُوبِ الكِنَايَةِ عَلَى أَنَّهُ حَامِيهِ وَحَافِظُهُ وَرَادُّ عَنْهُ كَيْدَ أَعدَائِهِ، فَلْيَكُنْ مُطْمَئِنًّا مِنْ أَمْرِهِ، فَاللَّهُ نَاصِرُهُ.

هذا التَّأْمِينُ الرَّبَّانِيُّ يُبْعِدُ عَنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ كُلَّ ضَيْقٍ مَهْمًا كَانَ شَدِيدًا، لِأَنَّهُ تَأْمِينٌ مِنْ عَلِيمٍ حَكِيمٍ قَدِيرٍ، لَا يُعْجِزُهُ مُمَكِّنُ الْإِبْجَادِ، قَوْلُهُ حَقٌّ وَوَعْدُهُ صِدْقٌ، إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ.

وهذه الوصِيَّةُ التَّأْمِينِيَّةُ قَدْ أَوْصَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا رَسُولَهُ فِي أَوَائِلِ الْعَهْدِ الْمَدْنِيِّ، وَهِيَ فِي النَّصِّ الْمَدْنِيِّ الْمَضْمُونِ إِلَى سُورَةِ (النَّحْلِ) الْمَكِّيَّةِ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ أَصْحَابَ هَذَا الْمَكْرِ أَعدَاءَ مَكِّيُّونَ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْآيَةِ (١٢٧) مِنْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿... وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ: [فِي ضَيْقٍ] كَمَا قَرَأَ فِي نَظِيرِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ فِي سُورَةِ (النمل).

ومعلومٌ أَنَّ مَكْرَ أَعدَائِهِ الْمَكِّيِّينَ بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ قَدْ كَانَ إِعْدَادًا لِقِتَالِ حَرْبِيٍّ فِي غَزَوَاتٍ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ بِهِمْ قَاصِمَةٌ ظَهَرَ، فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٦﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

وَجَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِخْفَاءَ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا إِنَّهَا ظُرُوفُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، تَعَلَّةٌ يَتَذَرَعُونَ بِهَا لِإِنْكَارِ الْآخِرَةِ، وَلِإِنْكَارِ قَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ كُلِّهِ.

فَصَارُوا يَقُولُونَ مُكْرِرِينَ: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ عَدَمَ تَحْدِيدِ زَمَنِ قِيَامِ السَّاعَةِ الَّذِي لَمْ يُطْلِعِ اللَّهُ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، دَلِيلٌ عَلَى كَذِبِ نَبِيِّ الْقِيَامَةِ، وَنَبِيِّ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ كُلِّهِ.

وصاروا يوجهون هذا القول لأفراد المؤمنين وجماعاتهم لفتنتهم عن دينهم، دَلَّتْ عَلَى هَذَا آيَةٌ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

الواو في أول الآية تغطف على عبارة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الآية (٦٧).

وعبارة ﴿يَقُولُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارع دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُكَرِّرُونَ هَذَا الْقَوْلَ الدَّرَائِعِيَّ، لِأَنَّ هَذِهِ الصِّيغَةَ تَدُلُّ عَلَى التَّكَرُّارِ وَالتَّجَدُّدِ كَمَا يَقُولُ الْبَلَاغِيُّونَ.

والمشار إليه بِعِبَارَةٍ ﴿هَذَا الْوَعْدُ﴾ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَأْتِي قِيَامُ السَّاعَةِ فِي أَوَّلَى مَرَاكِحِهِ، وَمَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ جَزَاءٍ رَبَّانِيٍّ بِالْعَدْلِ أَوْ بِالْفَضْلِ، وَهَذَا الْجَزَاءُ هُوَ الَّذِي يُكَذَّبُونَ بِهِ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ.

وعبارة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَافِرِينَ يُكَذِّبُونَ نَبِيَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَبِالْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ كُلِّهِ مُعَجِّلِهِ فِي الدُّنْيَا وَمُؤَجِّلِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، إِذْ

جَاءَ فِي الْعِبَارَةِ حَرْفُ الشَّرْطِ «إِنْ» الَّذِي يَدْخُلُ عَلَى الْمَشْكُوكِ فِيهِ، أَوْ عَلَى مَا يَعْتَقَدُ الْمَتَكَلِّمُ كَذِبَهُ، إِلَّا أَنَّهُ يُلْطَفُ عِبَارَتُهُ مُجَامَلَةً لِمَنْ يُخَاطَبُهُ، وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مُجَرَّدِ التَّغْلِيْقِ الشَّرْطِيِّ، دُونَ النَّظَرِ إِلَى مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، مَشْكُوكًا فِيهِ أَمْ غَيْرَ مَشْكُوكٍ فِيهِ.

فجاء الجوابُ التَّعْلِيمِيُّ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ مَدَافِعٍ عَنِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَصْحَابِهِ يَوْمئِذٍ، بِالتَّوْجِيهِ الْإِفْرَادِيِّ:
فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٦):

﴿قُلْ﴾: فَعَلَ أَمْرٍ تَعْلِيمِيٍّ.

﴿عَسَى﴾: فِعْلٌ جَامِدٌ غَيْرُ مُتَصَرِّفٍ، مَعْنَاهُ تَوَقُّعُ حُصُولِ الشَّيْءِ مُسْتَقْبَلًا، مَعَ رَجَاءٍ رُجْحَانِ الْوُقُوعِ.

وَقَدْ تَأْتِي بِمَعْنَى اخْتِمَالِ وَقُوعِ الشَّيْءِ دُونَ رُجْحَانٍ، وَمِنْهُ: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾.

﴿رَدِفٌ لَكُمْ﴾: يُقَالُ لُغَةً: «رَدِفَهُ، وَرَدِفَ لَهُ، يَرْدِفُهُ رَدْفًا» أَي: دَهَمَهُ، وَفَاجَأَهُ، وَغَشِيَهُ، دُونَ تَرَقُّبٍ وَلَا تَوَقُّعٍ.

أَصْلُ مَادَّةِ كَلِمَةِ «رَدِفَ» يَدُورُ حَوْلَ مَعْنَى: «تَبَعَ».

فَالْمَعْنَى: نَتَوَقَّعُ بِرُجْحَانٍ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ مَا تَسْتَعْجِلُونَ مِنَ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، قَدْ تَمَّ بِهِ قَضَاءُ اللَّهِ وَقَدْرُهُ، فَقَدْ يُدَاهِمُكُمْ وَيُفَاجِئُكُمْ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ، سُكَارَى فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاكُمْ وَأَهْوَاكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ وَاسْتِكْبَارَاتِكُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَأَسْتَعْمِلَ الْفِعْلَ الْمَاضِي: ﴿رَدِفَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُرْبِ الْوُقُوعِ قُرْبًا نَسْبِيًّا، يُبْلَاغُ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي مَجَارِي مَقَادِيرِهِ، لِتَغْيِيرِ بَعْضِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ،

جَزَاءَ عَلَى السَّيِّئَاتِ، أَوْ جَزَاءَ عَلَى الْحَسَنَاتِ، وَالسَّنَوَاتُ الْمَعْدُودَاتُ زَمَنٌ قَلِيلٌ وَأَجْلُهَا قَرِيبٌ، بِالنِّسْبَةِ إِلَى إِنْزَالِ عِقَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، أَوْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى نَصْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِتْنَةً عَلَى فِتْنَةٍ، فَبَعْدَ سَنَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ نَزَلَ بِمُشْرِكِي مَكَّةَ مَا يَكْرَهُونَ.

أَمَّا نَحْنُ: «قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ» فَقُرْبُ قِيَامِهَا فِعْلًا يُلَاقِئُ حَالَهَا، وَيُعَدُّ الزَّمَنُ بِالثَّوَانِي.

وَجَاءَتْ عِبَارَةٌ: ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾: مُلَائِمَةٌ لِمَا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ إِنْكَارِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ كُلِّهِ، إِذْ أَغْرَاهُمْ إِمْهَالُ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى وَفْقِ سُنَّتِهِ بِعِبَادِهِ، فَتَوَهَّمُوا أَنَّ الْوَعِيدَ بِالْعِقَابِ الرَّبَّانِيِّ لَهُمْ إِذَا أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَعَيْدٌ كَاذِبٌ، فَتَمَادَوْا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَمُعَانَدَةٍ لِلْحَقِّ، وَمَعَادَاةٍ لِلرُّسُولِ وَلِدَعْوَتِهِ، وَاضْطَهَادٍ لَضَعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَكَذَلِكَ فَعَلَ كُفَّارُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ سَائِرُ الْكُفَّارِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٦).

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ إِمْهَالَ اللَّهِ لِلْكَافِرِينَ الْمَجْرِمِينَ مِنْ عِبَادِهِ، دَاخِلٌ فِي عُمُومِ فَضْلِهِ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا، فَهُوَ لَا يُتَّبَعُ جَرَائِمُهُمْ بِعُقُوبَاتِهِ، تَفْضُلًا مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْهِمْ، لِيَتْرَكَ لَهُمْ زَمَانًا طَوِيلًا يُرَاجِعُونَ فِيهِ نَفْسَهُمْ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبَ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُسْتَعِدٌّ مِنْ أَعْمَاقِهِ لِلتَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ وَالرُّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ، حَتَّى إِذَا وَصَلُوا إِلَى دَرَكَةِ مَيُوسٍ مَعَهَا مِنْ إِيْمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، أَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

وَلَٰكِنْ مَعَ هَذَا التَّفَضُّلِ مِنَ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ، وَمِنْهُ التَّفَضُّلُ الْإِمْهَالِيُّ لِلْعَصَاةِ وَالْمَجْرِمِينَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُقَابِلُونَ تَفَضُّلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِالشُّكْرِ،

وَلَوْ مِنْ أَذْنَىٰ دَرَجَاتِ الشُّكْرِ، وَهِيَ دَرَجَةُ الْإِيمَانِ بِهِ وَالْإِسْلَامِ لَهُ.

الفضل: هو في الأضل الزيادة، والْبَقِيَّةُ مِنَ الشَّيْءِ، وَاسْتَعْمَلَ بِمَعْنَى الْإِبْتِدَاءِ بِالْإِحْسَانِ وَالْعَطَاءِ مِنَ الْخَيْرِ مَا دُبَّيًّا أَمْ مَعْنَوِيًّا، وَقَدْ اشْتَهَرَ بِهَذَا الْمَعْنَى.

الشكر: مقابلةً إِنْْعَامِ الْمُنْعَمِ بِمَا يُرْضِيهِ.

وجاء في هذا البيان التوكيدُ بالمؤكدات: «إِنَّ - والجملة الاسمية - وَاللَّامُ الْمُحَلِّقَةُ» مع أَنَّ تَوْجِيهِ الْخُطَابِ فِيهِ لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي لَيْسَ لَدَيْهِ شَكٌّ فِيمَا جَاءَ فِيهِ لِعَرَضَيْنِ:

الأول: تَعْلِيمُ الْمُؤْمِنِ فِي بَيَانِهِ لِلْمَفَاهِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَنَّ يُوجِّهَ إِقْنَاعَهُ لِلْآخِرِينَ بِأَسْلُوبِ الْمُتَحَقِّقِ مِمَّا يَقُولُ، وَالْمُؤَكَّدِ لَهُ، لَا بِأَسْلُوبِ الْمُتَلَجِّلِ غَيْرِ الْوَائِقِ مِمَّا يَقُولُ:

الثاني: إِسْمَاعُ الْكَافِرِينَ دُونَ مُوَاجَهَتِهِمْ بِالْخُطَابِ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُؤَكِّدُ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْبَيَانِ لِلرُّسُولِ وَلِكُلِّ مُخَاطَبٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، إِعْلَامًا بِأَنَّهُ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَعَلَمٌ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۖ﴾ (٧٤).

﴿مَا تُكِنُّ﴾: أَي: مَا تَسْتُرُ. يَقَالُ لُغَةً: «كَنَّ الشَّيْءَ يَكْنُهُ كَنًّا. وَأَكْنَهُ يُكْنُهُ» أَي: سَتَرَهُ.

﴿صُدُورُهُمْ﴾: أَي: صُدُورُ النَّاسِ جَمِيعًا، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ الْكَافِرُونَ الْمُتَحَدِّثُونَ عَنْهُمْ فِي آيَاتٍ سَابِقَاتٍ.

وَنَفْهَمُ مِنَ الْقَرَائِنِ أَنَّ مَا يُخْفِيهِ وَيَسْتُرُهُ الْكَافِرُونَ فِي صُدُورِهِمْ وَلَا يُعْلِنُونَهُ، عِدَّةُ أُمُورٍ مِنْهَا مَا يَلِي:

(١) مَكْرُهُمُ الَّذِي يَمْكُرُونَهُ ضِدَّ الرُّسُولِ ﷺ ودَعْوَتِهِ، وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

(٢) كَرَاهِيَّتُهُمُ الشَّدِيدَةُ لِهَذَا الدِّينِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ، وَتَخَوُّفُهُمْ مِنْ انْتِشَارِهِ عَلَى زَعَامَاتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ.

(٣) تَلَهُفُهُمْ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الرُّسُولِ ﷺ، وَتَرَبُّصُهُمْ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ.

(٤) اسْتِكْبَارُهُمْ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

ولكلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ أَشْيَاءٌ يُخْفِيهَا فِي صَدْرِهِ حَتَّى عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ. وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ - عَلِيمٌ بِكُلِّ ذَلِكَ، لَا يُخْفَى عَلَيْهِ مِمَّا يَكْتُمُونَهُ وَيَسْتُرُونَهُ شَيْءٌ.

وَجَاءَتْ عِبَارَةٌ: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ لِبَيَانِ اسْتَفْصَاءِ مَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ، وَلِدَفْعِ تَوَهُمٍ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ صُدُورُ النَّاسِ وَلَا يَعْبَأُ بِمَا يُعْلِنُونَ، مَعَ مَا فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ فِي آخِرِ آيَتِهَا مِنْ تَنَاطُرٍ جَمِيلٍ مَعَ مَا جَاءَ فِي آوَاخِرِ الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ وَاللَّاحِقَاتِ: [تَسْتَعْجِلُونَ - لَا يَشْكُرُونَ - وَمَا يُعْلِنُونَ - فِي كِتَابٍ مُبِينٍ].

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَمَا مِنْ غَائِبٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٧٥).

بَعْدَ بَيَانِ قَضِيَّةِ شُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ مَا يُعْلِنُهُ النَّاسُ وَمَا يُخْفُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، الَّذِي هُوَ أَخْفَى الْخَفَايَا، وَيَدُلُّ بِاللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ عَلَى شُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ لِكُلِّ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، اقْتَضَتْ الْحِكْمَةَ الْبَيِّنِيَّةَ الْإِعْلَامَ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ غَائِبٍ أَوْ مَشْهُودٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُسَجَّلٌ مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَاضِحٍ لَا غُمُوضَ وَلَا خَفَاءَ فِيهِ.

وَجَاتِ الْعِبَارَةُ بِأَسْلُوبِ الْحَضَرِ بِالنَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ، أَي: فَمَا مِنْ

مَوْجُودَةٌ فِي الْأَكْوَانِ غَائِبَةٌ عَنِ إِدْرَاكِ الْخَلَائِقِ أَوْ مَشْهُودَةٌ إِلَّا هِيَ مَعْلُومَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُدَوَّنَةٌ وَمُسَجَّلَةٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

﴿مُبِينٍ﴾: اسم فاعل من فعل «أَبَانَ» اللّازم بمعنى ظَهَرَ ووضَحَ، ومن فعل «أَبَانَ» المتعدي بمعنى أَظْهَرَ وأَوْضَحَ.

وَقَدْ كَشَفَتْ لَنَا الْوَسَائِلُ الْحَدِيثَةُ الْإِلِكْتُرُونِيَّةُ الَّتِي تُسَجِّلُ الْمَعْلُومَاتِ، طَرَائِقَ لَتَدْوِينِ الْعِلُومِ وَالْمَعَارِفِ إِلِيْكَتْرُونِيًّا، لَا تَعْتَمِدُ عَلَى الْأَقْلَامِ وَالْأَوْرَاقِ، وَتُسَجِّلُ مَكْتَبَةً كَامِلَةً فِي فُرْصِ وَزْنِهِ أَقَلَّ مِنْ عَشْرَةِ غَرَامَاتٍ، وَهِيَ ذَاتُ دِقَّةٍ وَإِبَانَةٍ عَجِيبَةٍ تَظْهَرُ مُدَوَّنَاتُهَا عَلَى شَاشَةٍ تَرَاهَا أَعْيُنُ النَّاسِ.

كَلِمَةُ ﴿غَائِبَةٍ﴾ تَشْمَلُ كُلَّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعْلَمَ، إِذْ لَا تُوجَدُ مَعْلُومَةٌ لِبَعْضِ الْخَلَائِقِ إِلَّا هِيَ غَائِبَةٌ عَنِ بَعْضِ آخَرِ مِنْهُمْ، فَتُوصَفُ بِأَنَّهَا غَائِبَةٌ، وَلَا شَيْءَ فِي الْوُجُودِ هُوَ غَائِبٌ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وبهذا تم تدبر الدرس السادس من سورة (النمل) والحمد لله على معونته وتوفيقه وفتحه.



(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (النمل)
الآيات من (٧٦ - ٩٣) وهو الدرس الأخير منها

مقدمة:

وفيه بيان عَنِ الْقُرْآنِ وَتَوْصِيَّاتِ تَرْبِيَّةٍ لِلرُّسُولِ فَلِحَمَلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وفيه بيان عن أحداثٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ هِيَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَأَحْدَاثٍ أُخْرَى هِيَ مِنْ مُشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، وفيه عَرْضُ بَعْضِ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الدَّلَالَاتِ عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ الْمُسْتَلَزِمَةِ لِلْإِلَهِيَّةِ عَقْلًا، أَثْنَاءَ عَرْضِ بَعْضِ

مَا سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ الدُّنْيَا هِيَ الطَّرِيقُ الْمُخْتَارُ لِبُلُوغِ
الْآخِرَةِ، وَنَبِيلٌ مَا أُعِدَّ فِيهَا مِنْ جَزَاءٍ بِالثَّوَابِ أَوْ بِالْعِقَابِ.

وفي خاتمة هذا الدرس تعليم من الله لرسوله ما يقوله لِأَيِّمَةِ كُفَّارِ
مَكَّةَ إِبَّانَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ، فِي مُقَابِلِ مَا يَمْكُرُونَهُ ضِدَّهُ وَضِدَّ دَعْوَتِهِ،
وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
(٧٦) وَإِنَّهُمْ لَمُذَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ
الْمَوْتِ وَلَا تَسْمِعُ الْأَصْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أَمْذَبِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ
إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ
أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ
(٨٢) وَيَوْمَ نَخْسِفُ مِنْ كُلِّ آتَمَةٍ قَوْمًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ
إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَادًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ
الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلًا لِّلنَّاسِ فِيهِ
وَالْهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَنْزِعُ
مِّنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَارِجِينَ (٨٧) وَرَأَى
الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُمْ خَبِيرٌ
بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن مِّنْ فَرَجٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ (٨٩)
وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)
إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنِ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَمْ كُلَّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنِ
أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَمْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ
صَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا
رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾.

القراءات:

(٧٦) • قرأ ابن كثير: [الْقُرْآنَ] بفتح الراء وألف بَعْدَهَا. وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿الْقُرْءَانُ﴾ براء سَاكِنَةً وهمزة مفتوحة فألف مَدِّيَّةً بَعْدَهَا.

(٨٠) • قرأ ابن كثير: [وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾.

وبين القراءتين تَكَامُلٌ في الأداء البياني، أي: هُمْ لَا يَسْمَعُونَ فَأَنْتَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تُسْمِعَهُمْ.

(٨١) • قرأ حمزة: [وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَمَا أَنْتَ يَهْدِي الْعُمْيَ﴾.

والقراءتان من التَّفَنُّنِ في التعبير، ومؤداهما واحد.

(٨٢) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر وأبو جعفر:

[إِنَّ النَّاسَ] بكسر الهمزة، وقرأها باقي القراء العشرة ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ وهما وجهان جائزان. فالكسر على الابتداء، والفتح على تقدير الباء.

(٨٧) • قرأ حفص عن عاصم، وحمزة، وخلف: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ﴾ على

أنه فعل ماضٍ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَكُلُّ أُنثَىٰ] على أَنَّهُ جَمْعُ آتِ اسم فاعل.

وبين القراءتين تَكَامُلٌ في أداء المعنى المراد. فصِيغَةُ اسم الفاعل وَصَفَتْ حَالَهُمْ وهم يَأْتُونَ إلى رَبِّهِمْ، وصِيغَةُ الفعل الماضي وصفت حالهم بَعْدَ تمام حُضُورِهِمْ عند رَبِّهِمْ.

• قرأ ابن عامر، وعاصمٌ وحمزة، وأبو جعفر: ﴿تَحْسَبَهَا﴾ بفتح السين.

وقراها باقي القراء العشرة: [تَحْسِبُهَا] بِكَسْرِ السَّيْنِ، وَهَمَّا وجهان عريان في النطق.

• قرأ ابن كثير، وهشام عن ابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب: [يَفْعَلُونَ] بالياء.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

• قرأ نافع، وأبو جعفر: [مِنْ فَرْعٍ يَوْمِيذٍ] بإضافة «فَرْعٍ» إلى «يَوْمٍ».

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿مِنْ فَرْعٍ يَوْمِيذٍ﴾ بتنوين «فَرْعٍ» ونصب «يَوْمٍ» على الظرفية.

ومؤدّى القراءتين واحد، وهما من التَّفْنُنِ في التعبير.

• قرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿عَمَّا يَفْعَلُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وقراها باقي القراء العشرة: [عَمَّا يَفْعَلُونَ] بياء الغائين.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

وَلَئِنْ لَّمْ يَلْمِزْهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾

هاتان الآيتان موصولتان بما جاء في الدرس الأول من دروس
السورة عن القرآن، فقد جاء فيه:

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

وجاء فيه أيضاً خطاباً للرَّسُول ﷺ:

﴿وَلَنَّا لَنُلْقِيَ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾.

وإذ جاء في الدرس الثاني من دروس السورة حديث موجز عن
موسى عليه السلام، كان من المناسب أن يأتي في الدرس الختامي من
دروس السورة، بيان أن القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه
يختلفون.

• ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: أي: يحدث بني إسرائيل
بحديث صحيح مطابق للحق، مع تتبع الجزئيات التي تقتضي الحكمة
البيانية ذكرها.

تقول لغة: «قَصَصْتُ الشيء، أَقْصُهُ، قَصّاً، وَقَصَصاً» أي: تَبَعْتُ
أثره شيئاً فشيئاً. ويُقال: «قَصَّ عَلَيْهِ الْحَبْرُ»: أي: حَدَّثَهُ بِهِ عَلَى وَجْهِهِ.

• ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: عبارة: ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ تدل على
معنيين:

المعنى الأول: أَنَّهُمْ فِيهِ فَرِيقَانِ فَأَكْثَرُ، وَكُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ مُخَالِفٌ
لِغَيْرِهِ، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ مُوَافِقاً لِمَا يَعْتَقِدُهُ أَوْ يَقُولُهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ،
فَقَدْ يَكُونُ الْحَقُّ شَيْئاً آخَرَ مُخَالِفاً لِجَمِيعِ مَا يَدَّعُونَ.

المعنى الثاني: أَنَّهُمْ جَمِيعاً يَخْتَلِفُونَ فِيهِ مَعَ الْحَقِّ، فَيَقُولُونَ أَقْوَالاً
مُحَرَّفَةً بَاطِلَةً، فِي أُمُورِ الدِّينِ، أَوْ فِي حِكَايَةِ التَّارِيخِ، وَمِنْ كَذِبِهِمْ فِي
التَّارِيخِ ذِكْرُهُمْ أَنَّ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي صَنَعَ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ الَّذِي

عَبْدُوهُ، وَأَبَانَ الْقُرْآنَ أَنَّ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامَ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ اتِّخَاذَهُمُ الْعَجَلِ، وَأَنَّ السَّامِرِيَّ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورَارٌ، وَأَنَّ عُبَادَ الْعِجْلِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَادُوا يَقْتُلُونَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لِأَنَّهُ شَدَّدَ التَّكْبِيرَ عَلَيْهِمْ.

وَدَلَّتْ عِبَارَةٌ: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَقْصُرْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلِّ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ عَنِ الْحَقِّ، بَلْ قَصَّ عَلَيْهِمْ أَكْثَرَهُ.

وَسُكُوتُ الْقُرْآنِ عَمَّا لَمْ يَقْصُصْ عَلَيْهِمْ مُصَحِّحًا فِيهِ بَاطِلُهُمْ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُسْكُوتَ عَنْهُ غَيْرُ ذِي شَأْنٍ فِي أُمُورِ الدِّينِ، كَحِكَايَاتِهِمُ التَّارِيخِيَّةَ غَيْرِ ذَاتِ الْقِيَمَةِ فِي إثْبَاتِ عَقِيدَةٍ أَوْ سُلُوكٍ دِينِيٍّ، أَوْ فِي حَدِيثٍ بَاطِلٍ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِمْ أَوْ نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ، فَهَذِهِ وَأَمْثَالُهَا قَدْ قَصَّ الْقُرْآنُ فِيهَا الْحَقَّ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ مَا عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِمَّا هُوَ مُخَالَفٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ بَاطِلٌ، افْتَرَوْهُ عَمْدًا، أَوْ ذَكَرُوهُ خَطَأً أَوْ جَهْلًا.

الاختلاف: يُرَادُ بِهِ الْمَغَايِرَةُ، وَهَذِهِ قَدْ تَكُونُ عَلَى سَبِيلِ التَّضَادِّ، أَوْ التَّنَاقُضِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ مَا يُسَمَّى عِنْدَ عُلَمَاءِ الْمُنْطِقِ «التَّخَالُفَ» وَالتَّخَالُفَانِ عِنْدَهُمَا هُمَا اللَّذَانِ قَدْ يَجْتَمِعَانِ، وَقَدْ يَرْتَفِعَانِ^(١)، كَالطُّوْلِ وَالسَّوَادِ، أَمَّا التَّقْيِضَانِ فَلَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ، كَالْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، وَأَمَّا الضَّدَّانِ فَلَا يَجْتَمِعَانِ وَقَدْ يَرْتَفِعَانِ كَالسُّجُودِ وَالْقِيَامِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ مَعًا، وَقَدْ يَرْتَفِعَانِ فِي الْجُلُوسِ.

• ﴿وَلَكُمْ لُحْدَى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٦):

الهدى: مَصْدَرُ «هَدَاهُ»، يَهْدِيهِ، هُدًى، وَهْدِيًّا، وَهْدَايَةً، وَهْدِيَّةً أَي: بَيَّنَّ لَهُ وَأَرَشَدَهُ.

وَيُطْلَقُ لَفْظُ: «الْهُدَى» عَلَى الصِّرَاطِ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، وَهُوَ طَرِيقُ الْحَقِّ.

وَيُطْلَقُ لَفْظُ «الْهُدَى» عَلَى إِخْرَاجِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ، وَمِنْ عُمُومِ هَذَا الْإِخْرَاجِ نَفْهَمُ الْإِخْرَاجَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَمِنْ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَمِنَ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ، وَمِنَ الشَّرِّ إِلَى الْخَيْرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

﴿وَرَحْمَةً﴾: أَي: وَالْقُرْآنُ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّاسِ، إِذْ أَبَانَ لَهُمْ صِرَاطَ سَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَصِرَاطَ نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الدِّينِ، وَظَفَرَهُمْ بِالنَّعِيمِ الْخَالِدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، فَهُوَ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ بَعَادِهِ.

رَحْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَهِيَ تَسْتَلْزِمُ الْإِنْعَامَ وَالْإِكْرَامَ وَالْإِحْسَانَ، وَيَكُونُ مِنْ أَثَارِهَا بِحَسَبِ حُكْمَتِهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - الْعَفْوُ وَالْعُفْرَانُ، وَيَكُونُ مِنْ أَثَارِهَا بَيَانُ الدِّينِ الَّذِي تَتَحَقَّقُ بِاتِّبَاعِهِ سَعَادَةُ النَّاسِ.

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: هَذَا قَيْدٌ لِكَوْنِ الْقُرْآنِ هُدًى وَرَحْمَةً. أَي: إِنَّ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ مِنْ كَوْنِ الْقُرْآنِ هُدًى وَرَحْمَةً، هُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا جَاءَ فِيهِ، بَعْدَ اسْتِيفَائِهِمُ الْإِيمَانَ بِكُلِّ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ وَعِنَاصِرِهَا، فَهُمْ يَتَابِعُونَ آيَاتِ الْقُرْآنِ بِالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَدْفَعَهُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، وَعِنْدَئِذٍ يَكُونُ لَهُمْ هُدًى، وَعِنْدَئِذٍ يَسْعَدُونَ بِعَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ.

إِنَّ بَيَانَاتِ الْقُرْآنِ، وَتَعْلِيمَاتِهِ، وَوَصَايَاهُ، تُعَرَّفُ بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَتُوضَّحُ الْمَسَافَةُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُمَا، حَتَّى لَا تَخْتَلِطَ حُدُودُهُمَا، فَلَا يَقَعُ مِنْ يَهْتَدِي بِهِ فِي حَمَاءِ الْبَاطِلِ وَهُوَ يَحْسِبُهُ حَقًّا. وَتُعَرَّفُ بِطَرِيقِي الْخَيْرِ الشَّرِّ، وَطَرِيقِي الْفُجُورِ وَالتَّقْوَى، وَطَرِيقِي الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ، مِنَ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ. وَتُوضَّحُ الْحُدُودَ وَالْفَوَاصِلَ بَيْنَ هَذِهِ الطَّرِيقِ، فَلَا يَقَعُ مَنْ يَهْتَدِي بِهِدْيِ الْقُرْآنِ فِي أَوْحَالِ الشَّرِّ وَالْفُجُورِ وَالْفَسَادِ وَأَوْضَارِهَا وَخَبَائِثِهَا.

فَالْقُرْآنَ كَالطَّبِيبِ النَّاصِحِ الرَّحِيمِ، الَّذِي يُقَدِّمُ نَصَائِحَهُ بِشَأْنِ الْوَقَايَةِ قَبْلَ الْإِصَابَةِ بِالذَّاءِ، وَبِالْعِلَاجِ بَعْدَ الْإِصَابَةِ بِهِ، فَمَنْ عَمِلَ بِهَا رُحِمَ وَسُتِرَ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهَا أَوْ أَذْبَرَ خَابَ وَخَسِرَ.

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ كَتَابِ اللَّهِ الْمَنْزَلِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ عَظِيمٍ لِلنَّاسِ، قَدْ حَرَمُوا نَفْسَهُمْ بِكُفْرِهِمْ بِهِ، وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَنْ اتِّبَاعِ آيَاتِهِ، مِنْ مَنَافِعِ كَوْنِهِ هَدًى، وَمَنَافِعِ كَوْنِهِ رَحْمَةً، وَشَأْنُهُمْ كَشَأْنِ مَنْ يَحْجُبُونَ أَغْنِيَهُمْ عَنِ النُّورِ الْمُبِينِ. أَوْ يَحْتَبِثُونَ فِي الْمَغَارَاتِ حَتَّى تَمُرَّ قَوَافِلُ الْمِيرَةِ الَّتِي تُعْطَى مَجَانًّا لِلسَّائِلِينَ الظَّاهِرِينَ، الْمُعْتَرِفِينَ بِإِنْعَامِ الْمَانِحِينَ.



قول الله عز وجل:

• ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ. وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

هذا بيان من الله عز وجل لِرَسُولِهِ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، ثُمَّ سَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِيهِ طَمَآنَةٌ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، بِشَأْنِ مَا يَمْكُرُهُ أَعْدَاؤُهُ وَأَعْدَاءُ دَعْوَتِهِ وَأَعْدَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ مِنْ تَذِيرَاتٍ فِي الْخَفَاءِ، وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ (٧٠) مِنَ الدَّرْسِ السَّادِسِ، بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿... وَلَا تَكُنْ فِي صَيْقِلٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: أَي: إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي أَرْسَلَكَ، وَالْمُهِمِّنَ عَلَيْكَ، وَالْحَافِظَ لَكَ وَلِدَعْوَتِكَ وَلِأَصْحَابِكَ بِصِفَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ يَقْضِي بَيْنَ أَفْرَادِ أَعْدَائِكَ بِحَسَبِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ عَدَاوَةٍ وَمَكْرِ أَنَا فَنَآ.

فَيَكْفِيكَ قَرِيقًا مِنْهُمْ بِالْمَوْتِ، وَيَرُدُّ قَرِيقًا مِنْهُمْ بِمَا يَشْغَلُهُ بِهِ مِنْ أُمُورِ نَفْسِهِ، وَيُخَبِّطُ أَعْمَالَ قَرِيقٍ مِنْهُمْ، وَيُلْقِي دَوَاعِيَ الْفُرْقَةِ بَيْنَ فُرْقَائِهِمْ حَتَّى لَا

يَجْتَمِعُوا ضِدَّكَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْضِيَّةٍ يَقْضِيهَا بَيْنَ أَفْرَادِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمْ، فَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ.

﴿يَقْضَى﴾: أي: يُبْرِمُ وَيُمْضِي أَحْكَامَهُ الْقَضَائِيَّةَ أَنَا فَأَنَا، وَإِبْرَامُ الْقَضَاءِ يَسْتَلْزِمُ تَنْفِيذَ الْمُقْضَى بِهِ فِي الْأَجَلِ الْمُحَدَّدِ لِتَنْفِيذِهِ، وَحُكْمُ رَبِّكَ حَكِيمٌ دَوَامًا.

أي: فَأَنْتَ وَمَنْ يُهْمُكَ أَمْرُهُمْ مَحْمِيُونَ مَحْفُوظُونَ بِأَقْضِيَّةِ رَبِّكَ الْمَتَابَعَةِ وَالْمُصَاحَبَةِ لِمَا يُدَبِّرُهُ الْكَافِرُونَ أَعْدَاؤُكُمْ وَلِمَا يَمْكُرُونَهُ أَنَا فَأَنَا.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: أي: وَرَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ الْقَدِيرُ عَلَى حِمَايَتِكَ، وَحِمَايَةِ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿الْعَلِيمُ﴾: أي: الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ مَا يَمْكُرُونَهُ وَيُدَبِّرُونَهُ ضِدَّكُمْ، فَهُوَ سَيَكْفِيكَهُمْ مَا تَتَخَوَّفُونَ مِنْهُ.

• ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٧٩): أي: وَإِذْ أَعْلَمْنَاكَ بَأَنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ، وَبِأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ فِي الْوُجُودِ كُلُّهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ الَّذِي اضْطَفَاكَ بِالنُّبُوَّةِ، وَاجْتَبَاكَ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾: أي: إِنَّكَ مُسْتَقَرٌّ عَلَى الْحَقِّ الثَّابِتِ الَّذِي لَا شَيْءَ يَنْقُضُهُ، وَالْمُبِينِ الْوَاضِحِ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ غِشَاوَةٌ وَلَا غَبْشٌ، إِذْ كُلُّ مَا فِي هَذَا الدِّينِ مِنْ قَضَايَا عَقْدِيَّةٍ أَوْ خُلُقِيَّةٍ أَوْ سُلُوكِيَّةٍ، ظَاهِرُ الْحَقِّ إِذَا كَانَ مِنْ قَضَايَا الْحَقِّ، وَظَاهِرُ الْأَقْوَمِيَّةِ إِذَا كَانَ مِنْ قَضَايَا السُّلُوكِ، وَظَاهِرُ الْفَضْلِ وَالْكَمَالِ إِذَا كَانَ مِنْ قَضَايَا الْأَخْلَاقِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُمَكِّنُ وَضْفَهُ بِأَنَّهُ حَقٌّ.

التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ: الْاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ، وَتَفْوِضُ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ وَتَحْقِيقِ الْمَرْغُوبِ فِيهِ إِلَيْهِ، مَعَ الْقِيَامِ بِالْأَسْبَابِ الْمُسْتَطَاعَةِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ طَاعَةً لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، دُونَ تَفْرِيطِ شَيْءٍ مِنْهَا.



قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَتَى بِهَدْيٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَّاتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾: أَطْلَقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَلَى الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِلِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةَ الْكَلَامِيَّةَ إِطْلَاقَيْنِ:

الإطلاق الأول: أَنَّهُمْ مَوْتَى، وهذا الإطلاق يُنَاسِبُ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى حَضِيضِ مُعَادَاةِ الْحَقِّ، وَاسْتَغْرَقُوا فِي أَوْحَالٍ لَدَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الإطلاق الثاني: أَنَّهُمْ صُمٌّ، وهذا الإطلاق يُنَاسِبُ الَّذِينَ هُمْ يَنْحَدِرُونَ إِلَى الْحَضِيضِ، وَلَمْ يَتَلَّغُوا بَعْدُ إِلَى الْاسْتِغْرَاقِ فِي أَوْحَالِهِ. وَأَطْلَقَ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِرُؤْيَا آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ أَنَّهُمْ عُمَى.

أَمَّا إِطْلَاقُ عُنْوَانِ «الْمَوْتَى» فَهُوَ عَلَى تَشْبِيهِ الَّذِينَ أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ بِالْمَوْتَى، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ بِالنُّسْبَةِ إِلَى الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ بِمَثَابَةِ الْقُلُوبِ الْمَيِّتَةِ فَأُطْلِقَ لَفْظُ الْمَوْتَى عَلَيْهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِعَارَةِ.

وَأَمَّا إِطْلَاقُ عُنْوَانِ «الصُّمِّ» فَهُوَ عَلَى تَشْبِيهِ الَّذِينَ أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ بِالصُّمِّ، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ بِالنُّسْبَةِ إِلَى بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَرُسُولِهِ بِمَثَابَةِ الْأَذَانِ الصَّمَاءِ، فَأُطْلِقَ لَفْظُ الصُّمِّ عَلَيْهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِعَارَةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَى دَرَكَةِ الْمَوْتَى.

وَأَمَّا إِطْلَاقُ عُنْوَانِ «الْعُمَى» فَهُوَ عَلَى تَشْبِيهِ الَّذِينَ أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ بِالْعُمَى، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ بِالنُّسْبَةِ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي تُرَى بِالْأَبْصَارِ بِمَثَابَةِ الْأَعْيُنِ الْعُمَيَّاءِ، فَأُطْلِقَ لَفْظُ الْعُمَى عَلَيْهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِعَارَةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إِلَى دَرَكَةِ الْمَوْتَى.

وَفِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ يُعَلِّمُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ رَسُولُهُ فَكَلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، تَوْفِيرَ طَاقَاتٍ مُجَاهِدَاتِهِ فِي دَعْوَتِهِ وَتَوَجُّيْهِهَا لِمَنْ نَقْضِي أَحْوَالُهُمْ أَنَّ اسْتِجَابَتَهُمْ مَظْمُوعٌ فِيهَا، بِاِغْتِبَارِ أَنَّهُمْ مَا زَالُوا فِي أَوَائِلِ تَوَجُّيِهِ الدَّعْوَةَ لَهُمْ، أَوْ دَلَّتِ التَّجْرِبَةُ عَلَى أَنَّ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَاداً مَا لِلتَّفَكُّرِ فِيمَا يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ، وَاسْتِعْدَاداً مَا لِنَقْضِهِمْ حَقَائِقَهُ، وَالِاسْتِمَاعَ إِلَى نَصَائِحِ الدَّاعِي، وَمَوَاعِظِهِ، وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ.

بِخِلَافِ الَّذِينَ دَلَّتِ التَّجَارِبُ الْمُتَكَرِّرَاتُ عَلَى أَنَّهُمْ مَوْتَى الْقُلُوبِ أَوْ ضَمُّهَا أَوْ عُمِّيَّهَا، فَإِنْفَاقُ طَاقَاتِ الْمُجَاهِدَاتِ فِيهِمْ بُغْيَةً هِدَايَتِهِمْ مِنَ التَّبْذِيرِ الَّذِي لَا يَلِيْقُ بِأَهْلِ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ يُدْرِكُونَ أَنَّ بَذْلَ طَاقَاتِهِمْ فِي الْمِيؤُوسِ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ، كَمَنْ يَحْرُثُ فِي الْبَحْرِ، وَيَبْذُرُ فِي السَّبَاحِ.

• ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ﴾: أَيِ اعْلَمَ أَنَّ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى دَرَكَةِ الْمَوْتَى مِمَّنْ تُجَاهِدُهُمْ بِأَقْوَالِكَ وَبَيِّنَاتِكَ طَمَعاً فِي هِدَايَتِهِمْ، فَإِنَّكَ تُنْفِقُ وَقْتَكَ وَطَاقَاتِكَ إِنْفَاقاً تَبْذِيرِيّاً ضَائِعاً، فَمِنْ الْخَيْرِ لَكَ أَنْ تُوجِّهَ مُجَاهَدَتَكَ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَلْغُوا أَنْ يَكُونُوا مِيؤُوساً مِنْهُمْ.

﴿وَلَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ﴾: أَيِ: وَمِثْلُ حَالِ مَوْتَى الْقُلُوبِ، حَالُ صُمِّ الْقُلُوبِ إِذَا نَفَرُوا مِنْ دَعْوَتِكَ وَتَوَلَّوْا عَنْ قَبُولِ مُوَاجَهَتِكَ، وَابْتَعَدُوا مُذْبِرِينَ.

﴿الْكَلِمَةَ﴾: أَيِ: النِّدَاءَ بِأَعْلَى الصَّوْتِ.

﴿إِذَا وَلَّوْا مُذْبِرِينَ﴾: أَيِ: إِذَا أَذْبَرُوا نَائِينَ مُبْتَعِدِينَ، يُقَالُ لُغَةً: «وَلَّى فُلَانٌ» أَيِ: أَذْبَرَ. وَيُقَالُ: «وَلَّى الشَّيْءَ» وَوَلَّى عَنِ الشَّيْءِ أَيِ: جَعَلَ ذُبْرَهُ لَهُ وَنَأَى.

وعبارة ﴿مُذْبِرِينَ﴾: حَالٌ مَوْكَّدَةٌ لِلْعَامِلِ.

وعبارة ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قَيْدٌ لَّازِمٌ، أي: فإذا لَمْ يَصِلِ الصُّمُّ إِلَى دَرَكَةِ الْمُؤَلِّينِ الْمُدْبِرِينَ فَمُجَاهَدَتُهُمْ مَطْلُوبَةٌ، إِذْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدَ إِلَى حَالَةٍ مَيُؤُوسٍ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ مَعَهَا عَنْ طَرِيقِ إِزَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ، إِذِ الْأَصَمُّ الْمُقْبِلُ بَوَجهِهِ قَدْ يَفْهَمُ بِالْإِشَارَاتِ.

• ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ وفي القراءة الأخرى: [وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ].

أي: وَمِثْلُ حَالِ مَوْتَى الْقُلُوبِ، وَصَمِّ الْقُلُوبِ حَالُ عُمَى الْقُلُوبِ، فَحَالُ عُمَى الْقُلُوبِ حَالُ مَيُؤُوسٍ مِنْهَا، فَمَا أَنْتَ بِوَاصِلٍ إِلَى هِدَايَتِهِمْ، وَصَرْفِهِمْ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، وَجَعْلِهِمْ يَسْتَجِيبُونَ لِلْحَقِّ الَّذِي تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، والغرضُ بيانَ عَدَمِ جُذُوى اتِّخَاذِ الوسائلِ البصريةِ لهدايتهم.

ضَمَّنَ لَفْظَ «هَادِي» وَفَعْلُ «تَهْدِي» فِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى، مَعْنَى كُلَّمَا «صَارَفَ» أَوْ فَعَلَ «تَصْرِفَ» فَعْدَى تَغْدِيَّتُهُ بِحَرْفِ «عَنْ» فَجَاءَتِ الْعِبَارَةُ ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أي: وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى صَارِفًا لَهُمْ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ.

الضَّلَالُ وَالضَّلَالَةُ: الضَّيَاعُ فِي مَتَاهَاتِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ، بِسَبَبِ الْإِعْرَاضِ الْإِرَادِيِّ عَنِ الْحَقِّ وَسَبِيلِ الرَّشَادِ، وَعَنْ آيَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَيْهِمَا، اتِّبَاعًا لِلْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالتَّقَالِيدِ الْعَمِيَاءِ، وَالْعَصَبِيَّاتِ الذَّمِيمَاتِ، أَوْ الْاسْتِكْبَارِ، أَوْ الْاسْتِغْرَاقِ فِي مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾: أَيِ مَا تُسْمِعُ إِسْمَاعًا وَاصِلًا إِلَى مَرَاكِزِ الْإِدْرَاكِ الدَّاخِلِيِّ الْمُؤَثِّرِ إِقْنَاعًا وَتَوْجِيهًا لِلسُّلُوكِ، إِلَّا الَّذِينَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ الَّتِي يَتَلَقَّوْنَهَا تَبَاعًا، إِيمَانًا صَحِيحًا صَادِقًا، دَافِعًا إِلَى الطَّاعَةِ وَالسُّلُوكِ الَّذِي يُرْضِي رَبَّهُمْ فِعْلًا أَوْ تَرْكًا.

هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ حَقًّا الْآيَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ تَكَايِيفَ عَمَلِيَّةَ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهَا جَاءَ فِيهَا مُسْلِمِينَ طَائِعِينَ.

وفي العبارة حَضُرٌ بالنفي والاستثناء .

ولدى مُرَاجَعَةِ ما سَبَقَ في نجوم التنزيل، نلاحظُ أَنَّ التوجيهَ الذي دَلَّت عليه هَاتَانِ الْآيَتَانِ (٨٠) و(٨١) عن طريق استخدامِ أُسْلُوبِ الاستعارة القَائِمَةِ عَلَى التَّشْبِيهِ، قَدْ سَبَقَتْهُ نَظَائِرُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ النَّازِلَةِ قَبْلَ سُورَةِ (النَّمْل) مع تغيير في أسلوب التعبير، وَالْعَرَضُ مِنَ الْبَيَانِ واحد، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ صَرِيحَ الدَّلَالَةِ فَقَدْ خَفِيَ الْمَرَادُ عَلَى كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ .



قول الله عز وجل:

• ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢) .

• ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: أَضْلُ مَعْنَى الْوُقُوعِ الشَّقُوطُ مِنْ مَكَانٍ مُّرْتَفِعٍ وَوُضُوعُهُ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، وَوُجُودُهُ فِيهِ، وَلَوْ زَمَنًا قَلِيلًا .

يُقَالُ لُغَةً: «وَقَعَ الشَّيْءُ، يَقَعُ، وَقَعًا، وَوُقُوعًا» أَي: سَقَطَ . وَيُقَالُ: «وَقَعَتِ الدَّأَوَابُ»، أَي: رَبَضَتْ . «وَوَقَّتِ الْإِبِلُ» أَي: بَرَكَتْ . «وَوَقَعَ الطَّيْرُ» أَي: نَزَلَ مِنْ سَمَائِهِ وَوَقَفَ عَلَى أَرْضٍ أَوْ شَجَرٍ .

وَبِالتَّوَسُّعِ اللَّغَوِيِّ مِنَ الْمُدْرَكَاتِ بِالْحَسَنِ إِلَى الْمَعْنَوِيَّاتِ الْمُدْرَكَاتِ بِالْفِكْرِ قَالُوا: «وَقَعَ الْحَقُّ» أَي: ثَبَتَ . وَقَالُوا: «وَقَعَ الْقَوْلُ» أَي: تَحَقَّقَ وَجُودُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ خَبَرٍ عَنْ مَاضٍ أَوْ حَاضِرٍ أَوْ مُسْتَقْبَلٍ . أَوْ تَحَقَّقَ تَنْفِيذُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ مَطْلُوبٍ .

وَالْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ قَدْ يَكُونُ تَعْبِيرًا عَمَّا تَمَّ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ، وَهُوَ:

• إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَمْرًا بِالتَّنْفِيذِ الْآنَتِيِّ، فَالْمَرَادُ بِوُقُوعِهِ تَحَقُّقُ وَجُودِهِ عَلَى وَفْقِ مُرَادِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فِيهِ .

• وإِذَا أَنْ يَكُونَ تَغْيِيرًا عَنْ مَقْضِيٍّ بِهِ، لَهُ أَجَلٌ لِحَقِيقِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَهُوَ قَوْلٌ مُعَلَّقٌ عِنْدَ الْخَطِّ الزَّمَنِيِّ الْمَرْسُومِ عَلَى شَرِيطِ الزَّمَنِ الْقَادِمِ مِنْ غَيْبِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَالسَّاقِطِ فِي عُمُقِ الْمَاضِي، فَإِذَا وَصَلَ هَذَا الْخَطُّ إِلَى الْحَاضِرِ سَقَطَ الْقَوْلُ الْمَعْلُوقُ، فَتَحَقَّقَ تَنْفِيزُ الْمَقْضِيِّ بِهِ إِيجَادًا أَوْ إِعْدَامًا.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: أي: عَلَى الْكَافِرِينَ أَمْثَالِهِمُ الَّذِينَ سَيَكُونُونَ مَوْجُودِينَ فِي الْأَرْضِ إِيَّانَ حُدُوثِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ وَالْقُرُونِ الْقَادِمَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

من أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ أَنْ يُخَاطَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ أَحْفَادُ السَّابِقِينَ، الْمَلْتَزِمِينَ عَقَائِدَ أَجْدَادِهِمُ الْأَوَّلِينَ الْغَابِرِينَ، وَأَنْوَاعَ سُلُوكِهِمْ، كَمَا لَوْ كَانُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ هُمُ الْمَرْتَكِبِينَ لَسِيَّاتٍ وَقَبَائِحَ أَجْدَادِهِمْ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ انْتِمَاءَهُمْ إِلَيْهِمْ انْتِمَاءٌ افْتِخَارٍ وَتَأْيِيدٍ. وَأَنْ يَتَحَدَّثَ عَنِ كَفَّارِ الْقُرُونِ الْقَادِمَةِ بِكَلَامٍ ظَاهِرُهُ الْحَدِيثُ عَنِ الْكُفَّارِ الْمَعَاصِرِينَ، بِاعْتِبَارِ الشَّابِهِ الثَّامِ بَيْنَ الْمَعَاصِرِينَ وَبَيْنَ الْقَادِمِينَ فِي الْقُرُونِ اللَّاحِقَةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَلَوْ كَانَ مُسْتَقْبَلًا بَعِيدًا.

وَوُقُوعُ الْقَوْلِ عَلَى الْكُفَّارِ الْآخِرِينَ إِذَا ظَهَرَ شَيْءٌ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى، يَكُونُ بِإِقْفَالِ بَابِ التَّوْبَةِ وَالْغُفْرَانِ دُونَهُمْ، وَيَكُونُ بَتَلَاخُقِ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالْمَهْلَكَاتِ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ بَقِيَامِ السَّاعَةِ عَلَى شَرِّ خَلْقِ اللَّهِ، إِذْ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَنْاسٍ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ اللَّهُ.

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيُرْسَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيحًا هَيَّئَةَ لَيِّنَةٍ قَبْلَ ذَلِكَ، فَتَمُرُّ تَحْتَ أَبَاطِهِمْ، وَتَقْبِضُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَرْوَاحَهُمْ طَيِّبَةً نَفُوسُهُمْ بِذَلِكَ، كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ.

• ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾:

هَذِهِ الْعِبَارَةُ تُبَيِّنُ إِحْدَى آيَاتِ اللَّهِ الْكُبْرَى الَّتِي سَتَكُونُ قَبْلَ قِيَامِ

السَّاعَةَ، وإِخْدَى أَشْرَاطِ السَّاعَةِ «= علاماتها» الْعُظْمَى وهي إِخْرَاجُ دَابَّةٍ مِنَ الْأَرْضِ، عَلَى صِفَاتٍ مَا مِثَابَهَاتٍ لِمَا لِمَصَفَاتٍ دَوَابِّ الْأَرْضِ غَيْرِ النَّاطِقَةِ، إِلَّا أَنَّهَا نَاطِقَةٌ تُكَلِّمُ النَّاسَ بِلُغَاتِهِمْ.

ما جاء من صحيح في السُّنَّةِ بشأن هذه الدَّابَّةِ:

قال أَبُو كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: وَقَدْ وَرَدَ فِي ذِكْرِ الدَّابَّةِ أَحَادِيثُ وَأَثَارٌ كَثِيرَةٌ، وَأُورِدَ مِنْهَا رَوَايَاتٌ فِيهَا الصَّحِيحُ، وَفِيهَا مَا هُوَ دُونُهُ وَأَخْتَارُ مِنْهَا وَمَنْ كَتَبَ الْحَدِيثَ مَا حُكِمَ عَلَيْهِ بِالصُّحَّةِ، مَعَ التَّجَاوُزِ عَنْ سَرْدِ الْمَكْرَآتِ.

(١) رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَمُسْلِمٌ، وَأَهْلُ السُّنَنِ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالذُّخَانُ، وَالِدَّابَّةُ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَالذِّجَالُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسَفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسَفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسَفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَسُوقُ، أَوْ تَحْشُرُ النَّاسَ، تَبْيِثُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا» قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ وَائِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ نَظِيرَهُ، وَفِي آخِرِهِ «تَحْشُرُ الذَّرَّ وَالنَّمْلَ» صَحَّحَهُ الذَّهَبِيُّ فِي التَّلْخِصِ.

حَيْثُ قَالُوا: أَي: حَيْثُ اسْتَرَاخُوا فِي وَقْتِ الْقِيلُولَةِ نِصْفَ النَّهَارِ.

(٢) وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجَ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا كَانَتْ قَبْلُ صَاحِبَتِهَا فَلَا أُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا».

يُقال لغة: «جَاءَ فِي إِثْرِهِ» أي: جاء عَقْبَهُ.

(٣) وروى مُسْلِمٌ أيضاً عن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتَّةَ: طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مُغْرِبِهَا، وَالذُّخَانَ،
وَالدَّجَالَ، وَالذَّابَّةَ، وَخَاصَّةً أَحَدِكُمْ، وَأَمَرَ الْعَامَّةَ».

وفي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضاً، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا
بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: الدَّجَالَ، وَالذُّخَانَ، وَذَابَّةَ الْأَرْضِ. وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ
مُغْرِبِهَا، وَأَمَرَ الْعَامَّةَ، وَخَوِصَّةً أَحَدِكُمْ».

ولابن ماجه في سُنَنِهِ نَظِيرُهُمَا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وقال الألباني فيه: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتَّةَ: أي: اجعلوا الأعمال الصَّالِحَةَ تَسْبِقُ ظُهُورَ هَذِهِ
الْأَشْرَاطِ السِّتَّةِ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ.

ورِوَايَةٌ «سِتًّا» هِيَ عَلَى تَقْدِيرِ «آيَاتٍ، أَوْ عَلَامَاتٍ».

وَأَمَرَ الْعَامَّةَ: أي: مَا يَتَعَلَّقُ بِصَلَاحِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ فِي دُنْيَاهُ
وآخِرَتِهِ.

خَاصَّةً أَحَدِكُمْ. وَخَوِصَّةً أَحَدِكُمْ: أي: مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي تَخْصُ
صَلَاحَ الْفَرْدِ مِنْكُمْ لِأُمُورِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ.

خَاصَّةُ الْإِنْسَانِ: مَا يَخْصُ بِهِ دُونَ غَيْرِهِ. وَلَفْظُ «خَوِصَّةً» تَصْغِيرُ لَفْظِ
«خَاصَّةً» وَالْمُرَادُ مَا يَتَعَلَّقُ بِخُصُوصِ ذَاتِهِ، مِمَّا لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِيهِ، وَلَا
يَتَعَدَّى نَفْعُهُ إِلَى غَيْرِهِ.

ولم أفهم إِذْخَالَ هَٰذَيْنِ فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ظُهُورُ الْإِنَانِيَةِ
وَتَفَكُّكَ أَمْرَ الْعَامَةِ.

(٤) وروى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثُ

إِذَا خَرَجْنَ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا لِّمِثْنًا لَّزَّ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾^(١) طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَاللَّجَالِ، وَدَابَّةَ الْأَرْضِ.

(٥) وروى الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين^(٢) عن أبي الطفيل قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ حُذَيْفَةَ فَذُكِرَتِ الدَّابَّةُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّهَا تَخْرُجُ ثَلَاثَ خَرْجَاتٍ فِي بَعْضِ الْبَوَادِي، ثُمَّ تَكْمُنُ، ثُمَّ تَخْرُجُ فِي بَعْضِ الْقُرَى، حَتَّى يُذْعَرُوا، وَحَتَّى تُهْرِيقَ فِيهَا الْأَمْرَاءُ الدِّمَاءَ، ثُمَّ تَكْمُنُ، قَالَ؛ فَبَيْنَمَا النَّاسُ عِنْدَ أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ وَأَفْضَلِهَا وَأَشْرَفِهَا، حَتَّى قُلْنَا: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ» وَمَا سَمَاءُ، إِذِ ارْتَفَعَتِ الْأَرْضُ، وَيَهْرُبُ النَّاسُ، وَيَبْقَى عَامَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَنْ يُنْجِيَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْءٌ، فَتَخْرُجُ فَتَجْلُو وَجُوهَهُمْ، حَتَّى تَجْعَلَهَا كَالْكَوَاكِبِ الدَّرِّيَّةِ، وَتَتَّبِعُ النَّاسَ، جِيرَانًا فِي الرَّبَاعِ، شُرَكَاءَ فِي الْأَمْوَالِ، وَأَصْحَابَ فِي الْإِسْلَامِ».

هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه، قال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

أقول: هذا حديثٌ موقوف على حذيفة رضي الله عنه، ولكنه لا يُقال من قبل الرأي حتماً، فله قوة الحديث المرفوع.

وجاءت آثار في وصف هذه الدابة، ووصف بعض أعمالها، لا ترقى إلى مستوى الاحتجاج بها، أعرضت عن ذكرها.



• ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾^(٨٧)

(١) سورة الأنعام: الآية (١٥٨).

(٢) ٤/٥٣١.

وفي القراءة الأخرى بِكْسِرِ هَمْزَةٍ «إِنَّ» عَلَى أَنَّهَا جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، أَمَّا الْفَتْحُ فَعَلَى تَقْدِيرِ الْبَاءِ الْجَارَةِ أَيُّ: بِسَبَبِ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ.

فالمعنى: وَإِذَا وَقَعَ قَوْلُ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ بِإِقْفَالِ بَابِ التَّوْبَةِ تَمْهِيداً لِقِيَامِ السَّاعَةِ، أَخْرَجْنَا لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ دَابَّةً عَجِيبَةً غَرِيبَةً، هِيَ آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آيَاتِنَا لِلنَّاسِ فِي الْأَرْضِ، تُكَلِّمُ النَّاسَ بِلُغَاتِهِمُ الْمُخْتَلِفَاتِ، فَتُعْطِيهِمْ يَقِيناً رَاسِخاً بِرُبُوبِيَّتِنَا، وَقُدْرَتِنَا عَلَى أَنْ نَخْلُقَ مَا نَشَاءُ، وَنُبْدِعَ مَا نُرِيدُ.

وَالسَّبَبُ فِي إِخْرَاجِ هَذِهِ الْآيَةِ لِلنَّاسِ أَنْ تَكْشِفَ لِكُفَّارِهِمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُوقِنُونَ بِآيَاتِنَا الْعَظِيمَاتِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَخَلْقِ أَنْفُسِهِمْ، وَلَا يُوقِنُونَ بِآيَاتِنَا الْبَيِّنَاتِ الْمُنْزَلَةِ، وَلَا بِآيَاتِنَا الْجَزَائَةِ الَّتِي سَلَفَتْ فِي تَارِيخِ النَّاسِ، عُنَاداً وَاسْتِكْبَاراً أَوْ اتِّبَاعاً لِلْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالتَّقَالِيدِ الْعَمِيَاءِ.

أَمَّا وَقَدْ أَقْفَلَ بَابُ التَّوْبَةِ، وَتَقَارَبَتِ الْأَحْدَاثُ الَّتِي هِيَ مِنْ أَشْرَاطِ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَقَدْ صَارَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَهُمْ مَا زَالُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَمْ يَمُوتُوا أَنْ نُخْرِجَ لَهُمْ آيَةً عَظِيمَةً لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُنْكِرُوا أَنَّهَا مِنْ آيَاتِ رُبُوبِيَّتِنَا، وَلَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ حِينَئِذٍ، لِأَنَّهُمْ صَارُوا بِحُكْمِ الْمَوْتِ، وَبِحُكْمِ الدَّاخِلِينَ فِي ظُرُوفِ جَزَاءِ يَوْمِ الدِّينِ، بَعْدَ مُشَاهَدَتِهِمْ لِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ بَيَّنَّاها فِي كِتَابِنَا، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِنَا، وَكَانُوا لَهَا مُكْذِبِينَ، وَعَنْ دَلَالَاتِهَا مُعْرِضِينَ، وَمُذْبِرِينَ، وَلِحَقَائِقِهَا جَا حِدِينَ.

وَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِمَّا تُكَلِّمُهُمْ بِهِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ عِبَارَةٌ: [أَنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ] وَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَعْمَالِهَا أَنْ تَجْعَلَ عَلَى وَجْهِهِ الْكَافِرِينَ خَدُوشاً تَجْرَحُهُمْ بِهَا، فَتَكُونَ عَلَامَاتٍ عَلَى كُفْرِهِمْ، يَقَالُ لُغَةً: «كَلِمَةً، وَكَلِمَةً» أَيُّ: جَرَحَهُ.

الْيَقِينُ: هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَدْنَى دَرَجَاتِهِ مَا اعْتَمَدَ عَلَى أَدَلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ أَوْ خَبَرِيَّةٍ صَادِقَةٍ لَا يَعْتَرِيهَا الشَّكُّ.



قول الله عز وجل:

• ﴿وَيَوْمَ نَخَشُّهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾
حَقَّ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَئِنْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّادًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾
وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الآيات الثلاث انتَقَالَ بالبيانِ الْقَوْلِي إلى يَوْمِ الدِّينِ، لِعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِ، وَلَقَطَاتٍ تَصَوِيرِيَّةٍ بِالْقَوْلِ مِنْ لَقَطَاتِهِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ أَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّينِ الَّتِي سَوْفَ تَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيدِ، بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، ذَاتُ بَرْنَامَجٍ تَذْيِيرِيٍّ مُحَدَّدٍ الْخُطَّةَ قَبْلَ الْخَلْقِ، وَكَانَ ذَلِكَ مَعَ بَتِّ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ بِخَلْقِ الَّذِينَ سَيُوضَعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، وَأَنَّ خُطَّةَ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ لَا تَكُونُ وَفْقَ أَوَامِرٍ مُرْتَجَلَةٍ التَّذْيِيرِ فِي أَرْزَامٍ إِحْدَاثِهَا وَإِيقَاعِهَا، بَلْ هِيَ تَنْفِيذٌ لِمَا سَبَقَ بِهِ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ، مَعَ مَا سَبَقَ مِنْ قَضَاءٍ وَقَدَرٍ بِشَأْنِ خَلْقِ الْأَحْيَاءِ الَّتِي سَتُوضَعُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْابْتِلَاءِ وَالتَّكْلِيفِ وَرَّضْدِ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَإِتْبَاعِ كُلِّ ذَلِكَ بِالْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ.

التدبر التحليلي:

﴿وَيَوْمَ نَخَشُّهُ﴾: أي: وَضَعَ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي أَيًّا كُنْتَ، وَإِذَا كُنْتَ مِنْ حَمَلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، فَأَبْلُغْ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ نَبَأٍ مُسْتَقْبَلِيٍّ سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، فِي مَسِيرَتِكَ الدَّعْوِيَّةِ لغيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِعَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ.

الحشر: الْجَمْعُ وَالسُّوقِ.

﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾:

الْأَمَّةُ: تُطْلَقُ فِي الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ عَلَى كُلِّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمَعُهَا صِفَاتٌ
أَوْ خَصَائِصٌ، أَوْ رَوَابِطٌ مُتَمَيِّزَةٌ

الْفُوجُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ، وَجَمْعُهُ: «الْأَفْوَاجُ».

﴿مَنْ يَكْذِبْ بِآيَاتِنَا فَهُم يُوزَعُونَ﴾: أَي: فَهُمْ بَعْدَ الْجَمْعِ وَالسَّوْقِ،
مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ، يُجْمَعُونَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَيُرْتَبُونَ صُفُوفاً بِحَسَبِ
انْحِطَاطَاتِهِمْ فِي الْعُلُوِّ تَكْذِيباً وَكُفْراً وَجَرَائِمٍ وَإِمَامَةً فِي مُعَادَاةِ دِينِ اللَّهِ جَلَّ
جَلَالُهُ، وَنَشْرِ الْكُفْرِ وَالْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ.

أَضَلُّ الْوَزْعِ فِي اللَّغَةِ: الْكَثْفُ وَالْحَبْسُ، وَالْوَازِعُونَ فِي الْحَرْبِ،
الْمُوكَّلُونَ بِالصُّفُوفِ يَزَعُونَهَا كَفًّا وَجَمْعاً وَتَنْظِيماً وَحُتّاً عَلَى مَا يَفْتَضِيهِ
الْعَمَلُ فِي الْحَرْبِ.

والمراد هنا كثف الأفواج الأئمة من المكذبين بآيات الله لدى
جمعهم في مكان واحد، بعد انتزاع كل فوج من أمته التي هو منها، وكان
فيها في الحياة الدنيا إماماً مضلاً مغوياً، أو داعية من دعاة الإثم
والعدوان، والبغي والفجور والعصيان، أو نصيراً مؤازراً، وجندياً فاسقاً
ضليلاً فاجراً. ولدى ترتيب صفوفهم بحسب ما كان منهم من ظلم وبغي
وشر، ومُعَادَاةٍ لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَجَرَائِمٍ فِي رِحْلَةِ
الامتحان لإغواء الناس وصدهم عن سبيل الله، ومُحَارَبَتِهِمْ لِدِينِ اللَّهِ
الْحَقِّ، بُغْيَةً تَوَجِّهِهِ الْخُطَابَ الرَّبَّانِيَّ التَّائِيْبِيَّ التَّغْنِيْفِيَّ لَهُمْ، وَإِعْلَامِهِمْ
بِالْمَصِيرِ الَّذِي قَضَى اللَّهُ أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ السُّفْلَى،
الْمَلَأْتِمَةِ لِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْعَدْلِ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
دَرَكَةٌ تُلَاثِمُ جَرَائِمَهُ.

«مِنْ» فِي: ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ فِي: ﴿مَنْ يَكْذِبْ بِآيَاتِنَا﴾ لِبَيَانِ الَّذِينَ
أَخَذَ مِنْهُمْ الْمُحْشُورُونَ، أَمَّا التَّبْعِيضُ فَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ لَفْظُ ﴿فُوجًا﴾ إِذْ هَذَا
الْفُوجُ الْمَأْخُودُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ هُوَ بَعْضٌ مِنْ كُلِّ، وَبَعْضٌ مِنْ يَكْذِبُ

بآيَاتِ اللَّهِ مِنْهَا، وَحَمَلُ لَفْظِ «مِنْ» عَلَى أَنَّهَا لِلتَّبَعِيضِ هُنَا يُفْضِي إِلَى رِكَائَةٍ فِي الْعِبَارَةِ، إِذْ يَكُونُ التَّقْدِيرُ: وَيَوْمَ نَحْشُرُ بَعْضَ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا بَعْضَ مَنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا. وَهَذَا بَعِيدٌ جَدًّا عَنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَبَيَانِهِ الرَّفِيعِ.

أَمَّا عَلَى أَنَّهَا لِلْبَيَانِ التَّقْيِيدِيِّ فَالتَّقْدِيرُ: وَيَوْمَ نَحْشُرُ فَوْجًا مُتَنَزِعًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ.. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ إِعْرَابُ ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ حَالًا، أَضْلُهُ وَضَفٌ لـ ﴿فَوْجًا﴾ قُدِّمَ عَلَيْهِ فَصَارَ حَالًا^(١).

﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا﴾: أَي: مِمَّنْ يُكَذِّبُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بآيَاتِنَا الْمُنَزَّلَاتِ، فَكُلَّمَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْهَا كَذَّبَ بِهَا.

دَلَّ الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ: ﴿يُكَذِّبُ﴾ الدَّالُّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالتَّكَرُّارِ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ مُصِرُّونَ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِكُلِّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ تُثَلَّى عَلَيْهِمْ.

وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذَا مِنْ صِلَةٍ بِمَا جَاءَ عَنِ الْقُرْآنِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ، وَفِي بَدَايَةِ هَذَا الدَّرْسِ السَّابِعِ مِنْ دُرُوسِهَا.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أَي: فَهُمْ بَعْدَ سَوْقِهِمْ وَجَمْعِهِمْ فِي مَكَانٍ خَاصٍّ جَامِعٍ لَهُمْ يُصَفُّونَ وَيُكْفُّونَ وَيُمنَعُونَ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْمَوَاقِعِ الَّتِي وُضِعُوا فِيهَا، فَلَا يَسْتَطِيعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ أَنْ يُفَارِقَ مَوْضِعَهُ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمَأْمُورِينَ بِوَزْعِهِمْ يَمْنَعُونَهُمْ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ جَمْعَ هَؤُلَاءِ يَكُونُ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنْ جَهَنَّمَ، لِيَكُونُوا أَوَائِلَ الَّذِينَ يُكَبَّرُونَ فِيهَا، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ أَيْمَةُ الْكُفْرَةِ الْمُجْرِمِينَ فِي الدُّنْيَا، فَهُمْ الْمَقْدَمُونَ إِلَى الْعَذَابِ فِي الدَّرَكَاتِ السُّفْلَى مِنْهَا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوْهُ حَتَّىٰ﴾: هُنَا ابْتِدَائِيَّةٌ، وَهِيَ تَدْخُلُ عَلَى الْجُمْلَتَيْنِ الْاسْمِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ، وَهِيَ حَرْفٌ لَا عَمَلَ لَهُ تَبْتَدِئُ بَعْدَهُ الْجُمْلُ

(١) نظير قول الشاعر: لِمَيَّةٍ مُوحِشًا ظَلُلُ.

إِذَا: ظَرَفٌ لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَنِ مُضَمَّنٌ معنى الشرط.

أي: حَتَّى إِذَا جَاءُوا الْمَكَانَ الْمَخْصَصَ لِحَشْرِهِمْ قُرْبَ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، ولفظ «جَاءَ» فعل ماضٍ، إِلَّا أَنَّهُ بَعْدَ «إِذَا» صَارَ بِمَعْنَى الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ.

﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا؟﴾ أَي: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ مُؤَيَّخًا مُؤْتَمًا حَاكِمًا عَلَيْهِمْ بِالْجَزْمِ الْعَظِيمِ، بِخَطَابٍ مُبَاشِرٍ مِنْهُ، أَوْ بِوَسَاطَةِ مَأْمُورٍ بِمُخَاطَبَتِهِمْ مِنْ مَلَائِكَتِهِ بَلَاغًا عَنْ رَبِّهِمْ، وَبِأَسْلُوبِ الِاسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخِيِّ التَّائِيْمِيِّ الدَّافِعِ لَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ جَرَائِمِهِمْ: أَكَذَّبْتُمْ رَسُولِي بِآيَاتِي الَّتِي أَنْزَلْتُهَا عَلَيْهِ لِيُبَلِّغَكُمْ إِيَّاهَا، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عُذْرٌ مَا فِي تَكْذِيبِكُمْ إِيَّاهَا، وَلَا فِي إِعْرَاضِكُمْ وَإِذْبَارِكُمْ وَتَوَلَّيْكُمْ عَنْ آيَاتِي؟! وَلَمْ تَتَفَكَّرُوا فِي مَعَانِي آيَاتِي الَّتِي أَنْزَلْتُهَا لِتَتَّبِعُوهَا، وَتَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ أَوْامِرِي وَنَوَاهِي، وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا، إِذْ رَفَضْتُمْ قَبُولَهَا وَحَجَدْتُمُوهَا ابْتِدَاءً، لِأَنَّكُمْ رَفَضْتُمْ عِبَادَتِي وَأَنَا رَبُّكُمْ الْمُمِدُّ لَكُمْ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِي، وَالْخَالِقُ لَكُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا.

ونلاحظ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ قَدْ دَلَّتْ عَلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ الْعِنَادِيِّ، وَاعْتِبَارِهِمْ مُجْرِمِينَ مِنْ أَخْسُ الدَّرَكَاتِ.

﴿.. أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ؟﴾ [أَمَّا] أَضْلَاهَا «أَمْ» الْمُنْقَطِعَةُ، وَهِيَ بِمَعْنَى «بَلْ» وَ«مَا» الِاسْتِفْهَامِيَّةِ وَ«مَاذَا» أَي: مَا الَّذِي كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟! وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ تَائِيْمِيٌّ أَيْضًا.

إِنَّ صَحَائِفَهُمْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا طُعَاءَ بُعَاةٍ مُجْرِمِينَ، يَحْمِلُونَ النَّاسَ عَلَى الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ بِوَسَائِلِ الْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ، أَوْ بِوَسَائِلِ الْإِكْرَاهِ وَالتَّغْذِيبِ وَالِاضْطِهَادِ، وَيَنْشُرُونَ الْفَسَادَ وَالْإِفْسَادَ، وَالْإِلْحَادَ وَالْوُثْنِيَّاتِ فِي الْأَرْضِ.

هذه وأشباهها أَعْمَالُهُمُ الَّتِي هِيَ نَتَائِجُ تَلَقَّائِيَّةٍ لِكُفْرِهِم بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِیَوْمِ الدِّينِ.

وَلَا يَجِدُونَ عُذْرًا يَعتَظِرُونَ بِهِ وَقَدْ كَانُوا أَثَمَّةً ضَلَالٍ وَإِضْلَالٍ، أَوِ الْجُنُودِ الْمُخْلِصِينَ لِلْأَثَمَةِ الْمُضِلِّينَ الْمُغْوِينَ، فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ وَنُلاحِظُ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ قَدْ دَلَّتْ عَلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ بِأَعْمَالِهِمْ أَيْضًا، لَمْ يَفْتَصِرْ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٨٥):

أي: وَوَقَعَ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ الْقَضَائِيُّ عَلَيْهِمْ، الْمَتَّصِنُ أَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ مِنْ أَحْسَنِ الدَّرَكَاتِ، وَأَنَّهُمْ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ، وَأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الدَّرَكَاتِ السُّفْلَى فِي جَهَنَّمَ.

﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾: الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ. وَ«مَا» مَصْدَرِيَّةٌ. أي: وَوَقَعَ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ عَلَيْهِمْ حُكْمًا وَأَمْرًا بِالتَّنْفِيزِ، بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ ظُلْمًا مِنْ أَحْسَنِ الدَّرَكَاتِ وَهَذَا الظُّلْمُ يُلَاثِمُهُ أَشَدُّ الْعَذَابِ، خُلُودًا فِي الدَّرَكَاتِ السُّفْلَى مِنْ جَهَنَّمَ.

﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾: أي: فَهُمْ عَقِبَ وَفُوعِ الْقَوْلِ الرَّبَّانِيِّ عَلَيْهِمْ لَا يَنْطِقُونَ، شُعُورًا مِنْهُمْ بِأَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا مُجْرِمِينَ حَقًّا، يَسْتَحِقُّونَ مَا قَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَانِهِمْ، وَعَجْزًا عَنْ أَنْ يُقَدِّمُوا عُذْرًا مَا، فَقَدْ شَهِدَتْ عَلَيْهِمْ بِجَرَائِمِهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَجُلُودُهُمْ كُلُّهَا، وَقَدْ دَلَّتْ عَلَى هَذَا نُصُوصٌ أُخْرَى، مِنْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦٥):

وقول الله عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):
﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٩١) حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ

سَمِعْتَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ وَجَلَدْتَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَقَالُوا لِمَ إِجْلُدُونَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ... ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾

قول الله عز وجل:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا أَلِيلَ لَيْسِكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٨١﴾!؟

في هذه الآية عودٌ إلى عَرْضِ بَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَهِيَ مَوْصُولَةٌ بِمَا جَاءَ فِي الدَّرْسِ السَّادِسِ مِنْ دُورِ السُّورَةِ (الآيات من ٦٠ - ٦٤) وبما جاء في الدَّرْسِ الثَّالِثِ (الآية ٢٥).

هذه الآية تَتَحَدَّثُ عَنْ ظَاهِرَتَي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ ظَوَاهِرِ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ.

إِنَّ التَّدْبِيرَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ فِي الْأَرْضِ لَيْلًا وَنَهَارًا مُتَعَاكِبَيْنِ، لِيَسْكُنَ النَّاسُ فِي اللَّيْلِ، وَلِيَعْمَلُوا فِي النَّهَارِ نَشِيطِينَ يُبْصِرُونَ أَمَاكِنَ أَعْمَالِهِمْ وَالْأَشْيَاءَ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا أَوْ يَعْمَلُونَ فِيهَا، وَالْأَدَوَاتِ الَّتِي يَعْمَلُونَ بِهَا، هُوَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ، وَمِنْ عِنَايَتِهِ بِهِمْ، فَالْوَاجِبُ الْعَقْلِيُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا نِعْمَةَ الَّتِي أَفَاضَهَا عَلَيْهِمْ، وَالَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَهَا لَوْ أَرَادُوا أَنْ يَعُدُّوها، وَهِيَ فِي نَفْسِهِمْ، وَفِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِمْ.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾: اسْتَفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ أَمْرِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ هُمْ الْمَعْنِيُّونَ الْأَوَّلُونَ بِالْإِقْنَاعِ فِي السُّورَةِ، حَوْلَ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ الَّتِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا، وَالْهِيَّةِ الَّتِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهَا، وَالَّتِي هِيَ اللَّازِمُ الْعَقْلِيُّ الْأَوَّلُ لِرُبُوبِيَّتِهِ، وَحَوْلَ الْجِزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى حِكْمَةِ اللَّهِ فِي خَلْقِ النَّاسِ، وَإِلَّا كَانَ خَلْقُهُ لِلنَّاسِ عَبَثًا وَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ مُنْزَعٌ عَنِ الْعَبَثِ.

أي: أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فَيَعْلَمُوا عِلْمًا مُّشَابِهًا لِلرُّؤْيَا بِالْإِبْصَارِ أَنَّ رَبَّهُمْ بِعِظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، جَعَلَ لَهُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ سُكُونًا مُّريحًا لَهُمْ، وبِهَذَا السُّكُونِ الَّذِي يَكُونُ النَّوْمُ أَحَدَ عَنَاصِرِهِ، يَسْتَعِيدُونَ نَشَاطَهُمْ، وَقُدْرَاتِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ، بَعْدَ أَنْ حُلَّ فِيهِمْ التَّعَبُ مِنْ عَمَلِ النَّهَارِ السَّابِقِ لَيْلٍ فِي وُجُودِهِ الزَّمَنِيِّ.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: أي: وَجَعَلَ النَّهَارَ بَصُورَهُ كَاشِفًا لَهُمُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي يُرِيدُونَ إِبْصَارَهَا بِأَعْيُنِهِمْ، فَهُوَ بَصُورُهُ يَجْعَلُهُمْ يُبْصِرُونَ.

يقال لغة: «أَبْصَرَ فُلَانٌ فُلَانًا الشَّيْءَ» أي: جَعَلَهُ يَرَاهُ بِبَصَرِهِ، بِاتِّخَاذِ وَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ مِنْ وَسَائِلِ الْإِبْصَارِ.

ومع هذا الْمُسْتَنَدُ اللَّغَوِيُّ لَا حَاجَةَ لاعتبار إسناد الإِبْصَارِ إِلَى النَّهَارِ مِنْ قِبَلِ الْإِسْنَادِ الْعَقْلِيِّ، الَّذِي يُسْنَدُ فِيهِ الْفِعْلُ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ إِلَى غَيْرِ مَنْ هُوَ لَهُ لِعِلَاقَةٍ مِنْ عِلَاقَاتِ الْمَجَازِ.

وَفِي اسْتِعْمَالِ فِعْلِ «جَعَلَ» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ خَلْقَ الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ كَانَ أَوَّلًا، ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِتَدْبِيرِهِ الْأَرْضَ الْمُظْلِمَةَ تُدَوِّرُ حَوْلَ نَفْسِهَا بِاتِّجَاهِ الشَّمْسِ، ضِمْنَ نِظَامٍ مُعَيَّنٍ، وَبِحَرَكََةِ الدَّوَرَانِ هَذِهِ تَحَقُّقَ وُجُودِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي نِظَامٍ تَعَاقُبِيٍّ حَكِيمٍ.

وَيُظْهِرُ لِي أَنَّ اسْتِعْمَالَ فِعْلِ «جَعَلَ» يَكُونُ غَالِبًا لِتَصَارِيفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَشْيَاءَ مَوْجُودَةِ الْعَنَاصِرِ بِخَلْقِ سَابِقٍ، وَتَجْرِي تَصَارِيفُ اللَّهِ فِي أَوْضَاعِهَا وَأَحْوَالِهَا بِالْجَعْلِ، عَلَى أَنَّ كُلَّ أَفْعَالِ اللَّهِ وَلَوْ بِتَغْيِيرِ الْأَوْضَاعِ وَالْأَحْوَالِ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ خَلْقٌ، وَمِنْ خَلْقِ اللَّهِ مَا هُوَ إِيجَادٌ مِنَ الْعَدَمِ، وَمِنْهُ مَا هُوَ إِخْدَاتٌ تَصَارِيفَ فِي مَوْجُودَاتٍ بِخَلْقِ سَابِقٍ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: إِنَّ فِي ذَلِكَ الْجَعْلِ الْعَظِيمِ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لآيَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَى شُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ، وَعَظِيمِ

قُدْرَتِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ، وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَإِتْقَانِهِ الْعَجِيبِ فِي تَدْبِيرَاتِهِ لِكُونِهِ، وَصُنْعِهِ الْبَدِيعِ.

ولعلماء الكونيات بُحُوثٌ دَقِيقَةٌ وَمُسْتَفِيزَةٌ حَوْلَ ظَاهِرَتَيِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وفوائدهما الْجَلِيلَةِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى سُكَّانِ الْأَرْضِ، وَحَوْلَ إِبْدَاعِ التَّدْبِيرِ فِي دَوْرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا بِاتِّجَاهِ الشَّمْسِ لِأَحْدَاثِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَدَوْرَانِهَا فِي مَدَارِ حَوْلِ الشَّمْسِ، لِإِحْدَاثِ الْفُضُولِ الْأَرْبَعَةِ فِي السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ.

وهذه الآياتُ يُدْرِكُهَا وَيَسْتَفِيدُ مِنْ دَلَالَتِهَا قَوْمٌ يُؤْمِنُونَ، أَي: قَوْمٌ لَدَيْهِمُ الْاسْتِعْدَادُ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ كُلَّمَا جَاءَتْهُمْ أَدِلَّةٌ فِيهَا إِقْنَاعٌ بِالْحَقِّ.

الإيمان: التَّصْدِيقُ الْإِرَادِيُّ مَعَ طُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ، يَقَالُ لُغَةً: «آمَنَ بِالشَّيْءِ» أَي: صَدَّقَهُ، وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ لِأَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، قَالَ الْخَلِيلُ: الْإِيمَانُ الطُّمَأْنِينَةُ، أَي: طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ لِصِدْقِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي وَرَدَتْ عَلَيْهِ.



قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَخِرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ﴾ (٨٧):

وفي القراءة الأخرى: ﴿وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ﴾ ومؤدَى القراءتين واحد إِلَّا أَنَّ «أَتَوُهُ» تَدُلُّ عَلَى حَالَةِ انْتِهَاءِ الْمَجِيءِ، و«أَتَوُهُ» تَدُلُّ عَلَى حَالَةِ حَرَكَةِ الْمَجِيءِ الْمَتَابِعِ.

هذه الآية معطوفة على الآيات التي فيها بيانٌ عن الأحداث المتعلقة بالأخرة. وفي هذه الآية عَوْدٌ إِلَى عَرْضِ أَحْدَاثِ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِأَحْدَاثِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، بَعْدَ فَاصِلٍ بَآيَةٍ عَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا مِنْ آيَاتِهِ الْكُونِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ظَاهِرَتَيِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وهذه المِراوَحَةُ بَيْنَ الْأَنْبَاءِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَالْحَدِيثِ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَوْ مَطْلُوبِ اللَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ مِنْ عِبَادِهِ فِيهَا، مِنْ رَوَائِعِ الْأَسَالِيبِ الْإِقْنَاعِيَّةِ بِالْحَقِّ، الَّتِي يَجْرِي التَّنْقُلُ فِيهَا بَيْنَ الْحَاضِرِ وَبَيْنَ الْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيدِ أَوْ الْقَرِيبِ، وَالْعَوْدَةُ بِأَسْلُوبِ الْمِراوَحَةِ، فَلَاخْذَاتُ عِنْدَ اللَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ مَاضِيهَا وَحَاضِرُهَا وَمُسْتَقْبَلُهَا هِيَ كَالْمَشْهُودَةِ الْحَاضِرَةِ، وَنِسْبَةُ تَحَقُّقِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ وَاحِدَةٌ.

والتَّربِيَةُ الْحَكِيمَةُ قَدْ تَقْتَضِي الْمِراوَحَةَ فِي الْعَرَضِ بَيْنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالْحَاضِرِ، وَهَذَا مَا نُلَاحِظُهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ.


الصُّورُ: مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ عَظِيمٍ، كَهَيْئَةِ الْقَرْنِ إِخْدَى جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّةٌ ضَيْقَةٌ، وَالْأُخْرَى وَاسِعَةٌ جِدًّا، وَبَاطِنُهُ فَارِغٌ، يُمَكِّنُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ، فَيُضْدِرُّ صَوْتًا بِحَسَبِهِ.

وَالْمَلَكُ الْمَكْلُوفُ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَدَلَّتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ عَلَى أَنَّ التَّفْخَاتِ فِي الصُّورِ ثَلَاثُ:

النَّفْخَةُ الْأُولَى: نَفْخَةُ الْفَرْعِ، دَلَّتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ سُورَةِ (النمل).

النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ: نَفْخَةُ الصَّعِقِ، دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ فِي سُورَةِ [الرُّمُرُ/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول]:

﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ...﴾  .

صَعِقَ: أَي: مَاتَ، يُقَالُ لُغَةً: «صَعِقَ، يَضَعُقُ، صَعَقًا، وَصَغَقًا» أَي: مَاتَ.

وَبِهَذِهِ النَّفْخَةِ يَمُوتُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالْمَلَائِكَةُ أَجْمَعُونَ، إِلَّا مَنْ

شَاءَ اللَّهُ تَأْخِيرُهُمْ كَأَسْرَافِيلَ النَّافِخِ فِي الصُّورِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَقْبِضُ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ.

وَيُلْحَقُ بِالصَّاعِقَيْنِ سَائِرُ الْأَحْيَاءِ الْأُخْرَى، حَتَّى لَا يَبْقَى فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ حَيٌّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

النَّفْخَةُ الثَّلَاثَةُ: نَفْخَةُ الْبَعْثِ، دَلَّ عَلَيْهَا تَيْمَّةُ آيَةِ (الزُّمَرِ) السَّابِقَةِ، إِذْ جَاءَ فِيهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿...ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ نُفْحًا أُخْرَى فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ﴾ (٦٨).

وقول الله عز وجل في سُورَةِ [يَس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول]:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُوكَ﴾ (٥١).

وَمِنَ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ تَكُونَ نَفْخَةُ الْفَرْعِ هِيَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، لِأَنَّ الْإِحْيَاءَ يَكُونُ بِهَذِهِ النَّفْخَةِ، وَدَلَّ النَّصَانِ عَلَىٰ أَنَّ الْمَوْتَىٰ عَقِبَهَا مُبَاشَرَةً يَقُومُونَ يَنْظُرُونَ، وَإِلَىٰ رَبِّهِمْ يُسْرِعُونَ.

وَالْأَرْجَحُ أَنْ تَكُونَ نَفْخَةُ الْفَرْعِ سَابِقَةً لِنَفْخَةِ الصَّعَقِ، وَمُمَهِّدَةً لَهَا، لِأَنَّ نَفْخَةَ الْفَرْعِ قَالَ اللَّهُ بِشَأْنِهَا: ﴿فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بِإِلْفَاءِ الدَّالَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ، وَكَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ نَفْخَةِ الصَّعَقِ: ﴿فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بِإِلْفَاءِ الدَّالَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ مَعَ التَّعْقِيبِ، وَالصَّعَقُ الْمُبَاشِرُ لِلنَّفْخَةِ لَا يَكُونُ مَعَهُ فَرْعٌ، فَلَا دَاعِيَ لِإِدْمَاجِ نَفْخَةِ الْفَرْعِ بِنَفْخَةِ الصَّعَقِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْفَرْعُ: الْخَوْفُ وَالذُّعْرُ الَّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثَارُ نُفُورٍ فِي حَرَكَاتِ الْجِسْمِ.

﴿وَكُلُّ أُنْتَهَى دَاخِرِينَ﴾ - ﴿وَكُلُّ أُنْتَهَى دَاخِرِينَ﴾ فِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى: أَي:

وَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ سَوْفَ يَأْتُونَ سِرَاعًا إِلَىٰ رَبِّهِمْ دَاخِرِينَ، حَتَّى يَقِفُوا جَمِيعًا فِي مَحْشَرِهِمْ عِنْدَهُ بَعْدَ الْبَعْثِ دَاخِرِينَ.

﴿دَخِرِينَ﴾: أي: أذلاء خاضعين بانكسارٍ وسُكون. الدَّخِر: الذليل الخاضع المنكسر الخاشع، ولفظ ﴿دَخِرِينَ﴾ حال.

جُمْلَةٌ: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ دَخِرِينَ﴾ لَيْسَتْ مُرْتَبَةً تَرْتَبُهَا تَعْقِيًّا عَلَى مَا قَبْلَهَا، بَلْ بَيْنَهُمَا فَاصِلٌ زَمَنِي طَوِيلٌ تَتِمُّ فِيهِ الْإِمَانَةُ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُ الْبُعْثُ، وَلِهَذَا عَطَفْتُ بِالْوَاوِ الَّتِي لَا تَقْتَضِي تَرْتَبًا وَلَا تَعْقِيًّا.



قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ أَلَدَىٰ آفَقٍ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨):

فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَوْدٌ عَلَى سَبِيلِ الْمُرَاوَحَةِ إِلَى عَرْضِ بَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، الدَّالَّةِ عَلَى طَائِفَةٍ مِّنْ صِفَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَمِنْهَا عِلْمُهُ الشَّامِلُ، وَقُدْرَتُهُ الَّتِي يَخْلُقُ بِهَا مَا يَشَاءُ، وَحِكْمَتُهُ فِي تَدْبِيرَاتِهِ، وَإِتْقَانُهُ صُنْعَ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا أَنَّ وَحْدَتَهُ فِي رَبُّوبِيَّتِهِ تَسْتَلْزِمُ عَقْلًا أَنَّهُ وَاحِدٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ لَا يُشَارِكُهُ فِي حَقِّ الْإِلَهِيَّةِ أَحَدٌ وَلَا شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ.

أي: وَتَرَى الْجِبَالَ أَيُّهَا الرَّائِي أَيَّا كُنْتَ حَالَةَ كَوْنِكَ تَرَاهَا جَامِدَةً، أي: مُتَمَاسِكَةً لَا حَرَكَةَ لِذَرَاتِهَا، وَلَا سَيْرَ لَهَا فِي جُمْلَتِهَا، وَهِيَ فِي وَاقِعِ حَالِهَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، الَّذِي تَتَحَرَّكُ ذَرَاتُهُ تَحَرُّكًا دَاخِلِيًّا، وَيَسِيرُ فِي جُمْلَتِهِ مِنْ مَوْقِعٍ إِلَى مَوْقِعٍ فِي السَّمَاءِ.

وَكَذَلِكَ حَالُ الْجِبَالِ، وَسَائِرِ مَا فِي الْأَرْضِ، إِذْ ذَرَّاتُ كُلِّ شَيْءٍ تَتَحَرَّكُ حَرَكَاتٍ فِي دَوَائِرٍ وَأَفْلَاقٍ مُّقْفَلَةٍ، وَجُمْلَةُ الْأَرْضِ مَعَ جِبَالِهَا تَمُرُّ سَائِرَةً فِي دَوْرَةٍ يَوْمِيَّةٍ حَوْلَ نَفْسِهَا، وَفِي دَوْرَةٍ سَنَوِيَّةٍ حَوْلَ الشَّمْسِ.

هَذَا مَا أَثْبَتَهُ الْعُلُومُ الْكُونِيَّةُ، الَّتِي تَوْصَلُ عُلَمَاءُ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ إِلَى بَعْضِ حَقَائِقِهَا، بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قَرْنًا مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَى

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ اِكْتِشَافَاتُهُمُ الْعِلْمِيَّةُ الصَّحِيحَةُ مُطَابِقَةً لِلدَّلَالَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، الَّتِي مَا كَانَ بَاسِطِطَاعَةً مُتَدَبِّرِي الْقُرْآنِ السَّابِقِينَ أَنْ يَذَرِكُوهَا، إِذْ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمُ الْوَسَائِلُ الْمَعْرِفِيَّةُ الَّتِي يُذَرِكُونَ بِهَا الْوَاقِعَ الْكُونِيَّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَمُشَاهَدَةُ الظَّوَاهِرِ لَا تَدُلُّ عَلَيْهَا.

لقطات علمية عن الذرة عند العلماء الكونيين:

(١) بَيْنَ نَوَاةِ الذَّرَّةِ وَبَيْنَ اِلِكْتِرُونَاتِهَا الدَّائِرَةُ فِي فُضَائِهَا، فَرَاغٌ وَاسِعٌ جَدًّا، نِسْبَتُهُ كِنَسْبَةِ دَائِرَةِ قُطْرُهَا سِتَّةَ كِيلُومترات، تُوجَدُ فِي مَرَكَزِهَا كُرَّةٌ بِحَجْمِ كُرَّةِ الْمَضْرِبِ الْعَادِيَّةِ، وَتَدُورُ فِي مَدَارَاتٍ حَوْلَهَا اِلِكْتِرُونَاتُهَا.

(٢) اِلِلِكْتِرُونَاتُ حَوْلَ نَوَاةِ الذَّرَّةِ تَدُورُ بِسُرْعَةٍ بِالْعَةِ جَدًّا، إِذْ تَقْطَعُ بِلَايِنَ الدَّوَرَاتِ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ مَلْيُونِ جُزْءٍ مِنَ الثَّانِيَةِ، وَبِسَبَبِ هَذِهِ السَّرْعَةِ الْعَظِيمَةِ لِاِلِكْتِرُونَاتِ تَبْدُوا الذَّرَّةُ كَأَنَّهَا كُرَّةٌ جَامِدَةٌ سَاكِئَةٌ لَا حَرَكَةَ فِي دَاخِلِهَا.

(٣) اَلْجُسَيْمَاتُ الصَّغِيرَةُ جَدًّا الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا كَيَانُ الذَّرَّةِ ذُو الْفَرَاغِ الْوَاسِعِ جَدًّا بِالنَّسْبَةِ إِلَيْهَا هِيَ: «اَلْبُرُوتُونَاتُ - اَلنِّيُوتُونَاتُ - اِلِلِكْتِرُونَاتُ».

(٤) لَوْ أُزِيلَتِ الْفَرَاعَاتُ مِنَ الذَّرَاتِ، وَضَغِطَتْ جُسَيْمَاتُهَا إِلَى بَعْضِهَا، لَمَا زَادَ حَجْمُ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ عَلَى قَبْضَةٍ.

وهكذا اِكْشَفَتْ لَنَا الدَّرَاسَاتُ الْعِلْمِيَّةُ الْكُونِيَّةُ قَضِيَّةً مِنْ قَضَايَا اِلْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَلَا غَرُّ أَنْ يَذْهَبَ الْمُتَفَكِّرُ الْمُنْصِفُ الَّذِي لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَرْجَاسٌ فِكْرِيَّةٌ أَوْ خُلُقِيَّةٌ تَحْجُبُهُ عَنِ الْإِيمَانِ بِالرَّبِّ الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ، مِنْ اِتِّقَانِ صُنْعِ فِي كَوْنِهِ، الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ.

الصُّنْعُ: مَضْدَرُ «صَنَعَ الشَّيْءَ» أَي: عَمِلَهُ، وَيُطْلَقُ عَلَى الشَّيْءِ الْمَصْنُوعِ.

والمعنى: وَتَرَى الْجِبَالَ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، نَحْسِبُهَا جَامِدَةً سَاقِنَةً، وهي في واقع حالها تَمُرُّ مع كلِّ عَنَاصِرِ الْأَرْضِ مَرًّا السَّحَابِ.

يقال لغة: «أَتَقَنَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أي: أَحْكَمَ صُنْعَهُ، وَجَعَلَهُ مُطَابِقًا لِلْمَقْصُودِ به تماماً.

﴿إِنَّهُمْ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾. وفي قراءة ابن كثير، وهشام، وأبي عمرو، وَيَعْقُوبُ: [إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ]: أي: إِنَّ الرَّبَّ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعًا، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ بِصِفَاتِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا لَغَايَةُ مُتَقَنَةٍ حَكِيمَةٍ، وَهِيَ أَنْ يَبْلُوهُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ لِيُحَاسِبَهُ وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِ، وَيُجَازِيَهُ عَلَى مَا قَدَّمَ وَكَسَبَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةِ، وَهَذِهِ الْغَايَةُ تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ عَلِيمًا خَبِيرًا بِمَا يَفْعَلُ الْمُمْتَحِنُونَ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَهَذَا اللَّازِمُ مُتَحَقِّقٌ عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ الْأَكْمَلِ، فَالْتَقَتِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا وَإِلَى سَائِرِ الْمُمْتَحِنِينَ مِنَ الْجَنِّ، فَقَالَ مُتَحَدِّثًا عَنْ نَفْسِهِ بِضَمِيرِ الْغَائِبِ ﴿إِنَّهُمْ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: عَلِيمٌ عِلْمٌ خَبِيرَةٌ بِمَا تَفْعَلُونَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَفْعَالِكُمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَ[بِمَا يَفْعَلُونَ].

الْخَبِيرَةُ: هِيَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ عَلَى سَبِيلِ الشَّهَادَةِ وَالْحُضُورِ، وَالْمُصَاحِبُ لِكُلِّ أَجْزَاءِ الْعَمَلِ ظَوَاهِرِهِ، وَبَوَاطِنِهِ.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

وفي القراءتين الْأُخْرَيَيْنِ: [مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ] و[مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ] وهي وَجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ مُتَكَافِئَةٌ.

إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْآخِرَةِ وَالْجَزَاءِ فِيهَا، الَّذِي جَاءَ صَرِيحاً فِي الدَّرْسِ الْأَوَّلِ مِنَ السُّورَةِ، وَالْمَاحِأَ أَثْنَاءَ دُرُوسِهَا، وَتَضْرِيحاً فِي الدَّرْسِ السَّادِسِ مِنْ دُرُوسِهَا، وَفِي الْآيَةِ (٨٧) مِنْ هَذَا الدَّرْسِ السَّابِعِ، اقْتَضَى شَيْئاً مِنَ التَّفْصِيلِ لِلْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، فَجَاءَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ، وَفِيهِمَا تَفْصِيلٌ غَنَوَانِيٌّ عَامٌّ، يَنْدَرِجُ تَحْتَهُ كُلُّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَفْصِيلَاتٍ جُزْئِيَّةٍ، لِأَجْنَاسٍ وَأَنْوَاعٍ وَأَصْنَافٍ وَمُفْرَدَاتٍ جَزَاءَاتِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ يَوْمَ الدِّينِ، بِالثَّوَابِ عَلَى الْحَسَنَاتِ الَّتِي قَدَّمُوهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، يَنَالُونَهُ بِفَضْلِ اللَّهِ، وَبِالْعِقَابِ عَلَى السَّيِّئَاتِ الَّتِي قَدَّمُوهَا، وَهَذَا يَنَالُونَهُ بِعَدْلِ اللَّهِ ضِمْنَ مَجَارِي حُكْمَتِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ، مَعَ عَفْوٍ عَنْ كَثِيرٍ.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾: أَي: كُلُّ مَنْ جَاءَ رَبَّهُ يَوْمَ الدِّينِ، مِنَ الْمُؤْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، بِالْحَسَنَةِ يَحْمِلُهَا فِي صَحِيفَةٍ أَعْمَالِهِ الَّتِي تَوَلَّى تَسْجِيلَهَا الرَّقِيبُ الْعَتِيدُ الْمُصَاحِبُ لَهُ دَوَاماً مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾: أَي: فَلَهُ ثَوَابٌ عَظِيمٌ جَدّاً خَيْرٌ مِنْ حَسَنَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا. وَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ التَّفْصِيلِيَّةُ عَلَى أَنَّ الْحَسَنَةَ تُضَاعَفُ إِلَى عَشْرَةِ أَمْثَالِهَا، فَإِلَى سَبْعِينَ ضِعْفاً، فَإِلَى سَبْعِمِئَةٍ ضِعْفٍ، فَإِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَفَضْلُ اللَّهِ لَا حَدَّ لَهُ.

وَأَوَّلُ الْحَسَنَاتِ الْمُرَادَةِ بِهَذَا النَّصِّ الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ الصَّادِقُ، بَعْنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي دِينِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، فَإِغْلَانُ الْإِسْلَامِ لَهُ، بِالْخُضُوعِ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَالْقِيَامِ بِوَاجِبِ طَاعَتِهِ، وَكُلُّ حَسَنَةٍ يُقَدِّمُهَا الْمُتَمَتِّحُنْ غَيْرَ مُبَيَّنَّةٍ عَلَى إِيمَانٍ وَإِسْلَامٍ صَحِيحَيْنِ صَادِقَيْنِ لَا تُعْتَبَرُ مَقْبُولَةً عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ جَزَاءٌ بِالثَّوَابِ عَلَيْهَا.

﴿وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾: الضَّمِيرُ فِي ﴿وَهُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى ﴿مَنْ﴾

مُرَاعَاةً لِّلْمَعْنَى الْجَمْعِيِّ فِيهَا لِأَنَّهَا مِنْ أَلْفَاظِ الْعُمُومِ، أَمَّا الضَّمِيرُ فِي: ﴿فَلَهُ﴾ فَقَدْ أُعِيدَ عَلَى ﴿مَنْ﴾ أَيْضاً مُرَاعَاةً لِلْفَرْقِ الْفَرَادِيِّ فِيهَا.

أي: وَالَّذِينَ يَأْتُونَ بِالْحَسَنَةِ الْعَظْمَى، وَهِيَ الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ أَوَّلًا، ثُمَّ مَا يَتَّبِعُونَ عَلَيْهَا مِنْ صَالِحَاتٍ، هُمْ مِنْ خَوْفٍ مِنْ عَذَابِ الْحَرِيقِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ آمِنُونَ، إِذْ تَأْتِيهِمُ الْبُشْرَى مِنْ رَبِّهِمْ فَيَكُونُونَ آمِنِينَ.

الْفَرْعُ: الْخَوْفُ وَالذُّعْرُ الَّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثَارُ تَقْوَرٍ فِي حَرَكَاتِ الْجَسْمِ.

الحسنة: صِفَةُ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ يُفْهَمُ مِنَ السَّبَاقِ وَالسِّيَاقِ، وَيُمْكِنُ تَقْدِيرُ الْمَحْذُوفِ هُنَا: «الْمَكْسُوبَةُ» لِاسْتِعْمَالِ فِعْلِ «كَسَبَ» فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا، فِي فِعْلِ الْمَكْسُوبَاتِ بِالْإِرَادَةِ الْحَرَّةِ، الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، النَّفْسِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ، الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الْإِعْتِقَادِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: بِالسَّيِّئَةِ الْعَظْمَى الَّتِي تَنْزِلُ بِمُكْتَسِبِهَا إِلَى دَرَكَةِ الْكُفْرِ. وَالْمَرَادُ: بِالْمَكْسُوبَةِ السَّيِّئَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّيِّئَةَ الْكُفْرِيَّةَ الْعَظْمَى «تَجْرُ مُكْتَسَبَاتٍ سَيِّئَاتٍ كَثِيرَاتٍ مَعَهَا وَوَرَاءَهَا».

﴿فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾: أَي: فَأَلْقَوْا عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ دَارَ عَذَابِ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَ الدِّينِ.

الْكَبُّ: الْقَلْبُ وَالْإِلْقَاءُ، يَقَالُ لَغَةً: «كَبَّهُ، يَكْبُهُ، كَبًّا لَوَجْهِهِ، أَوْ عَلَى وَجْهِهِ» أَي: قَلْبَهُ وَأَلْقَاهُ.

ذُكِرَتِ الْوُجُوهُ لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يَذُوقُ لَذَعَ النَّارِ مِنْ أَجْسَادِهِمْ وَظَاهِرٌ أَنَّ سَائِرَ أَجْسَادِهِمْ تَتَّبِعُ وَجُوهَهُمْ.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ أَي: وَبَعْدَ أَنْ يُكَبُّوا فِي النَّارِ، وَيَسْتَقِرُّوا فِي مَنَازِلِهِمْ مِنْ دَرَكَاتِ جَهَنَّمَ، وَيَذُوقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ يُقَالُ لَهُمْ بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخِيُّ أَوْ التَّقْرِيرِيُّ، هَلْ تُجْزَوْنَ لِحِظَةً فَلَحِظَةً إِلَّا

مُعَادِلَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .
 أَطْلَقْتُ عَلَى الْجَزَاءِ الْمُعَادِلِ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ عِبَارَةً ﴿مَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمَطَابَقَةِ الْعَدْلِيَّةِ بَيْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَبَيْنَ الْجَزَاءِ
 الَّذِي يَذُوقُونَ آثَامَهُ فِي النَّارِ .



قول الله عز وجل :

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَكُلَّ شَيْءٍ
 وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِ
 لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ
 فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ - وفي القراءة الأخرى: [عَمَّا
 يَعْمَلُونَ] بضمير الغائبين .

سَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا أَنَّ الْمَغْنِيَّينِ الْأَوَّلِينَ، بِالْمَعَالَجَةِ الدَّعْوِيَّةِ فِي هَذِهِ
 السُّورَةِ، هُمْ مُشْرِكُو مَكَّةَ الَّذِينَ سَبَقَتْ مُعَالَجَتُهُمْ فِي سُورِ كَثِيرَةٍ نَزَلَتْ قَبْلَ
 نَزُولِ سُورَةِ (النمل) وَلَا سِيَّمَا كُبْرَاؤُهُمْ وَقَادَتُهُمُ الْأَيِّمَةُ لَجَمَاهِيرِهِمْ .

وهذه الآيات الأخيرة من السورة، فيها تَعْلِيمٌ دَعْوِيٌّ لِلرَّسُولِ
 مُحَمَّدٍ ﷺ، مَا يَقُولُهُ لِلَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا بَعْدَ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِلَى دَرَكَةِ
 مَيْوُوسٍ مَعَهَا مِنْ إِيْمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ، وَيَسْتَفِيدُ
 الدُّعَاةَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ أُمَّتِهِ مِنْ فَحْوَى هَذَا التَّعْلِيمِ، وَمِنْ لَوَازِمِهِ
 الْفِكْرِيَّةِ، فِي مَسِيرَاتِهِمُ الدَّعْوِيَّةِ .

• ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا﴾ : أي: قُلْ
 لِمَنْ تَرْجُو اسْتِجَابَتَهُمْ مِنْهُمْ وَلَوْ بِالظَّنِّ الضَّعِيفِ هَذَا الْقَوْلِ . طَوِيْتُ مِنْ
 اللَّفْظِ كَلِمَةً؛ «قُلْ» لِأَنَّ إِذْرَاكَهَا فِي مُتَنَاولِ فِكْرِ السَّامِعِ أَوْ الْقَارِئِ، الَّذِي
 يَمْلِكُ بَدَايَا تِ التَّفَكِيرِ فِي مَعَانِي الْكَلَامِ .

وَقَدْ جَاءَ الثُّنْقُ بِهَا مَرَّتَيْنِ بَعْدَ هَذَا فِي النَّصِّ فِي: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا﴾
وفي: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

إِنَّهُ لَمَّا كَانَ الدُّعَاءُ الْبَشَرِيُّونَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى مَبَادِيٍّ وَأَنْظَمَةِ هُمْ
يَضَعُونَهَا، وَلَا يُطَبِّقُونَهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، بَلْ يَحْمِلُونَ النَّاسَ عَلَى تَطْبِيقِهَا
لِمَصَالِحِهِمْ، كَانَ مِنْ وَاجِبِ الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ فِي مُقَدِّمَتِهِمُ الرَّسُولُ أَنْ
يُغْلِنُوا أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ مِنْ رَبِّهِمْ بِعِبَادَتِهِ، وَمَأْمُورُونَ كَسَائِرِ النَّاسِ بِأَنْ يَكُونُوا
مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِلَّهِ.

وَلَمَّا كَانَ مُشْرِكُو مَكَّةَ يُعْظَمُونَهَا وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهَا حَرَمًا حَرَامًا
لَا يُنْفَرُ صَيِّدُهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا، وَلَا يُقَطَّعُ شَجَرُهَا، وَلَا يُتَعَرَّضُ فِيهَا
لِأَحَدٍ بِأَذَى أَوْ ضَرْ، بَلْ يُؤْمَنُ دَاخِلُهَا، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ مَعَ اعْتِقَادِهِمْ حُرْمَةَ
هَذِهِ الْبَلَدَةِ، يُخَالِفُونَ مُعْتَقَدَهُمْ فَيَتَعَرَّضُونَ لِلرَّسُولِ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ بِالْأَذَى
وَالْتَعَذِيبِ وَالِاضْطِهَادِ، فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَرْزَاقِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي أُسَالِيبِ
الدُّعْوَةِ أَنْ يُغْلِنَ الرَّسُولُ لَهُمْ، أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي
حَرَّمَهَا.

وَبَدَّهِيَ أَنَّ اللَّهَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ هُوَ الْأَمْرُ لَهُ بِهَذَا، أَي: فَأَطِيعُوا
رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي تَفْتَحِرُونَ بِأَنَّكُمْ أَهْلُهَا وَحُمَاتُهَا عَلَى سَائِرِ قِبَائِلِ
الْعَرَبِ، وَالَّذِي أَكْسَبَكُمْ هَذَا الْمَجْدَ الْمُورُوثَ مِنْ عَهْدِ النَّبِيِّينَ الرَّسُولَيْنِ
إِبْرَاهِيمَ وَوَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَمَنْ طَاعَتِكُمْ لِرَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ أَنْ
تُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ، وَبِالْقُرْآنِ الَّذِي يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ تَتَّبِعُوهُ مُسْلِمِينَ لِلَّهِ رَبِّكُمْ،
لَا مُسْتَكْبِرِينَ وَلَا مُتَّبِعِينَ لِأَهْوَائِكُمْ، وَتَقَالِيدِكُمُ الْعَمِيَاءِ، وَعَابِدِينَ لِأَوْثَانٍ لَا
تَنْفَعُكُمْ وَلَا تَضُرُّكُمْ بِشَيْءٍ.

هذه المعاني كُلُّهَا تُفْهَمُ مِنَ اللَّوَاظِمِ الْفِكْرِيَةِ لِقَوْلِهِ لَهُمْ.

﴿إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ وفي هذه العبارة

حَضَرُ وَقَضَرُ بِالْأَدَاةِ ﴿إِنَّمَا﴾ وَالْمَعْنَى: مَا أُمِرْتُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَسُولًا لِلْعَالَمِينَ، إِلَّا بَأَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ مَكَّةَ، الَّذِي جَعَلَهَا بَلَدَةً مُحَرَّمَةً، ذَاتَ حُرْمَةٍ عَظِيمَةٍ عِنْدِهِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَنِي نَبِيًّا وَرَسُولًا لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَأَنَا أَوَّلُ الْمَأْمُورِينَ بِعِبَادَتِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ الْأُمَمِ، وَأَنَا لَهَا خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

هذه الإضافات على العبارة معروفة من دلالات نصوص سابقة، فهي منسجمة في التصور على كل بيان لاحق.

عبارة ﴿رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ تُعَبِّرُ عَنْ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، لِأَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْمَتَصَرِّفُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، إِيجَادًا وَإِعْدَامًا، وَتَغْيِيرًا، وَزِيَادَةً وَنَقْصًا، وَتَحْرِيكًا وَتَسْكِينًا، وَإِمْدَادًا بِالْبَقَاءِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَصَارِيفِ رُبُوبِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ.

ولهذا جاء في القرآن المجيد بيان أن الله عز وجل ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - وَرَبُّ الْعَرْشِ - رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ - رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ - وَرَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ - فهو جلَّ جلاله ربُّ كلِّ شيءٍ في الوجود.

﴿الَّذِي حَرَمَهَا﴾: أي: الَّذِي جَعَلَهَا بَلَدَةً حَرَامًا، وجاء في القرآن ذِكْرُهَا بِعُتْوَانِ ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(١). ويظهر معنى كَوْنِ مَكَّةَ بَلَدًا حَرَامًا مِمَّا وَرَدَ بِشَأْنِهَا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ.

(١) روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ:

«إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (التين/ ٢٨ نزول) في المجلد الثاني. حول الأمن في مكة.

يُحَرِّمَ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقِطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ.

فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا الْإِذْخِرَ، فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبَيوتِهِمْ.
فَقَالَ: «إِلَّا الْإِذْخِرَ».

الْقَيْنَ: الحِذَادُ والصَّانِعُ، وَجَمْعُهُ «قَيْنُونَ».

لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ: أَي: لَا يُقَطَّعُ بِالْمِعْضَدِ، وَهِيَ آلَةُ حَدِيدِيَّةٌ يُقَطَّعُ بِهَا الشَّجَرُ.

وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ: أَي: وَلَا يُقَطَّعُ حَشِيشُهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلَا يُلْتَقِطُ سَاقِطَتُهَا إِلَّا مُنْشِدٌ».

(٢) وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

يَقُولُ:

«لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السَّلَاحَ».

• ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾: الْإِلَاحُ فِي: ﴿وَلَهُ﴾ لِلْمَلِكِ، أَي: وَلَهُ مِلْكُ كُلِّ شَيْءٍ. دَلَّتْ عِبَارَةُ ﴿رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدِ﴾ عَلَى أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ مَالِكُ هَذِهِ الْبَلَدِ، إِذْ هُوَ خَالِقُهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَوَامًا، فَتَنَاسَبَ هَذَا أَنْ يَأْتِيَ بِعِبَارَةٍ عَامَّةٍ شَامِلَةٍ تُفِيدُ أَنَّهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ مِنَ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ قَدْ جَاءَ بَيَانُهَا وَتَثْبِيْتُهَا وَتَأْكِيدُهَا فِي نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا، مِنْهَا: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - لَمْ يَلِكْ أَلَمٌ أَلَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ.

• ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: أي: وأمرت من الله ربي أن أكون مسلماً من المسلمين، مُسْتَسْلِماً مُطِيعاً لَهُ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ الْمُسْلِمِينَ بِهِ، وَفِي كُلِّ مَا يَنْهَى الْمُسْلِمِينَ عَنْهُ، وَقَدْ يَزِيدُنِي تَكْلِيفاً فَعَلَيَّْ أَنْ أَكُونَ مُسْلِماً لَهُ مُطِيعاً، وَمَا يَأْذُنُ لِي بِهِ بِصِفَةِ خَاصَّةٍ لِمَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِ رِسَالَتِي، أَوْ يَخْتَصُّنِي بِهِ، فَأَنَا فِيهِ مُسْلِمٌ لِرَبِّي قِيَادِي، خَاضِعٌ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

المُسْلِمُ: المنقاد المطيع. يقال لغة: «أُسْلِمَ، يُسْلِمُ، إِسْلَاماً» أي: انقادَ مُطِيعاً، غير عاصٍ وَلَا مُعْتَرِضٍ وَلَا رَافِضٍ لِلانقياد والطاعة.

• ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾: أي: وأمرت أن أتلى القرآن في خاصة نفسي، وَعَلَى النَّاسِ الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَذْعُوهُمْ إِلَى الدِّينِ الَّذِي أَرْسَلَنِي بِهِ رَبِّي، وَعَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَاتَّبَعُونِي، لِأَعْلَمَهُمْ كِتَابَ رَبِّي، حَتَّى يَتَذَكَّرُوهُ وَيَنْشُرُوهُ فِي النَّاسِ دُعَاءَ وَمُعَلِّمِينَ.

﴿أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾: أي: أنطق به مِنْ حِفْظِي، مُتَّبِعاً حُرُوفَهُ وَكَلِمَاتِهِ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ. تقول لغة: «تَلَوْتُ الْقُرْآنَ أَتْلُوهُ تِلَاوَةً». فعل «تَلَا يَتْلُو تُلُوّاً» يَأْتِي فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى «تَبَعَ» يُقَالُ: «تَلَاَهُ» أَي: تَبِعَهُ فَهُوَ تَالٍ، وَاسْتُعْمِلَ بِمَعْنَى التَّنَطُّقِ بِالْقُرْآنِ مَعَ تَتَبُّعِ حُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ كَمَا أَنْزَلَ.

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ التِّلَاوَةُ تَتَّبِعُ لِلْمَكْتُوبِ مِنْهُ فَهِيَ قِرَاءَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لَجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ لَهُ: ﴿اقْرَأْ﴾ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ فِي حِرَاءَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»: أَي: مَا تَعَلَّمْتُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ.

• ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٩١):

أي: فَمَنْ اسْتَجَابَ لِدُعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، الْهَادِيَّةِ، إِلَى طَرِيقِ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَآمَنَ وَأَسْلَمَ وَاسْتَقَامَ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ، فَاهْتَدَىٰ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَهْتَدِي إِلَّا لِتَحْقِيقِ سَعَادَةِ نَفْسِهِ، فَهُوَ الْمُسْتَفِيدُ وَحْدَهُ مِنْ اسْتِجَابَتِهِ وَاهْتِدَائِهِ.

وَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ مُتَأَثِّراً بِدَاعٍ مَا مِنَ الدَّوَاعِي، بَعْدَ إِذْرَاكِهِ
لِلْحَقِّ أَوْ رَافِضاً إِذْرَاكُهُ وَالْإِصْغَاءَ لِبَيَانَاتِهِ، وَرَافِضاً التَّفَكُّرَ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ
وَالْمَنْزَلَةِ عَلَى رَسُولِهِ، ضَلَّ فِي مَتَاهَاتِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَزِينَاتِ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا، وَدُرُوبِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ وَالْإِثْمِ، وَأَزْتَكَابِ الْجِرَائِمِ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إِلَّا
نَفْسَهُ، إِذْ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ بِضَلَالِهِ لِعَذَابِ أَلِيمٍ، مَعَ الْخُلُودِ فِي جَهَنَّمَ دَارِ
الْمَجْرِمِينَ يَوْمَ الدِّينِ، إِذَا كَانَ ضَلَالُهُ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ.

دَلَّتْ عبارة ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ عَلَى أَنَّ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
جَانِباً عَلَى نَفْسِهِ، وَجَالِباً الضَّرَرَ وَالْعَذَابَ لَهَا، دُونَ أَنْ يُشَارِكَهُ أَحَدٌ فِي
عَذَابِهِ، إِلَّا مَنْ ضَلَّ مِثْلَ ضَلَالِهِ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرَّ.

• ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَي: فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُ: بِمَا أَنَّكَ لَمْ
تَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّكَ، فَانْطَلَقْتَ هَائِماً فِي أَوْدِيَةِ الضَّلَالِ وَالْعَيِّ،
فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُنذَرٌ بِعَذَابِ أَلِيمٍ خَالِدٍ يَوْمَ الدِّينِ، وَانْحَصَرْتَ وَظِيفْتِي بِالنِّسْبَةِ
إِلَيْكَ بِأَنْ أَكُونَ مُنذِراً فَأَنَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ الْمُنذِرِينَ، وَلَوْ اسْتَجَبْتَ
لِدَعْوَةِ رَبِّكَ لَكُنْتُ لَكَ مِنَ الْمُبَشِّرِينَ.

وَيَنْسَجِبُ عَلَى الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ هَذَا التَّوْجِيهُ
التَّعْلِيمِي، لِأَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ مَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِتَبْلِيغِهِ، وَقَائِمٌ
بِالْوِظَافَةِ الدَّعَوِيَّةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولُهُ بِالْقِيَامِ بِهَا، وَهُوَ مُطَالِبٌ
بِالتَّزَامِ التَّعْلِيمَاتِ الَّتِي وَجَّهَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ.

مَعَ مَا فِي هَذَا النَّصِّ التَّعْلِيمِيِّ لِلرَّسُولِ مِنْ خُطَابٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ مِنَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَعْنِيِّينَ بِالْمُعَالَجَةِ فِي السُّورَةِ، وَلِنُظَرَائِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ فِي عَصْرِ
التَّنْزِيلِ وَفِي الْعُصُورِ اللاحقات، كَشَأْنِ سَائِرِ النُّصُوصِ الْمَشَابِهَةِ.

• ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾
وَفِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى: [عَمَّا يَفْعَلُونَ] بَيَاءُ الْغَائِبِينَ.

هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى بَيَانِ تَعْلِيمِي مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَفِي هَذَا الْبَيَانِ ذِكْرُ عُنوانِي لِعَنَاصِرِ الْمَوْضُوعِ الْمَطْوَلِ الَّذِي يَنْبَغِي تَوْجِيهَهُ لِلْمَعْنِيِّينَ بِالْمَعَالِجَةِ وَلِنُظَرَائِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ فِي الْقُرُونِ الْآتِيَةِ.

عناصر هذا الموضوع ثلاثة:

العنصر الأول: حَمْدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِذِكْرِ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَالثَنَاءِ عَلَيْهِ بِهَا، وَمِنْهَا عِلْمُهُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَقُدْرَتُهُ الَّتِي يَخْلُقُ بِهَا مَا يَشَاءُ، وَحِكْمَتُهُ الَّتِي يَخْتَارُ بِهَا الْأَحْكَمَ وَالْأَحْسَنَ وَمَا هُوَ خَيْرٌ دَوَامًا، وَأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ فِي الْكَوْنِ خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ مِلْكُهُ يَتَصَرَّفُ فِيهِ بِحِكْمَتِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، فَضْلًا وَعَدْلًا.

دَلَّتْ عَلَى هَذَا الْعُنْصُرِ عِبَارَةٌ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أَي: كُلُّ الْحَمْدِ وَالثَنَاءِ لِلَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ، لِأَنَّ كُلَّ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِلاَ نَقْصٍ هِيَ صِفَاتُهُ، فَلَا جُزْئِيَّةَ مِنْ جُزْئِيَّاتِ الْحَمْدِ إِلَّا هُوَ مُسْتَحِقُّهَا، فَالْحَمْدُ كُلُّهُ جُمْلَةٌ وَتَفْصِيلًا هُوَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

العنصر الثاني: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ سَيَّرِي النَّاسَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الدِّينِ، بِدَلِيلِ حَرْفِ «السَّيْنِ» الدَّالُّ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ غَيْرِ الْبَعِيدِ جَدًّا، بِخِلَافِ «سَوْفَ» آيَاتٍ مِنْ آيَاتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ أَنَّهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْجَلِيلَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَى أَنَّ الْحَمْدَ كُلَّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ وَاجِبِي الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ لَهُ.

أَمَّا الثَّنَاءُ عَلَى الْعِبَادِ بِمَا فِيهِمْ مِنْ مَحَامِدَ، فَهُوَ تَابِعٌ لِحَمْدِ اللَّهِ، وَقَرُّعٌ مِنْ قُرُوعِهِ، إِذْ هُوَ الْخَالِقُ وَالْوَاهِبُ وَالْمَوْقِقُ، وَمَنْ اخْتَارَ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ فَعَلَ عَمَلٍ مَحْمُودٍ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يُجِدُّهُ بِالْقُدْرَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالتَّسْدِيدِ وَالْمَعُونَةِ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ الْخَالِقُ لَهُ، فَالْحَمْدُ لَهُ.

دَلَّ عَلَى هَذَا الْعُنْصُرِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي التَّعْلِيمِ لِرَسُولِهِ: ﴿سَيِّدُكُمْ

﴿إِنَّهُمْ فَعَّرُوْنَهَا﴾ والآيات التي سِيرِيهَا اللّٰهُ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا تَرْجَعُ إِلَى الْكَلِمَاتِ التَّالِيَةِ:

(١) مَا يَرَاهُ كُلُّ مُحْتَضِرٍ قُبَيْلَ مَوْتِهِ مِنْ بَعْضِ أُمُورِ الْآخِرَةِ، فَالْمُؤْمِنُ يَرَى مَنَزِلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللّٰهِ، فَيُحِبُّ اللّٰهُ لِقَاءَهُ، وَالكَافِرُ يَرَى مَكَانَهُ مِنَ النَّارِ، فَيَكْرَهُ لِقَاءَ اللّٰهِ، فَيَكْرَهُ اللّٰهُ لِقَاءَهُ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللّٰهِ عَلَى أَنْ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ عَنِ الْآخِرَةِ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ.

(٢) مَا يُحَقِّقُ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَخْبَارٍ عَنْ أَحْدَاثٍ مُّسْتَقْبَلِيَّةٍ، جَاءَتْ فِي بَيِّنَاتِ الْقُرْآنِ أَوْ فِي أَحَادِيثِ الرُّسُولِ الصَّحِيحَةِ، أَنَا فَاتِنًا، كَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ.

(٣) مَا يَكْشِفُ اللّٰهُ لِلنَّاسِ مِنْ آيَاتٍ كَوْنِيَّةٍ بِالْوَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ فَتَظْهَرُ مُطَابَقَتُهَا لِمَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ، أَوْ فِي بَيِّنَاتِ الرُّسُولِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنِ النَّاسُ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ يَعْلَمُونَ عَنْهَا شَيْئًا إِلَّا أَنْ تُنْزِلَ الْقُرْآنَ.

وَهَذَا مَا بَدَأَ الْبَاحِثُونَ يُقَبِّلونَ عَنْهُ، وَيُعْطُونَهُ عُنْوَانَ «الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ» وَقَدْ ظَهَرَ حَتَّى الْآنَ الْكَثِيرُ مِنْ هَذَا الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللّٰهِ الَّتِي وَعَدَ اللّٰهُ بِأَنْ يُرِيَهَا لِلنَّاسِ، عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ.

وَقَدْ جَاءَ تَفْصِيلُ هَذَا الْوَعْدِ بَيِّنًا مُّبَاشِرًا مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ [فَصَلَتْ/ ٤١/ مَصْحَف/ ٦١/ نَزُول]:

﴿سَتُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾﴾.

يَتَحَدَّثُ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ ذَرَّةٌ وَلَا أَصْغَرُ فِي كُلِّ الْوُجُودِ.

وَآيَاتُهُ فِي الْآفَاقِ وَفِي الْأَنْفُسِ هِيَ الْعَجَائِبُ الْكُونِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، الدَّالَّاتُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي آلِهِيَّتِهِ.

وكشَفَ هذه الآياتِ يُرَادُ بِهِ بَيَانُ مِطَابَقَةِ وَاقِعِهَا لِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ عَنْهَا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مُنْزَلٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، دَلٌّ عَلَى هَذَا الْمِرَادِ عِبَارَةٌ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: أي: وَالَّذِي هُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، كَبِيرًا كَانَ أَمْ صَغِيرًا، وَشَهِيدٌ شُهُودًا تَامًا لَهُ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُخْبِرَ عَنْهُ إِلَّا خَبْرًا مُطَابِقًا لَوَاقِعِ حَالِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ نَزِيلٌ مِنْ لَدُنْهُ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ.

الآفاق: هي الأبعاد العُلَيَا المَحِيطَةُ بِالْأَرْضِ.

الشَّهِيدُ: هُوَ الْحَاضِرُ الَّذِي يَرَى كُلَّ شَيْءٍ حَضَرَهُ.

العَنْصُرُ الثَّالِثُ: بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعِبَادِ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

أي: هُمْ مَجْزِيُّونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ الْإِرَادِيَّةِ، وَمِنْ لَازِمِ قَانُونِ الْجَزَاءِ عِلْمُ اللَّهِ الشَّامِلِ بِمَا يَعْمَلُونَ، وَمِنْ مُقْتَضَى الْعِلْمِ الشَّامِلِ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا يَعْمَلُونَ، سِوَاءٍ أَكَانَ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ، أَمْ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ.

فجاء التعبير التعليمي ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: [عَمَّا يَعْمَلُونَ] كِنَايَةٌ عَنْ أَنَّهُمْ مَجْزِيُّونَ بَعْدَ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَكِنَايَةٌ عَنْ شُمُولِ عِلْمِهِ، بِذِكْرِ لَازِمٍ مِنْ لَوَازِمِ شُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ، وَهُوَ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَتَعَرَّضُ لِغَفْلَةٍ مَا عَنْ مُشَاهَدَةِ عِبَادِهِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، مَعَ شُهُودِهِ جَلَّ جَلَالُهُ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ.

وعبارة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ التَّعْلِيمِيَّةُ فِيهَا الدَّلَالَةُ عَلَى مَا

يلي:

أي: وَقُلْ لِمَنْ تُعَالِجُهُ مِنْ أَفْرَادِ الْكَافِرِينَ: وَمَا رَبُّكَ خَالِقُكَ

وَالْمَتَّصِرُفُ بِكَ بِصِفَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، أَفَرَادًا وَجَمَاعَاتٍ، وَسَوْفَ يَجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَيُخَبِّطُ مَا تُدَبِّرُونَ ضِدَّ رَسُولِهِ وَكِتَابِهِ، وَالْمُؤْمِنِينَ، وَيَرُدُّ كَيْدَكُمْ إِلَى نُحُورِكُمْ.

الباء في: ﴿يَغْفِلُ﴾ زِيدَ لِلتَّنْصِصِ عَلَى الْعُمُومِ، أَوْ تَأْكِيدِ عُمُومِ النَّفْيِ بِحَرْفِ «مَا» كَمَا يُقَرَّرُ النُّحُوتُونَ.

أَمَّا قِرَاءَةُ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فَهِيَ أَيْضًا تَعْلِيمِيَّةٌ، وَفِيهَا الدَّلَالَةُ عَلَى مَا يَلِي:

أَي: وَقُلْ لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي يَمْسُهُ أَذَى الْكَافِرِينَ وَاضْطْهَادُهُمْ: وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بِحُكْمَتِهِ سَيَجْزِيهِمْ، وَسَيَنْصُرُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ، وَسَتَكُونُ لَكُمْ الدَّوْلَةُ وَالسُّلْطَانُ، إِذَا اسْتَمْسَكْتُمْ بِدِينِهِ، وَاتَّبَعْتُمْ آيَاتِهِ، وَأَطَعْتُمْ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس السَّابِعِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (النمل) وَهُوَ الدَّرْسُ الْأَخِيرُ مِنْهَا، وَبِهِ يَتِمُّ تَدَبُّرُ السُّورَةِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ، إِنَّهُ السَّمِيعُ الْمَجِيبُ الْوَهَّابُ.



ملاحق تدبر سورة (النمل)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة.

الملحق الثاني: تَعْلَةُ الْمَكْذِبِينَ يَوْمَ الدِّينِ هِيَ تَوْجِيهِ الْإِسْتِفْهَامِ التَّعْجِيبِيِّ.

الملحق الثالث: دراسة تكاملية للنصوص بشأن صالح عليه السلام وقومه ثمود في القرآن المجيد.



(١١)

الملحق الأول

مستخرجات بلاغية من السورة

في سورة (النمل) نفائس بلاغية كثيرة، استخرجت منها ما جاء في هذا الملحق، وتوجد فيها نفائس أخرى من أنواعها تركت استخراجها للمهتمين بالتحريي عن البلاغيات، وتوجد بلاغيات لم أهتم إلى استخراجها، موقناً بأن القرآن مشحون بالكنوز الدرية من البلاغيات والفكريات، وأنها ستكتشف بتوفيق الله وفتح من قبل من يقيضهم الله عز وجل لذلك.

أولاً

من الفنون البلاغية استخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، في الإشارة إلى المشار إليه القريب، للدلالة على بُعد منزلته ارتفاعاً وسموً، أو للدلالة على بُعد درجته انخفاضاً وانحطاطاً وتسفلًا.

(١) قول الله عز وجل:

﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾﴾:

في هذه العبارة جاءت الإشارة إلى آيات القرآن القريبة، المقدمة للتلاوة، والموجودة في أذهان الحفاظ، ومكتوبات المسلمين، باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ الموضوع للمشارة إليها البعيدة، للدلالة بهذا الإجراء على بُعد منزلتها ارتفاعاً وسموً، في معانيها، وفي مبانيها، وفي تأثيراتها الربانية، بما جعل الله عز وجل لها من تأثيرات عجيبات بتقديره وقضائه.

(٢) وقول الله عز وجل بشأن الذين لا يؤمنون بالآخرة:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ﴿٥﴾﴾:

في هذه الآية أَشِيرَ إِلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، الذين جاء الحديث عَنْهُمْ قَبْلَهَا، بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْمِشَارِ إِلَيْهِمُ الْبَعِيدِينَ، مع قُرْبِ الحديث عَنْهُمْ، لِلدَّلَالَةِ بِهَذَا الْإِجْرَاءِ عَلَى بُعْدِ ذَرَكَاتِهِمْ انْحِطَاطاً وَمَهَانَةً وَخِسَةً، فَهُمْ لَيْسُوا جَدِيرِينَ بِأَنْ يُتَحَدَّثَ عَنْهُمْ حَاضِرِينَ قَرِيبِينَ.

ثانياً

ومن الفنون البلاغية توكيدُ الْخَبَرِ بِمُؤَكَّدٍ أَوْ أَكْثَرَ، لَأَنَّ حَالَ الْمُقْصُودِينَ بِإِبْلَاغِهِمْ إِيَّاهُ، سَوَاءٌ أَكَانُوا الْمَخَاطَبِينَ بِهِ أَمْ غَيْرَهُمْ، مِمَّنْ يُرَادُ إِعْلَامُهُمْ بِأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، تَقْتَضِي توكيدَ الْخَبَرِ لَهُمْ، إِذْ هُمْ مُنْكَرُونَ أَوْ شَاكُونَ، أَوْ بَيْنَ بَيْنٍ.

وفي سورة (النمل) أمثلة كثيرة، أَلْفِتُ النَّظَرَ إِلَى بَعْضِهَا:

(١) قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١﴾

في هذه الآية توكيد الخبر بمؤكدين: «إِنَّ - الجملة الاسمية».

وهذا التوكيد يَصْلُحُ لِأَنْ يُوجَّهَ لِبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَعْنِيُّونَ الْأَوَّلُونَ بِأَنْ يُؤَكَّدَ لَهُمُ الْخَبَرُ هُمْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَنْفُسُهُمْ، وَقَدْ أُبْلِغُوا الْخَبَرَ الْمُؤَكَّدَ بِأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، لَمْ يُوَاجَهُوا بِهِ.

(٢) وقول الله عز وجل بشأنهم أيضاً:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ وَالْآخِرُونَ﴾ ﴿٢﴾

في هذه الآية توكيد الخبر بِضَمِيرِ الْفَضْلِ فِي: ﴿هُمْ الْآخِرُونَ﴾. والتوكيد هنا نظير سابقه.

(٣) وقول الله عز وجل خطاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿وَلَيْكَ لِلْفِرْعَانِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿١﴾﴾:

في هذه الآية تأكيد الخبر بـ «إِنَّ» - الجملة الاسمية - اللام المرحلة. وهذا التأكيد مُوجَّه في الظاهر للرُّسُول ﷺ، والمَقْصُودُونَ بِهِ مُكْذِبُوهُ، والمَكْذُوبُونَ بِأَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ.

(٤) وقول الله عزَّ وجلَّ في الحديث عن سليمان عليه السلام:

﴿وَتَقَعْدَ الظِّمِرَ فَقَالَ مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَيْهْدُ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَكَايِينِ ﴿٢٠﴾ لَأَعَذِبَنَّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾﴾:

في هذا القول الذي قاله سليمان عليه السَّلام التوكيد بالقَسَمِ المُنَوِّي، وباللَّام الواقعة في جوابه، وبُنُوْنِ التوكيد الثقيلة، في المواضع الثلاثة.

(٥) وقول الله عزَّ وجلَّ حكايةً لِمَا أُنْطِقَ بِهِ الْهَيْهْدُ:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾:

أَكَّدَ الْهَيْهْدُ بتوكيد دَلَّ عليه: «إِنَّ» - والجملة الاسمية.

والداعي لهذا التوكيد، أَنَّ الْهَيْهْدُ في مَوْقفِ المحاسبة له عَلَى تَغْيِيهِ بَغْيَرِ أَمْرٍ أَوْ إِذْنٍ لَهُ. مِنْ سَيِّدِهِ سليمان عليه السلام.

(٦) قول الله عزَّ وجلَّ حكايةً لقول «بَلْقِيس» مَلِكَةِ «سَبَأَ»:

﴿قَالَتْ يَأْأَيُّ الْمَلِكُ إِنِّي أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ كِتَابَ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ مِنْ شُعَيْنٍ وَإِنَّهُمْ يُسْمِرُ

اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

وحكاية لقولها:

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ

يَفْعَلُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

في هذه الآيات تأكيد الأخبار في عِدَّة مواضع بـ «إِنَّ» - والجملة الاسمية وهي: [إِنِّي أُلْقِي - إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ - وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ - إِنَّ الْمُلُوكَ - وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ].

والداعي لهذه التوكيدات إقناع المَلِكَة «بَلْقِيس» رِجال دَوْلَتها بأنَّ الحَكْمَة تقتضي عَدَم اللُّجُوء إلى قتال سليمان، بَعْدَ قَوْلهم لها: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (٣٣) معلنين بهذا استِعْدَادهم لِلْقِتَال.

(٧) قول الله عز وجل حكاية لقول العفريت من الجن بشأن عرش بلقيس:

﴿قَالَ عَفَرْتُ مَنِ الْجِنِّ أَنَا مَا لِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (٣٩):

فأكد العفريت عبارته بـ «إِنَّ» - الجملة الاسمية - اللام المزحلقة. والداعي شعوره بأنَّ سُلَيْمَانَ يَشْكُ في قُدْرَتِهِ وفي أَمَانَتِهِ على عرش الملكة «بَلْقِيس» العظيم بحجْمِهِ وجواهرِهِ.

(٨) قول الله عز وجل حكاية لمعنى ما قاله سليمان عليه السلام، حين رأى عرش «بَلْقِيس» مُسْتَقَرًّا عنده قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ:

﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾:

جاء في هذا النصُّ التوكيد بـ «إِنَّمَا» الحاصرة في عبارة: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾. والتوكيد بـ «إِنَّ» - والجملة الاسمية - في عبارة ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

والتوكيد فيهما مُوجَّهٌ لِلجَاهِلِينَ الَّذِينَ يَشْكُونَ، أو لم يَثْبُتْ بَعْدُ لَدَيْهِمْ مَا فيهما من حقائق إيمانيَّة.

(٩) قول الله عز وجل في حكاية قصة «بَلْقِيسَ» ودَعَوَتَهَا لِدُخُولِ صَرْحِ «سُلَيْمَانَ» عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

في عبارة «سُلَيْمَانَ» عليه السَّلَام: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ التوكيد بـ «إِنَّ» - والجملة الاسمية «وأرى أن التصريح بقوله: [صَرْحٌ] بِقُوَّةِ التوكيد بضمير الفصل، إِذْ كَانَ يَكْفِي أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ، والداعي رَفْعُ تَوْهُمِهَا أَنَّهَا تَخُوضُ فِي مَاءٍ.

وفي عبارة «بَلْقِيسَ»: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي...﴾ التوكيد بـ «إِنَّ» - والجملة الاسمية.

والداعي لتوكيدها إثباتُ صِدْقِ إِيْمَانِهَا وَإِسْلَامِهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ كَافِرَةً مِّن قَوْمٍ كَافِرِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ، فمَثَلُ هَذَا التَّحَوُّلِ يَحْتَاجُ تَوْكِيدًا.

(١٠) وقول الله عز وجل خطاباً لِرَسُولِهِ، وَالْمَقْصُودُونَ بِالتَّوْكِيدِ فِيهِ الَّذِينَ يَحْسُنُ تَوْكِيدُ الْخَبَرِ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ مُسْلِمِينَ أَمْ غَيْرَ مُسْلِمِينَ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

في كُلِّ آيَةٍ مِّن هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ تَوْكِيدُ الْخَبَرِ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ بـ «إِنَّ» - والجملة الاسمية - وَاللَّامُ الْمَرْحَلَةُ إِلَى الْخَبَرِ.

(١١) وقول الله عز وجل:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّهُمْ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

في الآية (٧٦) توكيد خبرها بـ «إِنَّ» - والجملة الاسمية.

وفي الآية (٧٧) توكيد خبرها بـ «إِنَّ» - والجملة الاسمية - واللام المزعجة.

والتوكيد فيهما يُقصد به مطابقة الكلام لما يُلائم أحوال الكافرين، والشاكين، والذين هم بين بين.

إلى غير ما سبق من أمثلة في السورة.

ثالثاً

ومن الفنون البلاغية الإيجاز بالحذف، ونجد منه في سورة (النمل) ما يلي:

(١) قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ ①:

أي: إن الذين لا يؤمنون بالآباء المتتابعة عن الآخرة بعد البعث للحساب وفضل القضاء وتنفيذ الجزاء معاندين ومكابرين بإرادات حرة ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ الجائرة الجانحة عن الصراط المستقيم، بمقتضى سنننا العامة التي تجري على البر والفاجر، فرأوها حسنة جالبة لهم لذات من متاع الحياة الدنيا، فانظمت بسبب كفرهم العنادي بالآخرة بصائرهم ﴿فَهُمْ﴾ في سعيهم في حياتهم الدنيا ﴿يَعْمَهُونَ﴾ متحيرين متخبطين سائرين على غير هدى.

(٢) وقول الله عز وجل في بيان لقطات من قصة موسى عليه

السلام:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سائِكُم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس

لعلكم تَصْطَلُون ②﴾:

أي: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ فَأَنَا ذَاهِبٌ إِلَىٰ جِهَتِهَا حَتَّىٰ أَصِلَ إِلَىٰ مَا حَوْلَهَا، وَسَائِلُ أَهْلِهَا عَنْ أَخْبَارِ الطَّرِيقِ إِلَىٰ مِصْرَ، وَأَرْجُو أَنِّي ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْ﴾ أَهْلِ ﴿هَا بِخَبَرٍ﴾ يَهْدِينِي الطَّرِيقَ ﴿أَوْ ءَاتِيكُمْ﴾ مِنَ النَّارِ ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّنُكُو تَصْطَلُونَ﴾.

(٣) وقول الله عز وجل لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١):

أي: قل يا مُحَمَّدُ إِنَّمَا أَمِرتُ، وقد جاء التصريح بفعل «قُل» في الآيتين التاليتين (٩٢ و ٩٣).

رابعاً

ومن الفنون البلاغية في السورة حَدِيثُ الله عز وجل عن نَفْسِهِ بِضَمِيرِ المتكلم المفرد في مواضع لداعٍ بلاغي.

وَحَدِيثُهُ عن نَفْسِهِ بِضَمِيرِ المتكلم العظيم في مواضع أُخْرَى لداعٍ بلاغي آخر.

• فَمِنْ حَدِيثِهِ عن نفسه بِضَمِيرِ المتكلم المفرد لِعَرَضِ الإِنْسَانِ، أو التَّلَطُّفِ والترفق بعباده، ما يلي:

(١) قول الله عز وجل يخاطب موسى عليه السَّلام:

﴿يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٩١).

(٢) وقوله لَهُ أيضاً:

﴿... إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ (١٠).

(٣) وقوله عز وجل:

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَرَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١) :

• ومن حديثه عن نفسه جلّ جلاله بضمير المتكلم العظيم، لتربية المهابة، وبيان جلال الربوبية، وعظمة صفات الرب وأفعاله الجسام، ما يلي:

(١) قول الله عز وجلّ عن فرعون وملئه:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) :

فقال تعالى: ﴿ءَايَتُنَا﴾ بضمير المتكلم العظيم، إذ كانت آيات عظيما تدلّ عظمة الربوبية، وسلطان الرب الذي يفعل ما يشاء.

(٢) وقول الله عز وجلّ:

﴿... وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا...﴾ (١٥) :

(٣) وقوله عز وجلّ :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ (٢٥) :

(٤) وقوله عز وجلّ بشأن قوم ثمود:

﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) **فَانْظُرْ كَيْفَ**
كَانَ عِقَابُهُمْ مَكْرَهُمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥١) **فَتِلْكَ يَوْمَهُمْ
خَاوِبَةٌ يَمَّا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢) **وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٣) :****

(٥) وقوله عز وجلّ بشأن لوط عليه السلام وأهله وقومه:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ (٥٧) **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ**
مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٥٨) :

ففي هذه النصوص استعمال ضمير المتكلم العظيم في: [آتينا -

أَرْسَلْنَا - وَمَكَّرْنَا - أَنَا دَمَرْنَا هُمْ - وَأُنَجِّينَا - فَأَنْجَيْنَاهُ - قَدَّرْنَا هَا - وَأَمْطَرْنَا].
ونظائرها في الآيات «٦٠ و ٨١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٦».

خامساً

ومن اللطائف البلاغية في تحرّي الدقّة، استعمالُ الفِعْلِ الماضي المَبْنِي لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، فِي حِكَايَةِ حَدِيثٍ جَرَى، لِأَنَّهُ الْمَلَأْتُمْ لَوَاقِعِ حَالٍ مَنْ جَرَى لَهُ الْحَدِيثُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ الْفَاعِلَ حَيْثُذِ.

ومنه في السّورة لدى الحديث عن موسى عليه السّلام، إذ جاء إلى النار الّتي آنسها عَنْ بُعْدٍ:

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾:

إِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَمِعَ صَوْتًا يناديه لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَنْ الَّذِي كَانَ يُنَادِيهِ، فَكَانَ مِنَ الْمَلَأْتُمْ أَنْ يُقَالَ: ﴿نُودِيَ﴾ لَا أَنْ يُقَالَ: فَتَنَادَاهُ اللَّهُ. وَبَعْدَ جُمْلَتَيْنِ أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُكَلِّمُهُ. وَهَذَا مِنَ الدَّقَّةِ النَّامَةِ فِي وَضْعِ صَيَغِ الْأَلْفَاظِ فِي مَوَاضِعِهَا.

سادساً

ومن الفنون البلاغية الّتي عَلَّمَنَا الْقُرْآنُ حُسْنَ اسْتِخْدَامِهَا، فَرُتِ اسْتِثْقَاعُ النَّصْرِ مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي كَانَ فِي الْمَاضِي، أَوْ سَوْفَ يَجْرِي فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَتَقْدِيمُهُ فِي الْبَيَانِ كَمَا لَوْ كَانَ يَجْرِي فِي الْحَاضِرِ.

ومنه في السّورة في مَعْرِضِ خِطَابِ اللَّهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعَقِّبُ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ﴾ ﴿١٥﴾.

جاءت عبارة ﴿يَمُوسَى﴾ حَتَّى آخِرَ الْآيَةِ مُسْتَقْطَعَةً مِنْ حَدِيثِ جَرَى فِي الماضي، مُرَاعَاةً لَفَنِيَّةِ الاسْتِقْطَاعِ الْبَدِيعِ.

وَلَا أَرَى فِي هَذَا وَأَمْثَالِهِ تَقْدِيرَ نَحْوِ: فَنَادَاهُ اللَّهُ. أَوْ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ. لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّقْدِيرِ يُضْعِفُ مِنْ جَمَالِ فَنِيَّةِ الاسْتِقْطَاعِ، وَيَقْصُرُ الْبَيَانُ عَلَى مَجْرَدِ الْإِيجَازِ بِالْحَذْفِ.

سابعاً

(١) من الزيادات الإطنابية المفيدة طريقة الاحتراس، وتكونُ بزيادة إطنابية يَدْفَعُ بِهَا الْمُتَكَلِّمُ إِيْهَاماً اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كَلَامُهُ، وَمِنْهَا فِي السُّورَةِ مَا يَلِي:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ﴾ (١٢)

إِنَّ عِبَارَةَ: ﴿تَخْرُجْ يَيْضَاءً﴾ تُؤْهِمُ أَنَّ بَيَاضَهَا رُبَّمَا كَانَ عَنْ بَرَصٍ، فَجَاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تَكْمِيلاً اخْتِرَاسِيّاً لِدَفْعِ هَذَا الْإِيْهَامِ.

(٢) وَمِنْ الزِّيَادَاتِ الْإِطْنَابِيَّةِ الْمُفِيدَةِ التَّضْرِيحِ بِمَا هُوَ مَفْهُومٌ مِنَ الْعِبَارَةِ السَّابِقَةِ لَهُ، لِغَرَضِ التَّوَكِيدِ، وَدَفْعِ تَوْهَمِ غَيْرِ الْمُرَادِ، وَمِنْهَا فِي السُّورَةِ مَا يَلِي:

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ مِنْ قَوْمِهِ عَنِ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ الَّتِي أَجْرَاهَا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفْتِنَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا... ۖ﴾ (١٤)

الْجُحُودُ: إِنْكَارُ أَنَّ الشَّيْءَ حَقٌّ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ حَقٌّ، وَمَعَ اسْتِيقَانِ النَّفْسِ بِهِ.

وَفِرْعَوْنُ وَعَلِيَّةُ قَوْمِهِ قَدْ جَحَدُوا بِآيَاتِ الرَّسُولِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالَّتِي أَنْزَلْتُ بِالْمُضَرِّينَ مَصَائِبَ مُتَعَدِّدَةً، وَكَانُوا يَرْجِعُونَ إِلَىٰ مُوسَىٰ كَيْ يَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ، وَيَعْدُونَ بِأَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، ثُمَّ يَنْكُثُونَ.

لَكِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ جَحَدُوا كَوْنَهَا آيَاتٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَعَ اسْتِقَانِهِمْ بِأَنَّهَا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

عِبَارَةٌ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ تَذُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ عِلْمٍ بِأَنَّهَا آيَاتٌ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ.

وَجَاءَتْ عِبَارَةٌ: ﴿وَأَسْتَفْتَنَهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ إِطْنَابًا مُفِيدًا، فِيهِ تَوْكِيدٌ عِلْمِهِمُ الْمَفْهُومِ مِنْ جُحُودِهِمْ، وَفِيهِ دَفْعٌ تَوَهُمٍ أَنَّ جُحُودَهُمْ لَمْ يَكُنْ مَضْحُوبًا بِبَيِّنٍ كَامِلٍ مُخَالِفٍ لِمَا أَعْلَنُوهُ صِرَاحَةً بِأَلْسِنَتِهِمْ.

وَفِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ إِشَارَةٌ بِصِغَةِ الْجَمْعِ ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ الَّتِي هِيَ مِنْ صِيغِ جُمُوعِ الْقَلَّةِ إِلَىٰ أَنَّ جَمَاهِيرَ الْأَتْبَاعِ كَانُوا مُقَلِّدِينَ لِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَأَنَّ الْمُسْتَفْتِينَ كَانُوا فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا دُونَ الْعَشْرَةِ.

ثامناً

من الفنون البلاغية اختيار التنكير لداع بلاغي، كالتكثير، والتعظيم، والتقليل، والتخصيص بنوع من أنواع المنكر، وجاء في السورة من هذا الفن ما يلي:

(١) قول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ مَآئِنَا دَاوُدَ وَهَاتِلًا عَلِمًا...﴾ ﴿١٥﴾.

جاء لفظ ﴿عِلْمًا﴾ مُنْكَرًا لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ اللَّهَ آتَاهُمَا نَوْعًا خَاصًّا مِنْ الْعِلْمِ فَضَّلَهُمَا اللَّهُ بِهِ عَلَىٰ سَائِرِ عِبَادِهِ، وَمِنْهُ عِلْمُ مَنْطِقِ الطَّيْرِ.

(۲) وقول الله عز وجل بِشَأْنِ أَشْقِيَاءِ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: ﴿٥٠﴾

أي: وَمَكْرُؤًا خَفِيًّا مُحْكَمَ التَّدْبِيرِ لِقَتْلِ رَسُولِنَا صَالِحٍ وَأَهْلِهِ.
وَمَكْرُنًا مَكْرًا يَسِيرًا مُحْكَمَ التَّوْقِيتِ، فَعَاجَلْنَاهُمْ بِتَنْفِيزِ مَكْرِنَا، قَدْ مَرَّ نَاهِم
وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ، كما جاء في الآية (٥١).

تاسعاً

من المحسنات اللفظية الجميلة بديعة الجنس. ومن أنواعه ما يُسمى «الجناس المزدوج» أو «الجناس المكرر» أو «الجناس المُردّد» وهو أن يلي أحد المتجانسين الآخر.

وَمِنْ أَمْثَلِيهِ كَمَا ذَكَرَ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةَ لِمَا
قَالَ الْهُذُودُ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿... وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَارٍ يَقِينِ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿...﴾

وهذا من الإغراق في التَّفْسيّسات عِنْدَ البُلّاغيين، وهو في الحقيقة من الجناس الناقص.

عاشراً

من الدّواعي البلاغية القصر، ونَجِدُ مِنْهُ فِي السُّورَةِ مَا يَلِي:

(١) قول الله عز وجل حكاية لما قاله سليمان عليه السلام:

﴿... وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾ :

أي: وَمَنْ شَكَرَ رَبَّهُ عَلَىٰ مَا أُوْلَاهُ مِنْ نِعْمَةٍ فَإِنَّهُ لَا يَشْكُرُ إِلَّا لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ، إِذْ هُوَ بِشُكْرِهِ لَا يَنْفَعُ رَبَّهُ بِشَيْءٍ مَا، وَمَنْ كَفَرَ فَعَصَىٰ رَبَّهُ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ رَبَّهُ بِشَيْءٍ، إِذْ هُوَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ.

والأداة في هذا القصر «إنما» وهو قَصْرٌ حَقِيقِي، من قبيل قَصْرِ صِفَةٍ نَفَعِ الشَّاكِرِ لِرَبِّهِ عَلَى نَفْسِهِ.

(٢) وقول الله عز وجل:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢١) ﴿٢١﴾

أي: الله لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ، وهو قَصْرٌ حَقِيقِي، من قبيل قَصْرِ صِفَةِ الإِلَهِيَّةِ الْحَقِّ عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ. والأداة المستعملة في هذا القصر النَّفْيِ والاستثناء.

(٣) وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٧٥) ﴿٧٥﴾

أي: وما تُوجَدُ غَائِبَةٌ مَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هِيَ مَعْلُومَةٌ لِلَّهِ وَمُدَوَّنَةٌ فِي كِتَابٍ، وَقَدْ عَلِمْنَا مِنْ نُصُوصٍ أُخْرَى أَنَّهُ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

أداة القصر هنا: النفي والاستثناء.

والقصر هنا هُوَ مِنْ قَبِيلِ قَصْرِ مَوْصُوفٍ هُوَ كُلُّ غَائِبَةٍ، عَلَى صِفَةِ أَنَّهُ مَعْلُومٌ لِلَّهِ وَمُدَوَّنٌ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ.

وهو قَصْرٌ إِضَافِيٌّ، أي: بِالإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِ غَيْرَ مَعْلُومٍ وَلَا مُدَوَّنٍ، وهو يَرُدُّ اعتقاد غير المؤمنين بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ.

حَادِي عَشَرَ

ومن الفنون البلاغية إخراج الاستفهام عن طَلَبِ الْإِفْهَامِ إِلَى مَعَانٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ.

منه في السورة ما يلي:

(١) قول الله عز وجل:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ جَاهِلُونَ ﴿٥٥﴾﴾؟؟:

يُرَادُ بِالْإِسْتِفْهَامَيْنِ اللَّذَيْنِ وَجَّهَهُمَا لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ أَهْلِ سَدُومَ، الْإِنْكَارُ وَالتَّشْنِيعُ عَلَيْهِمْ، وَتَوْبِيخُهُمْ، وَالتَّعْجِيبُ مِنْ غُلُوِّهِمْ فِي ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ الشَّاذَّةِ.

(٢) وقول الله عز وجل:

﴿إِنَّكَ مَعَ اللَّهِ﴾ في الآيات (٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤).

وَيُرَادُ بِالْإِسْتِفْهَامِ هُنَا التَّنْبِيهُ الشَّدِيدُ عَلَى الْحَقِّ الْجَلِيِّ، وَالْإِنْكَارُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَالتَّعْجِيبُ مِنْ اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِذْ لَا أَحَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ، حَتَّى يَسْتَحِقَّ بِهَا إِلَهِيَّةً مَا.

(٣) وقول الله عز وجل:

﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾؟؟.

﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي﴾: اسْتِفْهَامٌ تَوْبِيخِيٌّ تَقْرِيعِي، وَفِيهِ مَعْنَى إِدَانَتِهِمْ بِجَرِيمَتِهِمُ الْعَظْمَى.

﴿أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟؟: اسْتِفْهَامٌ تَوْبِيخِيٌّ تَقْرِيعِي، بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ جَرَائِمٍ وَقَبَائِحَ، نَاتِجَةً عَنْ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمُ الْمَنْزَلَاتِ.

وَأَكْتَفَى بِهَذِهِ الْمُسْتَخْرَجَاتِ فِي هَذَا الْمُلْحَقِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ وَمَعُونَتِهِ.



(١٢)

الملحق الثاني

تَعْلَةُ المَكْذِبِينَ يَوْمَ الدِّينِ هِيَ تَوْجِيهِه الاسْتِفْهَامُ التَّعْجِيبِي

لم يكن لدى الكافرين المَكْذِبِينَ يَوْمَ الدِّينِ طَوَالَ المَرَحَلَةِ المَكِّيَّةِ، وحتى المرحلة المَدِينِيَّةِ، من مَسِيرَةِ الرُّسُولِ الدَّعْوِيَّةِ، من تَعْلَةٍ يَتَدَرَّعُونَ بِهَا غَيْرَ تَوْجِيهِه الاسْتِفْهَامُ التَّعْجِيبِي من الإحياء بَعْدَ الْمَوْتِ، عَلَى الرَّغْمِ من الحُجْجِ البرهانيَّةِ الدَّامِغَةِ، إِذْ كَانَتْ الآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ تَكْشِفُ لَهُمْ أَنَّ إِنْشَاءَ الْأَحْيَاءِ فِي الْخَلْقِ الْأَوَّلِ، مَعَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، دَلِيلٌ بُرْهَانِيٌّ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - عَلَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهَا إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ إِمَاتَتِهَا.

ولَدَيْنَا فِي الْقُرْآنِ المَجِيدِ عَشْرَةٌ نُصُوصٍ تَنْزَلَتْ فِي مَرَاحِلَ من نُجُومِ التَّنْزِيلِ فِي سَبْعِ سُورٍ، وَهَذِهِ النُّصُوصُ مَوْزَعَةٌ عَلَى مَرَاحِلِ التَّنْزِيلِ المَكِّيِّ، بِاسْتِثْنَاءِ نَصٍّ وَاحِدٍ مِنْهَا نَزَلَ فِي سُورَةِ (الرَّعْدِ) وَهِيَ مِنْ أَوَاسِطِ التَّنْزِيلِ المَدِينِيِّ، عَلَى خِلَافِ فِي كَوْنِهَا مَدِينِيَّةِ التَّنْزِيلِ.

النص الأول

قول الله عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بِشَأْنِ المَعَانِدِينَ المَكَابِرِينَ مِنْ كَفَّارٍ مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ:

﴿يَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١﴾ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٢﴾﴾ ١٩٩

فَانْكُرُوا كَوْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولاً مِنْ رَبِّهِ مُسْتَنْدِينَ إِلَى مُجَرَّدِ التَّعْجِبِ مِنْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ بَشَرٌ مِنْهُمْ.

وَأَنْكُرُوا يَوْمَ الدِّينِ مُسْتَنْدِينَ إِلَى مُجَرَّدِ التَّعْجِبِ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى بَعْدَ أَنْ يَصِيرُوا تُرَاباً، مُتَعَامِينَ عَنْ آيَةِ اللَّهِ السَّابِقَةِ وَالْدَّائِمَةِ، الَّتِي يُنْشِئُ بِهَا

الْأَحْيَاءُ فِي النَّشْأَةِ الْأُولَى مِنْ مَاءٍ وَتَرَابٍ، ضِمْنَ أَطْوَارِ سَبَبِيَّةٍ يَتِمُّ بِهَا إِنْشَاءُ الْأَحْيَاءِ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ.

وَالْإِعَادَةُ فِي مَفْهُومَاتِ النَّاسِ أَهْوَنُ مِنَ الْإِبْدَاعِ وَالْإِنْشَاءِ دُونَ مِثَالِ سَبْقٍ.

وَمِنَ الْبَدْهِى أَنْ التَّعَجُّبَ مِنْ شَيْءٍ لَا يَصِحُّ فِي مَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّوِيَّةِ أَنْ يَكُونَ دَلِيلَ نَفْيٍ لِلشَّيْءِ الْمَتَّعَجَّبِ مِنْهُ.

لَكِنَّ التَّعَجُّبَ قَدْ يُتَّخَذُ أُسْلُوبًا بَيَانِيًّا لِإِنْكَارِ الْمَتَّعَجَّبِ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِنْكَارَ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ صَحِيحٍ يُقَدِّمُ بَعْدَ إِعْلَانِ الْإِنْكَارِ بِأُسْلُوبِ التَّعَجُّبِ، لِقَبُولِ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ، أَمَّا أَنْ يُقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يُعْلِنَ تَعَجُّبَهُ، فَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يَتَّعَجَّبُ مِنْهُ الْعَقْلَاءُ حَقًّا.

النص الثاني

نَصَّ جَاءَ فِي سُورَةِ (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بِشَأْنِ بَعْضِ كِبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِذْ جَاءَ إِلَى الرُّسُولِ ﷺ وَفِي يَدِهِ عَظْمٌ رَمِيمٌ (= بَالٍ) وَهُوَ يَقْتُتُّ وَيَذْرُؤُهُ فِي الْهَوَاءِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا؟!

قَالَ ﷺ: «نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يَخْشُرُكَ إِلَى النَّارِ».

فَانْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾:

فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْمَخَاصِمَ بِشَأْنِ الْبَعْثِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ الْجَاحِدَ، لَهُ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ تَعْلَةٌ يَحْتَجُّ بِهَا لِلْإِنْكَارِ غَيْرَ التَّعَجُّبِ، إِذْ قَالَ

مُسْتَفْهِمًا اسْتَفْهَامَ تَعَجَّبٍ: ﴿مَنْ يُنْفِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾!؟ أي: وهي باليةٌ تَذَرُو الرِّيَاحُ مَا يَفْتَتُّ مِنْهَا.

فَعَلَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، أَنْ يُجِيبَهُ قَائِلًا: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾:

أي: إِنَّ الَّذِي أَنْشَأَ الْعِظَامَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، وَكَسَاهَا لَحْمًا، وَصَوَّرَ الْإِنْسَانَ فِي رَحِمِ أُمِّهِ بِأَحْسَنِ صُورَةٍ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ فَكَانَ حَيًّا، وَالَّذِي هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ يَخْلُقُهُ عَلِيمٌ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ، إِذِ الْخَلْقُ مَسْبُوقٌ بِقَدْرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ، وَعَلِيمٌ بِهِ حِينَ خَلَقَهُ عَلَى وَفْقِ خَرِيطَةٍ تَكْوِينِهِ، وَعَلِيمٌ بِهِ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ، وَعَلِيمٌ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ أَمَاتَهُ وَأَفْنَاهُ، هُوَ نَفْسُهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسَمَتْ حُكْمَتُهُ - الْقَدِيرُ عَلَى إِعَادَةِ الْخَلْقِ، وَالْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْإِمَاتَةِ وَالْفَنَاءِ، مَرَّةً ثَانِيَةً، وَثَالِثَةً، ثُمَّ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنْ مَرَّاتٍ، لَوْ شَاءَ بِحُكْمَتِهِ أَنْ يُمِيتَ وَيُحْيِيَ مَرَّاتٍ وَكَرَّاتٍ لَا حَصَرَ لَهَا.

وَمَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْإِجَابَةُ ذَاتُ بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ لَا رَدَّ لَهُ.

النص الثالث

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) بشأن أصحاب الشمال وهم يُعَذَّبُونَ في النار يوم الدين، لترهيب المكذبين وهم مَا زَالُوا فِي رِحْلَةٍ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى لَعْنَةِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا لَنَبْعَثُونَ (٤٧) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْبُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠):

فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْكَافِرِينَ بَعْنَادٍ وَجُحُودٍ، مَا زَالُوا حَتَّى وَقْتُ نَزُولِ سُورَةِ (الواقعة) مُصِرِّينَ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ

تَعْلَةً يُحْتَجُّونَ بِهَا لِلْإِنْكَارِ غَيْرِ التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِغْرَابِ، وَلَمْ تَتَفَتَّقْ أَذْهَانُهُمْ عَنْ شَيْءٍ جَدِيدٍ يُضَيِّفُونَهُ إِلَيْهَا، إِلَّا أَنْ يَذْكُرُوا آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، قَائِلِينَ: ﴿... أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَتَبْعُوهُمْ ۖ﴾ (٤٧) ﴿أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۖ﴾ (٤٨).

لهذا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْعِلَاجِ تَوْجِيهِ الْبَيَانِ الْخَبَرِيِّ، الْمَتَضَمِّنِ أَنَّهُمْ سَيَبْعُثُونَ، وَسَيُجْمَعُونَ، وَيُسَاقُونَ إِلَى شُهُودِ أَحْدَاثِ مِيقَاتِ مَعْلُومٍ، يَكُونُ فِيهِ حِسَابُهُمْ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، ثُمَّ تَنْفِيزُ الْجَزَاءِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَعْلِيمِ رَسُولِهِ فَكُلُّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ مَا يُجِيبُهُمْ بِهِ:

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۖ﴾ (٤٩) ﴿لَجِبُوا عَونَ اللَّهِ يَوْمَ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۖ﴾ (٥٠).

فهذا الجواب مع شرحٍ وَتَفْصِيلٍ لَهُ، هُوَ الْمَلَاءِمُ لِحَالِ إِنْكَارِهِمُ الْجَحُودِيَّ الْعِنَادِيَّ، الَّذِي لَمْ يُضَيِّفُوا فِيهِ شَيْئاً عَلَى تَوْجِيهِ التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِغْرَابِ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

النص الرابع

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءَ لَمُخْرَجُونَ ۖ﴾ (٦٧) ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ (٦٨) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۖ﴾ (٦٩):

فَدَلَّ هَذَا النَّصُّ مِنْ سُورَةِ (النمل) عَلَى أَنَّ الْكَافِرِينَ بِعِنَادٍ وَجُحُودٍ، مَا زَالُوا حَتَّى نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ مُصِرِّينَ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَعَلَى أَنَّهُمْ لَمْ تَتَفَتَّقْ أَذْهَانُهُمْ عَنْ شَيْءٍ يُضَيِّفُونَهُ إِلَى عِبَارَاتِ التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِغْرَابِ، الَّتِي كَانَتْ تَعْلَّتُهُمْ، إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ (٦٨):

وهذه الإِضَافَةُ الَّتِي أَضَافُوهَا تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

المقولة الأولى: يُشْتَبَنَ بِهَا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ السَّابِقِينَ، كَانُوا يُنْذِرُونَ أَقْوَامَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَبِالْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ فِيهِ، وَقَدْ مَرَّتِ الْقُرُونُ الْعَدِيدَةُ وَالْمَدِيدَةُ، دُونَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ الْبَعْثِ هَذَا، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَقُولَةِ: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾.

وفي هذه المقولة إدانةٌ لَهُمْ بِأَنَّ الرُّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ لم يَأْتِهِمْ بِجَدِيدٍ عَنْ بَعْثِهِمْ وَبَعَثِ النَّاسِ جَمِيعاً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، فَقَدْ أَنْبَأَ بِهِ بِاعْتِرَافِهِمُ الرُّسُلُ الْأَوَّلُونَ، وَمَا كَانَ يَلِيقُ بِهِمْ أَنْ يُغْلِنُوا تَعَجُّبَهُمْ وَاسْتِغْرَابَهُمْ.

المقولة الثانية: يَدْعُونَ بِهَا أَنَّ نَبَأَ الْبَعْثِ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ، أَيْ: مِنْ أَبَاطِيلِهِمْ وَخُرَافَاتِهِمْ.

ولما تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْمَقُولَةُ إنْكَارَهُمُ الْجَزَاءَ الرَّبَّانِيَّ، كَانَ مِنَ الْحُكْمَةِ فِي التَّعْلِيمِ الْعِلَاجِيِّ تَقْدِيمُ دَلِيلٍ وَاقِعِيٍّ ذِي آثَارٍ بَاقِيَةٍ فِي مَسَاكِينِ وَقُرَى الْمُهْلَكِينَ الْأَوَّلِينَ الْمُجْرِمِينَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ. وَأَنْكَرُوا مَا أُنْذِرْتُهُمْ بِهِ رُسُلُهُمْ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرُسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّةٍ مُعَلِّمًا:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٦٩):

ومعلومٌ أَنَّ الْبِرْهَانَ الْوَاقِعِيَّ ذَا الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ هُوَ مِنْ أَقْوَى الْأَدَلَةِ عَلَى إِبْطَالِ الْمَدْعَى وَإِبْطَالِ نَقِيضِهِ.

النص الخامس

قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩) ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٥٠) ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٥١) ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥٢):

ما زالَ الْمُعْنِيُونَ بِالْمَعَالِجَةِ مِنْ أَيْمَةِ مُشْرِكِي مَكَّةَ عِنْدَ مَوْقِفِهِمُ
الاسْتِغْرَابِيَّ التَّعْجِبِيَّ بِالنَّسْبَةِ إِلَى قَضِيَّةِ الْبَغْثِ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخَرَى، فَلَا
يَجِدُونَ إِلَّا أَنْ يُظْلِفُوا الاسْتِفْهَامَ التَّعْجِبِيَّ، دُونَ أَنْ يُضَيِّفُوا إِشْكَالًا أَوْ
اغْتِرَاضًا، حَتَّى يُعَالَجَ بِمَا يُلَاقِيهِ وَيَدْفَعُهُ، وَيَكْشِفُ سُقُوطَهُ بِدَلِيلِ بُرْهَانِيٍّ،
وَقَدْ سَبَقَ فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ سُقُوطِ هَذَا الاسْتِنْكَارِ التَّعْجِبِيَّ عِدَّةَ مَرَّاتٍ،
بِأَنَّ الْخَالِقَ الَّذِي خَلَقَهُمْ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى هُوَ الَّذِي وَضَعَ فِي خُطَّتِهِ أَنْ
يُمِيتَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، يَخْلُقُ ظُرُوفَ وَشُرُوطَ
الْحَيَاةِ الْآخَرَى، وَيَبْعَثُ الْمَوْتَى إِلَى الْحَيَاةِ، لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ،
وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِيهَا، وَأَصْحَابُ النَّارِ الْكَافِرُونَ
الْمَجْرُمُونَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِيهَا.

فَعِبَارَتُهُمْ: ﴿...أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا أَوَنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤١﴾
هِيَ تَكْرِيرٌ فِي الْمَعْنَى لِمَا سَبَقَ أَنْ قَالُوهُ بِشَأْنِ هَذَا الْمَوْضُوعِ.
الرُّفَاتُ: الْحُطَامُ، وَالْفَتَاتُ مِنْ كُلِّ مَا تَكَسَّرَ وَانْدَقَّ.

فَجَاءَ التَّعْلِيمُ الرَّبَّانِيُّ لِلرُّسُولِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ
أُمَّتِهِ، مُشْتَمِلًا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحِدَّةِ وَالْعُنْفِ فِي الْإِجَابَةِ، إِذْ لَمْ يَكْتَفُوا فِي
الْإِجَابَاتِ السَّابِقَاتِ بِنَحْوِ: ﴿بُحْبُحِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ
عَلِيمٌ﴾ مِنْ سُورَةِ (يَس/ ٣٦/ مَصْحَف/ ٤١ نَزُول).

فَجَاءَ هُنَا فِي التَّعْلِيمِ:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥١ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي
صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مِمَّنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ۝٥١﴾.

فَطَرَكُمْ: أَي: خَلَقَكُمْ ضِمْنَ نِظَامِ الْفَطْرِ، وَهُوَ الشَّقُّ وَالْفَلْقُ، لِأَنَّ
نُقْطَةَ الْعُمُقِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هِيَ الْعَدَمُ، وَاللَّهُ هُوَ الْمُوجِدُ مِنَ الْعَدَمِ.

الْمَعْنَى: قُلْ لَهُمْ: إِنَّ تَحَوُّلَ أَجْسَادِكُمْ إِلَى رُفَاتٍ مُنْبَثٍّ فِي تَرَابِ

الأَرْضَ لَا يُعَيَّرُ مِنْ حَقِيقَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِعَادَتِكُمْ شَيْئاً، فَقَدْ فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئاً مَذْكُوراً، أَفَيَعْجَزُ عَنْ إِعَادَتِكُمْ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ يُمَيِّتَكُمْ، وَيُفَرِّقَ رُفَاتَكُمْ فِي تَرَابِ الْأَرْضِ، ضِمْنَ الْمُمَكِّنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ.

وَأَبَيَّنَ لَكُمْ حَقِيقَةَ هِيَ أَكْثَرُ مِمَّا تُشَاهِدُونَ مِنْ تَفَرُّقِ رُفَاتِ الْمَوْتَى فِي تُرَابِ الْأَرْضِ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا التُّرَابَ قَدْ يَتَحَوَّلُ بِمُرُورِ الزَّمَنِ وَعَوَامِلَ مِنَ الضُّغُوطِ وَالْحَرَارَةِ، فَيَكُونُ حِجَارَةً صُلْبَةً، وَقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فَيَكُونُ حَدِيداً، وَقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فَيَكُونُ حِجَارَةً كَرِيمَةً، كَالزَّبَرْجَدِ، وَالْيَاقُوتِ، وَالزُّمُرُّدِ، وَالْأَلْمَاسِ، وَنَحْوَهَا، فَهَذِهِ حِجَارَةٌ لَهَا قِيَمَةٌ كَبِيرَةٌ فِي صُدُورِكُمْ.

فَسَيَقُولُونَ: إِذَا تَحَوَّلَ رُفَاتُنَا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ حِجَارَةً كَرِيمَةً فَمَنْ يُعِيدُنَا إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى؟!

فَقُلْ لَهُمْ: يُعِيدُكُمْ إِلَى الْحَيَاةِ الَّذِي فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

• ﴿... فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ...﴾: أَي: فَسَيُحَرِّكُونَ، إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ تَحْزِيناً دَالاً عَلَى ثَبَاتِهِمْ عِنْدَ مَوْقِفِ الْمُسْتَبْعِدِ الْمُتَعَجِّبِ الْمُنْكَرِ.

وَإِذْ لَا يَجِدُونَ تَعَلَّةً يَتَعَلَّلُونَ بِهَا غَيْرَ الْإِنْكَارِ بِأَسْلُوبِ التَّعَجُّبِ، فَإِنَّهُمْ يَلْجَأُونَ إِلَى السُّؤَالِ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الْقِيَامَةُ وَالْبَعْثُ، فَجَاءَ فِي النَّصِّ:

• ﴿... وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ...﴾ (٥١): أَي: مَتَى يَكُونُ هَذَا الْإِحْيَاءُ إِلَى الْآخِرَةِ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزُ الْجَزَاءِ؟؟

• ﴿... قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ (٥١): أَي: أَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً، وَهَذَا الْجَوَابُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: تَوَقَّعُ قُرْبِ مَوْتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ تَنْكَشِفُ لَهُمْ حَقَائِقُ الْآخِرَةِ الَّتِي لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

المعنى الثاني: تَوَقَّعْ قُرْبَ السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا إِنْهَاءُ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ قُرْبٌ نِسْبِيٌّ، يُقَاسُ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ عُمْرِ الْحَيَاةِ الْأُولَى.

على أَنَّ النَّاسَ حِينَ يُنْعَثُونَ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَى، لَا يُحْسُونَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، لِأَنَّ الْإِحْسَاسَ بِالزَّمَنِ يَنْعَدِمُ مِنْ نُفُوسِهِمْ انْعِدَامًا تَامًا، فَهُمْ يَتَصَوَّرُونَ حِينَ الْبَعْثِ أَنَّهُمْ يَسْتَقِيقُونَ مِنْ نَوْمَةٍ نَامُوهَا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، وَإِحْسَاسُ مَيِّتِ أَوَّلِ النَّاسِ بِالزَّمَنِ عِنْدَ الْبَعْثِ مُمَازِلٌ لِإِحْسَاسِ مَيِّتِ آخِرِ النَّاسِ.

دَلَّلْتُ عَلَى هَذَا نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يَطْنُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ إِلَّا قَلِيلًا الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ هَذَا النَّصِّ، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥٧):

أَي: بَعَثَكُمْ لِمُلَاقَاةِ أَخْدَاطِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، يَكُونُ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ رَبُّكُمْ لِلْحِسَابِ (وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ بوساطةِ بَعْضِ ملائِكَتِهِ) فَتَسْتَجِيبُونَ طَائِعِينَ اسْتِجَابَةً مَضْحُوبَةً بِحَمْدِهِ وَالشَّائِءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَتَظُنُّونَ وَأَنْتُمْ مَسْؤُوفُونَ لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ أَنَّكُمْ مَا لَبِثْتُمْ فِي الْبَرَزِخِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ إِلَّا زَمَنًا قَلِيلًا.

«إِن» حَرْفُ نَفْيٍ بِمَعْنَى «مَا».

النص السادس

قول الله عز وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) بِشَأْنِ الْمُصْرِينَ عَلَى كُفْرِهِمُ الْعِنَادِيِّ الْجُحُودِيِّ، وَعَلَى تَزْيِيدِ مَقُولَتِهِمُ السَّابِقَةَ الَّتِي هِيَ تَعَلَّتُهُمْ لِإِنْكَارِ الْبَعْثِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَهِيَ الْاسْتِفْهَامُ التَّعْجِيبِيُّ الْاسْتِغْرَابِيُّ، وَيُصَوِّرُ النَّصُّ مَوْقِفَهُمْ إِبَّانَ نَزُولِ سُورَةِ (الصافات):

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتٍ ﴿٢٠﴾ لَّوَدَّا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَوْثَانًا لَّمَبْعُوثُونَ ﴿٢١﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿٢٣﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٥﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾: أي: يَسْخَرُونَ سُخْرِيَةً شَدِيدَةً فِيهَا إِمْعَانٌ وَعُغْلُو. يقال لغة: «سَخَرَ مِنْهُ، وَسَخَرَ بِهِ، سَخَرَا، وَسَخَرَا، وَسُخْرِيَةً، وَسُخْرِيَةً» أي: هَزَأَ بِهِ، فَإِذَا اشْتَدَّ فِي سُخْرِيَتِهِ قِيلَ: اسْتَسَخَرَ.

﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: الزَّجْرَةُ: المَرَّةُ مِنَ الرَّجْرِ، وَوُصِفَتْ بِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ لِذَفْعِ تَوَهُمِ تَكَرُّرِهَا، وَلِتَوْكِيدِ عَدَمِ الْحَاجَةِ لَدَى بَعْثِ الْمَوْتَى جَمِيعاً إِلَى أَكْثَرِ مِنْ صَنِحَةٍ فِيهَا شِدَّةُ إِثَارَةٍ.

والمراد بالرَّجْرِ هُنَا الإِثَارَةُ الصَّوْتِيَّةُ الَّتِي يُخْدِثُهَا الصُّورُ، حِينَ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ نَفْخَةَ الْبَعْثِ.

يقال لغة: زَجَرَ الشَّيْءُ: أي: أَثَارَهُ. وَيَأْتِي الرَّجْرُ بِمَعْنَى الْمَنْعِ وَالْكَفِّ وَبِمَعْنَى الْحَثِّ.

﴿دَاخِرُونَ﴾: أي أذِلَّاءُ صَاغِرُونَ خَاضِعُونَ.

﴿إِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾: أي: فَتَخَصَّلَ لَهُمُ الْمَفَاجَأَةُ بِأَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ مَشَاهِدَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ.

﴿يَوَيْلَنَا﴾: أي: يَا شِدَّةَ خَوْفِنَا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي سَنَلَاقِيهِ، وَيَا حُزْنَنا عَلَى مَا قَرَّطْنَا فِي دُنْيَانَا.

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى أَنَّ كُفْرَاءَ مُشْرِكِي مَكَّةَ مَا زَالُوا يُكْرَرُونَ مَوَاقِفَهُمُ السَّابِقَةَ، الْقَائِمَةَ عَلَى الْعِنَادِ، وَالْإِضْرَارِ عَلَى الْبَاطِلِ، وَتَكَرُّبِ

وَسَائِلِهِمْ لِرَفْضِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَتَكْرِيرِ تَعْلَتِهِمْ لِانْكَارِ الْبَعْثِ، وَهِيَ تَوْجِيهِ الْاسْتِفْهَامِ التَّعْجِيبِيِّ، الَّذِي لَا يَقْتَرِنُ بِدَلِيلٍ مَا، يُعْطِي لِانْكَارِهِمْ ذَرِيعَةً صَالِحَةً لِأَنْ تَكُونَ مَحَوَّرَ مُنَاطَرَةٍ، حَتَّى يُنَاطَرُوا حَوْلَهَا، لِأَنَّهُمْ فِي وَاقِعِ أَمْرِهِمْ لَا يَجِدُونَ دَلِيلًا لِلْانْكَارِ، بَعْدَ أَنْ أَفْجَحُوا بِبُرْهَانٍ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ وَهُوَ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (يَس/ ٣٦ مَصْحَف/ ٤١ نَزُول).

وَلِهَذَا كَانَتْ الْحُكْمَةُ الْعِلَاجِيَّةُ تَقْتَضِي إِجَابَتَهُمْ بِعِبَارَةِ ﴿نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ﴾ أَيْلَاءَ صَاحِرُونَ خَاضِعُونَ لَا تَجِدُونَ لَكُمْ مَهْرَبًا مِنْ حِسَابِ اللَّهِ وَفَضْلِ قَضَائِهِ وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ.

وَكَانَ مِنَ الْحُكْمَةِ الْعِلَاجِيَّةِ، أَنْ يَشْتَمِلَ الْبَيَانُ عَلَى عَرْضِ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ أَحْوَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، بَدْءًا مِنْ نَفْخَةِ الْبَعْثِ.

فَجَاءَ فِي التَّعْلِيمِ لِلرَّسُولِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، مَا يَجِبُ بِهِ الَّذِينَ مَا زَالُوا يُكْرَرُونَ تَعْلَتَهُمْ قَائِلِينَ: ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَاكُمَا وَعَظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١١﴾ أَوْ مَا بَوْنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾:

فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَكُونُ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢١﴾﴾:

وَيَسْتَفِيدُ مُعَالِجُهُمْ مِنْ هَذَا التَّعْلِيمِ مَا يَخَاطِبُهُمْ بِهِ مِنْ عِبَارَاتٍ ثَلَاثٍ الْخِطَابِ فِي الْحَوَارِ.

كَأَن يَقُولَ لَهُمْ: نَعَمْ سَوْفَ تَمُوتُونَ، وَتُبْعَثُونَ لِشُهُودِ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ، وَأَنْتُمْ أَيْلَاءَ صَاحِرُونَ خَاضِعُونَ، لَا تَجِدُونَ لِأَنْفُسِكُمْ مَهْرَبًا مِنْ مَلَاقَةِ حِسَابِ رَبِّكُمْ وَفَضْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ بَعْثَكُمْ وَبَعْثَ الْمَوْتَى جَمِيعًا لَا يَحْتَاجُ بِقِضَاءِ اللَّهِ إِلَّا نَفْخَةً وَاحِدَةً فِي الصُّورِ،

يَنْفُخُهَا فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُومُ الْمَوْتَى مِنَ الْأَرْضِ يَنْظُرُونَ، وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ، وَتُشَاهِدُونَ بَعْضُ أَخْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ، فَتَقُولُونَ حِينْتِذِ: يَا وَيْلَنَا وَيَا خَوْفَنَا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي سَنَلَاقِيهِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِنَا رُسُلَ رَبَّنَا، وَيَا حُزْنَنا عَلَى مَا قَرَّطْنَا فِي جَنْبِ رَبَّنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَقُولُونَ: هَذَا يَوْمُ الدِّينِ الَّذِي كُنَّا فِي الدُّنْيَا نَكْذِبُ بِهِ، وَلَا نُصَدِّقُ مَا أَنْبَأَنَا بِهِ رَسُولُ رَبَّنَا.

النص السابع

قول الله عز وجل في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) أيضاً في مَعْرِضِ عَرَضِ بَعْضِ مَشَاهِدٍ مِنْ أَخْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ فِي لَقَطَاتٍ، وَعَرَضُ لَقَطَاتٍ هَذَا الْمَشْهَدُ يَبْدَأُ مِنْ حِوَارٍ سَوْفَ يَجْرِي بَيْنَ فَرِيقَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ:

﴿فَأَجَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَأْذِنُونَ ٥٥﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٦﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٦﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلًا أَوَآءًا لَمَدِينُونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَطْلَعُ فَرَّاءُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِتُزِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾﴾:

﴿لَمَدِينُونَ﴾: أي: لَمَجْزِيُونَ عَلَى أَعْمَالِنَا. يقال لغة: «دَانَهُ دِينًا» أي: جَاذَاهُ. وَيَوْمَ الدِّينِ، هُوَ يَوْمُ الْجَزَاءِ بِالْعَدْلِ عَلَى السَّيِّئَاتِ، وَبِالْفَضْلِ الرَّبَّانِي عَلَى الْحَسَنَاتِ.

﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ﴾: أي: هَلْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْظُرُوا مَعِيَ إِلَى حَالِ قَرِينِي الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا يَحَاوِلُ إِغْوَائِي، لِأَكْذِبِ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾: أي: فِي وَسْطِ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾: أي: لَكُنْتُ مِنَ الْمُسَوِّقِينَ قَهْرًا حَتَّى أَكُونَ حَاضِرًا مَعَكَ فِي الْجَحِيمِ.

إِنَّ عَرْضَ هَذَا الْمَشْهَدِ الْجَوَارِي مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، يُعْتَبَرُ مِنَ
الْوَسَائِلِ الْإِفْتِنَاعِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى اسْتِثَارَةِ مِخْوَرِي الرَّعْبِ وَالرَّهَبِ فِي وَقْتٍ
وَاحِدٍ.

فَالَّذِي كَانَ قَدْ آمَنَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَسَعَى سَعْيًا يُؤْهِلُهُ بِفَضْلِ رَبِّهِ وَإِنْعَامِهِ
عَلَيْهِ، أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، يَخْطُرُ فِي بَالِهِ وَهُوَ فِي جِوَارٍ مَعَ
زُمْرَةٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، رَجُلٌ كَانَ قَرِينًا لَهُ فِي الدُّنْيَا، يُكْرِّرُ عَلَيْهِ مَا يُغْرِيه بِأَنْ
يُكَذِّبَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَيَلْزَمُ مِنَ التَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّينِ تَكْذِيبَ الرَّسُولِ بِنَبْوَتِهِ
وَرِسَالَتِهِ، وَالتَّكْذِيبَ بِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَيَقُولُ لِحِجْسَائِهِ فِي الْجَنَّةِ
وَهُمْ يَتَطَارَحُونَ فِيمَا بَيْنَهُمُ الْمَسَائِلُ، وَيَتَبَادَلُونَ الْأَحَادِيثَ:

• إِنِّي كَانُ لِي فِي الدُّنْيَا قَرِينٌ كَثِيرُ الْمَلَازِمَةِ لِي، لَكِنَّهُ كَانَ كَافِرًا
مُكَذِّبًا لِلرَّسُولِ، وَمُكَذِّبًا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَمُكَذِّبًا بِنَبَأِ يَوْمِ الدِّينِ.

• هَلْ كَانَ يَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تَكُونَ كَافِرًا مِثْلَهُ؟.

• نَعَمْ، كَانَ يَقُولُ لِي مُسْتَنْكِرًا إِيْمَانِي، وَمُسْتَهْزِئًا بِضَعْفِ عَقْلِي،
بِأَسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ: أَعِنَّكَ لِمَنْ الْمُصْذِقِينَ حَقًّا بِمَا جَاءَ بِهِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ
رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَمْ أَنْتَ مِنَ الْمُسَايِرِينَ لِعِشِيرَتِكَ وَقَوْمِكَ وَتَقَالِيدِ
أُسْرَتِكَ؟؟!

وَكَانَ يَقُولُ لِي مُتَعَجِّبًا مُسْتَعْرِبًا وَمُنْكَرًا: أَعِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا،
أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَفِي الْآخِرَةِ هَلْذِهِ نَكُونُ مَجْزِيَيْنَ عَلَى
مَا قَدَّمْنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ؟؟! إِنْ هِيَ إِلَّا خُرَافَةٌ مِنْ خُرَافَاتِ الْوَضَاعِيِّنَ،
وَأَسْطُورَةٌ بَاطِلَةٌ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ.

• لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْآنَ مُعَذِّبًا فِي الْجَحِيمِ، كَسَائِرِ الْكَافِرِينَ
الْمُجْرِمِينَ.

• نَعَمْ، هَذَا صَحِيحٌ، إِذَا لَمْ يَكُنْ تَابَ وَآمَنَ قَبْلَ مَوْتِهِ.

وَأَحَبُّ أَنْ يَغْرِفَ مَصِيرَ الَّذِي كَانَ قَرِينَهُ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ لِأَهْلِ مَجْلِسِهِ فِي الْجَنَّةِ: هَلْ تُرِيدُونَ مُشَاهَدَةَ أَهْلِ الْجَحِيمِ لَعَلِّي أَرَاهُ بَيْنَهُمْ. وَلَعَلِّي أَذْكُرُهُ، بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعِيَ فِي الدُّنْيَا؟

وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ وَسَائِلُ مُشَاهَدَةِ وَمُحَادَثَةِ أَهْلِ النَّارِ مُيسَّرَةً سَهْلَةً التَّأَوُّلِ.

فَاسْتَخْدَمَ الْوَسِيلَةَ الْبَصَرِيَّةَ السَّمْعِيَّةَ، وَطَافَ بِبَصَرِهِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، فَرَأَاهُ فِي وَسْطِ الْجَحِيمِ. فَكَلَّمَهُ فَقَالَ لَهُ: أَنَا فُلَانٌ أَكَلَمْتُكَ مِنْ مَنْزِلِي فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، أَتَذْكُرُ أَيَّامَ كُنْتُ قَرِينِي فِي الدُّنْيَا، وَكُنْتُ تُحَاوِلُ أَنْ تُغْرِينِي حَتَّى أَكُونَ كَافِرًا مِثْلَكَ؟.

• قَالَ: نَعَمْ، أَذْكُرُ وَأَنَا نَادِمٌ حَزِينٌ، أَتَقَلَّبُ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

• قَالَ تَاللهِ إِنَّ الشَّأْنَ الْعَظِيمَ أَنَّكَ قَدْ كِدْتَ بِإِغْرَاءَاتِكَ الزُّخْرُفِيَّةِ تُسْقِطُنِي فِي الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَبِيَوْمِ الدِّينِ.

وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي، بِتَقْوِيَةٍ إِزَادَتِي الْخَيْرَةَ الصَّادِقَةَ عَلَى مَقَاوِمَةِ إِغْرَاءَاتِكَ، لَأَسْتَجَبْتُ لَكَ فَكَفَرْتُ، فَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِّينَ مَعَكَ فِي الْجَحِيمِ.

وَيَنْتَهِي الْحَوَارُ مَعَهُ.

النص الثامن

قول الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن قوم عاد، وإنكارهم يوم الدين بأسلوب الاستفهام التعجبى الاستغرابى، الذي لم يفترن به دليل له حظ من النظر الفكرى، ويحكى الله جل جلاله قول ملا عاد قوم الرسول هود عليه السلام، لجمهورهم الذين يستجيبون لهم:

﴿أَعِدُّوا لَهُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿هَيْهَاتَ﴾ اسمُ فِعْلٍ مَاضٍ مَعْنَاهُ: «بَعْدَ» وجاء في عبارَتِهِمْ تَكْرِيرُهَا لِلتَّوَكِيدِ. وَفِي نَظْمٍ هَذِهِ الْكَلِمَةُ لُغَاتٌ عَرَبِيَّةٌ تَصِلُ إِلَى نَحْوِ خَمْسِينَ لُغَةً، مِنْهَا «أَيْهَاتَ - هَيْهَاتَ - أَيَّهَاتَ - هَائِهَاتَ» إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وهي مبنية، على الفتح أو الضم أو الكسر، لغات.

وكان من الجائز في اللسان العربي أن يقال: هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ مَا تُوعَدُونَ، بِمَعْنَى: بَعْدَ بَعْدَ مَا تُوعَدُونَ، لِأَنَّ اسْمَ الْفِعْلِ يُعَامَلُ مُعَامَلَةً فِعْلُهُ فِي اللَّزُومِ وَالتَّعَدِّي، فَلِمَاذَا جَاءَ فِي الْعِبَارَةِ: هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ.

أقول: إِنَّ اسْمَ الْفِعْلِ قَدْ لَا يُسْرَعُ إِلَى فَهْمِ الْمُتَلَقِّي تَنْزِيلُهُ مَنْزِلَةً فِعْلُهُ تَمَامًا، فَيُخَسَّنُ فِي ذَوْقِ النَّاطِقِ الْعَرَبِيِّ أَنْ يُضِيفَ إِلَى الْمَعْمُولِ لَامَ الْبَيَانِ، كَأَنَّ الْمُتَلَقِّيَ يَسْأَلُهُ، فَيَبَيِّنُ لَهُ، فَيُنَزِّلُ مَنْزِلَةَ الْمُضَدِّ، وَنَظِيرُهُ: «أَفْ لَكُمْ، بِمَعْنَى: أَتَضَجَّرُ - هَيْتَ لَكَ، بِمَعْنَى: أَقْبِلْ - وَيْلٌ لَهُ، بِمَعْنَى يَأْتِيهِ عَذَابٌ - وَاهَا لِرِيًّا ثُمَّ وَاهَا وَاهَا، بِمَعْنَى: «أَتَلَهَفَ».

وهذا من مِثْلِ قَوْلِهِمْ فِي الْمَصَادِرِ: «سَقِيَا لَهُ وَرَغِيَا» فَالْلامُ فِي الْعَرَبِيَّةِ تُسْتَعْمَلُ لِتَقْوِيَةِ عَمَلٍ مَا يَعْمَلُ عَمَلُ الْأَفْعَالِ مِنَ الْمَصَادِرِ وَالْمَشْتَقَاتِ.

هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ سُورَةِ (الْمُؤْمِنُونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) تَعْرِضُ لِلْمَعَانِدِينَ مِنْ كُفَرَاءِ كُفَّارِ مَكَّةَ، أَنَّ مَقَالَتَهُمُ الَّتِي وَجَّهُوهَا لِانْكَارِ يَوْمِ الدِّينِ، وَيُكْرِّرُونَهَا حِينًا فَحِينًا، قَدْ سَبَقَ أَنْ قَالَتْهَا عَادُ أُمَّةِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَصْرُوا عَلَى مَقَالَتِهَا، حَتَّى أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ، فَذَمَّرَهُمْ تَذْمِيرًا.

فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ تَلْوِيحًا لِكُفَرَاءِ مَكَّةَ بِأَنَّهُمْ إِذَا اسْتَمَرُّوا

مُصِرِّينَ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ، وَعَلَى مَقَالَتِهِمُ الاسْتِبْعَادِيَّةَ لِإِنْكَارِ يَوْمِ الدِّينِ، فَإِنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْإِهْلَاكِ كَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ عَادًا مِنْ قَبْلُ.

النص التاسع

قول الله عز وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) أيضاً، وَلَكِنْ بِشَأْنِ الْمَعَانِدِينَ الْمَصِرِّينَ عَلَى مَوْفِقِهِمُ الْجُحُودِيِّ مِنْ كُتُبَاءِ كُفَّارِ مَكَّةَ، وَلَا سِيَّما مَقَالَتَهُمُ الَّتِي يُكْرِّرُونَهَا بِشَأْنِ إِنْكَارِ يَوْمِ الدِّينِ، دُونَ أَنْ يَسْتَطِيعُوا إِضَافَةَ دَلِيلٍ لَهُ حَظٌّ مِنَ النِّظَرِ الْفِكْرِيِّ، لِتَجْرِي عَلَى أَسَاسِهِ مُنَاطَرَةٌ تَعْتَمِدُ عَلَى أُسُسٍ عَقْلِيَّةٍ:

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨٦﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٧﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

وبعد هذه الآيات جاء في السورة بيان لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، فِيهِ تَعْلِيمٌ مَعَالِمٍ مُنَاطَرَةٍ جَدَلِيَّةٍ يَجَادُلُ عَلَى وَفْقِ أُسُسِهَا وَمَعَالِمِهَا الْكُفْرَةَ الْمَشْرِكِينَ، حَوْلَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الَّتِي يَلْزَمُ عَنْهَا تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ، وَيَلْزَمُ عَنْهُمَا عَقْلاً إِبْثَاتُ قَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، الَّذِي يَسْتَلْزِمُ بِالْبَرْهَانِ الْعَقْلِيِّ إِبْثَاتَ يَوْمِ الدِّينِ عَلَى مُرَادِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ، وَهَذَا الْمُرَادُ قَدْ أَخْبَرَ عَنْهُ فِي كُتُبِهِ، وَعَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ.

وفي هذه الآيات إشارة جليَّة إلى مَا جَاءَ فِي النِّصِّ السَّابِقِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، بِشَأْنِ عَادِ قَوْمِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فمقالة كُفَّارِ الْآخِرِينَ بِشَأْنِ التَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّينِ، مُمَائِلَةٌ لِمَقَالَةِ كُفَّارِ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ، مُمَائِلَةٌ تَطَابُقِيَّةٌ، إِذْ لَمْ يَجِدْ هُؤُلَاءِ وَلَا أُولَئِكَ ذَرْيَةً فِكْرِيَّةً يَتَكَيَّنُونَ عَلَيْهَا، فَلَجَّوْا جَمِيعاً إِلَى تَوْجِيهِ الاسْتِفْهَامِ التَّعْجِيبِيِّ

الاسْتِغْرَابِيَّ الاسْتِيعَادِي، الَّذِي عَبَّرُوا بِهِ عَنْ انْكَارِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ بِأَنْبَاءِ يَوْمِ الدِّينِ.

وهذه الآيات قد سَبَقَ تَحْلِيلُ نَظِيرِهَا فِي النِّصِّ الرَّابِعِ مِنْ نُصُوصِ هَذَا الْمَلْحَقِ، وَهُوَ مِنْ سُورَةِ (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

النص العاشر

قول الله عز وجل في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُكُمْ أَيْدَا كُنَّا تَرْبًا أَيْنَا لَنِي خَلَقِي جَدِيدٌ
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾:

هذه الآيات من سورة مَدَنِيَّة على مَا تَرَجَّحَ لَدَى الْعُلَمَاءِ بِالْقُرْآنِ والقراءات، هي سُورَةٌ تَتَحَدَّثُ مُعْظَمُ آيَاتِهَا وَمَوْضُوعَاتِهَا عَنْ كُفَّارِ مَكَّةَ الْمُصِرِّينَ عَلَى مَوَاقِفِهِمُ السَّابِقَةِ، كَأَنَّهَا مِنَ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ.

وعلى أَنَّهَا سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ، فَالْحِكْمَةُ مِنْ اشْتِمَالِهَا عَلَى مُعَالَجَةِ الَّذِينَ مَا زَالُوا عَلَى كُفْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، عَدَمُ قَطْعِ الصَّلَاةِ بِدَعْوَةِ الَّذِينَ لَمْ يَنْقَطِعْ حَيْطُ الْأَمَلِ بِاسْتِجَابَتِهِمْ، وَلَا سِيَمَا بَعْدَ إِهْلَاكِ أَيْمَةِ الْكُفْرِ الْمُعَانِدِينَ فِي غَزْوَةِ بَذْرِ، وَعَدَمُ ظَفَرِ جَيْشٍ مُشْرِكِي مَكَّةَ بِمَا طَمَعُوا بِهِ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ، وَبَعْدَ أَنْ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ، فِي غَزْوَةِ الْأَخْزَابِ.

وَدَلَّ دُخُولُ مُعْظَمِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ عَقِبَ فَتْحِ مَكَّةَ، عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا بَعْدَ الْمُعَالَجَاتِ السَّابِقَاتِ إِلَى حَالَاتٍ اسْتِعْدَادٍ حَسَنِ لِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَادَتَهُمْ وَأَيْمَتَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا فِيهِمْ بِمَثَابَةِ الْحُجُبِ الْمَانِعَةِ مِنْ وُضُولِ أَنْوَارِ الْهِدَايَةِ إِلَى نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ.

والمعالجة في هذه الآيات تَتَعَلَّقُ بِتَكْذِيبِهِمْ بيوم الدين، بتَعْلَةِ الاستغرابِ والاستِبعادِ والتَّعَجُّبِ.

وقد اشتملت هذه المعالجة على أَرْبَعِ قَضَايا:

القضية الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنْآ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾:

لقد أذركوا في هذه المرحلة المدنية أَنَّ العظامَ صَائِرَةٌ أيضاً إلى الترابِ كسائرِ عناصرِ الجسمِ فَحَذُّوا مِنْ عبارتهم: ﴿وَعِظَمًا﴾ وهذا يَدُلُّ عَلَى تأخُّرِ نزولِ هذا النصِّ عَنِ النُّصُوصِ السابقة الواردة حول هذا الموضوع.

وأذركوا أَنَّ الْبَعْثَ خَلْقٌ جَدِيدٌ مُنَاطِرٌ لِلْخَلْقِ الْأَوَّلِ، وتكونُ فيه إعادةُ النَّفْسِ الَّتِي ذَاقَتْ الْمَوْتَ بِكُلِّ عُنَاصِرِهَا وَصِفَاتِهَا، إلى الحياةِ بإعادةِ الرُّوحِ إِلَيْهَا، دُونَ شَرْطِ تَجْمِيعِ أَغْيَانِ ذَرَّاتِ الْجَسَدِ الَّذِي بَلِيَ وَصَارَ تُرَابًا، وتحولَ تحولاتٍ أُخْرَى كَثِيرَاتٍ، في نَبَاتَاتٍ أَوْ أَحْيَاءٍ. (ونقول: إِنَّ اللَّهَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ).

فَالْخَلْقُ الْجَدِيدُ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى النَّفْسِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ ذَاقَتْ الْمَوْتَ، وَعَلَى الرُّوحِ الَّتِي كَانَتْ مُقْتَرَنَةً بِهَا، يَكْفِي لِتَحْقِيقِ مَعْنَى الْبَعْثِ إِلَى الْحَيَاةِ، سواءً أكانَ ذَلِكَ فِي ذَرَّاتِ الْجَسَدِ السَّابِقِ أَمْ فِي ذَرَّاتِ أُخْرَى، لَيْسَتْ أَكْثَرَ مِنْ وِعَاءِ تُرَابِي الْعُنَاصِرِ لِلنَّفْسِ وَالرُّوحِ، فَأَجْسَادُ الْأَحْيَاءِ مُتَبَدِّلَةٌ دَوَامًا، يَهْلِكُ مِنْهَا هَالِكٌ وَيَأْتِي بِدَلِّهِ جَدِيدٌ.

وَإِذْ وَصَلَ كُفَّارُ مَكَّةَ إِلَى إِذْرَاكِ هَٰذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، فَقَدْ صَارَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُعَالَجُوا مُعَالَجَةً يُرَاعَى فِيهَا الْمَسْتَوَى الْفِكْرِي الَّذِي ارْتَقَوْا إِلَيْهِ، فَيُسَيَّرَ لَهُمْ أَنْ تَعْجِبَهُمْ مِنَ الْخَلْقِ الْجَدِيدِ، هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعَجَبَ حَقًّا.

فخاطب الله عزَّ وجلَّ الرُّسُولَ فَكُلَّ ذِي فِكْرٍ صَالِحٍ لِلخُطَابِ بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾.

أَي: وَإِنْ تَعَجَّبَ مِنْ شَيْءٍ يُثِيرُ تَعَجَّبَ أُولَى الْأَلْبَابِ، فَعَجَبٌ حَقًّا قَوْلُهُمْ: أَيْذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.

وَالدَّاعِي إِلَى هَذَا الْعَجَبِ الشَّدِيدِ أَنَّ أَذْهَانَهُمْ قَدْ تَوَصَّلَتْ إِلَى أَنَّ الْبُعْثَ خَلْقٌ جَدِيدٌ مِنَ التُّرَابِ.

أَلَمْ يَخْلُقْهُمُ اللَّهُ الْقَدِيرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنَ التُّرَابِ فِي الْخَلْقِ الْأَوَّلِ؟! فَتَعَجَّبُهُمْ مِنَ الْخَلْقِ الْجَدِيدِ، هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يُثِيرُ أَهْلَ الْعُقُولِ الْفَاهِمَةِ إِلَى أَنْ يَتَعَجَّبُوا مِنْهُ.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾:

أَي: أُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقِّ، الَّذِينَ يَقُولُونَ الْمَقَالَةَ السَّابِقَةَ، هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِصِفَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ إِيْمَانًا صَحِيحًا.

إِنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَبِصِفَاتِهِ إِيْمَانًا صَحِيحًا صَادِقًا، لَمَا اغْتَرَفُوا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ وَآمَنُوا بِهِ، ثُمَّ تَعَجَّبُوا مِنْ خَبَرِهِ عَنْ بَعْثِهِمْ فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، وَكَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ بِهِ.

فَعَلَتْهُمْ الْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ كَافِرُونَ بِبَعْضِ عَنَاصِرِ رَبُّوبِيَّةِ اللَّهِ لِكُونهِ.

هَذَا هُوَ دَاوَاهُمْ، وَشِفَاؤُهُ يَكُونُ بِتَكْمِيلِ إِيْمَانِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَتَضَحِيحِ نَصُورَاتِهِمْ وَمَفْهُومَاتِهِمْ عَنْهُ.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَعْلَالُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ﴾:

هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ يُعَاقَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَنْ تَوَضَّعَ الْأَعْلَالُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ، لِسَحْبِهِمْ إِلَى دَرَكَاتٍ تَغْذِيهِمْ، إِذْ لَا لَا وَهَانَةَ لَهُمْ.

﴿الْأَعْلَالُ﴾: جَمْعُ «عُلٍّ» وَهُوَ طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ جِلْدٍ، يُجْعَلُ فِيْ

عُنُقِ الْأَسِيرِ، أَوِ الْمَجْرِمِ، أَوْ فِي أَيْدِيهِمَا، وَقَدْ تُجْمَعُ يَدُ الْمَغْلُولِ إِلَى عُنُقِهِ، وَتَطَوَّقَانِ بِالْعُلِّ.

المعنى الثاني: وهو المعنى الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا...﴾ (٨) .
أي: أولئك تَوَجَّدُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالٌ مَّعْنَوِيَّةٌ مِنْ أَهْوَائِهِمْ، وَشَهَوَاتِهِمْ، وَرَغَبَاتِ الْفُجُورِ فِيْ نُفُوسِهِمْ، تَجْعَلُهُمْ أَسْرَى لَهَا، فَتَقُودُهُمْ أَوْ تَسُوقُهُمْ إِلَى ذَرَكَاتِ الْمَعَاصِي وَكِبَائِرِ الْآثَامِ، فَالْكَفْرِ.

إِنَّ سُنَّةَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ إِذْ جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ بِاخْتِيَارَاتِهِمْ الْحَرَّةَ، أَسْرَاءَ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ، أَنْ يَرْفُضُوا دَعْوَةَ الْحَقِّ الَّتِي جَاءَ بِهَا رَسُولُ رَبِّهِمْ، وَأَنْ يُعَانِدُوا وَيُصِرُّوا عَلَى بَاطِلِهِمْ.

وَمَغْلُومٌ أَنْ سُنَنَ اللَّهِ وَقَوَائِنَهُ تُعْطِي تَأْثِيرَاتِهَا بِجَعْلٍ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِنْ كَانَتْ أَسْبَابُ اسْتِخْدَامِهَا مِنْ إِرَادَاتِ الْعِبَادِ، كَمَنْ يَصِلُ الْكَهْرُبَاءُ فَيُضِيءُ الْمَصْبَاحُ الْكَرْبَائِيَّ بِخَلْقِ اللَّهِ ضِمْنَ سُنَّتِهِ الْكُونِيَّةِ، وَكَمَنْ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي النَّارِ فَيُحْرِقُهَا اللَّهُ لَهُ ضِمْنَ سُنَّتِهِ فِي كَوْنِهِ، وَهَكَذَا إِلَى سَائِرِ سُنَنِ اللَّهِ وَقَوَائِنِهِ التَّكْوِينِيَّةِ.

القضية الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَأَوَّلَتْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

أي: وأولئك الْكَفَرَةُ الْمَكْذِبُونَ، مُلَازِمُو الْبَقَاءِ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، إِذَا أَنْهَوْا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ كَفَرَةُ يُكْذِبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَكَانُوا بِذَلِكَ مِنَ الْمَجْرَمِينَ.

وبهذا تمَّ الملحق الثاني من ملاحق السورة، والحمد لله على معونته وَفَتْحِهِ تَوْفِيقِهِ.



(١٣)

الملحق الثالث

دراسة تكاملية للتُصوص بشأن صالح عليه السلام وقومه ثمود
في القرآن المجيد

نسب الرسول صالح عليه السلام

قالوا: هو صالح بنُ عُبَيْد بنِ آسِف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود بن عاثِر بن إرم بن سام بن نوح عليه السَّلام. والله أعلم. وقد أرسله الله عزَّ وجلَّ إلى قبيلة «ثمود».

قبيلة ثمود

هي قبيلة من القبائل العربيَّة العاربة، سُمُّوا باسم جدِّهم «ثُمود» أخي «جَدِيس» وهما ابنا عاثِر بن إرم بن سام بن نوح عليه السَّلام، والله أعلم. وهي قبيلة تكاثرت ونَشَأَتْ بَعْدَ إِهْلَاكِ عَادِ قوم الرِّسُول هُودٍ عليه السَّلام، وقد يُطْلَقُ على «ثمود» عادُ الأُخرى، وكانوا أَهْلَ أوثان. ولفظ «ثمود» جاء في القرآن مَضْرُوفاً مُتَوْناً مُرَاعَاةً لاسم الجدِّ، وجاء ممنوعاً من الصَّرْفِ مُرَاعَاةً لِكَوْنِهِ عَلَماً على القبيلة المؤنثة.

مساكن ثمود

كانت مَسَاكِنُ «ثمود» في أَرْضِ «الْحِجْرِ» ولهذا وَصَفَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّهم أَصْحَابُ الْحِجْرِ.

الْحِجْر: أرضٌ بين الشَّام والحجاز، إلى وادي القُرى، وتَقَعُ في الطَّرِيقِ البَرِّيِّ للمسافرِ من الشَّام إلى الحجاز. وآثار مَدَائِنِ هؤلاء الْقَوْمِ ظَاهِرَةٌ حَتَّى الْآنَ، وتُسَمَّى «مَدَائِنُ صَالِحٍ» وتُعَرَفُ ديارُهُمْ أَيْضاً بِاسْمِ «فَجِّ النَّاقَةِ».

وقد أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُعْظَمَ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَعْدَ إِهْلَاكِهِمْ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِرُسُولِهِمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاتَّقَى اللَّهَ بِبَعْضِ سُلُوكِهِ، فَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى صِحَّةِ إِيمَانِهِ وَإِسْلَامِهِ.

خلاصة ما عند المؤرخين بشأن صالح عليه السلام وقومه

يطالع الناظر في مُدَوَّنَاتِ التَّارِيخِ حَوْلَ قَبِيلَةِ «ثمود» وكيف أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ، فيجد عدَّةَ رِوَايَاتٍ مَقْبُولَاتٍ بِوَجْهِ عَامٍّ، وَأُسْتَعْرَضُ خِلَاصَةُ عَنْهَا لِمَا فِيهَا مِنْ تَفْصِيلاتٍ تُتِمُّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ عَنْهُمْ، وَلَا تَتَعَارَضُ مَعَهُ.

وَأَخْتَارُ فِيهَا يَلِي لِقَطَاطٍ مِمَّا جَاءَ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ، وَنَقَلَهَا بِبَعْضِ الْمَفْسَّرِينَ، أَخَذًا عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَالسُّدِّيِّ، وَأَبِي الطُّفَيْلِ، وَغَيْرِهِمْ.

(١) أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ «عَادًا» إِلَّا مَنْ آمَنَ بِالرَّسُولِ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ، وَارْتَحَلَ «هُودٌ» وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ عَنْ أَرْضِ الْأَحْقَافِ فِي الْجَنُوبِ الَّتِي كَانَ فِيهَا هَلَاكُ «عَادٍ».

(٢) وَنَشَأَتْ بَعْدَهَا قَبِيلَةُ «ثُمُودٍ» فِي الشَّمَالِ فِي أَرْضِ «الْحِجَرِ» وَاسْتُخْلِفُوا فِي الْأَرْضِ، وَانْتَشَرُوا، وَرُبَّمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ مَنْ آمَنَ بِالرَّسُولِ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَبِيَّةِ.

(٣) ثُمَّ ظَهَرَ فِيهِمُ الْفَسَادُ، وَعَبَدُوا آلِهَةً اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَنَسُوا مَا كَانَ آبَاؤُهُمْ قَدْ ذُكِّرُوا بِهِ مِنْذُ عَهْدِ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَمَا تَلَاهُ مِنْ قُرُونٍ.

(٤) فَبَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا رَسُولًا مِنْهُمْ، هُوَ «صَالِحٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ مِنْ أَوْسَطِهِمْ نَسَبًا، وَأَفْضَلِهِمْ مَكَانَةً.

وكَانَ قَبْلَ نَبَوْتِهِ وَرِسَالَتِهِ رَجُلًا فَاضِلًا، حَسَنَ الْخُلُقِ، حَسَنَ السَّيَرَةِ، مَرْجُوعًا لِكُلِّ خَيْرٍ وَفَضِيلَةٍ، وَعَمَلٍ بَرٍّ وَإِحْسَانٍ.

(٥) فدعاهم «صالح» عليه السلام إلى التوحيد وبُذِ الشُّرك بالله، ودعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك السيئات وفعل الصالحات، واجتناب الظلم والعدوان والفساد في الأرض، وصبر «صالح» عليه السلام عليهم، متابعاً لدعوته إلى سبيل ربه، وبشرهم بالجنة إن استجابوا لدعوته، يَدْخُلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ، وَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ بِعِقَابِ اللَّهِ الْمَعْجَلِ فِي الدُّنْيَا، وَبِعِقَابِ اللَّهِ الْمُؤَجَّلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ إِذَا أَبَوْا.

وَاتَّخَذَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُخْتَلَفَ الْوَسَائِلِ الْمَتَّاحَةِ لِهَدَايَتِهِمْ، مِنْ إِقْنَاعٍ بِالْحِجَجِ وَالْبَرَاهِينِ، وَجَدَالٍ بَالِغٍ هِيَ أَحْسَنُ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهيبٍ فِي مَوَاعِظَ حَسَنَةٍ، مَعَ صَبْرٍ وَحِلْمٍ، وَتَلَطُّفٍ وَأَنَاةٍ، شَأْنُهُ فِي هَذَا كَشَأْنِ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ.

(٦) وَبَعْدَ أَنْ أَلَحَّ عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَتِهِ، وَشَدَّدَ فِي إِنْكَارِهِ سَيِّئَاتِهِمْ، طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً مِنَ الْخَوَارِقِ الْمَادِّيَةِ يَشْهَدُ اللَّهُ لَهُ بِهَا بِأَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ أَنَّهُ نَبِيُّ نَبَأَهُ اللَّهُ، وَرَسُولٌ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ، لِيُبَلِّغَهُمْ دِينَهُ، وَالكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْهِمْ لِيُؤْمِنُوا بِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مَا جَاءَ فِيهِ.

فقال لهم «صالح» عليه السلام: مَاذَا تَطْلُبُونَ مِنْ آيَةِ خَارِقَةٍ؟.

قالوا: تَخْرُجْ مَعَنَا إِلَى عِيدِنَا هَذَا، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ بِأَضْنَانِهِمْ، وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فِي يَوْمٍ مَغْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ، فَتَدْعُو إِلَهَكَ، وَتَدْعُو آلِهَتَنَا، فَإِنْ اسْتَجِيبَ لَكَ اتَّبَعْنَاكَ، وَإِنْ اسْتَجِيبَ لَنَا اتَّبَعْنَا.

فقال لهم «صالح» عليه السلام: «نَعَمْ» وَقَبِلَ عَرْضَهُمْ.

(٧) فَخَرَجُوا بِأَوْثَانِهِمْ إِلَى عِيدِهِمْ ذَاكَ، وَخَرَجَ مَعَهُمْ «صالح» عليه السلام مُتَوَكِّلاً عَلَى رَبِّهِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَمُسَبِّحاً بِحَمْدِهِ، وَمُتَلَجِّئاً إِلَيْهِ، وَوَاتِقاً بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَنْصُرُهُ عَلَيْهِمْ فِي مَبَارَاةِ الدُّعَاءِ.

أَمَّا «ثُمُود» فَدَعَوْا أَوْلَادَهُمْ، وَسَلَّوْهَا أَنْ لَا يُسْتَجَابَ لِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، إِذَا دَعَا رَبَّهُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَدْعُوهُ بِهِ.

ثُمَّ قَالَ أَحَدُ سَادَاتِ «ثُمُود» وَعُظَمَائِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وَهُوَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: «جُنْدُع»: أَخْرِجْ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، وَعَيْنَهَا لَهُ، نَاقَةً مُخْتَرِجَةً (أَي: تُشْبِهُ الْبُخْتِ)^(١) جَوْفَاء (أَي: عَظِيمَةَ الْجَوْفِ) وَبِرَاءً (أَي: ذَاتَ وَبَرٍ كَثِيرٍ) فَإِنْ فَعَلْتَ آمَنَّا بِكَ وَصَدَقْنَاكَ فِي رَسُولِكَ، وَشَهِدْنَا بِأَنْ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَوَافَقَ سَائِرُ أَفْرَادِ «ثُمُود» الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ عَلَى هَذَا الطَّلَبِ.

(٨) وَأَخَذَ رَسُولُهُمْ «صَالِحٌ» عَلَيْهِ السَّلَام مَوَائِقَهُمْ قَائِلًا: لَيْتَنِي دَعَوْتُ اللَّهَ فَاسْتَجَابَ لِي، وَأَخْرَجَ لَكُمْ النَّاقَةَ الَّتِي وَصَفْتُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَفْسَهَا الَّتِي ذَكَرْتُمْ، لَتَصَدَّقَنِي، وَلَتُؤْمِنَنَّ بِي.

قَالُوا: نَعَمْ، وَأَعْطَوْهُ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَهُمْ وَمَوَائِقَهُمْ.

(٩) فَدَعَا «صَالِحٌ» عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ، بِأَنْ يُخْرِجَ لَهُمُ النَّاقَةَ الَّتِي طَلَبُوهَا، مِنَ الصَّخْرَةِ الَّتِي ذَكَرُوهَا وَعَيْنُوهَا. وَكَانَ قَوْمُهُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى الصَّخْرَةِ.

فَلَمْ يَلْبَثُوا حَتَّى رَأَوْا الصَّخْرَةَ تَتَمَخَّضُ بِالنَّاقَةِ الْمَطْلُوبَةِ، تَمَخَّضَ النَّاقَةُ النَّتُوجَ بَوْلِهَا.

وَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ الْعَظِيمَةُ فَأَنْصَدَعَتْ، ثُمَّ أَسْقَطَتْ مِنْ بَاطِنِهَا نَاقَةً عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي طَلَبَهُ الْقَوْمُ.

(١٠) فَأَمَنَّ بِهِ «جُنْدُعٌ» وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَلَى أَمْرِهِ مِنْ رَهْطِهِ، وَأَرَادَ بَعْضُ أَشْرَافِ «ثُمُود» مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَصَدِّقُوهُ، فَتَهَاوَهُمْ «ذُؤَابُ بْنُ عَمْرِو بْنِ لَبِيدٍ» وَ«الْحَبَابُ» صَاحِبُ أَوْلَادِهِمْ، وَ«رَبَابُ بْنُ صَمْعَرٍ» وَكَانُوا مِنْ

(١) الْبُخْت: هِيَ مِنَ الْإِبِلِ الْخَرَّاسَانِيَّةِ، وَكَانَتْ ذَوَاتِ صِفَاتٍ مُتَمَيِّزَةٍ.

أَشْرَافِ ثَمُودَ، وَاسْتَطَاعُوا أَنْ يُزُتُّوا عَلَى سَادَاتِ ثَمُودَ وَأَشْرَافِهَا.

فَقَالَ أَحَدُ الَّذِينَ آمَنُوا بِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتَّبَعُوهُ، وَهُوَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: «مُهِوسُ بْنُ عَنَمَةَ» شِعْراً بِشَأْنِ «شِهَابٍ» عَزِيزِ ثَمُودَ، جَاءَ فِيهِ قَوْلُهُ:

وَكَاثَتْ غُضْبَةً مِنْ آلِ عَمْرِو إِلَى دِينِ النَّبِيِّ دَعَا شِهَابَا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلَّهُمْ جَمِيعاً فَهَمَّ بِأَنْ يُجِيبَ وَلَوْ أَجَابَا
لَأُضْبِحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزاً وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابَا
وَلَكِنَّ الْغَوَاةَ مِنْ آلِ حَجْرٍ تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمْ ذُؤَابَا

(١) قالوا: وَوَلَدَتِ النَّاقَةُ الْمِعْجَزَةُ سَقْباً (أي: وَلَدَتْ ذَكَراً) ثُمَّ لَمَّا أَنْهَى مُدَّةَ رَضَاعِهِ فُصِّلَ عَنْ أُمِّهِ فَصَارَ فَصِيلاً.

(١٢) وَاِمْتَحَنَ اللَّهُ ثَمُوداً بِهَذِهِ النَّاقَةِ امْتِحَاناً صَعْباً، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ «صَالِحٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ، وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ، فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

وَقَالَ لَهُمْ أَيْضاً: إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ الَّذِي أَخْرَجَ آيَةً كَمَا طَلَبْتُمْ، أَمَرَ بِأَنْ يَكُونَ الْمَاءُ الَّذِي تَشْرَبُونَ مِنْهُ قِسْمَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا مُنَاصِفَةً، لَهَا يَوْمٌ مَعْلُومٌ تَحْضُرُ فِيهِ، وَتَشْرَبُ الْمَاءَ، وَلَكُمْ يَوْمٌ مَعْلُومٌ تَحْضُرُونَ فِيهِ، فَتَشْرَبُونَ وَتَمْلَأُونَ آيَتَكُمْ وَأَوْعِيَتَكُمْ.

(١٣) وَكَانَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ تَرَعَى عَلَى مَا تَشَاءُ يَوْماً، وَتَأْتِي إِلَى مَاءِ ثَمُودَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، فَتَنْفَرِدُ بِشُرْبِ الْمَاءِ، وَتَفْرُجُ لَهُمْ رِجْلَيْهَا يَوْمَ قُدُومِهَا حَتَّى يَخْلُبُوا مَا شَاءُوا لَبناً مِنْ ضَرْعِهَا، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ لَبَنِهَا قَدَرٌ وَسُعْيِهِمْ، وَيَدْخِرُونَ مِنْهُ، حَتَّى كَانُوا يَمْلَأُونَ آيَتَهُمْ، ثُمَّ تَضْدُرُ مِنْ فَجٍّ غَيْرِ الْفَجِّ^(١) الَّذِي قَدِمَتْ مِنْهُ.

(١) الفج: الطريق الواسع البعيد جمع «فجاج» و«أفجة».

فإذا كان العَدُوَّ كانَ الْيَوْمَ هُوَ يَوْمُ شُرَيْهِمْ مِنَ الْمَاءِ، فَيَشْرَبُونَ مَا شَاءُوا. وَيَذْخَرُونَ مَا شَاءُوا لِلْيَوْمِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ النَّاقَةِ.

(١٤) قَالُوا: وَكَانَتِ النَّاقَةُ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ ارْتَقَتْ إِلَى الْمُرْتَفَعَاتِ فِي أَرْضِ ثَمُودَ، فَتَخَافُ مِنْهَا أَنْعَامُ الْقَوْمِ، فَتَهْرُبُ إِلَى بَطْنِ الْوَادِي، حَيْثُ الْحَرُّ وَالْجَذْبُ، وَكَانَتْ إِذَا أَقْبَلَ الْبَرْدُ هَبَطَتْ إِلَى بَطْنِ الْوَادِي، فَخَافَتْ مِنْهَا أَنْعَامُهُمْ، فَهَرَبَتْ إِلَى الْمُرْتَفَعَاتِ حَيْثُ الْبَرْدُ وَالْجَذْبُ، فَأَضَرَّ ذَلِكَ بِمَوَاشِيهِمْ.

(١٥) وَصُعِبَتْ عَلَى ثَمُودَ مَعِيشَتُهُمْ مَعَ هَذِهِ النَّاقَةِ، بِالشُّرُوطِ الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا، وَضَاقَتْ صُدُورُهُمْ مِنْهَا، فَاتَّفَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَلَى عَقْرِهَا، وَالتَّخْلُصِ مِنْهَا.

(١٦) وَكَانَ فِي الْقَوْمِ امْرَأَتَانِ ذَوَاتَا شَرٍّ:

الأولى: امْرَأَةٌ «ذُؤَابُ بْنُ عَمْرِو» وَهِيَ: «أُمُّ غَنْمٍ غُنَيْزَةُ بِنْتُ غَنْمٍ» وَقَدْ كَانَتْ امْرَأَةً عَجُوزًا ذَاتَ بَنَاتٍ حَسَنَاتٍ، وَمَالٍ مِنْ إِبِلٍ وَبَقَرٍ وَغَنَمٍ.

الأخرى: «صَدُوفُ بِنْتُ الْمُحَيَّا» حَفِيدَةُ صَاحِبِ أُوثَانٍ بَنِي عُبَيْدٍ، وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَمَالٍ مِنْ إِبِلٍ وَبَقَرٍ وَغَنَمٍ.

وَكَانَتَا مِنْ أَشَدِّ امْرَأَتَيْنِ فِي ثَمُودَ عداوةً لِلنَّبِيِّ الرَّسُولِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَنْ أَعْظَمَ النِّسَاءِ كُفْرًا بِهِ.

وَإِذْ أَضْرَبَتِ النَّاقَةُ فِي طَرِيقَةِ حَيَاتِهَا بِأَنْعَامِهِمَا، فَقَدْ حَرِصَتَا عَلَى التَّخْلُصِ مِنَ النَّاقَةِ بِعَقْرِهَا، وَعَمِلَتَا عَلَى ذَلِكَ بِمَكْرٍ وَخُبْنٍ.

أَمَّا «صَدُوفُ» فَدَعَتْ رَجُلًا مِنْ ثَمُودَ، يَقَالُ لَهُ: «الْحُبَابُ» وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ تُسَلِّمَهُ نَفْسَهَا مُقَابِلَ عَقْرِ النَّاقَةِ، فَأَبَى.

فَدَعَتْ ابْنَ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ: «مِضْدَعُ» وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ نَفْسَهَا، مُقَابِلَ أَنْ يَعْقِرَ النَّاقَةَ، فَقَبِلَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا «أُمُّ غُثْمٍ غُثَيْرَةُ بِنْتُ غُثْمٍ» فَدَعَتْ «قُدَارَ بْنَ سَالِفٍ» وَكَانَ رَجُلًا أَحْمَرَ أَرْزَقَ قَصِيرًا ذَا شَرٍّ، فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ تُعْطِيَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ بَنَاتِهَا الْحَسَنَاتِ، عَلَى أَنْ يَعْقِرَ النَّاقَةَ، وَكَانَ «قُدَارُ» هَذَا عَزِيزًا مَنِيعًا فِي قَوْمِهِ.

(١٧) فَاِنْطَلَقَ «قُدَارُ» وَ«مِضْدَعُ» فَاسْتَنْفَرَا غَوَاةً مِنْ ثَمُودَ، فَاتَّبَعَهُمَا سَبْعَةُ نَفَرٍ، فَرَصَدُوا النَّاقَةَ حِينَ صَدَرَتْ عَنِ الْمَاءِ، وَقَدْ كَمَنَ لَهَا «قُدَارُ» فِي أَضْلٍ صَخْرَةٍ عَلَى طَرِيقِهَا، وَكَمَنَ لَهَا «مِضْدَعُ» فِي أَضْلٍ صَخْرَةٍ أُخْرَى، فَمَرَّتْ عَلَى «مِضْدَعٍ» فَرَمَاهَا بِسَهْمٍ، فَانْتَظَمَ بِهِ عَصَلَةً سَاقِهَا، وَأَقْبَلَتْ «غُثَيْرَةُ» وَمَعَهَا إِحْدَى بَنَاتِهَا الْحَسَنَاتِ، فَأَمَرَتْهَا بِأَنْ تُسْفِرَ عَنْ وَجْهِهَا عِنْدَ «قُدَارٍ» لِإِغْرَائِهِ بِعَقْرِ النَّاقَةِ، فَفَتَنَهُ حُسْنُ وَجْهِهَا، وَحَرَضَتْهُ أُمُّهَا عَلَى عَقْرِ النَّاقَةِ، فَشَدَّ عَلَى النَّاقَةِ بِالسَّيْفِ، فَكَشَفَ عَرْقُوبَهَا، ثُمَّ طَعَنَ فِي لَبَتِهَا فَتَحَرَّهَا.

ثُمَّ اتَّبَعُوا فَصِيلَهَا فَعَقَرُوهُ.

(١٨) فَلَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ قَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَبْشِرُوا بِعَذَابِ اللَّهِ وَنِقْمَتِهِ.

وَكَانَ عَقْرُهُمْ لِلنَّاقَةِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ.

قَالُوا لَهُ وَهُمْ يَهْزُؤُونَ: وَمَتَى ذَلِكَ يَا صَالِحُ؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ لَهُمْ: تُصْبِحُونَ غَدَاةَ يَوْمِ الْخَمِيسِ وَوُجُوهُكُمْ مُضْفَرَّةٌ، ثُمَّ تُصْبِحُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَوُجُوهُكُمْ مُحْمَرَّةٌ، ثُمَّ تُصْبِحُونَ يَوْمَ السَّبْتِ وَوُجُوهُكُمْ مُسْوَدَّةٌ، ثُمَّ يَنْزِلُ بِكُمْ عَذَابُ اللَّهِ صَبَاحَ يَوْمِ الْأَحَدِ.

(١٩) فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا قَالَ، مُحَدِّدًا مَوْعِدَ عَذَابِهِمْ، قَالَ النَّفَرُ الثَّسْعَةُ الْمَفْسِدُونَ الَّذِينَ تَوَاطَّؤُوا عَلَى الْمَشَارَكَةِ فِي عَقْرِ نَاقَةِ اللَّهِ، هَلُمُّوا فَلْنَقْتُلْ صَالِحًا، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا عَجَّلْنَاهُ قَبْلَنَا، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ.

فَأَتَوْهُ لَيْلًا لِيَقْتُلُوهُ، فَدَفَعْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْحِجَارَةِ فَأَهْلَكْتَهُمْ، فَلَمَّا أَبْطَؤُوا عَنْ أَصْحَابِهِمْ، أَنْزَا مَنَزِلَ «صَالِحٍ» عَلَيْهِ السَّلَام، فَوَجَدُوهُمْ قَتْلَى. فَقَالُوا لَصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْتَ قَتَلْتَهُمْ.

(٢٠) ثُمَّ هَمَّ الْقَوْمُ بِقَتْلِهِ، فَحَمَنَهُ عَشِيرَتُهُ، وَلَبِسُوا السِّلَاحَ، وَقَالُوا لَهُمْ: وَاللَّهِ لَا تَقْتُلُونَهُ، فَقَدْ وَعَدَكُمُ أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِكُمْ فِي ثَلَاثٍ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا لَمْ تَزِيدُوا رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا غَضَبًا. وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَأَنْتُمْ مِنْ وَرَاءِ مَا تُرِيدُونَ.

فَانصَرَفُوا عَنْهُمْ لَيْلَتَهُمْ تِلْكَ، فَأَصْبَحُوا وَجُوهُهُمْ مُضْفَرَّةً، فَأَيَقَنُوا بِالْعَذَابِ، وَعَرَفُوا أَنَّ صَالِحًا قَدْ صَدَقَهُمْ، فَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ فَلَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ ذَلِكَ، وَشَغَلَهُمْ عَنْ مُلَاحَقَتِهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ أَمَارَاتٍ ذَكَرَهَا لَهُمْ.

(٢١) وَفِي لَيْلَةِ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ لِإِهْلَاكِهِمْ، خَرَجَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَانْحَاذُوا إِلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ لَا يَنْزِلُ فِيهِ الْعَذَابُ، ثُمَّ تَوَجَّهُوا مُرْتَحِلِينَ مِنْ أَرْضِهِمْ وَدِيَارِهِمْ، جِهَةً أَرْضِ الشَّامِ حَتَّى نَزَلُوا رَمْلَةً فِلَسْطِينِ.

وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَمَّ إِهْلَاكُ كُفَّارِ ثَمُودَ.

(٢٢) لَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْمُنْتَقِمُ الْجَبَّارُ عَلَى ثَمُودَ الصَّيْحَةَ صَبِيحَةَ يَوْمِ الْآحَدِ، كَمَا ذَكَرَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، وَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كَبِيرٌ وَلَا صَغِيرٌ إِلَّا هَلَكَ.

وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ اللَّهُ - جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - بِكُلِّ الْمَجْرِمِينَ، مَتَى صَارَ صَلَاحُهُمْ أَوْ صَلَاحُ مُعْظَمِهِمْ مِثُوسًا مِنْهُ تَمَامًا.

تِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ فِي دَارِ الْإِبْتِلَاءِ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا.

استعراض النصوص الواردة في القرآن المجيد بشأن صالح عليه السلام وقومه مع بيان المناسبة الداعية لذكرها في سورها وهي (٢١) نصاً

النص الأول

قول الله عز وجل في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِ ۖ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا
فِي الْبَلَدِ ۖ (٨) وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۖ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ۖ (١٠) الَّذِينَ
طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ۖ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۖ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ (١٣)
إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۖ﴾.

جاء ذكر «ثمود» في هذا النص ضمن ذكر «عاد» و«فِرْعَوْنَ» في سياق التلويح لكفار مكة وما حولها، إبان التنزيل، ويلحق بهم أشباههم إلى قرب قيام الساعة، أنهم إذا وصلوا إلى حالة تُشبه حالة «عاد» قوم الرسول «هود» عليه السلام، أو تُشبه حالة «ثمود» قوم الرُّسُول «صالح» عليه السلام، أو تُشبه حالة فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ وَجُنُودِهِ، وكلُّ هؤلاء قَدْ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ، أَنْ يُجْزِيَ اللَّهُ فِيهِمْ سُنَّتَهُ، فَيُصَبَّ عَلَيْهِمْ سَوْطُ عَذَابٍ، إِذْ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ لِبِالْمِرْصَادِ، يَرُصُّ أحوال الأمم، وَسُنَّتَهُ بِعِبَادِهِ وَاحِدَةً.

النص الثاني

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النَّجْم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) فِي مَعْرِضِ بَيَانِ بَعْضِ أَفْعَالِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ فِي كَوْنِهِ وَفِي عِبَادِهِ، وَمِنْهَا إِهْلَاكُ الْمَجْرِمِينَ الَّذِينَ قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةٍ اسْتَحَقُّوا الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ مَعَهَا:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا مَّا أَتَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُم أَظْلَمَ وَأَطَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَفَشَنَهَا مَا عَشَىٰ ﴿٥٤﴾﴾:

وفي هذا النص جاء ذكر إهلاك الله «ثموداً» ضمن ذكر إهلاكه «عاداً» و«قوم نوح» و«قوم لوط» المرادين بعبارة [المُؤَنَفَكَةَ] أي: المنقلبة التي انقلبت بلادهم عليهم فجعل الله عاليها سافلها.

والغرض إنذار كفار مكة فمن حولها، ثم يلحق بهم أشباههم إلى قرب قيام الساعة، أنهم إذا وصلوا إلى حالة تُشبه حالة قوم من هؤلاء المهلكين، أن يجري الله فيهم سنته فيهلكهم إهلاكاً شاملاً مقروناً بتعذيب، ثم لهم عذاب أكبر يوم الدين.

النص الثالث

قول الله عز وجل في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسُونَهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾.

فجاء في هذه السورة ذكر إهلاك الله «ثموداً» قوم الرسول «صالح» عليه السلام، وأفردهم الله بالذكر لإنذار كفار مكة ومن حولها إبان التنزيل.

ويظهر لي أن العرض التنبيه على أن هؤلاء الكفار المندرين، قد بدأت أحوالهم وأعمالهم الكفرية تقترب من بدايات أحوال وأعمال «ثمود» الكفرية التي جرّتهم إلى الدركات التي استحقوا بها الإهلاك العام الشامل.

النص الرابع

قول الله عز وجل في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) خطاباً لرسوله فليكل متلق لايات الكتاب المجيد:

﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿٨﴾﴾ .

جاء في هذه السورة حديث مَطَوَّلٌ عَنْ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ وقصتهم مع مُؤْمِنِي قومهم، وجاء فيها تَلْوِيحٌ لِمَنْ يَضْطَهِدُ ضَعْفَاءَ الْمُؤْمِنِينَ في مَكَّةَ، بَأَنَّ بَطْشَ اللَّهِ شَدِيدٌ إِذَا بَطَشَ بِالطُّغَاةِ الظَّالِمِينَ، وَضَرَبَ مَثَلًا إِمَائِيًّا عَلَى بَطْشِهِ بِفِرْعَوْنَ وَمَلَكِهِ وَجُنُودِهِ، وَعَلَى بَطْشِهِ بِكُفَّارِ ثَمُودَ.

النص الخامس

قول الله عز وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) في معرض الحديث عَنْ كُفَّارِ مَكَّةَ وَتَعَجُّبِهِمْ مِنْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ، وَمِنْ نَبَأِ يَوْمِ الدِّينِ الَّذِي يُبْعَثُ فِيهِ الْمَوْتَى لِلْحِسَابِ وَفصل القضاء وَتَحْقِيقِ الجزاء:

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودَ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطَ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ :

فذكر الله عز وجل في هذا النص ثموداً ضِمْنَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، هم «قوم نوح - أصحاب الرّس - ثمود - عاد - فِرْعَوْنُ: أي: وملأه وقومه - إخوان لوط - أصحاب الأيكة، وهم من قوم شعيب عليه السلام - قوم تُبَّعٍ» وقد سبق بيانهم لدى تدبر السورة. والغرض التلويحُ بِالْإِهْلَاكِ، وجاء فيه بيان أَنَّ إِهْلَاكَهُمْ كَانَ تَنْفِيزاً لِوَعِيدِ سَبَقَ أَنْ بَلَّغَتْهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُ رَبِّهِمْ.

النص السادس

قول الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَنْبَعُهُ إِنَّآ إِذَا لَفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَمْلَأَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكَذَّابُ الْآشِرُّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فَنَنفُثُ لَهُمْ فَأَرْقَبَتْهُمْ وَأَصْطَرِ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّتْهُمْ أَنْ

أَلَمْآ قِسْمَةُ بَيْنَهُمْ كُلِّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَادَّوآ صَاحِبَهُمْ فَطَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَيْبَةِ الْحُظْرِ ﴿٣١﴾ ۞

سبق تدبر هذا النص لدى تدبر سورة (القمر) وقد جاء فيها لإنذار كفار مكة فمن حولها إبان التنزيل، ثم من بعدهم إلى قرب قيام الساعة، بإهلاك أمثال لإهلاك ثمود، إذا وصلت أحوال الأقوام إلى مثل حالة ثمود حين أهلكوا.

وجاء في هذا النص بعض تفصيل لقصتهم، على طريقة القرآن في توزيع تفصيلات القصص والموضوعات في السور التي تأتي فيها توزيعاً تكاملياً. وستأتي بعد الاستعراض النظرة التكاملية إن شاء الله وأعان وألهم ووفق.

النص السابع

قول الله عز وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن المصيرين على عنادهم وتكذيبهم من كفار مكة وما حولها:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ الْأَحْرَابِ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ۞﴾

فذكر الله عز وجل في هذا النص ثموداً ضمن مجموعة من المهلكين السابقين، وجاء فيه بيان أن إهلاكهم كان إهلاك عقاب، بقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

وقد جيء به لإنذار كبراء كفار مكة، الذين وصلوا إلى حالة من هو في عزة وشقاق، يريدون مقاومة دعوة الرسول ﷺ بالقوة المسلحة بالأسلحة العسكرية، إبان نزول هذه السورة.

النص الثامن

قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿وَلَيْكُم مِّنْهُم مَّوَدَّةٌ خَلِقُوا خَلْقًا مِّمَّنْ يَتَقَوَّمُونَ عَنَّا بِإِذْنِنَا فَكَلَّمُوا نَحْنُ نَكُفِّرُ بَنِيَّكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُوءِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَقْلَمُونَ أَلَيْسَ لَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ رَبِّكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحْ أَفِينَا بِمَا نَعُدُّنَا إِنْ كُنَّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَنَوَى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَفَصَحْتُ لَكُم وَلَكِنْ لَا تَحْتَسِبُونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ :

سبق تدبر هذا النص لدى تدبر سورة (الأعراف) وقد جاء فيها لإلذار المكذبين بما جاء به الرسول محمد ﷺ، ولم يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم.

وجاء في هذا النص تفصيلات لم تأت في النصوص الأخرى، وسيأتي إن شاء الله التدبر التكاملي لمجموع النصوص.

النص التاسع

قول الله عز وجل في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) مُنْذِرًا كُفَّارَ مَكَّةَ إِيَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ بِإِهْلَاكِ مُمَائِلٍ لِإِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ السَّابِقِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٢٥﴾ فَقُلْنَا
 أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَرَزْنَاهُمْ نَذِيرًا ﴿٢٦﴾ وَقَوْمٌ نُوْجٍ لَّمَّا
 كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا
 ﴿٢٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٢٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ
 الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٢٩﴾﴾:

فذكر الله عز وجل ثموداً في هذا النص ضمن مجموعة من المهلكين السابقين، وجاء فيه بيان أن كلاً منهم قد وعظه الله بضرب الأمثال وحذره وأنذره، فلم يتعظ، فأهلكهم الله عز وجل إهلاكاً فيه تنبيه، أي: فيه تفتيت إلى أجزاء صغرى.

النص العاشر

قول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في معرض إنذار الذين كذبوا رسول ربهم، بأن يهلكهم الله مثلكم أهلك المكذبين السابقين من القرون الأولى:

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ أَتَتَزَكُونَ فِي مَا هُنَّآ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿٤٨﴾ وَتَنَجُّونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتًا فَرِهِينَ ﴿٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ ﴿٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لِمَا شَرِبْتُمْ وَلَكُمْ شِرْبٌ يَوْمَ مَقْلُوبٍ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَسْهَوْا بِسُوءِ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَمَقَرُّهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

سبق تدبر هذا النص لدى تدبر سورة (الشعراء) وقد جاء فيه

تفصيلات لم تأت في النصوص الأخرى، وسيأتي إن شاء الله التدبر التكاملي لمجموع النصوص.

النص الحادي عشر

قول الله عز وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ٤٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِمَنِ تَوَلَّوْا بِالْبَيِّنَاتِ قَبْلَ الْهَاسِنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعُوا بَنِيكُمْ وَمَنْ مَعَهُمْ قَالُوا طَاعَتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَجْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنَنِيَّتُنَّ وَأَهْلُكُمْ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٤٩﴾ وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرُنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٥٣﴾:

سبق تدبر هذا النص في موضعه من سورة (النمل) وقد جاء فيه تفصيلات لم تأت في النصوص الأخرى، وسيأتي إن شاء الله التدبر التكاملي لمجموع النصوص.

النص الثاني عشر

قول الله عز وجل في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩﴾:

دلت هذه الآية على أن كُبراء كفار مكة طلبوا من الرسول محمد ﷺ، أن يُجري الله له آيات خوارق اقترحوها، كأن يُنجي عنهم

جِبَالٍ مَكَّةَ، أَوْ أَنْ يَجْعَلَ بَعْضَ جِبَالِهَا أَوْ بَعْضَ مَوَاضِعَ مِنْهَا ذَهَبًا، كَمَا أَخْرَجَ لَصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّاقَةَ مِنْ صَخْرَةٍ عَيْنِهَا قَوْمُهُ، وَكَانَتْ قِصَّةُ هَذِهِ النَّاقَةِ وَقِصَّةُ صَالِحٍ وَقَوْمِهِ ثُمُودَ مُتَدَاوِلَةً بَيْنَهُمْ.

فَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِرْسَالِ مَا يَطْلُبُونَ وَمَا يَقْتَرِحُونَ مِنْ آيَاتٍ خَارِقَاتٍ، مِنْ الْآيَاتِ الْمَادِّيَّةِ، إِلَّا أَنْ مِنْ سُنَّتِهِ أَنَّهُ إِذَا اسْتَجَابَ لِمَطَالِبِ الْقَوْمِ، فَأَجْرَى لِرَسُولِهِ الْآيَةَ أَوْ الْآيَاتِ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا، فَلَمْ يُؤْمِنُوا أَنْ يُهْلِكَهُمْ بِعَذَابٍ، وَيَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ، إِذْ لَا يَكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ إِمْهَالُهُمْ وَتَأْخِيرُهُمْ إِلَى آجَالِهِمْ.

وَقَدْ أَثْبَتَتِ التَّجَارِبُ الْبَشَرِيَّةُ، أَنَّ الْخَوَارِقَ الَّتِي يَقْتَرِحُهَا الْكَافِرُونَ الْمُعَانِدُونَ الْجَاحِدُونَ، لَا تُغَيِّرُ مِنْ وَاقِعِهِمْ شَيْئًا، فَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ مُسْتَيْقِنُونَ، إِلَّا أَنَّهُمْ جَاحِدُونَ، وَمَا يَقْتَرِحُونَ مِنْ آيَاتٍ خَوَارِقَ إِنَّمَا هِيَ مَطَالِبُ تَعَنُّتِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَخْرِقَ اللَّهُ سُنَّتَهُ فِي كَوْنِهِ لِلْجَاحِدِينَ الْمُتَعَنِّتِينَ، الَّذِينَ يَطْرَحُونَ الْمَطَالِبَ عَلَى سَبِيلِ التَّشْهِي والتَّلَاعِبِ بِالسُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ.

وَمِنْ الْأُمُثْلَةِ الْوَاقِعِيَّةِ فِي تَارِيخِ الْأُمَمِ أَنَّ كَفَّارَ ثُمُودَ لَمْ يُؤْمِنُوا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ آتَاهُمْ مُعْجَزَةَ النَّاقَةِ عَلَى وَفْقِ مَا طَلَبُوا تَمَامًا، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ تَغْذِيْبُهُمْ، وَإِهْلَاكُهُمْ أَهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَشَأْ أَنْ يُعَرِّضَ أَهْلَ مَكَّةَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ، لِعَذَابٍ شَامِلٍ، يُهْلِكُهُمْ بِهِ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ عَامٍ، وَهُمْ الصَّفُّ الْأَوَّلُ مِنْ قَوْمِ خَاتَمِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ قَابِلِيَّةٌ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا بَعْدَ أَنْوَاعِ عِلَاجٍ فِي بَضْعِ سِنِينَ، يُهْلِكُ اللَّهُ فِيهَا الْكِبَرَاءَ الْمُعَانِدِينَ بِجُحُودٍ، الَّذِينَ يَمْنَعُونَ أَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، هَذَا مَا تَحَقَّقَ فِعْلًا بَعْدَ بَضْعِ سِنِينَ، ثُمَّ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ.

فالمعنى: ﴿وَمَا مَعَنَا﴾ من ﴿أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ المقترحات من الخوارق المادية التي طلبها أهل الجحود من كُبراء وأئمة مُشركي مكة ﴿إِلَّا﴾ مَا قَضَتْ بِهِ حِكْمَتُنَا، بَعْدَ ﴿أَنْ﴾ كَشَفْنَا لِلنَّاسِ بِالتَّجَرُّبَةِ أَنَّ الْمُسْتَقْبِقِينَ الْجَا حِدِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ أَجْرَيْنَا لَهُمُ الْخَوَارِقَ الَّتِي يَطْلُبُونَ، فَقَدْ ﴿كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وَمِنْ أُمَثِلَةِ الْمَكْذِبِينَ الْأَوَّلِينَ أَنَّنَا ﴿ءَاتَيْنَا نُمُودَ النَّاقَةِ﴾ الْمُعْجِزَةَ الْخَارِقَةَ لِلْعَادَةِ عَلَى وَفْقٍ مَا افْتَرَحُوا عَلَى رَسُولِهِمْ صَالِح، وَكَانَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ ﴿مُبْصِرَةً﴾ لَهُمْ إِذْ جَعَلَتْهُمْ يُدْرِكُونَ آيَةَ الْحَقِّ بِأَبْصَارِهِمْ ﴿فَظَلَمُوا﴾ جَا حِدِينَ ﴿بِهَا﴾ وَظَلَمُوا بِعَقْرِهَا، فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ الْمُسْتَأْصِلَ.

وبَعْدَ أَنْ كَشَفْنَا لِلنَّاسِ طِبَائِعَ الْمَكْذِبِينَ الْجَا حِدِينَ بِتَجَرُّبَةِ كُفَّارِ نُمُود، صَارَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ لَا نَسْتَجِيبَ لِمَطَالِبِ الْكَافِرِينَ التَّعْنِيتِيَّةِ، وَأَنْ تَكُونَ آيَاتُنَا آيَاتٍ تَخْوِيفٍ بَأَنَّا قَادِرُونَ عَلَى مَا نَشَاءُ ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ وَنَحْنُ نَخْتَارُهَا وَنُجَرِّبُهَا بِحِكْمَتِنَا، وَلَا نَجْعَلُ خَرَقَ سُنَنِ الْكُونِيَّةِ أَلْعُوبَةً لِلْمَتَشَهِّينِ الْمُتَعَنِّتِينَ الْجُحُودِينَ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَنَا بَعْدَ أَنْ صَدَّقْنَاهُ بِآيَاتِنَا الْخَوَارِقِ، وَكَذَّبُوا بِكِتَابِنَا الَّذِي نُنَزِّلُ آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ عَلَيْهِ، وَيَتْلُوهُ عَلَى النَّاسِ تَبَاعًا عَلَى وَفْقٍ مَا أَنْزَلْنَاهُ.

الباء في ﴿بِالْآيَاتِ﴾ زِيدَتْ للتوكيد.

النص الثالث عشر

قول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَإِلَىٰ نُمُودَ أَخَاهُمُ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾﴾ قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٢﴾﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرِفُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ

فَمَا تَرِيدُونَ غَيْرَ تَحْسِيرِ ﴿١٦﴾ وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ
تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
بَنَاتِنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُومِئُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ
﴿٢٠﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؕ إِنَّا لَشُعُودًا كَفَرْنَا بِهِمْ ؕ لَا بُدَّ لَنَا مِنَّا ﴿٢١﴾ :

وجاء في سورة (هود) أيضاً حكاية لمقالة شعيب عليه السلام لقومه
واعظاً ومُحذراً ومُنذراً.

﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ
هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ :

وجاء فيها أيضاً بعد بيان إهلاك قوم شعيب عليه السلام :

﴿...أَلَا بُدَّ لَنَا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ .

وهذا النص من سورة (هود) سيأتي إن شاء الله تدبره في الدراسة
التكاملية .

النص الرابع عشر

قول الله عز وجل في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) حكاية
لبعض مقالات مؤمن آل فرعون لقومه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ بِقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٥﴾ مِثْلَ
دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٦﴾﴾ :

فجاء في هذا النص ذكر «ثمود» ضمن موعظة مؤمن آل فرعون
لقومه، مُحذراً لهم من إهلاك شاملٍ مماثل لإهلاك هؤلاء الأقوام الذين
ذكرهم في موعظته .

النص الخامس عشر

قول الله عز وجل في سورة (فُصِّلَتْ / ٤١ / مصحف / ٦١ / نزول) في معرض الحديث عن كفار أهل مكة إيان التنزيل، وخطاباً لرَسُولِهِ ﷺ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٤﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَائِدِنَا يُجَادُونَ ﴿١٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْمَعَىٰ عَلَى الْمَدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾: أي: فإن أعطى كفار قريش لك ولدعوتك عارضهم غير مستجيبين لها ولا عابئين بها.

﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾: أي: فقل لهم منسناً إخباراً بإهلاك شامل إذا أصرُّوا على إغراضهم وكفرهم.

يقال لُغَةً: «أَنْذَرَهُ الشَّيْءُ» أي: أعلمه به وخَوْفُهُ مِنْهُ، فالفعل يتعدى إلى مفعولين مثل فعل «أَعْلَمَ».

صَاعِقَةً: مَفْعُولٌ بِهِ ثَانٍ لِلْفِعْلِ فِي ﴿أَنْذَرْتُكُمْ﴾ والصَّاعِقَةُ تُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى النَّارِ الْآتِيَةِ بِهَا عَذَابٌ مُهْلِكٌ، أَيْ كَانَ نَوْعُهَا أَوْ كَانَتْ مَادَّتُهَا. وَتُطْلَقُ عَلَى جِسْمٍ نَارِيٍّ مُشْتَعِلٍ يَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ. وَيُظْهَرُ أَنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ هُوَ الْمُرَادُ هُنَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَعْنَى الثَّانِي يَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي: ادُّكروا إذ

جَاءَتْهُمْ عَلَى السِّنَةِ رُسُلُهُمْ أَنْبَاءُ الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوا فِي التَّارِيخِ قَبْلَ عَادٍ وَثُمُودَ، وَبُشْرِيَّاتِ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ سَيَأْتُونَ فِي التَّارِيخِ بَعْدَهُمْ.

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾: أي: وَمَضْمُونُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى أَقْوَامِهِمْ قَبْلَ عَادٍ وَثُمُودَ، وَالَّذِينَ سَيَأْتُونَ فِي الْأَجْيَالِ الْبَشَرِيَّةِ بَعْدَهُمْ، هِيَ الْأَمْرُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَالنَّهْيُ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، إِذْ عِبَادَةُ غَيْرِهِ إِشْرَاكٌ أَوْ إِفْرَادٌ كُفْرٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: الْجُحُودُ: إنْكَارُ الْحَقِّ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ حَقٌّ. وَآيَاتُ اللَّهِ تَشْمَلُ: الْآيَاتِ التَّكْوِينِيَّةَ، وَالْآيَاتِ الْإِعْجَازِيَّةَ الَّتِي يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهَا رُسُلَهُ، وَالْآيَاتِ الْجَزَائِيَّةَ، وَالْآيَاتِ الْبَيَانِيَّةَ الْمُنَزَّلَةَ عَلَى الرُّسُلِ لِتَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي: رِيحًا بَارِدَةً ذَاتَ صَوْتٍ شَدِيدٍ مُخِيفٍ، فِيهِ مَا يُشْبِهُ نُظْقَ الصَّادِ وَالرَّاءِ.

﴿فِي أَيَّامٍ مَّجْسَاتٍ﴾: أي: مُجْهِدَاتِ ضَارَاتٍ لَا خَيْرَ وَلَا رَاحَةَ فِيهَا. النَّحْسُ: الْجَهْدُ وَالضَّرُّ.

﴿وَأَمَّا ثُمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ﴾: أي: فَبَيَّنَّا لَهُمْ صِرَاطَ هِدَايَتِهِمْ إِلَى سَعَادَتِهِمْ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ:

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾: أي: فَاسْتَدَّ حُبُّهُمْ لِلْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ وَسُبُلِ الْغَوَايَةِ اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا عَنْ عَمَى فِي بَصَائِرِهِمْ، فَحُبُّهُمْ لِهَذِهِ الْأُمُورِ يُصَاحِبُهَا عَمَى الْبَصَائِرِ، وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَحَبَّ مَا يَكُونُ قَرِينًا لَهُ مُلَازِمًا.

وكان هذا حالهم في آخر مراحل دَعْوَتِهِمْ إِلَى دين الله الحق.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: أي: فَأَخَذَتْهُمْ مِنْ

حَيَاتِهِمْ نَارَ لَهْمٍ مِنْ رَبِّهِمْ، فِيهَا عَذَابُ الْخِزْيِ وَالْإِذْلَالِ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنْ جَرَائِمٍ وَأَثَامٍ.

النص السادس عشر

قول الله عز وجل في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) مُنْذِرًا عَتَاةَ الْكَافِرِينَ:

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

هذه الآيات تُعَبِّرُ عَنِ الْفِقْرَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاةِ «ثَمُودَ» قَبْلَ إَهْلَاكِهِمْ، إِذْ قَالَ لَهُمْ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ يَتَّسَ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ: «تَمَتَّعُوا» فِي حَيَاتِكُمُ الَّتِي سَتُسَلِّبُونَهَا بِتَوَازُلِ عَذَابٍ مِنْ رَبِّكُمْ فِي زَمَنِ غَيْرِ بَعِيدٍ «حَتَّىٰ حِينٍ» مَا «فَعَتَوْا» مُسْتَكْبِرِينَ وَمُتَجَاوِزِينَ حُدُودَ الْمَعَاصِي الَّتِي تُغْفَرُ إِلَى الْكُفْرِ الْعِنَادِيِّ الْجُحُودِيِّ الَّذِي لَا يُغْفَرُ، وَمُغْرِضِينَ «عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» «فَأَخَذَتْهُمُ» مِنْ حَيَاتِهِمْ «الصَّاعِقَةُ» النَّازِلَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ بِعَذَابٍ «وَهُمْ يَنْظُرُونَ» أَسْبَابَهَا، فَصَرَعَتْهُمْ أَرْضًا «فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ» مِنْ مَصَارِعِهِمْ «وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ» عَلَى وَسَائِلِ تَغْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، بَلْ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أَذْلَةٌ مَحْزِيُونَ، ضُعَفَاءُ عَاجِزُونَ.

النص السابع عشر

قول الله عز وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) حكاية لِقَوْلِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَعَنُكُمْ حِينًا ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَالَّذِينَ مِنْ

بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ. وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾:

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾: في هذه العبارة كناية عن رفض استماعهم لدعوة رسل ربهم، لأن من عادة المتحدث الداعي إلى فكرة ما، أن يمدّ يده مُشيراً بها لتساعد حركته يده بيان لسانه، ومن عادة كُبراء من يُحدثهم الرافضين لمضمون حديثه، والمستكبرين عن الاستماع إليه، أن يردُّوا يَدَ المُحدث التي يمدّها مُشيراً بها، فيجعلوها في فيه إسكاتاً له.

فَصَارَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ كِنَايَةً عَنْ شِدَّةِ رَفْضِ دَعْوَةِ الدَّاعِي.

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾: أي: إِنَّا كَفَرْنَا بِالَّذِينَ الَّذِينَ أُرْسِلْتُمْ بِهِ، عَقِيدَةً وَعَمَلًا.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾: أي: وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مِنْ عَقِيدَةٍ وَعَمَلٍ، وَهَذَا الشَّكُّ يَجْعَلُنَا نَزَاتُ فِي أَنَّكَ ذُو غَرَضٍ شَخْصِيٍّ دُنْيَوِيٍّ مِنْ دَعْوَتِكَ.

النص الثامن عشر

قول الله عز وجل في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿١﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُفْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٢﴾﴾:

القَارِعَةُ: القيامة.

الطَّاغِيَةُ: الصَّيْحَةُ العَظِيمَةُ المَهْلِكَةُ.

النص التاسع عشر

قول الله عز وجل في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول)

ضَمَّنَ بَيَانَ طَائِفَةٍ مِنَ المَهْلِكِينَ الأوَّلِينَ، وَخَطَاباً لِمَعَانِدِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ:

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاسِكِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٢٨):

﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾: أي: وَكَانُوا مُدْرِكِينَ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، يَبْصُرُ فِكْرِي قَوِيٍّ، وَلَكِنْ صَدَّهُمُ الشَّيْطَانُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، بِالْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي زَيَّنَ لَهُمْ بِهَا أَعْمَالَهُمُ الْآثِمَةَ الظَّالِمَةَ الْجَائِرَةَ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ.

النص العشرون

قول الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لرسوله بشأن الذين كَذَّبُوهُ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ:

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ (٤٢) ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ (٤٣) ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٤٤).

يظهر في هذا النَّصِّ تَسْلِيَةُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ، وَوَعْدٌ لَهُ بِنَصْرِهِ عَلَى أَعْدَاءِ دَعْوَتِهِ، وَتَهْدِيدٌ لِلْمُكَذِّبِينَ.

النص الحادي والعشرون

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) مُهَدِّدًا الْمُنَافِقِينَ بِمِثْلِ الْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ اللَّذِينَ أُنْزِلَتْهُمَا بِالْكَافِرِينَ السَّابِقِينَ.

﴿أَلَمْ يَأْنِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٥):

أي: فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ بِعِقَابِهِ لَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ وَالتَّعْيِينِ يَظْلِمُونَ.

وهذه النصوص تتطلب تدبراً تكاملياً في فصول.



التدبر التكاملي

وفيه تسعة فصول:

الفصل الأول: مجريات دعوة صالح عليه السلام لقومه ثمود.

الفصل الثاني: مرحلة تفاقم الخصم بين المؤمنين والكافرين من ثمود.

الفصل الثالث: مرحلة إعلان كفار ثمود عدم مبالاتهم بأن يأتيهم صالح بما أنذرهم به، إذ هم لا يؤمنون بنبوته ولا برسالته.

الفصل الرابع: مرحلة طغيانهم بعقر ناقة الله، وتحذيرهم له بأن يأتيهم بما يعدهم به من عذاب وإهلاك.

الفصل الخامس: مرحلة تبليت أشقياء ثمود قتل صالح عليه السلام وأهله معه.

الفصل السادس: مرحلة إنذار صالح عليه السلام قومه بأن عذاب الله نازل بهم بعد ثلاثة أيام.

الفصل السابع: ماذا فعل صالح عليه السلام بعد أن أهلك الله قومه، ونجاه والذين آمنوا معه.

الفصل الثامن: التعقيب الرباني على إهلاك كفار ثمود.

الفصل التاسع: توجيه العظة في النصوص القرآنية بما أنزل الله عز وجل بكفار ثمود.



الفصل الأول

مُجَرِّيات دَعْوَةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ ثَمُودَ

أولاً:

ظهر لي من دراسة التَّصْوَصِ وتَدَبُّرِهَا وتَدَبُّراً تَكَامُلِيّاً أَنَّ أَوَّلَ دَعْوَةٍ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ ثَمُودَ، كَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (١١)

التدبر:

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾: أي: وَأَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا نَبِيًّا وَرَسُولًا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد كان منهم نَسَباً وَلُغَةً وَمَوْطِناً أَخِذاً مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ تَارِيخِهِ، فَكَلِمَةُ «أَخ» لَا تُفِيدُ كَوْنَهُ مِنْهُمْ نَسَباً، إِذْ اسْتُعْمِلَتْ فِي نِسْبَةِ «لُوطٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى قَوْمِهِ فِي الْقُرْآنِ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ نَسَباً، وَإِنَّمَا كَانَ صِهْرًا لَهُمْ، وَتَكَلِّمًا بَلَّغْتَهُمْ، وَمَقِيمًا فِي أَرْضِهِمْ.

وقد اشْتَمَلَ بَيَانُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ الَّذِي ذَكَرْتُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى سِتِّ قَضَايَا:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةَ لِمَعْنَى مَا قَالَه صَالِحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ أُخْرَى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾ وَالْمُؤَدَّى وَاحِدٌ.

﴿يَتَقَوَّمِرْ﴾ بِحَذْفِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، وَإِبْقَاءِ الْكُسْرَةِ دَلِيلًا عَلَيْهِ. وَفِي هَذَا النِّدَاءِ اسْتِعْطَافٌ بِرَفَقٍ.

فَكَانَتْ بَدَايَةَ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ مُمَازِلَةً لِبَدَايَاتِ دَعَوَاتِ سَائِرِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لِأَقْوَامِهِمْ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، دُونَ أَنْ يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أَحَدًا مَّا، وَلَا شَيْئًا مَّا.

لَقَدْ بَدَأَهُمْ بِالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْْبُدُونَ أَوْثَانًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْوَاجِبُ الْأَوَّلُ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَبَعْدَ إِعْلَانِ الْإِسْلَامِ لَهُ، وَإِعْلَانِ الْحِرْصِ عَلَى طَاعَتِهِ.

وَأَوَّلُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَكُونُ بِطَاعَتِهِ فِي فِعْلٍ مَّا أَمَرَ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكِ مَّا نَهَى عَنْهُ، وَتَكُونُ بَدْعَانِهِ لِحَقِيقِ الْمَطَالِبِ، ثُمَّ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَحَابِّهِ فِعْلًا أَوْ تَرْكًا.

﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾: أَي: لَيْسَ لَكُمْ فِي الْوَاقِعِ وَالْحَقِيقَةِ إِلَٰهٌ حَقٌّ يَصِحُّ عَقْلًا أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، إِذْ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ سِوَاهُ. وَالْعِبَادَةُ مِنَ الْعَبْدِ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ إِلَّا لِمَنْ هُوَ رَبُّهُ حَقًّا، وَرُبُوبِيَّتُهُ الدَّائِمَةُ الْمُتَصَرِّفَةُ فِيهِ تُوجِبُ عَلَيْهِ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ.

أَمَّا عِبَادَةُ غَيْرِ مَنْ هُوَ رَبٌّ حَقًّا فَهِيَ شُرْكٌ بِهِ، وَهَذَا الشُّرْكُ فِي إِلَهِيَّتِهِ أَوَّلُ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ بِهِ، وَأَحْطُ وَأَخْسُ دَرَكَةٌ مِنْهَا دَرَكَةُ الْإِشْرَاقِ بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ دَرَكَةُ جُحُودِ اللَّهِ الرَّبِّ جُحُودًا كَلْبِيًّا، وَتَزْدَادُ الدَّرَكَاتُ تَسْفَلًا بِارْتِكَابِ جَرَائِمِ الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَالْفِسْقِ وَالْفُجُورِ وَالْفَسَادِ وَالنَّفَاقِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى الْكُفْرِ وَارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ، حَتَّى تُوصَلَ أَصْحَابُهَا إِلَى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةَ لِمَعْنَى مَا قَالَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾:

الإنشاء: الإحداث المضحوب بالتكامل المتدرج غالباً، يقال لغة: «أنشأ الشيء إنشاءً» أي: أخذه إحدائاً مضحوباً بالتكامل المتدرج، ويقال لغة: «نشأ الشيء نشأاً ونشوءاً ونشأةً» أي: حدث وتجدد.

فأبان صالح عليه السلام لقومه مظهرًا من مظاهر ربوبية الله لهم، وهو إنشاؤهم من الأرض.

أما خلق آدم أبي البشر فقد كان من طين «ترابٍ وماء» وهذِهِ معلومةٌ مؤروثةٌ في الناس من عهد آدم عليه السلام.

وأما ذريته من بعده فمن المعلوم لدى كل الناس أن المادة التي تتكوّن منها الأجنّة مخلوقة في الذكور والإناث من الدماء، والدماء مخلوقة من الغذاء النباتي أو الحيواني، وكل ذلك منشؤه من الماء والتراب، وهما من عناصر الأرض.

وبما أن الله هو الذي أنشأهم من الأرض إنشاءً متدرجاً فهو ربهم، أي: هو خالقهم وفق نظام التربية التي هي الإنشاء المتدرج، وهو المهيمون عليهم في كل أطوار وجودهم المستمرة والمتجددة.

القضية الثالثة: دلّ عليها قول الله عز وجل حكاية لمعنى ما قاله صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أي: واستعمركم في الأرض، بأن جعل في نفوسكم وقدراتكم الفكرية والجسدية، ما يستحقكم ويخصكم على إعمار الأرض، ببناء مساكنها، واستنبات زروعها وأشجارها، وإنشاء جناتها ومصانعها وسائر المنشآت النافعات فيها، وهياً لكم الأرض لهذا الإعمار، ومكنكم وهذاكم لاتخاذ وسائل إعمارها، لأن مصالحكم ومنافعكم في الحياة الدنيا مرتبطة بإعمارها. وكذلك جعلكم تغمرونها بأشخاصكم إذ تقيمون فيها.

يقال لغة: «استعمره في المكان» أي: جعله يغمره، بالأمر، أو

بالتمكن والهداية وتهيئة الشروط والوسائل، أو بالإيجاد فيها.

ويقال: «عَمَّرَ الْأَرْضَ» أي: بَنَى عَلَيْهَا وَأَهْلَهَا.

القضية الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حكاية لمعنى ما قاله صالح عَلَيْهِ السَّلَام لقومه: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾: أي: فإذا آمَنْتُمْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ، وَآمَنْتُمْ بَأَنَّهُ هُوَ الْمَغْبُودُ الْحَقُّ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَعَلِمْتُمْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمِدُّكُمْ دَوَامًا بِعَطَاءَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلَكُمْ تَقِيمُونَ فِيهَا، وَتَنْتَفِعُونَ مِنْ خَيْرَاتِهَا، وَتُنْشِثُونَ مُنْشَأَتِكُمْ عَلَيْهَا، فَاسْأَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَخَطَايَاكُمْ الَّتِي ارْتَكَبْتُمُوهَا، مِنْ شِرْكٍ وَظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ وَكِبَائِرٍ وَجَرَائِمٍ وَأَثَامٍ.

غَفَرَ الذَّنْبَ: أي: سَتَرَهُ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ بِفَضْلِ اللَّهِ التَّجَاوُزَ عَنِ الْمُواخَذَةِ عَلَيْهِ.

تقول لغة: «غَفَرَ الشَّيْءَ، يَغْفِرُهُ، غَفْرًا، وَغُفْرَانًا، وَمَغْفِرَةً» أي: سَتَرَهُ.

القضية الخامسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حكاية لمعنى ما قاله صالح لِقَوْمِهِ: ﴿ثُمَّ تَوْبًا إِلَيَّ﴾:

يقال لغة: «تَابَ، يَتُوبُ، تَوْبًا، وَتَوْبَةً، وَمَتَابَةً، وَتَابَةً» أي: رَجَعَ. وَتَابَ الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ، أَي: عَزَمَ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَالِاسْتِيقَامَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ. وَيُقَالُ: تَابَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ، أَي: قَبِلَ رَجْعَتَهُ، فَرَجَعَ عَلَيْهِ بِالْغُفْرَانِ وَالْعَفْوِ وَفَضْلِ الْعَطَاءِ.

فالمعنى: ثُمَّ بَعْدَ الْإِسْتِغْفَارِ الَّذِي تَكُونُ بِهِ التَّخْلِيَّةُ مِنْ قَاذوراتِ الْآثَامِ، ارْجِعُوا إِلَى رَبِّكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ قَدِ ابْتَعَدْتُمْ بِمَعَاصِيكُمْ عَنْ دَائِرَةِ تَنْزِلَاتِ رَحْمَاتِهِ، فَلَازِمُوا طَاعَتَهُ، بِفِعْلِ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَتَرْكِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ، فَبِهَذِهِ التَّوْبَةِ إِلَيْهِ تَكُونُ تَخْلِيَّتُكُمْ بِحِلْيَةِ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ.

القضية السادسة: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله عزَّ وجلَّ حكايةً لمعنى ما قاله صالح عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾: أي: إِنَّ رَبِّي الَّذِي بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَالَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ، وهو الله جَلَّ جلالُهُ، قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ عِبَادِهِ، يَعْلَمُهُ وَقُدْرَتِهِ وَأَفْعَالِهِ، مُّجِيبٌ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ مُسْتَعْفِرًا تَائِبًا إِلَيْهِ، على وَفْق حِكْمَتِهِ.

هذه القضية جاءت بِمَثَابَةِ التعليل لِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾.

وجاء وَضْعُ كَلِمَةِ ﴿رَبِّي﴾ مَقَامَ الضَّمِيرِ «إِنَّهُ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى صِفَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ الَّتِي مِنْهَا الْغُفْرَانُ وَاسْتِجَابَةُ الدُّعَاءِ.

ثانياً

فاستجابَ لِذَعْوَةِ صالح عليه السلام في هذه المرحلة فَرِيقٌ مِنْ قَوْمِهِ، وَكَذَّبَهُ فَرِيقٌ آخَرُ مِنْهُمْ، وَيُظْهَرُ أَنَّ مُكَذِّبِيهِ مِنْهُمْ هُمُ الْأَكْثَرُ عَدَدًا، وفيهم مُعْظَمُ سَادَاتِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْفَقْرَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فِي سُورَةِ النَّملِ/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿إِنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: أي: أَرْسَلْنَاهُ بِرِسَالَةٍ عُنْوَانُهَا الْعَامُّ تَفْسِيرُهُ: أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ، وعلى هذا تكون «أَنْ» تفسيريّة.

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ «إِذَا» فُجَائِيَّةٌ، وَالْفَاءُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ بَعْضَ قَوْمِهِ قَدْ اسْتَجَابَ لِذَعْوَتِهِ عَقِبَ بَيَانِهَا لَهُمْ.

والمعنى: فَإِذَا قَوْمُهُ عَقِبَ دَعْوَتِهِ لَهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ فَرِيقَانِ:

الفريق الأول: الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَيُظْهِرُ مِنْ عُمُومِ قِصَّةِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ وقومه، أَنَّ هَذَا الْفَرِيقَ هُوَ الْفَرِيقُ الْأَقْلُّ وَالْأَضْعَفُ.

الفريق الثاني: الَّذِينَ كَذَّبُوهُ وَكَفَرُوا بِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَيُظْهِرُ مِنْ عُمُومِ قِصَّتِهِ مَعَهُمْ، أَنَّ هَذَا الْفَرِيقَ هُوَ الْفَرِيقُ الْأَكْثَرُ وَالْأَقْوَى.

وَإِذْ صَارَ قَوْمُهُ فَرِيقَيْنِ: مُؤْمِنِينَ بِهِ، وَكَافِرِينَ بِهِ، فَلَا بُدَّ بِحَسَبِ سُنَنِ الْجَمَاعِ الْبَشَرِيِّ أَنْ يَجْرِيَ تَخَاصُّمٌ بَيْنَهُمَا.

• فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ يُبَيِّنُونَ مُبَرَّرَاتِ إِيْمَانِهِمْ، وَأَدِلَّتُهُ، وَبِرَاهِينِ صِدْقِ الرَّسُولِ وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ وَأَنَّهُ الْحَقُّ.

• وَالَّذِينَ كَذَّبُوا صَالِحًا، وَكَفَرُوا بِمَا جَاءَ بِهِ يُبَيِّنُونَ ذَرَائِعَ كُفْرِهِمْ وَالتَّزَامِيهِمْ بِتَقَالِيدِهِمْ، وَانْتِقَادَاتِهِمْ لِرُسُولِهِمُ الَّذِي فَرَّقَ جَمْعَ قَوْمِهِ، وَمَزَّقَ وَحْدَتَهُمْ، إِذْ كَانُوا مَجْتَمِعِينَ عَلَى الشُّرْكِ وَالضَّلَالِ، وَالْبَغْيِ وَالْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَاللَّذَّهْنِ أَنْ يَنْطَلِقَ فِي تَصَوُّرَاتِ التَّخَاصُّمِ بَيْنَ فَرِيقَيِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، أَخْذًا مِنَ النَّظَائِرِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ.

الاختصاص والتخاصُّم: المِجَادَلَةُ وَالْمِنَازَعَةُ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ. يُقَالُ لُغَةً: «اِخْتَصَمَ الْقَوْمُ، وَتَخَاصَّمَ الْقَوْمُ» أَي: جَادَلَ وَنَازَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

ثالثاً:

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامِ الْكِتَابَ الْخَاصَّ بِهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

دَلَّ عَلَى إِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَعْرَافِ/ ٧ مِصْحَفٍ/ ٣٩ نَزُولٍ):

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَآتُونَكَ بِالْقُرْآنِ حَنْغُلًا قَالٍ يَقُولُ أَتُعْبُدُونَ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾:

جاء في القرآن في سورة (البينة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول) إطلاقاً
لفظ «البينة» على الرسول وعلى الكتاب المنزل من عند الله.
والظاهر أن المراد بالبينة في هذه الآية من سورة (الأعراف) هذا
المعنى.

وَكَانَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتْلُو عَلَى قَوْمِهِ كِتَابَ رَبِّهِ كَمَا أَمَرَهُ،
وَيُنذِرُهُمْ بِعَذَابِ اللَّهِ إِذَا تَوَلَّوْا وَلَمْ يُؤْمِنُوا.

فَاغْتَرَضَ قَوْمُهُ عَلَى كَوْنِهِ نَبِيًّا وَرَسُولًا وَهُوَ بَشَرٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، يَطْلُبُ
مِنْهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ.

وَاعْتَرَضُوا عَلَى أَنْزَالِ كِتَابٍ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ دُونَ سَائِرِ قَوْمِهِ، وَأَتَاهُمُوهُ
بِأَنَّهُ كَذَّابٌ أَشِرٌّ مُسْتَكْبِرٌ، يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْكَلِمَةِ الْعُلْيَا فِي قَوْمِهِ،
وَذَا السُّلْطَانِ فِيهِمْ.

دلّ على هذا قول الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧
نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِثَّا وَجِدَا نَبْعُهُمْ إِنَّا إِذَا لَفِئَ صَلَائِلٍ
وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ لَأُفْلِحَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾﴾:

• ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ ﴿٢٣﴾﴾ النذر هنا: جمع «النذير» الذي هو اسم
مضدر فعل «أنذَرَ يُنذِرُ إنذاراً».

فالمعنى: كَذَّبُوا بِالْإِنذَارَاتِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، فَهِيَ إِذَنْ إِنْذَارَاتٌ مُتَعَدَّدَاتٌ أَنْذَرَهُمْ إِيَّاهَا عَاجِلَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
وَأَجَلَةً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

ولما كانت الإنذارات لا تُوجَّهُ إِلَّا بَعْدَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ وَأَرْكَانِهِ،
وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ، كَانَ ذِكْرُ النَّذْرِ هُنَا دَالًّا عَنْ طَرِيقِ اللُّزُومِ

الذَّهْنِيَّ عَلَى أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَام، وَكَذَّبُوا بِرِسَالَتِهِ، وَكَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَأَخِيراً كَذَّبُوا بِإِنذَارَاتِهِ.

فكان من الإيجاز البديع الاقتصار على بيان تكذيبهم بإذاراتِ رسولهم، لما فيه من دلالة عقلية على تكذيبهم بما تقتضي دعوات المرسلين بيانه قبل إخبارهم بالإذارات، وإذ كذبوا بإذارات الرسول فقد كذبوا الرسول لزوماً، وكذبوا بكل ما جاءهم به عن ربّه.

• ﴿فَقَالُوا أَشْرَكَ مِنَّا وَاحِداً نَنبِئُهُ إِنَّا إِذَا لَفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَهْلَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾:

في هاتين الآيتين تلخيص لأربع مقالات قالها كبراء كفار ثمود، ورددتها جماهيرهم التابعون لهم، مُعلنين بها استكبارهم عن الاستجابة له.

وجاء عطف مقالاتهم هذه بحرف «الفاء» الذي يدل على الترتيب مع التعقيب، نظراً إلى أول مراحل تكذيبهم لرسولهم، لا إلى مرحلة تكذيبهم بالنذر التي أُنذِرهم بها.

المقالة الأولى: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿أَشْرَكَ مِنَّا وَاحِداً نَنبِئُهُ﴾؟! استفهام تعجبي استنكاري، يَنبُذُ عَنْ مُتَنَفِّحِ الْكِبَرِ فِي ضُؤُورِهِمْ، إِنَّهُمْ يُعْلِنُونَ بهذا رَفْضَهُمْ لَاتِّبَاعِ رَسُولٍ بَشَرٍ مِنْهُمْ، وهو وَاحِدٌ لَيْسَ بِجَمَاعَةٍ. أي: فكيف يتلاءم مع مَكَانَتِهِم العظيمة في قَوْمِهِمْ، وَمَنْزِلَتِهِم الرَّفِيعَةِ، أَنْ يَتَّبِعُوا بَشَراً مِنْهُمْ وَاحِداً يَزْعُمُ لَهُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ.

المقالة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿إِنَّا إِذَا لَفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾: أي: إِنَّا إِذَا اتَّبَعْنَا بَشَراً وَاحِداً مِنَ الْبَشَرِ، فَإِنَّا حِينئِذٍ لَنَكُونُ مُنْغَمَّسِينَ فِي ضَلَالٍ فِي مَسِيرَتِنَا فِي حَيَاتِنَا، وَفِي جُنُونٍ فِي عُقُولِنَا وَأَفْكَارِنَا، وَهَذَا أَغْظَمُ مَا قَدَّمُوهُ مِنْ ذَرِيعَةٍ، لَتَرْيِينَ نُفَرَّتِهِمْ وَاسْتِنكَافِهِمْ عَنْ اتِّبَاعِ رَسُولِ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ.

﴿لَفِى ضَلَالٍ﴾: أي: لَفِى جَهْلٍ وَضَيَاعٍ.

﴿وَسُئِرَ﴾: أي: وَلَفِي جُنُونٍ. وهذا أحدُ معاني هذه الكلمة، وهو الملاثم هنا.

المقالة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿أَلْفَيْ الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ يَبِينَا﴾:

في هذه العبارة استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ إنكاريٌّ أيضاً، وهي تَدُلُّ عَلَى إنكارهم الشديد أن يكونَ هذا الواحدُ منهم، مُخْتَاراً اختِياراً خاصّاً مِنْ بَيْنِهِمْ، لِلنُّبُوَّةِ والرُّسَالَةِ، ولِلإِلْقَاءِ الذِّكْرِ وهو الكتابُ الرَّبَّانِيُّ عَلَيْهِ، مع أنَّ المفروض بحسَبِ تَصَوُّراتِهِم الطَّبَقِيَّةِ الاستكباريَّةِ، أن يُخْتَارَ لَهُذِهِ التفضيلات أهلُ المالِ والعُزْوَةِ والجنودِ والأنصارِ والأنسابِ والأَمْجَادِ والمفاخرِ المتوارثة.

وَدَلَّ فِعْلُ [أَلْفَيْ] عَلَى أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَالِإِلْقَاءُ فِيهِ مَعْنَى الطَّرْحِ بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ، بخلاف معنى الإنزال والتنزيل، فَهُمَا لَا يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنَى الإِلْقَاءِ جُمْلَةً وَاحِدَةً.

المقالة الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾: أي ليس صالحٌ نَبِيًّا وَلَا رَسُولًا، وَمَا يَزْعُمُ أَنَّهُ كِتَابٌ مُنْزَلٌ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا يَفْتَرِيهِ عَلَى اللَّهِ.

﴿كَذَّابٌ﴾: صِيغَةُ مبالغَةٍ لاسمِ الْفَاعِلِ «كَاذِبٌ» فَاتَّهَمُوهُ بِهِذِهِ الشَّيْئَةِ بِأَشْنَعِ دَرَكَاتِ الْكُذْبِ، مع أَنَّهُمْ مَا عَرَفُوهُ فِي حَيَاتِهِ مَعَهُمْ قَبْلَ النُّبُوَّةِ إِلَّا صَادِقًا أَمِينًا مَرْجُوًّا لِكُلِّ خَيْرٍ.

﴿أَشِرٌ﴾: أي: مُسْتَكْبِرٌ بَطَرٌ، أي: هو طالبُ زَعَامَةٍ وَرِياسَةٍ وَسُلْطَانٍ فِي قَوْمِهِ.

لِكِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ هُمُ الْكَذَّابُونَ الْأَشِرُونَ.

رابعاً:

ثُمَّ إِنَّ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَّهَ عَنَايَتَهُ لِذَعْوَةِ شُبَّانِ قَوْمِهِ، وَأَخْدَثَ

الْأَسْنَانِ فِيهِمْ، رَجَاءٌ أَنْ يَكُونُوا أَقْرَبَ إِلَى الْاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ مِنْ شُيُوخِ قَوْمِهِ وَذَوِي الْأَسْنَانِ فِيهِمْ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٦﴾﴾:

دَلَّيْ عَلَى أَنَّ دَعْوَتَهُ هَذِهِ كَانَتْ مُوجَّهَةً لِغَيْرِ شُيُوخِ قَوْمِهِ وَكِبَارِ السِّنِّ فِيهِمْ قَوْلُهُمْ: ﴿أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فِيهِ هَذِهِ الْعِبَارَةُ دَلَالَتَانِ:

الأولى: دَلَالَةُ قَوْلِهِمْ: ﴿يَعْبُدُ﴾ وَهُوَ فِعْلٌ مُضَارِعٌ يَدُلُّ عَلَى الْحَالِ وَالِاسْتِيقْبَالِ مَعَ التَّكَرُّارِ وَالتَّجَدُّدِ. وَمِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ إِنَّمَا يَكُونُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَمْرٍ مُتَكَرِّرٍ مُتَجَدِّدٍ فِي آبَائِهِمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا أَحْيَاءً.

الثانية: قَوْلُهُمْ ﴿آبَاؤُنَا﴾ إِذْ لَمْ يَقُولُوا آبَاؤَنَا الْأَوَّلُونَ، كَمَا هُوَ حَالُ الْأُمَمِ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ آبَائِهِمُ الْمَوْتَى السَّابِقِينَ.

فَدَلَّ هَٰذَا الْأَمْرَانِ عَلَى أَنَّ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَجَّهَ فِي دَعْوَتِهِ لِلشُّبَّانِ وَأَحْدَاثِ الْأَسْنَانِ الْبَالِغِينَ، رَجَاءً أَنْ يَكُونُوا أَقْرَبَ إِلَى الْاسْتِجَابَةِ مِنْ آبَائِهِمْ، الَّذِينَ مَارَسُوا كُفْرَهُمْ وَقَبَائِحَ عَادَاتِهِمْ عُمْرًا مَدِيدًا، فَتَصَلَّبَتْ قُلُوبُهُمْ وَنَفُسُهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

• ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾:

﴿مَرْجُوًّا﴾: الرَّجَاءُ فِي اللَّغَةِ: تَوَقُّعُ مَرْغُوبٍ فِيهِ، أَوْ مَخُوفٍ مِنْهُ، وَالسِّيَاقُ فِي هَذَا الْقَوْلِ يَدُلُّ عَلَى تَوَقُّعِ مَا هُوَ مَرْغُوبٌ فِيهِ.

أَي: كُنَّا قَبْلَ أَنْ تَدْعُونَا إِلَى هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ نَتَوَقَّعُ أَنْ تَكُونَ قَائِدًا لَنَا، وَسَيِّدًا مِنْ سَادَاتِ قَوْمِنَا، لِمَا تَتَّصِفُ بِهِ مِنْ عَقْلِ وَحِكْمَةٍ، وَفَضَائِلِ أَخْلَاقٍ وَمَحَاسِنِ شَيْمٍ.

• ﴿أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: أي: أتنهانا عن أن نعبد الأوثان التي يعبدوها آبائنا الذين هم قدوتنا في حياتنا، وهم أهل العقل والرشد فينا؟! الاستفهام في هذه العبارة استفهام تعجبي فيه معنى الاستنكار.

• ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾: أي: وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه من عبادة الله وخده، وترك عبادة ما يعبد آبائنا، إذ لم نصل بعد إلى الاقتناع بأن ما تدعوننا إليه هو الحق، وهذا الشك يوقعنا في الريب من غايته النفسية، إذ تدعوننا إلى خلاف ما نحن عليه في تقاليدنا الدينية، وموروثاتنا من أعمال وعادات، وما عليه آبائنا، وشكنا يجعلنا نرتاب في أنك تريد ملكاً أو إمارة أو زعامة أو رئاسة في قومنا، وهذا أمر يلقننا ويزعجننا.

يقال لغة: «أَرَابَ الْأَمْرُ فَلَانًا» أي: أقلقهُ وأزعجه. وأوقعه في الشك والريب.

الريب: الشك، والظن، والشبهة، والريب يجعل صاحبه يتردد مختاراً.

فأجابهم صالح عليه السلام بما جاء بيانه في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بقول الله عز وجل:

﴿قَالَ يَنْفَوِرُ أَرْبَعِينَ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتَسَّرٍ مِّن رَّبِّي وَأَعْلَىٰ مِنِّي رَحْمَةً فَمَن يَصْرِفُ مِن اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٢﴾﴾:

• ﴿يَنْفَوِرُ أَرْبَعِينَ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَتَسَّرٍ مِّن رَّبِّي﴾؟ يُراد بالاستفهام في: [أَرَيْتُمْ] الأمر بأن يتفكروا ليرَوْا، أي: يا قوم تفكروا ليرَوْا بعقولكم واقع أمري مع ربي. تفكروا في أنني إن كنت على بينة واضحة من ربي بأنني نبي ورسول مكلف منه أن أبلغ رسالته، فأفعلك أن أعصي ربي فأخالف ما أمرني به من تبليغ رسالته.

• [وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْهُ]: أي: وآتاني من فَضْلِهِ رَحْمَةً عظيمة. وَنَفَهُمُ أَنْ الرَّحْمَةَ الَّتِي اخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَام دُونَ سَائِرِ قَوْمِهِ فِي عَصْرِهِ، هِيَ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ وَالكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، والصفات الشخصية الفكرية والنفسية الَّتِي فَضَّلَهُ بِهَا.

وهذه الرَّحْمَةُ تتضمنُ تكليفه أَنْ يَقُومَ فِي قَوْمِهِ بِوظائفِ رِسَالَةِ رَبِّهِ.

• ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾؟! استفهام يُرَادُ بِهِ نَفْيِ وَجُودِ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُ.

وقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ بِاللُّزُومِ الذَّهْنِي عَلَى أَنَّ شُيُوخَ قَوْمِهِ وَشَبَابَهُمْ، قَدْ طَالَبُوهُ بِأَنْ يَكْفَ عَنْ مُتَابَعَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ.

فَقَالَ لَهُمْ: أَنَا مَأْمُورٌ مِنْ رَبِّي أَمْرٌ إلْزَامٍ مِنَ الدَّرَجَةِ الْقُصْوَى بِأَنْ أَقُومَ بِوِظَائِفِ رِسَالَةِ رَبِّي الَّتِي حَمَلَنِي أَعْبَاءَهَا، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا دَعْوَتُكُمْ إِلَى الدِّينِ الَّذِي أَمَرَنِي بِتَبْلِيغِهِ لِقَوْمِي، مَعَ مُتَابَعَةٍ وَتَوْكِيدٍ وَتَذْكِيرٍ.

وهَذَا الدِّينُ يَتَضَمَّنُ أَنْ تَتْرَكُوا شِرْكَيَّاتِكُمْ، وَضَلَّالَاتِكُمْ، وَأَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ، وَأَنْ تَتَّبِعُوا أَحْكَامَ الدِّينِ الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، فَمَا أَنَا إِلَّا مُبَلِّغٌ دِينَ رَبِّي.

وإِنْ لَمْ أَقُمْ بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ، بَعْدَ أَنْ اصْطَفَانِي بِالنُّبُوَّةِ، وَاجْتَبَانِي لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ إِلَيْكُمْ، فَلَنِي أَكُونُ عَاصِياً لِرَبِّي مَعْصِيَةً عَظُمَى اسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْعِقَابَ الشَّدِيدَ.

وعندئذٍ فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَنْصُرُنِي فَيَحْمِينِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؟!!.

جاء في العبارة استعمال حرف «إِنْ» في ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ لِيُشْعِرَهُمْ بِأَنَّهُ عَازِمٌ عَزْماً لَا لَيْنَ فِيهِ عَلَى أَنْ يُطِيعَ رَبَّهُ وَلَا يَعْصِيَهُ.

وَضُمِّنَ الْفِعْلُ فِي: ﴿يَنْصُرُنِي﴾ مَعْنَى الْفِعْلِ فِي «يَحْمِينِي» فَعْدِي تَعْدِيَتِهِ

بَحْرَف «مِنْ» أَي: فَمَنْ يَنْصُرُنِي فَيَحْمِينِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؟!

• ﴿فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾: أَي: فَإِنْ عَصَيْتُ رَبِّي مُسْتَجِيباً لِمَا تُطَالِبُونِي بِهِ، فَإِنْ زِدْتُمُونِي شَيْئاً لِإِنْقَاذِي وَحِمَايَتِي وَنَصْرَتِي، بَعْدَ مَعْصِيَتِي لِرَبِّي، فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ إِضَافَةٍ خَسَارَةٍ إِلَى خَسَارَتِي الَّتِي تُسَبِّبُهَا لِي مَعْصِيَتِي.

﴿غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾: أَي: غَيْرَ نُقْصَانٍ وَإِبْعَادٍ لِي مِنَ الْخَيْرِ، يُقَالُ لُغَةً: «خَسَرَ فُلَانٌ فُلَاناً» أَي: نَقَصَهُ - أَبْعَدَهُ مِنَ الْخَيْرِ - أَهْلَكَهُ.

خامساً:

فَاشْتَدَّ كُفَارُ ثَمُودَ غُلُوءاً فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ، إِذْ أَمْهَلَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى وَفْقِ سُنَّتِهِ فِي الْأُمَمِ، وَلَمْ يُنْزِلْ بِهِمْ عَذَابَهُ الْأَمْهَلِكَ بِاسْتِئْصَالِ، عَلَى حَسَبِ مَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ.

وَكَانَ فِيهِمْ فِتْنَةٌ أَشْرَارٌ مُفْسِدُونَ إِفْسَاداً كَبِيراً.

فَصَارَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوجِّهُ تَذْكِيرَهُ لِقَوْمِهِ بِالْحَاحِ، وَيُكْرِّرُ دَعْوَتَهُ لَهُمْ بِأَنْ يَتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ، وَيُطِيعُوا رَسُولَهُ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ ذَا مَصْلَحَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ أَجْرَهُ الَّذِي يَطْلُبُهُ عَلَى قِيَامِهِ بِوِظَائِفِ رِسَالَتِهِ، إِنَّمَا يَطْلُبُهُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا مِنْهُمْ وَلَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ وَفْرَةٍ فِي أَرْزَاقِهِمْ، إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وَلَنْ يُتْرَكُوا آمِنِينَ لَا يَخَافُونَ مِمَّا يَضُرُّهُمْ أَوْ يُنْزِلُ بِهِمْ بَلَاءً، وَلَنْ يُتْرَكُوا فِيمَا هُمْ يَسْتَمْتِعُونَ بِهِ مِنْ جَنَآتٍ وَارِفَاتِ الظَّلَالِ، وَعُيُونِ مَاءِ مُتَدَفِّقَاتٍ، وَرَفَاهِيَةٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ.

وَنَهَايَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَنْ يُطِيعُوا أَمْرَ مُسْرِفِهِمْ.

وَكُرِّرَ تَحْذِيرُهُمْ مِنَ الْإِضْرَارِ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَطُغْيَانٍ، وَظُلْمٍ

وَعُدُّوَانِ، وَفَسَادٍ وَإِفْسَادٍ فِي الْأَرْضِ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ مَا هُمْ فِيهِ سَيَعِرُّهُمْ
لِعَذَابٍ شَدِيدٍ يَحْرِمُهُمُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ بِهِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَمْنٍ، وَرِزْقٍ،
وَرَفَاقَةٍ، وَمَنْعَةٍ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٦

نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هُمْنَا ءَامِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ
﴿١٤٧﴾ وَرِزْقٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَظِيزٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾:

• ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ جاء لفظ المُرْسَلِينَ مجموعاً، وجاء
نظيره بالنسبة إلى قوم نوح، وعاد، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وقد
أورد المفسرون عدّة احتمالاتٍ للمراد بالجمع، ومنها اعتبار أن مَنْ كَذَّبَ
رسولاً واحداً بمثابة مَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ.

وَالَّذِي تَرَجَّحَ لَدَيْ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ لَهُؤُلَاءِ الْأَقْوَامُ عِدَّةَ رُسُلٍ، وَأَنَّ
نُوحاً، وَهُوداً، وَصَالِحاً، وَلُوطاً، وَشُعَيْباً، كَانُوا آخِرَ الرُّسُلِ لِأَقْوَامِهِمْ،
إِرسالاً إِلَيْهِمْ، أَوْ بقاءً فِيهِمْ حَتَّى إِهْلَاكَ كُفَّارِهِمْ.

• ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٤٢﴾﴾:

أُخُوَّةٌ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لثَمُودَ قَدْ كَانَتْ أُخُوَّةٌ نَسَبٍ وَلُغَةٍ وَمُواطَنَةٍ،
عَلَى مَا ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ.

﴿أَلَا نُنْقِوُ؟﴾: عَرَضُ رَفِيقٍ بِأَدَاةِ الْعَرَضِ «أَلَا» وَأَرْجَحُ أَنَّهَا كَلِمَةٌ
وَاحِدَةٌ، تُسْتَعْمَلُ لِلْعَرَضِ، وَلِلتَّحْضِيزِ، وَلِلإِسْتِفْتَاكِ وَالتَّنْبِيهِ، وَلَيْسَتْ مُؤَلَّفَةً

مِنْ هَمْزَةِ الاستفهام وحرف النفي «لا» وعلى فَرَضَ أَنَّ أَصْلَهَا كَذَلِكَ إِلَّا
أَنَّ هَذَا الْأَصْلَ قَدْ تُؤْسَى، وصارت «أَلَا» بالاستعمالِ كَلِمَةً وَاحِدَةً.

أي: أَلَا تَتَّقُونَ عَذَابَ اللَّهِ وعقابه، والمعنى: أَلَا تَجْعَلُونَ بَيْنَكُمْ وبين
عقابِ اللَّهِ وِقَايَةً، بالإيمان، والإسلام، والطاعة له.

• ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٤٢):

﴿رَسُولٌ﴾: أي: نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، لَأَنَّ النَّبُوَّةَ سَابِقَةٌ لِلرِّسَالَةِ، ومُرافقة لها
دواماً، بَعْدَ تَكْلِيفِ النَّبِيِّ مَسْئُولِيَّاتِهَا.

﴿أَمِينٌ﴾: أي: مُتَّصِفٌ بِخُلُقِ الْأَمَانَةِ بِوَجْهِ عَامٍّ، وَأَمِينٌ عَلَى رِسَالَاتِ
رَبِّي، أَبْلَغَهَا لَكُمْ كَمَا أَتَلَقَّاها بِالْوَحْيِ عنه، لَا أَزِيدُ فِيهَا شَيْئاً مِنْ عِنْدِي،
وَلَا أَنْقُصُ مِنْهَا شَيْئاً.

عبارة ﴿لَكُمْ﴾ مَعْمُولٌ لِلْفِظِ ﴿رَسُولٌ﴾ قُدِّمَ عَلَى عَامِلِهِ لِإِفَادَةِ
التَّخْصِيسِ، أي: رِسَالَتِي خَاصَّةً بِكُمْ، فَأَنَا مَبْعُوثٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَكُمْ
لِأَبْلَغِكُمْ رِسَالَاتِهِ.

• ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٤٣):

أي: وبما أَنِّي رَسُولٌ أَمِينٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّكُمْ، فَاتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ
وَأَطِيعُونِي، فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا كُنْتُمْ مُسْتَحَقِّينَ لِعِقَابِهِ
وَعَذَابِهِ، فَلَيْسَتْ الْقَضِيَّةُ خَاصَّةً بِي، وَإِنَّمَا هِيَ قَضِيَّةُ اللَّهِ رَبِّكُمْ، وَلَهَا عِلَاقَةٌ
بِي وَبِكُمْ مَعاً.

• ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤):

إِنَّ أَوَّلَ مَا يَتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِ الْأَقْوَامِ الْمَدْعُوبِينَ مِنْ قِبَلِ أَيِّ دَاعٍ مِنَ
الدَّعَاةِ، إِلَى مَبْدَأٍ، أَوْ فِكْرَةٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ جَمَاعَةٍ، أَنْ يَتَهَمُوهُ بِأَنَّهُ لَهُ
مَصْلَحَةٌ شَخْصِيَّةٌ مِنْهُمْ، يَخْصُلُ عَلَيْهَا مِنْ جَرَاءِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِمَا يَدْعُوهُمْ
إِلَيْهِ.

فَكَانَ مِنَ الْحَكَمَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ أَنْ يُغْلِنَ الرَّسُولَ تَجَرُّدَهُ مِنْ آيَةٍ مَضْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ يَحْضُلُ عَلَيْهَا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ.

وَلَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ أَجْرًا مُطْلَقًا، فَهَذِهِ مِثَالِيَّةٌ خَيَالِيَّةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَشَرِ، بَلِ الرَّسُولُ وَاثِقٌ مِنْ أَجْرِ عَظِيمٍ يَظْفَرُ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أَي: مَا أَجْرِي الَّذِي أَرْجُوهُ إِلَّا عَلَى كِفَالَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهُوَ الضَّامِنُ لَهُ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي تَكْفَّلَ بِهِ.

• ﴿أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَنَأْنَا ءَامِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلَعَهَا هَظِيمٌ ﴿٤٨﴾:

﴿أَتَذْكُرُونَ﴾؟: استفهامٌ تحذيريٌّ، يُثِيرُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ فِي نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمُ الْخَوْفَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ الْمُعْجَلِ لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ، وَمَعَاصِيهِمْ لِبَارِيهِمْ، فَهَذِهِ أُمُورٌ تَسْتَدْعِي بِحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، أَنْ يَسْلُبَهُمُ اللَّهُ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نَعَمٍ وَافِرَةٍ، بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَةٍ.

فَمِنَ النَّعَمِ الَّتِي كَانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا نِعْمَةُ «الْأَمْنِ» دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ لَهُمْ: ﴿ءَامِينَ﴾: أَي: أَتَيْتُكُمْ لَكُمْ رَبُّكُمْ نِعْمَةَ الْأَمْنِ وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ بِهِ، وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ الْأَوْثَانَ، وَتَعْصُونَهُ بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَالْبَغْيِ وَالْفُجُورِ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ سُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ أَنْ يُنْزَلَ عُقُوبَتُهُ، وَيَسْلُبَ نِعْمَهُ عَنِ الَّذِينَ تَصِلُ خَطَايَاهُمْ إِلَى مِثْلِ الْحَالِ الَّتِي وَصَلْتُمْ إِلَيْهَا.

وَمِنَ النَّعَمِ الَّتِي كَانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا نِعْمَةُ الْجَنَّاتِ، وَهِيَ الْحِدَائِقُ وَالْبَسَاتِينُ الْمَكْنُظَةُ بِالْأَشْجَارِ، ذَوَاتِ الظِّلَالِ وَالثَّمَارِ.

وَمِنَ النَّعَمِ الَّتِي كَانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا نِعْمَةُ الْعُيُونِ الَّتِي كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُفَجِّرُهَا لَهُمْ، فَيَسْرِبُونَ مِنْهَا مَاءً حَسَنًا، وَيَسْقُونَ مِنْهَا أَنْعَامَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ.

وَمِنَ النَّعَمِ الَّتِي كَانُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا نِعْمَةُ الزُّرُوعِ الْمُخْتَلِفَةِ، لَهُمْ

وَلَا نَعْمَاهُمْ وَدَوَابُّهُمْ، إِذْ يُنْبِئُهَا لَهُمْ، وَيَحْمِيهَا لَهُمْ مِنَ الْآفَاتِ وَالْجَوَائِحِ.
وخصَّ صالح عليه السَّلام ببيان له نعمَ أشجار النَّخْلِ ذَوَاتِ الطَّلَعِ
الْهَضِيمِ، إِذْ هِيَ أَكْرَمُ الْأَشْجَارِ وَأَنْفُسُهَا لَدَى سُكَّانِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.
﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: أي: ثمرها ناعمٌ لطيفٌ مَرِيءٌ، سهلُ الهضمِ في
الْجَوْفِ.

• ﴿وَتَنْجِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَآ قَرَاهِينَ﴾ (٤٩): وفي القراءة الأخرى:
﴿قَرَاهِينَ﴾: أي: حاذقين مهرة، ومُستمتعين بنعم وإفرة، ومُستكبرين أشيرين
بطيرين طاغين.

• ﴿فَأَنقَضُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾: سبق نظيرها في هذا النص، فدلَّ تكريرها
على أَنَّ صَالِحاً عليه السَّلام كان يُكرِّرُ مطالبةً قومِهِ بما جاء في مضمونها.
• ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٥٢).

المُسْرِفُ: هو من يتجاوز حدَّ الْحِكْمَةِ والحقِّ في تصرفاته، ويتجاوز
ما يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ الرَّاجِحُ.

ومن شأن المُسْرِفِ أَنْ يَرْتَكِبَ الْقَبَائِحَ وَالْكَبَائِرَ مِنَ الذُّنُوبِ، وَيَفْعَلَ
ما فيه شرٌّ وضرٌّ.

وَكَانَ الْكُفَرَاءُ الْكَفَرَةُ الْمُسْرِفُونَ فِي ثُمُودَ، مَعْرُوفِينَ بِتَصَرُّفَاتِهِمْ
الْآثِمَاتِ الظَّالِمَاتِ الطَّاغِيَاتِ الْبَاغِيَاتِ، وَكَانُوا يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ، لَتَقْوِيَةِ سُلْطَانِهِمْ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُصْلِحُونَ، لَتَغْطِيَةِ إِفْسَادِهِمْ
بِالْأَكَاذِبِ الَّتِي يُلْفِقُونَهَا.

سادساً:

وَأَلَحَّتْ ثُمُودُ عَلَى رَسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلام، بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ
خَارِقَةٍ مُعْجَزَةٍ يَقْتَرِحُونَهَا عَلَيْهِ.

فانتظر صالح عليه السلام الإذن من ربه، فصار عتاه قومه يروّجون أنه كذاب أشيرٌ مُستكبرٌ، يريدُ حُكماً ورياسةً وسلطاناً، أو ثراءً ومُلْكاً، فأنزل الله عزّ وجلّ عليه مَواصياً ومُسلِّياً ومُطمِئناً وهو عَلِيمٌ بأنّهم سَيَطْلُبُونَهُ بأن يُخْرِجَ لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ يُعَيِّنُونَهَا، نَاقَةً يُحَدِّدُونَ أوصافها، قوله في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ ۝٦٦ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَ لَهُمْ فَارِغَ بَيْتٍ ۝٦٧ وَبَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسَمَاءَ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرْبٌ مَّخْضَرٌ ۝٦٨﴾:

• ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ ۝٦٦﴾: أي: سَيَعْلَمُونَ في المستقبل القريب أنّهم هُم الكذّابون الأشرون المُستكبرون، حينما يُشاهدون بَواذِرَ تَغْذِيبِ الله لهم تَغْذِيباً يُهْلِكُهُمْ إهلاك استئصال عِقوبةً لهم على تَكْذِيبِهِم بالحق، واستكبارهم عَن اتِّباعِ كتابِ رَبِّهِم ورُسلِهِ، ثم يعلمون ذلك في المستقبل البعيد يومَ الدين.

فالمراد بالعلم هنا العلمُ بِعِقَابِ الله لَهُمْ على تَكْذِيبِهِم واستكبارهم، لأنّهم يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أنّهم هم الكذّابون في إيهامهم وتزويرهم على جماهيرهم بأنّ صالحاً لَيْسَ رَسُولاً من رُسُلِ الله عزّ وجلّ، وهم مُستَيَقِنُونَ في نُفُوسِهِمْ أنّه رَسُولٌ صَادِقٌ وَلَيْسَ بِكَاذِبٍ، وأنّهم أَشْرُونَ مُستكبرُونَ يُريدُونَ بِتَكْذِيبِهِ، ورفضِ اتِّباعِهِ، وتَحْرِيزِ جماهيرهم على تَكْذِيبِهِ والتَّوَلّٰى عنه، المحافظة على زَعَامَاتِهِم ورياسَاتِهِم في قَوْمِهِم.

وجاء في القراءة الأخرى، مَا يَدُلُّ على أَنَّ الله عزّ وجلّ خَاطَبَهُمْ على لِسَانِ رَسُولِهِمْ صالح عليه السلام بقوله: ﴿سَتَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ﴾ بَتَاءِ المخاطبين.

وفي هذا البيان إيماء لحالة الرّسولِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وحالة مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ

قَوْمِهِ وَزَعَمَ أَنَّهُ طَالِبُ رِيَّاسَةٍ وَمُلْكٍ، فَكَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخَاطِبُهُمْ بِمِثْلِ مَا خَاطَبَ بِهِ ثَمُوداً قَوْمَ النَّبِيِّ الرَّسُولِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

• ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَرِ﴾ (٧٧):

أي: إِنَّا سَنُرْسِلُ لَهُمْ الْآيَةَ الَّتِي افْتَرَحُوهَا عَلَيْكَ يَا صَالِحُ، وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي يُعَيِّنُونَ أَوْصَافَهَا، وَطَرِيقَةَ إِخْرَاجِهَا مِنْ صَخْرَةٍ يُعَيِّنُونَهَا.

﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾: أي: امتحاناً لهم واختباراً.

﴿فَارْتَبِعْهُمْ﴾: أي: فانتظرهم واجعلهم تحت مراقبتك، وملاحظتك لِمَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ.

﴿وَأَصْطَرِ﴾: أي: وكلّف نفسك الصَّبْرَ عليهم بمجاهدة نفسك، وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أَيْ أَمْرٍ، إِنَّهُمْ سَيَضِيقُونَ ذُرْعاً بِامْتِحَانِهِمْ، فَيَقُومُونَ بِأَعْمَالٍ تَقْتَضِي إِهْلَاكَهُمْ إِهْلَاكاً عَامّاً شَامِلاً.

• ﴿وَيَنْبِئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسْمَهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ (٧٨):

أي: وَأَخْبِرْهُمْ حِينَ نَأْذُنُ لَكَ بِأَنْ تَدْعُو، لِنُخْرِجَ لَهُمُ النَّاقَةَ عَلَى مَا افْتَرَحُوا، أَنَّ الْمَاءَ الَّذِي يَشْرَبُونَ مِنْهُ مَقْسُومٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاقَةِ الْمُعْجِزَةِ عَلَى نِصْفَيْنِ.

الْقِسْمَةُ: اسْمٌ مِنْ اقْتِسَامِ الشَّيْءِ، وَتُطْلَقُ الْقِسْمَةُ عَلَى النَّصِيبِ.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾: الشَّرْبُ: بَكْسَرُ الشَّيْنِ، نَوْبَةُ الاسْتِقَاءِ مِنَ الْمَاءِ، وَالنَّصِيبُ الْمَعْيُنُ لِلشَّارِبِ مِنْهُ.

مُحْتَضَرٌ: أي: يَحْضُرُهُ مَنْ لَهُ نَوْبَتُهُ. وَالصِّعَةُ بِنَاءُ الْافْتِعَالِ تَدُلُّ عَلَى الْإِلْزَامِ بِضَبْطِ مَوَاعِيدِ حُضُورِهِمْ وَحُضُورِ النَّاقَةِ، لَوُرُودِ الْمَاءِ بِانْتِظَامٍ دُونَ اخْتِلَافٍ وَلَا عُذْوَانٍ.

سَابِعاً:

وَقَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لَا يُسْرَعَ فِي إِجَابَتِهِمْ إِلَى طَلِبِهِمْ آيَةٌ خَارِقَةٌ، فَظَنُّوا أَنَّ رَسُولَهُمْ عَاجِزٌ عَنْ إِجْرَاءِ آيَةٍ تَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَقَالُوا لَهُ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾:

• ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾: عبارة فيها قصر بأداة «إنما» أي: ما أنت إلا من المسحَّرين، وهو قصر إضافي، أي: ليس لك من الصفات بالنسبة إلى ادِّعائك الرسالة إلا أَنَّكَ مُسَحَّرٌ.

المُسَحَّرُ: الذي سُحِرَ مَرَّةً فَمَرَّةً حَتَّى فَسَدَ عَقْلُهُ وَمَسَّهُ الْخَبَلُ. يقال لغة: «سَحَّرَ السَّاحِرُ فُلَانًا» أي: سَحَرَهُ مَرَّةً فَمَرَّةً، حَتَّى تَخْبَلَ عَقْلُهُ، وَضَاعَ رُشْدَهُ.

فَاتَّهَمَ كُتْبَاءُ ثَمُودَ رَسُولَهُمْ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ مُسَحَّرٌ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ مَسْحُورٍ، أي: إِنَّ السُّحْرَ الَّذِي سُلِطَ مُتَتَابِعاً عَلَيْهِ قَدْ جَعَلَهُ مُحْتَلاً الْعَقْلَ مُخْبِلاً، لَا يُقَدَّرُ خُطُورُهُ مَا يَقُولُ بِشَأْنِ كُتْبَاءِ قَوْمِهِ، وَقَدْ وَاجَهُوهُ بِهَذَا الْاِتِّهَامِ، وَلَمْ يَقُولُوهُ فِي غَيْبَتِهِ.

وَتَعَلَّلُوا لِرَفْضِ نُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ بِأَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، مُوْهِمِينَ بَأَنَّهُ كَوْنُهُ بَشَرًا يُنَافِي كَوْنَهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا مَبْعُوثًا مِنْ قِبَلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالُوا لَهُ مَا جَاءَ بَيَانُهُ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾: أي: لَيْسَ لَكَ مِنَ الصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ الْخَارِجَةِ عَنِ نِظَامِ الْبَشَرِ، كَعَدَمِ حَاجَتِكَ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَعَدَمِ حَاجَتِكَ إِلَى أَنْ تَتَزَوَّجَ، مَا يُؤْهِلُكَ لِأَنْ تَكُونَ نَبِيًّا تَتَلَقَّى الْوَحْيَ عَنِ اللَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَأنْ تَكُونَ رَسُولاً تُحْمِلُ رِسَالَةً مِنْهُ، وَتُبَلِّغُنَا إِيَّاهَا.

وَبَعْدَئِذٍ قَالُوا لَهُ مَا أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ:

• ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٥٤): أي: فَأْتِ بِعَلَامَةٍ مِنْ الْعَجَائِبِ الْخَوَارِقِ الْمُعْجِزَةِ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا مِنَ الصَّادِقِينَ، فِي ادِّعَاءِ أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مُبْعُوثٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

جاء في العبارة استعمال كَلِمَةِ «إِنْ» للإشعارِ بأنَّهم يَشْكُون بَلَّ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ عَاجِزٌ عَنْ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ خَارِقَةٍ مُعْجِزَةٍ.

ثامناً:

فَإِذَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَدْعُوهُ فِي مَجْمَعٍ حَافِلٍ مِنْ قَوْمِهِ، لِيُخْرِجَ اللَّهُ لَهُمُ النَّاقَةَ الَّتِي طَلَبُوا عَلَى وَفْقٍ مَا وَصَفُوا وَعَيَّنُوا، فَأُخْرِجَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمُ النَّاقَةَ مِنَ الصَّخْرَةِ الَّتِي عَيَّنُوهَا، وَعَلَى وَفْقِ الصِّفَاتِ الَّتِي ذَكَرُوهَا.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣):

أي: هَذِهِ نَاقَةُ أَخْرَجَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا طَلَبْتُمْ وَوَصَفْتُمْ وَعَيَّنْتُمْ، وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ آيَةً مِنَ اللَّهِ لَهُمْ، سَمَّاها صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَاقَةُ اللَّهِ» أي: نَاقَةُ آيَةِ اللَّهِ الْخَارِقَةِ.

وَإِذْ أَخْرَجَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ هَذِهِ النَّاقَةَ طَبَقًا لِطَلْبِهِمْ، كَانَتْ مِنْ حِكْمَةِ ابْتِلَائِهِمْ أَنْ يُلْزِمَهُمْ بِوَاجِبَاتٍ تُجَاهِهَا، سَوَاءً آمَنُوا بِرُسُولِهِمْ أَمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ التَّكَالِيفَ مَادَّةً مِنْ مَوَادِّ ابْتِلَائِهِمْ

وَفَتَنَّاهُمْ بَمَا يَسُوءُهُمْ وَيُضَايِقُهُمْ، لَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَيَّنُوا الْآيَةَ، وَلَمْ يُقَوِّضُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بَآيَةٌ مَا، تَشْهَدُ لَصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا.

وَمِنْ الْوَاجِبَاتِ عَلَيْهِمِ الْمَبِينَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ (الأعراف) ما يلي:

(١) أَنْ يَتْرُكُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ عَلَى مَا تَشَاءُ.

(٢) أَنْ لَا يَمَسُّوهَا مَسًّا مَا بَمَا يَسُوءُهَا مِمَّا يُؤْذِيهَا.

وَأَنْبَأَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ شُرُوطِهَا مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف / ٤٧ نزول):

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَقْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾:

فأضاف هذا النص واجباً ثالثاً إلى الواجبين السابقين:

(٣) أَنْ يَكُونَ مَاءُ ثَمُودَ قِسْمَةً بَيْنَ ثَمُودَ وَبَيْنَ النَّاقَةِ.

﴿لَهَا شِرْبٌ﴾: الشَّرْبُ: الحِظُّ مِنَ الْمَاءِ. وَقِيلَ: وَقْتُ الشَّرْبِ وَنُوبَةُ الاستقاء.

وهذا من التكامل بَيْنَ التَّصْنِينِ، وفيهما تكامل آخر، وهو:

• فِي سُورَةِ (الأعراف): ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ ﴿٧٣﴾﴾.

• وَفِي سُورَةِ (الشعراء): ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾.

أَي: وَلَا تَمَسُّوهَا مَسًّا بِسُوءٍ وَلَوْ ضَايِقَتْكُمْ فِي طَعَامِهَا، أَوْ فِي شَرَابِهَا، فَإِذَا مَسَسْتُمُوهَا بِسُوءٍ فَإِنَّهُ يَقْبِضُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ قَبْضاً مُؤْلِماً لَكُمْ بَعْنَفٍ وَشِدَّةً، فِي يَوْمٍ عَظِيمٍ الْأَهْوَالِ، عَظِيمٍ وَسَائِلِ التَّعْذِيبِ.

وَحِينَ ضَاقَتْ صُدُورُ كُفَّارِ ثَمُودَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الثَّلَاثَةِ لِلنَّاقَةِ الَّتِي ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِهَا، بَدَّوْا يَتَّهَمُسُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهَا بِعَقْرِهَا، وَأَحْسَّ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾:

فَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا مَسُّوهَا مَسًّا بِسُوءٍ قَبَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ، لَا تَأْخِيرَ فِيهِ وَلَا تَأْجِيلَ.

الْمَسُّ: اللَّمَسُ بِالْيَدِ، وَيُطْلَقُ عَلَى وَضُوءِ سَطْحِ الشَّيْءِ إِلَى سَطْحِ الشَّيْءِ الْآخَرِ دُونَ الدُّخُولِ إِلَى شَيْءٍ مَا تَحْتَ السَّطْحِ.

تاسعاً:

فَاصْرَثَ غَالِبِيَّةُ ثَمُودَ عَلَى كُفْرِهَا وَتَكْذِيبِهَا رَسُولَ رَبِّهَا، وَلَمْ تُؤْثَرْ فِيهَا مُعْجَزَةُ النَّاقَةِ.

فَتَابَعَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَأْدِيبَهُ وَظَائِفَ رِسَالَتِهِ فِيهِمْ، فَقَالَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

جاء في هذه الآية بيانٌ أَنَّ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَامَ وَجَّهَ لَكُفَّارِ قَوْمِهِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ مَسِيرَتِهِ الدَّعْوِيَّةِ أَرْبَعَ قَضَايَا شَرَحَهَا وَفَصَّلَهَا لَهُمْ، وَقَدْ أَوْجَزَتْهَا الْآيَةُ:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ حكايةً بإيجازٍ لمعنى ما

قاله صالح عليه السَّلام لقومه: ﴿...وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ...﴾ ﴿٧٤﴾:

أي: وَضَعُوا فِي ذَاكِرَاتِكُمْ دَوَاماً أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ، مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكَ عَاداً أَسْلَافَكُمْ، لِأَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا الْيَوْمَ، مِنْ شُرْكَ بِرَبِّكُمْ، وَعِبَادَةِ إِلَهَةٍ مِنْ دُونِهِ، وَإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَضَعُوا فِي ذَاكِرَاتِكُمْ أَنَّ الَّذِينَ نَجَوْا مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي نَزَلَ بَعَادِ هُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِهِمْ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلام، وَبَذَلُوا شِرْكَهُمْ وَأَوْثَانَهُمْ، وَاتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

إِنَّ وَضَعَ هَاتَيْنِ الْحَقِيقَتَيْنِ فِي ذَاكِرَاتِكُمْ، وَاسْتِخْرَاجَهُمَا إِلَى سَاحَةِ تَصَوُّرَاتِكُمْ وَقْتاً فَوْقَ تَقَاتٍ، عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ دَاعِيَةٍ، يَجْعَلُ اخْتِمَالَ اغْتِبَارِكُمْ وَاتِّعَاطِكُمْ أَرْجَى، وَأَسْرَعَ زَمَناً، وَأَيْسَرَ لِلِاسْتِجَابَةِ وَقَبُولِ النُّصْحِ، وَتَرْكِ سُبُلِ الشَّيْطَانِ، وَاتِّبَاعِ صِرَاطِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً بِإِيْجَازٍ لِمَعْنَى مَا قَالَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمِهِ: ﴿...وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنَعُّدُوكَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْجِنُونَ الْجِبَالَ بَيْوتاً...﴾ ﴿٧٤﴾:

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أي: وَأَنْزَلَكُمْ، وَأَعَدَّ لَكُمْ، وَهَيَّأَ الْمَكَانَ وَالْمِنْزَلَ الْملائكم لَكُمْ.

يقال لغة: «بَوَّأَهُ الْمَكَانَ» أي: أَنْزَلَهُ فِيهِ. وَيُقَالُ: «بَوَّأَ الْمِنْزَلَ لَهُ» أي: أَعَدَّهُ وَهَيَّأَهُ لَهُ. وَيُقَالُ: «أَبَاءَ فُلَاناً مَنْزِلاً» أي: هَيَّأَهُ لَهُ وَأَنْزَلَهُ فِيهِ. وَيُقَالُ: «تَبَوَّأَ الْمَكَانَ - وَتَبَوَّأَ بِهِ» أي: نَزَلَهُ وَأَقَامَ بِهِ.


فَالْمَعْنَى: وَهَيَّأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَنَازِلَ تَسْكُنُونَهَا، وَمَكَّنَ لَكُمْ فِيهَا، وَجَعَلَ لَكُمْ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ تَتَّخِذُوا لَكُمْ فِيهَا الْبُيُوتَ، وَالْقُصُورَ، وَسَائِرَ الْمَنَازِلِ وَالْمَسَاكِنِ الْمُنَاسِبَةِ لِمَطَالِبِكُمْ.

وَإِذْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ هَذَا التَّمَكِينِ، بِمَا وَضَعَ وَهَيَّأَ لَكُمْ مِنْ أَسْبَابٍ، وَبِمَا أَقْدَرَكُمُ عَلَى اسْتِخْدَامِهَا وَالانْتِفَاعِ بِهَا، حَتَّى صِرْتُمْ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا، فَتَقْطَعُونَ الصُّخُورَ مِنَ الْجِبَالِ، وَتَبْنُونَ بِهَا الْقُصُورَ الْفَخْمَةَ، وَصِرْتُمْ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ، فَتُجَوِّفُونَ غُرَفًا فِي بَاطِنِهَا، حَتَّى تَكُونَ الْجِبَالُ لَكُمْ بُيُوتًا، تَبْتَثُونَ فِيهَا، فَتَحْتُمُونَ بِهَا مِنْ مُدَاهِمَاتِ أَعْدَائِكُمْ.

فَاذْكُرُوا هَذِهِ النِّعَمَ الْجَلِيلَةَ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فِي أَرْضِكُمْ، فَاْمِنُوا بِهِ رَبًّا وَاحِدًا أَحَدًا لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَاعْبُدُوهُ إِلَهًا وَاحِدًا أَحَدًا لَا إِلَهَ فِي الْوُجُودِ بِحَقِّ غَيْرِهِ، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أَحَدًا وَلَا شَيْئًا مَا، وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ، وَشَهِدَ لَهُ بِالْخَارِقَةِ الْمَعْجَزَةِ أَنَّهُ نَبِيُّهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا، وَاتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ.

القضية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةَ بَايِجَازٍ لِمَعْنَى مَا قَالَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿...فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ...﴾: أَي: فَاذْكُرُوا مَا بَيَّنَّتْهُ لَكُمْ، وَادْكُرُوا سَائِرَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، فَإِذَا ذَكَرْتُمُوهَا أَنَا فَإِنَّا اسْتَطَعْنَاهُ أَنْ نَفْتَحِيَهُمْ عَقَبَاتِ نَفُوسِكُمْ فَتَتْرَكُوا مَا أَنْتُمْ مُنْغَمِسُونَ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ وَضَلَالٍ، وَطُغْيَانٍ وَفُجُورٍ، وَفَسَادٍ وَافْسَادٍ فِي الْأَرْضِ، وَأَنْ تُؤْمِنُوا وَتُسَلِّمُوا وَتَتَّقُوا رَبَّكُمْ.

الآلاء: هِيَ النِّعَمُ، وَاحِدُهَا «أَلِيٌّ» وَ«إِلِيٌّ» وَ«إِلَى».

القضية الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةَ بَايِجَازٍ لِمَعْنَى مَا قَالَهُ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ ثَمُودَ: ﴿...وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ...﴾ :

أَي: وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ إِفْسَادًا شَدِيدًا مُنْكَرًا.

الْعَتَاؤُ: أَشَدُّ الْفُسَادِ، يُقَالُ لُغَةً: «عَتَيْ يَعْثُو عُثْوًا وَعُثْيًا وَعَثْيَانًا» أَي: أَفْسَدَ إِفْسَادًا شَدِيدًا مُنْكَرًا. وَيُقَالُ: «عَثَا فِي الْأَرْضِ يَعْثُو» أَي: أَفْسَدَ:

والإفساد: ضِدُّ الإِصْلَاحِ، وَيَكُونُ الإِفْسَادُ بِجَعْلِ الشَّيْءِ الصَّالِحِ لِمَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِهِ غَيْرِ صَالِحٍ لَهُ.

هذه المقالة دَلَّتْ عَلَى أَنَّ ثَمُوداً قَدْ وَصَلُوا إِلَى دَرَكَةٍ مِنَ الشُّوْءِ شَنِيعَةٍ، إِذْ صَارُوا يَعِيشُونَ فِي الْأَرْضِ فِسَاداً بِوَجْهِ عَامٍّ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ لِعَامِلِهَا، أَي: وَلَا تُفْسِدُوا حَالَةَ كُونِكُمْ قَاصِدِينَ الإِفْسَادَ، وَبَاغِينَ الإِضْرَارَ، وَقَاعِلِينَ لَهُمَا. وبهذا انتهى الفصل الأول.



الفصل الثاني

مرحلة تفاقم التخاصم بين المؤمنين والكافرين من ثمود

تَخَوَّفَ كِبَرَاءُ كُفَّارِ ثَمُودٍ مِنْ تَكَاثُرِ أَعْدَادِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِرُسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَشَدَّدُوا حَمْلَةَ الْجَدَلِيَّاتِ الْعَنِيفَةِ، الَّتِي كَانُوا يُجَادِلُونَ بِهَا الضُّعَفَاءَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَقْلَمُونَ أَمْ أَنْتَ مَكِينٌ مِّنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿الْمَلَأُ﴾: هُمْ كِبَرَاءُ الْقَوْمِ وَأَعْيَانُهُمْ وَدُورُوا الْوَجَاهَةَ فِيهِمْ، الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ الْجُمْهُورِ الْأَعْظَمِ مِنَ الْعَامَّةِ.

﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾: أَي: الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ ثَمُودٍ عَنِ الْإِيمَانِ بِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَنِ اتِّبَاعِهِ وَاتِّبَاعِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ،

إِذْ رَأَوْا نُفُوسَهُمْ أَكْبَرَ وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يَتَّبِعُوا صَالِحاً وَهُوَ دُونَهُمْ فِي الطَّبَقَةِ
الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَأَرْفَعَ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَهَؤُلَاءِ فِي
مَفْهُومَاتِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ الطَّبَقِيَّةِ دُونَهُمْ مَنَزَلَةً فِي الْمَجْتَمَعِ التَّمُودِيِّ.

وَرُبَّمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا هُمْ ذَوِي السُّلْطَانِ وَالْأَمْرِ النَّافِذِ فِي
قَوْمِهِمْ.

لَقَدْ رَفَضَ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرُونَ دَعْوَةَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَعَهُم
أَتْبَاعُهُمْ مِنْ عَامَّةِ ثَمُودَ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَلَا بِمَا جَاءَ بِهِ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنْ حَقٍّ وَهُدًى.

وَلَمْ يَقْتَصِرْ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَرَفْضِ الْإِسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ
الْحَقِّ وَالْهُدَى، بَلْ تَوَجَّهُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ
الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ قَوْمِهِمْ، لِيَفْتِنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَيَرُدُّوهُمْ عَمَّا آمَنُوا بِهِ،
وَيُعِيدُوهُمْ فِي مِلَّتِهِمْ، وَلِيُسْمِعُوا جَمَاهِيرَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ بَرَسُولِهِمْ،
بُغْيَةَ التَّأثيرِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى يَتَوَقَّفُوا عَنْ اتِّبَاعِ نُظَرَانِهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَاسْتَجَابُوا
لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، فَمِنْ شَأْنِ النُّظَرَاءِ أَنْ يَجْرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَيُؤَثِّرَ بَعْضُهُمْ عَلَى
بَعْضٍ.

وَاخْتِيَارُ عِبَارَةٍ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ يُشِيرُ بِأَنَّ الْكُفْرَةَ
الْمُسْتَكْبِرِينَ، قَدْ جَمَعُوا جَمَاهِيرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَمْ
يُؤْمِنْ، وَخَاطَبُوا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُسْمِعُوا الْآخَرِينَ.

هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ وَأَمْثَالُهَا تَكُونُ عَادَةً عِنْدَ مَا يَتَخَوَّفُ كُِبْرَاءُ الْكَافِرِينَ مِنْ
أَنْ يُؤْمِنَ الْمُسْتَضْعَفُونَ الَّذِينَ مَا زَالُوا أَتْبَاعَهُمْ وَأَنْصَارَهُمْ، فَيَخْرُجُوا عَنْ
سُلْطَانِهِمْ، وَيَكُونُوا قُوَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقُوَّةً لِلرَّسُولِ الَّذِي كَذَّبُوهُ، وَخَالَفُوهُ،
وَنَاصَبُوهُ الْعِدَاءَ.

وَكَانَ أُسْلُوبُ هَؤُلَاءِ الْمُضِلِّينَ، يَعْتَمِدُ عَلَى الْإِبْتِعَادِ عَنِ الْمَجَادَلَةِ

حَوْلَ مَفْهُومَاتِ الدِّينِ، الَّذِي آمَنَ بِهِ فَرِيقٌ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، لِأَنَّ حُجَّتَهُمْ حَوْلَهَا قَوِيَّةٌ وَدَامِعَةٌ، فَاخْتَارُوا أَنْ يَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَخْصٍ «صَالِحٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، نَبِيِّهِمْ وَرُسُولِهِمْ، لِيَجِدُوا فِي شَخْصِهِ شَيْئاً يُعْطِيهِمْ فُرْصَةً لِلتَّشْكِيكِ فِي كَوْنِهِ نَبِيًّا وَرَسُولًا مِنْ رَبِّهِ، قَالُوا لَهُمْ:

• ﴿... أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ...﴾ (٧٥) ﴿...﴾

أي: هل لديكم أدلة قوية تثبت أن صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ حَقًّا وَصِدْقًا؟!

فأدرك المسؤولون المكيذة الجدلية، فَلَمْ يُجِيبُوهُمْ عَمَّا سَأَلُوا عَنْهُ، بَلْ رَدُّوا عَلَيْهِمْ بِأَنَّ مَضْمُونَ رِسَالَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْبَرَاهِينُ، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُرْسِلَ بِهِ:

• ﴿... قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥) ﴿...﴾

أي: لا تجادلوننا في شخص النبي الرسول صالح عليه السلام، وَلَكِنْ نَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لِمُجَادَلَتِكُمْ حَوْلَ مَا أُرْسِلَ بِهِ، فَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِهِ، وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَا جَاءَ بِهِ حَقًّا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، فَمِنَ الزَّيْغِ عَنْ جَوْهَرِ قَضِيَّةِ الدِّينِ التَّشَاغُلُ بِالْبَحْثِ عَنْ شَخْصٍ مُبْلَغِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَكَوْنُ مَا جَاءَ بِهِ حَقًّا وَصِدْقًا دَلِيلٌ كَافٍ لِإثباتِ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ.

من هذا يَظْهَرُ لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ سَدِيدٍ أَنَّ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الرَّدِّ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْحَكِيمَةُ الْمَفْجُمَةُ، فِي أَسَالِيبِ الْجَدَلِ حَوْلَ قَضَايَا الْحَقِّ.

عِنْدَئِذٍ لَمْ يَجِدِ الْمُسْتَكْبِرُونَ حُجْجاً يُبْطِلُونَ بِهَا مَضْمُونَ الرِّسَالَةِ الَّتِي أُرْسِلَ بِهَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَجَّؤُوا إِلَى أُسْلُوبِ إِضْرَارِ الْمُسْتَكْبِرِ الْمُعَانِدِ بِوَقَاحَةٍ، مُغْلِبِينَ كُفْرَهُمْ بِمَا آمَنَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ حَقٍّ وَهُدًى، دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا حُجَّةً مَا، اعْتِمَاداً عَلَى أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ فِي قَوْمِهِمْ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى مَوْقِفِهِمْ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ .

ولَا بُدَّ أَنْ يَتَوَقَّفَ الجِدالُ عندَ هَذِهِ المَكابِرَةِ بالباطل، والإصرار على رفض الحق. لَكِنَّ المَكابِرَةَ تَتَضَمَّنُ في الحَقِيقَةِ هَزِيمَةَ المَكابِرِ، وإِدانتَهُ لَدَى العقلاء، وَلَدَى كُلِّ ذِي فَكْرٍ سَلِيمٍ.



الفصل الثالث

مَرْحَلَةُ عَدَمِ مَبالَاةِ قَوْمِ صالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يَأْتِيَهُمْ مَا أُنذَرَهُمْ بِهِ

لَقَدْ أَغْرَى كُفَّارَ ثُمُودَ إِمْهَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، وَهِيَ سُنَّتُهُ الدَّائِمَةُ فِي كُلِّ كُفَّارِ الْأُمَمِ.

وَحِكْمَةُ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ فِي الإِمْهَالِ أَنْ لَا يُبْقِيَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ عُذْرًا يَعْتَذِرُ بِهِ، لَدَى الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ، لِكُفْرِهِ بِالْحَقِّ الَّذِي تَبَلَّغَهُ مَقْرُونًا بِرَإِئِيسِهِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النَّمْل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿قَالَ يَلْقَوْنَ لَمَ تَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَاعْتَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ :

دَلَّ هَذَا الْبَيانُ عَلَى أَوَاخِرِ مَوَاقِفِ مُكَذَّبِي ثُمُودَ لِرَسُولِهِمْ صالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُوَ مُعَبَّرٌ عَنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ بَعْدَ مَسِيرَةِ دَعْوِيَّةِ اشْتِمَلَتْ عَلَيْهَا سِيرَتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَهُمْ، فَهِيَ مُتَزَعَّةٌ مِنْهَا اخْتِرَالًا.

وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ أَنْ أُنذَرَهُمْ بِعِقَابٍ مِنَ اللَّهِ مُهْلِكٍ لَهُمْ إِهْلَاكَاً

جَمَاعِيَا فِيهِ إِبَادَةٌ مُسْتَأْصِلَةٌ لَهُمْ، وَعَلَى أَنْ تُنذَرَاتِهِ كَانَتْ تَتَوَالَى عَلَيْهِمْ.

وَدَلٌّ أَيْضاً عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ يُمَهِّلُهُمْ، رَغْبَةً فِي تَوْبَتِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، إِلَّا أَنَّ الْإِمَهَالَ الطَّوِيلَ أَغْرَاهُمْ بِتَضْدِيقِ تَوَهُمِهِمْ بِأَنَّ صَالِحاً لَا يَمْلِكُ مِنْ رَبِّهِ تَحْقِيقَ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ، مَعَ أَنَّ إِنذَارَهُ لَهُمْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا مُبَلِّغاً إِيَّاهُ عَنْ رَبِّهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُمَهِّلَ عِبَادَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةَ الْإِبْتِلَاءِ إِمَهَالاً طَوِيلًا، حَتَّى يَقْطَعَ كُلَّ أَعْذَارِهِمْ.

﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ؟﴾! الاستعجال: طَلَبُ تَعْجِيلِ الْأَمْرِ الْمُؤْعَدِ بِهِ قَبْلَ أَوَانِهِ، أَوْ طَلَبُ تَحْقِيقِ الشَّيْءِ قَبْلَ الْوَقْفِ الَّذِي قَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ الْحَكِيمَةِ بِتَحْقِيقِهِ فِيهِ.

جاء فعل «استعجل» بِمَعْنَى «عَجَلَ» أَي: أَسْرَعَ فَهُوَ لَازِمٌ يَتَعَدَّى بِالْحُرُوفِ.

وَالْمَعْنَى: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكُفَّارِ قَوْمِهِ: يَا قَوْمِ لِمَ تَعْجِلُونَ بِطَلَبِ تَحْقِيقِ مَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ، وَإِهْلَاكِكُمْ إِهْلَاكًا مُدْمَرًا شَامِلًا؟!

السَّيِّئَةُ: تُطْلَقُ عَلَى كُلِّ نَازِلَةٍ مَكْرُوهَةٍ، وَتُطْلَقُ عَلَى كُلِّ فَعْلَةٍ قَبِيحَةٍ. وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْمَلَائِمُ هُنَا.

﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾: تُطْلَقُ الْحَسَنَةُ عَلَى الْحُظُوظِ السَّارَةِ، وَعَلَى النَّعَمِ الَّتِي يَسْتَمْتِعُ بِهَا الَّذِينَ نَالُوهَا مَتَاعًا مَحْبُوبًا إِلَى نَفْسِهِمْ. وَتُطْلَقُ عَلَى كُلِّ فَعْلَةٍ جَمِيلَةٍ يُمدَّحُ فاعِلُهَا. وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْمَلَائِمُ هُنَا.

فَالْمَعْنَى الَّذِي أَفْهَمُهُ مِنْ قَوْلِ صَالِحٍ لِقَوْمِهِ: ﴿يَقْوَرِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾: يَا قَوْمِ لِمَ تَعْجِلُونَ بِطَلَبِ إِنْزَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تَكْرَهُونَ إِنْزَالَهَا بِكُمْ إِذَا نَزَلَتْ، قَبْلَ أَنْ تَسْتَوْفُوا حُظُوظَكُمْ الْحَسَنَةَ الَّتِي قَضَى اللَّهُ أَنْ تَسْتَمْتِعُوا بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

إِنَّ رَبَّكُمْ يُمְهِلُكُمْ رَغْبَةً فِي تَوْبَتِكُمْ وَاسْتَغْفَارِكُمْ، مَا دَامَتْ حُكْمَتُهُ تَقْضِي بِإِطَالَةِ مُدَّةٍ امْتِحَانِكُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٦).

﴿لَوْلَا﴾: تحضيضية بمعنى «هَلَّا». أي: هَلَّا تَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ، فَيَتَجَاوَزَ عَنْ كُفْرِكُمْ وَجَرَائِمِكُمْ فَلَا يُعَاقِبَكُمْ عَلَيْهَا، رَحْمَةً مِنْهُ بَكُمْ.

الاستغفار: طَلَبُ الْغُفْرَانِ، وَهُوَ سَرُّ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَيُلْزَمُ مِنْ سَرِّهَا التَّجَاوُزُ عَنِ الْمَعَاقِبَةِ عَلَيْهَا بِفَضْلِ اللَّهِ، وَيُنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِغْفَارُ مُسْتَتَبِعاً بِالتَّوْبَةِ مِنْ ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ، إِذْ كَيْفَ يُقْبَلُ طَلَبُ سَرِّ الذَّنْبِ الْمَاضِي مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى فِعْلٍ مِثْلِهِ فِي الْحَالِ أَوْ الْإِسْتِقْبَالِ؟!

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: لَعَلَّ: لِلتَّرَجِّي، وَالتَّرَجِّي يُلَاحِظُ حَالَ الْعِبَادِ، وَلَا يُلَاحِظُ صِفَاتٍ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ.

فالمعنى: هَلَّا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، رَاجِينَ أَنْ يَرْحَمَكُمْ فَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَيَرْفَعَ عَنْكُمْ مَا أَنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ مِنْ عِقَابٍ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْكُمْ مِنْ كُفْرٍ فِي الْإِعْتِقَادِ، وَجَرَائِمٍ فِي السُّلُوكِ.

• ﴿قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾: أَطِئْنَا: أَصْلَحْنَا. «تَطَيَّرْنَا». وَالتَّطْيِيرُ:

هُوَ التَّشَاوُؤُ بِالْأَشْيَاءِ، أَوْ بِالْأَشْخَاصِ، أَوْ بِمَسْمُوعٍ، أَوْ بِمَرْتِي، أَوْ بِنَحْوِ ذَلِكَ.

وأصل التَّطْيِيرِ مِنْ رَجْرِ الْعَرَبِ لِلطَّيْرِ، فَإِذَا طَارَ إِلَى جِهَةِ الْيَمِينِ نَفَّاءُ لَوْ، وَإِذَا طَارَ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ تَشَاءُ مَوْ.

دَلَّ تَطْيِيرُهُمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ بِشُؤْدٍ عَلَى وَفْقِ عَادَتِهِ فِي الْأَقْوَامِ، مَقَادِيرَ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبُوا وَيَتَضَرَّعُوا،

سَائِلِينَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا أُنْزِلَ بِهِمْ، بَعْدَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِرُسُولِهِمْ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبما جاء به عَنْ رَبِّهِمْ.

لَكِنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ الْعِنَادِي الْجَحُودِيَّ، يَنْسُبُونَ ظَاهِرَاتِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ، إِلَى شُؤْمِ رُسُلِهِمْ، وَشُؤْمِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ، عَلَى سَبِيلِ التَّطْيِيرِ التَّوْهَمِيِّ، الَّذِي لَا يَكُونُ الْمَتَطَيِّرُ بِهِ سَبَبًا لِحُدُوثِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَعَلَّقُونَ بِالْأَوْهَامِ الْبَاطِلَةِ، وَيُكَذِّبُونَ رُسُلَ رَبِّهِمْ الصَّادِقِينَ، وَيُكَذِّبُونَ بِالْحَقِّ الَّذِي يُبَلِّغُونَهُ عَنِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

• ﴿... قَالَ طَئِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٧) :

﴿قَالَ طَئِرُكُمْ﴾: أي: قَالَ: عَمَلُكُمْ انْطَلَقَ طَائِرًا فَصَارَ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ عِلْمًا، وَتَسْجِيلًا، وَحِسَابًا، وَهُوَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أُنْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُمْ مِنَ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ مَا تَكْرَهُونَ، رَغْبَةً فِي أَنْ تَتُوبُوا إِلَيْهِ، وَتَسْتَغْفِرُوهُ، وَتَتَضَرَّعُوا، سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ مَا أُنْزِلَ بِكُمْ مِنْ مَصَائِبَ.

لَكِنَّكُمْ صَرَفْتُمْ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ عَنْ أَذْهَانِكُمْ، وَتَمَسَّكْتُمْ بِأَوْهَامِ التَّطْيِيرِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ ذَرِيعَةٌ تَتَهَرَّبُونَ بِهَا مِنَ الْحَقِّ.

وَاخْتِيرَ لَفْظُ الطَّائِرِ كِنَايَةً عَنِ الْعَمَلِ، لِيَتَلَاءَمَ فِي اللَّفْظِ مَعَ الطَّيْرَةِ الْمُسْتَقَّةِ مِنَ الطَّائِرِ، وَهَذِهِ كِنَايَةٌ قُرْآنِيَّةٌ.

فَالْمَعْنَى: لَا شُؤْمَ مِنِّي، وَلَا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَاتَّبَعُونِي، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ، فَتَسْتَجِيبُونَ لَوْسَاوَسِ الشَّيْطَانِ وَإِغْرَاءَاتِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ بِالْبَاطِلِ، مُنْخَدِعِينَ بِهَا، إِذْ يُزَيِّنُ لَكُمْ شَهَوَاتِكُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيُزَيِّنُ لَكُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ وَضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَتَتَأَثَّرُونَ بِهَا جَائِرِينَ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ، صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

الفتنة: تأتي في اللغة للدلالة على معاني عديدة منها:

(١) الابتلاء. (٢) التعذيب (٣) الإغراء والخداع بالباطل للإضلال والصرف عن الحق، وهذا المعنى الأخير هو الملاثم هنا.

﴿تُفْتَنُونَ﴾: أي: يُتابع شياطين الإنس والجنّ عليكم وسائل الإغراء والإغواء لإضلالكم، فتستجيبون لهم، فتضلّون عن إدراك الحق، وعن الاستمسك به، والعمل بما يفضيه منكم من سلوك. دلّ على هذه المتابعة استعمال الفعل المضارع في التعبير.

وقدّم المسند إليه في عبارة: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ لتعيين افتتانهم وضلالهم، في مقابل انتفاء الشؤم الذي ادّعوه بقولهم لرسولهم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا أَطِيعْنَا بِكَ وَيَمَنُ مَعَكَ﴾. دلّ على هذا حرف «بل». فالعبارة بقوة: لَا شُؤْمَ يَأْتِيكُمْ مِنْ قِبَلِنَا حَتَّى تَطْیَرُوا بِنَا، إِنَّمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ.



الفصل الرابع

مرحلة طغيان ثمود بعقر ناقه الله

وتحذيرهم رسولهم بأن يأتيهم بما كان ينذيرهم به

لقد عرّ كفّار ثمود طول إمهال الله لهم، ليقطع آخر خيط من نسج معاذيرهم، التي قد يعتدّرون بها عند ربّهم، فبعثوا أكثرهم كفراً وطغياناً وحدةً وشرّاً لعقر الناقة، وقالوا لصالح عليه السلام: اثبتنا بما تعدّنا من عذاب مهلك إن كُنْتَ مِنَ المرسلين، فاقتضت حكمه الله عزّ وجلّ أن يُعَذِّبَهُمْ عَذَابَ اسْتِصْصَالٍ عَقِبَ هذه المرحلة.

دلّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ آثِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٧)

وقول الله عز وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿نَادَاوْا صَالِحًا فَتَعَالَى فَعَقَرَ﴾ (٣٨)

في آية سورة (الأعراف) بيان ثلاثة تحذيرات تحذري بها كفار ثمود رَسُولُ رَبِّهِمْ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَام، اثنان منها عمليتان، وثالثها قولِي:

التحذير العملي الأول: دلت عليه عبارة ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ...﴾ أي: إنهم لم يعذبوا بإنذار صالح لهم بأن يأخذهم الله بعذاب أليم وقريب في يوم عظيم، إذا مسوا ناقة الله بسوء ما، فكان منهم عقرها ونحرها، بجريمة كبرى، وهم يعلمون أنها آية الله لهم، إذ أخرجها لهم من الصخرة التي عيَّنوها، وعلى الوصف الذي حدّده، وهذه حماقة لا يفعلها إلا جبار مغرور مستكبر.

التحذير العملي الثاني: دلت عليه عبارة: ﴿...وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ...﴾: لقد وجّه «صالح» عليه السلام لهم أوامر من الله لهم تتعلق بالإيمان، وبالعبادة، وبأنواع من السلوك، والأمر يشمل ما يجب فعله، وما يجب تركه، إذ الأمر بالشيء نهى عن ضده، والنهي عن الشيء أمر بضده.

﴿عَتَوْا﴾: أي: استكبروا وتجاوزوا حدود المعاصي المعتادة في الناس، وتجاوزوا حدود الإفساد الذي توجد نسبة ما منه في كل أمة، وغلّوا غلّوا فاحشاً في ذلك كمّاً وكيفاً، حتّى بلغوا إلى حضيض تفتضي حكمه الله معه أن ينزل بهم عقاباً صارماً حازماً شاملاً.

والعاتي: هو الطاعي الجبار المفسد.

وقد ضُمّن فعل: «عَتَوْا» في العبارة معنّى فعل «ابْتَعَدُوا» أو فعل

«أَغْرَضُوا» أو فِعْل «تَوَلَّوْا» فَعُدِّي تَعْدِيته بحرف «عَنْ» فقال تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: أي: فَعَتَوْا مُتَوَلِّينَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَأَكْثَرُوا الْفَسَادَ وَالْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ.

التحدي الثالث: (وهو تَحَدُّ قَوْلِي): دَلَّتْ عَلَيْهِ عبارة: ﴿... وَقَالُوا يَصْلِحُ أَفْنَانًا يَمَّا تَعْدَنَّا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ❶:

لَقَدْ اسْتَمَرُّوا مُعَانِدِينَ عَلَى ادِّعَاءِ أَنَّهُ كَذَّابٌ وَلَيْسَ رَسُولًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ، مِنْ قَبْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ آيَةِ النَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ مِنَ الصَّخْرَةِ وَهُمْ شُهُودٌ يَنْظُرُونَ.

لَقَدْ غَرَّهم طُولُ إِمْهَالِ اللَّهِ لَهُمْ، وَتَمَكُّنُهُمْ مِنْ عَقْرِ نَاقَةِ اللَّهِ، دُونَ أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بِهِمُ الْعِقَابَ الْفَوْرِيَّ عَلَى عَقْرِهِمُ النَّاقَةَ.

وَلَعَبَّتِ الْأَوْهَامُ فِي نَفُوسِهِمْ، فَأَبْعَدَتْهُمْ عَنْ اسْتِبْصَارِ الْحَقِّ، وَرَبَّمَا تَصَوَّرُوا أَمْرَ النَّاقَةِ نَوْعًا مِنَ السَّحَرِ.

وظَاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا فِعْلًا أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بِهِمْ عَذَابًا بِإِهْلَاكِ عَامٍ شَامِلٍ، وَإِنَّمَا تَوَهَّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ لِصَالِحِ عَلَيْهِ السَّلَامِ، إِذْ هُوَ فِي اغْتِقَادِهِمُ الْقَائِمِ عَلَى الْغُرُورِ لَيْسَ رَسُولًا، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِمَعْنَى مَا قَالُوهُ لَهُ: ﴿... إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ❷ باستعمال حرف «إِنْ».

أَمَّا مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَ﴾ ❸:

فَدَلَّ عَلَى أَنَّ كُتُبَاءَ «ثَمُودَ» خَافُوا أَنْ يُبَاشِرُوا عَقْرَ النَّاقَةِ بِأَنْفُسِهِمْ، فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ، وَهُوَ أَشْقَاهُمْ كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الشَّمْس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) بقول الله عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾:

وجاء التعبير في آية سورة (القمر) بأنه صاحبُهُمْ، للإشارة إلى أن كُفَّارَ ثَمُودَ كُلَّهُمْ أَشْقِيَاءُ، إِلَّا أَنَّ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ مِنْهُمْ قَدْ كَانَ أَشْقَاهُمْ، وَكَانَ هَذَا أَخْبَثَ تِسْعَةِ رَهْطٍ أَشْقِيَاءَ مِنْ ثَمُودَ، وَهُوَ قَائِدُهُمْ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ قَوْمِهِمْ سَفَاهَةً، وَجُرْأَةً عَلَى الشَّرِّ وَازْتِكَابَ كِبَائِرِ الْإِثْمِ.

﴿فَتَعَاطَى فَعْرَهُ﴾: يُقَالُ لُغَةً: «تَعَاطَى الرَّجُلُ» أَي: قَامَ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى الشَّيْءِ لِيَأْخُذَهُ.

﴿فَعْرَهُ﴾: أَي: فَعَقَرَ نَاقَةَ اللَّهِ. الْعَقْرُ فِي اللُّغَةِ يَأْتِي بِمَعْنَى قَطَعَ إِحْدَى قَوَائِمِ الْبَعِيرِ لِيَسْقُطَ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَتَمَكَّنَ الْعَاقِرُ مِنْ نَحْرِهِ. وَيُقَالُ أَيْضاً: عَقَرَ الْحَيَّوانَ، أَي: ذَبَحَهُ.

وَيُمْكِنُ تَصْوِيرُ مَا قَامَ بِهِ «فُعْدَارُ» أَشْقَى «ثَمُودَ» أَنَّ هَذَا الْأَشْقَى أَسْرَعَ عَقَبَ مُنَادَاةِ كِبَرَاءِ قَوْمِهِ لَهُ مُحَرِّضِينَ إِيَّاهُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ النَّاقَةِ، فَتَنَاولَ سِلَاحَهُ بِخَفَّةٍ، وَأَقْبَلَ مُتَبَاسِلاً يَمْشِي عَلَى رُؤُوسِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ، مَاذَا يَدِيهِ بِسِلَاحِهِ إِلَى الْأَعْلَى، وَأَقْبَلَ بِجُرْأَةٍ إِلَى النَّاقَةِ، فَعَقَرَهَا أَوَّلًا حَتَّى سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ، وَعَقَرَهَا ثَانِيًا فَنَحَرَهَا.

جاء هذا التصوير الموجز البديع بعبارة: ﴿فَتَعَاطَى فَعْرَهُ﴾.



الفصل الخامس

مَرْحَلَةُ تَبْيِيتِ أَشْقِيَاءِ ثَمُودَ قَتَلَ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَهْلِيهِ مَعَهُ

يُظْهِرُ أَنَّ تَخَلُّصَ كُفَّارِ ثَمُودَ مِنَ النَّاقَةِ، دُونَ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ قَوْرًا مَا كَانَ قَدْ أُنْذِرَهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ مِنْ عَذَابٍ مُسْتَأْصِلٍ، قَدْ أَغْرَاهُمْ بِأَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ رَسُولِهِمْ وَمِنْ أَهْلِ مَعَهُ، فَدَفَعَ كِبَرَاءُ كُفَّارِ ثَمُودَ عِصَابَةً

أَشْقِيَاءَ لَهُمْ سِرًّا، أَنْ يُدَبِّرُوا قَتْلَ رَسُولِهِمْ وَقَتْلَ أَهْلِهِ بَيَاتًا، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَأَنْ يَخْلِفُوا عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ.

دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النمل/ ٢٧)

مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾
قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

الرَّهْطُ: الجماعة من الرجال دون العشرة.

تِسْعَةُ رَهْطٍ: لَمَّا كَانَتْ كَلِمَةُ «رَهْطٍ» بِمَعْنَى «رِجَالٍ» صَحَّ تَمْيِيزُ لَفْظِ
«تِسْعَةَ» بِمُضَافٍ إِلَيْهِ مَجْرُورٍ، كَقَوْلِنَا، «تِسْعَةُ رِجَالٍ».

﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: أَي: يُفْسِدُونَ فِي أَرْضِ مَدِينَةِ ثَمُودَ، وَرُبَّمَا
يُفْسِدُونَ فِي غَيْرِهَا أَيْضًا.

الإفساد: تحويل الشيء من كَوْنِهِ صَالِحًا نَافِعًا، إِلَى كَوْنِهِ غَيْرَ صَالِحٍ
وَلَا نَافِعٍ، بَلْ رُبَّمَا يَصِيرُ ضَارًّا كَرِيهًا مُفْسِدًا لِلْأَشْيَاءِ الصَّالِحَةِ.

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾: إِبْتِاثُ أَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ، لَا يَنْفِي أَنَّهُمْ قَدْ يُصْلِحُونَ
أَخْيَانًا، فَجَاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دَالَّةً عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهُمْ
صَلَاحٌ وَلَا إِصْلَاحٌ مَا، فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمْ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ وَمَا يَكْسِبُونَ.

فَعْلُ «أُصْلَحَ» يَأْتِي بِمَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: يُقَالُ فِيهِ: «أُصْلَحَ الرَّجُلُ» أَي: أَتَى بِمَا هُوَ صَالِحٌ
نَافِعٌ، فَهُوَ فَعْلٌ لَازِمٌ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى.

المعنى الثاني: يُقَالُ فِيهِ: «أُصْلَحَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أَي: أزال فساده،
فَهُوَ فِعْلٌ مُتَعَدٍّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى.

وكلا المَعْنَيْنِ يَنْطَبِقَانِ عَلَى هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ التَّسْعَةِ.

فَدَلَّ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي وَضْفِهِمْ ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهُمْ إِلَّا الْفَسَادُ وَالْإِفْسَادُ، وَلَا يَكُونُ مِنْهُمْ صَلاَحٌ وَلَا إِصْلَاحٌ، وَيُظْهَرُ أَنَّ عَاقِرِي النَّاقَةِ كَانَا الْمَقْدَمَيْنِ فِي هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ...﴾ ﴿٤٩﴾.

﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ فِعْلٌ أَمْرٌ بِإِحْدَاثِ الْقَسَمِ بِاللَّهِ، أَي: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لِيُقْسِمَ كُلُّ مِنَّا بِاللَّهِ.

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾: مَقُولٌ قَوْلٍ مَحذُوفٍ هُوَ حَالٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ فَأَقْسَمُوا قَائِلِينَ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾: أَي: لَنَقْتُلَنَّ صَالِحًا وَأَهْلَهُ بَيَاتًا.

التَّبْيِيتُ: عَمَلُ شَيْءٍ مَا، أَوْ تَذْيِيرُهُ، أَوْ الْإِتْفَاقُ عَلَيْهِ، أَوْ بَيَّةٌ فِعْلُهُ، لَيْلًا. وَمِنْ عَمَلِ الشَّيْءِ لَيْلًا مُبَاعَتُهُ الْعَدُوَّ فِي اللَّيْلِ لِقَتْلِهِ، أَوْ سَلْبِهِ، أَوْ إِنْزَالِ مَا يَكْرَهُ بِهِ.

• ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾:

﴿لِوَلِيِّهِ﴾: أَي: لِأَقْرَبَائِهِ الَّذِينَ يُطَالِبُونَ بِالنَّارِ.

• ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾: أَي: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ صَالِحٍ، وَلَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ، فَلَمْ نَكُنْ حَاضِرِينَ عِنْدَ هَلَاكِهِمْ، حَدَثًا، وَلَا زَمَانًا، وَلَا مَكَانًا.

نَفْيُ شُهُودِ الْحَدَثِ أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ إِحْدَاثِهِ، لِأَنَّ نَفْيَ فِعْلِ الْحَدَثِ قَدْ يَكُونُ مَعَ الْحُضُورِ وَالشُّهُودِ، لَكِنَّ نَفْيَ الشُّهُودِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ بِهَلَاكِهِمْ قَدْ كَانَ تَلَفُّيًا مِنْ أَخْبَارِ النَّاسِ.

• ﴿وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ﴾: أَي: وَنُؤَكِّدُ لِوَلِيِّهِ بَعْدَ الْقَسَمِ صِدْقَنَا فِي أَنَّ مَا

شَهِدْنَا مَهْلِكَهُمْ، ففي هَذِهِ الْعِبَارَةِ التَّوَكِيدَ بِـ «إِنَّ» - الجملة الاسمية - اللَّامُ المَرْخَلَةُ».

• ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥١):

المكر: تَدْبِيرُ أَمْرٍ ما فِي خَفَاءٍ، يَكُونُ فِي الْخَيْرِ، وَيَكُونُ فِي الشَّرِّ. أَمَّا مَكْرُ أَشْقِيَاءَ ثُمُودَ فَقَدْ كَانَ فِي الشَّرِّ، إِذْ دَبَّرُوا قَتْلَ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَهْلِهِ فِي خَفَاءٍ. وَأَمَّا مَكْرُ اللَّهِ فَقَدْ كَانَ فِي الْخَيْرِ، إِذْ أَحْبَطَ اللَّهُ بِمَكْرِهِ مَكْرَ أَشْقِيَاءِ ثُمُودَ، وَأَهْلَكَهُمْ عِقَابًا لَهُمْ، وَالْجَزَاءُ بِالْعَدْلِ هُوَ مِنَ الْخَيْرِ حَتْمًا.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَقْلَ عِلْمٍ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.



الفصل السادس

مَرَحَلَتُهُ إِنْذَارُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكُفَّارِ قَوْمِهِ

بِأَنَّ عَذَابَ اللَّهِ نَازِلٌ بِهِمْ

بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ

لَمَّا وَصَلَ كُفَّارُ ثُمُودِ غَايَةَ الْإِمْهَالِ الَّذِي قَضَتْ بِهِ حِكْمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَشَاءَتْ حِكْمَتُهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - أَنْ يُعْلِمَهُمْ بِمَوْعِدِ إِهْلَاكِهِمُ الْقَرِيبِ، أَوْحَى إِلَى رَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يُبَلِّغَهُمْ بِأَنْزَالِ الْعَذَابِ الْمُهِلِكِ لَهُمْ سَيَكُونُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَأَبْلَغَهُمْ رَسُولُهُمْ ذَلِكَ كَمَا أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (هُود/ ١١) مِصْحَف/ ٥٢

(نُزُول).

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَلْبًا وَالدِّينَ ءَامَنُوا مَعَهُ رِحِمَتٍ مِنَّا وَخِزْيِ يَوْمٍ إِذْ رَأَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الْعَزِيزَ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيًّا ﴿٦٧﴾ كَانُوا يَمْنُونَهَا فِيهَا... ﴿٦٨﴾﴾:

وقول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا ﴿٧٨﴾﴾:

وقول الله عز وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيبِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ... ﴿١٥٨﴾﴾:

وقول الله عز وجل في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِطَاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾:

وقول الله عز وجل في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧﴾ وَبَنَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿٨﴾﴾:

من سورة (هود):

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: فعقِبَ عَقْرِ «ثمود» ناقة الله، بِزَمَنِ غَيْرِ بَعِيدٍ، جَرَى فِيهِ تَذْيِيرُهُمْ قَتْلَ صَالِحٍ وَأَهْلِهِ، وَجَرَى فِيهِ إِهْلَاكُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَشْقِيَاءَ ثَمُودَ التَّسْعَةِ، قَالَ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ يَكُونُ أَنْزَالُ عَذَابِ اللَّهِ الْأَلِيمِ الْمُهِلِكَ الَّذِي يَسْتَأْصِلُكُمْ اسْتِصْلَاءً شَامِلًا.

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾: أي: انتَفِعُوا فِي دَارِكُمْ بِمَا فِيهَا مِنْ أَمْنٍ

وَرَخَاءٍ.

المتاع: كُلُّ شَيْءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ وَالْفَنَاءُ يَأْتِي عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا. أَمَّا النِّعِيمُ فَقَدْ خَصَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ بِمَا يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ يَوْمَ الَّذِينَ مِنْ لَدَاتٍ وَسَعَادَاتٍ، وَالدُّنْيَا لَا نَعِيمَ فِيهَا، وَإِنَّمَا فِيهَا تَمَتُّعٌ زَائِلٌ وَمَشُوبٌ بِالْمَنْغَصَاتِ.

﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾: أَي: ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا فَقَطْ، وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ بَدْءاً مِنْ أَوَّلِهِ يَنْتَهِي اسْتِمْتَاعُكُمْ، وَيَأْتِي وَقْتُ عَذَابِكُمْ.

﴿ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أَي: ذَٰلِكَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الْعَظِيمُ الَّذِي سَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مَعَ بَدْءِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَعَدٌ صَادِقٌ حَقًّا، جَاءَتْ الْإِشَارَةُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْمَشَارِ إِلَى الْبَعِيدِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى عِظَمِ الْعَذَابِ الْمَوْعُودِ بِهِ، وَشِدَّةِ إِيلَامِهِ لِلْمَعْذِينَ.

﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أَي: غَيْرُ مَوْعُودٍ وَعَدًا كَذِبًا، يُقَالُ لُغَةً: «مَا كَذَبَ الرَّسُولُ قَوْمَهُ وَعَدَهُ» فَوَعْدُهُ غَيْرُ مَكْذُوبٍ. وَيُقَالُ: «كَذَبَ إِبْلِيسُ آدَمَ حَدِيثَهُ» فَحَدِيثُهُ مَكْذُوبٌ.

فَلَا حَاجَةَ مَعَ هَذَا إِلَى تَقْدِيرِ مَعْمُولٍ مَحْذُوفٍ، كَأَنْ نَقُولَ: مَكْذُوبٌ فِيهِ.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: أَي: فَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ تَنْفِيزِ أَمْرِنَا الَّذِي قَضَيْنَاهُ، بِتَنْجِيَةِ صَالِحٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وَإِهْلَاكِ سَائِرِ ثَمُودَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ.

﴿فَجَبَّيْنَا صُلَحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحِمَةً مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُومِيذٍ﴾: النِّجَاةُ: الْخَلَاصُ مِنَ الْمَكْرُوهِ.

أَي: خَلَصْنَا الَّذِينَ قَضَيْنَا أَنْ نُخَلِّصَهُمْ مِنَ الْإِهْلَاكِ، وَهُمْ صَالِحٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بِوَسِيلَةٍ هِيَ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِنَا، وَخَلَصْنَاهُمْ مِنَ الْخِزْيِ الَّذِي نَزَلَ بِكُفَّارِ ثَمُودَ يَوْمَئِذٍ قَبْلَ إِمَاتَتِهِمْ، إِذْ سَبَقَ إِمَاتَتُهُمْ إِذْلَالُهُمْ وَإِسْقَاطُهُمْ عَلَى رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ خَزَايَا مُهَانِينَ مُحْتَقَرِينَ، وَتَعْذِيبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

الخزي: الوقوع في الشرّ والعذابِ والبَلَايا، والذُّلُّ والهوانُ، والافتضاحُ بالقبائح.

فَدَلَّ هذا البيانُ عَلَى أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَنْ يَتَّبِعَدَ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ عَنْ مَوَاقِعَ تَنْزُلِ الْعَذَابِ، قَبْلَ الْمَوْعِدِ الْمَحْدَدِ لِإِنزَالِهِ، وَأَنْهُمْ خَرَجُوا مِنْ أَرْضِ ثُمُودَ وَابْتَعَدُوا عَنْ مَوَاقِعَ تَنْزُلِ الْعَذَابِ كَمَا أَمَرَ اللهُ، وَأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَمَى بِرَحْمَتِهِ الْمَكَانَ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُصِيبَهُ شَيْءٌ مِمَّا نَزَلَ بِالْقَوْمِ الْمُعَذِّبِينَ الْمَهْلِكِينَ، فَلَمْ يَنْزِلْ بِهِمْ خِزْيٌ وَلَا إِهْلَاكٌ.

• ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿١١﴾: جَاءَ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ تَمْجِيدُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِقُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ.

﴿الْقَوِيُّ﴾: أي: ذو القوة العظيمة الكبرى، الَّتِي يَفْعَلُ بِهَا مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ مَهْمَا اخْتَجَّ الْأَمْرُ الَّذِي يَفْعَلُهُ مِنْ قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ.

﴿الْعَزِيزُ﴾: أي: ذو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ الْقَوَى.

وَأَرَى فِي هَذَا الْبَيَانِ عَقَبَ بَيَانِ تَنْجِيَةِ صَالِحٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ تَنْجِيَتَهُمْ قَدْ كَانَتْ ذَاتَ ظُرُوفٍ تَحْتَاجُ قُوَّةَ عَظِيمَةً وَعِزَّةً غَالِبَةً.

فَهَلْ نَجَّاهُمْ اللهُ مَعَ أَنَّ أَمْكِنَهُ وَجُودِهِمْ قَدْ كَانَتْ فِي مُحِيطِ تَنْزِلَاتٍ وَسَائِلِ تَعْذِيبٍ كُفَّارِ ثُمُودَ وَإِهْلَاكِهِمْ؟! اللهُ أَعْلَمُ.

• ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾: أي: وَقَبِضَتِ الصَّيْحَةُ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا وَهُمْ كُفَّارِ ثُمُودَ، قَبْضَةً تَعْذِيبٍ وَإِخْزَاءٍ وَإِهْلَاكِ مُسْتَأْصِلٍ. الصَّيْحَةُ: صَوْتُ عَظِيمٍ مُمِيتٍ.

اخْتِيرَتْ عبارة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ للأشعار بأنَّ ظَلَمَهُمْ قد كان هو السَّبَبُ في تَغْذِيهِمْ وإِخْرَاجِهِمْ وإِهْلَاكِهم.

• ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ ﴿١٧﴾:

﴿فَأَصْبَحُوا﴾: أي: فَدَخَلُوا في صَبَاحِ الْيَوْمِ الْمَقَرَّرِ لإِهْلَاكِهم فيه.

﴿جَنِينَ﴾: أي: لِاصْطِقِينَ بِالْأَرْضِ عَلَى رُكْبِهِمْ وَوُجُوهِهم، مُلَازِمِينَ أَمَكِنَتَهُمْ هَلَكَى، بَعْدَ أَنْ دَاقُوا عَذَاباً أَلِيماً وَخِزياً ذَلَّتْ بِهِ نَفُوسُهُمْ، وَنَالَهَا صَغَارٌ وَمَهَانَةٌ، جَزَاءَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ تَعَالٍ وَاسْتِكْبَارٍ عَلَى بَارِيهِمْ.

• ﴿كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾: أي: فَصَارَتْ حَالَتُهُمْ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا نَزَلَ، تُشْبِهُ حَالَةَ الَّذِينَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ إِقَامَةٌ مُطْلَقاً فِي دَارِهِمْ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِنْصَالِ وَجُودِ أَجْسَادِهِمِ الْهَلَكَى بَعْدَ ذَلِكَ، وَظَمْسِ كُلِّ آثَارِهَا.

يُقَالُ لغة: «غَنِيَ بِالْمَكَانِ يَغْنَى» أي: أَقَامَ فِيهِ. وَيُقَالُ: «غَنِيَ الْقَوْمُ بِالْمَكَانِ» أي: طَالَ مُقَامُهُمْ فِيهِ.

وَالْمَغْنَى: الْمَنْزِلُ الَّذِي غَنِيَ بِهِ أَهْلُهُ، وَجَمْعُهُ «مَغَانِي».

وَدَلَّ النَّصُّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) عَلَى أَنَّ الرَّجْفَةَ قَدْ أَخَذَتْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ ﴿٧٨﴾:

الرَّجْفَةُ: الزَّلْزَلَةُ. يُقَالُ لغة: رَجَفَتِ الْأَرْضُ تَرْجُفُ رَجْفاً، أي: حَصَلَتْ فِيهَا زَلْزَلَةٌ.

فَدَلَّ النَّصَّانِ عَلَى أَنَّ الصَّيْحَةَ فِي الْجَوْ قَدْ رَافَقَتْهَا زَلْزَلَةٌ فِي الْأَرْضِ، فَاجْتَمَعَ السَّبَبَانِ الْعَظِيمَانِ الْمُهْلِكَانِ.

وَدَلَّ النَّصُّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) عَلَى أَنَّهُمْ أَضْبَحُوا نَادِمِينَ حِينَ رَأَوْا بُوَادِرَ تَغْذِيهِمْ، وَأَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، قَدْ ذَاقُوا آلامَهُ قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿... فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ... ﴿١٥٨﴾﴾:

وَجَاءَ فِي النَّصِّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) ذِكْرُ الصَّيْحَةِ بِعُتْوَانِ «الطَّاغِيَةِ» فَقَالَ تَعَالَى فِيهَا:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاتَّبَعُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾: أَي: الَّتِي تَجَاوَزَتْ حُدُودَ الصَّيْحَاتِ الْمَعْتَادَاتِ الَّتِي لَا تُهْلِكُ، وَطَغَتْ حَتَّى صَارَتْ صَيْحَةً مُهْلِكَةً.

وَجَاءَ فِي النَّصِّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) ذِكْرُ الْوَسِيلَةِ الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ بِهَا ثَمُودَ بِاسْمِ الصَّاعِقَةِ، وَجَاءَ فِيهِ وَضْفُهَا بِأَنَّهَا صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ.

الصَّاعِقَةُ: النَّازِلَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا عَذَابٌ مُهْلِكٌ.

وَبِنِظَرَةٍ تَكَامُلِيَّةٍ إِلَى هَذِهِ النُّصُوصِ، نَفْهَمُ أَنَّهُمْ عَذَّبُوا، وَبَعْدَ تَغْذِيهِمْ أَهْلِكُوا، وَأَنَّهُمْ نَدِمُوا حِينَ رَأَوْا بُوَادِرَ تَغْذِيهِمْ، وَأَنَّ إِهْلَاكَهُمْ قَدْ كَانَ بِالصَّيْحَةِ الْمَضْحُوبَةِ بِالزَّلْزَلَةِ، وَأَنَّ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ حَدَّدَ لَهُمُ الْيَوْمَ الَّذِي تَنْزَلُ عَلَيْهِمْ مَعَ بَدَايَتِهِ وَسَائِلُ تَغْذِيهِمْ، وَأَنَّ إِهْلَاكَهُمْ يَكُونُ فِيهِ، وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ.

وَبِهَذَا الْجَمْعِ التَّكَامُلِيِّ ظَهَرَ لَنَا أَنَّ النُّصُوصَ الْقُرْآنِيَّةَ هَذِهِ لَا تَكَرَّرُ فِيهَا، إِلَّا مَا يَدْعُو ذِكْرُ الْقَضَايَا الْمُضَافَةِ إِلَى ذِكْرِهِ، وَإِلَّا مَا تَقْتَضِيهِ الْعِظَةُ التَّحْذِيرِيَّةُ الْعِلَاجِيَّةُ إِلَى ذِكْرِهِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.



الفصل السابع

ماذا فعل صالح عليه السَّلام بعد أن أَهْلَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قومه
وَنَجَّاهُ هو وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

لقد انْصَرَفَ صالح عليه السَّلام هو وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ عَنْ دِيَارِ ثَمُودَ
مُتَبَعِدِينَ، وَخَاطَبَهُمْ وَهُمْ هَالِكُونَ قَائِلًا لَهُمْ: لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي
وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ.

دلَّ على هذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩
نزول):

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقَوِرَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا
تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿فَتَوَلَّى﴾: أَي: أَذْبَرَ وَابْتَعَدَ.

والمعنى: فَانْصَرَفَ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلام عَنْ أَرْضِ ثَمُودَ،
مُهَاجِرًا بِالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ وَأَنْجَاهُمُ اللهُ مِنَ الْخِزْيِ وَالْإِهْلَاكِ، إِلَى
أَرْضٍ أُخْرَى يُقِيمُونَ فِيهَا.

وَدَلَّ الْعُطْفُ بِالْفَاءِ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّوَلَّى قَدْ كَانَ عَقِبَ إِهْلَاكِ كُفَّارِ
ثَمُودَ.

وعند توليه بمن معه مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، خَاطَبَ كُفَّارَ قَوْمِهِ وَهُمْ هَلَكَى
بعبارات ثلاث:

العبارة الأولى: ﴿يَنْقَوِرَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾:

أَي: أَذَيْتُ الْأَمَانَةَ الَّتِي كَلَّفَنِي رَبِّي أَنْ أَبْلَغَكُمْ إِيَّاهَا، وَقُمْتُ بِمَا
أَوْجَبَ اللهُ عَلَيَّ تَنْجَاهَكُمْ، لَمْ أَزِدْ عَلَى مَا أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أَبْلَغَكُمْ إِيَّاهُ شَيْئًا،
وَلَمْ أَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا.

لَمْ يَقُلْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ رِسَالَاتِ رَبِّي بِالْجَمْعِ، وَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الرِّسَالَةَ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَلَمْ يَجْعَلْهَا مُنْجَمَةً مُجَرَّأَةً، لِحِكْمَةٍ خَاصَّةٍ بِقَوْمِهِ.

بِخِلَافِ «نُوحٍ، وَهُودٍ، وَشُعَيْبٍ» عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَقَدْ جَاءَ فِي بَيَانَاتِ كُلِّ مِنْهُمْ أَنَّهُ قَدْ أُبْلَغَ قَوْمَهُ رِسَالَاتِ رَبِّهِ.

وَيُؤَكِّدُ هَذَا الْفَهْمُ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِمَعْنَى مَقَالَةٍ تُمَوِّدُ لَهُ:

﴿أَنلَيْكَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾﴾.

فَقَدْ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِالْقَاءِ الذِّكْرِ لَا بِأَنْزَالِهِ وَلَا بِتَنْزِيلِهِ، وَالْإِلْقَاءُ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ كَانَ بِأَسْلُوبِ الدُّفْعَةِ الْوَاحِدَةِ، لَا بِأَسْلُوبِ التَّنْزِيلِ الْمُنْجَمِ.

العبارة الثانية: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أَي: وَبَذَلْتُ مِنْ أَجْلِكُمْ كُلَّ مَا اسْتَطَعْتُ مِنْ نُصْحٍ، بِالْإِقْنَاعِ، وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ بِالترغيب والترهيب، وَالْمُجَادَلَةِ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، مَعَ الصَّبْرِ، وَسَعَةِ الصَّدْرِ، وَالْحِلْمِ، وَتَحَمُّلِ الْأَذَى.

يُقَالُ لُغَةً: «نَصَحَهُ، وَنَصَحَ لَهُ».

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ دَلَّ قَوْمَهُ عَلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ، وَأَنَّهُ رَغَبَهُمْ فِيهِ، وَأَخْلَصَ لَهُمْ بِتَقْدِيمِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْهُدَى خَالِصَةً مِنْ كُلِّ شَائِبَةٍ، وَكَانَ بَرِيئاً مِنْ أَيَّةِ مَصْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ لَهُ عِنْدَهُمْ، إِنَّمَا يَرْجُو أَجْرَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِ.

النُّصْحُ: هُوَ فِي اللُّغَةِ الْخُلُوصُ مِنَ الشَّوَائِبِ، يُقَالُ لُغَةً: «نَصَحَ الْمَعْدِنُ» أَي: خَلَصَ مِنَ الشَّوَائِبِ.

العبارة الثالثة: ﴿... وَلَكِنْ لَا تَحْتَوْنَ التَّصْحِيحَ﴾: أَي: وَلَكِنْ كُنْتُمْ

حَتَّىٰ نُزِلَ الْعَذَابُ فَالْهَلَاكُ بِكُمْ، لَا تُحِبُّونَ فِي الْحَالِ فِي الْاسْتِغْبَالِ
النَّاصِحِينَ لَكُمْ، الَّذِينَ تَرَوْنَ فِي نُصَحِهِمْ أَنَّهُمْ يُبْعِدُونَكُمْ عَنْ أَهْوَائِكُمْ،
وَشَهَوَاتِكُمْ، وَرَغَبَاتِكُمْ فِي الْفُجُورِ، مَعَ أَنَّهَا سَتَكُونُ أَسْبَابَ شَقَائِكُمْ،
وَسَخَطِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَأَنْتُمْ مُتَشَبِّهُونَ بِهَا، وَتَرَوْنَ فِي تَعَلُّقِكُمْ بِهَا سَعَادَاتِكُمْ.

وَيُشْعِرُ الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ فِي عِبَارَةِ: ﴿لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ
يُهْلِكْهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَاسْتَمَرُّوا بِأَقِينٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لاسْتَمَرُّوا عَلَى
هَذَا الْوَصْفِ لَا يُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ.

وخطابُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ بَعْدَ إِهْلَاكِ اللَّهِ لَهُمْ، نَظِيرُ خُطَابِ
الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِقَتْلَى الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، إِذْ وَقَفَ عَلَى الْقَلْبِيبِ^(١)
الَّذِي أَلْفَاهُمْ فِيهِ فَقَالَ:

«يَا أَهْلَ الْقَلْبِيبِ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا
وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا».

فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُكَلِّمُ قَوْمًا مَوْتَى؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ: «لَقَدْ سَمِعُوا مَا قُلْتَ لَهُمْ»^(٢).

الفصل الثامن

التعقيب الزباني عَلَى إِهْلَاكِ كُفَّارِ ثَمُودَ

(١) جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٣ نزول) قول الله عَزَّ وَجَلَّ
بشأن كُفَّارِ ثَمُودَ:

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾

(١) القلبيب: البئر.

(٢) انظر سيرة ابن هشام. ج ١ ص ٦٣٩.

﴿أَلَا﴾ أَدَاةُ اسْتِفْتَا حِ وَتَنْبِيهِ.

﴿إِنَّ نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾: أي: كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، جاحِدِينَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِبَادَتِهِ وَخُدَّه لَا شَرِيكَ لَهُ.

﴿أَلَا بَعْدًا لِنَمُودَ﴾: أُعِيدَتْ أَدَاةُ ﴿أَلَا﴾ لتوكيد التنبيه على ما يُذَكَّرُ بَعْدَهَا، لِأَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي التَّوَجُّيَةَ بِشِدَّةٍ لِتَخْصِيصِهِ بِمَزِيدٍ مِنَ الْعِنَايَةِ.

والمعنى: أَلَا طَرْدًا لِكُفَّارِ نَمُودَ، مِنْ مَوَاقِعِ نُزُولِ آثَارِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّهُمْ أَبْعَدُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ مَوَاقِعِ تَنْزِلَاتِ رَحْمَاتِ الرَّحْمَنِ، فَاسْتَحَقُّوا الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ بِالْإِبْعَادِ وَالطَّرْدِ. وَنُصِبَ لَفْظُ «بَعْدًا» عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلِ مَحْذُوفٍ.

(٢) وَجَاءَ فِي سُورَةِ (النَّمْل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ أَشْقَاءِ نَمُودِ التَّسْعَةِ، خُطَابًا لِكُلِّ مُتَلَقِّ صَالِحٍ لِلخُطَابِ، بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِيِّ.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ﴾: ﴿٥١﴾

• ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: أي: فَانظُرْ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي الْمَسْتَعِدُّ لِلاتِّعَازِ مُتَفَكِّرًا، الْحَالَةَ الَّتِي وَجَدْتَ عَلَيْهَا عَاقِبَةُ مَكْرِ أَشْقِيَاءِ نَمُودَ، وَعَاقِبَةُ سَائِرِ كُفَّارِهِمُ الَّذِينَ طَعَنُوا وَبَعَوْا.

• ﴿أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾: الْمَضَدُّ الْمُؤَوَّلُ مِنْ «أَنَّ» وَمَا بَعْدَهَا بَدَلٌ مِنْ: ﴿عَاقِبَةُ﴾: أي: فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ تَدْمِيرُنَا الْأَشْقِيَاءَ التَّسْعَةَ وَكُفَّارَ قَوْمِهِمْ أَجْمَعِينَ.

العاقبة: الجزاء الذي يكون بعد عمل العامل.

التدمير: هو الإهلاك مع إبادة المهلك، وهذا يكون مصحوباً غالباً بتعذيب شديد.

يقال لغة: «دمر الله القوم تدميراً، ودمر عليهم»: أي: أهلكهم. ويقال: «دمر الله القرية ودمر عليها»: أي: أبادها وجعلها دَارِسَةً.

وعلى قراءة ﴿إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ﴾ بكسر هَمْزَةٍ «إِنَّ» تكون الجملة مُسْتَأْنَفَةً، جواباً لسؤال مطويّ تقديره: كيف كانت عاقبة مكرهم؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

والقراءتان مِنَ التَّفَنُّنِ في التعبير، ومؤداهما واحد.

• ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَأَنبِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾:

أي: فتلك بُيُوتُهُمُ الباقية من آثارهم في مدين صالح، حالة كونها خالية منهم ومن أي ساكن من الناس بسبب ظلمهم:

﴿خَاوِيَةٌ﴾: أي: خالية من الساكنين. يقال لغة: «خوى المكان ونحوه يخوي، خيًّا، وخواء، وخوى، وخويًّا» أي: خلا، والكلمة منصوبة على أنها حال، والعامل فيه، ما في اسم الإشارة من معنى «أشير».

إِنَّ آثارَهُمْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا، دَمَرَهُمْ فِيهِ تَدْمِيرًا، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ.

إِنَّ هَذِهِ الْأَثَارَ لَعَلَامَةٌ جَلِيَّةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحُكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ قَدْ يُعَاقِبُ فِي الدُّنْيَا الْكَافِرِينَ الطَّاغِينَ الْمَجْرِمِينَ، لِتَظْهِيرِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ، وَلِيَكُونُوا عِبْرَةً لِّلْمُتَعَبِّرِينَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾: أي: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعَلَامَةً وَاضِحَةً عَلَى عَدْلِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ،

مُوجَّهَةً لِقَوْمٍ هُمْ مُسْتَعِدُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا مَجَارِيَ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، وَحِكْمَتَهُ فِي تَصَاريفِهِ، فَإِذَا عَلِمُوا مِنْهَا شَيْئاً كَانَ عِلْمُهُمْ دَافِعاً لَهُمْ إِلَى الْإِتِّمَاعِ بِطَاعَتِهِ، اغْتِقَاداً وَعَمَلًا.

• ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٢): أي: وَخَلَصْنَا

من العذاب والإهلاك التدميريِّ صالِحاً عَلَيْهِ السَّلَام، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ لِإِيمَانِهِمْ تَأْثِيرٌ مَا فِي سُلُوكِهِمْ، إِذْ كَانُوا يَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ عَلَى الْمَعَاصِي، بِفِعْلِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ أَمْرٌ إِبْجَابٍ وَإِزَامٍ، وَبِتَرْكِ مَا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ نَهْيٍ تَحْرِيمٍ وَحَظَرٍ.

﴿يَتَّقُونَ﴾: أي: يَجْعَلُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَضُرُّهُمْ وَيَسُوؤُهُمْ وَقَايَةً،

وَالْوَقَايَةُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، تَكُونُ بِصِدْقِ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِمَا أُوجِبَ الْإِيمَانُ بِهِ مِنْ صِحَّةِ هَذَا الْإِيمَانِ، وَبِطَاعَتِهِ مَعَ الْإِخْلَاصِ لَهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ الصَّحِيحَاتِ.

(٣) وجاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قول الله عزَّ

وَجَلَّ تَعْقِيماً عَلَى إِهْلَاكِ كُفَّارِ ثَمُودَ:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ (٢٠) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ

الْخَضِرِ﴾ (٢١):

• ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ (٢٠)؟! حُذِفَتْ مِنْ كَلِمَةِ «نُذْرٍ» يَاءُ

الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ.

أي: فَعَلَى آيَةٍ حَالٍ كَانَ عَذَابِي لِكُفَّارِ ثَمُودَ؟! وَعَلَى آيَةٍ حَالٍ كَانَتْ

نُذْرِي لِكُفَّارِ ثَمُودَ؟!

نُذْرِي: أي: إِنْذَارَاتِي الَّتِي بَلَّغَهُمْ بِهَا رَسُولِي صَالِح.

الْإِنْذَارُ: الْإِعْلَامُ وَالْإِخْبَارُ بِعَوَاقِبِ غَيْرِ سَارَةٍ.

في هذه العبارة استيفهاً يَنْتَزِعَ الجوابَ انتزاعاً مِنْ كُلِّ ذِي فِكْرٍ عَادِيٍّ يَفْهَمُ المسائلَ السَّهْلَةَ، دُونَ حَاجَةٍ إِلَى رَوِيَّةٍ وَتَأْمُلٍ، فيقول:

(١) لَقَدْ كَانَ الْعَذَابُ عَذَاباً شَدِيداً مُخِيفاً، يُثِيرُ الرَّهَبَ وَالِاتِّعَازَ وَالْأَذْكَارَ.

(٢) وَلَقَدْ كَانَتِ النَّذُرُ الَّتِي أَنْذَرَ اللَّهُ بِهَا قَوْمَ ثَمُودَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِمْ نُذْراً صَادِقَةً، حَقَّقَ الْوَاقِعَ الثَّابِتُ فِي التَّارِيخِ مَا جَاءَ فِيهَا بِلا نُقْصَانٍ.

• ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾ ﴿٣١﴾:

﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾: أي: صَوْتاً عَظِيماً وَاحِداً، كَافِياً لِلْإِهْلَاكِ الْإِبَادَةِ:

﴿فَكَانُوا﴾: أي: فَصَارَ كُفَّارُ ثَمُودَ بِتَأْثِيرِ الصَّيْحَةِ الْوَاحِدَةِ.

﴿كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ﴾: الْهَشِيمُ فِي اللَّغَةِ: يَأْتِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى عِدَّةٍ مَعَانٍ:

(١) يَأْتِي بِمَعْنَى الْمَهْشُومِ الْمَتَكَسِّرِ مِنَ النَّبَاتَاتِ وَالْأَشْجَارِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ.

(٢) وَيَأْتِي بِمَعْنَى الشَّجَرَةِ الْبَالِيَةِ الَّتِي يَأْخُذُهَا الْحَاطِبُ كَيْفَ يَشَاءُ.

(٣) وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْيَابِسِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا سِيَّما الْأَشْجَارَ وَالنَّبَاتَاتِ.

﴿الْحُمْطِرِ﴾: هُوَ الَّذِي يُرِيدُ صُنْعَ حَظِيرَةٍ لِمَاشِيَّتِهِ، فَيَجْمَعُ أَعْوَاداً وَأَشْجَاراً يَابِسَةً قَدِيمَةً، وَأَشْوَكَاً مِنَ الْهَشِيمِ، وَيَجْعَلُهَا أَكْوَاماً، لِيُقِيمَ مِنْهَا السِّيَاحَ حَوْلَ حَظِيرَتِهِ.

شَبَّهَ اللَّهُ هَالِكِي ثَمُودَ عَقِبَ إِهْلَاكِهِمْ بِأَكْوَامٍ مِنَ الْهَشِيمِ يَجْمَعُهَا مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَصْنَعَ حَظِيرَةً لِأَنْعَامِهِ أَوْ دَوَابِّهِ، وَلِيَجْعَلَ مِنْهَا سِيَاحاً حَوْلَ حَظِيرَتِهِ.



الفصل التاسع

توجيه العظة للذين يكفرون برسالة محمد ﷺ

بما أنزل الله بكفار ثمود

كلُّ النُّصوص الَّتِي جاءَ فيها طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ ثُمُودَ، قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى توجِيهِ العِظَةِ لِلنَّاسِ جَمِيعاً بَعْدَ بَعَثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِأَنَّهُمْ عُرِضُوا لِعِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الدِّينِ، إِذَا صَارَتْ أَحْوَالُهُمْ مِثْلَ أَحْوَالِ مُجْرِمِي ثُمُودَ.

وَيَبْرُزُ توجِيهُُ هَذِهِ العِظَةِ فِي النُّصوصِ الْمُخْتَزَلَةِ الْقَصِيرَةِ، الَّتِي جَاءَتْ فِي السُّورِ التَّالِيَةِ: (الفجر - النجم - الشمس - البروج - ق - ص - الفرقان - الذَّارِيَات - الحاقة - العنكبوت - الحج - التوبة).

وَبَعْضُ قِصَارِ النُّصوصِ قَدْ جَاءَتْ حِكَايَةً لِمَا قَالَهُ الْوَاعِظُونَ مِنَ النَّاسِ لِأَقْوَامِهِمْ.

وَبِهَذَا تَمَّ تَدَبُّرُ مَا جَاءَ فِي هَذَا الْمُلْحَقِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَعُونَتِهِ وَفَتْحِهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَأَسْأَلُهُ الْمَزِيدَ مِنْ مَدَدِهِ وَفَتْحِهِ وَمَعُونَتِهِ.



سورة القصص

٢٨ مصحف ٤٩ نزول
وهي سورة مكية إلا:

• الآيات من (٥٢ - ٥٥) فهي مدنية
• والآية (٨٥) نزلت في الحجة أثناء الهجرة إلى المدينة

(١)

نص السورة وما فيها من قرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسّم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقَطْعُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾

١ - سكت أبو جعفر سكتة لطيفة بغير تنفس على: «طا» و«سين» و«ميم».

٦ - قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وَيُرَى فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا].
وقراها باقي القراء العشرة: [وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا] وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، أي: يُرِيهِمُ اللَّهُ فَهُمْ يَرَوْنَ.٨ - قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وَحَزَنًا] بضم الحاء وإسكان الزاي.
وقراها باقي القراء العشرة: [وَحَزَنًا].

والقراءتان وجهان عربيان متكافئان في المعنى.

٨ - قرأ أبو جعفر: [خَاطِئِينَ] وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وَقَالَتْ أُمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ
يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ قُودُ
أُمِّ مُوسَىٰ فِرْعَاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا
عَلَىٰ قَلْبِهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ
فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَمْنَا
عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ
يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ
أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ
وَأَسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾
وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ
يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ
شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكُمُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَتَعَمْتُ عَلَىٰ فُلَانٍ أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [خَاطِئِينَ] بإثبات الهمزة.

٩ - • لفظ [قُرْتُ] وقف عليه ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ويُغُوب بالهاء: قُرَّة.

ووقف عليها باقي القراء العشرة بالتاء: قُرْتُ.

﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَّا يَا تَمِرونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنْ لَكَ مِنَ التَّصْحِيحِ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى

١٩ • قرأ أبو جعفر: [يَبْطِشُ] بضم الطاء.

وقراها باقي القراء العشرة: [يَبْطِشُ] بكسر الطاء. وهما لغتان عربيان في نطق الكلمة.

٢٢ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّي أَنْ] بفتح ياء المتكلم. وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان [رَبِّي أَنْ].

وهما وجهان عربيان.

٢٣ • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ] بكسر ميم [دونهم] في الوصل. وقراها باقي القراء العشرة، بضم هذه الميم في الوصل.

٢٣ • قرأ أبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: [يُصْدِرُ] من فعل: صَدَرَ يُصْدِرُ، أي: انصَرَفَ وقراها باقي القراء العشرة: [يُصْدِرُ] مِنْ فِعْلٍ «أُضْدِرُهُ» يقال لغة «صَدَرَ الرِّعَاءُ» أي: انصرفوا، وأُضْدِرَ الرِّعَاءُ دَوَابَّهُمْ أي: سَقَوْهَا وَصَرَفُوهَا. ومؤدَّى القراءتين واحد، وفيهما تفتن.

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبْأَبُ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا

٢٦ - • قرأ ابنُ عامر، وأبو جعفر: [يَا أَبُتْ] بفتح التاء. وقرأ باقي القراء العشرة بكسرهما. وهما وجهان عربيان.

ووقف بالهاء ابن كثير، وابنُ عامر، وأبو جعفر، ويعقوب.

٢٧ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِنِّي أُرِيدُ] بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٢٧ - • شدد ابن كثير نون [هَاتَيْنِ] ولم يشدّها باقي القراء العشرة.

٢٧ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [سَتَجِدُنِي] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٢٩ - • قرأ حمزة: [لِأَهْلِهِ امْكُثُوا] بضَمِّ هاء الضمير. وقرأها باقي القراء العشرة بكسر هذه الهاء. وهما وجهان عربيان في النطق.

إِنِّي أَنفَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ
مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ
 مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ
يَمُوسَىٰ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ
 فَلَمَّا رَآهَا تُتَلَفُظ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَىٰ
 أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي
 جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَبْتَظِرَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَىٰكَ جَنَاحَكَ مِنْ
الرَّهْبِ فَذَنَبَكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ

٢٩ و ٣٠ و ٣٤ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، بفتح ياء المتكلم
 في: [إِنِّي أَنفَسْتُ] و[لَّعَلِّي آتِيكُم] و[إِنِّي أَنَا] و[إِنِّي أَخَافُ].

وقرأ ابن عامر: [لَّعَلِّي آتِيكُم] بفتح ياء المتكلم في هذه دون الثلاثة الأخرى.
 وقرأها كلها باقي القراء العشرة: [كَانَ].

٢٩ - • قرأ عاصم: [جَذْوَةٍ] بفتح الجيم.
 وقرأها حمزة، وخلف [جَذْوَةٍ] بضم الجيم.
 وقرأها باقي القراء العشرة [جَذْوَةٍ] بكسر الجيم.
 وهي لغات عربية متكافئة.

٣٢ - • قرأ ابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي وخلف: [مِنَ الرَّهْبِ] بضم الراء
 وإسكان الهاء.

وقرأها حفص: [مِنَ الرَّهْبِ] بفتح الراء وإسكان الهاء.
 وقرأها باقي القراء العشرة: من [الرَّهْبِ] بفتح الراء والهاء. وهي لغات
 عربية.

٣٢ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورؤيس: [فَذَنَبَكَ] بتشديد النون، مع المد المشيع.
 وقرأها باقي القراء العشرة: [فَذَنَبَكَ].

نَفْسًا فَآخَأُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْشِئُ عَصْداكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْمَا وَمِنْ أَتْبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيٰتِنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي ءَابَايِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٰ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدًى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا

- ٣٣ - • قرأ يعقوب: [أَنْ يَقْتُلُونِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقراها باقي القراء العشرة [أَنْ يَقْتُلُونِ] بحذف ياء المتكلم.
- ٣٤ - • قرأ حفص: [مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي]. وقراها نافع: [مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي].
وقراها شعبة وخمزة: [مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي] ووقف حمزة بنقل حركة الهمزة إلى الدال مع حذف الهمزة. وقراها أبو جعفر: [مَعِيَ رِدَا يُصَدِّقُنِي] مع إبدال التنوين ألفاً في الوصل والوقف. ~~وقراها باقي القراء العشرة: [مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي]~~ وكلها وجوه جائزة.
- ٣٤ - • أثبت ياء المتكلم في [يُكَذِّبُونِي] ورش في الوصل ويعقوب مطلقاً. وحذفها باقي القراء العشرة.
- ٣٧ - • قرأ ابن كثير: [قَالَ مُوسَى] بدون حَرْف عطف.
وقراها باقي القراء العشرة: [وَقَالَ مُوسَى] بإثبات حرف العطف الواو. الفصل والوصل وجهان بلاغيان متكافئان هنا.
- ٣٧ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّي أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلم. وقراها الباقون بإسكانها.
- ٣٧ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وَمَنْ يَكُونُ] بالياء.
وقراها باقي القراء العشرة: [وَمَنْ تَكُونُ] بالتاء.
- وهما وجهان عربيان متكافئان، لأن اسم «تكون» مجازيُّ التانيث، إذ هو عاقبة.

أَمَلًا مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ
 عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى
 وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾
 فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ
 كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ
 إِلَى الْتِكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي
 هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾
 وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ
 الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾
 وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ
 مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَشْنَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ

٣٨ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو وابن عامر، وأبو جعفر [لَعَلِّي أَطْلُعُ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٣٩ - • قرأ نافع، وحزمة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [لَا يُرْجَعُونَ] بالميمي للمعلوم، وقرأها باقي القراء العشرة: [لَا يُزْجَعُونَ] بالميمي لما لَمْ يُسَمَّ فاعله. وَبَيَّنَّ القراءَتَيْنِ تكاملاً في الأداء البياني، أي: وَظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُرْجِعُهُمْ، فَهُمْ لَا يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ بِحَسَبِ ظَنِّهِمْ.

٤٥ - • قرأ أبو عمرو [عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ] بكسر هاء وميم «عليهم».

وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف ويعقوب: [عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ] بضم هاء وميم «عليهم».

وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتَهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

= وقرأها باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمُ الْعُمْرُ] بِكسر الهاء وضم الميم من «عليهم».

ومعلوم أن كسر الميم أو ضمها إنما يكونان في الوصل.

٤٨ - • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف، [سِحْرَانِ]. وقرأها باقي القراء العشرة [سَاحِرَانِ].

قراءة «سِحْرَانِ» دَلَّتْ على ما جَاءَ به، وأنه من قبيل السحر. وقراءة «سَاحِرَانِ» دَلَّتْ على وضمفهما فيما جاء به. فهما متكاملتان في الأداء البياني.

يَذْكُرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ ءَايَتْنَاهُمْ اَلْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَاِذَا يُنْزِلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ؕ اِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّنَا
اِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ اُولٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ اَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا
صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾
وَإِذَا سَمِعُوا اَلْغَوَّ اَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا اَعْمَلُنَا وَلَكُمْ
اَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ اَلْجَهْلِيْنَ ﴿٥٥﴾ اِنَّكَ لَا تَهْدِي
مَنْ اٰحَبَبْتَ وَلٰكِنَّ اَللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ وَهُوَ اَعْلَمُ بِاَلْمُهْتَدِيْنَ
﴿٥٦﴾ وَقَالُوا اِنْ تَتَّبِعِ اَلْهُدٰى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ اَرْضِنَا اَوْ لَمْ
نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبٰى اِلَيْهِ نَمُرْتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ
لَّدُنَّا وَلٰكِنَّ اَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ اَهْلَكْنَا مِنْ
قَرَبٍ مَّ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَاِنَّكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكِنْ مِنْ
بَعْدِهِمْ اِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ اَلْوَارِثِيْنَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ اَلْقُرٰى حَتّٰى يَبْعَثَ فِيْ اُمَمٍ رَّسُوْلًا يَنْتَلُوْا عَلَيْهِمْ ءَايٰتِنَا
وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي اَلْقُرٰى اِلَّا وَاَهْلُهَا ظٰلِمُوْنَ ﴿٥٩﴾

٥٧ - • قرأ نافع، وأبو جعفر، ورؤيس: [تُجْبَى] بالتاء. وقرأها باقي القراء
العشرة: [يُجْبَى] بالياء.

وهما وجهان عربيان جائزان، لأن نائب الفاعل مجازي التانيث، وهو
[نَمَرَات].

٥٩ - • قرأ حمزة، والكسائي: [فِيْ اُمَمٍ] بكسر الهمزة وصلًا. وقرأها باقي القراء
العشرة بضم الهمزة.
والجميع يَنْتَلُوْنَ بِضَم الهمزة.

وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَنَعُوا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ
 اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا
 فَهُوَ لَعِينٌ كَمَا مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ
 كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
 الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا
 يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
 وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
 مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ
 فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
 فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

٦٠ - • قرأ أبو عمرو: [يَعْقِلُونَ] بياء الغائبين.

وقراها باقي القراء العشرة: [تَعْقِلُونَ] بقاء المخاطبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٦١ - • قرأ قالون، والكسائي، وأبو جعفر: [ثُمَّ هُوَ] بإسكان الهاء.

وقراها باقي القراء العشرة: [ثُمَّ هُوَ] بضم الهاء، والقراءتان وجهان من النطق
 في العربية.

٦٢ و ٦٥ - • قرأ يَعْقُوبُ [يُنَادِيهِمْ] بضم هاء الضمير في الآيتين.

وقراها باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير فيهما.

٦٣ و ٦٦ - • قرأ أبو عمرو: [عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ] و[عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ] وقرأهما حمزة،

والكسائي، وخلف، ويعقوب: [عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ] و[عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ].

وقراها باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ] و[عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ]. وهي وجوه

جائزة في اللسان العربي.

وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْחَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّتِلَّ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تُشْكُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّتِلَّ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٥﴾ إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ

٧٠ - • قرأ يعقوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [تَرْجِعُونَ] بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، إذ يُرجعُهُمُ الله إِلَيْهِ، فهم يَرْجِعُونَ مُطَاوِعِينَ بالجبر الرباني.

٧١ - • قرأ قُنبَل: [بُضَيَّاءٍ] بالهمزة بدل الباء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [بُضَيَّاءٍ].

وهما وجهان في النطق جائزان، إِلَّا أَنَّ قِراءة جمهور القراء العشرة أَلْيُ في النطق.

مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ لَنُتَوَّأَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَبُ اللَّهِ قَدَ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلَهُ إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ

٧٨ - • قرأ نافع، وقنبل، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عِنْدِي أَوْ لَمْ] بفتح ياء المتكلم.

وقراها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٧٨ - • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ] بكسر الهاء والميم من «ذُنُوبِهِم» وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف: [ذُنُوبُهُمُ الْمُجْرِمُونَ] بضم الهاء والميم من «ذُنُوبِهِم».

وقراها باقي القراء العشرة: [ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ] بكسر الهاء وضم الميم.

٨١ - • قرأ أبو جعفر: [مِنْ فِئَةٍ] بالياء بَدَلُ الهمزة.

الْمُنْصَرِفِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ
وَيَكَانَ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا
أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾
تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا
فَسَادًا وَالْعِيقَةَ لِلْمُنْقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى
مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ
رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ
اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الشَّارِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

= وقرأها باقي القراء العشرة: [مِنْ فَتْحٍ] بالهمزة. وهما وجهان من النطق في العربية.

٨٢ - • قرأ حفص، ويعقوب: [لَخَسَفَ بِنَا]: أي: لَخَسَفَ اللَّهُ بِنَا. وقرأها باقي القراء العشرة: [لَخَسَفَ بِنَا] في البناء لما لم يُسَمَّ فاعله، ومعلوم أن الله عز وجل هو الذي يخسف بهم إن شاء.

٨٥ - • قرأ نافع، وأبْنُ كَثِير، وأبو عَمْرٍو، وأبو جَعْفَر: [رَبِّي أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة: [رَبِّي أَعْلَمُ] بإسكان ياء المتكلم.

٨٨ - • وقرأ يعقوب: [تُرْجَعُونَ] وقرأها باقي القراء العشرة: [تُرْجَعُونَ] بالمبني لما لم يُسَمَّ فاعله.

وسبق نظيرهما قريباً في الآية (٧٠).

(٢)

موضوع سورة (القصص)

(١) تشتمل هذه السورة على متابعة معالجة الكبراء المعاندين الجاحدين من مشركي قريش إبان نزول السورة، ويُلْحَقُ بهم أتباعهم، وهذِهِ المتابعة مَبْنِيَّةٌ على ما سَبَقَ أَنْ نَزَلَ من قرآن قبل هذه السورة، ولا سيما:

• ما جاء في سورة (طه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول) وعلى الخصوص ما جاء فيها من قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه، وكيف نصرَ الله في آخِرِ الأمرِ أوليائه، وأَهْلَكَ الكفرة المعاندين المجرمين.

• وما جاء في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) وعلى الخصوص ما جاء فيها من إضافات في لقطات بشأن موسى وهارون مع فرعون وقومه، وكيف نصرَ الله أوليائه، وأَهْلَكَ أعداءه المجرمين.

• وما جاء في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) وعلى الخصوص ما جاء فيها من إضافات في لقطات بشأن موسى وهارون مع فرعون وقومه - وكيف كان عاقبة المفسدين، وما جاء فيها من انتصار الحق على الباطل في قصة سليمان، وإهلاك كفار ثمود، وإهلاك قوم لوط. وما جاء فيها من تعليم جدلي للرسول ولكل داعٍ إلى الله من أُمَّتِهِ.

(٢) وتشتمل هذه السورة على متَابَعَةٍ تَرْبِيَّةٍ لِرَسُولِهِ، وتعليمه، وبشارته بأنَّ الله نَاصِرُهُ، وَيُلْحَقُ به الدُّعَاةُ إلى الله من أُمَّتِهِ، ثُمَّ سَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ.

وَمُعَالَجَةُ الْكَافِرِينَ تَعْتَمِدُ هُنَا عَلَى التَّرْهيبِ بِضَرْبِ أَمْثَلَةٍ مِنَ الْمُهْلِكِينَ الْأَوَّلِينَ، فَعَلَى الْإِقْنَاعِ، فَعَلَى التَّرْغِيبِ.



(٣)

دروس السورة

تتضمن سورة (القصص) على سبعة دروس فيما ظهر لي:

الدرس الأول: (الآية ٢).

هو آية واحدة فيها تمجيد القرآن بعد آية الحروف المقطعة ﴿طسّر﴾ ﴿١﴾ وهي آية: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢﴾.

الدرس الثاني: (الآيات من ٣ - ٤٣).

اشتمل هذا الدرس على لقطات مضافات إلى ما سبق تنزيله بشأن قصة موسى وهارون عليهما السلام، مع فرعون وملئه وجنودهما، وفي آخرها الموعظة بالتحذير من مثل العاقبة التي كانت لفرعون وآله وملئه وجنودها، ومن شأن هذا التحذير الدوائبي، أن يُكرّر في القرآن، فيأتي مع عرض قصص المهلكين الأولين، في آخر القصة أو في بدنها، وربما في أثنائها.

الدرس الثالث: (الآيات من ٤٤ - ٧٠).

يشتمل على بيان يخاطب الله عز وجل به رسوله ﷺ، بشأن المعلومات التي أنزلها عليه مما يتعلّق بقصة موسى عليه السلام، وهذه التفاصيل التي بيّنها له ما كان للرسول ﷺ أن يعلمها لولا أن أنزلها الله عليه.

والغرض إسماع أئمة المشركين في مكة يومئذ، وإسماع أتباعهم، بأن المعلومات التي جاءت في القرآن من قصة موسى عليه السلام، ما كان للرسول محمد أن يعلمها، لولا أن أعلمه الله رب العالمين بها، وأنزل بها قرآنًا يثلى عليهم وعلى أهل الكتاب، وفيها حجة على علماء اليهود الذين يخفون هذه المعلومات، ويجعلونها خاصة بحاخاماتهم الكبار.

وهذا البيان مع ما فيه من موعظةٍ تحذيريةٍ لكِبَرَاءِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وأتباعهم، فقد جاء توطئةٌ لمعالجاتٍ أخرى إقناعيةً، جاءت مضافات لما سَبَقَ في نجوم التنزيل من معالجات، وهي ملائمت للمواقف التي كانوا عليها إِيَّانَ تنزيلِ السَّوْرَةِ، وصالحات لأنَّ يَسْتَفِيدَ الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ مِنْهَا فِي كُلِّ عَصْرِ، وَفِي كُلِّ قَوْمٍ، أَفْرَاداً وَجَمَاعَاتٍ.

الدرس الرابع: (الآيات من ٧١ - ٧٥).

دُرْسٌ فِيهِ تَعْلِيمٌ جَدَلِيٌّ لِلرُّسُولِ ﷺ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، حَوْلَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ عَقْلاً تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ.

وفيه عَرَضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَتَضَمَّنُ سَوَالَ الْمُشْرِكِينَ عَنْ شُرَكَائِهِمْ، وَيَتَضَمَّنُ إِحْضَارَ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ عَلَى الْكَافِرِينَ.

الدرس الخامس: (الآيات من ٧٦ - ٨٢).

وهو درس يتضمَّن معالِجَةً ذَوِي الْجَاهِ وَالْمَالِ الْكَثِيرِ، مِنْ مُعَانِدِي مُشْرِكِي مَكَّةَ، بِضَرْبِ مَثَلٍ تَارِيخِيٍّ، وَهُوَ قَارُونَ فِي عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي جَاءَ فِي السَّوْرَةِ حَدِيثٌ مَطْوَلٌ عَنْهُ، وَعَنْ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ وَجُنُودِهِمْ، إِذْ كَانَ قَارُونُ إِسْرَائِيلِيًّا مِنْ قَوْمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَنْصَارِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ، وَكَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ جَدًّا، وَذَا جَاهٍ عَرِيضٍ فِي مِصْرَ، بِتَأْيِيدٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ، لِيُمْكِّنَ بِهِ اسْتِعْبَادَهُ لِلْإِسْرَائِيلِيِّينَ.

فَاسْتَكْبَرَ قَارُونُ وَبَغَى، وَنَصَرَ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ، وَصَارَ يَفْتَخِرُ وَيَتَبَاهَى بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَحَسَفَ اللَّهُ بِهِ وَبَدَّارَهُ الْأَرْضَ، فَكَانَ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ.

الدرس السادس: (الآيات ٨٣ و٨٤).

وهو درس فيه بيانٌ مُرتَبِّطٌ بِقِصَّةِ قَارُونَ، وَقِصَّةِ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ

وجنودهم، عن مستحقّي جنّاتِ التّعيم يوم الدين، وهم الَّذِينَ لا يُريدُونَ
عُلُوءاً في الْأَرْضِ، ولا يُريدون فساداً.

وفيه بيانٌ إجماليّ عن جزاء الآخِرةِ بالثواب أو بالعقاب.

الدرس السابع: (الآيات من ٨٥ - ٨٨ آخر السورة).

درس فيه بُشْرَى للرَّسُول ﷺ بِالْعُودَةِ إِلَى مَكَّةَ فَاتِحاً، وفيه وصايا
تَرْبِوِيَّةٌ للرَّسُول، وهَذِهِ الوصايا يَسْتَفِيدُ منها الدعاة إلى الله عزّ وجلّ من
أُمَّتِهِ، في مَسِيرَاتِهِم الدَّعَوِيَّة.



(٤)

التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (القصص) الآيتان (١ و ٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿طَسَمَ ۖ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝﴾

• ﴿طَسَمَ ۖ﴾: تُقرأ: «طا - سين - مين» دُونَ سَكْتٍ. وسكت
أبو جعفر سَكْتَةً لطيفةً بغير تنفّسٍ عَقِبَ كُلِّ حَرْفٍ منها.

وقد سبق بيان ما يكفّي في أوّل سُورَةِ (القلم) بشأن الحروف
المقطّعةِ الموجودةِ في أوائلِ بَعْضِ السُّور.

• ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝﴾ اسْمُ الإشارةِ في [تِلْكَ] مبتدأ.
﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ خبر المبتدأ.

أي: أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لهذا الخطابِ الرَّبَّانِي، تِلْكَ الْعَظِيمَاتُ السَّامِيَّاتُ
الْمَنْزَلَاتُ عَلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ أَنَا فَأَنَا آيَاتُ الْكِتَابِ الرَّبَّانِي الْمُبِينِ، الَّذِي

جَعَلَهُ اللهُ كِتَابَ رِسَالَتِهِ الْخَاتِمَةِ، الْمُضْطَفَّاةِ لَخَاتِمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

جاءت هذه الآية بمثابة مفتاح للدُّخول إلى ما جاء في السُّورة من بيانات، وهي آية تُنبئ على أن آيات القرآن آياتٌ مَجِيدَاتٌ، فهي رَفِيعَاتُ الْمُنْزَلَةِ فِي سَمَاوَاتِ الْعِلْمِ، وَالْحَقِّ، وَالْحِكْمَةِ، وَالْهِدَايَةِ إِلَى خَيْرِ النَّاسِ وَسَعَادَتِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ. دَلَّ عَلَى هَذَا اسْمُ الْإِشَارَةِ فِي ﴿تِلْكَ﴾ الْمَوْضُوعِ فِي اللَّغَةِ لِلْمِشَارَةِ إِلَيْهَا الْبَعِيدَةِ.

﴿إِنِّتُ﴾: أي: علاماتٌ بِالْبَيَانِ الْكَلَامِيِّ دَلَالَتٌ عَلَى مَعَانِي جَلِيلَاتٍ، لَمَا فِيهَا مِنْ عِلْمٍ، وَحَقٍّ، وَحِكْمَةٍ، وَهُدَايَةٍ إِلَى خَيْرِ النَّاسِ وَسَعَادَتِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ.

﴿الْكِتَابِ﴾: أي: التَّنْزِيلِ الرَّبَّانِيِّ بِالْوَحْيِ، الْمَطْلُوبُ أَنْ يُدَوَّنَ فِي كِتَابٍ وَاضِحِ الرَّسْمِ الْكِتَابِيِّ، مُوثَّقٍ، لَا اخْتِلَافَ فِي نُسْخِهِ، مَهْمَا تَعَدَّدَتْ مَخْطُوطَاتُهُ، أَوْ مَطْبُوعَاتُهُ.

﴿الْمُبِينِ﴾: أي: الواضح الدَّلالاتِ لِمَنْ أَحْسَنَ تَدَبُّرَهُ، وَالْمُوضِحِ لِلْمَعَانِي الْمُرَادَةِ مِنْ آيَاتِهِ. مُبِينٌ: مِنْ فَعَلَ «أَبَانَ» اللَّازِمُ، بِمَعْنَى: وَضَحَ وَظَهَرَ، وَمِنْ فَعَلَ «أَبَانَ» الْمُتَعَدِّي، بِمَعْنَى: أَوْضَحَ وَأَظْهَرَ.

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي هُوَ كِتَابُ اللهِ الْخَاتِمِ لِكُتُبِهِ لِلنَّاسِ، ذُو مَجْدٍ عَظِيمٍ، وَمَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ الذَّاتِيَّةُ فِيهِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ الْمُنْزَلُ مِنْ لَدُنْ عَلِيمٍ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، فَهُوَ كَلَامٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ.

ويوجد في تدبر الآية الأولى من سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) بيانٌ أَوْسَعُ أُحِيلُ عَلَيْهِ، لَمَا بَيَّنَّ الْآيَتَيْنِ مِنْ تَشَابُهِ فِي مَعْظَمِ الْعُنَاصِرِ.



(٥)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دورس سورة (القصص) (الآيات من (٣ - ٤٣).

قال الله عز وجل:

﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِيعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

تمهيد:

جاءت هذه الآيات بمشابة مَدْخُلٍ لِلْقَطَاتِ المختاراتِ في هذه السُّورة من قصّة موسى عليه السَّلام، وفرعون عليه اللعنة.

وجاء فيها ذكرُ أَنَّ الأخبار البارزة المنتقاة للبيان فيها حقٌّ، إذ هي مُطَابَقَةٌ لِلْوَقْعِ تماماً، وَأَنَّ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بها هُمْ قَوْمٌ لَدَيْهِمُ الاستعداد لأنَّ يُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ إِذَا عَلِمُوا به.

وجاء فيها إجمالٌ عنوانيٌّ للكليات التي كان عليها فرعون في أرض مِصر، وتَدْخُلُ تَحْتَهَا تَفْصِيلاتٌ مُوسَّعات:

الكلية الأولى: أَنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي أَرْضِ مِصر، إِذْ كَانَ هُوَ الْحَاكِمَ الْمُسْتَبَدَّ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا أَمْرَ إِلَّا أَمْرُهُ، وَلَا رَأْيَ إِلَّا رَأْيُهُ، وَلَا حُكْمَ إِلَّا حُكْمُهُ والحديثُ عَنْهُ فِي الْقَضَايَا الْعَامَّةِ، بِقُوَّةِ الْحَدِيثِ عَنْ كُلِّ شَعْبٍ مِصرٍ فِي زَمَنِهِ.

الكلية الثانية: أَنَّهُ جَعَلَ أَهْلَ مِصرَ شِيَعًا وَأَحْزَابًا يُصَارِعَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُعَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُنَافِسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لِيُسَوِّدَ الْجَمِيعَ مِنْ خِلَالِ تَفَرُّقِهِمْ وَتَنَافُسِهِمْ، ضَمَّنَ الْقَاعِدَةَ الَّتِي يَعْمَلُ بِهَا الْمُسْتَبَدُّونَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ: «فَرَّقْ تَسُدَّ».

الكلية الثالثة: أَنَّهُ كَانَ يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، لِيَجْعَلَهُمْ بِمَثَابَةِ عِبِيدٍ لَهُ وَلَسَائِرِ أَهْلِ مِصْرَ، وَلِيَسْتَرْضِي بِاسْتِعْبَادِهِمْ وَتَسْخِيرِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ أَصْحَابَ الْبِلَادِ الْأَصْلَاءِ بِهَذَا تَكُونُ شِيعَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الطَّبَقَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْمُهَانَةُ الْمُسْتَعْبَدَةُ مِنْ سَائِرِ شُعْبِ مِصْرَ.

ومن مظاهر استضعافه لبني إِسْرَائِيلَ أَمْرُهُ بِذَبْحِ الْمَوَالِيدِ الذَّكَورِ فِي بَعْضِ السَّنَوَاتِ دُونَ بَعْضٍ، لِثَلَا يَكْثُرَ رِجَالُ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَيَكُونُوا قُوَّةً مُنَافِسَةً لِشُعْبِ مِصْرَ، وَلِيَفْرِغُوهُمْ وَآلِهِ وَمَلَائِهِ.

الكلية الرابعة: أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، وَيُظْهَرُ أَنَّ اخْتِيَارَهُ سَبِيلَ الْفُسَادِ وَالْإِفْسَادِ لِأَنَّهُ الْوَسِيلَةُ لِلْمَحَافَظَةِ عَلَى حُكْمِهِ الْإِسْتِبْدَادِيِّ الظَّالِمِ الْغَاشِمِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣﴾

الخطابُ مُوجَّهٌ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ يَنْسَجِبُ عَلَى كُلِّ مَتَلَقٍّ لَهُ مُؤْمِنٌ بِهِ بِأَسْلُوبِ الْخِطَابِ الْإِفْرَادِيِّ.

وجاء استِعمالُ الفعلِ المضارعِ ﴿نَتْلُوا﴾: مُرَاعَاةً لَزَمَنِ التَّنْزِيلِ، مَعَ مِلَاحَظَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ كُلَّهُ، لَهُ صِفَةُ التَّنْزِيلِ الْمُتَجَدِّدِ دَوَامًا، لِأَنَّهُ بَيَانٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ بَعْدَ التَّنْزِيلِ، إِذْ يُخَاطَبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادُهُ بِهِ دَوَامًا، وَعَلَى كُلِّ الْعِبَادِ أَنْ يَتْلَوْهُ.

﴿نَتْلُوا﴾: أَي: نَتَابِعُ فِيمَا نُوحِي إِلَيْكَ. يُقَالُ لُغَةً: «تَلَا، يَتْلُو، تُلُؤًا» أَي: تَبِعَ، وَيُقَالُ: «تَلَاهُ، يَتْلُوهُ» أَي: تَبِعَهُ فَهُوَ تَالٍ، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ وَحْيًا عَلَى الرَّسُولِ، تَذُلُّ عَلَى تَتَبُعِ حُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ كَمَا هِيَ فِي

اللُّوحَ الْمَحْفُوظَ بِإِسْمَاعِهِ إِيَّاهَا وَإِبْلَاغِهَا إِلَيْهِ، حَرْفًا بِحَرْفٍ، وَكَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، وَآيَةً بِآيَةٍ.

• ﴿مِنْ نَبِيٍّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾: أي: بغض نبيٍّ موسى عليه السَّلام، في لَقَطَاتٍ مِنْ قِصَّتِهِ، ذَاتِ الْعِلَاقَةِ بِفِرْعَوْنَ ﴿مِنْ﴾ للتبعض.

النُّبَأُ: يُسْتَعْمَلُ كَثِيرًا فِي الْخَبَرِ ذِي الشَّأْنِ الْمَتَمِّيزِ الْمَرْتَفِعِ، لِأَنَّ مَادَةَ الْكَلِمَةِ تَدُورُ حَوْلَ مَعْنَى الْارْتِفَاعِ وَالظُّهُورِ.

• ﴿بِالْحَقِّ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِ النَّبَأِ مُلْتَبِسًا بِالْحَقِّ، وَمَحَاطًا بِهِ، فَلَا شَكَّ فِيهِ وَلَا بَاطِلَ، الْحَقُّ: الثَّابِتُ الصَّادِقُ الْمَطَابِقُ لِلْوَاقِعِ.

• ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لِيَتَبَلَّغَهُ وَيَهْتَدِيَ بِمَا فِيهِ مِنْ هُدًى قَوْمٌ لَدَيْهِمُ الْاِسْتِعْدَادُ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُوا، إِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُ رَبِّهِمْ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ. هَذَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وَكَذَلِكَ الَّذِينَ هُمْ فِي الْحَالِ مُؤْمِنُونَ.

قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يُدَيِّعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

أي: إِنَّ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ مَلِكًا مِصْرَ فِي أَيَّامِ مُوسَى، قَدْ وَصَلَ فِي قُوَّةِ سُلْطَانِهِ وَجَبَرُوتِهِ إِلَى عُلُوِّ رَفِيعٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ.

الْعُلُوُّ: الْارْتِفَاعُ الْحَسِّيُّ الَّذِي يُشْهَدُ بِالْأَبْصَارِ، وَاسْتَعْمِلَ فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَى الْارْتِفَاعِ الْمَعْنَوِيِّ، وَمِنْهُ بُلُوغُ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا مُسْتَبَدًّا مُتَسَلِّطًا جَبَّارًا، وَبُلُوغُ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ فِي أَرْضٍ مَا، أَوْ دَوْلَةٍ مَا، وَتَسَلُّطِهِمْ عَلَى شَعْبٍ أَوْ أُمَّةٍ مِنْ دُونِهِمْ.

أُثْبِتَ الْآيَةُ بَيَانَ عُلُوِّ فِرْعَوْنَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرَةٍ فِي الْكُونِ سَبَبًا، فَعُلُوُّ فِرْعَوْنَ كَانَتْ لَهُ أَسْبَابٌ اقْتَضَتْ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ عُلُوٍّ، إِلَّا أَنْ مَا يَتَحَقَّقُ وَجُودُهُ بِالْأَسْبَابِ مَسْبُوقٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَهُ عُلُوًّا فِي أَرْضِ مِصْرَ، لِيَبْلُوَهُ وَيَبْلُوَ بِهِ.

• ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾: أي: وجعل أهل أرض مِصْرَ، أخزاباً مُتَفَرِّقَةً، مُتَعَارِضَةً الْمَصَالِحِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْأَفْكَارِ.

الشيعة: الفرقة والجماعة التي يناصِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، والحزب الواحد، والجمعُ «شِيع».

فَدَلَّ هَذَا الْبَيَانُ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ قَدْ اتَّخَذَ وَسِيلَةً: «فَرَّقَ تَسُدَّ» وَهَذَا التَّفْرِيقُ قَدْ كَانَ بِجَعْلِ شَعْبِ مِصْرَ، شِيَعًا مُتَخَالِفَةً مَتَعَادِيَةً، وَأَخْزَابًا مُتَصَارِعَةً مُتَنَافِسَةً فِيمَا بَيْنَهَا.

• ﴿يَسْتَزِعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَاسْتَحْيَى نِسَاءَهُمْ﴾:

أي: يَعْمَلُ عَلَى جَعْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى أَرْضِ مِصْرَ مِنْذُ أَيَّامِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَعْفَاءَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا ذَوِي مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بِتَمَكِينِ يُوسُفَ لَهُمْ فِيهَا.

دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِعِبَارَةِ ﴿يَسْتَزِعِفُ﴾ الْعَمَلُ عَلَى جَعْلِهِمْ ضَعْفَاءَ، لَا قُوَّةَ لَهُمْ فِي مِصْرَ تَمْنَعُ عَنْهُمْ الْإِذْلَالَ وَالْإِضْطِهَادَ، عِبَارَةٌ ﴿يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَاسْتَحْيَى نِسَاءَهُمْ﴾ لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ عَادَةٌ فِرْعَوْنَ مِصْرَ، ضِدَّ الْأَقْلِيَّاتِ الَّتِي يَخْشَوْنَ تَكَاثُرَهَا. وَبُلُوغَهَا مَبْلَغَ الْقُوَّةِ الْمُنَافِسَةِ، أَوِ الْمَتَمَرِّدَةِ عَلَى سُلْطَانِهِمْ وَجَبْرَتِهِمْ.

﴿يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾: أي: يَأْمُرُ بِتَذْيِيقِ مَوَالِيدِهِمُ الذُّكُورَ بَعْدَ وَلَادَتِهِمْ وَهُمْ فِي سِنِّ الرِّضَاعِ، لِثَلَا يَكْبُرُوا فَيَكْثُرَ الرِّجَالُ الْقَادِرُونَ عَلَى الْقِتَالِ

منهم، وجاء في بعض أخبار الإسرائيليين أنَّ هذا لم يكن دَوَامًا، بل رُبَّمَا كان في بعض السنين دون بعضها.

ولمَّا كان التخلُّص من مواليد الإسرائيليين الذكور قَدْ يكون بآيَّةٍ وَسِيلَةً مِنْ وسائل القتل غير الذبح، جاء التَّعْبِيرُ في بعض النصوص القرآنية بعبارات: «سَقُتْلُ - سَقُتْلُ - اقْتُلُوا».

• ﴿وَسَتَّخِيءِ نِسَاءَهُمْ﴾: أي: وَيُبْقِي المواليد الإناث على قَيْدِ الحياة، للانتفاع مِنْهُنَّ بِالْخِدْمَةِ والتَّسْخِيرِ. يقال لغة: «اسْتَحْيَا الْقَائِدُ الْأَسِيرَ» أي: اسْتَبْقَاهُ حَيًّا فَلَمْ يَقْتُلْهُ.

• ﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾: أي: إِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ فِي حَيَاتِهِ مُفْسِدًا مِنْ زُمْرَةِ الْمُفْسِدِينَ.

المفسدُ: هو الذي يجعل الأشياء الصالحة عديمة الصَّلاح، غير نافعة، أو يُحوِّلُهَا مِنْ نافعة إلى ضارَّة كريمة مؤذية.

وظاهر أَنَّ جَعَلَ الشَّعْبَ الواحد شِيعًا وأَحْزَابًا مُتَصَارِعَةً متعادية متقاتلة من الإفساد في المجتمع البشري.

وظاهر أَنَّ استعباد الناس وإذلالهم واضطهادهم وتعذيبهم بغير حقٍّ، من الإفساد في المجتمع البشري.

وظاهر أَنَّ قَتَلَ المواليد الذكور تخوُّفًا مِنْ تكاثر الطائفة المستضعفة، من الإفساد الشَّيْنِيع في المجتمع البشري.

ولا يخفي ما في جمل هذه الآية (٤) من توكيد موجَّه للشَّاكِّين.



قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

الْوَرِثَةِ ۖ وَتُكِنُّ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَبَرِيٍّ فِرْعَوْنَ وَهَمْنَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيَهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْقَطْعُ مَا لَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْنَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ قُودًا أُمِّ مُوسَىٰ فَرِجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأُخْتِيهِ قُصِيَّةٌ فَصَرَّتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُورُ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُخْتِهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلِكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ۝

تمهيد:

في هذه الآيات لَقَطَاتٌ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وفرعون عليه لعنة الله، بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا جَاءَ فِي سَائِرِ الْقُرْآنِ حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ تَكَامِلٌ، مِمَّا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ بَيَانُهُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وقد جاء فيها بيان أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ حِكْمَتُهُ - شَاءَ أَنْ يَمُنَّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ كَانُوا فِي ذُلِّ الْاضْطِهَادِ الْفِرْعَوْنِيِّ مُسْتَضْعَفِينَ ثَلَاثَ مِائَتَيْنِ.

الْمَثَلُ الْأَوَّلِيُّ: أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ أُمَّةً هِدَايَةً، إِذْ عَلِمَ أَنَّ بَعْضَ سُلَالَتِهِمْ سَيَكُونُونَ مُؤَهَّلِينَ لِلْإِصْطِفَاءِ بِالنُّبُوَّةِ، وَلِلْإِصْطِفَاءِ بِالرِّسَالَةِ يَوْمَئِذٍ، وَمَتَى وَجَدَ الْإِمَامَ الصَّالِحَ فِي أُمَّةٍ، وَقَادَهُمْ قِيَادَةً حَكِيمَةً، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَكْبَحَ جَمَاحَ غُصَاتِهِمْ وَلَوْ بِالْمَرْهَبَاتِ وَالْعُقُوبَاتِ، كَانَ أَفْرَادُ الْأُمَّةِ بِمَجْمُوعِهِمْ وَبِصُورَةٍ عَامَّةٍ بِمِثَابَةِ الْأُمَّةِ.

المئة الثانية: أَنْ يَجْعَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْوَارِثِينَ لَأَرْضٍ وَكُنُوزٍ وَسُلْطَانٍ
وَمُلْكٍ فِي أَرْضِ فَلَسْطِينَ، وهذا ما تحققَ بعدَ حينٍ.

المئة الثالثة: أَنْ يُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وقد ظهر هذا في أيام
طالوتَ وداودَ وسليمانَ عليهما السَّلام، وبقي قليلاً بعدَهُما.

وجاء فيها بيان أنَّ الله عزَّ وجلَّ شاءَ أَنْ يُرِيَ فِرْعَوْنَ ووزيرَه الأولَّ
هامانَ، وَجُنُودَهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ كَانُوا يَخَافُونَ
تَكَاثُرَهُمْ فِي مِصْرَ، وَتَنَامِي قُوَّتِهِمْ، وَهَلَاكَهُمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ، أَوْ بِسَبِّهِمْ.

وَتَبْدَأُ الْأَحْدَاثَ بِمِيلَادِ الْإِمَامِ الْأَوَّلِ مِنْ أُمَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ
الْطُّفْلُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام، فِي السَّنَةِ الَّتِي كَانَ يَجْرِي فِيهَا ذَبْحُ الْمَوَالِيدِ
الذَّكُورِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يُغْنِ فِرْعَوْنَ هَذَا الْإِجْرَاءَ شَيْئاً، لِأَنَّ مَا
يُقَدِّرُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وَيَقْضِيهِ لَا يُعَانَدُ وَلَا يُمْنَعُ وَلَا يُرْفَعُ وَلَا يُدْفَعُ.

التدبر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ
الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكَرِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا
كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وَيَرَى فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَجُنُودُهُمَا]
وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني، أي: يُرِيهِمُ اللهُ فِي مجاري
مقاديره وقضائه، ما كانوا يَحْذَرُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَهَم يَرَوْنَ ذَلِكَ لَا
مَحَالَةَ.

• ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ﴾: جاء التعبيرُ هنا بضمير المتكلم العظيم، لِأَنَّ
الأحداثَ الَّتِي تَحَقَّقَتْ بِإِرَادَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، إِنَّمَا تَحَقَّقَتْ بِسُلْطَانِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ

العزیز القاهر، الَّذي لا رَادَّ لقضائه، وهو الغالبُ على أمره.

وجاء في العبارة استعمالُ الفعل المضارع: «نريد» على طريقة الاستقطاع من الماضي، وتقديمه في البيان تقديمًا يُشبه ما يجري الآن مع تلاوة البيان من أحداث. والمراد بالإرادة هنا إرادة التنفيذ مع أزمان الأحداث، لا إرادة التقدير والإمضاء بالقضاء التي تكون سابقة للأحداث، ومُسجلة في اللوح المحفوظ.

الْمَنُ: الإنعام والإحسان، يقال لغة: «مَنَ عَلَيْهِ يَمُنُّ مَنًا» أي: أنعم عليه نعمة طيبة، وأحسن إليه بعتية.

• ﴿عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُّوْا فِي الْأَرْضِ﴾ المراد بِهِمْ بنو إسرائيل في مِصرَ قَبْلَ ميلاد مُوسَى عليه السَّلام، وَبَعْدَهُ حَتَّى خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصرَ وَعبورِهِمْ الْبَحْرَ، وَهَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ وَجُنُودِهِ غَرَقًا عَقِبَ نَجَاةِ الْعَابِرِينَ بِمَنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. أي: وَنريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَيْهِمْ فَنُخْرِجَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ ضَعْفٍ وَذُلٍّ وَاسْتِعْبَادٍ.

﴿اسْتَضِعُّوْا﴾: أي: اتَّخَذَتِ الْوَسَائِلُ الْإِكْرَاهِيَّةَ لِإِضْعَافِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ وَاسْتِعْبَادِهِمْ، وَمِنْهَا تَذْيِيقُ مَوَالِيدِهِمْ مِنَ الذِّكُورِ، فِي بَعْضِ السَّنَوَاتِ، كَسَنَةِ تَذْيِيقِ وَسَنَةِ إِغْفَاءٍ.

• ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: أي: فِي أَرْضِ مِصرَ. «ال» فِي عِبَارَةِ «الْأَرْضِ» لِلْعَهْدِ الذَّهْنِيِّ، الْمَفْهُومِ مِنْ سِبَاقِ النَّصِّ وَسِيَاقِهِ.

• ﴿وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾: أَيْمَةً: جَمْعُ «إِمَامٍ» وَهُوَ مَا يُؤْتَمُّ بِهِ، وَمَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ، أي: يُتَّبَعُ وَيُقْتَدَى بِهِ، وَالْمَرَادُ بِالْإِمَامَةِ هُنَا الْإِمَامَةُ الصَّالِحَةُ، الَّتِي يُقْتَدَى بِهَا فِي الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

وَمِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ جَعْلَهُمْ أَيْمَةً لَا يَقْتَضِي جَعْلَ كُلِّ أَفْرَادِهِمْ كَذَلِكَ، بَلْ إِذَا جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَادَتَهُمْ أَيْمَةً صَالِحِينَ، وَأَحْسَنَ هَؤُلَاءِ الْقَادَةِ سِيَاسَةً

جماهيرهم، وساروا بهم على صراط الله المستقيم، كانوا بمجموعهم أئمةً لغيرهم من الأمم.

وقد سبق في علم الله عز وجل، أنه سيولد في أنساليهم من يكونون مؤهلين للاصطفاء بالنبوة، وللإصطفاء بالرسالة، وتحقق هذا في الواقع، فظهر فيهم موسى وهارون عليهما السلام، وداود وسليمان عليهما السلام، وسائر أنبياء بني إسرائيل، ثم خرجوا عن دين الله الحق، ففسقوا وفسدوا وأفسدوا في الأرض كثيراً، وصاروا يقتلون الأنبياء بغير حق، وتحالفوا مع إبليس على إغواء الناس أجمعين.

• ﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾: أي: ونجعلهم الوارثين لجنات وعيون، وكنوز ومقام كريم، وملك وسلطان في الأرض، بهبة منا لهم، في مجاري قضائنا قدرنا ضمن أنظمة الأسباب والمسببات التي هي من سنننا في كوننا.

وقد تحقق هذا بامتلاك بني إسرائيل فلسطين، في أزمان صلاحهم واستقامتهم، فلما فسدوا وطغوا وبغوا سلبهم الله عز وجل ما كان قد منحهم، ومزقهم وشتتهم وضرب عليهم الدلة والمسكنة.

• ﴿وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: التمكين: الإقدار على التصرف الموصلي إلى تحقيق المطلوب، مع التثبت في المكان، والقدرة على التحرك فيه بحرية.

وقد حصل لبني إسرائيل هذا التمكين، أيام امتلاكهم لفلسطين، وتسلطهم على مقدراتها، وكان هذا في عهد طالوت وداود وسليمان عليهما السلام، وزمن غير طويل بعد ذلك.

• ﴿... وَبَرِي فِرْعَوْنُ وَهَمَنَ وَخُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾: ﴿١﴾

أي: وَنُرِيدُ بِتَنْفِيزِ أَقْضَيْنَا تَبَاعاً أَنْ نُرِي هَؤُلَاءِ الْمُفْسِدِينَ فِي مِصْرَ، مُسْتَغْلِينَ قُوَّةَ سُلْطَانِهِمْ، مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنْ هَلَاكِهِمْ عَلَى أَيْدِي الْإِسْرَائِيلِيِّينَ أَوْ بِسَبَبِهِمْ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الْبَاعِثُ لِإِصْدَارِ الْأَمْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ بِذُبْحِ الْمَوَالِيدِ الذَّكَوْرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

حذف معمول فعل ﴿يَحْذَرُونَ﴾ إيجازاً، للعلم به، فهو ملاحظ ذهنًا، والتقدير: «يَحْذَرُونَهُ».

يقال لغة: «حَذَرَ الشَّيْءَ يَحْذَرُهُ» ويقال: «حَذَرَ مِنْهُ» أي: خاف من شَرِّهِ وَاخْتَرَزَ مِنْهُ.

قول الله عز وجل:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾:

أخذاً من دَلَالَاتِ مُخْتَلِفِ النُّصُوصِ، يَظْهَرُ لِلْمُتَدَبِّرِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَحْيِ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَوْعٌ مِنَ الْإِعْلَامِ الْخَفِيِّ الَّذِي يَكُونُ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَلَا يُشْتَرَطُ لَهُ الْإِصْطِفَاءُ بِالنُّبُوَّةِ، إِذْ قَدْ يَأْتِي إِلَهُاماً عَلَىٰ شَكْلِ خَوَاطِرٍ قَوِيَّةٍ دَافِعَةٍ بِقُوَّةٍ إِلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا، وَقَدْ تَأْتِي بِوَاسِطَةِ حُلُمٍ جَلِيٍّ يُرَى فِي الْمَنَامِ، أَوْ بِوَاسِطَةِ مَلَكٍ يَأْتِي بِصُورَةٍ إِنْسَانٍ نَاصِحٍ غَيْرِ مَعْرُوفٍ أَنَّهُ مَلَكٌ.

وقد جاء في بَيَانَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَ بَعْضَ مَلَائِكَتِهِ لِبَعْضِ عِبَادِهِ، فَيُلْغُوهُمْ وَأَخْبَرُوهُمْ أَخْبَاراً صَادِقَةً.. دُونَ أَنْ يَكُونَ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءً، وَمِنْ هَذَا مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْأَقْرَعِ وَالْأَبْرَصِ وَالْأَعْمَى، عِنْدَ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ. وَمِنْهُ أَيْضاً مَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ سَلَّمَتْ عَلَى «عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ» وَهُوَ لَيْسَ بِنَبِيِّ. وَمِنْهُ أَيْضاً مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الَّذِي ذَهَبَ لِيُزَوِّرَ أَخاً لَهُ فِي اللَّهِ، سَاكِنٍ فِي بَلَدٍ غَيْرِ بَلَدِهِ،

فظهر له مَلَكٌ وَسَأَلَهُ عَنْ قَصْدِهِ وَحَادَثَهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مَلَكٌ.

فهذه الأنواع مِنَ الْوَحْيِ لَا تَقْتَضِي النُّبُوَّةَ، وَلَا تُشْتَرِطُ لَهَا النُّبُوَّةَ.

وقد اتفق جمهور أهل العلم على أَنَّ النُّبُوَّةَ لَا تَكُونُ لِلنِّسَاءِ، فَلَمْ تَكُنْ أُمُّ مُوسَى يُوحَى إِلَيْهَا كَمَا يُوحَى إِلَى الْأَنْبِيَاءِ.

• ﴿أَنَّا أَرْضَعْنَاهُ﴾: أي: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى وَحْيًا يَتَّصِمُنْ مَعْنَاهُ أَنْ اسْتَمَرَّتْ عَلَى إِزْوَاعِهِ فِي الْخَفَاءِ، عَنْ أَغْيُنِ الرُّقَبَاءِ، وَأَغْيُنِ مَشِيعِي الْأَنْبَاءِ.

• ﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾: أي: فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُعْلَمَ أَمْرُهُ، وَيَصِلَ خَبَرُهُ إِلَى جُنُودِ السُّلْطَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، وَأَنْ يَأْتُوا إِلَيْكَ لِيَذْبَحُوهُ.

• ﴿فَأَلْقَاهُ فِي الْبَرِّ﴾: أي: فَضَعِيهِ فِي الصُّنْدُوقِ «التَّابُوتِ» كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ (٣٩) مِنْ سُورَةِ (طه) وَأَلْقَاهُ مَعَ تَابُوتِهِ فِي نَهْرِ النِّيلِ طَافِيًا يَجْرِي كَمَرْكَبٍ بَحْرِيٍّ صَغِيرٍ.

• ﴿وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ﴾: أي: وَلَا تَخَافِي عَلَيْهِ مِنَ الْغَرَقِ إِذَا أَلْقَيْتِهِ فِي الْيَمِّ بِتَابُوتِهِ، فَاللَّهُ رَبُّهُ حَافِظٌ لَهُ وَحَامِيهِ، وَلَا تَحْزَنِي عَلَى فِرَاقِهِ إِذْ هُوَ فِرَاقٌ فِي زَمَنٍ قَلِيلٍ.

﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ﴾: جَاءَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِيمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهَا بِمِثَابَةِ التَّغْلِيلِ لِنَهْيِهَا عَنْ أَنْ تَحْزَنَ لِفِرَاقِهِ، أي: إِنَّا سَرَدُّهُ قَرِيبًا إِلَيْكَ، إِذْ تَكُونِينَ أَنْتِ مُرْضِعَتَهُ وَحَاضِنَتَهُ.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: أي: وَإِنَّا جَاعِلُوهُ مُسْتَقْبَلًا حِينَمَا يَكُونُ أَهْلًا لِلْإِسْطِفَاءِ بِالنُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَسُولًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

هذا البيان الذي جاء في هذه الآية (٧) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ وَضْعَهُ فِي التَّابُوتِ، وَالْقَاءِ فِي الْيَمِّ، لَمْ يَكُنْ عَقِبَ وَلا دَيْتِهِ مُبَاشَرَةً، بَلْ كَانَ بَعْدَ مُدَّةٍ

أَرْضَعْتُهُ فِيهَا سَرًّا، وَهِيَ تُخْفِي أَنْ يَكُونَ لَهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ تُرْضِعُهُ، وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَدَّةُ ثَلَاثَةً أَشْهُرٍ كَمَا ذَكَرَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي سِفْرِ الْخُرُوجِ.
وَيَذُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ وَخِيًّا صَرِيحًا بَبَيَانِ قَوْلِي، دَلَالَةً رَاجِحَةً غَيْرَ قَاطِعَةٍ.

• ﴿فَالْفَلَقَةُ مَالٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾:

كلمة «آل» مثل كلمة «أهل» إلا أنها لَا تُسْتَعْمَلُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَشْرَافِ الْأَهْلِ، وَذَوِي الْمَكَانَةِ الْمَطَاعَةِ فِيهِمْ، فَآلُ فِرْعَوْنَ هُمْ مَنْ كَانَتْ لَهُمْ مَكَانَةٌ فِي قَصْرِهِ مِنْ أَهْلِهِ، وَكَلِمَتُهُمْ مُجَابَةً عِنْدَ سَيِّدِ الْقَصْرِ.

جاء في هذه الآية بيان أن من التقطه من النيل إلى جانب شطِّ قَصْرِ آلِ فِرْعَوْنَ هُمْ آلُ فِرْعَوْنَ، وَهَذَا يَصْدُقُ بِأَنْ تَكُونَ اللَّاقِطَةُ الْأُولَى لَهُ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنِ، أَوْ ابْنَتُهُ، أَوْ بَعْضُ جَوَارِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، إِذْ قَدْ وَصَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ جَمِيعًا، وَعَلِمُوا بِهِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ الْمَجَابَةِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ نَفْسِهِ سَيِّدِ الْقَصْرِ.

وجاء في هذه الآية أيضاً بيان أن الغاية من تقدير الله وقضائه بالتقاط آلِ فِرْعَوْنَ لَهُ مِنَ النَّهْرِ، وَتَنْشِئَتِهِ مَحْمِيًّا فِيهِ، وَتَرْبِيَّتِهِ كَتَرَبِيَّةِ أَوْلَادِ الْمُلُوكِ، هِيَ أَنْ يَكُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَدُوًّا لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ الْكَافِرِينَ الْجَبَّارِينَ، وَأَعْوَانَهُمْ وَأَنْصَارَهُمْ وَجُنُودَهُمْ، وَأَنْ يَكُونَ أَيْضًا سَبَبًا فِي إِنْزَالِ الْحَزَنِ فِيمَنْ سَيَبْقَى مِنْهُمْ، بَعْدَ إِهْلَاكِ اللَّهِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَرَقًا فِي الْبَحْرِ، وَهُمْ يَتَابِعُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْخَارِجِينَ مِنْ مِصْرَ فِي اتِّجَاهِ سِينَاءَ.

• قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وَحَزَنًا] بضم الحاء وإسكان الزاي، وقرأها باقي القراء العشرة: [وَحَزَنًا] بفتح الحاء والزاي.

القراءتان لغتان عربيتان متكافئتان، ومعناها واحد.

الْحَزْنُ وَالْحَزَنُ: ضدُّ الفرح والسُّرور، يقال لغة: «حَزَنَهُ الأمرُ يَحْزُنُهُ حُزْنًا». ويقال: «أَحْزَنَهُ الأمرُ إِحْزَانًا». قال الجوهري: «حَزَنَهُ» لغة قريش، و«أَحْزَنَهُ» لغة تميم.

ويقال: «حَزَنَ الرَّجُلُ يَحْزُنُ حَزْنًا» فهو «مَحْزُونٌ، وَمُحْزَنٌ، وَحَزِينٌ، وَحَزَنٌ» من قَوْمٍ «حِزَانٍ، وَحُزَنَاءٌ».

الحزن: مشاعرُ أَلَم في النفس، بسببِ فواتِ محبوبٍ أو مرغوبٍ فيه، أو بسببِ حُدُوثِ مَكْرُوه، أو تَوَقُّعِ حُدُوثِهِ، كالحزنِ على محكومٍ عليه بالقتل، وهو يَتَرَقَّبُ التنفيذ.

قال النحويون والمفسرون: اللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ من عبارة: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَحَزَنًا﴾ هي لام العاقبة، وليست لام الغاية.

فالمعنى: التَقَطُّوه لتكون عاقبة أمره أن يَصِيرَ عَذَابًا لمريدي قَتْلِهِ والتخلُّص منه فيهم، وَلِيَكُونَ سَبَبًا في إِحْزَانٍ سائر مَنْ يَبْقَى منهم، بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ من آلِهِ، كالنساءِ الْكَوَافِرِ، وكالَّذِينَ لم يَخْرُجُوا من كُفَّارِ آلِ فِرْعَوْنَ، مَعَ فِرْعَوْنَ وجنوده، لقتال بني إِسْرَائِيلَ الْخَارِجِينَ من مصر بقيادة موسى عَلَيْهِ السَّلَام.

• ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾:

جاءت هَذِهِ الْجُمْلَةُ بِمِثَابَةِ التَّغْلِيلِ لِقَضَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِأَنْ يَكُونَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَذَابًا وَحَزْنًا لِكُفَّارِ آلِ فِرْعَوْنَ وَأَنْصَارِهِمْ وَجُنُودِهِمْ.

هَامَانُ: أَخْذًا مِنْ فَحْوَى النِّصْوَصِ فَهَمَزْتُ أَنَّ «هَامَان» هُوَ الْوَزِيرُ الْأَوَّلُ لِفِرْعَوْنَ، وَالْمَعِينُ الْأَكْبَرُ لَهُ عَلَى ارْتِكَابِ جَرَائِمِهِ وَعُدْوَانَاتِهِ، وَظَلَمِهِ وَطُغْيَانَاتِهِ، وَارْتِكَابِ خَطَايَاهُ، مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا.

﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾: أي: كانوا مُذنبِينَ عَنْ عَمْدٍ وإصرارٍ، اتِّباعاً للأهواء والشهوات، وتحقيقاً لمصالحهم من الحكم والسُّلطان، بفَرَضٍ جَبَرُوتِهِمْ وكِبَرِيَّائِهِمْ في الأرض. وقرأ أبو جعفر: [خَاطِئِينَ] بحذف الهمزة، وهي لغة.

يقال لغة: «خَطِيءٌ، يَخْطَأُ، خَطَأً، وَخَطَأً»: أي: أذنبَ عَنْ عَمْدٍ، وكذلك: «أَخْطَأَ».

وتستعمل هذه المادّة بمعنى الغَلَط عَنْ غير عَمْدٍ، وهذا المعنى غير مرادٍ هنا.

• ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: ﴿٤١﴾

أي: وقالت امرأةُ فِرْعَوْنَ لَهُ: هذا الصبيُّ الَّذي التقطناه مِنَ الْيَمِّ، قُرَّةُ عَيْنٍ لِي، وقُرَّةُ عَيْنٍ لَكَ.

وقالت له: لَا تَقْتُلُوهُ، أي: لَا تُضِدِرْ أَمْرَكَ لجنودِكَ بأن يقتلوه، أو أضِدِرْ أَمْرَكَ بأن لَا يَقْتُلُوهُ مع المواليد الذُّكُورِ من الإسرائيليين، تنفيذاً لأمرِكَ السابق.

وقالت له: عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا إِذَا كَبِرَ وَنَمَّا فِي قَصْرِنَا، فَيَكُونَ لَنَا قُوَّةً عَلَى الإِسْرَائِيلِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ، أَوْ عَسَى أَنْ نَجِدَ فِيهِ خَيْراً وَنُبُوغاً، فَنَتَّبِعَهُ وَنَتَّخِذَهُ وَلَدًا لَنَا.

عَسَى: فعلٌ غَيْرُ متصرفٍ، معناه المقاربة على سبيل الترجي، وهي هُنَا تَأَمَّةٌ لَا تحتاج إلى خَبَرٍ منصوب أو هي ناقصة واسمها ضمير يعود على موسى، وخبرها المصدر المؤول من ﴿أَنْ يَنْفَعَنَا﴾.

• ﴿... وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ هذه الجملة حاليّة، وقد دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الله

عَزَّ وَجَلَّ صَرَفَ عَنْ أَذْهَانِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ اِخْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الصَّبِيُّ هُوَ الْوَلَدُ الْمَحْذُورُ مِنْهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِي صَدَرَ الْأَمْرُ الْفِرْعَوْنِيُّ بِقَتْلِ مَوَالِدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الذُّكُورِ مِنْ أَجْلِهِ، إِنْ صَحَّ أَنَّ الْمَنْجَمِينَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ: سَيُولَدُ مَوْلُودٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ هَلَاكُهُ وَتَقْوِيضُ مَمْلَكَتِهِ عَلَى يَدَيْهِ، وَهِيَ مَقُولَةٌ لَمْ أَجِدْ لَهَا سَنَدًا فِي غَيْرِ أَقْوَالِ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ.

ومعنى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ والحالُ أَنَّهُمْ لَمْ يَخْضُلْ لَهُمْ أَقْلٌ تَصَوُّرِ اِحْتِمَالِيٍّ، بِأَنْ يَكُونَ هَذَا الصَّبِيُّ سَبَبًا فِي هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَتَقْوِيضِ مَمْلَكَتِهِ فِي مِصْرَ.

عبارة: ﴿ثُرْتُ عَيْنٍ﴾: كِنَايَةٌ عَنِ السُّرُورِ وَالرَّضَا، يُقَالُ لُغَةً: «قَرَرْتُ عَيْنُ فُلَانٍ» أَي: بَرَدَتْ، وَيُكْنَى بِهَذَا التَّعْبِيرِ عَنْ سُرُورِهِ وَرِضَاهُ، لِأَنَّ بَرْدَ الْعَيْنِ الْمَضَادَّ لِسُخُونَتِهَا يَكُونُ فِي حَالَةِ السُّرُورِ وَالرَّضَا.

• ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِيرِ مُوسَى فَرِحًا إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبيُّنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾:

الفؤاد: هُوَ عُمُقُ الْقَلْبِ فِي كَيَانِ الْإِنْسَانِ النَّفْسِيِّ.

أَي: وَإِنَّ فُؤَادَ أَمِيرِ مُوسَى بَعْدَ إِلقائه فِي تَابُوتِهِ فِي اللَّيْلِ، نَحْوِ آخِرِ اللَّيْلِ، وَفَقَّ الْوَحْيِ الرَّبَّانِي الَّذِي جَاءَهَا، أَصْبَحَ فَارِحًا، أَي: خَفِيفًا طَائِشًا، غَيْرَ ذِي وَزْنٍ ثَقِيلٍ يُثَبِّتُهُ، وَبِخَفَّتِهِ وَطَيْشِهِ صَارَ مُؤَهَّلًا لِأَنْ يَتَأَثَّرَ بِآلَامِ نَفْسِهَا مِنْ أَجْلِ وَلَدِهَا، فَيُعْطِي بِطَيْشِهِ وَخَفَّتِهِ تَوَجُّيْهَهُ لِإِرَادَتِهَا، فَتُضَدِّرَ أَوَامِرَهَا لِلِسَانِهَا بِأَنْ يُبَوِّحَ بِمَا فَعَلَتْ سِرًّا.

وعندئذٍ يَفْتَضِّحُ أَمْرُهَا، وَيَتَعَرَّضُ الصَّبِيُّ لِلْقَتْلِ بَعْدَ اسْتِخْرَاجِهِ مِنَ الْيَمِّ.

و«إِنْ» فِي عِبَارَةِ ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ هِيَ الْمَخَفَّةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا ضَمِيرُ الشَّأْنِ الَّذِي يُحَذَفُ دَوَامًا فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

أي: إِنَّ الشَّأْنَ الْخَطِيرَ أَنَّ مُوسَى كَادَتْ لَتُبْدِي أَمْرَ مَا فَعَلَتْ بِصَبِيَّهَا، إِذْ وَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ، وَأَلْقَتْهُ فِي النِّيلِ، وَعِنْدُئذٍ يَفْتَضِحُ أَمْرُهَا، وَيَشِيعُ خَبَرُهَا.

يقال لغة: «أَبْدَى الشَّيْءَ وَأَبْدَى بِهِ» أي: أَظْهَرَهُ.

وقد تكون تغذية الفعل على التضمين، والتقدير: إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي أَمْرَهَا مُتَحَدِّثَةً بِشَأْنِ صَبِيَّهَا وما فَعَلَتْ به إِذْ أَلْقَتْهُ فِي النِّيلِ داخل صندوق فَهُوَ يجري مع الماء.

لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا بِرِبَاطٍ مَعْنَوِيٍّ مِنَ التَّجَلُّدِ وَالصَّبْرِ، وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَهُوَ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْهَا وَخِيَاً عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ، بِأَنْ تَضَعَهُ فِي تَابُوتٍ وَتُلْقِيَهُ فِي الْيَمِّ.

وبهذا الرِّبْطِ الرَّبَّانِيِّ ارْتَفَعَتْ مَنْزِلَتُهَا مِنْ فِتْنَةِ الْمُؤْمِنَاتِ إِلَى فِتْنَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الرِّجَالِ، دَلَّتْ عَلَى هَذَا عِبَارَةٌ: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إِذِ الْمُؤْمِنُونَ الصَّابِرُونَ الثَّابِتُونَ الْمُتَوَكِّلُونَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الرِّجَالِ، يَضْبُطُونَ بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَازِمَاتِ تَصَرُّفَاتِهِمْ عَلَى مَقْتَضَى الْحِكْمَةِ، بِخِلَافِ النِّسَاءِ فَإِنَّ طَبَائِعَهُنَّ تَغْلِبُهُنَّ فَتَدْفَعُهُنَّ الْخِيفَةَ إِلَى تَصَرُّفَاتٍ لَا تُحْمَدُ عُقَابُهَا، إِلَّا مَنْ يَعْتَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا مِنْهُنَّ، فَيَرْبِطُ عَلَى قَلْبِهَا، فَيَجْعَلُهَا فِي خِصَائِصِهَا النَّفْسِيَّةِ مِثْلَ فُضْلَاءِ الرِّجَالِ الْمُؤْمِنِينَ.

وهذا نظير وصفِ الله عَزَّ وَجَلَّ مَرْيَمَ أُمَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِأَنَّهَا كَانَتْ مِنَ الْقَانَتِينَ، وَلَمْ يَقُلْ مِنَ الْقَانِتَاتِ.

الرِّبْطُ عَلَى الْقُلُوبِ فِي دَلَالَاتِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ يُفِيدُ مَعْنَى التَّثْبِيتِ وَالتَّقْوِيَةِ، لِمَنْعِهَا مِنَ الانْدِفَاعِ بِخَفَّةٍ وَطَيْشٍ.

وعواملُ هذا الرِّبْطِ التَّثْبِيتِي هي عواملُ إيمانيَّة، مِنَ الثِّقَةِ بِاللَّهِ وَبِحُكْمَتِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَتَسْلِيمِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، إِلَى

سائر مُمِدَّاتِ النَّفْسِ بِالصَّبْرِ والحِلْمِ والقُدْرَةِ على تحمُّلِ المؤلِّماتِ والموجعاتِ والمزعِجاتِ.

بخلاف الشَّدِّ على القلوبِ فَهُوَ يُفِيدُ معنى الضَّغْطِ عَلَيْهَا بالمؤلِّماتِ والمكارِهَةِ والكُرُوبِ والمخاوفِ والأحزانِ، ونحو ذلك.

• ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١١):

أي: وقالت أمُّ موسى عليه السَّلامُ بَعْدَ أَنْ أَلْقَتْهُ فِي النِّيلِ فِي تابوته.

﴿لِأُخْتِهِ﴾: قالوا: اسمُها مَرْيَمُ، وقد كانت حينئذٍ فتاةً راشدةً.

﴿قُصِّيهِ﴾: أي: تَتَّبِعِي تنقُّلاتِ أخيك في الصُّنْدُوقِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَتَتَّبِعِي حَرَكَتَهُ، وَإِلَى أَيْنَ يَصِلُ.

تقول لغة: «قَصَصْتُ الشَّيْءَ أَقْصُهُ قَصًّا وَقَصَصًا» أي: تَتَّبَعْتُ أثرَهُ شيئاً فشيئاً.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾: أي: فَعَلِمَتْ بِهِ، يقال لغة: «بَصُرَ بِالشَّيْءِ يَبْصُرُ بَصَرًا وَبَصَارَةً» أي: عَلِمَ بِهِ عِلْماً صحيحاً مُؤَكِّداً، فَهُوَ بِهِ بَصِيرٌ.

﴿عَنْ جُنْبٍ﴾: أي: حَالَةً كَوْنُهَا متجاوزَةً مَكَاناً يَفْصِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّيْلِ بِمِقْدَارِ هُوَ فِي نَظَرِ النَّاسِ بَعِيدٌ، لَا يُعْتَبَرُ المَوْجُودُ فِيهِ مُرَاقِباً لِمَا يَحْدُثُ فِي النَّهْرِ.

الجُنْبُ: البَعِيدُ، وَيُطْلَقُ أَيْضاً عَلَى القَرِيبِ، فَهُوَ مِنَ الأَلْفَاظِ الَّتِي تُطْلَقُ عَلَى المتضادِّينِ، إِلَّا أَنَّ المَرادَ هُنَا المعنى الأولُ، واللهُ أعلمُ.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: قُصِّيهِ فِي حَالَةٍ أَنَّ الَّذِينَ يَعْنيهِم قَتْلُ مَوَالِدِ بني إِسْرَائِيلَ الذِّكُورِ، أَوْ يَعْنيهِم إِشَاعَةُ الأَخْبَارِ عَنْهُمْ، أَوْ نَقْلُهَا إِلَى جُنُودِ الظَّالِمِينَ، لَا يَشْعُرُونَ بِوُجُودِ مُرَاقِبٍ مُتَابِعٍ لشيءٍ مَا فِي النَّهْرِ.

الشعور بالشيء: العِلْمُ به، ولو من أدنى درجات الإحساس به، أخذاً مِنْ مَسِّ الشَّعْرِ الذي يَخْصُلُ به إحساسٌ خفيف.

• ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُوكَ﴾ ﴿١٧﴾:

• ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾: أي: ومنَعْنَاهُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ مِنْ قَبُولِ ثَدْيِ مُرْضِعَةٍ مَا تُرْضِعُهُ غَيْرَ ثَدْيِ أُمِّهِ.

التحريم: هو في اللغة المنع، وهذا المنع قَدْ يَكُونُ بِأَمْرِ تَكْوِينِي، فيتحقق الامتناع بالجبر، وقد يكون بِأَمْرِ تَكْلِيفِي لذوي الإرادات المطيعة بالفطرة، أو الإرادات القادرات عل الطاعة والمعصية، وهذا المنع يُسَمَّى حينئذٍ نهياً تَكْلِيفِيّاً.

مراضِع: جمع «مُرْضِع» و«مُرْضِعَة» وهي التي تُرْضِعُ مِنْ ثَدْيِهَا لَبَنًا.

• ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قَبْلِ وُضُوعِ أُخْتِهِ إِلَى مَكَانِ طَلَبِ مُرْضِعٍ لِلصَّبِيِّ الْمَلْتَقِطِ وَالْمُنْتَشِلِ مِنَ النَّهْرِ.

• ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُوكَ﴾ ﴿١٧﴾:

أي: فقالت أختُ مَرْيَمَ لَمَّا عَلِمَتْ أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ أَثْدَاءَ الْمَرْضَعَاتِ اللَّوَاتِي غَرَضْنَ عَلَيْهِ: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَقُومُونَ بِإِزْوَاعِهِ، وَتَرْبِيَّتِهِ، وَحَضَاتِيَّتِهِ، وَخِدْمَتِهِ، لَكُمْ بِالْأَجْرِ، فِي كِفَالَةٍ حَسَنَةٍ، وَهُمْ أَهْلُ نَصْحٍ لِمَنْ يَكْفُلُونَهُ.

﴿نَصْحُوكَ﴾: أي: مُخْلِصُونَ، لَيْسَ فِي كِفَالَتِهِمْ غِشٌّ، وَلَا خِيَانَةٌ لِأَمَانَةٍ.

وأرادت بعبارة: ﴿أَهْلِ بَيْتٍ﴾ أمَّها، وأبَاهَا، ونفسها، وسائر مَنْ فِي بَيْتِ أَبِيهَا، إِلَّا أَنَّ الَّتِي تُرْضِعُهُ هِيَ أُمُّهَا.

وطوى النّصّ ما جرى من تفاوضٍ بين طالبي المرضع للصّبيّ، وبين أخته التي لم تكشف أنّ لها علاقةً ما به، فجاء ما بعد هذه الآية معطوفاً على هذا المطويّ، لإمكان العِلْم به بالاستنتاج الفكريّ.

• ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: فأرجعنا الصّبيّ موسى إلى أمّه، لتقوم بإرضاعه وكفّالته في نظر ملتقطيه، وأمّا بحكمة الله فكان لهذا الرّدّ من ثلاث على أمّه:

المنّة الأولى: أن تقرّ عينها، دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾: أي: لكي تسرّ وتسعد وترضاً بعودة طفلها الرضيع إليها.

المنّة الثانية: أن لا تحزن بسبب فراقه لها، دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾.

المنّة الثالثة: أن تعلم أن وعد الله حقّ، وهو ما جاء بيانه في الآية (٧): ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَىٰ الْيَمِّ وَجَاءَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ فَقَدْ رَدَّهُ اللَّهُ إِلَيْهَا، وسيجعله الله عزّ وجلّ نبياً من الأنبياء، ورسولاً من المرسلين، وقد دلّ على هذه المنّة قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

وقد جاء التعليق على هذه الحقيقة بقول الله عزّ وجلّ: ﴿... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: ولكن أكثر الناس جاهلون لا يعلمون هذه الحقيقة، ولا سيما وعد الله بالبعث والحياة الأخرى، وما فيها من جزاء بالثواب في الجنة دار المؤمنين المسلمين، أو جزاء بالعقاب في النار دار العصاة والمجرمين، ولا يعلمون من الله الكثيرة عليهم.

وقد سبقت النظرات التكامليّة بين هذا النّصّ وما جاء بشأن موضوعه في سورة (طه) في الآيات من (٣٧ - ٤٠).



قال الله عز وجل:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾
وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ
وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ
عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّكَ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي
فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنفَعَتَ عَلَيَّ فَلَن
أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ خَافِيًا يَّرْقُبْ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرُمُ
بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَنَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي
هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَن نَّقْتُلَكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٤٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا
الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ
النَّاصِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

تمهيد:

في هذه الآيات بيان لَقَطَاتٍ مِّنْ قِصَّةِ جَرَثِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام فِي
مِصْرَ، وَهُوَ فِي كِمَالِ رَجُولِيَّةٍ، وَشَبَابِهِ، وَقُوَّةِ جِسْمِهِ، وَسَخَطِهِ عَلَى النِّظَامِ
الْفِرْعَوْنِيِّ الْمَسْغُودِ الْمُضْطَّهِدِ الْمَذِلِّ لِقَوْمِهِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ.

وَتَدُلُّ هَٰذِهِ الْآيَاتُ بِدَلَالَاتِهَا الصَّرِيحَةِ وَيَفْخُوهَا عَلَى أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ
السَّلَام كَانَ عِنْدَ حُدُوثِ هَٰذِهِ الْقِصَّةِ يَسْكُنُ فِي بَعْضِ الْقُصُورِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ،
وَقُصُورِ الْمُلُوكِ تَكُونُ فِي الْعَادَةِ خَارِجَ وَسْطِ الْمَدِينَةِ، أَوْ خَارِجَ أَسْوَارِهَا
إِذَا كَانَتْ لَهَا أَسْوَارٌ.

وَفِي بَعْضِ الْأَيَّامِ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ، وَدَخَلَ وَسْطَ الْمَدِينَةِ فِي وَقْتٍ
يَكُونُ النَّاسُ فِيهِ غَافِلِينَ عَمَّا يَجْرِي مِنْ أَحْدَاثٍ فِي أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ، كَوَقْتِ
الْقِيلُولَةِ، أَوْ مَا بَيْنَ الْمَغْرَبِ الْعِشَاءِ.

ووصل إلى مكانٍ ما وَسَطَ أسواقِ المدينة، فَوَجَدَ إِسْرَائِيلِيًّا ومُضْرِيًّا يتخاصَّمان ويتضاربان تضاربَ تقاتل.

• الإِسْرَائِيلِيُّ من شِيعَتِهِ، أي: من قومه بني إِسْرَائِيل.

• والمُضْرِي من عَدُوِّهِ الَّذِينَ يُسَخِّرُونَ الشَّعْبَ الإِسْرَائِيلِيَّ ظُلْمًا وعدوانًا، ويستعبدونهم.

فطلب الإِسْرَائِيلِيُّ المَعُونَةَ من مُوسَى الإِسْرَائِيلِي، ذي القُوَّةِ المُسْتَنِدَّةِ إلى سُلْطَانِ القَصْرِ الفرعوني في نظر الناس.

فنظر مُوسَى في الخُصُومَةَ بينهما، فَعَلِمَ أَنَّ المِصْرِيَّ هُوَ المَعْتَدِي الظالم الباغي، الذي يُرِيدُ تَسْخِيرَ الإِسْرَائِيلِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ فِي عَمَلٍ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَهُ.

وكان مُوسَى شديدَ القُوَّةِ البَدَنِيَّةِ، وكان المِصْرِيُّ يُهاجِمُ ويُضارب، وأراد مُوسَى أَنْ يُضْلِحَ بينهما، فتناول المِصْرِيُّ وربَّما حاول إبعاد مُوسَى، فأراد مُوسَى أَنْ يَدْفَعَ المِصْرِيَّ انتصاراً للحق، فَدَفَعَهُ بِقَبْضَةِ يَدِهِ القُوَّةِ، فَسَقَطَ المِصْرِيُّ فِي الأَرْضِ قَتِيلًا من قُوَّةِ الدَّفْعِ، أَوْ مِنْ مَكَانِ السَّقُوطِ إِذْ أَصَابَ مِنْهُ مَقْتَلًا.

فَلَمَّا رَأَى مُوسَى أَنَّ القِبْطِيَّ سَقَطَ قَتِيلًا وَلَمْ يَكُنْ يُرِيدُ قَتْلَهُ، نَدِمَ عَلَى مَا جَرَى مِنْهُ، وَقَالَ:

﴿... هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

وَدَعَا رَبَّهُ قَائِلًا:

﴿... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي... ﴿١٦﴾﴾.

وَسَرَّهُ اللهُ فَلَمْ يَفْتَضِخْ أَمْرُهُ، لِأَنَّ الإِسْرَائِيلِيَّ لَمْ يَكْشِفْ عَنْ اسْمِ مُوسَى، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ المِصْرِيِّينَ قَدْ شَهِدَ الحَدَثَ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ ذَكَرَ

لِلنَّاسِ أَوْ لِرَجَالِ الْأَمْنِ أَنَّ رَجُلًا عَابِرًا شَهِدَ خُصُومَتَهُ مَعَ الْمِصْرِيِّ، فَأَرَادَ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُمَا، فَدَفَعَ الْقِطْيَ بِيَدِهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً سَقَطَ بِهَا قَتِيلًا.

فَحَمِدَ مُوسَى رَبَّهُ عَلَى أَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِسِتْرِ مَا جَرَى مِنْهُ، وَلَعَلَّهُ أَذْرَكَ أَنَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ قَدْ يَكُونُ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِ مُجْرِمًا مُذْنِبًا غَيْرَ صَاحِبِ حَقٍّ كَامِلٍ، فَدَعَى رَبَّهُ قَائِلًا:

﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

لَكِنَّ مُوسَى لَمْ يَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ لِعَدَمِ اكْتِشَافِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَ الْمِصْرِيَّ فِي مَكَانٍ مَا مِنْ أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ، فَأُضْبِحَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي خَائِفًا يَتَرَقَّبُ أَقْوَالَ النَّاسِ وَإِشَاعَاتِهِمْ، وَيَخْشَى أَنْ يُشِيرَ أَحَدٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ دَخَلَ أَسْوَاقَ الْمَدِينَةِ فِي أَوَائِلِ اللَّيْلِ الْمُنْصَرِمِ، قَبْلَ سُقُوطِ الْقَتِيلِ.

وَشَاءَتْ أَلْطَافُ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْحَكِيمِ أَنْ يَتَّبِعَ عَنْ مِصْرَ إِلَى مَدِينِ، فَأَجْرَى مُقَادِيرَهُ الْخَفِيَّةَ، فَشَهِدَ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ أَنَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ الَّذِي كَانَ طَلَبَ نُصْرَتَهُ بِالْأَمْسِ، فَتَنَجَّ عَنْ نُصْرَتِهِ لَهُ سُقُوطِ الْمِصْرِيِّ قَتِيلًا بِدَفْعَةٍ دَفَعَهُ إِيَّاهَا بِجُمُعِ يَدِهِ، يَسْتَضِرُّهُ الْيَوْمَ لِنُصْرَتِهِ ضِدَّ مِصْرِيٍّ آخَرَ يُخَاصِمُهُ وَيُقَاتِلُهُ، فَقَالَ مُوسَى لِلْإِسْرَائِيلِيِّ: ﴿... إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿٧٨﴾﴾.

وَأَذْرَكَ الْمِصْرِيُّونَ الشَّهَادَةَ مِنْ هَذَا، أَنَّ مُوسَى هُوَ الَّذِي انْتَصَرَ لِلْإِسْرَائِيلِيِّ بِالْأَمْسِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَ الْمِصْرِيَّ، وَأَخَذَ النَّبَأُ يَشِيعُ.

فَأَرَادَ مُوسَى أَنْ يَنْتَصِرَ لِلْإِسْرَائِيلِيِّ، فَلَمَّا أَقْبَلَ نَحْوَ الْمِصْرِيِّ رَاغِبًا فِي أَنْ يَبْطِشَ بِهِ، قَالَ لَهُ الْمِصْرِيُّ:

﴿يَتَوَسَّى أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وَشَاعَ الْخَبْرُ وَذَاعَ، وَوَصَلَ إِلَى رِجَالِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ أَنْ قَاتِلَ الْمِصْرِيِّ هُوَ مُوسَى.

فَعَقَدَ وُزَرَاءُ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ مَجْلِسَ تَشَاوُرٍ بِشَأْنِ الْحَدَثِ، وَاتَّجَهَتْ الْأَرْأَاءُ لِإِصْدَارِ الْأَمْرِ بِقَتْلِ مُوسَى، عُقُوبَةً لَهُ عَلَى قَتْلِهِ الْمِصْرِيَّ.

وَعَلِمَ بَعْضُ مُحِبِّي مُوسَى بِالْأَمْرِ، فَجَاءَ إِلَيْهِ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، وَقَالَ لَهُ:

﴿يَمُوسَى إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرِجْ إِلَى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

رُبَّمَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ مَوْطَفِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَرُبَّمَا كَانَ مُرْسَلًا مِنْ قَبْلِ مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِمَا يَجْرِي فِيهِ مِنْ مُحِبِّي مُوسَى.

فَأَذْرَكَ مُوسَى خَطُورَةَ الْأَمْرِ، فَقَرَّرَ أَنْ يَهَاجِرَ مُسْتَخْفِيًا مِنْ مِصْرَ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَايَنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ فَجَرَىٰ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧١﴾﴾

• ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾: أي: وَلَمَّا بَلَغَ مُوسَى الْإِسْرَائِيلِيُّ النَّاشِئُ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، اكْتِمَالَ قُوَى رُجُولَتِهِ وَنُضْجِهِ الْفِكْرِيِّ وَالنَّفْسِيِّ.

أَشَدُّ الشَّيْءِ فِي اللُّغَةِ: اكْتِمَالُهُ، وَالْاِكْتِمَالُ يَتَنَاوَلُ مَخْتَلَفَ الْقُوَى الْجَسَدِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ. وَاكْتِمَالُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ.

• ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾: أي: وَاعْتَدَلَ وَاسْتَقَامَ. الْاِسْتَوَاءُ فِي اللُّغَةِ: الْاِسْتِقَامَةُ وَالْاِعْتِدَالُ. فَوُصِفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى بِوَصْفَيْنِ: أَنَّهُ بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَنَّهُ اسْتَوَى.

ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاعْفُزْ لِي فَغَفَرَ لَهُمْ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ :

• ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ في هذه العبارة شروع في بيان حَدِيثِ جَرَى لموسى عليه السلام في مضر، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى، وَلَمْ يَكُنْ حِينَئِذٍ رَسُولًا وَلَا نَبِيًّا.

ومعلوم أن الناس بحسب العادة يكونون في غفلة عما يجري في أسواق المدينة من أحداث في وقتين.

الوقت الأول: وَفَتْ الْقَيْلُولَةَ عند شدة الحر بعد زوال الشمس عن كبد السماء، إذ يَلْجَأُونَ إِلَى السُّكُونِ في بيوتهم، أو دَاخِلَ مَحَلَّاتِهِمِ التَّجَارِيَةِ.

الوقت الثاني: عقب غروب الشمس، عند دخول أول الليل زاحفًا، إذ يَلْجَأُونَ إِلَى الرَّاحَةِ وَالِاتِّفَافِ عَلَى الْمَصَابِيحِ، أو نحو ذلك بعيداً عن أسواق البيع والشراء، كان هذا قبل اكتشاف الكهرباء وتحول معظم الليل إلى مثل النهار.

وَيَتَرَجَّحُ لَدَيْ هَذَا الْوَقْتِ، إِذْ جَاءَ فِي الْآيَةِ (١٨) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِ: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ...﴾ ﴿١٨﴾ : أي: فَدَخَلَ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي حَالَةً كَوْنُهُ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ مَا يَحْدُثُ مِنْ جَرَاءِ قَتْلِهِ الْمَصْرِيِّ، هَلْ وَصَلَ الْعِلْمُ إِلَى رِجَالِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ بِأَنَّهُ هُوَ الْقَاتِلُ؟.

وهذا يدلُّ على أَنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ إِلَى إِغْرَاءَاتِ فِرْعَوْنَ وَرِجَالِ قَصْرِه، فَهُوَ يَخَافُ يَفْتَمَتُهُمْ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَنْلِ حُظُوةَ عِنْدَهُمْ وَلَا تَمْكِينًا.

• ﴿عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ : أي: عَلَى وَقْتِ غَفْلَةٍ عَمَّا يَجْرِي فِي أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ مِنْ أَحْدَاثٍ، وَهَذِهِ الْغَفْلَةُ كَائِنَتْ مِنْ أَهْلِ أَسْوَاقِهَا.

الغفلة عن الشيء: انصراف الذهن عن ملاحظته ومراقبته، مع وجوده في مجال الإدراك، أو وجود أدلته، وإمكان إدراكه لولا وجود الصارف أو السهو. يقال لغة: «غفل عن الشيء يغفل غفولاً وغفلة».

• ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾: أي: فوجد في مكان ما من أسواق المدينة، رجلين يتخاصمان ويتضاربان تضارباً يشبه القتال.

• ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾: في هذه العبارة تفصيل للانتماء القومي لكل من الرجلين اللذين يقتتلان.

هذا من شيعته: أي: هو إسرائيلي، من بني إسرائيل الذين هم الأقلية المضطهدون المستعبدون في مصر في ذلك الوقت.

الشيعة: كل جماعة لهم أمر واحد يشتركون فيه، وموسى يشترك مع الشعب الإسرائيلي حينئذ في النسب، وعدد من الروابط القومية والجذور الدينية.

وهذا من عدوه: أي: هو مصري، من قوم فرعون الذين هم الجمهور الأعظم في مصر، وهم بالتمكين الفرعوني لهم يضطهدون الإسرائيليين ويستعبدونهم ويسخرونهم في الأعمال بغير حق.

وبسبب هذا الإذلال والاستعباد كان المصريون أعداء للإسرائيليين.

• ﴿فَاسْتَعَاثُوهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾:

الاستغاثة: طلب العون، أو النضر، أو طلب المساعدة على كشف نازلة، أو دفع مصيبة، أو قضاء حاجة شديدة، ونحو ذلك.

أي: فاستعاث الإسرائيلي بموسى لينصره على المضري الظالم.

• ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾:

فوكزه: يأتي الوكر في اللغة للدلالة على معنى الدفع، والضرب،

ويقال: «وَكَزَّهُ، يَكْزُهُ وَكَزَأَ»: أي: ضَرَبَهُ بِجُمُعِ يَدِهِ عَلَى ذَقْنِهِ.

أقول: لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُوسَى قَدْ بَدَأَ لَهُ أَنْ الْقَبِيطِيُّ هُوَ الْمُعْتَدِي الظَّالِمِ للإسرائيلي، بَعْدَ أَنْ حَاوَلَ أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَهُمَا، مَعَ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ضَغِينَةٍ عَلَى مُسْتَعْبِدِي قَوْمِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ. لَكِنَّ الْمَصْرِيَّ بَدَأَ يَتَطَاوَلُ بِالْهُجُومِ الْقِتَالِيِّ عَلَى الإِسْرَائِيلِيِّ، وَمُوسَى يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا، وَرَبَّمَا تَطَاوَلَ عَلَى مُوسَى، وَثَارَتْ حَفِيزَةُ مُوسَى، فَأَرَادَ أَنْ يَدْفَعَ الْمَصْرِيَّ عَنِ الإِسْرَائِيلِيِّ، وَكَانَ ذَا قُوَّةٍ شَدِيدَةٍ فَوَكَزَ الْمَصْرِيَّ بِجُمُعِ يَدِهِ عَلَى ذَقْنِهِ، فَسَقَطَ بِهَا الْمَصْرِيَّ قَتِيلًا، وَهَذِهِ مِنَ الْكِبَائِرِ الْكُبْرَى عِنْدَ رِجَالِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، أَنْ يَقْتُلَ إِسْرَائِيلِيٌّ مِصْرِيًّا.

● ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾: أي: فَقَتَلَهُ، عبارة جَرَى بِهَا الاسْتِعْمَالُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى. يُقَالُ فِي الاسْتِعْمَالِ الْعَرَبِيِّ: «ضَرَبَهُ فَقَضَى عَلَيْهِ» أَي: فَقَتَلَهُ.

● ﴿... قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (١٥):

لَمَّا رَأَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَصْرِيَّ قَتِيلًا، لَمْ نَفْسُهُ عَلَى حِدَّةٍ نَفْسِهِ وَتَسْرُعِهِ وَضَرْبِهِ الْمَصْرِيَّ ضَرْبَةً قَصْدَ بِهَا دَفْعَهُ وَلَمْ يَقْصِدْ قَتْلَهُ، وَذَكَرَ أَنَّ مَا جَرَى مَعَهُ مِنْ تَسْرُعٍ، قَدْ كَانَ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ، لَا مِنْ عَقْلِ وَرَوِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ.

ووصف الشيطانَ بِأَنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ وَاضِحُ الْإِضْلَالِ لِلإِنْسَانِ، لِيُخْرِجَهُ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَأَذْرَكَ مُوسَى أَنَّ وَظِيفَتَهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ أَنْ يَكُونَ مُصْلِحًا بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ، لَا أَنْ يَكُونَ قَاضِيًا وَحَاكِمًا وَمُنْفِذًا حُكْمَهُ، إِذْ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ الرِّعْيَةِ، وَلَوْ فِي دَوْلَةٍ كَافِرَةٍ، أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ حَاكِمًا وَمُنْفِذًا أَحْكَامَهُ، إِذْ لَا تَتَعَدَّى صِلَاحِيَّاتُ أَيِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الرِّعْيَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ حُدُودَ الْإِضْلَاحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ، أَمَامَ أَسْسِ الْحَقِّ الْوَاجِبِ الَّتِي تَنْفِقُ عَلَيْهَا الْعُقُولُ، وَنَزَلَتْ بِهَا شَرَائِعُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ.

وإِذْ أَدْرَكَ مُوسَىٰ هَٰذَا:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾: أي: رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ عَمَلًا مُنْكَرًا مِنْ مِثْلِي لَمْ تَأْمُرْنِي بِهِ، وَلَمْ تَأْذَنْ لِي بِهِ، فَظَلَمْتُ نَفْسِي بِإِزْتِكَابِهِ، فَاغْفِرْهُ لِي وَاغْفِرْ كُلَّ خَطَايَايَ.

غَفِرَ الذَّنْب: سَتَرَهُ، وَهَٰذَا يَسْتَلْزِمُ مَعَ فَضْلِ اللَّهِ التَّجَاوُزَ عَنْهُ وَعَدَمَ الْمُوَاحَدَةِ عَلَيْهِ.

• ﴿...فَفَعَّرَ لَهُ﴾ إِنَّكُمْ هُوَ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ ﴿﴾: أي: فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ فَعَفَّرَ لَهُ.

وَعَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ هُوَ وَخَدَهُ فِي الْوُجُودِ كُلَّهُ الْعَفْوَ الرَّحِيمَ.

الْعَفْوَ: أي: الكثير المغفرة، والعظيم المغفرة. صيغة: «فَعُول» من صَيَغِ الْمَبَالِغَةِ لاسِمِ الْفَاعِلِ.

الرَّحِيم: أي: الكثيرُ والعظيم الرَّحْمَةُ. صيغة «فَعِيل» من صَيَغِ الْمَبَالِغَةِ أَيْضًا لاسِمِ الْفَاعِلِ.

الرَّحْمَةُ: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْجَلِيلَةِ، وَهِيَ صِفَةُ نَفْسِيَّةٍ نُشِبَتْهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَمِنْ آثَارِهَا الْعَطَاءُ، وَالْمَعُونَةُ، وَالتَّوْفِيقُ، وَإِزَالَةُ الْبُؤْسِ، وَالْإِمْدَادُ بِمَا يَسْرُ، وَيُسَكِّنُ النَّفْسَ، وَيُظَمِّنُ الْقَلْبَ، وَيُمَتِّعُ ذَا الْحَيَاةِ بِمَا يَطِيبُ لَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

• ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾: ﴿٧﴾

دَلَّتْ هَٰذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى قَضِيَّتَيْنِ.

القَضِيَّةُ الْأُولَى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْعَمَ عَلَى مُوسَى بِسِتْرِ قَتْلِهِ لِلْقَبْطِيِّ، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَتْ حَادِثُهُ الْقَتْلُ فِي أَوَائِلِهَا.

القَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّهُ أَذْرَكَ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ الْإِسْرَائِيلِيُّ هُوَ الْمَذْنِبُ، وَأَنَّهُ قَدْ نَصَرَهُ دُونَ حَقٍّ، بدافع ولائِهِ لِقَوْمِهِ، وَرُبَّمَا ظَهَرَ لَهُ مِنَ الْأَمَارَاتِ مَا رَجَحَ لَدَيْهِ هَذَا الظَّنَّ، فعَاهَدَ رَبَّهُ أَنْ لَا يَكُونَ مُنَاصِرًا لِأَيِّ مُذْنِبٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ قَوْمِهِ وَشِيعَتِهِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، أَوْ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ.

ظَهِيرًا: أَي: معينًا. الظهير: هو في اللغة المعين، يُسْتَعْمَلُ هَكَذَا للواحد والجمع.

المُجْرِمُ: المتعدي بذنب كبير.

• ﴿فَأَصْحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾:

• ﴿فَأَصْحَ﴾: أَي: فَدَخَلَ فِي الصَّبَاحِ، وَهُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ.

• ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾: أَي: يَسِيرُ فِي أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ، حَيْثُ الْمَوَاضِعُ وَالْأَسْوَاقُ اتِي سَارَ فِيهَا بِالْأَمْسِ.

• ﴿خَائِفًا﴾: أَي: خَائِفًا مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ انْتَشَرَ بَيْنَ النَّاسِ فِيهَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَ الْقِبْطِيَّ بِالْأَمْسِ، فَيَصِلَ الْأَمْرُ إِلَى الْقَضْرِ الْفَرَعُونِيِّ، فَيُعَاقَبَ عَلَى ذَلِكَ بِالْقَتْلِ.

• ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: أَي: يُلَاحِظُ بَانْتِبَاهٍ شَدِيدٍ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ مَا يَتَّصِلُ بِقَتْلِ الْأَمْسِ وَمَنْ قَتَلَهُ.

• ﴿فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾: أَي: ففوجىء موسى بأنَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ الَّذِي طَلَبَ نَصْرَتَهُ بِالْأَمْسِ عَلَى الْمِصْرِيِّ يَسْتَعِيثُ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى، طَالِبًا أَنْ يَنْصُرَهُ عَلَى مِصْرِيٍّ آخَرَ.

• ﴿يَسْتَصْرِخُونَ﴾: أي: يَصيحُ مُستغيثاً به .

• ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ (٨): أي: قَالَ مُوسَى للإسرائيلي: إِنَّكَ لَمُعمِنٌ فِي الضَّلَالِ ظَاهِرِ البُعْدِ عَنِ جَادَةِ الْحَقِّ.
الغَوِي: الْمُعمِنُ فِي الضَّلَالِ بُعْداً عَنِ صِرَاطِ الْحَقِّ.

فأذَرَكَ شُهُودَ الْحَدَثِ فِي السُّوقِ أَنَّ مُوسَى هُوَ الَّذِي اسْتَعَاثَ بِهِ الإِسْرَائِيلِيُّ بِالْأَمْسِ، فَنَصَرَهُ فَقَتَلَ خَصَمَهُ الْمَصْرِيَّ، وَأَخَذَ النَّاسُ يَتَهَامِسُونَ بِهَذَا وَيُشِيعُونَ الْخَبَرَ، وَوَصَلَ النَّبَأُ إِلَى أَسْمَاعِ رِجَالِ الْأَمْنِ، فَتَقَلَّبُوا بِسُرْعَةٍ إِلَى رُؤَسَائِهِمْ، وَوَصَلَ الْأَمْرُ إِلَى ذَوِي السُّلْطَةِ فِي الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ.

• ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا...﴾ دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ مُوسَى أَخَذَتْهُ حِدَّةُ الْإِنْتِصَارِ لِقَوْمِهِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ، فَأَقْبَلَ نَحْوَ الْمَصْرِيِّ، لِيُضْلِحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الإِسْرَائِيلِيِّ فِيمَا يَظْهَرُ، وَفِي نَفْسِهِ أَنْ يَبْطِشَ بِالْقَبْطِيِّ إِذَا رَأَاهُ ظَالِماً، وَأَنْ يَحْبِسَ نَفْسَهُ عَنِ التَّسَرُّعِ حَتَّى يَسْتَوْثِقَ:

• ﴿قَالَ يَبْطِشُ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (٩):

قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ: [يَبْطِشُ]. كَسَرَ الطَّاءَ وَضَمَّهَا لَغْتَانِ عَرَبِيَّتَانِ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

يَظْهَرُ أَنَّ الْمَصْرِيَّ هَذَا كَانَ هُوَ الْمَعْتَدِي الظَّالِمَ، فَأَسْرَعَ إِلَى اتِّهَامِ مُوسَى بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَ الْقَبْطِيَّ بِالْأَمْسِ، اعْتِمَاداً عَلَى الظَّنِّ الَّذِي حَفَّتْ بِهِ الْأَمَارَاتُ الْمَرْجَحَاتُ، وَلِيُشِيعَ هَذَا فِي شُهُودِ الْحَدَثِ، وَلِيَصُدَّ مُوسَى عَنْ أَنْ يَتَدَخَّلَ فِي الْأَمْرِ مُضْلِحاً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الإِسْرَائِيلِيِّ، وَفَجَرَ فِي شَتِيمَتِهِ لِمُوسَى، فَقَالَ لَهُ: مَا تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ بَيْنَ الْخُصَمَاءِ، وَفِي هَذِهِ الشَّتِيمَةِ إِثَارَةٌ لِحَفِظَةِ رِجَالِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ عَلَى مُوسَى إِذَا وَصَلَهُمُ النَّبَأُ بِمَا جَرَى.

• ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾: أي: مَا تُرِيدُ، فحرف «إِنْ» هنا حَرْفُ نَفْيٍ بمعنى «ما».

• ﴿جَبَّارًا﴾: أي: مُتَسَلِّطًا بِالْقُوَّةِ، يُكْرِهُ النَّاسَ عَلَى مَا يُرِيدُ بِالْقُوَّةِ وَالْعُنْفِ وَالْفَهْرِ. وَيَأْتِي الْجَبَّارُ بِمَعْنَى الْمَتَكَبِّرِ الْعَاتِي، وَالْمُؤَدِّي وَاحِدٌ.

• ﴿مِنَ الْمُضْلِحِينَ﴾: أي: مِنَ الْمُضْلِحِينَ بَيْنَ الْخُصَمَاءِ. يُقَالُ لُغَةً: «أُضْلِحَ بَيْنَ الْخُصَمَاءِ» أَي: أَرَاَلَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ عَدَاوَةٍ وَخِلَافٍ وَشِقَاقٍ.

قول الله تعالى مُتَابِعاً قِصَّةَ هَذَا الْحَدَثِ:

• ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتِيُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (١٢٠).

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ مَا أَدْرَكَهُ أَهْلُ سُوقِ الْمَدِينَةِ، مِنْ أَنَّ مُوسَىٰ هُوَ الَّذِي قَتَلَ الْقَبِيْطِيَّ بِالْأَمْسِ، قَدْ وَصَلَ إِلَى مَلَأِ الْقَوْمِ، وَهُمْ رِجَالُ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِي، عَنْ طَرِيقِ رِجَالِ الْأَمْنِ، وَأَنَّهُمْ عَقَدُوا مَجْلِسًا وَزَارِيًا عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ، وَأَخَذُوا يَتَشَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ لِلْحُكْمِ عَلَى مُوسَىٰ بِالْقَتْلِ، حَتَّى لَا يَتَجَرَّأَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ عَلَى السُّلْطَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، وَيَطَالِبُوا بِالتَّحَرُّرِ مِنْ ذَلِكَ الْاسْتِعْبَادِ وَالتَّسْخِيرِ فِي مِضْرٍ.

وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ يُوجَدُ فِي أُخْبَتِ الْأَمَاكِنِ، ظُلْمًا وَكُفْرًا وَعُدْوَانًا، مَنْ يُذَرِّكُ الْحَقَّ وَيُحَاوِلُ نُضْرَتَهُ عَلَى قَدْرِهِ، فَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ حَيْثُ تُوجَدُ الْقُصُورُ الْفِرْعَوْنِيَّةُ، يَسْعَى بِهِمَّةٍ وَسُرْعَةٍ وَنَشَاطٍ لِّيَصِلَ إِلَى مُوسَىٰ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُحِبِّي الْحَقِّ وَالْعَامِلِينَ لِنُضْرَتِهِ عَلَى مِقْدَارِ اسْتِطَاعَتِهِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَعْرِفُ فَضَائِلَ مُوسَىٰ وَأَخْلَاقَهُ وَكَمَالَاتِهِ، وَأَنَّهُ وَقَوْمُهُ مُسْتَعْبِدُونَ فِي مِضْرٍ بَغِيرِ حَقٍّ. لَقَدْ عَلِمَ هَذَا الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ أَوْ مِنْ بَعْضِ رِجَالِ الْقَصْرِ أَوْ مُوْظَفِيهِ أَنَّ مَجْلِسَ وَزَرَاءِ فِرْعَوْنَ وَكِبَرَاءِ مُسْتَشَارِيهِ عَقَدُوا مَجْلِسًا لِلتَّشَاوُرِ فِي قَتْلِ مُوسَىٰ، وَالتَّخْلُصِ

مِنْ فَتَنَتِهِ وَأَثَارَهَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاسْرَعَ يَسْعَى لِيُبَلِّغَ مُوسَى النَّبَأَ الْخَطِيرَ وَلِيُنْصَحَهُ بِأَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْبِلَادِ مَهَاجِرًا مِنْ مِصْرَ كُلِّهَا.

• ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾: أي: من أبعد مساكنها عن أسواقها ومتاجرها.

• ﴿يَسْعَى﴾: أي: يسير سيراً فوق المشي المعتاد، ودون العدو.

وهذا السعي يدل على حرص الرجل على أن يصل إلى موسى ويبلغه النبأ قبل فوات الأوان.

• ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنَّكَ أَلَمَلًا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾

• ﴿أَلَمَلًا﴾: أشراف القوم وسرّاتهم الذين يملؤون عيون العامة. والمراد هنا وزراء فرعون ومجلس مستشاريه.

• ﴿يَأْتِمِرُونَ بِكَ﴾: أي: يتشاورون فيما بينهم بأمر قتلِكَ المضري.

• ﴿لَيَقْتُلُوكَ﴾: أي: يتشاورون بشأنك ليحكموا عليك بالقتل، لأنك قتلت القبطي انتصاراً للإسرائيليين.

• ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾: أي: فاخرج من أرض مصر كلها مهاجراً حتى لا يظفروا بك فيقتلوه، وأؤكد لك أنني لك ناصح من الناصحين، فالأمر خطير بالنسبة إليك، لأنه إذا صدر الأمر بقتلك لم تستطع أن تتخلص من أيدي زبانية فرعون ورجال دولته.

فاستجاب موسى لنصح الرجل الصادق الناصح.

قال الله عز وجل:

﴿خَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَذْيَبٌ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَذْيَبٍ

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يَصْدِرَ الزَّكَاةُ وَأَوْنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ آتِي يَدْعُوكَ لِجَعَلِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبْأَبِ اسْتَفْجِرْ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرَ الْقَوِيُّ الْآمِنُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُشْقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ .

تمهيد:

في هذه الآيات بيان قصة خروج موسى من مضر مهاجراً، في اتجاه سيناء، ووضوله إلى مدين، وزواجه من ابنة الرجل الصالح فيها من الذين آمنوا بشعيب عليه السلام واتبعوه، وما رافق هذه القصة من أحداث.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾﴾ :

أي: فاستجاب موسى لنصح الرجل الذي أخبره بأن ملأ القوم ياتَمِرُونَ بشأنه ليقتلوه، فشرع في الخروج من مضر كلها حالة كونه خائفاً من أن يصدُر الأمر بالقُبْض عليه، وسوقه لتنفيذ حُكْم القتل به، وحالة كونه يلاحظ بانتيابه شديد بسمعِهِ وبصرِهِ ما يتعلّق بالحُكْم عليه بالقتل،

وَبِالْقَبْضِ عَلَيْهِ أَيْنَمَا وَجَدَ. وَسَأَلَ رَبُّهُ دَاعِيًا مَعَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ مِنْ شُرُوعِهِ فِي الْخُرُوجِ قَائِلًا: ﴿رَبِّ يَنْجِنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَلَا قِتْرَانِ هَذَا الدُّعَاءِ بِأَوَّلِ خُطَوَاتِ الْخُرُوجِ، جَاءَ فَعَلَ ﴿قَالَ﴾ مَفْضُولًا دُونَ حَرْفِ عَظْفٍ. أَي: ففعل ما يلي:
خرج - قال.

﴿رَبِّ يَنْجِنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ رَبُّ: أَي: يَا رَبِّي، حُذِفَتْ أَدَاءُ النِّدَاءِ، وَهُوَ الْأَدَبُ فِي نِدَاءِ الرَّبِّ، إِذْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَى مُنَادِيهِ مِنْ وَرِيدِهِ الْمُتَعَلِّقِ بِقَلْبِهِ. وَحُذِفَتْ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ وَأُبْقِيَتِ الْكُسْرَةُ دَلِيلًا عَلَيْهَا، وَهَذَا جَائِزٌ عَرَبِيًّا، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ بِلَاغِيًّا فِي دُعَاءِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ دُعَاءِ الرَّبِّ جَاءَ بِعِبَارَةِ «رَبِّ» إِلَّا فِي مَوْضِعَيْنِ هُمَا فِي ذَاتِ اللَّهِ وَمَنْ أَجَلَ دِينَهُ فَجَاءَ: [يَا رَبَّ].

﴿يَنْجِنِي﴾: أَي: خَلِّصْنِي. يُقَالُ لُغَةً: «نَجَّى فُلَانٌ فُلَانًا تَنْجِيَةً» أَي: خَلَّصَهُ مِنْ مَكْرُوهِ مُتَوَقِّعِ الْحُدُوثِ.

﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: أَي: مَنْ فِرْعَوْنُ وَالْكَفَرَةُ مِنْ آلِهِ، وَمَنْ جُنُودُهُمْ. وَقَدْ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ لِإِعْلَامِهِ بِكُفْرِهِمْ، وَبَأَعْمَالِهِمُ الظَّالِمَةَ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَمِنْهَا أَنَّهُمْ إِذَا قَرَّرُوا قَتْلَهُ فَإِنَّهُمْ يَظْلِمُونَهُ بِذَلِكَ، إِذْ لَمْ يَقْتُلِ الْمَضْرِيَّ مُتَعَمِّدًا قَتْلَهُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ دَفْعَهُ وَإِبَاعَدَهُ، فَتَنَجَّ عَنْ ذَلِكَ أَنَّهُ سَقَطَ قَتِيلًا، لَكِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ يُرِيدُونَ التَّخْلُصَ مِنْهُ بِالْقَتْلِ، لِأَنَّهُ إِسْرَائِيلِيٌّ يُدَافِعُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مَضَرٍّ، وَيُثِيرُ فِي نَفُوسِهِمْ دَوَافِعَ الْخَلَاصِ مِنَ الْاسْتِعْبَادِ الْفِرْعَوْنِيِّ لَهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

قول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿٢٢﴾:

﴿تِلْقَاءَ﴾: مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ لَقِيَ الشَّيْءَ. يُقَالُ لُغَةً: «لَقِيَ فُلَانٌ الشَّيْءَ لِقَاءً، وَتِلْقَاءً، وَلِقِيًّا» أَي: اسْتَقْبَلَهُ.

وهو حالٌ على تَنْزِيلِهِ مُنْزَلَةً اسمُ الفاعل، والمعنى: ولَمَّا تَوَجَّهَ مُسْتَقْبِلًا مَدِينٍ. أو هو نائب مفعول مطلق، والمعنى على هذا: ولَمَّا تَوَجَّهَ تَوَجُّهًا كائناً تَلَقَاءَ مَدِينٍ واستَقْبَالاً لها، عالماً بهذا أو غَيْرَ عالمٍ.

• ﴿مَدِينٌ﴾: هَذَا اللَّفْظُ هُوَ فِي الْأَصْلِ اسْمٌ لِقَبِيلَةٍ «شُعَيْبٌ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأُظْلِقَ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى مَكَانِ إِقَامَتِهِمْ، فَسُمِّيَتِ الْبَلَدَةُ بِاسْمِهِمْ. وَهِيَ مَدِينَةُ خَرَابٍ عَلَى بَحْرِ الْقَلَزَمِ (= الْبَحْرُ الْأَحْمَرُ) وَهِيَ مُحَازِيَةٌ لَتَبُوكَ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، عَلَى نَحْوِ سِتِّ مَرَا حِلِّ مِنْهَا^(١).

• ﴿قَالَ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: أَي: قَالَ: أَرْجُو مِنْ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي وَسَطَ السَّبِيلِ الَّذِي يُنْجِينِي بِسُلُوكِهِ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فِي مِصْرَ، فَأَخْرَجَ عَنْ حُدُودِ سُلْطَانِهِمْ، إِلَى أَرْضٍ لَا سُلْطَانَ لَهُمْ عَلَيْهَا.

• ﴿عَسَىٰ﴾: فِعْلٌ غَيْرُ مُتَصَرِّفٍ، مَعْنَاهُ الْمَقَارَبَةُ عَلَى سَبِيلِ التَّرَجِّيِ وَالتَّوَقُّعِ الْمَقْرُونِ بِالظَّنِّ الرَّاجِحِ.

﴿أَن يَهْدِيَنِي﴾: أَي: أَن يَحْقُقَ لِي بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ الْهَدَايَةَ. ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: أَي: وَسَطُهُ، وَهُوَ أَعْدَلُهُ وَأَعْلَاهُ. السَّبِيلُ: الطَّرِيقُ. يُقَالُ لُغَةً: «هَذَا الطَّرِيقُ، وَهَذَا لَهُ، وَهَذَا إِلَيْهِ» أَي: بَيْنَهُ لَهُ، وَأَوْضَحَهُ لَهُ، وَأَرْشَدَهُ إِلَيْهِ، وَأَعْلَمَهُ بِهِ.

قول الله تعالى:

• ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿١٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٤﴾﴾:

دَلَّ هَذَا الْبَيَانَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا سَوَاءَ السَّبِيلِ حَتَّى وَصَلَ
أَرْضَ مَدْيَنَ، وَوَرَدَ مَاءَ أَهْلِهَا، وَهُوَ بِثَرٍّ يَسْقُونَ مِنْهُ، وَيَسْقُونَ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ
وَدَوَابَّهُمْ.

• ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾: أي: وَحِينَ أَشْرَفَ مُوسَى عَلَى الْأَرْضِ
الَّتِي فِيهَا مَاءَ مَدْيَنَ، وَوَصَلَ إِلَيْهَا، فِي الْكَلَامِ مُضَافٌ مَحذُوفٌ، أي: وَرَدَ
أَرْضَ مَاءِ مَدْيَنَ.

يُقَالُ لُغَةً: «وَرَدَ فَلَانُ الْمَكَانَ، وَوَرَدَ عَلَيْهِ» أي: أَشْرَفَ عَلَيْهِ دَخَلَهُ أَمْ
لَمْ يَدْخُلْهُ.

• ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾: أي: وَجَدَ عَلَى مَاءِ مَدْيَنَ
جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةً مَا، يَسْقُونَ مِنْ مَاءِ الْبِثْرِ أَنْعَامُهُمْ
وَدَوَابَّهُمْ، أي: فَهُمْ يَسْتَخْرِجُونَ الْمَاءَ بِالْذَّلَاءِ وَيَصُبُّونَهُ فِي نَحْوِ أَجْرَانِ،
لِتَشْرَبَ أَنْعَامُهُمْ وَدَوَابُّهُمْ مِنْهَا.

• ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾: أي: وَوَجَدَ مُوسَى مِنْ
خَلْفِ الْأُمَّةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَسْقُونَ، امْرَأَتَيْنِ تَذْفَعَانِ وَتُبْعِدَانِ أَنْعَامَهُمَا عَنِ
الْمَاءِ.

﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾: الْمُرَادُ هُنَا: مِنْ خَلْفِهِمْ، وَهَذَا مِنْ مَعَانِي اسْتِعْمَالِ
كَلِمَةِ «دُونِ».

﴿تَذُودَانِ﴾: أي: تَذْفَعَانِ وَتُبْعِدَانِ أَنْعَامَهُمَا عَنِ الْمَاءِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا
كَانَتْ أَغْنَامًا، حُذِفَ الْمَفْعُولُ بِهِ إِيْجَازًا لِلْعِلْمِ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ.

يُقَالُ لُغَةً: «ذَادَهُ، يَذُودُهُ، ذُودًا، وَذِيَادًا» أي: دَفَعَهُ وَأَبْعَدَهُ، وَمِنْهُ ذُودُ
الدَّوَابِّ عَنِ الْمَوَارِدِ.

• ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾: أي: قَالَ مُوسَى لِلْامْرَأَتَيْنِ: مَا شَأْنُكُمَا وَمَا

حَالِكُمَا الَّذِي جَعَلَكُمَا تَذَوْدَانِ أُنْعَامُكُمَا عَنِ الْمَاءِ، وَلَا تُشَارِكَانِ الْأُمَّةَ
يَسْقِي أُنْعَامُكُمَا مِنَ الْمَاءِ. الخطب: الشأن والحال.

• ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٣٧):

قرأ أبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر: [يُصْدِر] مِنْ فَعَلَ: «صَدَرَ
يُصْدِرُ» أي: انصرف.

وقراها باقي القراء العشرة: [يُصْدِر] من فَعَلَ «أُصْدِرُهُ» أي: حَتَّى
يَصْرِفُوا مواشيَهُمْ من بَعْدَ أَنْ يَسْقَوْهَا.

يقال لغة: «صَدَرَ الرِّعَاءُ» أي: انصرفوا. ويُقَالُ: «أُصْدَرَ الرِّعَاءُ
دَوَابَّهُمْ» أي: سَقَوْهَا وَصَرَفَوْهَا.

ومؤدَّى القراءتين واحد، وفيهما تَفَنُّ.

﴿الرِّعَاءُ﴾ جمعُ مُفْرَدِهِ «الرَّاعِي» وهو مَنْ يَحْفَظُ الْمَاشِيَةَ وَيَرْعَاهَا،
وَيُجْمَعُ أَيْضاً عَلَى «رُعَاةٍ» وَ«رُعِيَانٍ».

والمعنى: لَا نُرَاجِمُ النَّاسَ فِي سَقْيِ مُوَاشِينَا أَدْبَاءً وَحَيَاءً، بَلْ نَنْتَظِرُ
حَتَّى يَنْتَهِيَ النَّاسُ مِنْ سَقْيِ مُوَاشِيهِمْ وَيَنْصَرِفُوا، وَبَعْدَئِذٍ نَسْقِي مُوَاشِينَا.

وَالسَّبَبُ فِي قِيَامِنَا بِوُظُفَةِ سَقْيِ مُوَاشِيِ أَبِينَا، أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا إِخْوَةٌ ذُكُورٌ
لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْوُظُفَةِ، وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرِدَ الْمَاءَ وَيَسْقِي
مُوَاشِيَهُ.

اعْتَذَرُوهَا عَنْ أَبِيهِمَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي أُسْرَتِهِمَا ذَكَرٌ غَيْرُهُ
يَسْقِي مُوَاشِيَهُ، وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ عَاجِزٌ عَنِ الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْوُظُفَةِ.

قول الله تعالى:

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ

فَقِيرٌ﴾ (٢٤):

أي: فَدَفَعْتُ مُوسَى الْأَرْيَحِيَّةَ وَالشَّهَامَةَ وَالرَّغْبَةَ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ
وَمُسَاعَدَةِ الْمَرْأَتَيْنِ الضَّعِيفَتَيْنِ، فَسَقَى لَهُمَا مَوَاشِيَهُمَا، إِذْ صَارَ يَسْتَخْرِجُ
الْمَاءَ مِنَ الْبُئْرِ بِالذَّلَاءِ، وَيَصُبُّ فِي الْأَجْرَانِ، فَتَشْرَبُ مَا شِئْتُهُمَا.

جاء عند المفسرين أقوال ليس لها سند عن الرسول ﷺ، منها ما يلي:

• سَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ لَمْ يَأْكُلْ إِلَّا الْبَقْلَ
وَوَرَقَ الشَّجَرِ، حَتَّى لَصِقَ بَطْنُهُ بِظَهْرِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنَّ خُضْرَةَ الْبَقْلِ لَتَرَى
مِنْ دَاخِلِ جَوْفِهِ.

• وَكَانَ يَمْشِي حَافِيًا، وَسَقَطَتْ نَعْلَا قَدَمَيْهِ مِنَ الْحَقَاءِ.

• وَكَانَ لِبُئْرِ مَدْيَنَ غِطَاءٌ حَجَرِيٌّ عَظِيمٌ، وَكَانَ الرُّعَاءُ إِذَا فَرَّغُوا مِنْ
وَرْدِهِمْ وَضَعُوا هَذَا الْغِطَاءَ الْحَجَرِيَّ عَلَى فَمِ الْبُئْرِ، وَكَانَ لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا
عَشْرَةُ رِجَالٍ، فَرَفَعَهُ مُوسَى وَحْدَهُ، ثُمَّ رَدَّهُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ سَقَى
لَهُمَا. وَكَانَتِ الْمَرْأَتَانِ تَسْقِيَانِ أَغْنَامَهُمَا فِي فَضْلِ أَغْنَامِ النَّاسِ.

وَإِذْ لَا تُوجَدُ أَسَانِيدُ تُصَحِّحُ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فَلَا دَاعِيَ لَاجْتِمَادِهَا.

﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾: أي: وَبَعْدَ أَنْ سَاقَتِ الْمَرْأَتَانِ أَغْنَامَهُمَا،
وَابْتَعَدَتَا فِي اتِّجَاهِ دَارِ أَبِيهِمَا فِي مَدْيَنَ، إِذْ كَانَتِ الْبُئْرُ فِي خَارِجِ مَسَاكِنِ
الْبَلَدَةِ، وَكَانَ مُوسَى يَتَجَوَّلُ فِي الشَّمْسِ حَوْلَ الْبُئْرِ، فَسَى عَلَيْهِ حَرُّ الشَّمْسِ
قَلِيلًا فَاخْتَارَ أَنْ يَجْلِسَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ لَيْسَتْ قَرِيبَةً مِنَ الْمَاءِ.

دَلَّ حَرْفُ «ثُمَّ» عَلَى تَرَاخٍ زَمَنِيِّ بَيْنَ عَمَلِهِ الْمَبْرُورِ وَبَيْنَ لُجُؤِهِ إِلَى
ظِلِّ الشَّجَرَةِ، وَنَدِيرُكَ أَنَّ الْمَرْأَتَيْنِ قَدْ ابْتَعَدَتَا بِأَغْنَامِهِمَا عَنْ مَكَانِ الْبُئْرِ فِي
اتِّجَاهِ مَسَاكِنِ مَدْيَنَ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ.

﴿تَوَلَّى﴾: أي: ابْتَعَدَ عَنْ مَكَانِ الْبُئْرِ لِيَجْلِسَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ذَاتِ

ظِلٍّ.

فالمعنى: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتْرَاخِيَةٍ نَسِيًّا، ابْتَعَدَ عَنْ مَكَانِ الْبَيْتِ، وَأَوَى إِلَى ظِلِّ شَجَرَةٍ ذَاتِ ظِلٍّ، لَيْسَتْ قَرِيبَةً مِنَ الْبَيْتِ بِدَلِيلِ فِعْلِ ﴿تَوَلَّى﴾ أَي: ابْتَعَدَ، وَرُبَّمَا أَدْبَرَ أَيْضًا، أَي: أَعْطَى ظَهْرَهُ إِلَى جِهَةِ الْبَيْتِ، وَجَعَلَ وَجْهَهُ فِي اتِّجَاهِ مَسَاكِينِ الْبَلَدَةِ، إِذْ لَفْظُ ﴿تَوَلَّى﴾ يُعْطَى أَيْضًا مَعْنَى أَذْبَرَ.

• ﴿... فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤):

أَي: فَحِينَ وَصَلَ إِلَى الشَّجَرَةِ وَجَلَسَ فِي ظِلِّهَا سَأَلَ رَبَّهُ قَائِلًا: رَبِّ إِنِّي لِمَا سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ إِلَيَّ مِنَ النَّجَاةِ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَالْوُصُولِ إِلَى مَاءٍ مَذِينٍ، وَالِاسْتِظْلَالِ آمِنًا فِي ظِلِّ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، قَدْ كُنْتُ فَقِيرًا، وَفِي هَذَا ثَنَاءٍ عَلَى اللَّهِ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَإِنْعَامًا، وَأَلْمَحَ بِهَذَا الدُّعَاءِ إِلَى فَقْرِهِ إِلَى مَا سَيُنْزِلُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ يَتَرَقَّبُ تَوَالِي حُصُولِهِ، وَمِنْهُ تَأْمِينُ طَعَامِهِ وَسَكْنِهِ، وَتَزْوِيجُهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ عَفِيفَةٍ تُعِفُّهُ وَتَكُونُ لَهُ سَكَنًا.

الفقير: مَنْ كَانَ ذَا حَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ مَا وَهُوَ غَيْرُ وَاجِدٍ لَهُ.

وفي الكلام مطويٌّ يَسْهُلُ إِذْرَاكُهُ، وَهُوَ أَنَّ الْمَرَاتَيْنِ وَصَلْنَا إِلَى أَبِيهِمَا وَأَخْبَرْتَاهُ خَبَرَ الرَّجُلِ الَّذِي سَقَى لَهُمَا، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ، بَلْ هُوَ رَجُلٌ غَرِيبٌ.

قول الله عز وجل:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ إِلَى يَدْعُوكَ لِجَعَزِكَ أَجَرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥):

• ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾: أَي: فَعَقِبَ دُعَائِهِ رَبَّهُ مُبَاشَرَةً، وَجَدَ أَنَّ إِحْدَى الْمَرَاتَيْنِ قَدْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ عَائِدَةً بِرِسَالَةٍ كَلَامِيَّةٍ مِنْ أَبِيهَا، وَوَجَدَ أَنَّهَا تَمْشِي مَشْيًا رَفِيقًا قَدْ انْضَمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَكَانَتْهَا عَلَى مَطِيَّةٍ

اسْتَحْيَاءَ، خَجَلًا مِنْ أَنْ تَأْتِي وَخَذَهَا وَتُكَلِّمَ رَجُلًا لَيْسَ مِنْ مَحَارِمِهَا.

• ﴿قَالَتْ إِنَّكَ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَعْرِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: هذه هي الرِّسَالَةُ الكلامِيَّةُ مِنْ أَبِيهَا الَّتِي أُبْلَغَتْهُ بِهَا.

• ﴿إِنَّكَ ابْنِي يَدْعُوكَ﴾: أي: أُوَكِّدُ لَكَ أَنَّ أَبِي الَّذِي ذَكَرْنَا لَكَ سَابِقًا أَنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ، يَطْلُبُ مِنْكَ بِشِدَّةٍ أَنْ تَأْتِي إِلَيْهِ.

• ﴿لِجَعْرِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: أي: لِكَافِئِكَ عَلَى عَمَلِكَ الَّذِي سَقَيْتَ لَنَا بِهِ مَا شِئْنَا.

فاستجاب مُوسَى عليه السَّلَامُ لِدَعْوَةِ أَبِيهَا، وَمَشَى مَعَهَا فِي اتِّجَاهِ مَسَاكِينِ مَدِينِ.

ذكر المفسِّرون أَنَّ مُوسَى وَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ نَبِيًّا طَلَبَ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَمْشِيَ وَرَاءَهُ، وَأَنْ تُصِفَ لَهُ الطَّرِيقَ، لِثَلَا تُصِيبَ الرِّيحُ ثِيَابَهَا فَتُصِفَ لَهُ جَسَدَهَا، وَهَذَا مِنْ أَدَبٍ وَعِفَّةٍ فَضْلَاءِ الرُّجَالِ.

• ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾: أي: فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى أَبَاهُمَا الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَأَكْرَمَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ مُوسَى الْقَصَصَ الَّتِي جَرَتْ لَهُ فِي مَضَرٍ مُنْذُ مِيلَادِهِ حَتَّى خُرُوجِهِ مِنْ مَضَرٍ، مِمَّا هُوَ دُوْ شَأْنٍ يُذَكِّرُ وَيُرْوَى، وَلَا أَرَى أَنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى حَادِثَةٍ سَقُوطِ الْمَضْرِيِّ قَتِيلًا بَوَكْرَتِهِ لَهُ.

﴿الْقَصَصَ﴾: مَصْدَرُ «قَصَّ» يَقَالُ لُغَةً: «قَصَّ الشَّيْءَ قَصًّا وَقَصَصًا» أي: تَتَبَعَ أَثَرَهُ شَيْئًا فَشَيْئًا. وَيُقَالُ: «قَصَّ عَلَيْهِ الْخَبَرَ قَصًّا وَقَصَصًا» أي: حَدَّثَهُ بِهِ عَلَى مَا تَحَمَّلَهُ.

أُطْلِقَ الْقَصَصُ الَّذِي هُوَ مَصْدَرٌ، وَأُرِيدَ بِهِ اسْمُ الْمَفْعُولِ وَهُوَ النَّبَأُ الْمَقْصُوصُ، وَ«ال» فِي لَفْظِ «الْقَصَصِ» تُشْعِرُ بِالْمَقْصُوصِ ذِي الشَّأْنِ الَّذِي يَحْسُنُ وَيُقِيدُ عِنْدَ عُقَلَاءِ الرُّجَالِ التَّحَدُّثُ بِهِ وَتَتَبُّعُ أَحْدَاثِهِ.

• ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥): أي: قال الشيخ أبو المراتين لموسى: لَا تَخَفْ مِنْ جُنُودِ السُّلْطَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، فَنَحْنُ فِي مَدِينَةٍ تَقَعُ خَارِجَ سُلْطَةِ فِرْعَوْنَ وَنِظَامِ حُكْمِهِ. وَبِوَصُولِكَ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَجُنُودِهِمْ فِي أَرْضٍ مُضَرٍّ.

مَنْ هُوَ الشَّيْخُ أَبُو الْمَرَاتِينِ مِنْ أَهْلِ مَدِينٍ؟

• جاء عند جمهور المفسرين أنه شُعَيْبُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَيْسَ لِهَذَا الْقَوْلِ سَنَدٌ يَرْفَعُهُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ.

• وقيل: اسْمُهُ شُعَيْبٌ عَلَى اسْمِ الرَّسُولِ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

• وقيل: هُوَ ابْنُ أَخِي شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

• وقيل: هُوَ ابْنُ عَمِّهِ.

• وقيل: هُوَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ.

أقول: جاء في الإصحاح (٢) مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّ اسْمَهُ «رَعُوئِيلَ» فقرة (١٨).

وجاء في الإصحاح (٣) مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ أَنَّ اسْمَهُ «يَثْرُونَ» وَأَنَّهُ كَانَ كَاهِنَ مَدْيَانَ. فقرة (١).

وجاء في كتاب قاموس الكتاب المقدس: أَنَّ «يَثْرُونَ» معناه: فَضْلٌ، وَأَنَّ «رَعُوئِيلَ» معناه: صَدِيقٌ، أَوْ خَلِيلُ اللَّهِ. قالوا: وَيُظْهَرُ أَنَّ هَذَا الْاسْمَ كَانَ اسْمَهُ الشَّخْصِيِّ، وَأَنَّ «يَثْرُونَ» لَقَبٌ شَرَفٍ أُطْلِقَ عَلَيْهِ.

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّهُ لَا دَاعِيَ لِعَتِمَادِ قَوْلِ بَعْضِهِ، وَعَلَى الرُّغْمِ مِمَّا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَغَالِيطَ كَثِيرَةٍ، فَلَا مَانِعَ عَقْلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ «رَعُوئِيلَ» وَأَنَّ لَفْظَ «يَثْرُونَ» لَقَبٌ شَرَفٍ أُطْلِقَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ كَانَ كَاهِنَ مَدْيَانَ «أي: كَانَ دَا رِيَاسَةً دِينِيَّةً فِي قَوْمِهِ، عَلَى مِلَّةِ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

قول الله تعالى:

﴿قَالَتْ لِمَ كَذَبْتُكُمَا إِنِّي ظَنَنْتُ أَنْتُمَا مِنَ الْفَاقِقِينَ ﴿٦١﴾﴾:

الظاهر أن هذه المرأة هي التي ذهبت إليه وأبلغته رسالة أبيها، ودعوته له.

أي: سألت أباهما أن يستأجره ليرعى غنمه، ويقوم على حفظها وخدمتها، فيحمل عنها وعن أختها هذا العبء.

وأنت عليه بالقوة الجسدية، وبالأمانة النفسية، دل على هذا الثناء العبارة التي جاءت بأسلوب كِنَائِي: ﴿... إِنِّي ظَنَنْتُ أَنْتُمَا مِنَ الْفَاقِقِينَ الْآمِنِينَ﴾ أي: إنه قوي أمين، وإنه خير من تستأجر إذا أردت أن تستأجر أجيراً عندك.

أما قوته الجسدية فقد رأت أثرها في استخراج الماء بالدلاء من البئر بقوة وهمّة، على الرغم من قُدمه إلى مدين ماشياً على قدميه من مضر. وأما أمانته فقد رأت أثرها في اختياره أن يمشي أمامها إلى مسكن أبيها حتى لا تصف الرياح التي قد تضغط على ثيابها جسدها.

فلما علم «يثرون» أخبار موسى في مضر، واستوثق من ابنه أنه قوي أمين.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

إذا كان للرجل بنات أخريات غير هاتين البنتين، فالأخريات إما أن يكنّ متزوجات، وإما أن يكنّ صغيرات، ولهذا جاءت عبارة العرض خاصة بإحدى ابنتيه، وأشار إليهما باسم الإشارة هاتين ليستبعد غيرهما.

وهذا دأبُ عُقلاءِ الرِّجالِ، أنْ يَخْتَارُوا هُمْ أَزْوَاجاً أَكْفِيَاءَ صَالِحِينَ لِبَنَاتِهِمْ، وَلَيْسَ فِي مِثْلِ هَذَا الطَّلَبِ وَإِنْدَاءِ الرَّغْبَةِ مَنْقَصَةٌ لَهُمْ، بَلْ فِيهَا مُرُوءَةٌ وَقُوَّةٌ وَإِرَادَةٌ وَحُسْنُ تَذْيِيرٍ.

وَجَعَلَ مَهْرَ مَنْ يَخْتَارُهَا مِنْهُمَا زَوْجَةً لَهُ أَنْ يَكُونَ أَجِيراً عِنْدَهُ يَرْعَى مَوَاشِيَهُ وَمَصَالِحَهُ ثَمَانِي سِنِينَ، وَرَغِبَ أَنْ تَكُونَ عَشْرًا عَلَى سَبِيلِ التَّفَضُّلِ مِنْهُ بَسَنَتَيْنِ فَوْقَ حَقِّ الْمَهْرِ، وَقَدْ كَانَتْ مُهُورُ الْبَنَاتِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْاِسْتِئْجَارِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُعْتَادَةِ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَقَالَ لَهُ: ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾: أي: فَهُوَ تَفَضُّلٌ مِنْ عِنْدِكَ، لَسْتُ مُلْزَمًا بِهِ.

وَأَبَانَ لِمُوسَى أَنَّهُ لَا يُرِيدُ بِهَذَا الْاِسْتِئْجَارِ أَنْ يَشُقَّ عَلَيْهِ فِي الْعَمَلِ، فَيَحْمِلُهُ مِنَ التَّكَالِيفِ مَا فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَيْهِ زَائِدَةٌ عَلَى مَا هُوَ مَعْلُومٌ عَرَفًا مِنْ حُقُوقِ الْمُسْتَأْجِرِ عَلَى الْأَجِيرِ عِنْدَهُ، وَوَعَدَهُ بِأَنَّهُ سَيَجِدُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ.

• ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾: أي: عَلَى شَرْطِ أَنْ تَكُونَ أَجِيراً لِي تَعْمَلَ بِأَمْرِي.

يُقَالُ لُغَةً: «أَجَرَ فُلَانٌ رَبَّ عَمَلٍ يَأْجُرُهُ» أي: رَضِيَ أَنْ يَكُونَ أَجِيراً لَهُ مُقَابِلَ أَجْرٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ يَحْصُلُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ رَبِّ الْعَمَلِ.

• ﴿ثَمَنِي حِجَجٌ﴾: أي: ثَمَانِي سَنَوَاتٍ. حِجَجٌ: جَمْعُ «حِجَّةٍ» وَهِيَ تُظَلَّقُ عَلَى مَعْنَى سَنَةٍ، فِيمَا تُظَلَّقُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا.

• ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾: أي: وَمَا أُرِيدُ بِاِسْتِئْجَارِي لَكَ أَنْ أَكْلِفَكَ أَعْمَالاً شَاقَّةً عَسِيرَةً صَعْبَةً. يُقَالُ لُغَةً: «شَقَّ الْأَمْرُ، يَشُقُّ، شَقًّا»، أي: صَعْبًا. وَيُقَالُ: «شَقَّ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ» أي: أَوْقَعَهُ فِي الْمَشَقَّةِ، وَهِيَ الْعَمَلُ الصَّعْبُ الَّذِي فِيهِ عَنَاءٌ.

أَقُولُ: وَهَذَا يُعْتَبَرُ شَرْطًا مِنْ شُرُوطِ عَقْدِ الْاِسْتِئْجَارِ لِلْقِيَامِ بِعَمَلٍ مَا،

فَإِنْ خَالَفَ الْمُسْتَأْجِرُ، فَحَمَلَ الْأَجِيرَ عَمَلًا فِيهِ مَشَقَّةٌ بِحَسَبِ مُعْتَادِ النَّاسِ، فَلِلْأَجِيرِ أَنْ لَا يَسْتَجِيبَ لِمُخَالَفَتِهِ لِلشَّرْطِ.

• ﴿... سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٧): أي: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَأَنْتَ تَقُومُ بِخِدْمَتِي مِنَ الْمُتَصِفِينَ بِالصَّلَاحِ، هَذَا وَعَدٌ مِنْهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

جاء لفظ «الصَّالِحِينَ» فِي الْقُرْآنِ وَصْفًا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَجَاءَ أَيْضًا وَصْفًا لِلْأَوَّابِينَ الَّذِينَ إِذَا عَصَوْا آبَاءَ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ.

الصَّالِح: هُوَ مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ فِي أَعْمَالِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ، وَقَدْ يَزِيدُ فَيَكُونُ مِنَ الْأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ.

وَالْتَزَمَ بِالْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ إِذْ وَعَدَ بِمَا سَيَعْمَلُهُ مُسْتَقْبَلًا، فَعَلَّقَ الْأَمْرَ عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ، وَهَذَا أَمْرٌ جَاءَ التَّعْلِيمُ الْقُرْآنِيُّ بِالتَّزَامِهِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْكَهْف/ ١٨ مَصْحَف/ ٦٩ نَزُول):

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (٢٤).

إِنَّ التَّعْلِيْقَ عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْأَعْمَالِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، هُوَ مِنْ مَقْتَضَى الْأُمُورِ الْعَقْدِيَّةِ، إِذِ الْمُسْتَقْبَلُ غَيْبٌ وَمَجْهُولٌ لِلْإِنْسَانِ، فَقَدْ تَقُومُ الْمَوَانِعُ فَتَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْقِيَامِ بِمَا وَعَدَ بِهِ، وَقَدْ يَنْزِلُ بِالْإِنْسَانِ الْعَجْزُ، وَقَدْ تَنْزِلُ بِهِ مَنِيَّتُهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْقُثَمَان/ ٣١ مَصْحَف/ ٥٧ نَزُول):

﴿... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾:



قال الله عز وجل:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ۚ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ۚ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٤٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْشِمْ إِيَّاتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٥٠ وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُتَلَّزِمُ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعَقِّبٌ يَمْشِمْ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ ۚ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ۝٥١ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجَ بِيضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۚ فَذَانِكَ بُرْهَتَانِ مِنَ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٥٢ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٥٣ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٥٤ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِأَيْنِئْتَا أَتَا وَمِمَّ أَتَّبَعَكُمَا ۚ أَلْفَلْيٰوَن ۝٥٥﴾

تمهيد:

اشتملت هذه الآيات على لقطات من فضل خروج موسى بأهله من مدين، عازماً العودة إلى مضر، وما جرى له في طريق العودة، من مكالمته الله له بجانب جبل الطور، واصطفائه بالنبوة، وبرسالته عظمى.

وسبق لدى تدبر سورة (طه) تدبر تكاملي بين هذا النص وبين ما جاء حول مضمونه في سورة (طه) وفي غيرها من السور، فلا داعي هنا إلى إعادة النظرات التكاملية بينه وبين النصوص الأخرى التي تتعلق بما جاء فيه، وأقتصر هنا على التدبر التحليلي لهذا النص.

التدبر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ

نَكَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ
جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١٩﴾:

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى خَمْسٍ قَضَايَا:

القضية الأولى: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَضِيَ بِعَرَضٍ شَيْخٍ مَذِينٍ
«يَثْرُونَ» وَتَزَوَّجَ الْبِنْتَ الَّتِي اخْتَارَهَا مِنْ ابْنَتَيْهِ عَلَى الشَّرْطِ الَّذِي عَرَضَهُ عَلَيْهِ
أَبُوهَا.

قَالُوا: وَاسْمُهَا «صَفُورَةُ» عَلَى مَا جَاءَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي سَفَرِ
الْخُرُوجِ.

وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ تُفْهَمُ بِاللُّزُومِ الْفِكْرِيِّ، إِذْ لَا يَقْضِي أَجَلَ اسْتِنْجَارِهِ
مَهْرًا لَزَوْجَتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ وَافِقًا عَلَى الْعَرَضِ، وَتَزَوَّجَ، وَأَدَّى الْخِدْمَةَ
الْمَطْلُوبَةَ، وَانْتَهَى أَجْلُهَا.

القضية الثانية: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَّى الْخِدْمَةَ لَوَالِدِ
زَوْجَتِهِ، حَتَّى غَايَةَ أَجْلِهَا الْمَحْدَدِّ، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ فِي الْآيَةِ: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾: أَي: فَلَمَّا قَامَ بِالْخِدْمَةِ
عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ الْمُرْضِيِّ لَوَالِدِ زَوْجَتِهِ، وَأَنْهَى الْأَجَلَ الْمَحْدَدَّ
بِالشَّرْطِ.

وَهُنَا يَرِدُ سُؤَالٌ: وَهُوَ أَنَّ الْأَجَلَ قَدْ كَانَ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ وَاجِبٍ وَتَطَوُّعٍ
مِنْ عِنْدِ مُوسَى، فَالوَاجِبُ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ، وَالتَطَوُّعُ سَنَتَانِ زِيَادَةً عَلَيْهَا
يَتَطَوُّعُ بِهَا مُوسَى مِنْ عِنْدِهِ بَرًّا بِوَالِدِ زَوْجَتِهِ.

فَأَيُّ الْأَجْلَيْنِ قَضَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟.

أَقُولُ: لَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ يَقْوِي بَعْضُهَا
بَعْضًا، أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَضَى أَكْبَرَ الْأَجْلَيْنِ وَأَوْفَاهُمَا.

وهذا هو المنتظر ممّن هو دُونُ موسى عقلاً وحِكْمةً وفضلاً، فكَيْفَ

به؟!

وجاء في الأصحاح الثاني من سفر الخروج عند الإسرائيليين: أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ الَّذِينَ كَانَ يَقْسُو عَلَى بني إسرائيل بالاستعباد والإذلال، قَدْ مَاتَ أَثْنَاءَ وجودِ مُوسَى في «مَدِين» وخَلَفَهُ مِنْ آلِهِ غَيْرُهُ.

ولَعَلَّ هَذَا قَدْ حَرَّكَ عَاطِفَةَ مُوسَى أَنْ يَعُودَ إِلَى قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ، وَلَا سِوَا كَوْنِهِ قَدْ قَضَى أَجَلَ الخِدْمَةِ واجِبَهَا وَتَطَوَّعَهَا، فَعَزَمَ عَلَى العُودَةِ بِأَهْلِهِ إِلَى مِصْرَ.

قالوا: وَلَمَّا عَزَمَ عَلَى العُودَةِ بِأَهْلِهِ إِلَى مِصْرَ، أَعْلَمَ زَوْجَتُهُ بَعَزَمِهِ، وَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَسْأَلَ أَبَاهَا أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ غَنَمِهِ مَا يَعْيشُونَ بِهِ.

فَأَخْبَرَتْ أَبَاهَا بِالْأَمْرِ، وَسَأَلَتْهُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ غَنَمِهِ مَا يَعْيشُونَ بِهِ، فَقَالَ لَهَا: لَكَ مِنْ غَنَمِي فِي هَذَا الْعَامِ مَا وَلَدْتَ مِنْ قَالِبِ لَوْنٍ، أَي: مِنْ لَوْنٍ مُخَالِفٍ لَوْنِ أُمِّهِ، كَوَلَدِ أَسْوَدِ الصُّوفِ، مِنْ أُمِّ ذَاتِ صُوفٍ أبيض، أَوْ العكس، وَكَانَتْ غَنَمُهُ سَوْدَاءَ حِسَانًا.

قَالُوا: فَوَضَعَتْ كُلُّهَا بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ قَوَالِبَ ألوان، فَكَانَتْ مِنْ حَظِّ «صَفُورَةٍ» وَحِينَ انْطَلَقَ مُوسَى مُتَوَجِّهًا شَطْرَ مِصْرَ سَاقَ هَذَا الْقَطِيعِ مِنَ الغَنَمِ المَوَالِيدِ مَعَهُ.

القضية الثالثة: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَارَ بِأَهْلِهِ مُتَوَجِّهًا شَطْرَ مِصْرَ، مُفَارِقًا أَرْضَ «مَدِين» دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾: أَي: فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ الْأَوْفَى وَعَزَمَ عَلَى العُودَةِ بِأَهْلِهِ إِلَى مِصْرَ، وَسَارَ بِأَهْلِهِ مُتَجِّهًا شَطْرَ مِصْرَ حَيْثُ قَوْمُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ.

الباءُ فِي «بِأَهْلِهِ» لِلْمَصَاحَبَةِ، أَي: سَارَ مُصَاحِبًا أَهْلَهُ.

القضية الرابعة: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام أَنَسَ وَهُوَ يَسِيرُ بِأَهْلِهِ لَيْلاً عَنْ بَعْدِ نَاراً تَتَعَالَى أَلْسِنَةُ لَهَبِهَا فِي الْحَوْ، وَكَانَ الْبُرْدُ شَدِيداً، وَلَمْ يَقْدَحْ زِنَادُهُ لِإِقَادِ نَارٍ لِلِاسْتِدْفَاءِ بِهَا، وَكَانَ الطَّرِيقُ السَّوِيُّ إِلَى مِصْرَ غَيْرَ وَاضِحٍ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَنَسَ نَاراً قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ: ﴿ءَأَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾: أَي: وَحِينَ قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ مُتَوَجِّهاً شَطْرَ مِصْرَ، أَنَسَ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى الطَّرِيقِ نَاراً تَلْتَهَبُ مُتَصَاعِدَةً مِنْ جَانِبِ الطُّورِ.

• ﴿ءَأَنَسَ﴾: أَي: أَبْصَرَ، يُقَالُ لُغَةً: «أَنَسَ الشَّيْءَ» أَي: أَحَسَّ بِهِ. وَيُقَالُ: «أَنَسَهُ» أَي: أَبْصَرَهُ، أَوْ عَلِمَهُ إِذَا كَانَ مِمَّا يُعْلَمُ، أَوْ سَمِعَهُ إِذَا كَانَ مِمَّا يُسْمَعُ.

• ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾: أَي: مِنْ نَاحِيَةٍ وَجْهَةٍ وَمَكَانٍ قَرِيبٍ مِنْ جَبَلِ الطُّورِ. وَيُسَمَّى عِنْدَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ: «جَبَلُ اللَّهِ حُورِيبَ».

• ﴿نَاراً﴾: أَي: شَيْئاً مُشْتَعِلاً عَلَى شَكْلِ نَارٍ. قَالُوا: وَلَمْ تَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ نَاراً، وَإِنَّمَا كَانَتْ نُوراً عَلَى شَكْلِ نَارٍ ذَاتِ لَهَبٍ.

القضية الخامسة: أَنَّهُ طَلَّبَ مِنْ أَهْلِهِ زَوْجَتَهُ وَوَلَدَيْهِ وَرُبَّمَا كَانَ مَعَهُمْ خَادِمُهُمْ، أَنْ يَمْكُثُوا لِيَذْهَبَ إِلَى جِهَةِ النَّارِ، رَاجِئاً أَنْ يُحَقِّقَ أَمْرَيْنِ أَوْ أَحَدَهُمَا:

الأمر الأول: أَنْ يَسْتَفِيدَ خَبِراً مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَنْ أَيْسَرِ وَأَقْرَبِ طَرِيقٍ مُوصِلٍ إِلَى مِصْرَ.

الأمر الثاني: أَنْ يَأْتِيَ بِجَذْوَةٍ مِنْ نَارٍ يُوقِدُونَ بِهَا حَطَباً بَغِيَةً أَنْ يَسْتَدْفِئُوا مِنَ الْبُرْدِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ: ﴿... قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَجَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (١٩):

• ﴿لِأَهْلِيهِ﴾ لفظ «الأهل» يُطْلَقُ عَلَى الْأَقَارِبِ، وَالْعَشِيرَةِ، وَالْأَصْحَابِ، وَالزَّوْجَةِ. وَأَهْلُ الدَّرَاهِمِ سُكَّانُهَا.

• ﴿أَمْكُثُوا﴾: الْمَكْثُ: التَّوَقُّفُ، وَالِانْتِظَارُ، وَالتَّمَهُّلُ، يُقَالُ لُغَةً: «مَكَثَ بِالْمَكَانِ، يَمْكُثُ، مَكْثًا، وَمُكْثًا، وَمُكُوثًا» أَي: تَوَقَّفَ، وَانْتَظَرَ، وَتَمَهَّلَ.

﴿لَعَلِّي﴾: جَاءَ بِعِبَارَةِ التَّرَجِّي، إِذْ لَمْ يَكُنْ جَازِمًا بِتَحَقُّقِ كِلَا الْأَمْرَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا. وَكَذَلِكَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

﴿لَعَلِّي آتِيَكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾: أَي: أَتَوَقَّعُ دُونَ جَزْمٍ أَنْ آتِيَكُمْ إِذَا ذَهَبْتُ إِلَى جِهَةِ النَّارِ وَعُدْتُ، بِخَبَرٍ عَنْ أَيْسَرِ طَرِيقٍ وَأَقْرَبِهِ مُوَصِّلٍ إِلَى مِصْرَ، أَوْ بِجَذْوَةٍ مِنْ نَارٍ لِتَوْقِدُوا مِنْهَا حَطْبًا رَجَاءً أَنْ تَسْتَدْفِئُوا بِنَارِهِ.

الجذوة: مُثَلَّثَةٌ الْجِيمِ فِي اللَّغَةِ، وَهِيَ الْجَمْرَةُ الْمَلْتَهَبَةُ.

﴿تَصْطَلُونَ﴾: أَي: تَسْتَدْفِئُونَ، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُعَانُونَ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ.

قول الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَلْطِي الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

أَي: فَلَمَّا أَتَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّارَ، إِذْ صَارَ قَرِيبًا مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي آتَسَهَا فِيهِ، نُودِيَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِنِدَاءٍ عَالٍ يَسْمَعُهُ، وَقَدْ حَصَلَ هَذَا النِّدَاءُ قَبْلَ أَنْ يُقَرَّبَهُ اللَّهُ بِجِيَاءٍ، فَيُنَاجِيَهُ دُونَ رَفْعِ صَوْتٍ كَمَا جَاءَ فِي نَصِّ آخِرِ.

• ﴿مِنْ شَلْطِي الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾: شَاطِئُ الْوَادِي الْأَيْمَنِ هُوَ جَانِبُ الطُّورِ الْأَيْمَنِ، فَشَاطِئُ النَّهْرِ، أَوْ شَاطِئُ الْوَادِي، هُوَ جَانِبُهُ.

وفهم أنّ شاطئ الوادي الواقع إلى جانب الجبل هو أسفل الجبل الملاصق للوادي.

ووصف بالآيمن، لأنّ موسى عليه السلام كان متوجّهاً بوجهه لمنطقة وسطى من جبل الطور.

• ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾:

البُقْعَةُ: هي القطعة من الأرض المتميّزة ممّا حولها.

المُبَارَكَةُ: أي: التي جعل الله عزّ وجلّ فيها البركة، وهي الزيادة والنماء من الخير.

مِنَ الشَّجَرَةِ: أي: من حدود الشجرة وامتدادات جذورها وفروعها، إذ جعلها الله مُباركةً، وهي التي رأى موسى عليه السلام منها النار ساطعةً، ولم تكن ناراً لاهبة، وإنما كانت نوراً على صورة نار.

سمّى الإسرائيليّون هذه الشجرة في الأصحاح الثالث من سفر الخروج «عليقة» وظنّ بعض باحني أهل الكتاب أنها من شجر «السَّنط».

﴿... أَن يَمُوسَى إِفْتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَنْ﴾: حرف تفسير للمقول في النداء.

• ﴿إِفْتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: أوكد لك يا موسى ما أقول لك، أنا الله الذي تؤمن به، أنت وأباؤك المؤمنون الموحّدون، وأنا ربّ العالمين جميعاً.

ربّ العالمين: أي: خالق الكائنات كلّها، والمتصرّف فيها بحكمته دواماً، وبسلطان ربوبيته الشاملة لكلّ ما في الكون من حوادث وتصاريح.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَانَهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّا يَعْقِبُ يَمُوسَىٰ أَقْبَلُ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣٩﴾ أَسَلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ

يَبْصَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بَرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾

• ﴿وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ﴾ «أَن» هُنَا مِثْلُ «أَن» فِي [أَن يَا مُوسَى] حَرْفُ تَفْسِيرٍ لِلْمَقُولِ فِي النِّدَاءِ.

• ﴿آتَىٰ عَصَاكَ﴾: أَي: اذْفَعَهَا مِنْ يَدِكَ إِلَى الْأَرْضِ رَمِيًّا.

• ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرًّا وَلَمْ يَمْعَقْ﴾.

﴿تَهْتَزُّ﴾: أَي: تَتَحَرَّكُ تَحَرُّكًا سَرِيعًا.

﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾: جَانٌّ: نَوْعٌ مِنَ الْحَيَّاتِ، أَكْهَلُ الْعَيْنَيْنِ، يَضْرِبُ إِلَى الصُّفْرَةِ، كَثِيرُ الْحَرَكَةِ وَسَرِيعُهَا، يُجْمَعُ عَلَى «جِنَّانٍ» وَ«جَوَانٍ».

أَي: كَأَنَّهَا جَانٌّ فِي السَّرْعَةِ وَالْحَرَكَةِ الْمَخِيفَةِ، لَا فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ، لِأَنَّ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ الْحَيَّاتِ غَيْرُ مُؤَذٍ.

• ﴿وَلَّىٰ مُدِرًّا﴾: أَي: انْهَزَمَ مُبْتَعِدًا، مُعْطِيًا ظَهْرَهُ لِجَهَةِ الْعَصَا الَّتِي انْقَلَبَتْ حَيَّةً مَخِيفَةً تَسْعَى.

وَلَّى: أَي: ابْتَعَدَ. مُدِرًّا: الْإِذْبَارُ: إِعْطَاءُ الدُّبْرِ لِلشَّيْءِ، فَجَمَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ الْإِبْتِعَادِ وَإِعْطَاءِ الدُّبْرِ.

• ﴿وَلَمْ يَمْعَقْ﴾: أَي: وَلَمْ يَكِرَّ رَاجِعًا، مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ عَلَى نَفْسِهِ. وَكَانَ هَذَا مِنْهُ بِحَسَبِ طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا، ذَاتِ الْحِدَّةِ وَالسَّرْعَةِ فِي التَّنْفِيزِ.

• ﴿...يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ ﴿٣٩﴾: أَي: يَا مُوسَى أَقْبِلْ كَارَأً إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي قَرَرْتُ مِنْهُ خَوْفًا مِنَ الْحَيَّةِ، وَلَا تَخَفْ أَنَّ تُؤْذِيكَ، إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ بِتَأْمِينِ رَبِّكَ لَكَ.

فَكَرَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاجِعًا امْتِثَالًا وَطَاعَةً لِأَمْرِ اللَّهِ لَهُ.

هذه العبارة جاءت مُقتطعةً من الحدث الماضي اقتطاعاً، وهذا الاقتطاع من الإبداعات الرائعات في القرآن المجيد.

• ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءٌ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ...﴾ (٣٢) :

أي: أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِ ثَوْبِكَ وَأَوْصِلْهَا إِلَى إِبْطِكَ أَخْذاً مِنْ نَصٍّ آخِرٍ، وَأَخْرِجْهَا بَعْدَ ذَلِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءً مُتَلَالِئَةً مُضِيئَةً لَا بَرَصَ فِيهَا وَلَا بَهَقَ. مِنْ غَيْرِ سُوءٍ: احتِراسٌ مِنْ أَنْ يَسْبِقَ إِلَى الذَّهْنِ أَنَّهَا تَخْرُجُ بَرَصَاءً أَوْ مَعِيَةً بَعِيْبٍ آخِرٍ.

قالوا: فإذا هِيَ تُضِيءُ كَالْبَرْقِ.

﴿... وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ...﴾ :

يُظْهَرُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِقْبَالِهِ وَعَوْدَتِهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ، امْتِثَالاً لِأَمْرِ رَبِّهِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَخْذِهِ الْحَيَّةَ الَّتِي عَادَتْ عِنْدَ أَخْذِهِ لَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى، كَمَا جَاءَ فِي نَصٍّ آخِرٍ، مَا زَالَ قَلْبُهُ يَرْجُفُ رَجْفَاناً مِكَانِيكِيّاً مِنْ تَأْثِيرِ الْخَوْفِ السَّابِقِ، فَعَلِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَضُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَى إِلَى جَانِبِ جِسْمِهِ الْيُسْرَى، حَيْثُ قَلْبُهُ، لِيَسْكُنَ مِنْ أَثَرِ الرَّهْبِ الَّذِي كَانَ قَدْ أَصَابَهُ.

جَنَاحَكَ: أي: يَدَكَ، تَشْبِيهاً لَهَا بِجَنَاحِ الطَّائِرِ الَّذِي يَضُمُّهُ إِلَى جَسَدِهِ عِنْدَ التَّوَقُّفِ عَنِ الطَّيْرَانِ.

وَاخْتَرْتُ فِي الْفَهْمِ الْيَدَ الْيُسْرَى لِأَنَّهَا الْأَقْرَبُ إِلَى تَسْكِينِ رَجْفَانِ الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ الْقَلْبُ، وَأَمَّا الْيُمْنَى فَقَدْ أَمْسَكَ بِهَا الْعَصَا.

أقول: إذا كان انقلاب العصا حيةً مُرْعِبَةً، قَدْ أَخَافَتْ مُوسَى وَهُوَ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ يُكَلِّمُهُ، فَفَرَّ مِنْهَا، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، حِينَ إِجْرَاءِ هَذِهِ الْآيَةِ الرَّبَّانِيَّةِ أَمَامَهُمْ!!؟

﴿... فَذَٰلِكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٣٢):

﴿فَذَٰلِكَ﴾ الفاء عاطفة للتفريع على ما أجرى الله عز وجل من آيتي العَصَا واليد. «ذَانِ» اسم إشارة للمثنى المذكر. والكاف لخطاب المفرد المذكر، والمشار إليه آيتَا العَصَا واليد.

﴿بُرْهَانُكَ﴾: مثنى بُرْهَان، وهو الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ الْفَاصِلَةُ، وجمعه براهين.

أي: فذَانِكَ الْخَارِقَانِ الْعَجَبِيَّانِ، قَلْبُ الْعَصَا حَيَّةٌ مُخِيفَةٌ، وَقَلْبُ الْيَدِ السَّمَرَاءِ بِيضَاءٌ تَبْرُقُ كَالْبَرْقِ، هُمَا حُجَّتَانِ بَيِّنَتَانِ فَاصِلَتَانِ، تُثَبِّتَانِ لِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَجُنُودِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ أَنَّكَ رَسُولٌ مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ﴾: في هذه العبارة بَيَانٌ أَنَّ الْمُرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَوَّلًا فِرْعَوْنٌ وَمَلَؤُهُ.

المَلَأُ: أشرف القوم وسَرَاتُهُمْ وَسَادَتُهُمُ الَّذِينَ يَمْلَأُونَ عُيُونَ الْعَامَّةِ. وَمَلَأُوا فِرْعَوْنَ وَزُرَاؤَهُ وَمُسْتَشَارُوهُ، حَاشِيَةَ قَصْرِه، وَكُتَبَاءَ الْمَضْرِيِّينَ الْمَسَانِدُونَ وَالْمَوَالُونَ لِفِرْعَوْنَ.

ولَمَّا كَانَ سَائِرُ الْمَضْرِيِّينَ يَوْمُئِذٍ تَبَعًا لِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، كَانَتْ رِسَالَةُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ مُوجَّهَةً لَهُمْ جَمِيعًا.

﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾: أي: إِنَّهُمْ كَانُوا زَمَنًا طَوِيلًا فَاسِقِينَ، وَمَا زَالُوا عَلَىٰ فَسَقِهِمْ، فَذَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى الْغَرَضِ مِنْ إِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ دَعْوَتُهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ.

الْفَاسِقُ: الْعَاصِي، الْخَارِجُ عَنِ الْحَقِّ، وَالتَّارِكُ لِأَوَامِرِ اللَّهِ، الْمَتَعَرِّضُ لِلْفُسَادِ وَالْإِفْسَادِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۖ﴾ (٣٣) وَأَخِي هَاشِمُ بْنُ هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۖ﴾ (٣٤):
أَبَانُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ أَنَّهُ يَخَافُ أَنْ يَقْتُلُوهُ عِقَابًا عَلَى قَتْلِهِ
لِلْمِصْرِيِّ قَبْلَ خُرُوجِهِ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدِينِ.

وَأَبَانُ لِرَبِّهِ أَيْضًا أَنْ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ تَجْعَلُهُ غَيْرَ مُنْطِقِي فَصِيحٍ فِي
بَيَانِهِ، وَأَنَّ أَخَاهُ هَارُونَ أَفْصَحُ مِنْهُ لِسَانًا، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا
مَعَهُ يَكُونُ لَهُ مُعِينًا وَنَاصِرًا، وَسَبَّأَ مُرَجِّحًا فِي تَصْدِيقِ الْقَوْمِ لَهُ، فَالرَّسُولَانِ
مَعًا أَقْوَى فِي نَظَرِ النَّاسِ مِنْ رَسُولٍ وَاحِدٍ.

﴿رِدْءًا﴾: الرَّدْءُ: هُوَ فِي اللَّغَةِ الْمُعِينُ وَالنَّاصِرُ، وَالْقُوَّةُ وَالْعِمَادُ، يُقَالُ
لُغَةً رَدَأَ الْبِنَاءَ الْجِدَارَ مِثْلًا، أَيْ: دَعَمَهُ وَقَوَاهُ.

قول الله عز وجل:

﴿قَالَ سَنَنْذُرُكَ عِصْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْتَمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ۖ﴾ (٣٥):

الْعِصْدُ: هُوَ مِنَ الْيَدِ مَا بَيْنَ الْمِرْفَقِ إِلَى الْكَتِفِ، وَجَمْعُهُ «أَعْضَادُ»
وَشَدُّ عِصْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كُنَايَةً عَنْ تَقْوِيَّتِهِ بِأَخِيهِ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى
أَنَّ رَبَّهُ قَدْ آتَاهُ سُؤْلَهُ.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾: أَيْ: وَنَجْعَلُ لَكُمَا قُوَّةَ غَيْبِيَّةٍ مَعْنَوِيَّةٍ تَحْجُزُ
فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ وَجُنُودَهُ عَنْ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْكُمَا بِمَا فِيهِ ضَرٌّ أَوْ أذى لَكُمَا.

﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا﴾: أَيْ: فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا وَضُولاً بِشَيْءٍ
يَضُرُّكُمَا أَوْ يُؤْذِيكُمَا. وَهَذَا الْمَنْعُ يَكُونُ بِمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَاتِنَا الَّتِي نُخِيفُهُمْ
بِهَا، فَيَحْذَرُونَ أَنْ يَهْلِكُوا إِذَا مَكْرُوا مَكْرًا لِلْإِضْرَارِ بِكُمَا، أَوْ كَادُوكُمَا كَيْدًا
يُؤْذِي أَحَدًا مِنْكُمَا.

﴿...أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ أَغَالِيُونَ﴾ (٣٥): هَذَا وَغَدٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى وَهَارُونَ، بَأْنَهُمَا وَمَنِ اتَّبَعَهُمَا الْغَالِيُونَ، فِي نَهَايَةِ مَسِيرَتِهِمَا فِي دَعْوَتِهِمَا لِفِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ وَسَائِرِ الْمَضْرِيِّينَ.

وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْوَعْدَ فِي نَهَايَةِ مَسِيرَتِهِمَا الدَّعْوِيَّةَ، فَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَمَلَآهَ وَجُنُودَهُمْ فِي الْبَحْرِ، وَكَانُوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ.



قال الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْظَالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْدِنُنِي عَلَى الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكَبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَطَنُوا أَنْهُمْ إِلَهِنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَحْزَنَهُ وَجُنُودُهُ فَنَسَبْنَاهُمْ فِي الْآيَةِ فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّكَارِ وَيَوْمَ الْفَيْصَةِ لَا يُبْصَرُونَ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَؤُلَاءِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْفَيْصَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣):

تمهيد:

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ لَقَطَاتٌ مَخْتَزَلَاتٌ جَدًّا مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي دَعْوَتِهِ لِفِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ وَجُنُودِهِمْ، وَمَكَابِرَةِ فِرْعَوْنَ وَادَّعَائِهِ الْإِلَهِيَّةَ لِمَلِكِهِ، وَاحْتِيَالِهِ بِنَاءِ صَرْحٍ عَالٍ لِيَطَّلِعَ إِلَى آلِهِ مُوسَى فِي جِهَةِ السَّمَاءِ، مَعَ بَيَانِ اسْتِكْبَارِهِ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَبَيَانِ ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُرْجَعُونَ

إلى ربّهم للحساب، وَفَضِّلِ الْقَضَاءَ، وتنفيذ الجَزَاءِ، وبيان مصيرهم في الدنيا إِذْ نَبَذَهُمُ اللَّهُ فِي الْيَمِّ فِي الدُّنْيَا فَأَغْرَقَهُمْ، وَأَتْبَعَهُمْ فِيهَا لَعْنَةً شَنِيعَةً، وَقَضَى أَنْ يَكُونُوا فِي الْآخِرَةِ مِنَ الَّذِينَ لَزِمَهُمْ قُبْحُ الْعَذَابِ الْأَبْدِيِّ الْخَالِدِ، وَقُبْحُ أَشْكَالِهِمْ فِي السَّعِيرِ، إِذْ يَقْبَحُ حَرِيقُ النَّارِ أَشْكَالَهُمْ.

وَبَيَّنَ هَذَا النَّصَّ وَنصوص أخرى جاءت في القرآن المجيد تَكَامُلًا، في بيان المراد ببيانه من هَذِهِ المَرَحَلَةِ من تاريخ موسى في مِصْرَ، بعد أَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا إِذْ كَلَّمَهُ بِجَانِبِ الطُّورِ وَهُوَ عَائِدٌ بِأَهْلِهِ مِنْ مَدْيَنَ إِلَى مِصْرَ، وَالنَّظَرَاتُ التَّدْبِيرِيَّةُ التَّكَامِلِيَّةُ بَيْنَ هَذَا النَّصِّ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ النصوص قَدْ سَبَقَتْ لَدَى تَدْبِيرِ سُورَةِ (طه).

وَيُلَاحَظُ أَنَّ هَذَا النَّصَّ مِنْ سُورَةِ (القصص) قَدْ دَلَّ عَلَى لِقَاطٍ مِنْ أَحْدَاثِ الْمَرَاكِحِ الْآخِرَةِ لِلنَّشَاطِ الدَّعَوِيِّ الَّذِي قَامَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ، وَيُلْحَقُ بِهِ أَخُوهُ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهَذِهِ الْمَرَاكِحُ الْآخِرَةُ مَسْبُوقَةٌ بِإِجْرَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْآيَاتِ التَّسْعِ كُلِّهَا الَّتِي آتَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِإِقْنَاعِ فِرْعَوْنَ فَمَنْ دُونَهُ بِأَنَّهُ هُوَ وَأَخُوهُ رَسُولَانِ حَقًّا وَصِدْقًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِقْنَاعِهِمْ بِأَنَّ الدِّينَ الَّذِي جَاءَ بِهِ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا.

وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ دَعْوَتُهُمَا قَدْ افْتَرَنْتَ بِالْإِقْنَاعَاتِ الْفِكْرِيَّةِ بِأَنَّ لِهَذَا الْكَوْنِ رَبًّا يَتَصَرَّفُ بِكُلِّ شَيْءٍ فِيهِ وَخَدَهُ، بِصِفَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْإِلَهِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ.

وَإِذْ سَبَقَ التَّدْبِيرُ التَّكَامِلِيُّ لَدَى تَدْبِيرِ سُورَةِ (طه/ ٤٥) نَزُولِ فَإِنِّي أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى تَحْلِيلِ فِقَرَاتِ هَذَا النَّصِّ مِنْ سُورَةِ (القصص).

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى...﴾ ﴿٣٦﴾

أي: فلما جاء موسى عليه السلام فرعونَ ومَلَأَهُ فَمَنْ دُونَهُمْ مِنْ سائر المصريين، باستثناء مَنْ كان يَكْتُمُ إيمانه، بآياتنا التَّسْعِ، حالة كونها بَيِّنَات واضِحَات الدلالات على أَنَّها من الله رَبِّ العالمين، وهي:

(١) آية العصا التي تنقلب ثُعْبَانًا مُرْهَبًا.

(٢) آية اليد الَّتِي تَنْقَلِبُ بِيضَاءَ لَامِعَةٍ كَالْبَرْقِ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ.

(٣) آية الطوفان، وجاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج (٩) بيانٌ أَنَّ اللهَ أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ بَرْدًا لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ، فَأَهْلَكَ النِّبَاتَاتِ وَبَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّاسِ.

(٤) آية الجراد، وجاء عند الإسرائيليين في سفر الخروج (١٠) أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُنْذِرَ فِرْعَوْنَ بِجَرَادٍ يَغْطِي وَجْهَ الْأَرْضِ، وَيَأْكُلُ جَمِيعَ الشَّجَرِ النَّابِتِ فِي الْحُقُولِ. وَأَنَّ ذَلِكَ قَدْ حَصَلَ.

(٥) آية الْقُمَّلِ، وجاء في سفر الخروج (٨) أَنَّ هَارُونَ ضَرَبَ بِالْعَصَا تُرَابَ الْأَرْضِ، فَصَارَ الْبُعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَالْبَهَائِثِ، وَأَنَّ مُوسَى أُنْذِرَ فِرْعَوْنَ بِالذُّبَابِ، فَخَرِبَتِ الْأَرْضُ مِنَ الذُّبَابِ، وَهُوَ الذُّبَابُ الْمُؤْذِي.

(٦) آية الضَّفَادِعِ: وجاء في سفر الخروج (٨) أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أُنْذِرَ فِرْعَوْنَ بِالضَّفَادِعِ الَّتِي تَضَعُ وَتَدْخُلُ فِي الْبُيُوتِ، وَتَكُونُ فِي كُلِّ مَخْدَعٍ، وَعَلَى كُلِّ سَرِيرٍ، وَتَسْقُطُ فِي الْأُطْعِمَةِ، وَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ.

(٧) آية الدَّمِ، وقد جاء في سفر الخروج (٧) أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ ضَرَبَ كُلُّهُمَا الْمِيَاهُ بِالْعَصَا، فَتَحَوَّلَ كُلُّ الْمَاءِ الَّذِي فِي النَّيْلِ وَغَيْرِهِ دَمًا.

(٨) آية الرَّجْزِ، وهو عَذَابٌ مِنْ الله أَنْزَلَهُ بِفِرْعَوْنَ وَمَلِيْهِ وَقَوْمِهِ، كَأَمْرَاضٍ وَأَوْجَاعٍ لَا غَهْدَ لَهُمْ بِمِثْلِهَا.

(٩) آية السنين، وهي سنوات مُجْدِبَات، حَصَلَ فِيهَا نَقْصٌ مِنَ الثَّمَرَاتِ، وَطَمَسٌ عَلَى الْأَمْوَالِ، وَضَغْطٌ عَلَى الْقُلُوبِ.

وقد سبق في سورة (طه/٤٥ نزول) بيان أدلة هذه الآيات التَّشْعِيعِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

• ﴿... قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى...﴾ ﴿٣٦﴾ : أي: مَا هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ آيَاتٍ. إِلَّا ظَوَاهِرُ أَعْمَالٍ مِنْ أَعْمَالِ السُّحْرِ، وَادِّعَاؤُهُ أَنَّهَا آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ خَوَارِقُ يُجْرِيهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُ ادِّعَاءٌ مُفْتَرًى. الافتراء: اختلاف الكذب واصطناعه عَنْ عَمْدٍ.

• ﴿... وَمَا سَكِنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى﴾ ﴿٣٦﴾ : أي: وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونَ، مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ لِمَوْجُودِ أَزَلِيٍّ أَبَدِيٍّ وَاحِدٍ، فِي أَخْبَارِ آبَائِنَا الْأُولَى السَّابِقِينَ، الَّذِينَ كَانُوا عَلَى مِثْلِ دِينِنَا.

فموسى وهارون قَدْ جَاءَا بِدِينٍ لَمْ يَسِقْ لَنَا بِهِ عِلْمٌ، أَوْ خَبَرٌ مُتَوَارَثٌ عَنْ آبَائِنَا، فَهُمَا مُفْتَرِيَانِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَيْسَا عَلَى هُدًى، وَلَمْ يَأْتِيا كَمَا يَزْعُمَانِ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِ خَالِقِ الْكَوْنِ، وَادِّعَاءَاتُهُمَا عَنْ الْبَعْثِ وَالْحَيَاةِ الْآخَرَى، وَالْجَنَّةِ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، وَجَهَنَّمَ دَارِ الْكَافِرِينَ الْمَجْرَمِينَ، ادِّعَاءَاتٌ بَاطِلَاتٌ مُفْتَرِيَاتٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ. وَمَا نَحْنُ عَلَيْهِ وَمَا وَرِثْنَاهُ عَنْ آبَائِنَا هُوَ الْهُدَى.

• ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ :

قرأ ابنُ كثير: [قَالَ مُوسَى] بِحَذْفِ حَرْفِ الْعَطْفِ، وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءُ الْعَشْرَةُ: [وَقَالَ مُوسَى] بِإِثْبَاتِ حَرْفِ الْعَطْفِ «الواو» وَفِي الْقُرَّاءَتَيْنِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَحْسُنُ الْوَصْلُ بِحَرْفِ الْعَطْفِ «الواو» بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْمَوْضُوعَ

يتحدث عن الآيات البينات التي جاء بها موسى عليه السلام، ويحسنُ الفصل باعتبار أن موسى عليه السلام كان يتحدث في أحوال مختلفة، دون أن يكون جواباً لمقالتهم.

وقد دلت هذه الآية على رَدِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام على فرعون وملئه، إذ قالوا عن آيات الله التَّسْع التي أجراها الله له: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ﴾ وعلى بيانه الذي كان يُكرِّره في أواخر مَسِيرَتِهِ الدَّعْوِيَّة في مصر، وهذا الرَّد قد اشتملَ على ثلاث قضايا.

القضية الأولى: دلت عليها عبارة: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: [رَبِّي أَعْلَمُ] بفتح ياء المتكلم:

أي: رَبِّي الَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ فِي الْكَوْنِ مِنْ أَحْيَاءٍ وَغَيْرِ أَحْيَاءٍ، أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ، وَبِمَنْ هُوَ كَذَّابٌ يَفْتَرِي عَلَيْهِ.

وبما أنه كذلك، وهو الَّذِي يُعَاقِبُ مَنْ افْتَرَى عَلَيْهِ، وَيُجَازِي مَنْ أَطَاعَ وَالتَّزَمَ هُدَاهُ، وَيُعَاقِبُ مَنْ عَصَى وَتَمَرَّدَ عَلَى طَاعَتِهِ، فَلْيَزْتَقِبْ كُلَّ فَرِيقٍ مِمَّنَا عَاقِبَةُ أَمْرِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ فِي الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينِ.

القضية الثانية: دلت عليها عبارة: ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وَمَنْ يَكُونُ لَهُ] بالياء، وهما وجهان عربيان جائزان:

عبارة: «عَاقِبَةُ الدَّارِ» وعبارة: «عُقْبَى الدَّارِ» قَدْ جَاءَا فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى دَارِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

وقد جاء في سورة (الرَّعْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) تَفْسِيرُ «عُقْبَى الدَّارِ» بِأَنَّهَا جَنَاتُ عَدْنٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
وَبِذَرُواكَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيْنَا أَوْلِيَّكَ لَمَّا عُقِبَ الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ
مِنَ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

لفظ «عَاقِبَةُ» ولفظ «عُقْبَى» مترادفان في المعنى، وهما بمعنى؛ آخر
أي شيءٍ وخَاتِمَتِهِ، وبمعنى: جزاء العمل أو الأمر.

والـ«ال» في لفظ «الدَّار» هي للكمال، ومعلوم أن الدار الكاملة في
العَاقِبَةِ الحَسَنَى هي جَنَّاتُ عَدْنٍ، وأن الدار الكاملة في العَاقِبَةِ السُّوْأَى،
هي دركاتُ عَذَابِ الْحَرِيقِ، في جَهَنَّمَ دار عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ.

والإضافة في عبارة: «عَاقِبَةُ الدَّار» وعبرة «عُقْبَى الدَّار» هي على
معنى: «في» أي: عَاقِبَةُ حَسَنَةٍ جَدًّا في الدَّارِ الْعَظِيمَةِ الْكَامِلَةِ فِي صِفَائِهَا،
والتي هي جَنَّاتُ عَدْنٍ، ذَوَاتُ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَاتِ فِي عُمُومِ الْجَنَّةِ.

القضية الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿... إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

الفلاح: الْفَوْزُ، وَالنَّجَاةُ، وَالظَّفَرُ، وَالْبَقَاءُ فِي السُّلْطَانِ.

أي: إِنَّ الشَّانَ الْعَظِيمَ الَّذِي هُوَ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، أَنَّ الظَّالِمِينَ
بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ، أَوْ بِجُحُودِ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَالتَّمَرُّدِ عَلَى طَاعَتِهِ، لَا
يَكُونُ لَهُمْ فَلَاحٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فَلَاحٌ فِي الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي
يَهْنَكُنْ عَلَى الْخَلْقِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ
مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨﴾﴾:

هَامَان: يَظْهَرُ أَنَّهُ الْوَزِيرُ الْأَوَّلُ، وَالْيَدُ الْيُمْنَى لِفِرْعَوْنَ، وَذُو السُّلْطَانِ
الْنافِذِ فِي مَمْلَكَتِهِ.

• ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَدُنْ عَلَى الطِّينِ﴾: أي: فاتخذ يا هامان وسائك ليوقد العمال النار على اللبن من الطين ليصير أجراً.

• ﴿فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾: أي: فأمر البنائين بعد تهيئة الأجر اللازم ببناء صرح شاهق لي، واتخذ كل ما يلزم لذلك.

الصَّرح: هو في اللغة القصر العالي، والبناء الشاهق الذاهب ارتفاعاً في الجوّ.

﴿لَمَكِّي أَطْلِعُ﴾: أي: لأُطلع. «لعلّ» هنا بمعنى لام التعليل.

وقرأ نافع، ابن كثير، وأبو جعفر، وأبو عمرو، وابن عامر: [لَعَلِّي أَطْلِعُ] بفتح ياء المتكلم.

أُطْلِعَ: أي: أنظر وأشاهد. يُقال لغة: «أُطْلِعَ إلى الشيء» أي: تَطَلَّعَ وَنَظَرَ لِيَعْرِفَهُ.

أقول: كان الإله المعبود في تصوّره هو الذي يجب على الناس طاعة أوامره ونواهيّه، والذي يجب على الشعب أن يخضعوا له خضوعاً تاماً.

وَيَكْتَسِبُ هَذَا الْإِنْسَانُ إِلَهِيَّتَهُ بِقُوَّةٍ وَرَائِيَّةٍ مِنْ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ الْإِلَهَةِ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْقُوَّةُ الْمَغْنَوِيَّةُ فِي ذَاتِ الْمَلِكِ، وَتَمْنَحُهُ هَذَا الْحَقُّ مَتَى مَلَكَ، إِذْ تَحُلُّ فِيهِ رُوحُ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِي آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ. (هكذا كانت عَقِيدَتُهُمْ الْمُفْتَرَاة).

وبما أن فرعون قد كان هو ملك مصر غير مُنَارِع، فإنه لا يعلم أن للملأ وهم أعيان مملكته من إله غيره، تجب طاعته، ويجب الخضوع له، وبما أنه هو إله الأعيان فلا بُدَّ أن يكون إلهاً لكل من دونهم من شعب مملكته.

وبهذا أغلن أنه إله كل شعبة من المضريين، ويلحق بهم الإسرائيليون.

وإذ يدعي موسى أن إلهه في السماء، فأبى لي يا وزيرى هاما، ويا ساعدي الأيمن، صرحاً من أجر، لأزقى في طبقات هذا الصرح، لعلّي أشاهد في الأجواء العليا إله موسى، فإذا لم أجد له وجوداً، فموسى كاذب في ادعاء أن إلهه في السماء.

إن فرعون يخدع شعبه، إذ يزعم أنه إذا بنى بناءً عالياً شاهقاً، وصعد إلى أغلاه، فلا بد أن يحيط نظره بكل شيء، فإذا لم يجد إله موسى، فإن هذا الإله لا وجود له، وموسى كاذب في ادعائه.

ولا بد أن تكون جماهير شعبه يومئذ من السذاجة وضحالة الفكر في دركة تجعلهم يقبلون هذه الخديعة الفرعونية.

أما أذكيا شعبه فقد أغرقهم بالمنافع، فهم بحبث يؤيدون أقواله، مع علمهم بأنها باطلة ساقطة لا قيمة لها، وهم بهذا يشاركونه في خداع جماهير الشعب المضري الساذج.

وأحكم فرعون خديعته التي أراد تزويجها في شعبه، إذ قال قبل بناء الصرح عن موسى عليه السلام: ﴿... وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٢٨﴾ فأظهر بهذه العبارة اهتمامه بالتعرف على إله موسى، فلم يقل: وإنه من الكاذبين، بل جعل ذلك احتمالاً ظنيّاً، وأن مراقبة السماء من أعلى الصرح تكشف صحة هذا الظن أو عدم صحته.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَجُودُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَٰهًا لَا يَرْجِعُونَ ۝٣٩﴾ فأخذته وجودهم فنبذتهم في أليّة فأنظر كيف كان عقبة الظالمين ﴿٤٠﴾:

﴿وَأَسْتَكْبَرُ﴾: أي: وامتنع فرعون عن قبول الحق معاندةً وتكبراً. وتكبر تكبراً شديداً.

الاستكبار: يأتي في اللغة بمعنى الامتناع عن قبول الحق معاندةً وتكبراً. ويأتي بمعنى التكبر بشدة، أخذاً من دلالة صيغة «استفعل».

أي: وتكبر فرعون هو وجنوده تكبراً شديداً، وامتنعوا عن قبول الحق الرباني، بغير دليل يُعطيهم شيئاً قليلاً من العذر.

• ﴿... وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَا يُرْجَعُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: [لَا يُرْجَعُونَ] بالبناء للمعلوم. وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد بيانه، أي: وظنوا أنهم لا يرجعون بإرجاع الله لهم، فهم لا يرجعون، هذا ظنهم، لكنهم يرجعون فيرجعون مطاوعين قهراً.

أي: ولم يقبلوا أن يؤمنوا بنبأ البعث والجزاء في حياة أخرى، بعد هذه الحياة الدنيا، للحساب، وفضل القضاء، وتحقيق الجزاء، من قبل رب العالمين، مع أن هذا النبأ مقرون بحجج عقلية بينة، وآيات إعجازية باهرة، آتاه الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام.

وكان ظنهم الذي اعتمدوا عليه لإنكار يوم الدين، ظناً توهمياً باطلاً، يتخيل أن الحياة قاصرة على هذه الحياة الدنيا.

• ﴿... فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي أَيْلٍ...﴾: أي: فجعلنا في نفسه غيظاً يدفعه لاتباع موسى وقومه بني إسرائيل بجيش قوي لمقاتلتهم، وقتل كبرائهم، وإعادة سائر شعب بني إسرائيل عبيداً، وجعلنا في نفسه الخوف من عودة موسى بعد هذا الخروج بجيش مقاتل، وزيننا له تكوين جيش لملاحقتهم وقتالهم، واستدرجناهم حتى دخلوا ملاحقين الإسرائيليين من مكان الفلق في البحر الذي فلقه الله لهم.

فلما اكتمل دخولهم جميعاً في الطريق الذي عبر منه موسى وهارون

وَقَوْمُهُمَا وَمَا مَعَهُمْ، وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ عُبُورُ آخِرِ عَابِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَا مَعَهُمْ ضَمَمْنَا عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ فَلَقَتِي الْبَحْرُ، فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ.

﴿فَسَبَّزْنَاهُمْ﴾: أي: فَطَرَحْنَاهُمْ، وَأَبْعَدْنَاهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ، كَمَا يُطْرَحُ الشَّيْءُ الْمَخْتَفَرُ الْمَكْرُوهُ، وَمِنْهُ نَبَذُ النَّوَاةِ.

• ﴿...فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾: أي: فَتَفَكَّرْ أَيُّهَا الصَّالِحُ لِلنَّظَرِ التَّفَكُّرِيَّ أَيَّا كُنْتَ، فِي مَجَارِي قَضَاءِ اللَّهِ وَقُدْرِهِ، وَجَزَاءَاتِهِ الْعَادِلَاتِ، كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ الظَّالِمِينَ ظُلْمًا مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ، عِنَادًا وَمُكَابَرَةً وَإِضْرَارًا عَلَى الْبَاطِلِ، اغْتِرَارًا بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

هذا في الدنيا، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَهُمْ خَالِدُونَ فِي عَذَابِ النَّارِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْذِبُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْفَيْكَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾^(٤١) وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْفَيْكَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ^(٤٢):

• ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْذِبُونَ إِلَى الْكَارِ﴾:

أَيْمَةً: جَمْعُ «إِمَامٍ» وَهُوَ مَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ، وَمَا يُؤْتَمُّ بِهِ، أَي: يُتَّبَعُ وَيُقْتَدَى

به.

أي: وَجَعَلْنَا ضِمْنَ نِظَامِ التَّكْوِينِ الْعَامِّ لِلْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَا جَبَرَ فِيهِ لِلْأَفْرَادِ، فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ وَجُنُودُهُمْ، أَيْمَةً فِي الْكُفْرِ، وَالشَّرِّ، وَالْفَسَادِ، وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَهُمْ بِمُقْتَضَى هَذِهِ الْإِمَامَةِ الَّتِي تَجْذِبُ مَنْ تَتَوَجَّهْ إِرَادَاتُهُمْ الْحَرَّةُ لِلْكَفْرِ بِالْحَقِّ، وَفِعْلِ الشَّرِّ، وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، يَدْعُونَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَتَوَابِعِهَا، الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، بِعَذْلِ اللَّهِ الرَّبِّ، الَّذِي وَضَعَ النَّاسَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ.

فالمستجيبُونَ لَهُؤُلَاءِ الْأُيْمَةُ يُتَابِعُونَهُمْ فِي ضَلَالَاتِهِمْ أَئِنَّ سَارُوا،
وكيف اتَّجَهُوا، مختارينَ بانقيادٍ طوعيٍّ، إِذْ وَجَدُوا عِنْدَهُمْ مَا يُوَافِقُ
أَهْوَاءَهُمْ وشهواتِهِمْ وَرَغْبَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

● ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾: أي: إِنَّ دَعْوَتَهُمْ إِلَى مَفْهُومَاتِهِمْ وَمَنَاهِجِهِمْ
وَأَعْمَالِهِمْ هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ دَعْوَةٌ إِلَى النَّارِ، إِذْ مَصِيرُهُمْ بِاسْتِجَابَتِهِمْ لِهَذِهِ
الدَّعْوَةِ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، هُوَ الْخُلُودُ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

تَحْلِيلُ مَعْنَى الْجَعْلِ الْقَدَرِيِّ فِي النِّظَامِ الْعَامِّ لِلْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ:

أَكْرَرُ هُنَا أَنَّ الْجَعْلَ الْقَدَرِيَّ فِي النِّظَامِ الْعَامِّ لِلْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ، لَا
يُلْغِي حُرِّيَّةَ الْإِرَادَةِ الْفَرْدِيَّةِ، الْمَوْضُوعَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ. بَلْ
هُوَ مِنْ تَمَامِ ظُرُوفِ الْامْتِحَانِ الْأَمْثَلِ لِلْإِرَادَاتِ ذَوَاتِ الْحُرِّيَّةِ الْكَامِلَةِ فِي
تَوَجَّهَاتِهَا.

وَأَضْرِبُ مَثَلًا عَلَى هَذَا فِيمَا يَلِي:

مَنْ أَرَادَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَخْتَبِرَ مَا فِي نَفُوسِ جَمَاعَةٍ مُخْتَلِطَةٍ، لِكُلِّ فَرْدٍ
مِنْ أَفْرَادِهَا إِرَادَتُهُ الْحَرَّةَ، وَرَغْبَاتُهُ الْخَاصَّةُ الْخَبِيئَةُ دَاخِلَ نَفْسِهِ، وَمُيُولَاتُهُ
وَمَطَالِبُهُ الَّتِي يَسْعَى لِتَحْقِيقِهَا، لِيَكْشِفَ اخْتِيَارَاتِهِمْ وَمَسِيرَاتِهِمْ، فَمِنْ أَحْسَنِ
وَسَائِلِ الْإِخْتِبَارِ أَنْ يَضَعَ عَلَى مُفْتَرَقِ السَّبِيلِ مَجْمُوعَاتٍ مُخْتَلِفَاتِ
الْإِتْجَاهَاتِ وَالْأَعْمَالِ، وَلِكُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنْهَا مِنَ الصِّفَاتِ وَالسُّلُوكِيَّاتِ مَا
يَجْذِبُ فَرِيقًا مِنَ الْجَمَاعَةِ الْمُخْتَلِطَةِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَاتِ مَجْمُوعَةٌ خَيْرٌ، وَمَجْمُوعَةٌ شَرٌّ، وَهُنَا نَلَاظُ:

(١) أَنَّ مَجْمُوعَةَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالرُّشْدِ وَالْفَضِيلَةِ، يَتَّبِعُهَا مُنْجَذِبًا
إِلَيْهَا، مَنْ لَدَيْهِمْ حُبٌّ لِلْحَقِّ، وَالْخَيْرِ، وَالرُّشْدِ، وَالْفَضِيلَةِ، بِإِرَادَاتِهِمْ
الْحَرَّةَ، رَاضِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أُمَّةً لَهُمْ.

وفي فُرُوع صراط هؤلاء، يَتَّبِعُ طُلَّابُ عُلُومِ الدِّينِ الْعُلَمَاءَ، وَطُلَّابُ عِبَادَةِ اللَّهِ بِالصَّلَوَاتِ وَالصَّيَامِ وَالْحَجِّ الْعُبَادَ، وَطِلَابُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْمَجَاهِدِينَ.

(٢) وَأَنَّ مَجْمُوعَةَ أَهْلِ الْبَاطِلِ، وَالشَّرِّ، وَالْغَيِّ، وَالرَّذِيلَةِ، يَتَّبِعُهَا مُنْجَذِبًا إِلَيْهَا، وَمُقْتَدِيًا بِهَا، مَنْ لَدَيْهِمْ حُبٌّ لِلْبَاطِلِ، وَالشَّرِّ، وَالْغَيِّ، وَالرَّذِيلَةِ، بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةِ، رَاضِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَيْمَةً لَهُمْ.

وفي فروع سُبُلِ هؤلاء الأئمة الضالِّين، يَتَّبِعُ طُلَّابُ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ أَيْمَةً لَهُمْ فِيهَا، وَيَتَّبِعُ طُلَّابُ الْمَالِ أَيْمَةً لَهُمْ فِيهَا، وَيَتَّبِعُ طُلَّابُ السُّلْطَانِ وَظُلْمِ الْعِبَادِ أَيْمَةً لَهُمْ فِيهَا، وَيَتَّبِعُ طُلَّابُ الْبَغْيِ وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ أَيْمَةً لَهُمْ فِيهَا.

وهكذا يَتَّبِعُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ النَّاسِ بِاخْتِيَارَاتِهِمُ الْحَرَّةِ، أَيْمَةً يُلَاثِمُونَ مَا فِي نُفُوسِهِمْ، رَغْبَةً فِي اجْتِمَاعِ الْأَشْبَاهِ وَالنِّظَرَاءِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي زَمَرٍ يُلَاثِمُ فِيهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهَذَا مِنْ سُنَنِ الْاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّفُوسَ عَلَيْهَا.

• ﴿...وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (٤١): أي: وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَجِدُ الْأَيْمَةُ الْكَفَرَةَ الْفَجْرَةَ وَلَا مِنْ أَثَمَ بِهِمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ، فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ، أَوْ يَرْفَعُ عَنْهُمْ شَيْئًا مِنْهُ.

النصير: التأييد، والإعانة، والمُساعدَةُ بِالْقُوَّةِ، الَّتِي تَدْفَعُ أَوْ تَرْفَعُ مَكْرُوهًا عَنِ الْمَنْصُورِ.

• ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً...﴾ (٤٢): أي: وَاتَّبَعْنَا فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ بَعْدَ إِهْلَاكِهِمْ بِالْإِغْرَاقِ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً شَدِيدَةً.

اللَّعْنُ: الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

وَيَتَحَقَّقُ هَذَا اللَّغْنُ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ عَذَابٍ نَفْسِيٍّ وَرُوحِيٍّ بَعْدَ الموت، حَتَّى الْبَعْث. وَبِتَرْغِيبِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْعُوا عَلَيْهِم بِاللَّغْنِ كُلَّمَا جَاءَ ذِكْرُهُمْ وَقُصِّتْ قِصَّةُ كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُعَانَدَتِهِمْ لآيَاتِ رَبِّهِمْ.

﴿...وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٤٢): أي: وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ أَيْضاً مِنَ الْمَطْرُودِينَ الْمُبْعَدِينَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

المقبوح: المبعّد من كلّ خير، يقال لغة: «قَبَحَ اللهُ فلاناً يَقْبَحُهُ، قَبْحاً، وَقُبُوحاً» أي: أَبْعَدَهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، فَهُوَ مَقْبُوحٌ.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣):

﴿وَلَقَدْ﴾: «قَدْ» حَرْفٌ يَدْخُلُ عَلَى الْفِعْلِ الْمَاضِي، فَيُفِيدُهُ التَّوَكِيدَ، وَاللَّامُ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَنُويٍّ كَمَا يَرَى كَثِيرٌ مِنَ النَّحَاةِ.

وجاء هذا التوكيد مُرَاعَاةً لِحَالِ الْمُقْصُودِينَ بِالْخِطَابِ وَهُمْ الْكُفَّارُ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِالْقُرْآنِ الَّذِي يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ عَنْ رَبِّهِمْ، بَاغْتِبَارِهِمْ قَدْ كَفَرُوا أَيْضاً بِكِتَابِ التَّوْرَةِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أي: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِ وَهُوَ التَّوْرَةُ، مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى، قَوْمَ نُوحٍ، وَقَوْمَ هُودٍ، وَقَوْمَ صَالِحٍ، وَقَوْمَ لُوطٍ، وَقَوْمَ شُعَيْبٍ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَفِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ أَيْضاً عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللهِ، حَالَةٌ كَوْنٍ هَذَا الْكِتَابِ يَتَّصِفُ بِصِفَاتٍ ثَلَاثَ:

الصفة الأولى: كَوْنُهُ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ، أي: يَشْتَمِلُ عَلَى عِلْمٍ، وَحُجَجٍ وَبَرَاهِينٍ، وَعِبَرٍ لِلنَّاسِ، مِمَّا يَنْفَعُهُمْ لِدُنْيَاهُمْ وَأٰخِرَتِهِمْ.

بَصَائِر: جمع «بَصِيرَة» وهي تُطْلَقُ عَلَى الْعِلْمِ، وَالْخِبْرَةِ، وَالْحِجَّةِ، وَالْعِبْرَةِ، مِنْ ضَمْنِ مَا تُطْلَقُ عَلَيْهِ.

الْصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ: كَوْنُهُ هُدًى، أَي: يَشْتَمِلُ عَلَى مَا فِيهِ هِدَايَةٌ لِلنَّاسِ، إِلَى مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَجَتْهُمْ.

الْهُدَى: الدَّلَالَةُ عَلَى مَا فِيهِ حَقٌّ وَخَيْرٌ وَصَلَاحٌ وَرَشَادٌ.

الْصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: كَوْنُهُ رَحْمَةً، أَي: يَشْتَمِلُ عَلَى مَا فِيهِ رَحْمَةٌ لِلنَّاسِ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِمْ وَآجِلِهِ، بِمَا فِيهِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتَحْذِيرٍ مِنَ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ، وَسُبُلِ الضَّلَالِ. وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ.

الرَّحْمَةُ: صِفَةُ نَفْسِيَّةٌ مِنْ أَثَارِهَا الْعَطَاءُ، وَالْمَعُونَةُ، وَالتَّوْفِيقُ. وَالدَّلَالَةُ عَلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالصِّرَاطِ السَّوِيِّ، وَإِزَالَةُ الْبُؤْسِ، وَالْإِمْدَادُ بِمَا يُسْعِدُ، وَيُسْكِنُ النَّفْسَ، وَيُطْمِئِنُّ الْقَلْبَ، وَيُمْتَعُ ذَا الْحَيَاةِ بِمَا يَطِيبُ لَدَيْهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَطَايَا وَهَبَاتٍ وَهَدَايَةٍ، وَتَحْذِيرٍ مِنَ الشُّرُورِ.

﴿...لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أَي: رَغْبَةً فِي أَنْ يَضَعَ النَّاسُ الَّذِينَ أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ لِهِدَايَتِهِمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ فِي ذِكْرَاتِهِمْ، فَيَتَذَكَّرُوا مِنْهَا عِنْدَ كُلِّ حَدَثٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ مُنَاسَبَةٍ مَا يَهْدِيهِمْ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِمْ وَآجِلِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ دَافِعاً إِلَى الْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ أَوْامِرٍ، أَوْ نَوَاهِيٍّ، أَوْ وَصَايَا، أَوْ نَصَائِحٍ وَإِشَادَاتٍ.

وبهذا تَمَّ تَدْبِيرُ الدَّرْسِ الثَّانِي مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الْقَصَصِ) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى إِمْدَادِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَفَتْحِهِ، وَمَعُونَتِهِ.



(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (القصص) الآيات من (٤٤ - ٧٠)

وهو درسٌ يَشْتَمِل على مُتَابَعَةِ عِلَاجِيَّةِ دَعْوِيَّةٍ لِكُبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ وما حولها بأساليب مختلفة، وفيه علاجاتٌ مضاعفاتٌ إلى ما سَبَقَ أَنْ عُولِجُوا به في نجوم التنزيل التي نزلت قبل سورة (القصص). ونظراً إلى طول هذا الدرس فَمِنَ الْمُسْتَحْسَنِ أَنْ أُقَسِّمَهُ إلى أجزاءٍ يُعْتَبَرُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا بِمَثَابَةِ وَحْدَةٍ مُتْرَابِطَةٍ الدَّلَالَاتِ.

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۚ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۖ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ مِّمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ قَبُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّعَ بِآيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾

تمهيد:

في هذه الآيات تَنْبِيهٌُ لِلْمُعَالِجِينَ على دَلِيلٍ من أدلة كَوْنِ الْقُرْآنِ مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِذْ جَاءَ فِيهِ بَيَانُ أَحْدَاثٍ جَرَتْ لِمُوسَى وَهُوَ فِي الْوَادِي الْمَقْدَسِ «طوى» الواقع إلى جانب «الطور» وهذا الجانب يَقَعُ إلى الجهة الغربية من الوادي لا إلى الجهة الشرقية منه، وهذه الأحداث ما كان لمحمد أن يَعْلَمَهَا بِحَسَبِ واقع حاله في قومه لولا أن أنزلها اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْلَمَهُ بِهَا، إِذْ لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا هَذِهِ الْأَحْدَاثَ بِدَاهَةِ، وَهُوَ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ فَهُوَ لَمْ يَقْرَأْهَا فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهَذَا يَكْفِي

دَلِيلًا عِنْدَ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وقد جاء بيان هذا الدليل بَعْدَ ذِكْرِ أَحْدَاثِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام فِي الدرس الثاني من دُرُوس السورة .

وَلَمْ يُوَاجِهِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَا الْخُطَابِ الْمُقْصُودِينَ بِالْمَعَالَجَةِ إِعْرَاضًا عَنْهُمْ ، فِي مَقَابِلِ إِذْبَارِهِمْ وَتَوَلِّيهِمْ ، بَلْ خَاطَبَ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ بِهِ ، وَالْغَرَضُ إِسْمَاعُهُمْ بِأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ .

التدبر التحليلي :

قول الله عز وجل :

• ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ :

• ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ : أي : وَمَا كُنْتَ مَوْجُودًا بِجَانِبِ الْمَكَانِ الْغَرْبِيِّ الَّذِي نَاجَى اللَّهَ بِهِ مُوسَى فِي الْوَادِي الْمَقْدَسِ «طُوًى» بَعْدَ أَنْ نَادَاهُ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ، حَتَّى تَسْمَعَ دُونَ مُشَاهَدَةٍ ، مَا جَرَى مِنْ مُنَاجَاةٍ بَيْنَ مُوسَى وَرَبِّهِ ، فَتَتَحَدَّثَ بِهِ لِقَوْمِكَ ، وَهُوَ أَمْرٌ حَقٌّ يَشْهَدُ بِصِحَّتِهِ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ ، لِمَطَابَقَتِهِ لِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ حَقٍّ .

• ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ : أي : وَقَدْ أَنْهَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى أَمْرَ مُكَالَمَتِهِ ، وَجَعَلْنَاهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا ، وَإِيَّتَاهُ آتَيْنَا الْعَصَا وَالْيَدَ ، وَتَكْلِفِيهِ أَنْ يَذْهَبَ حَامِلًا رِسَالَةَ رَبِّهِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَسَائِرِ شُعْبٍ مِضْرٍ يَوْمَئِذٍ .

جاء التعبير بضمير المتكلم العظيم إشارة إلى ما جرى في هذه الأحداث من أمور جليلة عظيمة لا تَصُدَّرُ إِلَّا عَنِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

• ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ : أي : وَمَا كُنْتُ مِنَ الْحَاضِرِينَ فِي هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الشَّاهِدِينَ لَهَا .

الشَّاهِد: الحاضِرُ في الحَدَث، أو المعايِنُ لَهُ رُؤْيَا عَيْنٍ، يَقَالُ لُغَةً: «شَهِدَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: عَايَنَهُ بِمَعْنَى رَأَاهُ رُؤْيَا الْعَيْنِ.

فجاءت الجملة الأولى من الآية لنفي وجوده بجانب المكان يستمع ما يجري فيه من كلام.

وجاءت الجملة الأخيرة من الآية لنفي حضوره في وسط الحدث يرى بعينه ما يجري، ويسمع ما يقال فيه من كلام.

وهذا من استقصاء نفي الاحتمالات التي يراود بها الاستهانة بمدارك المعالجين الذهنية، مع أن إحدى الجملتين تُغني عن الأخرى عن طريق اللزوم الذهني.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿٤٥﴾:

• ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾: أي: والسبب في إعادة إرسال الرسل برسالات من لدنا، أننا أنشأنا قُرُونًا عديدة بعد موسى والتوراة، فتطاول عليهم الزمن، فنسوا وأهملوا وصيغوا ما كان قد أنزل ربهم من الدين الذي اصطفاه للموضوعين موضع الامتحان من عباده.

فاقتضى هذا الواقع إرسال رسل لاحقين لرسل سابقين، وكنت أنت يا محمد آخرهم وخاتمهم.

تَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ: أي: طال عليهم الزمن الذي كان بمثابة وعاءٍ لأعمار أفراد هذه القرون.

القرن: هو من الناس أهل زمان واحد، وسُموا قَرْنًا لأنهم اقترنوا معاً في ذلك الزمان.

الْعُمْرُ: مُدَّة حَيَاةِ الْكَائِنِ الْحَيِّ.

• ﴿وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾:

﴿ثَابِتًا﴾: أي: مقيماً ومُستَقِرّاً، يقال لغة: «ثَوَى بالمكان، وثَوَى في المكان، يَثْوِي، ثَوَاءً، وَثَوِيًّا» أي: أقام واستقرَّ فيه.

أي: وما كنتَ يَا مُحَمَّدٌ مقيماً في أَهْلِ مَدْيَنَ أَيَّامَ وُجُودِ مُوسَى فيها، حتَّى تَعْلَمَ أخبارَهُ وتَنْقُلَهَا.

وجاءت عبارة: ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ دَالَّةً عَلَى أَنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَوْ كَانَ حَيًّا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي مَدْيَنَ، لَكَانَ رَسُولًا يَتْلُو عَلَى أَهْلِ مَدْيَنَ آيَاتِ رَبِّهِ، بِمَقْتَضَى الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا كَامِلًا، مُؤَهَّلًا لِأَنَّهُ يَكُونُ نَبِيًّا وَرَسُولًا.

• ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: أي: فَلَمْ نَشْرِكِ الْقُرُونَ الَّتِي نَسِيتَ أَوْ أَهْمَلْتَ أَوْ أَضَاعَتْ الدِّينَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَى مُوسَى، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَسُولًا، أَبْلَغُوهُمْ مِنْ جَدِيدِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لَهُمْ، وَكُنْتَ يَا مُحَمَّدُ آخِرَهُمْ وَخَاتِمَتَهُمْ، لِأَنَّنَا تَكَفَّلْنَا بِحِفْظِ الْكِتَابِ الَّذِي نُنَزِّلُهُ عَلَيْكَ وَهُوَ الْقُرْآنُ، وَحِفْظِ هَذَا الدِّينِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، نَظَرًا إِلَى مَا تَطَوَّرَ إِلَيْهِ الْمَجْتَمَعُ الْبَشَرِيُّ مِنْ إِمْكَانِ جَمْعِهِمْ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وَتَكْلِيفِهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ جَمِيعًا، حَتَّى آخِرِ مُمْتَحِنٍ سَيُوجَدُ فِي النَّاسِ، مَوْضِعٌ فِي الْحَيَاةِ مَوْضِعُ الْإِخْتِبَارِ، وَالْمَسْئُولِيَّةِ، وَالْجَزَاءِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤١):

• ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾: أي: وما كُنْتَ بِجَانِبِ جَبَلِ الطُّورِ حِينَ نَادَيْنَا مُوسَى نَدَاءَاتٍ سَبَقَ بَيَانُهَا فِي (الشعراء/ ٤٧ نزول) وفي (مريم/ ٤٤ نزول) قَبْلَ أَنْ نُقَرِّبَهُ نَجِيًّا وَنُنَاجِيَهُ سِرًّا.

فما جاء في الآية (٤٤) تَذُلُّ الْقَرَائِنُ عَلَى حَالَةِ الْمُنَاجَاةِ، وَمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (٤٦) تَذُلُّ عِبَارَةٌ: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ عَلَى مَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يُقَرَّبَهُ اللَّهُ نَجِيًّا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

• ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: فَمَا تَرَكْنَا النَّاسَ يَتَخَبَّطُونَ فِي الظُّلُمَاتِ وَالضَّلَالَاتِ بَعْدَ أَنْ ضَاعَتْ وَحُرِفَتْ وَنُسِيتْ بَيَانَاتُنَا الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَنْزَلْنَاهَا، وَلَكِنْ جَعَلْنَاكَ نَبِيًّا وَرَسُولًا وَنُنَزِّلُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِيُبْلَغَهُ لِلنَّاسِ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ بِهِمْ.

وُضِعَ الْاسْمُ الظَّاهِرُ فِي عِبَارَةٍ: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ: «مِنَّا» لِلدَّلَالَةِ عَلَى صِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ لِعِبَادِهِ، الَّتِي قَضَتْ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ، فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِيَحَاسِبَهُمْ، وَيَفْصَلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِمْ، ثُمَّ لِيُجَازِيَهُمْ عَلَى اخْتِيَارَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾:

نَذِيرٌ: يَأْتِي اسْمًا لِلإِنذَارِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ فِعْلٍ «أَنْذَر». وَيَأْتِي أَيْضًا بِمَعْنَى: «مُنْذَر».

وَالْمَعْنَى: لِنُنْذِرَ قَوْمًا الإِنذَارَ الَّذِي سَبَقَ أَنْ أَتَاهُمْ مِّن قَبْلِكَ، وَبَلَّغَهُمْ إِلَيْهِ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ.

هَذَا مَا رَأَيْتُهُ هُوَ الْحَقُّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَأَنَّ كَلِمَةَ «مَا» فِي عِبَارَةِ ﴿مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ﴾ لَيْسَتْ نَافِيَةً، بَلْ هِيَ اسْمُ مَوْضُولٍ.

وَقَدْ سَبَقَ بَسْطُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ لَدَى تَدَبُّرِ الْآيَةِ (٦) مِنْ سُورَةِ

(يس/ ٤١ نزول)^(١).

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ يَضَعُوا مَا نُزِّلَ عَلَيْكَ مِنْ قُرْآنٍ فِي ذِكْرَاتِهِمْ، بَعْدَ أَنْ يَتَبَلَّغُوهُ وَيَتَفَهَّمُوا مَعَانِيَهُ، وَرَغْبَةً فِي أَنْ يَتَذَكَّرُوا مِنْهُ عِنْدَ كُلِّ مَنَاسِبَةٍ وَكُلِّ حَدِيثٍ وَكُلِّ عَمَلٍ مَا يُلَاقُونَ ذَلِكَ لِيَعْمَلُوا بِهِ.

لَعَلَّ: لِلتَّرَجُّيِ، وَمِنْ لَوَازِمِ الْمَرْجُوِّ الْمَتَرَقِّبِ الرَّغْبَةُ فِي تَحَقُّقِهِ، وَإِذْ لَا يَلِيقُ التَّرَجُّيُّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ الْعَلِيمُ بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ وَبِمَا سَيَكُونُ، فَيُتَبَغَّى حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى لَازِمٍ مَعْنَاهُ، وَهُوَ الرَّغْبَةُ، وَهَذَا يَلِيقُ بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ.

قول الله عز وجل بشأن عتاة كفار مكة وأشباهم:

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧):

أي: إِنَّ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ وَأَعْمَالٍ بَغْيٍ وَظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ وَفُجُورٍ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَالظُّلْمَ وَالْعَدْلَ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَ رَسُولًا بَلَّغُوا وَبَشَّرُوا وَحَذَّرُوا وَأَنْذَرُوا، كَافٍ بِمُقْتَضَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ لِأَنْ نَعَاقِبَهُمْ عَلَى ذُنُوبِهِمْ، فَتُنْزِلَ بِهِمْ مُصِيبَةً بِسَبَبِ مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ آثَامٍ.

لَكِنْ مُعَاقِبَتُهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَجْعَلُهُمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِكَ، وَيُبَلِّغُنَا مَطْلُوبَكَ مِنَّا فِي رَحَلَةِ امْتِحَانِنَا، فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَفْعَلَ مَا تَأْمُرُنَا بِهِ، وَتَتْرُكَ مَا تَنْهَانَا عَنْهُ.

وبما أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ قَدْ يَحْمِلُ عُذْرًا ظَاهِرِيًّا، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ لِقَطْعِ كُلِّ أَعْذَارِهِمْ، أَنْ تُنْمِهُلَهُمْ، وَتُؤْمِدَّ لَهُمْ، وَتُرْسِلَ لَهُمْ رَسُولًا مَبْلَغًا وَمَبِينًا

وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَنُوحِرَ عِقَابُهُمْ إِلَى مَا بَعْدَ اسْتِيفَاءِ شُرُوطِ الْبَيَانِ الْكَافِي،
وَالْتَحْذِيرِ وَالْإِنْذَارِ.

﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾: أي: هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فكلمة
﴿لَوْلَا﴾ هُنَا هِيَ بِمَعْنَى «هَلَّا» أَدَاةُ تَخْصِيصٍ.

وجواب: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ﴾ محذوف تقديره لِعَاقِبَتَانَهُمَا بِإِنْزَالِ
المصائب الْعِقَابِيَّةِ بِهِمْ قَبْلَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَنَا مُحَمَّدًا وَقَبْلَ أَنْ تُنْزَلَ
عَلَيْهِ الْقُرْآنُ. و﴿لَوْلَا﴾ هُذِهِ حَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ شَيْءٍ لَوْجُودِ غَيْرِهِ. وَلَا
يَدُلُّ لَهُ مِنْ جَوَابٍ مَذْكُورٍ أَوْ مُقَدَّرٍ، وَتَكَثَّرَ اللَّامُ فِي جَوَابِهَا.



قال الله عز وجل بشأن عتاة كفار مكة وأشباههم إِبَّانَ التَّنْزِيلِ إِيضًا:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿٤٨﴾
قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْتُمَا أُنْتِعِمَ بِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾
فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ
الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

القراءات:

• قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿سِحْرَانِ﴾.

وقرأها باقي القراء العشرة: [سَاحِرَانِ].

قراءة «سِحْرَانِ» دَلَّتْ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ.

وقراءة «سَاحِرَانِ» دَلَّتْ عَلَى وَضْفِهِمَا فِيمَا جَاءَ بِهِ. فالقراءتان

متكاملتان في الأداء البياني، إذ يلزم من كون ما جاء به سحرين أن يكونا ساحرين، ويلزم من كونهما ساحرين أن يكون ما جاء به سحرين، فجاء التعبيران بلازم كل منهما.

تمهيد:

في هذه الآيات بيان حال المقصودين بالمعالجة بعد بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، وبيان بعض جدلياتهم بشأن ما أتى الله رسوله من آيات، وأنها ليست مشابهة لما أوتي موسى، والرد عليهم بأنهم كفروا بما أوتي موسى من قبل، ثم كفروا بما أوتي محمد، وزعموا كما زعم فرعون وملؤه أن ما جاء به موسى قد كان من قبيل السحر، وأن ما جاء به محمد من قرآن معجز هو سحر أيضاً، وأن موسى ومحمداً تظاهرا على افتراء الدين عن الله مستخدمين السحر وسيلة لإقناع الناس بفريرتيهما الدينية.

وجاء فيها تعليم الرسول أن يتحدثهم بأن يأتوا بكتاب هو أهدي من التوراة والقرآن حتى يتبعه إن كانوا صادقين بأن التوراة والقرآن وضع بشري، وليس تنزيلاً من لدن رب العالمين.

وجاء فيها بيان حالهم الضال عن الحق وصراط الهدى اتباعاً لأهوائهم، وأن الله لا يحكم لهم بالهداية وهم ظالمون، وبيان أن الله وصل لهم القول الهادي إلى الحق والخير وصراطه المستقيم، رغبة في أن يتذكروا، فمسؤوليتهم مسؤولية تامة، ولا عذر لهم في عدم استجابتهم ولا شبهة عذر، فليأتوا مصيرهم الذي أنذروهم به كتاب ربهم ورسوله.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى...﴾ ﴿٤٨﴾

أي: وَقَطَعَا لِأَعْذَارِهِمْ، وَكُلَّ تَعَلَّاتِهِمْ، لَمْ نَعَاقِبْهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَعُذْوَانِهِمْ، وَفُجُورِهِمْ، قَبْلَ إِرْسَالِ رَسُولٍ لَهُمْ، يَثْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَيُبَلِّغُهُمْ أَوْامِرَنَا وَنَوَاهِينَا، وَيُوضِّحُ لَهُمْ صِرَاطِنَا الْمُسْتَقِيمَ، فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا الَّذِي أُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ، وَتَلَا عَلَيْهِمْ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِنَا الْقُرْآنَ وَوَعَاوَا بَيِّنَاتِنَا، لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِمَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ، بَلْ افْتَعَلُوا تَعَلَّةً جَدِيدَةً قَالُوا فِيهَا: هَلَّا أُوتِيَ مُحَمَّدٌ مِنَ الْآيَاتِ الْخَوَارِقِ الْمَعْجَزَاتِ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى كَايَةِ الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ حَيَّةً تَسْعَى، وَكَايَةِ الْيَدِ الَّتِي تَنْقَلِبُ بَيضَاءَ مُضِيئَةً مِثْلَ ثَلَاثَةِ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ.

﴿لَوْلَا﴾ هنا بمعنى «هَلَّا» أَدَاةُ تَحْضِيضٍ.

قول الله عز وجل:

﴿... أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا

إِنَّا يَكْلِي كُفْرُونَ﴾ (٤٨):

أي: كَيْفَ يُطَالِبُونَ بِأَنْ يُؤْتَى مُحَمَّدٌ لِتَصْدِيقِ بِلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَلَا سِيَّمَا الْكِتَابَ الَّذِي يَثْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ، مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ مِنْ آيَاتِ بَاهِرَاتٍ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنَ التَّوْرَةِ، وَيَكْفُرُونَ بِالْآيَاتِ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا مُصَدِّقَةً أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمُصَدِّقَةً بِلَاغَاتِهِ عَنْهُ، وَقَالَ قَائِلُونَ مِنْهُمْ وَسَكَتَ الْآخَرُونَ: إِنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى سِحْرٌ، فَهُوَ سَاحِرٌ، وَإِنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ مِنْ قُرْآنٍ عَجِيبٍ مُعْجَزٌ هُوَ أَيْضاً سِحْرٌ، فَمُحَمَّدٌ سَاحِرٌ مِثْلُ مُوسَى، وَقَدْ اجْتَمَعَا كَالْمُتَعَاوِنَيْنِ عَلَى إِثْبَاتِ قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ تَوْحِيدُ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَنَفْيُ الشُّرَكَاءِ، وَمُحَارَبَةُ الْأَوْثَانِ، وَإِثْبَاتُ يَوْمِ الدِّينِ.

﴿تَظَاهَرَا﴾: أي: تَعَاوَنَا، وَبِنَبْغِي حَمْلُ التَّعَاوُنِ عَلَى مَعْنَى التَّلَاقِي

عَلَى إِثْبَاتِ قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ.

وَلَمْ يَرِدْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذَا الْمَجَالِ لِأَنَّ الْمَشْهُورَ بَيْنَ الْعَرَبِ

من دِيَانَتِهِ التثليث، وهو من الشُّرِكِ الذي يَلْتَقِي المشركون معه التقاءً ما، وهذا ما جعلهم يقولون كما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) بشأن محمد ﷺ:

﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَلَمَةِ الْأَخْرَى إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿فِي الْأَلَمَةِ الْأَخْرَى﴾: أي: في الدِّيَانَةِ النَّصْرَانِيَّةِ.

دلّ هذا البيان الربّاني في هذه الآية (٤٨) من السورة على أنّ مشركي العرب كانوا مطالبين بالإيمان بما جاء به موسى عليه السّلام من كتاب وآيات، ومطالبين بالعمل بما جاء في التوراة من توحيد ونبذ للشرّك، فهم مُحَاسِبُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ مِنْ قَبْلِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وهم بعد بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أعلنوا كُفْرَهُمْ بما جاء به كلّ من الرّسولين عليهما الصّلاة والسّلام، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في آخر الآية:

﴿.. وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿٤٨﴾﴾: أي: وقالوا مُعْلِنِينَ كُفْرَهُمْ ومؤكّدين قَوْلَهُمْ: إِنَّا بِكُلِّ مِمَّا جاء به موسى، ومِمَّا جاء به مُحَمَّدٌ كَافِرُونَ، وبكلّ من نُبِوتِهِما وِرِسَالَتِهِما كَافِرُونَ، لا نُؤْمِنُ بَأَنَّهُمَا نَبِيَّانِ ورسولان لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتَلِبَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

إنّ إعلان عِتَاءَةِ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا إِبَّانَ التّنْزِيلِ كُفْرَهُمْ بِالتّورَةِ وَكُفْرَهُمْ بِالْقُرْآنِ، يَفْتَضِي عن طَرِيقِ اللُّزُومِ الدّهْني أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ مُوسَى

اِفْتَرَى التَّوْرَةَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا يُفْتَرِي الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِهِ عَلَى رَبِّهِ.

والمحاجة الجدلية في مقابل هذا الزعم الواضح البطلان، تَقْتَضِي أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: أَعْطَوْنَا كِتَابًا تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، هُوَ أَكْثَرُ هِدَايَةٍ إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ وَمِنْهَا جَ السُّلُوكِ الْأَقْوَمِ، مِنَ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ، فَإِنْ جِئْتُمْ بِهِ فَإِنَّا نَتَّبِعُهُ لِأَنَّا طُلَّابُ حَقٍّ وَهِدَايَةٍ إِلَى الْيَسَرِ هِيَ أَقْوَمُ، هَذَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ مَعَ أَنْفُسِكُمْ فِي أَنَّكُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّ التَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ مُفْتَرَيَانِ عَلَى اللَّهِ.

هذه المحاجة الجدلية هي التي عَلَّمَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَكُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ، بِهَذِهِ الْآيَةِ.

• ﴿قُلْ﴾: أَي: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ يَا أَيُّهَا الْمَجَادِلُ لَهُمْ مِنْ أُمَّتِهِ.

• ﴿فَاتَّقُوا بِكُنْزٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾: أَي: إِنْ كُنْتُمْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرَةُ الْمُشْرِكُونَ صَادِقِينَ مَعَ أَنْفُسِكُمْ فِي اعْتِقَادِ أَنَّ التَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ مُفْتَرَيَانِ عَلَى اللَّهِ، فَانْتُمْ لِهَذَا تَكْفُرُونَ بِهِمَا، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتْرَكَ عِبَادَهُ مِنْ دُونِ كِتَابٍ يُنْزِلُهُ لَهُمْ، لِيُبَيِّنَ مَطْلُوبَهُ مِنْهُمْ فِي رَحْلِهِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُشْتَمِلًا عَلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْهِدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فابْحَثُوا عَنْ كِتَابِ رَبَّانِي يَشْتَمِلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَإِنْ جِئْتُمْ بِهِ، وَوَجَدْنَاهُ أَكْثَرَ هِدَايَةٍ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ، فَإِنَّا نَتَّبِعُهُ، وَلَا نَجِدُ آيَةً غَضَاضَةٍ فِي اتِّبَاعِهِ، لِأَنَّا طُلَّابُ حَقٍّ وَخَيْرٍ وَفَضِيلَةٍ وَهِدَايَةٍ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

• ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾: أَي: هُوَ أَكْثَرُ هِدَايَةٍ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ. «أَهْدَىٰ» أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ مِنْ فَعَلَ «هَدَاهُ لَهُ وَهَدَاهُ إِلَيْهِ يَهْدِيهِ» أَي: بَيَّنَّ لَهُ، وَأَوْضَحَهُ لَهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَيْهِ وَدَلَّهُ عَلَيْهِ وَعَرَّفَهُ بِهِ.

• ﴿... إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٩): أي: إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّ التَّوْرَةَ وَالْقُرْآنَ مُفْتَرَيَانِ عَلَى اللَّهِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ بِحُكْمَتِهِ السَّيِّئَةِ لَا يَتْرُكُ عِبَادَهُ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، دُونَ أَنْ يُنْزَلَ إِلَيْهِمْ كِتَابًا يُبَيِّنُ لَهُمْ فِيهِ مَطْلُوبُهُ مِنْهُمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَلِيُجْرِيَ حِسَابُهُمْ، وَفَضْلَ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، وَمُجَارَاتِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ بَيِّنَاتٍ وَتَكَالِيفٍ. وَجَاءَ اسْتِعْمَالُ «إِنْ» لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُمْ كَاذِبُونَ غَيْرَ صَادِقِينَ.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خُطَابًا لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِشَأْنِ الْمَعَاجِلِينَ أَنْفُسَهُمْ:

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٠):

جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ خُطَابًا لِلرَّسُولِ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، وَالْغَرَضُ إِسْمَاعُ الْمَعَاجِلِينَ فِي السُّورَةِ، وَهُمْ عُتَاةُ كُفَّارٍ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، بِأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، وَبِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا فِي الضَّلَالَةِ أَحْطَ دَرَكَةٍ وَأَحْسَنَهَا، فَلَا تُوجَدُ دَرَكَةٌ أَحْطَ وَأَحْسَنُ مِنْهَا، وَبِأَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِ الْمَطْمُوعِ فِيهِ أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ، لِأَنَّ اللَّهَ بَعْدَلِهِ وَحُكْمَتِهِ لَا يَحْكُمُ بِالْهِدَايَةِ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

• ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾: أي: فَإِنْ لَمْ يُطِيعُوكَ، وَلَمْ يُحَقِّقُوا مَا طَلَبْتَهُ مِنْهُمْ فِي دَعْوَتِكَ وَمُنَاطَرَاتِكَ وَجَدَلِيَّاتِكَ لَهُمْ بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ.

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَجَابَ فَلَانٌ لِلدَّاعِي» أي: قَبِلَ دَعْوَتَهُ، وَأَطَاعَهُ، وَحَقَّقَ مَا طَلَبَ مِنْهُ، وَمِنْ هَذِهِ الِاسْتِجَابَةِ الْإِتْيَانُ بِكِتَابٍ هُوَ أَهْدَى مِنَ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ.

جَاءَ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ اسْتِعْمَالُ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ الدَّاخِلَةِ عَلَى عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ، لِإِشْعَارِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا بَعْدُ مَبْلَغَ الْمُؤُوسِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ

وإسلامهم، وَقَدْ يُلَاحِظُ فِي هَذَا أَتْبَاعُ الْأَئِمَّةِ الْعَتَاةِ، لَا الْعَتَاةِ الطُّغَاةِ أَنْفُسَهُمْ.

• ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبَعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: أي: فاعلم أنهم ما يتبعون إلا أهواءهم، والمعنى أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ فِي عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِكَ مَقْصُورٌ عَلَى أَهْوَائِهِمْ، فَهُمْ لَا يُتَّبَعُونَ حَقًّا وَلَا خَيْرًا وَلَا هُدًى.

«أَتَمَّا» مِنْ أَدَوَاةِ الْقَضَرِ، وَالْقَضَرُ هُنَا إِضَافِي، وَهُوَ مِنْ قَضَرَ الْمَوْصُوفِ الَّذِي هُوَ «الْأَتْبَاعُ» عَلَى الصِّفَةِ وَهِيَ الْأَهْوَاءُ.

الْهَوَى: مِيلُ النَّفْسِ إِلَى مَا تَحِبُّ وَلَوْ كَانَ فِيهِ ضَرٌّ وَشَرٌّ وَإِثْمٌ وَعِضْيَانٌ وَكُفْرٌ وَفُجُورٌ، وَفِي الْهَوَى مَعْنَى السَّقُوطِ وَالْهُبُوطِ مِنْ عُلوِّ إِلَى سُفُولٍ.

وَأَتْبَاعُهُمْ أَهْوَاءُهُمْ يَجْعَلُهُمْ ضَالِّينَ حَتْمًا ضَلَالًا بَعِيدًا.

• ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾: اسْتَفْهَامٌ يُرَادُّ بِهِ انْتِزَاعُ اغْتِرَافِ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ أُولِي الْأَلْبَابِ، بَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ أَضَلُّ مِنْهُ، إِذْ يَبْلُغُ بِاتِّبَاعِهِ هَوَاهُ غَايَةَ مُنْحَدَرِ الضَّلَالِ.

وجاءت عبارة: ﴿يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ قَيْدًا لَازِمًا، لِأَنَّ مَنْ يَلْتَزِمُ بِهُدًى اللَّهِ يَتَعَلَّقُ هَوَاهُ بِمَرْضِي اللَّهِ وَمَحَابِّهِ، فَيَكُونُ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا يَحِبُّ اللَّهُ وَيَرْضَى.

• ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: أي: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يَحْكُمَ بِالْهُدَايَةِ لَهُؤُلَاءِ الْمَقْصُودِينَ بِالْمَعَالَجَةِ، مَا دَامُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَجُحُودِهِمْ لِلْحَقِّ، وَهُمْ يَدْخُلُونَ ضِمْنَ عُمُومِ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ، وَمَنْ سَنَّ اللَّهُ الَّتِي لَا تَبْدِيلَ فِيهَا وَلَا تَحْوِيلَ، إِذْ هِيَ مِنْ مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، أَنَّهُ لَا يَحْكُمُ بِالْهُدَايَةِ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

فَمَعْنَى ﴿لَا يَهْدِي﴾ هُنَا: لَا يَحْكُمُ بِالْهِدَايَةِ، لِأَنَّ الْحُكْمَ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا كَانُوا فِي وَاقِعِ حَالِهِمْ مَهْدِيَّينَ، أَمَّا وَهُمْ ظَالِمُونَ ضَالُّونَ، فَإِنَّهُ مِمَّا يُنَافِي الْحُكْمَةَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ فَيَحْكُمَ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ مَهْدِيُونَ، وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَا يُجْرِي تَصَارِيفَهُ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى حُكْمَتِهِ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ صِفَاتِهِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١)

﴿وَلَقَدْ﴾: أي: وَنُؤَكِّدُ تَأْكِيداً شَدِيداً أَنَّنَا بِصِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ.

﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾: أي: جَعَلْنَا الْقَوْلَ الَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَطْلُوبِنَا مِنْ عِبَادِنَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، يَصِلُ إِلَى مَرَاكِزِ وَغِيهِمْ لِمَعَانِيهِ وَضُولاً تَاماً، حَتَّى امْتَلَكْتَ أَذْهَانَهُمْ هَذِهِ الْمَعَانِي امْتِلَاكاً كَافِياً، رَغْبَةً مِّنَافِي أَنْ يُؤْمِنُوا إِيمَاناً إِرَادِيّاً، وَيُسَلِّمُوا إِسْلَاماً إِرَادِيّاً صَادِقاً، وَيَتَذَكَّرُوا مِنْ مَعَانِي الْقَوْلِ الَّذِي وَصَّلْنَاهُ لَهُمْ مَا تَدْعُو لِتَذَكُّرِهِ الْأَحْدَاثِ وَالْمُنَاسِبَاتِ وَالْأَعْمَالِ مَا يَجِبُ مِنْهَا فِعْلُهُ وَيَجِبُ مِنْهَا تَرْكُهُ، لِيَنْجُوا مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ، وَيُظَفَّرُوا بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ.

يقال لغة: «وَصَّلَ فُلَانٌ الشَّيْءَ إِلَى فُلَانٍ» أي: أَنهَاءَ إِلَيْهِ وَأَبْلَعَهُ إِيَّاهُ.

وَلَكِنْ جَاءَتِ التَّعْدِيَةُ فِي الْآيَةِ بِحَرْفِ «اللام» لَا بِحَرْفِ «إِلَى» لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ التَّوَصِيلَ لِمَفْهُومَاتِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ، وَكُبْرِيَّاتِ مَطَالِبِ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى إِسْمَاعِ أَذَانِهِمْ، بَلْ بَلَغَ إِلَى عُمُقِ مَرَاكِزِ إِذْرَاكِهِمُ الْوَاعِي لِلْمَعَانِي، حَتَّى امْتَلَكْتَ أَجْهَزَةَ التَّفْكِيرِ فِيهِمْ هَذِهِ الْمَعَانِي، إِذْ مِنْ مَعَانِي اللَّامِ الْجَارَةِ الْمَلِكِ.

والتقدير: وَصَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ، وَأَدْخَلْنَا مَعَانِيَهُ إِلَى أَجْهَزَةِ التَّفْكِيرِ فِيهِمْ، حَتَّى صَارَتْ أَشْيَاءَ مَمْلُوكَةٍ لَهَا بِالتَّمْلِكِ الْجَبْرِيِّ، الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ

الإراداتُ الحرَّةُ دَفَعَهُ وَلَا رَفْعَهُ، كما تَرَى الْعَيْنُ الْقَمَرَ بَارِغًا، إِذْ يَنْطَبِعُ فِي
الذَّهْنِ انْطِبَاعًا جَبْرِيًّا.

وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا عَلِمُوا أَنَّهُ حَقٌّ إِيْمَانًا إِرَادِيًّا، وَأَنْ
يُسَلِّمُوا لِلَّهِ إِسْلَامًا إِرَادِيًّا طَوْعِيًّا لَا جَبْرِيًّا، تَأَثَّرًا بِمَا عَلِمُوا مِنَ الْحَقِّ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أَي: رَاغِبِينَ أَنْ يَتَذَكَّرُوا تَذَكُّرًا مُؤَثَّرًا فِيهِمْ إِيْمَانًا
وإِسْلَامًا.



قال الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَلْكَتَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَئِنْ يُنَالِ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا
بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا
صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيْنَاهُ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

تمهيد:

هذه الآيات الأربع آيات مَدَنِيَّةُ التَّنْزِيلِ، ضُمَّتْ إِلَى سُورَةِ (الْقَصَصِ)
المَكِّيَّةِ التَّنْزِيلِ لِمُرَاعَاةِ اقْتِضَاءَيْنِ.

الاقْتِضَاءُ الْأَوَّلُ: وَجُودُ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، الَّذِينَ
آمَنُوا وَأَسْلَمُوا صَادِقِينَ، وَتَنْطَبِيقُ عَلَيْهِمُ الصِّفَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي هَذِهِ
الآيَاتِ، وَكَانَ هَذَا بَعْدَ هَجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَيْهَا.

الاقْتِضَاءُ الثَّانِي: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْقَصَصِ) مِنْ
مَعَالِجَاتٍ لِعُتَاةٍ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا، مُتَجَدِّدُ التَّوَجُّهِ وَلَوْ انْتَقَلَ الرَّسُولُ
مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَوْ هَاجَرَ أَيْضًا مُعْظَمُ مُؤْمِنِي وَمُسْلِمِي أَهْلِ مَكَّةَ،
فَدَعَا أَهْلَ مَكَّةَ لَمْ تَنْقَطِعِ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكَلَتْهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

عبارة: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكَلَتْهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ لفظ عام أُريدَ به خصوص من آمن بالرسول محمد ﷺ، وبالقُرآن الذي يَنْزَلُ عليه من أهل الكتاب، من اليهود كعبد الله بن سلام، وكان خبراً من أحبار اليهود، وكالنجاشي ملك الحبشة، وسائر من أسلم من أهل الكتاب قبل نزول هذه الآيات، أو هو مُستَعِدٌّ لِأَنْ يُؤْمِنَ وَيُسَلِّمَ مُسْتَقْبَلًا، بدليل استعمال الفعل المضارع في عبارة ﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وقد دَخَلَ في الإسلام كثيرون جدًّا من أهل الكتاب عبر القرون ولا يزالون يدخلون.

• ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾: أي: من قبل القرآن الذي يَنْزَلُ على محمد ﷺ.

• ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وإذا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ جَدِيدٌ يَنْزَلُ مِنَ القرآن.

• ﴿قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾: أي: قالوا: آمنا بهذا الجديد الذي تنزل من القرآن، وقالوا: إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا، ولم يَعْترِضوا على شيء يَنْزَلُ مِنْهُ، ولو كان مخالفاً لِبَعْضِ أَحْكَامِ التوراة أو الإنجيل الْعَمَلِيَّةِ مُسْتَسْلِمِينَ لِلَّهِ فيما يُثْبِتُ من أحكام وفيما يَنْسَخُ مِنْهَا. وقالوا: إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ مُؤْمِنِينَ بِرَبِّنَا وَمُسْلِمِينَ لَهُ إِسْلَامًا تَامًا لَا تَشْوَهِ شَائِبَةً اغْتِرَاضٍ وَلَا هَوًى وَلَا تَعْصَب، ولدينا بشائر عن محمد خاتم النبيين والمرسلين، وكُنَّا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وَنُسَلِّمَ لَهُ طَائِعِينَ.

قول الله عز وجل:

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ۖ بِمَا صَبَرُوا وَبِذَرْنِهِ وَالْحَسَنَةَ الَّتِي كَانُوا يُرْزَقُونَ﴾

يُفْقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَى الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾:

وَعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُعْنِيْنَ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾ بِأَنْ يُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ، أَي: ضِعْفَيْنِ عَنْ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَجْمَعُوا بَيْنَ إِيْمَانٍ وَإِسْلَامٍ صَاحِبِينَ سَابِقِينَ قَبْلَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبَيْنَ إِيْمَانٍ وَإِسْلَامٍ صَاحِبِينَ بَعْدَ بَعْثَتِهِ.

وَجَاءَ هَذَا الْوَعْدُ مَبْنِيًّا عَلَى سَبَبٍ يَتَضَمَّنُ تَحْلِيَهُمْ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ فَضْلَى مِنْ صِفَاتِ فَضْلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ:

الْصِّفَةُ الْأُولَى: صِفَةُ الصَّبْرِ، دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾ أَي: بِسَبَبِ صَبْرِهِمْ. «الْبَاءُ» سَبَبِيَّةٌ. وَ«مَا» مَصْدَرِيَّةٌ، تُؤَوَّلُ مَعَ بَعْدَهَا بِمَصْدَرٍ.

وَلَا يَخْفَى مَا يُلَاقِيهِ مُفَارِقُو دِينِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ يُسْلِمُونَ، مِنْ أَدَى شَدِيدٍ مِنْ أَسْرِهِمْ وَأَهْلِ مِلَّتِهِمْ، كَالْحَرَمَانِ مِنَ الرِّزْقِ، وَالْقَطِيعَةِ، وَتَوْجِيهِ سِهَامِ الْعِدَاءِ، وَأَنْوَاعِ أُخْرَى شَتَّى مِنَ الْمَصَائِبِ، وَهَذِهِ تَحْتَاجُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ الصَّادِقِ صَبْرًا عَظِيمًا.

الْصِّفَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّهُمْ يَذَرُّوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَذَرُّوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾: أَي: وَيَتَّخِذُونَ الْحَسَنَةَ الَّتِي يَفْعَلُونَهَا، دَرِيئَةً تَضْطَرِّدُهُمْ بِهَا السَّيِّئَةُ الَّتِي تُوجِّهُ لَهُمْ، فَيَذْفَعُونَ بِذَلِكَ الْأَدَى وَالضَّرَّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ. الدَّرِيئَةُ: مَا يَسْتَرْتَرُ بِهِ الصَّيَادُ.

يَقَالُ لُغَةً: «دَرَأَ فُلَانٌ دَرَاءً» أَي: اتَّخَذَ دَرِيئَةً، وَيُقَالُ: «دَرَأَ الشَّيْءَ، دَرَاءً وَدَرَاءَةً» أَي: دَفَعَهُ. وَيُقَالُ: «دَرَأَ عَنْهُ الشَّيْءَ بِكَذَا» أَي: دَفَعَهُ عَنْهُ.

إِنَّ دَرَأَ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ مِنْ أَجْلِ فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ.

وفي تقديم: [بِالْحَسَنَةِ] على كَلِمَةِ [السَّيِّئَةِ] في العبارة دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَبَادِرُونَ دَوَاماً بِفَعْلِ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَكُونُ سَبَباً فِي دَفْعِ السَّيِّئَاتِ الَّتِي كَانَ مِنَ الْمُرْتَقِبِ أَنْ تُوجَّهَ لَهُمْ، فَإِنْ وُجِّهَتْ لَهُمْ سَيِّئَةٌ كَانَتْ حَسَنَتُهُمْ بِمِثَابَةِ دَرِيئَةٍ تَذْفَعُ عَنْهُمْ الْأَذَى، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يُدَافِعَ عَنْهُمْ مَنْ نَالَهُمْ إِحْسَانُهُ مِنَ النَّاسِ.

الصفة الثالثة: أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: أَي: وَيُنْفِقُونَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِنَا، وَفِي السُّبُلِ الَّتِي طَلَبْنَا عِبَادَنَا بِأَنْ يُنْفِقُوا فِيهَا وَهِيَ سُبُلُ الْخَيْرِ، بَعْضاً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ.

حرف «مِنْ» فِي «وَمِمَّا» حَرْفُ جَرٍّ مَعْنَاهُ هُنَا التَّبَعِيضُ.

الصفة الرابعة: أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا لَعُوءاً مِنَ الْقَوْلِ، اسْتَهْزَأَ بِالْمُؤْمِنِينَ، أَوْ طَعَنُوا فِي الدِّينِ، وَلَوْ كَانَ عَلَى شَكْلِ الْمُرَاحِ وَاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَالْمُلْحِ الْمُضْحِكَةِ الَّتِي يَزْعُمُ مُطْلِقُوهَا أَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ بِهَا اسْتَهْزَاءً وَلَا طَعْناً حَقِيقِيّاً، أَعْرَضُوا عَنْهُ، وَلَمْ يُشَارِكُوا فِيهِ وَلَوْ عَلَى سَبِيلِ اسْتِحْسَانٍ لِلنُّكْتَةِ، أَوْ اسْتِحْسَانٍ لِلتَّقْلِيدِ الْمَطَابِقِ لِلْمَقْلَدِ، وَقَالُوا لِأَصْحَابِ اللَّغْوِ، وَالظَّاهِرِ أَنَّهُمْ كَافِرُونَ ضُرَحَاءَ، أَوْ مُنَافِقُونَ يَبْطِنُونَ كُفْرَهُمْ:

• ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا﴾: أَي: وَتُنْسَبُ إِلَيْنَا عِنْدَ رَبِّنَا أَعْمَالُنَا، فَتَحْنُ نَحَاسِبُ عَلَيْهَا، وَتَكُونُ لَنَا دُونَ غَيْرِنَا، فَتُجَازَى عَلَيْهَا بِفَضْلِ اللَّهِ.

• ﴿وَلَكُمْ أَعْمَلِكُمْ﴾: أَي: وَتُنْسَبُ إِلَيْكُمْ أَعْمَالُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، فَانْتُمْ تُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا، وَتَكُونُ لَكُمْ دُونَ غَيْرِكُمْ، فَتُجَازُونَ عَلَيْهَا بِعَدْلِ اللَّهِ.

• ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾: أَي: أَمَانٌ مِنَّا عَلَيْكُمْ فَلَا نُقَاتِلُكُمْ مِنْ أَجْلِ اسْتَهْزَائِكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ وَطَعْنِكُمْ فِي الدِّينِ، وَهُوَ سَلَامٌ مُغَارِقَةٌ لَكُمْ وَلَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ لَعْوٍ تَغْضُونَ بِهِ اللَّهُ رَبِّكُمْ وَتَظْلِمُونَ بِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿.. لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (٥٥): أي: لَا نُرِيدُ مَشَارَكَةَ الْجَاهِلِينَ، فِي جَهْلِهِمْ، وَسَفَهُهِمْ.

يُقَالُ لُغَةً: «ابْتَغَى الشَّيْءَ» أَي: أَرَادَهُ. أَوْ طَلَبَهُ، وَمَعْنَى أَرَادَهُ هُوَ الْمُنَاسِبُ هُنَا.

وَالْمُرَادُ بِالْجَاهِلِينَ هُنَا: الْجُفَاءُ السُّفَاءُ، وَأَضْلُ الْجَهْلِ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: «جَهَلْتُ الْقَدْرَ، تَجَهَّلُ جَهْلًا» أَي: اشْتَدَّ غَلِيَانُهَا، وَهُوَ ضِدُّ تَحَلَّمْتُ، وَيُقَالُ: «جَهَلُ فُلَانٍ عَلَى غَيْرِهِ» أَي: جَفَا وَتَسَافَهَ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ:

أَلَا لَا يَجْجُحَ هَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينََا

اللُّغُو: كُلُّ مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ مِنْ كَلَامٍ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ أُرِيدَ بِاللُّغُو هُنَا مَا ظَاهِرُهُ لُغُوٌّ مِنَ الْقَوْلِ، وَيُرَادُ بِهِ الطَّعْنُ فِي الدِّينِ، وَالِاسْتِهْزَاءُ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا اللَّغُوٌّ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، وَمِنْ ظَوَاهِرِ تَصَرُّفَاتِهِمْ وَهُمْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ يُخْفُونَ نَفَثَاتِ كُفْرِهِمْ بِالْأَعْيَابِ الْمُرَاحِ، وَيَقُولُونَ مُعْتَذِرِينَ: كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، لَا نَقْصِدُ الطَّعْنَ فِي الدِّينِ، وَلَا الْإِسْتِهْزَاءَ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ كَاذِبُونَ.



قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خُطَابًا لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ مَنْ يَصْلُحُ لِهَذَا الْخُطَابِ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦).

كَانَ عَمُّ الرَّسُولِ ﷺ أَبُو طَالِبٍ الَّذِي كَفَلَهُ بَعْدَ جَدِّهِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَحَمَاهُ وَنَصَرَهُ وَدَفَعَ عَنْهُ مَكَائِدَ كِبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ، وَأَعْلَنَ حِمَايَتَهُ لَهُ وَنَصَرَهُ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ مُشْرِكًا عَلَى مَذْهَبِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، وَكَانَ الرَّسُولُ بِحُبِّ

قَوِيٌّ وَحِرْصٍ بِالْبَيْتِ يُرِيدُ مِنْ عَمِّهِ أَنْ يُعْلِنَ إِيمَانَهُ وَإِسْلَامَهُ وَلَوْ سِرًّا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَلَوْ فِي أُذُنِهِ لَيَشْهَدَ لَهُ بِذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّينِ.

لَكِنْ أَبَا طَالِبٍ لَمْ يَحَقِّقْ رَغْبَةَ ابْنِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَمَاتَ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ، فَحَزِنَ مِنْ أَجْلِهِ، وَتَمَنَّى لَهُ الْهَدَايَةَ لِيُنْجِيَهُ اللَّهُ يَوْمَ الدِّينِ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ الْمُسَيَّبِ. وَرَوَى مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ لَمَّا امْتَنَعَ مِنَ الْإِسْلَامِ.

عِبَارَةٌ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أَي: هِدَايَتُهُ يُمَكِّنُ حَمْلَهَا عَلَى مَعْنَيْنِ:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَ مَنْ أَحْبَبْتَ مُؤْمِنًا مُسْلِمًا مَهْدِيًا، بِطَرِيقَةِ الْإِزْمَةِ جَبْرِيَّةٍ، إِذْ لَسْتَ خَالِقًا تَمْلِكُ الْخَلْقَ الْجَبْرِيَّ، وَلَسْتَ تَمْلِكُ الْإِزْمَامَ الْقَسْرِيَّ عَلَى الْهَدَايَةِ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَتَصَرُّفَاتِ الْإِرَادَاتِ الْحَرَّةِ، وَالْمَطْلُوبُ فِي الدِّينِ هُوَ الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ بِالِاخْتِيَارِ الْحَرِّ، وَلَيْسَ بِالْإِزْمَامِ وَالْإِكْرَاهِ، وَمَنْ أَعْلَنَ إِيمَانَهُ وَإِسْلَامَهُ وَهُوَ مُكْرَهٌ فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَيُحَاسَبُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ.

وَبِمُقْتَضَى هَذَا الْمَعْنَى تَكُونُ عِبَارَةٌ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ دَالَّةٌ عَلَى مَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مَجْبُورًا عَلَى الْهَدَايَةِ، كَمَا خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ الْكَرَامَ مَقْطُورِينَ عَلَى الْإِيمَانِ بِرَبِّهِمْ، وَالطَّاعَةِ لَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَضَعْهُمْ مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْامْتِحَانِ.

وَإِذْ وَضَعَ اللَّهُ النَّاسَ مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْامْتِحَانِ، الَّذِي يَقْتَضِي حُرِّيَّةَ

الإرادة، لم يكن من حِكْمَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ أَحَدًا مِنْهُمْ مجبوراً بالفطرة على أن يكون مَهْدِيًّا، ولا أَنْ يجعل أَحَدًا مِنْهُمْ مجبوراً بالفطرة عَلَى أَنْ يكون ضالًّا، لأنَّ هذا مُنَاقِضٌ لَوْضْعِ الناسِ في الحياة الدنيا موضع الامتِحَانِ المستلزم عقلاً لِحُرِّيَّةِ الإرادة، إذ بين الجَبْرِ وَحُرِّيَّةِ الإرادة تناقض واضح.

المعنى الثاني: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْكُمَ بِالْهُدَايَةِ لِمَنْ تُحِبُّ، لأنَّ الْحُكْمَ بِالْهُدَايَةِ أَوْ الضَّلَالَةَ هُوَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تَمْلِكُ مِنْ رَبِّكَ أَنْ يَحْكُمَ بِهُدَايَةٍ مَنْ تُحِبُّ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، وَهُوَ يَحْكُمُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِالضَّلَالَةِ، وَلِمَنْ يَشَاءُ بِالْهُدَايَةِ، لَكِنَّ مَشِئَتَهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَلَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يَحْكُمَ لِلضَّالِّ فِي وَاقِعِ حَالِهِ بِأَنَّهُ كَانَ مَهْدِيًّا، وَلَا أَنْ يَحْكُمَ عَلَى ذِي الْهُدَايَةِ فِي وَاقِعِ حَالِهِ بِأَنَّهُ ضَالٌّ، بَلْ مَنْ كَانَ ضَالًّا فِي وَاقِعِ حَالِهِ حَكَمَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ ضَالٌّ بِمَشِئَتِهِ تَعَالَى الْمَظْلَقَةِ الَّتِي لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَمَنْ كَانَ مُهْتَدِيًّا فِي وَاقِعِ حَالِهِ حَكَمَ لَهُ بِالْهُدَايَةِ، بِمَشِئَتِهِ الْمَظْلَقَةِ الَّتِي لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ أَيْضًا.

وبمقتضى هذا المعنى تكونُ عبارة: ﴿وَلَا يَكُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ دَالَّةً عَلَى مَعْنَى: أَنَّ الْحُكْمَ بِالْهُدَايَةِ أَوْ بِالضَّلَالَةِ هُوَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَحْكُمُ بِمَشِئَتِهِ الْمَظْلَقَةِ، وَلَكِنَّ صِفَةَ مَشِئَتِهِ الْمَظْلَقَةِ لَا تُفَارِقُ صِفَةَ حِكْمَتِهِ، وَلَا تَتَنَاقَضُ مَعَهَا وَلَا تَتَعَارِضُ، بَلْ صِفَاتُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - متكاملاتٌ فيما بَيْنَها، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَها تَنَاقُضٌ أَوْ تَضَادٌ، وهذا من كمالِ صِفَاتِ اللَّهِ.

وتأتي عبارة: ﴿.. وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ⑤١﴾ في الْآيَةِ مَتَمَّةً لِهَذَا المعنى الثاني، أَي: وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ هُدَايَةً حَقِيقِيَّةً فِي بَاطِنِ مَا فِي نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، فَهُوَ يَحْكُمُ بِالْهُدَايَةِ لِمَنْ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ أَنَّهُ مُهْتَدٍ، وَيَحْكُمُ بِالضَّلَالَةِ عَلَى مَنْ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ أَنَّهُ ضَالٌّ.



قال الله عز وجل:

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْمَدْيِ مَعَكَ تُخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَفْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبِئْسَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

القراءات:

• قرأ نافع، وأبو جعفر، ورؤيس: [تُجْبَىٰ] بالتاء على أن الموصوف مؤنث.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿يُجْبَىٰ﴾ بالياء.

والقراءتان وجهان عربيان جائزان، لأن نائب الفاعل وهو ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ مجازي التانيث.

• قرأ حمزة، والكسائي: [فِي أُمَمٍ] بكسر الهمزة وضلاً.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ بضم الهمزة.

والجميع يَتَدَثُّون بضم الهمزة.

والقراءتان لَعْنَان عَرَبِيَّتَانِ فِي التَّنْطِقِ.

تمهيد:

في هذه الآيات عَرَضٌ لمقالةٍ مِنْ مَقَالَاتِ بَعْضِ أَئِمَّةِ الشُّرُكِ فِي مَكَّةَ، الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى اعْتِدَارِ مَنْ قَالَهَا عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، بِالتَّخَوُّفِ مِنْ نِقْمَةِ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ النَّاسِ الْمُشْرِكِينَ، أَنْ يَتَكَاثَرُوا عَلَيْهِمْ وَيَتَخَطَّفُوهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَأُتْبِعَتْ بِالرَّدِّ الْمُفْنِعِ الْمَسْقُطِ لِهَذَا التَّخَوُّفِ، وَبِالتَّذْكِيرِ بِتَخَوُّفِ

أَعْظَمَ هُوَ عُقُوبَةُ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى كَفَرِهِمُ الْعِنَادِيِّ الظَّالِمِ الَّذِي لَا عُذْرَ لَهُمْ فِيهِ، وَبِهِ يَكُونُ إِهْلَاكُهُمْ إِهْلَاكًا عَامًّا شَامِلًا، مُشَابِهًا لِإِهْلَاكِ أَقْوَامٍ سَلَفُوا لَمْ يَزْعَمُوا نِعَمَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ، فَكَفَرُوا بِهِ، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ شُرَكَاءَ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِمَا دَعَاهُمْ رَبُّهُمْ إِلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ رُسُلِهِ، مِنْ إِيْمَانٍ صَحِيحٍ وَإِسْلَامٍ صَادِقٍ.

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ مَرْذُوقٍ، عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ: أَنَّ نَاسًا مِنْ قَرِيشٍ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «إِنْ نَتَّبِعَكَ يَتَخَفُّنَا النَّاسُ» فَنَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخَفُفْ مِنْ أَرْضِنَا...﴾ ﴿٥٧﴾:

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخَفُفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبْنَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾:

[نُنْخَفُفْ]: أي: نُخَفِّفُ بِشِدَّةٍ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ حَوْلِنَا، إِذْ نَخَالِفُ عَقَائِدَهُمْ، وَلَهُمْ فِي مَكَّةَ نُسْكٌ، وَلَهُمْ بِالْأَوْثَانِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ وَعَلَى ظَهْرِهَا ارْتِبَاطُ عَابِدٍ بِمَعْبُودٍ.

يقال لغة: «خَطَفَ، يَخْطِفُ، خَطَفًا، وَخَطَفَانًا، وَخَطِطَ، يَخْطِطُ، خَطِطًا» أي: جَذَبَ الشَّيْءَ وَأَخَذَهُ بِسُرْعَةٍ.

ويقال: «اِخْطَطَفَهُ، يَخْطِطِفُهُ، وَتَخَطَّفَهُ، يَتَخَطَّفُهُ» أي: خَطَفَهُ بِشِدَّةٍ، وَقُوَّةٍ.

هذه تَعِلَّةٌ اعْتِدَارِيَّةٌ، وَجَّهَهَا بَعْضُ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، وَفِيهَا مَعْنَى تَخْوِيفِ الرُّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، إِذْ يَجْتَمِعُونَ عَلَى

قَاتِلِهِمْ، فَيَخْطِفُونَهُمْ اخْتِطَافًا، وَلَا قِبَلَ لَهُمْ حِينَئِذٍ بِمُوَاجَهَةِ قِبَائِلِ الْعَرَبِ إِذْ تَجْتَمِعُ عَلَيْهِمْ وَتُقَاتِلُهُمْ، فَلَهُمْ حَقُّ دِينِي مَوْرُوثٌ فِي مَكَّةَ وَمَسْجِدِهَا، وَالْكَعْبَةِ فِيهِ، وَالْأَوْثَانِ عَلَيْهَا وَمَنْ حَوْلَهَا.

فَابَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، أَنَّ التَّمَكِينَ الَّذِي هُمْ فِيهِ دَاخِلَ حُدُودِ حَرَمِ مَكَّةَ، وَالْأَمْنِ الَّذِي هُمْ فِيهِ، وَالثَّمَرَاتِ الَّتِي تُجَبَى إِلَيْهِ مِنْ مُخْتَلِفِ بِلَادِ الْأَرْضِ رِزْقًا لَهُمْ وَلِلْوَافِدِينَ إِلَيْهِمْ حُجَّاجًا وَزُوَارًا، هُوَ مِنْ مِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، لِيَبْقَى أَوَّلُ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللَّهُ فِيهِ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا، رَغْبَةً فِي أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شَيْئًا.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي امْتَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهَا، لِأَنَّهُمْ أَلْفُوا أَنْ يَعِيشُوا فِي مَكَّةَ آمِنِينَ مَرْزُوقِينَ، ذَوِي مَكَانَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بَيْنَ قِبَائِلِ الْعَرَبِ، مُنْذُ عَهْدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، نَظَرًا إِلَى أَنَّهُمْ سَدَنَةُ بَيْتِ اللَّهِ، وَحُمَاتُهُ، وَالْمَقِيمُونَ فِي حَرَمِهِ.

أَقُولُ: وَلَوْ رَجَعُوا قَلِيلًا إِلَى تَارِيخِ نَيْفِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، لَتَذَكَّرُوا مَا جَرَى بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، وَكَيْفَ حَمَى اللَّهُ بَيْتَهُ الْحَرَامَ مِنْهُمْ، وَقَدْ جَاءُوا لِهَدْمِهِ.

فَالْأَمْنُ الَّذِي يَنْعَمُونَ بِهِ فِي مَكَّةَ مِنْ جَعَلِ اللَّهُ إِيَّاهَا حَرَمًا آمِنًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَمْنَ الدَّائِمَ يَجْلُبُ الْأَرْزَاقَ.

• ﴿أَوَلَمْ تُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾: التَّمَكِينُ مِنَ الشَّيْءِ، الْإِقْدَارُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيهِ الْمَوْصِلِ إِلَى تَحْقِيقِ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ، مَعَ التَّثْبِيتِ فِي الْمَكَانِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّحْرُكِ فِيهِ بِحُرِّيَّةٍ.

حَرَمًا آمِنًا: هُوَ حُدُودُ حَرَمِ مَكَّةَ حَرَسَهَا اللَّهُ.

• ﴿يُجَبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾: أَيُّ: يُجْمَعُ وَيُسَاقُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ذِي ثَمَرَاتٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا.

معنى ﴿يُجَيِّعُ﴾ في اللغة: «يُجَمِّعُ» وَضَمَّنَ معنى فعل «يُسَاقُ» فَعُدِّي تغديته بحرف «إِلَى» فصار المعنى: يُجَمِّعُ وَيُسَاقُ إليه ثمرات كل شيء ذي ثمرات تَجْمَعُ وتُسَاقُ.

﴿مِن لَّدُنَّا﴾: لَدُنْ: ظَرَفُ زَمَانِيٍّ وَمَكَانِيٍّ بِمَنْزِلَةِ «عِنْدَ» إِلَّا أَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ عِنْدَ وَأَخْصَ مِنْهُ. وَلَدُنْ مُلَازِمَةٌ لِلإِضَافَةِ.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أَي: وَلَكِنْ وَاقِعَ حَالِ مُشْرِكِي مَكَّةَ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّا نَحْنُ الَّذِينَ جَعَلْنَا حَرَمَ مَكَّةَ مُمَكَّنًا لَهُمْ، وَنُجَبَى سَوْقًا إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا.

وَتَابَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُعَالَجَتَهُمْ بِشَأْنِ مَقَالَاتِهِمْ لِلرَّسُولِ: «إِنْ تَتَّبِعَكَ يَتَخَفْتُنَا النَّاسُ» فَأَنْزَلَ فِي أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ مِنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ الدَّعْوِيَّةِ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (الْعَنْكَبُوتِ/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَأْمَنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٧):

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَسُكَّانِ كَثِيرٍ مِنْ قُرَاهُمُ، قَدْ تَعَرَّضُوا لِلتَّخَفُّفِ مِنْ قِبَلِ الْغَزَاةِ، بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَالسَّلْبِ وَكُلِّ صُورٍ وَأَنْوَاعِ الضَّرِّ وَالْأَذَى، وَهُمْ فِي مَكَّةَ آمِنُونَ بِتَأْمِينِ اللَّهِ لَهُمْ، مَرَاعَاةَ لَبِنَتِهِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلَهُ بِمَقَادِيرِهِ وَالطَّافَةِ آمِنًا.

فَهَلْ مِنْ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ وَحُسْنِ تَقْدِيرِ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْبَاطِلِ مِنَ الشُّرْكِ وَأَوَثَانِهِ، وَأَنْ يَكْفُرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يُعَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لَسَخَطِ اللَّهِ وَعُقُوبَاتِهِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ.

وَإِذْ تَأَثَّرَ بَعْضُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَقَالَةِ بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ لِلرَّسُولِ: «إِنْ تَتَّبِعَكَ يَتَخَفْتُنَا النَّاسُ» فَكَانُوا عَلَى حَذَرٍ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَمَاهُمْ وَحَفِظَهُمْ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ يَهَاجِرُونَ مِنْ مَكَّةَ، وَأَوَاهُمْ فِي مَوْطِنٍ هَجَرَتِهِمْ، ثُمَّ

نَصْرَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ قُوَّةً وَمَنْعَةً، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّرْبُوتِ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ، أَنْ يُذَكِّرَهُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - بِمِثْتِهِ عَلَيْهِمْ، بَأَنْ آوَاهُمْ آمِنِينَ فِي الْمَدِينَةِ، وَأَيَّدَهُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَى مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول). خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُتَضَاعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخْطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِسُكُمْ وَإَيْدَكُمْ يَنْصَرِفُ. وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢١).

قول الله عز وجل:

• ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ بِطَرَتِ مَعِيشَتُهُمْ فَلَمَّا مَسَكْنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥٨):

ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَعَاجِينَ الَّذِينَ قَالُوا لِلرُّسُولِ: «إِنْ نَتَّبِعَكَ يَتَخَطَّفَنَا النَّاسُ» بَأَنْ كُفِّرَهُمُ الَّذِي يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَتَخَطَّفَهُمُ النَّاسُ، يُعَرِّضُهُمْ لِعِقَابٍ مُعَجَّلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ رَبِّهِمْ، وَهُوَ إِهْلَاكُ جَمَاعَةٍ شَامِلٍ، نَظِيرَ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِأَهْلِ قُرَى مِنْ قَبْلِهِمْ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَكِبَرِهِمْ، وَفُجُورِهِمْ، وَاتِّبَاعِهِمْ لِلْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ.

وشواهدُ هَذِهِ الْقُرَى الْمَدْمَرَةِ، الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ كُفَّارَهَا إِهْلَاكَاً جَمَاعِيّاً، ظَاهِرَةٌ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَسْكُنُونَهَا، لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا زَمَنًا قَلِيلاً، فَلَا يُوجَدُ مَنْ يَحْرِصُونَ عَلَى السُّكْنَى فِيهَا، بَلْ عَادَتْ فَدَخَلَتْ فِي مِلْكِ اللَّهِ الْعَامِّ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي كَوْنِهِ.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ﴾: «كَمْ» اسْمٌ ثَنَائِي مَبْنِيٌّ عَلَى السَّكُونِ، يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ عَدَدٍ مُبْهَمٍ الْقَدْرِ وَالْجِنْسِ، فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى مُمَيِّزٍ.

وكلمة «كم» هُنَا خَيْرِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى عَدَدٍ كَثِيرٍ، وَمُمَيِّزُهَا ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾:

أي: من أهل قَرْيَةٍ، والمراد بالقرية كل أرض فيها بيوت ومساكن مجتمعة، قلت أم كثرت، ولو بلغت مدينة عظيمة جداً.

والمعنى: وعدداً كثيراً من القرى أهلكنا.

• ﴿بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: البَطَر: الغلو في المرح والزهو.

والمعيشة: ما يُعاش به من كل مطالب الناس في الدنيا، وجمعها «معاش».

ويقال لغة: «بَطَر فلان النعمة» أي: استخفها فكفرها. ويقال: «بَطَر الحق» أي: أنكره ولم يقبله. «بَطَر يَبْطُر بَطْراً».

والمعنى: أخذها المرحُ والزهو والكبر، فاستخفت نعم الله عليها، فكفرت بها، وجحدت حق الله عليها، فلم تؤمن بما يجب عليها أن تؤمن به، ولم تسلم لربها ولرسوله، ولم تؤد من طاعة الله شيئاً مما يجب عليها أن تطيعه فيه، فاستحقت أن ينهي الله عز وجل ظروف امتحانها، فيهلكها إهلاكاً جماعياً شاملاً، ولعذاب الله أكبر يوم الدين.

• ﴿.. فَنِلْكَ مَسْكِنَهُمْ لَمَ تَشْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ..﴾: جاءت

الإشارة إلى مساكنهم باسم الإشارة الموضوع للبعيد، لأن المعالجين في النص، وهم كفار مكة إبان التنزيل بعيدون عن الأحقاف حيث مساكن عاد، وعن الحجر حيث مساكن ثمود، وعن مساكن قوم لوط، ومساكن قوم شعيب عليهما السلام.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إلا زمناً قليلاً، أو إلا مكاناً منها قليلاً.

• ﴿.. وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثُوكَ ۝٥٨﴾: من المعلوم أن الله عز وجل

مالك كل شيء في الوجود كله دوماً، لا تنقطع ملكيته.

ولكن قصت حكمته أن يملك عباده الذين هم وكل ما يملكون

مِلْكُهُ، تَمْلِكُ تَضَرُّفٍ بِمَا يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِيهِ، عَلَى سَبِيلِ الِانْتِفَاعِ الْمُبَاشَرِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ الْعَطَاءِ لِلْآخَرِينَ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيْمَا آتَاهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَجَعَلَ انْتِزَاعَهُ جَلَّ جَلَالُهُ مَمْلُوكَاتِهِمْ مِنْهُمْ بِإِهْلَاكِهِمْ بِمَثَابَةِ مِيرَاثِ بَرِّئِهِ هُوَ مِنْهُمْ، إِذْ لَا يُعْطِيهِمْ فِي مُقَابِلِهِ شَيْئًا، كَمَا يَرِثُ النَّاسُ أَمْوَالَ مَنْ مَاتَ مِنْ مَوَرِّثِهِمْ.

الميراث: مَا يَمْلِكُهُ الْخَلْفُ مِنْ سَلَفٍ دُونَ عِوَضٍ، وَيَشْمَلُ الْمَادَّاتِ وَالْمَعْنَوِيَّاتِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنِيتْنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

اسْتَمَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى بَيَانِ قَاعِدَتَيْنِ مِنْ قَوَاعِدِ سُنَنِ اللَّهِ فِي مَعَامَلَةِ عِبَادِهِ:

القاعدة الأولى: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - لَا يُهْلِكُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْقُرَى هِيَ بِمَثَابَةِ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ لَهَا قَرْيَةٌ كُبْرَى تُعْتَبَرُ كَأُمِّ لَهَا، إِذْ فِيهَا مَرَاكِزُ إِدَارَتِهَا، وَقَصْرُ الْحُكْمِ لِسُلْطَانِهَا الْأَعْظَمِ، وَفِيهَا يَقْضِي أَهْلُ سَائِرِ الْقُرَى مَصَالِحَهُمُ الْإِدَارِيَّةَ الْكُبْرَى، وَغَيْرَهَا مِنَ الْمَصَالِحِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنِيتْنَا﴾:

أَي: وَلَيْسَ مِنْ سُنَّةِ رَبِّكَ أَنَّ يُهْلِكَ الْقُرَى الظَّالِمَةُ ظُلْمًا مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَالْبَغْيِ وَالْفُجُورِ وَالْعُصْيَانِ، إِهْلَاكَاً جَمَاعِيّاً شَامِلاً، حَتَّى يُعْلِمَهَا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهَا تَجَاهَ رَبِّهَا، فَيَبْعَثَ إِلَيْهَا فِي قَاعِدَةٍ قُرَاهَا الْكُبْرَى

رَسُولًا يَنْتَلُو عَلَيْهَا آيَاتِهِ الْمَنْزَلَاتِ، وَفِيهَا بَيَانٌ كَافٍ، وَتَبَشِيرٌ لِّمَنْ أَطَاعَ،
وإنذارٌ لِّمَنْ عَصَى.

الأم: فِي اللُّغَةِ الْمَجْمَعُ وَالْمَضْمَ. وَأُمُّ الْقُرَى هِيَ كُبْرَاهَا وَعَاصِمَتُهَا،
الَّتِي تَجْمَعُ مَبَانِي إِدَارَاتِهَا الْكُبْرَى، وَقَصَرَ الْحُكْمُ الْأَوَّلَ لَهَا.

القاعدة الثانية: أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - لَيْسَ مِنْ سُنَّتِهِ
أَنْ يُهْلِكَ الْقُرَى إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا شَامِلًا، إِلَّا فِي حَالَةٍ كَوْنِ أَهْلِهَا ظَالِمِينَ
ظُلْمًا تَسْتَحِقُّ بِسَبَبِهِ أَنْ يُهْلِكَهُمْ.

دلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ فِي الْآيَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

• ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩):

أي: وَلَيْسَ مِنْ سُنَّتِنَا أَنْ نُهْلِكَ الْقُرَى إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا شَامِلًا، فِي
حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، إِلَّا فِي حَالَةٍ كَوْنِ أَهْلِهَا ظَالِمِينَ.

وَيَنْبَغِي حَمْلُ الظُّلْمِ هُنَا اخْتِذَاً مِنْ مُخْتَلِفِ دَلَالَاتِ التَّصْوِصِ، عَلَى
الظُّلْمِ الْكَبِيرِ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ الْعِنَادِيِّ، وَمَا يَلْزَمُ عَنْهُ مِنْ أَعْمَالٍ بَغْيِ
وَطُغْيَانٍ، وَفُجُورٍ وَعُدْوَانٍ، وَفَسَادٍ وَإِفْسَادٍ فِي الْأَرْضِ، وَانْتِشَارِ ذَلِكَ فِي
أَهْلِ الْقُرَى انْتِشَارًا طَاقِيًّا.



قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا أَوْتِشِرَ مِنْ شَيْءٍ فَتَنَحَّ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى
أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْتُهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَنَفْسِهِ كَمَنْ مَنَعْتُهُ مَنَعَ الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ
كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ
كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ

فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ نَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسُّوا أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾.

القراءات:

(٦٠) • قرأ أبو عمرو: [يَغْفِلُونَ] بضمير الغائبين.

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بضمير المخاطبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، إحداهما تُخاطِبُهُمْ، فيقول الله لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. والأُخْرَى يَلْتَفِتُ اللَّهُ عَنْهُمْ فيقول على اعتبار أنهم غائبون: [أَفَلَا يَغْفِلُونَ] مخاطباً المؤمنين.

(٦١) • قرأ قائلون، والكسائي، وأبو جعفر: [ثُمَّ هُوَ] بإسكان الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿ثُمَّ هُوَ﴾ بضم الهاء.

والقراءتان وجهان من النطق في العريّة.

(٦٢) و(٦٥) • قرأ يعقوب: [يُنَادِيهِمْ] بضم هاء الضمير في الآيتين.

وقرأها باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير فيهما.

وهما وجهان عريّان في النطق.

(٦٣) و(٦٦) • قرأ أبو عمرو: [عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ] و[عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ].

وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب: [عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ] و[عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ].

وقرأهما باقي القراء العشرة: [عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ] و[عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ].

وهي وجوهٌ عربيَّةٌ في النطق.

(٧٠) • قرأ يعقوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله.

وبَيَّنَّ القراءتين تكاملاً في الأداء البياني، إذ يُرْجِعُهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فَهُمْ يَرْجِعُونَ مطاوعين بِالْجَبْرِ الرَّبَّانِي.

تمهيد:

اشتملت هذه الآيات بصريح ألفاظها، واللوازم الفكرية التي تدلُّ

عليها على ما يلي:

(١) اشتملت على علاج إقناعي يكشف أنَّ الحياة الدنيا التي يتشبَّثُ بالتعلُّقِ بها الكافرون، هي متاعٌ قَلِيلٌ زَائِلٌ، وزينَةٌ خادعةٌ لَا بقاءَ لها، وأنَّ الآخِرَةَ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ أَنْ يُنْعِمَهُمْ فِيهَا نعيمًا خالداً هي الْخَيْرُ الْعَظِيمُ الْبَاقِي الْخَالِد.

(٢) واشتملت على مُقَارَنَةِ بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ اللَّهُ وَغَدَاً حَسَنًا، بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، الَّتِي يَدْخُلُونَهَا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا بِفَضْلِ رَبِّهِمْ، وَبَيْنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَتَمَتَّعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِبَعْضِ لَذَائِهَا كَمَا يَتَمَتَّعُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ أَنْ يَكُونُوا مُحَضَّرِينَ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ يَذُوقُونَ فِيهَا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ أَبَدًا.

(٣) وَاشْتَمَلَتْ عَلَى عَرْضِ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، لَمَّا فِيهَا مِنْ اقْنَاعٍ تَرْهِيْبِيٍّ، يَدُلُّ عَلَى خُطَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ مُحْكَمَةٍ مُدْبَّرَةٍ مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الْعِبَادِ وَوَضْعِهِمْ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ.

(٤) واشتملت على بيانِ بشأنِ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ بِفَضْلِ اللَّهِ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

(٥) واشتملت على بَيَانٍ يَدُلُّ على أَنَّ الرَّبَّ الْخَالِقَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ ما يشاء، وهو الَّذِي يختار بإرادته مَا شاءَ ممَّا هُوَ الْأَحْكَمُ وَالْأَصْلَحُ، فَهُوَ الَّذِي يجب على العباد أَنْ يَعْبُدُوهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

أَمَّا الشُّرَكَاءُ الَّذِينَ يَتَّخِذُهُمُ الْمُشْرِكُونَ أَرْبَابًا وَآلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَلَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا، وَلَيْسَ لَهُمْ الْخَيْرَةُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْخَلْقِ لَا فِي غَيْرِهِمْ، وَلَا فِي أَنْفُسِهِمْ، فَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ شَيْئًا. وَقَدْ تَنَزَّاهُ اللَّهُ جَلًّا جَلَّالُهُ. عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شُرَكَاءُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ.

(٦) واشتملت عن طريق اللُّزُومِ الذَّهْنِيِّ، على بَيَانٍ أَنَّ الْعِبَادَ مَوْضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ امْتِحَانٍ إِرَادَاتِهِمْ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ جَلًّا جَلَّالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ جَمِيعَ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ، وَجَمِيعَ مَا يُعْلِنُونَ، لِيَحَاسِبَهُمْ، وَيَفْصَلَ الْقَضَاءَ بَيْنَهُمْ، وَيَجَازِيَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، عَلَى وَفْقٍ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

(٧) واشتملت أخيراً على عِدَّةِ قَضَايَا إِيْمَانِيَّةٍ ذَوَاتِ صَلَوةٍ بِمَا سَبَقَ أَنْ اشتملت عليه هَذِهِ الْآيَاتُ، وَهِيَ:

• أَنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ.

• وَأَنَّ لَهُ الْحَمْدَ كُلَّهُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ.

• وَأَنَّ لَهُ وَخَدَهُ الْحُكْمَ بَيْنَ الْعِبَادِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ.

• وَأَنَّ الْعِبَادَ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، سَوْفَ يَرْجَعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى، لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفْلاً تَعْقِلُونَ﴾ (٦٠)؟ وفي القراءة الأخرى: [أفلا يعقلون]؟:

هذه الآية ذات هدفين: أحدهما علاجي للمفصودين الأولين بالعلاج في السورة، وهم عتاه كُبراء مُشركي مَلَّةِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ. والآخرُ بيانيّ تَوْجِيهِيّ لِكُلِّ الصَّالِحِينَ لِلخِطَابِ المَوْضُوعِينَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعِ الْإِبْتِلَاءِ، وهؤلاء يُنَاسِبُهُمْ قِرَاءَةُ: [أفلا يعقلون]؟ حَدِيثاً عَنِ الْكَافِرِينَ المَغْتَرِينَ بِمَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا.

• ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا﴾: أي: كُلُّ مَا آتَاكُمْ رَبُّكُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مِنْ شَيْءٍ، مَهْمَا كَانَ فِي نَظَرِكُمْ جَلِيلاً وَعَظِيماً، حَتَّى مَا يَنَالُهُ عَظَمَاءُ مُلُوكِ الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ مَا يُحِبُّونَ أَوْ يَرْغَبُونَ فِيهِ، فَهُوَ لَا يَزِيدُ عَلَى كَوْنِهِ مَتَاعاً مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَزِينَةٍ مِنْ زِينَاتِهَا.

«ما» شرطية تفيد العموم «أُوتِيتُمْ» فعل الشرط «مِنْ شَيْءٍ» لبيان إنباهم «ما» و«مِنْ» جارةً بيانيةً «فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا» جواب الشرط، وجاءت «الفاء» رابطةً لجواب الشرط.

• ﴿فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا﴾: المَتَاعُ: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ لِوَقْتٍ مَا، وَمَصِيرُهُ إِلَى الزَّوَالِ. الزَّيْنَةُ: مَا يُرَى بِالْحَوَاسِّ حَسَناً جَمِلاً، وَقَدْ يَكُونُ خَدَاعاً وَبَاطِلاً. وَكُلُّ مَا يُتَزَيَّنُّ بِهِ لِلتَّحْسِينِ وَالتَّجْمِيلِ، وَقَدْ يَكُونُ طِلَاءً وَأَضْبَاغاً لَا بَقَاءَ لَهَا، وَالزَّيْنَةُ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ مَتَاعاً زَائِلاً.

• ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾: أي: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِمَّا ادَّخَرَهُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فِي جَنَاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ خَيْرٌ وَأَبْقَى، لِأَنَّهُ مُتَجَدِّدٌ لَا يَنْقُطُ أَبَداً.

خَيْرٌ: لَهُ مَعْنَيَانِ: الأول: ما كان ذا حَقِيقَةٍ مُثْلَى فِي النِّفْعِ وَالْحُسْنِ، وَمَحَقَّقًا لِسَعَادَةٍ حَقِيقِيَّةٍ غَيْرِ مَشُوبَةٍ بِمُنْغَصَّاتٍ وَلَا مُسْتَتَبِعَةٍ لِمُؤْلَمَاتٍ أَوْ مُكَدَّرَاتٍ. الثَّانِي: اسْمُ تَفْضِيلٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، بِمَعْنَى: أَفْضَلُ فِي النِّفْعِ وَالْحُسْنِ وَتَحْقِيقِ مَا تَحَبُّهُ النَّفُوسُ وَتَلَذُّهُ الْحَوَاسُّ.

وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَلَيَقُ بِمَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ. وَالْمَعْنَى الثَّانِي يَلَايُكُمْ مَا يُسَمِّيهِ النَّاسُ خَيْرًا مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَالْمَالِ.

• ﴿.. أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: اسْتَفْهَامٌ فِيهِ مَعْنَى التَّشْرِيبِ وَالتَّلْوِيمِ إِلَى حَدِّ التَّوْبِيخِ، وَهُوَ مُوجَّهٌ لِلْكَفَرَةِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ فَيُؤْثِرُونَ الْفَانِي الزَّائِلَ الْمَشُوبَ بِالْأَلَامِ وَالْأَكْدَارِ، عَلَى الْخَيْرِ الْعَظِيمِ الْخَالِدِ الْخَالِصِ مِنْ كُلِّ الشَّوَابِ الْمُنْغَصَّةِ.

أَي: أَنْظَمَسَتْ بِصَائِرِكُمْ فَلَا تَفْهَمُونَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْفَانِي الْمَخْتَلَطِ بِالْمُنْغَصَّاتِ، وَبَيْنَ النِّعَمِ الْخَالِدِ الْخَالِصِ الْمَصْفَى مِنْ كُلِّ الْأَكْدَارِ!!؟

هَذَا إِذَا حَمَلْنَا «تَعْقِلُونَ» عَلَى الْعَقْلِ الْعَلَمِيِّ. أَمَّا إِذَا حَمَلْنَاهُ عَلَى الْعَقْلِ الْإِرَادِيِّ، فَالْمَعْنَى:

أَعْجَزْتُمْ وَضَعُفْتُمْ إِرَادَاتِكُمْ، فَلَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَعْقِلُوا بِهَا أَهْوَاءَكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ بِإِرَادَاتِكُمْ، مُخْتَارِينَ بِهَا مَا يُحَقِّقُ لَكُمْ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ، وَيَحْمِيكُمْ مِنَ الشَّقَاءِ الْأَبَدِيِّ فِي عَذَابِ النَّارِ!!؟.

كَيْفَ تُعَرِّضُونَ نَفُوسَكُمْ لِعَذَابِ أَبَدِيٍّ وَتَحْرِمُونَهَا مِنْ نَعِيمِ أَبَدِيٍّ، مِنْ أَجْلِ شَهَوَاتٍ سَرِيعَاتِ الزَّوَالِ مَشُوبَاتٍ بِالْمُنْغَصَّاتِ، وَأَهْوَاءٍ تَتَوَهَّمُونَ أَنَّهَا تَجْلِبُ لَكُمْ خَيْرًا!!؟.

وَعَلَى قِرَاءَةِ [أَفَلَا يَفْقَهُونَ]: يَكُونُ الْخِطَابُ مُوجَّهًا لِلْمُؤْمِنِينَ، بِشَأْنِ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَخْتَلِفُ التَّحْلِيلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَقْلِ الْعَلَمِيِّ أَوْ الْعَقْلِ الْإِرَادِيِّ.

قول الله عز وجل:

﴿أَفَنُوعِدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿١١﴾﴾؟:

استفهام يراد به انتزاع الاعتراف بنفي التساوي بين مَنْ صَدَّقَ وَعَدَ اللهُ الْحَسَنَ بِجَنَاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ، فَاَمَنَ وَأَسْلَمَ فَهُوَ لَاقِيهِ حَتْمًا جَزَاءً مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَنْ لَمْ يُصَدِّقْ وَعَدَ اللهُ، وَاعْتَرَّ بِمَا يَنَالُهُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّذِي يَنَالُهُ بِعَطَاءٍ مِنَ اللهِ، كَمَا يَنَالُ نَظِيرُهُ غَيْرُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ، ثُمَّ يَمُوتُ عَلَى كُفْرِهِ، وَيُقْضَى عَلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ بِأَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ يَذُوقُ فِيهَا الْحَرِيقَ بِالنَّارِ.

﴿لَاقِيهِ﴾: اسم فاعل مضاف إلي مفعوله من فعل «لَاقِيَهُ، يَلْقَاهُ، لِقَاءً» أي اسْتَقْبَلَهُ، وَاسْتَقْبَالَ وَعَدَ اللهُ الْحَسَنَ يُلْزَمُ عَنْهُ تَحَقُّقُ السَّعَادَةِ بِهِ.

[مِنَ الْمُحْضَرِينَ]: أي: من المُسَوِّقِينَ قَهْرًا حَتَّى يَحْضُرُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ، لِمَحَاسَبَتِهِمْ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، وَمَجَازَاتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَتَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ اسْتِعْمَالُ نَظِيرِ هَذَا التَّعْبِيرِ عَلَى مَعْنَى الْحُضُورِ فِي جَهَنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُ: (أَوَّلِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ - فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ - وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ).

قول الله عز وجل:

﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ أَذْعَوْا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾﴾:

في هذه الآيات عَرْضٌ بِإِيجَازٍ لِمَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، وَفِي هَذَا الْمَشْهَدِ ثَلَاثَ زُمَرٍ، زُمَرَتَانِ ظَاهِرَتَانِ، وَالزُّمَرَةُ الثَّلَاثَةُ غَيْرُ ظَاهِرَةٌ.

الرُّمَرَةُ الْأُولَى: فَرِيقٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ مُحْضَرُونَ
لِلْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ.

الرُّمَرَةُ الثَّانِيَّةُ: رُمَرَةُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا قَدْ أَغْوَوْا الرُّمَرَةَ الْأُولَى،
وَهُمْ أَيْضاً ظَاهِرُونَ مُحْضَرُونَ.

الرُّمَرَةُ الثَّالِثَةُ: رُمَرَةُ الَّذِينَ كَانُوا الْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ،
وَلَيْسَ فِي النَّصِّ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ ظَاهِرُونَ مُحْضَرُونَ فِي الْمَشْهَدِ.

وحركة المشهد تَشْتَمِلُ عَلَى لَفْطَاتٍ:

اللَّفْطَةُ الْأُولَى: يُنَادِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رُمَرَةَ الْمُشْرِكِينَ، دَلَّ عَلَيْهَا
قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ﴾ (٦٧)؟ أَي: تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَائِي، فَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِي.

اللَّفْطَةُ الثَّانِيَّةُ: لَفْطَةٌ مَطْوِيَّةٌ فِي النَّصِّ، نَسْتَطِيعُ اسْتِخْرَاجَهَا بِالتَّأَمُّلِ.
وَهِيَ أَنَّ رُمَرَةَ الْمُشْرِكِينَ يَقُولُونَ عَنِ الرُّمَرَةِ الثَّانِيَّةِ، رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
أَغْوَيْنَا، إِذْ زَعَمُوا لَنَا مَزَاجِمَ كَثِيرَةً أَضَلُّونَا بِهَا، وَأَنَّ مَنْ كُنَّا نَعْبُدُهُمْ مِنْ
دُونِكَ هُمْ إِلَهَةٌ حَقًّا، لَهُمْ مُشَارَكَةٌ لِلرَّبِّ فِي بَعْضِ رَبوبيته، أَوْ هُمْ شَفَعَاءُ
لَنَا عِنْدَهُ.

اللَّفْطَةُ الثَّالِثَةُ: لَفْطَةٌ مَطْوِيَّةٌ فِي النَّصِّ أَيْضاً، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ جَلَالُهُ
وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - يَسْأَلُ رُمَرَةَ الْمُغْوِينَ، الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ قَضَى بِشَأْنِهِمْ، فَحَقُّ
عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ بِأَنَّهُمْ مَجْزِيُونَ بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ.

وَمَضْمُونُ السُّؤَالِ: هَلْ أَنْتُمْ أَغْوَيْتُمْ هَؤُلَاءِ كَمَا يَقُولُونَ؟

اللَّفْطَةُ الرَّابِعَةُ: تَصَوُّرُ اعْتِرَافِ رُمَرَةِ الْمُغْوِينَ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ إِغْوَاءِ
الرُّمَرَةِ الْأُولَى، دَلَّ عَلَى هَذِهِ اللَّفْطَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

• ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾:

﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾: أي: ثَبَتَ عَلَيْهِمُ قَوْلُ اللَّهِ الْقَضَائِي بِشَأْنِهِمْ، أَنَّهُمْ مَجْزِيُونَ بِعَذَابِ الْحَرِيقِ، لِكُفْرِهِمْ وَإِغْوَائِهِمْ مَنِ اسْتَجَابَ لَهُمْ، إِذْ حَاسَبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَضَى بِشَأْنِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يُحَاسِبَ أَتْبَاعَهُمُ الَّذِينَ تَأَثَّرُوا بِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَفْصِلُ قَضَاءَهُ بِشَأْنِ الْمُتَّبِعِينَ مِنَ الْمَجْرَمِينَ، قَبْلَ أَنْ يَفْصِلَ قَضَاءَهُ بِشَأْنِ تَابِعِيهِمْ.

• ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾:

﴿أَغْوَيْنَهُمْ﴾: أي: أَوْفَعْنَاهُمْ فِي الْغَوَايَةِ، وَهِيَ الْإِمْعَانُ فِي الضَّلَالِ وَالْبُعْدُ عَنِ صِرَاطِ الْحَقِّ وَالْهُدَى، بِالْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي كُنَّا نُضَلِّلُهُمْ بِهَا، وَنَسْتَدْرِجُهُمْ بِهَا إِلَى الْغَوَايَةِ.

وَإِغْوَاؤُنَا لَهُمْ قَدْ كَانَ بِسَبَبِ أَنْنَا غَوَيْنَا، فَبَدَا لَنَا أَنْ نَضُمَّهُمْ إِلَى حِزْبِنَا، وَنَسْتَكْثِرَ بِهِمْ مِنْ أَنْصَارِنَا.

وَهُنَا يُوجَّهُ لَهُمْ سُؤَالٌ: هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَكُمْ؟ فَيَتَبَرَّوْنَ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ قَائِلِينَ لِرَبِّهِمْ: مَا كَانُوا إِلَّا نَا يَعْبُدُونَ، أي: بَلْ كَانُوا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا نَا يَعْبُدُونَ﴾: أي: بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ غَيْرَنَا.

﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾: أي: تَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ لَا نَحْمِلُ وَزَرَ عِبَادَتِهِمْ لَنَا، وَنَلْجَأُ. إِلَيْكَ رَبَّنَا أَنْ لَا نَعَذِّبَنَّ عَلَى اتِّخَاذِنَا أَنْفُسَنَا آلِهَةً مِنْ دُونِكَ لِأَنَّا لَمْ نَفْعَلْ هَذَا.

التَّبَرُّؤُ: التَّخْلِي وَالتَّخْلَصُ.

الْلفظة الخامسة: نُصَوِّرُ عَوْدَةَ إِلَى الزُّمَرَةِ الْأُولَى زُمَرَةَ الْمُشْرِكِينَ، إِذْ يُقَالُ لَهُمْ: اذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

فَيَدْعُوهُمْ، لِكِنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ، وَيَخَيَّبُونَ فِي نِدَائِهِمْ آلِهَتَهُمْ،

فِيَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ فِي جَهَنَّمَ بِحَسَبِ ذَرَكَاتٍ كَفَرَهُمْ، وَحِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ، يَتَمَنُّونَ لو أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَهْتَدُونَ أَنَا فَآتَا، اسْتِجَابَةً لِرُسُلِهِمْ أَوْ لِلدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِهِمْ، حِينَمَا كَانُوا يَدْعُونَهُمْ إِلَى الْهُدَى.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّصِّ:

• ﴿وَقِيلَ أَذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِصِغَةِ حَدِيثٍ مَضْيٍ، وَهُوَ لَقْظَةٌ مِنْ لَقَطَاتِ مَشْهَدٍ سَوْفَ يَحْدُثُ يَوْمَ الدِّينِ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ سَوْفَ يَحْدُثُ حَقًّا، فَهُوَ حَقِيقَةٌ مِنْ حَقَائِقِ عِلْمِ اللَّهِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّفَ، وَيَكُونَ هَذَا النَّصُّ بَعْدَ الْوُقُوعِ حَدِيثًا عَنْ أَمْرِ مَضْيٍ.

• ﴿وَقِيلَ أَذْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾: أَي: وَقَالَ الرَّبُّ أَوْ مَنْ أَمَرَهُ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: نَادُوا الَّذِينَ كُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ اللَّهِ، فَعَبَدْتُمُوهُمْ مِنْ دُونِهِ، لِيَنْصُرُوكُمْ الْيَوْمَ، أَوْ لِيَشْفَعُوا لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ.

• ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾: أَي: فَصَارَ كُلُّ مُشْرِكٍ يُنَادِي مَعْبُودَهُ، قَالُوْنِي نَادَى وَثْنَهُ، وَعِبَادُ عِيسَى نَادَوْا يَا عِيسَى، وَعِبَادُ مَرْيَمَ نَادَوْا يَا مَرْيَمَ، وَعِبَادُ بُوْدَا نَادَوْا يَا بُوْدَا، وَهَكَذَا.

• ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾: أَي: فَمَا اسْتَجَابُوا لِإِدْعَاءَاتِ عَابِدِيهِمْ.

وَهُنَا ظَهَرَتْ حَيَبَةُ الْمُشْرِكِينَ، وَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ، اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَتَقَالِيدَهُمُ الْعَمِيَاءَ، وَلَمْ يَعْمَلُوا بِمَا كَانَ الْعَقْلُ وَالرُّشْدُ يُمْلِيهِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَلِلْعُلَمَاءِ الدَّعَاةِ مِنْ أَتْبَاعِهِمُ الَّذِينَ قَامُوا بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى رُسُلِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ.

وَهُنَا يُوجَدُ مَظْهَرٌ فِي النَّصِّ يُمَكِّنُ اسْتِنْبَاطَهُ بِالتَّأَمُّلِ الْيَسِيرِ، وَهُوَ

أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ بِحَسَبِ دَرَكَاتٍ كُفِّرِهِمْ، وَأَنَّهُمْ سَيُقَوَّضُونَ إِلَى جَهَنَّمَ حَتَّى يَبْرُؤَهَا، وَيَرَوْهَا مَنَازِلُهُمْ فِيهَا:

دَلَّتْ عَلَى هَذَا الْمَطْوِيِّ عِبَارَةٌ:

• ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾: أي: ورأوا بأبصارِهِمْ دَارَ الْعَذَابِ، ورأوا مَنَازِلَهُمْ فِيهَا، وَالْمَصِيرَ الَّذِي هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ.

• ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (٦٤): هَذِهِ عِبَارَةٌ مَقْتَطَعَةٌ مِنْ أَقْوَالِ الْمُشْرِكِينَ إِذْ رَأَوْا دَارَ عَذَابِهِمْ وَمَنَازِلَهُمْ فِيهَا.

إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ يَوْمَئِذٍ إِلَّا التَّمَنِّي، فَيُعْلِنُونَ تَمَنِّيَهُمْ قَائِلِينَ هَذَا الْقَوْلُ، أَوْ مَا يَدُلُّ عَلَى مَضْمُونِهِ.

«لَوْ» فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ لِلتَّمَنِّي، أي: لَيَتَنَّا كُنَّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نَهْتَدِي، اسْتِجَابَةً لِمَا كَانَ الدُّعَاءُ إِلَى اللَّهِ يَدْعُونَا إِلَيْهِ أَنَا فَأَنَا.

وَالْجَوَابُ مُحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ، فَتَنْجُو مِنْ هَذَا الْعَذَابِ، وَنَنْظُرُ بِجَنَاتِ النِّعَمِ.

وَهَكَذَا ظَهَرَتْ بِالتَّدْبِيرِ مَطْوِيَّاتٌ، مَا كَانَتْ لَتُظْهَرَ بِالتَّوَقُّفِ عِنْدَ تَفْسِيرِ كَلِمَاتِ النَّصِّ وَفِقَرَاتِهِ.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦):

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بَيَانٌ مُوجِزٌ عَنْ مَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ.

هَذَا مَشْهَدٌ يُجْمَعُ فِيهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،

فَيَنَادِيهِمْ رَبُّهُمْ فَيَقُولُ لَهُمْ: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾؟: أي: الَّذِينَ أَرْسَلْتُهُمْ إِلَيْكُمْ، فَدَعَوْكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا أَوْجَبْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَإِلَى الْإِسْلَامِ لِي وَطَاعَتِي فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَفِيمَا أَنْهَأْتُكُمْ عَنْهُ.

والمعنى: مَا الَّذِي أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ بِهِ إِذْ دَعَوْكُمْ؟ اسْتَفْهَامٌ عَمَّا أَجَابُوا بِهِ رُسُلَ رَبِّهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

إِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ رَفَضُوا قَبُولَ دَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، فَلَمْ يُجِيبُوهُمْ إِلَى مَا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ، فَهَلْ يُعْلِنُونَ مُبَاشَرَةً اعْتِرَافَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ؟.

إِنَّهُمْ يَتَرَيِّثُونَ، لَعَلَّهُمْ يَجِدُونَ جَوَابًا جَزَاؤُهُ أَخَفُّ مِنْ جَزَاءِ الْاعْتِرَافِ، فَيَتَفَكَّرُونَ، لَكِنْ لَا يَظْهَرُ لَهُمْ نَبَأٌ بَارِزٌ يُجِيبُونَ بِهِ عَلَى السُّؤَالِ، وَهَذَا النَّبَأُ قَدْ يُخَفِّفُ مِنْ جُرْمِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

لَقَدْ خَفِيتِ وَالتَّبَسَّتْ عَلَيْهِمْ أَنْبَاءُ مَاضِي حَيَاتِهِم الدُّنْيَا، فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا نَبَأًا يَخَفِّفُ عَنْهُمْ حَتَّى يَجِيبُوا بِهِ رَبَّهُمْ، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: فَخَفِيتِ وَالتَّبَسَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ. يُقَالُ لُغَةً: «عَمِيَتْ الْأَخْبَارُ وَالْأُمُورُ عَنْ فُلَانٍ، وَعَمِيَتْ عَلَيْهِ» أي: خَفِيتِ وَالتَّبَسَّتْ. وَهَذَا قَدْ عَمَّ جَمِيعَ أَفْرَادِهِمْ، فَلَا أَحَدَ مِنْهُمْ يَجِدُ جَوَابًا مُخَفِّفًا.

• ﴿فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ﴾: أي: فَهُمْ لَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي تَسَاوُرٍ عَنْ جَوَابِ يَجِيبُونَ رَبَّهُمْ بِهِ، لظُهُور الدَّهْشَةِ وَالْحَيْرَةِ وَالْعَجْزِ وَالذَّلِّ وَالانْكِسَارِ، عَلَى وُجُوهِهِمْ وَعُيُونِهِمْ جَمِيعًا بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ، فَلَا أَحَدَ مِنْهُمْ مُسْتَعِدٌّ لِأَنْ يُسْأَلَ أَوْ يُجِيبَ.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَعِيَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (٤٧)

قَضَتِ الْحُكْمَ الْعِلَاجِيَّةَ بَعْدَ تَرْهيبِ الْكَافِرِينَ فِي الْآيَاتِ مِنْ (٦١) - (٦٦) إِطْمَاعَهُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَبِالْإِيمَانِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَبِعَمَلِ صَالِحٍ فِيهِ مَرْضَاةٌ لِلَّهِ يُعْبَرُ عَنْ صِحَّةِ إِيْمَانِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَسَوْفَ يَجْعَلُهُمُ اللَّهُ رَبُّهُمْ مِنَ الْمُفْلِحِينَ يَوْمَ الدِّينِ.

«أَمَّا» حَرْفٌ فِيهِ مَعْنَى الشَّرْطِ وَالتَّوَكُّيدِ دَائِمًا، وَالتَّفْصِيلُ غَالِبًا، وَهُوَ نَائِبٌ عَنْ أَدَاءِ الشَّرْطِ وَجُمْلَتِهِ، وَلِهَذَا يُؤَوَّلُ بِـ «مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ».

• ﴿مَنْ تَابَ﴾: أَي: مَنْ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ طَالِبًا غُفْرَانَهُ وَعَفْوَهُ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَوَّلَ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ الشُّرْكُ بِاللَّهِ.

• ﴿وَأَمَّنَ﴾: أَي: وَأَمَّنَ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

الإِيمَانُ: تَصْدِيقُ إِرَادِيٍّ قَلْبِيٍّ بِالْحَقِّ، مَعَ طُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ، وَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُوجِّهَ الْإِرَادَاتِ لِلسُّلُوكِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ.

• ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: أَي: وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فِيهِ مَرْضَاةٌ لِلَّهِ، يُعْبَرُ بِهِ الْمُؤْمِنُ عَنْ صِدْقِ إِيْمَانِهِ.

• ﴿فَسَوْفَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾:

عَسَى: فِعْلٌ غَيْرُ مُتَصَرِّفٍ، مَعْنَاهُ الْمَقَارَبَةُ عَلَى سَبِيلِ تَوَقُّعِ حُصُولِ الشَّيْءِ مُسْتَقْبَلًا مَعَ رَجْحَانِ الْوُقُوعِ.

وَمِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ إِذَا حَمَلْنَاهُ عَلَى أَنَّهُ مُوجَّهٌ مِنَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، فَهُوَ وَعْدٌ حَقٌّ مَقْطُوعٌ بِهِ، بِشَرْطِ انْتِهَاءِ رِحْلَةِ امْتِحَانِ الْعَبْدِ وَهُوَ مَتَحَقِّقٌ بِالشَّرْطِ الَّتِي رُتِّبَ عَلَيْهَا الْوَعْدُ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْجُمْلَةُ تَعْبِيرًا عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَشْعُرَ بِهِ الْعَبْدُ، بَعْدَ التَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، مِنْ رَجَاءٍ أَنْ يَسْتَمِرَّ حَالَهُ كَذَلِكَ وَيَمُوتَ عَلَيْهِ، لِيَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ تَحْقِيقًا لَوَعْدِ اللَّهِ.

الفلاح: النَّجَاة، وَالْفَوْزُ، والظفر. وَأَصْلُ الْفَلَاحِ: البقاء في النعيم والخير. قال الْأَزْهَرِيُّ: وَإِنَّمَا قِيلَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مُفْلِحُونَ، لِفَوْزِهِمْ بِبَقَاءِ الْأَبَدِ.

قول الله عز وجل:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

هذه الآية جاءت لِبَيَانِ أَنَّ الرَّبَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، وَهَذِهِ صِفَةُ رَبِّكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ لِلخُطَابِ أَيُّا كُنْتَ. وَيَدُلُّ الْجَمْعُ بَيْنَ فِعْلَيْ: ﴿يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ عَلَى أَنَّ مَشِئَتَهُ جَلَّ جَلَالُهُ، مَشِئَةُ اخْتِيَارٍ، إِذِ الْاِخْتِيَارُ هُوَ مَشِئَةُ الْأَخِيرِ وَالْأَفْضَلِ.

يقال لغة: «اخْتَارَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أَي: انْتَقَاهُ وَاصْطَفَاهُ، إِذْ رَأَاهُ الْأَخِيرَ وَالْأَفْضَلَ، وَهَذَا أَخْصَصُ مِنْ مُطْلَقِ الْمَشِئَةِ، وَمِنْ كَمَالِ صِفَاتِ اللَّهِ أَنْ يَشَاءَ مَا هُوَ الْأَخْسَنُ وَالْأَفْضَلُ مِنَ الْاِخْتِمَالَاتِ الْمُمْكِنَةِ الَّتِي يَشَاءُ مِنْهَا، وَلَيْسَتْ مَشِئَاتُهُ سُبْحَانَهُ مَشِئَاتٍ غَيْرَ مُرْتَبِطَةٍ بِحُكْمَتِهِ فِي الْاِخْتِيَارِ، بَلْ هُوَ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

وَأَمَّا غَيْرُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَنْ فِي الْوُجُودِ فَمَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ فِي خَلْقِ شَيْءٍ مَا أَيُّ شَيْءٍ.

﴿الْخِيَرَةُ﴾: اسْمٌ مِنْ «الْاِخْتِيَارِ» أَي: لَيْسَ لَهُمْ اخْتِيَارٌ فِي خَلْقِ أَيِّ شَيْءٍ، وَلَا أَنْ يَقْتَرِحُوا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَخْتَارُونَهُ، فَلَا يَسْتَحِقُّونَ شَيْئاً مِنَ الْإِلَهِيَّةِ.

وظاهرٌ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ آيَةٌ إِقْنَاعِيَّةٌ لِلْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ سَبَقَ تَرْهِيْبُهُمْ فِي الْآيَاتِ مِنْ (٦٤ - ٦٦).

قول الله عز وجل:

• ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٦٩﴾:

أي: ولَمَّا كَانَ الْعِبَادُ مَوْضُوعِينَ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ، وَلِهَذَا أَرْسَلَ اللَّهُ لَهُمُ الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ آيَاتِهِ فِي كُتُبِهِ لِيُثَلِّىَ عَلَيْهِمْ، وَكَلَّفَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوهَا ذِكْرًا، وَأَنْ يَتَّبِعُوهَا، فَيَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ فِيهَا، كَانَ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ أَنْ يَعْلَمَ رَبُّكَ أَيُّهَا الصَّالِحُ لِلخَطَابِ كُلِّ شَيْءٍ تُكِنُّهُ صُدُورُ عِبَادِهِ، وَكُلَّ شَيْءٍ يُعْلِنُونَهُ، لِأَنَّ حِسَابَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، يَتَرَتَّبُ عَلَى مَا يَكْسِبُونَهُ بِإِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ مِنْ عَمَلٍ بَاطِنٍ تُكِنُّهُ صُدُورُهُمْ كَالْعَقَائِدِ وَالنِّيَّاتِ، وَعَمَلٍ ظَاهِرٍ بِجَوَارِحِهِمْ يُعْلِنُونَهُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ.

﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: أي: مَا تَسْتُرُهُ صُدُورُهُمْ، يُقَالُ لَعَةً: «كَنَّ فُلَانٌ الشَّيْءَ يَكِنُّهُ كَنًّا» وَيُقَالُ: «أَكَنَّهُ يَكِنُّهُ» أي: سَتَرَهُ.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ وفي القراءة الأخرى: [وَالِإِيهِ تَرْجَعُونَ]. وقد سبق بيان تكامل القراءتين في الأداء البياني.

جاءت هذه الآية ختاماً لهذا الدرس الثالث من دروس السورة، لربط ما جاء فيه بِخَمْسِ قَوَاعِدَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ:

القاعدة الأولى: أَنَّ الْغَيْبِيَّ الْخَالِقَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَالَّذِي وَضَعَ الْمَكْلُوفِينَ مِنَ النَّاسِ مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، هُوَ اللَّهُ، دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾.

القاعدة الثانية: أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مَعْبُودٌ فِي الْوُجُودِ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، وَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ مَعْبُودَاتٌ بَاطِلَاتٌ، افْتَرَاهَا الْمُشْرِكُونَ عَلَى رَبِّهِمْ. دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

القاعدة الثالثة: أَنَّ جَمِيعَ الْحَمْدِ مَا يُذَرِّكُ الْمَخْلُوقُونَ مِنْهُ، وَمَا لَا يُذَرِّكُونَ، فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى لِلْخَلَائِقِ، وَفِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى يَوْمَ الدِّينِ، هُوَ لِلَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهِ، دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: ﴿لَهُ الْخَاصِرُ الْأُولَى وَالْآخِرُ﴾: أَي: لَهُ وَخَدَهُ كُلُّ الْحَمْدِ، اسْتِفِيدَ الْقَضْرُ مِنْ تَقْدِيمِ الْخَبَرِ «لَهُ» عَلَى الْمَبْتَدَأِ «الْحَمْدُ».

القاعدة الرابعة: أَنَّ لَهُ وَخَدَهُ الْحُكْمَ بَيْنَ الْعِبَادِ يَوْمَ الدِّينِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ وفي هذه العبارة أيضاً قَضْرٌ دَلٌّ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ الْخَبَرِ «لَهُ» عَلَى الْمَبْتَدَأِ «الْحُكْمُ».

القاعدة الخامسة: أَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ يَرْجِعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِإِزْجَاعِ اللَّهِ لَهُمْ بِالْبَعْثِ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى، لِيَحَاسِبَ مَنْ كَانَ مَوْضُوعاً مِنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، وَلِيَفْصَلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِ، وَلِيَجَازِيَهُ، دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ [وَالِيَهُ تَرْجِعُونَ].

وبهذا انتهى تدبُّر الدرس الثالث من دروس سورة (القصص) والحمد لله على إمداداته وفتحه ومنّه وتوفيقه، وأسأله المزيد من هباته، والتسديد في أمري كُلِّهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنِي الْإِخْلَاصَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.



(٧)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (القصص)

الآيات من (٧١ - ٧٥)

وهو درسٌ يشتمل على تعليم مُناظرة جدلية حَوْلَ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ التي لا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، والتي تَسْتَلْزِمُ عَقْلاً إِلَهِيَّةً، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، مع إقناعات فكرية، وعلاجٍ ترهيبيةٍ.

قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً للرَّسُولِ ﷺ فلكلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّلَّ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥).

القراءات:

• قرأ قبل: [بضياء] بالهمزة بدل الياء.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿بُضْيَاءً﴾.

وهما وجهان في النطق جائزان، إلا أن قراءة جمهور القراء العشرة أَلَيْنُ في النطق.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢).

﴿سَرْمَدًا﴾: السَّرمَدُ: الدائم الذي لا ينقطع.

﴿أَرَأَيْتُمْ؟﴾ أي: تَفَكَّرُوا لِتَرَوْا، المراد بالرؤية هُنا الرؤية الفكرية الهادية إلى الحق. والاستيفهام يُرادُ به الْحَثُّ عَلَى التَّفَكُّرِ والنظر التأملِي العَقْلِي.

التعليم في هذه المناظرة الجدلية الإقناعية، يُوجّه الداعي إلى الله وإلى توحّيده في الربوبية والإلهية، أن يطرَح على المشركين الذين يَعْبُدُونَ من دُون الله السُّؤال حَوْلَ ظاهِرَتَيْنِ من ظواهر تَدْبِيرِ اللَّهِ في كَوْنِهِ، رَحْمَةً بِعِبَادِهِ سُكَّانِ الْأَرْضِ.

هُمَا ظَاهِرَتَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، اللَّتَانِ هُمَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِسُكَّانِ الْأَرْضِ، إِذْ وَاعَمَ بَيْنَ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ، وَبَيْنَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ الَّتِي اخْتَارَهَا لِيَسْكُنُوهَا.

وَمِنْ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ أَنْ جَعَلَ لَهُمْ لَيْلاً لِيَسْكُنُوا فِيهِ، وَجَعَلَ لَهُمْ نَهَاراً لِيَعْمَلُوا فِيهِ أَعْمَالاً يَتَنَعَّوْنَ بِهَا مَا يَتَأَلَوْنَهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي أَزْرَاقِهِمْ وَمَطَالِبِ حَيَاتِهِمْ.

الداعي إلى الله يخاطب المشركين مُسَائِلاً: أَتَفَكَّرْتُمْ فِي ظَاهِرَتَيِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، اللَّتَيْنِ تَفَضَّلَ اللَّهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ الْحَكِيمُ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ بِهِمَا عَلَى عِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً بِهِمْ.

لَوْ أَنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - لَمْ يَجْعَلْ هَذَا النِّظَامَ الْقَائِمَ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالشَّمْسِ، إِذْ تَدُورُ الْأَرْضُ حَوْلَ نَفْسِهَا بِاتِّجَاهِ الشَّمْسِ فِي نِظَامٍ دَقِيقٍ جَدًّا لَمْ يَخْرِمَ طَوَالَ مَلَائِينَ الْأَحْقَابِ، بَلْ جَعَلَ الْأَرْضَ مُظْلِمَةً دَوَاماً، لَا تُشْرِقُ عَلَيْهَا شَمْسٌ يَجْعَلُ فِيهَا نَهَاراً بَلْ كَانَ اللَّيْلُ فِيهَا سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَهَلْ آلِهَتُكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ رَبِّكُمْ، قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ مِنْ كَوْكَبٍ مِنَ الْكَوَاكِبِ الْمُلْتَهَبَةِ، فَتَجْعَلَ عَلَى أَرْضِكُمْ نَهَاراً تُحَقِّقُونَ فِيهِ كَثِيراً مِنْ مَصَالِحِ حَيَاتِكُمْ؟؟.

إِنَّ أَحَدًا مِنَ الْمَشْرِكِينَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ إِلَهَهُ أَوْ إِلَهَتَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَادِرَةٌ عَلَى أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ.

إِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ جَوَاباً لِهَذَا السُّؤالِ، بَلْ يَصْمُتُونَ، وَفِي هَذَا الصَّمْتِ

إِعْلَانٌ عَنِ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّهُ لَا أَحَدَ غَيْرُ اللَّهِ الرَّبُّ الْخَالِقُ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

عندئذ يقول لهم الدّاعي إلى الله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾: أي: أين آذانكم التي تسمع بيانات الحق، وتنفّلها إلى أجهزة التفكير فيكم حتى تعقلوها، أضمت فأنتم لا تسمعون.

واختيرت في النص هنا عقيب هذا الطرح الجدلي عبارة ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾! لأن السؤال يتعلّق باحتمال ما لو جعل الله الليل سرمداً إلى يوم القيامة، فالظلمة يلازمها السمع لا البصر.

ومثل هذا من الاختيارات الفنية الأدبية.

السؤال الثاني الذي يطرّحه الدّاعي إلى الله المناظر للمشرّكين، نظير السؤال الأول تماماً إلا أنه يتعلّق باحتمال أن يجعل الله النهار سرمداً إلى يوم القيامة.

أي: لو جعل الله النهار على الأرض دائماً لا ينقطع إلى يوم القيامة، فهل آلهتكم قادرة على أن تأتيكم بليل تسكنون فيه؟؟

إنهم لا يجدون جواباً لهذا السؤال أيضاً، بل يضمّتون، وفي هذا الصّمت إعلان عن اعترافهم بأنّه لا أحد غير الله الربّ الخالق يفعل ذلك.

عندئذ يقول لهم الدّاعي إلى الله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي: أين أبصاركم التي تبصر آيات الله المشهودة في كونه، وتنفّلها إلى أجهزة التفكير فيكم، فتستنبطون منها أنه لا ربّ في الكون إلا الله، فلا إله إلا هو، أعميت أعينكم فأنتم لا تبصرون.

واختير في النص هنا عقيب هذا الطرح الجدلي عبارة: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾! لأن السؤال يتعلّق باحتمال ما لو جعل الله النهار سرمداً إلى

يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَالْتَّهَارُ يُلَاثِمَةُ اسْتِخْدَامُ الْبَصَرِ لِرُؤْيَةِ آيَاتِ اللَّهِ الْمَشْهُودَةِ فِي كَوْنِهِ. ومثل هذا مِنْ الاختيارات الفَنِيَّةِ الأدبية.

قول الله عز وجل:

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧١﴾﴾:

هذه الآية بَعْدَ تَعْلِيمِ الْمُنَاطَرَةِ الْجَدَلِيَّةِ، جاءت معطوفةً على ما جاء في الآيات من (٦٨ - ٧٠) لبيان التَّرَابُطِ فِي السُّورَةِ الَّتِي تَجْمَعُهَا وَحْدَةٌ مَوْضُوعٍ.

أي: من آثار رَحْمَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بعباده، ذَاتِ الظُّوَاهِرِ الْكَوْنِيَّةِ الْمُتَكَرِّرَةِ أَنَّهُ جَعَلَ لِلنَّاسِ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ، وَالنَّهَارَ لِيَبْتَغُوا أَزْوَاقَهُمْ وَمَطَالِبَ حَيَاتِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ.

والخطاب في: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ مُوجَّهٌ لِلنَّاسِ جَمِيعاً، فهذا الْجَعْلُ الْحَكِيمُ مِنْ مَنِ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وفي عبارة: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من البديع اللَّفِّ والنَّشْرِ الْمُرتَّبِ. فاللف في: ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ والنَّشْرُ في: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَوَّلُهُمَا لِأَوَّلِ مَا فِي اللَّفِّ، وَثَانِيَهُمَا لِثَانِي مَا فِي اللَّفِّ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: أي: وَنُرْعَبُ فِي أَنْ تَشْكُرُوا، لِنَمْنَحَكُمْ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قول الله عز وجل:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَتَزَعَّنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بَيَّانُ مَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، غَيْرِ الْمَشْهَدِ الَّذِي سَبَقَ تَدْبِيرُهُ فِي الدَّرْسِ الثَّالِثِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ.

وَجَاءَ بَدْءُ الْمَشْهَدِ مُمَازِلًا لِمَا بُدِءَ بِهِ الْمَشْهَدُ السَّابِقُ، وَفِي هَذَا الْمَشْهَدِ يَكُونُ الْمُشْرِكُونَ مُجْمُوعِينَ مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ أَوَّلَهَا وَآخِرِهَا، فَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ، نِدَاءً مُطَابِقًا لِلنِّدَاءِ الَّذِي نَادَاهُمْ إِيَّاهُ فِي الْمَشْهَدِ السَّابِقِ، فَيَقُولُ لَهُمْ:

﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ؟﴾ (٧٤)

لِكِنَّهُمْ فِي هَذَا الْمَشْهَدِ قَدْ يُوجَدُ فِيهِمْ مَنْ يَعْتَذِرُونَ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوا مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تُجَاهَ رَبِّهِمْ، مِنْ أَنْ اتَّخَذَ الشُّرَكَاءَ لِلَّهِ كُفْرًا بِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، دَلَّ عَلَى هَذَا الْمُطْوِي فِي النِّصِّ مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ (٧٥) مِنْ إِخْضَارِ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوهُمْ أَنَّ الشُّرْكَ بِاللَّهِ وَلَوْ مِنْ أَوَّلِ دَرَكَاتِ الشُّرْكِ كُفْرًا بِاللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَأَنَّ مَنْ مَاتَ وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ بِرَبِّهِ سَوْفَ يَكُونُ خَالِدًا فِي عَذَابِ النَّارِ.

فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

• ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: أَي: وَجَذَبْنَا بِسُرْعَةٍ وَأَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ جَمَاعَةٍ، مَنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا قَدْ بَلَّغُوا جَمَاعَاتِهِمْ وَاجِبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَحَذَّرُوهُمْ مِنَ الشُّرْكِ بِاللَّهِ، وَأَبَانُوا لَهُمْ أَنَّ مَصِيرَ الْمُشْرِكِينَ هُوَ الْخُلُودُ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَأَوَّلُ هَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءِ الْمُرْسَلُونَ وَالْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ كُلُّ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ مِنَ الَّذِي آمَنُوا بِرُسُلِ اللَّهِ وَاتَّبَعُوهُمْ، وَبَلَّغُوا النَّاسَ مَا تَلَقَّوْهُ عَنِ الْمُرْسَلِينَ، مِنْ أَصُولِ الدِّينِ فَفُرِّعِهِ.

وَبَعْدَ إِخْضَارِ الشُّهَدَاءِ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَتْبَاعِ

الرُّسُلَ، يُدْعَوْنَ لِتَقْدِيمِ شَهَادَاتِهِمْ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا وَبَيَّنُّوا مَا يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

فيقولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَاهِدِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ الَّذِي يُثَبِّتُ مَا تَدْعُونَ، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

لَكِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ بُرْهَانًا يُثَبِّتُ مَا يَدْعُونَ، وَقَدْ بَهَتَتْهُمْ شَهَادَاتُ الشُّهَدَاءِ عَلَيْهِمْ، فَيَخْضَعُونَ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَلَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ وَبَحَثُوا عَنْ شُرَكَائِهِمْ لِيَنْصُرُوهُمْ، أَوْ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ، أَوْ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ أَثَرًا، إِذْ كَانُوا أَوْهَامًا أَوْ أَسْمَاءً هُمْ سَمَّوْهَا لَا حَقِيقَةَ لَهَا، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿.. وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥) أي: وَضَاعَ مِنْهُمْ شُرَكَاءَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَفْتَرُونَهُمْ عَلَى اللَّهِ رَبِّهِمْ.

الشُّهَدَاءُ يَوْمَ الدِّينِ فِي دَلَالَاتِ النُّصُوصِ الْقَرَأْنِيَّةِ:

(١) جاء في القرآن بَيَانُ أَنَّ النَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ مِنْ غَيْرِ النَّبِيِّينَ يُؤْتَى بِهِمْ، لِيُؤَدُّوا شَهَادَاتِهِمْ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِبَلَاغَاتِهِمُ الَّتِي بَلَّغُوا بِهَا آيَاتِ رَبِّهِمْ، وَمَطَالِبُهُ مِنْ عِبَادِهِ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ:

• فقالُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الزُّمَرِ/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) بِشَأْنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ:

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالشُّهَدَاءِ وَالشُّهَدَاءُ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٩).

أي: وجيء بالنبيين وبالشهداء من غير النبيين، ليشهدوا على أهل الجحود بأنهم بلَّغُوهم آيات ربهم، ومطالبه من عبادِهِ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، والكتاب الذي يُوضَعُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كِتَابُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، فَهُوَ الْمُنَاسِبُ

لشهداء وللقضاء بينهم بالحق، وقد يكون كتاباً عاماً جامعاً لكل الكتب التي ورّعت عليهم وفيها تسجيل أعمالهم.

• وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) :

أي: ويوم القيامة نبعث من كل أمة كُبرى أو صغرى شهيداً من النبيين أو من غير النبيين من الدعاة إلى الله أتباع المرسلين، ليشهدوا على الناس بأنهم بلغوهم رسالات ربهم.

ثم بعد الحكم على الذين كفروا بالكفر وباستحقاق الخلود في عذاب النار، لا يؤذن لهم بأن يجادلوا أو يعتذروا، وإذا سألوهم ربهم أن يغير لهم ويتجاوز عن جرائمهم، فإنهم لا يستعْتَبُونَ.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: ولا هم يُرفع عنهم العتب واللوم بالعفو أو الغفران، لأنّ جرائمهم هي من ذرّات الكفر الذي لا عُذر لهم به.

• وقول الله عزّ وجلّ الذي سبق تدبره آنفاً من سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا...﴾ (٧٥) :

(٢) وجاء في القرآن بالنسبة إلى رسول الله مُحَمَّد ﷺ، والدعاة إلى الله من أُمته.

• قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩) :

أي: ويوم القيامة نبعث في كل أمة كُبرى أو صغرى شهيداً عليهم

هُوَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لُغَةً وَاِئْتِمَاءً، مِنَ النَّبِيِّينَ، أَوْ مِنْ غَيْرِ النَّبِيِّينَ، مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ أَتْبَاعِ الْمُرْسَلِينَ، لِيَشْهَدُوا عَلَى النَّاسِ، بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوهُمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ.

وَجِئْنَا بِكَ يَا مُحَمَّدُ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تُبَلِّغُهُمْ رِسَالَاتِ رَبِّكَ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا بَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ.

﴿.. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩):

أي: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الْمَشْتَمِلَ عَلَى مَا يَلِي:

أ - أَنَّهُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي فِيهَا نَجَاتُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ وَفَوْزُهُمْ بِجَنَّاتِ النِّعَمِ.

ب - وَأَنَّهُ هُدًى يَدُلُّهُمْ عَلَى صِرَاطِ سَعَادَتِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ.

ج - وَأَنَّهُ رَحْمَةٌ لَهُمْ إِذْ يُرْشِدُهُمْ إِلَى مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ الضَّرَّ وَالْأَذَى، وَيَجْلِبُ لَهُمُ الْخَيْرَ الْعَظِيمَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَى.

د - وَأَنَّهُ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ يُبَشِّرُهُمْ بِرِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَبِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ الْخَالِدَةِ فِي الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ.

• وقول الله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لَأَمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً...﴾ (١٥٣):

دَلَّ هَذَا الْبَيَانُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اضْطَفَى - بِصِفَةِ عَامَّةٍ - أُمَّةَ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ، لَا كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ - بِصِفَةِ عَامَّةٍ - عُدُولاً (وَسَطًا) إِذْ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ

خَالَفُهُمْ، وَيَسَبِّ ذَلِكَ تَكُونُ شَهَادَاتُهُمْ مَقْبُولَةً عِنْدَ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الدِّينِ، بَأَنَّهُمْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ لِلنَّاسِ كَمَا تَبَلَّغُوهَا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ تَبَلَّغُوهَا عَنْهُ بِالسَّنَدِ الْمَتَّصِلِ الْقَطْعِيِّ، بِاِغْتِبَارِ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، مُكَلَّفُونَ أَنْ يُبَلِّغُوا النَّاسَ جَمِيعاً رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، عَلَى تَوَالِي الْعُصُورِ وَالْأَحْقَابِ.

• وقول الله عز وجل في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لِلَّذِينَ آمَنُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْكُمْ لِإِزْهِيمٍ هُوَ سَتَبَحْكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٧٨﴾:

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾: أي: هو اضطفأكم واختاركم مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْأُمَمِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِهِ لِلنَّاسِ.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: أي: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ مِنْ ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، بَلْ هُوَ يُسِّرُ سَهْلاً لَا إِضْرَ فِيهِ.

﴿هُوَ سَتَبَحْكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دُعَائِهِ وَهُوَ يَبْنِي الْكَعْبَةَ مَعَ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ...﴾ ﴿١٢٨﴾ (البقرة).

﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: وَفِي هَذَا الدِّينِ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ بَأَنَّهُ بَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ.

﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾: إِذَا قُمْتُمْ بِوَاجِبِكُمْ فَبَلَّغْتُمْ رِسَالَاتِ رَبِّكُمْ لِلنَّاسِ. وبهذا انتهى تدبر الدرس الرابع، والحمد لله على مَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَمُعُونَتِهِ.

(٨)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُرُوس سورة (القصص) الآيات من (٧٦ - ٨٢)

قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ قُلُوبَ كَانٍ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْخَيْرَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْ لَنَا مِمَّا آتَاكَ مِنْ قُلُوبِهِ إِنَّهُمْ لَذَو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْغَاسِقُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِمْ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُنَاسِفُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

القراءات:

(٧٨) • قرأ نافع، وقنبل، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [عِنْدِي أَوْ لَمْ]

بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

(٧٨) • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [عَنْ ذُنُوبِهِمِ الْمُجْرِمُونَ] بكسر الهاء والميم من «ذُنُوبِهِمِ» وقرأها حمزة، والكسائي، وخلف بضمهما، وقرأها باقي القراء العشرة بكسر الهاء وضم الميم.

(٨١) • قرأ أبو جعفر: [مِنْ فِتْنَةٍ] بالياء بدل الهمزة. وقرأها باقي القراء العشرة ﴿مِنْ فِتْنَةٍ﴾ بالهمزة.

(٨٢) • قرأ حفص، ويعقوب: ﴿لَخَسَفَ بَنَاتٌ﴾ أي: لَخَسَفَ اللَّهُ بَنَاتٍ. وقرأها باقي القراء العشرة [لَخَسَفَ بَنَاتٍ] بالبناء لما لم يُسم فاعله. ومعلوم أن الله عز وجل هو الذي يَخْسِفُ بهم إن شاء.

تمهيد:

في هذه الآيات بيان لَقَطَاتٍ مِنْ قِصَّةِ قَارُونَ، وفي هذه اللَّقَطَاتِ عِبْرَةٌ يَعْتَبَرُ بِهَا أَوْلُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَحُكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، إِذْ لِقِصَّةِ قَارُونَ أَشْبَاهُ كَثِيرَةٍ فِي التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ، وَلَا يَزَالُ كَثِيرُونَ مِنَ النَّاسِ يُكَرِّرُونَ مَا صَنَعَ قَارُونَ، وَيُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عُقُوبَاتِهِ فِيهِمْ، بِوُجُوهِ مُخْتَلِفَةٍ غَيْرِ الْخَسْفِ الَّذِي عَاقَبَ بِهِ قَارُونَ وَمَنْ مَعَهُ عَلَى قَبَائِحِهِ فِي الدُّنْيَا، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى.

وقِصَّةُ قَارُونَ وَهُوَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ذَاتُ صَلَاحٍ فَكَّرِيَّةٍ بِقِصَّةِ فِرْعَوْنَ فِي السُّورَةِ وَهُوَ مِنَ الْمَضْرِبِينَ، وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاحِدَةٌ فَمَنْ طَغَى وَبَغَى أَهْلَكَهُ اللَّهُ وَعَاقِبُهُ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَالْعِبْرَةُ فِيهِمَا مُتَشَابِهَةٌ.

مختارات من قصة قارون عند أهل التاريخ مع مفهومات أخرى:

(١) رُوي عن ابن عباسٍ أَنَّهُ كَانَ ابْنُ عَمِّ مُوسَى، فَهُوَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ فِي مِصْرَ، وَقِيلَ بِشَأْنِ قَرَابَتِهِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ غَيْرَ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) تَدُلُّ قِرَائِنُ قِصَّتِهِ أَنَّهُ تَرَلَّفَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَآلِهِ، فَمَكَّنُوهُ مِنْ جَمْعِ ثَرَوَةٍ

مَالِيَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي مِصْرَ، لِيَكُونَ عَيْنًا وَيَدًا لَهُمْ عَلَى الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَهُوَ مِنْهُمْ نَسَبًا وَقَوْمِيَّةً، فَيَكُونَ خَادِمًا مُطِيعًا مِنْ خِدَامِ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ فِي قَوْمِهِ.

(٣) جَمَعَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَاکْتَنَزَهَا فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَأَقْفَلَ عَلَيْهَا بِأَقْفَالٍ ذَاتِ مَفَاتِيحَ، وَلَكَثْرَةِ هَذِهِ الْمَفَاتِيحِ وَثِقَلِهَا تَضَعُفُ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ عَنْ حَمْلِهَا بِنَشَاطٍ وَقُوَّةٍ، فَإِذَا حَمَلُوهَا مَالَتْ ظُهُورُهُمْ مِنْ ثِقَلِهَا عَجْزًا عَنِ النَّهْوضِ بِهَا قَائِمِينَ، إِذْ كَانَتْ مَفَاتِيحَ حَدِيدِيَّةٍ كَبِيرَةٍ ثَلَاثَمَ الْأَقْفَالِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَقْفَلُ بِهَا أَبْوَابُ الْكُنُوزِ.

(٤) وَكَانَ «قَارُونَ» يَتَعَاضَمُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَيَتَبَاهَى مُتَفَاخِرًا بِأَمْوَالِهِ، وَمَرَآكِبِهِ، وَخَدَمِهِ، وَزِينَتِهِ، إِغْرَاءً لِكِبْرَاءِ قَوْمِهِ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُ أَغْوَانُ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ عَلَى قَوْمِهِمْ، حَتَّى لَا يَثُورُوا عَلَى التَّسْخِيرِ وَالْإِسْتِعْبَادِ الَّذِي هُمْ فِيهِ.

(٥) وَعَظَّمَهُ النَّاصِحُونَ أَهْلُ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ وَالْإِيمَانِ مِنْ قَوْمِهِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، فَقَالُوا لَهُ: لَا تَفْرَحْ مُسْتَكْبِرًا بِمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ أَمْوَالٍ وَزِينَةٍ وَخَدَمٍ وَأَغْوَانٍ، وَابْتَغْ فِي هَذَا الَّذِي آتَاكَ اللَّهُ إِيَّاهُ ثَوَابَ الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَدَرَجَاتِ النِّعَمِ فِي الْجَنَّةِ دَارِ الْخُلُودِ يَوْمَ الدِّينِ، وَلَا تَنْسَ أَنْ تَأْخُذَ نَفْسِيكَ مِنَ الدُّنْيَا، لِحَاجَاتِ حَيَاتِكَ وَمَطَالِبِ نَفْسِكَ مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ.

وَرَأَوْهُ شَحِيحًا بِخِيَلًا، لَا يُقَدِّمُ إِحْسَانًا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، فَقَالُوا لَهُ: وَأَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى مَا آتَاكَ.

وَرَأَوْهُ مُفْسِدًا يَبْتَغِي بِإِفْسَادِهِ مَصَالِحَ نَفْسِهِ، وَخِدْمَةَ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ، ضِدًّا قَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالُوا لَهُ: وَلَا تَبْتَغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، أَي: فَهُوَ يَنْقُمُ عَلَيْهِمْ وَيُعَاقِبُهُمْ.

فَاسْتَكْبَرَ عَنْ أَنْ يَعْتَرِفَ بِأَنَّ مَا لَدَيْهِ مِنْ أَمْوَالٍ وَمَتَاعٍ وَزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، هُوَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي آتَاهُ ذَلِكَ، فَرَدَّ عَلَى

نَاصِحِيهِ بِكَلِمَةٍ كُفِّرَ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَمَنْتَهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ جَاحِدًا نِعَمَهُ: إِنَّمَا أُوتِيتُ هَذَا الَّذِي أَمْلِكُكُمْ مُكَافَأَةً كَوْنِيَّةً لِي عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي بِأَسْبَابِ تَحْصِيلِ الثَّرَوَاتِ، وَحُسْنِ التَّدْبِيرِ وَالتَّصَرُّفِ فِي اكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ وَالْمَنَافِعِ وَاللَّذَاتِ وَالزَّيِّنَاتِ وَمَظَاهِرِ الْمَجْدِ وَالْعِظَمَةِ.

(٦) وَإِنَّمَانًا فِي تَعَاظُمِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ عَلَى قَوْمِهِ، أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ لِقَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ غِنَى وَمَجْدٍ وَعِظَمَةٍ وَزِينَاتٍ مِنْ زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَأَعَدَّ لِنَفْسِهِ مَوْكِبًا كَبِيرًا مُحَلًى بِالزَّيِّنَاتِ، فِيهِ الْمَرَائِبُ الَّتِي تَجُرُّهَا الْخُيُولُ عَلَى مَا هُوَ مَعْتَادُ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَفِيهِ الْخَدَمُ وَالْحَشَمُ وَالْأَعْلَامُ التَّزِينِيَّةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ مَظَاهِرِ الْعِظَمَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَخَرَجَ يَمُرُّ بِهَذَا الْمَوْكِبِ فِي طُرُقَاتِ أَحْيَاءٍ وَمَسَاكِينِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِإِذْنٍ مِنَ الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، إِذْ فِيهِ تَقْوِيَّةٌ شَأْنِهِ بَيْنَ قَوْمِهِ.

فَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي أَحْيَائِهِمْ وَمَسَاكِينِهِمْ وَهُوَ مَارٌّ بِمَوْكِبِهِ الْفَخْمِ فِي طُرُقَاتِهِمْ فَرِيقَيْنِ:

الفريق الأول: فَرِيقُ الدَّهْمَاءِ، وَهُمْ عَامَّةُ النَّاسِ وَسَوَادُهُمُ الْأَكْبَرُ، الَّذِينَ تَغَرَّهْمُ وَتَفْتِنُهُمْ مَظَاهِرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَاتُهَا، وَنُفُوسُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَا، وَلَمَّا رَأَى هَؤُلَاءِ مَوْكِبَ قَارُونَ بَعِظَمَتِهِ وَزِينَاتِهِ قَالُوا: يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ.

الفريق الثاني: الْقَلِيلُونَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الْحَقَّ، وَالْبَصِيرَةَ الْوَاعِيَّةَ، وَقُلُوبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْآخِرَةِ، وَثَوَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ فِيهَا.

وهؤلاء لَمَّا رَأَوْا مَوْكِبَ قَارُونَ لَمْ يَغْتَرَوْا بِهِ، وَلَمْ يَكْتَرِثُوا لَهُ، وَرَأَوْا أَنَّ ثَوَابَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ وَأَبْقَى.

وَسَمِعَ هَؤُلَاءِ مَقَالََةَ فَرِيقِ الدَّهْمَاءِ فَقَالُوا لَهُمْ: وَيْلَكُمْ مِنْ تَمَنِّيِكُمْ أَنْ تُؤْتُوا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ، وَمِنْ تَصَوُّرِكُمْ أَنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، اْعْلَمُوا أَنَّ

ثَوَابَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ خَيْرٌ وَأَجَلٌ وَأَعْظَمُ وَأَبْقَى، لِمَنْ آمَنَ إِيْمَانًا صَحِيحًا صَادِقًا، وَعَبَّرَ عَنِ صِدْقِ إِيْمَانِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ فِيهِ مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاعْلَمُوا أَنَّ صِفَاتِ الْإِيْمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، مَعَ التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، مَا يُلْقَاهَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَمَدَدِهِ وَمَعُونَتِهِ إِلَّا الصَّابِرُونَ، الَّذِينَ لَا يُعْطُونَ نَفْسُهُمْ هَوَاهَا، فَيَكْفُونَ نَفْسَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَابِرِينَ، وَيُؤَدُّونَ مَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَعْمَالٍ تَشُقُّ عَلَى نَفْسِهِمْ صَابِرِينَ، بِإِرَادَاتٍ قَوِيَّةٍ تَشُدُّهُمْ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

(٧) رُوي أَنَّ قَارُونَ أَعْطِيَ امْرَأَةً بَغِيًّا مَالًا، لَتَقُولَ لِمُوسَى فِي مَلَأَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّكَ زَنْيَتَ بِي، فَفَعَلْتَ هَذِهِ الْبَغْيِ مَا طَلَبَ مِنْهَا قَارُونَ، فَانْتَفَضَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُغْضَبًا، وَصَلَّى لِرَبِّهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَرْأَةِ الْبَغْيِيَّةِ، فَاسْتَحْلَفَهَا بِشَأْنِ مَا زَعَمَتْ، وَقَالَ لَهَا: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهَا رُعبًا، فَقَالَتْ: إِنَّ قَارُونَ هُوَ الَّذِي اسْتَأْجَرَهَا لَتَقُولَ هَذِهِ الْفِرْيَةَ، وَاسْتَغْفَرْتُ، فَخَرَّ مُوسَى لِلَّهِ سَاجِدًا، وَدَعَى عَلَى قَارُونَ.

(٨) فَخَسَفَ اللَّهُ بِقَارُونَ وَبِدَارِهِ الْأَرْضُ، وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا يَخِيْمُهُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، وَلَمْ يَجِدْ لَدَى آلِ فِرْعَوْنَ مَنْ يَنْصُرُهُ، لِأَنَّ رَبَّهُ قَدْ أَنْزَلَ بِهِ نِقْمَتَهُ خَسْفًا فَأَهْلَكَتُهُ وَابْتَلَعَتِ الْأَرْضُ دَارَهُ وَكُنُوزَهُ وَمَنْ قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِهْلَاكِ مَنْ أَهْلَهُ وَأَنْصَارِهِ، وَأَقْبَرَهُمُ اللَّهُ فِي بَاطِنِ مَكَانِ الْخَسْفِ، وَكَانَ هَذَا لَيْلًا أَوْ عِنْدَ الْفَجْرِ.

(٩) أَمَّا فِرْيَةُ الدَّهْمَاءِ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ تَمَنَّوْا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِثْلُ مَا آتَى اللَّهُ قَارُونَ، فَقَدْ أَضْبَحُوا يَقُولُونَ مُذْعِنِينَ لِحِكْمَةِ اللَّهِ وَمَعْتَرِفِينَ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِذْ لَمْ يَجْعَلْهُمْ مِثْلَ قَارُونَ، وَعَالِمِينَ بِأَنَّ بَسْطَ الرِّزْقِ وَتَضْيِيقَهُ إِنَّمَا هُمَا لِحِكْمَةِ امْتِحَانِ كُلِّ قَرْدٍ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ، وَلَيْسَ مَنْ بَسَطَ اللَّهُ

لَهُ الرِّزْقَ قَدْ فَضَّلَهُ رَبُّهُ بِذَلِكَ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ، بَلْ قَدْ يَكُونُ سَبَبَ طُغْيَانِهِ وَهَلَاكِهِ، وَأَضْبَحُوا يُذَرِّكُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ مَنَّ عَلَيْهِمْ إِذْ لَمْ يَجْعَلْهُمْ مِثْلَ قَارُونَ، إِذْ لَوْ كَانُوا مِثْلَهُ لَكَانَ مِنَ الْمَحْتَمِلِ أَنْ يَطْعَوْا مِثْلَمَا طَعَى، وَأَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ عِقَابُ اللَّهِ مِثْلَمَا نَزَلَ بِهِ، وَأَعْلَنُوا أَنَّهُ لَا يُفْلَحُ الْكَافِرُونَ.

توجد مَرْوِيَّاتٌ فِي قِصَّةِ قَارُونَ مَا اسْتَسْغَتْهَا، وَلَمْ أَجِدْ لَهَا أَسَانِيدَ تَجْعَلُهَا مَقْبُولَةً فِيمَا يُرَوَّى، فَأَعْرَضْتُ عَنْهَا.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿إِنَّ قُلُوفَ كَاتٍ مِّنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

• ﴿إِنَّ قُلُوفَ كَاتٍ مِّنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾:

«قَارُونَ» كَانَ أَبْنِ عَمِّ مُوسَىٰ فِي أَرْجَحِ الرِّوَايَاتِ، وَلَفْظُهُ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالْعُجْمَةِ.

• ﴿كَاتٍ مِّنْ قَوْمِ مُوسَىٰ﴾: أَي: كَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَجَرَتْ أَحْدَاثُ قِصَّتِهِ الْآتِيَةِ إِذْ كَانُوا يُنْسَبُونَ إِلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ مَدْيَنَ نَبِيًّا وَرَسُولًا، فَهُمْ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ، إِذْ كَانَ قَائِدَهُمُ وَالْمَطَالِبُ بِحُقُوقِهِمْ، عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَسَائِرِ السُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ فِي مِصْرَ حِينَئِذٍ.

• ﴿فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ﴾: أي: فَظَلِمَ قَوْمَهُ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وفي مقدمتهم موسى عَلَيْهِ السَّلَام، وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ، وصَارَ يُنْشَرُ فِيهِمُ الْفَسَادُ وَالْإِفْسَادُ.

البغي: تجاوزُ الحدِّ المألوفِ نظيره لدى الجائرين عن الصراط المستقيم، وَيُطْلَقُ عَلَى الْعُلُوِّ فِي الْكِبَرِ، وَالظُّلْمِ، وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

ومن بغيه على موسى عليه السلام ما جاء في قصته عند المؤرخين من أنه استأجر امرأة فاجرة لتتهمه بأنه فجر بها، فَصَلَّى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام رُكْعَتَيْنِ، وَتَوَجَّهَ لَهَا سَائِلًا مَنِ اسْتَأْجَرَكَ لِلْإِفْتِرَاءِ عَلَيَّ، فَقَالَتْ أَمَامَ جُمْهُورِ قَوْمِهِ: قَارُونُ، فَظَهَرَتْ بَرَاءَتُهُ وَخَسِيَ قَارُونُ.

وما كان باستِطاعة «قارون» أَنْ يَبْغِيَ عَلَى قَوْمِهِ وَهُوَ مِنْهُمْ لَوْلَا أَنَّهُ تَزَلَّفَ إِلَى الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ خَادِمًا لِمَصَالِحِ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ فِي قَوْمِهِ، ضِدَّ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا، فَمَكَنَ لَهُ فِرْعَوْنُ فِي مِصْرَ أَنْ يَجْمَعَ أَمْوَالًا كَثِيرَةً وَيَكْنِزَهَا فِي كُنُوزٍ، وَأَنْ تَكُونَ لَهُ مَظَاهِرُ سُلْطَانٍ وَاسْتِكْبَارٍ عَلَى قَوْمِهِ، لِيَكُونَ عَوْنًا لِلْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ عَلَى إِذْلَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ، وَتَسْخِيرِهِمْ وَاسْتِعْبَادِهِمْ.

• ﴿وَأَيَّانَهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾:

الكنوز: جَمْعُ مُفْرَدِهِ «الكنز» وهو المال من الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْجَوَاهِرِ الْكَرِيمَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، الَّذِي يُدْفَنُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ، أَوْ فِي أَمَاكِنَ حَصِينَةٍ دَاخِلَ مَبَانِي لَا يُسْتَطَاعُ الْوُصُولُ إِلَى دَاخِلِهَا إِلَّا بِقُوَى عَظِيمَةٍ تُفَوِّقُ الْقُوَى الْمَعْتَادَةَ لِلنَّاسِ.

وَقَدْ آتَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَارُونَ بِتَمَكِينِهِ مِنَ الْوَسَائِلِ السَّبَبِيَّةِ كُنُوزًا كَثِيرَةً، اكْتَنَزَهَا فِي مَبَانِي حَصِينَةٍ، ذَاتِ أَبْوَابٍ تُقْفَلُ بِأَحْكَامٍ بَالِغٍ، فَلَا تُفْتَحُ إِلَّا بِمَفَاتِيحَ خَاصَّةٍ بِهَا، وَقَدْ جَمَعَهَا فِي ظِلِّ خِدْمَتِهِ لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ ضِدَّ قَوْمِهِ.

• ﴿مَا إِنْ مَفَاتِحُ لَنُنَوِّئَ بِالْمُضْبَكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾: «مَا» اسْمُ مَوْضُولَ بِمَعْنَى الَّذِي «إِنْ» وَاسْمُهَا وَخَبَرُهَا صِلَةُ الْمَوْضُولِ، وَلِهَذَا جَاءَتْ «إِنْ» مَكْسُورَةً.

﴿مَفَاتِحُهُ﴾: الضمير يَعُودُ عَلَى اسْمِ الْمَوْضُولِ «مَا» وَلَفْظُ «مَفَاتِحِ» جَمْعُ «مِفْتَاحٍ» وَهُوَ الْمِفْتَاحُ، وَفِي الْجَمْعِ يُقَالُ: «مَفَاتِحُ» وَ«مَفَاتِيحُ».

﴿لَنُنَوِّئَ بِالْمُضْبَكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾: يُقَالُ لُغَةً: «نَاءٌ بِالرَّجُلِ الْحِمْلُ» أَي: ثَقُلَ عَلَيْهِ فَأَمَالَهُ عَجْزاً عَنِ النَّهْوضِ بِهِ قَائِماً.

وَالْعُضْبَةُ هِيَ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ.

فَدَلَّتِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ مَفَاتِيحَ أَبْوَابِ كُنُوزِ قَارُونَ، إِذَا حَمَلَتْهَا الْجَمَاعَةُ مِنَ الرِّجَالِ ذَوِي الْقُوَّةِ، مَالَتْ ظُهُورُهُمْ مِنْ ثِقَلِهَا عَجْزاً عَنِ النَّهْوضِ بِهَا قَائِمِينَ.

أقول: هَذَا يَسْتَلْزِمُ ذَهْنًا أَنْ تَكُونَ مَفَاتِيحُ حَدِيدِيَّةٌ كَبِيرَةٌ، تُفْتَحُ بِهَا أَقْفَالٌ عَظِيمَةٌ مَثْبَتَةٌ فِي أَبْوَابِ الْكُنُوزِ، أَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أَنَّهَا صَغِيرَةٌ، أَوْ مِنْ جُلُودٍ فَغَيْرُ مَقْبُولٍ عَقْلاً.

وَقَالَ لَهُ عَقْلَاءُ قَوْمِهِ وَرَاشِدُوهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي مُقَدِّمَتِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، خَمْسَ مَقَالَاتٍ نَصَحُوهُ وَوَعَّظُوهُ بِهَا، جَاءَ فِي هَذَا النَّصِّ بَيَانُ عُتُونَاتِهَا، وَهِيَ كَمَا يَلِي:

المقالة الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿.. إِذْ قَالَ لَمْ قَوْمُكَ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾:

أَي: ضَعُفَ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي أَيُّهَا كُنْتَ قَوْلَ قَوْمِ قَارُونَ لَهُ: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ يَأْتِي الْفَرَحُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الْبَطَرِ وَالْأَشْرَ، أَي: بِمَعْنَى الْأَسْتِكْبَارِ وَالتَّفَاخِرِ وَالتَّعَالِي عَلَى النَّاسِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ فَرِحَ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِ، طَعَنَ

فَرَحُهُ عَلَىٰ بَصِيرَتِهِ فَطَمَسَهَا، فَصَارَ يَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَ الطُّغَاةِ، وهذا المعنى هو المراد هنا مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْفَرَحِ.

• ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾: أي: كُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَعِقَابِهِ، فَمَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ بِإِرَادَتِهِ فِي زُمْرَةِ مَنْ لَا يُحِبُّهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَدْ جَعَلَهَا غُرْضَةً لِنِقْمَةِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ الشَّدِيدِ.

فالعبرة استُخدمت على سَبِيلِ الْكِنَايَةِ لِلتَّرْهِيبِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ الشَّدِيدِ وَنِقْمَتِهِ، كَمَا عَاقَبَ الْفَرِحِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِهِ.

المقالة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾: وَابْتَغِ: أي: واطْلُبْ، يُقَالُ لُغَةً: «بَعَى الشَّيْءَ وَابْتَغَاهُ، أَي: طَلَبَهُ».

المعنى: واطْلُبْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ مَالٍ كَثِيرٍ، وَوَافِرٍ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتَمَكَّنْ فِي أَرْضٍ مُضَرٍّ، ثَوَابَ رَبِّكَ الَّذِي لَا يَنْفَدُ، لَأَنَّهُ ثَوَابٌ خَالِدٌ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، فاعْمَلْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ لِيَبْلُوكَ، أَعْمَالًا صَالِحَةً تُرْضِي اللَّهَ عَنْكَ، فَيُدْخِلَكَ فِي رَحْمَتِهِ، وَيَجْعَلَكَ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي جَنَّتِهِ يَوْمَ الدِّينِ.

المقالة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

هَذِهِ مَقَالَةٌ اخْتِرَاسِيَّةٌ تَكْشِفُ حُدُودَ الْمَنْصُوحِ بِهِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ، أَي: وَلَا تَفْهَمْ أَنَّنَا نَنْصَحُكَ، أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ مُوجَّهًا لِتَحْصِيلِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، بَلْ نَقُولُ لَكَ أَيْضًا: وَلَا تَتْرُكْ نَصِيبَكَ الَّذِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْتَمْتِعَ بِهِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَتَّى مَا تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ مُرَفَّهًا فِيهِ أَنْتَ وَمَنْ تُحِبُّ مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ.

أَصْلُ مَعْنَى التَّسْيَانِ فِي اللُّغَةِ التَّرُّكُ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمَلَائِمُ هُنَا.

المقالة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾:

تَدُلُّ هَذِهِ النَّصِيحَةُ الْمَوْجَّهَةُ لِقَارُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَفِي مَقَدِّمَتِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، عَلَى أَنَّ قَارُونَ كَانَ شَاحِصًا مُمَسِّكًا، لَا يُسَاعِدُ فُقَرَاءَ قَوْمِهِ وَضِعْفَاءَهُمْ وَمَسَاكِينَهُمْ وَذَوِي الْحَاجَاتِ فِيهِمْ، بَلْ يَتَعَاطَمُ وَيَسْتَكْبِرُ وَيَتَفَاخَرُ عَلَيْهِمْ، دُونَ أَنْ يُحْسِنَ إِلَى ذَوِي الضَّرُورَاتِ وَالْحَاجَاتِ فِيهِمْ، بِمَالٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

يَقَالُ لُغَةً: «أَحْسَنَ الرَّجُلُ إِحْسَانًا» أَي: فَعَلَ مَا هُوَ حَسَنٌ، كَبَذَلَ مَالٍ فِي وَجْهِ مَنْ وَجْهُهُ مِنْ وَجْهِهِ الْخَيْرُ الَّتِي يُبْتَغَى بِهَا وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَتَوَجِيهِ نَصِيحَةٌ حَسَنَةٌ بِقَوْلٍ لَيْنٍ رَفِيقٍ، وَكُمُسَاعَدَةٍ بِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ مِمَّا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِعْلَهُ.

وَتُظَلِّقُ الْحَسَنَةَ عَلَى الصَّدَقَةِ، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي مُلَائِمَةٌ لِحَمْلِ الْمَقَالَةِ عَلَيْهَا، لَكِنْ يَأْتِي فِي مُقَدِّمَتِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى قَارُونَ، دَعْوَتُهُ إِلَى الْإِحْسَانِ بِذَلِّ مَالٍ مِمَّا أَحْسَنَ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ فِي وَجْهِهِ الْخَيْرِ وَالْبَرِّ.

وَلَا يَرِدُ هُنَا مَعْنَى الْإِحْسَانِ فِي الْعِبَادَةِ الَّتِي هُوَ الْمَرْتَبَةُ الْعُلْيَا مِنْ مَرَاتِبِ عِبَادَةِ اللَّهِ «التَّقْوَى وَالْبِرَّ وَالْإِحْسَانَ» فَقَدْ جَاءَ تَفْسِيرُ هَذَا الْإِحْسَانِ فِي بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ بِقَوْلِهِ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

فَدَعْوَةُ قَارُونَ إِلَى أَنْ يُحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ، دَعْوَتُهُ إِلَى فِعْلِ مَا هُوَ حَسَنٌ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

المقالة الخامسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿... وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٦):

الْفُسَادُ: التَّلَفُ الَّذِي يُصِيبُ شَيْئًا مَا، وَيُحَوِّلُهُ مِنْ كَوْنِهِ صَالِحًا نَافِعًا،

إِلَى كَوْنِهِ غَيْرَ صَالِحٍ وَلَا نَافِعٍ، بَلْ رُبَّمَا يَصِيرُ ضَارًّا كَرِيهًا مُفْسِدًا لِّغَيْرِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الصَّالِحَةِ.

وَيَشْمَلُ الْفَسَادُ الْمَادِّيَّاتِ، وَالْمَعْنَوِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَالْمَفْهُومَاتِ الْفِكْرِيَّةِ، فَاتَّلَاثُ الْمَبَانِي الصَّالِحَةِ وَالْمَزَارِعِ النَّافِعَةِ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَتَرْبِيَةِ النَّفُوسِ عَلَى الْحَقِّدِ وَالْحَسَدِ، وَكَيْدِ النَّاسِ وَسَلْبِ أَمْوَالِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالطَّمَعِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَإِفْقَارِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ وَتَسْخِيرِهِمْ بِالْإِكْرَاهِ، وَاسْتِعْبَادِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَطَرَحُ الشُّبُهَاتِ ضِدَّ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَأَحْكَامِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، فِي الْأَخْلَاقِ، وَالْمَعَامَلَاتِ، وَالْعِبَادَاتِ الْمُخَصَّصَةِ، وَالْآدَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ.

هَذِهِ النَّصِيحَةُ الْمَوْجَّهَةُ لِقَارُونَ مِنْ قِبَلِ عُقَلَاءِ قَوْمِهِ وَأَهْلِ الرُّشْدِ فِيهِمْ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، تَذُلُّ عَلَى أَنَّ قَارُونَ كَانَ يَتَّخِذُ وَسَائِلَ يَحْصُلُ بِهَا فَسَادٌ فِي الْأَرْضِ، كَطَلْمِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ قَوْمِهِ، وَالْعُدَانِ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَمُمْتَلَكَاتِهِمْ الثَّابِتَةِ وَالْمَنْقُولَةِ، وَإِذْلَالِهِمْ وَسَوْقِيهِمْ مُسَخَّرِينَ لِأَسْيَادِهِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَنَشْرِ الْفَاحِشَةِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَتَسْلِيطِ بَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، بِمَا مَكَّنَّهُ مِنْهُ فِرْعَوْنُ وَآلُهُ مِنْ سُلْطَانٍ، وَكَتْشَرِ الْعَقِيدَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ الْوُثْنِيَّةِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، الْقَائِمَةِ عَلَى تَأْلِيهِ فِرْعَوْنَ وَاعْتِبَارِهِ رَبَّهُمُ الْأَعْلَى.

﴿.. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧٧) : أَيُّ: كُنْ عَلَى حَذَرٍ شَدِيدٍ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَعِقَابِهِ، فَمَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ بَارَادَتِهِ مِنْ زُمْرَةِ الَّذِينَ لَا يُجِبُّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ مُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، فَقَدْ جَعَلَهَا غُرْصَةً لِنِقْمَتِهِ، وَعَذَابٍ مِنْهُ يُخْزِيهِ وَيُذِلُّهُ.

وهذه العبارة قد استُخدمت استخدام نظيرتها السابقة، على سبيل

الْكِنَايَةِ لِلتَّرْهِيْبِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ الشَّدِيدِ وَنَقَمَتِهِ، كَمَا عَاقَبَ الْمَفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ مِنْ قَبْلِهِ.

قول الله عز وجل حكاية لما رد به قارون على نصائح قومه له، وما أبانه الله تبارك وتعالى تعليقاً على مقال قارون:

• ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

لَقَدْ كَانَ رَدُّ قَارُونَ عَلَى النَّاصِحِينَ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ، مُوجَّهًا ضِدَّ قولهم لَهُ: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْآخِرَةَ﴾ فقال لهم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾: أي: لَمْ أَمْلِكْ مَا مَلَكَتُهُ مِنْ أَمْوَالٍ، وَلَمْ أَحْصِلْ عَلَى مَا حَصَلْتُ عَلَيْهِ مِنْ زِينَاتٍ، وَمَا أَتَفَاخَرُ بِهِ وَأَتَبَاهَى بِهِ عَلَى قَوْمِي، بِعَطَاءِ أَغْطَانِيهِ اللَّهُ إِحْسَانًا، بَلْ أُوتِيتُهُ وَحَصَلْتُ عَلَيْهِ ضِمْنَ الْأَنْظِمَةِ السَّبَبِيَّةِ، الَّتِي تَأْتِي ثَمَرَاتُهَا وَنَتَائِجُهَا مَبْنِيَّةً عَلَى أسبابها، وَبِنَاءٍ عَلَى عِلْمِي بِالْأَسْبَابِ، وَاتِّخَاذِي لَهَا اتِّخَاذًا حَكِيمًا، مَلَكَتُ مَا مَلَكَتُهُ، وَحَصَلْتُ عَلَى مَا حَصَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَا تَقُولُوا لِي بِغِبَاءٍ: ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْآخِرَةَ﴾ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ لَا تَعْلَمُونَ أَسْبَابَ اكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا، وَلَا أَسْبَابَ اكْتِسَابِ الْمَجْدِ، وَالْوُصُولِ إِلَى مَرَاتِبِ الرَّفْعَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ.

لَقَدْ انْتَفَخَ الْغُرُورُ فِي صَدْرِهِ وَرَأْسِهِ، حَتَّى طَمَسَ بَصِيرَتَهُ، فَجَعَلَهُ يَجْحَدُ قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدْرَهُ، مُسْتَبْعِداً عَنْ ذَهْنِهِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ مُسَبِّبُ الْأَسْبَابِ بِالْطَّافَةِ وَتَدَابِيرِهِ الْخَفِيَّةِ، وَغَافِلًا عَنْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي آتَاهُ مَا هُوَ فِيهِ، هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَسْلُبَهُ مَا آتَاهُ، أَوْ يُهْلِكَهُ فَيُضْرِفَهُ عَنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَنْ كُلِّ مَا آتَاهُ فِيهَا، وَيَقْذِفَ بِهِ إِلَى عَذَابِ الْجَحِيمِ، جَزَاءً كُفْرِهِ بِرَبِّهِ.

وَجَاءَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ الْحَكِيمُ كَاشِفًا جَهْلَ هَذَا الْمَغْرُورِ بِذِكَائِهِ وَعَلَمِهِ بِالْأَسْبَابِ، إِذْ لَمْ يَغْتَبِرْ بِمَنْ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ،

الَّذِينَ سَلَبَ ذَوَاتِهِمْ مِنْ كُلِّ مَا يَمْلِكُونَ وَكَانُوا قَبْلَ أَنْ يُهْلِكَهُمْ اللَّهُ أَشَدَّ مِنْهُ قُوَّةً وَآكْثَرَ مِنْهُ جَمْعًا.

فقال الله عزَّ وجلَّ في هذا البيان:

• ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَآكْثَرُ جَمْعًا...﴾ (٧٨) !!؟؟.

اسْتَفْهَامُ تَلْوِيمِي تَرْبِيٍّ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ بِمَنْ أَهْلَكَ قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَعَلَى عِلْمٍ بِأَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُ قُوَّةً، وَآكْثَرَ مِنْهُ جَمْعًا لِلْأَمْوَالِ، وَابْتِنَازًا لَهَا.

أي: أَعَاشَ بَعِيداً عَنِ الْحَضَارَةِ وَمَا يَتَحَدَّثُ بِهِ الْإِخْبَارِيُّونَ عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَمَا جَرَى لَهُمْ، وَهُوَ مِنْ أَجْرَاءِ الْقَضْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَمِنْ عَلَيْهِ سُلَالَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟! وَسَبَبِ ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَآكْثَرَ جَمْعًا.

لَكِنَّهُ يَعْلَمُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ وَلَا يَجْهَلُهَا، فَلْيُعِدَّ نَفْسَهُ لِمَصِيرٍ يَكُونُ فِيهِ هَالِكًا مُعَذَّبًا، جَزَاءً لَهُ عَلَى حُجُودِهِ، الَّذِي أَسْقَطَهُ فِيهِ اغْتِرَارُهُ بِنَفْسِهِ وَبِمَا يَمْلِكُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَجَزَاءً لَهُ عَلَى بَغْيِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ وَعُدْوَانِهِ عَلَى قَوْمِهِ.

• ﴿... وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨): أي: وَحِينَ يَقْضِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَهْلَاكِ الْمُجْرِمِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ يُهْلِكُهُمْ وَيُنْهِي وُجُودَهُمْ فِيهَا، دُونَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ وَيُحَاسِبَهُمْ، إِذِ السُّؤَالُ وَالْحِسَابُ وَفَضْلُ الْقَضَاءِ إِنَّمَا يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، قَبْلَ تَنْفِيذِ الْجَزَاءِ.

أَمَّا الْإِهْلَالُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَالْعَرَضُ مِنْهُ إِيقَافُ شُرُورِ أَهْلِ الشَّرِّ، وَتَظْهِيرُ الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ مِنْ دَاءٍ بَشَرِيٍّ وَبَاطِيٍّ، زَادَ عَنْ حَدِّهِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ ابْتِلَاءِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

الْمُجْرِمُونَ: الْمَذْنِبُونَ ذُنُوبًا كُبْرَى مِنْ دَرَكَاتِ الذُّنُوبِ الَّتِي تَجْعَلُ مُرْتَكِبِيهَا مِنَ الْخَالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُصْطَلَحٌ قُرْآنِيٌّ، دَلَّ عَلَيْهِ اسْتِقْرَاءُ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ.

قول الله عز وجل مُتَابِعاً الْحَدِيثَ عَنْ قَارُونَ:

• ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَبِئْتَنَا لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظٌّ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلَحُ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿٨٠﴾:

بَعْدَ أَنْ رَدَّ قَارُونُ عَلَى نُضْحِ أُولَى الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ لَهُ بِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أَرَادَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ رَدًّا عَمَلِيًّا يُبَيِّنُ لَهُمْ فِيهِ تَمَيُّزُهُ عَلَى سَائِرِ قَوْمِهِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، بِمَا يَمْتَلِكُهُ مِنْ أَمْوَالٍ وَقُوَّةٍ وَتَمَكُّنٍ فِي مِصْرَ، يَجْعَلُ جَمْهُورَ قَوْمِهِ يَغْطِطُونَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِثْلُ مَا أُوتِيَ، وَيُعْلِنُونَ أَنَّهُ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ لَمْ يُوْتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِثْلَ مَا أُوتِيَ، وَذَلِكَ بِخُصْرِهِ لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَنُضْرَتِهِ لَهُمْ، وَفِي هَذَا اسْتِدْرَاجٌ لِبَعْضِ قَوْمِهِ أَنْ يَفْتَدُوا بِهِ، عَلَى خِلَافِ مَا عَلَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ، وَيَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ فِرْعَوْنَ وَرِجَالَ قَصْرِه، أَنْ يَخْرُجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ، لِيُطَوِّعَهُمْ لِلْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ.

ولتحقيق هذه الغاية أَعَدَّ لِنَفْسِهِ مَوْكِبًا يَعْظُمُ فِي عُيُونِ جُمْهُورِ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِيَمُرَّ بِهِ فِي أَحْيَاءِ وَطُرُقَاتِ مَسَاكِينِهِمْ، وَيُرِيَهُمْ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ مَجْدٍ وَعِزَّةٍ وَمَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ فِي مِصْرَ.

وكان لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ مَرَائِبُ تَجْرُهَا الْخُيُولُ، فَإِذَا خَرَجُوا مَارِينَ فِي الطَّرِيقَاتِ، حَفَّتْ بِمَرَائِكِهِمُ الْجُنُودُ وَالْحَرَسُ وَالْأَعْلَامُ وَالزِينَاتُ، اسْتِعْلَاءً بِعَظَمَةِ مُلْكِهِمْ، وَاسْتِكْبَاراً بِقُوَّةِ سُلْطَانِهِمْ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ قَارُونَ فَعَلَ شَبِيهَاً بِذَلِكَ، لِيَمُرَّ بِمَوْكِبِهِ فِي أَحْيَاءِ بَنِي

إِسْرَائِيلَ وَطُرُقَاتِ مَسَاكِينِهِمْ ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ ولم يكن قد فعلَ هذا مِنْ قَبْلُ، لِكُنْهٖ أَرَادَ أَنْ يَرُدَّ عَلَى نَاصِحِيهِ، بِحَرَكَةٍ عَمَلِيَّةٍ فِي مَشْهَدٍ يَبْهَرُ بِهِ جُمْهُورَ قَوْمِهِ.

فَلَمَّا مَرَّ فِي أَحْيَاءِ قَوْمِهِ وَطُرُقَاتِ مَسَاكِينِهِمْ، أَدْهَشَ جُمْهُورَ عَامَّةِ قَوْمِهِ، وَسَوَّاهُمْ الْأَعْظَمَ، وَمِنْ الْمُعْتَادِ فِي أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ فِي كُلِّ شَعْبٍ وَفِي جَمَاهِيرِ كُلِّ أُمَّةٍ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِذْ هِيَ الْمَسِيْطَرَةُ عَلَى تَصَوُّرَاتِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ، وَانْدِفَاعاً مَعَ دَهْشَتِهِمْ قَالُوا: ﴿.. يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذَرَّ حَظًّا عَظِيمًا﴾ وَتَحَقَّقَ لِقَارُونَ مَا كَانَ يَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ تَذْيِيرِهِ هَذَا.

عِنْدَئِذٍ أَسْرَعَ أَوَّلُو النَّهْيِ وَالْعِلْمِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقِيَادَةِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لِإِضْلَاحِ الْإِفْسَادِ الْفِكْرِيِّ وَالنَّفْسِيِّ الَّذِي أَخَذَتْهُ هَذَا الْاِسْتِغْرَاضُ الْخَادِعُ فِي السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.
دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَكَاَلَا لَئِذَا أُوتُوا الْعِلْمَ وَتَلَكَّمْتُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْأَصْبَرُونَ﴾ (٨٠):

أي: وَانْطَلَقَ الْفُضَلَاءُ الْعُلَمَاءُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُبَشِّرُونَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فِي جَمَاهِيرِ الْعَامَّةِ الَّذِينَ فُتِنُوا بِالْاِسْتِغْرَاضِ الْفُخْمِ الَّذِي صَنَعَهُ قَارُونُ.

﴿وَتِلْكَ﴾: أي: اخذوا هَلَاكَكُمْ وَعَذَابَكُمْ، مِمَّا فُتِنْتُمْ بِهِ، إِذْ تَمَنَيْتُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مِثْلُ مَا أُوتِيَ قَارُونُ، إِنَّ هَذَا يَجْعَلُكُمْ تَسْتَخْذُونَ فَتَقْلُدُونَهُ فِي طَرِيقَتِهِ، إِذْ جَعَلَ نَفْسَهُ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِ فِرْعَوْنَ، وَكَافِرًا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ مِثْلُهُ، وَخَارِجًا عَنِ دِينِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ، دِينَ اللَّهِ الْحَقِّ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

كَلِمَةُ «وَيْلٌ» كَلِمَةُ عَذَابٍ.

• ﴿تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾: أي: الثواب العظيم الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي اسْتَعْرَضَهُ قَارُونُ، وَخَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَا لَدَى فِرْعَوْنَ وَآلِهِ، وَخَيْرٌ مِنْ كُلِّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَفِيهِمْ هَذَا قِيَاساً عَلَى مَا لَدَى قَارُونِ، مَعَ مَفْهُومَاتِ الْعَقِيدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي كُلِّ رِسَالَاتِ اللَّهِ لِلنَّاسِ.

• ﴿لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾: أي: هذا الثواب العظيم مُعَدُّ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، لِمَنْ آمَنَ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَعَبَّرَ عَنْ صِحَّةِ إِيْمَانِهِ وَصِدْقِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ فِيهِ مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ مِمَّا أَمَرَ بِفِعْلِهِ إِذَا كَانَ فِعْلاً أَوْ أَمَرَ بِتَرْكِهِ إِذَا كَانَ تَرْكاً، وَبِهَؤُذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ يَكْتَسِبُونَ الصِّفَّةَ الْمُؤَهِّلَةَ لِثَوَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿.. وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْأَصْغَرُونَ﴾: أي: وَلَا يَنَالُ هَذِهِ الصِّفَّةَ الْمُؤَهِّلَةَ لِثَوَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ إِلَّا الصَّابِرُونَ.

دَلَّ عَوْدُ الضَّمِيرِ فِي ﴿وَلَا يُلْقِنَهَا﴾ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِينَ دَلَّ عَلَيْهِمَا: «مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً» عَلَى أَنَّهُمَا بِمَثَابَةِ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ شَرْطٌ لِلظَّفَرِ بِثَوَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، إِذِ الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ الصَّادِقُ بِمَا كَلَّفَ اللَّهُ عِبَادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ آثَارٌ فِي السُّلُوكِ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فِيهِ مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُمَا مَعاً بِمَثَابَةِ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ، فَصَحَّ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ عَلَيْهَا بِالْإِفْرَادِ وَالتَّأْنِيثِ، أَخْذاً مِنْ لَازِمِ مَفْهُومِ النَّصِّ.

يُقَالُ لُغَةً: «لَقِيَ الشَّيْءَ وَتَلَقَّاهُ» أَيْ: أَخَذَهُ وَنَالَهُ.

لَكِنَّ تَأَثَّرَ السَّوَادِ الْأَعْظَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَوْكِبِ قَارُونَ قَدْ كَانَ بَالِغَ الْعُنُقِ فِي نَفْسِهِمْ، فَكَانُوا بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى إِفْتِنَاعِ عَمَلِيٍّ يُصَحِّحُ لَدَيْهِمْ مَا أَفْسَدَهُ مَوْكِبُ قَارُونَ الْاسْتِعْرَاضِيِّ الْعَمَلِيِّ، فَخَسَفَ اللَّهُ بِقَارُونَ وَبَدَارِهِ وَالْأَرْضَ.

قال الله عز وجل:

﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٨١)

يُقَالُ لَعَةً: «حَسَفَ اللَّهُ بِقَوْمِ الْأَرْضِ» أَي: جَعَلَهَا تَغُورُ بِهِمْ إِلَى الْأَعْمَاقِ فَيَغِيبُونَ فِيهَا مَقْبُورِينَ هَلَكَى.

أَي: فَأَتْبَعْنَا اسْتِعْرَاضَهُ الْكِيدِيَّ التَّضْلِيلِيَّ، بِمَا يَمْحُو آثَارَهُ فِي نَفُوسِ الْجُمْهُورِ الْأَعْظَمِ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ مَحْوًا كُلِّيًّا، وَبِإِقْنَاعِ عِقَابِي عَمَلِيٍّ، فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ.

• ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: أَي: فَلَمْ تُوَجَدْ لَهُ فِئَةٌ ذَاتُ قُوَّةٍ وَبَأْسٍ فِي مِصْرَ يَنْصُرُونَهُ، فَيَمْنَعُونَ عَنْهُ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ.

«من» فِي: ﴿مِنْ فِئَةٍ﴾ جَاءَتْ مَزِيدَةً لِتَأْكِيدِ عُمُومِ النَّفْيِ وَالتَّنْصِصِ عَلَيْهِ. وَلَمْ يَسْتَطِعْ فِرْعَوْنُ وَالْهُ وَجُنُودُهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ عِقَابَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ، لَقَدْ غَيَّبَتْهُ الْأَرْضُ وَغَيَّبَتْ دَارَهُ وَكَثِيرًا مِنْ كُنُوزِهِ فِي بَاطِنِهَا.

• ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾: أَي: وَمَا اسْتَطَاعَ هُوَ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ مَا نَزَلَ بِهِ، لَقَدْ كَانَ يَسْتَكْبِرُ عَلَى قَوْمِهِ اسْتِكْبَارَ الْمَغْرُورِينَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالٍ وَخُدَّامٍ وَأَعْوَانٍ وَمَظَاهِرِ عِزَّةٍ وَقُوَّةٍ وَاسْتِعْلَاءٍ فِي الْأَرْضِ، فَلَمْ يَنْفَعَهُ اسْتِكْبَارُهُ شَيْئًا، حِينَ أَرَادَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْقَهَّارُ أَنْ يُنْزِلَ بِهِ عِقَابَهُ.

وَدَخَلَ أَوَّلَ نَهَارِ اللَّيْلَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا الْحَسَفُ عَقِبَ مَوْكِبِ الاسْتِعْلَاءِ الاسْتِعْرَاضِيِّ، وَشَاعَ فِي النَّاسِ نَبَأُ الْحَسَفِ الَّذِي غَيَّبَ قَارُونَ وَدَارَهُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ، وَعَادَ الْمَفْتُونُونَ مِنَ الْجُمْهُورِ الْأَعْظَمِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى رُشْدِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، وَحَمِدُوا اللَّهَ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِثْلَهُ، وَأَذْرَكُوا حِكْمَةَ اللَّهِ فِي بَسْطِهِ الرِّزْقَ وَتَضْيِيقِهِ، وَأَنَّ الْبَسْطَ لَيْسَ تَكْرِيمًا، وَأَنَّ التَضْيِيقَ لَيْسَ إِهَانَةً.

قال الله عز وجل:

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاثُرُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

كلمة «وَيَ» مِنْ: ﴿وَيَكَاثُرُ اللَّهُ﴾ وَمِنْ [وَيَكَاثُرُ]: كَلِمَةٌ تَعَجُّبٍ، وهي: اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى: «أَعْجَبَ» أَوْ «نَعَجَبَ» وَقَدْ تَلِيهَا كَافُ الْخِطَابِ.

• ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ...﴾:

• ﴿وَأَصْبَحَ﴾: أَي: وَدَخَلَ فِي صَبَاحٍ لَيْلَةِ الْخَسْفِ بِقَارُونَ.

• ﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾: وَهُمْ الْجُمْهُورُ الْأَعْظَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَفَتَنَتْهُمْ مَظَاهِرُ مُؤَكِّبِ قَارُونَ، فَقَالُوا: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

• ﴿بِالْأَمْسِ﴾: أَي: بِالْيَوْمِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ لَيْلَةِ الْخَسْفِ بِقَارُونَ.

• ﴿يَقُولُونَ﴾: أَي: يَقُولُ أَفْرَادُهُمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: [وَيَكَاثُرُ]: الَّذِي ظَهَرَ لِي، أَنَّ كَلِمَةَ «وَيَ» بِمَعْنَى «أَعْجَبَ» أَوْ «نَعَجَبَ» وَأَنَّ الْكَافَ كَافُ الْخِطَابِ، وَأَنَّ الْجُمْلَةَ بَعْدَهَا تَقْرِيرٌ لِلْحَقِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُمْ وَكَانُوا يَجْهَلُونَهُ أَوْ يَغْفُلُونَ عَنْهُ، فَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْ نُفُوسِهِمْ كَيْفَ خَفِيَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى رَأَوْا بُرْهَانَهُ، أَمْرًا وَاقِعًا مَشْهُودًا، بِقَضَاءِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ.

فَالْمَعْنَى: اسْمَعْ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ تَعَجُّبِي مِنْ نَفْسِي كَيْفَ كُنْتُ جَاهِلًا أَوْ غَافِلًا، عَنْ حَقِيقَةِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ (أَي: وَيُضَيِّقُ الرِّزْقَ) عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لِحَكْمٍ هُوَ يَعْلَمُهَا، وَلَيْسَ الْبَسْطُ تَكْرِيمًا وَلَا التَّضْيِيقُ إِهَانَةً، وَلَيْسَ أَمْرُ الْبَسْطِ

والتَّضْيِيقِ رَاجِعاً إِلَىٰ عِلْمِ الْعِبَادِ أَوْ جَهْلِهِمْ بِاتِّخَاتَابِ الْأَرْزَاقِ، بَلِ الْأَمْرُ خَاضِعٌ لِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ.

وجاء في نصوصٍ أخرى بَيَانُ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ بَسْطِ الرِّزْقِ لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَتَضْيِيقِهِ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ، أَنَّ يَبْلُغُوا اللَّهَ عِزًّا وَجَلًّا كَلَّا فِيمَا آتَاهُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾: أي: لَوْلَا أَن أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلَمْ يُؤْتِنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ، بَلْ أَبْعَدْنَا وَحَمَانَا مِنْ بَسْطِ الرِّزْقِ الْمُطْغِي والمُوصِلِ إِلَىٰ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ قَارُونَ، مِنْ طُغْيَانٍ وَبَغْيٍ وَخَسْفٍ عِقَاباً لَهُ وَعِبْرَةً لِّمَنْ يَعْتَبِرُ.

﴿وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾: هذه العبارة نظيرة سابقتها، والمعنى: اسْمَعْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ تَعَجُّبِي مِنْ نَفْسِي كَيْفَ كُنْتُ جَاهِلًا أَوْ غَافِلًا عَنْ حَقِيقَةِ أَنَّ الشَّأْنَ الْعَظِيمَ مِنْ مَقَادِيرِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ وَسُنَنِهِ فِي عِبَادِهِ، عَدَمُ فَلَاحِ الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ يَتَمَرَّدُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَيَجْحَدُونَ نِعْمَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ أَن يُؤْمِنُوا بِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

الفَلَاَح: الظَّفَرُ بالمراد، والفَوْزُ بِجَنَاتِ النِّعَمِ يوم الدين.

وبهذا انتهى تدبُّر الدَّرْسِ الخامس من دُرُوسِ سُورَةِ (القصص) والحمدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.



(٩)

التدبر التحليلي للدَّرْسِ السادس من دُرُوسِ سورة (القصص)

الآيتان: (٨٣ - ٨٤)

قال اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا

وَالْعَقِيبَةُ لِلْمُنَاقِبِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

تمهيد:

اِفْتَضَتْ الْحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّةُ التَّعْقِيبَ عَلَى قِصَّةِ فِرْعَوْنَ وَمَلَيْهِ الَّذِينَ أَرَادُوا الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ، فَاَنْزَلَقُوا إِلَى كُفْرٍ وَجَرَائِمٍ حَرَمَتْهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، وَجَعَلَتْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعَذَابِ خَالِدِينَ فِي الْجَحِيمِ، يَذُوقُونَ عَذَابَ الْحَرِيقِ. وَالتَّعْقِيبُ عَلَى قِصَّةِ قَارُونَ الَّذِي أَرَادَ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ، فَاَنْزَلَقَ إِلَى مِثْلِ مَا أَنْزَلَقَ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلُؤُهُ.

وَالْعَرَضُ مِنْ هَذَا التَّعْقِيبِ، بَيَانُ أَنَّ إِرَادَةَ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، إِذَا اتَّجَهَتْ فِي الْإِنْسَانِ اتِّجَاهًا جَازِمًا مُسَيِّطِرًا عَلَى مَشَاعِرِهِ وَتَصَوُّرَاتِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَنْظُمَسَ بِصِيرَتِهِ، وَمَتَّى انْظَمَسَتْ بِصِيرَتِهِ انْزَلَقَ إِلَى جِهَةِ الْحَضِيضِ فِي أَفْكَارِهِ وَمَقْهُومَاتِهِ، وَفِي حَرَكَاتِ نَفْسِهِ وَسَكَنَاتِهَا، وَفِي أَخْلَاقِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ، وَفِي سُلُوكِهِ دَاخِلَ الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ، آثِمًا ظَالِمًا مُعْتَدِيًا جَبَّارًا مُفْسِدًا، وَرُبَّمَا زَادَ فِي انْزِلَاقِهِ حَتَّى بَلَغَ حَضِيضَ الْكُفْرِ بِرَبِّهِ وَبِمَطَالِبِهِ مِنْ عِبَادِهِ، فِي رَحَلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَحَلَةَ الْإِمْتِحَانِ وَالْإِبْتِلَاءِ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَخْسَرَ مِنْ سَعَادَةِ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا عَلَى مَقْدَارِ انْزِلَاقِهِ هَابِطًا فِي اتِّجَاهِ الْحَضِيضِ، ثُمَّ يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعَذَابِ فِي جَهَنَّمَ عَلَى مَقْدَارِ هُبُوطِهِ فِي ارْتِكَابِ كَبَائِرِ الْإِثْمِ، وَالْجَرَائِمِ الْفِكْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ حَضِيضَ الْكُفْرِ كَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

وَاسْتَدْعَى هَذَا الْبَيَانُ ذِكْرَ الْخُطَّةِ الْكُلِّيَّةِ الْعَامَّةِ لِلْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدِّينِ، وَبَيَانُ أَنَّ الْجَزَاءَ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْعِقَابِ الْمَعْجَلِّ كَمَا حَصَلَ لِفِرْعَوْنَ وَقَارُونَ، مِنْ إِغْرَاقٍ وَخَسْفٍ، بَلِ الْجَزَاءُ الْأَسَاسُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، وَمَا جَرَى فِي الدُّنْيَا لِلْمُهْلِكِينَ هُوَ مِنَ التَّذْهِيرَاتِ الْعَاجِلَاتِ،

لإصلاح أوضاع في المجتمع البشري، وَلَيَرَى النَّاسُ أَمْثِلَةً مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَغْتَبِرَ بِهَا الْمُعْتَبِرُونَ أَوَّلُوا الْأَلْبَابَ.

التدبر التحليلي :

قول الله عز وجل:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) :

جاء في القرآن لفظ «الدار الآخرة» ولفظ «دَارِ الْآخِرَةِ» ثمانى مرّات، والمراد بكلّ واحدٍ منها «الجَنَّةُ» وهذا من التخصيصات القرآنيّة في العبارات، فصارت العبارة بمثابة عَلمٍ على الجنة.

وجاء في الآية اسْتِعْمَالُ اسمِ الإشارة الموضوع للمشار إِلَيْهَا الْبَعِيدَةِ البعيد «تِلْكَ» لأمرين: بُعْدُ مكانِهَا عَنِ الْمُخَاطَبِ، وَبُعْدُ مَكَانَتِهَا وَارْتِفَاعُ مَنْزِلَتِهَا، بما جعلَ اللَّهُ فيها مِنْ نعيمٍ عظيمٍ، وَمِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

وجاء الخطاب في الآية لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْمُخَاطَبِ بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِيِّ، فَكَأَنَّ اللَّهَ يُخَاطَبُ عِبَادَهُ فَرْدًا فَرْدًا.

﴿نَجْعَلُهَا﴾: أي: مُسْتَقْبَلًا فِي الْوَقَاعِ التَّنْفِيزِيِّ، بَعْدَ الْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ يَوْمَ الدِّينِ.

• ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾:

إِنَّ إِرَادَةَ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، بِمَعْنَى الْاسْتِكْبَارِ، وَالتَّعَاضُفِ، لِتَحْقِيقِ حُظُوظِ النُّفُوسِ مِنَ الدُّنْيَا، وَالتَّفَاخُرِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ بِهَا، لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِ الْمُتَّقِينَ، فَضْلًا عَنِ الْأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ.

إِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُتَّقِينَ التَّوَاضُّعُ لِلَّهِ، وَعَدَمُ إِرَادَةِ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ لِتَحْقِيقِ حُظُوظِ النُّفُوسِ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِنْ رُفِعَتْ شِعَارَاتُ إِرَادَةِ نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ

والمُسْلِمِينَ، وإِقَامَةَ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ، فَمَنْ كَانَ مَطْلَبُهُ تَحْقِيقَ الْعُلُوفِ فِي الْأَرْضِ لِلْوُصُولِ إِلَى حُظُوظِ نَفْسِهِ، سَقَطَ عِنْدَ امْتِحَانِهِ بِالْوُصُولِ إِلَى مَغْنَمٍ كَبِيرٍ مِمَّا يُحِبُّ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَالإِطْمَاعِ بِمَالٍ وَفِيرٍ، أَوْ مَنْصِبٍ خَطِيرٍ، أَوْ مَرْكَزٍ اجْتِمَاعِيٍّ رَافِعٍ، أَوْ ثَنَاءٍ عَظِيمٍ ذَائِعٍ، وَتَمَزَّقَتِ الشَّعَارَاتُ السَّابِقَاتُ، وَاشْتَدَّتْ بِسَنَفِهَا إِلَى الْقِمَامَاتِ رِيَا حُ الْوَاقِعِ.

وإِرَادَةُ الْعُلُوفِ فِي الْأَرْضِ لِتَحْقِيقِ حُظُوظِ النَّفْسِ، لَا بُدَّ أَنْ تَجُرَّ صَاحِبَهَا إِلَى إِرَادَةِ الْفُسَادِ، لِتَحْقِيقِ الْمَرَادِ، فَحُظُوظُ نَفُوسِ الْأَفْرَادِ مِنَ الدُّنْيَا لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالْفُسَادِ.

أَمَّا طَلَبُ الْإِمَارَةِ، أَوْ الْوُظَيْفَةِ الْإِدَارِيَّةِ، أَوْ الْوُظَيْفَةِ الدِّينِيَّةِ، أَوْ الرِّضَا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، لِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَرَفْعِ الظُّلْمِ، وَلِإِقَامَةِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ، وَنَشْرِ دِينِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، وَالِدَّعْوَةَ إِلَيْهِ، وَتَبْلِيغَ بَيَانَاتِهِ لِلنَّاسِ، مَعَ الصَّدَقِ فِي كُلِّ ذَلِكَ، فَلَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ إِرَادَةِ الْعُلُوفِ فِي الْأَرْضِ، بَلْ لَهُ عُنْوَانٌ آخَرُ يَدْخُلُ فِي عُمُومِهِ هُوَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الْمُتَّقِينَ لَا يُرِيدُونَ الْعُلُوفَ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّ إِرَادَةَ الْعُلُوفِ فِي الْأَرْضِ لَا تَكُونُ إِلَّا مَدْفُوعَةً بِعَوَامِلِ الْكِبَرِ، وَرَغَبَاتِ تَحْقِيقِ حُظُوظِ النَّفْسِ مِنَ الدُّنْيَا، وَقَلَمَا يَسْلَمُ طَالِبُ مَرَاتِبِ الدُّنْيَا مِنْ دَاءِ حُبِّ الْعُلُوفِ فِي الْأَرْضِ، لِتَحْقِيقِ حُظُوظِ النَّفْسِ مِنَ الدُّنْيَا، وَلِهَذَا كَانَ يَتَهَرَّبُ مِنْهَا طُلَّابُ الْآخِرَةِ.

• ﴿...وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ كَلِمَةُ [الْعَاقِبَةُ] مُعَرَّفَةً بِ(ال) الَّتِي تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ مَا عَرَّفَتْهُ أَرْبَعُ مَرَّاتٍ، وَالْمَرَادُ بِهَا فِي كُلِّ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ.

الْمُتَّقُونَ: هُمُ الَّذِينَ يَقُونَ نَفُوسَهُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، بِإِيمَانٍ صَحِيحٍ صَادِقٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ فِيهِ مَرْضَاةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يُعْبَرُونَ بِهِ عَنْ صَدَقِ إِيْمَانِهِمْ، ثُمَّ يَرْتَقُونَ فِي دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَى، وَقَدْ يَرْتَقُونَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْبِرِّ فَمَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ.

• ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٤﴾:

جاء في هذه الآية بيان القاعدة الكلية العامة للجزاء الرباني يوم الدين، وهذه القاعدة تشتمل على مادتين:

المادة الأولى: دلت عليها عبارة: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾: أي: مَنْ أَتَى رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْحَسَنَةِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَهُ تَعَالَى، مُسَجَّلَةً فِي كِتَابِ أَعْمَالِهِ الَّذِي لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، فَلَهُ عِنْدَ رَبِّهِ خَيْرٌ مِنْهَا ثَوَاباً عَلَيْهَا وَجِزَاءً حَسَنًا، وثبت في نصوص أخرى أَنَّ أَذْنَى ثَوَابِهِ عَلَى الْحَسَنَةِ عَشْرَةٌ أَضْعَافُهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، وَفِيهِمْ كَوْنُ هَذَا جِزَاءً، مِنَ الْجِزَاءِ الْمَصْرُوحِ بِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ.

والمُرَادُ بِالْحَسَنَةِ مَا يَكْسِبُهُ الْإِنْسَانُ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبِّهِ، مِنْ حَرَكَةٍ نَفْسِيَّةٍ أَوْ فِكْرِيَّةٍ أَوْ جَسَدِيَّةٍ، يُقَدِّمُ بِهَا طَاعَةً لِرَبِّهِ مِنْ ذَاتِهِ أَوْ مِمَّا يَمْلِكُهُ أَوْ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ، وَلَوْ خَاطِرَةً فِيهَا نَفْعٌ وَخَيْرٌ يُقَدِّمُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَطَاعَةً لَهُ، أَوْ نِيَّةً قَلْبِيَّةً مِنْ وَرَاءِ إِرَادَةِ كَسْبِ صَالِحٍ ظَاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ عَمَلُهُ أَوْ قَامَ مَانِعٌ مِنْ عَمَلِهِ لَمْ تُنْقَضْ بِهِ إِرَادَتُهُ.

وكلُّ مَكْسُوبٍ إِرَادِيٍّ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَطْلُوبَاتِ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِخْلَةٍ امْتِحَانِيَّتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إلْزَامًا أَوْ تَرْغِيًا وَنَذْبًا، وَيُطْلَقُ عَلَيْهِ عُنْوَانُ «الْحَسَنَةِ» كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا، ظَاهِرًا أَوْ خَفِيًّا، وَلَوْ كَانَ فِي صِغَرِهِ وَخَفَائِهِ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ.

يُقَالُ لُغَةً: «جَاءَ بِكَذَا» أَي: أَتَى بِهِ، وَيُفْهَمُ مِنَ الْقَرَائِنِ بَوْضُوحُ أَنَّهُ أَتَى بِالْمَكْسُوبَةِ الْحَسَنَةِ إِلَى رَبِّهِ فِي كِتَابِ أَعْمَالِهِ يَوْمَ الدِّينِ.

لفظ «الْحَسَنَةِ» مؤنث لفظ «الحسن» وهو الشيء الجميل، وَلَا يَأْمُرُ اللَّهُ وَلَا يُرْعَبُ إِلَّا بِالْجَمِيلِ، وَعَلَى التَّقْيِضِ تَمَامًا مَا يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطَانُ أَوْ يُرْعَبُ فِيهِ.

المادة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤):

كَانَ مِنَ الْمَبَادِرِ أَنْ يُقَالَ: وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَهُ مِثْلُهَا. فَمَا الْحِكْمَةُ مِمَّا عُدِلَ إِلَيْهِ مِمَّا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ إِظْنَابٌ.

أقول: دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ الْمَخْتَارَةُ فِي النَّصِّ عَلَى عِدَّةِ قَضَايَا:

الأولى: نَفْيُ الزِّيَادَةِ عَلَى الْمِثْلِ بِأَسْلُوبِ الْحَضَرِ وَالْقَصْرِ، عَنْ طَرِيقِ النَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ.

الثانية: الْإِشْعَارُ بِاخْتِمَالِ الْغُفْرَانِ وَالْعَفْوِ، لِأَنَّ نَفْيَ الزِّيَادَةِ عَلَى الْمِثْلِ، لَا يَدُلُّ عَلَى الْجَزَاءِ بِالْمِثْلِ حَتْمًا، بَلْ إِذَا حَصَلَ الْجَزَاءُ فَلَا تَكُونُ فِيهِ زِيَادَةٌ عَلَى الْمِثْلِ، وَقَدْ يَحْصُلُ الْغُفْرَانُ وَالْعَفْوُ.

الثالثة: اسْتِعْمَالُ عِبَارَةٍ: ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تَدُلُّ عَلَى الْمَطَابَقَةِ التَّامَّةِ بَيْنَ السَّيِّئَةِ وَجَزَائِهَا، حَتَّى يُقَالَ فِي الْجَزَاءِ هُوَ عَيْنُ الْعَمَلِ لِشِدَّةِ الْمَطَابَقَةِ بَيْنَهُمَا، بِخِلَافِ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ «مِثْلٍ» أَوْ نَحْوِهَا، فَإِنَّهَا تَحْتَمِلُ الزِّيَادَةَ وَلَوْ قَلِيلًا كَمَا تَحْتَمِلُ النُّقْصَانُ فِي فَهْمِ النَّاسِ لِمَعْنَى الْمِمَّاثَلَةِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، لَكِنَّ الْجَزَاءَ الرَّبَّانِيَّ عَلَى السَّيِّئَةِ إِذَا حَصَلَ فَهُوَ لَا يَزِيدُ عَلَى الْمَطَابَقَةِ حَتْمًا.

الرابعة: التَّنْصِيفُ بِعِبَارَةٍ كُلِّيَّةٍ عَامَّةٍ، عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ، لَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَلَا يُزَادُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وهذه القضايا الأربع لا تُسْتَفَادُ مِنْ عِبَارَةٍ: وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَهُ مِثْلُهَا.

وجاء في القرآن بشأن الجزاء على السيئة ما يلي:

(١) ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ (١٦١) الأنعام.

أي: فلا يُجْزَى إذا جُوزِي جزاء كاملاً إلا مثلاً.

(٢) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا...﴾ (٧) يونس.

أي: إن جُوزوا جزاء كاملاً فجزاء سيئة بمثلها.

(٣) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ﴿٤٦﴾ غافر.

أي: فلا يُجْزَى إذا جُوزِي جزاء كاملاً إلا مثلاً.

فدلت جملة النصوص على حقيقة واحدة جاء تفصيلها في آية سورة

(القصص).

وبهذا انتهى تدبر الدرس السادس من دروس سورة (القصص).

والحمد لله على فتحه ومدده ومعونته وتوفيقه.



(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (القصص)

الآيات من (٨٥ - ٨٨) آخر السورة

قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٨﴾

القراءات:

(٨٥) • قرأ نافع، وأبْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [رَبِّي أَعْلَمُ]

بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القراء العشرة بإسكانها.

(٨٨) • قرأ يعقوب: [تُرْجَعُونَ] ببناء الفعل للمعلوم. وقرأها باقي

القراء العشرة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ ببناء الفعل لما لم يُسم فاعله.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

تمهيد:

الآية (٨٥) من هذا الدرس نزلت في الجحفة^(١) أثناء هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

ويشتمل هذا الدرس على بُشْرَى للرسول ﷺ بالعودة إلى مكة فاتحاً، وفيه وصايا تربوية للرسول، وهذه الوصايا موجهة تبعاً للدعاة إلى الله عز وجل من أمته، في مسيراتهم الدعوية.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥):

في هذه الآية التي نزلت على الرسول ﷺ في الجحفة أثناء هجرته إلى المدينة، بُشْرَى لَهُ بأن الله سيردّه إلى مكة، على رغم أنوف الذين أخرجوه فأخرجوه منها مهاجراً إلى المدينة.

• ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾: أي: إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ تَبْلِيغَ الْقُرْآنِ الَّذِي يُنَزَّلُ عَلَيْكَ، فَقُمْتَ بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنَ التَّبْلِيغِ، فَكَانَ قِيَامُكَ بِهَذَا الْوَاجِبِ سَبَباً فِي إِخْرَاجِكَ وَإِخْرَاجِكَ مِنَ الْبَلَدَةِ الْحَبِيبَةِ إِلَى قَلْبِكَ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ، مُهَاجِراً مِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ.

• ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: أي: لَمُرْجِعُكَ إِلَى مَكَانٍ عَوْدٍ فِيهَا مُسْتَقْبَلاً، وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ، وَيَتَضَمَّنُ بِالتَّبَعِ وَعْداً لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْهَا.

«رَادَّ» اسم فاعل، يُسْتَعْمَلُ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ كَالْفِعْلِ الْمَضَارِعِ،

(١) الجحفة: كانت ميقات أهل الشام ومصر، وهي الآن دَارِسَة، ومكانها قريب من قرية «رايغ» على الطريق بين مكة والمدينة.

وهنا مُسْتَعْمَل في الاستقبال لَأَنَّهُ أَمْرٌ مَوْعُودٌ بِهِ عِنْدَ نَزُولِ النَّصِّ، وَلَمْ يَتَحَقَّقْ إِلَّا بَعْدَ سِنِينَ، وَالرَّدُّ هُوَ الْإِرْجَاعُ وَالْإِعَادَةُ.

«مَعَاد»: اسْمٌ صَالِحٌ لِأَنَّهُ يَكُونُ اسْمَ مَكَانٍ وَاسْمَ زَمَانٍ، وَلَكِنَّ الرَّدَّ يَقْتَضِي هُنَا أَنَّ يَكُونُ اسْمَ مَكَانٍ، وَالْمَكَانُ الْمَوْعُودُ بِالرَّدِّ إِلَيْهِ هُوَ مَكَّةُ الْمَكْرَمَةُ حَفْظُهَا اللَّهُ وَحَرَسَهَا وَزَادَهَا تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً.

وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الَّذِي وَعَدَ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ فَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ، بَعْدَ عَامٍ صَلَحَ الْحُدَيْبِيَّةَ، وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ فَاتِحاً مُنْتَصِراً عَامَ الْفَتْحِ، بِجَيْشٍ لَا قِبَلَ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَمُقَاتِلِيهَا. بِمُؤَاجَهَتِهِ وَصَدَّهُ.

وَقَبْلَ دُخُولِ الرَّسُولِ وَمَعَهُ قُرَابَةُ الْفَتَنِ، لِأَدَاءِ الْعُمْرَةِ الَّتِي عُرِفَتْ بِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ، بِأَكْثَرِ مِنْ سَنَةٍ وَقَبْلَ صَلَحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، أَرَى اللَّهُ رَسُولَهُ رُؤْيَا حَقًّا، فِيهَا وَعْدٌ بِأَنَّهُ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَمَعَهُ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُعْتَمِرًا، دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ [الْفَتْحِ/٤٨] مَصْحَفٍ/ (١١١ نزول): ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾.

قوله الله تعالى:

﴿... قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝﴾ (٨٥):
لَمَّا كَانَ خُرُوجُ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا قَدْ يَجْعَلُ فِي نَفْسِ الْمُتَعَجِّلِينَ أَصْحَابِ النَّظَرِ الْقَصِيرِ، الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ سُنَنَ اللَّهِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ، شُعُورًا بِانْتِصَارِ مُشْرِكِي مَكَّةَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، الْأَمْرِ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَتْرَكُونَ بِلَدِهِمْ وَيُهَاجِرُونَ مِنْهَا خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِمْ مِنْ قُوَى أَيْمَةِ الشُّرْكِ فِي مَكَّةَ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُعْلَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولُهُ مَا يَقُولُهُ لِمَنْ يَرَى أَنَّ لَدَيْهِمْ تَصَوُّرَاتٍ بِاحْتِمَالٍ أَنْ يَكُونَ

مُشْرِكُو مَكَّةَ عَلَى حَقٍّ، وَلِهَذَا نَصَرَهُمُ اللَّهُ فَأَخْرَجُوا مُحَمَّدًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ فِي مَكَّةَ، وَالْجَوُوهُمْ إِلْجَاءٌ إِلَى أَنْ يُهَاجِرُوا مِنْهَا، وَتَوَقَّعَتْ نَظَرَاتُ هَؤُلَاءِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، وَلَمْ يَضَعُوا فِي حُسْبَانِهِمْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْهَجْرَةُ سَبَبًا فِي إِعْدَادِ قَوِيٍّ قِتَالِيَّةٍ يَنْصُرُ اللَّهَ بِهَا رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ الْمَعَانِدِينَ فِي مَعَارِكِ قِتَالِيَّةٍ، وَأَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْ إِعْدَادِ جَيْشٍ مُقَاتِلٍ يَفْتَحُ اللَّهُ بِهِ مَكَّةَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَنْتَهِي الشُّرْكُ وَالْمُشْرِكُونَ فِيهَا.

وقد جاء في هذا التعليم الربَّانيِّ للرَّسُولِ ﷺ، أَنْ يَقُولَ: رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنَ اللَّهِ، وَبَلَّغَهُ لِلنَّاسِ فَعَادَاهُ الْمُضِلُّونَ، وَمَنْ هُوَ مُوْغِلٌ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، بَعِيداً عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ وَصِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، أَي: وَبِمَا أَنَّ اللَّهَ رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ بِهِذَا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْصُرَ مُسْتَقْبَلًا مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى نَصْرًا حَقِيقِيًّا مُؤَزَّرًا وَنِهَائِيًّا عَلَى مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، أَمَّا الصَّرَاعَاتُ الْمَرْحَلِيَّةُ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ فَهِيَ سَجَالٌ مُتَدَاوِلَةٌ الْعَلَبَةِ وَالْهَزِيمَةِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، بِمُقْتَضَى سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ، لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيُمَحِّصَ^(١) مَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

هَذَا يُفْهَمُ عَنْ طَرِيقِ اللَّزُومِ الْفِكْرِيِّ، لِأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، فَهُوَ بِحُكْمَتِهِ وَبِوَعْدِهِ الْكَرِيمِ، لَا بُدَّ أَنْ يَنْصُرَ فِي آخِرِ مَرَاحِلِ الصَّرَاعِ مَنْ جَاءَ بِالْحَقِّ، عَلَى مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

فَالْعِبَارَةُ كُنَايَةً عَنْ هَذَا الْمَعْنَى، الَّذِي فَهِمَ عَنْ طَرِيقِ اللَّزُومِ الْكُفْرِيِّ.

وَتَقْدِيرُ الْعِبَارَةِ: قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ، يَغْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى، وَيَغْلَمُ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَهُوَ بِحُكْمَتِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَنْصُرَ فِي

(١) وَلِيُمَحِّصَ: أَي: وَلِيَنْتَجِنَ.

آخِرِ مَرَاكِجِ الصُّرَاعِ مِنْ جَاءِ بِالْهُدَى عَلَى مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ^(١).

قول الله عز وجل خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٦﴾:

• ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو﴾: وَمَا كُنْتَ تَتَوَقَّعُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكَ الْوَحْيُ وَيَتْلُو عَلَيْكَ آيَاتِ رَبِّكَ.

أصلُ معنى «الرجاء» مُطْلَقُ التَّوَقُّعِ لِلْمَرْغُوبِ فِيهِ، أَوِ الْمَخَوْفِ مِنْهُ.

• ﴿أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾: أي: وَمَا كُنْتَ تَتَوَقَّعُ أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْقُرْآنُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، فَلَمْ يَكُنْ لَكَ كَسْبٌ مَا فِي ذَلِكَ، بَلِ اضْطَفَاكَ رَبُّكَ نَبِيًّا، وَاضْطَفَاكَ رَسُولًا، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكَ آيَاتِ كِتَابِهِ لِيُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ، دُونَ تَوَقُّعِ سَابِقِ مَنْكَ لِهَذَا.

• ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾: أي: لَمْ يُلْقَ إِلَيْكَ الْقُرْآنُ إِلَّا إِنْقَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ لَكَ وَلِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

رَحْمَةُ اللَّهِ: صفة من صفاته الجليلة، وهي صفةٌ نفسيةٌ لله عز وجل نُشِبَتْهَا لَهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَمِنْ آثَارِهَا الْعَطَاءُ، وَالْمَعُونَةُ، وَالتَّوْفِيقُ، وَإِزَالَةُ الْبُؤْسِ، وَالْإِمْدَادُ بِمَا يَسُرُّ وَيُسْكِنُ النَّفْسَ، وَيُطْمِئِنُّ الْقَلْبُ، وَمِنْ آثَارِهَا إِنْزَالُ مَا يَهْدِي وَيُرْشِدُ إِلَى مَا يَجْلِبُ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنْزَالُ الْكِتَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ بَعْدَ إِدِهِ.

• ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٦﴾: أي: فَلَا تَتَأَثَّرْ بِمَا يَنْشُرُهُ أَوْ

(١) أفعِل التفضيل لَا يَنْصِبُ المفعول به عند النحاة، فتقدير عامِلٍ مَحْدُوفٍ لفظاً ملاحظ ذهنًا أَمْرٌ تقتضيه العبارة. ولولا قرار النحويين هذا لآثرتُ أَنْ تكون كلمة «مَنْ» مفعولاً به لَا فعل التفضيل «أَعْلَمَ» إذ لَا أرى مانعاً مِنْ أَنْ تقول مثلاً: فلانٌ أَشْرَبُ الناسِ ماءً، والمنشار أَقْطَعُ الأدوات أشجار الغابة.

يُوسُوسُ بِهِ الْمَضِلُّونَ، وَيُرَدِّدُهُ الْجَاهِلُونَ وَقَصِيرُو النَّظَرِ الَّذِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ رَبَّكَ تَخَلَّى عَنْ نَصْرَتِكَ، إِذْ مَكَنَ أَيْمَةُ الشُّرْكِ وَالْكُفْرِ فِي مَكَّةَ مِنْ اضْطِهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَاتَّبَعُوكَ، وَإِذْ مَكَّنَهُمْ مِنْ إِيْذَانِكَ بِاتِّهَامَاتِهِمُ الْكَاذِبَاتِ الظَّالِمَاتِ، كَاتِهَامِهِمْ لَكَ بِأَنَّكَ سَاحِرٌ، أَوْ شَاعِرٌ، أَوْ تَفْتَرِي عَلَى رَبِّكَ فَتَنْسُبُ إِلَيْهِ الْآيَاتِ وَالسُّورَ الَّتِي تَتْلُوها عَلَيْهِمْ.

إِنَّكَ إِذَا تَأَثَّرْتَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَضَعُفَ يَقِينُكَ بِأَنَّ رَبَّكَ سَيَنْصُرُكَ حَتْمًا فِي نَهَايَةِ مَرَاحِلِ الصَّرَاحِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ؛ بِحَسَبِ سُنَنِ اللَّهِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ، فَإِنَّكَ تَكُونُ بِهَذَا التَّأَثُّرِ ظَهِيرًا مُعِينًا لِلْكَافِرِينَ عَلَى نَفْسِكَ. الظَّهِيرُ: المعين.

لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَتَأَثَّرُ بِهَذِهِ الْعَوَارِضِ الْمَشْوِشَةِ، بَيِّنًا أَنَّ الْخِطَابَ مُوجَّهَ لَهُ وَالْمَقْصُودُ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ، وَلَا سِيَمَا الَّذِينَ لَا خِبْرَةَ لَهُمْ بِسُنَنِ اللَّهِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ. وَمِنَ التَّأَثُّرِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ضَعْفُهُ أَوْ تَهَاوُنُهُ فِي مُتَابَعَةِ تَبْلِيغِهِ آيَاتِ اللَّهِ، أَوْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى رَبِّهِ، أَوْ تَسَلُّلُ بَعْضِ مَفَاهِيمِ الشُّرْكِ السَّبَبِيِّ إِلَى نَفْسِهِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

قول الله عز وجل خطاباً لرسوله ﷺ:

• ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ وفي القراءة الأخرى: [تُرْجَعُونَ].

وفي هاتين الآيتين بيان أربع وصايا، يتبّعها بيان أربع قضايا، وهي موجهة للرسول ﷺ باعتبارها أول مخاطب ببيان الله لعباده، ويلحق به سائر الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، ولا سيما أئمة المتقين،

حَامِلُوا رِسَالَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالنُّصْحَ وَالْإِزْشَادَ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهِيَ بِمَثَابَةِ تَفْصِيلِ إِيْمَانِيَّ لِعِبَارَةِ. [فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا
لِلْكَافِرِينَ].

الْوَصِيَّةُ الْأُولَى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ
اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾: أَي: وَلَا تَتَأَثَّرُ بِمَكَائِدِ الْكَافِرِينَ الضَّدِّيَّةِ، وَتَأْخُرِ
نَضْرَ رَبِّكَ لَكَ الَّذِي تَأْتِي مَقَادِيرُهُ عَلَى وَفْقِ حُكْمَتِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ صَادًّا لَكَ
عَنْ مُتَابَعَةِ تَبْلِيغِ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ وَقْتِ إِنْزَالِهَا إِلَيْكَ، بَلْ بَلَّغْهَا بِعَزِيمَةٍ قَوِيَّةٍ
عَقِبَ إِنْزَالِهَا.

• ﴿وَلَا يَصُدُّكَ﴾: أَي: وَلَا يَصْرِفُكَ، الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى الْكَافِرِينَ
فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ (٨٦).

يَقَالُ لُغَةً: «صَدَّهُ، يَصُدُّهُ، صَدًّا، وَصُدُودًا» أَي: صَرَفَهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ،
أَوْ مَنَعَهُ عَنْ مُتَابَعَةِ مَا هُوَ فِيهِ.

• ﴿عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾: أَي: عَنْ تَبْلِيغِ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ وَظِيفَتُكَ
الْأُولَى فِي رِسَالَتِكَ، أَوْ عَنْ الْعَمَلِ بِهَا، وَهُوَ الْوُظُفَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ وَظَائِفِ
رِسَالَتِكَ، إِذْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَسْوَةً حَسَنَةً، لِعِبَادِ اللَّهِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ.

• ﴿بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾: أَي: بَعْدَ وَقْتِ إِنْزَالِهَا إِلَيْكَ دُونَ تَهَاوُنٍ
أَوْ تَبَاطُؤٍ أَوْ تَقْصِيرٍ.

«إِذْ» ظَرْفُ زَمَانٍ لِحَدِيثٍ مَضَى. وَهُوَ مُضَافٌ لَجُمْلَةٍ: «أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ».

الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾:
أَي: وَادْعُ إِلَى الْإِيْمَانِ بِرَبِّكَ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَادْعُ إِلَى الْإِيْمَانِ
بِالَّذِينَ الَّذِينَ كَلَّفَكَ أَنْ تُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ، وَادْعُ إِلَى سُلُوكِ صِرَاطِ رَبِّكَ
الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِي يُنْزِلُ مَعَالِمَهُ وَحُدُودَهُ.

هذه الدعوة التي أمر الله رسوله بها، فيها تكليف له أن يشرح ويبين ويفصل للناس على مقادير أفهامهم قضايا دينهم، وهذه تكاليف زائدة على تبليغ ما ينزل الله عز وجل إليه من آيات كتابه، الأمر الذي جاء في الوصية الأولى.

الوصية الثالثة: دلّ عليها قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: في توجيه مثل هذا النهي عن الشرك للرسول المجتنب ﷺ عده أغراض:

(١) إغلام الكافرين بأن الرسول الذي اجتباه الله جلّ جلاله لتبليغ رسالته، أول الذين ينهاهم الله عن الشرك مهما كان شركاً خفياً، ومنه تصوّر أن للأسباب تأثيراً دون تدخل خلق الله لما ينتج عنها.

(٢) تحذير المؤمنين أتباع الرسول ولا سيما الدعاة منهم، من الشرك مهما كان خفياً، إذ هم مشمولون بالوصايا الموجهة للرسول ﷺ تبعاً له.

(٣) التأكيد على ربط فروع الدين بأصوله، كلما اقتضت الحكمة البيانية ذلك ومعلوم أن توحيد الله في ربوبيته وفي إلهيته والتحذير الشديد من الشرك، من الأركان الأولى في العقيدة الإيمانية في دين الله لعباده، والحكمة الدعوية تقتضي تأصيل هذا الركن عند كل مناسبة يحسن فيها تأكيده، ولو كان الخطاب موجهاً بوصايا للرسول ﷺ المعصوم حتماً من الشرك ومن المعاصي التي تتنافى مع درجات مرتبة المتقين.

الوصية الرابعة: دلّ عليها قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: أي: ولا تدع مع الله مذعواً آخر، قد يتوهم الجاهلون من دعائك له أنه شريك لله في إلهيته، فكن شديد الحذر في دعائك وفي أقوالك، حتى لا تنزلق إلى قول يتوهم منه بغض الناس جواز تأليه غير الله، فيكون ذلك مستنداً لهم في ادعاء الإلهية له.

دَعَانِي إِلَى هَذَا الْفَهْمِ مَا جَاءَ فِي الْوَصِيَّةِ الثَّالِثَةِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ، وَدَعَاءُ غَيْرِ اللَّهِ مِنَ الشِّرْكِ إِذَا حَمَلْنَا اللَّفْظَ عَلَى الْمَتَبَادَرِ مِنْهُ، وَبِهَذَا تَكُونُ الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ تَكَرَّاراً لِلْوَصِيَّةِ الثَّالِثَةِ: أَوْ بِمَثَابَةِ التَّكَرَّارِ لَهَا. أَمَّا الْفَهْمُ الَّذِي ظَهَرَ لِي فَهُوَ يُضَيَّفُ نَهْيًا جَدِيدًا ذَا دَلَالَةٍ خَاصَّةٍ.

وَجَاءَ فِي النَّصِّ بَعْدَ هَذِهِ الْوَصَايَا الْأَرْبَعِ بَيَانُ أَرْبَعِ قَضَايَا إِيمَانِيَّةٍ، هِيَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ الْكَبِيرِ، تَأْصِيلًا لَهَا، وَرَبْطًا لِفُرُوعِ الْإِسْلَامِ بِهَا.

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: أَي: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ فِي الْوُجُودِ كُلهُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَكُلُّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ إِلَهِيَّةٌ مُطْلَقًا، بَلِ الْإِلَهِيَّةُ الْمَدَّعَاةُ لَهُ بَاطِلَةٌ وَمُفْتَرَاةٌ عَلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: هَالِكٌ: أَضْلُ الْإِهْلَاكِ فِي اللَّعَةِ الْإِمَاتَةِ. وَيَقَعُ أَيْضًا عَلَى إِفْنَاءِ الْأَشْيَاءِ وَاسْتِثْصَالِهَا.

وَقَدْ دَلَّتِ التَّصَوُّصُ عَلَى أَنَّهُ يَبْقَى مِنَ الْإِنْسَانِ لَا يَفْنَى عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ تَكُونُ نَشَأَتُهُ الْآخِرَى عِنْدَ الْبَعْثِ، فَالْفَنَاءُ الْعَامُّ بِمَعْنَى إِعْدَامِ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرُ مُرَادٍ، فَلَا بُدَّ مِنْ فَهْمِ (هَالِكٌ. عَلَى مَعْنَى): «مَيَّتٌ» وَتَكُونُ الْعِبَارَةُ عَلَى تَقْدِيرٍ: كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ سَيَكُونُ أَوْ سَوْفَ يَكُونُ هَالِكًا أَي: مَيِّتًا، حَتَّى أَهْلُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَمِنْهُمْ «جِبْرَائِيلُ، وَإِسْرَافِيلُ، وَمِيكَائِيلُ» فَلَا يَبْقَى فِي الْوُجُودِ حَيٍّ غَيْرُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

[إِلَّا وَجْهَهُ]: أُطْلِقَ لَفْظُ الْوَجْهِ، وَالْمُرَادُ كُلُّ ذَاتِهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، مُرَاعَاةً لِمَا يَفْهَمُهُ الْمُخْلُقُونَ، مِنْ إِطْلَاقِ أَكْرَمِ شَيْءٍ فِيهِمْ وَهُوَ الْوَجْهُ عَلَى كُلِّ دَوَاتِهِمْ فِي اسْتِعْمَالَاتِهِمْ، وَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْبَعْضِ وَإِرَادَةِ الْكُلِّ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ.

القضية الثالثة: دلّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾: أي: له جلّ جلاله الحكم التّكليفى لعباده الممتحنين، إذ هو الرّبّ الخالق المتصرف بكلّ عباده. وله الحكم القضائي الذي يفصلُ به بين عباده الذين وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامتحان في الحياة الدّنيا، ولَهُ الْحُكْمُ التّنفيذيّ لكلّ أمرٍ يَتِمُّ بِهِ قَدْرُهُ وقضاؤه، فَلَا حُكْمَ في الوجود كُله بِشأن هذه الأمور إِلَّا لِلَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وهذه القضية مُوجَّهَةٌ بالدَّرَجَةِ الأولى لِلْحُكْمِ عَلَى العباد يومَ الحساب وفصل القضاء، تمهيداً لِتَنْفِيزِ الجزاء، مع عُموم دَلَالَتِهَا كُلِّ مَا سَبَقَ بيانه.

القضية الرابعة: دلّ عليها قولُ الله عزّ وجل: ﴿.. وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وإلى حُكْمِهِ، وفصل قضاائه بَيْنَكُمْ، تُرْجَعُونَ بَعْدَ بَعْثِكُمْ مِنْ مَوْتِكُمْ، وَقِيَامَتِكُمْ مِنْ أَجْدَائِكُمْ، ثُمَّ إِلَى حُكْمِهِ بِتَنْفِيزِ جزائه فِيكُمْ بِحَسَبِ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رَحَلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياة الدّنيا أَيُّهَا المَوْضُوعُونَ فِي الحياة الدّنيا مَوْضِعَ الابتلاء.

وبهذا تَمَّ تَدْبِيرُ سُورَةِ (القصص) والخذُ لِلَّهِ عَلَى مَدَدِهِ، وفيض عطائه، وتوفيقه وقُتْحِهِ.



(١١)

ملحق

مستخرجات بلاغية من سورة (القصص)

في هذه السّورة روائع وبدائع بلاغية كثيرة، وأُستخرج منها لهذا المُلْحَق أشباه ما اعتدْتُ على استخراجه في السّور التي سَبَقَ تَدْبِيرُ آيَاتِهَا ودُرُوسُهَا.

أولاً

الإيجاز الرائع بالحذف والطّي بينَ منطوقِ الجُمَل، وهذا النوع من الإيجاز كثير في هذه السورة، ويكشفُهُ مَا يَفْتَضِيهِ الترابطُ الفِكرِي بين الجمل، وقد يأتي المطويُّ في هذه السورة مُصرّحاً به في سورة أُخرى، ولا سيما بالنسبةِ إلى القِصص التي يَرى أَنَّهَا مُكرّرة في بعضِ السُور، والتدبرُ المتأنّي يكشفُ أَنَّهَا متكاملة فيما بينها.

ومن هذا الإيجاز مَا أذكرُهُ فيما يلي دون تفصيل مُوسّع:

(١) قول الله عزّ وجلّ بشأنِ موسى وهو رضيعٌ انتشلهُ آل فرعون من النيل، وأخته مريم التي تتابع أحداثَ انتقاله وهو داخل التابوت في الماء، حتّى انتشلهُ آل فرعون، دون أن تُشعرَ أحداً بأن لها صلة ما به.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿٧٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ...﴾ أي: وَحَرَّمْنَا عَلَىٰ موسى تحريماً قدرِياً المراضِعَ فمَنَعْنَاهُ بالقضاء والقدر من أن يقبل نُدَي إحداهنَّ لِنَرُدَّهُ إِلَىٰ أُمِّهِ، وكانت أخته مريم تَقصُّ أخباره، فلمّا وَصَلَتْ إلى حيثُ يُطَلَّبُ لَهُ مُرَضِعٌ يَقْبَلُ نُدْيَهَا، قالت للطالِبِينَ، هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ؟

(٢) وقول الله عزّ وجلّ بشأنِ موسى بعد أن اكتملت رُجولته: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَايَتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ وَكَانَ فِي سُلُوكِهِ فِي نَشَأَتِهِ، وفي شبابه، وفي اكتمالِ رُجولَتِهِ، مِنَ الْمُحْسِنِينَ، آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ الْمُحْسِنِينَ ضَمَّنْ سُنَنًا فِي عِبَادِنَا، إِذْ نُؤْتِيهِمْ حُكْمًا وَعِلْمًا.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ بشأنِ حَدَثٍ من الأحداثِ الَّتِي جَرَتْ لموسى قبل فراره مِنْ جُنُودِ فرعونَ إِلَى مَدِين:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾:

أي: فتدخل موسى ليُصلحَ بينهما فتطاولَ عليه المصري معترًا بعُصريَّته، فوَكَزَهُ موسى فَقَضَى عَلَيْهِ.

دَلَّ على أَنَّهُ تَدَخَّلَ لِيُصْلِحَ بينهما حادثةُ اليوم التالي إِذْ قَالَ لَهُ المصري الآخر: ﴿... وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

(٤) وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ مُوسَى أَيْضًا: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: قال رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ بِالسَّتْرِ فَلَمْ تَكْشِفْ أُنِّي أَنَا الَّذِي قَتَلْتُ المصري. كان هذا قَبْلَ أَنْ يُكْشَفَ أَمْرُهُ فِي اليوم التالي.

(٥) وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ وَصَلَ إِلَى أَرْضِ مَدْيَنَ فَارًا مِنْ مِصْرَ وَجُنُودِ فِرْعَوْنَ:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (أي: تَبْعَدَانِ) اغْنَامَهُمَا.

(٦) وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ نَاسِكًا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيَكُمُ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ وَاسْتَأْذَنَ أَبَا زَوْجَتِهِ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى

مصر، مُسْتَضْجِباً زَوْجَتَهُ وولَدَهُ، وَأَذِنَ لَهُ، وَأَعَدَّ مَا يَلْزَمُ لِهَذَا الرَّحِيلِ ﴿وَسَارَ بِأَهْلِيهِ أَتَى مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ وَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي هِيَ فِيهِ ﴿لَعَلَّيْكُمْ مِنْهَا﴾ أَي: مِنْ أَهْلِهَا ﴿يَحْبِرْ أَوْ جَذَوْفَ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

(٧) قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا...﴾ (٤١) : أَي: إِذْ نَادَيْنَا مُوسَى.

ثانياً: الكناية

وهي اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ لَهُ في اصطلاح التَّخاطُبِ، لِلدَّلَالَةِ بِهِ عَلَى مَعْنَى آخَرَ لَازِمَ لَهُ، أَوْ مَصَاحِبَ لَهُ، أَوْ يُشَارُ بِهِ عَادَةً إِلَيْهِ، لَمَّا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَلَابَسَةِ بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

وهي من أساليب التعبير الرفيع، عن المراد بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ، وهي من أَبْدَعَ وَأَجْمَلَ فُنُونِ الْأَدَبِ، وَفِيهَا إِشْعَارُ الْمُخَاطَبِ بِأَنَّهُ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ تَكْفِيهِمُ الْإِشَارَاتُ، وَاللَّمَحِيَّاتُ فِي الْعِبَارَاتِ.

ومما في السورة من الكناية ما يلي:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ أُمِّ مُوسَى حِينَ وَضَعَتْهُ فِي التَّابُوتِ وَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ: ﴿وَأَصْبَحَ قُودًا أُرِى مُوسَى قُرْعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قُلُوبِنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠).

جاء في هذه الآية كِنَايَتَانِ:

الكناية الأولى: الكناية بالفراغ للدلالة على الخفة التي يطيشُ بها الفراغ وَلَا يَثْبُتُ، وَمَعَ طِينِ الْقُودِ يُبْدَى الْإِنْسَانُ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَاتِمًا لَهُ مُحَافَظًا عَلَى سِرِّيَّتِهِ.

الكناية الثانية: الكِنَايَةُ بِالرَّبْطِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّثْبِيتِ المعنوي. أو نقول: شَبَّهَ التَّثْبِثَ المعنوي بِالرَّبْطِ الذي يَثْبُثُ بِهِ المَرْبُوطُ، واستُعِيرَ الفعل فِي «رَبَطْنَا» لِلدَّلَالَةِ بِهِ عَلَى معنى الفعل فِي «ثَبَّتْنَا».

(٢) وقول الله عز وجل بشأن موسى عليه السلام وفرعون وملئِهِ وأتباعهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَنْتَبِهَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

فِي رَدِّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ كِنَايَةً عَنْ إِذْذَارِهِمْ بِعِقَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ وَهِيَ الْجَنَّةُ، وَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ مَنْ أَبَى أَنْ يَسْتَجِيبَ لِلْهُدَى فَلَهُ عَذَابُ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْكِنَايَةِ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾.

أَي: فَهُوَ يَنْصُرُ وَيُثَبِّتُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى، وَهُوَ يَخْذُلُ وَيُعَاقِبُ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

ثالثاً: مِمَّا يَخْسُنُ فِي الْبَيَانِ مَخَالَفَةُ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ لِدَوَاعِ بِلَاغِيَةِ

أ - من مخالفة مقتضى الظاهر الإشارة إلى القريب باسم الإشارة الموضوع للبعيد لدواعٍ بلاغية، ومنه ما يلي:

(١) قول الله عز وجل:

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾:

جاء في هذه الآية استعمال اسم الإشارة الموضوع للبعيد «تِلْكَ»

للدلالة على ارتفاع مَنْزِلَةِ آيات القرآن المجيد، بأنها كلامُ الله عز وجل،
وبأنها معجزة في ألفاظها وفي جُمْلَةِ معانيها.

(٢) وقول الله عز وجل:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ الَّتِي لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٢):

جاءت الإشارة إلى «الدَّارِ الْآخِرَةِ» الَّتِي هِيَ الْجَنَّةُ بِاسْمِ الإِشَارَةِ
«تِلْكَ» الْمَوْضُوعِ لِلْمِشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيدِ، لِبُعْدِ مَكَانِهَا الْآنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،
وَلَا رِفَاعَ مَكَانَتِهَا الْعَظِيمَةِ، بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ عَظِيمٍ مُقِيمٍ خَالِدٍ،
وَبِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا لِلْمُتَّقِينَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا
خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

ب - وَمِنْ مُخَالَفَةِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْمُتَكَلِّمُ الْوَاحِدُ عَنْ
نَفْسِهِ بِضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ، وَيَحْسُنُ تَسْمِيَتُهُ ضَمِيرَ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ.

وَجَاءَ فِي السُّورَةِ أَمْثَلَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ حَدِيثِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ
بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ، لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ، أَوْ لِأَنَّ مَضْمُونَ
الْكَلَامِ يَتَعَلَّقُ بِأُمُورٍ هِيَ مِنْ خَصَائِصِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ.
وَمِنْ هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ:

[تَتْلُو عَلَيْكَ - وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ - وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً - وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ
- وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى - لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا - آتِنَاهُ - سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ -
وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا - فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى بِآيَاتِنَا].

رابعاً: من الفنون البيانية إيراد الجملة مورد التعليل

دون دليل لفظي يدل عليه

وهذا القُرْنُ لَهُ أَمْثَلَةٌ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَمِنْ أَمْثَلَتِهِ فِي سُورَةِ

(القصص) ما يلي:

قول الله عز وجل في خطاب موسى عليه السلام بجانب الطور:

﴿أَسَلُّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

جملة: [إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ]: أوردت مَوْرِدَ التعليل، أي: نُرْسِلُكَ رَسُولًا إِلَيْهِمْ، لِيُبَلِّغَهُمْ رِسَالَاتِنَا، وَمَعَكَ بُرْهَانَانِ هُمَا الْعَصَا وَالْيَدِ مِنْ رَبِّكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ، وَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي إِرْسَالَ رَسُولٍ لَهُمْ وَإِنذَارَهُمْ قَبْلَ إِنْزَالِ الْعِقَابِ الْمَعْجَلِ عَلَيْهِمْ بِالْإِهْلَاكِ.

خامساً

التوكيد للجمل بأدوات التوكيد لدَوَاعٍ بِلَاغِيَّةٍ، يُرَاعَى فِيهَا حَالُ الْمُخَاطَبِينَ، أَوْ حَالُ الْمُتَكَلِّمِ.

وفي السَّوْرَةِ مِنْ هَذَا التَّوْكِيدِ أُمُثَلَةٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا، لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ نَظَرَ الْمُسْتَخْرَجَاتِ الْبَلَاغِيَّةَ مِنَ السُّوْرِ الَّتِي جَاءَتْ قَبْلَ سُورَةِ (الْقَصَصِ) وَبِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَقِيَسَ عَلَيْهَا، وَلَا سِيَمَا حِينَمَا يَضْعُ أَدَوَاتِ التَّوْكِيدِ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَبِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِكِتَابِي «الْبَلَاغَةُ الْعَرَبِيَّةُ - أُسُسُهَا، وَعُلُومُهَا، وَفُنُونُهَا» وَأَنْ يَنْظُرَ مَوْضُوعَ «مُؤَكَّدَاتِ الْإِسْنَادِ الْخَبْرِي» فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ، فِي الصَّفَحَاتِ مِنْ (١٨٦ - ١٩٣).

وَأَقْتَصِرَ عَلَى هَذِهِ الْمُسْتَخْرَجَاتِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ تَارِكًا لِلْمُهْتَمِينَ بِعِلْمِ الْبَلَاغَةِ مَجَالًا وَاسِعًا لِلِاسْتِخْرَاجِ، فَالْقُرْآنُ مَعِينٌ ثَرٌّ فِي كُلِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ.



سورة البقرة

وتسمّى سورة «بني إسرائيل»
وتسمّى سورة «سُبْحَانَ»

١٧ مَضْحَفٌ ٥. نُزُولٌ
وَهِيَ مَكِّيَّةٌ إِلَّا:

- الآية: (٢٦)، فَمَدَنِيَّةٌ.
- والآيتين: (٣٢ و ٣٣)، فَمَدَنِيَّةٌ.
- والآية: (٥٧)، فَمَدَنِيَّةٌ.
- والآيات من (٧٣ - ٨٠)، فَمَدَنِيَّةٌ.
- عَلَى مَا ذَكَرَ عُلَمَاءُ الْقِرَاءَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى
 الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ
 السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي
 إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ
 حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى
 بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا
 كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى
 بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾
 ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
 وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ
 وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ

٢ - قرأ أبو عمرو: [أَلَّا يَتَّخِذُوا] بياء الغائبين.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ بناء المخاطبين.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٧ - قرأ ابن عامر، وشعبة، وحمزة، وخلف: [لِيُسْوَءَ].

وقرأ الكسائي: [لِيُسْوَءَ].

وقراها باقي القراء العشرة: [لِيُسْوَءُوا].

وبين هذه القراءات تكامل في الأداء البياني، وتفنن في التعبير، فالفاعل =

وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا
تَبَرَّأَ ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ ۖ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عُدْنَا ۚ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ
وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا
﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ۖ فَحَوْنًا ۖ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ
مُبْصِرَةً ۖ لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ
وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ
طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا

= الحقيقِي الْمَقْدَرُ هو الله، والفاعل السَّبِيْئِي النَّاسِ .
ومؤدَّى القراءات واحد.

٩ - • قرأ ابن كثير: [الْقُرْآنَ] وصلًا ووقفًا. وحمة في الوقف فقط.

وقراها باقي القراء العشرة: [الْقُرْآنَ].

٩ - • قرأ حمزة، والكسائي: [وَيُبَشِّرُ] من فعل «بَشَّرَ».

وقراها باقي القراء العشرة: «وَيُبَشِّرُ» من فعل: «بَشَّرَ».

١٣ - • قرأ أبو جعفر: [وَنُخْرِجُ].

وقراها يعقوب: [وَنُخْرِجُ].

وقراها باقي القراء العشرة: «وَنُخْرِجُ».

ومؤدَّى هذه القراءات واحد، وهي من التفتن في التعبير.

١٣ - • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [يَلْقَاهُ].

وقراها باقي القراء العشرة: «يَلْقَاهُ».

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن
 أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ
 وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا
 أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ
 فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ
 وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ
 عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا
 مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ
 مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّدُ هَتُولَاءَ
 وَهَتُولَاءَ مِن عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾
 أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ

١٤ - • كلمة (اقْرَأْ) أَبْدَلْ هَمْزَتَهَا أَلِفًا مَدِّيَّةً، أَبُو جَعْفَرٍ فِي الْوَضَلِ وَالْوَقْفِ، وَحَمَزَةٌ وَهَشَامٌ فِي الْوَقْفِ فَقَطْ.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءُ الْعَشْرَةَ بِالْهَمْزَةِ وَصَلَاءً وَوَقْفًا.

١٦ - • قَرَأَ يَغْقُوبُ: [ءَأْمَرْنَا] بِمَعْنَى: كَثَّرْنَا، يُقَالُ لُغَةً: «أَمَرَ اللَّهُ الْقَوْمَ إِمَارًا» أَي: كَثَّرَ نَسْلَهُمْ وَمَاشِيَتَهُمْ.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءُ الْعَشْرَةَ: «أَمَرْنَا» بِمَعْنَى وَجَّهْنَا لَهُمْ أَمْرًا تَكْلِيفِيًّا إلْزَامِيًّا. وَيَأْتِي هَذَا الْفِعْلُ أَيْضًا بِمَعْنَى: كَثَّرْنَا، يُقَالُ لُغَةً: «أَمَرَ اللَّهُ الْقَوْمَ» أَي: كَثَّرَ نَسْلَهُمْ وَمَاشِيَتَهُمْ.

فَبَيْنَ الْقُرَّاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي آدَاءِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ.

١٩ - • قَرَأَ قَالُونُ، وَأَبُو عَمْرٍو، وَالْكَسَائِيُّ، وَأَبُو جَعْفَرٍ: [وَهُوَ] بِإِسْكَانِ الْهَاءِ.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءُ الْعَشْرَةَ: «وَهُوَ» بِضَمِّ الْهَاءِ.

وَهُمَا لَفْتَانِ عَرَبِيَّتَانِ.

وَأَكْبَرُ تَقْضِيلاً ﴿٢١﴾ لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ فَتَقَعْدَ مَذْمُوماً
تَحْذُولاً ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا
فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً
﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا
كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا
صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا
إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ
عَنْهُمْ أُنْتَعَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُوراً ﴿٢٨﴾ وَلَا
تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَّحْسُوراً ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ
بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةً إِمَّا لَقِيْتُمْ
نَزْرُقَهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا

٢٣ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [إِمَّا يَنْلَغَنَّ].

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿إِمَّا يَنْلَغَنَّ﴾.

ومؤدّي القراءتين واحد، وهما من التفتن في البيان.

٢٣ - • قرأ نافع، وحفص، وأبو جعفر: ﴿أُفٍّ﴾ بكسر الفاء مع التنوين.

وقراها ابن كثير، وأبن عامر، ويعقوب: [أُفٍّ] بفتح الفاء دون تنوين.

وقراها باقي القراء العشرة: [أُفٍّ] بكسر الفاء دون تنوين.

وهي لغات عربية لهذه الكلمة.

٣١ - • قرأ ابن كثير [خِطَاءً].

الزَّيِّطِ إِنَّهُمْ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ
 إِلَيَّ حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ
 سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُمْ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا
 تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
 بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ
 وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا
 تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
 أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ
 لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ
 سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ

= وقرأها ابنُ ذكوان، وأبو جعفر: [خَطَأً].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿خَطَأً﴾.

الخطء، والخطأ يَقَعَانِ عَلَى الذنب.

وأما قراءة ابن كثير، فيظهر أنها لَعْنٌ كَالْخِطْءِ إِلَّا أَنَّ مُدَوِّنِي المعجمات اللُّغَوِيَّةَ لَمْ يَذْكُرُوهَا، وكونها قراءة متواترة يَكْفِي لِإثباتها، ففي لغات العرب كثيرٌ لم تُدَوِّنْهُ المعجمات اللُّغَوِيَّة.

٣٣ - قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [فَلَا تُسْرِفُ] بقاء المخاطب، وهو خطاب موجّه للوليّ.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فَلَا يُسْرِفُ﴾ بقاء الغائب، والضمير يعود على الوليّ.

والقراءتان من التَّقْنُنِ فِي التعبير.

٣٥ - قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [بِالْقِسْطَاسِ] بكسر القاف.

وقرأها باقي القراء العشرة: [بِالْقُسْطَاسِ] بضم القاف.

وهما لغتان عَرَبِيَّتَانِ فِي هذه الكلمة.

٣٨ - قرأ نافع، وأبن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [سَيِّئَةً]. =

الْحِكْمَةَ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا
 مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا
 إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ
 لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا
 يَقُولُونَ إِذَا لَابَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
 يَقُولُونَ عَلُّوْا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ
 فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ

= وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿سَبِّحْهُ﴾.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: كلٌّ مِنْهُي عنه من ذلك الذي نهى الله عنه في الآيات السابقات كأن سبَّحَهُ الذي يكرهه ربُّكَ مَكْسُوبَةٌ سَبِّحَهُ، يستحقُّ فاعلها أن يُعَاقَبَ عليها.

٤١ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [لِيَذْكُرُوا].

وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ أضلُّها لِيَتَذَكَّرُوا.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد. أي: لِيَذْكُرَ قَسَمٌ من الناس ذكراً لا مبالغة فيه، وَلِيَذْكُرَ قَسَمَ أَهْلِ السَّبْقِ ذِكْرًا فيه اجتهدا وحرصٌ شديدٌ على المسابقة في الخيرات والقرابات.

٤٢ - • قرأ ابن كثير وحفص: [كَمَا يَقُولُونَ] بالياء. وقرأها باقي القراء العشرة بالتاء [كَمَا يَقُولُونَ] وبينهما تكامل في الأداء البياني بين الغيبة والخطاب.

٤٣ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [عَمَّا يَقُولُونَ] بالتاء. وقرأها باقي القراء العشرة بالياء: [عَمَّا يَقُولُونَ]. وبينهما تكامل في الأداء البياني.

٤٤ - • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر [يُسَبِّحُ لَهُ] بالياء. وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ بالتاء.

وهما وجهان عربيان جائزان متكافئان.

٤٤ - • قرأ يعقوب بضم الهاء من [فِيهِنَّ].

وقرأها باقي القراء العشرة بكسر الهاء [فِيهِنَّ] وهما لغتان في هاء الضمير.

إِنَّمْ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ
أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ
وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَنْ أَدْبَرْتَهُمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا
رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا وَرَفَقًا أَوْنَا لَمَعْبُوثُونَ
خَلَقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ
خَلَقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي
فَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ
قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ
وَتَنْتَضُونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا

٤٥ - • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [وَإِذَا قَرَأْتَ] بإبدال الهمزة ألفاً، وصلاً ووقفاً،
وحمزة في الوقف فقط. وقرأها باقي القراء العشرة بالهمزة.

٤٥ - • كلمة «القرآن» هنا وفي الآية السابقة (٤١) أبدل الهمزة ألفاً ابن كثير،
وصلاً ووقفاً، وحمزة في الوقف فقط. وباقي القراء بالهمزة.

٤٩ - • قرأ نافع، والكسائي، ويعقوب: [أَيْنَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَقًا]؟.

وقرأها ابن عامر، وأبو جعفر: [إِذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَقًا]؟.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَيْنَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَقًا أَثْنًا﴾.

ومؤدى هذه القراءات واحد، فالاستفهام، ذَكَرَ أَمْ لَمْ يَذْكُرْ مُقَدَّرٌ ذَهْنًا.

مُبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَسَاءَ
 يُعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ
 زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
 كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
 يَبْغُونَ إِلَيْ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ
 وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ
 قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا
 شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ
 بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً

- ٥٤ - • أبدل الهمزة من [يَسَاءَ] ألفاً في الموضعين أبو جعفر في الوصل والوقف.
 وحمة وهشام في الوقف فقط.
 وباقي القراء العشرة قرؤوها بالهمزة الساكنة: [إِنَّ يَسَاءَ].
- ٥٥ - • قرأ نافع: [النَّبِيِّينَ] مع المد المتصل. ولورش ثلاثة البدل.
 وقرأها باقي القراء العشرة: «النَّبِيِّينَ».
- ٥٥ - • قرأ حمزة، وخلف: [زُبُورًا] بضَم الزاي، وهو جمع «الزُّبُر» وهو المكتوب.
 وقرأها باقي القراء العشرة: «زُبُورًا» بفتح الزاي. وهو الكتاب المزبور.
 ومؤدى القراءتين واحد.
- ٥٦ - • قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [قُلِ ادْعُوا] بكسر اللام في الوصل.
 وقرأها باقي القراء العشرة بضم اللام: [قُلِ ادْعُوا] مراعاة لضَم العين.
- ٥٧ - • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ] بكسر هاء الضمير وميم الجمع.
 وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف بضمهما [رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ].
 وقرأ باقي القراء العشرة بكسر الهاء وضم الميم «رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ».
 وهي وَجُوهٌ عَرِيضَةٌ في النطق.

فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ
 إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرَّيَّاَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً
 لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا
 طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
 إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا
 الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَى لَيْنِ آخِرَتَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لِأَحْتَنِكَ
 ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
 جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِزُ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ
 بَصُوتَكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ
 وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ
 عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

٦٠ - • قرأ السوسي: [الرؤيا].

وقراها أبو جعفر: [الرؤيا].

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿الرؤيا﴾.

ووقف حمزة كالسوسي وأبي جعفر.

٦١ - • قرأ أبو جعفر: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] مراعاةً لضم الجيم في اسجدوا وصلًا.

وقراها باقي القراء العشرة بالكسر: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] بالكسر على الأصل.

٦٢ - • أثبت ياء المتكلم في: [أَخْرَجْنِي] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، في

الوصل. وأبن كثير، ويعقوب في الوصل والوقف.

ولم يُثبتها باقي القراء العشرة فقالوا: ﴿أَخْرَجْنِي﴾ في الوصل والوقف.

٦٤ - • قرأ حفص: [وَرَجِلِكَ].

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ الرجل اسم جمع الرّاجل الماشي

على رجلَيْهِ. ويظهر أنّ كسر الجيم لغة.

رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
 إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ
 مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَلَغَ مِنْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
 كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ
 عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ
 أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ
 فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾
 ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ
 خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧١﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ
 كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ
 فَتِيلًا ﴿٧٢﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى
 وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٣﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا

٦٨ و ٦٩ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: بنون المتكلم العظيم في الأفعال التالية:
 [نُخَسِّفَ - نُزِيلَ - نُعِيدُكُمْ - نُفْزِلُكُمْ - نُفْغِرُكُمْ].

وقراها رؤيس عن يعقوب، وأبو جعفر بخلف عن ابن وردان: [يُخَسِّفَ -
 يُزِيلَ - يُعِيدُكُمْ - فَيُزِيلَ - فَيُغْرِقُكُمْ].

وقراها باقي القراء العشرة: [يُخَسِّفَ - يُزِيلَ - يُعِيدُكُمْ - فَيُزِيلَ - فَيُغْرِقُكُمْ].
 ومؤدى هذه القراءات واحد، وفيها تفتن في الأداء البياني، وزيادة ترهيب في
 [فَيُغْرِقُكُمْ].

٦٩ - • قرأ أبو جعفر: [مِنَ الرِّيحِ] بالجمع، وهو يدل على تعدد أنواعها.
 وقراها باقي القراء العشرة: ﴿مِنَ الرِّيحِ﴾ بالإفراد، وهو يدل على الجنس.

إِلَيْكَ لِنَفْتَرِي عَلَيْنا غَيْرُهُ وَإِذاً لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلاَ
 أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَتِياً قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذاً
 لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا
 نَصِيراً ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ
 مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ
 أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴿٧٧﴾ أَفَمِ
 الصَّلَوةِ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ
 الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ
 عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً تَحْمُوداً ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي
 مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً
 نَصِيراً ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ

٧٢ - • في [فهو] قراءتان إسكان الهاء وضمها كما في الآية (١٩).

٧٤ - • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهِمْ] بضم هاء الضمير.
 وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بكسر هاء الضمير.

وهما لغتان عربيتان.

٧٦ - • قرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب،
 وخلف: [خَلْفَكَ] أي: بَعْدَكَ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [خَلْفَكَ] أي: وَرَاءَ ظَهْرِكَ الذي تولّيه إِيَّاهُمْ عند
 خروجه.

ومؤدّي القراءتين واحد، وهما من التفتن في التعبير.

٧٧ - • قرأ أبو عمرو: [رُسُلِنَا] بإسكان السّين.

وقرأها باقي القراء العشرة بضمها: ﴿رُسُلِنَا﴾.

وهما لغتان عربيتان.

زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
 وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَنِ
 أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ
 يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾
 وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ
 الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ
 إِن فَضَّلْنَا كَاتٍ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّيِّنَ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ
 وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ
 كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا
 الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

٨٢ - • قرأ أبو عمرو، وَيَغُفُّوبُ: [وَيُنَزَّلُ] من فعل: «أنزل».

وقراها باقي القراء العشرة: [وَيُنَزَّلُ] من فعل: «نزل»، أنزل ونَزَلَ مُتَكَافِئَانِ.

٨٣ - • قرأ ابن ذكوان، وأبو جعفر: [وَنَاءً]: أي: ونهض كالمثقل من حمل، وهو كناية عن الابتعاد، مع إعطاء مظهر الاستكبار.

وقراها باقي القراء العشرة: «وَنَائِي» أي: ابتعد.

وبين هاتين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فقراءة: [وَنَاءً] تَدُلُّ عَلَىٰ إِعْرَاضِ الْمُتَقَابِلِ الْمُسْتَكْبِرِ، وهذه صفة بعض الناس، وقراءة «وَنَائِي» تَدُلُّ عَلَىٰ الْإِعْرَاضِ مَعَ الْإِبْتِعَادِ عَنِ الْحَقِّ وَطَاعَةِ اللَّهِ، دون استكبار، وهذه صفة بعض الناس.

٨٨ - • قرأ ابن كثير: [الْقُرْآنِ] وحمزة في الوقف.

وباقى القراء العشرة: «الْقُرْآنَ».

وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ
تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ
أَوْ تَرَفٍّ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا
تَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ وَمَا
مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ
بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ
مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٦﴾ قُلْ

٩٠ - • قرأ نافع، وأبن كثير، وأبو عمرو، وأبن عامر، وأبو جعفر: [تَفْجُرَ] من فعل: «فَجَرَ» المضعف.

وقراها باقي القراء العشرة: «تَفْجُرَ» من فعل: «فَجَرَ» غير المضعف.
والقراءتان تُعَبِّرَان عَنْ مقاليتين قالهما كبراء كفار قريش، فقال بعضهم: حَتَّى
تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، مشيراً إلى أرض لينة.
وقال بعضهم: حَتَّى تَفْجُرَ مشيراً إلى أرض صَخْرِيَّةٍ صَغْبَةِ التَشَقُّقِ.

٩٢ - • قرأ نافع، وأبن عامر، وعاصم، وأبو جعفر: [كِسْفًا] بفتح السين.
وقراها باقي القراء العشرة بإسكان السين [كِسْفًا].

كِسْفٌ، وَكِسْفٌ، جمع «كِسْفَةٍ» بمعنى: قطعة. فالقراءتان متكافئتان.

٩٣ - • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [تُنْزِلَ] مِنْ فعل «أَنْزَلَ».

وقراها باقي القراء العشرة: «تُنْزِلَ» مِنْ فعل «نَزَلَ» المضعَّف.
أَنْزَلَ، وَنَزَلَ، متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

٩٣ - • قرأ ابن كثير، وأبن عامر: [قَالَ سُبْحَانَ] بالفعل الماضي.

وقراها باقي القراء العشرة: «قُلْ سُبْحَانَ» بفعل الأمر.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: قال له الله عز وجل: قُلْ،
فَقَالَ.

كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
 بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ
 لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا
 وَرَبُّكُمْ وَصُنَا مَا وَطَنُهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
 ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَالَيْنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا
 أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
 وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا
 ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ
 خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
 آيَاتٍ بَلَيِّنَتْ فَنَسَلْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي
 لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ

٩٧ - • أثبت الياء في لفظ [المُهْتَدِي] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، في الوصل، وأثبتها في الوصل والوقف يعقوب.

وحذفها باقي القراء العشرة فقالوا: «المُهْتَدِ» وهذا الحذف من الإيجاز الذي له نظائر.

٩٨ - • في: [إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَعْنَا] القراءات التي ذُكِرَتْ في الآية (٤٩).

١٠٠ - • فتح ياء المتكلم في: [رَبِّي إِذَا] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر. وأسكنها باقي القراء العشرة.

١٠١ - • قرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: [فَنَسَلْ]. وحمزة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: «فَنَسَّالْ».

والقراءتان وجهان عريان في فعل الأمر من فعل «سأل».

١٠٢ - • قرأ الكسائي: [لَقَدْ عَلِمْتَ] بضمير المتكلم وهو موسى عليه السلام.

إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنَ
 مَشْبُورًا ﴿١٧٦﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ
 جَمِيعًا ﴿١٧٧﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا
 جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٧٨﴾ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ
 نَزَّلُهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٧٩﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى
 النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٨٠﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا
 إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا
 ﴿١٨١﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨٢﴾
 وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٨٣﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ
 أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ
 بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٨٤﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ
 لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١٨٥﴾

= وقراها باقي القراء العشرة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ بضمير المخاطب وهو فرعون عليه اللعنة.

وبين القراءتين تكامل في بيان الواقع الذي أجاب به موسى عليه السلام، إذ قال لِفِرْعَوْنَ: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَا، وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنْتَ.

١١٠ - • قرأ عاصم، وحزمة: [قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ].

وقراها يعقوب: [قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ].

وقراها باقي القراء العشرة: [قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ].

(٢)

مما جاء في السُّنَّة بشأن هذه السورة

(١) روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «في بني إسرائيل، والكهف، ومريم» إِنَّهِنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي. «في بني إسرائيل» أي: في سورة «بني إسرائيل» وهي «الإسراء».

«مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ»: أي: من النفائس الْقَدِيمَةِ. الْعِتَاقُ: جمع «العتيق» وهو القديم الكريم النفيس، ذو القيمة العظيمة القديمة التي تعتبر من الكنوز.

«وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي»: أي: وَهُنَّ مِنَ النَّفَائِسِ الْقَدِيمَةِ ذَاتِ الْقِيَمَةِ الْعَظِيمَةِ عِنْدِي، وهذه العبارة مؤكدة للعبارة الأولى بغية التنبيه على شرف هذه السور.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ سَمِعَ هَذَا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَوْ لَمْ يُصْرِّحْ فِي السَّنَدِ هَذَا.

(٢) وروى الترمذي في جامعه، في أبواب الدُّعَاءِ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ الزُّمَرَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ». أي: وسورة «الإسراء».

(٣) وروى الإمام أحمد بسنده عن عائشة قالت:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَنْ يُفْطِرَ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: مَا يُرِيدُ أَنْ يَصُومَ، وَكَانَ يَقْرَأُ كُلَّ لَيْلَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالزُّمَرَ».

أي: كان يَتْلُو هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ: الإسراء، والزُّمَرَ.



(٣)

موضوع سورة «الإسراء»

تدور آيات هذه السورة حول وحدة الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَةِ للناس، ومن أمثلة هذه الوحدة، ذُكِرَ بعض العناصر المادِّيَّة والمعنوية العَقْدِيَّة والتشريعية والخُلُقِيَّة الجامعة بَيْنَ رِسَالَةِ مُوسَى عليه السلام، الْمُطَالِبِ بِهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ حَتَّىٰ إِنْهَاءِ الْعَمَلِ بِهَا بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبين الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

فقد جمع الله عَزَّ وَجَلَّ لخاتم رُسُلِهِ محمد بن عبد الله ﷺ بَيْنَ أعظم مَسْجِدَيْنِ أُسِّسَا لعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ في الأرض بِحَادِثَةِ الإسراء:

أولهما: المسجد الحرام في مكة المكرمة، وفيه الكعبةُ المشرفةُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ للناس، والذي رفع قواعدهُ على أُسُسِهِ القديمة إبراهيم مع وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ عليهما السلام، بوحي من اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وتعيين مكانه وتحديد حُدُوده.

وثانيهما: المسجد الأقصى في القُدُس، ويظهر أَنَّ أَوَّلَ من بناه إبراهيم عليه السَّلَامُ بَعْدَ رَفْعِ قَوَاعِدِ الكعبةِ بأَرْبَعِينَ سَنَةً، دَلٌّ على هذا ما رواه البخاري ومُسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟»

قال: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ). قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: (الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى).

قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قال: (أَرْبَعُونَ سَنَةً).

وظاهرُ أَنَّهُ لَا أَحَدَ يُعْنَى ببناء المسجد الأقصى في هذه المدةِ غَيْرُ إبراهيم عليه السلام^(١)، وَرَبُّمَا شَارَكَهُ ابْنُهُ إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ،

(١) تبعث بهذا الفهم الشيخ محمد بن الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير».

وظاهرٌ أنَّ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ يَتَحَدَّثُ عَنْ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
لِلْكَعْبَةِ، لَا عَنْ تَأْسِيسِهَا الْأَوَّلِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ.

وقد أُنْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْقُرْآنَ خَاتَمَةً كُتِبَ
لِلنَّاسِ، وَجَمَعَ فِيهِ زُبْدَةُ مَا فِي كُتُبِهِ لِلأَوَّلِينَ، وَمِنْهَا التَّوْرَةُ الْكِتَابُ الرَّبَّانِيُّ
الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي الْقُرْآنِ كُلِّ الْبَيَانَاتِ وَالتَّعْلِيمَاتِ
الرَّبَّانِيَّةِ السَّابِقَةِ فِي كُتُبِهِ، وَكُلِّ الْأَحْكَامِ الَّتِي لَهَا صِفَةُ الدَّوَامِ، لَا صِفَةُ
التَّعْلِيمَاتِ وَالْأَحْكَامِ الزَّمْنِيَّةِ الْمُرَحَلِيَّةِ الْمُتَبَاعَةِ، أَوْ صِفَةُ الْأَحْكَامِ الْعِلَاجِيَّةِ
لَأَمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، كَالْأَحْكَامِ الْعِلَاجِيَّةِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ
بِسَبَبِ ظُلْمِ مِنْهُمْ.

وَمِنْ الْأُمَثِلَةِ عَلَى هَذَا اشْتِمَالُ سُورَةِ (الإسراء) عَلَى الْوَصَايَا الْعَشْرِ
الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى فِي الْأَلْوَحِ، مَعَ وَصَايَا أُخْرَى مُضَافَةً،
وَبَيَانَاتٍ مُفْصَّلَاتٍ.

وَمِنْ الْأُمَثِلَةِ أَيْضاً بَيَانُ مَا أُعْلِمَ اللَّهُ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَةِ،
بِشَأْنِ تَارِيخِهِمُ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، وَمَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ مِنْ إِفْسَادٍ فِي الْأَرْضِ وَمِنْ
عُلُوِّ كَبِيرٍ فِيهَا، وَكَيْفَ أَنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُهُمْ عِقَاباً شَدِيداً بَعْدَ ذَلِكَ وَحِكْمَةً.

وَالْمَحَ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَى أَنَّ عِلَّةَ أَجْيَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ النَّفْسِيَّةِ أَنَّهُمْ
مُتَشَبِّهُونَ بِحُبِّ الْعَاجِلَةِ، فَهُمْ فِي الْغَالِبِ مِنْهُمْ يَحْبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ
الْآخِرَةَ، فَيُنْفِقُونَ كُلَّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ طَاقَاتٍ، وَكُلَّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ ذِكَاءٍ وَحِيلَةٍ
وَمَكْرٍ، فِي الْحَصُولِ عَلَى مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَاقْتَضَى الْبَيَانُ الْحَكِيمُ الَّذِي تُفْهَمُ مِنْهُ وَحْدَةُ الرِّسَالَاتِ
الرَّبَّانِيَّةِ، التَّوَجُّعَ لِدَعْوَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكُلِّ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى
الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي الرَّبَّانِيُّ الْخَاتَمُ، وَمَعَالِجَتُهُمْ مَعَالِجَاتٍ مَبْدُئِيَّةٍ،
تَمْهِيداً لِلْمَعَالِجَاتِ الْمَوْسَعَاتِ الَّتِي سَتَكُونُ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ إِلَى

المدينة، واحتكاك الرُّسُول بالمستوطنين من اليهود فيها.

واقترضى البَيَّانُ الحكيم أيضاً مُتَابَعَةً مُعَالَجَةٍ مُشْرِكِي مَكَّةَ، بناءً على المعالجات السابقة، الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ سُورَةِ (الإِسْرَاءِ) مع العناية بما اسْتَجَدَّ مِنْ أَمْرِهِمْ.

واقترضى أيضاً تَوْجِيهَ تَرْبِيَّاتٍ لِلرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ تتعلَّقُ بِمَسِيرَتِهِ الدَّعْوِيَّةِ، وَتَتَعَلَّقُ بِعَلَاقَتِهِ التَّعْبِيدِيَّةِ بِرَبِّهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ جَمِيعَ الْوَصَايَا والتعليمات في السُّورَةِ مُوجَّهَةٌ لِكُلِّ مَنْ أَمَرَ تَكْلِيفًا، وَهِيَ بَيَانٌ دَعْوِيٌّ لغير المؤمنين.

ومن طبيعة المعالجاتِ الدَّعْوِيَّةِ أَنْ تَتَنَقَّلَ فِي الْقَضَايَا الْجَزِئِيَّةِ بحسب واقع حال الْمُعَالَجِينَ. ومن عَجِيبِ المعالجاتِ في هذه السُّورَةِ كَثْرَةُ مَا فِيهَا مِنْ إجاباتٍ عَلَى أَسْئَلَةٍ مَطْوِيَّةٍ فِي السُّورَةِ لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا، وَهذه الْأَسْئَلَةُ المَطْوِيَّةُ تُفْهَمُ مِنَ الْإِجَابَةِ الْعِلَاجِيَّةِ، وبسبب هذا فقد تخفى عَلَى مُتَدَبِّرِ هذه السُّورَةِ وَخِذَّةُ مَوْضُوعِهَا.

فَالسُّورَةُ تَدُلُّ بِفَحْوَى مُقَدِّمَاتِهَا عَلَى وَخِذَةِ الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَدَعْوَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَا سِيَمَا بنو إِسْرَائِيلَ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، مع بَيَانِ تَارِيخِهِمُ الْمُسْتَقْبَلِي، وَتَوْجِيهِ مُقَدِّمَاتٍ دَعْوِيَّةٍ عِلَاجِيَّةٍ لَهُمْ، وَمُتَابَعَةٍ عِلَاجٍ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، وَفِي ضَمَنِ ذَلِكَ تَوْجِيهَاتٍ بَوْصَايَا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَرْبِيَّةٍ تَوْجِيهِيَّةٍ لِلرُّسُولِ ﷺ.

وَيُلَاحِظُ فِي كُلِّ ذَلِكَ الْمَرْحَلَةَ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا الرُّسُولُ ﷺ فِي مَسِيرَتِهِ الدَّعْوِيَّةِ إِبَّانَ نَزُولِ السُّورَةِ، وَالْأَحْدَاثُ الَّتِي جَدَّتْ، وَالْمَوَاقِفُ الَّتِي حَدَّثَتْ أَوْ اسْتَمَرَّتْ أَوْ تَكَرَّرَتْ مِنْ مَوَاقِفِ الْمُشْرِكِينَ.



(٤)

دروس سورة (الإسراء)

سورة (الإسراء) سورة متشابكة الترابط بِخُطُوطٍ ذَهَبِيَّةٍ غَيْرِ مَنْظُورَةٍ، وَلِتَيْسِيرَ تَدَبُّرِهَا أَقْسَمُهَا إِلَى (٢١) دَرَسًا.

الدّرس الأول: الآية (١) منها.

وهذا الدّرس يشتملُ على تنزيه اللّهِ عزّ وجلّ، وتمجيد قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وبيان حَدِيثِ إِسْرَائِهِ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، لِإِيْرِيَهُ مِنْ آيَاتِهِ، فَيَذَرِكُهَا بِحَاسَتَيِّ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ.

الدّرس الثاني: الآيات من (٢ - ٨).

وهو يشتمل على أنّ الله عزّ وجلّ أتى موسى كتاب التوراة، وجعله هُدىً لبني إسرائيل، وأنّه جَلَّ جلاله أَعْلَمُهُمْ فِيهِ بِلِقَاطِ بَارِزَاتٍ مِنْ تَارِيخِهِمُ الْمُسْتَقْبَلِيّ، الَّذِي سِيخَالِفُونَ فِيهِ التَّعْلِيمَاتِ الَّتِي أُنْزِلَتْ إِلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ، فَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ إِفْسَاداً عَرِيضاً مَرَّتَيْنِ، بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، وَاخْتِيَارَاتِهِمُ الَّتِي لَا جَبَرَ فِيهَا، وَيَعْلُونَ عُلُوءاً كَبِيراً، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي كُلِّ الْمَرَّتَيْنِ، فَيَسْلُطُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يُكْثِرُونَ الْقَتْلَ فِيهِمْ، وَيُعَذِّبُونَهُمْ، وَيَذِلُّونَهُمْ، وَيَمْرُقُونَهُمْ تَمْزِيقاً شَدِيداً.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ سُنَّتُهُ الدَّائِمَةُ فِيهِمْ كُلَّمَا أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَطَغَوْا وَبَغَوْا، فَإِذَا اسْتَقَامُوا وَاسْتَكَانُوا رَحِمَهُمْ.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ عَاقِبَةَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِمْ، وَبِمُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَبِالْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي جَهَنَّمَ، كَمَا هِيَ عَاقِبَةُ سَائِرِ الْكَافِرِينَ.

الدّرس الثالث: الآيتان: (٩) و(١٠).

وهو دَرَسٌ يَتَعَلَّقُ بِالْقُرْآنِ، وَوُظِيفَتُهُ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى ثَلَاثَةِ عُنَاصِرٍ:

(١) الهداية للتي هي أفوم.

(٢) تبشير المؤمنين الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصالحات، بالأجر الكبير يوم الدين.

(٣) وعيد الكافرين الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الأليم يوم الدين.

وذكر هذه الصفاتِ للقرآن بَعْدَ ذِكْرِ الكتابِ الَّذِي آتاه الله موسى عليه السلام، وَبَعْدَ ذِكْرِ بعض ما يتعلّق بالأحداثِ المستقبلية لبني إسرائيل، يَتَضَمَّنُ دَعْوَةَ بني إسرائيل إلى الدُّخُولِ في الإسلام، دُونَ مواجهتهم بِالخِطَابِ، مع دعوة كُلِّ الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، إلى الدُّخُولِ في الإسلام عقيدةً وعملاً.

الدرس الرابع: الآية (١١).

وفي هذا الدَّرْسِ إِمْلَاحٌ إِلَى أَنَّ الإنسانَ عَجُولٌ، يُحِبُّ الدُّنْيَا العاجلةَ ولو انتهى به حُبُّهَا، أو حُصُولُهُ عَلَى ما يَحِبُّ مِنْهَا، إِلَى شِقَاةِ الأبدِي. وَيُعْرِضُ عن الآخِرَةِ وَيَذُرُّهَا، ولو كَانَ عَمَلُهُ لَهَا يَجْعَلُهُ مِنْ أَصْحَابِ السَّعَادَةِ الأبدِيَّةِ والتَّعِيمِ العظيمِ الخالد.

والدَّلِيلُ عَلَى هذا أَنَّهُ في مَطَالِبِهِ القَرِيبَةِ الزَّمَنِيَّةِ من الحياة الدنيا، كَالْمَالِ، وَالْوَلَدِ، وَالْمَنْصَبِ، وَالْحَبِيبَةِ، يَدْعُو رَبَّهُ بِالْحَاجِ أَنْ يَهَبَهُ مَطْلُوبَهُ، مُتَصَوِّراً أَنَّهُ سَيَنَالُ به السَّعَادَةَ، دونَ أَنْ يَضَعَ في حُسْبَانِهِ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ شَرًّا لَهُ، وَجَالِباً لَهُ تَعَاسَةً، وَشِقَاءً، وَعَذَاباً، وَخَيِّةً.

وهذا من قِصْرِ نظرِ الإنسانِ وَحُبِّهِ للعاجلةَ، ولو كَانَ من المؤمنين باللهِ وباليومِ الآخرِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حالُهُ إِذَا كَانَ من الكافرين المنكرين؟!

وذكر هذا الدَّرْسَ بعدما سَبَقَ يُشْعِرُ أَنَّ العِلَّةَ النفسيةَ الَّتِي تَضَرِفُ بني

إسرائيل عن الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، هِيَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَيَتَشَبَّثُونَ بِهَا وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ، عَلَى خِلَافِ مَطْلُوبِ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

الدرس الخامس: الآية (١٢).

وَهَذَا الدَّرْسُ يَتَضَمَّنُ تَذْكِيراً أَوْ تَنْبِيهاً عَلَى آيَتَيْنِ مِنْ آيَاتِ عِنَايَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ، فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ، إِذْ جَعَلَ لَهُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَفِيهِمَا لَهُمْ مَنَفَعَتَانِ عَظِيمَتَانِ:

(١) أَنْ يَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِ رَبِّهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا لِمَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ.

(٢) أَنْ يَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ، بَعْدَ الْأَيَّامِ الَّتِي تَمُرُّ عَلَيْهِمْ، وَأَنْهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الدَّرْسَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾. والمتفكر المتدبر يرى هذا التفصيل ظاهراً في كُلِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ، وَظَاهِراً فِي بَيِّنَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ فِي آيَاتِ كِتَابِهِ.

الدرس السادس: الآيات من (١٣ - ١٧).

وَهَذَا الدَّرْسُ يَشْتَمِلُ عَلَى فِقَرَاتٍ مِنْ قَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ الْمَعْجَلِ وَالْمُؤَجَّلِ، لِلْمَوْضُوعَيْنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ، وَمِنْ مَوَادِّ هَذَا الْقَانُونِ مَا يَلِي:

المادة الأولى: كُلُّ إِنْسَانٍ مَوْضُوعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ، يَرْتَبِطُ بِهِ عَمَلُهُ الْإِخْتِيَارِيُّ، لَا يَنْفَكُ عَنْهُ، وَلَا يَتَعَدَّاهُ إِلَى غَيْرِهِ، فَهُوَ كَالْمُعَلَّقِ فِي عُقْفِهِ.

المادة الثانية: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخْرِجُ لِلْمَكْلُوفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابَ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، فَيَلْقَاهُ مُشُوراً، لِيُجْرِيَ حِسَابَهُ، وَفَضْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ عَلَى وَفْقِ كِتَابِهِ.

ويقال له: اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً.

المادة الثالثة: من اهتدى بأن اختار لنفسه أن يؤمن ويعمل صالحاً، فهو وخذه المستفيد من اختياره سبيل الهدى.

المادة الرابعة: من ضلّ بأن اختار لنفسه أن يكفر ويعمل عملاً سيئاً، فهو وخذه الذي ينال جزاء اختياره الحرّ عذاباً أليماً خالداً.

المادة الخامسة: لا تحمل نفس من شأنها أن تكسب وزراً وزر نفس أخرى.

المادة السادسة: لا يُعَذَّبُ اللَّهُ جَلَّ جلالُهُ الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، على عصيانهم لأوامره ونواهيه في الإيمان والعمل، حتّى يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَجَاهَ رَبِّهِمْ الَّذِي يُمِدُّهُمْ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

ودئتُ نُصُوصُ أخرى على أن الله عزّ وجلّ قد بعث في كلّ أمة رسولاً، فلا عُذْرَ للأُمم.

أما الأفراد الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ رَسُولٍ، فإنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لَا يُعَذِّبُهُمْ حتّى يُتِمَّ لَهُمْ شُرُوطَ امْتِحَانِهِ لَهُمْ، وله فيهم الاختيار العادل، وربّما يجعلُهُمْ بِمَثَابَةِ الْبَهَائِمِ الَّتِي يُنْهِي اللَّهُ وجودَهَا فَتَكُونُ تُرَاباً، والله أعلم.

والحقّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحداً مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

المادة السابعة: أَنَّ الْإِهْلَاكَ الْجَمَاعِيَّ الْمَعْجَلَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَهُ سُنَّةٌ حَكِيمَةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

أن يُوَجَّهَ لِمُتَرَفِي أَهْلِ الْقُرَى أَوَامِرُهُ بِفِعْلِ الصَّالِحَاتِ، ونَوَاهِيهِ بِتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، لَكِنَّهُمْ يَفْسُقُونَ خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ، فَيُغْدِقُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَيْرَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَيَكْثُرُ مُتَرَفُوهُمْ، وَيَتَعَاطَمُ الْفِسْقُ فِيهِمْ، حتّى يَكُونَ هُوَ

الطَّاعِي عَلَى جَمِيعِ أَفْرَادِهِمْ، وَعِنْدَئِذٍ يَكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِهِمُ الْإِهْلَاكُ الْعَامَ الشَّامِلَ، إِذْ تَنْعَدِمُ فِيهِمْ ظُرُوفُ الْامْتِحَانِ السَّوِيِّ، بِسَبَبِ تَحَوُّلِ بَيْئَتِهِمْ إِلَى بَيْئَةِ عَدَوِيْ بِفَسَادِ طَاغٍ تَنْعَدِمُ مَعَهُ اخْتِيَارَاتُ الْأَفْرَادِ الْحَرَّةِ.

وختم الله عزَّ وجلَّ هذا الدَّرْسَ بالتذكير بِالْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى السَّالِفَةِ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا شَامِلًا.

وهذا الدرس متصلٌ فكريًا بالدروس السابقة اتصالاً جليًّا.

الدرس السابع: الآيات من (١٨ - ٢١).

وهو درس يتضمَّن بَيَانَ سُنَّةِ اللَّهِ فِيْمَا يُؤْتِي عِبَادَهُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، عَلَى وَفْقِ حُكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ، وَهَذِهِ السُّنَّةُ تَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعِ مَوَادَّ.

المادة الأولى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَقَطْ، وَلَا يُرِيدُ الْآخِرَةَ، عَجَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ مَتَاعِهَا بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا حُكْمَتُهُ.

وَلَا يَكُونُ مُرِيدُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مُتَسَاوِينَ فِيْمَا يُؤْتِيهِمْ مِنْ مَتَاعِهَا، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يُوسَّعُ اللَّهُ لَهُ بِحَسَبِ عِلْمِهِ بِهِ وَبِمَا فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُضَيِّقُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ بِهِ وَبِمَا فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ، وَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْخَلَّاقُ الْوَهَّابُ.

لَكِنَّ عَاقِبَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ جَهَنَّمُ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا.

المادة الثانية: مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا وَيُرِيدُ الْآخِرَةَ إِرَادَةً جَازِمَةً، وَسَعَى لِنَيْلِ ثَوَابِ اللَّهِ فِيهَا السَّعْيَ الْمَطْلُوبَ لِلظَّفَرِ بِهِ، شَكَرَ اللَّهُ لَهُ سَعْيَهُ، فَأَثَابَهُ ثَوَابًا جَزِيلًا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَيُعْطِيهِ اللَّهُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِحَسَبِ عِلْمِهِ بِهِ وَبِمَا فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ.

وَمُرِيدُوا الْآخِرَةَ لَا يَكُونُونَ مُتَسَاوِينَ فِيمَا يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ يُوسِّعُ اللَّهُ لَهُ بِحَسَبِ عِلْمِهِ بِهِ وَبِمَا فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُضَيِّقُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ بِهِ، وَبِمَا فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ، وَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْخَلَّاقُ الْوَهَّابُ.

المادة الثالثة: إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مُرِيدِي الْعَاجِلَةِ وَمُرِيدِي الْآخِرَةِ، يُمِدُّهُ اللَّهُ بِعَطَائِهِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَطَالِبِ النُّفُوسِ مِنْهَا، بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، مُوسِّعاً أَوْ مُضَيِّقاً، وَعَطَاءُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ لَيْسَ مَمْنُوعاً عَنْ أَحَدٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَمَّا التَّفَاضُلُ فِي التَّوْزِيعِ فَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، وَحِكْمَتِهِ فِي إِمْدَادِهِ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ.

المادة الرابعة: عَطَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَائِمَةٌ عَلَى التَّفَاضُلِ لَا عَلَى التَّسَاوِي، فِي الدُّنْيَا دَارِ الْإِبْتِلَاءِ، وَفِي الْآخِرَةِ دَارِ الْجَزَاءِ.

وَمَنْ فَضَّلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدُّنْيَا بِإِمْدَادَاتِهِ قَدْ يَكُونُ مَخْرُوماً، أَوْ غَيْرَ مُفْضَّلٍ يَوْمَ الدِّينِ.

وَمَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ قَلِيلَ الْحُظُوظِ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَدْ يَكُونُ هُوَ الْمَفْضَّلَ عَلَى نَظَائِرِهِ يَوْمَ الدِّينِ.

الدرس الثامن: الْآيَاتُ مِنْ (٢٢ - ٣٩).

وهو درس يَشْتَمِلُ عَلَى أَوَامِرٍ وَنَوَاهِي وَوَصَايَا عَظِيمَةٍ، وَبَيِّنَاتٍ حَوْلَهَا.

وَمُعْظَمُ هَذِهِ التَّعْلِيمَاتِ مِمَّا أَلْتَقَتْ عَلَيْهِ الرِّسَالَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ لِلْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ، وَلَا سِوَا كِتَابِ التَّوْرَةِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْوَصَايَا الْعَشْرَ الَّتِي كَتَبَهَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ.

الدرس التاسع: الْآيَاتُ مِنْ (٤٠ - ٦٠).

وهو درس يَشْتَمِلُ عَلَى مُتَابَعَةٍ مُعَالَجَاتٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مُشْرِكِي

مَكَّة، بِحَسَبِ المَوَاقِفِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا إِيَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، وَهَذِهِ المَوَاقِفُ مِنْهَا مَا هُوَ قَدِيمٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ جَدِيدٌ.

الدرس العاشر: الآيات من (٦١ - ٦٥).

وهو درسٌ يَغْرِضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ لِقِطَةً مِنْ إِبَاءِ إِبْلِيسَ أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ، وَذَرِيعَتِهِ فِي رَفْضِهِ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ، وَإِعْلَانِهِ بِوَقَاحَةِ الْإِزَامِ نَفْسَهُ بِأَنْ يُغْوِيَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ سَائِقًا لَهُمْ إِلَى شِقَائِهِمِ الْأَبَدِيِّ، إِذَا أَخْرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَمْ يُمِثَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَعَ بَيَانِ بَعْضِ خُطْئِهِ فِي الْإِغْوَاءِ، وَبَيَانِ مَا رَدَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ.

الدرس الحادي عشر: الآيات من (٦٦ - ٧٠).

وهو درسٌ يَكْشِفُ اللَّهُ بِهِ أَنَّ النَّاسَ يَلْجِئُونَ إِلَى رَبِّهِمْ عِنْدَ الْمَخَافِ وَالضَّرُورَاتِ الشَّدِيدَاتِ، فَإِذَا كَشَفَ عَنْهُمْ الضَّرَّ مُسْتَجِيبًا لِأَدْعِيَتِهِمْ أَعْرَضُوا، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ كَرَّمَهُ.

وفيه معالجة للنَّاسِ تُجَاهَ هَذِهِ الصِّفَةِ الذَّمِيمَةِ فِيهِمْ، النَّاتِجَةُ عَنْ اخْتِيَارِهِمُ الْحَرَّ، لِيَتَهَرَّبُوا مِنْ تَأْدِيَةِ وَاجِبِ الشُّكْرِ.

الدرس الثاني عشر: الآيتان: (٧١) و(٧٢).

وهو درسٌ يَشْتَمِلُ عَلَى عَرْضِ لِقِطَةٍ مِنْ لِقَطَاتِ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ، لِأَنَّ الْعِلَاجَ الدَّعْوِيَّ الْحَكِيمَ، يَنْبَغِي أَنْ يُذَكَّرَ الْمَعَالِجُ أَنَا فَأَنَّا بِالْمُرْهَبَاتِ الْمَحْذَرَاتِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ.

الدرس الثالث عشر: الآيات من (٧٣ - ٧٧).

وهو درسٌ فِيهِ تَرْبِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، بِحَسَبِ الصِّيْغَةِ الظَّاهِرَةِ، وَهُوَ فِي حَقِيقَتِهِ يَتَضَمَّنُ إِثْنًا سَأَلَ لِكِبْرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ، مَنْ تَنَازَلَ الرَّسُولُ أَوْ تَهَاوَنَهُ فِي بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ، حَتَّى يَكْفُوا عَنْ اتِّخَاذِ وَسَائِلَ لَا سِتْدْرَاجَهُ بِزُخْرُفٍ

من القول قد يُوحى إلى الرسول ﷺ باحتمال وجود مصلحة للدين وانتشاره بين كبراء قومه، إذا لأن لهم في بعض ما يطالبونه به مما لا يؤثر على جوهر الدين وأحكامه وشرائعه، فحذر الله رسوله من أن يركن إليهم، ولو ركوناً قليلاً، وهذا التحذير يتضمن تحذيراً للدعاة من أمتهم من الاستجابة لمطالب الكبراء والقادة السياسيين في إصدار الفتاوى التي فيها تنازل عن أحكام الله.

الدرس الرابع عشر: الآيات من (٧٨ - ٨١).

وهو درس فيه أمر للرسول ﷺ فلسائر المسلمين، بإقامة الصلاة في أوقات بينها الآيات، وأمر له بأن يتهجّد من الليل نافلة له، وهذا موصول بالآية الأولى من السورة، التي جاء فيها أن الله أسرى بعبيده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وقد ثبت في السنة أن الصلوات الخمس قد فرضت في ليلة الإسراء.

وفي هذا الدرس آيات مدنية التنزيل فيها بشارة له بفتح مكة، وتعليم له ما يدعو به ربه في هذه المناسبة، وما يعلنه عند دخولها فاتحاً.

الدرس الخامس عشر: الآية (٨٢).

وهي قول الله عز وجل في السورة: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢).

وهذا الدرس موصول بما جاء في السورة بشأن القرآن في:

(١) الآيتين: (٩) و(١٠).

(٢) والآيتين: (٤٥) و(٤٦).

الدرس السادس عشر: الآيتان: (٨٣) و(٨٤).

وفيه بيان بشأن وصف الإنسان الجحود، إذ من شأنه أن الله إذا أنعم عليه أغرض ونأى بجانبه، عن الصلة بربه وعن العمل بمراضيه، أما إذا مسه الشرّ مساً فإنه يكون يؤوساً.

وهذا الدرس موصول بما جاء في السورة عَنْ وَصْفِ سُلُوكِ الْإِنْسَانِ فِي:
(١) الْآيَةِ (١١).

(٢) الْآيَاتِ مِنْ (٦٧ - ٦٩).

الدرس السابع عشر: الْآيَةُ (٨٥).

وفي هذا الدرس بيان السؤال عن الرُّوح، والإجابة الربَّانية على هذا السؤال.

ويظهر أَنَّهُ قَدْ تَكَرَّرَ السُّؤالُ عَنِ الرُّوحِ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ مِنْ مَرَاكِلِ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ الدَّعْوِيَّةِ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْإِجَابَةُ عَلَى هَذَا السُّؤالِ.

الدرس الثامن عشر: الْآيَاتِ مِنْ (٨٦ - ٨٩).

وهو دَرَسٌ يَتَعَلَّقُ بِالْقُرْآنِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ شَاءَ لَمَسَحَ مِنْ ذَاكِرَةِ الرَّسُولِ ﷺ كُلَّ مَا يَحْفَظُ مِنْهُ.

وفي هذا الدرس تَحَدُّ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ بِأَن يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٍ ظَهِيرًا.

وهذا الدرس مَوْصُولٌ بِمَا جَاءَ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ فِي السُّورَةِ، فِي:

(١) الْآيَةِ: (٩).

(٢) الْآيَةِ: (٣٩).

(٣) الْآيَتَانِ: (٤٥) و(٤٦).

(٤) الْآيَةِ: (٦٠).

(٥) الْآيَةِ: (٧٣).

(٦) ثَمَّ فِي الْآيَتَيْنِ: (١٠٥) و(١٠٦) مِنَ الدَّرْسِ (الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ).

الدرس التاسع عشر: الآيات من (٩٠ - ١٠٠).

وفيه بيان بَعْضِ مطالب الَّذِينَ كَفَرُوا التَّعْتِيَّةَ مِنَ الرَّسُولِ، مع بيان حَكْمَةِ اللَّهِ فِي عَدَمِ الاستجابة لمطالبِهِمْ.

وفيه إنذارٌ لَهُمْ وَتَرْهيبٌ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ يَوْمَ الدِّينِ.

وفيه رَدٌّ عَلَى بَعْضِ أَسْئَلَةٍ مَطْوِيَّةٍ فِي النَّصِّ مُوجَّهَةٍ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَتَذَلُّ الإِجَابَةِ الْمَصْرُوحُ بِهَا عَلَيْهَا.

الدرس العشرون: الآيات من (١٠١ - ١٠٤).

وفيه عرضٌ لِقِطَاطٍ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَمَا قَالَهُ اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى بِأَمْرِ تَكْوِينِيٍّ، جَعَلَهُمْ بِهِ مُوزَّعِينَ فِي أَشْجَاتٍ مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ يَأْتِي بِهِمْ إِلَى فِلِسْطِينَ لَفِيفًا، لِيَكُونَ لَهُمْ عُلُوٌّ مُؤَقَّتٌ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ لِيَلْأَقُوا مَصِيرَهُمُ الْمَحْتَمُومَ، بِحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ فِيهِمْ.

الدرس الحادي والعشرون: الآيات من (١٠٥ - ١١١) آخر السورة.

وفي هَذَا الدَّرْسِ حَدِيثٌ عَنِ الْقُرْآنِ، وَتَعْلِيمٌ لِلرَّسُولِ مَا يَقُولُهُ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ، وَثَنَاءٌ عَلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وفيه تَوْجِيهٌ لِلدَّعَاءِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ.

وتوجيهٌ لِأَدَبِ مِقْدَارِ رَفْعِ الصَّوْتِ فِي الصَّلَاةِ.

وختمت السُّورَةُ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خُطَابًا لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ مُسْلِمٍ:

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدِّينِ وَكَبِيرَةً تَكْبِيرًا ۝﴾.



(٥)

التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (الإسراء)

(١) الآية

قال الله عز وجل:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِنشَاءِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١﴾.

تمهيد:

هذه الآية الأولى من السورة، تُعْجِدُ بحادثة الإسراء التي فَضَّلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بها رسوله مُحَمَّدًا ﷺ، إِذْ أُسْرِيَ بِهِ فِي جُزْءٍ مِنْ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ، إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فِي الْقُدْسِ الَّذِي بَارَكْ حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ بِبَصَرِهِ، وَلِيُسْمِعَهُ بِأُذُنِهِ مَسْمُوعَاتٍ هِيَ مِنْ آيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ، إِذْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ فِيهَا قَدْ وَهَبَهُ رَبُّهُ خَصِصَتَيْنِ انْفَرَدَ بِهِمَا: إِحْدَاهُمَا فِي سَمْعِهِ، فَجَعَلَتْهُ يَسْمَعُ مِنَ الْأَصْوَاتِ مَا لَا يَسْمَعُ غَيْرُهُ مِنَ السَّامِعِينَ وَالسَّامِعَاتِ. وَأُخْرَاهُمَا فِي بَصَرِهِ، فَجَعَلَتْهُ يُبْصِرُ بِعَيْنَيْهِ مِنَ الْمُرْتَبَاتِ مَا لَا يُبْصِرُ غَيْرُهُ مِنَ الْمُبْصِرِينَ وَالْمُبْصِرَاتِ، بِدَلِيلِ وَضْفِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَي: إِنَّهُ هُوَ وَخَدَهُ الْمُخْتَصُّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ حِينَئِذٍ بِأَعْظَمِ سَمْعٍ وَأَعْظَمِ بَصَرٍ.

التدبر التحليلي:

• ﴿سُبْحَنَ﴾: اسْمٌ عَلَّمٌ لِمَعْنَى الْبَرَاءَةِ وَالتَّنْزِيهِ، وَفِيهِ زِيَادَةُ الْأَلْفِ وَالنُّونِ، وَهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ.

وهو في موضع المصدر، والأصل فيه: «أَسَبَّحُ تَسْبِيحًا» أَي: أَنْزَلَهُ

تَنْزِيهَاً، وَأَقْدَسُ تَقْدِيساً، وَتَأْتِي: «سُبْحَانَ اللَّهِ» وَنَحْوَهَا بِمَعْنَى التَّعْجِبِ، أَوْ بِمَعْنَى التَّعْجِيبِ مِنْ أَمْرِ عَظِيمٍ.

والتَّنْزِيهُ بِالنُّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ تَبَرُّتُهُ مِنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَكَمَالِ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى، وَكَمَالِ أَفْعَالِهِ وَتَصَارُيفِهِ.

• ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾: كَلِمَةُ «سُبْحَانَ» أَضِيفَتْ إِلَى اسْمِ الْمَوْصُولِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ هُنَا مَنْ دَلَّتْ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ، وَهُوَ اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - فَهُوَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكَهُ وَبَارَكَ حَوْلَهُ.

وجاء التعبير عن الله عَزَّ وَجَلَّ بِاسْمِ الْمَوْصُولِ لِأَنَّ الْغَرَضَ التَّعْرِيفُ بِحَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا صَلَاةُ الْمَوْصُولِ، وَالتَّعْجِيبُ مِنْ تَخْصِيصِ الرَّسُولِ بِهَا، وَبِمَا جَرَى لَهُ فِيهَا مِنْ جَلَائِلِ الْهَبَاتِ وَالْمَنْنِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالْمَشَاهِدَاتِ الْعَجِيبَاتِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾: أَي: جَعَلَهُ يَسْرِي لَيْلاً. يُقَالُ لُغَةً: «سَرَى وَأَسْرَى فُلَانٌ اللَّيْلَ، وَسَرَى وَأَسْرَى بِهِ» أَي: قَطَعَهُ بِالسَّيْرِ. وَيُقَالُ: «سَرَى فُلَانٌ بِفُلَانٍ لَيْلاً وَأَسْرَى بِهِ» أَي: جَعَلَهُ يَسِيرُ فِيهِ. فَفِعْلاً «سَرَى، وَأَسْرَى» مَتَمَاثِلَانِ فِي حَالَتِي اللَّزُومِ وَالتَّغْدِيَةِ.

«سَرَى يَسْرِي، سَرِيًّا، وَسَرَايَةً، وَسَرَى» وَ«أَسْرَى يُسْرِى إِسْرَاءً» أَي: سَارَ لَيْلاً، قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ: وَقَدْ يُذَكَّرُ اللَّيْلُ تَوْكِيداً.

وَالْمَرَادُ: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقَدْ فَهِمَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ مِنْ إِضَافَةِ «عَبْدٍ» إِلَى الضَّمِيرِ الْعَائِدِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي أَسْرَى بِهِ أَنَّهَا إِضَافَةٌ تَشْرِيفٌ لِرَسُولِهِ.

أقول: هذه الإضافة جاءت نظيرها بالنسبة إلى زكريا عليه السلام،

وجاءت كلمة «عَبْد» مضافةً إلى ضمير المتكلم العظيم «عبدنا» بشأن «محمد» و«داود» و«أيوب» و«نوح» عليهم السلام. وجاءت كلمة «عباد» مضافةً إلى ضمير المتكلم العظيم مراداً بها الرُّسل، وغير الرُّسل مِنْ عباد الله مؤمنين وغير مؤمنين.

ويظهر لي أَنَّ ذَكَرَ مُحَمَّدٍ ﷺ هُنَا بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ يُقْصَدُ بِهِ دَفْعُ أَوْهَامٍ مَنْ يَتَوَهَّمُ ارْتِفَاعَ مَنْزِلَتِهِ عَنْ كَوْنِهِ عَبْدًا لِلَّهِ، بِسَبَبِ الْإِسْرَاءِ بِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَمَا تَبِعَهُ مِنْ عُرُوجٍ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، كَمَا تَوَهَّمُ النَّصَارَى إِذْ أَلْهُوا عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِشُبْهَةِ أَنَّ أُمَّهُ حَمَلَتْ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَبِي.

• ﴿لَيْلًا﴾: أي: في لَيْلٍ ذِي شَأْنٍ عَظِيمٍ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ خُصُوصِيَّةً جَلِيلَةً، فَاسْرَى فِيهِ وَعَرَجَ بِرَسُولِهِ، كَمَا جَعَلَ لِلَّيْلَةِ الْقَدْرِ خُصُوصِيَّةً فَأَنْزَلَ فِيهَا الْقُرْآنَ.

دَلَّ ذَكَرُ: ﴿لَيْلًا﴾ مَعَ أَنَّ الْإِسْرَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ بِاللَّيْلِ، وَدَلَّ تَنْكِيرُهُ عَلَى أَنَّهُ لَيْلٌ عَظِيمٌ ذُو خُصُوصِيَّةٍ جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ.

• ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ: الْكَعْبَةُ الْمَشْرِقَةُ وَسَائِرُ الْمَكَانِ الْمَخْصَصُ لِلْعِبَادَةِ حَوْلَهَا. وَسُمِّيَ حَرَامًا لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ مَكَانَهُ آمِنًا مَمْنُوعًا بِالْأَمْرِ التَّكْوِينِيِّ مِنْ نَحْوِ الْبَرَائِكِينَ وَالزَّلَازِلِ وَالْخُسُوفِ، وَمَمْنُوعًا بِالْأَمْرِ التَّكْلِيفِيِّ، مِنْ نَحْوِ التَّقَاتِلِ وَالْعُدُوانِ وَالْإِضْرَارِ فِيهِ وَإِرَادَةِ الْإِلْحَادِ فِيهِ بِظُلْمٍ.

الْحَرَامُ: هُوَ فِي اللَّغَةِ الْمَمْنُوعُ مِنْهُ، أَوْ مِنْ فِعْلٍ شَيْءٍ غَيْرِ مَأْذُونٍ بِهِ فِيهِ، أَوْ مِنَ الْقُرْبِ مِنْهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَرَمَ مَكَّةَ بِأَنَّهُ حَرَمٌ آمِنٌ:

فَقَالَ تَعَالَى بِشَأْنِهِ مُتَحَدِّثًا عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فِي سُورَةِ (الْقَصَصِ/ ٢٨)

مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿... أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وَقَالَ تَعَالَى أَيْضًا فِي سُورَةِ (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنَحْفَظُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِئَابُطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمُ اللَّهُ بِكَفُورٍ ﴿٦٧﴾﴾.

ووصف الله البيت الحرام بأنه مُبَارَكٌ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، فقال عز وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.
فالمسجد الحرام وما حوله حَرَمٌ آمِنٌ، وَبَرَكَاتُ اللَّهِ مِنْ بِلَادِ الدُّنْيَا تُجِئُ إِلَيْهِ وَهُوَ مُبَارَكٌ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ، وَأَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ.
• ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى: هُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ.

الْأَقْصَى: أَي: الْأَبْعَدُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ مَسْجِدٌ أُسِّسَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ أَبْعَدُ مِنْهُ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَتُوجَدُ مَعَابِدُ وَثَنِيَّةٌ كَثِيرَةٌ مُنْتَشِرَةٌ فِي الْأَرْضِ، أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَأَبْعَدُ.

ولم يذكر المؤرخون وجودَ مَسْجِدٍ أُسِّسَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ أَقْرَبَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَلَا أَرَى مَانِعًا مِنْ أَنَّهُ كَانَتْ تَوْجَدُ مَسَاجِدُ أُسِّسَهَا بَعْضُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، إِلَّا أَنَّهَُا دَرَسَتْ وَمُحِيتْ آثَارُهَا، وَلَا دَاعِي لِحَمْلِ لَفْظَةِ «الْأَقْصَى» عَلَى مَعْنَى الْقَصِيِّ، وَاعْتِبَارِ «أَفْعَلَ» التَّفْضِيلِ مُسْتَعْمَلًا عَلَى غَيْرِ بَابِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾: أَي: الَّذِي جَعَلْنَا فِيهِ وَحَوْلَهُ بَرَكَاتٍ مَادِيَّةٍ مِنْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ، وَمَعْنَوِيَّةٍ مِنْ فُيُوضِ عَطَاءَاتِ اللَّهِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ:

كَثُرَتِ الرِّوَايَاتُ ذَوَاتُ الْأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ، إِلَّا أَنَّ فِي مُتُونِهَا اخْتِلَافًا بِالْبَسْطِ وَالْإِيجَازِ، وَبِتَقْدِيمِ وَتَأْخِيرِ بَعْضِ الْأَحْدَاثِ، وَيَتَعَذَّرُ الْجَمْعُ بَيْنَهَا فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ، وَأَوَّلَاهَا بِالذِّكْرِ رَوَايَةٌ جَاءَتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ طَرِيقِ شَيْبَانَ بْنِ فَرُوحٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا ثَابِتُ الْبُنَانِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«أَتَيْتُ بِالْبُرَاقِ - وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلُ فَوْقِ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُتَهَيِّ طَرَفِهِ - قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ. قَالَ: فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرِبُطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ. قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرِ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ. فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اخْتَرْتُ الْفِطْرَةَ.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِأَدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِإِبْنِ الْحَالَةِ: عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَرَحَّبَا، وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ. فَرَحَّبَ وَدَعَا

لِي بِخَيْرٍ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام. قِيلَ: مَنْ هَذَا؟. قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟. قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السُّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرْفُهَا كَأَذَانِ الْفَيْلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ^(١). قَالَ: فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟. قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَيَّ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ

(١) الْقِلَالُ: جَمْعُ «قُلَّةٍ» وَهِيَ إِنَاءٌ مِنْ فَخَّارٍ، مِنْهُ كَبِيرٌ وَمِنْهُ صَغِيرٌ، وَالْقُلَّةُ مِنْ قِلَالٍ هَجَرَ تَسْعُ نَحْوَ قُرْبَتَيْنِ مَاءً، وَقَدَرُ الْقُلَّتَيْنِ بِالمِسَاحَةِ: ذِرَاعٌ وَرُبُعُ الذِّرَاعِ، طَوْلًا وَعَرْضًا وَغُمْقًا.

التَّخْفِيفَ. قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةً. قَالَ: فَتَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«لَمَّا كَذَّبْتَنِي فُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِئْتُ أَخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ».

وأقول: إِنَّ مِنْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ قَدْ كَانَتْ لِكَامِلِ ذَاتِهِ، الْجَامِعَةِ لِرُوحِهِ وَنَفْسِهِ وَكُلِّ خَصَائِصِ حَيَاتِهِ الدُّنْيَا، وَادِّعَاءِ أَنَّهَا كَانَتْ مَنَامًا مَنَقُوضٌ بِتَكْذِيبِ فُرَيْشٍ لِلْإِسْرَاءِ، إِذْ لَوْ كَانَتْ مَنَامًا لَمْ يَجِدُوا تَعَلَّةً لَتَكْذِيبِهَا، وَادِّعَاءِ أَنَّهَا كَانَتْ بِالرُّوحِ لَا بِكَامِلِ الذَّاتِ خُرُوجٌ بِالْمِنَّةِ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ، وَلَا دَاعِيٍ لَهُ، إِذْ لَيْسَ فِي حَادِثَتِي الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ مَا يُتَافَى الْجَائِزَاتِ الْعَقْلِيَّةِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَالِاسْتِغَالُ بِمُنَاقَشَةِ آرَاءِ النَّاسِ الَّتِي لَا قِيَمَةَ لَهَا فِي هَذَا الْمَجَالِ، تَشْوِيشٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، وَفُضُولٌ يُعَكِّرُ صَفَاءَ الْأَفْكَارِ، وَيُهْدِرُ بَلَا فَائِدَةٍ مِنْ ثَمِينِ الْأَعْمَارِ.

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ مَّأْيَلِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: أَي: لِنُرِيَهُ بِأَدَاةِ بَصَرِهِ، وَنُسَمِعَهُ بِأَدَاةِ سَمْعِهِ، بَعْضُ آيَاتِنَا الْعُظْمَى، وَقَدْ دَلَّ عَلَى الْمَطْوِيِّ قَوْلُ اللَّهِ

عَزَّ وَجَلَّ فِي وَضْفِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: أَي: فَقَدْ سَمِعَ وَرَأَى مِنْ آيَاتِنَا الْعُظْمَى.

دَلَّ عَلَى حُضُورِهِ بِكَامِلِ ذَاتِهِ الْبَشَرِيَّةِ وَتَخْصِيصِهِ بِهَذِهِ الْمِنَّةِ التَّوَكِيدِ بِالْمُؤَكَّدَاتِ: «إِنَّ - وَالْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ - وَضَمِيرُ الْفَضْلِ».

وَوُضِفَ الرَّسُولُ بِأَنَّهُ: «السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» يُفِيدُ تَخْصِيصَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، بِغَايَةِ السَّمْعِ، وَغَايَةِ الْبَصَرِ، لِإِدْرَاكِ بَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ الْعُظْمَى الْمَسْمُوعَةِ بِأَدَاةِ السَّمْعِ، وَالْمُرْتَبَةِ بِأَدَاةِ الْبَصَرِ.

وَالْآيَاتُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي رَأَاهَا بِبَصَرِهِ وَسَمِعَهَا بِسَمْعِهِ قَدْ كَانَتْ حِينَئِذَا عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَشَاهَدَ بِبَصَرِهِ السِّدْرَةَ الْمُنْتَهَى، وَشَاهَدَ مِنْ عَجَائِبِ آيَاتِ اللَّهِ مَا شَاهَدَ.

فَالْآيَةُ تَدُلُّ بِصَدْرِهَا عَلَى الْإِسْرَاءِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَتَدُلُّ بِآخِرِهَا: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ عَلَى الْمِعْرَاجِ الَّذِي جَاءَ تَفْصِيلُ بَعْضِ أَحْدَاثِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ، أَي: وَعَرَجْنَا بِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ حَتَّى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا الْعُظْمَى. وَدَلَّ عَلَى كَوْنِهَا عُظْمَى اسْتِعْمَالُ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ فِي: ﴿مِنْ ءَايَاتِنَا﴾.

السَّنَةُ الَّتِي ائْتَنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا عَلَى رَسُولِهِ بِالْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ:

وَرَدَتْ فِي تَحْدِيدِ السَّنَةِ الَّتِي ائْتَنَّ اللَّهُ فِيهَا عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ عِدَّةُ رَوَايَاتٍ لَيْسَ فِيهَا مَا يَرْقَى إِلَى دَرَجَةِ الصَّحِيحِ أَوْ الْحَسَنِ.

فَقِيلَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِثَلَاثِ سَنِينَ، وَقِيلَ: قَبْلَهَا بِأَرْبَعِ سَنِينَ، وَقِيلَ: قَبْلَهَا بِخَمْسِ سَنِينَ، وَقِيلَ: قَبْلَهَا بِسَنَةٍ، وَقِيلَ: قَبْلَهَا بِثَمَانِيَةِ عَشْرِ شَهْرًا.

وقد نظرت إلى تَرْتِيب نُزُول سورة (الإسراء) فَوَجَدْتُ أنها الخمسون بحسَب تَرْتِيب النزول، وأنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَوَّل سورة مَدَنِيَّة وهي سورة (البقرة/ ٨٧ نزول) سِتًّا وَعَشْرِينَ سورة، وَقَدْ عَدَدْتُ صفحاتها مع صفحات سورة (الإسراء) فوجدتها (١٩٦) صفحة تَزِيدُ أو تنقص أقل من صفحة، ووجدت أنَّ هذه الصفحات تعادل ثُلث المصحف تقريباً.

ثم نظرتُ في قول الله عزَّ وجلَّ في أواخر سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْرٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ۝١٦﴾

﴿عَلَى مُكْرٍ﴾: أي: على تَمَهُّلٍ فيه تَوَقُّفٌ وانتظار بَيْنَ تَنْزِيلِ نُجُومِهِ.

فرايتُ أنَّ ثُلث المصحف مع حِكْمَةِ التَّمَهُّلِ يَحْتَاجُ خَمْسَ سِنِينَ أو أَرْبَعَ سِنِينَ تَنْزَلُ فيها نجومه.

ولهذا أَسْتَبْعِدُ بِشِدَّةٍ أَنْ يكون هذا القدر قد نَزَلَ في أَقَلِّ مِنْ أَرْبَعِ سِنِينَ، وقياساً على مَا نَزَلَ قَبْلَهُ مِنْ سُورٍ مَكِّيَّةٍ.

وعلى هذا فَمِنَّةُ اللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - على رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالإسراء والمعراج، قد كانت قبل الهجرة بخَمْسِ سِنِينَ، أو بأَرْبَعِ سِنِينَ على أَقَلِّ تقدير.

وعلى هذا فالصلوات الخمس قد فُرِضَتْ في السَّنَةِ الثَامِنَةِ، أو التاسعة، مِنْ بَعَثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لأنها قد فُرِضَتْ في لَيْلَةِ الإسراء والمعراج، كما جاء في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الصريحة.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الأول من دُرُوس سورة (الإسراء) والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعاونته ومدِّه.



(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثاني من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (٢ - ٨)

قال الله عز وجل:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكَيْلًا ۝ (٢) ذُرِّيَّةَ مَن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ (٣) وَقَضَيْنَا
إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ۝ (٤)
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
وَجَعَلْنَاكُم أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ (٦) إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا
جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلُوا النَّبِيرَا ۝ (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِن عُذْتُمْ عَدَنًا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝ (٨)﴾.

القراءات:

- (٢) • قرأ أبو عمرو: [أَلَّا يَتَّخِذُوا] بياء الغائبين. وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ بقاء المخاطبين. وبيّن القراءتين تكاملاً في الأداء البياني، إحداهما في الحديث عن بني إسرائيل، والأخرى خطاباً لهم.
- (٧) • قرأ ابن عامر، وشعبة، وحمزة، وخلف: [لِيَسُوءَ] أي: لِيَسُوءَ اللَّهُ وُجُوهَكُمْ.

وقرأها الكسائي: [لِنُسُوءَ] بضمير المتكلم العظيم. وقرأها باقي القراء العشرة: [لِيَسُوءُوا] أي: لِيَسُوءَ عِبَادُ لَنَا وُجُوهَكُمْ. وبين هذه القراءات تكامل في الأداء البياني، وتفنن في التعبير، فالفاعل الحقيقي المقدر هو الله، والفاعل السببي الناس، ومؤدّى القراءات واحد.

تمهيد:

هذا دَرَسٌ يَسْتَمِلُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ آتَى مُوسَى كِتَابَ التَّوْرَةِ، وَجَعَلَهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَعْلَمَهُمْ فِيهِ بَلَقَطَاتٍ بَارَزَاتٍ مِنْ تَارِيخِهِمُ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، الَّذِي سَيُخَالِفُونَ فِيهِ التَّعْلِيمَاتِ الَّتِي أُنْزِلَتْ إِلَيْهِمْ فِي كِتَابِ التَّوْرَةِ، فَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ إِفْسَاداً عَرِيضاً مَرَّتَيْنِ، بِإِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ، وَاخْتِيَارَاتِهِمُ الَّتِي لَا جَبَرَ فِيهَا، وَيَعْلُونَ فِي الْأَرْضِ عُلوّاً كَبِيراً، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ فِي كِلْتَا الْمَرَّتَيْنِ، فَيَسْلُطُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يُكْثِرُونَ فِيهِمُ الْقَتْلَ، وَيُعَذِّبُونَهُمْ، وَيَذْلُونَهُمْ، وَيَمْزُقُونَهُمْ تَمْزِيقاً شَدِيداً.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ هِيَ سُنَّتُهُ الدَّائِمَةُ فِيهِمْ كُلَّمَا أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ وَطَغَوْا وَبَغَوْا، فَإِذَا اسْتَقَامُوا وَاسْتَكَانُوا رَحِمَهُمْ.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ عَاقِبَةَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِمْ، قَبْلَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْكَافِرِينَ مِنْهُمْ بِمُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ بَعْدَ بَعْثَتِهِ، وَبِالْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، كَمَا هِيَ عَاقِبَةُ سَائِرِ الْكَافِرِينَ.

ثُمَّ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى هَذَا الدَّرْسِ بِتَأَمُّلٍ وَإِمْعَانٍ، وَإِلَى الدَّرْسِ الْأَوَّلِ الَّذِي تَضَمَّنَ التَّنْوِيَةَ بِمَنَّةِ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَبِمَا جَاءَ فِي مَطْلَعِ الدَّرْسِ الثَّالِثِ الْآتِي، مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَيْهِ، الْمَتَحَلِّيِّ بِأَكْمَلِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لِلنَّاسِ، وَبِمَا سَبَقَ أَنْ أُنْزَلَ اللَّهُ فِي سُورَةِ (فَاطِر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) مِنْ بَيَانِ أَنَّ اللَّهَ أَوْرَثَ الْكِتَابَ الَّذِينَ اضْطَفَأُوا مِنْ عِبَادِهِ، وَهُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَذَلِكَ فِي الْآيَةِ (٣٢) مِنْهَا، وَبِمَا سَبَقَ أَنْ أُنْزَلَ فِي سُورَةِ (الْأَعْرَافِ/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بِشَأْنِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿٧٨﴾

إِذَا أُمِعْنَا النَّظَرَ فِي كُلِّ هَذَا وَتَدَبَّرْنَا مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ إِلْمَاحًا ظَهَرَتْ لَنَا
الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَضَّلَ مُحَمَّدًا ﷺ، عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، بِمِنَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ وَبِمَكَالَمَتِهِ بِالْوَحْيِ إِلَيْهِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ أَوْ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَبِمِنَّةِ مُشَاهَدَاتِ جَلِيلَاتِ لِبَعْضِ آيَاتِهِ الْعَظْمَى، فِي مُقَابِلِ مِنَّةِ اللَّهِ عَلَى مُوسَى إِذْ نَادَاهُ وَكَلَّمَهُ بِجَانِبِ الطَّوْرِ تَكْلِيمًا، وَإِذْ قَرَّبَهُ نَجِيًّا.

الحقيقة الثانية: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَضَّلَ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ الْمَعْجَزَ الْجَامِعَ لَزُبْدَةِ مَا أُنْزِلَ فِي كُتُبِهِ السَّابِقَةِ، وَالْخَاتِمَ لِكُتُبِهِ لِلنَّاسِ، وَالْمَحْفُوظَ بِحِفْظِهِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - فِي مُقَابِلِ كِتَابِ التَّوْرَةِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، وَجَعَلَهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلِهَذَا لَمْ يَتَكَفَّلِ اللَّهُ بِحِفْظِهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ أَجْمَعَ لَصِفَاتِ الْكَمَالِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمِنْ كُلِّ كِتَابٍ أُنْزِلَ عَلَى رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ.

الحقيقة الثالثة: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، وَرُبَّمَا عَلَى غَيْرِهِ مِنْ رُسُلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بِأَنَّهُمْ غَيْرُ صَالِحِينَ لِحَمْلِ رِسَالَةِ اللَّهِ لِلنَّاسِ، لِأَنَّ تَارِيخَهُمُ الْمُسْتَقْبَلِي الَّذِي سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ الْمَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ، أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ حَرِيصِينَ عَلَى الْعُلُوِّ فِيهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِإِرَادَتِهِمُ الْحَرَّةَ الَّتِي لَا مُجْبِرَ لَهَا، وَبِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحَكَمَ فَعَدَلَ سَيُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ إِفْسَادًا عَرِيضًا، مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ.

ولهذا لم يَضْطَفِهِمْ لِهَذَا الْمَجْدِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ أَنْ يَحْمِلُوا رِسَالَةَ تَبْلِيغِ

رِسَالَتِهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَهِدَايَةِ عِبَادِ اللَّهِ بِالْحَقِّ، إِذْ تَارِيخُهُمُ الْمُسْتَقْبَلِيُّ لَا يُؤْهِلُهُمْ لِحِمْلِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ.

إِنَّ دُرِّيَّاتِهِمْ مُؤَهَّلُونَ لِمَشَارَكَةِ إِبْلِيسَ فِي إِغْوَائِهِ وَإِغْرَائِهِ وَإِضْلَالِهِ لِدُرِّيَّاتِ آدَمَ.

الحقيقة الرابعة: أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ وَشَمَلَ عِلْمُهُ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ - قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أَيْ عِرْقٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ لُغَةٍ، صَالِحَةٌ بِمَجْمُوعِهَا لَا بِكُلِّ أَفْرَادِهَا، لِحِمْلِ رِسَالَتِهِ الْخَاتِمَةِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، وَتَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ، وَلِهِدَايَةِ عِبَادِ اللَّهِ بِالْحَقِّ، وَإِذَا حَكَمُوا فَهُمْ يَحْكُمُونَ بِالْعَدْلِ، وَأَنْهُمْ سَتَبَقَى فِيهِمْ طَائِفَةٌ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَهَذَا يَكُونُ بِاخْتِيَارِهِمُ الْحُرِّ دُونَ جَبْرِ وَلَا إِكْرَاهٍ.

وَمِنْ أَجْلِ هَذَا اضْطَفَاهُمُ اللَّهُ وَاجْتَبَاهُمْ لِحِمْلِ رِسَالَتِهِ الْخَاتِمَةِ، وَحِفْظِ كِتَابِهِ الْمَجِيدِ الْقُرْآنِ، وَتَبْلِيغِهِمَا لِلنَّاسِ، وَلِهِدَايَةِ عِبَادِ اللَّهِ مِنْ مُخْتَلَفِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ بِالْحَقِّ، وَقَدْ أَثْبَتَ تَارِيخُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَحَمَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝﴾

الْمَحُ أَنَّ الْعُطْفَ فِي ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ هُوَ عَلَى مُلَاحَظِ ذَهْنًا مِنْ فَخْوَى الْآيَةِ الْأُولَى، أَي: أَتَيْنَا مُحَمَّدًا الْقُرْآنَ، وَفَضَّلْنَاهُ بِالْإِسْرَاءِ وَالْمِغْرَاجِ، وَأَتَيْنَا مُوسَى الَّذِي كَلَّمْنَاهُ بِجَانِبِ الطُّورِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا كِتَابَ التَّوْرَةِ.

وَلَدَى التَّائُمْلِ فِيمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، وفيما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، نُذِرُكَ بِوُضُوحِ ارْتِقَاءِ دَرَجَاتِ التَّفْضِيلِ الَّتِي فَضَّلَ اللَّهُ بِهَا مُحَمَّدًا خَاتَمَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ارْتِقَاءً كَبِيرًا، عَلَى دَرَجَاتِ التَّفْضِيلِ الَّتِي فَضَّلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام.

﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: أي: وَجَعَلْنَا كِتَابَ التَّوْرَةِ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ، الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَافْتَخَرُوا بِأَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ لَهُمْ، لَا عَلَى مَعْنَى التَّخْصِصِ بِأَنَّهُ هُدًى لَهُمْ فَقَطْ، بَلْ هُوَ هُدًى لِلْمُضْرِبِينَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمُوسَى وَاتَّبَعُوهُ، وَهُدًى لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ وَأَرَادَ أَنْ يُؤْمِنَ بِالْحَقِّ الْمَنْزِلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَاسْتَمَرَ هُدًى لِلصَّالِحِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ حَتَّى هَجَرُوهُ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ.

هُدًى: أي: هَادِيًا وَدَآلًا وَمُرْشِدًا إِلَى الْحَقِّ، وَالْخَيْرِ، وَالْفَضِيلَةِ، وَإِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ. اسْتُعْمِلَ الْمَصْدَرُ بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ يَدُلُّ عَلَى مَا فِيهِ نَجَاحٌ وَفَلَاحٌ وَعَاقِبَةٌ حَسَنَةٌ مُسْعِدَةٌ لِمَنْ اتَّبَعَهُ.

﴿.. أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾: أي: وَاسْتَمَلَّ هَذَا الْكِتَابُ عَلَى خِطَابٍ مِنَ اللَّهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ تَفْسِيرُهُ، أَنْ لَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ رَبِّكُمْ وَكِيلًا تَكْلُونُ إِلَيْهِ أُمُورَ هِدَايَتِكُمْ إِلَى مَا فِيهِ سَعَادَتُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ، وَفِي آخِرَتِكُمْ، وَمِنْ اتِّخَاذِهِمْ وَكِيلًا مِنْ دُونِ اللَّهِ اتِّكَالُهُمْ عَلَى عَقُولِهِمْ وَأَرَائِهِمْ، وَاتِّكَالُهُمْ عَلَى الْمَوْسُوسِينَ الْمُضِلِّينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَاتِّكَالُهُمْ عَلَى مَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ يَمْتَلِكُونَهُ مِمَّا وَهَبَهُمُ اللَّهُ رِبَّهُمْ.

الوكيل: هُوَ مَنْ يُسَلَّمُ إِلَيْهِ أَمْرٌ مَا، وَيُكْتَفَى بِهِ فِي اخْتِيَارِهِ أَوْ عَمَلِهِ، مِنْ قِبَلِ مَنْ جَعَلَهُ وَكِيلًا لَهُ.

والتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ: الْإِسْتِسْلَامُ إِلَيْهِ، وَنَفْوِضُ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ وَتَحْقِيقُ مَا

يَرْغَبُ فِيهِ الْمُتَوَكِّلُ إِلَيْهِ، مَعَ الْقِيَامِ بِالْأَسْبَابِ الْمُسْتَطَاعَةِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ طَاعَةً لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

لَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلَفٌ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمْ، تَرَكُوا التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ، وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ وُكَلَاءَ، فَاسْتَسْلَمُوا لَأَرَائِهِمْ، وَعُقُولِهِمْ الَّتِي أَضَلَّتْهُمْ، وَاسْتَسْلَمُوا لِلْمُضِلِّينَ الْمَغْوِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَاتَّخَذُوهُمْ وُكَلَاءَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، بِسَبَبِ اتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ الْفُجُورَ وَالْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَحِينَ آتَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَمْكِيناً فِي الْأَرْضِ اتَّخَذُوا لَهُ أَسْبَابَهُ تَوَكَّلُوا عَلَى مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوَى، فَطَعَنُوا وَبَعَّوْا، فَعَلَيْهِمْ الْآلَانُ أَنْ يَتَرَقَّبُوا سُنَّةَ اللَّهِ فِيهِمُ الَّتِي أَعْلَمَهُمْ بِهَا، وَهِيَ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَيُتَبَّرُ وَيُحْطَمُ مُنْشَاتِهِمْ تَتَبِيراً شاملاً.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: نِدَاءٌ مِنَ اللَّهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، أَي: يَا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَقَدْ ظَهَرَ لِي تَرْجِيحُ احْتِمَالِ النِّدَاءِ عَلَى الْإِحْتِمَالَاتِ الْآخَرَى.

وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الَّذِينَ بَقِيََتْ لَهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَعْدَ الطُّوفَانِ كَانُوا مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ «سَامٍ» وَلَدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَفِي تَذْكِيرِهِمْ بِأَنَّهُمْ ذُرِّيَّةٌ مِنْ آمَنَ بِنُوحٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، تَحْذِيرٌ لِلْمَاجِيِّ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا سَبِيلًا غَيْرَ سَبِيلِ رَبِّهِمْ، عَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ لِنِقْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَإِنْزَالِ عِقَابِهِ الْمَعَذِّبِ لَهُمْ، كَمَا عَذَّبَ أَقْوَاماً قَبْلَهُمْ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَغْرَقَ قَبْلَهُمُ الْكَافِرَ مِنْ أَوْلَادِ نُوحٍ مَعَ سَائِرِ كَفَّارِ قَوْمِهِ.

• ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ عَبْدًا شَكُورًا﴾: أَي: إِنَّ نُوحاً كَانَ مُتَحَقِّقاً بِعِبُودِيَّتِهِ لِرَبِّهِ، خُضُوعاً وَطَاعَةً وَامْتِنَالاً لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَكَانَ شَكُوراً لِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، مِنْ دَرَجاتٍ مَرْتَبَةٍ الْأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ.

شُكُور: صِيغَةُ مبالغَةٍ لاسم الفاعل «شَاكِر» فَوَضَفُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ
بأنَّهُ «شُكُور» يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ فِي شُكْرِهِ عَلَى الْقِيَامِ بِحُقُوقِ دَرَجَاتِ
مَرْتَبَةِ التَّقْوَى مِنْ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ، بَلْ كَانَ يَقُومُ بِفَضَائِلِ
دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، وَدَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ، تَقَرُّبًا إِلَى رَبِّهِ بِنَوَافِلِ
الْعِبَادَاتِ وَالْقُرْبَاتِ.

وفي هذا الشَّاء من الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، اسْتِحْثَاتٌ
لِرَاغِبِي الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَاتِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونُوا شُكُورِينَ،
مُسْتَرِيدِينَ مِنْ نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ وَالْقُرْبَاتِ.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ
عُلُوقًا كَبِيرًا ﴿١﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ
فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٢﴾﴾:

• ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾: أَي: وَأَنْهَيْنَا إِلَىٰ بَنِي
إِسْرَائِيلَ فِيمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ كِتَابٍ خَبَرًا عَنْ تَارِيخِهِمُ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، فَوَصَّلَ
إِلَيْهِمْ، وَوَعَاهُ مِنْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ، وَمَنْ سَمِعَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، وَيَشْمَلُ عُنْوَانُ
«الْكِتَابِ» كُلُّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رُسُلِهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ مِنْ كُتُبٍ هِيَ مُلْحَقَةٌ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ مُوسَى، وَيُسَمُّونَهَا أَسْفَارَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَيَجْعَلُونَ لَهَا عُنْوَانُ
«الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ» لِأَنَّ أَنْبِيََاءَهُمْ وَرُسُلَهُمْ يَحْكُمُونَ بِالتَّوْرَةِ الْكِتَابِ الْمَنْزَلِ
عَلَىٰ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقال لغة: «قَضَىٰ إِلَيْهِ الْأَمْرُ» أَي: أَنْهَاهُ إِلَيْهِ، أَصْلُ مَعْنَى «الْقَضَاءُ»
فِي اللَّغَةِ، إِمْضَاءُ الشَّيْءِ وَإِنْهَائُهُ وَإِتْمَامُهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِنْهَاءَ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ
بِحَسْبِهِ، قَوْلًا أَوْ فِعْلًا أَوْ إِرَادَةً أَوْ حُكْمًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

• ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾: أَي: أُقْسِمُ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ إِفْسَادًا

عَرِيضاً مُتَشِيراً مَرَّتَيْنِ كُتِبَتَيْنِ، بِدَلِيلٍ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ وَصَفَهُمْ فِي سُورَةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿..كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

فَدَلَّ هَذَا الْبَيَانُ عَلَى أَنَّ دَابَّهُمْ أَنَّ يَسْعَوْا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، مَهْمَا وَجَدُوا إِلَى الْإِفْسَادِ سَبِيلًا، وَهَذَا فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَحَيْثُمَا وَجَدُوا.

فِإِعْلَامُهُمْ بِالْإِفْسَادِ مَرَّتَيْنِ، مِنْ ضِمْنِ سَعْيِهِمِ الْإِفْسَادِيَّ الْعَامَّ، يَدُلُّ بِوُضُوحٍ عَلَى أَنَّهُمَا مَرَّتَانِ كُبْرَيَانِ مُتَّفَقِمَتَانِ فِي الشَّنَاعَةِ وَالْإِنْتِشَارِ.

الفساد: التَّلَفُ وَالْعَطَبُ، وَتَحَوُّلُ الشَّيْءِ عَنْ كَوْنِهِ صَالِحًا نَافِعًا إِلَى كَوْنِهِ غَيْرَ صَالِحٍ وَلَا نَافِعٍ، بَلْ رُبَّمَا يَصِيرُ ضَارًّا كَرِيهًا مُفْسِدًا لِلْأَشْيَاءِ الصَّالِحَةِ.

والإفساد: العمل الذي تكون به هذه الأمور، فَمِنْ الْإِفْسَادِ الدَّعْوَةُ إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، وَنَشْرُ الْمَذَاهِبِ الْفِكْرِيَّةِ الْمُضَادَّةِ لِلدِّينِ اللَّهِ الْحَقِّ، وَنَشْرُ الْوَثْنِيَّاتِ، وَأَعْمَالِ السَّوِّءِ، وَإِقَامَةُ مُؤَسَّسَاتِ الرِّبَا، وَدُورِ الزَّنا، وَدُورِ شُرْبِ الْخُمُورِ، وَإِنْشَاءُ مَعَامِلٍ صُنْعِيَّهَا، وَإِلْزَامُ النِّسَاءِ بِإِزَالَةِ حِجَابِهِنَّ عَنْ غَيْرِ مَحَارِمِهِنَّ، وَإِقَامَةُ دُورِ الْقِمَارِ، وَنَشْرُ أَعْمَالِ الْقِمَارِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى إِبَاحَةِ مُحَرَّمَاتِ الْفُرُوجِ، وَتَأْسِيسُ الْمُنْظَمَاتِ الْعَلَنِيَّةِ وَالسَّرِّيَّةِ الَّتِي تَعْمَلُ لِهَذِمِ دِينِ اللَّهِ وَإِقَامَةِ نَظْمٍ مُضَادَّةٍ لَشَرَائِعِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، كَالْمَارَكِسِيَّةِ الشُّيُوعِيَّةِ، وَالْإِسْتِرَاكِيَّةِ، وَالْمَاسُونِيَّةِ، وَالْهَيْبِيَّةِ، وَالْفُوضُويَّةِ، وَمَنْظَمَةُ شُهُودِ يَهُوَهَ.

وَمِنْ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ تَخْرِيبُ الْعِمْرَانِ لَا لِإِصْلَاحِهِ أَوْ إِقَامَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَقَتْلُ النُّفُوسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ وَأَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ وَسُلْبُهَا بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَمِنْ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ نَشْرُ الرُّشُوءِ بَيْنَ مُوظَّفِي الدَّوْلَةِ وَعُمَّالِهَا،

وَتَذَرِيهِمْ عَلَى تَرْكِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤَدُّوهَ مَا لَمْ يَأْخُذُوا مَا يُرْضِيهِمْ مِنْ مَالٍ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، أَوْ تَكُنْ لَهُمْ بَادِئُهُ مَضْلَحَةً خَاصَّةً.

إلى غير ذلك من أمور يَعُسِّرُ إحصاؤها.

• ﴿وَلَعَلَّانْ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: أي: وأقسم ليكوننَّ لَكُمْ عُلُوًّا كَبِيرٌ في الأرض بأسبابٍ منكم وتمكينٍ مِنَّا، فيكونُ لَكُمْ سُلْطَانٌ وَقُوَّةٌ وَكَلِمَةٌ نَافِذَةٌ، وَتَمَكُّنٌ مِنْ تَحْقِيقِ مَا تُرِيدُونَ ضَمْنَ حُدُودِ سُلْطَانِكُمْ.

وَيُظْهَرُ أَنَّ هَذَا الْعُلُوَّ الَّذِي وَصَفَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ كَبِيرٌ، يَكُونُ لَهُمْ مَرَّتَيْنِ أَيْضًا.

وَقَدْ نَظَرْتُ فِي تَارِيخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ أَجِدْ لَهُمْ عُلُوًّا كَبِيرًا كَمَا وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا فِي عَهْدِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَمِنْ مَظَاهِرِ هَذَا الْعُلُوِّ خُضُوعُ «بَلْقَيْسَ» مَلِكَةِ «سَبَأَ» وَرِجَالِ دَوْلَتِهَا «السُّلَيْمَانَ» وَمُلْكِهِ الْعَظِيمِ، وَاسْتِمْرَارُ هَذَا الْعُلُوِّ قَلِيلًا بَعْدَ «سُلَيْمَانَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ فَسَدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَعَبَدُوا الْأَوْثَانَ، وَاتَّبَعُوا الْأَهْوَاءَ وَالشَّهَوَاتِ، وَتَصَارَعُوا عَلَى السُّلْطَةِ، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ «نَبُوخَذَ نَصْرَ» الْمَعْرُوفَ بِاسْمِ «بُخْتَنْصَرَ» مَلِكِ «بَابِلَ وَأَشُورَ». إِذْ غَزَاهُمْ عِدَّةَ غَزَوَاتٍ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ وَسَبَى، وَكَانَ آخِرُهَا سَنَةَ (٥٨٨) قَبْلَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي هَذِهِ الْغَزَاةِ سَبَى كُلَّ شَعْبِ يَهُوذَا، وَأَخْرَقَ هَيْكَلَ سُلَيْمَانَ، وَبَقِيَتْ مَدِينَةُ «أَوْرُشَلِيمَ» خَرَابًا، حَتَّى مَكَّنَهُمْ مِنَ الْعُودَةِ إِلَيْهَا مَلِكُ فَارِسَ «دَارِيُوسَ» بَعْدَ أَنْ انْتَصَرَ الْفَرَسُ عَلَى الْبَابِلِيِّينَ فِي عِدَّةٍ مَعَارِكٍ.

وَكَانَتْ عُودَتُهُمْ بَعْدَ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ سَبْيِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرُوا.

وَاتَّجَهَتْ آرَاءُ الْمَفْسِّرِينَ الْاجْتِهَادِيَّةِ إِلَى أَنَّ الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ قَدْ مَضَتْ، وَأَنَّهَا كَانَتْ مِنْ قِبَلِ الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ، إِذْ دَخَلَتْ مَمْلَكَةَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ تَحْتَ سُلْطَانِ الرُّومَانِيِّينَ سَنَةَ (٤٠) ق.م. ثُمَّ حَاوَلُوا الْخُرُوجَ عَلَى سُلْطَةِ

الرُّومَانِيَّينَ، فَأَرْسَلَ قَيْصَرُ رُومِيَّةَ جَيْشاً كَبِيراً لِلْقَضَاءِ عَلَى تَمَرُدِّهِمْ نَحْوَ سَنَةِ (٤٠) م فَخَرَّبَ أُورُشَلِيمَ، وَأَحْرَقَ مَغْبَدَهُمْ، وَقَتَلَ مِنَ الْيَهُودِ قَرَابَةَ «أَلْفِ أَلْفٍ» وَأَسَرَ قَرَابَةَ تِسْعِينَ أَلْفاً مِنْهُمْ، ثُمَّ أَجْهَزَ الرُّومَانِيُّونَ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ سَنَةَ (١٣٥) م فَتَشَتَّتَ الْيَهُودُ فِي الْأَرْضِ، وَلَمْ تَخْرُجْ أُورُشَلِيمُ مِنْ حَكْمِ الرُّومَانِ حَتَّى فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي عَهْدِ خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَنَةَ (١٦) هَجْرِيَّةً صُلْحاً.

لَكِنِّي رَأَيْتُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ غُلُوٌّ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُبُولِ عَهْدِهِ، يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ غُلُوٌّ كَبِيرٌ كَمَا وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى وَاقِعِهِمُ الْمَعَاصِرِ الْآنَ، فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ الْمَسِيحِيِّ وَبِدَايَاتِ الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ، وَجَدْنَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَوْجَدُوا بِأَسْبَابِهِمْ وَتَمَكَّنَ لِلَّهِ لَهُمْ أَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: إِفْسَادُهُمُ الْعَرِيضُ فِي كُلِّ الدُّنْيَا، وَفِي كُلِّ دَوْلٍ الْأَرْضِ وَشُعُوبِهَا، فَمَا مِنْ شَرٍّ وَلَا فَسَادٍ وَلَا حَرْبٍ قَامَتْ، وَلَا مَذْهَبٍ أَوْ حِزْبٍ يُحَارِبُ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَدِينَهُ الْحَقَّ، إِلَّا كَانُوا هُمْ شَيَاطِنُهُ الْمَدْبُرِينَ لِخَطِيئِهِ، وَأَصْحَابَ الْمَكْرِ وَالْكَيْدِ وَالْعَمَلِ لِبَذْرِ بُزُورِهِ، وَنَشْرِ نَبَاتِهَا الْخَبِيثَاتِ حَتَّى تَعَمَّ بِلَادَ الدُّنْيَا، وَجَمِيعَ شُعُوبِ الْأَرْضِ، مُحْتَالِفِينَ مَعَ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: بُلُوغُهُمْ إِلَى غُلُوٍّ فِي الْأَرْضِ لَمْ تَبْلُغْهُ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ، وَلَا شَعْبٌ مِنَ الشُّعُوبِ، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ دَوْلَةٌ ظَاهِرَةٌ عَظُمَى تَحْكُمُ الْعَالَمَ بِمَا لَدَيْهَا مِنْ قُوَّةٍ قَاهِرَةٍ.

لَقَدْ سَاقُوا وَقَادُوا رُؤُوسَ دَوْلِ الْعَالَمِ، عَنْ طَرِيقِ مَنَظَّمَاتِهِمُ السَّرِّيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِي أَسَّسُوهَا، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا:

(١) المحافل «الماسونية».

(٢) نوادي «الرؤتاري».

(٣) نوادي «الليونز» = الأسود.

(٤) الأحزاب الشيوعية والاشتراكية.

(٥) منظمة «شهود يهوه».

(٦) فرق «الباطنية».

إلى غيرها من المنظمات الفاسدة المفسدة^(١)، فلا تجد دَوْلَةً في العالم تُشَهَّرُ بجرائمهم وتطالب بمحاسبتهم عليها على الرغم من شاعتها ضدَّ شعب فلسطين الأعزل، مع سيطرتهم على الاقتصاد وأموال شعوب الأرض، وسيطرتهم على الإعلام، وعلى معظم القوى العلمية والثقافية والإدارية في العالم، إلى غير ذلك.

فالذي أراه أن ما عَلَيْهِ الْيَهُودُ الْآنَ هُوَ الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ إِفْسَاداً وَعُلُواً كبيراً في الأرض.

وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْفَهْمَ مَا جَاءَ قُبِيلَ أَوَاخِرِ سُورَةِ (الإسراء) الَّتِي أَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيَّ فِي تَدْبِيرِهَا:

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنبِيَ إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٤﴾﴾.

تأخير هذه الآية إلى أواخر السورة، فيه حِكْمَةٌ تَرَكِ الْأَمْرَ لِلْآرَاءِ الاجتهادية، حتَّى يكشف الواقع المراد به، وهو من الإعلام بالمستقبلات إعلاماً لَمَحِيًّا.

(١) انظر ما جاء في كتاب «مكايد يهودية عبر التاريخ» وما جاء في كتاب «ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، آخر الجزء الثاني» وكتاب «كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» للمؤلف.

أي: وَقُلْنَا بِأَمْرِ تَكْوِينِي لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: اسْكُنُوا فِي شَتَاتِ الْأَرْضِ، وَقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا إِذْ أَتَرُوا التَّخْلُصَ مِنْ ضَغْطِ حُكْمِ الرُّومَانِيِّينَ سَنَةَ (١٣٥) م.

﴿..فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٣٦﴾﴾: أي: فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ تَحْقِيقِ وَعْدِ الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، جِئْنَا بِكُمْ مِنْ مَوَاقِعِ شَتَاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا، طَامِعِينَ بِأَنْ تَكُونَ لَكُمْ دَوْلَةٌ عَظُمَى تَحْكُمُ الْعَالَمَ حُكْمًا ظَاهِرًا، لَا حُكْمًا مِنْ وَرَاءِ حُجُبِ أَجْرَائِكُمْ وَعَمَلَاتِكُمْ مِنْ شُعُوبِ الْأَرْضِ، وَعِنْدِيذِ سَيِّئِهِ عِبَادٌ لَنَا وَجُوهَكُمْ، وَيَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى مَعْظَمِينَ لَهُ، كَمَا قَدَّرْنَا أَنْ يَدْخُلُوهُ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ فِي عَهْدِ خِلَافَةِ عُمَرَ، وَمَعَهُمُ الْقُوَّةُ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يُحْطَمُونَ مُنْشَاتٍ قُوَاتِكُمْ تَحْطِيمًا شَدِيدًا يَجْعَلُهَا كَأَكْوَامِ الرَّمَالِ وَالْحَصَى.

الْلفيفُ: مَا اجْتَمَعَ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَخْلَاطٍ شَتَّى، وَمِنْ قَبَائِلَ شَتَّى. وَظَاهِرٌ أَنَّ اجْتِمَاعَ الْيَهُودِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فِي فِلِسْطِينَ مِنَ الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ، وَمِنْ كُلِّ بِلَادِ الشَّتَاتِ تَحْقِيقُ لِلْوَعْدِ الرَّبَّانِيِّ بِأَنْ يَأْتِيَ بِهِمْ لَفِيفًا لِيَلْأَقُوا مَصِيرَهُمُ الْمَحْتَمَّ، مُسْتَفِيدِينَ قَبْلَ ذَلِكَ مِمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ عُلوِّ كَبِيرٍ، وَلَمْ يُجْمَعُوا مِثْلَ هَذَا الْجَمْعِ قَبْلَهُ فِي تَارِيخِهِمْ.

قول الله عز وجل:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿١٣٧﴾﴾:

أي: وَمِمَّا أَنْهَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ عَلَى مَا سَبَقَ تَذَكُّرُهُ، قَوْلُهُ لَهُمْ: فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ وَعْدِ عِقَابِنَا لَكُمْ عَلَى إِفْسَادِكُمْ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ، ضِمْنَ تَصَارِيفِنَا الَّتِي تَجْرِي مِنْ خِلَالِ أَسْبَابِ إِنْسَانِيَّةٍ يَتَحَرَّكُ فِيهَا النَّاسُ بِاخْتِيَارَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، فَدَخَلُوا دِيَارَ مُدُنِكُمْ وَبِلَدَاتِكُمْ عَنْوَةً قَاهِرِينَ لَكُمْ يَتَرَدَّدُونَ ذَاهِبِينَ وَآيِبِينَ،

يَبْحَثُونَ عَمَّنْ يَقْتُلُونَهُ مِنْكُمْ، وَعَمَّنْ يَأْسِرُونَ، وَعَمَّا يَسْلُبُونَ وَيَغْنَمُونَ مِنْ
أَمْوَالِكُمْ وَمُمْتَلَكَاتِكُمْ، وَنَحْنُ نُمَكِّنُهُمْ مِنْ ذَلِكَ عِقَابًا لَكُمْ.

النَّاسُ: هُنَا الشَّدَّةُ فِي الْحَرْبِ.

جَاسُوا: تَرَدَّدُوا ذَاهِبِينَ وَآيِبِينَ بَحْثًا وَتَفْتِيشًا، يُقَالُ لُغَةً: «جَاسَ،
يَجُوسُ، جَوْسًا، وَجَوْسَانًا» أَي: تَرَدَّدَ ذَاهِبًا وَآيِبًا. وَلَا يَفْعَلُ هَذَا فِي دِيَارِ
الْأَعْدَاءِ إِلَّا مَنْ دَخَلَهَا عَنُوةً، مُقَاتِلًا مُحَارِبًا، يَقْتُلُ، وَيَأْسِرُ، وَيَسْلُبُ،
وَيَغْنَمُ، بِقُوَّةٍ لَا قِبَلَ لِعَدُوِّهِ بِصَدِّهَا.

خِلَالَ الدِّيَارِ: أَي: فِي كُلِّ مَنَفْرِجٍ مَا بَيْنَ شَيْئَيْنِ مِنْ دِيَارِكُمْ.

وهذا يَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ دُخُولِ كُلِّ مَكَانٍ مِنْ
دِيَارِهِمْ، حَتَّى مَا كَانَ مِنْ خِلَالِ دَاخِلِ بُيُوتِهِمْ.

وَأُثْبِتَ التَّارِيخَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ «بُخْتَنْصَرَ» مَلِكَ بَابِلَ
وَأَشُورَ، فَقَتَلَ وَأَسَرَ وَغَنِمَ، وَسَاقَ بِقَايَاهُمْ أَسْرَى إِلَى بِلَادِهِ، كَمَا سَبَقَ
بَيَّانُهُ.

وَأَفْهَمَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ أَنَّهُ بَيَّانُ قُرْآنِيٍّ
دَلَّ عَلَى أَنَّ مَضْمُونَ هَذَا الْوَعْدِ قَدْ تَحَقَّقَ فِعْلًا قَبْلَ نَزُولِ هَذَا الْبَيَانِ
الْقُرْآنِيِّ.

الْوَعْدُ: هُوَ الْإِخْبَارُ بِمَا تَمَّ الْعَزْمُ عَلَى فِعْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، يَكُونُ فِي
الْخَيْرِ، وَيَكُونُ فِي الشَّرِّ، يُقَالُ لُغَةً: وَعَدَهُ بِفَعْعٍ، وَوَعَدَهُ بِضَرٍّ.

وَوَعَدَ اللَّهُ هُنَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْعِقَابِ عَلَى أَيْدِي عِبَادِهِ لَهُ غَيْرَ مُؤْمِنِينَ،
هُوَ بِمَعْنَى تَمْكِينِ الْبَابِلِيِّينَ وَالْأَشُورِيِّينَ، مِنْ اتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ لِلتَّسَلُّطِ عَلَى
عَصَاةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكُفَّارِهِمْ مَعَ وُجُودِ الْكِتَابِ الرَّبَّانِيِّ عِنْدَهُمْ، وَوُجُودِ
أَنْبِيَاءٍ فِيهِمْ يُحَذِّرُونَهُمْ، وَيُنْذِرُونَهُمْ عِقَابَ اللَّهِ لَهُمْ، وَبِمَعْنَى إِغْرَاءِ مَلِكِ بَابِلَ

وَأَشُورِ بِالطَّمَعِ بِالتَّسْلُطِ عَلَيْهِمْ، وَسَلِّبِهِمْ مَا يَمْلِكُونَ، وإغراء الإسرائيليين بالتكبر والتفاخر والتعالي على الملوك بما كان لهم من مُلكٍ عظيم أيام سُلَيْمَانَ، وَأَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْمَلُوا لاسْتِرْجَاعِ هَذَا الْمُلْكِ الَّذِي فَقَدُوهُ، وَكَسْرِ رُؤُوسِ الْمُلُوكِ مِنْ حَوْلِهِمْ.

وسابقُ عِلْمِ اللَّهِ الْكَاشِفِ لأَحْدَاثِ الْمُسْتَقْبَلِ، يَكْفِي لِلْجَمْعِ بَيْنَ إِرَادَاتِ الْعِبَادِ الْحَرَّةِ الَّتِي لَا جَبَرَ فِيهَا، وَبَيِّنَ تَحْقِيقِ مُرَادِ اللَّهِ مِنْ بَاطِنِ أَعْمَالِ الْخَلَائِقِ الْإِرَادِيَّةِ.

لفظ «عباد» يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ الْمَوْجُودَاتِ ذَوَاتِ الْعِلْمِ، إِذْ هُمْ جَمِيعاً عِبَادٌ مَمْلُوكُونَ لِلَّهِ الرَّبِّ خَالِقِهِمْ، وَالْمَمْدَ لَهُمْ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، سِوَاءِ أَكَانُوا مُؤْمِنِينَ أَمْ كَافِرِينَ، حَتَّى الْمَلَائِكَةُ فَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُمْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَهُ أَحْسَنَتْهُ لِنَفْسِكُمْ وَلِإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾:

• ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴿٦﴾﴾: أَكْثَرَ نَفِيراً: أَي: أَكْثَرَ رِجَالاً قَادِرِينَ عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى الْقِتَالِ مِمَّا كُتِّمَ عَلَيْهِ قَبْلَ السَّيِّئِ.

المعنى: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ مُتَرَاخِيَةً ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّهَا نَحْوُ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَرْجَعْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ الْمُنْتَصِرَةَ عَلَى الَّذِينَ سَبَوْكُمْ، فَعُدْتُمْ إِلَى فِلِسْطِينَ.

الْكَرَّةُ: الرَّجْعَةُ، وَالْحَمْلَةُ الرَّاجِعَةُ إِلَى جِهَةِ الْعَدُوِّ لِقِتَالِهِ، بَعْدَ الْفِرَارِ مِنْ وَجْهِهِ أَوْ الْهَزِيمَةِ أَوْ الْإِنْكَسَارِ. وَالْكَرَّةُ: وَاحِدَةُ الْكَرِّ، وَهُوَ الرُّجُوعُ إِلَى الْوَرَاءِ لاسْتِنَافِ الْإِقْبَالِ إِلَى الْأَمَامِ.

هذه العبارة تُدُلُّ إِلْمَاحاً مَعَ النَّظَرِ إِلَى التَّارِيخِ أَنَّ بَعْضَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ

اتَّصَلُوا بِمَلِكِ فَارِسَ، حينما كانوا في أَسْرِ الْأَشُورِيِّينَ مِنْ غَيْرِ الْوَاقِعِينَ فِي الْأَسْرِ أَوْ مِمَّنْ فَرَّ مِنْهُمْ، وَحَرَّضُوهُ عَلَى قِتَالِهِمْ، وَوَعَدُوهُ بِأَنْ يُعَاوَنُوهُ، فَوَجَدَ مَلِكُ فَارِسَ الْفُرْصَةَ مُوَائِيَةً لَهُ لِلظَّفَرِ بِغَنِيمَةٍ كَبِيرَةٍ، فَحَارَبَ «كُورَشُ» مَلِكُ فَارِسَ الْبَابِلِيِّينَ، فَهَزَمَهُمْ، ثُمَّ حَارَبَهُمُ الْمَلِكُ بَعْدَهُ «دَارِيوسُ» فَفَتَحَ بَابِلَ، وَأَذِنَ لِلْيَهُودِ فِي سَنَةِ (٥٣٠) ق م أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيُجَدِّدُوا دَوْلَتَهُمْ، فَعَادُوا تَائِبِينَ إِلَى رَبِّهِمْ مِمَّا أَحْدَثُوا مِنْ كُفْرٍ وَفَسَادٍ وَإِفْسَادٍ.

لَكِنَّهُمْ عَادُوا إِلَى مَا كَانُوا قَدْ نُهُوا عَنْهُ مِنْ فِسَادٍ وَإِفْسَادٍ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ انتِقَامَاتٍ جُزْئِيَّةً، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عُلُوٌّ ظَاهِرٌ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى أَثَرُوا الْهَجْرَةَ مِنْ فِلِسْطِينَ، وَالتَّوَزَّعَ فِي بِلَادِ الدُّنْيَا غَرْبَهَا وَشَرْقَهَا وَجَنُوبَهَا وَشَمَالَهَا، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ وُجُودٌ بَارِزٌ فِي فِلِسْطِينَ.

• ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا...﴾ (٧) ﴿

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾: أي: إِنْ فَعَلْتُمْ مَا هُوَ حَسَنٌ يَرْضَاهُ اللَّهُ.

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾: أي: وَإِنْ فَعَلْتُمْ مَا هُوَ سَيِّئٌ قَبِيحٌ لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ.

هذا خطابٌ خَاطَبَ اللَّهُ بِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى مَادَّتَيْنِ مِنْ مَوَادِّ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ لِكُلِّ عِبَادِهِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ الْخَلْقَ.

المادة الأولى: مَنْ عَمِلَ عَمَلًا حَسَنًا يَرْضَاهُ اللَّهُ كَسَبَ لِنَفْسِهِ ثَوَابًا حَسَنًا، وَيَكُونُ بِذَلِكَ قَدْ أَحْسَنَ لِفَائِدَةِ نَفْسِهِ.

المادة الثانية: مَنْ عَمِلَ عَمَلًا سَيِّئًا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِعِقَابٍ يَسُوؤُهُ، وَيَكُونُ بِذَلِكَ قَدْ أَسَاءَ لِنَفْسِهِ، فَجَرَّ لِنَفْسِهِ عَذَابًا يُؤْلِمُهُ إِذَا لَمْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ بِمَقْتَضَى حُكْمَتِهِ. يُقَالُ لُغَةً: «أَسَاءَ فُلَانًا، وَأَسَاءَ لَهُ، وَأَسَاءَ إِلَيْهِ، وَأَسَاءَ عَلَيْهِ، وَأَسَاءَ بِهِ» أي: فَعَلَ بِهِ مَا يَكْرَهُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَأْوِيلَاتٍ لَا لُزُومَ لَهَا، إِذْ جَاءَ الِاسْتِعْمَالُ: ﴿فَلَهَا﴾ وَلَمْ يَأْتِ: فَعَلَيْهَا. يَبْدُ

أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ «عَلَى» للإشارة إلى أَنَّهُ قَدْ تَسَبَّبَ فِي أَنْ يَنْزِلَ الْعِقَابُ مُنْصَبًا عَلَيْهِ مِنْ فَوْقِهِ، وَكُلُّ مَا يَقْضِيهِ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا، لَهُ الْعُلُوُّ وَالْفَوْقِيَّةُ دَوَامًا.

قول الله عز وجل:

• ﴿.. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَوُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَذَرُوا فِيَّ الْآخِرَةِ﴾ (٧) ﴿٧﴾:

مَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (٧) يَنْبَغِي تَدْبِيرُهُ مَعَ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَقِبَ بَيَانِ لِقَاطِ مُوجَزَاتٍ جَدًّا مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ، وَبَعْدَ بَيَانِ أَنَّ فِرْعَوْنَ أَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي هُمْ فِيهَا فِي مِصْرَ، فَأَعْرَفَهُ اللَّهُ وَمَنْ مَعَهُ:

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (١٤) ﴿١٤﴾: أَي: وَقُلْنَا قَوْلًا تَكُونِيًّا مَسْبُوقًا بِقَدْرِ فَقْضَاءِ.

اتَّجَهَتْ آرَاءُ الْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: اسْكُنُوا أَرْضَ فِلِسْطِينَ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا، لَكِنِّي كَمَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ أَرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ (١٠٤) مُكْمَلَةٌ لِلْبَيَانِ الَّذِي جَاءَ فِي الْآيَةِ (٧) عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي تَوْزِيعِ عَنَاصِرِ قِصَايَا الْقِصَصِ وَالْأَخْدَاطِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ عَلَى نُصُوصٍ مُفَرَّقَةٍ، لِتُنْفِخَ فِيهَا تَكَامُلِيًّا مِنْ قَبْلِ مَنْ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مُتَدَبِّرِينَ.

وَالْمَعْنَى: فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ تَحْقِيقِ عُقُوبَتِكُمْ عَلَى إِفْسَادِكُمُ الْعَرِضِ فِي الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ، جِئْنَا بِكُمْ مِنْ مَوَاقِعَ تَفَرُّقِكُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى فِلِسْطِينَ، بِتَدْبِيرَاتٍ أَنْتُمْ تَتَّخِذُونَهَا، ظَانِينَ أَنَّهَا تَحَقِّقُ لَكُمْ مَا تُرِيدُونَ مِنْ سُلْطَانٍ، وَمُلْكٍ عَظِيمٍ، فَتَكُونُونَ فِي فِلِسْطِينَ لَفِيفًا مِنْ أَخْلَاطِ شَتَّى قَادِمَةٍ مِنْ شَرْقِ الدُّنْيَا وَغَرْبِهَا وَجَنُوبِهَا وَشَمَالِهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَبْعَثُ عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا يَغْلِبُونَكُمْ

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ سَاءِ الْعَذَابِ، وَلَا يَكُونُ هَدْفُهُمْ إِبَادَتَكُمْ، بَلْ هَدَفُهُمْ أَنْ يُعِيدُواكُمْ إِلَى وَضْعِكُمْ غَيْرِ الِاسْتِثْنَائِيِّ، وَهُوَ مَا ضُرِبَ عَلَيْكُمْ مِنَ الذَّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، الَّتِي تَسُوُّكُمْ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ، فَتُظْهِرُ آثَارَ هَذِهِ الْمَسَاءَةِ عَلَى وُجُوهِكُمْ دَوَامًا. أَوْ لَتَكُونَ غَايَةُ بَعْثِهِمْ تَحْقِيقَ هَذَا.

فَاللَّامَاتُ الْجَارَةُ فِي الْآيَةِ (٧) مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ» وَهُوَ مُسْتَفَادٌ مِنَ النِّظِيرِ السَّابِقِ، وَاللَّامَاتُ مَعْنَاهَا التَّعْلِيلُ، وَهِيَ فِي: [لِيسُوءُوا] - [لِيَذْخُلُوا] - [لِيَتَّبِعُوا].

وَدَلٌّ عَلَى الْحَالَتَيْنِ الْغَالِبَةِ وَالِاسْتِثْنَائِيَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْيَهُودِ، فِي سُورَةِ (آلِ عِمْرَانَ/ ٣ مَصْحَف/ ٨٩ نَزُول):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَنْ مَا تُلْفَعُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ الْنَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

فَالْوَضْعُ غَيْرُ الِاسْتِثْنَائِيِّ، الشَّامِلُ لِمُعْظَمِ أَحْوَالِ تَارِيخِهِمُ الَّذِي بَدَأَ بَعْدَ فَسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ وَسُقُوطِ مَمْلَكَتِهِمْ:

(١) أَنَّهُمْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ (= الضَّعْفُ وَالْهَوَانُ) أَيْنَمَا وَجِدُوا مَلَا حَقِّقِينَ لِقَاتِلِهِمْ، فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ، بِاسْتِثْنَاءِ حَالَةٍ يُمِدُّهُمْ اللَّهُ فِيهَا بِحَبْلِ مَعْنَوِيٍّ لِيُؤَدَّبَ بِهِمُ الْمُسْلِمِينَ الْعَصَاةَ، وَيُمْكِّنُ فِيهَا دَوْلًا مِنْ شُعُوبِ الْأَرْضِ مَنْ أَنْ تُعْطِيَهُمْ حَبْلٌ قُوَّةٍ يَسْتَعْلُونَ بِهِ.

(٢) أَنَّهُمْ بَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، أَي: حَلُّوا بِهِ، فَهُمْ مُقِيمُونَ دَائِمًا فِيهِ، مَا دَامُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ لَا يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، الَّذِي جَعَلَهُ عَامًّا شَامِلًا لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

(٣) أَنَّهُمْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ، أَي: التَّظَاهَرُ بِالضَّعْفِ وَالْحَاجَةِ وَالذَّلِّ، وَلَوْ كَانُوا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فِي الْوَاقِعِ.

هذه العقوبات الربّانية نزلت بهم بسبب أنّهم كانوا يكفّرون بآيات الله، وكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، وكانوا يغضون ربّهم، وكانوا يعتدون على عباد الله.

وأخلافهم الملتزمون بما كان عليه آباؤهم تنسحب عليهم هذه العقوبات الربّانية.

• ﴿...وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أي: وليدخلوا المسجد الأقصى منتصرين، ومُعظمين له ومُقدّسين، كما دخلوه كذلك أوّل مرّة. وهذا ينطبق على الأمّة الإسلامية المُحمّدية، الذين دخلوه في عهد خلافة عمر بن الخطّاب، فأحاطوه بالعناية والرعاية والنظافة والاحترام، وجعلوه مكاناً صالحاً للعبادة، بعد أن خربته وألقى عليه الأقدار والقّمّامات البابليّون، والرّومانيّون نكايّة باليهود وإذلالاً وإهانة لهم، ولم يدخلوه، بل خربوه ودمّروه وأحرقوه دون دخول إلى حرّمه دخول استمتاع وانتفاع.

• ﴿...وَلِيَسْتَرْوُوا مَا عَلُوا تَنْبِيْرًا﴾:

التّنبير: التّكسير، والتّحطيم، والتّفتيت، بشدّة.

﴿مَا عَلُوا﴾: أي: الذي علّوه منتصرين فاتحين من منشآت ومُؤسّسات اليهود في فلسطين «ما» اسم موصول، والضمير العائد عليه محذوف مقدّر ذهنًا.

وهذا يدلّ على أنّ هؤلاء الفاتحين من عباد الله، يملكون قوّة تفجيريّة قادّرة على التّنبير والتّفتيت بشدّة، حتّى يتحوّل البناء العظيم الشّاهق فيكون تلة من الرّملي والحصى.

والأحاديث الصحيحة تُبيّن أنّ معركة حاسمة فاصلة، ستكون بين المسلمين واليهود، وأنّ المسلمين سيكونون هم الغالبين المنتصرين، ولكنّ تحقيق هذا الوعد يتوقّف على المسلمين أنفسهم، فالأمر مشروط بأنّ

يَكُونُوا مُسْلِمِينَ حَقًّا، وبأن يُعَدُّوا لهذا الانتصار عُدَّتُهُ ضِمْنًا أَنْظَمَهُ اللهُ السَّبِيَّةَ فِي كَوْنِهِ.

وَلَكِنَّ عِقَابَ اللَّهِ لِلْيَهُودِ لَا يَكُونُ عِقَابَ اسْتِثْصَالٍ وَإِبَادَةٍ شَامِلَةٍ، لِمَا لِلَّهِ فِيهِمْ مِنْ حِكْمَةٍ أَوْ حِكْمٍ، كما كان لِلَّهِ مِنْ حِكْمَةٍ فِي إِنْظَارِ إِبْلِيسَ إِلَى إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ فِي مُتَابَعَةِ مَا أَنْهَاهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَيَانٍ عَنْ لَقَطَاتٍ مِنْ تَارِيخِهِمُ الْمُسْتَقْبَلِيِّ، يَنْصَحُهُمْ، وَيُحَذِّرُهُمْ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّ جَهَنَّمَ هِيَ عَاقِبَةُ الْكَافِرِينَ جَمِيعًا مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَلَئِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾:

فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي خَتَمَ اللَّهُ بِهَا هَذَا الدَّرْسَ الثَّانِي بَيَانُ ثَلَاثِ قَضَايَا وَجَّهَهَا اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهِيَ تَشْمَلُ عَامَّةَ الْيَهُودِ وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ﴾: أَي: بَعْدَ مُعَاقِبَةِ اللَّهِ لَكُمْ بِأَيْدِي عِبَادِهِ لَهُ (وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَهَمَّا مِنْ عِدَّةٍ أَدْلَةٍ وَقَرَائِنٍ) يُبْقِي اللَّهُ لَكُمْ الرَّجَاءَ بِأَنْ يَرْحَمَكُمُ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ ضِمْنَ عِبَادِهِ الْمَرْحُومِينَ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ الْخَاصَّةَ مَشْرُوطَةٌ بِالْإِيمَانِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِهِ، وَبِعَمَلٍ صَالِحٍ يُعْبَرُ عَنْ صِحَّةِ هَذَا الْإِيمَانِ وَالصُّدُقِ فِيهِ، أَخْذًا مِنْ دَلَالَاتِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَثِيرَةِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ بِإِسْلَامٍ مَنْ يُرِيدُ لِنَفْسِهِ النِّجَاةَ وَالسَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ مِنْهُمْ.

القضية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَئِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾:

أَي: وَإِنْ عُدْتُمْ إِلَى مِثْلِ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِفْسَادٍ عَرِيضٍ فِي الْأَرْضِ، وَطَمَعٍ فِي أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عُلُوٌّ كَبِيرٌ وَمُلْكٌ عَظِيمٌ، عُدْنَا إِلَى اتِّخَاذِ تَذْيِيرَاتٍ تُرْجِعُكُمْ إِلَى وَضْعِكُمْ الَّذِي ضُرِبَ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّلَّةِ وَالْمُسْكَنَةِ، مَعَ إِقَامَتِكُمْ الدَّائِمَةَ بِمَوْقِعِ غَضَبٍ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

وجاء في العبارة استعمال «إِنْ» للإشعار بأنَّهم بَعْدَ هَذِهِ الضَّرْبَةِ العنيفة الشَّدِيدَةِ، يَبْأُسُونَ مِنْ أَنْ يَتَحَرَّكُوا تَحَرُّكَاتٍ يَرَوْنَ أَنَّهَا قَدْ تُوصِلُهُمْ إِلَى الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَظْمَعُونَ فِيهِ.

وَتُسْعِرُ هَذِهِ العبارة أَيْضاً بِأَنَّ هَذِهِ الضَّرْبَةَ الْعَنِيفَةَ لَهُمْ تَكُونُ قَبْلَ نُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ تَتَابَعُ الْأَخْدَاثُ بَعْدَ نُزُولِهِ تَتَابَعاً مُتَوَاصِلاً حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ فِي خَاتِمَتِهَا، وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَقُولُ: «اللَّهُ».

ومع تتابع هذه الأحداثِ، يكون تفكير اليهود في الْعَوْدَةِ إِلَى اتِّخَاذِ تَدْبِيرَاتٍ تُعِيدُ لَهُمْ مُلْكَ سُلَيْمَانَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَبْعَدَةِ جَدًّا.

القضية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿... وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۖ﴾:

الْحَصِيرُ: الْحَاسِيسُ الْمَانِعُ مِنَ الْحَرَكَةِ، وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَى السَّجْنِ. أَيْ: وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ لِلْكَافِرِينَ سَجْنًا دَائِمًا، دَلَّ عَلَى الدَّوَامِ النُّصُوصُ الْكَثِيرَةُ الْقِطْعِيَّةُ بِأَنَّ الْكَافِرِينَ يَكُونُونَ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ.

هَذِهِ الْقَضِيَّةُ الَّتِي جَاءَتْ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ تَشْمَلُ كُلَّ الْكَافِرِينَ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ كُفَّارُ الْيَهُودِ، فَفِيهَا إِنْذَارٌ لَهُمْ بِعَذَابٍ خَالِدٍ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

جَهَنَّمَ: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ دَارِ الْعَذَابِ الَّتِي أُعْتِدَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لِيُعَذَّبَ فِيهَا الْكَافِرِينَ وَالْعَصَاةَ يَوْمَ الدِّينِ. وَهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعِلْمِيَّةِ وَالتَّائِيثِ.

وَيُقَالُ لِلْقَعْرِ الْبَعِيدِ فِي اللَّغَةِ: جَهَنَّمَ. وَيُقَالُ: بُئِرُ جَهَنَّمَ، أَيْ: بَعِيدَةُ الْقَعْرِ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الثاني من دروس سورة (الإسراء) والحمد لله على إمداده ومعونته وتوفيقه وفتحه.



(٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (الإسراء) الآيتان (٩ و ١٠)

قال الله عز وجل:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾

القراءات:

(٩) • قرأ ابن كثير: [الْقُرْآنَ] وضلاً ووقفاً. وحمزة في الوقف.

وقراها باقي القراء العشرة: [الْقُرْآنَ].

وهما وجهان عريان في النطق.

• وقراً حمزة، والكسائي: [وَيُبَشِّرُ] من فعل: «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُهُ» بمعنى

أخبره بما يسره، وهذه القراءة تناسب أصحاب الدرجات الدنيا من المؤمنين.

وقراها باقي القراء العشرة: ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ من فعل: «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُهُ» وهذه

القراءة تناسب أصحاب الدرجات الرفيعات من المؤمنين، إذ فيها معنى تعظيم البشارة الموجهة لهم.

فبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

تمهيد:

جاء في هذا الدرسُ بَيَانُ مِنَّةِ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَعَلَى الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ إِذْ جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هِيَ الْوَارِثَةُ لِكِتَابِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَهِيَ الْأُمَّةُ الْخَاتَمَةُ.

فِي مُقَابِلِ بَيَانِ مِنَّةِ اللَّهِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّوْرَةِ فِي الدَّرْسِ الثَّانِي.

وَبِالتَّقَابُلِ يَظْهَرُ تَفْضِيلُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَفْضِيلُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.

التدبر التَّحْلِيلِي:

ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ الْقُرْآنَ الْمَجِيدِ، وَأَبَانَ مِنْ صِفَاتِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ بَيَانِ ثَلَاثِ صِفَاتٍ:

الْصِّفَةُ الْأُولَى: أَنَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾:

هَذِهِ الْعِبَارَةُ تَتَحَدَّثُ عَمَّا فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى السُّلُوكِ الْإِرَادِيِّ الْأَقْوَمِ، النَّفْسِيِّ وَالْخُلُقِيِّ وَالْجَسَدِيِّ، لِلْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِتِّلَاءِ، فِي كُلِّ جَوَانِبِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ أَفْرَاداً وَجَمَاعَاتٍ.

﴿يَهْدِي﴾: أَي: يَدُلُّ وَيُرْشِدُ وَيُبَيِّنُ.

﴿أَقْوَمُ﴾: أَي: أَقْرَبُ إِلَى الْإِعْتِدَالِ الْكَامِلِ، يَقَالُ لُغَةً: «قَامَ الْأَمْرُ، أَوْ قَامَ الشَّيْءُ» أَي: اِعْتَدَلَ، وَلَفْظُ «أَقْوَمُ» أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ مِنْهُ، وَلَمَّا كَانَ اِعْتِدَالُ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ أَمْرًا نِسْبِيًّا كَانَ الْمُنَاسِبُ فِي هِدَايَتِهِ أَنْ تَكُونَ هِدَايَةُ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، أَي أَقْرَبُ إِلَى الْإِعْتِدَالِ. فَالْمَعْنَى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سُلُوكٍ بَشَرِيٍّ أَنْزَلَ اللَّهُ لَهُ حُكْمًا فَإِنَّهُ يَهْدِي فِيهِ لِلَّتِي هِيَ أَكْثَرُ

اسْتِقَامَةً مِنَ الْمَكْسُوبَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، وَأَكْثَرُ قَرَباً إِلَى الْإِعْتِدَالِ الْكَامِلِ، مِنْ كُلِّ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ دَاعٍ مَا، وَمِنْ كُلِّ مَا يُفَكِّرُ فِيهِ مُفَكِّرٌ مَا، وَمِنْ كُلِّ مَا يَضَعُهُ وَاضِعٌ نِظَامٍ أَوْ مُرْشِدٌ إِلَى عَمَلٍ، مَا لَمْ يَكُنْ مُطَابِقاً لِمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْقُرْآنِ.

وهذا يَشْمَلُ كُلَّ أَحْكَامِ السُّلُوكِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ الْجَسَدِيَّةِ وَغَيْرِ الْجَسَدِيَّةِ، مِمَّا يَدْعُو إِلَى فِعْلِهِ أَوْ يَدْعُو إِلَى تَرْكِهِ.

أمثلة :

(١) إِنَّ الْأَقْرَبَ إِلَى الْإِعْتِدَالِ الْكَامِلِ بَيْنَ الرِّهَابِيَّةِ وَالْإِبَاحِيَّةِ فِي قِضَاءِ شَهَوَاتِ الْفُرُوجِ، هُوَ الزَّوْجُ الْمَشْرُوعُ ضَمْنَ حُدُودِ مِثْنَى وَثَلَاثِ رُبُعٍ، وَضَمْنَ حُدُودِ الْأَحْكَامِ التَّفْصِيلِيَّةِ الْمُنَظَّمَةِ لَهُ.

(٢) إِنَّ الْأَقْرَبَ إِلَى الْإِعْتِدَالِ الْكَامِلِ بَيْنَ الرِّأَسَالِيَّةِ وَالْإِسْتِرَاكِيَّةِ، هُوَ نِظَامُ الْإِسْلَامِ الْاِقْتِسَادِي، الَّذِي يُعَادِلُ بَيْنَ حَقِّ الْفَرْدِ وَحُرِّيَّتِهِ، وَبَيْنَ حَقِّ الْجَمَاعَةِ.

(٣) إِنَّ الْأَقْرَبَ إِلَى الْإِعْتِدَالِ الْكَامِلِ بَيْنَ نِظَامِ الْحُكْمِ الْاِسْتِبْدَادِي، وَالنِّظَامِ الْدِيمُقْرَاطِي، هُوَ نِظَامُ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ الرَّبَّانِيِّ فِيمَا لِلَّهِ فِيهِ أَحْكَامٌ مُبْرَمَةٌ، وَالشُّورِي فِيمَا تَرَكَهُ اللَّهُ لِاجْتِهَادَاتِ النَّاسِ وَتَجَرِبَاتِهِمْ.

وهكذا إِلَى سَائِرِ نُظُمِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ فِي الْفُرُوعِ.

وَلَمْ يَتَعَرَّضْ الْبَيَانُ فِي هَذَا النَّصِّ لِلْخَبَرِيَّاتِ الَّتِي هِيَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِمَا كَانَ أَوْ بِمَا هُوَ كَائِنٌ أَوْ بِمَا سَيَكُونُ أَوْ بِمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ، مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْجَائِزَاتِ وَالْمُسْتَحِيلَاتِ عَقْلاً، لِأَنَّ نِصُوصاً قُرْآنِيَّةً كَثِيرَةً أَبَانَتْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ.

الصفة الثانية: أَنَّهُ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا يَنَالُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ، فقال الله عز وجل: ﴿... وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾:

التبشير: الإخبار بما يسر ويفرح. وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ وَفِيمَا يَسُوءُ مَعَ قَرِينَةٍ. يقال لغة: «بَشَّرَهُ، وَأَبَشَّرَهُ» أي: أخبره بما يسره. ويُقال: «بَشَّرَهُ بكذا، وَأَبَشَّرَهُ بِهِ، وَبَشَّرَهُ بِهِ».

المؤمنين: أي: المتصفين بالإيمان بما أوجب الله الإيمان به إيماناً صحيحاً صادقاً، واستمروا على هذا الإيمان دُونَ أَنْ يَنْقُضُوهُ بِمُكْفَرٍ مِنَ الْمَكْفَرَاتِ، حَتَّى مَاتُوا وَهُمْ مُسْلِمُونَ.

الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ: أي: الَّذِي يُعْبَرُونَ عَنْ صِحَّةِ إِيْمَانِهِمْ وَصِدْقِهِ بِأَعْمَالٍ صَالِحَاتٍ يُحِبُّ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْمَلُوهَا، وَهَذَا يَشْمَلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَمْرٌ إِجْبَابٍ، أَوْ أَمْرٌ نَذْبٍ وَتَرْغِيبٍ.

وَيَشْمَلُ أَيْضاً الْأَعْمَالَ الَّتِي يَتَحَقَّقُ بِهَا تَرْكُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ، أَوْ نَهْيَ نَذْبٍ وَتَرْغِيبٍ. والتعبير بالأعمال الصالحات هو من «الإسلام».

وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ تَفْصِيلُ الْأَجْرِ الْكَبِيرِ بِصُورٍ كُتِبَتْ مُجْمَلَةً فِيمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ، وَفِيمَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ مِنْ جَزَاءٍ حَسَنِ فِي مُدَّةِ الْبَرْزَخِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ لِلْأَرْوَاحِ وَالنَّفُوسِ، وَجُمِعَ هَذِهِ النُّصُوصُ وَتَدَبَّرَهَا تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا مُفَصَّلاً يَحْتَاجُ أَكْثَرَ مِنْ مُجَلِّدٍ كَبِيرٍ.

وَجَاءَ تَنْكِيرُ الْأَجْرِ مَعَ وَضْفِهِ بِأَنَّهُ كَبِيرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ كَبِيرٌ جَدًّا لَا يَحُدُّهُ وَضْفٌ كَلَامِيٌّ، وَالْعِبَارَةُ عَلَى تَقْدِيرٍ: بِأَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا، وَحُذِفَ الْجَارُ قَبْلَ «أَنَّ» قِيَاسَ مَطْرَدٍ.

الصفة الثالثة: أَنَّهُ يُنذِرُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَنَّ اللَّهَ أَعْتَدَ لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ❶:

جاء التَّعْبِيرُ بضمير المتكلم العظيم: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ للإشعارِ بِعَظَمِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الَّذِي أَعْتَدَهُ اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ - لِلْكَافِرِينَ.

وَلَمَّا كَانَ الْكُفْرُ يَبْغِضُ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ مُوجِبًا لِلْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ يَوْمَ الدِّينِ بدارَ تَعْلِيلِ الْمَجْرِمِينَ، اقْتَصَرَ النَّصُّ هُنَا عَلَى ذِكْرِ الْكُفْرِ بِالْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، الَّتِي تَكُونُ يَبْغِثُ الْمَوْتَى لِلْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الثَّالِثِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الإسراء) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفِيضِ عَطَائِهِ.



(٨)

التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (الإسراء)
الآية (١١)

قال الله عز وجل:

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ ❷.

تمهيد:

فِي هَذَا الدَّرْسِ الْمَوْجَزِ الَّذِي هُوَ آيَةٌ وَاحِدَةٌ إِنْ مَاحَ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ عَجُولٌ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَ نَفْسِهِ وَلَا يَتَّبِعُ مَنْطِقَ عَقْلِهِ، فَهُوَ يَحِبُّ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةَ، وَلَوْ انْتَهَى بِهِ حُبُّهَا أَوْ حُصُولُهُ عَلَى مَا يَحِبُّ مِنْهَا إِلَى شِقَائِهِ وَعَذَابِهِ الْأَبَدِيِّ، وَهُوَ يُغْرِضُ عَنِ الْآخِرَةِ وَيَذَرُهَا غَيْرَ عَائِيٍّ بِهَا، وَلَوْ كَانَ عَمَلُهُ لَهَا يَجْعَلُهُ مِنْ أَصْحَابِ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالنَّعِيمِ الْعَظِيمِ الْخَالِدِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا مِنْ وَاقِعِ حَالِهِ فِي سُلُوكِهِ الْحَيَاتِيِّ تَجَاهِ مَطَالِبِهِ الْقَرِيبَةِ الزَّمَنِيَّةِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَالْمَالِ، وَالْوَلَدِ، وَالْمَنْصِبِ، وَالْدارِ، وَالْحَبِيبَةِ.

أَنَّهُ يَدْعُو رَبَّهُ أَوْ مَنْ يَعْتَقِدُ بَأَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لَهُ بِالْحَاجِ، لَتَحْقِيقِ مَطْلُوبِهِ الَّذِي تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِهِ، مُتَّصِرًا أَنَّهُ سَيَنَالُ بِهِ السَّعَادَةَ، دُونَ أَنْ يَضَعَ فِي حُسْبَانِهِ وَتَقْدِيرَاتِهِ اخْتِمَالَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ شَرًّا لَهُ، وَجَالِبًا لَهُ تَعَاسَةً وَشَقَاءً وَعَذَابًا وَخِيبَةً.

وهذا مِنْ قِصَرِ نَظَرِ الْإِنْسَانِ، وَعَدَمِ تَطَلُّعِهِ إِلَى احْتِمَالَاتِ الْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ امْتِدَادُ رُؤْيَيْهِ الْفِكْرِيَّةِ، وَمِنْ شِدَّةِ تَعَلُّقِ نَفْسِهِ بِالْعَاجِلَةِ وَحُبِّهِ لَهَا، الْأَمْرُ الَّذِي يَمُدُّ غِشَاوَةً عَلَى بَصِيرَتِهِ، وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُ هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وقد جاء هذا الدَّرْسُ بَعْدَ بَيَانِ عَاقِبَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ تَحَدَّثَ الدَّرْسُ الثَّانِي مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ عَنْهُمْ، مُبَيِّنًا أَنَّهُمْ سَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ، وَسَيَعْلُونَ عُلوًّا كَبِيرًا، وَسَيَعَاقِبُهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ كَمَا سَبَقَ شَرْحُهُ، يُعَانُونَ مِنْ دَاءٍ نَفْسِيٍّ خَطِيرٍ، جُرْثُومَتُهُ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَيَذَرُونَ أَوْ يَكْفُرُونَ بِالْآخِرَةِ، وَيَتَشَبَّهُونَ بِالْمَالِ وَالشَّهَوَاتِ وَرَغَبَاتِ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، عَلَى خِلَافِ مَطْلُوبِ اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وبهذا انْكَشَفَ لَنَا الرِّبْطُ الْفِكْرِيُّ بَيْنَ هَذَا الدَّرْسِ وَبَيْنَ سَابِقِيهِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ.

التدبر التحليلي:

• ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾:

حذفت الواو من «يَدْعُو» في كتابة المصحف مراعاة لسقوطها في الوصل.

مقدمة:

• يحب الإنسان شيئاً اغتراراً بما يتهياً له منه، أو طلباً للذة عاجلة تحصل له منه، ولكنه قد يكون بعد ذلك شراً عظيماً له.

• ويكره الإنسان شيئاً نفوراً مما يتهياً له فيه، أو تجافياً عن ألم عاجل يحصل له منه، ولكن قد يكون الشيء الذي كرهه خيراً عظيماً له.

وقد نبه الله عز وجل على هذا بقوله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/

٨٧ نزول):

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

أي: واللَّهُ يَعْلَمُ عِلْمَ إِحَاطَةٍ لِلْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، وللظاهر والباطن، وأنتم لا تعلمون من هذا العلم إلا قليلاً جداً.

والسبب أن نظرة الإنسان إلى الأشياء نظرة قصيرة سطحية عاجلة، فهو لا ينظر بعمقٍ وشُمُولٍ، ولا تمتد رؤيته الفكرية إلى احتمالات المستقبل، وتجارب الآخرين من الناس، إلى حقيقة ما يستثير عوامل حبه، أو يستثير عوامل كراهيته.

أمثلة:

(١) يُعَاقِرُ بَعْضُ النَّاسِ الْخَمْرَ أَوِ الْمَخْدَرَاتِ لِتَحْصِيلِ لَذَّةٍ عَاجِلَةٍ أَوْ اغْتِرَارًا بِالْحُصُولِ عَلَيْهَا، لَكِنَّهُ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِ يَتَجَرَّعُ سُمًّا يَظْهَرُ أَثَرُهُ الْمُعَذِّبُ لَهُ بَعْدَ حِينٍ.

فالشيء الذي رآه بتعجيله خيراً له، هو في حقيقته شراً له.

(٢) وَيُحِبُّ اللَّصُّ اسْتِيلَابَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، إِذْ يَرَىٰ هَذَا أَغْجَلَ وَسِيلَةً لَّاكْتِسَابِ الثَّرْوَةِ الْكَبِيرَةِ، لَكِنَّ لُصُوصِيَّتَهُ تَجْلِبُ لَهُ شَرًّا كَبِيرًا وَعَذَابًا أَلِيمًا.

فالشيء الذي رآه بتعجله خيراً له، هو في حقيقته شرٌّ له.

(٣) وَيَغْشَقُ شَابٌّ غِرًّا إِحْدَى الْفَاسِقَاتِ الْمَاجِنَاتِ اللَّعُوبِ، وَيَطْلُبُ بِالْحَاحِ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، ظَانًّا أَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَهَا نَالَ خَيْرًا عَظِيمًا، وَلَا يَسْمَعُ فِيهَا نَصَحَ نَاصِحٍ مُجَرَّبٍ حَكِيمٍ. لَكِنَّهُ مَا يَلْبَثُ بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا حَتَّى يَبْكِي بِكَاءِ الثَّكْلَى مِنَ الشَّرِّ الْمُسْتَطِيرِ الَّذِي جَلَبَتْهُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْمَاجِنَةُ، وَعِلَّتُهُ أَنَّهُ طَلَبَ اللَّذَّةَ الْعَاجِلَةَ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي حَذَرَهُ مِنْهُ أَهْلُ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ وَالتَّجَارِبِ.

فالشيء نفسه الذي رآه بتعجله خيراً له، هو في حقيقته شرٌّ له.

(٤) وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَحْبُونُ لذَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَنْوَاعِ مَتَاعِهَا، وَيَغْتَرُّونَ بِزِينَاتِهَا، فَيَتْرَكُونَ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ عَظِيمٍ خَالِدٍ، وَقَدْ يَكْفُرُونَ بِهَا، فَيَكُونُ مَا أَحْبَبُوهُ مِنَ الدُّنْيَا شَرًّا مُسْتَطِيرًّا، وَجَالِبًا لَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ عَذَابًا كَبِيرًا.

وفي كلِّ هذا يُقَالُ لِلْمَتَعَجِّلِ الْمَغْرُورِ: طَلَبَ لِنَفْسِهِ الشَّرَّ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، بَطْلَبِهِ لِنَفْسِهِ مَا رَأَاهُ بِتَعَجُّلِهِ وَقَصَرِ نَظَرِهِ خَيْرًا له.

وَأَضْرَبَ مَثَلًا قِصَّةَ أَمِيرٍ طَلَبَ عَسَلًا مُذَابًا بِالماءِ، فَدَسَّ فِيهِ بَعْضُ أَعْدَائِهِ سُمًّا قَاتِلًا، فَشَرِبَهُ مُتَلَذِّذًا بِهِ.

فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ فَصِيحٌ عَلِمَ بِالْأَمْرِ شِعْرًا:

مَنْ سَيَحْمِي نَفْسَ الْأَمِيرِ وَقَدْ شَرِبَ السُّمَّ شُرْبَهُ الْعَسَلَا

أي: شَرِبَ السُّمَّ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ شُرْبَهُ الْعَسَلَا فِي ظَنِّهِ وَاعْتِقَادِهِ.

وَنَسْأَلُ نَحْوِيًّا مُتَمَكِّنًا: كَيْفَ تُعْرَبُ «شُرْبُهُ الْعَسَلَا»؟.

فيقول: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مُبَيَّنٌ لِلنَّوْعِ، وَأَصْلُ الْعِبَارَةِ: شَرِبَ شَرَبَ مَزِيجَ مَاءٍ وَعَسَلٍ، لَكِنَّهُ كَانَ فِي الْوَاقِعِ مُخْطِئًا فِي تَقْدِيرِهِ، إِذْ شَرِبَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ سُمًّا، فَجَاءَ التَّعْبِيرُ الْمَوْجِزُ: شَرِبَ السُّمَّ شُرْبُهُ الْعَسَلَا.

بَعْدَ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ يَسْهُلُ عَلَى الْمُتَدَبِّرِ فَهْمُ النَّصِّ الْقِرَائِيِّ، فِي آيَةِ هَذَا الدَّرْسِ.

فَالْمَعْنَى: وَيَدْعُو الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ الْخَافِيَةِ عَلَيْهِ، دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ الَّذِي يَتَهَيَّأُ لَهُ بِتَعَجُّلِهِ وَقَصْرِ نَظَرِهِ وَعَدَمِ شُمُولِ مَعْرِفَتِهِ. وَالسَّبَبُ كَوْنُهُ عَجُولًا يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ وَشَهَوَاتِهِ، فَتُلْقِي غِشَاوَةً عَلَى بَصِيرَتِهِ.

وَقِيَاسًا عَلَى الْمِثَالِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ آفَاءً يُمَكِّنُ إِعْرَابُ «دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ» مَفْعُولًا مُطْلَقًا مُبَيَّنًا لِلنَّوْعِ، وَبِهَذَا يَظْهَرُ مَعْنَى الْآيَةِ ظُهُورًا وَاضِحًا خَالِيًا مِنْ إِشْكَالَاتٍ تَرُدُّ عَلَيْهِ.

وَفِعْلٌ: «يَدْعُو» بِمَعْنَى يَدْعُو رَبَّهُ، أَوْ يَطْلُبُ عَلَى أَيْ وَجْهِ، يُقَالُ لُغَةً: «دَعَا بِالشَّيْءِ، دَعَا، وَدَعَا، وَدَعَا، وَدَعَا» أَيْ: طَلَبَ إِحْضَارَهُ، أَوْ إِجْبَادَهُ، أَوْ فِعْلُهُ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.

الْإِنْسَانُ: الْمُرَادُ بِهِ هُنَا جَنْسُ الْإِنْسَانِ بِوَجْهِ عَامٍّ، وَمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَنْطَبِقُ عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ لَا عَلَى جَمِيعِ أَفْرَادِهِمْ، لِأَنَّ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ عَقْلاً وَرُشْدًا وَبَصِيرَةً وَاعِيَةً، فَإِنَّهُ إِذَا رَغِبَ فِي شَيْءٍ دَعَا رَبَّهُ قَائِلًا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ فِي هَذَا الشَّيْءِ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَعَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَيَسِّرْهُ لِي، وَأَفْضِلْ لِي بِهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَعَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ، أَوْ نَحْوَ هَذَا الدُّعَاءِ.

وَإِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ وَتَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ الْأَلَامُ وَرَغِبَ فِي الْمَوْتِ

قال: اللَّهُمَّ أَخِينِي مَا كَانَتِ الْحَيَاءُ خَيْرًا لِي، وَأَمِيتْنِي إِذَا كَانَ الْمَوْتُ خَيْرًا لِي.

وقد سَبَقَ بَيَانُ صَلَةِ هَذَا الدَّرْسِ بِمَا قَبْلَهُ، بِخُطُوطٍ فِكْرِيَّةٍ غَيْرِ مُعَبَّرٍ عَنْهَا بِالْأَلْفَاظِ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الرَّابِعِ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الإسراء) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَفَتْحِهِ، وَإِلَهَامَاتِهِ.



(٩)

التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُرُوسِ سُورَةِ (الإسراء) الآية (١٢)

قال الله عز وجل:

﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَحَوَّنَا آيَةَ أَلِيلٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمُ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ۝﴾.

تمهيد:

هذا الدرس يتضمَّن تَذْكِيراً بِآيَتَيْنِ مِنْ آيَاتِ عَنَايَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِعِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ، فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ، أَوْ تَنْبِيْهَا عَلَيْهَا بِالنُّسْبَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ تَلْقَى تَنْبِيْهَا عَلَيْهِمَا.

وهما آيتا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِذْ جَعَلَ الْخَالِقُ الرَّبُّ الْحَكِيمُ فِيهِمَا لِلنَّاسِ مَنَفَعَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ:

الأولى: أَنْ يَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ رَبِّهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا لِمَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ.

الثانية: أَنْ يَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، بَعْدَ الْآيَامِ الَّتِي تُمْرُ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ أَنهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الدَّرْسَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْتُهُ تَفْصِيلاً﴾.

وهذا الدرس مُتَّسِقٌ مَعَ مَنْهَجِ الْقُرْآنِ فِي السُّورِ الْقَائِمِ عَلَى التَّنْبِيهِ أَوِ التَّذْكِيرِ بِآيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ وَأَحْدِيثِهِ فِيهَا، الَّتِي يُلْزَمُ عَنْهَا عَقْلاً تَوْحِيدُهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ، وَعَلَى التَّنْبِيهِ أَوِ التَّذْكِيرِ بِآيَاتِ نَعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَعِنَايَتِهِ بِهِمْ فِي دَارِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَيْثُ وَضَعَهُمْ فِيهَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ، لَاسْتِثَارَةِ ذَوَافِعِهِمْ لِأَدَاءِ وَاجِبِ شُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ الْكَثِيرَةِ.

وَحَظُّ هَذَا التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ مُتَّصِلٌ اتِّصَالاً تَكَامُلِيّاً فِي مُعْظَمِ السُّورِ، وَمُتَّبِعٌ فِي مُعْظَمِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ، اِهْتِمَاماً بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ هُمَا الْقَضِيَّتَانِ الْأُولَيَانِ مِنْ قَضَايَا أَرْكَانِ الْإِيمَانِ.

وَنَظَرًا إِلَى مَبْلَغِ الْعِنَايَةِ بِآيَتِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، جَاءَ فِي الْقُرْآنِ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِمَا وَالتَّذْكِيرَ بِهِمَا مِنْ جَوَانِبٍ مُخْتَلِفَةٍ، فِي (٣٨) نَصّاً مُورَّعَةً فِي (٣٤) سُورَةٍ، وَدِرَاسَةً هَذِهِ النُّصُوصِ بِتَأَمُّلٍ وَإِمَاعَانٍ نَظَرٍ، يَتَطَلَّبُ إِفْرَاداً لَهَا فِي بَحْثٍ خَاصٍّ عَسَى أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ بِهِ فِي مُلْحَقٍ مِنْ مَلَا حَقِّ تَدْبِيرِ السُّورِ.

التدبر التحليلي:

• ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتِينَ﴾: العطفُ في هذه الجملة هو من قبيل عطفِ مَوْضُوعٍ عَلَى مَوْضُوعٍ سَابِقٍ يَلْتَقِيَانِ فِي كَوْنِهِمَا مِنْ آثَارِ خَلْقِ اللَّهِ وَتَدْبِيرَاتِهِ وَتَصَاريفِهِ الْحَكِيمَةِ فِي كَوْنِهِ.

أَي: وَقَصَدْنَا بِخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَسْبَابِ تَدَاوُلِهِمَا بِإِتْقَانٍ بِالْغِ عَجِيبٍ، مُرْتَبِطٍ بِحَرَكَةِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا بِاتِّجَاهِ الشَّمْسِ، ضَمْنَ بُعْدِ

بَيْنَهُمَا مُحْكَمُ التَّدْبِيرِ، وَسَبَّحَ فِي مَدَارٍ لَا تَحِيدُ عَنْهُ دَقِيقُ الْمَسِيرِ، أَنْ يَكُونَ
أَيَّتَيْنِ دَالَّتَيْنِ عَلَى رُبُوبِيَّتِنَا الَّتِي لَا يُشَارِكُنَا فِيهَا أَحَدٌ، وَعَلَى عِنَايَتِنَا بِعِبَادِنَا
الَّذِينَ جَعَلْنَا الْأَرْضَ مَكَانَ سُكْنَاهُمْ فِي رِحْلَةٍ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى.

الآية: العلامة الظاهرة الدالة عَلَى أَمْرِ مَا.

• ﴿مَحْوًا آيَةً اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةً النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

مَحْوُ الشَّيْءِ: إِذْهَابُ أَثَرِهِ. يَقَالُ لُغَةً: «مَحَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ» أَيِ:
أَذْهَبَتْهُ وَلَمْ تَبْقَ لَهُ أَثَرًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّيْلَ هُوَ مَحْوٌ لِلْمَرْئِيَّاتِ عَنْ أَنْ تُرَى بِالْأَبْصَارِ، بِسَبَبِ
ذَهَابِ الضُّوءِ الْكَاشِفِ لَهَا. لَكِنْ إِذَا بَقِيَ ضَوْءٌ مَا، أَوْ نُورٌ مَا، كُنُورُ
الْقَمَرِ، أَوْ أَضْوَاءُ النُّجُومِ، فَإِنَّ الْمِقْدَارَ الَّذِي أَصَابَهُ الْمَحْوُ مِنَ الْمَرْئِيَّاتِ
هُوَ اللَّيْلُ فِي الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ اللَّيْلَ مَحْوٌ، وَحِينَ يَنْعَدِمُ كُلُّ ضَوْءٍ أَوْ نُورٍ
كَاشِفٍ فَهُوَ لَيْلٌ كَامِلٌ، وَدُونَ ذَلِكَ يُسَمَّى لَيْلًا بِاعْتِبَارِ النُّسْبَةِ الْغَالِبَةِ الَّتِي
أَصَابَهَا مَحْوُ الرُّؤْيَةِ.

مُبْصِرَةٌ: أَيِ: مُسَبِّبَةٌ لِإِبْصَارِ أَصْحَابِ الْعُيُونِ السَّلِيمَةِ الْأَشْيَاءِ الْقَابِلَةِ
لَأَنْ تُبْصِرَهَا، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: مَعْنَى: «مُبْصِرَةٌ» تُبْصِرُهُمْ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ:
تُبْصِرُهُمْ فَتَجْعَلُهُمْ بُصْرَاءَ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمَلَائِمُ هُنَا فِيمَا أَرَى.

المعنى؛ فَجَعَلْنَا آيَةَ اللَّيْلِ مَحْوًا لِلْمَرْئِيَّاتِ عَنْ أَنْ تُرَى بِالْأَبْصَارِ،
بَسَبَبِ انْعِدَامِ الْكَاشِفِ لَهَا مِنْ ضِيَاءٍ أَوْ نُورٍ، وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُسَبِّبَةً
لِإِبْصَارِ أَصْحَابِ الْعُيُونِ السَّلِيمَةِ لَهَا.

ولكلّ من المحو والكشف منافع الجليلّة بالنسبة إلى الناس.

• ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: هذه العبارة جاءت لبيان إمكان ابتغاء

الرُّزْقِ وَغَيْرِهِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فِي كُلِّ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، دُونَ حَرَجٍ، فِيمَا أَرَى.

لَكِنْ جَاءَ فِي نَصُوصٍ كَثِيرَةٍ الْإِرْشَادُ إِلَى اخْتِيَارِ أَنْ يَكُونَ اللَّيْلُ سَكَنًا، وَأَنْ يَكُونَ النَّهَارُ مَعَاشًا لِلْعَمَلِ فِي اكْتِسَابِ الْأَرْزَاقِ، فَإِنَّهُ الْأَفْضَلُ لِلصَّحَّةِ، وَالْأَكْثَرُ مِلَاءَةً لَطَبِيعَةِ الْحَيَاةِ فِي الْأَرْضِ وَلِنِظَامِهَا عَلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ.

• ﴿وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾:

أي: إِنَّ تَوَالِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مُتَدَاوِلَيْنِ مِنْ فَوَائِدِهِ، عِلْمُ عَدَدِ السِّنِينَ الْقَمَرِيَّةِ وَالشَّمْسِيَّةِ، إِذْ نِظَامُ تَدَاوُلِ اللَّيْلِ النَّهَارِ لَهُ ارْتِبَاطَانِ:

أَحَدُهُمَا: ارْتِبَاطُ بِالْقَمَرِ بَدَأَ بِظُهُورِهِ، هَلَالًا وَتَزَايُدِهِ حَتَّى يَكُونَ بَدْرًا، وَتَنَاقُصِهِ حَتَّى لَيْلَةَ الْمَحَاقِ، وَبِهَذَا يَتِمُّ شَهْرُ قَمَرِيٍّ، وَبِمُرُورِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا تَكُونُ قَدْ مَرَّتْ سَنَةٌ بِالْعَدِّ الْقَمَرِيِّ لِلْأَشْهُرِ، وَالسَّنَةُ الْقَمَرِيَّةُ تَعَادِلُ (٣٥٤) يَوْمًا تَقْرِيبًا.

ثَانِيَهُمَا: ارْتِبَاطُ بِالْأَرْضِ إِذْ تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا دَوْرَةً كَامِلَةً فِي:

بَاتِّجَاهِ الشَّمْسِ، وَهَذِهِ الْمُدَّةُ تُسَمَّى الْيَوْمِ النَّجْمِي.

ثانية	دقيقة	ساعة
٤,٠٩	٥٦	٢٣

وَتَدُورُ فِي مَدَارٍ حَوْلَ الشَّمْسِ فِي زَمَنِ قَدْرِهِ:

ثانية	دقيقة	ساعة	يوم
٩,٥٤٠	٩	٦	٣٦٥

وهذه المدة تُسَمَّى السَّنَةُ الشَّمْسِيَّةُ.

وَحِينَمَا يَعُدُّ النَّاسُ الْأَيَّامَ وَيُلَاحِظُونَ ارْتِبَاطَهَا بِالْأَرْضِ وَالْقَمَرِ وَالشَّمْسِ، يَعْلَمُونَ عَدَدَ السِّنِينَ الْقَمَرِيَّةِ، وَعَدَدَ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةِ، وَمُلَاحَظَةُ دَوْرَةِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا وَحَوْلَ الشَّمْسِ، وَدَوْرَةِ الْقَمَرِ حَوْلَ نَفْسِهِ وَحَوْلِ الْأَرْضِ، تَفْتَحُ مَجَالًا وَاسِعًا أَمَامَ أَصْحَابِ الْأَذْهَانِ الرِّيَاضِيَّةِ، لَتَعْلَمَ الْحِسَابِ ذِي الشَّجَرَةِ الْفِكْرِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، ذَاتِ الْفُرُوعِ الْكَثِيرَةِ الْمُمتَدَّةِ فِي أَبْعَادٍ غَيْرِ ذَاتِ نَهَايةٍ.

الحِسَابُ: الْعَدُّ لِكُلِّ مَا هُوَ قَابِلٌ لِأَنْ يُعَدَّ، وَهَذَا عَنَوَانٌ لِكُلِّ الْعُلُومِ

الرياضية التي تَعْتَمِدُ الْعَدَدَ أساساً لأَعْمَالِهَا، وتَدْخُلُ فيها الهندسيات، وحسابات السُرْعَاتِ على اختلافها، وهذا العلم بَحْرٌ لا سَاحِلَ لَهُ يَدْخُلُ في كُلِّ العلوم التي تُسَمَّى علوماً طَبِيعِيَّةً أو فَلَكيَّةً أو نَحْوَهَا.

• ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾:

التَفْصِيلُ: التَّبَيُّنُ، وَكَشَفُ حُدُودِ الْأَجْزَاءِ الْمُتَلَاصِقَةِ بِإِظْهَارِ مَا بَيْنَهَا مِنْ انفِصَالٍ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَرْتَباً، لَتَمَيَّيزُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ فِي الْإِدْرَاكِ الْفِكْرِيِّ.

أَمَّا خَلْقُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَوْنِهِ فَهُوَ قَائِمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ الدَّقِيقِ، حَتَّى لَا تَطْعَى ذَرَّةٌ، عَلَى ذَرَّةٍ، وَلَا خَلِيَّةٌ عَلَى خَلِيَّةٍ، وَلَا نَجْمٌ عَلَى نَجْمٍ، وَلَا كَوْكَبٌ عَلَى كَوْكَبٍ، وَلَا نَجْمٌ عَلَى كَوْكَبٍ، إِلَّا بِإِرَادَةِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ. وبهذا التفصيل الدقيق ذي الضوابط الربَّانِيَّةِ الْقَاهِرَةِ، لَا تَسْتَطِيعُ الشَّمْسُ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ جَاذِبِيَّتِهَا الْعَظِيمَةِ أَنْ تُذْرِكَ الْقَمَرَ، وَتَجْذِبُهُ إِلَيْهَا وَتَبْتَلِعَهُ، وَلَا تَسْتَطِيعُ الْأَرْضُ أَنْ تَجْذِبَ بِقُوَّةِ جَاذِبِيَّتِهَا الْقَمَرَ إِلَيْهَا، وَتَجْعَلَهُ جُزْءاً مِنْهَا. وَلَا تَسْتَطِيعُ شُمُوسٌ عَظِيمَةٌ أَعْظَمُ مِنْ شَمْسِنَا أَنْ تَجْذِبَ بِجَاذِبِيَّاتِهَا مَجْمُوعَتَنَا الشَّمْسِيَّةَ.

كَذَلِكَ كَتَابُ اللَّهِ الْقُرْآنُ الْمَنْزَلُ هُدًى لِلْعَالَمِينَ، هُوَ أَيْضاً مُفْصَّلُ الْبَيَانِ تَفْصِيلاً مُحْكَمًا، فِي كُلِّ الْقَضَايَا الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهَا هِدَايَةُ الْعِبَادِ، إِلَى النِّجَاةِ وَالْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ يَوْمَ الْمَعَادِ.

فَجَاءَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْكَلِمَةُ مُنَاسِبَةً لِمَا جَاءَ فِي هَذَا الدَّرْسِ الْخَامِسِ، وَمُنَاسِبَةً لِمَا جَاءَ فِي الدَّرْسَيْنِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ قَبْلَهُ، مَعَ أَنَّهَا ذَاتُ عُمُومٍ شَامِلٍ يَشْمَلُ الْكُونِيَّاتِ، وَالْبَيَانَاتِ الْمَنْزَلَاتِ.

لَفْظُ ﴿كُلِّ﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ يُفْسِّرُهُ ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ لِاشْتِغَالِهِ بِالْعَمَلِ بِضَمِيرِهِ عَنْهُ، كَمَا يَرَى النُّحَوِيُّونَ.

وبهذا تمّ تدبر الدرس الخامس من دروس سورة (الإسراء) والحمد لله
على معونته وتوفيقه وفتحه.



(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (١٣ - ١٧)

قال الله عز وجل:

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ ۚ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۚ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا ۝ (١٤) مَن أَهْتَدَىٰ فَأَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۚ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيهَا ۚ وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَّرَزَ أُخْرِثُ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ۚ حَقَّ نَبْعَتْ رَسُولًا ۝ (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيهَا الْقَوْلُ فدمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝ (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ (١٧)﴾.

القراءات:

(١٣) • قرأ أبو جعفر: [وَيُخْرِجُ] بضم الياء وفتح الراء بالبناء لما لم يُسم فاعله. وقرأ يعقوب: [وَيُخْرِجُ] بفتح الياء وضم الراء على أن الفاعل ضمير يعود على طائر. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَنُخْرِجُ﴾ بالنون المضمومة مع كسر الراء على أن الفاعل ضمير المتكلم العظيم.

والمؤدّي من هذه القراءات واحد، وهي من التفتن في التعبير.

(١٣) • قرأ ابنُ عامر، وأبو جعفر: [يُلْقَاهُ] أي: يُوجِّهُ لَهُ لِيَسْتَقْبِلَهُ وَيُلْقَاهُ. وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿يَلْقَاهُ﴾ أي: يَسْتَقْبِلُهُ وَيَتَنَاوَلُهُ. وبين

القراءتين تكامل في الأداء البياني، أي: يُوجَّه له من قِبَل الملائكة فَيَتَنَاوَلُهُ وَيَلْقَاهُ.

(١٦) • قرأ يَغُفُّوب: [ءَامَرْنَا] بِمَعْنَى كَثَرْنَا، يُقَالُ لُغَةً: «ءَامَرَ اللَّهُ الْقَوْمَ إِيمَارًا»، أي كَثُرَ نَسْلُهُمْ وَمَاشِيَتُهُمْ.

وقرأ باقي القراء العشرة ﴿أَمَرْنَا﴾ أي: وَجَّهْنَا لَهُمْ أَمْرًا تَكْلِيفِيًّا إلزاميًا. ويأتي أيضاً بمعنى: كثرنا مثل: «ءَامَرْنَا» فبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

تمهيد:

هذا الدرس يَشْتَمِلُ على فقراتٍ من قانون الجزاء الربَّاني المعجَّل والمؤجَّل، لِلْمَوْضُوعَيْنِ في الحياة الدنيا موضع الإبتلاء.

وصِلَّتُهُ بما جاء في دروس السورة قبله واضحة، فالدرسُ الثاني جاء فيه إنذار بني إسرائيل بعقاب الله المعجَّل والمؤجَّل، والدرس الثالث جاء فيه بيان ما اشتمل عليه القرآن المجيد من هداية، ومن بيانِ ثواب الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يوم الدين، وعقاب الذين لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الأليم يوم الدين. والدرس الرابع جاء فيه بيان السَّبَبِ الصَّارِفِ لِلإِنْسَانِ عن العمل للآخِرَةِ، والدرس الخامس جاء فيه تذكيرٌ ببَعْضِ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ على وَحْدَانِيَّتِهِ في ربوبيته ووَحْدَانِيَّتِهِ في إلهيَّته، والدَّالَّةِ على عِنَايَتِهِ بعبادِهِ الَّتِي تُوجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَأَنْ يَشْكُرُوهُ على ما أَوْلَاهُمْ من نِعَمٍ، لِيَقِيَهُمْ عَذَابُهُ، وَيَمْنَحَهُمْ ثَوَابَهُ في جَنَّاتِ النعيم.

التدبر التحليلي:

يشتمل هذا الدرس على بيانٍ مُوجزٍ لعشرِ قضايا تتعلق بالجزاء الربَّاني وهي ما يلي:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتُهُ طَيْرُهُ فِي عُقْبِهِ﴾:

أي: وَكُلُّ إِنْسَانٍ مَوْضُوعٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ، لِأَنَّ الْمَوْضُوعَ يَتَعَلَّقُ بِالزَّامِهِ عَمَلُهُ لِمَحَاسِنِهِ عَلَيْهِ وَمَجَازَاتِهِ.

﴿لَزِمَتُهُ طَيْرُهُ فِي عُقْبِهِ﴾: أي أَثْبَتْنَا مَسْئُولِيَّتَهُ عَنْ عَمَلِهِ فِي عُقْبِهِ إِبْطَانًا دَائِمًا، يُقَالُ لُغَةً: «الزَّمَ الشَّيْءُ» أي: أَثْبَتَهُ وَأَدَامَهُ. وَيُقَالُ: «الزَّمَ فُلَانًا الشَّيْءُ»: أي: أَثْبَتَ الشَّيْءُ بِهِ إِبْطَانًا لَهُ صِفَةُ الدَّوَامِ.

أُطْلِقَ لَفْظُ «طَائِرٍ» عَلَى مَا يَكْسِبُهُ الْإِنْسَانُ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِنْ عَمَلٍ جَسَدِيٍّ أَوْ نَفْسِيٍّ، عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ.

لِأَنَّ قُدْرَةَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْكَسْبِ الْإِرَادِيِّ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ تَكُونُ حَبِيسَةً فِي ذَاتِهِ، كَالطَّائِرِ فِي الْقَفْصِ، وَحِينَ يَعْمَلُ الْإِنْسَانُ عَمَلَهُ الْإِرَادِيَّ الَّذِي يُحَاسِبُ عَلَيْهِ عِنْدَ رَبِّهِ، فَإِنَّهُ يَطِيرُ مِنْ ذَاتِهِ الَّتِي هِيَ قَفْصُهُ، فَإِذَا طَارَ لَمْ يَسْتَطِعْ إِعَادَتَهُ إِلَى قَفْصِهِ، لَكِنْ تَبَقَّى مَسْئُولِيَّتُهُ عَلَيْهِ، مُلَازِمَةً لَهُ، مَا لَمْ يَغْفِرْهَا اللَّهُ أَوْ يَغْفَ عَنْهَا، بِطَائِرٍ آخَرَ هُوَ كَسَبَ حَسَنٌ قَدْ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ أَثَرَ الْكَسْبِ السَّيِّئِ، عَلَى قَاعَةٍ: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ».

وَذَكَرَ لَفْظُ «عُنُقٍ» فِي عِبَارَةِ ﴿فِي عُقْبِهِ﴾ كِنَايَةً عَنْ كُلِّ ذَاتِ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَسِيرَ يُوضَعُ الْغُلُّ فِي عُقْبِهِ وَالْمَرَادُ حَبْسُ ذَاتِهِ عَنِ الْفِرَارِ، وَكَذَلِكَ الْمُجْرِمُ إِذَا أُخِذَ وَأُرِيدَ قَوْدُهُ إِلَى سِجْنِهِ أَوْ عِقَابِهِ.

وَإِعْرَابُ: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتُهُ﴾ نَظِيرُ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَّلْتُهُ﴾ عَلَى مَا ذَكَرْتُ فِي آخِرِ الدَّرْسِ السَّابِقِ.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾:

دَلَّتْ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ عَلَى إِخْدَى وَسَائِلِ الْإِثْبَاتِ الَّتِي تُقَدَّمُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيَجْرِيَ حِسَابُهُ عَلَى كَسْبِهِ الْإِرَادِيِّ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، وَلِيَجْرِيَ فَضْلُ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، مُحَسَّنًا كَانَ أَمْ مُسِيئًا، أَخْذًا مِنْ وَاقِعِ كِتَابِهِ الْمُسَجَّلِ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَكُونُ مُجَازَاتُهُ تَنْفِيذًا لِمَا قَضَى رَبُّهُ بِشَأْنِهِ.

وَلَسْنَا نَذِيرُ صِفَةَ هَذَا الْكِتَابِ، لَكِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى مَا هُوَ مُطَابِقٌ مُطَابَقَةً تَامَةً لَوَاقِعِ حَيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، صُورَةً وَصَوْتًا وَنِيَّاتٍ، وَأَعْمَالًا نَفْسِيَّةً بَاطِنَةً، كَالْكَفْرِ، وَالْحَقْدِ، وَالْحَسَدِ، وَإِرَادَةِ الشَّرِّ، فِي جَانِبِ السَّيِّئَاتِ، وَكَذَلِكَ مَا يُقَابِلُهَا فِي جَانِبِ الْحَسَنَاتِ.

يُعْطَى الْإِنْسَانُ كِتَابَهُ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْيَمِينِ فَإِنَّهُ يُعْطَاهُ مِنْ أَمَامِهِ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّمَالِ فَإِنَّهُ يُعْطَاهُ بِشِمَالِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، فَهُوَ يَلْقَاهُ حِينَ يَلْقَاهُ مِنْ مُوْظَفِي التَّوْزِيْعِ، فَيَجِدُهُ مَنْشُورًا، أَيْ: مَبْسُوطًا أَمَامَ عَيْنَيْهِ، كَصَفْحَةٍ وَاحِدَةٍ يُشَاهِدُ فِيهَا سَجَلَّ حَيَاتِهِ كُلِّهَا، إِذْ يَلْقَاهُ مَنْشُورًا.

القضية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ١٤.

الْحَسِيبُ: الْمَحَاسِبُ الَّذِي يُعَدُّ عَلَى مَنْ يُحَاسِبُهُ مَا هُوَ لَهُ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ، بِحَسَبِ الْمَقَادِيرِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي لَا زِيَادَةَ فِيهَا وَلَا نَقْصَ.

أَيْ: وَبَعْدَ أَنْ يُعْطَى كِتَابَهُ الْمَشْتَمِلَ عَلَى صُورَةٍ كَامِلَةٍ لِحَيَاتِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، يُقَالُ لَهُ مِنْ قَبْلِ مَنْ سَلَّمَهُ الْكِتَابَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِقْرَأْ أَنْتَ كِتَابَكَ، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ عَلَى مَا كَسَبْتَ بِإِرَادَتِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْمَفْطُورَةِ عَلَى الصُّدْقِ وَالْأَمَانَةِ الْيَوْمَ حَسِيبًا عَلَى ذَاتِكَ، بِشَأْنِ مَا قَدَّمْتَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ، وَلَوْ جَادَلَ لِسَانُكَ، وَلَوْ كَذَبْتَ وَأَلْقَيْتَ مَعَاذِيرَكَ طَامِعًا بِأَنْ تُخَفَّفَ عَنْ نَفْسِكَ الْعَذَابَ. بِالْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ، إِنَّكَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِكَ سَتَعْتَرِفُ بِكُلِّ مَا هُوَ مُسَجَّلٌ عَلَيْكَ فِي كِتَابِكَ، أَمَّا مَا هُوَ لَكَ مِنْ

صالحاتٍ، فَسَتَجِدُهُ مُضَاعَفًا أضعافاً كثيرة، وَأَمَّا مَا هُوَ عَلَيْكَ مِنْ سَيِّئَاتٍ فلا تجدُ في شيءٍ مِنْهُ ظُلماً لك.

القضية الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ أَهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ﴾:

أي: مَنْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ أَنْ يَهْتَدِيَ، وَمَشَى فِي حَيَاتِهِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ، مُتَّبِعاً مَا أَنْزَلَ لِعِبَادِهِ مِنْ آيَاتِ بَيِّنَاتٍ، فَإِنَّهُ لَا يَهْتَدِيَ إِلَّا لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ، إِذْ هُوَ الْمُسْتَفِيدُ الْوَحِيدُ مِنْ سُلُوكِهِ سَبِيلَ الْهُدَى، فَلَأَجْرُ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُهْتَدِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُوزَعُ عَلَى أَفْرَادِهِمْ بِحَسَبِ وَاقِعِ حَالِ كُلِّ مِنْهُمْ، وَلَا يُعْطَى مِنْ نَصِيبِ الْمُهْتَدِي الْعَامِلِ قَرِيبٌ وَلَا حَبِيبٌ مَهْمَا اشْتَدَّتْ قَرَابَتُهُ، وَمَهْمَا عَظُمَ حُبُّهُ لَهُ.

وقد جاءت العبارة بأسلوب الحضرة بأداة «إنما».

وجاءَ فِعْلُ: [يَهْتَدِي] بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَسِيرَتِهِ الْمُتَجَدِّدَةِ الْمُتَكَرِّرَةِ عَلَى صِرَاطِ الْهُدَى، بَعْدَ خُطْوَةِ الْهُدَايَةِ الْأُولَى الَّتِي تَحَقَّقَتْ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ الصَّحِيحَيْنِ الصَّادِقَيْنِ.

القضية الخامسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾:

أي: وَمَنْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ أَنْ يَضِلَّ بَعِيداً عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ، وَسَالِكاً سُبُلَ الضَّلَالِ، مُتَّبِعاً أَهْوَاءَهُ وَشَهَوَاتِهِ وَوَسَاوِسَ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَإِنَّهُ لَا يَضِلُّ إِلَّا جَانِباً عَلَى نَفْسِهِ، وَمُسْلِطاً عَلَيْهَا نِقْمَةَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ، وَهُوَ وَحْدَهُ الْمَجْنُونُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا أَحَدَ يَنَالُهُ ضَرَرُ ضَلَالِهِ. وَمَنْ اتَّبَعَهُ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرَّ فَإِنَّ الْمُتَّبِعَ يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ بِمَا كَسَبَ مِنْ شَرٍّ، وَحِينَ يَكُونُ لِلْمُتَّبِعِ تَأْثِيرٌ مَا عَلَى التَّابِعِ فِي سُلُوكِ سُبُلِ الضَّلَالِ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ إِثْمَ ضَلَالِهِ وَيَحْمِلُ إِثْمَ إِضْلَالِهِ لِغَيْرِهِ، دُونَ أَنْ يُخَفَّفَ هَذَا مِنْ إِثْمِ

التابع، لَأَنَّهُ قَدْ كَانَ فِي اتِّبَاعِهِ خُرًّا مُّخْتَارًا، وَلَمْ يَكُنْ مُكْرَهًا وَلَا مَجْبُورًا.
القضية السادسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا نِزْرٌ وَازِرَةٌ وَزِرٌّ
أُخْرَى﴾:

سبق مطابق هذه العبارة في الآية (١٨) من سورة (فاطر/ ٣٥) مصحف
٤٣ (نزول) بَيَانًا لِلْمَسْئُولِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ فِي قَانُونِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ.

المعنى: وَلَا تَحْمِلْ نَفْسٌ وَازِرَةً مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحْمِلَ أَوْزَارَهَا الَّتِي
تَكْتَسِبُهَا، وَزَرَ نَفْسٍ أُخْرَى قَدْ حَمَلَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْ أَوْزَارًا وَذُنُوبًا.

الوزر: لُغَةً الْحِمْلُ الثَّقِيلُ، وَمِنْ الْأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ أَسْلِحَةُ الْحَرْبِ،
وَلَمَّا كَانَ ارْتِكَابُ الذَّنْبِ وَفِعْلُ الْإِثْمِ مِمَّا يَتَحَمَّلُ بِهِ الْإِنْسَانُ مَا يُشْبِهُ
الْحِمْلَ الثَّقِيلَ، أُطْلِقَ فِي اللَّغَةِ لَفْظُ «الْوِزْرِ» عَلَى الذَّنْبِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ
الْمَكْلَفُ الْمُخْتَارُ، الْمَسْئُولُ عَنْ أَعْمَالِهِ الْإِرَادِيَّةِ.

وجمُعُ الْوِزْرِ «الأوزار» يُقَالُ لُغَةً: «وَزَرَ، يَزِرُ، وَزَرًا، وَوَزَرًا، وَزِرَةً»
أَي: حَمَلَ حِمْلًا ثَقِيلًا، أَوْ ارْتَكَبَ ذَنْبًا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ عِقَابٌ، فَهُوَ «وَازِرٌ»
وهي «وَازِرَةٌ».

القضية السابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى
نَبْعَثَ رَسُولًا﴾:

دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ لَا
يُعَذِّبَ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، عَلَى عِضْيَانِهِمْ
لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ، حَتَّى يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يُبَيِّنُ لَهُمْ
مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَجَاهَ رَبِّهِمْ الَّذِي يُمِدُّهُمْ دَوَامًا بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

وَدَلَّتْ نُصُوصٌ أُخْرَى عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ
رَسُولًا، فَلَا عُذْرَ لِلْأُمَّمِ.

أما الأفراد الذين لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ رَسُولٍ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُعَذِّبُهُمْ حَتَّى يُتِمَّ لَهُمْ شُرُوطَ امْتِحَانِهِ لَهُمْ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِمُ الْاِخْتِيَارُ الْعَادِلُ وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

القضية الثامنة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

وفي القراءة الأخرى [ءَامَرْنَا] بِمَعْنَى: كَثَرْنَا. وقراءة ﴿أَمَرْنَا﴾ بِمَعْنَى: وَجَّهْنَا لَهَا أَمْرًا تَكْلِفِيًّا بِفِعْلِ الصَّالِحَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، وَتَأْتِي بِمَعْنَى كَثَرْنَا.

المتترفون: الذين هم كثيرو الاستمتاع بما أنعم الله عليهم من متاع الحياة الدنيا، وَالْبَطِرُونَ المستكبرون.

والمعنى: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ أَهْلَ قَرْيَةٍ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي إِهْلَاكَهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ، فَإِنَّ لَنَا سُنَّةً لِنَتَحَقِّقَ هَذَا الْإِهْلَاكَ.

وهذه السُّنَّةُ تُلَخِّصُ بِأَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: أَنْ نُوجِّهَ لَهُمُ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاحِيَ الصَّارِمَةَ، فَتَأْمُرَهُمْ بِفِعْلِ الصَّالِحَاتِ، وَنَنْهَاهُمْ عَنْ فِعْلِ الْمُنْكَرَاتِ، وَنُحَذِّرُهُمْ مِنَ الْفُسْقِ بِالْخُرُوجِ عَنْ طَاعَتِنَا.

إِلَّا أَنَّهُمْ لِسُوءِهِمْ يَفْسُقُونَ وَلَا يُطِيعُونَ، وَتَكُونُ الْكَثْرَةُ غَيْرُ الْمُتْرَفَةِ فِيهِمْ تَابِعَةً لَهُمْ بِالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، وَبِالْخُضُوعِ لِأَكْبَرِهِمْ دُونَ وَغْيٍ مِنْهُمْ.

الأمر الثاني: أَنْ نُوسِّعَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْخَيْرَاتِ وَوَافِرَاتٍ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَاتِهَا، حَتَّى يَكْثُرَ مُتْرَفُوهُمْ وَيَكُونُوا هُمْ النُّسْبَةُ الْغَالِيَّةُ، وَالَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا مُتْرَفِينَ يَتَحَرَّرُوا مِنْ تَبَعِيَّتِهِمْ لِلْمُتْرَفِينَ السَّابِقِينَ، فَلَا تَكُونُ عَلَى بَصَائِرِهِمْ غِشَاوَةٌ أَلْفَتْهَا سُلْطَةُ اجْتِمَاعِيَّةٍ ذَاتُ تَأْثِيرٍ، بَلْ هُوَ لَاءُ

يَسْلُكُونَ سَبِيلَ سَابِقِيهِمْ اتِّبَاعاً لِلْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَرَغَبَاتِ الْفُجُورِ وَالْعُلُوفِ فِي الْأَرْضِ.

وَيَصِيرُ الْمَجْتَمَعُ بَوَاجِهٍ عَامٍّ مَجْتَمِعاً مَيُؤُوساً مِنْ إِصْلَاحِهِ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِ أَفْرَادِهِ الْحُرَّةِ، وَيَتَعَاطَمُ فِيهِ الْفُسْقُ وَالْفُجُورُ، وَالْبَغْيُ وَالطُّغْيَانُ، وَالظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ، وَعِنْدئذٍ يَكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِهِمُ الْإِهْلَاكَ الْعَامَّ الشَّامِلَ، إِذْ تَعْدِمُ فِيهِمْ ظُرُوفُ الْامْتِحَانِ السَّوِيِّ.

القضية التاسعة: ذَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾:

جاءَ في هَذِهِ الْقَضِيَّةِ التَّذْكِيرُ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَاقَبَ بِالْإِهْلَاكِ الْعَامِّ الشَّامِلِ أَقْوَاماً سَابِقِينَ كَثِيرِينَ، تَطْبِيقاً لِمَادَّةٍ مِنْ مَوَادِّ قَانُونِ جَزَائِهِ الْعَامِّ الْمَعْجَلِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

«كَمْ» اسْمٌ يَقَعُ عَلَى عَدَدٍ مَا بِمَعْنَى كَثِيرٍ، وَهَذِهِ تُسَمَّى خَبَرِيَّةً، وَلِإِبْهَامِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى مَجْهُولِ الْجِنْسِ فَهِيَ مُفْتَقِرَةٌ إِلَى التَّمْيِيزِ، وَمُمَيِّزُهَا هُنَا عِبَارَةُ ﴿مِنْ الْقُرُونِ﴾.

الْقَرْنُ: هُوَ مِنَ النَّاسِ أَهْلُ زَمَانٍ وَاحِدٍ، وَسُمُّوا قَرْناً لِأَنَّهُمْ افْتَرَنُوا مَعاً فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.

فَالْمَعْنَى: وَعَدَدًا كَثِيرًا مِنَ الْقُرُونِ أَهْلَكْنَا مِنْ بَعْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيْ: وَمِنْ بَعْدِ إِهْلَاكِ قَوْمِهِ.

القضية العاشرة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُنِيَ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِمَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾.

أَيْ: وَلَا تَحْمِلْ أَثِمَهَا الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ رَسُولاً فَمَنْ دُونَهُ هُمْ كَثَرَةُ الْكَافِرِينَ وَدُعَاةُ الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ فِي

طلب إهلاكهم، فاللَّهُ رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَهُمْ ووضعهم في الحياة الدنيا مَوْضِعَ
الامْتِحَانِ عَلِيمٌ بِأَمْرِهِمْ خَبِيرٌ بتدابيرهم ومَكْرِهِمْ وكيدهم، بَصِيرٌ بكلِّ مَا
يَعْمَلُونَ، فتوَكَّلْ عليه، وَسَلِّمْ أَمْرَكَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ يَكْفِي أَوْلِيَاءَهُ شُرُورَ أَعْدَائِهِ.

«الباء» في [بِرَبِّكَ] زِيدَ للتوكيد، والأصل، كفى رَبُّكَ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس السادس من سورة (الإسراء) والحمد لله
على توفيقه ومعونته وفتحه.



(١١)

التدبر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (١٨ - ٢١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَمْ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَمْ
جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُوًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا
كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ
دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

القراءات:

(١٩) • قرأ قائلون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: [وَهُوَ]
يَاسْكُنُ الْهَاءَ. وقرأها باقي القراء العشرة بالضم. وهما وجهان عربيان في
النطق.

تمهيد:

هذا الدرس يتضمن بيان سُنَّةِ اللَّهِ فيما يُؤْتِي عِبَادَهُ من متاع الحياة

الدنيا في رَحْلَةٍ امْتِحَانِهِمْ، على وفقِ حُكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ.

وهذا الدرس موصول مع دروس السورة السابقة بالخط الذي يُنْطَلِقُ من كون الإنسان المؤهل للامتحان، موضوعاً في ظروف الحياة الدنيا المختلفة لامتحان إِرَادَتِهِ الحُرَّةَ، بَيْنَ طَرِيقِي الخير والشر.

وهو يجب على أَسْئَلَةٍ مَطْوِيَّةٍ غير مذكورة في النَّصِّ، إِلَّا أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ المتدبِّرُ اسْتِنْبَاطَهَا مِنَ الْجَوَابِ عَلَيْهَا، وهذا كثير في القرآن، وفي هذه السُّورَةِ شواهد متعدّدة عَلَيْهِ.

التدبُّر التحليلي:

يَتَسَاءَلُ الْإِنْسَانُ عَنْ سُنَّةِ اللَّهِ الْعَامَّةِ فِيمَا يَمْنَحُ عِبَادَهُ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا يُجِبُّونَ مِنْهَا؟

• هَلْ يَخْصُصُ الْكَافِرِينَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْعَطَاءِ مِمَّا يُجِبُّونَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟

• هَلْ يَخْصُصُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَزِيدٍ مِنَ الْعَطَاءِ؟

• هَلْ يَجْعَلُ عَطَاءَهُ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ عِبَادِهِ مُتَفَاضِلًا، لِيَبْلُوَ كُلَّ فَرْدٍ بِمَا آتَاهُ بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ فِيهِ؟

فجاء الجوابُ الرَّبَّانِيُّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الدَّرْسُ، أَنَّ عَطَاءَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ مُؤَمِّنِيهِمْ وَكَافِرِيهِمْ قَائِمٌ عَلَى التَّفَاضُلِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ، بِحَسَبِ حِكْمَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ، وَلَكِنْ هَذَا الْجَوَابُ جَاءَ مُفَصَّلًا مَقْرُونًا بَيِّنَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ، وَتَنْبِيهِ عَلَى الْجَزَاءِ الَّذِي أَعَدَّهُ يَوْمَ الدِّينِ لِلْكَافِرِينَ، بِحَسَبِ تَنَازُلِ دَرَكَاتِهِمْ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ تَفَاضُلِ دَرَجاتِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ.

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨):

﴿الْعَاجِلَةَ﴾ صِفَةٌ لموصوفٍ يَدُلُّ عليه لفظ ﴿الْآخِرَةَ﴾ في الآية التالية، أي: من أراد الحياةَ العاجلةَ في الدنيا. العَاجِلَةُ: مؤنَّثُ الْعَاجِلِ، وهو ضدُّ الْآجِلِ، وأُظْلِقَتْ في القرآن على الحياةِ الدُّنْيَا، واختير هذا العنوان لِيُنَسِّجَ مع ما جاء في الآية (١١) من وصف الإنسان بأنه عَجُولٌ. ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا﴾ أي: قَدَّمْنَا لَهُ فِيهَا عُجَالََةً مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنْيَا.

[مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ]: أي: وَمَا نُقَدِّمُ مِنْ عُجَالََةٍ خَاضِعٍ لِمَشِئَتِنَا الَّتِي لَا تُفَارِقُ حُكْمَتَنَا، وَنُقَدِّمُهُ، لِمَنْ نُرِيدُ مِنْ عِبَادِنَا، وهذا يَدُلُّ عَلَى التفاضلِ في الْعِظَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ.

وَمُرِيدُ الْعَاجِلَةِ هُوَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ، فَلَا تَعَلَّقُ لِنَفْسِهِ وَقَلْبِهِ إِلَّا بِمَتَاعِ الحياةِ الدُّنْيَا وَزِينَاتِهَا، فَلَا حَظَّ لَهُ يَوْمَ الدِّينِ بِشَيْءٍ مِنْ جَنَاتِ النِّعَمِ، بَلْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ عَذَابَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَرِيقًا بِنَارِهَا.

﴿يَصْلَاهَا﴾: أي: يَخْتَرِقُ بِنَارِهَا، إِذْ يَذُوقُ فِيهَا عَذَابَ الْحَرِيقِ، يُقَالُ لُغَةً: «صَلَّى النَّارَ، وَصَلَّى بِهَا» أي: اخْتَرَقَ فِيهَا، وَلَا مَسَ لَهَا بِجَسَدِهِ مُحْرِقًا، وهذا خَاصٌّ بِالْأَشْقِيْنَ الْكَافِرِينَ الْمَجْرَمِينَ.

﴿مَذْمُومًا﴾: أي: مُوجَّهًا لَهُ الذَّمُّ وَاللُّؤْمُ عَلَى مَا جَنَى مِنْ إِثْمٍ عَظِيمٍ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الحياةِ الدُّنْيَا.

﴿مَدْحُورًا﴾: أي: مَظْرُودًا مُبْعَدًا مَعَ إِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ. يُقَالُ لُغَةً: «دَحَرُهُ، يَذَحَرُهُ، دَحَرًا، وَدُحُورًا» أي: طَرَدَهُ، وَدَفَعَهُ بِعُغْفٍ شَدِيدٍ، لِيُبْعِدَهُ، مَعَ إِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ.

فالمعنى: مَنْ كَانَ مِنَ الْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا، يُرِيدُ بِاسْتِمْرَارٍ حَتَّى نِهَايَةِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، لَذَاتِهِ، وَأَنْوَاعَ مَتَاعِهِ مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ، كَافِرًا الْآخِرَةَ وَلَا يَسْعَى لِلنَّعِيمِ فِيهَا سَعِيًّا مَّا، قَدَّمْنَا لَهُ عُجَالََةً مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بِمَشِيئَتِنَا الْمَقْتَرَنَةِ بِحُكْمَتِنَا وَعِلْمِنَا بِعَبْدِنَا الَّذِي نَعَجِّلُ لَهُ، لَكِنْ لَا حَظَّ لَهُ يَوْمَ الدِّينِ بِشَيْءٍ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، بَلْ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابٍ الْمَجْرَمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْتَرِقُ بِنَارِهَا حَالَةً كَوْنِهِ مَذْمُومًا مَلُومًا مَظْرُودًا بَعُثْفٍ وَشِدَّةٍ عَنْ تَنَزُّلَاتِ رَحِمَاتِنَا.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ﴿١٨﴾ :

اِخْتَلَفَ أَسْلُوبُ التَّعْبِيرِ هُنَا عَنْ أَسْلُوبِ التَّعْبِيرِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، فَجَاءَ هُنَا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ بِذَلِكَ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ وَأَفْهَمَ مِنْ هَذَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لِمَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ مُعْظَمَ حَيَاتِهِ يَتَجَدَّدُ، إِمْكَانَ أَنْ يَتُوبَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِزَمَنِ كَافٍ لِأَنْ يُؤْمِنَ وَيَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا يَسْعَى بِهِ لِلظَّفَرِ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي حَيَاتِهِ يُرِيدُ الْآخِرَةَ يَتَجَدَّدُ فِي زَمَنِ طَوِيلٍ مِنْ عُمْرِهِ.

وَلَكِنْ إِرَادَةُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، لَا تَنْفَعُ الْمُرِيدَ مَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا إِيْمَانٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ الْإِيْمَانُ بِهِ، فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ ظَاهِرٌ أَوْ بَاطِنٌ يَكُونُ مُعْبَرًا فِي السُّلُوكِ عَنْ صِدْقِ الْإِيْمَانِ. دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ: ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: وَمِنْ هَذَا السَّعْيِ فِي الْعَمَلِ الظَّاهِرِ: إِعْلَانُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَالصَّلَاةُ لِلَّهِ وَخَذَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَدَاءُ أَيِّ رُكْنٍ آخَرَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ. وَمِنْ هَذَا السَّعْيِ فِي الْعَمَلِ الْبَاطِنِ الْعَزْمُ عَلَى التَّزَامِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ، وَالتَّسْلِيمُ الْقَلْبِيُّ وَالنَّفْسِيُّ لَهُ، وَحُبُّ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ وَأَهْلَ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَكَرَاهِيَةَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ.

وجاءت عِبَارَةٌ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جُمْلَةً حَالِيَّةً، ومن المعلوم أَنَّ الحالَ وَضَفٌ لِصَاحِبِهَا قَيْدٌ لِعَامِلِهَا، أي: وَسَعَى لِلْآخِرَةِ سَعْيَهَا فِي حَالَةِ كَوْنِهِ مُؤْمِنًا، ثُمَّ مَاتَ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَنْقُضْ إِيْمَانَهُ.

• ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾: جاءت «الفاء» مَزِيدَةً فِي صَدْرِ هذه الجملة التي هي خبر «مَنْ» في: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ لِأَنَّ فِيهَا رَاحَةَ الشَّرْطِ، وهي تقع على المفرد والجمع، ومراعاة للمعنى الجمعيّ فيها جاء خبرها مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْجَمْعِ «أُولَئِكَ».

واختير في الخبر هنا اسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدلالة على ارتفاع مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، بسبب إيمانهم، وَسَعْيِهِمْ لِثَوَابِ الْآخِرَةِ عَنْ طَرِيقِ مَرْضَاةِ اللَّهِ.

وَفَعَلَ ﴿كَانَ﴾ هُنَا يَدُلُّ عَلَى الْكِثُونَةِ الدَّائِمَةِ.

أي: فَأُولَئِكَ رَفِيعُو الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ تَحَقَّقَ أَنَّ سَعْيَهُمُ الْمَدْفُوعَ بِإِيْمَانِهِمْ مَشْكُورٌ لَدَيْهِ.

وَالْعَمَلُ الْمَشْكُورُ عِنْدَ اللَّهِ الْجَلِيلِ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ ذِي الْجُودِ الْعَظِيمِ، هُوَ الْمَجْزِيُّ بِثَوَابٍ يُنَاسِبُ عَظَمَةَ رُبُوبِيَّتِهِ، مَعَ الثَّنَاءِ عَلَى الْعَامِلِ بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِيْمَانَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، لِأَنَّهُ اخْتِيَارٌ إِرَادِيٌّ لَا تَرَدُّدٌ فِيهِ وَلَا قَلْتٌ.

الشُّكْرُ: مَقَابِلَةُ الْعَمَلِ الْحَسَنِ بِمَا يُرْضِي الْعَامِلَ، وَقَدْ يَشْمَلُ الثَّنَاءَ بِالْقَوْلِ الَّذِي يُرْضِيهِ، لَكِنَّ هَذَا يَخْتَصُّ بِعُنْوَانِ الْحَمْدِ.

وَأَجَلُ شُكْرِ اللَّهِ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ يَكُونُ بِإِذْخَالِهِمْ دَارَ النِّعَمِ يَوْمَ الدِّينِ، وَجَعْلِهِمْ خَالِدِينَ فِيهَا.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ﴿٢٠﴾.

﴿نُمَدُّ﴾: أي: نَزِيدُ في العَطَاءِ يقال لغة: «مَدَّ، وأَمَدَّ»: أي: زَادَ، فإذا كان عطاءً فهو زيادة في العطاء.

﴿كَلَّا﴾ مفعول به لـ ﴿نُمَدُّ﴾ مُقَدَّمٌ عليه لتوكيد مضمون الخبر الذي اشتملَت عليه الآية، والذي يجيبُ على سؤالٍ مطويٍّ، يقول فيه السائل: لماذا يُوسِّعُ اللَّهُ عَلَى بَعْضِ الكَافِرِينَ وغلالة العصاة بالأموال وكثيرٍ من متاع الحياة الدنيا وزينتها وزخرفها؟! ولماذا لَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِمْ حتَّى يَكُونَ التضييق عليهم سبباً من أسباب دَفْعِهِمْ إلى الإيمان الصحيح الصادق والعمل الصالح والاستقامة على صراط الله؟!

والجواب المنطقيُّ الْعُقْلِيُّ الَّذِي يَدُلُّ على حِكْمَةِ الحكيم، أَنَّ طُرُوفَ الامتحان الأمثل للناس في الحياة الدنيا، تَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ فُضُولُ الموضوعين موضع الامتحان مُتَسَاوِيَةً في الحِطَّةِ العامَّةِ لِحَيَوَاتِهِمْ فيها، دُونَ تَمْيِيزٍ لِفَضْلِ عَلَى فَضْلٍ، وبما أَنَّ الْفُضُولَ مُخْتَلِطَةٌ في مَوَاقِعِ الامتحان، فالحكمة تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لكلِّ فَرْدٍ مَوَادُّ امْتِحَانٍ ثَلَاثُ مَوَاقِعِ الْفَضْلِ الَّذِي هو مِنْهُ.

وبناءً عَلَى هَذَا فَكُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَجْرُمِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَالْعُصَاةِ وَالْمُطِيعِينَ، لَهُ مَوَادُّ امْتِحَانٍ ثَلَاثُ مَوَاقِعِ الْفَضْلِ الَّذِي فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَالْأَفْضَلُ وَالْأَحْكَمُ لامتحان بَعْضِ الْأَفْرَادِ الْغِنَى، وَلَامْتِحَانِ آخَرِينَ الْفَقْرَ، وَلَامْتِحَانِ بَعْضِهِمُ الصَّحَّةَ وَلَامْتِحَانِ بَعْضِهِمُ الْمَرَضَ، وَلَامْتِحَانِ بَعْضِهِمُ الْعِزَّ، وَلَامْتِحَانِ بَعْضِهِمُ الدَّلَّ، أَوْ تَقْلِيْبُ الْفَرْدِ بَيْنَ الْاِحْتِمَالَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ، وَلَا يَعْلَمُ الْأَكْثَرُ حِكْمَةَ لكلِّ فَرْدٍ إِلَّا اللَّهُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ.

فمعنى الآية بُعد هذا البيان: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمَدُّ بِعَطَاءَاتِهِ مِنَ الدُّنْيَا فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي جَعَلَهَا لِابْتِلَاءِ عِبَادِهِ، هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ وَغُلَاةَ الْعَصَاةِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ، عَلَى وَفْقِ حُكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ أَيُّهَا الْمُسْتَفْهِمُ عَنْ حُكْمَتِهِ مَمْنُوعًا عَنِ الْكَافِرِينَ وَغُلَاةِ الْعَصَاةِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، فَالَامْتِحَانُ الْأَمْثَلُ يَقْتَضِي هَذَا، وَبِمَا أَنَّ عَطَاءَاتِ اللَّهِ تَكُونُ عَلَى وَفْقِ حُكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ عِبَادِهِ، وَبِمَا أَنَّ الْأَفْرَادَ مُتَفَاضِلُونَ فِي تَكْوِينِ اللَّهِ لِأَجْسَادِهِمْ وَخَصَائِصِهَا وَلِخَصَائِصِ نَفْسِهِمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا مُتَفَاضِلِينَ فِي عَطَاءَاتِ اللَّهِ لَهُمْ.

[محظوراً]: أي: ممنوعاً.

وقد أبان اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الزَّخْرَفِ/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) حُكْمَتَهُ فِي أَنَّهُ لَمْ يُخَصَّ الْكَافِرِينَ بِالْعَطَاءِ الْوَاسِعِ مِنْ زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْأَعْمَارَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَصِيرَةٌ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَا تَسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ نَعِيمٌ عَظِيمٌ جَدًّا يَكُونُونَ فِيهِ خَالِدِينَ بِلَا نِهَايَةٍ.

هَذِهِ الْحِكْمَةُ هِيَ أَنَّ تَفْضِيلَ الْكَافِرِينَ بِالْعَطَاءِ الْوَاسِعِ مِنْ زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فِتْنَةٌ لِلَّذِينَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ، إِذْ تَضَعُفُ مُقَاوَمَتُهُمْ تَجَاهَ مُغْرِبَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَيَخْتَارُونَ سُبُلَ الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ، لِتَكُونَ لَهُمْ حَظُوظٌ وَاسِعَةٌ مِنْ زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبِهَذَا يَكُونُ النَّاسُ بِاسْتِثْنَاءِ الْمَغْضُومِينَ مِنْهُمْ بَعْضُهُمُ اللَّهُ، أُمَّةً وَاحِدَةً كَافِرَةً.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٢٢﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

الرُّخْرُفُ: الذَّهَبُ، وأنواع الزَّيْنَاتِ، وَرُخْرُفَ الْيَتِّ مَتَاعُهُ.

قول الله عز وجل:

﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: أي: انظر وتفكر أيها الصالح للخطاب في حكمتنا من تفضيلنا بعض عبادنا على بعض في عطاءاتنا من متاع الحياة الدنيا وزينتها، فهذا واقع مشهود لكل ناظر، ولكن معرفة الحكمة منه تحتاج إلى تفكير سليم.

وقد أعان الله جلّ جلاله على اكتشاف الحكمة بالتحليل السابق آنفاً.

وهذا التفضيل في الحياة الدنيا، القائم على التفاوت في الخصائص الجسدية والنفسية بين الأفراد، لتهيئة الامتحان الأمل، يهدي المتفكر إلى أنّ عطاءات الله في الحياة الآخرة، لمجتازي رحلة الامتحان في الحياة الدنيا، لا بُدَّ أن تكون أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، لأنّ مكتسباتهم الإرادية التي يترتب عليها الجزاء يوم الدين، متفاوتة ما بين أحط دركات جهنّم إلى أعلى درجات الفردوس في جنّات النعيم، فقال الله عز وجلّ مُنْهَآ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةُ: ﴿وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾:

أي: أكبر درجات متفاضلات في جنّات النعيم، وأكبر تفضيلاً بعطاءات النعيم ووسائله فيها. ويُقابلُ هَذَا تَفَاوُثُ الْمَعْذِبِينَ فِي النَّارِ، بِتَنَازُلِ الدَّرَكَاتِ وَانْحِطَاطِهَا حَتَّى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْهَا، وَبِتَزَايُدِ مَقَادِيرِ الْعَذَابِ، بِحَسَبِ مَقَادِيرِ ذُنُوبِهِمْ وَجَرَائِمِهِمُ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِإِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس السابع من دروس سورة (الإسراء).

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومدّهِ ومعونته.



(١٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن من دروس سورة (الإسراء)

الآيات من (٢٢ - ٣٩)

قال الله عز وجل:

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتُمْ مَذْمُومًا تَحْذَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفِي وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ عَفْوَ ﴿٢٥﴾ وَمَا ذَا الْقَرْيَةِ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا تَرْضَوْنَ عَنْهُمْ آيَةً رَّحِمَةٍ مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُمْ كَانَ يَعْبَادُوهُ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةً أَن يَقُولُوا نَحْنُ زَرْعُهُمْ وَإِنَّا نَكُفِّرُ عَنْ قَتْلِهِمْ وَكَانَ خِطَاؤًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَرْحَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِيسِهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُم وَرِثْتُم بِالْقِسْطِ أَلَمْ تَسْمَعُوا لِمَا قِيلَ مِن قَبْلُ وَأَخْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَنسِفْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُومًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّا خَرَفْتُمْ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّذْمُورًا ﴿٣٩﴾ .

القراءات:

(٢٢) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [إِمَّا يَنْلَغَانْ].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿إِمَّا يَلُفْنَ﴾.

ومؤدّي القراءتين واحدٌ، وهو من التَّفَنُّنِ في البيان.

(٢٣) • قرأ نافع، وحفص، وأبو جعفر: ﴿أَفِ﴾ بِكَسْرِ الفاء مع

التنوين. وقرأها ابن كثير، وابن عامر، ويعقوب: [أَفْ] بفتح الفاء دون

تنوين. وقرأها باقي القراء العشرة: [أَفْ] بكسر الفاء دون تنوين. وهي

لغات عَرَبِيَّةٌ لهذه الكلمة، وفي هذه الكلمة لغاتٌ أخرى.

(٣١) • قرأ ابن كثير [خِطَاءً] بِكَسْرِ الخاء وطاء مفتوحه وألف

بَعْدَهَا. وقرأها ابنُ ذَكْوَانَ، وأبو جعفر: [خَطَأً]. وقرأها باقي القراء

العشرة: ﴿خِطَاءً﴾.

الخِطْءُ والخِطَأُ يَقَعَانِ عَلَى الذَّنْبِ، أمَّا قراءة ابن كثير: [خِطَاءً]

فَيُظْهَرُ أَنَّهَا لُغَةٌ كَالخِطْءِ، إِلَّا أَنَّ مُدَوِّنِي الْمُعْجَمَاتِ اللَّغَوِيَّةِ. لم يذكروها،

وكونُها قراءة متواترةٌ يَكْفِي لِإثباتِها، ففي لُغَاتِ الْعَرَبِ كثيرٌ لَمْ تُدَوِّنْهُ

المُعْجَمَاتُ اللَّغَوِيَّةُ.

(٣٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [فَلَا تُسْرِفْ] ببناء

المخاطَبِ، وهو مُوجَّهٌ لِلْوَلِيِّ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [فَلَا يُسْرِفْ] ببناء الغائب، والضمير يعودُ

على الْوَلِيِّ.

والقراءتان من التَّفَنُّنِ في التعبير.

(٣٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [بِالْقِسْطِ سَاسٍ]

بِكَسْرِ القاف.

وقرأها باقي القرة العشرة: [بِالْقُسْطَاسِ] بضم القاف. وهما لغتان عربيتان في هذه الكلمة.

(٣٨) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [سَيِّئَةً].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿سَيِّئُهُ﴾.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: كُلُّ مَنْهِيٍّ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ كَانَ سَيِّئُهُ الَّذِي يَكْرَهُهُ رَبُّكَ مَكْسُوبَةً سَيِّئَةً يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهَا أَنْ يُعَاقَبَ عَلَيْهَا.

تمهيد:

هذا الدرس يشتمل على أوامر ونواهي ووصايا عظيمة، وبيانات حولها. ومعظم هذه التعليمات مما التفت عليه الرسالات الربانية، للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، ولا سيما كتاب التوراة الذي أنزله الله عز وجل على موسى عليه السلام، والوصايا العشر التي كتبها له في الألواح.

وفي هذا الدرس بعض تفصيل لما جاء في الآية (٩) من أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم فهو موصول بالدرس الثالث من دروس السورة.

التدبر التحليلي:

في هذا الدرس (١٤) وصية من أوامر الله ونواهي لعباده، موجهة للرسل باعتباره أول مكلف من أمته ويجب عليه أن يكون أول المسلمين، وباغتباره متلقي الوحي من ربه، وموجه تبعاً بأسلوب الخطاب الإفرادي لكل صالح للخطاب من أمته، وهذه الوصايا مخصورة بحاصرين متماثلين

مُتَكَامِلِينَ قَبْلَ بَذْنِهَا وَيَعْدَ خِتَامِهَا. فَالْحَاصِرُ قَبْلَ بَذْنِهَا هُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعَّدَ مَذْمُومًا تَحْذُولًا﴾ ٣٣ وَالْحَاصِرُ بَعْدَ خِتَامِهَا هُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ ٣٩.

وَيَدُلُّ هَذَانِ الْحَاصِرَانِ عَلَى أَنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فِي الْوَصَايَا الْوَاقِعَةِ بَيْنَهُمَا فِي النَّصِّ مِنْ تَوْجِيهِهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، مَعَ دَلَالَتِهِمَا عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ اتِّخَاذِ إِلَهٍ آخَرَ مَعَ اللَّهِ فِي قَضَايَا أُخْرَى لَمْ تَشْتَمِلْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْوَصَايَا، وَمُضْمُونِ الْحَاصِرَيْنِ يُمَثِّلُ وَصِيَّةً مِنَ الْوَصَايَا مُؤَكَّدَةً لِمُضْمُونِ الْوَصِيَّةِ الْأُولَى.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: أَي: لَا تَعْبُدْ مَعَ اللَّهِ مَعْبُودًا آخَرَ غَيْرَ اللَّهِ، فَهَذِهِ الْعِبَادَةُ مِنَ الشَّرْكَ.

• ﴿فَتَقَعَّدَ مَذْمُومًا تَحْذُولًا﴾: جَاءَ التَّعْبِيرُ بِالْقُعُودِ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْعَجْزِ وَانْخِفَاضِ الْمَكَانَةِ، فَلَفِظُ «الْقَاعِد» يُكْنَى بِهِ عَنِ الْعَاجِزِ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْقَائِمُونَ الْعَامِلُونَ أَصْحَابُ الْعِزَائِمِ نَظَرَاتٍ اسْتِغْلَاءً عَلَيْهِ، وَاسْتِهَانَةً بِهِ، وَذِمٌّ لِكَسَلِهِ وَجُبْنِهِ وَضَعْفِهِ، فَهُوَ مَذْمُومٌ عِنْدَ اللَّهِ وَمَلَاثِكَتُهُ، وَعِبَادَةُ الصَّالِحِينَ، وَهَذَا مِنْ عَقُوبَاتِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا.

﴿تَحْذُولًا﴾: أَي: غَيْرُ مُعَانٍ وَلَا مَنْصُورٍ عِنْدَ حَاجَتِهِ إِلَى مَنْ يُعِينُهُ وَيَنْصُرُهُ، وَهَذَا مِنْ عَقُوبَاتِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَشُرَكَاءُهُ لَا تَغْنِي عَنْهُ شَيْئًا لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

• ﴿فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾: فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ الَّتِي خُتِمَ بِهَا الْحَاصِرُ الْأَخِيرُ بَيَانٌ لِعَقُوبَتِهِ يَوْمَ الدِّينِ عَلَى شِرْكِهِ، بِإِلْقَائِهِ فِي جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا مُخَلَّدًا، حَالَةً كَوْنِهِ مَلُومًا مَدْحُورًا.

﴿مَلُومًا﴾: أَي: مَوْصُوفًا بِالذَّنْبِ وَالْإِثْمِ، وَهُوَ شِرْكُهُ، وَالشَّرْكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ، وَجُزْمٌ كَبِيرٌ، مَعَ لَوَازِمِ هَذَا الشَّرْكَ مِنْ سُلُوكِ سَيِّئٍ.

﴿مَذْهُورًا﴾: أي: مطروداً مُبْعِداً مع إهانةٍ وإذلالٍ عن مواطن تنزُّلات رَحْمَاتِ اللَّهِ. وَبَعْدَ تَدَبُّرِ الْحَاصِرِينَ أَسْتَعِينُ بِاللَّهِ فِي تَدَبُّرِ الْوَصَايَا:

الوصية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾:

أي: وَأَنْهَىٰ رَبُّكَ إِرَادَتَهُ التَّكْلِيفِيَّةَ بِقَضَاءِ مُبْرَمٍ تَفْسِيرُهُ: أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ. أي: اجْعَلُوا كُلَّ عِبَادَاتِكُمْ مَحْضُورَةً بِهِ وَمَقْصُورَةً عَلَيْهِ، وَهَذَا الْخَطَابُ مَوْجَّهٌ لِّكُلِّ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، مَعَ خَطَابِ إِفْرَادِيٍّ يَخَاطَبُ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ذَلَّتْ عَلَيْهِ عِبَارَةٌ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بِالْخَطَابِ الْإِفْرَادِيِّ.

وَاخْتِيرَ هُنَا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ اسْمُ «رَبِّ» لِأَنَّ وَحْدَانِيَّةَ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَسْتَلْزِمُ عَقْلاً وَوَحْدَانِيَّةً فِي إِلَهِيَّتِهِ، فَلَا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاهُ، إِذِ الْعِبَادَةُ حَقُّ الرَّبِّ الْمُمِدُّ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ مَا دَامَ الْعَبْدُ لَهُ وَجُودٌ مَمْدُودٌ بِمَدَدِ مَا.

الوصية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَابْتَغِ الْإِحْسَانَ﴾. وَيَلْفَنَ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا أَفِي وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾.

أي: وقضى موجباً عليكم:

• أَنْ تُحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. يُقَالُ لُغَةً: «أَحْسَنَ بِهِ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ» أي: فَعَلَ مَا هُوَ حَسَنٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَابْتَغِ الْإِحْسَانَ﴾.

• وَمَحْرَمًا عَلَيْكُمْ أَنْ تُسَيِّئُوا إِلَيْهِمَا. وَمِنْ صُورِ الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِمَا مَا

يلي:

(١) التَّضَجُّرُ مِنْهُمَا أَوْ مِنْ أَحَدِهِمَا فِي حَالَةِ الْكِبَرِ وَكَثْرَةِ الْمَطَالِبِ

والاعتراضات والتدخلات في الصغائر، وكثرة الأوامر والنواهي، بتوجيه كَلِمَةٍ: «أَفْ» ومثل «أَفْ» ما يُساويها من الكلام المؤذي لنفس الوالدين.

«أَفْ» اسم فعل مضارع بمعنى «أَتَضَجِرُ» وفيها عشر لغات. فقال الله عز وجل خطاباً للولد ذكراً كان أم أنثى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا﴾:

«إِنَّمَا» مركبة من «إِنْ» الشرطية و«مَا» الزائدة. والنون في ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ نون التوكيد الثقيلة، وهذه النون في الفعل المضارع بعد «إِنَّمَا» تكاد تكون واجبة. وكذلك ما جاء في القراءة الأخرى: [يَبْلُغَان].

وفي عبارة [عِنْدَكَ] دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْوَالِدَ الْكَبِيرَ الْمَسَاكِينَ الَّذِي تَكْثُرُ تَكَالِيفُهُ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ، وَتَدْخُلَاتُهُ فِي الصَّغَائِرِ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُشِيرَ الضَّجَرَ، بِخِلَافِ غَيْرِ الْمَسَاكِينَ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَالْوَلَدُ مَأْمُورٌ بِالصَّبْرِ وَالتَّحْمَلِ، وَعَدَمِ تَوَجِيهِ كَلِمَةِ أَفْ، فَضْلاً عَمَّا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا.

(٢) النَّهْرُ، وَهُوَ الزَّجَرُ، وَهُوَ أَشَدُّ مِنْ تَوَجِيهِ كَلِمَةِ «أَفْ» فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُنْهَرُهَا﴾: يُقَالُ لَعَةً: «نَهَرَ فُلَانٌ فُلَانًا، يَنْهَرُهُ، نَهْرًا» أَي: زَجَرَهُ وَأَغْضَبَهُ، وَمِثْلُ النَّهْرِ مَا يُسَاوِيهِ مِمَّا يُؤْذِي.

(٣) مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ النَّهْرِ وَالزَّجَرِ، كَالشَّتْمِ وَالسَّبِّ وَالضَّرْبِ، وَهَذَا يُفْهَمُ مِنْ فَحْوَى الْخِطَابِ عَنْ طَرِيقِ اللَّزُومِ الْفِكْرِيِّ، وَالنَّهْيِ عَنْ هَذَا الْأَشَدِّ يُفْهَمُ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَلَوْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ فِي النَّصِّ.

ومن صور الإحسان بالوالدين ما يلي:

(١) توجيهُ القول الكريم لهما، وهو القول الذي فيه تكريم للمخاطب ورفع من شأنه، وإرضاء لنفسه، فقال الله عز وجل خطاباً للولد: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾: أَي: وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا فِيهِ تَكْرِيمٌ لَهُمَا، وَتَعْظِيمٌ لِفَضْلِهِمَا وَمِثِّيَّتِهِمَا فِيمَا تَحَمَّلَا مِنْهُ عَنَاءَ تَرْبِيَةٍ وَإِحْسَانٍ مِنْهُمَا إِلَيْكَ.

(٢) التَّذَلُّلُ لَهُمَّا، والتواضعُ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، تخفيفاً على أَنْفُسِهِمَا مِنْ مشاعرِ الضَّعْفِ والتناقصِ في مُخْتَلَفِ الْقُوَى، وهي مشاعرٌ غير سارَّةٍ بَعْدَ مَا كَانَا عَلَيْهِ فِي شَبَابِهِمَا وَكُهُولَتَيْهِمَا مِنْ قُوَّةٍ وَنشاطٍ وَحَيَوِيَّةٍ، إِذْ يَجِدَانِ فِي وَلَدِهِمَا مَا فَقَدَاهُ فِي أَنْفُسِهِمَا، فقال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْوَلَدِ: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ في هذه العبارة تشبيه التَّذَلُّلِ لِلْوَالِدَيْنِ بِتَذَلُّلِ الطَّائِرِ حِينَ يَخْفِضُ جَنَاحَهُ مُنْكَسِراً لِإِفْرَاحِهِ أَوْ لِزَوْجِهِ أَوْ لِغَيْرِهِمَا، وَلَكِنْ أُضْمِرَ التَّشْبِيهِ، فَلَمْ يُذَكَّرْ لَفْظُ الْمَشَبِّهِ بِهِ، وَإِنَّمَا كُنِيَ عَنْهُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَهُوَ الْجَنَاحُ، وَأُضِيفَ هَذَا الْمَكْنَى بِهِ إِلَى الْمَشَبِّهِ.

وهذا على ما ظهر لي هو من التشبيه البليغ المكنى فيه عن المشبه به بِيَعُضٍ لَوَازِمِهِ^(١).

فالمعنى: لِيَكُنْ أَيْهَا الْوَلَدُ ذَلِكَ لِوَالِدَيْكَ، كَطَّائِرٍ يَخْفِضُ جَنَاحَهُ تَذَلُّلاً مِنَ الرَّحْمَةِ.

الخفض في اللُّغَةِ: التواضعُ وَلِيْنُ الْجَانِبِ، والميلُ إِلَى المنخفضِ الْمُظْمَنُ مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ ضِدُّ الرَّفْعِ.

وَذَكَرَ قَيْدُ: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ لاسْتِبْعَادِ التَّذَلُّلِ نِفَاقاً ظَاهِرِيّاً، أَوْ بِدَافِعِ الطَّمَعِ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمَا، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ دُنْيَوِيَّةٍ.

(٣) الدُّعَاءُ لَهُمَا، إِذْ دُعَاءُ الْوَلَدِ لِوَالِدَيْهِ هُوَ مِنْ أَعْمَالِهِمَا، وَلَوْ مَاتَا. فقال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْوَلَدِ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾.

الكاف في ﴿كَمَا﴾ لِلتَّعْلِيلِ، أَيُّ: لِأَجْلِ أَنَّهُمَا رَبَّيَانِي حَالَةً كَوْنِي صَغِيراً، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُومَ بِشُؤْنِي لِنَفْسِي.

(١) وهذا ما أثبتته في كتابي «البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها» ولم أَرِ هذه العبارة من باب الاستعارة، بل هي من التشبيه المكني.

الرَّحْمَةُ: الَّتِي يَدْعُو بِهَا الْوَلَدُ لِوَالِدَيْهِ تَشْمَلُ دَفْعَ كُلِّ سُوءٍ عَنْهُمَا وَجَلْبَ كُلِّ خَيْرٍ لَهُمَا. وَلَا يَخْفَى مَا فِي جَعْلِ الْوَصِيَّةِ الثَّانِيَةِ الْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالنَّهْيِ عَنِ عُقُوقِهِمَا مِنَ الْعَنَاءِ الْعَظِيمَةِ بِهَا.

الوصية الثالثة: الأمرُ بجعل المكسوبات الإرادية النفسية مكسوباتٍ صالحاتٍ، على وفقِ مَا هَدَى اللَّهُ إِلَيْهِ عِبَادَهُ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ الْإِرَادِيَّةِ، كَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِهِ، وَكَالنِّيَّاتِ بَابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ الْأَعْمَالِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا، وَكَحُبِّ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَطَاعَةِ اللَّهِ، وَكَرَاهِيَةِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ وَمَعْصِيَةِ اللَّهِ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ۝١٥٠﴾ :

لَمْ يَأْتِ التَّكْلِيفُ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ تَكْلِيفًا مُبَاشِرًا بِأَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِأَسْلُوبِ الْكِتَابَةِ، وَلَمْ يَأْتِ بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِيِّ كَبَعْضِ النِّظَائِرِ السَّابِقَةِ، وَإِنَّمَا جَاءَ الْخُطَابُ فِيهَا عَامًّا لِكُلِّ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعِ الْامْتِحَانِ.

المعنى: أَنْتُمْ مُطَالِبُونَ بِالْإِيمَانِ، وَبَابْتِغَاءِ طَاعَةِ رَبِّكُمْ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ فِي نِيَّاتِكُمْ مِنْ وَرَاءِ أَعْمَالِكُمْ، وَمُطَالِبُونَ بِالتَّسْلِيمِ الْكَامِلِ لَهُ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَسَائِرِ تَكَالِيفِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَمُطَالِبُونَ بِحُبِّ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضَائِلِ وَالْمُتَحَلِّينَ بِهَا، وَبِكِرَاهِيَةِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ وَالرَّذَائِلِ وَبُغْضِ أَصْحَابِهَا، وَمُطَالِبُونَ بِأَنْ لَا تَحْسُدُوا النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ حَسَدًا مَذْمُومًا، وَمُطَالِبُونَ بِابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَأَنْ تَكُونُوا مُخْلِصِينَ لَهُ فِيمَا تَقُومُونَ بِهِ مِنْ بَرٍّ لِلْوَالِدَيْنِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ النُّفُوسِ الْإِرَادِيَّةِ، وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ، وَهُوَ يَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا بِعَذْلِهِ أَوْ فَضْلِهِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَالِحِينَ فِي نُفُوسِكُمْ، بِإِيمَانٍ صَحِيحٍ صَادِقٍ

مطابق لمطلوب الله منكم، وپرغبة صادقة في رضوان ربكم عنكم والظفر بثوابه العظيم، فإنكم ستقعون في أخطاء وسترتكبون ذنوباً، فكل بني آدم خطاؤون، لكن بواعث الإيمان فيكم، وهو رأس صلاح نفوسكم، وستجعلكم رجاعين إلى ربكم بالاستغفار والتوبة والعمل الصالح، كلما ارتكبتم ذنباً وخطايا.

فإذا كنتم أوابين رجاعين بصدق إلى ربكم، وكان إيمانكم صحيحاً سليماً، فإن ربكم يغفر لكم، لأن من صفات ربكم ذات الكينونة الدائمة أنه غفور للأوابين.

الأوابون: الرجاعون إلى الله ربهم بالاستغفار والتوبة والعزم على الطاعة، بعد السقوط في المعصية والإثم.

فعل «كان» في جملة: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ يدل على الكينونة الدائمة، فغفرانه للأوابين من صفاته الدائمة جل جلاله وعظم سلطانه.

وهذه الجملة دلت بالكناية على أنه يغفر لهم إذا رجعوا إليه بالاستغفار والتوبة والعزم على الطاعة، فقد جاءت تعليلاً لكلام مطوي تقديره: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ وارتكبتم ذنباً وكنتم بعدها أوابين يغفر لكم ذنوبكم ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾.

غفوراً: أي: كثير السّر للذنوب عباده، الذي يتبعه عدم المؤاخذه عليها، ما لم يكونوا من المجاهرين الماجنين.

الوصية الرابعة: الأمر بإيتاء ذي القربى حقه، وإيتاء المسكين حقه وإيتاء ابن السبيل حقه، دل عليها قول الله عز وجل بأسلوب الخطاب الإفرادي: ﴿وَمَا يَذَّاقُوا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.

ذو القربى: أي: صاحب القرابة في النسب، ومعلوم أن بعض أقرباء

النسب لهم حقوق مَالِيَّة كالأولاد الفقراء على آبائهم، وكالأبناء والأمهات الفقراء على أولادهم، على وفقِ مَا جاء بيان هذا في السُّنَّة.

وهذه الحقوق المَالِيَّة لذوي القربى، غَيْرُ حُقُوق صِلَةِ الرَّحْم للقربات القريبة والقربات البعيدة في النسب.

والمسكين: وهو مَنْ يَبْدُو مِنْ ظَاهِرِ حَالِهِ أَنَّهُ فَقِير، كالسائل الَّذي يَدْعِي الفقر، وكالَّذي يَتَعَرَّضُ لِعَطَاءِ الْمُحْسِنِينَ وَلَوْ لَمْ يَسْأَلْ بِلِسَانِهِ، وهذا المسكين قَدْ يكون فقيراً في واقعِ حَالِهِ، وَقَدْ لَا يَكُون، وَعِنْدَ الْجَهْلِ بِوَاقِعِ حَالِهِ فالأَضْلُ مُعَامَلَتُهُ بِحَسَبِ ظَاهِرِ حَالِهِ، أَمَّا فِي حَالَةِ الْعِلْمِ بِغِنَاهُ فَإِنَّهُ لَا حَقَّ لَهُ، فَلَا يُعْطَى مِنْ أَمْوَالِ الزَّكَاةِ، وَلَكِنْ إِذَا رَأَى الْبَاذِلَ أَنَّ فِي إِعْطَائِهِ مَصْلَحَةً هِيَ مِنْ مَقَاصِدِ الدِّينِ، فَإِنَّهُ يُعْطِيهِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْعَامَّةِ لَا مِنْ أَمْوَالِ الزَّكَاةِ.

وَأَبْنُ السَّبِيلِ: وهو المسافرُ، فَإِنْ نَزَلَ ضَيْفًا كَانَ لَهُ حَقُّ الضِّيَافَةِ، وَإِنْ كَانَ مُنْقَطِعًا لَا يَمْلِكُ مَا يُوصِلُهُ إِلَى بَلَدِهِ، فَإِنَّهُ يُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ مَا يُوصِلُهُ إِلَى بَلَدِهِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي بَلَدِهِ فَقِيرًا فَإِنَّهُ يُعْطَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

وأُطْلِقَ عَلَى الْمَسَافِرِ أَنَّهُ: «أَبْنُ السَّبِيلِ» لِأَنَّهُ غَرِيبٌ لَا تُعْرَفُ لَهُ نِسْبَةٌ فِي مَكَانِ غُرَبَتِهِ، الَّتِي هُوَ فِيهَا غَابِرُ سَبِيلٍ، فَإِذَا قِيلَ: هُوَ أَبْنُ مَنْ؟ كَانَ الْجَوَابُ: هُوَ أَبْنُ السَّبِيلِ.

الوصية الخامسة: النَّهْيُ عَنِ التَّبَذِيرِ، دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢٦) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧):

التَّبَذِيرُ: تَفْرِيقُ الْمَالِ بِإِسْرَافٍ، مَأْخُودٌ مِنْ بَذَرِ بُزُورِ الزَّرْعِ مُفَرَّقَةً مُتَشَتِّرَةً دُونَ تَعَمُّدٍ لِمَوَاقِعِهَا، وَهُوَ مَذْمُومٌ شَرْعًا، لِمَجَاوَزَتِهِ مَا هُوَ مَقْبُولٌ فِي الْإِنْفَاقِ.

قال الشافعي: التبذيرُ إنفاقُ المالِ في غَيْرِ حَقِّهِ، وَلَا تَبْذِيرُ فِي عَمَلٍ

الخير.

أقول: كُلُّ إِنْفَاقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ هُوَ مِنَ التَّبَذِيرِ، وَكُلُّ إِنْفَاقٍ يَزِيدُ عَلَى تَحْقِيقِ الْمَطْلُوبِ لِلنَّفْسِ مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ هُوَ مِنَ التَّبَذِيرِ، وَكُلُّ إِنْفَاقٍ فِيهِ ضَرٌّ أَوْ أَذَى هُوَ مِنَ التَّبَذِيرِ، وَكُلُّ إِنْفَاقٍ عَشْوَائِيٍّ لَا تُعْرِفُ فِيهِ مَوَاقِعَ الْمَالِ الْمَبْدُولِ هُوَ مِنَ التَّبَذِيرِ، وَهُوَ عَبَثٌ لَا تَفْعَلُهُ الْعُقُلَاءُ.

• فَمِنَ التَّبَذِيرِ إِنْفَاقُ الْأَمْوَالِ فِي شِرَاءِ الْمُسْكِرَاتِ، وَالْمَخْذِرَاتِ، وَالْمُفْتَرَاتِ.

• وَمِنَ التَّبَذِيرِ مَا يَزِيدُ عَلَى حَاجَاتِ الْمَدْعُودِينَ فِي الْوَلَائِمِ، ثُمَّ يُرْمَى الزَائِدُ فِي الْقِمَامَاتِ.

• وَمِنَ التَّبَذِيرِ إِنْفَاقُ أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ فِي إِطْلَاقِ قَذَائِفَ نَارِيَّةٍ تُرَى فِي الْجَوِّ مَا يُعْجِبُ النَّظَرَ، وَتَنْظَفِي فِي عَدَدٍ مِنَ الثَّوَانِي.

• وَمِنَ التَّبَذِيرِ مَا يُضْنَعُ مِنْ ثِيَابٍ مُزْرَكَشَةٍ مُزْخَرَفَةٍ لِلنِّسَاءِ، لِحُضُورِ حَفَلَاتٍ يَتَبَاهَيْنَ بِهَا عَلَى قَرِينَاتِهِنَّ، وَهِيَ ذَوَاتُ قِيمٍ بَاهِظَةِ الثَّمَنِ وَلَا تُلْبَسُ إِلَّا لِحَفَلَةٍ أَوْ حَفَلَتَيْنِ.

• وَمِنَ التَّبَذِيرِ مَا يُبْذَلُ مِنْ أَمْوَالٍ لِلْأَوْثَانِ الَّتِي تُزَيَّنُ بِهَا الْقُصُورِ.

• وَمِنَ التَّبَذِيرِ مَا تُزْخَرَفُ بِهِ الْقُصُورُ لِلتَّبَاهِيِ وَالتَّفَاخِرِ، مَعَ حُضُورِ مُتَعَةِ الْأَنْفُسِ بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَلَا سِيَّمَا تَغْلِيفُ جُذْرَانِهَا وَأَعْمِدَتَيْهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ بِصَفَائِحِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ.

• وَمَنْ كَانَ دَخْلُهُ الشَّهْرِيَّ يَكْفِيهِ وَيَكْفِي أَسْرَتَهُ لَوْ اقْتَصَدَ وَأَنْفَقَ بِعَقْلِ وَحِكْمَةٍ، فَصَارَ يُنْفِقُهُ فِي نِصْفِ شَهْرٍ أَوْ فِي ثُلْثِي شَهْرٍ، فَهُوَ مِنَ الْمُبْذِرِينَ.

وجاء في عبارة الوصيَّة التَّوَكِيدُ بِالْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ إِنْفَاقَاتِ مِمَّا يَحْكُمُ عَلَيْهَا أَهْلُ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ بِأَنَّهَا مِنَ التَّبَذِيرِ، إِذِ الْمَعْنَى: وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا وَاضِحًا يَحْكُمُ عَلَيْهِ أَصْحَابُ الْعُقُولِ الْمُجَرَّبُونَ الْخَبِيرُونَ بِأَنَّهُ مِنَ التَّبَذِيرِ.

وَوَصَفَ اللَّهُ الْمُبَذِّرِينَ بِأَنَّهُمْ أَخَوَانُ الشَّيَاطِينِ، أَي: مُصَاحِبُوهُمْ
وَالْمَتَأَثِّرُونَ بِوَسَاوِسِهِمْ وَنَزَعَاتِهِمْ، وَالسَّبَبُ فِي هَذَا أَنَّ انْعِدَامَ الرُّشْدِ فِي
الْإِنْفَاقِ لَدَيْهِمْ، يَجْعَلُهُمْ غُرْضَةً لِلتَّأَثُّرِ بِنَزْعِ شَيْطَانِي يَضَعُظُ عَلَى هَوَى طَائِرِي
لَدَيْهِمْ، فَيَتَنَفَّعُونَ لِتَحْقِيقِهِ مَهْمًا بَذَلُوا مِنْ أَمْوَالٍ فِيهِ، إِذْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ ضَابِطٌ
إِرَادِيٌّ يَتَحَكَّمُ بِأَهْوَائِهِمْ، وَتَسْتَخَفُّهُمْ شَيْاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَيَسْتَدْرِجُونَهُمْ
مِنَ الْمَبَاحَاتِ إِلَى الْمَكْرُوهَاتِ، فَإِلَى الْمَحَرَّمَاتِ الصَّغَرَى، فَإِلَى الْكَبَائِرِ
الْكُبْرَى، ثُمَّ إِلَى الْكُفْرِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ غَلَبَةِ سُلْطَانِ الْهَوَى
وَالشَّهَوَاتِ عَلَى كُلِّ قَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ.

فَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ
لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝﴾ قَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا بِنَصِّهِ وَبِلَوَازِمِهِ الْفِكْرِيَّةِ.

وَفَعْلٌ «كَانَ» فِي هَذَا النَّصِّ يَدُلُّ عَلَى الْكَيْفُونَةِ الدَّائِمَةِ، أَي: إِنَّ
الْمُبَذِّرِينَ هُمْ إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ دَوَامًا، وَالشَّيْطَانُ كَفُورٌ لِرَبِّهِ دَوَامًا.

وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ: (النَّهْيُ عَنِ التَّبَذِيرِ) بِمَثَابَةِ بَيَانِ مُلْحَقِ
بِالْوَصِيَّةِ الرَّابِعَةِ (الْأَمْرُ بِإِتْيَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ) وَلِهَذَا جَاءَتْ
الآيَةُ (٢٨) مُتَمِّمَةً لِلْبَيَانِ الَّذِي جَاءَ فِي الْوَصِيَّةِ الرَّابِعَةِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَأَمَّا نُرْضِضَ عَنْهُمْ أَيْتَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ۝﴾

﴿وَأَمَّا نُرْضِضَ﴾: فِي التَّحْلِيلِ النُّحْوِيِّ، مِثْلُ ﴿إِنَّمَا يَلُغْنَ﴾ الَّتِي سَبَقَ
بَيَانُهَا فِي الْآيَةِ (٢٣).

﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾: أَي: قَوْلًا حَسَنًا سَهْلًا عَلَيْكَ أَنْ تَقُولَهُ،
فَالْقَوْلُ الْحَسَنُ سَهْلٌ عَلَى كُلِّ نَاطِقٍ أَنْ يَقُولَهُ، إِذْ لَا كُلْفَةَ فِيهِ، وَمِنَ الْقَوْلِ
الْمَيْسُورِ الْوَعْدُ الْجَمِيلُ، وَالْإِعْتِذَارُ الْمَقْبُولُ.

الْمَيْسُورُ: الشَّيْءُ الْمَيْسَرُ السَّهْلُ اللَّيِّنُ الْمُنْقَادُ، وَتَقُولُ: يَسَّرْتُ لَهُ
الْقَوْلَ: أَي: لَيْتَنَّهُ لَهُ.

أَي: وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْ إِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، لَكُؤْنِكَ غَيْرَ ذِي يَسَارٍ وَغَنَى، وَكَانَ إِعْرَاضُكَ عَنْ إِعْطَائِهِمْ لِأَجْلِ ابْتِغَاءِ أَنْ يُوسَّعَ رُبُّكَ عَلَيْكَ الرِّزْقَ بِرَحْمَتِهِ، وَأَنْتَ تَتَرَقَّبُ ذَلِكَ، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا حَسَنًا مَّيْسُورًا لَكَ أَنْ تَقُولَهُ لَهُمْ.

فَعَدَمُ الْبَذْلِ مَعَ الْعُسْرِ فِي الْأَمْوَالِ يُهَوِّنُ مِنْ وَخَرَاتِهِ الْيُسْرُ فِي الْأَقْوَالِ.

الإعراض: إِعْطَاءُ الْعَارِضِ، أَي: جَانِبِ الْوَجْهِ، وَهُوَ وَسْطُ بَيْنِ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ، وَلَيْسَ الْمَرَادُ الْحَرَكَةُ فِي الْجِسْمِ هُنَا، بَلِ الْمَرَادُ عَدَمُ الْإِعْطَاءِ وَلَكِنْ بِرَفْقٍ، إِذِ الْإِقْبَالُ مُطْمِعٌ، وَالْإِدْبَارُ مُوجِعٌ، أَمَّا الْإِعْرَاضُ مَعَ الْقَوْلِ الْحَسَنِ الْمَيْسُورِ فَمُقْنِعٌ.

الْوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ: التَّوْجِيهُ لِلتَّوَسُّطِ وَالْإِعْتِدَالِ فِي الْإِنْفَاقِ، دَلَّ عَلَىٰ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِيِّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۖ﴾ (٢٩).

جاء التعبير عن الأمرِ بِالْقَصْدِ فِي الْإِنْفَاقِ وَهُوَ التَّوَسُّطُ وَالْإِعْتِدَالُ، بِالنَّهْيِ عَنِ الطَّرَفَيْنِ الذَّمِيمَيْنِ وَهُمَا الشُّحُّ وَالْبُخْلُ فِي الْإِنْفَاقِ، وَيَقَابِلُهُمَا الْإِسْرَافُ وَالتَّبَذِيرُ.

• أَمَّا الشُّحُّ وَالْبُخْلُ فَقَدْ جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُمَا بِكِنَايَةِ قَبْضِ الْيَدِ وَضَمِّهَا بِعُنْفٍ إِلَىٰ جِهَةِ الْعُنُقِ، حَتَّىٰ تَكُونَ كَالْمَغْلُولَةِ إِلَىٰ الْعُنُقِ.

الغُلُّ: طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ جِلْدٍ يُجْعَلُ فِي عُنُقِ الْأَسِيرِ أَوْ الْمَجْرَمِ، أَوْ فِي يَدَيْهِ، وَقَدْ تُجْمَعُ يَدُهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، وَتَطَوَّقَانِ بِالْغُلِّ، وَتُعْقَدُ بِهِ سِلْسِلَةٌ أَوْ نَحْوُهَا لَجَرِّهِ وَقَوْدِهِ.

وَلَمَّا كَانَ الشَّحِيحُ وَيُلْحَقُ بِهِ الْبَخِيلُ، مِنْ عَادَتِهِ حِينَمَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْإِنْفَاقُ أَنْ يَقْبِضَ يَدَهُ بِسُرْعَةٍ وَعُنْفٍ، وَمَسِيرُ هَذِهِ الْحَرَكَةِ الطَّبِيعِيِّ يَكُونُ

إِلَى جِهَةِ الْعُنُقِ، إِذْ يُدِيرُ جِسْمَهُ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ عَنْ مُوَاجَهَةِ الطَّالِبِ، فَحَرَكَةُ الْيَدِ الْيُمْنَى تَكُونُ إِلَى جِهَةِ عُنُقِهِ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ بِمِثَابَةِ مَغْلُولِ الْيَدِ إِلَى عُنُقِهِ، كَانَ مِنْ بَدِيعِ الْكِنَايَاتِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ أَي: لَا تَكُنْ شَحِيحاً وَلَا بَخِيلاً فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى نَفْسِكَ وَأَهْلِكَ وَعَشِيرَتِكَ وَضَيْفِكَ وَغَيْرِهِمْ.

هذا التعبير الكِنَائِي، قد امْتَزَجَتْ فِيهِ اسْتِعَارَةٌ قَائِمَةٌ عَلَى تَشْبِيهِ الشَّحِيحِ بِالْأَسِيرِ الَّذِي غُلَّتْ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَهُوَ مِنَ الْأَمْثِلَةِ الرَّائِعَةِ الَّتِي امْتَزَجَتْ فِيهَا الْكِنَايَةُ بِالْاسْتِعَارَةِ، أَوْ بِالتَّشْبِيهِ، عَلَى تَقْدِيرٍ: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ كَالْمَغْلُولَةِ إِلَى عُنُقِكَ.

وَيُوحِي هَذَا التَّعْبِيرُ بِأَنَّ الشَّحِيحَ يَأْسِرُهُ شُحُّهُ، فَيَجْعَلُ يَدَهُ كَالْمَغْلُولَةِ إِلَى عُنُقِهِ، بِرِبَاطٍ مِنْ دَاخِلِ نَفْسِهِ.

• وَأَمَّا التَّنْذِيرُ وَالْإِسْرَافُ فَقَدْ جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُمَا بِكِنَايَةٍ بِسَطِ الْيَدِ بَسْطاً كَامِلاً، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أَي: وَلَا تَبْسُطْهَا الْبَسْطَ كُلَّهُ، لِأَنَّ بَعْضَ الْبَسْطِ مَحْمُودٌ، وَهُوَ الْجُودُ وَالْكَرَمُ وَالتَّوَسُّعُ فِي الْبَذْلِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنْ دُونَ أَنْ يَصِلَ هَذَا إِلَى حَدِّ الْخُرُوجِ عَنِ الْحِكْمَةِ وَالرُّشْدِ فِي التَّصَرُّفِ.

وَحِينَمَا تَقْتَضِي الْمَصْلَحَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بَذْلَ كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ بَذْلُهُ إِثَاراً حَكِماً، وَعَمَلاً رَشِيداً، وَإِحْسَاناً رَفِيعاً، وَهُوَ كَالتَّضَحُّجَةِ بِالنَّفْسِ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا فَعَلَ «أَبُو بَكْرٍ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. حِينَمَا جَاءَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ لَتَمْوِيلِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ الرَّسُولُ لَهُ: مَاذَا تَرَكْتَ لِإِعْيَالِكَ؟ فَقَالَ: تَرَكْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

وَفِي خِتَامِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ بِالْقَضْدِ فِي الْإِنْفَاقِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلْيَقْعُدْ مُلُوماً مَحْسُوراً﴾:

﴿مَلُومًا﴾: أي: موصوفاً بما تُلامُ عليه من سوء تصرف، أو بارتكاب أمرٍ مذمومٍ لا رُشدَ ولا عقلَ فيه.

﴿مَحْسُورًا﴾: أي: كالأ عاجزاً عن تحقيق مَطْلُوبَاتِكَ من دُنْيَاكَ أو آخِرَتِكَ. وأرى أَنَّ هَٰذَيْنِ الوُضْعَيْنِ يَلْحَقَانِ كُلًّا مِنَ الْمُمْسِكِ شُحًّا وَبُخْلًا، وَالبَاسِطِ تَبْذِيرًا وَإِسْرَافًا.

أَمَّا الْمُمْسِكُ شُحًّا أَوْ بُخْلًا، فَهُوَ مَلُومٌ مَذْمُومٌ عِنْدَ اللَّهِ وَمَلَأَتْكَ بِهِ وَعِنْدَ النَّاسِ، ثُمَّ يَكُونُ مَحْسُورًا غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى تَحْقِيقِ كَثِيرٍ مِنْ مَطْلُوبَاتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَإِذَا تَعَرَّضَ لِمَا يُخَوِّجُهُ لِمَسَاعِدَةِ النَّاسِ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُسَاعِدُهُ وَيُعِينُهُ، فَقَدْ كَانَ شَحِيحًا غَيْرَ مُعِينٍ لَهُمْ، فَيَقْعُدُ حَزِينًا مَحْسُورًا، لَا يَجِدُ مَنْ يَمُدُّ لَهُ يَدَ الْمَسَاعِدَةِ.

وَأَمَّا الْبَاسِطُ تَبْذِيرًا وَإِسْرَافًا بِلَا عَقْلِ وَلَا رُشْدٍ، فَهُوَ سَفِيهٌ مَلُومٌ مَذْمُومٌ عِنْدَ اللَّهِ وَمَلَأَتْكَ بِهِ وَعِنْدَ النَّاسِ، ثُمَّ يَكُونُ مَحْسُورًا غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى تَحْقِيقِ كَثِيرٍ مِنْ مَطْلُوبَاتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَقَدْ بَجَعَلَهُ تَبْذِيرُهُ وَإِسْرَافُهُ فَقِيرًا مُخْتَاجًا إِلَى صَدَقَاتِ الْمَرْكُوبِينَ، وَعَطَاءَاتِ الْمُحْسِنِينَ، فَيَقْعُدُ مَحْسُورًا نَادِمًا عَلَى مَا فَعَلَ أَيَّامَ سَفَهِهِ مُبْذِرًا مُسْرِفًا فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ وَفِعْلِ الْخَيْرِ.

وَاتَّبَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْوَصَايَا: «الرَّابِعَةُ» و«الخَامِسَةُ» و«السَّادِسَةُ» المتعلِّقة بِالْأَمْوَالِ بِقَوْلِهِ مُبِينًا حِكْمَتَهُ فِي بَسْطِ الرِّزْقِ وَتَقْدِيرِهِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ بِعِبَادِهِ، فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٢٠):

في هذه الآية تَكْمِيلٌ لِبَعْضِ مَا جَاءَ فِي الْآيَاتِ مِنْ (١٨ - ٢١) فَهِيَ مُوَصُولَةٌ بِالْخَطِّ الْفِكْرِيِّ الْمَارِّ فِيهَا.

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾: أي: يُوسِّعُهُ وَيُكَثِّرُهُ.

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: وَيُضَيِّقُ وَيُقَلِّلُ عَنِ الْحَاجَةِ، يُقَالُ لُغَةً: «قَدَرَ اللَّهُ

على فُلَانِ الرُّزْقِ، وَقَدَّرَهُ عَلَيْهِ» أي: ضَيَّقَهُ وَقَلَّلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ وَحَاجَةِ عِيَالِهِ.

وَبَسَطَ اللَّهُ الرُّزْقَ لِبَعْضِ عِبَادِهِ، وَتَضَيَّقَهُ عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ، إِنَّمَا يَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - وَمَشِيئَتُهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، فَكَمَا أَنَّهُ بَعَزَّتْهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، هُوَ حَكِيمٌ دَوَامًا، وَمَشِيئَتُهُ الْمَظْلَقَةُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ. وَدَلَّتْ عَلَى حِكْمَتِهِ جَمْلَةُ التَّغْلِيلِ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾:

الخبير: الْعَالِمُ بِالْأَمْرِ أَوْ بِالشَّيْءِ عِلْمًا قَائِمًا عَلَى تَجَرُّبَةٍ لَهُ، وَإِذْرَاقٍ لِحُزْنِيَّاتِهِ، فَهُوَ بِخَبْرَتِهِ يَخْتَارُ مَا هُوَ الْأَحْكَمُ وَالْأَخْسَنُ لَهُ.

البصير: الْمَذْكُورُ بِبَصَرِهِ كُلُّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَى حَتَّى الْخَفَايَا الْبَاطِنَةَ.

الْمَعْنَى: إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي يُمِدُّكَ بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَوَامًا، يَا أَيُّهَا الْمَوْضُوعُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، قَدْ جَعَلَ مِنْ مَوَادِّ امْتِحَانِهِ لِعِبَادِهِ، بَسَطَ الرُّزْقَ بِتَفَاضُلٍ، وَتَضَيَّقَ الرُّزْقَ بِتَفَاوُتٍ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِعِبَادِهِ عِلْمَ خَبْرَةٍ، بَصِيرٌ بِكُلِّ خَفَايَا نُفُوسِهِمْ، فَهُوَ بِحَسَبِ عِلْمِهِ بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ، وَعِلْمِهِ بِمَا هُوَ الْأَحْكَمُ وَالْأَمْتَلُ لاختباره فِي رَحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَحْلَةَ الْامْتِحَانِ يَبْسُطُ الرُّزْقَ لَهُ بِالْمَقْدَارِ الْأَكْثَرِ حِكْمَةً، أَوْ يَضَيِّقُهُ عَلَيْهِ بِالْمَقْدَارِ الْأَكْثَرِ حِكْمَةً.

الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ: النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ خَشْيَةَ الْفَقْرِ، إِذْ كَانَ هَذَا مِنْ عَادَاتِ بَعْضِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعَرَبِ، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١).

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ [الْأَنْعَامِ/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول] مِنْ آيَةِ قِيلَ: هِيَ ذَاتُ تَنْزِيلٍ مَدَنِيٍّ، ضُمَّتْ إِلَى سُورَةِ مَكِّيَّةِ التَّنْزِيلِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿... وَلَا تَقُولُوا أَرْزَأَكُم مِّنْ لِّمَلَأٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ...﴾ (١٥١)

﴿خَشِيَةَ لِّمَلَأٍ﴾: أي: خَوْفَ حُدُوثِ فَقْرٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ: الإِمْلَاقُ: الْفَقْرُ الشَّدِيدُ، يُقَالُ لُغَةً: «أَمْلَقَ الدَّهْرُ مَالَهُ» أي: أَذْهَبَهُ أَوْ أَفْسَدَهُ.

[مِنْ إِمْلَاقٍ]: أي: مِنْ فَقْرٍ مُّوْجُودٍ حَاصِلٍ. «مِنْ» معناها التعليل أي: من أَجْلِ فَقْرٍ مُّوْجُودٍ حَاصِلٍ.

[خِطَأً كَبِيراً]: أي: إثمًا وَذَنْبًا كَبِيراً.

كان من عادة بَعْضِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ بَنَاتِهِمْ بِالْقَتْلِ وَأَدَاءً، أي: دَفَنًا لَهَا فِي التَّرَابِ عَقَبَ وَلَادَتِهَا، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَفْعَلُ ذَلِكَ إِذَا كَبِرْنَ خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ، أَوْ خَوْفًا مِنَ الْعَارِ إِذَا سُبِينَ مِنْ قِبَلِ الْغُرَاةِ.

وَهَذَانِ النَّصَّانِ يَتَعَلَّقَانِ بِقَتْلِ الْأَوْلَادِ، لِلتَّخَلُّصِ مِنَ النَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ، بِسَبَبِ الْفَقْرِ الْمَخُوفِ مِنْ حُدُوثِهِ أَوْ الْوَاقِعِ فِعْلًا.

وَهُمَا مُتَكَامِلَانِ لَا مُكَرَّرَانِ:

• فَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ) جَاءَ التَّعْبِيرُ بِهِ بِعِبَارَةِ: ﴿خَشِيَةَ لِّمَلَأٍ﴾ أي: خَشْيَةَ حُدُوثِ فَقْرٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَجَاءَ التَّعْقِيبُ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ بِعِبَارَةِ: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَاشِرُونَ﴾ فَبِهَا تَقْدِيمُ رِزْقِ الْأَوْلَادِ عَلَى رِزْقِ الْآبَاءِ، لِأَنَّ الْفَقْرَ أَمْرٌ مَخُوفٌ مِنْ حُدُوثِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

• وَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْأَنْعَامِ) جَاءَ التَّعْبِيرُ فِيهِ بِعِبَارَةِ: [مِنْ إِمْلَاقٍ] أي: مِنْ فَقْرٍ وَاقِعٍ، وَجَاءَ التَّعْقِيبُ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ بِعِبَارَةِ: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّا هُمْ﴾ فَبِهَا تَقْدِيمُ رِزْقِ الْآبَاءِ عَلَى زَرْقِ الْأَوْلَادِ، لِأَنَّ الْفَقْرَ أَمْرٌ وَاقِعٌ مُّوْجُودٌ وَالْآبَاءُ بِحَاجَةٍ آتِيَّةٍ إِلَى الرِّزْقِ.

فَتَكَامَلِ النَّصَّانِ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، وَجَاءَ تَأْخِيرُ آيَةِ (الْأَنْعَامِ) إِلَى

المرحلة المدنية على ما قيل، لأنَّ النَّهْيَ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ فِيهَا مَجْمُوعٌ مَعَ وَصَايَا فِيهَا بَيِّنَاتٌ مِنَ الْمُنَاسِبِ تَأْخِيرُ تَرْبِيلِهَا إِلَى الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، وَضُمَّتْ إِلَى سُورَةِ مَكِّيَّةٍ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَطْلُوبَ اللَّهِ فِيهَا بَعْدَ إِكْمَالِ الدِّينِ، يَجِبُ تَوَجُّيْهُهُ فِي زَمَنِ يُعَادِلُ أَوَاسِطَ النُّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْمَرَحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ.

عبارة: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ تَشْمَلُ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ، وَلَكِنْ كَانَ مِنْ عَادَةٍ بَعْضُ الْعَرَبِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنَ الْبَنَاتِ أَكْثَرَ مِنْ تَخْلُصِهِمْ مِنَ الذُّكُورِ، وَيَقُولُ قَائِلُهُمْ: «وَأُذِ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ».

المعنى: لَا تُقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ لِتَتَخَلَّصُوا مِنَ النِّفَقَةِ عَلَيْهِمْ خَشْيَةَ أَنْ تُصَابُوا فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِالْفَقْرِ بِسَبَبِ النِّفَقَةِ عَلَيْهِمْ، فَاللَّهُ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ كَفِيلٌ بِأَنْ يَرْزُقَهُمْ وَيَرْزُقَكُمْ، إِذَا نَفَدَتِ النِّفَقَةُ الَّتِي فِي أَيْدِيكُمْ، وَقَدْ يَكُونُ رِزْقُكُمْ بِسَبَبِهِمْ أَوْ عَنْ طَرِيقِهِمْ إِذَا كَبُرُوا، وَلَمَّا كَانَ الْبَاعِثُ هُنَا خَشْيَةَ حُدُوثِ الْفَقْرِ مُسْتَقْبَلًا، لَا وَاقِعَ الْفَقْرِ، كَانَ الْبَيَانُ مُشْتَمَلًا عَلَى تَقْدِيمِ رِزْقِ الْأَوْلَادِ عَلَى رِزْقِ أَوْلِيَائِهِمُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ الْأَمْرَ هُنَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَذَرِ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ الْمَجْهُولِ، وَفِيهِ شَكٌّ فِي اللَّهِ وَوَعْدِهِ، وَمُقَادِيرِ رِزْقِهِ، وَفِيهِ تَحُلٌّ عَنْ وَاجِبِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. بِخِلَافِ الْحَالَةِ الْآخَرَى، وَهِيَ قَتْلُ الْأَوْلَادِ لِلتَّخْلُصِ مِنْ وَاقِعِ الْفَقْرِ، وَمَا فِيهِ مِنْ آلَامٍ تُحْدِثُ اضْطِرَابًا فِي النَّفْسِ وَالْفِكْرِ قَدْ يُغْشِي عَلَى ثَوَابِتِ الْإِيمَانِ وَرَكَائِزِهِ وَتَصَوُّرَاتِهِ، فَيَجْعَلُ صَاحِبَهُ يَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لِذَلِكَ كَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى مَا يُزِيلُ الْعُشَاوَةَ عَنْ نَفْسِهِ وَفِكْرِهِ، حَتَّى تَتَبَيَّنَ لَهُ حَقِيقَةُ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ، وَهِيَ: أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ وَيَرْزُقُ أَوْلَادَهُ، فَلَا دَاعِيَ لِلتَّخْلُصِ مِنْ وَاجِبِ النِّفَقَةِ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ وَاجِبِ السَّغْيِ لَاكْتِسَابِهَا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، فَالْقَضِيَّةُ وَاجِبٌ إِجْتِمَاعِيٌّ مَضْمُونُ النَّاتِجِ بِكَفَالَةِ الْخَالِقِ الرَّازِقِ.

الوصية الثامنة: النَّهْيُ عَنِ الزُّنَى وَالْإِفْتِرَافِ مِنْهُ بِالْمَقْدَمَاتِ الَّتِي قَدْ

تَجُرُّ إِلَيْهِ، دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٩﴾:

• ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾: النَّهْيُ عَنِ اقْتِرَابِ الزَّوْنِ أَيْ أَبْلَغَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الزَّوْنِ نَفْسِهِ، وَفِي النَّهْيِ عَنِ الْاقْتِرَابِ مَعْنَى النَّهْيِ عَنِ الْمَقْدَمَاتِ الَّتِي قَدْ تُفْضِي إِلَيْهِ، كَالْمَلَامَسَةِ وَالتَّقْبِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

يُقَالُ لُغَةً: «قَرِبَ الشَّيْءُ، يَفْرُبُهُ، قُرْبًا، وَقُرْبَانًا» أَي: دَنَا مِنْهُ - وَبَاشَرَهُ.

﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَاحِشَةً﴾: أَي: إِنَّهُ فَاحِشَةٌ دَوَامًا، ففِعْلُ «كَانَ» هُنَا مَعْنَاهُ الوجودُ الدائم.

الفاحشة: كُلُّ قَبِيحٍ تَجَاوَزَ حَدَّ مَا يُحْتَمَلُ وَيُغْضَى عَنْهُ عَادَةً مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: كُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ قُدْرَهُ وَحَدَّهُ فَهُوَ فَاحِشٌ. وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ اسْتِعْمَالُ: (الفاحشة، والفحشاء، والفواحش) فِي الْكِبَائِرِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِشَهَوَاتِ الْفُرُوجِ.

﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ سَاءَ: فِعْلٌ يُقَالُ فِي إِنْشَاءِ الذَّمِّ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، وَهُوَ: مِثْلُ: «بِئْسَ». وَالْمَعْنَى: وَبِئْسَ الزَّوْنُ سَبِيلًا إِلَى تَحْقِيقِ شَهَوَاتِ الْفُرُوجِ.

وقد شَدَّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّهْيِ عَنِ الزُّنَا، وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ بِشَأْنِهِ سِتَّةُ نُصُوصٍ مُتَكَامِلَةٌ الدَّلَالَاتِ فِيمَا بَيْنَهَا.

الوصية التاسعة: النَّهْيُ عَنِ قَتْلِ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إِلَّا بِالْحَقِّ، دَلَّ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّكُمْ كَانُمْ مَنصُورًا﴾ ﴿٣٣﴾:

لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ النَّاسَ فِي ظُرُوفٍ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَبْلُوَهُمْ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، أي: ليكشفَ دَرَجاتِهِمْ فِي حُسْنِ الْعَمَلِ، وَيُقَابِلُ هَذَا كَشْفُ دَرَكَاتِهِمْ فِي سُوءِ الْعَمَلِ، وَهَذَا الْإِبْتِلَاءُ يَسْتَتْبِعُ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ الْحَسَابَ يَوْمَ الدِّينِ، وَفَضْلَ الْقَضَاءِ، ثُمَّ الْجَزَاءُ بِحَسَبِ الْأَحْكَامِ الْقَضَائِيَّةِ الَّتِي تَصُدِّرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، عَلَى مَا كَشَفَ ابْتِلَاؤُهُ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَغْفُو بِحُكْمَتِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ.

ولهذا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، لِأَنَّ هَذَا يُعَارِضُ حُكْمَتَهُ فِي وَضْعِ النَّفْسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، فَالْأَصْلُ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ صِيَانَتُهَا مِنَ الْقَتْلِ وَلَوْ كَانَتْ كَافِرَةً بِرَبِّهَا.

وَقَتْلُ النَّفْسِ بَوْسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَسْبَابًا لَانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنْهَا، إِذِ النَّفْسُ هِيَ الَّتِي تَذُوقُ الْمَوْتَ، وَالْإِنْسَانُ مُكَوَّنٌ مِنْ نَفْسٍ، وَجَسَدٍ يَحْتَوِي عَلَى النَّفْسِ ذَاتِ الْخَصَائِصِ الَّتِي فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وَرُوحٌ تُمِدُّ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ بِالْحَيَاةِ، كَالْآلَةِ الْكهربائيةِ ذَاتِ الْخَصَائِصِ الَّتِي تَعْمَلُ بِمُقْتَضَاهَا، إِذَا دَخَلَتْ فِي أَسْلَاقِهَا الْخَاصَّةِ الطَّاقَةُ الْكهربائيةِ أَدَّتْ أَعْمَالَهَا، وَإِذَا انْفَصَلَتْ عَنْهَا الطَّاقَةُ الْكهربائيةِ تَوَقَّفَتْ عَنِ الْعَمَلِ.

وَلَأَجْسَادِ الْأَحْيَاءِ نِظَامٌ رَبَّانِيٌّ خَاصٌّ، فَإِذَا أُصِيبَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ مَقْتَلًا بِإِصَابَةٍ قَاتِلَةٍ، انْفَصَلَتْ فِيهِ الرُّوحُ عَنِ النَّفْسِ، فَتَذُوقُ النَّفْسُ بِهَذَا الْانْفِصَالِ الْمَوْتَ، وَبِصِيرُ الْجَسَدِ مَيِّتًا لَيْسَ فِيهِ حَيَاةٌ تَجْمَعُ كُلَّ أَعْضَائِهِ الرَّئِيسَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا حَيًّا.

فَمَعْنَى قَتْلِ النَّفْسِ اتِّخَاذُ وَسِيلَةٍ جَعَلَهَا اللَّهُ سَبَبًا لَانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنْهَا، أَمَّا الْإِمَاتَةُ بَانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ فَلَا تَكُونُ إِلَّا بِخَلْقِ اللَّهِ أَوْ إِذْنِهِ.

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَهَى عَنْ اتِّخَاذِ وَسِيلَةٍ مَا مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي جَعَلَهَا فِي نِظَامِهِ التَّكْوِينِي سَبَباً مِنْ أَسْبَابِ انْفِصَالِ الْأَرْوَاحِ عَنِ النَّفْسِ .

النَّفْسُ: هِيَ الْمَادَّةُ الَّتِي أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهَا خَرِيطةَ الْكَائِنِ الْحَيِّ الْحَاوِيَةِ لِكُلِّ صِفَاتِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ، فَإِذَا دَخَلَتْ فِيهَا الطَّافَةُ الرُّوحِيَّةُ، بِالشُّرُوطِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَهَا، صَارَتِ النَّفْسُ وَكُلُّ مَا التَّحَقَّقَ بِهَا مِنْ جَسَدٍ كَائِناً حَيّاً .

وَأحياناً تُظَلِّقُ النَّفْسُ عَلَى الرُّوحِ، وَأحياناً تُظَلِّقُ الرُّوحُ عَلَى النَّفْسِ، لَكِنَّ تَدَبُّرَ النَّصُوصِ بَعُمَقٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ مَا تَكُونُ بِهِ الْحَيَاةُ، وَأَنَّ النَّفْسَ مَا يَحْتَوِي خَرِيطةَ الْكَائِنِ الْحَيِّ، بِصِفَاتِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ .

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الْحَقُّ هُنَا هُوَ مَا أَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ بِالْقَتْلِ، أَوْ أَمَرَ بِهِ، كَقَتْلِ الْقَاتِلِ الَّذِي لَمْ يَغْفُ عَنْهُ بَعْضُ أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ، وَكَقَتْلِ الزَّانِي الْمُخَصَّنِ رَجْماً، وَقَتْلِ الْمُرْتَدِّ عَنِ الْإِسْلَامِ الْمَفَارِقِ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَتْلِ الْمُقَاتِلِينَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَقَتْلِ الصَّائِلِينَ، وَقَتْلِ ذَوِي الْحِرَابَةِ الْخَارِجِينَ عَلَى نِظَامِ الدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَقَتْلِ الْفِتَةِ الْبَاغِيَةِ .

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ ﴿٣٣﴾ :

كَانَ مِنْ عَادَةِ عَشَائِرِ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، أَنْ يَقْتُلُوا فِي مُقَابِلِ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ ظُلْماً وَعُدْوَاناً، أَعْدَاداً كَثِيراً مِنْ عَشِيرَةٍ أَوْ قَبِيلَةٍ الْقَاتِلِ، وَتَتَسَّعَ بِهِذَا دَوَائِرُ التَّقَاتِلِ وَالْعِدَاءِ، وَهَذَا مُنَافٍ لِقَانُونِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، الَّذِي يَقْضِي بِحَضَرِ جَرِيْمَةِ الْقَتْلِ ظُلْماً وَعُدْوَاناً بِالْقَاتِلِ، دُونَ أَنْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى أَوْلِيَائِهِ، أَوْ عَشِيرَتِهِ، أَوْ قَبِيلَتِهِ [لَوْلِيهِ] إِضَافَةً «الْوَلِي» إِلَى ضَمِيرِ الْمَقْتُولِ تَفِيدُ الْعُمُومَ، فَهُوَ يَنْطَبِقُ عَلَى الْوَاحِدِ فَأَكْثَرِ .

وَبِحَضَرِ جَرِيْمَةِ هَذَا الْقَتْلِ بِالْقَاتِلِ، يَكُونُ مِنْ حَقِّ أَوْلِيَائِ الْقَتِيلِ وَهُمْ

مُسْتَحِقُّو الإِزْث مِنْ تَرْكِتِهِ، أَنْ يُطَالِيُوا بِالْقِصَاصِ، أَوْ بِأَنْ يَرْضَوْا أَوْ يَرْضَى بَعْضُهُمْ بِالذِّيَّةِ، وَبِهَا يَكْفُ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ عَنِ الْمَطَالِبَةِ بِالْقِصَاصِ مِنَ الْقَاتِلِ.

وبهذا جاء الإسلام، فَحَمَلَ القضاء الشرعي، والدَّوْلَةُ الإِسْلَامِيَّةُ، مَسْئُولِيَّةَ الْقَبْضِ عَلَى الْقَاتِلِ، وَالْحُكْمِ عَلَيْهِ بِالْقِصَاصِ إِذَا طَالَِبَ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ بِالْقِصَاصِ إِجْمَاعاً، أَوْ بِدَفْعِ الذِّيَّةِ الْمَقَرَّرَةِ شَرْعاً، إِذَا رَضِيَ بَعْضُهُمْ بِالْعَفْوِ عَنِ الْقِصَاصِ، وَقَبُولِ الذِّيَّةِ، وَتَقْوُمُ الدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ بِالتَّنْفِيزِ فِي حَالَةِ الْحُكْمِ بِالْقِصَاصِ، وَبِالْزَامِ الْقَاتِلِ بِالذِّيَّةِ فِي حَالَةِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِدَفْعِ الذِّيَّةِ، وَهَذَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ جِلَّ جَلَالُهُ لِأَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ.

فالمعنى بَعْدَ هذا البيان: وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً عَمْداً وَعُدْوَاناً، فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيِهِ (وَهُمْ وَارِثُوهُ) سُلْطَاناً (أَي: قُوَّةً تُحَقِّقُ قَانُونَ الْعَدْلِ) بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ الرَّبَّانِيِّ، وَبِالدَّوْلَةِ التَّنْفِيزِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ، فَعَلَى الْوَلِيِّ قَرْداً كَانَ أَمْ أَكْثَرَ أَنْ يَتَّبَعَدَ عَنْ تَقَالِيدِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الْآثِمَةِ الظَّالِمَةِ، النَاشِرَةِ لِلْعِدَاءِ وَالتَّقَاتُلِ، بَيْنَ الْأَسْرِ، وَالْعُسَائِرِ، وَالْقَبَائِلِ، فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ، بِالْمَطَالِبَةِ بِدَمٍ غَيْرِ الْقَاتِلِ، أَوْ بِالْعَمَلِ عَلَى قَتْلِ أَغْدَادٍ مِنْ أُسْرَةِ الْقَاتِلِ أَوْ عَشِيرَتِهِ، أَوْ قَبِيلَتِهِ، أَوْ قَوْمِهِ، لِأَنَّ كُلَّ هَذَا مُنَافٍ لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ، إِذْ هُوَ مَنْصُورٌ بِالْحُكْمِ الرَّبَّانِيِّ، وَبِالدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ الْمَنْفَذَةِ لَشَرَعِ اللَّهِ، وَأَحْكَامِ دِينِهِ لِعِبَادِهِ.

وهذا يَتَضَمَّنُ مُطَالِبَةَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً، بِإِقَامَةِ دَوْلَةٍ مُسْلِمَةٍ تَحْكُمُ بِشَرَعِ اللَّهِ، وَتَنْصُرُ الْمَظْلُومِينَ وَأَوْلِيَاءَهُمْ عَلَى الظَّالِمِينَ الْمَعْتَدِينَ.

الوصية العاشرة: النَّهْيُ عَنِ الْإِقْتِرَابِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ...﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾

ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ مُطَابِقَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ، ضَمَّنَ

وَصَايَا مُتَعَدِّدَةً، ضُمِّتْ إِلَى سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) المكية في الآيتين (١٥١ و ١٥٢) مِنْهَا.

النَّهْيُ عَنِ الْاِفْتِرَابِ كَمَا سَبَقَ آتِفاً لَدَى تَذَكُّرِ الْآيَةِ (٣٢) أُبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ مُبَاشَرَةِ الشَّيْءِ.

إِنَّ أَمْوَالَ الْيَتَامَى الضُّعَفَاءِ تُغْرِي ذَوِي النُّفُوسِ الطَّامِعَةِ الْآثِمَةَ، بَأَنْ يَأْكُلُوهَا ظُلْماً وَعُدْوَاناً، وَبَأَنْ يَسْتَأْثِرُوا بِهَا لِأَنْفُسِهِمْ، إِذْ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ الْأَوْصِيَاءَ عَلَيْهَا، وَمَالِكُوهَا لَا يَسْتَطِيعُونَ مُرَاقَبَتَهُمْ وَلَا مُحَاسَبَتَهُمْ عَلَى تَصَرُّفَاتِهِمْ فِيهَا.

وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْطُونُ عَلَى أَمْوَالِ الْيَتَامَى، سَوَاءً أَكَانُوا إِخْوَانَهُمْ أَمْ أَخَوَاتِهِمْ، أَمْ أَوْلَادَ إِخْوَتِهِمْ، أَمْ أَوْلَادَ أَيِّ قَرِيبٍ مِنْ أَقْرَبَائِهِمْ، فَيُضْمُّونَهَا إِلَى أَمْوَالِهِمْ، ظُلْماً وَعُدْوَاناً.

فَسَدَّدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَكَّدَ فِي الْإِسْلَامِ التَّحْذِيرَ مِنَ الْاِفْتِرَابِ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى اقْتِرَاباً يُغْرِي بِأَخْذِ شَيْءٍ مِنْهَا بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوْ بِالِانْتِفَاعِ بِشَيْءٍ مِنْهَا بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوْ اقْتِرَاباً مُفْسِداً مُفْسِداً مَا.

وَاسْتَنْىَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ لِحِفْظِ الْمَالِ، أَوْ لِلِإِنْفَاقِ مِنْهُ عَلَى الْيَتِيمِ، أَوْ لِإِضْلَاحِهِ، وَتَنْمِيَّتِهِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ عَدَمِ الْاِقْتِرَابِ مِنْهُ.

وَجَاءَتْ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ الْجَمَاعِيِّ، لِتَحْمِيلِ الْجَمَاعَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْيَتِيمِ مَسْئُولِيَّةَ الْمُرَاقَبَةِ وَالْمَحَاسَبَةِ وَالتَّدْخُلِ لِحِفْظِ مَالِهِ، مِنْ أَنْ يَأْكُلَهُ أَحَدٌ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلِحِفْظِهِ مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِلنَّقْصِ وَالْفَسَادِ بِالِإِهْمَالِ.

اليتيم: هو الولد الصغير الذي مَاتَ أَبُوهُ مِنَ النَّاسِ، وَبَقِيَ يَتِيماً حَتَّى يَبْلُغَ الْحُلُمَ، وَيُجْمَعُ عَلَى «أَيْتَامٍ» وَ«يَتَامَى».

[إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ] أَيَّ إِلَّا اقْتَرَبًا وَمُبَاشَرَةً بِالمَكْسُوبَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ عَدَمِ الاقْتِرَابِ والمُبَاشَرَةِ، عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانَهُ.

[حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ]: أَي: حَتَّى يَبْلُغَ اكْتِمَالَهُ، أَشَدُّ كُلِّ شَيْءٍ اكْتِمَالُ تَنَامِيهِ، بِحَسَبِ صِفَاتِهِ الْقَابِلَةِ لِلَاكْتِمَالِ.

وجاء بيانُ هذا الاكتمالِ بأنَّه إِيْناسُ الرُّشْدِ فِي الْيَتِيمِ، بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النساء/ ٤) مَصْحَفٍ/ ٩٢ (نزول):

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا...﴾ (٦)

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ بُلُوغَ الْحُلُمِ لَا يَكْفِي لِتَسْلِيمِ الْيَتِيمِ أَمْوَالَهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ بُلُوغِهِ الرُّشْدَ فِي تَصَرُّفَاتِهِ. وَلَمَّا كَانَ الْعُدْوَانُ عَلَى مَالِ الْيَتِيمِ عُذْوَانًا عَلَى حَقِّ ضَعِيفٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ حُقُوقِهِ، جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عُقُوبَةَ مَنْ يَأْكُلُ مَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا كَمَنْ يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ نَارًا، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ (النساء/ ٤) مَصْحَفٍ/ ٩٢ (نزول): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِثْمًا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْفُونَ سَعِيرًا﴾ (١٧):

أَي: وَسَيُعَاقِبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَفُوسَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي مُدَّةِ الْبَرْزَخِ بِأَنْ يَذُوقُوا عَذَابَ سَعِيرٍ، أَي: عَذَابَ مَنْ لَهَبِ نَارٍ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ عَذَابِ الْقَبْرِ اسْتِعْمَالُ «السَّيْنِ» مِنْ أَدَوَاتِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَالْمُسْتَقْبَلُ الْبَعِيدُ الَّذِي يَكُونُ يَوْمَ الَّذِينَ تُسْتَعْمَلُ لَهُ فِي الْقُرْآنِ بِوَعْدٍ مِنَ الرَّبِّ كَلِمَةُ «سَوْفَ» فِيمَا ظَهَرَ لِي.

الْوَصِيَّةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ: الْأَمْرُ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنََّّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٢٤):

الْعَهْدُ: كُلُّ مَا بَيْنَ الْعِبَادِ مِنْ مَوَائِيقَ بَلْتَزِمُونَ بِالْوَفَاءِ بِهَا، عَلَى مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ، وَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ، وَأَعْلَنَ الْمُسْلِمُ بِأَنَّهُ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَبَايَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِإِعْلَانِهِ إِسْلَامَهُ.

وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ: تَحْقِيقُ مَا تَمَّ عَلَيْهِ الْعَهْدُ وَإِفَاءً تَاماً، بَلَا نَقْصٍ وَلَا إِخْلَافٍ، وَلَا نَقْصٍ.

يقال لغة: «أَوْفَى الشَّيْءَ، يُوفِيهِ إِيفَاءً وَوَفَاهُ يُوفِيهِ تَوْفِيَةً» أي: أَتَمَّهُ وَإِفَاءً كَامِلاً غَيْرَ مَنْقُوصٍ. وَيُقَالُ: «أَوْفَى وَوَفَى فُلَانًا حَقَّهُ» أي: أَعْطَاهُ إِيفَاءً وَإِفَاءً غَيْرَ مَنْقُوصٍ. وَيَقَالُ: «أَوْفَى بِالْوَعْدِ وَالْعَهْدِ» أي: حَقَّقَ مَا وَعَدَ بِهِ، أَوْ عَاهَدَ عَلَيْهِ، تَاماً غَيْرَ مَنْقُوصٍ.

والوفاء بالعهد مِنْ فَضَائِلِ الصَّدَقِ فِي التَّعَامُلِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَمِنْ فَضَائِلِ الصَّدَقِ فِي التَّعَامُلِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ، وَتَعَمُّدُ عَدَمِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ كَذِبٌ وَخِيَانَةٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الصَّدَقَ وَالْأَمَانَةَ مِنَ الْجُدُورِ الْكُبْرَى لِفَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ، وَفَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ مِنْ كُلِّيَّاتِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ، فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

الوصية الثانية عشرة: الْأَمْرُ بِإِيفَاءِ الْكَئِيلِ وَالْوَزْنِ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٢٥﴾.

تَعْتَمِدُ الْمُبَادَلَاتُ فِي مَعَامَلَاتِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَنَحْوِهِمَا بَيْنَ النَّاسِ، عَلَى الْكِيلِ فِيمَا يُكَالُ، وَعَلَى الْوَزْنِ فِيمَا يُوزَنُ بِحَسَبِ اعْرَافِ النَّاسِ.

الْكَيْلُ: تَحْدِيدُ مِقْدَارِ الشَّيْءِ بِوَسَاطَةِ آلَةٍ مُعَدَّةٍ لَذَلِكَ، يُقَدَّرُ بِهَا حَجْمُهُ، أَوْ يُقَاسُ بِهَا طُولُهُ وَعَرْضُهُ، وَهَذِهِ الْآلَةُ مُتَعَارَفَةٌ عَلَيْهَا. وَإِيفَاءُ الْكَيْلِ جَعْلُهُ وَإِفَاءً غَيْرَ مَنْقُوصٍ.

وَحِينَ يَكِيلُ الْبَائِعُ لِلشَّارِي كَيْلًا غَيْرَ وَافٍ يَكُونُ أَكِيلاً لِبَعْضِ مَالِهِ بِالْبَاطِلِ، وَكَذَلِكَ حِينَ يَكِيلُ الشَّارِي لِنَفْسِهِ كَيْلًا زَائِداً عَلَى حَقِّهِ، يَكُونُ أَكِيلاً لِبَعْضِ مَالِ الْبَائِعِ بِالْبَاطِلِ.

الْقِسْطَاسُ: بَضْمُ الْقَافِ وَكُسْرُهَا، أَضْبَطُ الْمَوَازِينِ وَأَعْدَلُهَا، وَجَاءَ

فِي الْوَصِيَّةِ وَضَفُّهُ بِالْمُسْقِيمِ لِتَوْكِيدِ وَجُوبِ كَوْنِهِ مُعْتَدِلًا، لَمْ تَدْخُلْ فِيهِ يَدٌ عَابِثَةٌ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا يُغَيِّرُ ضَبْطَهُ التَّامُّ.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْوَصِيَّةِ أَنَّ إِيفَاءَ الْكِيلِ، وَالْوَزْنَ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ خَيْرٌ لِلْإِنْسَانِ مِنْ أَنْ يَظْمَعَ بَزِيَادَةٍ عَلَى حَقِّهِ، أَوْ نَقْصٍ مِنْ حَقِّ الشَّخْصِ الَّذِي يَتَعَامَلُ مَعَهُ، فَيَجْلُبُ ذَلِكَ لَهُ خَسَارَةٌ وَعُقُوبَةٌ لَهُ فِي مَالِهِ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ أَيْضًا أَحْسَنُ مَا لَا يَوْمَ الدِّينِ.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: التَّأْوِيلُ: الإِزْجَاعُ، وَالتَّضْيِيرُ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّبَرُّؤَ: مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ أَحْسَنُ جَزَاءٍ، فَالْجَزَاءُ هُوَ الَّذِي يُرْجِعُهُ اللَّهُ إِلَى الْإِنْسَانِ عَلَى مَا أَضْدَرَ مِنْ عَمَلِهِ، وَأَحْسَنُ تَضْيِيرًا، فَالْجَزَاءُ هُوَ الَّذِي يَصِيرُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَصِيرًا حَسَنًا، أَوْ مَصِيرًا سَيِّئًا بِحَسَبِ عَمَلِهِ الَّذِي قَدَّمَهُ.

الوصية الثالثة عشرة: التَّهْيِي عَنْ تَبَعِيَّةِ الْإِنْسَانِ لغيرِهِ فيما لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وَإِذْ هُوَ مِنَ التَّقْلِيدِ وَالِاتِّبَاعِ الْأَعْمَى، مَعَ أَنَّ الْخَالِقَ الْفَاطِرَ - جَلَّ جَلَالُهُ - قَدْ وَهَبَ الْإِنْسَانُ أَدَوَاتِ الْمَعْرِفَةِ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْفُؤَادَ (وَهُوَ الْقُوَّةُ الْمُفَكِّرَةُ الْمَذْكُورَةُ الْعَاقِلَةُ).

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِأَسْلُوبِ الْخِطَابِ الْإِفْرَادِيِّ لِأَنَّ الْبَوَاعِثَ هُنَا بِوَاعِثٍ فَرْدِيَّةٍ:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦):

﴿وَلَا تَقْفُ﴾: أَي: وَلَا تَتَّبِعْ. يُقَالُ لَعَةً: «قَفَا الشَّيْءُ يَقْفُوهُ قَفْوًا، وَقَفَاهُ يَقْفِيهِ قَفْيًا» أَي: تَبِعَهُ، وَالْأَصْلُ اتِّبَاعُ الْإِنْسَانِ مِنْ قَفَاهُ، فَالْقَفَا مُؤَخَّرُ الْعُنُقِ.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: وَلَا تَتَّبِعْ شَيْئًا لَا تَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ وَصَوَابٌ، أَوْ

هُوَ الْأَرْجَحُ وَالْأَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ، لِتَحْقِيقِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ.

• الْمَشْرِكُ يَتَّبِعُ فِكْرَةَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ وَصَوَابٌ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ مَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَجْلُبُ لَهُ بِعِبَادَتِهِ نَفْعًا أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ ضَرًّا، وَإِنَّمَا يُقْلِدُ تَقْلِيدًا أَعْمَى، وَيَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ.

• وَالَّذِي يُقَاتِلُ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصِيَّةً وَيَنْصُرُ عَصِيَّةً، يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، وَاتَّبَاعُهُ هَذَا التَّزَامُ بِمَفَاهِيمٍ جَاهِلِيَّةٍ لَا حَقَّ فِيهَا وَلَا رُشْدَ.

• وَمُلْتَزِمُ أَوَامِرِ قَادَةِ الْحِزْبِ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ، يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، إِذْ قَدْ تَكُونُ أَوَامِرُ الْقَادَةِ مَذْذُوعَةً بِأَهْوَاءٍ وَمَصَالِحَ شَخْصِيَّةٍ، فَالْمُلْتَزِمُ بِهَا مِنَ الْأَفْرَادِ الْمُنْتَمِينَ إِلَى الْحِزْبِ، يَعْمَلُ عَلَى تَحْقِيقِ أَهْوَاءِ الْقَادَةِ، وَمَصَالِحِهِمُ الْخَاصَّةِ، وَرُبَّمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْقَادَةُ خَائِنِينَ يَعْمَلُونَ بِأَوَامِرِ أَغْدَاءِ الْأُمَّةِ كُلِّهَا، كَحِزْبِ عَرَبِيٍّ يَعْمَلُ قَادَتُهُ بِأَوَامِرِ سَرِيَّةٍ مِنَ الْمَحَافِلِ الْمَأْسُونِيَّةِ ذَاتِ الْقِيَادَةِ الْيَهُودِيَّةِ فِي الْعَالَمِ.

وَمُلْتَزِمُ مَذْهَبٍ وَضِعِيَ مِنْ مَذَاهِبِ النَّاسِ بِكُلِّ مَا فِيهِ، يَقْفُو مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ وَلَا بِنَتَائِجِهِ وَلَا بِآثَارِهِ عِلْمٌ، وَحِينَ تَظْهَرُ آثَارُ الْمَذْهَبِ الْفَاسِدَةِ وَالْمُفْسِدَةِ لِلْأَفْرَادِ وَلِلْأُمَّةِ جَمِيعًا، يَقُولُ: مَا كُنْتُ أَتَصَوَّرُ أَنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ سَيُلْقِي بِالْمَجْتَمَعِ كُلِّهِ فِي هَذِهِ الْأَوْحَالِ، وَهَذَا لَا يَصْلُحُ عُذْرًا، لِأَنَّهُ خَالَفَ وَصِيَّةَ اللَّهِ ابْتِدَاءً، فَاتَّبَعَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ.

وَمُلْتَزِمُ مَذْهَبِ اجْتِهَادِيٍّ فِي مَسَائِلِ الدِّينِ، التَّزَامًا تَعْصِيًّا، فَهُوَ لَا يَرَى حَقًّا إِلَّا مَا ذَكَرَهُ مُدَوِّنُو الْمَذْهَبِ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ، وَفِي كُلِّ قَضِيَّةٍ، وَيَجْعَلُ كُلَّ اجْتِهَادٍ خَالَفَ رَأْيَ مَذْهَبِهِ اجْتِهَادًا بِاطِلًا، يَدْخُلُ فِي عُمُومِ الَّذِينَ يَقْفُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ. مَا أَحْكَمَ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ الرَّبَّانِيَّةَ، ذَاتِ الْمَفْهُومِ الْكُلِّيِّ الَّذِي هُوَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ!! إِنَّهَا تَنْطَبِقُ عَلَى صُورٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا يَضَعُ حُضْرُ مَفْرَدَاتِهَا.

• ﴿... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٦٦﴾ :

المراد بالفؤاد هنا عمق الجهاز المُدركِ المفكرِ العاقلِ داخلِ النفسِ الإنسانية.

وإثباتُ مَسْئُولِيَّةِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْفُؤَادِ فِي الْإِنْسَانِ، هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ إِثْبَاتٌ لِمَسْئُولِيَّةِ إِرَادَتِهِ فِيهِ، فَهِيَ مَنَاطُ مَسْئُولِيَّتِهِ فِي رِحْلَةِ ابْتِلَائِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُقْتَرَنَةٌ بِبَاقِي شُرُوطِ امْتِحَانِهِ الْأَمْثَلِ.

فَالسَّمْعُ يُقَدِّمُ لِلْقُوَّةِ الْمُدْرِكَةِ الْمُفَكِّرَةِ الْعَاقِلَةِ مِقْدَاراً كَبِيراً مِنَ الْمَعَارِفِ الَّتِي تُبَيِّنُ لَهُ بِوُضُوحٍ كَثِيراً مِنَ الْحَقَائِقِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ عَقْلاً أَنْ يَفْقُوَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ.

وَالْبَصَرُ يُقَدِّمُ لَهَا مِقْدَاراً كَبِيراً مِنَ الْمَعَارِفِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ عَقْلاً أَنْ يَفْقُوَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ.

وَالْفُؤَادُ (الَّذِي هُوَ عُمُقُ الْقُوَّةِ الْمُفَكِّرَةِ الْعَاقِلَةِ فِي الْإِنْسَانِ) يُقَدِّمُ لَهُ بِتَحْلِيلَاتِهِ جُمْلَةً مِنَ الْحَقَائِقِ الْمَعْرِفِيَّةِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ عَقْلاً أَنْ يَفْقُوَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ.

وَيُقَاسُ عَلَى السَّمْعِ وَالْبَصَرِ سَائِرُ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. وَالْمَعْنَى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ذُو الْإِرَادَةِ الْحُرَّةِ الْوَاعِيَةِ، لَقَدْ مَنَحَكَ رَبُّكَ فُؤَاداً تُدْرِكُ بِهِ كَثِيراً مِنْ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، بِتَحْلِيلَاتِهِ الدَّائِيَّةِ، وَعَنْ طَرِيقِ مَا تُقَدِّمُ لَهُ حَوَاسِّكَ الظَّاهِرَةِ، وَأَجْلُّهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، فَلَا تَتَّبِعْ فِي سُلُوكِكَ فِي الْحَيَاةِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، فِي هَذَا الْاِتِّبَاعِ تَعْطِيلٌ لِمَا وَهَبَكَ رَبُّكَ مِنْ أَدَوَاتٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ، تَسْتَطِيعُ بِهَا أَنْ تَعْلَمَ الْحَقَّ وَالصَّوَابَ، وَمَا هُوَ الْأَرْجَحُ وَالْأَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ، لِتَحْقِيقِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فَلِمَاذَا اتَّبَعْتَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، فِي كَذَا، وَكَذَا، وَكَذَا؟ ؟؟.

أَلَمْ يَهَبْكَ رَبُّكَ سَمْعاً تَسْمَعُ بِهِ؟! أَلَمْ يَهَبْكَ بَصَراً تُبْصِرُ بِهِ؟! أَلَمْ

يَهَبُكَ فَوَّادًا تُفَكِّرُ بِهِ، وَتَعْقِلُ بِهِ، وَتُذَكِّرُ بِهِ حَقَائِقَ الْأُمُورِ الَّتِي اتَّبَعَتْهَا وَأَنْتَ جَاهِلٌ لَا تَعْلَمُ أَنَّهَا حَقٌّ وَخَيْرٌ وَرُشْدٌ، وَكَانَ بِاسْتِطَاعَتِكَ أَنْ تُذَكِّرَ أَنَّهَا بَاطِلٌ وَشَرٌّ وَإِثْمٌ، أَوْ أَنْ تَكُفَّ نَفْسَكَ عَنْ اتِّبَاعِهَا إِنْ لَمْ تَعْلَمْ حَقِيقَتَهَا؟؟!

الوصية الرابعة عشرة: النهي عن الكبر ومن مظاهره أن يمشي الإنسان في الأرض مُسْتَكْبِرًا مُتَبَخَّرًا مُتَعَالِيًا عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِيِّ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (١٧):

المرح: الاختيال والتبختر في المشي، وأضله شدة الفرح والنشاط وتجاوز الحد في الحركات.

وجاء في وصايا لقمان لابنه قوله له، كما جاء في سورة [لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول]:

﴿وَلَا تُصَغِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٨):

وصايا لقمان لابنه من الوصايا التي أوصى الله بها الناس، في الشرائع والرسالات السابقة لرسالة محمد ﷺ، وَقَدْ أَوْزَدَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَعْلِيمًا لِلآبَاءِ مَا يُوضُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ، وَثَنَاءً عَلَى لُقْمَانَ إِذْ قَامَ بِهَذَا الْوَاجِبِ التَّزْوِيّ تَجَاهَ ابْنِهِ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّ هَذَا مِنْ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ.

تَصْغِيرُ الْخَدِّ لِلنَّاسِ: إِمَالَةُ الْوَجْهِ عَنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِعْرَاضِ اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ، وَهُوَ ظَاهِرَةٌ مِنْ ظَوَاهِرِ الْكِبَرِ فِي السَّلُوكِ وَالْعُجْبِ بِالنَّفْسِ.

وَكُلٌّ مِنْ تَصْغِيرِ الْخَدِّ لِلنَّاسِ، وَالْمَشْيِ فِي الْأَرْضِ عَلَى وَجْهِ الْمَرَحِّ وَالْاِخْتِيَالِ اسْتِكْبَارًا عَلَى النَّاسِ وَافْتِحَارًا، وَتَعَالِيًا عَلَيْهِمْ، مِمَّا يُبْغِضُهُ اللَّهُ فِي عِبَادِهِ، بِاسْتِثْنَاءِ مَا تَقْتَضِيهِ مَصْلَحَةُ دِينِيَّةٍ، كَاِخْتِيَالِ الْمُقَاتِلِ الْمُسْلِمِ لَدَى مُوَاجَهَتِهِ لِيَنْدَهُ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي الْحَرْبِ.

[وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا]: أي: وَلَا تَمْشِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ الْمُسْلِمُ فِي الْأَرْضِ مِشْيَةً تَبْخُثِرُ وَاخْتِيَالًا وَتَفَاخُرًا، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ عَلَى النَّاسِ، مُسْتَكْبِرٍ بِمِشْيَتِهِ، وَلَا يُحِبُّ كُلَّ فَخُورٍ عَلَى النَّاسِ بِنَفْسِهِ، أَوْ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ مَفَاخِرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَكَشَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُسْتَكْبِرِ الْمُخْتَالِ فِي مِشْيَتِهِ وَاقِعَ حَالِهِ الصَّغِيرِ، فَأَبَانَ لَهُ أَنَّهُ حِينَ يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِرَجْلِهِ، وَيَتَطَاوُلُ مُسْتَغْلِيًا بِقَامَتِهِ عَلَى النَّاسِ، لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَخْرِقَ الْأَرْضَ أَوْ أَنْ يَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا.

وفي هذا إِمْعَانٌ إِمْلَاجِيٌّ بِتَخْقِيرِ الْمُسْتَكْبِرِ، فَالْأَرْضُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا أَضْلَبُ مِنْ قُوَّتِهِ، وَالصُّخُورُ الْجَامِدَةُ الْمَكْدَسَةُ جِبَالًا أَطْوَلُ مِنْ قَامَتِهِ، فَلَا يَزُغَمَنَّ أَنْ شِدَّةَ الْوُطْءِ، أَوْ تَطَاوُلِ الْجِسْمِ، يَمْنَحَانِهِ عِظْمًا حَقِيقِيًّا.

فَمَهْلًا بِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْمُسْتَكْبِرُ الْمَتَّبِعُ، إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ بِنَفْسِكَ، مُتَطَاوِلًا بِجِسْمِكَ، إِلَى جِهَةِ الْأَرْضِ فَتَرُفُسُهَا بِقَدَمِكَ، وَإِلَى جِهَةِ السَّمَاءِ فَتَنْطَحُهَا بِرَأْسِكَ.

هَوْنٌ عَلَيْكَ، إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ مَهْمَا تَبَخَّرْتَ عَلَيْهَا، إِنَّكَ إِنْ تَحَدَيْتَهَا هَشَمْتَ جِسْمَكَ وَحَطَمْتَهُ، ثُمَّ إِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا، مَعَ أَنَّهَا مَهْمَا عَلَتْ فِي جِسْمِهَا عَنْ مُسْتَوَى مَا انْبَسَطَ مِنَ الْأَرْضِ، فَهِيَ أَقَلُّ قِيَمَةً مِنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ بِكِمَالَتِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

فلا تحاول أن تكسب المجد بالتبخثر والخيلاء على خلق الله، إن المجد الإنساني لا يكون بطول الأجسام ولا بعرضها، ولا يكون بتبخثرها وضربها الأرض بأقدامها حين مشيها.

فيا لهذا من تبكيت للمستكبرين بديع ورائع!!

وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ الْوَصَايَا (١٤) أَتْبَعَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ مُعَقِّبًا عَلَيْهَا فِي خُطَابٍ مُوجَّهٍ لِلرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيَتَضَمَّنُ بَيَانًا لِكُلِّ صَالِحٍ

للخطاب، .. ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٢٨) ذَلِكَ مِنَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾: وفي القراءة الأخرى [سَيِّئَةٌ].

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ المشارُ إِلَيْهِ جَمِيعُ مَا سَبَقَ فِي الوصايا.

﴿سَيِّئُهُ﴾: أي: الجانبُ السَّيِّئُ مِنْهُ وهو المنهِي عَنْهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ المأمُورَ بِهِ مِنْهِي عَنْ ضِدِّهِ، فَسَيِّئُهُ هُوَ الْمُنْهِي عَنْهُ وهو ضِدُّ الذي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَضِدُّ بُرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا عُقُوقُهُمَا، وَالْإِسَاءَةُ إِلَيْهِمَا.

وَقِرَاءَةٌ [سَيِّئَةٌ] تُحْمَلُ عَلَى الْمُنْهِي عَنْهُ، وَعَلَى ضِدِّ المأمُورِ بِهِ، فَهُوَ السَّيِّئَةُ، أي: القبيحة المذمومة.

﴿مَكْرُوهًا﴾: أي: غَيْرَ مَحْبُوبٍ.

فالمعنى المستفاد من قوله عز وجل: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٢٨): كُلُّ مَا جَاءَ فِي الْوَصَايَا (١٤) السَّابِقَةِ فِي هَذَا الدَّرْسِ، فَالْسَّيِّءُ الْمُنْهِي عَنْهُ بِمَنْطِقِ اللَّفْظِ أَوْ بِمَفْهُومِهِ مَكْرُوهٌ عِنْدَ رَبِّكَ بِصِفَةِ ثَابِتَةٍ دَوَامًا.

فَعِلُّ «كَانَ» هُنَا يَدُلُّ عَلَى الْكَيْفُونَةِ الدَّائِمَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ.

• ﴿ذَلِكَ مِنَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ...﴾ (٣٩):

أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَا الْبَيَانِ أَنَّ مَا جَاءَ فِي الْوَصَايَا (١٤) هُوَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي السُّلُوكِ الْإِنْسَانِي، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّعْلِيمَاتِ السُّلُوكِيَّةَ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا عُنْوَانُ: «الْحِكْمَةُ» وَلَسْتُ أَرَىٰ تَخْصِيصَ عُنْوَانِ الْحِكْمَةِ بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ فَهَمًّا مِنْ ظَوَاهِرِ بَعْضِ النُّصُوصِ، بَلْ بَعْضُ مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ هُوَ مِنَ الْحِكْمَةِ حَتْمًا.

الحكمة: وَضْعُ الْأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا الْمُلَائِمَةِ لَهَا، عَمَلًا، أَوْ فِكْرًا، أَوْ مَعْرِفَةً وَفَهْمًا وَفَقْهًا، أَوْ اعْتِقَادًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ صُورِ السُّلُوكِ الْإِرَادِي، أَوْ التَّعْلِيمِ الْهَادِي إِلَيْهِ.

والحكيم: هو الذي يضع الأشياء في مواضعها الملائمة لها، ويختارُ أفضل الأشياء وأتقنَها وأحسنَها في الأمورِ المختلفة، لما يُعْطَى أحسنَ نتيجة.

والله - جَلَّ جَلالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطانه - أَخَكَمُ الحاكمين، وأَحْكَمُ المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وَحَكَمته بِالْعَاقِبَةِ الغايةَ دَواماً في كلِّ شيء.

عبارة: ﴿مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ تدلُّ على أَنَّ عُنْوانَ «الْحِكْمَةِ» يَنْطَبِقُ على أمورٍ كثيرة، وهذه الوصايا بَعْضُ مِنْها.

ويجبُ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ كُلَّ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى رَسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنَ الوصايا هو من الحكمة.

وثبت في النُّصوصِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ آتَى بَعْضَ عِبَادِهِ مقادير من الحكمة في الفِكر وفي السُّلُوكِ وفي اختياراتهم في الحكم والإدارة.

وأنهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هذا الدَّرْسَ بِقَوْلِهِ تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾.

وقد سَبَقَ تَدَبُّرُهُ عِنْدَ بَدْءِ تَحْلِيلِ هذا الدَّرْسِ، وَسَبَقَ بَيانُ أَنَّ هذا القولَ بِمِثابَةِ حَاصِرٍ خَتامي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الحَاصِرِ الأوَّلِ تَطابُقٌ في بَدائِتهِ وتَكامُلٍ في آخِرِهِ، وَهَذَا مِنْ بَدائعِ القُرْآنِ، فَالحَاصِرَانِ مِنْ أوَّلِ الدَّرْسِ وَمِنْ آخِرِهِ لَيْسَا مُجَرَّدَ إِشَارَةٍ رَمْزِيَّةٍ، بَلْ هُوَ عِبارة ذاتُ دَلالَةٍ فِكْريَّةٍ كُليَّةٍ جَامِعةٍ لَمَّا جاءَ بَيْنَ الحَاصِرَيْنِ مِنْ جُزئيات.

وبهذا انتهَى تدبر الدَّرْسِ الثامن من دُرُسِ سورة (الإسراء) والحمد لله على مَدَدِهِ ومَعونته وتوفيقه وفتحِهِ.



(١٣)

التدبر التحليلي للدرس التاسع من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (٤٠ - ٦٠)

قال الله عز وجل:

﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقُلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤١ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ مَآلُهُ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا تُبْعَثُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٢﴾ سُبْحَنُكُمْ وَعَلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤٣ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيلًا عَفُورًا ٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ٤٥ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ بَيْتِهِمْ تُفُورًا ٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ٤٧﴾ انْظُرْ كَيْفَ صَرَّفُوا لَكَ الْآمَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ٤٨﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عِظَمًا وَرَفْلًا أَوْنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٤٩﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْثُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا ٥٢﴾ وَقُلْ لِمَآدَىٰ يَقُولُوا الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٥٤﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَمَا نَبَا دَاوُدَ ذَرُورًا ٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا

شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاثِنَا ثُمُودَ النَّاقَةِ مُبْسِرَةً فظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا آلَ رَأْسٍ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ :

القراءات:

٤١ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [لِيَذْكُرُوا] من فعل «ذَكَرَ». وقرأها باقي القراء العشرة: [لِيَذْكُرُوا] أَصْلُهَا لِيَتَذَكَّرُوا، من فَعَلَ «تَذَكَّرَ» وبين القراءتين تكاملٌ، إذ بَعْضُ النَّاسِ يَذْكُرُ ذِكْرًا بَلَا تَكْلُفٍ، وَبَعْضُ النَّاسِ يَتَذَكَّرُ بِتَكْلُفٍ حَرَصًا مِنْهُ عَلَى الْمَسَابَقَةِ فِي الْخَيْرَاتِ.

٤٢ - • قرأ ابن كثير، وحفص: [كَمَا يَقُولُونَ] بالياء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [كَمَا تَقُولُونَ] بالياء.

وبين القراءتين تَكَامُلٌ فِي الْأَدَاءِ الْبَيَانِي، إِحْدَاهُمَا بِالْخَطَابِ، وَالْأُخْرَى بِالْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِينَ.

٤٣ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [عَمَّا يَقُولُونَ] بالياء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [عَمَّا يَقُولُونَ] بالياء.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٤٤ - • قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر:

[يُسَبِّحُ لَهُ] بالياء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [تُسَبِّحُ لَهُ] بالياء.

والقراءتان وجهان عريَّان جائزان.

٤٥ - • قرأ السُّوسِي، وأبو جعفر: [وَإِذَا قَرَأْتَ] بِإِبْدَالِ الْهَمْزَةِ أَلْفًا،

وَصَلَاً وَوَقْفًا، وَحَمْزَةً فِي الْوَقْفِ فَقَطْ.

وقراها باقي القراء العشرة: [وَإِذَا قَرَأْتَ] بالهمزة.

وهما من اللهجات العربية.

٤٥ - • كلمة «القرآن» هنا وفي الآية السابقة (٤١) أَبْدَلَ الهمزة أَلِفًا أَبْنُ كثير، وصلاً ووقفاً، وحمزة في الوقف فقط، وقرأها باقي القراء العشرة بالهمزة.

٤٩ - • قرأ نافع، والكسائي، وَيَعْقُوبُ: [أَيْنَذَا كُنَّا عِظَاماً وَرَفَاتاً إِنَّا؟] وقرأها ابن عامر، وأبو جعفر: [إِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرَفَاتاً أَئِنَّا؟].

وقراها باقي القراء العشرة: [أَيْنَذَا كُنَّا عِظَاماً وَرَفَاتاً أَئِنَّا؟]

ومؤدّي هذه القراءات واحد، فالاستفهام ذَكَرَ أَمْ لَمْ يُذَكَّرْ هو مُقَدَّرٌ ذَهْنًا.

٥٤ - • أَبْدَلَ الهمزة مِنْ [يَشَا] أَلِفًا في الموضِعَيْنِ أبو جعفر في الوصل والوقف، وحمزة وهشام في الوقف فقط.

وقراها باقي القراء العشرة بالهمزة الساكنة: [إِنْ يَشَا].

٥٥ - • قرأ نافع [النَّبِيِّنَ] مع المدّ المتصل، ولورش ثلاثة البدل.

وقراها باقي القراء العشرة: [النَّبِيِّنَ].

وهما وجهان عريان.

٥٥ - • قرأ حمزة، وَخَلَفَ: [زُبُورًا] بِضَمِّ الزَّاي، وهو جمع «الزُّبُر» وهو المكتوب.

وقراها باقي القراء العشرة: [زُبُورًا] بفتح الزَّاي، وهو الكتاب المزبور. ومؤدّي القراءتين واحد.

٥٦ - • قرأ عاصم، وحمزة، وَيَعْقُوبُ: [قُلْ ادْعُوا] بكسر اللّام في

الوصل.

وقراها باقي القراء العشرة: [قُلْ اذْعُوا] بضم اللام في الوصل، مراعاة لضم العين.

وهما وجهان عربيان في النطق.

٥٧ - • قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [رَبَّهُمُ الْوَسِيلَةَ] بِكسرِ هاء الضمير وميم الجمع.

وقراها حمزة، والكسائي، والكسائي: [رَبَّهُمُ الْوَسِيلَةَ] بضمهما.

وقراها باقي القراء العشرة، بِكسرِ الهاء وضمّ الميم: [رَبَّهُمُ الْوَسِيلَةَ] وهي وجوهٌ عربيّة في النطق.

٦٠ - • قرأ السُّوسي: [الرُّوَيَا]. ورواية في الوقف لحمزة.

وقراها أبو جعفر: [الرُّيَا]. ورواية في الوقف لحمزة.

وقراها باقي القراء العشرة: [الرُّوَيَا].

تمهيد:

هذا الدرس يَشْتَمِل على مُتَابَعَةِ معالجاتِ للذين كَفَرُوا من مُشْرِكِي مَكَّةَ، بِحَسَبِ المواقفِ الَّتِي كانوا عليها إِبَّانَ تَنْزِيلِ السورة، وهذه المواقف مِنْهَا مَا هُوَ قَدِيمٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ جَدِيدٌ.

التدبر التحليلي:

باستطاعة المتدبر أن يُقَسِّمَ هذا الدرسَ إلى (٧) فُصُولٍ مُتَشَابِكَةٍ الخُطُوطِ الفِكْرِيَّةِ فيما بينها.

وهذه الفُصُولُ تُعَالِجُ مشركي مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السورة بشأنِ عَدَدٍ من المواقفِ التي يُصِرُّونَ عَلَيْهَا وبشأنِ أَسْئَلَةٍ تَرَدَّدَتْ في نَفْسِهِمْ، أو طَرَحُوهَا وَطَوَى النِّصِّ القرآنيِّ ذِكْرَهَا، مُكْتَفِيًا بِالْإِجَابَةِ عَلَيْهَا. وفيها تَعْلِيمٌ للرسول

وَتَرْبِيَةً لَهُ، وَكُشِفَ لَمَحَّةٍ مِنْ تَارِيخِ النَّاسِ الْمُسْتَقْبَلِيَّ بِالنُّسْبَةِ إِلَى دِينِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، وَعَقُوبَاتِ اللَّهِ لَهُمْ، وَبَيَانُ بَشَانِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِ لِمَطَالِبِ الْمُشْرِكِينَ إِذْ أَلْحُوا فِي الْمَطَالَبَةِ بِإِجْرَاءِ آيَاتِ مَادِيَّةٍ كَبْرَى. وَبَيَانُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخَوِّفُ الْكَافِرِينَ بِصُورٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ التَّخَوِيفَاتِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَكْتَرِثُونَ لَهَا، بَلْ يَزِيدُونَ طُغْيَانًا.

الفصل الأول

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خُطَابًا لِمَدْعِي أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

﴿أَفَاصْفَنُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ٤٠﴾

أَصْفَاكُمْ: أي: أَثَرَكُمْ. وَالْفَاءُ فِي: ﴿أَفَاصْفَنُكُمْ﴾ فَصِيحَةٌ تَعطف عَلَى مَحذُوفٍ.

رَبُّكُمْ: أي: خَالِقُكُمْ وَمُهِدُّكُمْ بِعَطَاءَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ دَوَامًا مَا دُمْتُمْ فِي الْوُجُودِ، وَهُوَ الَّذِي يَبْلُغُكُمْ، وَيُحَاسِبُكُمْ، وَيَفْصِلُ الْقَضَاءَ بِشَأْنِكُمْ، وَيَجَازِيكُمْ يَوْمَ الدِّينِ.

وَالْمَعْنَى: أَتَنَازَلَ رَبُّكُمْ عَنْ وَحْدَانِيَّتِهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَفَضَّلَكُمْ عَلَى نَفْسِهِ، فَأَثَرَكُمْ بِالْبَيِّنِ، وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا بِالْوِلَادَةِ، أَوْ بِالتَّبْنِي، ثُمَّ جَعَلَهُنَّ شُرَكَاءَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، الْمُسْتَلْزِمَةَ لِمُشَارَكَتِهِمْ لَهُ فِي رَبُوبِيَّتِهِ !!؟

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ قَبِيحٌ مِنْكُمْ جَدًّا أَنْ تَعْتَقِدُوهُ وَتَقُولُوهُ، لِمَنَافَاتِهِ لِلْحَقِّ وَالْوَاقِعِ، وَلِكُلِّ مَنْطِقٍ عَقْلِيٍّ سَلِيمٍ، وَلِكُلِّ رَأْيٍ سَدِيدٍ.

إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا شَنِيعًا جَدًّا فِي وَضْفِ رَبِّكُمْ بِمَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ.

المَلَائِكَةُ مُخْلُقُونَ مِنْ نُورٍ، وَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ مُكْرَمُونَ، وَأَجْسَادُهُمْ نُورَانِيَّةٌ، فَلَا يَرَاهُمْ الْبَشَرُ بِحَسَبِ الْعَادَةِ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى التَّشْكِيلِ بِأَلْشَّكَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ الَّتِي يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ أَنْ يَرَوْهَا.

ولفظ «مَلَائِكَة» جَمْعُ مُفْرَدِهِ «مَلَكٌ» و«مَلَاكٌ» ومَادَّةُ الْكَلِمَةِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ «الْأَلُوكِ» و«الْمَأَلَكَةِ» و«الْمَأَلَكَةِ» بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا الرَّسُولُ، وَيُؤَدِّيهَا حَسَبَ التَّكْلِيفِ، يُقَالُ لُغَةً: «أَلَّكَ بَيْنَ الْقَوْمِ أَلْكَأً، وَأُلُوكَا» أَي: حَمَلَ بَيْنَهُمْ رِسَالَةً.

وَلَمَّا كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ رُسُلَ رَبِّهِمْ فِي كَوْنِهِ، لِتَأْدِيَةِ الْوُظَائِفِ الَّتِي يَأْمُرُهُمْ بِهَا، كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ تَسْمِيَتُهُمْ مَلَائِكَةً، الْوَاحِدُ مِنْهُمْ «مَلَاكٌ» أَي: حَامِلُ رِسَالَةٍ، وَبِتَسْهِيلِ الْهَمْزَةِ صَارَ اللَّفْظُ يُنْطَقُ «مَلَاكَا» ثُمَّ بِحَذْفِ الْأَلْفِ صَارَ «مَلَكَا».

وَقَدْ سَبَقَتْ دِرَاسَةُ عَقِيدَةِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِتَدْبِيرِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْوَارِدَةِ حَوْلَهَا، فِي الْمُلْحَقِ الثَّانِي مِنْ مَلَا حِقِ تَدْبِيرِ سُورَةِ (النَّجْمِ/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) حَوْلَ مَعَالِجَةِ الْمُشْرِكِينَ بِشَأْنِ عَقِيدَتِهِمْ فِي الْمَلَائِكَةِ. فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ^(١).

الفصل الثاني

قال الله عز وجل بشأن المشركين تُجَاه تَضْرِيْفِهِ الْعِلَاجِيَّ لَهُمْ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾:

التَّضْرِيْفُ: التَّنَوُّعُ وَالتَّغْيِيرُ، وَاتَّخَاذُ مُخْتَلَفِ الْوُجُوهِ الْمُمْكِنَةِ لِلْوَصْلِ إِلَى الْغَايَةِ، أَوْ لِمَعَالِجَةِ الْأَمْرِ الَّذِي يَرَادُ التَّأْثِيرُ فِيهِ بِأَحْسَنِ الْوَسَائِلِ.

والتَّضْرِيْفُ فِي الْقُرْآنِ هُوَ تَنْوِيْعُ أَسَالِيْبِ الْحُجْجِ وَالْبَرَاهِينِ

(١) انظر هذا الملحق في المجلد الثاني، في الصفحات من (١٧٢ - ١٩٣).

والإقناعات، وتنوع أساليب الترغيب والترهيب والتربية، بحسب اختلاف طبائع الناس، ومستويات قُدراتِ الفهم لديهم، وبحسب ما لدى أصنافهم من استعداداتٍ للاستجابة، وقدرة على مُخالفة أهوائهم وشهواتهم، ومخالفة المعتاد المألوف من الباطلِ أو الشرِّ، أو ما فيه ضررٌ أو أذى.

وَيَسْتَوْفِي هذا التَّصْرِيفُ كُلَّ الاحتمالات التي يُرْجَى نَفْعُهَا وَلَوْ لِبَعْضِ الأفراد أو الجماعات، لقطع أعذارِ المكلِّفينَ، حتَّى لا تكونَ لَهُمْ حُجَّةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

﴿لِيَذْكُرُوا﴾: أضلُّها: «لِيَتَذَكَّرُوا» أذْغِمِ النَّاءُ بِالذَّالِ فَصَارَتْ ذَالًا مُشَدَّدةً. واللامُ الجارةُ معناها التعليل، على تقديرٍ لتهيئة كلِّ ما من شأنه أَنْ يَتَذَكَّرُوا بِهِ باختيارهم الحرِّ، وبهذا التَّصْرِيفِ تنقطعُ أعذارُهم. وليس المراد: ليتحقَّقَ تَذَكُّرُهم في الواقع، فلو كان هذا هو المراد لَتَذَكَّرُوا جَمِيعًا، لأنَّ ما يُريده الله لا يمكن أن يتخلف.

التَّذَكُّرُ: اسْتِدْعَاءُ الْمَعْلُومَةِ الْمُخْتَزَنَةِ فِي الْحَافِظَةِ مِنْ جِهَازِ الْمَعْرِفَةِ فِي النَّفْسِ، إِلَى سَاحَةِ الْمُدْرَكَاتِ الْحَاضِرَةِ الْمَشْهُودَةِ بِعَيْنِ التَّفَكُّرِ عِنْدَ التَّذَكُّرِ، وَالْغَرَضُ حَثُّ جِهَازِ الْمَعْرِفَةِ عَلَى الْاسْتِبْصَارِ، بُغْيَةً إِذْرَاكِ الْحَقِّ الَّذِي يَهْدِي إِلَيْهِ التَّصْرِيفُ فِي الْقُرْآنِ، فَمَنْ رَأَى الْحَقَّ حَقًّا، وَكَانَ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادٌ نَفْسِيٌّ لِأَنْ يُؤْمِنَ بِهِ، وَلَوْ خَالَفَ أَهْوَاءَهُ وَشَهْوَاتِهِ، وَمَطَالِبَهُ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَانَ تَذَكُّرُهُ قَائِدَهُ إِلَى الْإِلْتِزَامِ بِالْحَقِّ، وَالْإِلْتِزَامِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْحَقُّ مِنْ سُلُوكٍ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَالْغَرَضُ مِنَ التَّصْرِيفِ فِي الْقُرْآنِ، أَنْ يَكُونَ وَسِيلَةً مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي يَتَذَكَّرُ بِهَا الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وَعِنْدُنَا يَنْتَفِعُ بِالتَّذَكُّرِ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ نَفْسِيٌّ لِلْإِسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، عَلَى مِقْدَارِ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ اسْتِعْدَادٍ لِمُخَالَفَةِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهْوَاتِهِمْ وَمَطَالِبِ نَفْسِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبِهَذَا تَتَفَاضَلُ اسْتِجَابَاتُهُمْ.

وَالضَّمِيرُ فِي [الْيَذْكُرُوا] يَعُودُ عَلَى الْمَعْنِيِّينَ بِالْمَعَالَجَةِ فِي هَذَا الدَّرْسِ، وَهُمْ كُتَبَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ الْمَعَانِدُونَ، الْمُصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمُقَاوِمَتِهِمْ لِدَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي وَصْفِهِمْ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ:

• ﴿...وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٥١): أي: وَمَا يَزِيدُهُمْ هَذَا التَّضْرِيفُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا التَّذَكُّرُ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُمْ فِي سَاحَةِ الْمَذْرَكَاتِ الْحَاضِرَاتِ الْمَشْهُودَاتِ بِعَيْنِ التَّفَكُّرِ إِلَّا نُفُورًا.

النفور: الصَّدُّ والابتعادُ كحَالَةِ الْمَذْعُورِ الشَّارِدِ، أَوْ الْمَتَمَنِّعِ الْمَتَرَاكِعِ بِحِرَانٍ.

إِنَّ مِنْ شَأْنِ التَّضْرِيفِ فِي الْقُرْآنِ الْمَذْكُورِ لَهُمْ أَنْ تَتَوَلَّدَ بِهِ لَدَيْهِمُ الْقَنَاعَةُ الْكَافِيَةُ بِالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ، وَبِالْهَدَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ.

وَلَمَّا كَانَ التَّضْرِيفُ الْقُرْآنِيُّ الْمُتَابِعُ عَلَيْهِمْ لَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا، كَانَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ عِلَّتَهُمُ النَّفْسِيَّةَ لَيْسَتْ عَدَمَ اقْتِنَاعِهِمْ بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَإِنَّمَا هِيَ غَلَبَةُ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَالتَّعَلُّقُ بِمَطَالِبِ نَفْسِهِمْ مِنْ زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، عَلَى إِرَادَاتِهِمْ، وَيَشْمَلُ هَذَا حُبَّهُمْ لِلْعَاجِلَةِ وَإِيثَارَهَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَهَذَا مَوْصُولٌ بِأَحَدِ خُطُوطِ السُّورَةِ وَهُوَ بَيَانُ أَنَّ الْإِنْسَانَ عَجُولٌ.

وَقَدْ نَزَلَ بِشَأْنِ التَّضْرِيفِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ نُزُولِ هَذَا النَّصِّ نَصَانِ آخَرَانِ:

الأول: قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْفِرْقَانِ/ ٢٥ مِصْحَفٍ/ ٤٢ نُزُولٍ) بِشَأْنِ الْقُرْآنِ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٥١):

أي: فَأَبَى أَكْثَرُ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَانَ التَّنْزِيلِ وَمَنْ تَأَثَّرَ بِهِمْ إِلَّا شِدَّةً فِي الْكُفْرِ.

الثاني: قول الله عز وجل في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١٧﴾

فدل نص سورة (طه) على أن المقصود بالتصريف في القرآن من الوعيد الرغبة في أن يتقوا عقاب الله لهم، أو في أن يحدث لهم الوعيد ذكراً ذا تأثير ما فيهم.

ودل نص سورة (الفرقان) على أن أكثر مشركي مكة قد أبوا إلا غلواً في الكفر، مع ما حصل لهم من تذکر.

ودل نص سورة (الإسراء) على أن هؤلاء المعالَجين، ما كان يزيدهم التذکر الذي يحصل لديهم بالتصريف في القرآن إلا نفوراً.

فبين هذه النصوص تكامل ظاهر.

الفصل الثالث

قال الله عز وجل يعلم رسوله ﷺ فكل داع إلى الله من أمته فقرة جدلية من فقرات مجادلة المشركين، مع تغليب رباني كاشف للحق:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَقُوا إِلَى دِيَارِهِمْ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤٤﴾

وفي قراءة جمهور القراء العشرة: [كما تقولون] خطاباً للمشركين.

اشتملت الآية (٤٢) من هذه الآيات على تعليم حجة برهانية تثبت أنه لا يوجد إلهة مع الله عز وجل كما يفترى المشركون.

يزعم المشركون أنه توجد إلهة حق مع الله، ولها تصاريف في الكون، وتأثيرات في الناس، وتنفع من يعبدوها.

إِنَّ إِلَهَ الْحَقِّ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ مُشَارَكَةٌ فِي صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَمَنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا مَا يَشَاءُ فِي الْكَوْنِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ نِدَاءُ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالنَّدُّ لَا بُدَّ أَنْ يُنْفَذَ مَا أَرَادَهُ، فَإِذَا كَانَ مُرَادُهُ مُعَارِضاً لِمُرَادِ نَدْوِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَضْطَرَّ، لِيُنْفَذَ كُلُّ مِنْهُمَا مُرَادَهُ، فَمِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً فَعَلَهُ.

لَكِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ خَاضِعٌ لِنِظَامِ رَبِّ وَاحِدٍ، وَكُلُّ جُزْءٍ فِيهِ مُخَكَّمٌ بِقَوَائِنِ الْوَحْدَةِ الْكَلِيَّةِ لِلْكَوْنِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وُجُودِ اخْتِمَالَاتٍ كَثِيرَةٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْكَوْنُ عَلَيْهَا، هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُخْتَارَ الْخَالِقَ الرَّبُّ هُوَ وَاحِدٌ لِلْكَوْنِ كُلِّهِ.

فَلَوْ كَانَتِ الْإِلَهَةُ الْأَرْبَابُ الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا الْمُشْرِكُونَ لَهَا رُبُوبِيَّاتٌ حَقِيقِيَّةٌ يَقْدِرُونَ بِهَا عَلَى تَنْفِيزِ مَا يُرِيدُونَ، لَمَا تَرَكُوا رَبَّ الْعَرْشِ وَالسَّمَاوَاتِ السَّبْعِ يُنْسِكُ بِنَوَاصِي كُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِ الْكَوْنِ، وَيَتَصَرَّفُ بِهِ عَلَى مُرَادِهِ ضِمْنَ قَوَائِنِهِ الْعَامَّةِ الَّتِي لَا يَخْرُجُ عَنْهَا شَيْءٌ مِنْهُمَا كَانَ صَغِيراً، وَلَا يَتَعَوَّضُ إِلَى مُقَاوَمَةِ ذِي الْعَرْشِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِتَحْقِيقِ مُرَادَاتِهِمْ وَلَوْ فِي حُدُودِ رُبُوبِيَّاتِهِمْ الْجُزْئِيَّةِ.

● ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾: أي: قُلْ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لِشُرَكَائِهِمْ قُدْرَاتٍ خَلَقِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، كَالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالرِّزْقِ، وَهَبَةِ الذَّرِّيَّةِ، وَالتَّأْمِينِ فِي الْمَخَافِ.

فَالْمَعْنَى: لَوْ كَانَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةٌ أَرْبَابٌ وَلَوْ ضِمْنَ حُدُودِ رُبُوبِيَّاتِ مَحْدُودَاتِ.

● ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُمْ، وَفِي قِرَاءَةِ جُمْهُورِ الْقُرَّاءِ الْعَشْرَةِ: [كَمَا يَقُولُونَ] خِطَاباً لَهُمْ.

● ﴿إِذَا لَا يَتَعَوَّضُوا إِلَيَّ ذِي الْقُرْبَى سَيْلاً﴾: أي: إِذَنْ لَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ أَنْ

طَلَبُوا سَبِيلًا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ كَفِّ سُلْطَانِ ذِي الْعَرْشِ، عَنْ الْمَجَالَاتِ الَّتِي يُرِيدُونَ أَنْ يُحَقِّقُوا فِيهَا رُبُوبِيَّاتِهِمْ، بِتَنْفِيدِ مُرَادَاتِهِمُ الَّتِي يُرْضُونَ بِهَا عَابِدِيهِمْ.

﴿إِذَا﴾ «إِذَنْ» حَرْفٌ يَقَعُ فِي صَدْرِ الْكَلَامِ مَعْنَاهُ الْجَوَابُ وَالْجِزَاءُ لِكَلَامٍ سَابِقٍ.

﴿لَا تَنْفَعُوا﴾: أَي: لَطَلَبُوا. «بَغَى الشَّيْءَ وَابْتَغَاهُ» أَي: طَلَبَهُ.

• ﴿إِلَّا ذِي الْعَرْشِ﴾: أَي: إِلَى صَاحِبِ الْعَرْشِ وَهُوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

﴿سَبِيلًا﴾: أَي: طَرِيقًا مَادِّيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ تَحْقِيقِ رُبُوبِيَّاتِهِمْ بِفِعْلِ مَا يُرِيدُونَ فِعْلَهُ لِعِبَادِيهِمْ فِي الْأَرْضِ.

لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، فَلَيْسَ لَهُمْ رُبُوبِيَّةٌ مَا، فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَهِيَّةٌ مَا. بَعْدَ هَذَا التَّعْلِيمِ الْجَدَلِيِّ أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ مُنْزَعٌ تَنْزِيهًا كَامِلًا عَنْ كُلِّ مَقَالَاتِ الْمُشْرِكِينَ الشَّرِكِيَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى:

• ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣):

أَي: تَنْزَعَهُ اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - وَتَعَالَى عُلُوًّا لَا حُدُودَ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ، وَتَرَفَّعَ عَنْ كُلِّ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

تَعَالَى: أَي: عَالَا عُلُوًّا لَا حُدُودَ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ لَهُ، فَهُوَ مُتَرَفِّعٌ عَنْ كُلِّ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِهِ، وَمُنْزَعٌ عَنِ الْحَاجَةِ لِدَاتِهِ أَوْ لِصِفَاتِهِ.

• ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾: أَي: عَمَّا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَقَالَاتِ شِرْكِيَّةِ، تَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا، أَوْ تَجْعَلُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا، مَهْمَا كَانَتْ مُشَارَكَتُهُ لَهُ فِي اعْتِقَادِهِمْ صَغِيرَةً أَوْ جُزْئِيَّةً.

• ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: أَي: عُلُوًّا كَبِيرًا لَا تَحُدُّهُ حُدُودٌ.

• ﴿سُبْحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾ ﴿٤٤﴾ :

أي: تُنَزَّرُهُ بِصُورٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّنْزِيهَاتِ الْمُوجَّهَاتِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَذَوَاتِ مَنْ فِيهِنَّ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ.

التسبيح: التمجيد بالصفات السلبية ببيان براءة الله عز وجل منها. بخلاف «التوقير» إذ هو التمجيد بالصفات الوجودية التي هي من كمالاته جلَّ جلاله وعظم سلطانه.

أما تسبيح ذوات الكائنات التي ليس لها إدراك علمي، فإن كان بلسان حالها، فصفاؤها التي خلقها الله عز وجل كاملة الإبداع والإتقان تدلُّ دَلَالَةً عَقْلِيَّةً عَلَى تَنْزِيهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ، يَفْقَهُ هَذَا مَنْ يَفْقَهُهُ وَيَعْقُلُ عَنْهُ الْغَافِلُونَ.

والله قديرٌ على أن يجعل كلَّ ذرَّةٍ من ذراتها تنطق بما يدُلُّ على تسبيح الله عز وجل.

وشواهدُ هذا في مُكْتَشَفَاتِ هَذَا الْعَصْرِ صَارَتْ تُقَرِّبُ إِلَى الْأَذْهَانِ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْطِقَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّ شَرِيحَةَ مَعْدِنِيَّةٍ بِحَجْمِ رَاحَةِ الْكَفِّ مِمَّا يُعَدُّ لِلْكُومْبِيُوتَرِ، تَنْطِقُ بِوَسَاطَةِ جِهَازٍ مِنْ مَكْتَشَفَاتِ النَّاسِ بِكَلَامٍ قَدْ يُفْرَغُ فِي كُتُبٍ خِزَانَةٍ كَامِلَةٍ، فَلَيْسَ مِنَ الْمُسْتَعْرَبِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَرَّاتِ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ مَفْطُورَةً عَلَى التَّسْبِيحِ الْمَوْجَّهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهَا وَيُمِدُّهَا دَوَامًا بِعِطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

• ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤٥﴾ :

• ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ : أي: وَمَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا يُسَبِّحُ اللَّهَ تَسْبِيحًا مُفْتَرِنًا بِحَمْدِهِ، أي: يُنَزِّهُهُ اللَّهُ وَيُسَبِّحُهُ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ كَمَالِهِ.

«إِنْ» أداة نفى مثل «ما». وفي الجملة قَصُرٌ بالنَّفْيِ والاستِثْناءِ، وهو قَصُرٌ إِضَافِيٌّ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ كُلُّ ذَرَّةٍ فِيهِ شَيْءٌ، وَكُلُّ نَوَافٍ فِي الذَّرَاتِ فِيهِ شَيْءٌ، وَكُلُّ «الْيَكْتُرُونَ» يَدُورُ حَوْلَهَا فَهُوَ شَيْءٌ.

﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾: الفقه: الْفَهْمُ. وَالْفِطْنَةُ. وَيُسْتَعْمَلُ الْفَهْمُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْعِلْمِ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ، وَخَفَايَاهَا، وَبَوَاطِنِهَا، فَهُوَ أَخْصَصٌ مِنْ مُطْلَقِ الْعِلْمِ عَلَى هَذَا.

فَالَّذِينَ يُذَكِّرُونَ إِذْرَاكَ عَقْلِيًّا، أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ يُسَبِّحُ بِلِسَانِ حَالِهِ عَنْ طَرِيقِ إِذْرَاكَ إِتْقَانِ خَلْقِ اللَّهِ لَهُ، تَسْبِيحًا مُقْتَرِنًا بِحَمْدِهِ، يَعْجِزُونَ عَنِ الْعِلْمِ بِبَوَاطِنِ أُمُورِهَا وَخَفَايَاهَا فِي أَعْمَاقِهَا الَّذِي هُوَ الْفَهْمُ. وَالْغَافِلُونَ بَعِيدُونَ جَدًّا عَنْ فَهْمِهَا وَإِذْرَاكِهَا.

• ﴿.. إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾: جَاءَ هَذَا الْبَيَانُ تَغْلِيلًا لِسُؤَالِ مَطْوِيٍّ، وَإِظْمَاعًا لِلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، بِأَنَّهُمْ إِذَا تَابُوا وَأَمَنُوا وَأَسْلَمُوا غَفَرَ اللَّهُ لَهُمْ.

وَالسُّؤَالُ الْمَطْوِيُّ الَّذِي يَكْشِفُهُ التَّدَبُّرُ هُنَا: لِمَ لَمْ يُنْزَلِ اللَّهُ عِقَابَهُ بِالْمُشْرِكِينَ الْمُصْرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ عَنَادًا وَجُحُودًا؟.

وَالْجَوَابُ: إِنَّ اللَّهَ كَانَ حَلِيمًا، أَي: إِنَّهُ حَلِيمٌ دَوَامًا بِعِبَادِهِ، وَفَعَلَ «كَانَ» هُنَا يَدُلُّ عَلَى الْكَيْفِيَّةِ الدَّائِمَةِ.

الْحَلِيمُ: أَي الْكَثِيرُ الْحِلْمِ الَّذِي لَا يَعْجَلُ بِمُعَاقَبَةِ عِبَادِهِ الْمُجْرِمِينَ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبُوا، وَيَسْتَجِيبُوا لِرَبِّهِمْ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، فَإِذَا اسْتَجَابُوا غَفَرَ لَهُمْ لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ غَفُورٌ، كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ لِعِبَادِهِ.

الفصل الرابع

قال الله عز وجل خطاباً لرسوله وبيانا لواقع حال أئمة المشركين في مكة حينما كان يتلو عليهم القرآن:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ عَلَى أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ ۚ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

في هذه الآيات بيان الصفات التي تتصف بها على التوزيع زمرة أئمة المشركين، في مكة وما حولها إبان التنزيل، وهم المعنيون بالمعالجة في السورة، وفي عدة سور قبلها، تُجاء سماعهم القرآن، وقد جاء في السورة الحديث عن القرآن وما فيه من هداية تبشير وإنذار في الآية (٩) فهذا البيان موصول بخط الحديث عن القرآن في السورة مع خط المعالجين.

ولكل زمرة من زمرة هؤلاء المعنيين بالمعالجة، صفة ثلاث الدركة الكفرية التي هو فيها، وقد جاء الكلام عاماً بشأنهم، إلا أن باستطاعة المتفكر المتدبر أن يدرك أنه بيان مقسم على زمرة، ولدى تفصيل الصفات التي اشتمل عليها هذا البيان ظهر لي أنها أربع صفات:

الصفة الأولى: انصراف نفوسهم عن استماع القرآن انصرافاً كلياً، وهذه الصفة تظهر لدى زمرة منهم.

دل على هذه الصفة قول الله عز وجل خطاباً للرسول ويلحق به دعاة أمته:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾:

إن الذين لا يؤمنون بالآخرة، التي يكون فيها الجزاء على مكسوبات

الموضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ، هم مُتَعَلِّقُونَ بِشَهَوَاتِهِمْ وأهوائهم من الحياة الدنيا، لَا يَغْنِيهِمْ شَيْءٌ مِّمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ بَيَانٍ، فَمِمَّا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النَّفُوسُ بِخَلْقِ اللَّهِ أَنْ تَنْصَرِفَ عَمَّا لَا يَغْنِيهَا وَهِيَ مَشْغُولَةٌ شُغْلًا تَامًا بما يَغْنِيهَا، فَإِنْ كَانَ الَّذِي لَا يَغْنِيهَا مَسْمُوعًا فَإِنَّهَا لَا تَسْمَعُهُ، وَإِنْ كَانَ مَرِيئًا فَإِنَّهَا لَا تَرَاهُ.

قَدْ تَسْمَعُ أَذَانُهُمْ أَضْوَاتًا غَيْرَ ذَاتِ دَلَالَةٍ، وَقَدْ تَرَى عُيُونُهُمْ أَشْبَاحًا لَا تُمَيِّزُ بَيْنَهَا.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَجُودُ حِجَابٍ خَفِيِّ مِنْ انْشِغَالِهِمْ التَّامِ فِيمَا يَغْنِيهِمْ، وَهَذَا الْحِجَابُ الْخَفِيُّ الْمَسْتُورُ يَحْجُبُ عَنْ أَسْمَاعِهِمْ إِذْرَاكَ الْأَقْوَالِ الَّتِي تَطْرُقُ آذَانَهُمْ، فَإِذَا سُئِلُوا بَعْدَ ذَلِكَ: مَاذَا سَمِعْتُمْ؟ قَالُوا لَمْ نَسْمَعْ شَيْئًا. وَهَذَا الْحِجَابُ الْخَفِيُّ الْمَسْتُورُ يَحْجُبُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ إِذْرَاكَ مَا عَرِضَ عَلَيْهَا، فَإِذَا سُئِلُوا بَعْدَ ذَلِكَ: مَاذَا رَأَيْتُمْ؟ قَالُوا لَمْ نَرِ شَيْئًا.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾: أَضْلُ الْقِرَاءَةِ التَّنْقِطُ بِمَكْتُوبٍ عَلَى شَيْءٍ بِقَلَمٍ مَا، وَبِالتَّوَسُّعِ فِي الاسْتِعْمَالِ أُطْلِقَتْ عَلَى الْمُنْطَوِّقِ مِنَ الْكَلَامِ وَلَوْ كَانَ اسْتِدْعَاءً مِنَ الذَّاكِرَةِ، وَلِيَشْمَلَ النَّصُّ مَا يَقْرَأُهُ مِنَ الْمَكْتُوبِ غَيْرِ الرِّسُولِ ﷺ.

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (١٥):

أَي: جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اسْتِمَاعِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لِقِرَاءَتِكَ الْقُرْآنِ حِجَابًا مَانِعًا مِنْ وُضُوعِ قِرَاءَتِكَ إِلَى أَسْمَاعِهِمْ، وَهَذَا الْحِجَابُ مَسْتُورٌ غَيْرُ مَرِيٍّ، فَهُوَ أَثَرٌ مَعْنَوِيٌّ مِنْ أَثَارِ صَدِّ نَفْسِهِمْ عَنْ تَلْقَى الْقُرْآنِ، بِسَبَبِ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِالْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدِّينِ.

وَالْمَرَادُ بِالْجَعْلِ هُنَا مَا جَبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّفُوسَ بِالتَّكْوِينِ الْعَامِّ، فَكُلُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ جَزَاءٍ رَبَّانِيٍّ، يَنْصَرِفُ انْصِرَافًا تَامًا عَنْ

تَفْهَمُ أَوْ تَلْقَى مَعَارِفَ إِيمَانِيَّةٍ فِيهَا إِبْعَادٌ لَهُ عَمَّا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِهِ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ.

الصفة الثانية: وتُوجَدُ زُمْرَةٌ مِنَ الْمُغْنِيَّينَ بِالْمَعَالَجَةِ، يَسْتَمِعُونَ آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ تُفْرَأُ عَلَيْهِمْ، وَتَصِلُ إِلَى مَوَاطِنِ السَّمْعِ فِي أَدْمِغَتِهِمْ، لِكِنَّهُمْ لَا يُعْمِلُونَ قُدْرَاتِ التَّفَكِيرِ لَدَيْهِمْ فِي فَهْمِ دَلَالَاتِهَا.

دَلَّ عَلَى صِفَةِ هَذِهِ الزُّمَرَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا...﴾ (٤١)

﴿أَكِنَّةٌ﴾: أَي: أَغْطِيَّةٌ، جَمْعُ «كِنَانٍ» وَهُوَ الْغِطَاءُ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَقِي شَيْئًا يَسْتُرُهُ.

﴿وَقْرًا﴾: أَي: ثِقَلًا شَدِيدًا فِي السَّمْعِ. وَقَدْ يَصِلُ الْوَقْرُ إِلَى الصَّمَمِ.

وَالْمُرَادُ بِالْجَعْلِ هُنَا أَيْضًا مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ الْإِنْسَانِيَّةُ كُلُّهَا. إِذَا انْحَطَّتْ بِإِرَادَاتِهَا الْحَرَّةِ إِلَى دَرَكَةٍ أَنَّهَا تَسْمَعُ الْأَقْوَالَ الْهَادِيَّةَ وَلَا تَفْقَهُ دَلَالَاتِهَا، لِأَنَّ قُلُوبَهَا وَهِيَ مَرَاكِزُ التَّفَكِيرِ وَالْفَهْمِ وَالْوَعْيِ فِي أَكِنَّةٍ، وَهَذِهِ الْأَكِنَّةُ تَحْجُبُ عَنْهَا الْإِذْرَاكَ بِفَهْمِ وَوَعْيِ لَدَلَالَاتِ الْأَقْوَالِ الَّتِي تَصِلُ إِلَيْهَا، عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ الْهَادِيَّةَ إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهَا فَإِنَّهَا تَصِلُ إِلَيْهَا بِاهْتَةِ ضَعِيفَةٍ بِسَبَبِ الْوَقْرِ الَّذِي فِي آذَانِهِمْ، وَهُوَ مَا أَخَذَتْهُ انْصِرَافُهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ وَتَعَلَّقُفُهُمْ بِالدُّنْيَا، وَأَهْوَانِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا.

وظَاهِرٌ أَنَّ مَرَضَ هَذِهِ الزُّمَرَةِ أَخَفُّ قَلِيلًا مِنْ مَرَضِ الزُّمَرَةِ الْأُولَى.

• ﴿أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾: أَي: أَكِنَّةٌ حَاجِبَةٌ لَهُمْ عَنْ فِقْهِهِ.

الصفة الثالثة: وتُوجَدُ زُمْرَةٌ مِنَ الْمُغْنِيَّينَ بِالْمَعَالَجَةِ، يَحْضُرُونَ مَجْلِسَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَيَفْهَمُونَ بَعْضَ آيَاتِهِ، لِكِنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا آيَاتِ دَلَالَاتٍ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِهِ، وَفَهِمُوا مِنْهَا الدَّلَالََةَ عَلَى بُطْلَانِ مَا

يَعْبُدُونَ مِنْ آلِهَةٍ، ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ، وَاشْمَأَزَّتْ نَفْسُهُمْ، لَتَعْلَقَهُم بِآلِهَتِهِمْ،
وَوَلَّوْا عَلَى أَذْبَارِهِمْ نَافِرِينَ مِنَ الْمَجْلِسِ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ.

دَلَّ عَلَى صِفَةِ هَذِهِ الزُّمَرَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... وَإِذَا ذُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدِّمْ وَلَّوْا عَلَى أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا ۖ﴾ ﴿٤١﴾:

﴿وَلَّوْا عَلَى أَذْبَارِهِمْ﴾: وَلَّوْا: أَي: أَذْبَرُوا وَنَازَعُوا.

عَلَى أَذْبَارِهِمْ: أَي: جَاعِلِينَ مَا كَرِهُوا اسْتِمَاعَهُ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ
وَالْإِلَهِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخَدَهُ، وَإِبْطَالِ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ،
مَظْرُوحَةً عَلَى أَبَارِهِمْ، غَيْرَ عَابِثِينَ بِهَا، وَلَا مُكْثِرِينَ لَهَا، لِمُخَالَفَتِهَا
لِمَأْلُوفَاتِهِمُ الْاِعْتِقَادِيَّةِ الَّتِي يَتَشَبَّثُونَ بِهَا.

نُفُورًا: أَي: وَلَّوْا حَالَةَ كَوْنِهِمْ نَافِرِينَ. النُّفُورُ: الصَّدُّ وَالِابْتِعَادُ كحَالَةِ
الْمَذْعُورِ الشَّارِدِ، أَوْ الْمُتَمَنِّعِ الْمَتَرَاكِعِ بِحِرَّانٍ. وَيُلَاقِظُ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ
نَفْهَمَ: ﴿عَلَى أَذْبَارِهِمْ﴾ بِمَعْنَى تَرَاجُعِهِمْ تَرَاجُعًا عَلَى الْأُمُكِنَةِ الْوَاقِعَةِ خَلْفَ
أَذْبَارِهِمْ، وَوُجُوهُهُمْ إِلَى جِهَةِ مَجْلِسِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، أَوْ قِرَاءَتِهِ.

وظَاهِرٌ أَنَّ مَرَضَ هَذِهِ الزُّمَرَةِ أَخَفُّ مِنْ مَرَضِ الزُّمَرَتَيْنِ: الْأُولَى،
وَالثَّانِيَةِ.

الْصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: وَتُوجَدُ زُمَرَةٌ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ، وَيَفْهَمُونَ مِنْ دَلَالَاتِ
آيَاتِهِ عَلَى مَقَادِيرٍ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُدْرَاتٍ فَهَمَ، وَيُذْهِشُهُمْ مَا سَمِعُوا مِنْهُ،
وَيُذِرُكُونَ بَعْضَ مَا فِيهِ مِنْ إِعْجَازٍ بِلَاغِيٍّ هُوَ فَوْقَ مُسْتَطَاعِ الْبَشَرِ، وَيَخْشَوْنَ
أَنْ تَتَأَثَّرَ بِهِ جَمَاهِيرُهُمْ، فَيَسْرُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ أَنْ يُشِيعُوا فِي النَّاسِ أَنَّ
مُحَمَّدًا مَسْحُورٌ، يُلْقِي إِلَيْهِ الْجِنُّ مَا يَسْمَعُونَ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ، وَهَؤُلَاءِ الْجِنُّ
هُمْ قُرْنَاءُ الَّذِينَ سَحَرُوهُ مِنَ الْإِنْسِ.

دَلَّ عَلَى صِفَةِ هَذِهِ الزُّمَرَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ
إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ...﴾:

أَفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ الْمَعْنِيِّينَ بِالْبَيَانِ يَسْتَمِعُونَ بِأَدَاةِ اسْتِمَاعٍ
فِكْرِيَّةٍ رَافِضَةٍ ابْتِدَاءً قُبُولَ مَعَانِي مَا يَسْمَعُونَهُ، وَلَوْ كَانَ حَقًّا جَلِيًّا، وَهَذَا
شَيْءٌ خَفِيٌّ دَاخِلٌ نَفُوسِهِمْ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ بِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ
عِلْمِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَلَوْ كَانُوا شُرَكَاءَ فِي الْكُفْرِ الْعِنَادِيِّ الْجُحُودِيِّ الْقَائِمِ
عَلَى الْبَاطِلِ، وَشُرَكَاءَ فِي الْمَكْرِ الَّذِي يَمْكُرُونَهُ لِلصِّدْقِ عَنِ الْقُرْآنِ، وَفِتْنَةِ
الْمُؤْمِنِينَ عَنْ دِينِهِمْ، بِاتِّهَامِهِمُ الرُّسُولَ ﷺ بِأَنَّهُ رَجُلٌ مَسْحُورٌ.

• ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾: أَي: حِينَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ اسْتِمَاعَ عَازِمٍ ابْتِدَاءً
عَلَى الرَّفْضِ، وَتَصْيِيدٍ مَا يَتَّخِذُونَهُ ذَرِيعَةً لِلتَّشْهِيرِ بِكَ، وَالطَّعْنِ فِيمَا تَتْلُو
عَلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ.

• ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾: أَي: وَحِينَ تَنَاجِيهِمْ يُسِرُّونَ الْحَدِيثَ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

يُتْلَقُ لَفْظُ «نَجْوَى» عَلَى الْإِسْرَارِ بِالْحَدِيثِ، وَيُتْلَقُ عَلَى الْمُتَنَاجِيَنِ،
وَهُوَ مِنَ الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ، وَيَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَغَيْرُهُ. يُقَالُ لُغَةً: «نَجَا
فُلَانٌ فُلَانًا الْحَدِيثَ، يَنْجُوهُ، نَجْوًا، وَنَجْوَى» أَي: أَسَرَّ إِلَيْهِ الْحَدِيثَ.

• ﴿... إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾:

أَي: حِينَ يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِنْ كُفَّارِ هَذِهِ
الزُّمَرَةِ الرَّابِعَةِ، فِي أَحَادِيثٍ سَرِيَّةٍ لِمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: مَا
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا، تُمْلِي عَلَيْهِ قُرْآنَ السَّحَرَةِ مِنَ الْجِنِّ هَذَا الْقُرْآنَ
الَّذِي يَتْلُوهُ، فَتَتَأَثَّرُونَ بِهِ.

يفعلون هذا بُغْيَةً فتنة المؤمنين عن دينهم، مَكْرًا بالرَّسُولِ وبما يُنَزِّلُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ كِتَابِهِ الْمَجِيدِ.

جاء في العبارة اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ: ﴿يَقُولُونَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ صَارُوا يُرَدِّدُونَهَا لِإِشْيَاعِهَا بَيْنَ النَّاسِ، بينما جاءت العبارة في سورة (الْفُرْقَانِ/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بقول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَبْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾.

ويظهر أَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ قَالُوهَا إِيَّانَ سُورَةِ (الْفُرْقَانِ) بَدَأَ لَهُمْ أَنْ يُرَدِّدُوهَا لِتَكُونَ شَائِعَةً مَقْبُولَةً عِنْدَ النَّاسِ، فجاء التعبير في سورة (الإسراء) بعبارة: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقد سبق في تدبر سورة (الفرقان) تحليل هذه العبارة.

وقد ذكرهم الله عز وجل بوصف الظَّالِمِينَ في (الفرقان) وفي (الإسراء) لِأَنَّ الصِّفَةَ الْبَارِزَةَ فِيمَا اتَّهَمُوا بِهِ الرَّسُولَ بِأَنَّهُ مَسْحُورٌ، هِيَ صِفَةُ الظُّلْمِ لِشَخْصِ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي يَتَلَقَّى الْوَحْيَ عَنْ رَبِّهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ السَّحَرَةُ أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ قُدْرَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، وَلَمْ يَظْهَرْ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَسْحُورٌ.

وقد كَرَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِقَوْلِهِ لَهُ:

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

أعاد الله عز وجل هنا في سورة (الإسراء) مَا كَانَ قَدْ خَاطَبَ بِهِ رَسُولَهُ فِي سُورَةِ (الْفُرْقَانِ) فِي الْآيَةِ (٩) مِنْهَا.

وَإِذْ جَاءَ التَّحْلِيلُ التَّدْبِيرِيُّ مُوسَعًا لَدَى تَدْبِيرِ سُورَةِ (الْفُرْقَانِ) حَوْلَ الْآيَةِ (٩) الْمَطَابِقَةِ لِلآيَةِ (٤٨) مِنْ سُورَةِ (الإسراء) فَإِنِّي أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى بَيَانٍ غَيْرِ مُسْتَفِيزٍ التَّفْصِيلِ.

فالمعنى: انظر يا محمد بفكرك الذي لا تحتاج معه إلى تأملٍ وتَدقيقٍ وتعمُّقٍ، مُتَعَجِّباً مُسْتَنَكِراً كَيْفَ اضْطَنَعُوا كَاذِبِينَ مُفْتَرِينَ لَكَ أَوْصَافاً، يَكْشِفُ الْفِكْرُ الْقَرِيبَ بُظْلَانَهَا، لِمَنَافَاتِهَا لِصِفَاتِكَ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَتَحَلَّى بِهَا، وَيُذَرِّكُهَا كُلُّ ذِي فِكْرٍ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَطْناً وَلَا أَلْمَعِيّاً، وَلَا بَاحِثاً مُتَعَمِّقاً، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْخِطَابَ لِلرَّسُولِ خِطَابٌ لِّكُلِّ ذِي نَظَرٍ فِكْرِيّ.

وجاءت كلمة «الأمثال» بالجمع إذ سَبَقَ لَهُمْ أَنْ وَصَفُوا الرَّسُولَ ظُلْماً وَعُدْواناً بأنه ساحر، وبأنه كَذَّاب، وبأنه مَجْنُون، ووصفوه هنا بأنه مَسْحُور، مع ما بَيَّنَّ بَعْضُ هَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ تَنَاقُضٍ يُسْقِطُ أَقْوَالَهُمْ.

ونلمح في عبارة ﴿ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ إِيْدَاعاً قَائِماً عَلَى عَكْسِ التَّشْبِيهِ.

فالأضل في التشبيه أن يُقَالَ: جَعَلُوكَ مِثْلَ الْمَسْحُورِ، أَوْ مِثْلَ السَّاحِرِ، أَوْ مِثْلَ الْمَجْنُونِ، ونحو ذلك.

لَكِنَّ النَّصَّ الْقَرَأَنِيَّ كَرَّمَ الرَّسُولَ عَنْ هَذَا، فَعَبَّرَ عَنْ عَمَلِهِمْ بِأَنَّهُمْ اخْتَرَعُوا مِنْ عِنْدِهِمْ رُسُومَاتٍ، وَضَرَبُوهَا كَمَا تُضْرَبُ النُّقُودُ تَثْبِيْتاً لَهَا، وَادَّعَوْا أَنَّهَا تُشَبِّهُكَ. وَهَذَا أَسْلُوبٌ مِنْ تَكْرِيمِ الرَّسُولِ عَنْ شَتَائِمِ أَثْمَةِ الْمُشْرِكِينَ لَهُ عَجِيبٌ.

وَإِذْ وَصَفُوا الرَّسُولَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُتَعَارِضَاتِ الْمُتَنَاقِضَاتِ الَّتِي لَيْسَ مِنَ الْعُقُولِ اجْتِمَاعُهَا فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّهُمْ قَدْ وَضَعُوا نَفُوسَهُمْ فِي مَتَاهَةٍ فِكْرِيَّةٍ مُظْلِمَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿... فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨﴾: أَي: فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُحَدِّدُوا لِنَفُوسِهِمْ سَبِيلًا يُفْنِعُونَ بِهِ جَمَاهِيرَهُمُ الَّذِينَ يَدِينُونَ لَهُمْ بِالْوَلَاءِ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً.

الفصل الخامس

قال الله عز وجل مُبِينًا تَكْرِيرُهُمْ مَقَالَتَهُمُ التَّعْجِيبَةَ بِشَأْنِ الْبُعْثِ:

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْلًا وَرُفُقًا لَوْنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْهَرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْخِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾:

إِنَّ الْمَعْنِيِّينَ بِالْمُعَالَجَةِ فِي السُّورَةِ مِنْ أَيْمَةِ مُشْرِكِي مَكَّةَ مَا زَالُوا بِالنُّسْبَةِ إِلَى الْبُعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْآخِرَةِ وَالْجِزَاءِ فِيهَا، عِنْدَ مَوْقِفِهِمْ الْاسْتِغْرَابِيَّ التَّعْجِيبِيَّ، يُظَلِّقُونَ فِيهِ الْاسْتِفْهَامَ التَّعْجِيبِيَّ، دُونَ أَنْ يَضِيفُوا إِشْكَالًا أَوْ اعْتِرَاضًا، حَتَّى يُعَالَجَ بِمَا يُلَائِمُهُ وَيُدْفَعُهُ وَيَكْشِفُ سُقُوطَهُ بِدَلِيلٍ بُرْهَانِيٍّ، وَقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ سُقُوطِ هَذَا الْاسْتِنْكَارِ التَّعْجِيبِيِّ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، بِأَنَّ الْخَالِقَ الَّذِي خَلَقَهُمْ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى هُوَ الَّذِي وَضَعَ فِي خُطَّتِهِ أَنْ يُمِيتَهُمْ، ثُمَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، يَخْلُقُ ظُرُوفَ وَشُرُوطِ الْحَيَاةِ الْآخِرَى، وَيَبْعَثُ الْمَوْتَى إِلَى الْحَيَاةِ، لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجِزَاءِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِيهَا، وَأَصْحَابُ النَّارِ الْكَافِرُونَ الْمَجْرُمُونَ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِيهَا.

فعبارتُهُمْ: ﴿... إِذَا كُنَّا عِظْلًا وَرُفُقًا لَوْنًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ هي تَكْرِيرٌ لِمَا سَبَقَ أَنْ قَالُوهُ بِشَأْنِ هَذَا الْمَوْضُوعِ.

الرُّفَاتُ: الْحُطَامُ، وَالْفُتَاتُ مِنْ كُلِّ مَا تَكَسَّرَ وَانْدَقَّ.

فجاء التعليم الربَّانيُّ لِلرَّسُولِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ مُشْتِمَلًا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحِدَّةِ وَالْعُنْفِ فِي الْإِجَابَةِ، إِذْ لَمْ يَكْتَفُوا فِي الْإِجَابَاتِ السَّابِقَاتِ بِنَحْوِ: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ من سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

فجاء في هذا التعليم من سورة (الإسراء):

• ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ﴿٥١﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ: إِنَّ تَحَوَّلَ أَجْسَادَكُمْ إِلَى رُفَاتٍ مُنْبَثٍّ فِي تُرَابِ الْأَرْضِ، لَا يُعَيَّرُ مِنْ حَقِيقَةِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِعَادَتِكُمْ شَيْئًا، فَقَدْ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، أَفَيَعْجِزُ عَنْ إِعَادَتِكُمْ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ يُمَيِّتَكُمْ، وَيَفَرِّقَ رُفَاتَكُمْ فِي تُرَابِ الْأَرْضِ، ضِمْنَ الْمُمَكِّنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ.

وَأَبَيْنُ لَكُمْ حَقِيقَةَ أَكْثَرِ مِمَّا تُشَاهِدُونَ مِنْ تَفَرُّقِ رُفَاتِ الْمَوْتَى فِي تُرَابِ الْأَرْضِ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا التُّرَابَ قَدْ يَتَحَوَّلُ بِمُرُورِ الزَّمَنِ فَيَكُونُ حِجَارَةً صُلْبَةً، وَقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فَيَكُونُ حَدِيدًا، وَقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُ فَيَكُونُ حِجَارَةً كَرِيمَةً كَالزَّبَرْجَدِ، وَالْيَاقُوتِ، وَالزَّمْرَدِ، وَالْأَلْمَاسِ، وَنَحْوِهَا، فَهَذِهِ حِجَارَةٌ لَهَا قِيَمَةٌ كَبِيرَةٌ فِي صُدُورِكُمْ.

فَسَيَقُولُونَ: إِذَا تَحَوَّلَ رُفَاتُنَا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ حِجَارَةً كَرِيمَةً، فَمَنْ يُعِيدُنَا إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى؟!

فَقُلْ لَهُمْ: يُعِيدُكُمْ إِلَى الْحَيَاةِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، عَلَى أَنَّ الْإِعَادَةَ إِلَى الْحَيَاةِ لَا تَسْتَلْزِمُ إِعَادَةَ أَعْيَانِ رُفَاتِ الْأَجْسَادِ، بَلْ يَكْفِي إِنْشَاءُ أَجْسَادٍ مِنْ خَرِيطَةِ النَّفْسِ الْبَاقِيَةِ.

• ﴿... فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ ... ﴿٥١﴾﴾: أي: فَسَيُحَرِّكُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ تَحْرِيكًا دَالًّا عَلَى الثَّبَاتِ عِنْدَ مَوْقِفِ الْمُسْتَبْعِدِ الْمُتَعَجِّبِ الْمُنْكَرِ.

وَإِذْ لَا يَجِدُونَ تَعَلَّةً يَتَعَلَّلُونَ بِهَا غَيْرَ الْإِنْكَارِ بِأَسْلُوبِ التَّعَجُّبِ، فَإِنَّهُمْ يَلْجَأُونَ إِلَى السُّؤَالِ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الْقِيَامَةُ وَالْبَعْثُ، فَجَاءَ فِي النَّصِّ:

• ﴿يَقُولُونَ مَتَى هُوَ...﴾؟ أي: متى يكون هذا الإحياء إلى الآخرة لِلْحِسَابِ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ؟

• ﴿... قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾: أي: أَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا، وَهَذَا الْجَوَابُ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: تَوَقَّعُ قُرْبَ مَوْتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ تَنْكَشِفُ لَهُمْ حَقَائِقُ الْآخِرَةِ الَّتِي لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَنْ مَاتَ قَامَتْ قِيَامَتُهُ.

المعنى الثاني: تَوَقَّعُ قُرْبِ السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا انْهَاءُ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ قُرْبُ نِسْبِيٍّ، يُقَاسُ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ عُمرِ الْحَيَاةِ الْأُولَى لِلْأَحْيَاءِ جَمِيعًا.

على أَنَّ النَّاسَ حِينَ يُبْعَثُونَ لِلْحَيَاةِ الْآخِرَى، لَا يُحْسِنُونَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، لِأَنَّ الْإِحْسَانَ بِالزَّمَنِ يَنْعَدِمُ مِنْ نَفْسِهِمْ انْعِدَامًا تَامًا، فَهُمْ يَتَصَوَّرُونَ حِينَ الْبَعْثِ أَنََّّهُمْ يَسْتَقِظُونَ مِنْ نَوْمَةٍ نَامُوهَا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، وَإِحْسَانُ مِيتِ أَوَّلِ النَّاسِ بِالزَّمَنِ عِنْدَ الْبَعْثِ مُمَازِلٌ لِإِحْسَانِ مِيتِ آخِرِ النَّاسِ.

دَلَّتْ عَلَى هَذَا نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَدَلَّ عَلَى أَنََّّهُمْ يَظُنُّونَ أَنََّّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ إِلَّا قَلِيلًا الْآيَةُ الْآخِرَةُ مِنْ هَذَا النَّصِّ، وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾:

أي: بَعَثُوكُمْ لِمَلَأَقَاةِ أَحْدَاثِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، يَكُونُ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ رَبُّكُمْ لِلْحِسَابِ (وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ بوساطةِ بَعْضِ مَلَائِكَتِهِ) فَتَسْتَجِيبُونَ طَائِعِينَ اسْتِجَابَةً مَضْحُوبَةً بِحَمْدِهِ وَالشَّائِءِ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَتَظُنُّونَ وَأَنْتُمْ مَسُوقُونَ لِمَوْقِفِ الْحِسَابِ أَنَّكُمْ مَا لَبِثْتُمْ فِي الْبَرْزَخِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ إِلَّا زَمَنًا قَلِيلًا.

«إِنْ» حرف نفى بمعنى «ما».

الفصل السادس

قال الله عز وجل:

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ
كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ
يُعَذِّبَكُمُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَوَعَدْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ
دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَبَّهُمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ
مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٨﴾ :

تمهيد:

في هذا الفصل تَعْلِيمٌ لِلرُّسُولِ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا سِيَمَا
الدُّعَاةَ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ، بَأَنْ يَقُولُوا لَدَى مَخَاطَبَاتِهِمْ، وَمُنَاطَرَاتِهِمُ الْجَدَلِيَّةَ،
وَدَعْوَتَهُمْ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، الْمَقَالَةَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، لِأَنَّ الْكَلَامَ قَدْ يَجُرُّ
إِلَى الْخِصَامِ فَالتَّعَادِي، فَالتَّقَاتِلَ، بِسَبَبِ التَّنَزُّعِ الشَّيْطَانِيِّ الَّذِي يَنْزِعُهُ بَيْنَهُمْ.

وفيه بَيَانٌ تَرْبَوِيٌّ لِلرُّسُولِ ﷺ وَإِشْعَارٌ ضَمْنِيٌّ لَهُ بِتَفْضِيلِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ
النَّبِيِّينَ، وَهَذَا يُحْمَلُهُ أَعْبَاءُ ثَقِيلَةٌ فِي مَسَرَّتِهِ لِتَأْدِيبِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِ الْخَاتِمَةِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ
كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ٥٣﴾ :

وَجَّهَ اللَّهُ عز وجل في الآيات من (٢٢ - ٣٩) أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَصِيَّةً

لِلْمُؤْمِنِينَ سَبَقَ تَدَبُّرُهَا، وتوجيهها كَانَ بِخَطَابِ مُبَاشِرٍ مِنْ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَبَعْدَهَا وَجَّهَ خُطَاباً مُبَاشِراً لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ رَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ أَتَبَهُمْ فِيهِ عَلَى افْتِرَائِهِمُ الْبَاطِلَ، وَعَلَى نُفُورِهِمْ مِنْ حُجَجِ الْقُرْآنِ وَبَيِّنَاتِهِ. وَبَعْدَهُ عَلَّمَ رَسُولُهُ فِقْرَةَ جِدَالِيَّةٍ إِقْنَاعِيَّةٍ يَجَادِلُ بِهَا الْمُشْرِكِينَ بِشَأْنِ اعْتِقَادِهِمُ الْبَاطِلَ فِي آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ. وَبَعْدَهَا أَبَانَ لَهُ صِفَاتِ أُلُوهِيَّةِ الشِّرْكِ فِي مَكَّةَ تَجَاهِ الْقُرْآنِ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ تَنْطَبِقُ عَلَى أَمْثَالِهِمْ. وَبَعْدَهَا عَلَّمَهُ فِقْرَةَ مِنْ فِقَرَاتِ مَنَاطِرَتِهِمْ بِشَأْنِ إِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بِأَنْ يُخَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ بِتَعْلِيمَاتٍ مُلَحَقَاتٍ بِوَصَايَا اللَّهِ، أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا صِفَةَ الْمَعْلَمِ الْمُنْفَذِ لِأَمْرِ رَبِّهِ. وَبِأَنْ يُخَاطَبَ الْمُشْرِكِينَ خُطَاباً إِقْنَاعِيّاً يَهْدِيهِمْ إِلَى أَنْ آلِهَتُهُمْ لَنْ تَنْفَعَهُمْ إِذَا جَرَّبُوا أَنْ يَدْعُوَهَا لِتَكْشِفَ عَنْهُمْ ضُرّاً يَنْزِلُ بِهِمْ.

هَذَا التَّنْوِيعُ يَبَيِّنُ خِطَابَ اللَّهِ الْمُبَاشِرِ لِلنَّاسِ، وَيَبَيِّنُ تَكْلِيفَ الرَّسُولِ أَنْ يُخَاطَبَهُمْ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَمْنَحُ رَسُولَهُ وَظِيفَةً حَرَكَيةً فِي تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ وَظِيفَةٍ مُبْلَغِ كِتَابِ رَبِّهِ، فَهُوَ يُمَارِسُ أَمراً وَنَهياً وَتَرْبِيَةً وَإِقْنَاعاً وَقِيَادَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ، وَهُوَ مَهْدِيٌّ بِهَدْيِ اللَّهِ لَهُ، وَمُسَدِّدٌ بِتَسْدِيدِ اللَّهِ لَهُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنْ يَأْمُرَ الْمُؤْمِنِينَ بِضَبْطِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَاخْتِيَارِ الْأَحْسَنِ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، وَلَا سِيماً لَدَى مُحَاطَبَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، وَلَدَى مُحَاصِمَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ. وَلَدَى قِيَامِهِمْ بِوِظِيفَةِ دَعْوَةِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ. وَلَدَى مُعَامَلَتِهِمْ لَهُمْ.

إِنَّ ضَبْطَ أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِاخْتِيَارِ الْأَحْسَنِ مِنَ الْأَقْوَالِ، جُزْءٌ مِنْ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْفَاضِلِ، الْمُمْتَرِزِ تَهْذِيباً وَأَدَباً وَحَضَارَةً رَاقِيَةً.

فجاء في التَّعْلِيمِ: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾.

أي: قُلْ لِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لِيَقُولُوا دَوَامًا الْمَقُولَةَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فِي اخْتِيَارَاتِهِمْ لِأَقْوَالِهِمْ.

﴿يَقُولُوا﴾ مجزومٌ بلامِ أمرٍ مَحذُوفَةٍ، دَلَّ عَلَيْهَا فِعْلُ «قُلْ» وَحَذَفَ هَذِهِ اللَّامُ لَهُ شَاهِدٌ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَهَذَا أَحْسَنُ الْآرَاءِ النُّحَوِيَّةِ فِيمَا ظَهَرَ لِي. وَلَهُ نَظِيرٌ فِي الْآيَةِ (٣١) مِنْ سُورَةِ (إِبْرَاهِيمَ/ ١٤) مَصْحُفَ (٧٢ نَزُول).

وَاخْتِيارِ الْفِعْلِ الْمَضَارِعُ ﴿يَقُولُوا﴾ لِيَدُلَّ عَلَى مُطَابَقَتِهِمْ بِاخْتِيارِ الْمَقُولَاتِ الْأَحْسَنِ فِي كُلِّ مَا يَنْطَفِقُونَ بِهِ، فَإِذَا طَبَّقَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ هَذَا الْأَدَبَ الرَّفِيعَ، كَانَ الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ مُحَقِّقًا أَرْقَى حَضَارَةٍ مِثْلَى فِي مَجَالِ آدَبِ الْقَوْلِ، وَأَسْلُوبِ الْخُطَابِ، فِي مُخْتَلَفِ أَحْوالِ الرِّضَى وَالْغَضَبِ، وَالْوِثَامِ وَالْخِصَامِ، وَاللَّدَاتِ وَالْآلَامِ، وَالْمَسَرَّاتِ وَالْأُخْزَانِ.

﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: صِفَةُ مَوْصُوفٍ مَحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: الْمَقُولَاتِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ غَيْرِهَا، وَالْأَمْرُ بِاخْتِيارِ الْأَحْسَنِ دَوَامًا يَتَضَمَّنُ حَثَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الِارْتِقَاءِ فِي دَرَجَاتِ سُلَمِ الْحَضَارَةِ الْمِثْلَى فِي مَجَالِ الْأَقْوَالِ، إِذْ هُمْ مُطَالِبُونَ بِالْأَحْسَنِ فَأَلْأَحْسَنَ دَوَامًا.

إِنَّ الْأَمْرَ بِضَبْطِ اللَّسَانِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْأَقْوَالِ السَّيِّئَةِ، وَاخْتِيارِ الْأَحْسَنِ فَأَلْأَحْسَنِ مِنَ الْأَقْوَالِ، مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي وَجَّهَتِ التَّعْلِيمَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ لَهَا عِنَايَةً عَظِيمَةً، ارْتِقَاءً بِالْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ فِي تَهْذِيبِ أَقْوَالِ أَفْرَادِهِ ارْتِقَاءً حَضَارِيًّا رَفِيعًا.

جاء في حديث رواه الترمذي وأحمد والنسائي وغيرهم من معاذ بن جبل رضي الله عنه، بعد أن أجابه الرَّسُولُ ﷺ عَنْ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ، قَالَ لَهُ:

«أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟».

قال مُعَاذُ: قُلْتُ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال مُعَاذُ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمَوْأَخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقال: «ثَبِّكَلَنِكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ» أو قال: «عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح^(١).

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُصُومَاتِ الشَّدِيدَاتِ وَالْمَشَاحَنَاتِ وَالتَّعَاضِبِ إِلَى حَدِّ التَّقَاتِلِ، تُثِيرُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَقْوَالٌ غَيْرُ حَسَنَةٍ، وَيَعْمَلُ الشَّيْطَانُ بِنَزْعَاتِهِ فِي النُّفُوسِ عَلَى إِثَارَةِ غَضَبِهَا لِيُوقِعَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الشَّخْنَاءَ وَالْبَغْضَاءَ وَالْعِدَاءَ وَالتَّقَاتِلَ.

وكَذَلِكَ يَفْعَلُ الشَّيْطَانُ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِ فِي الْمَخَاطَبَاتِ، وَلَا سِيَّمَا حِينَمَا يَقُومُ الْمُسْلِمُ بِوُظَيْفَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، إِذْ يَنْزَعُ فِي نَفْسٍ غَيْرِ الْمُسْلِمِ لِيُوجِّهَ لِلدَّاعِي الْمُسْلِمِ أَقْوَالًا جَارِحَةً، وَرُبَّمَا يَكُونُ فِيهَا سَبٌّ وَشَتْمٌ وَهُزْءٌ وَسُخْرِيَّةٌ، وَعِنْدَئِذٍ يَنْزَعُ فِي نَفْسِ الْمُسْلِمِ لِيُقَابِلَ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، فَيَسْقُطُ بِذَلِكَ جِهَادُهُ الدَّعْوِيَّ، وَتَحْوُلُ الْمَحَادَّةُ بَيْنَهُمَا إِلَى مُصَارَعَةٍ فَمُقَاتَلَةٍ.

دَلَّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ: ﴿... إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُبِينًا ۖ﴾:

نَزَعُ الشَّيْطَانِ: وَسَاوَسُهُ وَتَسْوِيلَاتُهُ الَّتِي يَحْمِلُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَلَى الشَّرِّ وَمَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ. يُقَالُ لُغَةً: «نَزَعُ فُلَانٍ بَيْنَ الْقَوْمِ» أَي: أَفْسَدَ بَيْنَهُمْ وَحَمَلَ بَغْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. وَيُطْلَقُ النَّزْعُ عَلَى الْكَلَامِ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ الْإِغْرَاءُ وَالْإِفْسَادُ بَيْنَ النَّاسِ.

(١) قال ابن رجب الحنبلي: وفي هذا نظر، أي: في تصحيح الترمذي له. انظر: «جامع العلوم والحكم» له عند شرح الحديث.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: أي: إِنَّ الشَّيْطَانَ إبليسَ وجنوده من الجن هم أعداء دوماً للإنسان آدمَ فذريَّاتِهِ، وعداوتُهُمْ مُبِينَةٌ ظاهرة.

أما الإنسان المؤمن فالشَّيْطَانُ حَرِيصٌ على أن يُغْوِيَهُ حتَّى يَعْصِي رَبَّهُ، وحتَّى يَخْرُجَ من الإسلام والإيمان، ثُمَّ يُوْغَلَ في الكُفْرَ ويكون في الدَّرَكِ الأسْفَلَ من النار.

وأما الإنسان الكافر فالشَّيْطَانُ حَرِيصٌ على أن يَسْتَدْرِجَهُ ويُنْزِلَهُ مُوْغِلاً في دَرَكَاتِ الكُفْرِ، حتَّى يَكُونَ من أهلِ الدَّرَكِ الأسْفَلَ من النار.

وهذه العداوة تَظْهَرُ بِوُضُوحٍ من خلال وسأوسه في نفس الإنسان، فإنَّه لَا يُوسَّوسُ لَهُ إِلَّا بَشَرٌ وإِنَّهم وَمَعْصِيَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وهذه تُزْلِقُ الإنسانَ إلى عَذَابِ اللَّهِ، أَفَلَيْسَ هَذَا من عداوته الظاهرة لكلِّ إنسان؟؟

وهذا التَّنَزُّعُ يُشْعِرُ بَأَنَّ بَعْضَ المؤمنين المسلمين سَيَسْتَجِيبُ لِسَآوِسِ الشَّيْطَانِ، وَيَقَعُ في معصية الله تبارك وتعالى، فاقْتَضَى هذا أَنْ يُخَاطَبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بقوله:

• ﴿زُبُكُمْ أَغْلَرُ بِكُمْ﴾ أي: من كُلِّ عَلِيمٍ بِكُمْ ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُمُ﴾ أي: فَيَغْفِرُ ذُنُوبَكُمْ إذا سَقَطْتُمْ في معصيته، بِمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ، لَأَنَّ مَشِيئَتَهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ عُقُوبَةً لَكُمْ على مَعَاصِيكُمْ، إذا اقْتَضَتْ مَشِيئَتُهُ الْحِكْمَةُ عُقُوبَتَكُمْ.

فالمَغْفِرَةُ والعَفْوُ والعِقَابُ كُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ الْحَكِيمَةِ، الَّتِي لَا يُوْجَدُ في الوجودِ مَا يُلْزِمُهَا أَوْ يُؤْثِرُ عَلَيْهَا، فالمَشِيئَةُ المَطْلُوقَةُ الْمُقْتَرِنَةُ بِالْحِكْمَةِ دَوَاماً من صفات كَمَالِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ.

ولَمَّا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ مسؤولاً فقط عن أَدَائِهِ وظَائِفِ رِسَالَتِهِ، وَلَيْسَ مِنْهَا أَنْ يُلْزَمَ النَّاسُ أَوْ يُجْبِرَهُمْ على الإيمان والطاعة، أَوْ يُحَوِّلَهُمْ عَنْ

تَنَكَّبَ صِرَاطَ رَبِّهِمْ، إِلَى الْإِتِّزَامِ بِسُلُوكِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: ﴿... وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤﴾: أَي: مَسْئُولًا عَنْ اخْتِيَارَاتِهِمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَلَا عَنْ أَيِّ سُلُوكٍ مِنْ وَاقِعِ سُلُوكَاتِهِمْ الْإِرَادِيَّةِ.

وَكِيلَ الرَّجُلِ فِي اللُّغَةِ: الَّذِي يَقُومُ بِأَمْرِهِ، سُمِّيَ وَكِيلًا لِأَنَّهُ مُوَكَّلُهُ قَدْ وَكَّلَ إِلَيْهِ الْقِيَامَ بِأَمْرِهِ.

فَالْمَعْنَى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ لَتَكُونَ قَائِمًا عَلَى النَّاسِ بِصِفَةِ رُبُوبِيَّتِنَا وَكِيلًا عَنَّا عَلَى النَّاسِ، إِنَّمَا أَنْتَ مَكْلَفٌ أَنْ تَقُومَ بِوُضَائِفِ رِسَالَتِكَ، وَهِيَ التَّبْلِيغُ، وَالتَّعْلِيمُ، وَالتَّذْكِيرُ، وَالمَعَالِجَةُ بِالتَّربِيَةِ وَالمَحَاجَّةُ وَاتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ الْإِقْنَاعِيَّةِ، وَحُسْنُ قِيَادَةٍ مَنِ اسْتَجَابَ لَكَ وَأَطَاعَكَ.

وَلَسْتَ مُطَالِبًا بِتَحْوِيلِ النَّاسِ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَمَنِ الْعِصْيَانِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَمَنِ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ مَوْضِعُ الْإِمْتِحَانِ بَعْدَ تَبْلِيغِهِ وَإِجَابَتِهِ تَجَاوَزَ رَبِّهِ مَسْئُولٌ عَنْ نَفْسِهِ مَسْئُولِيَّةً تَامَّةً.

وَنَفْهَهُمْ مِنْ هَذَا النَّصِّ وَغَيْرِهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ وَهَبَ النَّاسَ إِرَادَاتٍ حُرَّةً لِيَبْلُوَهُمْ فِي مَا آتَاهُمْ، فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَسْلُبُهُمْ هَذِهِ الْإِرَادَاتِ، وَلَا يُكْرِهُهُمْ، وَلَا يَأْذُنُ لِلرَّسُولِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِإِكْرَاهِهِمْ، بَلْ يَتْرُكُ لَهُمْ حُرِّيَّاتِهِمْ فِي اخْتِيَارَاتِهِمْ، لِيَنَالُوا جَزَاءَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَا اخْتَارُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِمَّا هُوَ خَيْرٌ لَهَا، وَمِمَّا هُوَ شَرٌّ لَهَا.

إِنَّهُمْ مُؤْهَبُونَ أَدَوَاتِ الْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ، وَالْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ، لِيَكُونُوا مَسْئُولِينَ مَسْئُولِيَّةً تَامَّةً عَنْ اخْتِيَارَاتِهِمْ. وَلْيَسُوا قُطْعَانَ أَغْنَامٍ لَا عَقُولَ لَهَا حَتَّى تَكُونَ يَا مُحَمَّدُ مَسْئُولًا عَنْ حِفْظِهِمْ وَحِمَايَتِهِمْ، وَإِكْرَاهِهِمْ عَلَى الدُّخُولِ فِي حِظَائِرِ تَحْمِيهِمْ مِنَ الذَّنَابِ، فَوَظِيفَتُكَ لَيْسَتْ كَوَظِيفَةِ الْوَكِيلِ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، بَلْ أَنْتَ مَبْلَغٌ مُعَلَّمٌ مُرْشِدٌ دَاعٍ إِلَى سُلُوكِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَعَلَى النَّاسِ أَنْ يُؤَدُّوا وَاجِبَاتِهِمْ تَجَاوَزَ رَبِّهِمْ.

وَبَعْدَ خُطَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُبَاشِرِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، خَصَّ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِخُطَابٍ أَشْعَرَهُ فِيهِ بِالْمَاحِ ضِمْنِي دُونَ أَنْ يَكُونَ فِي اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، بَأَنَّهُ قَدْ فَضَّلَهُ عَلَى سَائِرِ مَنْ خَلَقَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهَذَا مَوْضُوعٌ بِمَا بَدَأَتْ بِهِ السُّورَةُ، وَمَا جَاءَ فِي الْآيَاتِ الْأُولَى مِنْهَا مِنْ إِمَاحٍ إِلَى تَفْضِيلِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ حَتَّى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، لِإِيْرِيهِ مِنْ آيَاتِهِ، وَلِيُسْمِعَهُ مِنْ كَلَامِهِ وَحْيًا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الرَّفِيعِ.

فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ:

• ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿٥٥﴾ :

أَي: وَرَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهَذَا مَطْوِيٌّ لَمْ يُذْكَرْ، قَدْ يُذْكَرُ إِمَاحًا مِنْ وَرَاءِ سَحَابٍ، مِنْ قَبْلِ بَعْضِ الْمُنْتَدَبِينَ وَبِالنَّظَرِ إِلَى السِّيَاقِ،، أَي: وَبِعِلْمِنَا بِكُلِّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ مَلَائِكَةٍ، وَكُلِّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَإِنْسٍ وَجِنٍّ، فَضَّلْنَاكَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا، إِذْ آتَيْنَاكَ مَا لَمْ نُؤْتِ أَحَدًا مِنْهُمْ مِنْ تَكْرِيمٍ وَتَشْرِيفٍ.

• ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ كَمَا فَضَّلْنَاكَ عَلَى جَمِيعِ مَنْ خَلَقْنَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

• ﴿... وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ أَي: وَمِنْ أَمْثَلَةٍ تَفْضِيلِ بَعْضِ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ أَنَّنَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا فَضَّلْنَاهُ بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ لَمْ نُؤْتِهِمْ كُتُبًا.

وَالزَّبُورُ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كِتَابٌ حِكْمٍ وَمَوَاعِظٍ وَنَصَائِحٍ، وَمُنَاجَاةٌ لِلَّهِ وَتَضَرُّعٌ وَدُعَاءٌ، وَتَمْجِيدٌ وَتَقْدِيسٌ لَهُ وَثَنَاءٌ،

وَحَمْدٍ لَهُ عَلَى جَلِيلِ صِفَاتِهِ وَعَظِيمِ مَنَنِهِ، وَفِيهِ وَصِفٌ لِأَحْوَالِ الْأَشْرَارِ وَتَمِيزٌ لِلَّهِ لَهُمْ مِنْ فِعْلِ الشَّرِّ ضِدَّ الضَّعْفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْيَتَامَى، وَأَنَّ الْأَشْرَارَ يَجْحَدُونَ الْجَزَاءَ، وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَطْلُبُهُمْ لِيُقِيمَ عَذْلَهُ فِيهِمْ، إِلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ ابْتِهَالَاتٍ.

وهو يُنْقَسِمُ إِلَى مَزَامِيرَ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى (١٥٠) مَزْمُورًا، بِحَسَبِ مَا هُوَ مُدَوَّنٌ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَبَعْدَ هَذَا رَجَعَ الْبَيَانُ فِي السُّورَةِ إِلَى تَعْلِيمِ الرَّسُولِ فَكُلُّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَسْلُوبًا مِنْ أَسَالِيبِ إِفْنَاعِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَنْفَعُهُمْ شَيْئًا، فَلْيَجْرِبُوا مَعَهُمُ الدُّعَاءَ لِكَشْفِ الضَّرِّ عَنْهُمْ إِذَا نَزَلَ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَهُ عَنْهُمْ، وَلَا يَمْلِكُونَ تَحْوِيلَهُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَطَابًا لِرَسُولِهِ:

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ. فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦):

أَي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ لِلْمُشْرِكِينَ: أَجْرُوا مَعَ آلِهَتِكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ الَّتِي تَسْتَلِزُّ مُشَارَكَةَ مَا لَهُ فِي رُبوبِيَّتِهِ، تَجَرِبَةَ الدُّعَاءِ إِذَا نَزَلَ عَلَيْكُمُ الضَّرُّ فَعَمَّ مَشَاعِرَكُمْ وَنَفُوسَكُمْ، فَادْعُوهُمْ لِيَكْشِفُوا الضَّرَّ عَنْكُمْ كَشْفَ إِزَالَةٍ تَجْعَلُهُ عَدَمًا، أَوْ لِيُحَوِّلُوهُ عَنْكُمْ إِلَى مَكَانٍ مَا، أَوْ إِلَى أَعْدَائِكُمْ كَمَا تُحِبُّونَ.

فَإِذَا دَعَوْتُمُوهُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ قُدْرَةَ مَا يَكْشِفُونَ بِهَا الضَّرَّ عَنْكُمْ كَشْفَ إِزَالَةٍ إِلَى الْعَدَمِ، وَلَا يَمْلِكُونَ قُدْرَةَ مَا يُحَوِّلُونَ بِهَا الضَّرَّ عَنْكُمْ.

إِنَّ تَجَرِبَةَ الدُّعَاءِ مِنْ أَعْظَمِ اخْتِبَارَاتِ صِحَّةِ كَوْنِ الْمَدْعُوِّ إِلَهًا حَقًّا، قَادِرًا عَلَى إِجَابَةِ الدَّاعِي وَإِثْنَانِهِ سُؤْلُهُ عِنْدَ شِدَّةِ الضَّرُورَةِ.

أَمَّا الْإِلَهَةُ مِنْ دُونِ اللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - فَإِنَّهَا إِلَهَةٌ بَاطِلَةٌ، إِذْ هِيَ إِمَّا أَوْهَامٌ، أَوْ لَهَا وُجُودٌ وَلَكِنَّهَا عَاجِزَةٌ عَنْ إِجَابَةِ مَنْ يَدْعُوهَا وَإِيتَائِهِ سُؤْلَهُ.

وليس في الوجود كُلهُ إلهٌ رَبٌّ يُجِيبُ دُعَاءَ الْمَضْطَّرِّ إِذَا دَعَاهُ غَيْرُ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، الَّذِي لَا رَبَّ غَيْرُهُ، فَلَا إِلَهَ بِحَقِّ سِوَاهُ.

ولهذا جاء في البيانِ الرَّبَّانِيِّ بَعْدَ هَذَا التَّعْلِيمِ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ ﴿٥٧﴾:

﴿الْوَسِيلَةَ﴾: أي: المنزلة ذات القُرب من الله، وهذه الوسيلة تُنال بالتَّقَرُّبِ إلى الله بالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ مَحَابَةِ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَمَنَازِلُ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ بَعْضُهَا أَرْفَعُ مِنْ بَعْضٍ، وَكُلُّ ارْتِقَاءٍ فِيهَا يَزِيدُ الْعَبْدَ قُرْبًا مِنْ رَبِّهِ، وَكُلَّمَا اجْتَهَدَ الْعَبْدُ لِلتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، أَزْدَادَ ارْتِقَاءً فِي دَرَجَاتِ الْوَسِيلَةِ قُرْبًا مِنْ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ.

فَالْمَعْنَى: أُولَئِكَ الْفُضَّلَاءُ رَفِيعُوا الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، هُمُ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا دَعَوْهُ، وَهُمْ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ مِنْ دُعَائِهِمْ إِلَهُهُمْ، لِأَنَّ إِلَهُهُمْ هُوَ الْإِلَهَ الْحَقُّ، إِذْ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، الْقَادِرُ عَلَىٰ فِعْلِ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الَّذِي يُجِيبُ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ وَيُؤْتِيهِ سُؤْلَهُ ضِمْنَ مَقْتَضَىٰ حِكْمَتِهِ، أَوْ يُعْطِيهِ خَيْرًا مِمَّا سَأَلَ.

أشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين «أُولَئِكَ» للدلالة على ارتفاع مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، بإيمانهم، وصِدْقِ إِسْلَامِهِمْ، وباجتهادهم فيما يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

وقد وصفَهُمُ اللهُ في هذه الآيةِ بِصِفَاتٍ ثلاثٍ:

الصفةُ الأولى: أَنَّهُمْ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ، بِاجْتِهَادِهِمْ في صالحاتِ الأعمال التي تجعلُهم أَقْرَبَ فَأَقْرَبَ مَنْزِلَةً من رَبِّهِمْ، وَيَسَابِقُهُمْ في فِعْلِ الخيراتِ يَظْهَرُ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ رَبِّهِ مَنْزِلَةً.

• ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾: أي: يَظْلُبُونَ إِضَافَةً إِلَى مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، الْمَنْزِلَةَ ذَاتِ الْقُرْبِ مِنْهُ، بِاجْتِهَادِهِمْ بِنَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ وَالْقُرْبَاتِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ بِاجْتِهَادِهِمْ يُسَابِقُونَ، وبما أَنَّ الْمَتَسَابِقِينَ مِنَ الْعِبَادِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا مُتَفَاضِلِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكْشِفَ تَسَابُقُهُمْ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ فَأَقْرَبُ مَنْزِلَةً مِنْ رَبِّهِ.

يَبْتَغُونَ: أي: يَظْلُبُونَ.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؟ اسْتِفْهَامٌ عَنِ الْأَقْرَبِ يُشْعِرُ بَأَنَّ الْعَبْدَ كُلَّمَا كَانَ أَقْرَبَ مَنْزِلَةً مِنْ رَبِّهِ بِمُجَاهَدَتِهِ، كَانَتْ أَذْعِيَّتُهُ لِرَبِّهِ أَسْرَعَ اسْتِجَابَةً وَأَكْثَرَ قَبُولاً، وَآتَاهُ اللهُ سُؤْلَهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُضْطَرّاً، فَذَلِكَ هَذِهِ الْعِبَارَةُ بِاللُّزُومِ الْفِكْرِيِّ عَلَى تَسَابُقِهِمْ فِي التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ، وَتَفَاضُلِهِمْ فِي الْقُرْبِ.

والمعنى: أَيُّهُمْ أَقْرَبُ فَهُوَ أَسْرَعُ اسْتِجَابَةً، وَأَكْثَرَ قَبُولاً عِنْدَ رَبِّهِ.

وما ظهر لي في هذا البيان القرآني المختزل، جاء بيانه صريحاً واضحاً في حديث قُذْسِي صحيح، رواه البخاريُّ عن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَعَدُ أَدْنَتْهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَإِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ

تَرُدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ.

أَمَّا إجابةُ الله عزَّ وجلَّ المضطرَّ إذا دَعَاهُ، فَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ عزَّ وجلَّ إِحْدَى الْأَدِلَّةِ الَّتِي يَدُلُّ بِهَا عَلَى وُجُودِهِ، وَلَوْ كَانَ الدَّاعِي الْمَضْطَّرُّ كَافِرًا، وَبِهَذَا يَظْهَرُ لِلْمُشْرِكِينَ الْفَرْقُ وَاضِحًا بَيْنَ دُعَائِهِمْ لِأَلِهَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ، وَدُعَائِهِمْ لِهَيْبِهِمْ وَرَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمِنْ فِيهِمَا.

الصفةُ الثانية: أَنَّهُمْ يَرْجُونَ مُتَرَقِّبِينَ دَوَامًا رَحْمَةَ اللهِ، دَلَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ عَظْفًا عَلَى: ﴿يَتَنَفَّسُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ أَلُوسِيَّةً﴾.

يَرْجُونَ: أَي: يَتَوَقَّعُونَ أَنَا فَنَأْتِي عَلَى تَوَالِي الْأَزْمَانِ.

رَحْمَتُهُ: أَي: آثَارَ رَحْمَتِهِ، وَآثَارُ رَحْمَتِهِ الْعَطَاءُ، وَالْمَعُونَةُ، وَالتَّوْفِيقُ، وَإِزَالَةُ الْبُؤْسِ، وَالْإِمْدَادُ بِمَا يَسْرُ، وَمِنْهَا الْغَفْرَانُ وَالْعَفْوُ عَنِ السَّيِّئَاتِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جَلْبِ كُلِّ مَا يُحِبُّ الْإِنْسَانُ، وَدَفْعِ كُلِّ مَا يَكْرَهُ. وَمِنْهَا الثَّوَابُ الْجَزِيلُ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ.

الصفةُ الثالثة: أَنَّهُمْ يَخَافُونَ عَذَابَهُ الَّذِي أُوْعِدَ بِهِ الْكَافِرِينَ وَالْعَصَاةَ، فَهَمُ بِهَذَا الْخَوْفِ يَجْتَنِبُونَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَيَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ بِهِ، مَا اسْتَطَاعُوا إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلًا.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: أَي: فَيَجْعَلُهُمُ الْخَوْفُ يَجْتَنِبُونَ مَعْصِيَتَهُ.

وَحَتَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ مُنْذِرًا بِأَنَّ عَذَابَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾: أَي: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ أَيُّهَا الصَّالِحُ لِلخَطَابِ، الَّذِي أَعْتَدَهُ لِلْكَافِرِينَ وَالْعَصَاةَ، عَذَابٌ شَدِيدٌ أَلِيمٌ يَحْذَرُهُ دَوَامًا الْمُؤْمِنُونَ أَوَّلُوا الْأَلْبَابَ، فَيَتَوَسَّلُونَ إِلَى حِمَايَةِ أَنْفُسِهِمْ مِنْهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَالْإِسْلَامِ لَهُ، وَطَاعَتِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ عِبَادِهِ.

يقال لغة: «حَذَرَ الشَّيْءِ»، وَحَذَرَ مِنْهُ، يَحْذَرُ، حَذَرًا أَي: خَافَهُ وَاحْتَرَزَ مِنْهُ، فَهُوَ «حَازِرٌ» وَ«حَذِرٌ» وَالشَّيْءُ «مَحْذُورٌ» وَ«مَحْذُورٌ مِنْهُ».

وَبَعْدَ أَنْ عَالَجَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُشْرِكِينَ، وَأَمَرَ بِمُعَالَجَتِهِمْ، لِإِقْنَاعِهِمْ وَقَطْعِ أَعْدَارِهِمْ، وَأَمَرَ رَسُولَهُ بِأَنْ يُوصِيَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَقُولُوا الْمَقَالَاتِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَأَنْ يُضْلِحُوا مَا فِي سَرَائِرِهِمُ الَّتِي يَعْلَمُهَا اللَّهُ وَقَدْ يَجَازِيهِمْ عَلَى السَّيِّئَاتِ مِنْهَا، وَالْمَحْ إِمَّا حَا خَفِيًّا لِرَسُولِهِ بِأَنَّهُ فَضَّلَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يُعَالِجَ الْمُشْرِكِينَ مِعَالَجَةً إِقْنَاعِيَّةً تَعْتَمِدُ عَلَى اخْتِبَارِ تَجْرِبِيٍّ لَا إِلَهِيَّتِهِمْ، وَلِلرَّبِّ جَلُّ جَلَالِهِ، وَأَبَانَ صِفَةَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُ دَعْوَاتِهِمْ، انْتَقَلَ إِلَى بَيَانِ أَحْوَالِ النَّاسِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، وَأَنَّهُمْ بِمَعَاصِيهِمْ سَيَسْتَحِقُّونَ إِهْلَاكَهُمْ فِي قُرَاهِمِ، أَوْ إِنزَالِ عَذَابٍ شَدِيدٍ فِيهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلِيفِكُمْ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾: أَي: وَمَا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ «إِنْ» حَرَفُ نَفْيٍ، مِثْلُ «مَا»، وَ«مِنْ» جِيءَ بِهَا زَائِدَةً لِإِفَادَةِ الْاسْتِغْرَاقِ.

القرية: كُلُّ مَجْمَعٍ سَكْنِيٍّ وَتَوَابِعُهُ، وَلَوْ كَانَ مَدِينَةً عَظُمَى جَدًّا.

﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلِيفِكُمْ أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾:

يَتَحَدَّثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ الدَّالِّ عَلَى عَظَمَةِ رَبوبيَّتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ.

مُهْلِكُوهَا: أَي: سَهْلِكُوهَا إِهْلَاكَ اسْتِثْصَالٍ كإِهْلَاكِ عَادٍ وَثَمُودَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرَى الَّتِي سَيُهْلِكُهَا قَدْ وَصَلَتْ بِكُفْرِهَا وَطُغْيَانِهَا إِلَى اسْتِحْقَاقِهَا الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ بِحِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا أَهْلَكَ كَقَارَ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ.

﴿أَوْ مُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾: أي: أَوْ سَنُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا دُونَ عَذَابِ الاستئصالِ. وهذا يَدُلُّ على أَنَّ الْقُرَى الَّتِي سَيُعَذِّبُهَا لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ عَذَابِ الاستئصالِ بالإهلاكِ الشاملِ، وهذه رُبَّمَا تَكُونُ مُسْلِمَةً، إِلَّا أَنَّ كَثْرَةَ مَعَاصِيهَا مِنْ دُونَ الْكُفْرِ قَدْ جَعَلَتْهَا تَسْتَحِقُّ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِهَا عَذَابًا شَدِيدًا، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْعَذَابُ بِأَيْدِي النَّاسِ مِنَ الْجَبَابَرَةِ أَوْ الْكَفَرَةِ، وَهَذَا الْعَذَابُ قَدْ وَجَدْنَا أَمْثَلَهُ كَثِيرَةً مِنْهُ، فِي تَارِيخِ النَّاسِ، وَفِي بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ، فَكَمْ تَعَرَّضَ الْمُسْلِمُونَ لِعَذَابٍ شَدِيدٍ فِي قُرَاهُمْ وَعَوَاصِمِهِمِ الْكِبَرَى عَلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِمِ الْكَفَرَةِ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ أَغْرَاقِهِمْ وَأَقْوَامِهِمِ وَالنَّاطِقِينَ بِلُغَاتِهِمْ.

فَلَا حَاجَةَ بَعْدَ هَذَا الْفَهْمِ لِتَخْصِيسِ لَفْظِ «قَرِيَّةٍ» فِي عِبَارَةٍ: ﴿وَلِنْ مِنْ قَرِيَّةٍ﴾ بِوصف: «كَافِرَةٍ» فَالتَّعْمِيمُ فِي الْعِبَارَةِ يَشْمَلُ الْقُرَى الَّتِي يَكُونُ أَهْلُهَا كَافِرِينَ، وَالْقُرَى الَّتِي يَنْتَمِي أَهْلُهَا إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّ كُلَّ مُجْمَعٍ سَكَنِيٍّ لِلنَّاسِ، سَيَمُرُّ أَهْلُهُ فِي مُسْتَقْبَلِ تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ فِي مَرَحَلَةٍ يَكُونُونَ فِيهَا كَافِرِينَ طُعَاةً يَسْتَحِقُّونَ الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ، كَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ بَعْدْلِهِ وَجَبَرُوتَ رُبُوبِيَّتِهِ قَوْمَ نُوحٍ، وَعَادًا، وَثَمُودَ، وَقَوْمَ لُوطَ، وَقَوْمَ شُعَيْبَ. أَوْ فِي مَرَحَلَةٍ مِنَ التَّمَادِي فِي الْمَعَاصِي يَكُونُونَ فِيهَا مُسْتَحَقِّينَ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا.

وهذا الذي سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ بِشَأْنِ مُسْتَقْبَلِ تَارِيخِ النَّاسِ، مَكْتُوبٌ مَسْطُورٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، دَلٌّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ: ﴿... كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨): أي: كَانَ بَيَانُ ذَلِكَ الْإِهْلَاكَ أَوْ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْوَارِدِ فِي الْآيَةِ مُدَوَّنًا مَكْتُوبًا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ النَّاسَ، وَيَضَعَ الْمُتَمَتِّحِينَ مِنْهُمْ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ الْفِعْلِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

مَسْطُورًا: أي: مَكْتُوبًا كِتَابَةً يَعْلَمُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. يَقَالُ لُغَةً: «سَطَرَ الْكِتَابَ، يَسْطُرُهُ، سَطْرًا» أي: كَتَبَهُ.

وَأَرِيدَ بِلَفْظِ «الْكِتَابِ» هُنَا فِي الْآيَةِ، اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ، لِلْعِلْمِ مِنْ

سوابقِ التنزيل، أَنَّ الْكِتَابَ الْجَامِعَ لِلْمَعْلُومَاتِ عَنِ الْكَائِنَاتِ هُوَ «اللُّوحُ الْمَحْفُوظُ» فلفظ «ال» في «الكتاب» هنا عَهْدِيَّةٌ.

وجاءت في الآية عبارة: ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ قَيْدًا لازماً، لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أَنَّ هَذِهِ الْإِجْرَاءَاتِ الْعِقَابِيَّةَ سَوْفَ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا إِنْهَاءُ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. بَلْ سَتَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ إِذْ يَكُونُ النَّاسُ ضِمْنَ ظُرُوفِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وجاء النَّفْيُ الْاسْتِغْرَاقِيُّ وَالْإِسْتِثْنَاءُ فِي الْآيَةِ لِإِفَادَةِ الْقَصْرِ وَالْحَضَرِ، أَيْ: وَمَا قَرِيَّةٌ فِي الْأَرْضِ لِلنَّاسِ إِلَّا سَيُهْلِكُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ يُعَذِّبُهَا عَذَابًا شَدِيدًا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ الْمُهْلَكَةَ قَدْ اسْتَحَقَّتِ الْإِهْلَاكَ بِكُفْرِهَا وَطُغْيَانِهَا وَفُجُورِهَا، وَلِأَنَّ الْمُعَذِّبَةَ عَذَابًا شَدِيدًا قَدْ اسْتَحَقَّتْ أَنْ تُعَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا، بِكَثْرَةِ ذُنُوبِهَا وَمَعَاصِيهَا، وخروجها عن صراط ربها المستقيم.

وهذا قَصْرٌ إِضَافِيٌّ مِنْ قَصْرِ مَوْصُوفٍ عَلَى صِفَةٍ، بِحَسَبِ مُقَرَّرَاتِ الْبَلَاغِيِّينَ.

وإخراج العموم الذي دلَّ عليه النَّفْيُ الْمُسْتِغْرَقُ وَالْإِسْتِثْنَاءُ، عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ، مِمَّا لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ التَّدْبِيرُ الْمَتَأَنِّي السَّلِيمُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الفصل السابع

قال الله عز وجل:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا آلَ رَأْسٍ أَلَىٰ أَرْنَبِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفُوهُهُمْ فَمَا يَرِيذُهُمْ إِلَّا طُفَيْنَا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾:

تمهيد:

في هاتين الآيتين تربية من الله عز وجل لرسوله ﷺ ويُلْحَقُ بِهِ

أَصْحَابُهُ، بِشَأْنِ أَرْبَعِ قَضَايَا، مَعَ بَيَانِ تَعْقِيبِي يُكْشِفُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ وَاقِعَ حَالِ الْكَافِرِينَ، تُجَاةَ آيَاتِهِ التَّخْوِيفِيَّةِ:

القضية الأولى: تَطْلُعُ نَفْسِ الرَّسُولِ ﷺ، دُونَ طَلَبِ صَرْيَحٍ مِنْهُ أَدْبًا مَعَ رَبِّهِ، وَتَطْلُعُ نَفُوسُ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ لَطَلَبِ كِبَرَاءِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ آيَاتِ مُعْجَزَاتٍ، مِنْ الْمَعْجَزَاتِ الْمَادِّيَّةِ، كَعَصَا مُوسَى، وَنَاقَةِ صَالِحٍ، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى لِعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، رَجَاءً أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ، وَيَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، وَيَتَّبِعُوا مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ.

القضية الثانية: تَطْلُعُ نَفْسِ الرَّسُولِ ﷺ، دُونَ طَلَبِ صَرْيَحٍ مِنْهُ، وَتَطْلُعُ مَعْظَمُ أَصْحَابِهِ، أَنْ يَنْصُرَهُمُ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّهِمْ لِيَتَخَلَّصُوا مِنَ الْاضْطِهَادِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مِنْ قَبْلِ أُمَّةِ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ.

القضية الثالثة: مَا أَخَذَتْهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ ضَجِيجٍ إِعْلَامِيٍّ، حَوْلَ مَا أَمْتَنَ اللَّهُ بِهِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مِنْ مِثْنَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ، وَحَدِيثِهِ عَنْهُمَا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوُضُوعِ خَبَرِهِمَا إِلَى مُشْرِكِي قَوْمِهِ.

القضية الرابعة: مُتَابَعَةُ الْمُشْرِكِينَ ضَجِيجَهُمُ الْإِعْلَامِيَّ بِشَأْنِ شَجَرَةِ الزَّقُومِ، الشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَالْمَثَلُوهُ بِاللِّسَنَةِ الْمُؤْمِنِينَ، كُلَّمَا تَلَّوْا الْآيَاتِ مِنْ (٤٩ - ٥٦) مِنْ سُورَةِ: (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول).

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نَمُودَ النَّاقَةِ مُعِيرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٥٩)

هَذِهِ الْآيَةُ تَتَعَلَّقُ بِالْقَضِيَّةِ الْأُولَى مِنَ الْقَضَايَا الْأَرْبَعِ، الَّتِي ذَكَرْتَهَا فِي التَّمْهِيدِ.

وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ كُفْرَاءَ كُفَّارِ مَكَّةَ طَلَبُوا مِنَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَنْ يُجَرِّيَ اللَّهُ لَهُ آيَاتِ خَوَارِقَ افْتَرَحُوهَا، كَأَنْ يُنَحِّيَ عَنْهُمْ جِبَالَ مَكَّةَ، أَوْ أَنْ يَجْعَلَ بَعْضَ جِبَالِهَا أَوْ بَعْضَ مَوَاضِعَ مِنْهَا ذَهَبًا، كَمَا أَخْرَجَ لَصَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّاقَةَ مِنْ صَخْرَةٍ عَيْنِهَا قَوْمُهُ وَكَانَتْ قِصَّةُ هَذِهِ النَّاقَةِ، وَقِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ ثُمُودَ مَتَدَاوِلَةً بَيْنَهُمْ، وَكَأَنَّ يَأْتِيَهُمْ بآيَاتِ كَأَيَاتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآيَاتِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَابَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِرْسَالِ مَا يَطْلُبُونَ وَمَا يَقْتَرِحُونَ مِنْ آيَاتِ خَارِقَاتٍ، مِنْ نَوْعِ الْآيَاتِ الْمَادِّيَّاتِ اللَّوَاتِي تُذَكِّرُنَ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ، إِلَّا أَنَّ مِنْ سُنَّتِهِ - جَلَّتْ حِكْمَتُهُ - أَنَّهُ إِذَا اسْتَجَابَ لِمَطَالِبِ الْقَوْمِ، فَأَجْرَى لِرَسُولِهِ الْآيَةَ أَوْ الْآيَاتِ الَّتِي افْتَرَحُوهَا أَوْ الَّتِي يَقْتَرِحُونَهَا، فَلَمْ يُؤْمِنُوا أَنْ يُهْلِكَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَيَسْتَأْصِلَ شَأْفَتَهُمْ، إِذْ لَا يَكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ إِمْهَالُهُمْ وَتَأْخِيرُهُمْ إِلَى آجَالِهِمْ.

وَقَدْ أَثْبَتَتِ التَّجَارِبُ الْبَشَرِيَّةُ، أَنَّ الْخَوَارِقَ الَّتِي يَقْتَرِحُهَا الْكَافِرُونَ الْمَعَانِدُونَ الْجَاحِدُونَ، عَلَى رُسُلِ رَبِّهِمْ، إِذَا أَجْرَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهَا لَا تُغَيِّرُ مِنْ وَاقِعِ حَالِهِمْ شَيْئًا، إِذْ هُمْ فِي قُلُوبِهِمْ مُسْتَبِقِقُونَ، إِلَّا أَنَّهُمْ جَاحِدُونَ، وَمَا يَقْتَرِحُونَهُ مِنْ آيَاتِ خَوَارِقَ، لَا يَعْدُو أَنْ تَكُونَ مَطَالِبَ تَعْتِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَخْرِقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سُنَّتَهُ فِي كَوْنِهِ لِلْجَاحِدِينَ الْمَتَعَتِّينَ، الَّذِينَ يَطْرَحُونَ الْمَطَالِبَ عَلَى سَبِيلِ التَّشَهِّيِّ وَالتَّلَاعُبِ بِالسُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ.

وَمِنْ الْأُمُثَلَةِ الْوَاقِعِيَّةِ فِي تَارِيخِ الْأُمَمِ أَنَّ كُفَّارَ ثُمُودَ لَمْ يُؤْمِنُوا، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اسْتَجَابَ لَطَلِبِهِمْ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ مُعْجِزَةَ النَّاقَةِ

على وفقِ مَا طَلَبُوا تَمَاماً، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَعْذِيبُهُمْ، وَإِهْلَاكُهُمْ إِهْلَاكَ اسْتِثْصَالٍ.

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَشَأْ أَنْ يُعَرِّضَ أَهْلَ مَكَّةَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ، لِعَذَابٍ شَامِلٍ، يُهْلِكُهُمْ بِهِ إِهْلَاكَ اسْتِثْصَالٍ عَامٍّ، وَهُمْ الصَّفُّ الْأَوَّلُ مِنْ قَوْمِ خَاتَمِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ قَابِلِيَّةٌ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا بَعْدَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعِلَاجِ الْحَكِيمِ، فِي بَضْعِ سِنِينَ، يُهْلِكُ اللَّهُ فِيهَا الْكِبَرَاءَ الْمَعَايِدِينَ بِجُحُودِ، الَّذِينَ يَمْنَعُونَ أَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَهَذَا مَا تَحَقَّقَ فِعْلاً بَعْدَ بَضْعِ سِنِينَ، ثُمَّ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ.

فَالْمَعْنَى: ﴿وَمَا مَعَنَّا﴾ وَفُقِ مُقْتَضِيَاتِ الْحِكْمَةِ، مِنْ ﴿أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ الْمَقْتَرَحَاتِ مِنَ الْخَوَارِقِ الْمَادِّيَّةِ، الَّتِي طَلَبَهَا أَهْلُ الْجُحُودِ مِنْ كِبَرَاءٍ وَأَيْمَةٍ مُشْرِكِي مَكَّةَ ﴿إِلَّا﴾ مَا قَضَتْ بِهِ حِكْمَتُنَا بَعْدَ ﴿أَنْ﴾ كَشَفْنَا لِلنَّاسِ بِالتَّجَرُّبَةِ أَنَّ الْمُسْتَيْقِظِينَ الْجَا حِدِينَ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ أَجَرَيْنَا لَهُمُ الْخَوَارِقَ الَّتِي يَطْلُبُونَ، فَقَدْ ﴿كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وَ مِنْ أَمْثِلَةِ الْمَكْذِبِينَ الْأَوَّلِينَ أَنَّنَا ﴿وَأَلَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ الْمَعْجِزَةَ الْخَارِقَةَ لِلْعَادَةِ، عَلَى وَفْقِ مَا اقْتَرَحُوا عَلَى رَسُولِهِمْ صَالِحٍ، وَكَانَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ ﴿مُبْصِرَةً﴾ لَهُمْ، إِذْ جَعَلَتْهُمْ يُذَرِّكُونَ آيَةَ الْحَقِّ بِأَبْصَارِهِمْ ﴿فَطَلَمُوا﴾ جَا حِدِينَ ﴿بِهَا﴾ وَظَلَمُوا بِعَقْرِهَا، فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ الشَّامِلَ الْمُسْتِثْصَالَ.

وَبَعْدَ أَنْ كَشَفْنَا لِلنَّاسِ طِبَاعَ الْمَكْذِبِينَ الْجَا حِدِينَ بِتَجَرُّبَةِ كُفَّارِ ثَمُودَ، صَارَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ لَا نَسْتَجِيبَ لِمَطَالِبِ الْكَافِرِينَ التَّعَنُّتِيَّةِ، وَأَنْ تَكُونَ آيَاتُنَا آيَاتٍ تَخْوِيفٍ عَلَى أَنَّنَا قَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَفْعَلَ مَا نَشَاءُ ﴿... وََمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩﴾ أَي: وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا لِتَحْمِلَ لِلنَّاسِ رِسَالَةَ تَخْوِيفٍ لَهُمْ بِعَذَابِنَا، وَهَذِهِ الْآيَاتُ نَخْتَارُهَا وَنُجَرِّبُهَا بِحِكْمَتِنَا، وَلَا نَجْعَلُ خَرْقَ سُنَنِنَا الْكُونِيَّةِ أَلْعُوبَةَ لِلْمَتَشَهِّينَ الْمُتَعَنِّتِينَ الْجُحُودِينَ، الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَنَا بَعْدَ أَنْ أَرَيْنَاهُمْ آيَاتِ صِدْقِهِ الْخَوَارِقِ، وَكَذَّبُوا بِكِتَابِنَا الَّذِي نُنَزِّلُ

آيَاتِنَا الْبَيِّنَاتِ عَلَيْهِ، وَيَتْلُوهُ عَلَى النَّاسِ تِبَاعاً عَلَى وَفْقِ مَا أُنزَلْنَاهُ.

الباء في ﴿بِالْآيَاتِ﴾ زِيدَتْ للتوكيد.

قول الله عز وجل لرسوله:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ...﴾ ﴿٦٥﴾

أي: واذكر يا مُحَمَّدُ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ، ووضعتُ
معنى هذه الإحاطة في ذِكْرِكَ، يَجْعَلُكَ مُطَمِّنًا مَعَ وَعْدِ رَبِّكَ لَكَ وَلِلَّذِينَ
آمَنُوا بِكَ وَاتَّبَعُوكَ بِالنَّصْرِ، إِلَى أَنَّكُمْ مَنْصُورُونَ لَا مَحَالَةَ، إِلَّا أَنْ تَحْدِيدَ
الْوَقْتِ وَكَيْفِيَّةِ النَّصْرِ خَاضِعَانِ لِإِرَادَاتِنَا الْحَكِيمَةِ، لَا لِرَغَبَاتِكُمُ الْمُتَعَجِّلَةِ.

هذه هي القضية الثانية التي دَلَّ عَلَيْهَا الْعِلَاجُ الرَّبَّانِيُّ، بالتذكير بما
سَبَقَ تَنْزِيلُهُ فِي نُجُومِ الْقُرْآنِ، قَبْلَ نُزُولِ سُورَةِ (الإسراء).

وَقَدْ بَحَثْتُ فِي سَوَابِقِ التَّنْزِيلِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّورِ، فَوَجَدْتُ
أَنَّ الْمَحَالَ عَلَيْهِ وَالْمُظْلُوبَ تَذَكُّرُهُ دَوَامًا، هُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ
(البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعَانِدِينَ مِنْ أَيْمَةِ
مُشْرِكِي مَكَّةَ وَكِبَرَائِهِمْ:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ ﴿٦٦﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٦٧﴾

أي: لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَيْمَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ مَعْذُورِينَ فِي عَدَمِ
إِيمَانِهِمْ، بَلْ هُمْ غَارِقُونَ فِي أَوْ حَالِ التَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، مَعَ ظُهُورِهِ لَهُمْ،
وَعِلْمِهِمْ بِصِدْقِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَهْمَا مَكَّرُوا وَكَادُوا فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ
وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ، فَهُوَ قَدْ يُمَهِّلُهُمْ لِيَقْطَعَ كُلَّ أَعْذَارِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ غَيْرُ
مَتْرُوكِينَ، وَغَيْرُ مُفْلَتِينَ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ وَانْتِقَامِهِ، فَهُوَ مُحِيطٌ بِهِمْ بِعِلْمِهِ،
وَسُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ إِحَاطَةً تَامَةً، لَا تَدْعُ لَهُمْ مَهْرَبًا، وَلَا بُدَّ بَعْدَ حِينٍ أَنْ
يَنْصُرَ رَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ.

قول الله عز وجل لرسوله:

﴿...وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ...﴾ (٦٠)

هذا البيان من الآية يشتمل على القضيتين الثالثة والرابعة، اللتين أثار عليهما كبراء المشركين وأئمتهم ضجيجاً إعلامياً. بُغِيَة الصّدِّ عَنْ تَصْدِيقِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، والتأثير على بعض الذين آمنوا وَلَمْ يَتَغَلَّغْ بِعَدُوِّ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ

فالقضية الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾.

الرُّؤْيَا: هي مَا أَرَى اللهُ رَسُولُهُ مِنْ آيَاتِهِ لَيْلَةَ أُسْرَى بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَعَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَالِى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَكَانَتْ رُؤْيَاً بَصَرِيَّةً، وَسَمِعَ مَعَهَا كَلَامَ رَبِّهِ وَخِياً مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ لَيْلَتَهُ سَمِيعاً بَصِيراً.

الأكثر في استعمال كلمة «الرُّؤْيَا» لِمَا يُرَى فِي الْمَنَامِ مِنْ حُلُمٍ، وَلَكِنْ تُسْتَعْمَلُ كَلِمَةُ «الرُّؤْيَا» عِنْدَ الْعَرَبِ لِمَا تَرَاهُ الْعَيْنُ فِي الْيَقَظَةِ.

قال ابن بَرِّي: وَقَدْ جَاءَ «الرُّؤْيَا» فِي الْيَقَظَةِ، قَالَ الرَّاعِي^(١):

فَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَشَّ فُؤَادُهُ وَبَشَّرَ نَفْساً كَانَ قَبْلُ يَلُومُهَا

وظاهرُ أَنَّ الرُّؤْيَا هُنَا بَصَرِيَّةٌ فِي الْيَقَظَةِ لَا فِي الْحُلُمِ، وَعَلَيْهِ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي فِي بَدْرِ بْنِ عَمَّارٍ:

مَضَى اللَّيْلُ وَالْفُضْلُ الَّذِي لَكَ لَا يَمْضِي وَرُؤْيَاكَ أَخْلَى فِي الْعُيُونِ مِنَ الْغُمُضِ
الْغُمُضُ: النُّومُ.

(١) انظر لسان العرب لابن منظور، مادة (رأى).

وَنُقِلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الرُّؤْيَا فِي الْآيَةِ هُنَا هِيَ رُؤْيَا عَيْنِ أَرِيهَا
النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

فالمعنى: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ لَيْلَةَ أُسْرَيْنَا بِكَ مِنَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَعَرَجْنَا بِكَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَسْذَرَةُ
الْمُنْتَهَى، وَمَا جَعَلْنَا أَمْرَنَا لَكَ بِالْحَدِيثِ عَنْ هَذِهِ الْمَنَّةِ الْعَظِيمَةِ، إِلَّا فِتْنَةً
(أي: امْتِحَانًا وَابْتِلَاءً) لِلنَّاسِ.

وَيُظْهَرُ أَنَّ هَذَا الْامْتِحَانَ فِي الَّذِينَ أُعْلِنُوا إِسْلَامَهُمْ وَلَمَّا يَتَغَلَّغِلِ
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، أَمَّا الَّذِينَ كَانُوا مُؤْمِنِينَ حَقًّا فَيَزِدَادُونَ إِيْمَانًا، وَأَمَّا
الْكَافِرُونَ فَيَزِدَادُونَ كُفْرًا، وَيَجِدُونَ ذَرِيعَةً يَتَذَرَّعُونَ بِهَا لِفِتْنَةِ النَّاسِ وَصَدِّهِمْ
عَنِ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ، إِضَافَةً إِلَى ذَرَائِعِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَتَذَرَّعُونَ بِهَا، وَهِيَ
ذَرَائِعٌ بَاطِلَةٌ.

والقضية الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي
الْقُرْآنِ﴾: هِيَ شَجَرَةُ الرَّقُومِ، الَّتِي سَبَقَ فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ أَنْ جَاءَ ذِكْرُهَا
فِي سُورَةِ (الْوَاقِعَةِ/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ⑤١ لَا كَلِمَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ⑤٢ فَمَالَتُونَ
مِنْهَا الْبَطُونَ ⑤٣ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ⑤٤ فَشَرِبُوا شُرْبَ الْهَلِيمِ ⑤٥ هَذَا نُزُلُهُمْ
يَوْمَ الدِّينِ ⑤٦﴾:

وقد سبق في سورة (الواقعة) تدبر هذه الآيات، وفي الملحق الثاني
من ملاحق تدبرها تدبر النصوص القرآنية الواردة بشأن شجرة الرقوم، وهي
ثلاثة نصوص:

الأول: الآيات من (٤٩ - ٥٦) من سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦

نزول).

الثاني: الآيات من (٦٢ - ٦٨) من سورة (الصفّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

الثالث: الآيات من (٤٣ - ٥٠) من سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول).

وجاء في نص سورة (الصفّات) بيان أنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم وكون هذه الشجرة تخرج في أصل الجحيم هو طرد لها وإبعاد عن كلّ تَنَزَّلَاتِ رَحْمَاتِ اللَّهِ، فهي مَلْعُونَةُ الذَّاتِ، أي: مَطْرُودَةٌ إِلَى قَاعِ الجحيم، لأنّها هنالك طَعَامُ الأَئِيمِ، وطلّعها كأنّه رؤوس الشياطين، لقد أُبْعِدَتْ كما أُبْعِدَ المَعْدَبُونَ بالأكل منها، فَهُمْ فِي الجَحِيمِ عَلَى دَرَكَاتِهِمْ مِنْهَا.

فالمعنى: وجعلنا الشجرة الملعونة المَطْرُودَةَ إِلَى أَصْلِ الجحيم على ما أَتَى فِي الْقُرْآنِ فِتْنَةً لِلنَّاسِ أَيْضًا.

وجاء التّصريحُ بِكَوْنِهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ، فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصفّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ (٦٢) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (٦٣) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (٦٥) ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا قَمَالُونَ﴾ (٦٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (٦٨):

﴿فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾: أي: عذاباً للظالمين في دار العذاب يوم الدين.

وَحَتَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَتَ هَذَا الْفَصْلِ السَّابِعِ مِنَ الدَّرْسِ التَّاسِعِ مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿... وَنُحُوفُهُمْ قَمًا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُفَيْنَا كَبِيرًا﴾ (٦٩):

أي: وَنُحُوفُ هَؤُلَاءِ الْمَعْنِيِّينَ بِالْعِلَاجِ، وَهُمْ أُمَّةٌ مُّشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ

التَّنْزِيلِ، بِالْمَخَوْفَاتِ مِنَ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَمَا يَزِيدُهُمْ تَخْوِيفَنَا إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا.

الطُّغْيَانُ: هُوَ تَجَاوُزُهُمُ الْحُدُودَ الْمَعْتَادَةَ فِي أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْفُجُورِ، وَغُلُوَّهُمْ فِي مَعَادَاتِ الْحَقِّ، وَمُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ، وَمَحَاوَلَةِ إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَصَدُّ النَّاسِ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ الْمَجِيدِ.

وَالْكِبَرُ وَضْفٌ يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَادِّيَّاتِ وَفِي الْمَعْنَوِيَّاتِ بِالتَّوَسُّعِ اللَّغْوِيِّ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس التاسع من دروس سورة (الإسراء).

والحمد لله على معونته ومدِّه وتوفيقه وفتحه.



(١٤)

التدبر التحليلي للدرس العاشر من دروس سورة (الإسراء)
الآيات من (٦١ - ٦٥).

قال الله عز وجل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَأَيَّ جَهَنَّمَ جَزَأُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۖ ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْرَزَ مِنْهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ وَاجْلَبَ عَلَيْهِمْ يُحْيِيكَ وَرَحْلَكَ وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۖ ﴿٦٥﴾﴾

القراءات:

٦١ - • قرأ أبو جعفر: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا] بضم التاء في الوصل

مراعاة لضم الجيم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالكسر: [لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا].

٦٢ - • أثبت ياء المتكلم في: [أَخْرَجْنِي] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، في الوصل، وابن كثير، ويعقوب، في الوصل والوقف.
ولم يُثبتها باقي القراء العشرة، فقالوا: [أَخْرَجْنِي] في الوصل والوقف.
وحذف ياء المتكلم كثير في العربية.

٦٤ - • قرأ حفص: [وَرَجَلِكْ] بكسر الجيم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان الجيم: [وَرَجْلِكَ].
الرَّجُلُ: اسم جمع الرجل الماشي على رجليه. ويظهر أن كسر الجيم لغة جاءت في رواية حفص عن عاصم.

تمهيد:

هذا الدرس يَعرِضُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيه لِقِطَّةً من إباء إبليس أن يَسْجُدَ لآدم، وذَرِيعَتِهِ في رَفْضِهِ أن يَسْجُدَ لَهُ، وإِعْلَانِهِ بوقاحة إلزام نَفْسِهِ بأن يُغْوِيَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ، سَائِقاً لَهُم إلى شَقَائِهِم الأبديِّ، إِذَا أَخْرَهُ رَبُّهُ وَلَمْ يُمِثَّهُ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مع بيانِ بَعْضِ خُطَيِّهِ في الإغواء، وبيان ما رَدَّ اللهُ به عليه.

التدبر التحليلي:

سبق في الملحق الرابع من ملاحق تدبر سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) تدبر التصوص القرآنية المتعلقة بِخَلْقِ آدَمَ وما رَافَقَهُ من أحداث، تدبراً تكاملياً، ومنها ما جاء من آيات في هذا الدرس، ولهذا فإنني اقتصَرُ هُنَا عَلَى تدبر فقرات هذا الدرس.

قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾ ﴿١٦﴾

أي: وضع في ذاكرتك أيها المتلقي أيًا كُنت، هذه القضايا التي نُحَدِّثُكَ بها، من الأحداث التي جَرَتْ وَفَتْ قَوْلَنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، بَعْدَ أَنْ قَالُوا: ﴿... أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...﴾ [البقرة] وَبَعْدَ أَنْ أَجْرَيْنَا بَيْنَ آدَمَ وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ مُبَارَاةَ الْعِلْمِ، فَسَجَدُوا كُلُّهُمْ جَمِيعاً إِلَّا إِبْلِيسَ، فقد كان من الجن وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَفَسَقَ خَارِجاً عَنِ أَمْرِ رَبِّهِ، إِذْ أَمَرَهُ بالسُّجُودِ مع الملائكة.

قول الله عز وجل حكاية لمعنى ما قاله إبليس في بغض مواقفه:

• ﴿... قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾: استفهام استنكاري فيه معنى الكبر العنصري، افتخاراً بالنار التي خُلِقَ منها، واحتقاراً للطين الذي خُلِقَ مِنْهُ آدَمَ.

أي: لا يليق بي وأنا المخلوق من نارٍ أَنْ أَسْجُدَ لِلَّذِي خَلَقْتَهُ أَوَّلَ مَا خَلَقْتَهُ طِيناً من تراب وماء، ولَمَّا سَوَّيْتَهُ نَفَخْتَ فِيهِ الرُّوحَ وَجَعَلْتَهُ كَائِناً حَيّاً، وَأَرَدْتَ أَنْ تُفَضِّلَهُ عَلَيْنَا، فَأَمَرْتَنَا بالسُّجُودِ لَهُ، إِنِّي لَا أَسْجُدُ لَهُ مع السَّاجِدِينَ لَهُ من مَلَائِكَتِكَ.

ويظهر لي - كما سبق بيانه في التدبر التكاملي - أَنَّ إبليس قال هذا الكلام في نفسه، مُوجَّهاً خِطَابَهُ لِرَبِّهِ حِينَ أَبَى أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ.

قول الله عز وجل حكاية لمعنى ما قاله إبليس بعد جلسات محاكمته في جوارِ جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، كما ظهر لي في التدبر التكاملي.

• ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾:

خاطب إبليس اللعين رَبَّهُ مُعْتَرِضاً عَلَيْهِ بِوَقَاحَةِ قَائِلِهِ لَهُ:

﴿أَرَأَيْتَكَ﴾: أي: أَرَأَيْتَ نَفْسَكَ وَمَا فَعَلْتَ إِذْ كَرَّمْتَ عَلَيَّ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ التَّكْرِيمَ، لِأَنَّكَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ.

ويمكن أن نعتبر الكاف مُؤَكِّدَةً للخطاب الذي دَلَّتْ عليه تاءُ المخاطب، ولكنَّ التقدير الأولُ أَرْجَحُ فيما أَرَى.

﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾: هَذِهِ الْعِبَارَةُ بَدَلٌ مِنْ كَافِ الْخِطَابِ فِي ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ وَالْمَشَارُ إِلَيْهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿هَذَا﴾ هُوَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاسْتَعْمَلَ إِبْلِيسُ اسْمَ الْإِشَارَةِ لِلْمَشَارِ إِلَيْهِ الْمَفْرَدِ لِشُعْرِهِ بِاحْتِقَارِهِ لِآدَمَ.

﴿كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾: أي: جَعَلْتَهُ أَكْرَمَ مِنِّي، وَفَضَّلْتَهُ عَلَيَّ.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾: اللَّامُ فِي ﴿لَئِنْ﴾ وَاقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَحذُوفٍ، وَتُسَمَّى مُوَطَّئَةً لِلْقِسْمِ.

والمعنى: أَقْسِمُ لَئِنْ أَمَهَّلْتَنِي فِعْلاً، فَأُبْقِيَنِي حَيًّا كَمَا وَعَدْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ يَوْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بِقِيَامِهَا ظُرُوفُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَبَأَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَنَبَأَ الْبُعْثِ لِلْحِسَابِ، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزُ الْجَزَاءِ، قَدْ كَانَ مَعْلُومًا لِلْجَنِّ، إِذْ إِبْلِيسُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ، وَكَانَ مَعْلُومًا حَتْمًا لِلْمَلَائِكَةِ، وَأَنَّ الْجَنِّ كَانُوا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْإِنْسِ.

والفعل فِي ﴿أَخَّرْتَنِ﴾ هُوَ فِعْلُ الشَّرْطِ فِي عِبَارَةِ ﴿لَئِنْ﴾.

﴿...لَأَخْنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٧): الْفِعْلُ فِي ﴿لَأَخْنِكَ﴾

جَوَابُ الشَّرْطِ. الْمَعْنَى: لَأَضَعَنَّ اللَّجْمَ فِي أَخْنَاكِ ذُرِّيَّةَ آدَمَ، كَمَا تُوضَعُ اللَّجْمُ فِي أَخْنَاكِ الدَّوَابِّ، لِتَطْوِيعِهَا وَقِيَادَتِهَا أَوْ سَوْقِهَا إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ مَطْوَعُهَا.

فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ اسْتِعَارَةٌ مَكْنِيَّةٌ، إِذْ شَبَّهَ إِبْلِيسُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ بِالدَّوَابِّ الَّتِي

تَطَوُّعٌ لِلرُّكُوبِ وَالْقِيَادَةِ وَالسَّوْقِ، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِلَفْظِ الدَّوَابِّ، بَلْ جَاءَ بِشَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهَا يُدَلُّ عَلَيْهَا، وَهُوَ اخْتِنَاكُهَا لِتَطْوِيعِهَا.

يقال لُغَةً: «اخْتَنَكَ صَاحِبُ الدَّابَّةِ دَابَّتَهُ» أَي: وَضَعَ الْحَبْلَ أَوْ اللَّجَامَ فِي حَنَكِهَا لِيَطَوِّعَهَا لِلرُّكُوبِ، وَالْقِيَادَةِ وَالسَّوْقِ.

فالمعنى: لَأَجْعَلَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ كَالدَّوَابِّ الَّتِي تَطَوُّعُ بِوَضْعِ اللَّجْمِ فِي أَحْنَاكِهَا، وَلَأَسِيرَتَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عُصَاةَ لَكَ، وَلَأَنْقُلَنَّهُمْ خُطْوَةَ فَخْطْوَةٍ، حَتَّى أَوْصَلَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لِي مِنْهُمْ إِلَى دَرَكَةِ الْكَافِرِينَ الْمَجْرِمِينَ، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ الْأَبَدِيَّ الْخَالِدَ فِي الْجَحِيمِ.

وَاسْتَشْنَى إِبْلِيسُ فَقَالَ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: مُرِيدًا بِالْقَلِيلِ مَنْ لَا يَتَأَثَّرُ بِوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ مُطْلَقًا وَهُمْ الْمُحْسِنُونَ، وَالْأَبْرَارُ، وَكَامِلُوا التَّقْوَى، وَهُمْ الْمُخْلِصُونَ وَالْمُخْلِصُونَ، كَمَا جَاءَ فِي التَّصْوِصِ الْآخَرِ.

قول الله عز وجل حكاية لما ردَّ به جلَّ جلاله على إبليس اللعين:

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ٦٢﴾
وَاسْتَفْزَزَ مِنْ أَهْلِهَا مَنْ أَتَتْهُمْ مِنْهُمْ بَصَوْتِكَ وَأَلْجَبَ عَلَيْهِمْ بِحَبْلِكَ وَرَجَّلَهُمْ فِي الْأَنْمَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ٦٣ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٤﴾

أَي: أَذْهَبَ فَأَنْتَ مُمَكِّنٌ مِمَّا أَعْدَدْتَ نَفْسَكَ لِلْقِيَامِ بِهِ مِنْ إِغْرَاءٍ وَإِعْوَاءٍ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ يُلْغِي إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، فَمَنْ تَبِعَكَ فِي كُفْرِكَ وَتَمَرَّدَكَ عَلَى طَاعَتِي وَحُقُوقِ رُبُوبِيَّتِي لَهُ، وَحُقُوقِ إِلَهِيَّتِي مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، فَإِنَّ عَذَابَ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَمِيعًا حَالَهُ كَوْنِهِ جَزَاءً مَوْفُورًا، أَي: كَثِيرًا وَاسِعًا، يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ جَزَاءً بِالْعَدْلِ فِيهَا.

ولله - جلَّ جلاله وعظم سلطانه - حِكْمَةٌ بِالْعَةِ فِي هَذَا التَّمَكِينِ لِإِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ مِنَ الْإِغْرَاءِ وَالْإِعْوَاءِ، بِالْوَسْوَسَةِ وَالتَّسْوِيلَاتِ وَاسْتِثَارَةِ

الأنواء والشهوات، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ يُؤْتَرُونَ فِيهِ بِالْجَبْرِ عَلَى
المَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ.

وَهَذِهِ الْحِكْمَةُ تَظْهَرُ لَنَا حِينَمَا نَذْرُكُ أَنَّ إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، تَكُونُ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِنْدَ الْإِشَارَةِ الْمَتَوَسِّطَةِ تَمَامًا، بَيْنَ طَرِيقِ الْخَيْرِ، وَطَرِيقِ الشَّرِّ،
بَيْنَ نَجْدِ الْخَيْرِ وَالْهُدَى وَمَنْطِقِ الْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالرُّشْدِ، مِنْ جِهَةِ الْيَمِينِ،
مَعَ الْإِغْرَاءِ بِالسَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجَلَةِ، وَالْخُلُودِ الْأَبَدِيِّ فِي جَنَاتِ
النَّعِيمِ، وَالْخَلَاصِ وَالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ، وَبَيْنَ نَجْدِ الشَّرِّ وَالضَّلَالِ
وَزِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَمُغْرِبَاتِهَا الْعَاجِلَاتِ، وَمَعَهَا زُخْرُفُ
وَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلَاتِهِمْ، وَإِطْمَاعِهِمْ بِالْبَاطِلِ، وَوَعُودِهِمُ الْكَاذِبَاتِ،
وَحُجَجِهِمُ الْبَاطِلَاتِ، مَغْلَقَةً بِتَحْقِيقِ عَاجِلِ الْأَنْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ.

وَبِهَذَا يَتِمُّ التَّكَافُؤُ بَيْنَ جَوَادِبِ طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَجَوَادِبِ طَرِيقِ
الشَّرِّ وَالضَّلَالِ، فِي التَّأثيرِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

وَعِنْدئذٍ تَكُونُ الْإِرَادَةُ الْمُقْتَرَنَةُ بِالْقُوَّةِ الْإِذْرَاكِيَّةِ الْوَاعِيَّةِ، فِي الْمَخْلُوقِ
الْمُمْتَحَنِ هِيَ الْمَرْجُوحَةُ فِي السَّيْرِ فِي طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالْهُدَى، أَوِ السَّيْرِ فِي
طَرِيقِ الشَّرِّ وَالضَّلَالِ، خِلَالَ رِحْلَةِ الْامْتِحَانِ، فِي مَسِيرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَالْتَمَكِينُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - لِإِبْلِيسَ
وَجُنُودِهِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ جَبْرِيٌّ عَلَى الْعِبَادِ الْمَوْضُوعِينَ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، يَتَلَخَّصُ بِأَرْبَعَةِ مَجَالَاتٍ:

المَجَالُ الْأَوَّلُ: المَجَالُ الْإِغْلَامِيُّ الدَّعَائِي، بِالْوَسَاوِسِ وَالتَّسْوِيلَاتِ
وَأَنْوَاعٍ لَا تُخَصَّرُ مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا الْمَجَالِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ مِنْ دُرُوسِ
السُّورَةِ، لِإِبْلِيسَ اللَّعِينِ:

﴿... وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ...﴾ ﴿٦٤﴾:

﴿وَأَسْتَفْزِرْ﴾: أي: واعْمَلْ بِوَسَائِلِكَ الصَّوْتِيَّةِ الإعلَامِيَّةِ، لِتَسْتَفِزَّ بِهَا مَنْ تَسْتَخِفُّ مِنْهُمْ، فَتَنْهَضُهُ مِنْ مَكَانٍ اسْتَفْرَارِهِ، وَتَجْعَلُهُ يَتَّبِعُكَ بِحِمَاقَةٍ وَرُغْوَةٍ.

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَفَزَّ الْخَوْفُ فَلَانًا» أي: اسْتَخَفَّهُ فَأَنْهَضَهُ. ويقال: «اسْتَفَزَّ الْمَنَادِي قَوْمَهُ» أي: أَثَارَهُمْ وَأَزْعَجَهُمْ بِندائِهِ، وَجَعَلَهُمْ يَنْهَضُونَ وَيَنْشَطُونَ لِتَلْبِيَةِ النِّدَاءِ. ويقال: «اسْتَفَزَّهُ» أي: اسْتَخَفَّهُ بِالْمَخِيفَاتِ وَالْمَفْزَعَاتِ، وَاسْتَخْرَجَهُ وَخَتَلَهُ حَتَّى أَلْقَاهُ فِي مَهْلَكَةٍ.

ومن الملاحظ أنَّ شياطينَ الْإِنْسِ الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ بِالْإِيحَاءِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ تَعْلِيمَاتِهِمْ، وَيُضَيِّقُونَ إِلَيْهَا إِضَافَاتٍ لَا يَسْتَطِيعُهَا أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْجَنِّ، قَدْ اسْتَخْدَمُوا فِي هَذَا الْعَصْرِ وَسَائِلَ الْإِعْلَامِ الْمُخْتَلِفَةِ، لِلْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ وَالتَّضْلِيلِ، وَالْإِخْرَاجِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالسَّوْقِ إِلَى سُبُلِ الْجَحِيمِ، وَهِيَ جَمِيعُهَا تَدْخُلُ تَحْتَ عِنَاوَانِ «الاسْتِفْزَازِ الصَّوْتِي».

وَيَدْخُلُ فِي الْاسْتِفْزَازِ الصَّوْتِيِّ كُلُّ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمَسْمُوعَةِ وَالْمَقْرُوءَةِ وَالْمَشَاهِدَةِ، إِذِ الْقَاعِدَةُ الْأُولَى لِكُلِّ ذَلِكَ: زُخْرُفُ الْقَوْلِ الَّذِي يُطْلَقُ بِالصَّوْتِ.

المَجَالُ الثَّانِي: جَمْعُ الْجُنُودِ وَالْأَعْوَانِ وَالْأَنْصَارِ، وَاسْتِخْدَامُهُمْ فِي الْإِغْرَاءِ وَالْإِغْوَاءِ، مِنْ شَيَاطِينِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ.

دَلَّ عَلَى هَذَا الْجَمْعِ لِلْجُنُودِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ خُطَاباً لِإِبْلِيسَ اللَّعِينِ:

﴿...وَأَجَلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيْلِكَ وَرَجِلِكَ...﴾ (٦٤):

﴿وَأَجَلِبْ﴾: أي: وَاجْمَعْ - يُقَالُ لُغَةً: «أَجَلَبَ الْعَدُوُّ عَلَى عَدُوِّهِ» أي: جَمَعَ جُنُودَهُ وَأَنْصَارَهُ وَأَعْوَانَهُ، لِتَحْقِيقِ غَايَتِهِ.

﴿يَحْيِكَ﴾: أي: مُتَقَوِّياً بِحَيْلِكَ، وَذَكَرُ الْخَيْلِ كِنَايَةً عَنِ الْفُرْسَانِ،
أي: مُتَقَوِّياً بِفُرْسَانِكَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْخِيُولِ.

﴿وَرَجَلِكَ﴾ فيها قراءتان: بِإِسْكَانِ الْجِيمِ، وهو المنصوصُ عَلَيْهِ فِي
كُتُبِ اللَّغَةِ، وَبِكَسْرِ الْجِيمِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ حَفْصٍ عَنْ عَاصِمٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ
تَكُونَ لُغَةً فِي الْكَلِمَةِ. أي: وَمُتَقَوِّياً بِالْجُنُودِ الْمَشَاةِ عَلَى أَرْجُلِهِمْ.

وَقَدْ كَانَتْ جُيُوشُ الْمُحَارِبِينَ تَتَأَلَّفُ مِنْ مُقَاتِلِينَ فُرْسَانٍ، يَمْتَلِطُونَ
الْخِيُولَ، وَيُقَاتِلُونَ وَهُمْ عَلَى ظُهُورِهَا، وَهُمْ الْقُوَّةُ الْأَشَدُّ، وَمِنْ مُقَاتِلِينَ
رِجَالٍ يَمْشُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ، يُقَاتِلُونَ حِينَما تَلْتَحِمُ الصُّفُوفُ.

وَالْمَعْنَى: وَاجْمَعْ لِتَحْقِيقِ مَا عَزَمْتَ عَلَيْهِ مِنْ إِغْرَاءٍ وَإِغْوَاءٍ كُلَّ مَا
تَسْتَطِيعُ جَمْعُهُ مِنْ قُوَّاتٍ تُسَاعِدُكَ وَتُعِينُكَ.

فِعْبَارَةٌ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِحَيْلِكَ وَرَجَلِكَ﴾ كِنَايَةٌ عَنْ تَمْكِينِهِ مِنْ جَمْعِ كُلِّ
مَا يَسْتَطِيعُ جَمْعُهُ مِنْ قُوَّاتٍ تَنْتَشِرُ فِي الْأَرْضِ لِإِغْرَاءِ النَّاسِ وَإِغْوَائِهِمْ
وَإِضْلَالِهِمْ، وَسَوْقِهِمْ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَعَذَابِهِ.

وَمِنْ الْمَلَا حِظَ أَنَّ جُنُودَ إِبْلِيسَ مِنَ الْإِنْسِ يَجْمَعُونَ قُوَّاتٍ عَظِيمَةً
وَكَثِيرَةً، وَيَبْذُلُونَ فِي جَمْعِهَا أَمْوَالاً كَالْجِبَالِ، لِلْقِيَامِ بِأَعْمَالِ الْإِغْرَاءِ
وَالْإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ، لِلْإِبْعَادِ عَنِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، وَإِخْرَاجِ سَالِكِيهِ
مِنْهُ.

المَجَالُ الثَّالِثُ: مُشَارَكَةُ النَّاسِ فِي كَسْبِ أَمْوَالِهِمْ، وَاسْتِيلَادِ
أَوْلَادِهِمْ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْمَشَارَكَةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ خُطَاباً
لِإِبْلِيسَ اللَّعِينِ:

﴿... وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ...﴾

إِنْ مُشَارَكَةً إِبْلِيسَ لِلنَّاسِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، تَكُونُ بِإِضْلَالِهِمْ حَتَّى يُطَبِّقُوا مَا يَصْعُقُهُ لِهِمْ مِنْ مَذَاهِبٍ وَأَفْكَارٍ وَإِبَاحِيَّاتٍ لِكَسْبِ الْأَمْوَالِ، وَالْأَوْلَادِ.

فهو يُغْرِيهُمْ أَنْ يَأْكُلَ بَعْضُهُمْ أَمْوَالَ بَعْضٍ بِالْبَاطِلِ، ظُلْمًا وَعُدْوَانًا بِمُخْتَلَفٍ وَسَائِلِ اللَّصُوصِيَّةِ، وَالسَّلْبِ، وَالنَّهْبِ، وَالْغَشِّ، وَالتَّطْفِيفِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَحَتَّى يَسْتُوا قَوَانِينَ طَاغُوتِيَّةً تُخَالِفُ شَرِيعَةَ اللَّهِ وَأَحْكَامَهُ لِعِبَادِهِ.

وَمِنْ أَمْثَلَةٍ هَذِهِ الْمَشَارَكَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي النَّاسِ، الْبُنُوكُ الرَّبَوِيَّةُ، الَّتِي يُغْرِى شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ النَّاسَ بِالتَّعَامُلِ عَنْ طَرِيقِهَا، حَتَّى أُمْسَتْ أَمْوَالُ مَعْظَمِ النَّاسِ فِي أَيْدِي أَصْحَابِ هَذِهِ الْبُنُوكِ، يَتَصَرَّفُونَ بِهَا عَلَى مَنَاجِإِ إِبْلِيسَ، وَهَذِهِ مِنْ مُشَارَكَةِ الشَّيْطَانِ، بِمَنَاجِإِهِ لِلنَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ.

وَمِنْ أَمْثَلَتِهَا أَيْضاً الْمَضَارِبَاتُ الْمَحْرَمَةُ، وَالِاحْتِكَارَاتُ، وَالْغَشُّ، وَأَنْوَعُ الْقِمَارِ، وَقَرَارَاتُ التَّامِيمِ الْإِشْرَاقِيَّةِ وَالرَّشَوَاتُ وَالسَّرَقَاتُ.

وَقَدْ صَارَ الشَّيْطَانُ إِبْلِيسُ اللَّعِينُ شَرِيكاً لِلنَّاسِ بِمَنَاجِإِهِ الْمَخَالِفَةِ لِصِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، فِي مَعْظَمِ أَعْمَالِ كِتْسَابِ الْمَالِ وَجَمْعِهِ وَمَنْعِهِ.

وَأَمَّا مُشَارَكَةُ إِبْلِيسَ لِلنَّاسِ فِي الْأَوْلَادِ، فَتَكُونُ بِإِغْرَائِهِمْ حَتَّى يَخَالِفُوا صِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، فِيمَا يُزَيَّنُ وَيُحَسِّنُ لَهُمْ مِنْ حُبِّ الشَّهَوَاتِ الْمَحْرَمَةِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا، وَاسْتِيلَادِ الْأَوْلَادِ بِغَيْرِ مَا شَرَعَ اللَّهُ.

وَمِنْ الْمَلَاخِظِ أَنَّ دَعَوَاتِ إِبَاحِيَّةِ قَضَاءِ شَهَوَاتِ الْفُرُوجِ، دُونَ أَيِّ ضَابِطٍ دِينِيٍّ أَوْ عَقْلِيٍّ أَوْ صِحِّيٍّ أَوْ مَصْلَحِيٍّ اجْتِمَاعِيٍّ أَوْ فَرْدِيٍّ، وَانْتِشَارِ هَذِهِ الْإِبَاحِيَّةِ فِي الْعَالَمِ، بِتَأْثِيرِ الدُّعَاةِ الْمُنْتَشِرِينَ الدَّاعِينَ إِلَيْهَا حَتَّى فِي مُؤْتَمَرَاتِ تَرْعَاهَا مَوْسَسَاتٌ وَدُولٌ، قَدْ أُمْسَتْ لُغْبَةً إِبْلِيسَ وَجَنُودِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي عَالَمِنَا الْمَعَاصِرِ، وَقَدْ كَانَ لَهُمْ نَظَرَاءُ فِي مُخْتَلَفِ أُمَمِ الْأَرْضِ وَشُعُوبِهَا فِي الْعُصُورِ الْغَوَابِرِ.

وظاهرٌ أنَّ مُمارَسَاتِ النَّاسِ الْإِبَاحِيَّاتِ فِي هَذَا الْمَجَالِ هِيَ مِنْ مِشَارَكَةِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ لَهُمْ بِمَنَاجِحِهِ، فِي أَوْلَادِهِمُ الَّذِينَ يُولَدُونَ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ.

المجال الرابع: مواعيدُ إبليسَ وجُنُودِهِ للنَّاسِ الْقَائِمَةُ عَلَى التَّغْيِيرِ بِهِمْ، لاسْتِذْراجِهِمْ إِلَى مَهَالِكِهِمْ، أَوْ إِزْلَاقِهِمْ إِلَى نَكِدِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا، وَالْجِزْمَانِ مِنْ سَعَادَةِ النَّفْسِ، وَرَاحَةِ الضَّمِيرِ، ثُمَّ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ.

دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْمَوَاعِيدِ التَّغْيِيرِيَّةِ الْكَاذِبَةِ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ لِإِبْلِيسَ اللَّعِينِ.

﴿وَعَدُهُمْ﴾: أَي: وَزَيَّنَ لَهُمْ بِمَا تُقَدِّمُ لَهُمْ مِنْ وُعودٍ كاذبةٍ، الْإِيتِعَادَ عَنْ صِرَاطِ رَبِّكَ الْمُسْتَقِيمِ لِعِبَادِهِ.

وَمِنْ أَمْثَلَةِ الْمَوَاعِيدِ التَّغْيِيرِيَّةِ الْكَاذِبَةِ، إِغْرَاءُ النَّاسِ بِعُدْوَانِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، بِالْحُرُوبِ الظَّالِمَةِ الْأَثِمَةِ، بُغْيَةَ الظُّفَرِ بِأَمْوَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ، أَوْ تَوَسُّعٍ فِي الْمَلِكِ، وَتَكُونُ عَاقِبَتُهَا مَلَائِينَ الْقَتْلَى، وَخَرَابُ الْعِمْرَانِ، وَانْتِشَارُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

وَفِي تَحْذِيرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ مِنْ مَوَاعِيدِ الشَّيْطَانِ الْكَاذِبَةِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ:

﴿...وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا...﴾ ﴿٦٤﴾:

الغُرُورُ: الْخِدَاعُ وَالْإِظْمَاعُ بِالْبَاطِلِ.

أَي: وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا وَغْدًا غُرُورًا، مُحَادَعَةً وَإِطْمَاعًا بِالْبَاطِلِ.

لَفْظُ ﴿غُرُورًا﴾ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ هُوَ مَضْدَرٌ ﴿يَعِدُهُمْ﴾ وَقَدْ

جاء الوصف بالمضدِّر للمبالغة، حتَّى كأنَّ الوغدَ هو غُرُور، من شِدَّةِ مَا فيه من تغرير، ومخادعة وإطماعٍ بالباطل.

ومن أمثلة وغدِ الشيطان للإنسان أن يُوسوسَ لَهُ بأنَّ المال هو وسيلة السَّعادة في الحياة، فَيَغْتَرُّ الإنسانُ بهلْهِه الوَسْوَسةَ، فَيَشْقَى في جَمْعِ المالِ من كلِّ طريقٍ مُحَرَّمَةٍ يكون بها ظالماً أثماً مُعْتَدِياً.

ومن الأمثلة أن يُخَوِّفَ الشَّيْطَانُ الإنسانَ من البَذَلِ في وجوه الخير ابتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله، وَيُغْرِيه بالبُخْلِ لئلا يَكُونَ عَالَةً عَلَى غَيْرِهِ، وَأَنْ يُغْرِيه بالبَذَلِ الكثير في الشهوات واللذات وتحقيق الأهواء، لاغتنام مُتَعِ الحياة الدُّنيا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الموتُ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ.

ومن الأمثلة أن يَعِدَهُ بتحقيق أمانيه ومطالبِهِ من الحياة الدنيا، إِذَا انْتَمَى إلى دَوْلَةٍ كَافِرَةٍ عَظُمَى، أو انْتَمَى إلى جَمَاعَةٍ سَرِيَّةٍ خَبِيثَةٍ لَا تُؤْمِنُ بالله ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ.

إلى غير ذلك من وُعُودٍ يَضَعُ بُ تَحْدِيدِ احتمالات صُورِها.

وبعد البيان السابق أبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ لِإِبْلِيسَ في آخِرِ الحوار:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝﴾

أي: إِنَّ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَعِيزُونَ بِي، وَيَحْتَمُونَ بِحِمَايَتِي، مُؤْمِنِينَ بِي مُسْلِمِينَ لِي، لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ تُؤَثِّرُ بِهِ عَلَيْهِمْ، لِأَنِّي بَعَزْتِي وَقُدْرَتِي عَلَى مَا أَشَاءُ سَأُوقِفُهُمْ إِلَى تَحْقِيقِ نَهَايَةِ سَعِيدَةٍ، وَلَوْ ارْتَكَبُوا بَعْضَ الْآثَامِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هَذَا الْبَيَانِ مَا يَلِي:

إِنَّ عِبَادِي كُلَّهُمْ لَا أَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا جَبْرِيًّا عَلَيْهِمْ، نُلْغِي بِهِ إِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، وَلَا يَكُونُ مِنْكَ لَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ اتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ الْإِغْرَائِيَّةِ غَيْرِ الْإِكْرَاهِيَّةِ وَلَا الْجَبْرِيَّةِ.

وعبارة: ﴿...وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ﴿١٥﴾ ذات عدّة أهداف:

الهدف الأول: التلويح لإبليس بالانتقام الشديد إذا حاول تجاوزَ حدود الإغراء والإغواء بما مكنه الله منه، فربّه له بالمرصاد.

الهدف الثاني: توصية المؤمنين بأن يتوكلوا على ربهم، ليحييهم من إغواء الشياطين، فمن توكل على الله كفاه، فصانه وحماه.

الهدف الثالث: التذكير بعنصر من عناصر القاعدة الإيمانية، وهو أن الله عليم قدير حكيم، لا يجري شيء في الكون إلا بتقديره، أو تمكينه وإذنه، فإذا علم صحة إيمان عبده، وصدقته، وتوكله عليه، وفقه للعمل بمراضيه لأنه وليه.

التوكل على الله: الاستسلام إليه، وتفويض تدبير الأمور إليه، لتحقيق ما يرجو المتوكل، مع القيام بالأسباب المستطاعة المادية والمعنوية طاعة لله. الباء في: ﴿بِرَبِّكَ﴾ زيدت لتوكيد أن الله كفى وكيلاً، والأصل: كفى ربك.

وجاء الخطاب في العبارة بأسلوب الخطاب الإفرادي ليشعر كل مخاطب أنه موجه له من ربه جلّ جلاله وعظم سلطانه.

وبهذا انتهى تدبر الدرس العاشر من دروس سورة (الإسراء). والحمد لله على مدّهِ ومعنوته وتوفيقه.



(١٥)

التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دروس سورة (الإسراء)
الآيات من (٦٦ - ٧٠)

قال الله عز وجل:

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ

يَكُم رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا بَلَغَكُمُ إِلَى
 الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ
 عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وُكَيْلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً
 أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا
 بِهِ إِلْمًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾:

القراءات:

٦٨ و ٦٩ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بنون المتكلم العظيم في

الأفعال التالية:

[نُخْسِفَ - يُرْسِلَ - يُعِيدُكُمْ - فَيُغْرِقُكُمْ].

وقراها رؤيس عن يعقوب، وأبو جعفر بخلف عن ابن وردان:

[يُخْسِفَ - يُرْسِلَ - يُعِيدُكُمْ - فَيُغْرِقُكُمْ].

وقراها باقي القراء العشرة: [يُخْسِفَ - يُرْسِلَ - يُعِيدُكُمْ - فَيُغْرِقُكُمْ].

فَيُغْرِقُكُمْ] بالياء.

ومؤدّى هذه القراءات واحد، وفيها تَفَنُّنٌ في الأداء البياني - وزيادة

تَرْهيب في قراءة: [فَيُغْرِقُكُمْ].

٦٩ - • قرأ أبو جعفر: [مِنَ الرِّيحِ] بالجمع وهو يَدُلُّ على تَعَدُّدِ

أنواعها.

وقراها باقي القراء العشرة: [مِنَ الرِّيحِ] بالإنفراد، وهو يَدُلُّ على

الجنس. ومؤدّى القراءتين واحد.

تمهيد:

هذا دَرَسٌ يَكْشِفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ أَنَّ النَّاسَ يَلْجَأُونَ إِلَى رَبِّهِمْ عِنْدَ

المخاوفِ والضُّرُوراتِ الشَّدِيدَاتِ، فَإِذَا كَشَفَ عَنْهُمْ الضُّرَّ مُسْتَجِيبًا
لَاذَعِيَّتِهِمْ أَعْرَضُوا، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، مَعَ
أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ كَرَّمَهُ.

وفيه معالجة للناسِ تجاه هذه الصِّفَةِ الذَّمِيمَةِ فيهم، النَّاتِجَةُ عَنْ
اختيارهم الحرِّ، لِيَتَهَرَّبُوا مِنْ تَأْدِيَةِ وَاجِبِ الشُّكْرِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل خطاباً للناس جميعاً:

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ
يَكُم رَحِيماً ۝٦٦﴾:

﴿يُزَيِّجُ﴾: أي: يَسُوقُ، أَوْ يَدْفَعُ، بِرَفْقٍ وَيُسْرٍ وَاسْتِقَامَةٍ. يقال لغة:
«زَجَا فلانُ الشيءَ يَزْجُوهُ، زَجَوْا، وَزَجَّوْا، وَزَجَّاءٌ. وَأَزْجَاهُ يُزْجِيهِ»: أي:
سَافَهُ بِرَفْقٍ، وَدَفَعَهُ.

﴿الْفَلَكَ﴾: مَرْكَبُ الْبَحْرِ، يَطْلُقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَغَيْرِهِ، وَيُذَكَّرُ وَيُؤنَّثُ،
فيقال: هو الفلك، وهي الفلك.

﴿لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾: أي: لَتَطْلُبُوا أَرْزَاقَكُمْ وَغَيْرَهَا مِمَّا تَحْتَاجُونَ
إِلَيْهِ مِنْ دُنْيَاكُمْ، مِنْ فَضْلِ رَبِّكُمْ الَّذِي يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ، إِذْ كُلُّ
مَا تَنَالُونَهُ بِكُسْبِكُمْ، مِمَّا تَجِدُونَ فِيهِ خَيْراً لَكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ، هُوَ
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ يَكُم رَحِيماً﴾: أي: إِنَّهُ رَحِيمٌ بِكُمْ دَوَاماً، وَتَفَضَّلُهُ عَلَيْكُمْ هُوَ
مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ، وَالْجُمْلَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى التَّعْلِيلِ لِمَا يَتَفَضَّلُ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ.

فعل «كان» هنا يَدُلُّ عَلَى الْكَيْنُونَةِ الدَّائِمَةِ، وَهُوَ بِمَاثِبَةِ فِعْلِ مُؤَكَّدٍ
لِلْإِسْنَادِ فِي الْجُمْلَةِ.

فالمعنى: رَبُّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الَّذِي يُهَيِّمُنْ عَلَيْكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، المتصرفَةِ بِكُمْ وبالكَوْنِ كُلِّهِ، فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، وَزِيَادَةٍ أَوْ نَقْصٍ، وَتَغْيِيرٍ أَوْ تَحْوِيلٍ، هُوَ الَّذِي يَسُوقُ لَكُمْ بِرَفْقٍ مَرَائِبَكُمْ الْبَحْرِيَّةَ، حِينَ تَسْتَخْدِمُونَهَا فِي تَنْقَلَاتِكُمُ الْبَحْرِيَّةِ مُسْتَوِينَ عَلَى ظُهُورِهَا، لِتَطْلُبُوا بِاسْتِخْدَامِهَا مَطْلُوبَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ، وَهُوَ يُحَقِّقُهَا لَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ رَحِيمٌ بِكُمْ دَوَاماً فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ الَّتِي وَضَعَكُمْ فِيهَا.

جاء هذا البيان مُنْبَهًا عَلَى غُنْصِرٍ مِنْ عُنَاصِرِ الْإِيمَانِ، بِشَأْنِ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِ تَصَارِيفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَوْنِهِ، تَوْطِئَةً لِكَشْفِ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَتَرَعَّرُ بِفَضْلِ اللَّهِ الدَّائِمِ عَلَيْهِ، كَفُورٌ لِنِعَمِ رَبِّهِ عَلَيْهِ، يَلْتَجِئُ إِلَيْهِ لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِهِ، وَلَا سِيماً إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ، فَإِذَا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ الضَّرَّ أَعْرَضَ عَنْ رَبِّهِ، وَلَمْ يَغْبَأْ بِأَنْ يُؤَدِّيَ وَاجِبَ الشُّكْرِ لَهُ.

وَأَتَبَعَ اللَّهُ هَذَا الْكَشْفَ بَيَّانٍ إِقْنَاعِيٍّ حَكِيمٍ لِلْكَافُورِينَ مِنَ النَّاسِ.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ مُتَابِعاً خُطَابَ النَّاسِ:

• ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا تَجَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝١٧﴾:

• ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ...﴾: أَي: وَإِذَا اشْتَدَّتِ الرِّيَاحُ تُحَرِّكُ الْفُلَكَ يَمِينًا وَشِمَالًا وَأَنْتُمْ فِيهَا، وَاضْطَرَبَتْ أَمْوَاجُ الْبَحْرِ اضْطِرَابًا شَدِيدًا، وَخَفَّتُمْ مِنَ الْغَرَقِ.

سَمَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا مَسًّا، لِأَنَّ الضَّرَّ لَمْ يَنْزِلْ بَعْدُ، وَإِنَّمَا بَدَأَتْ أَيْدِيهِ تَمَسُّ مَسًّا يُخَافُ مِنْ بَعْدِهِ نُزُولُ الضَّرِّ بِرَاكِبِي الْفُلِكَ، إِذْ تَغْرَقُ أَوْ تَتَحَطَّمُ فَيَغْرَقُونَ.

• ﴿... ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ... ۝١٧﴾: أَي: ضَاعَ وَانْعَدَمَ كُلُّ مَدْعُوٍ تَدْعُونَهُ مِنْ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِذْ لَا أَحَدَ مِنْهَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَكُمْ،

لَأَنهَا بَاطِلَةٌ لَا حَقِيقَةَ لِإِلَهِيَّتِهَا. إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ فَهُوَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءَكُمْ، فَيَهْدِيءُ أَمْوَاجَ الْبَحْرِ، وَيُسَكِّنُ الرِّيحَ، وَيُوصِلُكُمْ إِلَى الْبَرِّ آمِنِينَ.

• ﴿... فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ...﴾ (٦٧) : أي: فَلَمَّا دَعَوْتُمْ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَاسْتَجَابَ دُعَاءَكُمْ، وَنَجَّيْكُمْ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي كُنْتُمْ تَخَافُونَ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمْ، وَأَوْصَلَكُمْ إِلَى الْبَرِّ، وَشَعَرْتُمْ بِالْأَمْنِ وَالطَّمَأْنِينَةِ عَلَى الْأَرْضِ، أَعْرَضْتُمْ عَنْ حَمْدِ رَبِّكُمْ وَشُكْرِهِ عَلَى مَا أَوْلَاكُمْ، وَتَوَجَّهْتُمْ لِمَصَالِحِكُمْ مِنْ دُنْيَاكُمْ وَأَهْوَائِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ، وَعُدْتُمْ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ اسْتِغْرَاقٍ فِي مَعْصِيَةِ رَبِّكُمْ، وَتَنَكَّبَ الصِّرَاطَ السَّوِيَّ الَّذِي أَبَانَهُ لِعِبَادِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِسُلُوكِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

﴿نَجَّيْكُمْ﴾: أي: خَلَّصَكُمْ، ضَمَّنَ هَذَا الْفِعْلُ مَعْنَى الْفِعْلِ فِي «أَوْصَلَكُمْ» فَعُدِّي تَعْدِيته، فَمَعْنَى الْعِبَارَةِ: فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ مُوصِلًا إِيَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ.

الإعراض: حَالَةٌ وَسَطَى بَيْنَ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ، وَيَكُونُ هَذَا الْإِعْرَاضُ بَانْصِرَافِ الْإِنْسَانِ عَنْ حَمْدِ رَبِّهِ، وَشُكْرِهِ بِطَاعَتِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ، وَهَذَا الْوُضْعُ قَدْ يَنْطَبِقُ عَلَى عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ.

أَمَّا عَوْدَةُ الْكَافِرِ إِلَى كُفْرِهِ بَعْدَ هَذِهِ الْحَالَةِ فَيَنْطَبِقُ عَلَيْهَا مَعْنَى الْإِدْبَارِ وَالتَّوَلَّى، وَهُمَا أَشَدُّ مِنَ الْإِعْرَاضِ، وَهَؤُلَاءِ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ مَا جَاءَ فِي الْآيَتَيْنِ (٢٢ و ٢٣) مِنْ سُورَةِ (يُونُس/ ١٠) مَحْصَف/ ٥١ (نزول) وَمَا جَاءَ فِي الْآيَتَيْنِ (٦٣ و ٦٤) مِنْ سُورَةِ (الْأَنْعَام/ ٦) مَحْصَف/ ٥٥ (نزول) وَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ (٦٥) مِنْ سُورَةِ (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩) مَحْصَف/ ٨٥ (نزول).

• ﴿... وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٨) : أي: وَالسَّبَبُ فِي الْإِعْرَاضِ أَنْ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ جَحُودٌ، أي: كَثِيرُ جُحُودِ النُّعْمَةِ، وَيُظْهَرُ لِلْمَتَفَكَّرِ أَنَّ دَافِعَهُ لَجُحُودِ نِعْمَةٍ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ يَرْجِعُ إِلَى عَامِلَيْنِ:

الأول: الْكِبَرُ، وَرَغْبَةُ الْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَكُونَ مُسْتَغْلِيًا غَيْرَ ذِي حَاجَةٍ إِلَى غَيْرِهِ، فَهُوَ لَا يُحِبُّ أَنْ يَعْتَرِفَ بِمِنَّةٍ غَيْرِهِ عَلَيْهِ.

الثاني: التَّهَرُّبُ مِنْ تَأْذِيَةِ وَاجِبِ الشُّكْرِ، لِأَنَّهُ مَتَى أَعْلَنَ اعْتِرَافَهُ بِمِنَّةِ ذِي الْمِنَّةِ، كَانَ مَسْئُولًا أَدْبِيًّا أَمَامَ النَّاسِ عَنْ شُكْرِ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنْ شُكْرِ.

كُفُور: مِنْ صَيَغِ الْمَبَالَغَةِ، أَي: كَثِيرٌ جُحُودٍ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ. وَأَقْبَحُ كُفْرِ النَّعَةِ، جُحُودُ الْإِنْسَانِ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِذْ لَا بَقَاءَ لَهُ فِي الْوُجُودِ أَوْ فِي السَّلَامَةِ إِلَّا بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُخَاطَبًا الْمُعْرِضِينَ خِطَابًا بُرْهَانِيًّا لَا مَهْرَبَ مِنْهُ:

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٧﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ نَارَةٌ أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ إِيمَانًا ۝٦٨﴾:

يُطْرَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُعْرِضِينَ عَنْ شُكْرِهِ، بَعْدَ أَنْ دَعَا فِي الْبَحْرِ إِذْ مَسَّهُمُ الضُّرُّ، فَتَجَاوَهُمُ مِنَ الْهَلَاكِ وَأَوْصَلَهُمْ إِلَى الْبَرِّ، أَسْئَلَةُ حَوْلِ عِدَّةِ اخْتِمَالَاتٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ بَوَاحِدٍ مِنْهَا الضُّرُّ الَّذِي كَانُوا قَدْ خَافُوا مِنْهُ وَهُمْ فِي الْبَحْرِ التَّائِرِ وَالرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، وَهِيَ أَخْدَاتٌ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بِقَدْرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ، وَلَمْ يَكُنْ إِيقَافُهَا وَإِسْكَانُهَا إِلَّا بِقَدْرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ.

الْاِخْتِمَالُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِمْ، فَيُهْلِكَهُمْ وَهُمْ فِي الْبَرِّ لَا فِي الْبَحْرِ، فَهَلْ هُمْ فِي أَمْنٍ مِنْ حُدُوثِ هَذَا الْخَسْفِ لَوْ شَاءَهُ اللَّهُ الْقَدِيرُ عَلَى مَا يَشَاءُ.

دَلَّ عَلَى هَذَا الْاِخْتِمَالِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ... ۝٦٧﴾ ۝٦٨ ۝٦٩:

أي: أَمَلَكْتُمْ بِقُدْرَاتِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ الْخَاصِعَ لِسُلْطَانِ الرَّبِّ وَتَصَارِيفِهِ، أَوْ أَخَذْتُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَهْدًا بِأَنْ لَا يُجْرِيَ فِيهِ خَسْفًا، فَأَمِنتُمْ مِنْ أَنْ يَخْسِفَ رَبُّكُمْ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ فَيُهْلِكَكُمْ عُقُوبَةً لَكُمْ عَلَى كُفْرِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ؟؟

لَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ الْفَاءَ فِي ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ فَصِيحَةٌ تَعِطِفُ عَلَى مَحْذُوفٍ، وَتَقْدِيرُهُ مَا سَبَقَ إِظْهَارُهُ فِي الشَّرْحِ التَّدْبِيرِيِّ.

الِاخْتِمَالُ الثَّانِي: أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي الْبَرِّ رِيحًا تَحْمِلُ الثَّرَابَ وَالْحَصْبَاءَ مِنَ الْأَرْضِ، فَيُنْزِلَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، وَيَضْرِبُكُمْ بِهِ ضَرْبَ تَعْذِيبٍ فَإِهْلَاكَ، فَهَلْ أَنْتُمْ فِي الْبَرِّ آمِنُونَ مِنْ تَغْذِيبِكُمْ وَإِهْلَاكِكُمْ بِهَذَا السَّبَبِ لَوْ شَاءَهُ اللَّهُ الْقَدِيرَ عَلَى مَا يَشَاءُ.

دَلَّ عَلَى هَذَا الْإِخْتِمَالِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿... أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا...﴾ ﴿٧٨﴾؟:

حَاصِبًا: أَي: رِيحًا تَحْمِلُ الرِّيحَ وَالْحَصْبَاءَ، وَتَضْرِبُ بِهَا الْأَشْيَاءَ. فَيُصِيبُ اللَّهُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ.

وَالْمَعْنَى: أَوْ مَلَكْتُمْ بِقُدْرَاتِكُمْ الرِّيحَ وَإِرْسَالَهَا أَوْ كَفَّهَا، أَوْ أَخَذْتُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَهْدًا بِأَنْ لَا يُهْلِكَكُمْ بِهَا وَأَنْتُمْ بِجَانِبِ الْبَرِّ، فَأَمِنتُمْ مِنْ أَنْ يُرْسِلَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا يَكُونُ سَبَبَ تَغْذِيبِكُمْ وَإِهْلَاكِكُمْ.

وَخَاطَبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ:

﴿... ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ﴿٧٩﴾: أَي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ، أَوْ بَعْدَ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا يُهْلِكُكُمْ، لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا يَتَوَكَّلُ أَمْرَ دَفْعِ عَذَابِ اللَّهِ عَنْكُمْ، أَوْ يُسَائِلُ اللَّهَ وَيُقَاضِيهِ عَمَّا أَنْزَلَ بِكُمْ، إِذْ هُوَ الْفَعَالُ لَمَا يَشَاءُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ، لَكِنَّ أَفْعَالَهُ كُلَّهَا حَكِيمَةٌ، وَهِيَ فِي عِبَادِهِ لَا تَخْرُجُ عَنْ دَائِرَتِي الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ عِنْدَ الْجَزَاءِ.

الْاِخْتِمَالُ الثَّالِثُ: أَنْ يُعِيدَكُمْ بِمَقَادِيرِهِ الْخَفِيَّةِ إِلَى الْبَحْرِ مَرَّةً أُخْرَى، ظَانِّينَ أَنَّ الْبَحْرَ هَادٍ، وَأَنَّ الرِّيحَ مُوَاتِيَّةٌ لِرِحْلَةِ بَحْرِيَّةٍ آمِنَةٍ عَلَى سَفِينَةٍ عَظِيمَةٍ قَوِيَّةٍ، فَإِذَا تَوَعَّلْتُمْ فِي الْبَحْرِ بَعِيداً عَنِ الشَّوَاطِئِ، وَعَنْ كُلِّ مُنْجِدٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُنْجِدَكُمْ، أَرْسَلَ عَلَيْكُمْ رِيحاً شَدِيدَةً قَاصِفَةً، فَأَغْرَقَكُمْ بِهَا بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِنِعَمِ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ.

دَلَّ عَلَى هَذَا الْاِخْتِمَالِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمَرْنَا أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ...﴾ (٦٦) ؟؟:

• ﴿أَمَرْنَا﴾ هُنَا بِمَعْنَى «بَلَّ» الَّتِي تُفِيدُ الْإِضْرَابَ الْإِنْتِقَالِيَّ مِنْ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى آخَرٍ.

• ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾: أَي: عَوْدَةً أُخْرَى، أَوْ إِعَادَةً أُخْرَى، يُقَالُ لُغَةً: «تَاوَرَهُ الْأَمْرُ» أَي: عَاوَدَهُ تَارَةً بَعْدَ تَارَةٍ، وَالْمَعْنَى: عَاوَدَهُ مُدَّةً بَعْدَ مُدَّةٍ. التَّارَةُ: الْمُدَّةُ - الْحِينُ.

• ﴿قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾: الْقَاصِفُ: الرِّيحُ الَّتِي تَأْتِي شَدِيدَةً عَلَى مُسْتَوَى الْأَشْجَارِ فَتَقْصِفُهَا وَتَكْسِرُهَا. وَهِيَ فِي الْبَحْرِ تَكْسِرُ السُّفْنَ وَتُغْرِقُهَا. يُقَالُ: رِيحٌ قَاصِفٌ، وَرِيحٌ قَاصِفَةٌ.

وَالْمَعْنَى: بَلَّ أَمْلَكْتُمْ بِقُدْرَاتِكُمْ إِذَا عُدْتُمْ إِلَى رُكُوبِ السُّفَنِ فِي الْبَحْرِ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ، أَنْ تَحْمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ أَنْ يُرْسِلَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ رِيحاً قَاصِفاً، يُكْسِرُ مَرْكَبَكُمْ الْبَحْرِيَّ، فَيَغْرِقَكُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ؟؟.

وَخَاطَبَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ:

• ﴿... ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَيْنًا يَدُوعَةً يَتَّبِعَا﴾ (٦٦) ١٠:

﴿يَتَّبِعَا﴾: التَّبِيعُ: الْمَطَالِبُ بِالشَّارِ، وَالَّذِي يَتَّبِعُ غَيْرَهُ لِقِتْضَاءِ شَيْءٍ

والمعنى: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ نُفَرِّقَكُمْ بِالرَّيْحِ الْقَاصِفِ، لَا تَجِدُونَ مَنْ يُطَالِبُ مِنْ أَوْلِيَائِكُمْ بِالثَّأْرِ مِثًا، لِعَجْزِهِ عَجْزًا تَامًا عَنْ ذَلِكَ.

مَنْ هَذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ مُقَاَصَاةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْ مُسَاءَلَتَهُ، أَوِ الثَّأَرَ مِنْهُ إِذَا أَهْلَكَ بَعْضَ عِبَادِهِ، أَوْ أَهْلَكَهُمْ كُلَّهُمْ، وَهُمْ جَمِيعًا عَبِيدُهُ، وَنَوَاصِيَهُمْ بِيَدِهِ، وَحَيَاتُهُمْ وَمَوْتُهُمْ خَاضِعَانِ لِأَمْرِ التَّكْوِينِ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ. فَهُوَ يَكُونُ فَوْرًا.

وَخَتَمَ اللَّهُ هَذَا الدَّرْسَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠):

• ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾: يُؤَكِّدُ رَبَّنَا - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانُهُ - أَنَّهُ كَرَّمَ بَنِي آدَمَ، أَيُّ: فَضَّلَهُمْ، وَرَفَعَ شَأْنَهُمْ بَيْنَ خَلْقِهِ.

التَّكْرِيمُ: يَأْتِي بِمَعْنَى التَّفْضِيلِ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى التَّعْظِيمِ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى مَنْحِهِ الصِّفَاتِ النَّفِيسَةِ الَّتِي ائْتَارَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى بَنِي آدَمَ وَقَارَنَاهُمْ مَعَ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ الْمُشْهُودَةِ لَنَا، وَجَدْنَا أَنَّ جُمْلَةَ صِفَاتِهِمْ فِي التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ هِيَ أَسْمَى وَأَنْفَسُ مِنْ صِفَاتِ سَائِرِ الْأَحْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ بِالْحَوَاسِ.

إِنَّ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ النَّفْسِيَّةَ وَلَا سِيَمَا مَا لَدَيْهِ مِنْ أَجْهَزَةِ الْعِلْمِ وَالتَّفَكِيرِ وَالْإِرَادَةِ الْحُرَّةِ، صِفَاتٌ يَمْتَّازُ بِهَا عَلَى سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ الْحَيَّةِ الْمَذْكُورَةِ، وَهَذِهِ مِيزَاتٌ ظَاهِرَةٌ لَا تَحْتَاجُ تَفْصِيلًا وَلَا إِقَامَةَ بُرْهَانٍ عَلَيْهَا.

وَجَسَدُ الْإِنْسَانِ فِي تَقْوِيمِهِ الْعَامِّ أَحْسَنُ الْأَجْسَادِ الْحَيَّةِ الْمُشْهُودَةِ تَقْوِيمًا.

وَتَفْضِيلِ اللَّهِ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَإِبْلِيسَ الْجِنِّ بِالْعِلْمِ، وَأَمَرَ اللَّهُ لَهُمْ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، بَعْدَ تَفَوُّقِهِ فِي مُبَارَاةِ عِلْمِ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَشْمَلُ

صِفَاتِهَا، يَدُلُّ عَلَى تَفْضِيلِهِ بِمِيزَةِ الْعِلْمِ، وَيَدُلُّ أَيْضاً عَلَى تَكْلِيفِ أَهْلِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَإِبْلِيسِ الْجَنِّ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ كَرَّمَهُ عَلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

إِلَّا أَنْ تَكْرِيمَ النَّوعِ فِي الْإِرَادَةِ الْحَرَّةِ لَا يَتَحَقَّقُ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ، مَا لَمْ يُثَبِّتِ الْفَرْدُ أَنَّهُ أَهْلٌ لِهَذَا التَّكْرِيمِ بِعُبُودِيَّتِهِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ، لِلرَّبِّ الَّذِي كَرَّمَهُ بِأَصْلِ التَّكْوِينِ، فَإِذَا لَمْ يُحَقِّقْ ذَلِكَ رَدَّ نَفْسَهُ مُتَسَفِّلاً فِي الدَّرَكَاتِ، وَقَدْ يَصِلُ بِاِخْتِيَارِهِ الْأَحْظَ فَلَا أَحْظَ، حَتَّى يَكُونَ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ.

وَمَنْ حَافِظٌ عَلَى مِقْدَارٍ مَا مِنْ تَكْرِيمِ الْبَارِي لَهُ، كَانَ لَهُ مِنْ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ مُتَّصَاعِداً عَلَى مِقْدَارِ مَا حَافِظٌ عَلَيْهِ، وَقَدْ يَصِلُ بِاِخْتِيَارِهِ الْأَكْمَلَ فَلَا أَكْمَلَ حَتَّى يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وشرح تكريم بني آدَمَ بالتكوين الربَّاني لهم، يَتَطَلَّبُ دِرَاسَةً عِلْمِيَّةً مُوسَّعَةً جَدًّا، تُحَرَّرُ فِي أَسْفَارِ.

• ﴿وَمَحَلَّتْهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: أَي: وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِأَنْ تَحْمِلَهُمْ فِي الْبَرِّ الْمَرَاقِبِ الْحَيَوَانِيَّةِ، ثُمَّ الْمَرَاقِبِ غَيْرُ الْحَيَوَانِيَّةِ مِمَّا هَدَيْنَاهُمْ إِلَى اكْتِسَافِهِ - وَبِأَنْ تَحْمِلَهُمْ فِي الْبَحْرِ الْمَرَاقِبِ غَيْرُ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صُنْعِهَا مُذْ أَمَرْنَا نُوحاً بِصُنْعِ الْفُلْكِ الَّتِي أَنْجَيْنَاهُ بِهَا مِنَ الْإِغْرَاقِ، هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاتَّبَعُوهُ.

وَتُقَاسُ الْمَرَاقِبُ الْحَوِّيَّةُ عَلَى الْمَرَاقِبِ الْبَرِّيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ غَيْرِ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَلَمْ تُذَكَّرْ فِي الْقُرْآنِ لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ قَدْ اكْتَشِفَتْ إِبَّانَ نَزُولِ الْقُرْآنِ، وَيَشْمَلُهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَالْخَيْلَ وَالْإِبَالَ وَالْحَمِيرَ لِرِكْبَتِهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾:

ففي عبارة: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تَدْخُلُ كُلُّ الْمَرَاقِبِ الَّتِي سَيَكْتَشِفُ النَّاسُ قَوَانِينَهَا، وَطَرَائِقَ صُنْعِهَا، وَقُوَّةَ حَرَكَتِهَا لِتَأْيِيدِ الْوُظَائِفِ وَالْمَنَافِعِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهَا.

• ﴿...وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ...﴾ (٧٠): أي: وَرَزَقْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ، مِنَ الْمَأْكَلِ، وَالْمَشَارِبِ، وَالْمَنَاجِحِ، وَمُمْتِعَاتِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرِ الْحَوَاسِ.

وَبُنُوْا آدَمَ مُفَضَّلُونَ بِهَذِهِ الطَّيِّبَاتِ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَحْيَاءِ، فَهُمْ يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَغْبَةً فِي أَنْ يَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ لِرَبِّهِمْ عَلَيْهَا.

• ﴿...وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠): دَلَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَى أَنَّ بَنِي آدَمَ قَدْ يَتَسَاوَوْنَ مَعَ بَعْضِ مَنْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ فِيمَا مَنَحَهُمْ إِيَّاهُ، لَكِنَّهُ فَضَّلَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا عَظِيمًا.

وَتَشْعُرُ هَذِهِ الْآيَةُ بِأَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى بَنِي آدَمَ أَنْ يَكُونُوا شَاكِرِينَ لِرَبِّهِمْ عَلَى مَا فَضَّلَهُمْ بِهِ وَعَلَى تَكْرِيمِهِ لَهُمْ، إِلَّا أَنْ كَثِيرِينَ مِنْهُمْ قَدْ أَثْبَتُوا بَعْدَ اخْتِبَارِهِمْ أَنَّهُمْ كَفُورُونَ، وَأَنَّ الْقَلِيلَ جِدًّا مِنْهُمْ الشَّاكِرُونَ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الحادي عشر من دروس سورة (الإسراء) والحمد لله على معاونته ومدده وتوفيقه.



(١٦)

التدبر التحليلي للدرس الثاني عشر من دروس سورة (الإسراء)
الآيتان: (٧١ و ٧٢)

قال الله عز وجل:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَسْمِعْهُ فَأُولَٰئِكَ يَفْقَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧١) وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢):

القراءات:

٧٢ - • قرأ قَالُونَ، وأبو عَمْرٍو، والكسائي، وأبو جَعْفَرٍ: [فَهُوَ]
بِاسْكَانِ الهاء وقرأها باقي القراء العشرة: [فَهُوَ] بِضَمِّ الهاء.
وهما لغتان عربيتان:

تمهيد:

هذا دَرْسٌ يَشْتَمِلُ عَلَى عَرْضِ لِقْطَةٍ مِنْ لِقَطَاتِ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ،
لِأَنَّ الْعِلَاجَ الدَّعَوِيَّ الْحَكِيمَ، يَنْبَغِي أَنْ يَتَضَمَّنَ تَذْكِيرَ الْمُعَالِجِ أَنَا فَأَنَا
بِالْمُرْهَبَاتِ الْمَحْذَرَاتِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَهُوَ
مَوْضُوعٌ بِالْمُعَالَجَاتِ السَّابِقَاتِ فِي السُّورَةِ، لِلْمَعْنِيِّينَ بِالْمُعَالَجَةِ، وَهُمْ كِبَرَاءُ
مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، وَهُوَ يَنْسَحِبُ عَلَى أَمْثَالِهِمْ عَبْرَ تَارِيخِ النَّاسِ.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أَوْقَىٰ كِتَابُهُ يَتَّبِعْهُ فَأُولَٰئِكَ
يَفْرَحُونَ بِكِتَابِهِمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١﴾:

فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَرْضٌ لِمَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فِيهِ بَيَانُ نِدَاءِ
زَمَرِ النَّاسِ، بِحَسَبِ أُنْتَمَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

الإمام: هُوَ فِي اللَّغَةِ مَا يُؤْتَمُّ، أَوْ مَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ، أَي: يُتَّبَعُ. وَهُوَ يَدُلُّ
عَلَى الْمَفْرَدِ، وَقَدْ يَكُونُ جَمْعًا، مِثْلُ: صَائِمٍ وَصِيَامٍ، وَقَائِمٍ وَقِيَامٍ، وَمِنْهُ:
﴿...وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ الْفِرْقَانِ.

وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:
﴿...إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا... ۝١٢٤﴾ الْبَقَرَةِ.

وَذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ جَعَلَ فِي النَّاسِ أُيُومَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِهِ، وَجَعَلَ

فِيهِمْ أَيْمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْأَيْمَةُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ
فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ فِي سُورَةِ (القصص/ ٢٨
مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُصْرُونَ ۝٤٩﴾

ومن هذا يظهر للمتدبر أن المراد بالإمام، في عبارة [بِإِمَامِهِمْ] هُوَ
من كَانَ فِي الدُّنْيَا إِمَامًا هُدًى، أَوْ إِمَامًا ضَلَالًا.

فَاتَّبَاعُ إِمَامٍ كَانَ يَهْدِي فِي الدُّنْيَا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَرْضَاةِ اللَّهِ عَلَى مَا شَرَعَ
لِعِبَادِهِ، يُنَادُونَ يَا أَتْبَاعَ فُلَانٍ، نَحْوُ: يَا أَتْبَاعَ مُوسَى. يَا أَتْبَاعَ عِيسَى.
يَا أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ، وَهَكَذَا.

وَأَتْبَاعُ إِمَامٍ كَانَ يَدْعُو فِي الدُّنْيَا إِلَى الْكُفْرِ الْمَزْلُوقِ إِلَى النَّارِ، يُنَادُونَ
يَا أَتْبَاعَ فُلَانٍ، نَحْوُ: يَا أَتْبَاعَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ، يَا أَتْبَاعَ نُمْرُودٍ. يَا أَتْبَاعَ
بُولُسٍ. يَا أَتْبَاعَ مَارِكُسٍ، وَهَكَذَا.

فَالْمَعْنَى: ضَعُ فِي ذَاكِرَتِكَ أَتْيَهَا الْمُتَلَقِّي أَيًّا كُنْتَ هَذَا الْمَشْهَدُ مِنْ
مَشَاهِدِ الدَّعْوَةِ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَالْمَسَاءَلَةِ، لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، ثُمَّ لَتَنْفِيزِ
الْجَزَاءِ بِالْفَضْلِ أَوْ بِالْعَدْلِ، يَوْمَ تُقَسَّمُ النَّاسَ إِلَى زُمَرٍ، بِحَسَبِ أَيْمَتِهِمْ فِي
الدُّنْيَا، وَنَدْعُو كُلَّ زُمْرَةٍ مِنْهُمْ مُعَرِّفِينَ بِإِمَامِهِمُ الَّذِي كَانُوا يَتَّبِعُونَهُ فِي الدُّنْيَا،
سِوَاءِ أَكَانَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ وَالْجَنَّةِ، أَمْ كَانَ دَاعِيًا إِلَى سُبُلِ الشَّيَاطِينِ
الْمَوْضُوعَةِ فِي نَهَايَاتِهَا بِالنَّارِ.

وَتَكُونُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْمَوْقِفِ قَدْ تَسَلَّمُوا كُتُبَ
أَعْمَالِهِمْ، فَالْمُؤْمِنُونَ يَتَسَلَّمُونَ كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَالْكَافِرُونَ يَتَسَلَّمُونَ
كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بِشِمَائِلِهِمْ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ.

أَمَّا الَّذِينَ أُوتُوا كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بِأَيْمَانِهِمْ، فَأُولَئِكَ ذَوُوا الْمَنْزِلَةِ الْعَالِيَةِ
عِنْدَ رَبِّهِمْ، يَقْرَأُونَ كُتُبَهُمْ فَرِحِينَ بِأَنْ مَصِيرُهُمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَهُمْ

عِنْدَ الْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ لَا يُظْلَمُونَ فِتِيلًا، بَلْ يَجِدُونَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ ضَاعَفَ لَهُمْ بِفَضْلِهِ حَسَنَاتِهِمْ، وَقَضَى لَهُمْ بِثَوَابٍ عَظِيمٍ لَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِمْ.

﴿فَمَنْ أَوْقَى كِتَابُهُ يَمِينَهُ﴾ الفاء تفرعية دلت على أن المدعوين بأئمتهم هم قسمان رئيسيان: مؤمنون تسلموا كتب أعمالهم بأيمانهم، وكافرون تسلموا كتب أعمالهم بشمائلهم.

لفظ «مَنْ» اسم موصول يُعَادُ عَلَى لفظه بالإنفراد، ويُعَادُ عَلَى مَعْنَاهُ إِذَا كَانَ جَمْعًا بِالْجَمْعِ، وَأُعِيدَ هُنَا الضَّمِيرُ عَلَى لفظه بالإنفراد، وَأُشِيرَ إِلَى مَعْنَاهُ الَّذِي هُوَ جَمْعٌ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ «أُولَئِكَ».

﴿فَأُولَئِكَ يَفْرَوْنَ كِتَابَهُمْ﴾: أي: يَفْرَوْنَ كُتُبَهُمْ فَرَحِينَ بِمَا تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِهِ، مِنْ مَضَاعِفَةٍ لِلْحَسَنَاتِ، وَتَجَاوِزٍ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّيِّئَاتِ. لفظ «كِتَابٍ» استفاد العُموم بِإِضَافَتِهِ إِلَى ضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ، فَهُوَ بِمَعْنَى «كُتُبُهُمْ».

﴿... وَلَا يُظْلَمُونَ فِتِيلًا﴾: أي: وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا مَهْمَا قَلَّ مِقْدَارُهُ، فَلَا يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شَيْءٌ، بَلْ تُضَاعَفُ لَهُمْ، وَلَا يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِهِمْ شَيْءٌ، بَلْ يَغْفُو اللَّهُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهَا.

فتيلًا: أي: مقدار فتيل، وهو الخيط الرفيع الذي يكون في شِقِّ النَّوَاةِ، واختير هذا اللفظ هنا للدلالة على القلّة الشديدة التي لا يُكْتَرَثُ لَهَا، مِرَاعَةٌ لِرُؤُوسِ الْآيَاتِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَعْدَهَا.

وَيُفْهَمُ مِنَ السَّكُوتِ عَنِ الْمَقَابِلِ، وَهُمْ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِشَمَائِلِهِمْ، أَنَّهُمْ لَا يَفْرَوْنَ كُتُبَهُمْ، لِأَنَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ كُلَّ جَرَائِمِهِمْ وَخَبَائِثِهِمْ، وَبَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ مَا كَانُوا يُكْذِّبُونَ بِهِ مِنَ الْبُعْثِ وَأَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يُوقِنُونَ بِأَنَّ كُلَّ مَا فِي كُتُبِ أَعْمَالِهِمْ حَقٌّ، وَيَكْفِيهِمْ جُزْمًا لِلْخُلُودِ فِي النَّارِ، أَنَّهُمْ

كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَافِرِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمُكَذِّبِينَ رُسُلَ رَبِّهِمْ،
وَمُكَذِّبِينَ بِمَا جَاءُوا بِهِ عَنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

وجاءَ بديلاً عَنْ هَذَا الْمَسْكُوتِ عَنْهُ مُرَاعَاةً لَفَنِيَّةِ التَّقَابُلِ فِي اللَّفْظِ،
قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧١):

أي: وَأَمَّا الْكَافِرُونَ الَّذِينَ أَخَذُوا كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بِشِمَائِلِهِمْ، وَالَّذِينَ
كَانُوا عُصِيَانًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِذْ حَجَبُوا أَبْصَارَ بَصَائِرِهِمْ عَنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ
الَّذِي أَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، فَسَوْفَ يُحْشَرُونَ عُصِيَانًا،
لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى طَرِيقِ يُبْعِدُهُمْ عَنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ،
وَيُوصِلُهُمْ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ، إِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ إِلَّا طَرِيقًا وَاحِدًا، هُوَ طَرِيقُ
جَهَنَّمَ الَّتِي يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا.

• ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ﴾: أي: فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿أَعْمَى﴾:

أي: كَافِرًا ضَالًّا بِكُفْرِهِ عَنْ سَبِيلِ سَعَادَتِهِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ.

اسْتُعِيرَ لَفْظُ «أَعْمَى» لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى «كَافِرٍ» ذِي كُفْرٍ وَضَلَالٍ
مُصَاحِبٍ لَهُ، وَاسْتِغْمَالُ هَذِهِ الِاسْتِعَارَةِ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، لِلدَّلَالَةِ
عَلَى الْكَافِرِ بِرَبِّهِ وَبِمَا جَاءَ عَنْهُ عَلَى لِسَانِ أَيْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ.

• ﴿... فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى...﴾: أي: فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مَحْكُومٌ

عَلَيْهِ بِأَنَّهُ أَعْمَى (= كَافِرٌ) مَفْرُوزٌ مَعَ زُمْرِ الْكَافِرِينَ.

• ﴿... وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وَهُوَ يَوْمئِذٍ أَكْثَرُ ضَلَالًا عَنْ سَبِيلِ يَنْجِيهِ

مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْفَائِزِينَ بِجَنَّاتِ النِّعَمِ، إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
يَتَذَارَكَ أَمْرُهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَقَدْ انْتَهَى زَمَنُ الْامْتِحَانِ، وَجَاءَ
يَوْمُ الْحِسَابِ، وَفُضِّلَ الْقَضَاءُ، وَتَنْفِذُ الْجَزَاءِ، فَلَا حِيلَةَ لَهُ فِي أَنْ يَهْتَدِيَ
إِلَى سَبِيلِ نَجَاتِهِ مِنَ الْجَحِيمِ، وَسَعَادَتِهِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، أَمَّا فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا فَقَدْ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَذَرَكَ أَمْرُهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَوْ قَبْلَ سَاعَةِ الْمَوْتِ بَرَمَنْ قَلِيلٍ، لِهَذَا فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَضْلُ سَبِيلًا، إِذْ لَا يَجِدُ لِنَفْسِهِ طَرِيقًا يَسْلُكُهُ بَلْ يُكْرَهُ عَلَى سُلُوكِهِ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا خَالِدًا أَبَدًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نُزُول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٦٩).

﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾: اللام في «لِيَغْفِرَ» لامُ الجحود، إذ جاءتْ بَعْدَ كَوْنٍ مَنْفِيٍّ، وهذا التعبير من أبلغ أنواع النفي، وكذلك كلُّ كَوْنٍ مَنْفِيٍّ جاءتْ بَعْدَهُ لامُ الجحود.

وبهذا انتهتْ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الإسراء).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.



(١٧)

التدبر التحليلي للدرس الثالث عشر من دروس سورة (الإسراء)
الآيات من (٧٣ - ٧٧)

قال الله عز وجل:

﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خِلَالًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)﴾

القراءات:

٧٤ - • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهِمْ] بِضَمِّ هَاءِ الضمير.

وقراها باقي القراء العشرة: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ هَاءِ الضمير. وهما لغتان عَرَبِيَّتَانِ.

٧٦ - • قرأ ابن عامر، وحفص عَنْ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخَلَفَ: [خِلَافَكَ] أَي: بَعْدَكَ.

وقراها باقي القراء العشرة: [خِلَافَكَ]: أَي: وَرَاءَ ظَهْرِكَ الذي تُؤَلِّيه إِيَّاهُمْ عِنْدَ خُرُوجِكَ.

ومؤدَّى القراءتين واحد، وهُمَا مِنَ التَّفْنِيْنِ في التعبير.

٧٧ - • قرأ أَبُو عَمْرٍو: [رُسُلِنَا] بِاسْكَانِ السَّيْنِ.

وقراها باقي القراء العشرة: [رُسُلِنَا] بِضَمِّ السَّيْنِ. وهما لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ.

تمهيد:

هذا درسٌ مَدَنِيٌّ التَّنْزِيلِ، وفيه تَرْبِيَّةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، بِحَسَبِ الصِّيَغَةِ الظَّاهِرَةِ، وهو في حَقِيقَتِهِ يَتَضَمَّنُ إِيْثَاساً لِكُلِّ من يحاول إغراء الرسول، أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ أَوْ يَتَهَاوَنَ فِي تَطْبِيقِ بَعْضِ مَا أُنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ، حَتَّى يَكْفُؤَا عَنْ اتِّخَاذِ وَسَائِلَ وَأَسْبَابٍ لاسْتِذْراجِهِ بِزُخْرُفٍ مِنَ الْقَوْلِ، وَمَوَاعِيدَ كَاذِبَةٍ، قَدْ تُوجِي إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، بِاخْتِمَالٍ وَجُودٍ مَضْلَحَةٍ لِلدِّينِ، وَانْتِشَارِهِ بَيْنَ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ، إِذَا لَانَ لَهُمْ فِي بَعْضِ مَا يُطَالِبُونَهُ بِهِ مِمَّا لَا يُؤَثِّرُ عَلَى جَوْهَرِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ وَشُرَائِعِهِ.

فَحَذَّرَ اللهُ رَسُوْلُهُ تَحْذِيْراً عَلَنِيًّا فِي قُرْآنٍ يُثَلَّى، مِنْ أَنْ يَرْكَزَ إِلَى إِغْرَاءَاتِ الْكَافِرِينَ وَمَوَاعِيدِهِمُ الْكَاذِبَةِ، وَلَوْ رُكُونًا قَلِيلاً.

وهذا التحذير يتضمَّن تحذيراً للدُّعاة من أُمَّتِهِ، وأُئِمَّةِ الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ بالدين، من الاستجابة لمطالب الكُبراء والقادة السياسيين الرَّمَنِيِّين، في إصدار الفتاوى التي فيها تنازُلٌ عَنْ أَحْكَامِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، مَهْمَا كَانَتِ الدَّرَائِعُ لَذَلِكَ.

التدبر التحليلي:

• ﴿وَإِنْ كَادُوا...﴾ أي: وَقَدْ كَادَ كُبراءُ كُفَّارِ مَكَّةَ. فِعْلٌ «كَادَ» من أفعالِ المقاربة، فالمعنى: وقد قارب هؤلاء الكفار. وكَلِمَةُ «إِنْ» هي المخففة من الثقل، واسمُها ضمير الشأن، أي: وَإِنَّ الشَّأْنَ الْعَظِيمَ الْخَطِيرَ أَنَّ كُبراءَ كُفَّارِ مَكَّةَ قَارَبُوا. واختصاراً لبيان المراد من التعبير أقول: وَقَدْ كَادُوا.

﴿...يَفْتِنُونَكَ...﴾: اللَّامُ هي الفارقة التي تَبَيَّنُ أَنَّ «إِنْ» قبلها هي المخففة من الثقل، لا «إِنْ» النافية. «يَفْتِنُونَكَ» أي: يُغْرُونَكَ يَا مُحَمَّدُ بِمَعْسُولِ الْقَوْلِ، والمواعيد الكاذبة، وهذا أَقْرَبُ معاني الفتنَةِ الصَّالِحِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مُرَاداً هُنَا، وهو إغراء قَدْ يَرَى فِيهِ الرَّسُولُ ﷺ باجتهاده، أَنَّ اسْتِجَابَتَهُ لِبَعْضِ مَطَالِبِهِمْ وَبِصُورَةٍ مَرْحَلِيَّةٍ مُؤَقَّتَةٍ، فِيهِ مَصْلَحَةٌ لانتشار الإسلام، ولا سيما بَيْنَ كُبراءِ قَوْمِهِ الَّذِينَ إِذَا أَسْلَمُوا أَسْلَمَ مِنْ وَرَائِهِمْ أَتْبَاعُهُمْ، الَّذِينَ لَمْ يَصُدُّهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَئِمَّتُهُمْ، وَقَادَتُهُمُ الَّذِينَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَيْهِمْ، بِهِمْنَةٍ اجْتاعِيَّةٍ.

• ﴿...عَنِ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾: أي: صَارِفِينَ إِيَّاكَ عَنْ تَطْيِيقِ بَغْضِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، مِمَّا يَسْؤُوهُمْ سَمَاعُهُ أَوْ تَطْيِيقُهُ، كَذِكْرِ آلِهَتِهِمْ بِأَنَّهُمْ حَجَارَةٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَكَتْسُوِيَتِهِمْ فِي مَجَالِسِكَ بِضَعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَفَقَرَاتِهِمْ.

ضَمَّنَ الْفِعْلُ فِي «يَفْتِنُونَكَ» مَعْنَى الْفَعْلِ فِي «يَضْرِبُونَكَ» فَعُدِّي

تَعْدِيته، بحرف «عَنْ» فَأَغْنَتْ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، فَصَارَ الْمَعْنَى: وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ فَيَضْرِبُونَكَ عَنْ تِلَاوَةِ أَوْ تَطْبِيقِ بَعْضِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَأَمْرُنَاكَ بِتِلَاوَتِهِ أَوْ بِتَطْبِيقِهِ.

• ﴿...لِفَتْرَى عَلَيْنَا غَيْرُهُ...﴾ كَأَنْ تُغَيِّرَ فِي سُلُوكِكَ بَعْضَ مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، فَتَجْعَلَ بِذَلِكَ سُلُوكًا آخَرَ يُرْضِي كِبَرَاءَ قَوْمِكَ، دُونَ أَنْ يُوَثِّرَ أَي تَأْثِيرَ عَلَى جَوْهَرِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ فِيمَا تَرَى، لَكِنَّ هَذَا مِنَ الْإِفْتِرَاءِ عَلَيْنَا، لِأَنَّكَ فِي تَطْبِيقَاتِكَ الْأُسُوءَةَ الْحَسَنَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَفْعَالُكَ حُجَّةٌ فِي الْإِيجَابِ وَالتَّحْرِيمِ وَالْإِبَاحَةِ وَالتَّنْذِيرِ.

• ﴿...وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣): أَرَى أَنْ الْوَإِي فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَعْطِفُ جُمْلَةً مَحْذُوفَةً عَلَى جُمْلَةٍ: ﴿لِفَتْرَى عَلَيْنَا غَيْرُهُ﴾ وَالتَّقْدِيرُ: وَإِنْ اسْتَجَبْتَ لَهُمْ، فَافْتَرَيْتَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ بِتَطْبِيقَاتِكَ، طَمَعًا فِي إِسْلَامِهِمْ، إِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا، وَهَذَا الْآخِرُ مِنْ تَمَامِ حِكَايَةِ غُرُوضِهِمُ الْإِغْرَائِيَّةَ.

«إِذَنْ» هَذَا هُوَ الْأَوَّلَى فِي كِتَابَتِهَا، لِأَنَّ النُّونَ فِيهَا مِنْ أَصْلِ بِنَاءِ الْكَلِمَةِ، وَهُوَ حَرْفٌ يَقَعُ فِي صَدْرِ الْكَلَامِ، مَعْنَاهُ الْجَوَابُ وَالْجَزَاءُ.

﴿خَلِيلًا﴾: الْخَلِيلُ: الصَّدِيقُ الَّذِي تَخَلَّلْتَ مَوَدَّتَهُ قَلْبَ صَدِيقِهِ، حَتَّى صَارَ مَدَاخِلًا مَخَالِطًا، يَطْلُعُ عَلَى بَوَاطِنِهِ وَأَسْرَارِهِ.

• ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾: «لَوْلَا»: حَرْفٌ يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ شَيْءٍ لَوْجُودِ غَيْرِهِ. ثَبَّتْنَاكَ: أَي: مَكَّنَّاكَ مِنَ الثَّبَاتِ عَلَى عَدَمِ الْاسْتِجَابَةِ لِإِغْرَاءَاتِهِمْ، بِمَا شَدَدْنَا بِهِ عَزِيمَتَكَ فِي فُؤَادِكَ، وَهَذَا مِنْ عِصْمَتِنَا لَكَ.

• ﴿...لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا﴾ (٧٤):

﴿تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾: أَي: تَمِيلُ إِلَى بَعْضِ إِغْرَاءَاتِهِمْ. يُقَالُ لُغَةً: «رَكَنَ فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ يَرْكُنُ، وَرَكْنًا، وَرُكُونًا، وَرَكِنَ إِلَيْهِ يَرْكُنُ» أَي: مَالَ إِلَيْهِ، وَسَكَنَ.

﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾: أي: لَمْ تَمِلْ فِي أَحَادِيثِ نَفْسِكَ إِلَى قَبُولِ بَعْضِ إِغْرَاءَاتِهِمْ مِيلًا كَثِيرًا، بَلْ حَدَّثْتُكَ نَفْسُكَ بِأَنْ تَقْبَلَ مِنْهَا شَيْئًا قَلِيلًا رَأَيْتَ أَنَّهُ مِنْ نَوْعِ الْمَدَارَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَلَا تَأْثِيرَ لَهُ عَلَى جَوْهَرِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ وَتَعْلِيمَاتِهِ.

والمعنى: نُوَكِّدُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَنَّكَ لَقَدْ قَارَبْتَ وَلَمْ تَفْعَلْ، أَنْ تَمِيلَ إِلَى بَعْضِ إِغْرَاءَاتِ كِبْرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ، فِي تَصَوُّرَاتِكَ وَأَحَادِيثِ نَفْسِكَ. شَيْئًا: منصوب على أنه نائب مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، إِذْ هُوَ دَالٌّ عَلَى بَعْضِ الرُّكُونِ. «قَلِيلًا»: نَعَتْ لِكَلِمَةِ «شَيْئًا».

أُخِّرَ هَذَا التَّنْزِيلَ إِلَى الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَرْكَنْ فِي وَاقِعِ حَالِهِ إِلَى إِغْرَاءَاتِ كُبْرَاءِ قَوْمِهِ، وَقَدْ عَصَمَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ.

وَاقْتَضَتْ الْحُكْمَةَ تَأْخِيرَ إِنْزَالِهِ إِلَى الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، لِتَيَسُّرِ الْكَافِرِينَ وَلَا سِيَّمَا يَهُودَ الْمَدِينَةِ مِنْ إِغْرَاءِ الرَّسُولِ بِالتَّنَازُلِ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَلِتَحْذِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْ يَتَأَثَّرُوا بِإِغْرَاءَاتِ ذَوِي السُّلْطَانِ وَالْقُوَّةِ وَالجَاهِ، فَيُفْتِنُوهُمْ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، أَوْ يَلْبِسُوا لَهُمْ بِتَطْبِيقِ أَعْمَالٍ مُضَادَّةٍ لِأَحْكَامِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ.

• ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ (٧٥):

الضُّعْفُ: هُوَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى ضَرَبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: الْمِثْلُ.

وَالْآخَرُ: يَكُونُ بِمَعْنَى تَضْعِيفِ الشَّيْءِ بِالزِّيَادَةِ عَلَيْهِ إِلَى مِثْلَيْهِ وَأَكْثَرِ.

[إِذْنٌ] حَرْفٌ يَقَعُ فِي صَدْرِ الْكَلَامِ مَعْنَاهُ الْجَوَابُ وَالْجِزَاءُ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُ هَذَا قَرِيبًا.

وهذا البَيَانُ المَصْدَرُ بحرف «إِذَنْ» يَسْتَدْعِي كَلَاماً مَظْهُوياً لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ فِي اللَّفْظِ، وَيُمْكِنُ تَقْدِيرُهُ بِمَا يَلِي: وَلَوْ أَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ رَكَنتَ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً، لَأَذَقْنَاكَ عَلَى مَعْصِيَتِكَ وَأَنْتَ إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ وَأَوَّلُهُمْ طَاعَةً وَتَطْطِيقاً لِلإِسْلَامِ، وَأَنْتَ الْأَسْوَةُ الْحَسَنَةُ لَهُمْ فِي أَقْوَالِكَ وَأَعْمَالِكَ، ضِغْفَ عَذَابِ ذَنْبِكَ فِي الْحَيَاةِ مِثْلَيْنِ فَأَكْثَرَ، وَضِغْفَ عَذَابِ الْمَمَاتِ فِي الْبَرْزَخِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبُعْثِ، مِثْلَيْنِ فَأَكْثَرَ، وَسَكَتَ النَّصُّ عَمَّا بَعْدَ الْبُعْثِ.

ثُمَّ إِذَا أَنْزَلْنَا بِكَ الْعَذَابَ عَلَى هَذِهِ الْمَعْصِيَةِ الْكَبِيرَةِ لَا تَجِدُ لَكَ نَصِيراً يَنْصُرُكَ عَلَيْنَا فَيَرْفَعُ عَنْكَ الْعَذَابَ.

لَكِنَّكَ لَمْ تَفْعَلْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّكَ قَارَبْتَ أَنْ تَفْعَلَ فَلَمْ تَفْعَلْ، وَتَوَكَّلْتَ عَلَيْنَا فَبَشَّاتَكَ وَعَصَمْنَاكَ.

ومعلوم أنَّ ما دخلت عليه «لو» منفى الوقوع، فليس في البيان إشكال ما حول عِصْمَةِ الرُّسُولِ ﷺ.

وإنَّ المتدبِّرَ المتأنِّيَ يَرَى أَنَّ هَذَا الْبَيَانَ الَّذِي تَأَخَّرَ أَنْزَالُهُ إِلَى الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، وَضُمَّ إِلَى سُورَةِ (الإِسْرَاءِ) الْمَكِّيَّةِ، الَّتِي كَانَ كُتُبَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِهَا، يُوجِّهُونَ لِلرُّسُولِ مَطَالِبَهُمُ الْإِغْرَائِيَّةَ الْاسْتِذْرَاجِيَّةَ، لَمْ يَقْصِدْ بِهِ شَخْصَ الرُّسُولِ ﷺ، لِأَنَّ الْمَرْحَلَةَ قَدْ مَرَّتْ وَمَضَتْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ رُكُونٌ مَا بِصُورَةٍ فِعْلِيَّةٍ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا كَانَتْ خَوَاطِرَ وَأَحَادِيثَ نَفْسٍ لَيْسَتْ مَنَاطَ مَسْئُولِيَّةٍ وَلَا مُحَاسَبَةٍ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهَذَا الْبَيَانِ تَحْذِيرُ أُمَّةِ الْمُتَّقِينَ، وَإِقْنَاعُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْمَدِينَةِ وَغَيْرِهِمْ، بِأَنْ يُؤْطُوا نَفْسَهُمْ، عَلَى الْيَأْسِ مِنْ أَنْ يَتَأَثَّرَ الرُّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ بِإِغْرَاءَاتِهِمْ، وَعَرُوضِهِمُ الَّتِي يُرِيدُونَ بِهَا إِزْلَاقَهُ، وَإِخْرَاجَهُ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ تَعْلِيمَاتٍ وَبَيِّنَاتٍ وَأَحْكَامٍ، وَقَدْ فَعَلَ الْيَهُودُ هَذَا فَخَابُوا.

﴿لَأَذَقْنَاكَ﴾ شَبَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْإِحْسَاسَ بِأَلَمِ الْعَذَابِ بِالدَّوَاقِ،

لتقريب معرفة الإحساس به، ففي التعبير استعارة قائمة على التشبيه.

وجاء في الآية حذف كلمة «عَذَاب» في موضعين، قبل لفظ ﴿الْحَيَاةِ﴾ وقبل لفظ ﴿الْمَوْتِ﴾ تكريماً من الله لِرَسُولِهِ عَنْ أَنْ يَواجِهَهُ بَلْفَظَةً «عَذَاب» ولو لم يكن هو المقصود حقيقةً في النص كله، كما سبق بيانه.

قول الله عز وجل خطاباً لِرَسُولِهِ بشأن كُفَّارِ مَكَّةَ المعاندين:

• ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۚ﴾

هاتان الآيتان من التنزيل المدني أيضاً، ضُمَّتا إلى موضعهما من سُورَةِ (الإِسْرَاءِ) المكية، للدلالة على أَنَّ الْحَدَّثَ الْمَذْكُورَ فِيهِمَا قَدْ كَانَ إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الإِسْرَاءِ) وَلَمْ يُنْزِلْهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، لِأَنَّ الْحِكْمَةَ السِّيَاسِيَّةَ اقْتَضَتْ كِتْمَانَ عِلْمِ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُدَبِّرُهُ كُفَرَاءُ كُفَّارِ مَكَّةَ، وَعَدَمَ إِعْلَانِهِ قُرْآنًا يُتْلَى.

﴿وَإِنْ كَادُوا﴾: أي: وقد كَادَ كُفَّارُ مَكَّةَ المَصِرُونَ عَلَى عُنَادِهِمْ. فعل «كاد» من أفعال المقاربة، فالمعنى: وقد قارب هؤلاء الكفار. كلمة «إِنَّ» هي المخففة من الثقيلة «إِنَّ» واسمها ضمير الشأن، أي: وَإِنَّ الشَّانَ الْخَطِيرَ أَيْضاً، أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ قَارَبُوا. واختصاراً لبيان المراد بالتعبير أقول: وَقَدْ كَادُوا.

﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾: اللَّامُ هِيَ اللَّامُ الْفَارِقَةُ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي الْآيَةِ (٧٢).

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَفَزَّهُ، يَسْتَفِزُّهُ» أي: اسْتَحَفَّهُ بِالْمُخِيفَاتِ وَالْمَفْزَعَاتِ، وَاسْتَخْرَجَهُ، وَخَتَلَهُ حَتَّى أَوْقَعَهُ فِيمَا يُكْرَهُ.

﴿وَمِنَ الْأَرْضِ﴾: أي: من مكة الأرض التي تُحبُّها يا مُحَمَّد.

﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾: أي: لِيَجْعَلُوكَ تَخْرُجُ مُهَاجِرًا مِنْهَا، وكان هذا إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الإسراء) ثم إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ اشْتَدَّ بِهِمُ الْغَضَبُ، فَدَبَّرُوا فِي الْخِفَاءِ أَنْ يَسْجُنُوا الرَّسُولَ، أَوْ يَقْتُلُوهُ أَوْ يُخْرِجُوهُ مِنْ مَكَّةَ مَظْرُودًا، وَهُوَ مَا أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي آيَاتٍ أَنْزَلَتْ فِي أَوَاخِرِ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، وَضُمَّتْ إِلَى سُورَةِ الْأَنْفَالِ الْمَدْنِيَّةِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾: ﴿٢٥﴾

وَاسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ أَحْيَاءً عَلَى قَتْلِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بِأَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ لَيْلَةَ إِحَاطَةِ الْمُخْتَارِينَ لِقَتْلِهِ بِهِ، فَرَمَاهُمْ بِحَقْنَةِ مَنَ التَّرَابِ أَصَابَتْ عُيُونَهُمْ جَمِيعًا، فَاسْتَعْلَوْا بِمَعَالِجَةِ التَّخْلِصِ مِمَّا أَصَابَهُمْ، وَمَرَّ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، ظَانِّينَ أَنَّ رِيحًا نَسَفَتْ مِنَ الْأَرْضِ تَرَابًا فَأَصَابَ عُيُونَهُمْ.

فمعنى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا...﴾ ﴿٢٦﴾:

وَقَدْ قَارَبُوا أَنْ يَسْتَخِفُّوكَ بِالْمِشِيرَاتِ الْمَزْعَجَاتِ، وَبِالْمُغْضِبَاتِ، لَتَقَرَّرَ بِنَفْسِكَ الْهِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى غَيْرِهَا، وَغَرَضُهُمْ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا، دُونَ أَنْ يُكْرِهُوكَ عَلَى هَذَا الْخُرُوجِ.

لَكِنَّكَ لَمْ تَتَأَنَّرْ بِمَا فَعَلُوا فَلَمْ تُهَاجِرْ مِنْ مَكَّةَ حِينَئِذٍ، لِأَنَّ الْحَكْمَةَ لَمْ تَقْتَضِ خُرُوجَكَ، فَلَمْ يَأْذَنْ لَكَ رَبُّكَ بِالْهِجْرَةِ.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢٦﴾: أي: وَإِنْ أَخْرَجُوكَ بِالْإِسْتَفْزَازِ

أو بالإكراه، فَإِنَّهُمْ لَا يَلْبُثُونَ بِعَدَاكَ فِي مَكَّةَ إِلَّا زَمَنًا قَلِيلًا، لَأَنَّا نُدَبِّرُ لَهُمْ تَذْبِيرًا يَهْلِكُهُمْ، أَوْ نُخْرِجُهُمْ مِنْهَا مُبْعَدِينَ مَظْرُودِينَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ الْعُودَةَ إِلَيْهَا.

الواو في: ﴿وَإِذَا﴾ تَغَطَّفُ مَخْذُوفًا عَلَى جُمْلَةٍ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ والتقدير [و] إِنْ اسْتَفْزَوْكَ فَأَخْرَجُوكَ ﴿وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا مَا حَصَلَ فِعْلًا إِذ اضْطُرَّ إِلَى الْخُرُوجِ حِينَ هَاجَرَ بَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ لَا تَقِلُّ عَنْ أَرْبَعِ سِنِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ دَبَّرَ اسْتِزْرَاجَهُمْ إِلَى مَصَارِعِهِمْ فِي بَدْرٍ، فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَبُو لَهَبٍ الَّذِي لَمْ يَخْرُجْ مَعَ نَظَرَائِهِ مِنْ أُمَّةِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، أُنْزِلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ دَاءٌ وَبَاطِلًا قَاتِلًا، فَقَضَى عَلَيْهِ بِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ فِي مَكَّةَ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ مِنْهَا إِلَّا زَمَنًا قَلِيلًا، كَمَا حَصَلَ لِبَاقِي أُمَّةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي بَدْرٍ، وَهُمْ أَصْحَابُ تَذْبِيرِ التَّخْلُصِ مِنَ الرَّسُولِ بِالْقَتْلِ.

«إِذَنْ» حَرْفٌ يَقَعُ فِي صَدْرِ الْكَلَامِ مَعْنَاهُ الْجَوَابُ وَالْجِزَاءُ، وَهُوَ كَنَظَائِرِهِ السَّابِقَةِ قَرِيبًا.

﴿لَا يَلْبُثُونَ﴾: أَي: لَا يُقِيمُونَ. يُقَالُ لُغَةً: «لَبِثَ بِالْمَكَانِ يَلْبِثُ، لَبِثًا وَلَبِثًا، فَهُوَ لَا يَبِثُ، وَلَبِثٌ» أَي: أَقَامَ فِيهِ.

﴿خِلَافَكَ﴾: أَي: بِعَدَاكَ.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: أَي: إِلَّا زَمَنًا قَلِيلًا، فَلَفِظَ ﴿قَلِيلًا﴾ صِفَةً لِمَوْصُوفٍ مَخْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ «زَمَنًا» وَقَدْ حَسَّنَ هَذَا الْحَذْفَ أَنَّهُ سَهْلُ الْإِدْرَاكِ وَالِاسْتِخْرَاجِ.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧):

أي: حَالَةٌ كَوْنٍ هَذَا الْعِقَابِ لِمُخْرِجِي رَسُولِهِمْ، المفهوم من عبارة:
 ﴿... وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ سُتْنَا (= طَرِيقَتْنَا الْمَتَّبَعَةُ)
 فِي كُلِّ مَنْ أَخْرَجَ مِنْ بَلَدِهِ مَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا.

وهذه السُّنَّةُ لَا يَتَخَلَّفُ تَطْبِيقُهَا كُلَّمَا وُجِدَ النَّظِيرُ، وَلَا تَجِدُ لَهَا
 تَحْوِيلًا عَنْ مَجْرَاهَا.

ظهر لي إعراب «سُنَّة» حَالًا كَمَا أَوْضَحْتُ، دُونَ مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسَّرُونَ
 مِنْ تَخْرِيجَاتٍ أُخْرَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الثَّالِثِ عَشَرَ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الإسراء).

والحمد لله عَلَى مَدَدِهِ وَمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.



(١٨)

التدبر التحليلي للدرس الرابع عشر من دروس سورة (الإسراء)
 الآيات من (٧٨ - ٨١).

قال الله عز وجل:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ
 كَانَ مَشْهُودًا ۖ﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
 مَحْمُودًا ۖ﴾ (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
 سُلْطَانًا نَصِيرًا ۖ﴾ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۖ﴾ (٨١).

تمهيد:

في هذا الدرس أمرُ للرَّسُولِ ﷺ فَلَكُلُّ مُكَلَّفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلِغَيْرِ
 الْمُسْلِمِينَ شَرْطُ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسَلِّمُوا، بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ فِي أَوْقَاتِ

بيئتها الآيات، وأمر له فلسائر المسلمين، بأن يتَّهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ زيادةً إلزاميةً له، وتَطَوُّعِيَّةً للمسلمين.

وهذا الدَّرْسُ مَوْضُوعٌ فكرياً بالآية الأولى من السورة، التي جاء فيها أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَقَدْ ثَبَّتَ فِي السُّنَّةِ أَنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فُرِضَتْ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ.

وفي هذا الدَّرْسُ بشارة إِمَاحِيَّةٌ بفتح مكَّة، وفيه تعليم الرسول ﷺ مَا يَقُولُهُ عِنْدَ دُخُولِهَا فَاتِحًا.

التدبر التحليلي:

● ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨):

● ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾: أي: أقم الصلاة بعد زوال الشمس عن وسط السماء، وبعد غروب الشمس إلى ظلمة الليل. اللام في عبارة: ﴿لِذُلُوكِ﴾ هي بمعنى بعد كما يقول النحويون.

ذُلُوكُ الشَّمْسِ: جاء في لِسَانِ الْعَرَبِ، لابن منظور، أَنَّ ذُلُوكَ الشَّمْسِ يَأْتِي فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَيْنِ: زَوَالِهَا عَنْ وَسْطِ السَّمَاءِ إِلَى جِهَةِ الْغُرُوبِ، وَهَذَا يَكُونُ فِي مُتَنَصِّفِ النَّهَارِ. وَغُرُوبُهَا، وَهَذَا زَوَالُهَا عَنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ عَنِ السَّمَاءِ كُلِّهَا.

وَأَخْذًا بِدَلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَيْنِ، وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْمُجْتَهِدِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ يَكُونُ الْمَعْنَى كَمَا يَلِي:

أقم الصلاة بعد زوال الشمس عن وسط السماء، وبعد غروبها، وهذه البُعْدِيَّةُ تَسْتَمِرُّ مِنَ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ. ثم من الغروب إلى غَسَقِ اللَّيْلِ.

غَسَقُ اللَّيْلِ: ظُلُمَتُهُ، وَإِذْ بَدَأَ الدُّلُوكُ الْغُرُوبِي مِنْ أَوَّلِ ظُلُمَةِ اللَّيْلِ،
كَانَ مِنَ التَّدْبِيرِ السَّلِيمِ حَمْلُ عِبَارَةٍ: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ عَلَى مَعْنَى إِلَى آخِرِ
غَسَقِ اللَّيْلِ. وَبَعْدَ آخِرِ غَسَقِ اللَّيْلِ يَدْخُلُ الْفَجْرُ، وَهُوَ بَدْءُ وَقْتِ صَلَاةِ
الْفَجْرِ.

وَجَاءَ الْبَيَانُ النَّبَوِيُّ أَخْذًا مِنَ الْوَحْيِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، أَنَّ مَا بَعْدَ دُلُوكِ الشَّمْسِ عَنْ وَسْطِ السَّمَاءِ إِلَى مَا قَبْلَ بَدْءِ غُرُوبِهَا
قَدْ فُرِضَتْ صَلَاتَانِ هُمَا الظُّهْرُ وَالْعَصْرُ، وَأَنَّ مَا بَعْدَ دُلُوكِ الشَّمْسِ وَهُوَ
غُرُوبُهَا كُلُّيًّا قَدْ فُرِضَتْ صَلَاتَانِ هُمَا الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ.

وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ مِنْ جَمْعِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بَعْدَ الدُّلُوكِ الْأَوَّلِ، وَجَمْعِ
الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ بَعْدَ الدُّلُوكِ الثَّانِي، أَنَّ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ تُجْمَعَانِ فِي وَقْتٍ
وَاحِدٍ مُوسَّعٍ فِي حَالَاتِ الْعُذْرِ كَالسَّفَرِ، وَأَنَّ الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ تُجْمَعَانِ
أَيْضًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ مُوسَّعٍ فِي حَالَاتِ الْعُذْرِ.

أَمَّا الصَّلَاةُ الْخَامِسَةُ الْمَفْرُوضَةُ وَهِيَ صَلَاةُ الْفَجْرِ فَقَدْ جَاءَ التَّعْبِيرُ
عَنْهَا بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ ٧٨﴾

وَجَاءَ فِي الْبَيَانِ النَّبَوِيِّ تَحْدِيدُ أَوَّلِ وَقْتِ صَلَاةِ الْفَجْرِ الْمَوْسَعِ،
وَتَحْدِيدُ آخِرِهِ، إِذْ هِيَ لَا تُجْمَعُ مَعَ غَيْرِهَا فِي سَفَرٍ وَلَا مَرَضٍ، وَجَاءَ فِي
بَيَانَاتِهِ تَحْدِيدُ أَوَائِلِ أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ الْأُخْرَى الْمَوْسَعَةِ وَتَحْدِيدُ أَوَاخِرِهَا،
إِلَّا فِي حَالَاتِ الْعُذْرِ الَّتِي تَجْمَعُ فِيهَا صَلَاتَا الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ فِي وَقْتٍ أَيْ
صَلَاةٍ مِنْهُمَا، وَتُجْمَعُ فِيهَا صَلَاتَا الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ فِي وَقْتٍ أَيْ صَلَاةٍ
مِنْهُمَا.

وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ تَلَقَّى مَعْرِفَةَ أَوَائِلِ أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ
وَأَوَاخِرِهَا عَنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أما التعبير عن صلاة الفجر بعبارة: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ فهو من إطلاق البُغْضِ عَلَى الْكُلِّ، باغْتِيَارِ أَنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ أَجَلٌ وَأَعْظَمُ أَرْكَانِهَا الْقَوْلِيَّةُ، وهذا الإطلاق يَنْسَجِبُ عَلَى سَائِرِ الصَّلَوَاتِ، وَخُصِّتْ فِي الْآيَةِ صَلَاةُ الْفَجْرِ بِهَذَا الْإِطْلَاقِ لِمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ صَلَاةُ مَشْهُودَةٍ تَحْضُرُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ مَأْمُورَةٌ بِهَذَا الْحُضُورِ، لِعِظَمِ صَلَاةِ الْفَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِذْ يَشُدُّ بِهَا الْمُصَلُّونَ نُفُوسُهُمْ مِنْ مُضَاجِعِهِمْ شَدًّا فِيهِ كُلْفَةٌ وَمُخَالَفَةٌ لِمَا يُحِبُّونَ مِنَ النَّوْمِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

روى البخاري عن أبي هريرة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«فَضَّلُ صَلَاةِ الْجَمِيعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً. وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ».

يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿... وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

وروى البخاري ومسلم عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

أقول: وَإِذَا رَسَمْنَا دَائِرَةَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ مِنْ تَحْدِيدِ الْأَقْوَاتِ لِلصَّلَوَاتِ، ثُمَّ تَدَبَّرْنَا مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ أَيْضاً مِنْ إِعْلَاءِ لِقِيَمَةِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَشُهُودِ الْمَلَائِكَةِ لَهَا تَرْجَعُ لَدَيْنَا أَنَّ الصَّلَاةَ الْوَسْطَى الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خُطَاباً لِلَّذِينَ آمَنُوا:

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٢٨)

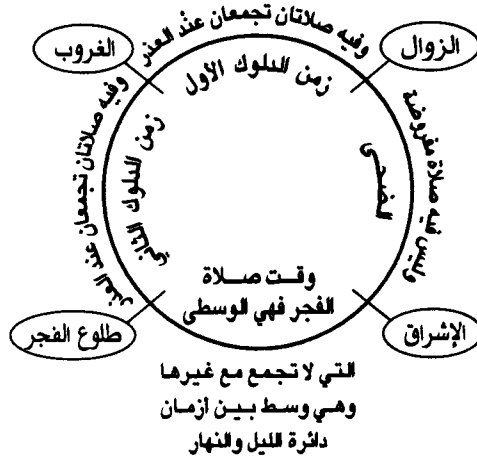
صلاة الفجر، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين والصحابة والتابعين.

إِنَّ صَلَاةَ الْفَجْرِ هِيَ الصَّلَاةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي لَا تُجْمَعُ مَعَ غَيْرِهَا فِي

سَفَرٍ وَلَا حَظْرٍ وَهِيَ صَلَاةٌ وَسْطَىٰ لِأَنَّهَا أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَوَقْتُ أَدَائِهَا يَقَعُ وَسْطًا بَيْنَ زَمَنِ لَيْسَ فِيهِ صَلَاةٌ مَفْرُوضَةٌ، وَزَمَنِ فِيهِ صَلَوَاتٌ مَفْرُوضَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ولكن صحَّ عن النبي ﷺ وصف صلاة العصر بأنها الوسطى، وقد تكون هي وسطى أيضاً بين صلاتي الدلوكن، والله أعلم.

رسم توضيحي لدائرة الليل والنهار وأوقات الصلوات فيها وترجيح أن الصلاة الوسطى هي الفجر



قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله:

- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَاجِدْ لَهُ ۖ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا ۝٧٩﴾ :
- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ : أي: وقُم من اللَّيْلِ، بمعنى: وقم بَعْضَ اللَّيْلِ.
- ﴿فَسَاجِدْ لَهُ﴾ : أي: فَصَلِّ لِرَبِّكَ فِي هَذَا الْبَعْضِ. أَصْلُ مَعْنَى الْهُجُودِ النَّوْمُ، يُقَالُ لَغَةً: «هَجَدَ يَهْجُدُ هُجُودًا» أي: نَامَ. وَجَاءَتْ صِيغَةُ تَهَجَّدَ «تَفَعَّلَ» لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى إِزَالَةِ النَّوْمِ، نَظِيرُ: «تَأْتَمُّ» أَي تَجَنَّبَ الْإِثْمَ، وَ«تَحَرَّجَ» أَي: تَجَنَّبَ الْحَرَجَ.

فَمَعْنَى «تَهَجَّدَ» تَجَنَّبَ الْهُجُودَ، وَهُوَ النَّوْمُ، ثُمَّ صَارَ التَّهَجُّدُ دَالًّا عَلَى الصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ بَعْدَ الْاسْتِيقَازِ مِنَ النَّوْمِ.

﴿نَافِلَةٌ لَّكَ﴾: أَي: زِيَادَةٌ نَافِعَةٌ أَوْ مُوَجَّهَةٌ لَكَ، وَدَلَّ الْأَمْرُ بِعِبَارَةِ «فَتَهَجَّدْ بِهِ» عَلَى الْإِيجَابِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَلَمْ يُحَدِّدِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا التَّنْزِيلِ الْمَدَنِيَّ الْمَضْمُونِ إِلَى سُورَةِ مَكِّيَّةٍ جَاءَ فِيهَا بَيَانُ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ مَقْدَارُ زَمَنِ التَّهَجُّدِ، لِإِشْعَارِهِ بِأَنَّ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْمَزْمَلِ/ ٧٣ مَصْحَف/ ٣ نَزُول) مِنْ إِنْزَامِهِ بِأَنْ يَقُومَ مِنَ اللَّيْلِ نِصْفَهُ أَوْ أَقَلَّ قَلِيلًا أَوْ زَائِدًا عَلَى النِّصْفِ، قَدْ جَاءَ التَّخْفِيفُ مِنْ مَقْدَارِهِ، فَإِذَا قَامَ أَقَلٌّ مِنْ ثَلَاثِ اللَّيْلِ كَانَ مُؤَدِّيًا لِلْوَاجِبِ، ثُمَّ نَزَلَتْ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ سُورَةِ (الْمَزْمَلِ) مُتَضَمِّنَةً تَخْفِيفًا أَكْثَرَ، إِلَى قِرَاءَةِ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي صَلَاةٍ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ.

وَمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، هُوَ سُنَّةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، دَلَّ عَلَى هَذَا الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ.

• ﴿... عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (٧٩): أَي: فَتَهَجَّدْ بِهِ رَاجِيًا مُتَرَقِّبًا أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ الَّذِي تَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالصَّلَاةِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، مُقِيمًا لَكَ مَقَامًا مَحْمُودًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَدْ وَعَدَكَ بِهِ، وَهُوَ سَوْفَ يَحْصُلُ حَتْمًا لَكَ.

ضُمِّنَ الْفِعْلُ فِي [يَبْعَثُكَ] مَعْنَى الْفِعْلِ فِي «يُقِيمُكَ» فَانْتَصَبَ لَفْظُ «مَقَامًا» عَلَى أَنَّهُ ظَرْفُ مَكَانٍ، وَوُصِفَ بِكَوْنِهِ مَحْمُودًا، أَي: تُثْنِي الْخَلَائِقُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَنَاءً عَظِيمًا.

وَيَشْمَلُ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي يُقِيمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ رَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَقَامَهُ حِينَ يَشْفَعُ لِلْخَلَائِقِ^(١)، وَمَقَامَهُ حَامِلًا لَوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَغَيْرُهُمَا مِنْ تَكْرِيمَاتٍ وَتَشْرِيفَاتٍ لِرَسُولِهِ ﷺ.

(١) انظر الملحق الثاني من ملاحق تدبر سورة (طه/ ٤٥ نزول) حول الشفاعة يوم الدين وأنواعها.

قول الله عز وجل لرسوله:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨١) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨٢﴾:

﴿مُدْخَلَ﴾ و﴿مَخْرَجَ﴾ أَسْمَا مَكَانِ الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ وَأَسْمَا زَمَانِهِمَا.

﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾: أي: مُدْخَلًا نِعَمَ هُوَ مُدْخَلًا، وَمُخْرَجًا نِعَمَ هُوَ مُخْرَجًا.

تقول العرب: فَلَانُ رَجُلٌ صِدْقٍ، أي: نِعَمَ هُوَ رَجُلًا. وَفُلَانَةٌ امْرَأَةٌ صِدْقٍ، أي: نِعَمَتْ هِيَ امْرَأَةً.

فهذه العبارة وأمثالها من صِيغِ الثناء وَالْحَمْدِ، ومنها في القرآن: «قَدِمُ صِدْقٍ - مَقْعَدُ صِدْقٍ - لِسَانُ صِدْقٍ - مُبَوِّأُ صِدْقٍ - مُدْخَلُ صِدْقٍ - مُخْرَجُ صِدْقٍ».

وهذا التعبير من إضافة الموصوف إلى صِفَتِهِ، أَصْلُهُ: مُدْخَلُ صِدْقٍ، وَمُخْرَجُ صِدْقٍ. أي: حَقَّقَ الموصوف في الواقع كُلَّ مَا يُطْلَبُ مِنْ كَمَالِ صِفَاتِهِ، فَاسْتَحَقَّ الثناء والمدح بما يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ المِطَابَقَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصُّورَةِ المَثَلِي لِنَوْعِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الصِّدْقُ حَقًّا.

﴿... وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨١):

الْمُرَادُ بِالسُّلْطَانِ هُنَا قُوَّةٌ قَاهِرَةٌ مِنَ اللَّهِ تَنْصُرُهُ عَلَى مَنْ يَكِيدُهُ وَيَكِيدُ الْمُسْلِمِينَ، وَيُقَاوِمُ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ الْحَقِّ.

• ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨٢):

الحقُّ: الْأَمْرُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، الْمَطَابِقُ لِلْوَاقِعِ.

الباطِلُ: ضِدُّ الْحَقِّ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَا ثَبَاتَ لَهُ لِمُخَالَفَتِهِ لِلْوَاقِعِ.

زَهَقَ: أي: ذَهَبَ واضْمَحَلَّ. يقال لغة: «زَهَقَ، يَزْهَقُ، زَهَقًا، وَزُهُوقًا، فهو زَاهِقٌ، وَزُهُوقٌ» أي: زائل مضمحل لا ثَبَاتَ له، ويقال: «زَهَقَتْ نَفْسُهُ» أي: ذَاقَتِ الموتَ مع سُرْعَةٍ وَشِدَّةٍ قَبْلَ أَنْ تَحَقُّقَ مُرَادَاتِهَا مِنْ دُنْيَاهَا.

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾: أي: إِنَّ الباطل من شَأْنِهِ بِصُورَةٍ دَائِمَةٍ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ الزَّهْوَقُ، ولو ظَهَرَ لَهُ زَبَدٌ خَادِعٌ يَحْسِبُهُ الْجَاهِلُ الْمَتَسَرِّعُ أَنِّي النِّظَرُ شَيْئًا ذَا قِيَمَةٍ حَقِيقَةٍ، مع أَنَّهُ فَارِغٌ لَيْسَ لَهُ ظَاهِرٌ مُتَمَاسِكٌ، وَلَا وَزَنٌ لَهُ فِي مَوَازِينِ الْحَقِيقَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ زَهُوقًا عِنْدَ لَمْسَةِ خَفِيفَةٍ تَضْغُطُ عَلَيْهِ. صِيغَةُ «زَهُوقٌ» من صيغِ المبالغة.

وَأَعْتَمِدُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مَا صَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

روى الإمام أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَكَّةَ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْهَجْرَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠).

وَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْمُرَادَ الدُّخُولَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْخُرُوجَ مِنْ مَكَّةَ، بِالنِّظَرِ إِلَى الْمُنَاسَبَةِ، مع صَلَاحِيَّةِ اللَّفْظِ لِكُلِّ دُخُولٍ وَخُرُوجٍ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ لَا فِي مَعْصِيَتِهِ.

وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود، قال: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ (أي: فَاتَحًا) وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُونَ وَثَلَاثُمِائَةَ نُسُوبٍ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ - ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٨١) سُبًّا.

وَنَلْمَحُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿... وَكُلَّ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) إِعْلَامًا ضَمْنِيًّا بِأَنَّهُ مَنْصُورٌ، وَأَنَّهُ فَاتِحٌ مَكَّةَ وَأَنَّهُ

سَيُحْطَمُ الْأَوْتَانُ، وَيَقُولُ مَا جَاءَ فِي هَذَا التَّعْلِيمِ، كَمَا أَثْبَتَ الْوَاقِعَ الْفِعْلِيَّ هَذَا.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الرابع عشر من دروس سورة (الإسراء) والحمد لله على معونته ومدّته وتوفيقه.



(١٩)

التدبر التحليلي للدرس الخامس عشر من دروس سورة (الإسراء) الآية (٨٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢).

القراءات:

• قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [وَنُنَزِّلُ] مِنْ فَعَل «أُنْزَلَ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَنُنَزِّلُ] مِنْ فِعْل «نَزَلَ».

أُنْزَلَ، وَنَزَلَ متكافئان فالمهموز أخو المضعف، وما ذكر من الفرق بينهما لم تثبت عندي في القرآن صحته.

تمهيد:

هذا الدرس عن القرآن، وهو موصول بما جاء في السورة بشأن القرآن في الآيتين (٩ و ١٠) وفي الآيتين (٤٥ و ٤٦).

التدبر التحليلي:

هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ نُجُومِ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ، وَمَا سَبَقَ أَنْ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ لَا

يَبْلُغُ مِقْدَارَ نِصْفِ كَامِلِ الْمُضَحَّفِ، فَحَمَلُ «مِنْ» فِي عِبَارَةِ: ﴿مِنْ الْقُرْآنِ﴾ عَلَى التَّبْعِيضِ يَتْلَاهُمْ مَعَ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ مُنْجَمًا، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ يُرَادُ بِهِ مُتَابَعَةُ تَنْزِيلِهِ حَتَّى آخِرِ تَنْزِيلِ مِنْهُ فِي أَوَاخِرِ الْمَرْحَلَةِ الْمَدْنِيَّةِ.

﴿شِفَاءٌ﴾: الشِّفَاءُ الْبُرْءُ مِنَ الْمَرَضِ، وَقَدْ أُطْلِقَ الْمَرَضُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْمَرَضِ الْجَسَدِيِّ، وَعَلَى الْمَرَضِ النَّفْسِيِّ وَأَخْبَثَهُ مَرَضُ الْقُلُوبِ بِالْكَفْرِ أَوْ بِالنِّفَاقِ، وَدُونَهُ مَرَضُ حُبِّ الْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ الْمَحْرَمَةِ، وَاسْتِعْدَادِ النَّفْسِ لَارْتِكَابِهَا.

فَمِنْ حُسْنِ التَّدْبِيرِ حَمَلُ الشِّفَاءِ عَلَى الْمَعْنِيِّينَ، الشِّفَاءُ مِنَ الْمَرَضِ الْجَسَدِيِّ، وَالشِّفَاءُ مِنَ الْمَرَضِ النَّفْسِيِّ، وَأُطْلِقَ عَلَى الْقُرْآنِ أَنَّهُ شِفَاءٌ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ سَبَبُ شِفَاءٍ، فَهُوَ مِنَ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ.

وَأَعْظَمُ الشِّفَاءَيْنِ مَا كَانَ شِفَاءً لِلْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ، وَهُوَ الْغَرَضُ الْأَعْظَمُ مِنْ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ هُدًى لِلنَّاسِ.

وَبُتِيَ فِي الصَّحِيحِ وَفِي التَّجَرِبَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي لَا يُنْكِرُهَا إِلَّا جَاهِدٌ، تَأْثِيرَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فِي الشِّفَاءِ، مِنَ الْأَمْرَاضِ عَامَّةً، وَمِنَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَأْتِي بِاسْتِخْدَامِ السَّحَرِ، وَمِنَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تَكُونُ بِتَأْثِيرِ الْإِصَابَةِ بَعِيْنٍ حَاسِدٍ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ قَالَ:

انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمْ، فَلَدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَوْ أَتَيْنَاهُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُمْ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْقِي، وَلَكِنْ اسْتَصَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُصَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعَلًا.

فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الْعَنَمِ، فَاِنْطَلَقَ يَتَفَلُّ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢١﴾ فَكَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَاِنْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلْبَةٌ^(١).

قال: فَأَوْفَوْهُمْ جُعَلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فقال بَعْضُهُمْ اقْتَسِمُوا، فقال الَّذِي رَقِيَ: لَا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فنَذْكُرْ لَهُ الَّذِي كَانَ، فنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَّرُوا لَهُ فَقَالَ: «وَمَا يُذَرِّيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟!» ثم قال: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْتَسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا».

• ﴿وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: وَمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ عِلْمٍ وَحَقٍّ وَهَدَايَةٍ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، رَحْمَةً لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، كُلَّمَا تَدَبَّرُوا مِنْهُ آيَةً فَإِنَّهُ، فَيَذْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ إِلَى تَطْبِيقِ أَحْكَامِ شَرِيعَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ.

أُظْلِقَ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَنَّهُ رَحْمَةٌ، لِأَنَّهُ أَثَرٌ تَعْلِيمِيٌّ وَبَيَانِيٌّ مِنْ آثَارِ صِفَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ بَعْبَادِهِ، وَالْمُتَنَفِّعُونَ مِنْ آثَارِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ هُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ فِيهَا.

وهذا الإطلاق يُسَمَّى عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ مَجَازاً مُرْسَلاً، وَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ السَّبَبِ عَلَى الْمُسَبَّبِ.

• ﴿... وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٢﴾: أي: وَلَا يَزِيدُ كُلُّ نَجْمٍ قُرْآنِيٍّ يَنْزِلُ فَرِيقَ الظَّالِمِينَ بِكُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ إِلَّا خَسَاراً مِمَّا كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يُحَقِّقُوهُ بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ، فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

(١) وَمَا بِهِ قَلْبَةٌ: أي: وَمَا بِهِ عِلَّةٌ وَلَا أَلَمٌ وَلَا دَاءٌ، بِقِرَاءَةِ الصَّحَابِيِّ لِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ.

الخسار: النَّقْصُ، وهو يَشْمَلُ الحرمانَ من السَّعَادَةِ يَوْمَ الدِّينِ،
وَالْهُبُوطُ فِي دَرَكَاتِ الْعَذَابِ فِي دَارِ الْعَذَابِ، فَكُلُّ دَرَكَةٍ هِيَ أَحْطُّ مِنَ الَّتِي
فَوْقَهَا، يَكُونُ فِيهَا نَقْصٌ فِي الرَّاحَةِ مِنَ الْعَذَابِ، بِسَبَبِ الزِّيَادَةِ فِيهِ
بَانْحِطَاطِ الدَّرَكَةِ.

وفي هذا التَّعْبِيرِ مِنَ الدَّقَّةِ فِي النُّظَرَةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْحِسَابِ الرِّيَاضِيِّ،
مَا يُثِيرُ إعْجَابَ الْمُتَدَبِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْفِكْرِ أُولِي الْأَلْبَابِ.

وبهذا انتهى تدبُّر الدرس الخامس عشر من دروس سورة (الإسراء)
والحمد لله على مَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ.



(٢٠)

التدبر التحليلي للدرس السادس عشر من دروس سورة (الإسراء) الأيتان: (٨٣ و ٨٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾
قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾:

القراءات:

٨٣ - • قرأ أبْنُ ذَكْوَانَ، وَأَبُو جَعْفَرٍ: [وَنَاءً]: أَي: وَنَهَضَ كَالْمُنْقَلِ
مِنْ حِمْلٍ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِبْتِعَادِ عَنْ رَبِّهِ وَطَاعَتِهِ، مَعَ الظُّهُورِ بِمُظْهِرِ
الاسْتِكْبَارِ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَنَأَى]: أَي: ابْتَعَدَ.

وَبَيَّنَ هَاتَيْنِ الْقَرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، فَقَرَاءَةُ: [وَنَاءً]
تَدُلُّ عَلَى إِعْرَاضِ الْمُتَنَاقِلِ الْمُسْتَكْبِرِ، وَهَذِهِ صِفَةُ بَعْضِ النَّاسِ. وَقَرَاءَةُ

[وَنَائِي] تَذُلُّ على الإعراض مع الابتعاد عن الرَّبِّ وطاعته، دون استكبار، وهذه صفة بعض الناس.

تمهيد:

في هذا الدرس بيانُ وصفِ الإنسان الجَحُودِ الكَنُودِ، إذ من شأنِهِ أَنْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إذا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَوَسَّعَ لَهُ من محابِّهِ من زينات الحياة الدُّنيا ومَتَاعَاتِهَا، أَعْرَضَ عَنِ رَبِّهِ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِ، وَمَشَى بَيْنَ النَّاسِ مُسْتَكْبِرًا بما آتَاهُ اللهُ، أو أَعْرَضَ وَابْتَعَدَ عَنِ الصَّلَاةِ بِرَبِّهِ وَعَنِ الْعَمَلِ بِمَرْضِيهِ. أَمَّا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ مَسًّا خَفِيفًا فَإِنَّهُ يَكُونُ يَوْسًا حَزِينًا مُتَضَجِّرًا.

وهذا الدرس مَوْضُوعٌ ببعض ما جاء في السورة عَنْ وصف سلوك الإنسان في الآية (١١) وفي الآيات من (٦٧ - ٦٩) فَوْضُفُ الْإِنْسَانِ أَحَدُ فُرُوعِ شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السورة.

التدبر التحليلي:

● ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾: أي: وَإِذَا أَعْطَيْنَا الْإِنْسَانَ عَطَاءً وَاسِعًا مِنْ محابِّهِ من متاع الحياة الدنيا. والمرادُ بِالْإِنْسَانِ النَّوعُ، وَيَصْدُقُ بما هُوَ دُونَ الاستغراق.

والواقع يَدُلُّ على أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ باستثناء العدد القليل منهم يَنْطَبِقُ عليهم الوصف الذي جاء في هذا الدرس.

﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾: أَعْرَضَ: أي: التَّفَتَّ وَأَعْطَى عَارِضَهُ، وهو جَانِبُ وَجْهِهِ، عُرِضَ الشَّيْءُ جَانِبُهُ، وعَارِضُ الْإِنْسَانِ صَفْحَتَا خَدَّيْهِ. والإعراض: مَنَزَلَةٌ وَسَطَى بَيْنَ الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ.

ونَائِي بِجَانِبِهِ: أي: وَابْتَعَدَ بِجَانِبِهِ عَنِ رَبِّهِ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَوَسَّعَ عَلَيْهِ من محابِّهِ من دُنْيَاهُ، زَائِدًا عَنْ حَاجَاتِهِ.

يقال لغة: «نَأَى، يَنَأَى، نَأْيًا، فهو نَائٍ» أي: بَعْدَ.

وفي القراءة الأخرى: ﴿وَنَاءَ بِجَانِبِهِ﴾: أي: وَنَهَضَ بِجَانِبِهِ مَتَابِلًا، كما يَفْعَلُ الْمُسْتَكْبِرُونَ. وقد يكون بِمَعْنَى غِيَابِهِ غِيَابًا كُلِّيًّا، كما يَسْقُطُ النجم غَائِبًا عِنْدَ الفجر، وَهَذِهِ حَالَةٌ أَشَدُّ مِنَ الإِعْرَاضِ وَالنَّأْيِ، وَهَذَا الْغِيَابُ التَّامُّ عَنِ الْمُنْعِمِ يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْجَا حِدِينَ.

• ﴿... وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (٨٣): الْمَسُّ: يُطْلَقُ عَلَى وَضُوعِ سَطْحِ الشَّيْءِ إِلَى سَطْحِ الشَّيْءِ الْآخَرِ، دُونَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ تَحْتَ السَّطْحِ.

الْيُؤُوسُ: صِيغَةُ مَبَالِغَةٍ لاسِمِ الْفَاعِلِ «يَأْسُ» أَي مَنقُوعِ الْأَمَلِ.

الْيَأْسُ مِنَ الشَّيْءِ: انْقِطَاعُ الْأَمَلِ مِنْهُ، وَانْتِفَاءُ الْقَطْمَعِ فِيهِ. يَقَالُ لُغَةً: «يَيْسَ مِنْهُ يَيْسًا، وَيَيْئُسُ، يَأْسًا، وَيَأْسَةً» أَي: انْقَطَعَ أَمَلُهُ مِنْهُ، وَانْتَفَى طَمَعُهُ فِيهِ.

فَمَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا أَتَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (٨٣): وَمِنْ سُلُوكِ الْإِنْسَانِ (أَي: فِي مُعْظَمِ أَفْرَادِهِ): الْاِخْتِيَارِيُّ الَّذِي لَا جَبْرَ فِيهِ أَنَّهُ إِذَا وَسَّعْنَا لَهُ الْعَطَاءَ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَتَنَتْهُ ذَلِكَ، فَأَعْرَضَ عَنِ رَبِّهِ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِ، وَابْتَعَدَ بِجَانِبِهِ عَنِ ذِكْرِهِ، وَمُرَاقَبَتِهِ، وَطَاعَتِهِ، أَوْ اسْتَكْبَرَ، أَوْ غَابَ غِيَابًا كُلِّيًّا، وَسَارَ فِي سُبُلِ الشَّيْطَانِ. وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ مَسًّا خَفِيفًا صَارَ شَدِيدَ الْيَأْسِ، مُنْقَطِعَ الْأَمَلِ، ظَانًّا أَنَّهُ لَا خَلَاصَ لَهُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي جَاءَتْ بِدَائِيَّتِهِ مَسًّا.

اسْتُعْمِلَ لَفْظُ «كَانَ» هُنَا بِمَعْنَى «صَارَ» وَهَذَا أَحَدُ الْمَعَانِي الَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهِ فِعْلُ «كَانَ».

قول الله عز وجل لرسوله فلنكل حامله رسالته من أمته:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (٨٤):

﴿عَلَى شَاكِلَتَيْهِ﴾: أي: على ما في نفسه من عوامِل تُوجِّهُ إِرَادَتَهُ الحُرَّة. وعلى وفق الطريقة والسيرة التي اعتادها في حياته.

أي: قُلْ أَيُّهَا النَّاصِحُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَعْرَضُوا وَنَأَوْا بِجَوَانِبِهِمْ، وَإِذَا مَسَّهُمُ الشَّرُّ كَانُوا يَؤُوسِينَ: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ يَعْمَلُ فِي حَيَاتِهِ الَّتِي وُضِعَ فِيهَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، عَلَى وَفْقِ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ عَوَامِلٍ تُوجِّهُ إِرَادَتَهُ الحُرَّة، وعلى وَفْقِ الطريقة الَّتِي اعْتَادَهَا فِي حَيَاتِهِ.

وبما أَنَّ النَّاسَ مُخْتَلِفُونَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَفَاوَتْوا فِي مَنَازِلِهِمْ، ارْتِقَاءً وَهُبُوطاً فِي سُلَمِ الْهِدَايَةِ وَالضَّلَالِ، وَتَفَاوَتْهُمْ هَذَا يَجْعَلُ بَعْضُهُمْ أَهْدَى مِنْ بَعْضٍ، أَوْ أَضَلَّ مِنْ بَعْضٍ، وَلِهَذَا يَقُولُ النَّاصِحُ الدَّاعِي لَهُمْ:

فَرَبُّكُمْ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى مِنْكُمْ سَبِيلًا مُوَصِّلًا إِلَى سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، أَوْ أَحْطَ دَرَكَةً نَازِلَةً إِلَى عَذَابِ اللَّهِ.

وبهذا انتهى تدبُّر الدرس السادس عشر من دروس سورة (الإسراء)

والحمد لله على مَدَدِهِ وتوفيقه ومعونته.



(٢١)

التدبُّر التحليلي للدرس السابع عشر من دروس سورة (الإسراء)
(الآية ٨٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)

تمهيد:

في هذا الدرس بيان السؤال عن الروح، والإجابة الربَّانية على هذا السؤال.

ويظهر أنّ السؤال عن الرُّوح قد تكررَ في هذه المرحَلة من مراحل سيرة الرسول ﷺ الدَّعْوِيَّة، فكان من الحكمة الإجابةُ عَلَى هذا السُّؤال.

التدبر التحليلي:

دَلَّ عَلَى تَكَرُّرِ سَوَالِ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ عَنِ الرُّوحِ، بِمَعْنَى السُّوَالِ عَنْ حَقِيقَتِهَا وَمَاهِيَّتِهَا، اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى التَّكَرُّارِ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾.

وسؤال هؤلاء الرُّسُولِ ﷺ عن الرُّوحِ، من الأحداث الَّتِي وَقَعَتْ إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الإسراء) فكان من الحكمة إنزالُ هذه الآية، وَضْمُهَا إِلَى الْمَعَالِجَاتِ الْمُتَعَلِّقَاتِ بِكُبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ الَّتِي اسْتَمَلَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ السُّورَةُ.

وجاء في سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي عن أبْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ: أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ عَنْهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، قَالَ: فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)».

وقد كان بين قريش في مكة وبين يهود المدينة صلّات، ومنها صلّات تجارية.

وروى محمد بن إسحاق أنّ قُرَيْشًا بَعَثُوا النَّضَرَ بْنَ الْحَارِثِ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ إِلَى أَحْبَارِ الْيَهُودِ بِشَرْبِ، يَسْأَلَانِهِمْ عَنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الْيَهُودُ لَهُمَا: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثَةِ: وَذَكَرُوا لَهُمْ أَهْلَ الْكَهْفِ، وَذَا الْقُرْنَيْنِ، وَعَنِ الرُّوحِ.

أقول: ويظهر أنّهم سألوه إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الإسراء) عن الرُّوحِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ. ثُمَّ سَأَلُوهُ إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (الكهف/ ١٨)

مصحف/ ٦٩ نزول) عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَعَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا أَخْبَاراً عَنْهُمَا.

وَصَحَّ أَيْضاً أَنَّ بَعْضَ الْيَهُودِ سَأَلُوا الرَّسُولَ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ هَجْرَتِهِ إِلَيْهَا عَنِ الرُّوحِ، فَأَجَابَهُمْ بِمَا كَانَ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، بَعْدَ أَنْ تَرَيْتُمْ قَلِيلاً بَانْتِظَارَ مَا يَجِيءُ بِهِ الْوَحْيُ.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال:

«بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْثٍ وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَسِيبٍ^(١)، إِذْ مَرَّ الْيَهُودَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُمْ إِلَيْهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَسْتَقْبِلُنَّكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَقَالُوا: سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئاً، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، فَقُمْتُ مَقَامِي، فَلَمَّا نَزَلَ الْوَحْيُ قَالَ: ﴿وَسَلُّوْكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (٨٥)».

وروى مسلم نظير هذه الرواية التي رواها البخاري رحمهما الله.

وَيَذُلُّ التَّغْلِيمُ الرَّبَّانِيُّ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ عَلَى أَنَّهَا مَخْلُوقٌ مُبْتَدِئُ الْوُجُودِ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ مُبَاشَرَةً. وَأَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَمْ يُسْتَحْدَمْ فِي خَلْقِهِ مَخْلُوقٌ آخَرُ، قَدْ سَبَقَ خَلْقُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ، بِخِلَافِ جِسْمِ الْإِنْسَانِ مَثَلًا، فَقَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مَخْلُوقٍ سَبَقَ أَنْ خَلَقَهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَهُوَ الْمَاءُ وَالتَّرَابُ.

أَمَّا الرُّوحُ فَقَدْ صَدَرَ خَلْقُهُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيِّ.

ولفظ «الرُّوح» يذكّر ويؤنّث، فيقال: هو الرُّوح، وهي الرُّوح.

الرُّوح: هو المَخْلُوقُ الْعَجِيبُ الْخَفِيُّ الَّذِي تَكُونُ بِهِ الْمَخْلُوقَاتُ

(١) الْعَسِيبُ: جريدة النَّخْلِ الْمُسْتَقِيمَةِ، يُكْشَطُ خَوْضُهَا.

ذَوَاتُ الْحَيَاةِ حَيَّةٌ، فهو ما به تَكُونُ الْحَيَاةُ فِي الْأَشْيَاءِ.

وَالرُّوحُ فِي الْإِنْسَانِ شَيْءٌ غَيْرُ نَفْسِهِ، إِذْ نَفْسُهُ هِيَ الشَّيْءُ الَّذِي طَبَعَ اللَّهُ فِيهِ طَبْعَةً صِفَاتِهِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، وَهُوَ مَا يَحْتَوِي عَلَى مَا يُسَمَّى: «جِنَاتِهِ الْوَرَائِثِيَّةُ» أَوْ «الْكُرْمُوزُومَاتِ الْحَامِلَاتِ لَصِفَاتِهِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ» بِحَسَبِ مَكْتَشَفَاتِ عُلَمَاءِ الْأَحْيَاءِ الْمَعَاصِرِينَ، الْقَابِلَةِ لِلتَّكْمِيلِ وَالزِّيَادَةِ، بِتَطْوِيرِ أَدَوَاتِ الْمَعْرِفَةِ، وَمَتَابَعَةِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيَّةِ.

وَالنَّفْسُ: هِيَ الَّتِي تَذُوقُ الْمَوْتَ بِانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنْهَا.

أَمَّا مَعْرِفَةُ حَقِيقَةِ الرُّوحِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْأَحْيَاءُ ذَاتَ حَيَاةٍ، فَقَدْ دَلَّ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ: ﴿... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ عَلَى أَنَّ النَّاسَ لَمْ يُؤْتُوا مِنَ الْقُدْرَاتِ الْإِذْرَاقِيَّةِ، وَلَا مِنْ أَسْبَابِهَا وَوَسَائِلِهَا، مَا يُوصِلُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الرُّوحِ، فَاسْتُخْدِمَتِ الْعِبَارَةُ كُنَايَةً عَنْ هَذَا.

وَيَعْتَرِفُ الْعُلَمَاءُ الْكَوْنِيُّونَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَأَنَّ عِلْمَهُمْ عَلَى اتِّسَاعِهِ فِي الْقُرُونِ الْمُعَاصِرَةِ مَا زَالَ فِي بَدَايَاتِ شَوَاطِئِ بَحُورِ الْعِلْمِ الْمَتَوَعِّلَةِ فِي غُيُوبٍ لَا تُعْرَفُ لَهَا نِهَايَاتُ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس السابع عشر من دُرُوسِ سُورَةِ (الإسراء).

والحمد لله على مَدَدِهِ وَمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.

(٢٢)

التدبر التحليلي للدرس الثامن عشر من دُرُوسِ سُورَةِ (الإسراء)
الآيات من (٨٦ - ٨٩)

قال الله عز وجل:

﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ

الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ :

القراءات:

٨٨ و ٨٩ - • قرأ ابن كثير: [الْقُرْآن] وحمزة في الوقف فقط.

وقراها باقي القراء العشرة: [الْقُرْآن].

تمهيد:

هذا دَرَس يتعلّق بالقرآن، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ لو شاءَ لمَسَح من ذاكَرَةِ الرُّسُول ﷺ كُلَّ ما يَحْفَظُ مِنْهُ، وفيه تَحَدُّ لِلنَّاسِ وَالْجِنِّ بَأَن يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا.

وهذا الدرس موصول بخط الحديث عَنِ الْقُرْآن فِي السُّورَةِ، الَّذِي تَعَلَّقَتْ بِهِ الْآيَات (٩) وَ(٣٩) (٤٥) وَ(٤٦) وَ(٦٠) وَ(٧٣) وَمِنَ الْآيَات (٨٦ - ٨٩) ثُمَّ الْآيَةُ (١٠٥) وَ(١٠٦).

التدبر التحليلي:

إلحاقاً بالتربية التي جاءت في الدرس الثالث عشر، في الآية:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِفَتَرَىٰ عَلَيْنَا عَیْرًا وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ حَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ وفي الآيتين بعدها، جاء قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ:

﴿وَلَيْنِ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ :

أي: لَسْتَ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الَّذِي تَتْلُو الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِكَ اسْتِخْرَاجاً مِنْ قُدْرَاتِكَ، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ أَوْحَيْنَا بِهِ إِلَيْكَ، وَنَحْنُ الَّذِينَ نُنَبِّئُهُ فِي ذَاكَرَتِكَ

فَنَجْعَلُكَ لَا تَنْسَاهُ، وَلَكِنْ شِئْنَا أَنْ نَمْسَحَهُ مِنْ ذَاكِرَتِكَ لَنَذْهَبَنَّ بِهِ، فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتْلُو مِنْهُ سُورَةً أَوْ آيَةً أَوْ كَلِمَةً.

ثُمَّ إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، فَلَوْ حَاوَلْتَ أَنْ تَقْتَرِيَ عَلَيْنَا شَيْئًا غَيْرَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ وَكَيْلًا لَكَ عَلَيْنَا ذَا سُلْطَةٍ عَلَيْنَا أَوْ شِفَاعَةٍ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ، لِنُعِيدَ إِلَى ذَاكِرَتِكَ مَا مَسَحْنَاهُ مِنْهَا.

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا فِي الدَّرْسِ الثَّالِثِ عَشَرَ، أَنَّ الْخِطَابَ الْمَوْجَّهَ فِيهِ ظَاهِرًا لِلرَّسُولِ ﷺ، هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ تَبْيِيسٌ بِقُوَّةٍ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ يُطَالِبُونَ الرَّسُولَ بِتَغْيِيرِ بَعْضِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يَكْرَهُونَ، وَنَظِيرُهُ مَا جَاءَ فِي هَذَا الدَّرْسِ الثَّامِنِ عَشَرَ.

وهذا من قبيل قول الأب لابنه في نفسه: عَلَيْكَ أَقْسُو يَا حَبِيبِي لِيَأْسَ مِنَ الطَّمَعِ فِي سَفَهَاءِ أَوْلَادِ الْجِرَانِ.

اللام في ﴿لَكِنْ﴾ مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ الْمَنُويِّ. وَجُمْلَةُ: ﴿لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ جَوَابُ الْقَسَمِ.

قول الله عز وجل في الآية التالية:

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٨٧):

أي: لَكِنْ ثَبَّتْنَاكَ فَلَمْ تَرْكُنْ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، وَاثْبَتْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فِي ذَاكِرَتِكَ رَحْمَةً بِكَ مُوجَّهَةً مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِنَا لَكَ، فَتَفَضَّلْنَا عَلَيْكَ بِتَبْيِيسِكَ، وَبِعَدَمِ مَسْحِ مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ ذَاكِرَتِكَ.

اختيرت عبارة ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ بَدَلِ صَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ الْعَظِيمِ «مَنَا» لِلدَّلَالَةِ عَلَى صِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ وَفَضْلُهُ.

وبهذا الفهم تكون «إِلَّا» بِمَعْنَى «لَكِنْ» الِاسْتِدْرَاكِيَّةِ، وَهَذَا فِيمَا ظَهَرَ لِي أَوَّلَى مِنْ اعْتِبَارِهَا اسْتِثْنَائِيَّةً تَذُلُّ عَلَى مَحْذُوفَاتٍ مَطْوِيَّاتٍ تَحْتَاجُ تَقْدِيرًا.

وَأَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَضْلَهُ الْكَبِيرَ عَلَى رَسُولِهِ فَقَالَ لَهُ فِي الْآيَةِ:
﴿... إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧﴾: أي: إِنَّ فَضْلَ رَبِّكَ عَلَيْكَ هُوَ
دَوَامًا فَضْلٌ كَبِيرٌ.

الفضل: الزيادة مما يُحَمَّدُ غالبًا. وَالْكَبَرُ يَكُونُ فِي الْمَادِّيَّاتِ وَفِي
المعنويات.

كيف لا يكون فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظِيمًا، وَقَدْ جَعَلَهُ أَفْضَلَ خَلْقِهِ، وَخَاتَمَ
أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ أَعْظَمَ كُتُبِهِ، وَأَكْرَمَهُ بِالْإِسْرَاءِ، وَبِالْمَعْرَاجِ
إِلَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خِصَائِصٍ.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ:

﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾:

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: مُعِينًا، يُطْلَقُ لَفْظُ «ظَهِيرٍ» عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ.

إِنَّ غُرُوضَ الْمَزَالِقِ الَّتِي حَاوَلَ أَيْمَةُ الْمُشْرِكِينَ بِهَا إِغْرَاءَ الرَّسُولِ أَنْ يُبَدِّلَ
مَا كَرِهُوا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَيَجْعَلَ فِي مَكَانِهَا آيَاتٍ تُرْضِيهِمْ، تُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ
يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ وَضْعِ مُحَمَّدٍ وَابْتِكَارَاتِهِ وَتَأْلِيفَاتِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّهُ تَنْزِيلُ
رَبِّهِ افْتِرَاءً عَلَيْهِ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَكْلِيفُهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ أَنَا عَاجِزٌ عَنِ الْإِتْيَانِ
بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، إِذْ لَيْسَ فِي قُدْرَاتِي وَلَا فِي قُدْرَاتِ جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ أَنْ
يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَأَنَا أَتَحَدَّائِكُمْ يَا بُلْغَاءَ الْعَرَبِ وَفُصَحَاءَهُمْ أَنْ تَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

بل أقول لَكُمْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ: أَقْسِمُ لَكُمْ: لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ كُلُّهُمْ،
مَعَ الْجِنِّ كُلِّهِمْ، عَازِمِينَ بِكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُدْرَاتٍ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ، فِي إِعْجَازِهِ الْبَيَانِيِّ، فِي إِعْجَازِهِ الْعِلْمِيِّ، وَفِي إِعْجَازِهِ التَّشْرِيعِيِّ،
وَفِي سَائِرِ جَوَانِبِ إِعْجَازِهِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مُعِينًا.

أَي: فَلَا تَزْعُمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ وَضْعِي وَابْتِكَارَاتِي وَتَأْلِيفِي، إِنَّمَا أَنَا
بِالنُّسْبَةِ إِلَيْهِ مُجَرَّدٌ مُبْلَغٌ وَمُبَيَّنٌ وَشَارِحٌ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ لِلنَّاسِ.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا﴾ (٨٩):

في هذه الآية بيان من الله عز وجل بشأن إحدَى مُعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ،
وهي اسْتِمَالُهُ عَلَى ذِكْرِ نَمُودَجٍ (مَثَلٍ) أَوْ أَكْثَرَ، لِكُلِّ نَوْعٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ
تَشْرِيعٍ، أَوْ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، مِمَّا تَقْتَضِيهِ هِدَايَةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ فِي
رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهَذَا بِالنُّسْبَةِ إِلَى مَا قَضَتْ حُكْمَ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ إِنْزَالَهُ مِنَ الدِّينِ حَتَّى نَزَلَ هَذِهِ السُّورَةُ.

ثُمَّ يَأْتِي الْقِيَاسُ الْمُسْتَنَدُ إِلَى شُمُولِ الْأَحْكَامِ لِلْمُتَمَائِلَاتِ الَّتِي تَقْضِي
بِهِ أَصُولُ الْحَقَائِقِ، أَوْ تَقْضِي بِهِ حِكْمَةُ الْخَالِقِ فِي خَلْقِهِ، وَفِي تَصَارِيفِ
عَدْلِهِ، وَفِي ثَبَاتِ سُنَنِهِ، فَيَنْتِجُ أَحْكَامًا عَامَةً تَشْمَلُ سَائِرَ الْأَفْرَادِ الْمُمَائِلَةِ
لِمَا جَاءَ فِي الْمَثَلِ.

• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾: الْوَائِدُ حَرْفٌ يَعْطِفُ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْآيَاتِ السَّابِقَةِ
الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقُرْآنِ. «لَقَدْ» عِبَارَةٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ خَبَرٍ.
صَرَّفْنَا: التَّصْرِيفُ: التَّدْبِيرُ، وَالتَّنْوِيعُ، وَالتَّغْيِيرُ، وَاتِّخَاذُ مُخْتَلِفِ الْوُجُوهِ
الْمُمْكِنَةِ لِلْوَصْلِ إِلَى الْغَايَةِ.

• ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾: أَي: الَّذِي نُنَزَّلُهُ تَبَاعًا عَلَى مُحَمَّدٍ آيَاتٍ وَسُورًا
فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ.

• ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾: أَي: مِنْ كُلِّ نَمُودَجٍ هُوَ قَرَدٌ مِنْ أَفْرَادِ صِنْفِهِ، أَوْ
نَوْعِهِ أَوْ جِنْسِهِ، لِقِيَاسِ سَائِرِ أَمْثَالِهِ عَلَيْهِ فِي حُكْمِهِ.

• ﴿... فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٩١﴾ :

الكُفُور: مَصْدَرٌ بِمَعْنَى «الكُفْر» وهو أَبْلَغُ من الكُفْرِ أَخْذًا من زِيَادَةِ المَبْنَى الَّتِي تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ المعنى. قال الأَخْفَشُ: الكُفُور: جَمْعُ الكُفْرِ، مثل بُرْدٍ وَبُرُودٍ.

الكُفْر: سَتْرُ الْحَقِّ وَأَدِلَّةُ الْحَقِّ وَبَرَاهِينِهِ بِالْمَغَالِطَاتِ وَزَخَارِفِ الْأَقْوَالِ، وَبِالْجُحُودِ وَالْعِنَادِ وَطَرَحِ التَّشْكِيكَاتِ.

أي: فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ فِي مَكَّةَ إِيَّانَ التَّنْزِيلِ إِلَّا أَنْ يَكْفُرُوا كُفْرَ إِصْرَارٍ عَلَى الْبَاطِلِ، وَجُحُودٍ لِلْحَقِّ، وَعِنَادٍ بِحِمَاقَةٍ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ تَلَيَّ عَلَيْهِمْ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ تَضْرِيْفٍ فِي الْأَدِلَّةِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالتَّرْغِيبِ وَالْعِظَاتِ وَتَقْدِيمِ نَمُودَجٍ أَوْ أَكْثَرَ، لِكُلِّ صِنْفٍ، أَوْ نَوْعٍ، أَوْ جَنْسٍ، مِمَّا تَقْتَضِيهِ هِدَايَةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، مِنْ قَضَايَا أُصُولِ الْإِيمَانِ، وَأُصُولِ الْأَخْلَاقِ، وَقَوَاعِدِ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قَضَايَا.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الثامن عشر من دروس سورة (الإسراء)

والحمد لله على مَدَدِهِ وَمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.



(٢٣)

التدبر التحليلي للدرس التاسع عشر من دروس سورة (الإسراء)

الآيات من (٩٠ - ١٠٠)

قال الله عز وجل:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝٩١ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩٢ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَكُةَ قَبِيلًا ۝٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ

زُحْرَفٍ أَوْ تَرَفٍّ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمًا وَيَكْفُرُوا بِمَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا وَإِنَّا لَلْبَعُوثُونَ خَلَقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكُمْ خَشْيَةُ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ * .

القراءات:

٩٠ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر:

[تَفْجَرًا] مِنْ فِعْلٍ «فَجَرَ» الْمَضْعَفُ .

وقراها باقي القراء العشرة: [تَفْجَرًا] مِنْ فِعْلٍ «فَجَرَ» غَيْرِ الْمَضْعَفِ .

والقراءتان تُعْبِرَانِ عَنْ مَقَالَتَيْنِ قَالَهُمَا كِبَرَاءُ كِفَارٍ قَرِيشٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: حَتَّى تَفْجَرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، مَشِيرًا إِلَى أَرْضِ لَيْثَةِ هَيْثَةٍ .
وقال بعضهم: حَتَّى تُفْجَرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا مَشِيرًا إِلَى أَرْضِ صُخْرِيَّةِ صَعْبَةِ التَّشَقُّقِ .

٩٢ - • قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر: [كِسْفًا] بِفَتْحِ

السَّيْنِ .

وقراها باقي القراء العشرة بِإِسْكَانِ السَّيْنِ: [كِسْفًا] .

كِسْفٌ، وَكِسْفٌ: جَمْعُ «كِسْفَةٍ» بِمَعْنَى: قِطْعَةٍ، فَالْقَرَاءَتَانِ مُتَكَافِئَتَانِ .

٩٣ - • قرأ أبو عمرو، وَيَعْقُوبُ: [تُنْزَلُ] مِنْ فعل: «أُنْزِلَ».

وقراها باقي القراء العشرة: [تُنْزَلُ] من فعل: «نَزَلَ».

أَنْزَلَ، وَنَزَلَ متكايفتان، فالمهموز أخو المضعف.

٩٣ - • قرأ ابن كثير، وأبْنُ عامر: [قَالَ سُبْحَانَ] بالفعل الماضي.

وقراها باقي القراء العشرة: [قُلْ سُبْحَانَ] بفعل الأمر.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، أي: قال الله عز وجل له: قُلْ: فقال.

٩٧ - • أثبت الياء في لفظ [الْمُهْتَدِي] نافع، وأبو عمرو، وأبو

جعفر، في الوصل، وأثبتها في الوصل والوقف يعقوب.

وحذفها باقي القراء العشرة، فقالوا: [الْمُهْتَدِ] وهذا الحذف من

الإيجاز الذي له نظائر.

٩٨ - • تَوَجَّدَ فِي [أَعْدَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَعْدَا] القراءات التي ذُكِرَتْ

في الآية (٤٩).

١٠٠ - • فتح ياء المتكلم في [رَبِّي إِذَا] نافع، وأبو عمرو، وأبو

جعفر. وأسكنها باقي القراء العشرة.

تمهيد:

في هذا الدرس بيان بعض مطالب كُبراءٍ مُشركي مَكَّةَ التَّعْتِيَةِ مِنَ

الخوارق إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، مع بيان حِكْمَةِ اللَّهِ فِي عَدَمِ الاسْتِجَابَةِ لِمَطَالِبِهِمْ.

وفيه إنذارٌ لَهُمْ وَتَرْهيبٌ من عذاب شديدٍ يَوْمَ الدِّينِ.

وفيه ردٌّ عَلَى بَعْضِ أَسْئَلَةِ مَطْوِيَّةٍ فِي النَّصِّ مُوجَّهَةٍ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا،

وَتَدُلُّ عَلَيْهَا الْإِجَابَةُ الْمَصْرُوحُ بِهَا.

وتفصيلُ بعضِ المطالبِ التَّعَنُّيَّةِ، مُتَّصِلٌ بما جاء في الآية (٥٩) من السورة، وهي قولُ الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا نَمُودُ النَّافَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٥٩):

التدبر التحليلي:

طالب المعنيون بالمعالجة في السورة الرسول ﷺ بأن يأتيهم بخوارق ذكروها، واعتبروها شروطاً للإيمان به والإسلام له، ومن هذه الخوارق ما يكون سبباً لإهلاكهم، ظناً منهم أنه لا يقدر على شيء منها، وهي ستة خوارق ذكروها.

الخارق الأول: أن «يُفَجَّرَ» أو «يُفَجَّرَ» على القراءتين لهم في أرض مكة ينبوعاً، أي عين ماء تجري: دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ حكاية لمطلبهم التعنُّي: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٠): أي: لن نؤمن بك مسلمين لك، ضمن فعل «نؤمن» معنى فعل «نسلم» فعُدِّي تعديته، فأغنت الجملة عن جملتين.

• ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾: أي: حتى تُخرج لنا عين ماءٍ وتُسْقَ لها طريقاً.

الخارق الثاني: أن تكون له جنة من نخيل وعنب في مكة وأن يفجر الأنهار خلالها تفجيراً، وأن يكون ذلك بخارق للعادة، دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ حكاية لقولهم: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٩١):

الجنة: ما يحتوي على أشجار، ثمار، وزروع، وأنهار، وقصور.

تُفَجَّرُ: مُبالغة «تفجر» أي: تُسْقَى لِماءِ العيون أنهاراً.

تَفْجِيرًا: مَفْعُول مُطْلَق لفعل «تَفْجَرُ».

الخارق الثالث: تَحَدُّوا الرَّسُولَ فِيهِ أَنْ يُسْقِطَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ قِطْعًا تُهْلِكُهُمْ، إِذْ كَانَ ﷺ قَدْ تَوَعَّدَهُمْ بِذَلِكَ، دَلٌّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِهِمْ: ﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا...﴾ (٩٢) ﴿: كِسَفًا، وَكِسْفًا: أَي: قِطْعًا، جَمْعُ «كِسْفَةٍ». أَي: حَالَةٌ كَوْنِهَا قِطْعًا قَاتِلَةً مُهْلِكَةً.

إِنَّهُمْ لَا يَطْلُبُونَ إِهْلَاكَهُمْ بِقِطْعٍ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ، وَإِنَّمَا يَظُنُّونَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَا يَمْلِكُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُسْقِطَ عَلَيْهِمْ لِإِهْلَاكَهُمْ هَذِهِ الْكِسْفَ، فَهُمْ يَتَحَدَّوْنَهُ بِهَذَا.

الخارق الرابع: أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ مُجْتَمِعِينَ، لِيَشْهَدُوا لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ آيَاتِهِ الْمُنَزَّلَاتِ، دَلٌّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِهِمْ: ﴿... أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا﴾ (٩٢) ﴿:

الْقَبِيلُ فِي اللُّغَةِ: الْجَمَاعَةُ، وَيُطْلَقُ عَلَى الصَّامِنِ وَالْكَفِيلِ، وَيُفْهَمُ مِنْ طَلَبِهِمُ الْإِتْيَانَ بِاللَّهِ وَبِالْمَلَائِكَةِ جَمَاعَةً، أَنْ يَأْتِيَ بِهِمْ لِيَشْهَدُوا لَهُ بِالنَّبَوَّةِ وَالرَّسَالَةِ، وَلِيَكُونُوا بِمَثَابَةِ ضَامِنٍ وَكَفِيلٍ يَضْمَنُونَ وَيَكْفُلُونَ أَنْ مَا يَنْقُلُهُ عَنْ رَبِّهِ حَقٌّ وَصِدْقٌ. ﴿قِيْلًا﴾: مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِيَةِ.

وظَاهِرٌ أَنَّ هَذَا مَطْلَبٌ تَعَنُّيٌّ لَا يَطْلُبُهُ عَاقِلٌ رَشِيدٌ، فَلَوْ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ، أَوْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مَلَائِكَةً، لَمَا بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا بَشَرًا مِنْهُمْ.

الخارق الخامس: أَنْ يَكُونَ لَهُ بِخَارِقٍ بَيِّنٌ مِنْ ذَهَبٍ، دَلٌّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِهِمْ: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيِّنٌ مِنْ ذُرْئِ...﴾ (٩٢) ﴿:

الزُّخْرُفُ: الذَّهَبُ. وَيُطْلَقُ عَلَى الزَّيْنَةِ وَكِمَالِ حُسْنِ الشَّيْءِ، وَظَاهِرٌ أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا الذَّهَبَ، فَقَدْ كَانَ الذَّهَبُ هُوَ الْمَادَّةُ النَّادِرَةُ الْعَظِيمَةُ فِي تَصَوُّرَاتِهِمْ.

الخارق السادس: أَنْ يَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَهُمْ يُشَاهِدُونَ رُقِيَّهٗ، وَيُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا يَقْرَؤُونَهُ، دَلٌّ عَلَى هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِهِمْ:

﴿... أَوْ تَرَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَقْرُؤُهُ...﴾ (٩٣)

أي: وَلَوْ رَقَيْتَ فِي السَّمَاءِ فَلَنْ نُؤْمِنَ بِكَ لِأَجْلِ رُقِيِّكَ حَتَّىٰ نُنَزِّلَ عَلَيْكَ كِتَابًا رَبَّانِيًّا مِنَ السَّمَاءِ نَقْرُؤُهُ.

يُقَالُ لُغَةً: «رَقِيَ فِي الشَّيْءِ يَرْقَى، رَقِيًّا، وَرُقِيًّا» أَي: صَعِدَ. وَمِنْهُ: «رَقِيَ فِي السَّلَمِ» أَي: صَعِدَ فِيهِ.

مَطَالِبُ تَعَتُّيَّةٍ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ لِيُؤْمِنُوا بِهِ، بَلْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ جَاحِدُونَ مُكَابِرُونَ مُعَانِدُونَ، فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَلْيِيسُ شَيْءٍ مِنْ مَطَالِبِهِمْ.

بَعْدَ ذِكْرِ مَطَالِبِهِمُ التَّعَتُّيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْعِنَادِ، وَبَيَانِ عَدَمِ اسْتِعْدَادِهِمُ الْإِيمَانَ بِالْحَقِّ وَلَوْ ظَهَرَ لَهُمْ ظُهُورُ الشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ، عَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولُهُ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ فَقَالَ تَعَالَى:

﴿... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣) وَفِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى: [قَالَ]:

﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾: أَي: تَنْزِيهًا لِرَبِّي، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ تُسْتَعْمَلُ فِي التَّعَجُّبِ، وَفِي التَّعَجُّبِ.

أي: عَجَبًا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُتَعَتُّتُونَ عَلَى رَبِّكُمْ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُنْزَهُوهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمِنْهُ خَرَقَ نِظَامِهِ فِي كَوْنِهِ اسْتِجَابَةً لِمَطَالِبِ الْكَافُورِينَ الْجَحُودِينَ الْمُعَانِدِينَ الْمُتَعَتِّتِينَ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مُسْتَيْقِنُونَ فِي قُلُوبِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ.

• ﴿... هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣)؟! أي: هَلْ وَضَعِي الدائم إِلَّا أَنِّي بَشَرٌ رَسُولٌ، أُحْمِلُ إِلَيْكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي فَأَنَا أُبَلِّغُكُمْ إِيَّاهَا كَمَا أَوْحَى إِلَيَّ بِهَا؟! إِنِّي لَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّي رَبُّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ أَخْلُقَ، وَأَتَصَرَّفَ فِي الْكَوْنِ عَلَى مَا أُرِيدُ، حَتَّى تَطْلُبُوا مِنِّي هَذِهِ الْمَطَالِبَ التَّعْتِيَّةَ، أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَقَدْ اخْتَارَنِي اللَّهُ لِحَمْلِ رَسُولَتِهِ لِلنَّاسِ، فَإِنْ قَبِلْتُمُوهَا فَرَبُّكُمْ يُبَشِّرُكُمْ بِنَعِيمٍ خَالِدٍ أَبَدِيٍّ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوهَا فَرَبُّكُمْ يُنْذِرُكُمْ بِعَذَابٍ خَالِدٍ أَبَدِيٍّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاخْتَارُوا لِنُفُوسِكُمْ مَا تَشَاءُونَ، لَا جَبْرَ لَكُمْ وَلَا إِكْرَاهَ.

الاستفهام في هذه العبارة استفهام تَعَجُّبِيٍّ مِنْ مَطَالِبِهِمُ التَّعْتِيَّةِ الَّتِي لَا يَطْلُبُهَا مَنْصِفٌ يَنْشُدُ الْحَقَّ.

وبمناسبة تَعْلِيمِ اللَّهِ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ هَذَا الْقَوْلَ، أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ كَوْنَ رَسُولِهِ بَشَرًا هُوَ مِنَ الْمَوَانِعِ الَّتِي مَنَعَتْ هَؤُلَاءِ الْمَعَالَجِينَ مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا بَلَّغَهُمْ عَنْ رَبِّهِ، وَأَنَّ هَذَا الْمَانِعَ نَفْسَهُ قَدْ كَانَ مَانِعَ كُفَّارِ الْقُرُونِ الْأُولَى مِنَ الْإِيمَانِ بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَاتِّبَاعِ الْهُدَى الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ، فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ:

• ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤):

أي: فَكَانَ اسْتِكْبَارُهُمْ عَنْ اتِّبَاعِ رَسُولٍ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ، هُوَ الْمَانِعَ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ، وَقَبُولِ الْهُدَى الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ^(١).

قول الكافرين:

﴿... أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾؟ استفهام إنكاري، معناه: لَيْسَ مِنْ

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر سورة (يس/ ٤١) حول «بيان اعتراض الأمم على بَشَرِيَّةِ الرُّسُلِ».

الْمُمْكِن، أَوْ لَيْسَ مِنَ الْمَعْقُول، أَوْ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ، أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا، لِيُبَلِّغَ عَنْهُ مَطْلُوبَاتِهِ مِنْ عِبَادِهِ، وَقَضَايَا دِينِهِ الَّذِي اخْتَارَهُ لَهُمْ. فَمَنْ يَدَّعِي مِنَ الْبَشَرِ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ يَحْمِلُ لِلنَّاسِ رَسُولًا مِنْ رَبِّهِ، هُوَ مُدَّعٍ كَذَّابٌ، لَهُ غَايَاتٌ وَمَصَالِحٌ دُنْيَوِيَّةٌ مِنْ إِيْمَانِ النَّاسِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ.

وجاء التَّعْلِيمُ الرَّبَّانِيُّ لِلرَّدِّ عَلَى هَذِهِ الشُّبْهَةِ، بَيَّانٍ أَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَى الْبَشَرِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ، لَا مَلَكًا كَمَا يَتَوَهَّمُ الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى بَشَرِيَّةِ الرَّسُولِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَتَّبِعُكُمْ مُطْمَئِنَّةً لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٩٥):

﴿مُطْمَئِنَّةً﴾: أَي: ثَابِتِينَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مُسْتَقَرِّينَ، وَلَيْسُوا نُورَانِيَّينَ لَا تَجْذِبُهُمُ الْأَرْضُ بِجَاذِبِيَّتِهَا.

وفي الكلام هُنَا عِبَارَةٌ مَطْوِيَّةٌ مَحْذُوفَةٌ لَفْظًا، مُقَدَّرَةٌ ذَهْنًا، تَقْدِيرُهَا: وَكَانُوا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ كَالْإِنْسِ، وَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةَ إِزْسَالَ رَسُولٍ إِلَيْهِمْ مِنْ نَوْعِهِمْ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا، لِأَنَّ الْحِكْمَةَ حِينَئِذٍ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ مِنْ نَوْعِهِمْ مَلَكًا، لَهُ مِثْلُ صِفَاتِهِمُ الْعَامَّةِ تَمَامًا.

وكذلك حَالُ الْبَشَرِ، تَقْتَضِي الْحِكْمَةَ السَّيِّئَةَ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ بَشَرًا مِثْلَ سَائِرِ الْبَشَرِ، غَرَائِزُهُ مِثْلُ غَرَائِزِهِمْ، وَشَهَوَاتُهُ مِثْلُ شَهَوَاتِهِمْ، وَحَاجَاتُهُ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِثْلُ حَاجَاتِهِمْ، كَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ، وَالْعَمَلِ لَاكْتِسَابِ رِزْقِهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، لِيَكُونَ فِي إِيْمَانِهِ وَإِسْلَامِهِ وَكُلِّ سُلُوكَاتِهِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ.

فَالْمَعْنَى: لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ تَجْذِبُهُمُ الْأَرْضُ بِجَاذِبِيَّتِهَا،

تَجْعَلُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى ظَهْرِهَا مُسْتَقَرِّينَ ثَابِتِينَ، وَكَانُوا مَوْضُوعِينَ مِثْلَ الْإِنْسِ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَنَزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا، يُبَلِّغُهُمْ تَعْلِيمَاتِ الدِّينِ، وَمَطَالِبَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَاتَّبَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا التَّعْلِيمَ بِتَّعْلِيمٍ آخَرَ يَخْتَصُّ بِكَوْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا صَادِقًا أَرْسَلَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩١)

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمَكْذِبِي أَنَّكَ رَسُولُ رَبِّكَ: إِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ لِي بِأَنِّي رَسُولُهُ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يَشْهَدُ لِي.

كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا: أي: كَفَى اللَّهُ، فَالْبَاءُ زَائِدَةٌ لِلتَّوَكُّيدِ، وَالْمَعْنَى: أَغْنَى اللَّهُ حَالَةَ كَوْنِهِ شَهِيدًا، طَالِبَ تَثْبُتٍ مِنْ كَوْنِ مُحَمَّدٍ رَسُولَ رَبِّهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

وشهادة الله عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ، تَظْهَرُ بِمُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، ثُمَّ بِالآيَاتِ الْخَوَارِقِ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، وَمِنْهَا آيَةُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وَآيَةُ الْإِسْرَاءِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَالآيَاتِ الَّتِي سَيُؤْتِيهِ إِيَّاهَا مُسْتَقْبَلًا، بَعْدَ انْزَالِ هَذَا الْبَيَانِ.

وَجَاءَتْ عِبَارَةٌ: ﴿... إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩١) لِإِسْعَارِ الْمَكْذِبِينَ بِأَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عَلِيمًا تَامًا بِهِمْ، نَاشِئًا عَنْ خَبْرَةٍ وَرُؤْيَا نَافِذَةٍ إِلَى الْأَعْمَاقِ، فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّوَثُّقِ مِنْ كَوْنِ مُحَمَّدٍ رَسُولَ اللَّهِ، يُهَيِّئُ اللَّهُ لَهُ مَا يُوصِلُهُ إِلَى الْاِسْتِيقَانِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِي، وَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْتَيَقِّنٌ جَاحِدٌ مُعَانِدٌ، يُعَامِلُهُ اللَّهُ بِحَسَبِ مَا فِي نَفْسِهِ عَلَى وَفْقٍ مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ.

وَبِنَاءً عَلَى عِلْمِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ عِلْمٌ خَبْرَةٌ وَرُؤْيَا نَافِذَةٌ إِلَى أَعْمَاقِ السَّرَائِرِ، فَإِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَحْكُمُ بِهَدَايَةٍ مَنِ اهْتَدَى بِاخْتِيَارِهِ الْحَرِّ، وَيَحْكُمُ بِضَلَالٍ مَنْ

ضَلَّ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرَّ، وَمَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ لَهُ بِالْهُدَايَةِ فَهُوَ الْمُهْتَدِي حَقًّا، وَمَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ، نَالَ عُقُوبَةَ ضَلَالِهِ بِحَسَبِ دَرَجَتِهِ وَانْحِطَاطِهَا فِي الْإِثْمِ وَالْجُرْمِ، وَمَهْمَا اجْتَهَدَ بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ، فَإِنَّهُ لَنْ يَجِدَ نَصِيرًا يَنْصُرُهُ، وَلَا وَلِيًّا يَتَوَلَّى أَمْرَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لِيُدْفَعَ أَوْ يَرْفَعَ عَنْهُ عَذَابُ اللَّهِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ بِعَدْلِ اللَّهِ، عَلَى مَا اكْتَسَبَ مِنْ آثَامٍ وَجَرَائِمٍ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ:

• ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنْصِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمٌ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا زُرْقًا أَنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾:

• ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ لَهُ بِالْهُدَايَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ مُهْتَدِيًا فَعَلًا بِاخْتِيَارِهِ الْحَرَّ، فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَهُوَ الْمُهْتَدِي حَقًّا، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ ثَوَابَ الْمُهْتَدِينَ بِحَسَبِ دَرَجَتِهِ فِي الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، وَفِعْلِ الصَّالِحَاتِ.

وَلَا أَحَدٌ فِي الْوُجُودِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُغَيِّرَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِ، إِذَا الْحُكْمُ فِي الْهُدَايَةِ وَالضَّلَالَةِ لِلَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا مُعَقَّبٌ لِحُكْمِهِ.

حُذِفَتِ الْيَاءُ مِنَ «الْمُهْتَدِي» تَخْفِيفًا فِي اللَّفْظِ وَإِيجَازًا، وَلَهُ نَظَائِرٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ.

و«مَنْ» الشَّرْطِيَّةُ مِنَ أَلْفَاظِ الْعُمُومِ، وَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ إِنْسَانٍ يَحْكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِالْهُدَايَةِ، وَأُعِيدَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ الْإِنْفِرَادَ مَرَاعَاةً لِلْفُظْهِ.

• ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ...﴾ ﴿٩٧﴾: أي: وَمَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالضَّلَالَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ فَعَلًا بِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَّ، فِي رِحَالِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَهُمْ الضَّالُّونُ حَقًّا، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

يَسْتَحِقُّ مِنْ عِقَابِ الضَّالِّينَ بِحَسَبِ ذَرَكَتِهِ فِي الْكُفْرِ وَارْتِكَابِ الْآثَامِ
وَالْجَرَائِمِ وَفِعْلِ السَّيِّئَاتِ الْكُبْرَيَاتِ .

وَلَنْ تَجِدَ أَيُّهَا الْبَاحِثُ الْمَتَابِعَ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَكَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
بِالضَّلَالِ، أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَنْصُرُونَهُمْ، فَيَذْفَعُونَ أَوْ يَرْفَعُونَ عَنْهُمْ
عَذَابَ اللَّهِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ عَلَيْهِمْ، أَوْ شَيْئاً مِنْهُ .

ولا أحدَ في الوجود قادرٌ على أن يُغيِّرَ حُكْمَ اللَّهِ في واحدٍ ما منهم،
إذ الحكمُ في الهداية والضلالِ لله وحده لا شريك له، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .

أَعِيدَتِ الضَّمَاثِرُ هُنَا عَلَى «مَنْ» الشَّرْطِيَّةِ بِالْجَمْعِ مُرَاعَاةً لِمَعْنَاهَا .

وجاء هذا التغير في التعبير فنَّاً بديعاً، لِمَا في التنوع في البَيَانِ مِنْ
تَأْثِيرٍ يُذَكِّرُكَ الْبُلْغَاءَ، وَلِأَنَّ الضَّالِّينَ يَحْسُنُ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُمْ مَا يَلِيقُ بِهِمْ
مِنْ جَعْلِهِمْ رُكَّامًا، وَإِلْقَائِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إلقاءً كَبَّاءَ فِيهِ إِهَانَةٌ وَإِذْلَالٌ .

أَوْلِيَاءَ: جَمْعُ «وَلِيٍّ» والمرادُ بِهِ هُنَا التَّصِيرُ، قَرِيبًا فِي النَّسَبِ كَانَ أَمْ
غَيْرَ قَرِيبٍ .

ومن صُورِ عِقَابِ الضَّالِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ يُخْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ
عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا، وهذا خاصٌّ بِبَعْضِ أَخْوَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، جَمْعًا بَيْنَ
مُخْتَلِفِ النُّصُوصِ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿... وَخَشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا...﴾ (٩٧) :

الْحَشَرُ: الْجَمْعُ وَالسَّوْقُ .

عُمِيًّا: جَمْعُ «أَعْمَى» وَهُوَ فَاقِدُ الْبَصَرِ .

بُكْمًا: جَمْعُ «أَبْكَمَ» وَهُوَ الْعَاجِزُ عَنِ النَّطْقِ .

صُمًّا: جَمْعُ «أَصَمَّ» وَهُوَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ الْأَصْوَاتِ .

وقد سبقَ لَدَى تَدَبُّرِ الآيَةِ (٣٤) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بيانٌ تَدَبُّرِيٌّ فِيهِ بَعْضُ تَفْصِيلٍ عَنِ الْحَشْرِ يَخْسُنُ النَّظْرُ فِيهِ^(١).

وَبَعْدَ الْحَشْرِ وَالْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقِضَاءِ يَكُونُ مَأْوَاهُمْ الدَّائِمُ فِي جَهَنَّمَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَتِمَّةِ الآيَةِ:

• ﴿...مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧):

الْمَأْوَى: الْمَنْزِلُ وَالْمَكَانُ الَّذِي يُنْزَلُ فِيهِ وَيُسْكَنُ. يُقَالُ لُغَةً: «أَوَى الْمَكَانَ يَأْوِيهِ، وَأَوَى إِلَيْهِ يَأْوِي» أَي: نَزَلَ بِهِ وَسَكَنَهُ.

جَهَنَّمُ: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيُعَذَّبَ فِيهَا الْكَافِرِينَ وَالْعُصَاةَ يَوْمَ الدِّينِ. وَهُوَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعِلْمِيَّةِ وَالتَّانِيثِ.

وَيُقَالُ لِلْقَعْرِ الْبَعِيدِ فِي اللُّغَةِ: جَهَنَّمُ.

خَبَتْ: أَي: سَكَنْتْ وَخَمَدَ لَهَبُهَا، يُقَالُ لُغَةً: «خَبَتْ النَّارُ، تَخْبُو، خَبُوءًا، وَخَبُوءًا» أَي: سَكَنْتْ وَخَمَدَ لَهَبُهَا.

سَعِيرًا: السَّعِيرُ: النَّارُ، وَقِيلَ لَهَبُ النَّارِ.

وَفِي عِبَارَةٍ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ دَلَالَةٌ عَلَى خُلُوقِهِمْ فِي جَهَنَّمَ.

فَالْمَعْنَى: وَمَكَانُ إِقَامَةِ الَّذِينَ يَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالضَّلَالِ يَوْمَ الدِّينِ الدَّائِمَةُ، يَكُونُ فِي دَارِ الْعَذَابِ جَهَنَّمَ، الَّتِي تَتَوَقَّدُ النَّارُ ذَاتُ اللَّهَبِ فِيهَا، وَكُلَّمَا سَكَنْتْ وَخَمَدَ لَهَبُهَا زَادَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَعِيرًا، لِئَلَّا تَقِلَّ نِسْبَةُ عَذَابِ الْمَعَذِبِينَ الْمَجْرِمِينَ فِيهَا، إِذْ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، وَلَا هُمْ مِنْهَا مُخْرَجُونَ.

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، أَبَانَ السَّبَبَ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ هَذَا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ الخالد، فقال تبارك وتعالى:

• ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أَوَّانًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٩٨) :

المشارُ إليه باسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ حَشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا، وَتَغْذِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا. وَ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ خَبَرٌ ﴿ذَلِكَ﴾.

أَمَّا السَّبَبُ فَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى غُنْصَرَيْنِ:

الأول: أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ، وَالْإِعْجَازِيَّةِ، وَالْبَيَانِيَّةِ، وَالْجَزَائِيَّةِ.

الثاني: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ، وَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا التَّعْجُبُ بِعِبَارَةٍ: ﴿أَوَّانًا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أَوَّانًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟. وَقَدْ سَبَقَ شَرْحُ عِبَارَتِهِمْ هَذِهِ لَدَى تَذَكُّرِ الْآيَةِ (٤٩) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ.

وَبَعْدَ هَذَا وَجَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِقْرَةً مِنْ فِقَرَاتِ عِلَاجِهِمْ، دُونَ أَنْ يُوَاجِهَهُمْ بِالخُطَابِ، بَلْ تَحَدَّثَ عَنْهُمْ بِأَسْلُوبِ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَائِبِينَ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٩٩) :

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِمُقْتَضَى الْعِلَاجِ فِيهَا، عَلَى أَنَّ الْمَعَالَجِينَ مُعْجَبُونَ بِنُفُوسِهِمْ، وَبِمَا أَوْتُوا مِنْ فِطْنَةٍ وَقُدْرَةٍ عَلَى الْبَيَانِ، وَتَمَيَّزَ بِصِفَاتِهِمِ الدَّائِيَّةِ، وَهَذَا قَدْ جَعَلَهُمْ يَسْتَكْبِرُونَ، وَتَنْتَفِخُ صُدُورُهُمْ بِالْعُجْبِ، وَيَقُولُونَ فِي نَفْسِهِمْ: لَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نَتَّبِعَ رَجُلًا مِنَّا هُوَ دُونَنَا فِي الْمَكَانَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَلَيْسَ عَظِيمًا مِنْ عَظَمَاءِ قَوْمِنَا.

فَتَحَدَّثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ، مُعْرِضاً عَنْ مُوَاجَهَتِهِمْ تَصْغِيراً لَهُمْ،
وَتَحْطِئاً لِمَا تَصَلَّبَ مِنْ غُنْجِيَّاتِهِمْ، فقال تعالى:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: أي: أَنْظَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ، وَسَلَبَتْ فِطْنَتُهُمْ، وَلَمْ يَرَوْا
بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُدْرَاتِ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَاسْتِنْبَاطٍ.

• ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وَهُمْ بَعْضُ مَخْلُوقَاتِهِ الْكَثِيرَةِ
فِي الْأَرْضِ.

• ﴿قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: فِي صِفَاتِهِمِ الذَّاتِيَّةِ، ثُمَّ لَا
يَكُونُونَ أَمْثَالَهُمْ فِي صِفَاتِهِمُ السُّلُوكِيَّةِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ، بَلْ سَيَخْتَارُونَ أَنْ يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ مُتَّبِعِينَ رَسُولَ رَبِّهِمْ.

• ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
خَلَقَهُمْ، جَعَلَ لِبَقَاءِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَجَلاً تَنْتَهِي عَنْدهُ
حَيَاتُهُ بِالْمَوْتِ، فَهُمْ لَيَسُوا خَالِدِينَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ حَتَّى يَفْتِنَهُمُ الشُّعُورُ
بِالْخُلُودِ عَنْ إِدْرَاكِ الْحِكْمَةِ مِنْ خَلْقِهِمْ، وَهِيَ امْتِحَانُهُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا، لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وَفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ مُجَازَاتِهِمْ عَلَى مَا قَدَّمُوا فِي
رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَهَذَا الْأَجَلُ الْمَحْتَمُومُ لَا يَشْكُونُ فِيهِ، إِذْ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ
اِحْتِمَالُ الشُّكِّ، أَخْذاً مِنْ وَاقِعِ حَالِ كُلِّ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ بَشَرٍ وَأَحْيَاءٍ أُخْرَى
فِي الْأَرْضِ.

الأجل: يَأْتِي بِمَعْنَى غَايَةِ الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لشيءٍ ما، أَوِ الْمَأْذُونِ بِهِ،
هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُرَادُ هُنَا كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ. وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ
لِحُصُولِ الشَّيْءِ وَابْتِدَاءِ زَمَانِهِ. وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْمُدَّةِ الْمُحَدَّدَةِ لِلشيءِ
وَالْمَحْضُورَةِ بَيْنَ أَوَّلٍ وَآخِرٍ.

لَا رَيْبَ فِيهِ: أي: لَا يُوجَدُ فِيهِ اِحْتِمَالٌ لِلشُّكِّ، فَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي
الطَّمَعِ فِي الْخُلُودِ بِهِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

• ﴿... فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُّوا﴾ ﴿٩٩﴾: وَضِعَ الوُضْفُ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ موضع الضمير العائد على المعالجين، وهُم الجاحِدُونَ المعانِدُونَ مِنْ كِبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، للدَّلَالَةِ عَلَى صِفَةِ الظُّلْمِ فِيهِمْ، الَّتِي جَعَلَتْهُمْ يَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ كُفْرًا مُوْغِلًا فِي ظُلُمَاتِ الْجَرِيْمَةِ وَالْإِثْمِ وَالْجُحُودِ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ ظُهُورِ أدِلَّةِ الْحَقِّ.

كُفُّورًا: الكُفُّور: مَصْدَرٌ بِمَعْنَى «الكُفْر» وهو أَبْلَغُ مِنَ الكُفْرِ أَخْذًا مِنْ زِيَادَةِ الْمَبْنِىِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ الْمَعْنَى. قال الْأَخْفَشُ: الكُفُّور: جَمْعُ الكُفْرِ، مِثْلُ بُرْدٍ، وَبُرُودٍ.

وَبَعْدَ هَذَا عَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رُسُولَهُ مُعَالَجَةَ لَهُمْ، تَتَعَلَّقُ بِتَفْضِيلِ اللَّهِ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ بِمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ فِي امْتِحَانِهِمْ، وَهُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَتَيْنِ (٢٠ و ٢١) وَيُظْهِرُ مِنَ الْمُعَالَجَةِ أَنَّهُمْ اغْتَرَضُوا عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ فِي مَنَحِ عِبَادِهِ الْأَرْزَاقَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرُسُولِهِ، فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

• ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٠٠﴾:

أَي: قُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَظِيمُ الْجُودِ، وَلَكِنَّ لَهُ حِكْمًا فِي عَطَائِهِ وَمَنْعِهِ، وَفِي التَّوَسُّعِ عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَى آخَرِينَ، ضَمَّنَ طُرُوفَ حَيَاةِ الْامْتِحَانِ، لاختِيارِ النَّاسِ فِيمَا آتَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِ خَصَائِصِ نَفْسِهِ، فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ لَيْسَ قَتُورًا كَمَا تَتَوَهَّمُونَ، وَعِنْدَهُ الْخَزَائِنُ الَّتِي لَا تَنْفَدُ، وَهِيَ مِنْ أَثَارِ فَيْضِ عَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ، بَلِ الْإِنْسَانُ هُوَ الْقَتُورُ، لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ نَفَادِ الْخَزَائِنِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْفَدُ.

﴿لَوْ﴾ هُنَا حَرْفُ شَرْطٍ بِمَنْزِلَةِ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ.

﴿إِذَا﴾: حَرْفُ جَوَابٍ وَجَزَاءٍ لِكَلَامِ سَابِقٍ.

﴿لَأَمْسَكُنَّ﴾: أي: لَبَخِلْتُمْ فَأَمْتَنَعْتُمْ عَنِ الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ.

﴿خَشِيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾: أي: خَوْفَ فَنَاءِ خَزَائِنِ اللَّهِ الَّتِي لَا تَنْفَدُ.

أَضْلُ مَعْنَى «الْإِنْفَاقِ» إِفْنَاءُ الْمَالِ. وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْفَقْرِ وَالْإِمْلَاقِ،
أي: فَانْتُمْ تَبْخُلُونَ فَتَمْتَنِعُونَ عَنِ الْبَذْلِ خَوْفَ الْفَقْرِ، مَعَ أَنَّ خَزَائِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ
لَا تَنْفَدُ، وَمَهْمَا بُذِلَ مِنْهَا فَإِنَّهَا لَا تَنْقُصُ إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ مِنَ الْبَحْرِ
إِذَا أُدْخِلَ فِيهِ.

﴿...وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾: أي: وَالْإِنْسَانُ بَخِيلٌ بِالْكَيْفُونَةِ الدَّائِمَةِ.

قَتُورًا: أي: بَخِيلًا.

وبهذا انتهت تدبر الدرس التاسع عشر من دروس سورة (الإسراء).

والحمد لله على مَدَدِهِ وَمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.



(٢٤)

التدبر التحليلي للدرس العشرين من دروس سورة (الإسراء)

الآيات من (١٠١ - ١٠٤)

قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نِسْعَ آيَاتٍ يَبَيِّنُهَا فَنَسَىٰ بَيْنَ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ
فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَزَلُ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاحِبٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّسَبِّحًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ
مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعْمُومٍ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا
الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾:

القراءات:

١٠١ - • قرأ ابنُ كثير، والكسائي، وخلف: [فَسَلْ] وَصَلًا وَوَقْفًا،
وقراها حمزة كذلك في الوقف.

وقراها باقي القراء العشرة: [فَأَسْأَلْ].

والقراءتان وجهانِ عَرَبِيَّانِ في فعل الأمر من «سَأَلَ».

١٠٢ - • قرأ الكسائي: [لَقَدْ عَلِمْتُ] بضمير المتكلم وهو موسى
عليه السلام.

وقراها باقي القراء العشرة: [لَقَدْ عَلِمْتُ] بضمير المخاطب وهو
فرعون.

وبين القراءتين تكاملٌ في بيانِ الواقع الذي أجاب به موسى عليه
السلام، فَقَدْ قَالَ لِفِرْعَوْنَ: لَقَدْ عَلِمْتُ، وقال له: لَقَدْ عَلِمْتُ.

تمهيد:

في هذا الدرس عَرَضُ لِقَطَاتٍ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع
فِرْعَوْنَ وقومه، وبيان ما انتهوا إليه إِذْ أَغْرَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِرْعَوْنَ وَمَنْ
خَرَجَ مَعَهُ لِقِتَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْفَارِينَ مِنْ مِصْرَ بِقِيَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيه بَيَانٌ مَا قَالَهُ عَزَّ وَجَلَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى، بِأَمْرِ تَكْوِينِيٍّ
جَعَلَهُمْ بِهِ مُوزَعِينَ فِي شَتَّى الْأَرْضِ، ثُمَّ يَأْتِي بِهِمْ إِلَى فِلِسْطِينَ لَفِيضًا،
لِيَكُونَ لَهُمْ عُلُوٌّ مُؤَقَّتٌ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ لِيُلَاقُوا مَصِيرَهُمُ الْمَحْتُومِ، بِحَسَبِ
سُنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ.

وآياتُ هذا الدرسِ مَوْصُولَةٌ بِآيَاتِ الدرسِ الثاني من دُرُوسِ السُّورَةِ،
وهو الآيات من (٢ - ٨) وَفَقَّ الْمَنْهَجُ الْمُخْتَارُ فِي السُّورَةِ، مِنْ تَوَزِيعِ
أَجْزَاءِ فُرُوعِ شَجَرَتِهَا عَلَى سَاقِهَا الْأَعْظَمِ الْمُمتَدِّ ارْتِفَاعًا.

ومن الفروع المجزأة الموزعة الحديث عن القرآن، والحديث عن الإنسان. وبيان أدلة توحيد الربوبية والإلهية لله الرب جلّ جلاله. وبيان سُننِ الله في عباده في الحياة الدنيا. وَوَصَايَا الله لِمَنْ يَسْتَجِيبُ مِنْ عِبَادِهِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ. وَتَرْبِيَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ. وَعِلَاجُ أُمَّةٍ مُشْرِكِي مَكَّةَ. وَتَنْبِيْهِرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. وَإِنذَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا. إلى غير ذلك من أجزاء فروع شجرة موضوع السورة، بأسلوب عجيب تكادُ تَنفَرِدُ به.

التدبر التحليلي:

قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى إِسْحَاقَ مَائِنَةٍ يَنْتَبِئُ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١١٦﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١١٧﴾﴾:

• ﴿إِسْحَاقَ مَائِنَةٍ يَنْتَبِئُ﴾: أي: رَسَعَ آيَاتٍ معجزاتٍ خَارِقَاتٍ لِلنُّظْمِ الكونيةِ الدائمة، ومنها آيتا العصا واليد، وَقَدْ سَبَقَ بيانها مُفَصَّلَةً في مواضع، ومنها ما جاء في تدبر الآية (١٢) مِنْ سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

﴿يَنْتَبِئُ﴾: أي: وَاِضْحَاحٍ جَلِيَّاتٍ، آتَيْنَاهُ إِيَّاهَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ.

• ﴿فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: الَّذِي أَرَاهُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ بِالسُّؤَالِ مُوجَّهٌ بِالْخِطَابِ الْإِفْرَادِيِّ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَعَالَجِينَ فِي السُّورَةِ، وَهُمْ كُتَبَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ إِيَّانَ التَّنْزِيلِ، الَّذِينَ أَلْحُوا عَلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمَطَالِبِهِمُ التَّعَنُّيَّةَ لآيَاتٍ خَارِقَاتٍ تَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وَصِدْقًا، وَمِنْهَا مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الْآيَاتِ مِنْ (٩٠ - ٩٣) مِنَ السُّورَةِ، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِلْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، مَهْمَا آتَى اللهُ رَسُولُهُ مِنْ آيَاتٍ خَوَارِقَ مَادِّيَّةٍ،

وَحَالَهُمُ الْعِنَادِيُّ كَحَالِ فِرْعَوْنَ وَمَلَيْهِ وَجُنُودِهِ، الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالْغَرَقِ، وَهُمْ يُتَابِعُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ دَخَلُوا فِي طَرِيقِ الْبَحْرِ الَّذِي فَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ بِهَذَا السَّوَالِ مُوجَّهًا لِلرَّسُولِ ﷺ.

وَأَمْرُ السَّائِلِ مِنْهُمْ أَنْ يَسْأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى صَلَةٍ بِيَهُودِ الْمَدِينَةِ وَأَخْبَارِهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ أَشَارُوا عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَسْأَلُوا الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ عَنِ الرُّوحِ، كَمَا سَبَقَ بَيَّانُهُ.

والمعنى: وإذا كنت أيها المتعنتُ شاكاً في خبرنا في القرآن عن إيتائنا موسى تسع آياتٍ كبيراتٍ، فكذبَ بها فرعونُ وملأؤه، وتبعَتهُم جُنُودُهُم في التَّكْذِيبِ، فاسألَ بني إسرائيلَ عن هذا النِّبَأِ، فهذا مِنَ الْأُمَثَلَةِ الْوَاقِعِيَّةِ فِي النَّاسِ الَّتِي جَعَلْنَا لَا نَسْتَجِيبُ لِمَطَالِبِ كِبَرَاءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، بِشَأْنِ إِجْرَاءِ آيَاتِ مَادِّيَّاتِ شَاهِدَاتِ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ بِصِدْقِهِ فِي نُبُوتِهِ وَرِسَالَتِهِ، كَمَا سَبَقَ أَنْ قُلْنَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ...﴾ (٥٩)

• ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾: أي: في وقت أن جاء موسى فرعون وقومه بآياتنا التسع النبّيات، أعيد الضمير على ملاحظين ذهنًا غير مذكورين لفظاً، ويدلّ عليهم السياق.

﴿... فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (٦١): الظاهر أن هذا الحوارَ بين فرعون وموسى قد كان في أواخر مسيرة موسى عليه السلام الدّعويّة في مِصر، وبَعْدَ أَنْ أَجْرَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْآيَاتِ التَّسْعَ كُلَّهَا، وَلَمْ يَكُنْ بِاسْتِطَاعَةِ فِرْعَوْنَ أَنْ يَتَّهَمَ مُوسَى بِالْجُنُونِ حِينَئِذٍ، وَلَا أَنْ يَقُولَ لَهُ جَازِمًا: إِنَّكَ مَسْحُورٌ، تَوَثَّرَ عَلَيْكَ أَعْمَالُ السَّحَرَةِ فَتَجَعَلَكَ تَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَاتٍ لَيْسَتْ صَادِرَاتٍ عَنْ إِرَادَتِكَ الْوَاعِيَةِ، إِذْ وَصَلَ فِرْعَوْنُ إِلَى حَالَةِ اسْتِيقَانٍ تَامٍ بِصِدْقِ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَأَنَّهُمَا رَسُولَانِ مِنْ رَبِّ

العالمين، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُسْتَكْبِرًا مُكَابِرًا مُعَانِدًا جَاكِدًا، فَقَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنِّي لَأُظَنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ۝١٠١﴾.

فأجابه موسى عَلَيْهِ السَّلَام دُونَ مُدَارَاةٍ لَهُ بِمَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأُظَنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ۝١٠٢﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُ﴾. وسبق بيان الحكمة من القراءتين، وَأَنَّ بَيْنَهُمَا تَكَامُلًا فِي أَدَاءِ الْمَعْنَى الْمُرَاد.

﴿هَؤُلَاءِ﴾: أي: هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ التُّسْع.

﴿بَصَآئِرٍ﴾: جَمْعُ «بَصِيرَةٍ» وَهِيَ هُنَا الْحِجَّةُ وَالْبُرْهَان.

﴿مَثْبُورًا﴾: أي: هَالِكًا بِعُقُوبَةٍ مِنَ اللَّهِ لَكَ. يُقَالُ لُغَةً: «ثَبَرَ فَلَانٌ، يَثْبُرُ، ثَبْرًا، وَثُبُورًا» أَي: هَلَكَ. وَيُقَالُ: «ثَبَرَهُ اللَّهُ» أَي: أَهْلَكَهُ.

المعنى: أَوَكُذِّدُكَ يَا فِرْعَوْنُ أَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ كَمَا أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ التُّسْعِ الَّتِي جَرَتْ فِي مَضَرِّ خِلَالِ سِنِينَ، مَا أَنزَلَهَا إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، لَتَكُونِ حُجَجًا وَبَرَاهِينٍ عَلَى أَنِّي وَأَخِي هَارُونُ رَسُولَانِ مَبْعُوثَانِ إِلَيْكُمْ، فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهَا جُحُودًا وَاسْتِكْبَارًا.

وَوَاقِعُكُمْ هَذَا يَسْمَحُ لِي بِأَنْ أَظُنَّ ظَنًّا رَاجِحًا قَوِيًّا، بِأَنَّكَ يَا فِرْعَوْنُ هَالِكٌ عُقُوبَةً رَبَّانِيَّةً لَكَ، وَتَحْقِيقًا لِسُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، مَا لَمْ تَتَذَكَّرْ نَفْسَكَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِعَمَلٍ صَالِحٍ يُثَبِّتُ صِحَّةَ إِيْمَانِكَ وَإِسْلَامِكَ.

لَكِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ أَصْرُوا عَلَى عِبَادِهِمْ وَكُفِّرِهِمْ، وَلَجَّوْا إِلَى اتِّخَاذِ تَذْبِيرَاتٍ يُخْرِجُونَ بِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِنْ مَكَانٍ تَجْمَعُ فِيهِمْ، وَهِيَ أَرْضُ جَاسَانَ، وَكَانَتْ أَرْضًا خِضْبَةً جَيِّدَةً، أَنزَلَهُمْ فِيهَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَام، حِينَ

قَدِمُوا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَيُوزَعُونَهُمْ مُفَرَّقِينَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، حَتَّى لَا تَكُونَ لَهُمْ قِيَادَةٌ تَجْمَعُهُمْ، وَلَا أَرْضٌ وَاحِدَةٌ تَجْعَلُ مِنْهُمْ وَاحِدَةً مُمْسِكَةً. وَقَبْلَ تَنْفِيزِ هَذِهِ الْمَكِيدَةِ، أَمَرَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ لَيْلًا فِي اتِّجَاهِ سِينَاءَ، دُونَ أَنْ يُشْعِرُوا الْمِصْرِيِّينَ بِخُرُوجِهِمْ، وَلَمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ وَمَلَأُوهُ بِالْأَمْرِ دَبَّرُوا خُطَّةَ اللَّحَاقِ بِهِمْ بِجَيْشٍ مَقَاتِلٍ، فَكَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ إِغْرَاقًا فِي مَكَانٍ غُوبِرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْبَحْرِ.

وفي تَعْيِيرٍ مُوجِزٍ عَنْ هَذَا الْحَدَثِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذَا الدَّرْسِ:

﴿فَارَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ١٠٢﴾:

﴿فَارَادَ﴾: أَي: فِرْعَوْنُ، وَيُلْحَقُ بِهِ مَلَأُوهُ وَرِجَالُ مَشُورَتِهِ.

﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾: أَي: أَنْ يَسْتَخْرِجَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي يَسْكُنُونَهَا، وَيُوزَعُهُمْ فِي شَتَّى أَرْضِ مِصْرَ، وَيَسْتَخَفُّهُمْ بِالْمَزْعَجَاتِ وَالْمَخِيفَاتِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ أَرْضِ جَاسَانَ الَّتِي يَسْكُنُونَهَا وَيَتَوَزَّعُوا فِي شَتَّى أَرْضِ مِصْرَ أَذِلَّاءَ مُهَانِينَ.

وَلَا أَرَى أَنْ فِرْعَوْنَ قَدْ أَرَادَ إِخْرَاجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ كُلِّهَا، لِأَنَّ هَذَا أَحَدُ مَطَالِبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ فِرْعَوْنَ، إِلَّا أَنْ فِرْعَوْنَ كَانَ يَرْفُضُهَا دَوَامًا، لِئَلَّا يَحْرَمَ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ عِبِيدِ أَذِلَّاءَ مُضْطَهِّدِينَ، وَالْأَخْطَرُ مِنْ هَذَا تَخَوُّفُهُ مِنْ تَكْوِينِ جَيْشٍ خَارِجٍ مِصْرَ، ثُمَّ عَوْدَتِهِمْ مُقَاتِلِينَ أَشِدَّاءَ، لِيَسْتَرْعُوا مُلْكَ مِصْرَ مِنَ الْأُسْرَةِ الْحَاكِمَةِ وَأَنْصَارِهَا وَجُنُودِهَا.

﴿... فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ١٠٣﴾: أَي: فَكَانَتْ عَاقِبَةُ فِرْعَوْنَ وَمَنْ

خَرَجَ مَعَهُ لِيُقَاتِلُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيُعِيدُوهُمْ إِلَى الدُّلِّ وَالتَّسْخِيرِ وَالْإِسْتِعْبَادِ، أَنَّ اللَّهَ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ أَغْرَقَهُمْ جَمِيعًا.

وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُ هَذَا الْحَدَثِ، لَدَى تَدْبِيرِ لَقَطَاتِ سَابِقَاتِ فِي نُجُومِ

التَّنْزِيلِ، مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ وَجُنُودِهِ.

قول الله عز وجل:

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ائْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٠٤﴾

الذي ظهر لي من جمع النصوص القرآنية المتعلقة ببني إسرائيل، وتدبرها تدبراً تكاملياً، أن هذه الآية تدل على قدر الله وقضائه في بني إسرائيل إبان أواخر وجودهم الماضي في فلسطين وجوداً مفترناً بإفساد وغلو فيها، وقبيل حكم الرومان لها، إذ دخلت تحت سلطان الرومانيين سنة (٤٠) ق.م كما سبق بيانه في الدرس الثاني من دروس السورة.

والقول الرباني الذي جاء في هذه الآية أمرٌ قدرى قضائي بتشتيت بني إسرائيل في بلدان الأرض كلها شرقها وغربها، وإخراجهم إلا قليلاً منهم من أرض فلسطين، كما سبق أن أوضحته لدى تدبر الآيتين (٤) و(٥) من هذه السورة.

• ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ائْكُنُوا الْأَرْضَ﴾:

أي: وقُلْنَا مِنْ بَعْدِ مُوسَى وَآثَارِ دَعْوَتِهِ الَّتِي امْتَدَّتْ حَتَّى قُبِيلَ بَعْنَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام، بأمرٍ قدرى قضائي مُشْتَتٍ لبني إسرائيل، ائْكُنُوا الْأَرْضَ مُشْتَتِينَ فِيهَا خَارِجَ أَرْضِ فِلَسْطِينَ، الَّتِي ائْكُنَّاكُمْ فِيهَا لِتُقِيمُوا الدِّينَ، فَعَلَوْثُمْ مُسْتَكْبِرِينَ وَمُفْسِدِينَ، وَكُنْتُمْ فِي الدِّينِ مِثَالاً سَيِّئاً لِلتَّخْرِيفِ وَالْفَسْقِ وَالْفُجُورِ، وَالْبَغْيِ وَالطَّغْيَانِ، وَالظُّلْمِ وَابْتِغَاءِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَازْتِكَابِ الشُّرُورِ بَعْرُورِ.

• ﴿... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٠٤﴾:

أي: فإذا جاء وَعْدُ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ الَّتِي قُلْنَا لَكُمْ فِيهَا: ﴿لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ١٠٤﴾ جِئْنَا بِكُمْ مِنْ أَشْنَاتِ الْأَرْضِ إِلَى فِلَسْطِينَ لَفِيفًا، لَتَنَالُوا عُقُوبَةَ رَبِّكُمْ فِي فِلَسْطِينَ، بِأَيْدِي عِبَادِ لَنَا مُؤْمِنِينَ

مُسْلِمِينَ، يَسْوَوُونَ وُجُوهَكُمْ، وَيُحَاطَمُونَ مَا عَلَوْهُ مِنْ مُنْشَاتِكُمْ تَخْطِئًا،
كَمَا قُلْنَا لَكُمْ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأَ مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (٧):

﴿لَفَيْفًا﴾: اللَّفِيفُ: مَا اجْتَمَعَ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَخْلَاطٍ شَتَّى، وَمِنْ
قِبَائِلَ شَتَّى.

وظاهرٌ أنَّ اجتماعَ اليهود في هذا العَصْرِ في فِلَسْطِينَ مِنَ الشَّرْقِ
والغَرْبِ، وَمِنْ كُلِّ بِلَادِ الشَّتَاتِ، تَحْقِيقُ لِلْوَعْدِ الرَّبَّانِيِّ بِأَنْ يَأْتِيَ بِهِمْ لَفِيفًا،
لِيَلْقُوا مَصِيرَهُمُ الْمُحْتَمُومَ، وَلَمْ يَجْتَمِعُوا مِثْلَ هَذَا الْاجْتِمَاعِ قَبْلَهُ فِي
تَارِيخِهِمْ.

وبهذا تَمَّ تَدْبِيرُ الدَّرْسِ الْعِشْرِينَ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الإسراء)
والحمد لله عَلَى مَدَدِهِ وَمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.



(٢٥)

التدبر التحليلي للدرس الحادي والعشرين من دروس سورة (الإسراء)
الآيات من (١٠٥-١١١) آخر السورة

قال الله عز وجل:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠٥) وَقَدْ آتَيْنَاكَ فَرْقَتَهُ
لِنَقْرَأُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيرًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ
أُوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ
كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ
أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا
تَخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾:

القراءات:

١١٠ - • قرأ عاصم، وحمزة: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ بِكَسْرِ اللام من «قُلْ» وكسر الواو من «أَوْ» في الوصل.
 وقرأها يعقوب، بكسر اللام من «قُلْ» وَضَمَّ الواو من «أَوْ» وصلًا
 وقرأها باقي القراء العشرة بضمهما وصلًا.
 وهي وجوه عربية في النطق.

تمهيد:

في هذا الدرس متابعه حديث عن القرآن، وتعليم للرَسُول ﷺ ما يقوله للمشركين المعاندين المكابرين الجاحدين.
 وفيه ثناء على الذين يؤمنون بالقرآن وبالرَسُول من أهل الكتاب.
 وفيه توجيه للدعاء بأسماء الله وصفاته.
 وفيه توجيه لأدب مقدار رفع الصوت في الصلاة.
 وختمت السورة بقول الله عز وجل خطاباً لِرَسُولِهِ فَلَكَ مُسْلِمٌ.
 ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرًا ۖ تَكْبِيرًا﴾.

التدبر التحليلي:

قول الله عز وجل:

• ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكَّةٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾:

هاتان الآيتان مؤصلتان بما جاء في السورة بشأن القرآن، وبشأن الرَسُول ﷺ.

فَمِنْ تَمَمَّاتِ الْحَدِيثِ عَنِ الْقُرْآنِ بَيَانُ قَضِيَّتَيْنِ:

القضية الأولى: أَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ حَقٌّ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ، وَمُطَابِقٌ لِمَا شَرَعَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فِي الدِّينِ الْخَاتِمِ لِرِسَالَاتِهِ لِلنَّاسِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا وَيَتَّبِعُوا مَا جَاءَ فِيهَا.

فَقَدْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنْ لَدُنْهُ مُتَّصِفًا بِالْحَقِّ، فَلَا شَيْءَ فِيهِ مُخَالَفٌ لِلْحَقِّ، وَحَمَلَهُ أَمِينُ الْوَحْيِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَلَّغَهُ الرَّسُولُ مُحَمَّدًا ﷺ كَمَا تَلَقَّاهُ عَنْ رَبِّهِ، حَرْفًا بِحَرْفٍ، وَكَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، وَآيَةً بِآيَةٍ، فَتَزَلَّ مُتَّصِفًا بِالْحَقِّ وَوَصَلَ إِلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُتَّصِفًا بِالْحَقِّ، وَهَذَا مِنَ الْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَةِ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا، إِذْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدَ الْبَاحِثُونَ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا بَيْنَ بَيِّنَاتِهِ وَبَيْنَ الْحَقِّ.

دَلَّ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾: أَعِيدَ الضَّمِيرُ عَلَى الْقُرْآنِ مَعَ وَجُودِ فَاصِلٍ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْآيَةِ (٨٨) الَّتِي جَاءَ فِيهَا ذِكْرُ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ الْفِعْلَ فِي أَنْزَلْنَاهُ مَعَ دَلَالَةٍ كَوْنِ الْإِنْزَالِ بِالْحَقِّ، يَدُلُّ بوضوحٍ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْقُرْآنَ.

القضية الثانية: جَاءَ فِيهَا بَيَانُ غُنْصُرٍ مِنْ عُنَاصِرِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي إِنْزَالِ الْقُرْآنِ نُجُومًا مُفَرَّقَةً، وَعَدَمَ إِنْزَالِهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي وَفْتٍ وَاحِدَةٍ.

وَجَاءَ هَذَا الْبَيَانُ تَفْصِيلًا لِعُنْصُرٍ ذَكَرَ مُجْمَلًا فِي سُورَةِ (الفرقان/ ٤٢ نزول) إجابةً عَلَى اعْتِرَاضِ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى إِنْزَالِ الْقُرْآنِ مُفَرَّقًا، وَعَدَمَ إِنْزَالِهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَقَدْ جَاءَ فِيهَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خُطَابًا لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۖ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣):

هَاتَانِ الْآيَتَانِ اشْتَمَلَتَا عَلَى بَيَانِ حِكْمِ ثَلَاثٍ لِتَنْزِيلِ الْقُرْآنِ مُفَرَّقًا،

سَبَقَ تَدَبُّرُهَا وَشَرْحُهَا لَدَى تَدَبُّرِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ، إِلَّا أَنْ عِبَارَةَ: ﴿وَرَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ قَدْ جَاءَتْ فِيهِمَا مُجْمَلَةً غَيْرَ مُفَصَّلَةٍ.

وعلى وفقٍ مِنْهُجِ الْقُرْآنِ فِي تَوْزِيعِ بَيَانَاتِهِ نُلَاحِظُ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الإسراء) الجاري تَدَبُّرُهَا خَطَاباً لِلرَّسُولِ:

﴿وَقَدْ أَنَا فَرَقْتَهُ لِنَقْرَأُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَرَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (١٦٦):

﴿فَرَقْتَهُ﴾: أي: جَرَّأْنَاهُ، وَفَصَّلْنَاهُ، وَبَيَّنَّاهُ، أَضَلُّ مَعْنَى الْفَرْقِ الْفَضْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوْ الْأَشْيَاءِ، وَتَمْيِيزُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، وَأَوْضَحُ صُورٍ هَذَا الْفَضْلُ وَالتَّمْيِيزُ أَنْ يُنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى مَرَاكِحَ زَمْنِيَّةٍ مُتَفَاصِلَةٍ مُتَبَاعِدَةٍ.

﴿عَلَى مُكْثٍ﴾: أي: عَلَى تَمَهُّلٍ، وَتَوَقُّفٍ وَانْتِظَارٍ، رَيْئَمًا تَنْبُتُ مَعْرِفَةُ الْقِسْمِ الْمُنْزَلِ.

يُقَالُ لُغَةً: «مَكَثَ بِالْمَكَانِ يَمُكُّثُ، مُكْثًا، وَمُكْثَوًا» أي: تَوَقَّفَ وَانْتَظَرَ.

﴿وَرَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾: أي: وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا بِأَنَاءٍ وَتَمَهُّلٍ وَتَحْقِيقٍ مَعَ كُلِّ قِسْمٍ يُنْزَلُ مِنْهُ، فَالتَّوَكُّيدُ بِالْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ لِلإِشَارَةِ إِلَى نَوْعِ التَّنْزِيلِ، وَهُوَ التَّنْزِيلُ بِأَنَاءٍ وَتَمَهُّلٍ.

وَمِنْ تَتِمَّاتِ الْحَدِيثِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، جَاءَتْ عِبَارَةٌ: ﴿... وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٦٥).

هذه العبارة جَاءَتْ تَوْكِيداً مُطَابِقاً لِمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ (٥٦) مِنْ سُورَةِ (الْفُرْقَانِ/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وَأُعِيدَ هُنَا مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُهُ فِي تَدَبُّرِ سُورَةِ (الفرقان) فَأَقُولُ:

فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ حَضَرَ لِإِرْسَالِ الرَّسُولِ ﷺ بِالتَّبَشِيرِ وَالْإِنْذَارِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ التَّبَشِيرُ وَالْإِنْذَارُ إِنَّمَا يَكُونَانِ بَعْدَ سِلْسِلَةِ أَعْمَالٍ يَقُومُ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ،

يَرُزُّ مِنْهَا التَّبْلِغُ والتعليم والإقناع وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى، وَاتَّخَاذُ كُلِّ الْوَسَائِلِ الَّتِي يُرْجَى بِهَا اسْتِجَابَةُ الْمَدْعُوتِينَ عَنْ طَرِيقِ اخْتِيَارِهِمُ الْحَرَّ، فَإِنَّ حَلَقَاتِ هَذِهِ السُّلْسِلَةِ السَّابِقَةَ لِلتَّبْشِيرِ وَالْإِنْذَارِ دَاخِلَةٌ فِي الْمَحْضُورِ بِأَدَاةِ الْحَضَرِ «مَا» وَ«إِلَّا».

وَقَدْ دَعَا إِلَى إِعَادَةِ هَذَا الْبَيَانِ الَّذِي سَبَقَ إِنْزَالُهُ فِي سُورَةِ (الْفُرْقَانِ/ ٤٢ نزول) لِأَنَّ الْمَعَاجِينَ فِي السُّورَةِ مَا زَالُوا عِنْدَ مَوْقِفِهِمُ السَّابِقِ، فَالْمُنَاسِبُ لِعِنَادِهِمْ بَيَانُ أَنَّهُمْ لَا يَلِيقُ بِهِمْ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ إِلَّا الْإِنْذَارُ بِعَذَابِ اللَّهِ، وَإِنْزَالُ نِقْمَتِهِ فِيهِمْ، وَلَا سِيَمَا قَوْلَهُمُ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي السُّورَةِ، إِذْ قَالُوا لِلرَّسُولِ: لَا نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا.

قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ مُعَلِّمًا بَعْضَ مَا يَقُولُهُ لَهُمْ:

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾﴾.

أَي: قُلْ لَهُؤُلَاءِ الْمَعَاجِينَ، وَهُمْ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ الْعِنَادِيِّ الْجُحُودِيِّ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، آمَنُوا بِالْقُرْآنِ أَوْ اكْفُرُوا بِهِ، أَنْتُمْ بِالْخِيَارِ، إِنَّ إِيْمَانَكُمْ لَا يَنْفَعُ رَبَّكُمْ شَيْئًا، وَإِنْ كُفْرُكُمْ لَا يَضُرُّ رَبَّكُمْ شَيْئًا، بَلْ إِيْمَانُكُمْ يَنْفَعُكُمْ أَنْتُمْ، وَكُفْرُكُمْ يَضُرُّكُمْ أَنْتُمْ، وَمِنْ الْخَيْرِ لَكُمْ أَنْ تَسْقُوا غَيْرَكُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ، إِذْ اخْتَارَ اللَّهُ الرَّسُولَ الْخَاتِمَ الْمُبَشِّرَ بِهِ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْكُمْ عَرَبِيًّا قُرْشِيًّا.

وَاعْلَمُوا أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بِقَضَايَا الدِّينِ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَجَاءَتْ فِي كُتُبِهِمُ الْمُبَشِّرَاتُ بِأَخْبَارِ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ، وَبِصِفَاتِهِ الْمُنْتَظَمَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ، سَيُؤْمِنُونَ بِهِ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ

يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ تَنْزَرَهُ رَبَّنَا عَنْ الْإِخْلَافِ فِيمَا وَعَدَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيَّ رَسُولِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَقَدْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا بِبِعْتَةِ الرَّسُولِ الْمُخْلِصِ الْخَاتِمِ مَفْعُولًا حَقًّا، بِإِزْسَالِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَيْهِ، وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَتَكُونُونَ وَزَادَهُمُ الْقُرْآنُ خُشُوعًا.

وهذا إخبارٌ قُرْآنِيٌّ عَنْ مُسْتَقْبَلٍ قَدْ تَحَقَّقَ فِيمَا بَعْدَ، وَرُبَّمَا عَنْ وَاقِعٍ حَصَلَ فِي الْحَبَشَةِ، حِينَ سَمِعَ بَعْضُ قَسَاوِسَةِ النَّصَارَى وَرَهْبَانِهِمُ الْقُرْآنَ مِنْ بَعْضِ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا، وَمَا زَالَ يَتَحَقَّقُ وَلَنْ يَزَالَ.

وَمِنَ الَّذِينَ تَحَقَّقَ فِيهِمْ هَذَا الْوَصْفُ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) وَهُمْ مِنَ النَّصَارَى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنْتَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وَلَا أَرَى حَاجَةً إِلَى ذِكْرِ رَوَايَاتٍ عَنْ أَشْخَاصٍ بِأَعْيَانِهِمْ، لَمْ تَأْتِ بِأَسَانِيدٍ صَحِيحَةٍ، فَالَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَتَحَقَّقَ فِيهِمُ الْوَصْفُ الْقُرْآنِيُّ، عَبَّرَ التَّارِيخُ كَثِيرُونَ جَدًّا، وَلَا يَزَالُ يَتَوَافَدُ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَثِيرُونَ، وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا، وَيَقُولُونَ: سُبْحَانَ رَبَّنَا لَقَدْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا مَفْعُولًا، وَهُمْ يَتَكُونُونَ وَيَزِيدُهُمُ الْقُرْآنُ إِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ خُشُوعًا.

• ﴿يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾: ذَكَرَ الْمَفْسَّرُونَ أَنَّ «الْأَم» فِي ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾

هِيَ بِمَعْنَى «عَلَى». وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّهُ لَا دَاعِيَ لِإِخْرَاجِ الْأَمِّ هُنَا عَنْ مَعْنَى انْتِهَاءِ الْعَايَةِ، فَالْخُرُورُ تَكُونُ نَهَائِيَّتُهُ وَقُوعًا عَلَى مَكَانِ السُّجُودِ لَا عَلَى الْأَذْقَانِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ انْتِهَاءُ الْخُرُورِ عِنْدَ وُضُوعِ الْأَذْقَانِ لِمَكَانِ السُّجُودِ.

الْأَذْقَانِ: جمع مفردُهُ: «الذَّقَن» وهو مجْتَمَعُ اللَّحْيَيْنِ من أسفلهما .
سُجَّدًا: جمع «سَاجِدٍ» وغاية السُّجُود يَكُونُ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ عَلَى مَكَانِ السُّجُودِ مِنَ الْأَرْضِ .

• ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ﴿١٠٨﴾ :

أي: وَيَقُولُونَ: تَنَزَّهَ رَبُّنَا عَنِ إِخْلَافِ وَعْدِهِ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي كُتُبِنَا، بِشَأْنِ الرُّسُولِ الْخَاتَمِ، فَقَدْ تَحَقَّقَ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَبِإِنزَالِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَيْهِ .

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ﴿١٠٩﴾ :

الْخُشُوعُ: الخضوع، والسُّكُونُ، والخوف .

أي: وَإِذَا ثَلِيَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سَاجِدِينَ يَبْكُونَ تَأَثُّرًا بِتَذَلُّلِهِمْ لِرَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ، وَسُرُورًا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُمْ، إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَيَزِيدُهُمُ الْقُرْآنُ خُضُوعًا، وَسُكُونًا، وَخَشْيَةً مِنَ اللَّهِ رَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَ سُلْطَانُهُ، وَطُمَأْنِينَةً لِرُؤُوسِهِ الْكَرِيمِ بِجَنَاتِ النِّعَمِ .
 قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا

يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ يَهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١١٠﴾ :

جَاءَ فِي الْآيَةِ (١١) قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ .

وَجَاءَ فِي الْآيَتَيْنِ (٥٦) وَ(٥٧) بَيَانٌ أَنَّ دُعَاءَ الْمُشْرِكِينَ إِلَهَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، دُعَاءٌ ضَائِعٌ لَا يُجِدِي شَيْئًا، أَمَّا الَّذِينَ يَنْفَعُهُمُ الدُّعَاءُ، فَهُمْ الَّذِينَ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَتَّبِعُونَ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ .

فَكَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ فِي أَوَاخِرِ السُّورَةِ بَيَانُ أَنَّ الدُّعَاءَ يَكُونُ بِاسْمِهِ «اللَّهُ» وَيَكُونُ بِاسْمِهِ «الرَّحْمَنُ» وَيَكُونُ بِأَيِّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى .

وَجَاءَ تَخْصِيصُ اسْمِ اللَّهِ «الرَّحْمَنُ» لِأَنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ كَانُوا يُنْكِرُونَ أَنَّ
يَكُونُ هَذَا الْاسْمُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، إِذْ هُمْ يُنْكِرُونَ اتِّصَافَ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ بِالرَّحْمَةِ، وَسَبَقَ بَيَانُ هَذَا بِتَفْصِيلٍ لَدَى تَدْبِيرِ الْآيَةِ (٦٠) مِنْ سُورَةِ
(الفرقان/ ٤٢ نزول).

وَرَوَى مَكْحُولٌ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمَشْرِكِينَ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ
فِي سُجُودِهِ: «يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمٌ» فَقَالَ: إِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَدْعُو وَاحِدًا، وَهُوَ
يَدْعُو اثْنَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا
فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾ (١١٠) .

وَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ^(١).

﴿أَيًّا مَا﴾: «أَيًّا» اسْمُ شَرْطٍ مُبْنِيٌّ يَجْزِمُ فَعْلَيْنِ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ
الشَّرْطِ فِي: ﴿تَدْعُوا﴾ و﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الْفَاءُ وَاقِعَةٌ فِي صَدْرِ الْجُمْلَةِ
الَّتِي هِيَ جَوَابُ. «مَا» مُقْتَرَنَةٌ بِلَفْظِ «أَيٍّ» لَتَوْكِيدِ الْإِبْهَامِ فِيهَا.

وَالْمَعْنَى: أَيًّا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَالرَّحْمَنِ وَكَذَا سَائِرُ أَسْمَاءِ اللَّهِ يُطْلَبُ
الدُّعَاءُ بِهِ، فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، فَادْعُوهُ بِهَا، وَالْمَدْعُوُّ بِهَا وَاحِدٌ، سِوَاهُ
أُذْكِرُ الْاسْمَ مِنْهَا وَحْدَهُ، أَمْ ذُكِرَ مَعَهُ غَيْرُهُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكُلُّهَا
حُسْنَى، لِمَا تَتَّصِفُ مِنْ وَصْفِ اللَّهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ
وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ.

وَبِمُنَاسَبَةِ فَرَضِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ، كَمَا
هُوَ الْمَفْهُومُ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى فِي السُّورَةِ مَعَ مَا وَرَدَ فِي السُّنَنِ عَنْ
الْمَعْرَاجِ، وَبِمُنَاسَبَةِ مَا جَاءَ فِي الْآيَتَيْنِ (٧٨ وَ ٧٩) مِنْ إِشَارَةِ إِلَى الصَّلَوَاتِ
الْخَمْسِ الْمَفْرُوضَةِ، وَإِلَى أَوْقَاتِهَا، وَأَمْرٍ لِلرُّسُولِ بِالْتَّهَجُّدِ مِنَ اللَّيْلِ، كَانَ
مِنَ الْمُنَاسِبِ تَوْجِيهِ التَّعْلِيمِ إِلَى الْأَدَبِ فِي نِسْبَةِ ارْتِفَاعِ الصَّوْتِ وَانْخِفَاضِهِ،

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: رَوَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ.

عند تلاوة القرآن في الصلاة، وعند الذكر والدعاء فيها، فجاء في هذه الآية قول الله عز وجل لرسوله فليكل مسلم يصلي:

• ﴿... وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝﴾ .

• ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾: أي: وَلَا تَرْفَعُ صَوْتَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِكَ الْقُرْآنِ فِي صَلَاتِكَ، وَعِنْدَ نَظْمِكَ بِالْأَذْكَارِ وَالْأَدْعِيَةِ فِيهَا.

يُقَالُ لُغَةً: «جَهَرَ بِالْكَلَامِ وَنَحْوِهِ، يَجْهَرُ، جَهْرًا، وَجَهَارًا» أي: أَعْلَنَهُ، وَيَكُونُ هَذَا بِرَفْعِ الصَّوْتِ.

• ﴿وَلَا تُخَافُتُ بِهَا﴾: أي: وَلَا تَخْفِضُ صَوْتَكَ فِي صَلَاتِكَ إِلَى مُسْتَوَى الْإِسْرَارِ وَالْإِخْفَاءِ.

يقال لغة: «خَفَتِ الصَّوْتُ، يَخْفُتُ، وَيَخْفُتُ، خَفْتًا، وَخُفُوتًا، وَخُفَاتًا» أي: انْخَفَضَ انْخِفَاضًا شَبِيهًا بِالْإِسْرَارِ. ويقال: «خَافَتْ، يُخَافُتُ بِصَوْتِهِ» أي: خَفَّضَهُ وَأَسْرَهُ.

• ﴿... وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝﴾: أي: وَاظْلُبْ بَيْنَ الْجَهْرِ بِالصَّوْتِ فِي الصَّلَاةِ وَبَيْنَ الْمَخَافَةِ فِيهَا طَرِيقًا وَسَطًا بَيْنَهُمَا.

وَيُظْهَرُ أَنَّ هَذَا السَّبِيلَ الْوَسْطَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، هُوَ مَا يُسْمَعُ بِهِ الْمُصَلِّي نَفْسَهُ، وَأُذُنَ الْقَرِيبِ جَدًّا مِنْهُ.

وَيَبْدُو وَلِيَّ أَنَّ هَذَا التَّعْلِيمَ، قَدْ كَانَ فِي مَكَّةَ قَبْلَ التَّشْرِيعِ بِالْجَهْرِ بِالتَّلَاوَةِ فِي الرُّكْعَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ مِنَ الصَّلَوَاتِ الْجَهْرِيَّةِ، وَهِيَ (المغرب والعشاء والفجر وركعتا الجمعة) أَمَّا التَّلَاوَةُ وَالْأَذْكَارُ وَالْأَدْعِيَةُ فِي غَيْرِ التَّلَاوَةِ الَّتِي شُرِعَ الْجَهْرُ بِهَا فِي الصَّلَاةِ فَقَدْ بَقِيَتْ عَلَى أَنَّ الْأَدَبَ فِيهَا أَنْ تَكُونَ وَسَطًا بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمَخَافَةِ.

ولعلَّ ظروف العهد المكي الاجتماعيَّة، كَانَ يُلَاثِمُهَا التَّعْلِيمُ الَّذِي أَبَانَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ (الإسراء).

أَمَّا الذِّكْرُ وَمِنْهُ الدُّعَاءُ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، فَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ الْأَدَبِ فِيهِ،
فِي سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول) بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا خُطَاباً لِلرَّسُولِ ﷺ
فَلِكُلِّ مُسْلِمٍ بِأَسْلُوبِ الْخُطَابِ الْإِفْرَادِي:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي مَوْضِعِهَا مِنْ سُورَةِ (الأعراف).
وَحَتَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سُورَةَ (الإسراء) بِالْأَمْرِ الْمَوْجَّهِ لِلرَّسُولِ ﷺ فَلِكُلِّ
مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ:

• ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ
لَمْ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴿٢٦﴾﴾:

وَرَدَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ آيَةُ الْعَزِّ.

أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«آيَةُ الْعِزِّ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

وَأَبَانَ «مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ» الْحَكَمَةَ مِمَّا جَاءَ مِنْ تَنْزِيلِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، عَلَى مَا رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ، وَأَبْنُ أَبِي حَاتِمٍ، أَنَّهُ قَالَ:
إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالُوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. وَقَالَتِ الْعَرَبُ: لَبَّيْكَ لَا
شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. وَقَالَ الصَّابِثُونَ
وَالْمَجُوسُ: لَوْلَا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ هَذِهِ لَذَلَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

أَقُولُ: هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي حَتَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا سُورَةَ (الإسراء) تَتَضَمَّنُ
الْوَصِيَّةَ بِإِعْلَانِ قَضَايَا مِنْ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، لِتَأْصِيلِهَا، وَرَبْطِ الْفُرُوعِ
الْإِيمَانِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ بِهَا، وَرَدِّ عَقَائِدِ الْكَافِرِينَ الْمَخَالِفَةِ لَهَا.

- ﴿وَقُلْ﴾: أي: وقل يا محمد، ويا كلَّ مؤمنٍ مُسلمٍ.
- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: كلُّ صفاتِ الكمالِ التي يُحمدُ عليها عقلاً غايةَ الحمدِ، هي لله وحده جلَّ جلاله وعَظَمَ سُلْطانه، ولهذا نقولُ في الثناء عليه: الحمد لله.
- ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: أي: لم يُنجِبْ وَلَدًا، لأنَّه مُنَزَّهٌ عَنِ إِنْجَابِ وَلَدٍ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ بِالتَّبَيُّ، لأنَّ هذا يَتَنَافَى مَعَ كَمالِهِ وَعَدَمِ حَاجَتِهِ إِلَى شَيْءٍ، لاسْتِغْنائِهِ بِذاتِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.
- وَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا، وافتَرَوْا عَلَيْهِ فِرْيَةً عَظْمَى.
- ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾: لأنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ فِي الْوُجُودِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ وَصُنْعُهُ وَإِيجاده، وَخَالِقُ الشَّيْءِ مِنَ الْعَدَمِ هُوَ مَالِكُهُ، وَلَا يُشَارِكُهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ.
- وَقَدْ كَذَبَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ.
- ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾: أي: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِالْكَيْفُونَةِ الدائِمَةِ الَّتِي لَا تَتَغَيَّرُ، وَلِيٌّ مَا وَلَا أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُ لِحَاجَةٍ لَدَيْهِ إِلَى نُصْرَتِهِمْ، لِأَنَّهُ عَزِيزٌ بِذَاتِهِ، ذُو قُوَّةٍ غَالِبَةٍ، فَلَا يَحْتَاجُ نَاصِرًا وَلَا مُعِينًا.
- مِنَ الذَّلِيلِ: أي: مِنَ الضَّعْفِ، فَالذُّلُّ فِي اللُّغَةِ الضَّعْفُ.
- أَمَّا أَنْصَارُ اللَّهِ بِمَعْنَى أَنْصَارِ دِينِهِ، وَأَنْصَارِ رَسُولِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ يُنْشِئُونَ بِإِرَادَاتِهِمُ الْحَرَّةَ أَنَّهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِذْ وَضَعَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ نُصْرَةِ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ، وَمِنْ عَنَاصِرِ امْتِحَانِهِمْ مُجَاهَدَتُهُمْ فِي سَبِيلِهِ، وَالْعَمَلُ عَلَى نُصْرَتِهِمْ دِينُهُ وَرَسُولُهُ وَجَمَاعَةُ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾: أي: وأعلن تَعْظِيمَهُ بِعِبَارَاتِ التَّكْبِيرِ الْمَبَالِغِ فِيهَا كثيراً، مثل: الله أَكْبَرُ كَبِيرًا، مع تكرير عبارات التكبير له. تَكْبِيرًا: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ، والتَّنْكِيرُ فيه يرادُّ به بلاغيًا التَّكْثِيرُ، أي: وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا كَثِيرًا جَدًّا.

وبهذا التوجيه للإعلانِ عَنِ عُنَاصِرِ جَلِيلَةٍ مِنْ عُنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، لِرَبْطِ الْفُرُوعِ بِالْأُصُولِ، تَنْتَهِي السُّورَةُ. وهنا يَنْتَهِي تَدْبِيرُ الدَّرْسِ الْآخِرِ مِنْ سُورَةِ (الإسراء). والحمد لله على مَدَدِهِ وَمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.



(٢٦)

مستخرجات بلاغية من سورة (الإسراء)

في هذه السورة بلاغيات كثيرة، وأنتقي في هذا الاستخراج منها ما يقلُّ تَكَرُّرُهُ فِي السُّورِ:

أَوَّلًا:

من استخدام المجاز في السورة ما يلي:

(١) المجاز العقلي: وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، ومنه قول الله عز وجل:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصَرَةً ﴿١٧﴾﴾:

جُعِلَتْ آيَةُ اللَّيْلِ مَمْحُورَةً فِي هَذَا الْإِسْنَادِ، مَعَ أَنَّهَا مَاحِيَةٌ لِلرُّؤْيَةِ.

وهذا من قبيل المجاز العقلي، والعلاقة أَنَّ اللَّيْلَ سَبَبٌ لِمَحْوِ الْأَشْيَاءِ عَنْ رُؤْيَةِ الْأَبْصَارِ لَهَا.

(٢) المجاز المرسل: وهو المجاز الذي لا يكون أساسه التَّشْبِيهِ،

ولا يَكُونُ فِي الْإِسْنَادِ، بل لَهُ عِلَاقَةٌ مِنَ الْعِلَاقَاتِ الَّتِي تُصَحِّحُ التَّجَوُّزَ،
ومنه قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ...﴾ (٨٢)

أي: مَا هُوَ سَبَبُ شِفَاءٍ، أُطْلِقَ السَّبَبُ وَأُرِيدَ بِهِ الْمُسَبَّبُ، والعِلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ.
وَأُطْلِقَ عَلَى الْقُرْآنِ أَنَّهُ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ، لَأَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ
عزَّ وجلَّ لعباده، وهذا أيضاً من المجاز المرسل.

ثانياً:

من الإيجاز بالحذف ما يلي:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا
تَدْمِيرًا﴾ (١١)

أي: أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَمَلَ الصَّالِحِ، فَفَسَقُوا فِيهَا
خَارِجِينَ عَنِ طَاعَتِنَا، وهذا المحذوف يسهل استخراجه فالله لا يأمر بالفسق.

(٢) وقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿... فَلَمَّا بَلَغْنَاكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (١٧)

ضَمَّنَ الْفِعْلُ فِي: ﴿بَلَغْنَاكَ﴾ مَعْنَى الْفِعْلِ فِي «أَوْصَلَكُمْ» فَعُدِّي تَعْدِيَّتُهُ،
فَأَعْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ. حُذِفَ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا شَيْءٌ وَأُثِبْتُ شَيْءٌ،
والمعنى: فلما نجاكم من الهلاك وأوصلكم إلى البر.

(٣) وقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ...﴾ (١٨)

«الفاء» تَغِطُّ عَلَى مَحذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: أَمَلَكْتُمْ بِقُدْرَاتِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ
فَأَمِنْتُمْ أَن يُخْصِفَ اللَّهُ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ.

ثالثاً:

من الكناية، ما يلي:

(١) قول الله عز وجل:

﴿رَبِّكُمْ أَغْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّيْبِ غَفُورًا ۝﴾

دلّت عبارة: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّيْبِ غَفُورًا﴾ بالكناية على أنه يغفر لهم إذا رجعوا إليه بالاستغفار والتوبة، وعلم صدق قلوبهم.

(٢) قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ... ۝﴾

هذا التعبير كناية عن البخل أولاً، وعن التبذير ثانياً.

(٣) قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ۝﴾

في عبارة ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ كناية عن حكمته جلّ جلاله في بسطه الرزق لبعض عباده، وتضييقه على بعضهم، لأنه خير بصير بهم.

رابعاً:

الوصف بالمضدر بدل اسم الفاعل، للدلالة على أن الموصوف قد صار كلّه بمثابة ما دلّ عليه المصدر، ومنه:

قول الله عز وجل:

﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۝﴾

لفظ «هُدًى» مضدر «هَدَاهُ يَهْدِيهِ هُدًى» وقد جاء لفظ «هُدًى» بدل اسم الفاعل، أي: وجعلناه هادياً لبني إسرائيل، للدلالة على أن كل شيء فيه يهدي، فصار كما لو كان كلّه هُدًى.

وهذا لدى التحليل يرجع إلى الاستعارة.

خامساً:

من التشبيه البليغ المكنّي فيه عن المشبه به ببغض لوازمه، قول الله عز وجل:

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٤﴾:

في هذه الآية تشبيه التذلل للوالدين بتذلل الطائر حين يخفض جناحه منكسراً لفراجه أو لزوجه أو لغيرهما، ولكن أضمر التشبيه، فلم يذكر لفظ المشبه به، وإنما كُنِيَ عنه بشيء من صفاته، وهو الجناح، وأضيف هذا المكنّي به إلى المشبه.

وهذا على ما ظهر لي هو من التشبيه البليغ المكنّي فيه عن المشبه به ببغض لوازمه، وليس هو من الاستعارة المكنّية^(١).

سادساً:

من خروج الاستفهام عن أصل دلالته، قول الله عز وجل:

﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيِّنَاتِ...﴾:

الاستفهام هنا استفهام إنكاري تلويحي موجّه لمُدّعي أن الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

سابعاً:

من القصر، قول الله عز وجل:

﴿وَلَا يَمْنَنَّ فِرْيَةُ إِلَّا تَخُنْ مُمْهِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا...﴾:

في هذه الآية قصر إضافي من قصر موصوف على صفة، بحسب مقررات البلاغيين.

(١) انظر: «كتاب البلاغة العربية» للمؤلف، (التشبيه المكنّي).

ثامناً:

ومن بلاغيات السورة الاستقطاع من أحداث الماضي، أو من الأحداث التي سوف تكون في المستقبل، وتقديمها كأنها تحدث عند زمن التكلم، ومنه قول الله عز وجل بياناً لما يُقال للإنسان يوم القيامة:

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ٧٤﴾:

جاءت هذه العبارة مستقطعة دون أن يُصرَّح في البيان أنها تقال له.

تاسعاً:

من الاستعارة ما يلي:

(١) قول الله عز وجل:

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرُ فِي عُنُقِهِ... ١٣﴾:

أُطلقَ لفظ «طائر» في هذه العبارة على ما يكسبه الإنسان في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، على سبيل الاستعارة، لأن العمل ينطلق كالطائر من الإنسان، فلا يستطيع استيعاده، لكنَّ مسؤوليته عن عمله تبقى مُلزمة له.

وأطلق العنق والمراد مناط المسؤولية داخل نفسه، وهذا مجاز مُرسل علاقته اتصال الظاهر بالباطن، واختير العنق لأنَّ الأسير يُوضَع الغلُّ في عنقه لسوقه أو قيادته حتَّى يَنَالَ مَا قُضِيَ عَلَيْهِ به.

(٢) وقول الله عز وجل تعبيراً عن قول إبليس بشأن ذرية آدم يخاطب ربه:

﴿... لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ١٧﴾:

في هذه العبارة استعارة مكنية، إذ شبه إبليس ذرية آدم عليه السلام بالدواب التي تُطَوَّع للركوب والقيادة والسوق، ولم يُصرَّح بلفظ الدواب، بل جاء بشيء من خصائصها يدلُّ عليها، وهو اختناكها لتطويعها.

يُقال لغة: «اِخْتَنَكَ صَاحِبُ الدَّابَّةِ دَابَّتَهُ» أي: وَضَعَ الحَبْلَ أَوْ

اللِّجَامِ فِي حَنَكِهَا لِيُطَوَّعَهَا لِلرُّكُوبِ، والقيادة، والسَّوقِ.

أي: لأَجْعَلَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ كَالدَّوَابِّ الَّتِي تُطَوَّعُ بِوَضْعِ اللَّجْمِ فِي أَحْنَاكِهَا، وَلَأَسِيرَتَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عُصَاةَ لَكَ، وَلَأَنْقَلَنَّهُمْ خُطْوَةَ فَخْطْوَةٍ، حَتَّى أَوْصَلَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لِي مِنْهُمْ إِلَى دَرَكَةِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ الْأَبَدِيَّ الْخَالِدَ فِي الْجَحِيمِ.

(٣) قول الله عز وجل:

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۖ﴾ (٧٦)

أي: وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَافِرًا فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مُحَكَّمٌ عَلَيْهِ بِالْكَفْرِ، وَيَكُونُ فِيهَا أَضَلَّ سَبِيلًا لَا يَجِدُ طَرِيقًا إِلَى نَجَاتِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

اسْتُعِيرَ لَفْظُ «أَعْمَى» لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى «كَافِرٍ» لِلشَّبهِ الْكَبِيرِ بَيْنَ الْأَعْمَى الَّذِي لَا يَعْرِفُ طَرِيقَهُ، وَالْكَافِرِ الضَّالِّ عَنْ سَبِيلِ نَجَاتِهِ وَسَعَادَتِهِ الْأَبَدِيَّةِ.

(٤) قول الله عز وجل خطاباً لرسوله:

﴿وَلَوْلَا أَنْ نُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ﴾ (٧٤) إِذَا

لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ۖ﴾ (٧٥)

اسْتُعِيرَ الْفِعْلُ فِي ﴿لَأَذَقْنَاكَ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَى: لَجْعَلْنَاكَ تُحِسُّ بِأَلَمِ التَّعْذِيبِ.

وَفِي الْآيَةِ (٧٥) حَذَفَ، وَالتقدير: لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ عَذَابِ الْحَيَاةِ، وَضِعْفَ عَذَابِ الْمَمَاتِ.

حُذِفَ لَفْظُ «عَذَابٍ» تَكْرِيمًا لِلرَّسُولِ ﷺ عَنْ أَنْ يَخَاطَبَ بِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرْكُنْ إِلَى مَزَالِ الْكَافِرِينَ الْإِغْرَائِيَّةِ، وَلَمْ يَسْتَحِقَّ هَذَا الْعَذَابَ.

وَأَكْتَفَى بِهَذِهِ الْمُسْتَخْرَجَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ، وَآخِرَ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



خاتمة المجلد التاسع

هذا ما أكرمني به الله - جلَّ جَلَالُهُ وَعُظُمَتْ مِنْهُ - من عطاءٍ في تدبُّرِ سُورِ (النمل - وَالْقَصَص - وَالْإِسْرَاء) الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا هَذَا الْمَجْلَدُ التاسع، مُجْتَهِدًا فِي التَّقْيِيدِ بِالْمَنْهَجِ الَّذِي فَتَحَ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ فِي كِتَاب: «قَوَاعِدُ التَّدْبِيرِ الْأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

فَمَا أَصَبْتُ فِيهِ فَهُوَ مِنْ قَيْضِ مَا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ. وَلَا أَنْسُبُ إِلَى نَفْسِي مِنْهُ شَيْئًا.

وَمَا أَخْطَأْتُ فِيهِ، فَهُوَ مِنِّي، وَمِنْ عَجْزِي، وَنَقْصِ قُدْرَاتِي عَنْ بُلُوغِ الْمَأْمُولِ، مَهْمَا اجْتَهِدْتُ فِي التَّفَكُّرِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالنَّظَرِ فِي حَقَائِقِ الْعُلُومِ وَفِي الْمَعْقُولِ، وَالتَّأَمُّلِ فِيمَا سَبَقَ إِلَى تَدْوِينِهِ الْفُحُولِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى، ذِي الْمَنِّ وَالْكَرَمِ وَالْجُودِ، عَلَى تَوْفِيقِهِ، وَمَدَدِهِ، وَمَعُونَتِهِ، وَفَتْحِهِ الْمُبِينِ.

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَقُرَّةِ عُيُونِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ.

وَسَلَامٌ عَلَى سَائِرِ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ اصْطَفَى.

وَأَخِيرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ كِتَابَةِ هَذَا الْمَجْلَدِ صَبَاحَ يَوْمِ الْأَحَدِ (٢٥) مِنْ شَهْرِ

ربيع الأول لسنة (١٤٢٢ هجرية) الموافق لـ (١٧ من حزيران سنة ٢٠٠١ م) في دار إقامتي بمكة المكرمة، حرسها الله وزادها شرفاً.

ومنذ يومين سافرت زوّجتي «عائدة راغب الجراح الحلاق» مع ولدي منها الدكتور الشيخ «محمد» للعلاج من مَرَضٍ خبيثٍ أصابها، إلى باريس. أسأل الله لها العافية التامة لدنياها وآخرتها، وأن يرُدَّهُمَا سَالِمَيْنِ، غانمين أعمالاً صالحة، وذخائر من رضوان الله عزّ وجلّ.

عبد الرحمن حسن حبّكه الميداني



الفهرس

الموضوع

الصفحة

(٤٨)

سورة النمل

٢٧ مصحف / ٤٨ نزول

٥	مقدمات
٧	(١) نصّ السورة وما فيها من قرش القراءات
١٩	(٢) موضوع سورة (النمل)
٢١	(٣) دروس سورة (النمل)
٢٤	(٤) التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (النمل) الآيات من (١ - ٦) ..
٢٤	- القراءات
٢٥	- تمهيد
٢٦	• ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ ..
٢٩	• ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ ..
٣٢	• ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾ أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴿٥﴾﴾ ...
٣٤	• ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾
٣٦	(٥) التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (النمل) الآيات من (٧ - ١٤) ...
٣٦	- تمهيد
٣٧	• ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾
٣٩	• ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾
٤١	• ﴿وَأَلْتَمِسْ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنهَآ جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَلَمِنَ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿١١﴾﴾

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١١) ٤٤
- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٢) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَفَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٣) .. ٤٥
- (٦) التدبر التحليلي للدروس الثالث من دروس سورة (النمل) الآيات من (١٥) - (٤٤) ٤٨
- القراءات ٥٠
- تمهيد ٥٣
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٥) ٥٤
- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٦) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٧) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٨) ٦٠
- الآيات من (٢٠ - ٢٦) ﴿وَتَقَفَّذَ الطَّيْرَ...﴾ ٧٠
- تمهيد ٧٠
- ﴿وَتَقَفَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْعَائِيْنَ﴾ (٢٠) .. ٧١
- ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٢١) ٧٢
- ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيًا يَقِينٍ﴾ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ (٢٤) ... ٧٣
- ﴿... وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٥) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٦) ٧٥
- تمهيد ٧٥

- ٧٦ التدبر التحليلي
- ٧٨ • الآيات من (٢٧ - ٣٥)
- ٧٩ - تمهيد
- ٧٩ - التدبر التحليلي
- ٧٩ • ﴿قَالَ سَتَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾
- ٨٠ • ﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾
- ٨٠ • ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَتُوتَنِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾
- ٨١ • ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بِأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾
- ٨٤ • ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾
- ٨٥ • ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾
- ٨٦ •
- ٨٩ الآيات من (٣٨ - ٤١)
- ٨٩ - القراءات
- ٨٩ - تمهيد
- ٨٩ - التدبر التحليلي
- ٨٩ • ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾
- ٨٩ • ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾
- ٩٠ • ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴿٤٠﴾﴾
- ٩٠ • ﴿... فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ ﴿٤١﴾﴾
- ٩١ • ﴿قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرَشَهَا نَنْظُرَ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾
- ٩٣ •

- ٩٤ - الآيات من (٤٢ - ٤٤)
- ٩٥ - القراءات
- ٩٥ - تمهيد
- ٩٦ - التدبر التحليلي
- ٩٦ • ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَزَّيْتُمْ...﴾ (٤٢)
- ٩٧ • ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٤٣)
- ٩٨ • ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣) ...
- ﴿قِيلَ لَهَا اادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤)
- ٩٩ (٧) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (النمل) الآيات من (٤٥ - ٥٣)
- ١٠١ (٥٣)
- ١٠١ - القراءات
- ١٠٢ - تمهيد
- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥)
- ١٠٣ • ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٦)
- ١٠٦ • ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٧)
- ١٠٨ • ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) ..
- ١١١ • ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٤٩)
- ١١٢ • ﴿وَمَكْرُوهًا مَكْرَأًا وَمَكْرَئًا مَكْرَأًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥١)
- ١١٣ • ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٢)
- ١١٥ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٣)
- ١١٧ (٨) التدبر التحليلي للدرس الخامس من دروس سورة (النمل) الآيات من (٥٤ - ٥٨)
- ١١٧ - القراءات

- ١١٧ - تمهيد
- ١١٨ - التدبر التحليلي
- ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَتَنْكُمُ لَتَأْتُونَ
- ١١٨ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴿
- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ
- ١٢٠ أَنْاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٥٦﴾
- ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا هَا مِنْ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
- ١٢١ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴿
- ١٢٢ (٩) التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس سورة (النمل) الآيات من (٥٩ - ٧٥)
- ١٢٣ - القراءات
- ١٢٥ - تمهيد
- تدبر الآيات من (٥٩ - ٦٤) وفيها تعلیم الداعي إلى الله مُنَاطَرَةً جَدَلِيَّةً
- ١٢٧ يُنَاطِرُ بِهَا الْمَشْرِكِينَ
- ١٢٧ - مُقَدِّمَةُ تَعْلِيمِ الْمُنَاطَرَةِ الْجَدَلِيَّةِ
- ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَآلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿
- ١٢٩ - الْمَرْحَلَةُ الْأُولَى مِنْ مَرَاكِِلِ الْمُنَاطَرَةِ
- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ
- حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَآلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
- ١٢٩ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴿
- ١٣١ - الْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ مَرَاكِِلِ الْمُنَاطَرَةِ
- ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي
- ١٣١ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ءَآلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴿
- ١٣٦ - الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاكِِلِ الْمُنَاطَرَةِ
- ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ
- ١٣٦ ءَآلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴿
- ١٣٩ - الْمَرْحَلَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ مَرَاكِِلِ الْمُنَاطَرَةِ
- ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
- ١٣٩ رَحْمَتِهِ ءَآلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴿

- ١٤٢ - المرحلة الخامسة من مراحل المناظرة
- ﴿أَمَّنْ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ ١٤٢
- ١٤٦ - التدبر التحليلي للآيات من (٦٥ - ٧٥)
- ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ١٤٦
- ﴿بَلْ إِذَا رَأَى عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ١٤٨
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا إِتْنَا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ ١٥١
- ﴿ثَلَّ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ ... ١٥٣
- ﴿وَلَا تَخْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ١٥٥
- تَرْبِيَةُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ أَنْ لَا يَخْزَنَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مَعَانِدِينَ .
- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ١٦٤
- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ .. ١٦٦
- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ١٦٧
- ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ ١٦٨
- (١٠) التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (النمل) الآيات من (٧٦ - ٩٣) وهو الدرس الأخير منها ١٦٩
- مقدمة ١٦٩
- القراءات ١٧١
- التدبر التحليلي ١٧٢
- ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ ١٧٢
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ ١٧٦
- ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُغْمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ... ١٧٨

- ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ١٨١
- مَا جَاءَ مِنْ صَحِيحٍ فِي السَّنَةِ بِشَأْنِ دَابَّةِ الْأَرْضِ ١٨٣
- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾
حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ١٨٧
- تمهيد ١٨٧
- التدبیر التحليلي ١٨٧
- ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ... ﴿٨٣﴾ ١٨٧
- ﴿... حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا... ﴿٨٤﴾﴾ ١٨٩
- ﴿... قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ... ﴿٨٥﴾ ١٩٠
- ﴿... وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ١٩١
- ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ١٩٢
- ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ
شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ١٩٤
- ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنَعَ اللَّهُ الَّذِي
أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ١٩٧
- لَفْظَاتٌ عِلْمِيَّةٌ عَنِ الذَّرَّةِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ الْكُونِيِّينَ ١٩٨
- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾
وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ ١٩٩
- ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبِلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ
وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا
يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
سَيَرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ٢٠٢
- (١١) الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من سورة (النمل) ٢١٢
- (١٢) الملحق الثاني: تَعَلُّةُ الْمَكْدَبِيِّينَ يَوْمَ الدِّينِ: هي توجيه الاستفهام التَّعَجُّبِيّ ٢٢٦

(١٣) الملحق الثالث: دِرَاسَةُ تَكَامُلِيَّةٍ لِلنُّصُوصِ بِشَأْنِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ

٢٤٥ ثمود

(٤٩)

سورة القصص

٢٨ مصحف / ٤٩ نزول

٣٢١ مقدمات

٣٢٣ (١) نصّ السورة وَمَا فِيهَا مِنْ فِرْشِ الْقِرَاءَاتِ

٣٣٦ (٢) موضوع سورة (القصص/ ٤٩ نزول)

٣٣٧ (٣) دُروس سورة (القصص)

٣٣٩ (٤) التدبّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (القصص) الآيتان (١ و ٢) .

٣٣٩ • ﴿طَسَمَ﴾ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾

٣٤١ (٥) التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (القصص) الآيات من (٣ - ٤٣) ..

٣٤١ - تدبّر الآيتين (٣ و ٤)

٣٤١ - تمهيد

٣٤٢ • ﴿تَنَلُّوا عَلَىٰكَ مِنْ نَبَاٍ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢﴾

• ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ

يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٣﴾

٣٤٥ - تدبّر الآيات من (٥ - ١٣)

٣٤٦ - تمهيد

• ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً

وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٤﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ﴿٥﴾

٣٤٧ • ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا

تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦﴾

٣٥٠ • ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ ﴿٧﴾

٣٥٢ • ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ

نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٨﴾

٣٥٤ • ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَدْعُونِي إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ عَالِمًا بِالْغَيْبِ أَتَدْعُونِي إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ عَالِمًا بِالْغَيْبِ أَتَدْعُونِي إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ عَالِمًا بِالْغَيْبِ

- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ قَارِعًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لِثُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبَهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾ ٣٥٥
- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١١﴾ ... ٣٥٧
- ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ٣٥٨
- ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلَنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ٣٥٩
- تدبر الآيات من (١٤ - ٢٠) ٣٦٠
- تمهيد ٣٦٠
- التدبر التحليلي ٣٦٣
- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ ٣٦٣
- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ ٣٦٥
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ ٣٦٨
- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ ٣٦٨
- ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٨﴾ ٣٦٩
- ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْبَاطَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُضِلِّينَ﴾ ﴿١٩﴾ ٣٧٠
- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ۖ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ٣٧١
- تدبر الآيات من (٢١ - ٢٨) ٣٧٢
- تمهيد ٣٧٣
- التدبر التحليلي ٣٧٣
- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢١﴾ .. ٣٧٣
- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿٢٢﴾ ... ٣٧٤

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ
امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ
إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ٣٧٥
- ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ ٣٧٩
- ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ٣٨٢
- ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي
حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ
شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ٣٨٢
- تَدْبُرُ الْآيَاتِ مِنْ (٢٩ - ٣٥) ٣٨٥
- تمهيد ٣٨٥
- التدبر التحليلي ٣٨٥
- ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ
لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنْ نَارٍ لَعَلَّكُمْ
تَضْطَلُّونَ ﴿٢٨﴾ ٣٨٥
- ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ
الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ ٣٨٩
- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا
مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣٠﴾ أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ
بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ
رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣١﴾ ٣٩٠
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٢﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ
أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٣﴾ ٣٩٤ ...
- ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا
بَأَيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ ﴿٣٤﴾ ٣٩٤
- تَدْبُرُ الْآيَاتِ مِنْ (٣٦ - ٤٣) ٣٩٥

- ٣٩٥ تمهيد
- ٣٩٦ • ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا يَتَّبِعُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ﴾ (٣٦) •
- ٣٩٨ • ﴿... وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٦) •
- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣٧) •
- ٣٩٨ • ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٨) •
- ٤٠٠ • ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩) •
- ٤٠٢ • ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي النَّيْمِ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) •
- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أِثْمَةً يُدْعَوْنَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (٤١) •
- ٤٠٤ • ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ (٤٢) •
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣) •
- ٤٠٧ (٦) التدبر التحليلي للدروس الثالث من دروس سورة (القصص) الآيات من (٤٤ - ٧٠)
- ٤٠٩ تمهيد
- ٤١٠ التدبر التحليلي للآيات من (٤٤ - ٤٧)
- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) •
- ٤١٠ • ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٤٥) •
- ٤١١ • ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) •
- ٤١٢ • ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) •
- ٤١٤ التدبر التحليلي للآيات من (٤٨ - ٥١)
- ٤١٥ القراءات
- ٤١٥ تمهيد
- ٤١٦ تمهيد

- ٤١٦ • ﴿قَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ ﴿٤٨﴾ .
- ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا:
- ٤١٧ إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَكَافِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ .
- ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ
- ٤١٨ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ .
- ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ
- ٤٢٠ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ .
- ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ .
- ٤٢٢ - تدبر الآيات من (٥٢ - ٥٥) .
- ٤٢٣ - تمهيد .
- ٤٢٣ - التدبر التحليلي .
- ٤٢٤ • ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ
- ٤٢٤ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ .
- ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا
- رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا
- ٤٢٤ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ .
- ٤٢٧ - تدبر الآية (٥٦) .
- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
- ٤٢٧ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ .
- ٤٣٠ - تدبر الآيات من (٥٧ - ٥٩) .
- ٤٣٠ - القراءات .
- ٤٣٠ - تمهيد .
- ٤٣١ - التدبر التحليلي .
- ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُخْطَفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ
- حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
- ٤٣١ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ .
- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ
- ٤٣٤ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ .

- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٤٣٦
- تدبر الآيات من (٦٠ - ٧٠) ٤٣٧
- القراءات ٤٣٨
- تمهيد ٤٣٩
- التدبر التحليلي ٤٤١
- ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
وَأَبْقَىٰ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ٤٤١
- ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ
هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ ٤٤٣
- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ
مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُمْ وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ٤٤٣
- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٤٤٧
- ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ٤٤٨
- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ٤٥٠
- ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ٤٥١
- ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ٤٥١
- (٧) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (القصص) الآيات من (٧١ - ٧٥) ٤٥٢
- القراءات ٤٥٣
- التدبر التحليلي ٤٥٣
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ
يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٤٥٣

- ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) ٤٥٦
- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥) ٤٥٦
- (٨) التدبر التحليلي للدروس الخامس من دروس سورة (القصص) الآيات من (٧٦ - ٨٢) ٤٦٢
- القراءات ٤٦٢
- تمهيد ٤٦٣
- مُخْتَارَاتٌ مِنْ قِصَّةِ قَارُونَ عِنْدَ أَهْلِ التَّارِيخِ مَعَ مَفْهُومَاتٍ أُخْرَى ٤٦٣
- التدبر التحليلي ٤٦٧
- ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧) ٤٦٧
- ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨) ٤٧٣
- ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (٨٠) ٤٧٥
- ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٨١) ٤٧٨
- ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَنْفُسِ يَقُولُونَ وَيَكُنَّا اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكُنَّا لَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢) ٤٧٩
- (٩) التدبر التحليلي للدروس السادس من دروس سورة (القصص) الآيتان: (٨٣ و ٨٤) ٤٨٠
- تمهيد ٤٨١

- ٤٨٢ - التدبر التحليلي
- ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) ٤٨٢
- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤) ٤٨٤
- (١٠) التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (القصص) الآيات من (٨٥) - (٨٨) آخر السورة ٤٨٦
- - القراءات ٤٨٦
- - تمهيد ٤٨٧
- - التدبر التحليلي ٤٨٧
- ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادِ قُلِّ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٨٥) ٤٨٧
- ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) ٤٩٠
- ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾ (٨٧) ٤٩١
- شيء هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨) ٤٩١
- (١١) مُلْحَقٌ مُسْتَخْرَجَاتٌ بِلَاغِيَةٍ مِنْ سُورَةِ (القصص) ٤٩٥

(٥٠)

سورة الإسراء

١٧ مصحف / ٥٠ نزول

- (١) نَصُّ السُّورَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ فُرُشِ الْقِرَاءَاتِ ٥٠٥
- (٢) مِمَّا جَاءَ فِي السُّنَّةِ بِشَأْنِ سُورَةِ (الإسراء) ٥٢٠
- (٣) مَوْضُوعُ سُورَةِ (الإسراء) ٥٢١
- (٤) دُرُوسُ سُورَةِ (الإسراء) ٥٢٤
- (٥) التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس سورة (الإسراء) الآية الأولى منها ٥٣٤
- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١) ٥٣٤

- ٥٣٤ تمهيد
- ٥٣٤ التدبر التحليلي
- ٥٣٨ مِنْهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالإسراء والمعراج
- ٥٤١ - السَّنَةُ الَّتِي امْتَرَنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا عَلَى رَسُولِهِ بالإسراء والمعراج
- ٥٤٣ (٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (٢ - ٨) ..
- ٥٤٣ - القراءات
- ٥٤٤ - تمهيد
- ٥٤٦ - التدبر التحليلي
- ٥٤٦ • ﴿وَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَنَحَّضُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ۝٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ٥٤٦
- ٥٤٩ • ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ۝٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ٥٤٩
- ٥٥٦ • ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا... ﴿٧﴾ ٥٥٦
- ٥٥٨ • ﴿... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوُّوْا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ ٥٥٨
- ٥٦١ • ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ ٥٦١
- ٥٦٣ (٧) التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس سورة (الإسراء) الآيات (٩ و ١٠)
- ٥٦٣ - القراءات
- ٥٦٤ - تمهيد
- ٥٦٤ - التدبر التحليلي
- ٥٦٤ • ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾﴾ ٥٦٤
- ٥٦٦ • ﴿... وَيُشْرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١٠﴾﴾ ٥٦٦
- ٥٦٧ • ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١﴾﴾ ٥٦٧
- ٥٦٧ (٨) التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (الإسراء) الآية (١١) ٥٦٧
- ٥٦٧ • ﴿وَيَذُقُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١٢﴾﴾ ٥٦٧

- ٥٦٧ تمهيد
- ٥٦٨ التدبر التحليلي
- ٥٧٢ (٩) التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُرُوس سورة (الإسراء) الآية (١٢) ...
- ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (١٢) ٥٧٢
- ٥٧٢ تمهيد
- ٥٧٣ التدبر التحليلي
- ٥٧٧ (١٠) التدبر التحليلي للدرس السادس من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (١٣ - ١٧)
- ٥٧٧ القراءات
- ٥٧٨ تمهيد
- ٥٧٨ التدبر التحليلي
- ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾ (١٣) ٥٧٩
- ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيباً﴾ (١٤) ٥٨٠
- ﴿مَن اِهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَنْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ (١٥) ٥٨١
- ﴿... وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (١٥) ٥٨٢
- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (١٦) ٥٨٣
- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ (١٧) ٥٨٤
- (١١) التدبر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس سورة (الإسراء) الآيات من (١٨ - ٢١) ٥٨٥
- ٥٨٥ القراءات
- ٥٨٥ تمهيد
- ٥٨٦ التدبر التحليلي
- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاًهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾ (١٨) ٥٨٧

- ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩) ٥٨٨
- ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠) ٥٩٠
- ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١) ٥٩٢
- (١٢) التدبر التحليلي للدرس الثامن من دُرُوسِ سُورَةِ (الإسراء) الآيات من (٢٢ - ٣٩) ٥٩٣
- القراءات ٥٩٤
- تمهيد ٥٩٥
- التدبر التحليلي ٥٩٥
- ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (٢٢) ٥٩٦
- ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣) واخفص لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤) ٥٩٧
- ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ (٢٥) ٦٠٠
- ﴿وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾ (٢٦) ٦٠١
- ﴿... وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ (٢٦) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (٢٧) ٦٠٢
- ﴿وَمَا تُغْرِصَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ (٢٨) ٦٠٤
- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّخْسُورًا﴾ (٢٩) ٦٠٥
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠) ٦٠٧
- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١) ٦٠٨
- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢) ٦١١

- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣) ٦١١
- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ...﴾ (٣٤) .. ٦١٤
- ﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٥) ٦١٦
- ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥) ٦١٧
- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦) ٦١٨
- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) ٦٢١
- ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ (٣٩) ٦٢٣
- (١٣) التدبر التحليلي للدرس التاسع من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (٤٠ - ٦٠) ٦٢٥
- القراءات ٦٢٦
- تمهيد ٦٢٨
- التدبر التحليلي ٦٢٨
- يُقَسِّمُ هذا الدرس إلى (٧) فصول ٦٢٨
- الفصل الأول ٦٢٩
- ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤٠) ٦٢٩
- الفصل الثاني ٦٣٠
- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١) .. ٦٣٠
- الفصل الثالث ٦٣٣
- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤) ٦٣٣

- ٦٣٨ الفصل الرابع الآيات من (٤٥ - ٤٨)
- ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (٤٥) ٦٣٨
- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا...﴾ (٤٦) ٦٤٠
- ﴿... وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (٤٦) ٦٤١
- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٤٧) انظر كيف ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
- فَضَّلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (٤٨) ٦٤٢
- الفصل الخامس الآيات من (٤٩ - ٥٢) ٦٤٥
- ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩) ٦٤٥
- ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ...﴾ (٥١) ٦٤٦
- ﴿... وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٥١) ٦٤٧
- ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥٢) ... ٦٤٧
- الفصل السادس الآيات من (٥٣ - ٥٨) ٦٤٨
- تمهيد ٦٤٨
- التدبیر التحليلي ٦٤٨
- ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (٥٣) ٦٤٨
- ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنَّ يَسَاءَ يُعَذِّبُكُمْ...﴾ (٥٤) ٦٥٢
- ﴿... وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (٥٤) ٦٥٣
- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (٥٥) ٦٥٤
- ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) ٦٥٥
- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (٥٧) ٦٥٦

- ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨) ٦٥٩
- الفصل السابع الآيتان (٥٩ و ٦٠) ٦٦١
- تمهيد ٦٦١
- التدبّر التحليلي ٦٦٢
- ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (٥٩) ٦٦٢
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ...﴾ (٦٠) ٦٦٥
- ﴿... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ...﴾ (٦٠) ٦٦٦
- ﴿... وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (٦١) ٦٦٨
- (١٤) التدبّر التحليلي للدّرس العاشر من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (٦١ - ٦٥) ٦٦٩
- القراءات ٦٦٩
- تمهيد ٦٧٠
- التدبّر التحليلي ٦٧٠
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...﴾ (٦١) ٦٧٠
- ﴿... قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (٦١) ٦٧١
- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتِنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا خَافِيكَ مِنْ دُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٢) ٦٧١
- ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ (٦٣) ٦٧٣
- واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعذهم وما يعذهم الشيطان إلا غروراً (٦٤) ٦٧٣
- (١٥) التدبّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (٦٦ - ٧٠) ٦٨٠
- القراءات ٦٨١
- تمهيد ٦٨١
- التدبّر التحليلي ٦٨٢

- ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٦٦) ٦٨٢
- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧) ٦٨٣
- ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ (٦٨) أم امنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيعرفكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴿٦٩﴾ ٦٨٥
- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠) ٦٨٨
- (١٦) التدبر التحليلي للدروس الثاني عشر من دروس سورة (الإسراء) الآيتان (٧١ و ٧٢) ٦٩٠
- القراءات ٦٩١
- تمهيد ٦٩١
- التدبر التحليلي ٦٩١
- ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم وَلَا يظلمون قتيلا﴾ (٧١) ٦٩١
- ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢) ٦٩٤
- (١٧) التدبر التحليلي للدروس الثالث عشر من دروس سورة (الإسراء) الآيات من (٧٣ - ٧٧) ٦٩٥
- القراءات ٦٩٦
- تمهيد ٦٩٦
- التدبر التحليلي ٦٩٧
- ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ إِلَيْكَ...﴾ (٧٣) ٦٩٧
- ﴿...لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣) ٦٩٨
- ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كَذَبْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٤) ٦٩٨
- ﴿إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٧٥) ٦٩٩
- ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) سته من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستنا تحويلا ﴿٧٧﴾ ٧٠١

- (١٨) تَدْبِيرُ الدُّرُسِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ) الْآيَاتِ مِنْ (٧٨ - ٨١) ... ٧٠٤
- تمهيد ٧٠٤
- التدبِيرُ التحليلي ٧٠٥
- ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) ٧٠٥
- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ (٧٩) ٧٠٨
- ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٨٠) ٧١٠
- ﴿وَقُلْ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١) ٧١٠
- (١٩) التدبِيرُ التحليلي للدُّرُسِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ) الْآيَةِ (٨٢) .. ٧١٢
- ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) ٧١٢
- القراءات ٧١٢
- تمهيد ٧١٢
- التدبِيرُ التحليلي ٧١٢
- (٢٠) التدبِيرُ التحليلي للدُّرُسِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ) الْآيَتَانِ: (٨٣ و ٨٤) ٧١٥
- القراءات ٧١٥
- تمهيد ٧١٦
- التدبِيرُ التحليلي ٧١٦
- ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ (٨٣) ٧١٦
- ﴿... وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُرْسَا﴾ (٨٤) ٧١٧
- ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (٨٥) .. ٧١٧
- (٢١) التدبِيرُ التحليلي للدُّرُسِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ) الْآيَةِ (٨٥) ... ٧١٨
- تمهيد ٧١٨
- التدبِيرُ التحليلي ٧١٩
- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) ٧١٩

(٢٢) التدبر التحليلي للدرس الثامن عشر من دروس سورة (الإسراء) الآيات من

٧٢١ (٨٦ - ٨٩)

٧٢٢ - القراءات

٧٢٢ - تمهيد

٧٢٢ - التدبر التحليلي

٧٢٢ • ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ .

٧٢٣ • ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ .

٧٢٣ • ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا

يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ .

٧٢٤ • ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا

كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ .

(٢٣) التدبر التحليلي للدرس التاسع عشر من دروس سورة (الإسراء) الآيات من

٧٢٦ (٩٠ - ١٠٠)

٧٢٧ - القراءات

٧٢٨ - تمهيد

٧٢٩ - التدبر التحليلي

٧٢٩ • ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ .

٧٢٩ • ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ لِحُلُلِهَا تَفَجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ ..

٧٢٩ • ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِهُ الْمَلَائِكَةُ

قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ .

٧٣٠ • ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ... ﴿٩٣﴾﴾ .

٧٣٠ • ﴿... أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُوقِكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ

قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ .

٧٣١ • ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ

بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ .

٧٣٢ • ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُظْمِئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ

السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٦﴾﴾ .

٧٣٣ • ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ .

٧٣٤

- ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَعَلَهُ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ
وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكماً وَصُماً مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا
خَبَّتْ زِدَانُهُمْ سَعيراً ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا
عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيداً ﴿٩٨﴾﴾ ٧٣٥
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً ﴿٩٩﴾﴾ ٧٣٨
- ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً ﴿١٠٠﴾﴾ ٧٤٠
- (٢٤) التدبیر التحليلي للدرس العشرين من دروس سورة (الإسراء) الآيات من
(١٠١ - ١٠٤) ٧٤١
- القراءات ٧٤٢
- تمهيد ٧٤٢
- التدبیر التحليلي ٧٤٣
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ
قَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا
أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ
مُنْبُوراً ﴿١٠٢﴾﴾ ٧٤٣
- ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً ﴿١٠٣﴾﴾ ٧٤٦
- ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ
جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴿١٠٤﴾﴾ ٧٤٧
- (٢٥) التدبیر التحليلي للدرس الحادي والعشرين من دروس سورة (الإسراء)
الآيات من (١٠٥ - ١١١) آخر السورة ٧٤٨
- القراءات ٧٤٩
- تمهيد ٧٤٩
- التدبیر التحليلي ٧٤٩
- ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿١٠٥﴾ وَفُرَاتَانَا
فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكَبٍّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزْزِلاً ﴿١٠٦﴾﴾ ٧٤٩

- ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٥٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كَانُوا وَعَدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٥٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٥٩﴾﴾ ٧٥٢
- ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٦٠﴾﴾ ٧٥٤
- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١٦١﴾﴾ ٧٥٧
- (٢٦) مُسْتَخْرَجَاتُ بَلَاغِيَّةٍ مِنْ سُورَةِ (الْإِسْرَاءِ) ٧٥٩
- خاتمة المجلد التاسع ٧٦٥
- * الفهرس ٧٦٧